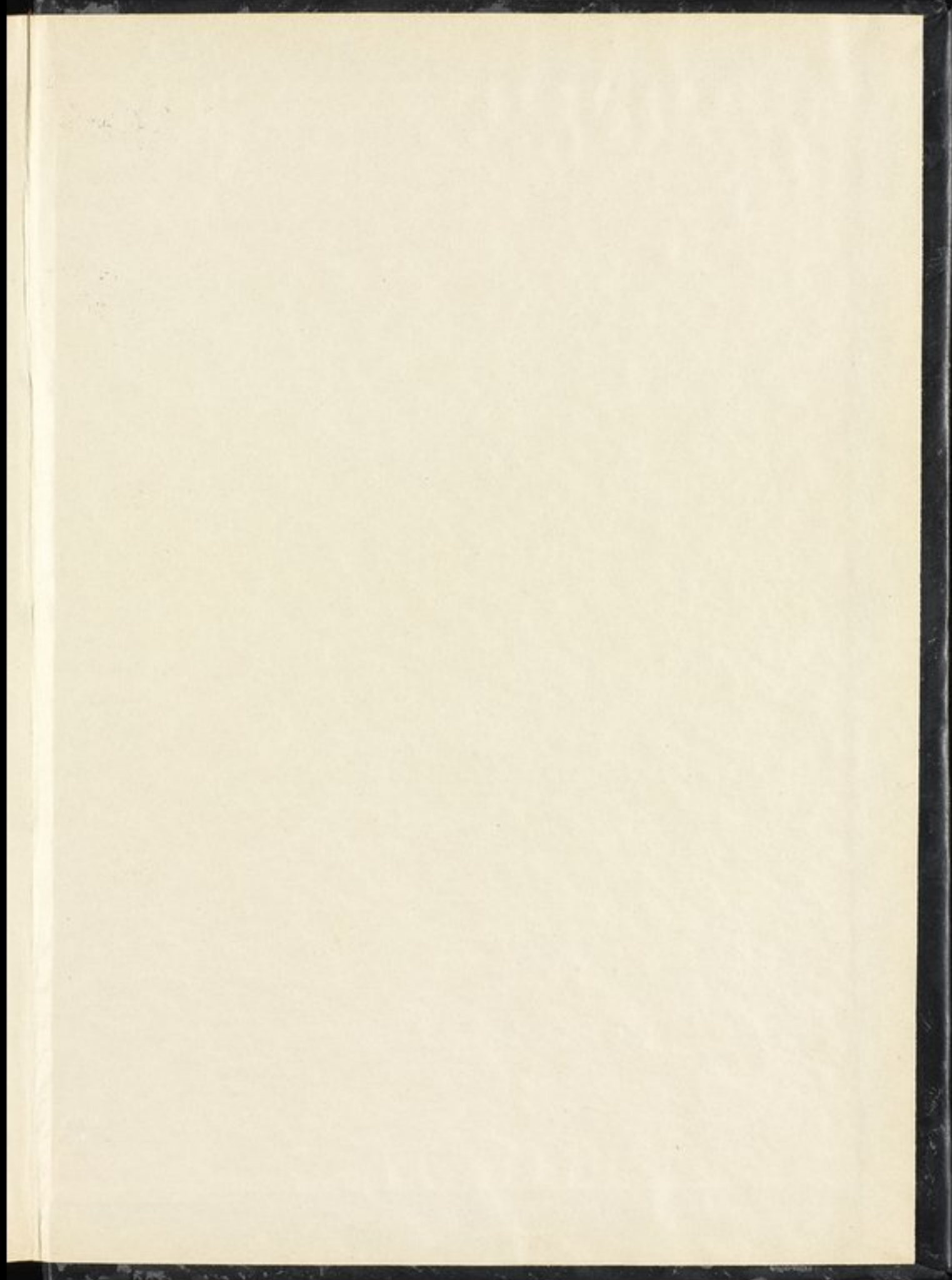


الحيات
في تفسير
القرآن الكريم

٢٠-١٩

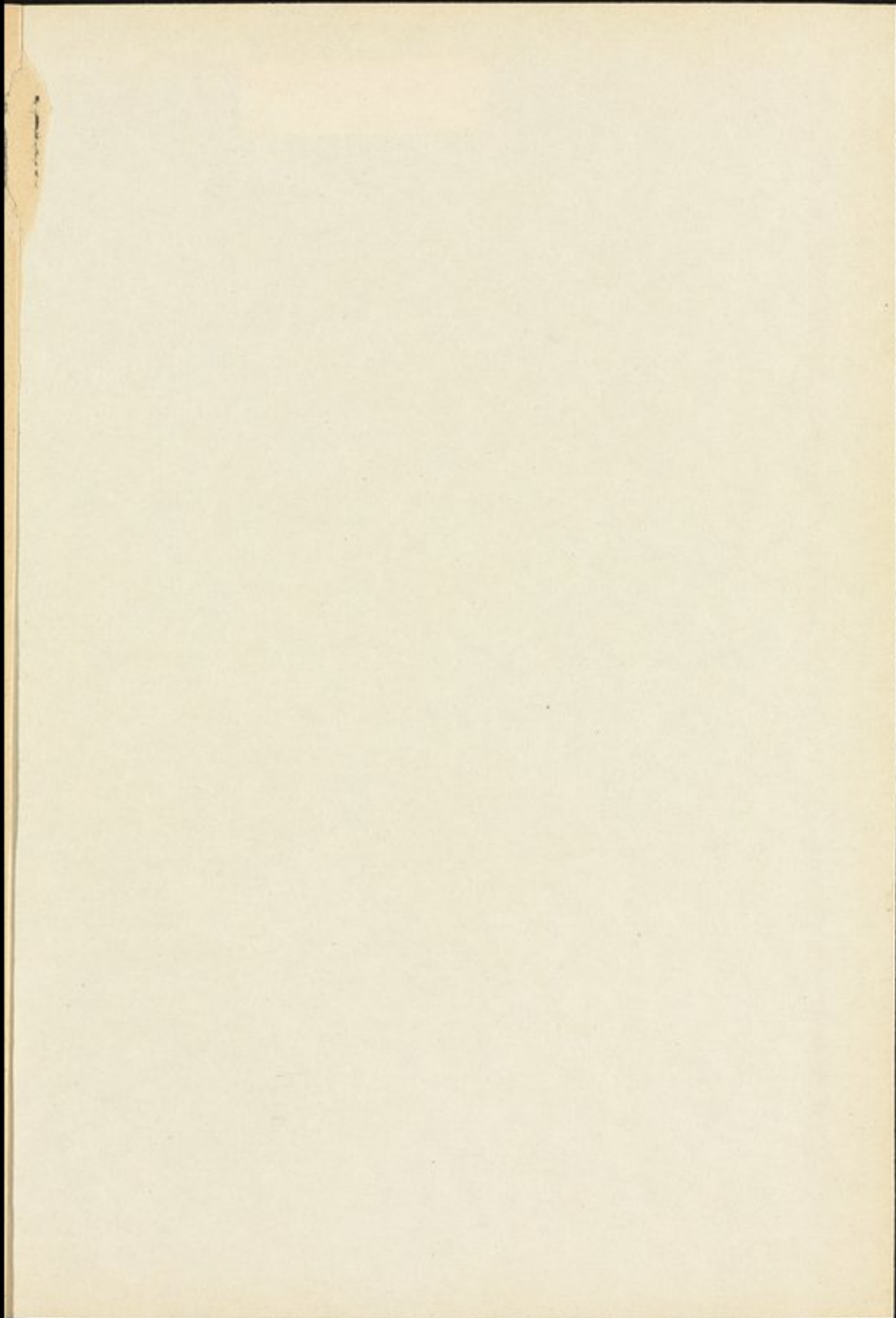
بيروت - مكتبة ومطبعة
عبدالله بن محمد بن عبدالمطلب
بيروت - شارع مكة - ١٩٠٠



Frederick University Library



32101 079196273



الجواهر

في تفسير القرآن الكريم

الشمس على عمباب سبع المكنوناً وغرب الألباباً

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهرى
للدروس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقاً
شع الله المسلمون بحمالة أمين

الجزء التاسع عشر

الطبعة الثانية

١٣٥٠ هـ - رقم ١٧١

حقوق الطبع محفوظة

طبع بطبعة
مصطفى البابی الحلبي وأولاده بمصر
بمباشرة محمد أيزعتران

(ARAB)

BP130

4
J27

juv 21-20

غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة غافر (هي مكية)

إلا آتني - إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم
ببالغه فاستعد بالله إنه هو السميع البصير * خلقت السموات والأرض أكبر من خلق الناس
ولكن أكثر الناس لا يعلمون - فذنبتان
(آياتها ٨٥ - نزلت بعد الزمر)

يروى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : « إن مثل صاحب القرآن كمثل رجل اطلق برناد
لأهله منزلاً فقرأ بأثر غيث فبينما هو يسير فيه ويتعجب منه إذ هبط على روضات دمثات فقال عجبت من الغيث
الأول فهذا أعجب منه وأعجب أ فقبل له : إن مثل الغيث الأول مثل عظم القرآن ، وأن مثل هذه الروضات
الدمثات مثل آل حم في القرآن ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « لكل شيء لباب وإباب القرآن
الخواميم » اهـ

(هذه السورة أربعة أقسام)

« القسم الأول » في تفسير البسملة
« القسم الثاني » غلب فيها وصف حلة العرش واتصال عالم الملائكة بعالم الانسان إشراقاً وقهلاً وتنظيماً
مناسبة ما في آخر (سورة الزمر) من أول السورة الى قوله - إن الله هو السميع البصير -
« القسم الثالث » الاعتبار بالأمم الماضية وتخصيص موسى بالذكر عليه السلام وبنو اسرائيل والمؤمنين
من آل فرعون من قوله - أولم يسبوا في الأرض - الى قوله - وسبح بحمد ربك بالعشي والابكار -

« القسم الرابع ، غلب فيه النظر في عجائب الحكمة الإلهية من قوله - إن الذين يجادلون في آيات الله فيغير سلطان - الى آخر السورة ، فيرجع معظم أجزائها ومقصودها الى العالم الروحي الأعلى فالأنبياء السابقين فعجائب العالم المحسوس

﴿ القسم الأول في تفسير البسملة ﴾

لك الحمد اللهم على نعمة العلم والتوفيق ومعرفة بعض العجائب القرآنية والرحمات النورية والبهجات الحكيمية والسعادة العقلية والجمال والبهاء والسرور بالإبداع ، أرى أننا أن بين سورة الزمر والمؤمن المتعاقبتين مناسبة بدوية ، ففي آخر الزمر أن الملائكة حافون من حول العرش ، فهناك ذكر للعرش وملائكة حافون وتسييح وتحميد ، وههنا في سورة المؤمن ذكر الملائكة والعرش والتسييح والتحميد ، وهكذا ذكر العرش مرة أخرى فيها - رفيع الدرجات ذوالعرش - وبين ما ذكر في آخر سورة الزمر وما ذكر في أوائل سورة المؤمن من العرش والملائكة والتسييح والتحميد جاءت البسملة وفيها اسم الله واسم الرحمن الرحيم . ههنا رجعة جاء ذكرها متخللاً ذكر العرش وما معه ، وكما أن الرجعة العامة في البسملة في أول (سورة ص) كان انجاءها لإقطاء لسفة الاخلاص المذكور معناه في آخر سورة الصافات وفي أول سورة ص هكذا هنا الرجعة العامة في البسملة متجهة الى إفاضة العلم والحكمة وتعميم الهداية في نوع الانسان فان أولئك الملائكة الحافين من حول العرش المسيحين بحمد ربهم يستغفرون للذين آمنوا والله الذي أبدع العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده ، والرسل بينه وبين الأنبياء هم الملائكة

واعلم أن عروش الملوك لا تقوم إلا على دعامين : دعامة هي أبهة الملك وعظمته وترجع الى القدرة والجاه ودعامة هي العلم الذي به نظم ذلك الملك ، والمملكة التي لا قوة فيها ولا نظام لها مفككة الأجزاء معطلة واهية ذاهبة ، فكل عرش انما يقوم على القدرة وعلى العلم . والقدرة تكون بالمال وبالرجال . والعلم يقوم بنظام الحياة الطبيعية والحياة السياسية . فله إذن في أرضنا أربع دعائم . وعرش الله عز وجل مشروح في آية الكرسي ومبناه فيها العلم والقدرة . فاذا كان الله سبحانه لا تأخذه سنة ولا نوم وهو يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وهم لا يحيطون بشئ من علمه الخ فذلك كله راجع للعلم وكونه له مافي السموات ومافي الأرض ولا يشفع عنده أحد إلا باذنه فذلك راجع للقدرة . ولقد جاء ذكر العرش في آخر (سورة التوبة) في آية - فان تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم - وجاء في أول (سورة يونس) - إن ربك الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر - فلاستواء على العرش بالقدرة وتديبر الأمر بالعلم . وجاء في أول (سورة هود) بعدها - وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء - والمقام هناك واضح في معنى العرش الذي سقنا له الكلام هنا إن كل عرش لا يتم إلا بعلم وقدرة . واذا كان العرش في آخر التوبة وفي أوائل سورة يونس وهو يدكرنا بلن الأمم الاسلامية تولت عروش أمم وقامت بحفظ بلادها . وتلك الأمم هي المذكورة في سورة يونس وهود . فتكرار العرش هناك في السور الثلاث وتخلل ذكر الرجعة في البسملة في أوائلها قد أعقبه أن ملك المسكون تلك العروش التي في أرض مصر المشار اليها بقصة موسى وهرون فيها وأرض الجزيرة وما بين النهرين من بلاد الآشوريين والبابليين . فهذه كلها الآن بلاد اسلامية وهذه البلاد مشار اليها بقصة يونس إذ كان في نينوى وهي من تلك البلاد . وقد فصلت في سورة هود قصة نوح . ولقد كانت سفينة هناك عند (جبال اارات) وهذه في تلك الناحية التي قام فيها الكرد اليوم . وهم يريدون الخروج من الدولة التركية . وهذه الجبال في بلاد العراق مما يلي بلاد الترك . ولاجزم أنها بلاد اسلامية الى الآن . وهكذا فصلت قصة عاد وثمود وقصة

ابراهيم ولوط ومدين وموسى . ولاجرم أن هذه البلاد كلها عربية . وهي اسلامية اليوم . فلوط ببلاد الشام
وهكذا ابراهيم وعاد وثمود في بلاد حضرموت وما يلها ومدين حوالى بحر القلزم وهو البحر الأحمر من جهات
الشرق . فهذه العروش كلها أصبحت عروشا اسلامية . هذا ماتقدم في سورة التوبة وبنونس وهود
وهكذا هنا فان العرش الذى ذكر في سورة الزمر وفي سورة المؤمن قد ذكرنا بالهداية العامة والملك
كما تقدم . الأثرى الى قوله تعالى - يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض - فالملائكة الحافون
من حول العرش لم حالان : تنزيه الله عما لا يليق بجماله واستغفار لمن فى الأرض . ومن طلب المغفرة لأحد
أحب هدايته والملائكة هم الذين يلهمون الناس الخير وهم الذين يكونون سفراء بين الله وبين أنبيائه فهم
ملقنون الوحي للأنبيا وهم ملهمو الخير للمؤمنين . وترى هذا الأمر وانحافى فى قوله تعالى - ربنا وسعت كل
شئ رحمة وعلمنا - فذكر الرحمة وذكر العلم . ثم يقولون - فاعفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب
العظيم - الخ

وهذه الصفة العلمية هى إحدى الدعوتين اللتين تنقسمان الى قسمين آخرين كما تقدم . ونكون هذه
الأربعة الدعائم للعروش والدعامات الأخرى هى القدرة ولقد غلبت هنا فى ذكر الأمم السابقة - أولم يسبروا فى
الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا فى الأرض - الخ وفصل
بعضهم فى خلال قصة موسى إذ قال - مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم - فهذه القصص
مفصلة وبجملته ترجع للقصص التى فى سورة بنونس وهود بعد سورة التوبة وكلها ذات عروش والعروش قد
أصبحت للمسلمين . ذكر العرش فى التوبة وما بعدها وذكره فى الزمر وسورة المؤمن للإشارة الى ما وصفنا من
أن هذه العروش فى تلك البلاد لا تزال الى الآن فى أيدي المسلمين

واعلم أن هذا ان لم تنبئه بنصائح للمسلمين لا يكون العلم به نافعا ، فانه اذا كان ذكر العرش فى هاتين
السورتين مشبرا الى ذلك كما أشار فى السور الثلاث السابقة وهى هود وما بعدها من غير عظة تلحقه وعمل يتبع
العلم ، بنى المسلمون على ما هم عليه يفرحون بما يفتح عليهم من أسرار القرآن ولكنهم لا يحركون ساكنا
ويتركون جبل الأمم على غاربها ، ونحن نقول أيها المسلمون : هذه الحجاب ومعرفتها ليست تجزينا وحدها
فالعلم إن لم يقبضه العمل لم يفد الناس . فاذا سمعت أن الملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى
الأرض فذلك تذكير لنا أن نبرع فى ﴿ الأمر الأول ﴾ المعرفة العامة بالعلوم الطبيعية والرياضية حتى
ندرك جلال الله وجلاله فى السموات والأرض بدراسة علوم جميع الأمم حولنا مع اضافة مباحثنا العقلية ،
وبذلك وحده ندرك معنى قوله تعالى - والملائكة يسبحون بحمد ربهم - فكيف يكون التنزيه بلا علم
بالآثار التى أبدعها ، وكيف يكون حمد على نعم نجمل تفصيلها ، فالجد اللفظى عبادة والجد الحقيقى علم ولا علم إلا
بالدراسة ومعرفة الحقائق ، والعباد الجاهل قليل المنفعة والعالم هو الذى اتبع الأنبياء وقلد الملائكة المسبحين
بحمد ربهم ﴿ الأمر الثانى ﴾ أن نكون نافعين للناس فلانكون حياتنا وفقا على العلم وحده لأن ثمرة العلم
إفانسة الخير على الناس والملائكة الحافون حول العرش كما أنهم يسبحون بحمد ربهم بفيضون الخير على
أهل الأرض ، ولاجرم أن لنا ضائر وعقولا هى محل إفانسة الخير من الملائكة علينا ، فلنتم بالعلم ولنتم بالعمل
والعالم كله متشابه منسق ، فليكن العلماء فى الأمم الاسلامية بعدنا متعلمين بجمال العلم بهذا الوجود تفضيلا
على قدر امكانهم أولا وليكونوا مفيضين على الناس من علومهم ، ويجب أن تكون علومهم شاملة لخبرى
الدنيا والآخرة حتى يتم جدهم والجد يكون على نعمة ونعمة الدنيا مشاهدة محسوسة . ومن جهل المحسوس
جهل العقول . ومن جد بلا علم غمده رياه وقول لفظى ضئيل . واذا لم يتم العلماء فى الاسلام بهذه الشرائط
واستمر المسلمون على نومهم العميق وسلموا أعناقهم وخضعوا للجهلاء ممن لا يعقلون بدائع هذه الدنيا وحكم

خالقها الحكيم فان العروش المذكورة في ﴿سورة المؤمن﴾ المنصلة في سورة يونس وهود التي هي في أيدي المسلمين تيمد ويملكها أم غيرنا وهذا آخر انذار في هذا التفسير للمسلمين
 الملائكة يسبحون ويعلمون الناس الخير وهم حافون حول العرش هكذا العلماء حافون حول عروش الأمم الاسلامية . اذا هم لم يقوموا بحق العروش من العلم الجم وافاضة العلم على أم الاسلام . وهذا العلم يليق لاقامة العروش وبقائها فان هذه العروش ساقطة في أيدي الأمم الأخرى . ولقد سقطت عروش الأندلس التي كانت مفرقة عشرين دولة ولم يكن لهم من الدين مايزعهم والشعراء كان لهم بينهم القدر المعلى وقيل ذلك سقطت بغداد التي كان لها السلطان على هذه العروش المذكورة في يونس وما بعدها وهي سورة المؤمن
 واذا كان عرش الله وهو القائم على كل نفس بما كسبت تحفه الملائكة المسبحون المستغفرون لا يبارقونه فكيف يقوم عرش الانسان الضعيف إلا بعلم و بافاضة على الخاضعين للعرش

ومن العجب أن في ﴿سورة التوبة﴾ ذكر لما يوافق اسمها من أن الله تعالى تاب على النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار الخ وتاب على الثلاثة الذين خلفوا الخ فهناك توبة وههنا توبة وغفران للذنوب المذكورين في قوله تعالى - غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب - ههنا ذكر للعقاب الشديد وذكر للغفرة وما أنسب هذين بالعرش لأن المستوى على العرش يدبر الأمر ومن يدبر الأمر يعاقب تارة ويغفر أخرى ويتوب على من يشاء وهذا شديد المناسبة بالعرش ولذلك ذكر في آخر سورة التوبة . فإلك يناسب ذلك غفران وتوبة تارة وعقوبة تارة أخرى وذلك يكون على مقتضى العلم . والعرش انما يبني على العلم وعلى القدرة ومظاهر هذين تسبيح الملائكة وحدهم واستغفارهم وهم حافون حوله فعلمهم وافاضتهم الخير على الناس مظاهر وآثار لما فوق ذلك من علم الله وقدرته اللتين بآثارهما أقيم العرش . فإله قادر وعليم والملائكة استمتوا منه والمؤمنون لاسباب علماتهم يستمتون من الملائكة . وفي هذه السورة من المباحث أنواع ،

- (١) جفاج الأرض الواسعة وما فيها من حكم ومجانب في آية - أزلهم يسبروا في الأرض - الخ
- (٢) والسموات والأرض في آية - خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس -
- (٣) تفصيل النوع الأول في آية - الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء - . وهنا ذكر صورنا وحسنها
- (٤) تفصيل النوع الثالث في آية - هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه - ففي هذا بيان نمو الانسان حالاً بعد حال
- (٥) بيان الأنعام التي تركيبها والتي نأكلها
- (٦) وختم السورة بما يلخص السورة كلها من انه أرانا آياته كلها ومن أن سيرنا في الأرض يهرفنا عاقبة الأمم الخ
- (٧) وفي السورة الالتجاء الى الله - فادعوا الله محلمين له الهين -
- (٨) وفيها ان الله ينصر رسوله ونابعيهم - إنا لننصر رسلاً - الخ وفيها - فوفاه الله سيئات ما مكروا -
- (٩) وفيها تبيان أن الضعفاء محتجون بأن المستكبرين أضلواهم ويحييهم المستكبرون ويقع الجميع في العذاب
- (١٠) وذلك لأن المدار على الأنواع السبعة السابقة من النظر بالعقل في السموات والأرض ، وخلق الانسان والأنعام . فاذا احتجج انسان بأن غيره أضله فحجته داحضة لأنه يقال له : أن عقلك إذن ؟ فإله الضعيف عقل كالمستكبر فكيف آتته ؟ ولماذا لم تسرفي الأرض وتنظر العواقب أفليس من عجب أن يكون الله برحمته أنزل القرآن وعلم المسلمين فيه تربيته لاذكر للأسباب

معها غالباً وهي الصلوات وأنواع العبادات وهي التربية العملية ، وتربية علمية وهي المباحث التي تكون بها الهداية ، وهذه هي النظرية كالنظر في الأنفس والآفاق الخ وهذه لا يفتقر فيها إعمال العقل ، وهذه يحتاج المستكبرون والضعفاء ويقع الجميع في العذاب ، ولقد علمت أيها الذكيّ فيما نقلناه عن (كانت) الألماني في كتاب التربية : « أن التربية العملية أولاً تكون بلا ذكراً للأسباب فإذا أکبر السببي علم الأسباب » وهنا في القرآن - ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة - فهذا أمر في نفسه مذموم وهكذا في القتل جاء في سورة المائدة - من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً - الخ وجاء في سورة البقرة - ولكم في القصص حياة يا أولى الألباب -

هذه في التربية العملية فهي اشتملت على ما لم يذكر معه سبب وعلى ما ذكر معه السبب وهذا هو الذي قرره علماء التربية في عصرنا ، فأما التربية العلمية فلا تصح إلا بالنظر العقلي ولذلك لما احتاج أهل النار لم ينفع للضعفاء الاحتجاج بالذين استكبروا

أيها المسلمون : إن القرآن ملأه حكمة وأتم التاركون لها ، وهذه الآيات فيها عجائب ولكن الله تعالى حرمها على الناعمين الساهين اللاهين الذين لا يفكرون ، فكذلك الله سبحانه يحجب الكفار في النار في هذه السورة وفي سورة سبأ وفي سور كثيرة ، كل ذلك ليوقظ شعور المسلمين الذين ناموا نوما عميقاً فيفكروا بقولهم . إني أنذر المسلمين بهذا التفسير . أنذرهم قبل فوات الفرصة . إن هذا الكتاب قد جاء بين عهدين كبيرين : عهد النوم العميق للأمة السابقة وعهد اليقظة للأمة المستقبلية . ويستقبل المسلمون أيام العلم والعمل بعد أن استبدروا أيام الجهل والكسل والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم . كتب صباح يوم الخميس ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٣٠ انتهى القسم الأول في تفسير البسملة والحمد لله رب العالمين

﴿ القسم الثاني من السورة ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَم • تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ • غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهَ الْمَصِيرُ • مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ • كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ • وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ • الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ • رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ

إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ • وَهَيْمُ السَّبَّاتِ وَمَنْ تَتَى السَّبَّاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ
 هُوَ الْعَزِيزُ الْعَظِيمُ • إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُبَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْتُمْ إِذْ
 تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَكَفَرْتُمْ • قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا
 بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ • ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ
 يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ • هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمُ
 مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ • فَاذْعُوا لِلَّهِ مَخْلَصِينَ لَهُ الَّذِينَ وَلَوْ كَرِهَ
 الْكَافِرُونَ • رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
 لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ • يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ
 الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ • الْيَوْمَ نُجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ •
 وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطْمِئِنَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعَ
 يُطَاعُ • يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ • وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ
 دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ •

﴿ التفسير اللفظي ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(حم) تتمة الكلام على الحروف كلها في أول ﴿ آل عمران ﴾ وفي أوائل ﴿ العنكبوت ﴾ وما بعدها
 ويختص الكلام على حم هنا بأنها تشير إلى حمد سبق في آخر الزمر وكما سترى هنا عند قوله تعالى - الذين يحملون العرش
 صادران من الملائكة والمؤمنين كما رأيت في آخر الزمر وكما سترى هنا عند قوله تعالى - الذين يحملون العرش
 ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا - الخ فرجعت هذه الإشارة العجيبة
 إلى استكمال قوة العلم وافتتت على المعلمين فإن الحمد وتعممه ليس يكون إلا باستكمال قوة العلم ، وكيف بحمد
 الإنسان على نعمة يجهلها ، وكما كانت لم تشير في العنكبوت وما بعدها إلى تحقيق المباحث العنصرية والوقوف
 على حقائق هكذا هنا يراد بالحاء والميم استكمال قوة العلم في جميع الفروع إذ لا حمد كاملاً إلا بعد علم بالعمود
 عليه ولا تعليم يصدق إلا لمن استكمل العلم ، وهذا هو الذي تشير له حم ولذلك أردفها بقوله (تنزيل الكتاب
 من الله العزيز العليم) بكل المعلومات ، وحمد العبد تابع لعلمه بما أبدعه الله تعالى والله يحب من تخلق بأخلاقه
 والعلم منها (غافر الذنب) سائر (وقابل التوب) أي التوبة (شديد العقاب) فالأول لمن آمن وأطاع والثاني
 لمن كفر وعصى (ذو الطول) ذي السعة والغنى والفضل والنعم (لا إله إلا هو) فليقبل الإنسان بكلية عليه
 (إله العبر) فيجازي كلا بما يستحق ، وهذه الصفات جمعت بين الترغيب والترهيب لئلا يياس الناس من

الرحمة ولا يأمروا بغير الله ، فلما حقق أمر النزول سجل الكفر على المجادلين فيه بالباطل . فقد قيل : إن جدالا في القرآن كفر . فأما الجدال لايضاح المتبس فهو مرغوب فيه فقال (مايجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلايفررك قلبهم في البلاد) فلايفررك إيمانهم وتقلبهم في بلاد الشام واليمن بالتجارات المربحة فانهم سيؤخذون قريبا كما أخذ من قبلهم (كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم) والذين تحزبوا على الرسل بعد نوح كعماد وحمود (وهمت كل أمة) من هذه الأمم (رسولهم ليأخذوه) ليقتلوه أو يأسروه (وجادلوا بالباطل) بما لا حقيقة له (ليدحضوا به الحق) ليزيلوه به (فأخذتهم) بالهلاك جزاء لهم (فكيف كان عقاب) أي فكيف كان عقابي إياهم ، ألم يكن مستأصلا مهلكا وأتم تمرؤن على ذيابهم وترون آثارهم وفيه معنى التعجب (وكذلك حقت كلمة ربك) وعيده وقضاؤه بالعذاب (على الذين كفروا) لكفرهم (أنهم أصحاب النار) بدل من كلمة ربك ، ابتداء الله السورة بصفات العزة والعلم والقسوة الواسعة ، وبذكر الرحمة والعقاب ، ثم أتبع ذلك بمن استوجبوا العقاب وأعقبهم بذكر من عم على التقيض من حالم فهماعلى طرفي تقيض ، كفار في أسفل دركات السماء وحلة العرش في أعلى دركات العز والهناء فقال (الذين يعملون العرش ومن حوله) أي حاملو العرش والحافون حوله وهم الكروبيون أعلى طبقات الملائكة وأولم وجودا ولا معنى للحمل إلا الحفظ والتدبير وذلك يستلزم قربهم من ربهم ومكاتبتهم عنده وعلوهم على العالمين . ألا ترى أن كل من كان في الناس أغزر علما وأحسن تديرا يكون أرق منزلة ، فهؤلاء (يسبحون بحمد ربهم) أي يذكرونه بمجامع الثناء :

(١) من صفات الجلال التي هي عبارة عن التسبيح أي التزيه عن مقام المحدثين ككونه لأوّل له ولا آخر لبقائه وأنه مخالف للحوادث في ذاته وصفاته وأفعاله

(٢) ومن صفات الاكرام كعلمه وقدرته واراادته وكلامه ، فالاشارة للأوّل بالتسبيح وللثاني بالتحميد فالصفات الأولى كمال والثانية مشتملة على التكميل كالخلق والرزق والهبة والهداية وما أشبه ذلك وقوله (ويؤمنون به) انما ذكر للدلالة على اظهار فضيلة الايمان والاقفل العرش لا يكون إلا بكمال العلم ، ولا كمال للعلم إلا بعد مبدأ الايمان ، وذلك لأن المقام مقام إبراز أمة وإبرازها انما يكون أولا بالايمان ثم يقبع العلم ، فلذلك قصر الكلام على ذلك فقال (ويستغفرون للذين آمنوا) أي يسألون الله المغفرة لهم ومعنى ذلك أنهم يحملونهم على التوبة ويلهمونهم ما يوجب المغفرة ، إن هؤلاء الملائكة تمتعون بالقرب من ربهم فهم مدبرون للعالم نظاما جسيما وارشادا علميا ، فالوحى منهم للأنبيا بأمر ربهم ، والاطعام منهم لنزوى القطر القابلة للخير ، ولا يستعمل حاد عن إطعام الخير لاسرى من الناس إلا اذا كانت فطرته تصده عن القبول منهم فيتولى الشياطين هدايتهم الى الفساد ثم بين الاستغفار المذكور المعبر به عن إلهامهم بما يكون نتيجة له من حيث شمول الرحمة الإلهية لهم والمغفرة وادخالهم الجنة مع آبائهم وأزواجهم وذرياتهم اذا صلحوا كصلاحهم ، وهذا البيان هو قوله يقولون (ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما) فان كل حيوان مثلا قد ألهم ما به صلاحه الموافق له وفطر عليه والانسان بهدت طريقه ونحن نجد في هدايته الى الصراط المستقيم بالاطعام والارشاد (فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك) لاستعداد فطرهم لقبول الهداية من الرسول وخلفائه ومن الاطعام التي توجهها اليهم (وقهم عذاب الجحيم) واحفظهم عنه (ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم) إياها (ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) عطف على هم من أدخلهم (إنك أنت العزيز الحكيم) الملك الذي لا يفلب وأنت مع ملكك وعزتك لاتفعل شيئا خالبا عن الحكمة ومن موجب حكمتك أن تدخل معهم من صلح من ألهم ليتتم سرورهم وأن تتم وعدك الذي وعدت (وقهم السيات) أي المعاصي في الدنيا (ومن تقى السيات يومئذ فقد رحته) ومن تقها في الدنيا فقد رحته في الآخرة (وذلك هو

هو الفوز العظيم) أى التعميم الذى لا ينقطع فى جوارمليك لانسل العقول الى كنه عظمته

(فصل فى ذكر نتائج الكفر)

لما ذكر الله سبحانه وتعالى أحوال الكافرين فى الدنيا ، و بين موجبات الهداية والعناية المبذولة من حلة العرش وصفوف الملائكة بالاطعام مع تدير الملك واهتمامهم بهداية الناس أتبعه بما هو النتيجة اللازمة لذلك وهى ان هؤلاء يندمون حين يوضعون فى المركبات التى هم أولى بها فى جهنم فقال (إن الذين كفروا ينادون) يوم القيامة وهم فى النار وقد مقترا أنفسهم حين عرضت عليهم سيئاتهم وعابنوا العذاب فيقال لهم (لقد أتتكم فى الدنيا والآخرة (أ أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون الى الإيمان فتكفرون * قالوا ربنا أمتنا) إمانتين (إمانتين وأحييتنا اثنتين) أى أمتنا فى الدنيا ثم أحييتنا فى القبر للسؤال ثم أمتنا فى البرزخ وأحييتنا للبعث لأن الانسان عند الموت يخلع هذا الهيكل الجسمى وتبقى الروح بالجسم الأثيرى اللطيف المعائل لأجسامنا الأرضية ، فهذا موت وانتقال من حال الى حال مغاير كل المغايرة ، وهناك يرى الانسان الجحائب السكائمة فى جسده الروحى ، ويرى صور أعماله السابقة من سبعة بادية العار والشار ظاهرة القدارة والحقارة فيلحقه منها خزي لا يطفى وعذاب روحى ونار جسمية ملازمة له ملازمة الظل للشبح والهواء للأجسام الأرضية ، ومن حسنة تظهر موقفة بهجة متلاثة بهية تبهج من رآها كالسكواكب الدررية تسرى الناظرين ، ثم إن هذه الحال البرزخية يحصل فيها انتقال وتغير ، وربما ظهرت حال جديدة للأرواح تبدل فيها تبدلا عظيما كالتبدل الذى حصل بموت الأجسام فيعتبر موتا ثانيا ثم يبعث الناس فتسكون حياة ثانية ، فاذن يكون هناك موتان بين الأول والثانى حياة برزخية و بعد الثانى حياة يوم القيامة ، وعلى ذلك تكون لنا أنواع ثلاثة من الحياة لأن الحياة الدنيا لم تذكر فى هذا المقام وربما كانت تبدلات الانسان فى الحال البرزخية كثيرة جدا لسرعة أحوال الأرواح فنبه على ذلك بذكر أعظم تبدل فيها فسماء موتا والا فالأنفس حية فى الحياة الدنيا و بعد مفارقة الأجساد ويوم القيامة ، وهذه الآبة فيها رموز مجيبة سيظهرها المسلمون بقراءة علم الأرواح واستحضارها بعد مفارقتها هذه الدنيا ورجوعنا الى الحال البرزخية لأنهم اليوم ونحن أحياء ليس عندهم من الوقت ما يتفرغون به لمثل هذه العلوم ، وأمم الغرب اليوم تطاردهم وسيخلصون منها إن شاء الله قريبا و بعد ذلك يقرؤون هذا التفسير وأمثاله قراءة أتمم ويشرعون فى المباحث العلمية ويدخلون جنة علمية عالية فى الدنيا ثم يتمتعون بروضات الجنات البرزخية ويلحقوننا إن شاء الله تعالى هناك جيلا بعد جيل

ولما كانت أحوال الأنفس البشرية وتقلباتها فى البرزخ ويوم القيامة تكون قد امتلأت عليها دروسا عالية قاسية لظهور الحقائق لها تحملهم على الاعتراف و خروج من النار أعقبه بقولهم (فاعترفنا بذنوبنا فقيل الى خروج) من النار (من سبيل) طريق نسلكه فيجابون بأنه لا سبيل الى الخروج (ذلكم) العذاب (بأنه اذا دعى الله وحده كفرتم وان يشرك به) غيره (تؤمنوا) أى تصدقوا ذلك الشرك (فالحكم لله العلى) الذى لا أعلى منه (الكبير) الذى لا أكبر منه (هو الذى يريكم آياته) عجائب مصنوعاته لتكملوا أنفسكم بمعرفتها (وينزل لكم من السماء رزقا) أى المطر لأنه سببه ، فجحائب المصنوعات لأمرين : ترقية العقول ، وتربية الأجسام ، والثانى عام ، والأول خاص وهذا قوله (وما يتذكر) يتفكر فيرقى نفسه بهذه الجحائب (إلا من يفتى) يرجع عن الانكار بالاقبال عليها والتفكير فيها ، ولما كان فريق المنبيين هو الذى تتجه العناية لارتقائه فى القرآن والحكمة أردفه بما يناسبه فقال (فادعوا الله مخلصين له الدين) من الشرك الخفى والجلي (ولو كره الكافرون) اخلاصكم وشفق عليهم هو (رفع الدرجات) أى هو مرتفعة درجات كماله فوق الخسوس والمعقول ، وهكذا مراتب مخلوقاته الجسمية رفيعات درجاتها طبقا عن طبق وكذلك الروحانية من صفوة النفوس الانسانية والملائكة فهؤلاء جميعا درجات بعضها فوق بعض ارتفاعا الى أن تقف دونه العقول (ذوالعرش)

الذي هو أصل العالم فهو في قبضة قدرته ، وقوله (يلقى الروح من أمره) خبر رابع لقوله - هو الذي يريكم - يقول الله انه يرينا الجحائب وهو مرتفع الدرجات ورافع درجات الخلق والعرش في قبضته ويلقى الوحي بأمره (على من يشاء من عباده) أي من يختاره للنبوّة (لينذر يوم التلاق) إذ تتلاقى فيه أهل السماء وأهل الأرض والعمال والأعمال (يوم هم بارزون) خارجون من قبورهم وظاهرون لا يستترهم شيء وأعمالهم وسرايرهم مكشوفة لا يحجبها نفاق ولا رياء (لا يخفى على الله منهم شيء) من أعمالهم وأحوالهم ، وحينئذ تنطق الحال بهذا السؤال (لمن الملك اليوم) واذن تجيب هي (الله الواحد القهار) فهو وحده قهر الخلق بالموت والبعث وبالخسر ، ولا جرم أن إلقاء الوحي بهذه المعاني على الأنبياء انما يكون لرفع درجات النفوس الأرضية ولحوقها بما هو أعلى منها ، فإذا كان الله رفيعا درجات كماله رافعا عالم الكواكب طبقات بعضها فوق بعض كما رأيت فيها مضى في هذا التفسير ورافع درجات الأرواح والملائكة فانه بهذه النفوس الرفيعة والأرواح الشريفة يهبط نفوسا أخرى لتلحق بها فيوحى بواسطة الملائكة الى الأنبياء والناس يستمعون الوحي فيرتفعون الى درجات أرقى مما هم عليه ، وهذا هو الذي يقتضيه نظم الآية منسجما عجيبا ، ثم ذكر نتيجته فقال (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت) فلا يرى المرء إلا ما كونه في نفسه من عقيدة أو علم أو حال فيرى كل ذلك منقوشا مصورا في جسمه كما يحس الآن في هذه الحياة بذلك من حسد وعداوة وطمع وشرة وكبرياء ، فكل ذلك منقوص للانسان في حياته لاحق به بعد موته بحيث يحس الانسان به ويشعر ويكون سوائل معنوية في عالم الأثير مختلفة كاختلاف ألوان النبات وروائحهم وهكذا أنواع العلم والحكمة والفضائل الخلقية من الكرم والصفح والآداب جميعها ترى لها سوائل أثرية معنوية أشبه بالسوائل المغناطيسية ترتشح من النفس ولانفارقها كما لا يفارقها في هذه الدنيا من هذه الصورة الجسمية أشكالها وألوانها وأطوارها ونسبها وقيلتها ، وذلك كله جاء في علم الأرواح في العصر الحاضر ، وهذا معنى قوله (لا ظلم اليوم) وذلك لأن الله لما كان رفيع الدرجات وقد رفع درجات العوالم الروحية فيها هوذا سخرها لترفع الأرواح التي هي ضعيفة في الأرض تعيش مع الحيوان وهي في نظام كه هرج ومرج الى عالم أرقى من عالم الأجسام ، فإذا ماتت ظهرت بمظهرها الذي وصلت اليه على مقدار طاقتها كما يظهر الطفل بمظهره عند أبويه من النقص والضعف ، فالعذاب الذي يعترى النفوس الانسانية بعد الموت هو من لوازمها وهكذا النعيم ، إن الله تعالى مرى العالمين ورافعهم من أدنى الى أعلى ، وفي أثناء رفعهم يرسب بعضهم وتظهر فضائحه وقبائحهم أثناء سفره ويحصل للمجرمين عذاب لا يطاق فان الانسان اذا ظهر بعد الموت يظهر قبيح اشمازات منه نفوس أصحابه ورأوه بغير العين التي كانوا يرونه بها وأصبح في ذلك لا يحتمل واشتعلت النار الجسمية والمعنوية معا ، وقد يرى الأمير أن عبدا من غيبته فضل عليه بأخلاقه التي اكتسبها وطار الى العلا وخلفه مع الجمادات ، فأى ذل وأى عار وأى مهانة بعد هذا كله ؟ فلا ظلم إذن فكما اتنا لما خلقنا في الأرض وكان منا نساء ورجال ، وكان فينا الجليل والقيح والقصير والطويل والمرضى والصحيح وما لا يتناهى من الأوصاف والأحوال ، لم تقل إن هذا الاختلاف ظلم والا لكان معنى ذلك أن الوجود كله خطأ . هكذا نقول في أحوال الأرواح بعد الموت فكلّ يكون على شاكلة الروحية الحقيقية ، فكما لا اعتراض في الاختلاف الجسمي هكذا لا اعتراض في الاختلاف الروحي فيكون قوم في نعيم وقوم في عجز ولا اعتراض كما لا اعتراض اذا قلنا في الأرض فراش وابل وحيوانات برية وأخرى بحرية وآساد فاتكة وغزلان ما كولة مع ان الانسان لو قيل له : أنت موت أم تكون ناموسة أو جرادة ؟ لا يرضى إلا بالموت وكذلك الجرادة لا تطلب أن تكون انسانا لأنها تجهله ، فإذا عرفت الجرادة والنملة والحمامة مرتبة الانسان وحرمتها فهناك الطاقة الكبرى والعذاب والذلة والمهانة وهناك تكون نار الخزي ونار العذاب ، فالأرواح الأرضية بعد الموت التي هي ضعيفة ليست كالجراد في الحياة الدنيا بل هي تحس وتعرف المراتب ، وهنا تتجلى نار الخزي

ونار جهنم ، ولكن نار الخزي أشد كما يحس الانسان في الدنيا بالعار اذا لوتت سمعته وضاع صيته ومجده وشرفه ولكن في الدنيا يتخلص بالموت ولكن في عالم الأرواح لا يقدر على التخلص من الحياة فيه . وهذا يفهما قوله (إن الله سريع الحساب) فيوصل كل الى ما يستحقه سر يعا . ولهذا المعنى الذي قررت لك تفهم قول سيدنا علي كرم الله وجهه لما سأله سائل : « كيف يحاسب الله الناس كلهم ؟ قال كما يرزقهم كلهم » وقوله (وأندرهم يوم الآزفة) القيامة سميت بذلك لازوفها أى قربها (إذ القلوب لدى الحناجر) إذ ترتفع عن حال كون أصحاب القلوب (كاظمين) على الغم أو مسكين بخناجرهم (ما للظالمين من حليم) قريب مشفق (ولاشفع يطاع) ولاشفيع مشفع (يعلم خائنة الأعين) النظرة الخائنة كالنظرة الثانية الى غير المحرم واستراق النظر اليه (وما تخفى الصدور) من الضمائر (والله يقضى بالحق) وقد عرفته فيما مضى في هذا المقام (والذين يدعون من دونه لا يقضون بشئ) نهكم بالأصنام لأنها جاد (إن الله هو السميع البصير) فيعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور وأما الأصنام فلا سمع لها ولا بصر فكيف تقضى بحق أو باطل ! انتهى التفسير اللفظي للقسم الثاني من السورة والحمد لله رب العالمين

﴿ لطائف : في قوله تعالى حم وفي قوله - الذين يحملون العرش ومن حوله - الخ وقوله تعالى

- رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده - ﴾

تبين لك فيما تقدم في هذا التفسير أن الحروف في أوائل السور قد جعلت رموزا وعرفت في كثير من السور كيف كانت تشير الى مقاصد لرفي المسلمين كما ترى في ﴿سورة البقرة﴾ - الم - للتنبية على جهاد بني اسرائيل في قوله - ألم تر الى الملائكة - الخ ولتوجيه الهمم الى بحث حقائق الجانب الكونية في قصة الخليل والعزير كما سبق شرحه مرارا وهكذا في ﴿سورة العنكبوت﴾ قد رجع رمزها الى البحث في عجائب العناصر وكيف كان لها نظام كشفه العلامة (متدليف الروسي) وتبعه العلماء وهكذا في يس وص . فأما هنا فان الأمر أعجب . وكيف لا يكون أعجب ونحن نرى في آخر ﴿سورة الزمر﴾ قول الله تعالى - وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم - وقد وضعوا مراتب كما جعلت أرواح الناس مراتب في الدنيا وهم يسبحون ويمحمدون ، وقد عرفت أن ذلك كله عبارة عن العلم بالجلال والاكرام ، ولا معنى لمعرفة صفات الاكرام إلا بدراسة الجانب الالهية ﴿وبعبارة أخرى﴾ دراسة العلوم التي امتازت بها أوروبا علينا . هذا هو الذي يفهم من التسبيح والحمد ، فأما الملائكة فعولمهم طبعا فوق طاقتنا ، وترى السورة ختمت بقول الملائكة والمؤمنين « الحمد لله رب العالمين » وكيف بحمد المؤمنين ربهم جدا حقيقيا إلا اذا عرفوا نظام المخلوقات إذ لا يحمد المحسن إلا على مقدار ما عرف الحامد من آثاره الواصلة اليه والى غيره . هذا هو الذي جاء في آخر ﴿سورة الزمر﴾ ثم قال في أول ﴿سورة غافر﴾ - حم - حرفان من الحروف الأربعة عشر مشبرا الى الحمد أى حمد المؤمنين وحمد جملة العرش ﴿وبعبارة أخرى﴾ مشبرا الى العلوم الطبيعية والفلكية التي هي أقرب اليها نحن في الأرض . فانظر ماذا تم بعد ذلك ؟ أعاد الكرة في أوائل السورة فذكر جملة العرش وتسبيحهم بحمد ربهم واجتهادهم في ارتقاء أهل الأرض وحبهم لاسعادهم

انظروا تعجب ، فاني سأريك الساعة عجبا عجبا ، بل أريك معجزة القرآن الحقة ، وكيف نطق من ألق وثلاثمائة سنة بما قرؤه اليوم في كتب الفريجة . أنت اذا كنت من الذين تبعوا هذا التفسير لانسكر ما سأقوله الآن ، ولكن اذا كان هذا أول نظرك له فانك تقول : إن العالم اليوم أصبح كله راقيا وأتم أيها المسلمون محرفون ، إن العالم كله ماذى أوله وآخره ، وأنا لم أر ملكا ولا روسا يرقيني . فما هذا القول ؟ ومن هم جملة العرش ؟ وأي رموز تقولونها ؟ دعونا دعونا ، واني أجيبك ناقلا لك عن علماء الشرق وعلماء الغرب فأقول

جاء في « اخوان الصفاء » أن الأساتذة والآباء والمعلمين إذا ماتوا كان كل عملهم إنما هو الإرشاد والتعليم لتلاميذهم وأولادهم . وهذا التعليم الاطعمي يرقى الروح لعملها والحي المتعلم فهو نافع للحي والميت وقال الفخر الرازي في سورة النازعات (وسأذكره هناك إن شاء الله) « أليس الابن قد يرى أباه في المنام فيهديه الى كنز مدفون »

أليس ان جالينوس قال : « كنت مريضا فجزت عن علاج نفسي فرأيت واحدا في المنام أرشدني الى كيفية العلاج »

وقال أيضا : « أليس ان الغزالي قال ان الأرواح الشريفة اذا فارقت أبدانها ثم اتفق أن انسانا شابه الانسان الأول في الروح والبدن فانه لا يبعد أن يحصل للنفس المفارقة تعلق بهذا البدن حتى تصير كاللعاونة للنفس المتعلقة بذلك البدن على أعمال الخير فسمى تلك المعاونة إلهاما ونظيره في جانب النفوس الشريرة وسوسة » اهـ

هذا ما قاله علماءنا . فاذا أبيت إلا علماء أوروبا فاني أقول لك انهم أغرقوا في هذا العلم اغراقا ونبغوا فيه وفاقوا الشرقيين لأن الشرق اليوم يظن أنه بانكاره هذه العلوم يعد فيلسوفا . أما الاوروبي فهو حرد والآراء تقال بلانكبير . فلا سمعك ما قاله أكبر علماء الطبيعة في بلاد الانجليز في خطبة خطبها في مجمع العلماء فما قاله : « وليس من العقل أن يقال ان النفس تضمحل اذا تلف الجسد بل سظل موجودين بعد موتنا و انتهاء أعمارنا التصيرية على هذه الأرض . أقول لك ذلك مستندا الى أدلة علمية . أقول لأني تحققت أن بعض أصدقائي الذين ماتوا لا يزالون موجودين إذ اني قد ناجيتهم . ثم قال : إني مقتنع بأننا لانضمحل عند الموت وأن الموتى يهتمون بأمر هذا العالم ويساعدوننا ويعرفون أكثر مما نعرف بكثير »

ومن قوله في نفس الخطبة : « وعندى أن في الوجود كائنات نسبتنا اليها كنسبة النمل الينا ونحن نتسكع بين أرجلها غير عارفين عنها شيئا » انتهى ما أردته منه . وقد تقدم هذا القول مطولا نارة ومختصرا أخرى لمقاصد مختلفات في هذا التفسير . وسيأتى نفس هذا القول في (سورة النازعات) عند ذكر قول الامام الرازي أن أرواح الناس تسيح من المدبرات أمرا

أفلمت ترى أن ما يقوله علماءنا وما تموج به الجمعيات النفسية في أوروبا قد أصبح تفسيراً لهذه الآية . انظر كيف يقول العالم الانجليزي : « ان هناك عوالم نسبتنا اليها كنسبة النمل الينا » وقوله « إن الأموات يهتمون بأمر هذا العالم » . يا محبا : أليس هذا هو عين ما قاله الامام الرازي والغزالي واخوان الصفاء . أليس هذا عينه هو نفس هذه الآية . بل أليس هذا مجزأة . وأي مجزأة أكبر من هذه ! تموج الجماع النفسية بهذه الفكرة فيقول الناس في مجالسهم : « ان فوقنا أرواحا تلهمنا وتعلمنا ونهتم بنا ونحن نمل بالنسبة لها »

أليس هذا عينه هو قوله تعالى - الذين يعملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم - ولقد عرفت أن الأمر راجع للعلم . وقوله - ويستغفرون لمن في الأرض - فهل لهذا معنى إلا الاطعام والتعليم فيعلمون الأنبياء ويعلمون كل واحد منا الآن بالاطعام ، واذا كنا أصبحنا جميعا من جهلاء وعلماء مؤمنين بعالم الحيوان الذرى المسمى بالمكروب وانه هو الذي يأتي لنا بالطاعون والحمى والجذري والحكومات في الأرض كلها تؤمن وتمثل لقول الأطباء في ذلك مع ان تلك الحيوانات لم ترها قط ولكنها آمنت بها مع ان الموت والمرض لا يحتاجان الى فاعل يفعلهما ، فان المرض نقص والمادة في تحوّل دائم والموت خراب الجسم وخراب الجسم لا يحتاج الى فاعل يفعله بحسب النظر الظاهري ، ولكن العلم اليوم أثبت ذلك . وأن الموت أيام الوباء والأمراض الكثيرة كالحمى والجذري والحصباء إنما يكون بأحياء لانها تحدث تلك الأمراض الكثيرة المنتشرة . فما أسهل أن نعرف أن الخير والشر تأتيها توالم تسمى ملائكة أو ارواحا . فالأرواح العالية لاطعام الخير

والأرواح السافلة للوسوسة . ههنا تلي الأمر وظهور وعرفنا سر الحياء والميم اللذين جيء بهما بين جدتين : جد في آخر (سورة الزمر) صادر من الملائكة وأرواح المؤمنين . وجد صادر من الملائكة في (سورة غافر) مصحوب بالتسبيح والملائكة يفيضون الخبر على المؤمنين . وهذا كما استراه في (سورة النبأ) إذ جاء في آخرها - يوم يقوم الروح والملائكة صفا - وفسر ابن عباس الروح بأرواح العباد يصطفون كأنصطف الملائكة وههنا ظهر معنى الاصطافى إذ الأرواح تلاميذ الملائكة فأصبح الأمر كله راجعا للعلم والدراسة . فإذا تعلمنا اليوم فهو مقصود الحمد المذكور في السورتين وأصبح التسبيح والتحميد معناهما الارتقاء العلمى والارتقاء العلمى للملائكة وهم يرقون أرواحنا في الدنيا كما ترى الأسانذة يعلمون تلاميذهم والآباء أبناءهم فاذن ارتقاؤنا في الدنيا بالعلوم والملائكة ملهمون . ونحن اذا متنا نكون في تلك العوالم المدبرات أمرا كما فسرهم الامام الرازى في (سورة النازعات) وكما رأيت في كلام فلاسفة الشرق والغرب . هنا يظهر لك مقصود الحياء والميم في هذه السورة . فهما من الحمد والمد راجع للعلم الذى يلقىه الأطل إلى الأدنى ويسدؤه من الله رفيع السرجات ذى العرش وهو الذى يرقى الأرواح والأجسام . فترى صفوف الكواكب طبقة بعد طبقة كما ترى صفوف الأرواح صفا بعد صف

(ذكر الأحاديث والآثار الواردة في هذا المقام)

فإذا سمعت ماورد أن جملة العرش اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أزدفهم الله بأربعة آخر كما قال - ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية - فلتعلم أن ذلك إشارة إلى ازدياد عدد الأرواح المرتقية . وإذا سمعت قول ابن عباس : « جملة العرش ما بين كعب أحدهم إلى أسفل قدميه مسيرة خمسمائة عام » وما يروى أن أقدامهم في تخوم الأرضين والأرضون والسموات إلى عجزهم فلتعلم أن معناه إحاطتهم علما وتديرا بهتة العوالم باذن ربهم . وإذا سمعت أنهم يقولون : « سبحان ذى العزة والجبروت . سبحان ذى الملك والملكوت سبحان الحى الذى لا يموت . سبح قُدوس رب الملائكة والروح » فاعلم أن هذا إشارة إلى علمهم بصفات الجلاله وصفات الاكرام التى هى تشمل سائر العلوم وإلى أنهم مقررون بأن الله ربهم بقولهم « رب الملائكة » وانهم هم مربيون الأرواح التى هى أقل منهم بأمر ربهم . وإذا سمعت أنهم خشع لا يرفعون طرفهم وهم أشد خوفا من أهل السماء السابعة وهؤلاء أشد خوفا من التى تليها وهكذا ذن ذلك على مقدار العلم فإن الخشية تتبع العلم ، ومن عرف جيلا وملا عينه حسنا وجيالا وبهجة وحكمة فإنه يدهش منه ويخشاه ، ولا يفتنى ذلك لمن يجهل أمره . وإذا سمعت انه صلى الله عليه وسلم حدث عن ملك أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام فذلك ان صح لانساع دائرة علمه وتدييره للعوالم التى تؤهل أنت اليوم للقيام ببعضها على ما عرفت . وإذا سمعت عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده انه قال : « ان ما بين القائمة من قوائم العرش والقائمة الثانية كحققان الطير المسرع ثلاثين ألف عام فذلك إشارة إلى عظمة ملك الله . وهذا أصبح اليوم معروفا في علم الفلك الحديث كما تراه في (سورة البقرة) وغيرها . وإذا سمعت أن العرش يكسى كل يوم ألف لون من النور لا يستطيع أن ينظر إليه خلق من خلق الله تعالى فهذا ظاهر اليوم لأن ملك الله تعالى يخلق اليوم كما في هذا الخبر ويظهر على هذا النحو ، وأما ألوان النور فانك لو بحثت لوجدت أن الأنوار لا يحصى عددها بألف ولا بألاف كل يوم ، ولو انك فكرت في عدد الأنوار التى تسطع على أرضنا من النجوم وان لم ترها لدقة نورها واحتجابها عنا بالشمس نهرا لرأيتهما تعدت بمئات الملايين وهى تسطع على الأرض وأصحاب الأرصاء يميزونها تمييزا حقيقيا ، وان أردت بالأنوار العلوم فهى أوسع مدى فان تغير العوالم لا يكون إلا بعلم قامت بنفوس الملائكة والأرواح المدبرات . وقوله لا يستطيع أن ينظر إليه خلق من خلق الله تعالى فهو ظاهر . ان

الشموس التي لانهاية لعددها ظهر اليوم أن أنوار كثير منها أضوا الشمس بمراتب كثيرة فلا يستطيع الناس أن ينظروا إليها لو كانوا هناك ، ولكن الأقرب للحديث أن تلك الأنوار هي العلوم التي في نفوس الملائكة وهي محجوبة عن عبادهم ولا يعرفها غيرهم إلا إذا ارتقى إلى مراتبهم

ولست أقول لك ان هذه الأحاديث أو الآثار ذكرتها لك على أنها صحيحة أرحسنة أضعيفة إنما المقام مقام ذكر ما قيل بدون نظر إلى مقدار صحته لتعلم كيف كان التعبير الذي يبره عن عظمة ملك الله ، وما دام المقام مقام مجاز فلا بأس بذلك كله . وإذا سمعت قول وهب بن منبه ان حول العرش سبعين ألف من الملائكة صف خلف صف يطوفون بالعرش ، يقبل هؤلاء ويدبر هؤلاء ، ويدبر هؤلاء ، ومن وراءهم سبعون ألف صف قيام ، ومن وراء هؤلاء وهؤلاء مائة ألف طف من الملائكة وذكر انهم يقولون : « سبحانك وبمحمدك ما أعظمك وأجلك الخ » وأن كلامهم يسبح بتسبيح لا يسبحه الآخر فان ذلك أصبح معلوما لك لأنهم مراتب وصفوف ودرجات لا يعرف متنها عبر عنها بذلك العدد . وإذا كانت الكواكب بلغت ما لا يعرف له عدد فكيف يكون عالم الأرواح ؟ فأما التسبيح والتحميد فهو العلم الذي أمرت بدراسة مقدماته في الدنيا وأشهر لذلك الحاء والميم والجد في السورتين وفي سورة فاتحة الكتاب . وإذا سمعت قول وهب بن منبه : « إن الله احتجب عن الملائكة الذين حول العرش بسبعين حجبا من نار وسبعين حجبا من ظلمة وسبعين حجبا من نور وسبعين حجبا من در أبيض ومثلها من ياقوت أحمر ومثلها من زبرجد أخضر ومثلها من نلج ومثلها من ماء ومثلها من برد وما لا يعلمه إلا الله عز وجل » فذلك معناه على سبيل المجاز نقص مراتبهم عن مرتبة ربهم لأنه هو العليّ الكبير

فانظر كيف كان الأولون يضربون للناس الأمثال بعظمة ملك الله تعالى ليوسعوا خيالهم حتى إذا جاءت الحقائق وكشف القناع اتسعت له العقول وأقبلت عليه وقال السامع نعم قد تخيلنا هذا من قبل في الآثار الواردة عن آباءنا الأولين . فالتعبير بأن العرش جوهرة خضراء وأن الأنوار تكسوه ونحو ذلك كله للدلالة على الجمال والبياء والاشراق والعظمة والعلم والحكمة . ولعلك الآن فهمت قول ابن مسعود : « إذا وقعت في آل حم وقعت في روضات الجنة أتأنتق فيهن »

أقول : وهل روضات الجنات إلا العلوم ؟ وأليس نفس الحاء والميم هذان الحرفان هما اللذان فتحا هذا الباب كله ، إن حم إشارة إلى الحماد ولاحمد بلاعلم ، فالأمة الإسلامية اليوم عليها أن تقوم بدورها في الحكمة والعلم فقد خبا الله لها كنوزا في الأرض ستظهر بأعمال المسلمين ، فليقوموا بدورهم . هذا كله معنى - حم -

﴿ صلواتنا معاشر المسلمين ﴾

لقد علمت أن الملائكة يسبحون ويحمدون وأن معنى ذلك انما هو العلم بالعالم العلوي والسفلي الذي هو داخل في صفات الاكرام التي اتصف به الله تعالى . والمسلم في صلواته عند الركوع يقول « سبحان ربي العظيم » ثم يقول « خشع لك سمعي وبصري وعقلي وعظمي وعصبي وما استقلت به قدمي لله رب العالمين » ومعنى ذلك أن يدرسه ويفقه سره . وكذلك في السجود يقول المسلم « سبحان ربي الأعلى » ثم يقول « سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين »

فإذا ظن الناس أن تسبيح الملائكة وتحميدهم عبارة عن ألفاظ فليفهموا أن تسبيحنا وتحميدنا ألفاظ لاغير . فإذا أرادوا الجهد فليعلموا انه جاء في هذه السورة قول الله تعالى بعد ذكر حلة العرش وتسييحهم والهامهم للذين آمنوا ودعائهم لهم فالجهد العليّ الكبير . وبين مشار الحمد فقال - هو الذي يريكم آياته وينزل

لكم من السماء رزقا - فجعل مدار الجذ ترقية العقول بالعلوم وتدير الأجسام بالرزق . هذا هو مقصود الجذ
ومقصود (حم) ومقصود القرآن

ليعلم المسلمون بعد اليوم أن المسألة جد لا هزل فيها . وأن الملائكة نأهلوا لمرتبتهم بالعلم . وأن الناس
لا يسعدون في دين ولادنيا إلا بالعلم واننا نسبح بحمد الله كما ان الملائكة يسبحون بحمده . ذلك ظاهر في
صلواتنا إذ نبدأ بالتسبيح وتبعه بذكر النعم التي أنعم بها علينا في سمعنا وبصرنا الخ . كل ذلك يعلم المسلم
انه ملازم بالعلم والحكمة اللذين يرجعان الى معنى التسبيح والتحميد . هذا هو سر الفائدة التي يتلوها المسلم
صباحا ومساء . يقول الحمد لله رب العالمين ويفصل بعض النعم في الركوع والسجود ويقسمها في الرفع والاعتدال
فيقول « ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد » ومعلوم أن
الموالم لا تخرج عن هذه . فالفائدة علم الركوع علم وآل حم علم وتسبيح الملائكة علم وتحميدهم علم
وتسبيحهم في ذلك علم

فليغتن المسلمون فقد انقضى دور الهزل وجاء دور الجذ . وأظهر الله السر الذي خبا . وأبان لعباده
عجائب الدنيا بالعلوم والدين بالفهم والالهام . وبهذا تم الكلام على القسم الثاني من السورة

﴿ القسم الثالث من السورة ﴾

أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ
أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ •
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ
الْعِقَابِ • وَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ • إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ
فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ • فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ
وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ • وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى
وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ • وَقَالَ مُوسَى
إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ • وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ
مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ
رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ
لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ • يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ
يَنْصُرُنَا مِنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ نَنْصُرْكُمْ وَإِنْ تَأْتِيكُمْ آيَاتُنَا فَأَنْتُمْ عَنْهَا كَائِدُونَ • وَالَّذِينَ
كَفَرُوا نَجِّنَا مِنَ عَذَابِ الْجَهَنَّمَ وَالْجَهَنَّمَ هِيَ الْأَرْضُ الَّتِي كُنَّا نُقَالُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا
الرَّشَادِ • وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ • مِثْلَ دَابِ

قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ * وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ
 عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلَّوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ
 فَأَلَهُ مِنْ هَادٍ * وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَاذِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ
 حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ
 مُرْتَابٍ * الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبِيرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ
 الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِي لِي
 صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا
 وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ * وَقَالَ
 الَّذِي ءَامَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ
 وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ * مَنْ عَمِلَ سَبِيحَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ
 ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَيَا قَوْمِ
 مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ
 لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْعَفَّارِ * لَا جَرَمَ لَكُمْ إِنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَىٰ إِلَهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ
 فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ * فَسْتَذَكُرُوا
 مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَمْلُوكًا
 وَخَاقٍ بِأَلِ فِرْعَوْنَ سُوءِ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ
 أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ * وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعْفَاؤُا لِلَّذِينَ
 اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْعِنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ
 اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ * وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لَخَرْنَا نَجَّ جَهَنَّمَ
 أَدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ * قَالُوا أَوْ لَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ
 قَالُوا بَلَى قَالُوا فَأَدْعُوا وَمَا دُعَاؤُا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ * إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا
 فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَهُمْ لَالْعَنَةُ وَلَهُمْ

سُوهُ النَّارِ • وَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ • فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ •

﴿ التفسير اللفظي ﴾

قال تعالى (أولم يسبوا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم) أي ما آل الذين كذبوا الرسل قبلهم كعاد ثمود (كانوا أشد منهم قوة) قدرة وتمكنا (وآثارا في الأرض) كالقلاع والمدائن الحصينة (فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق) يمنع العذاب عنهم (ذلك) الأخذ (بأنهم) كانت تأتيهم رسلهم بالبينات) بالمعجزات والأحكام الواضحات (فكفروا فأخذهم الله إنه قوي) متمكن مما يريد غاية التمكّن (شديد العقاب) كل عقاب دون عقابه

﴿ قصص موسى عليه السلام وبني اسرائيل ﴾

قال تعالى (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) المعجزات (وسلطان مبين) وحجة ظاهرة (الى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب) يعنون موسى . ذلك تسلية له (فلما جاءهم بالحق من عندنا قتلوا) اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحبوا نساءهم) أي أعيدوا عليهم ما كنتم تفعلونه بهم من قبل كي يصدوا عن اتباع موسى (وما كيد الكافرين إلا في ضلال) أي وما صنع فرعون وقومه إلا في ضياع فان هذا كله لم يمنع موسى من إقامة دينه وخذلان فرعون وجنوده (وقال فرعون ذروني أقتل موسى) وقد كانوا يكفونهم عن قتله تهوينا لأمره ويقولون اذا قتلته ظنّ الناس انك عجزت عن إقامة الحجّة . ثم قال (وليدع ربه) إظهارا بعدم المبالاة به مع انه لم يمنعه من قتله إلا شدة الهول والفرع من ذلك لعلله انه نبيّ (إني أخاف أن يبدل دينكم) أي يغير ما أتم عليه من عبادتي وعبادة الأصنام (أو أن يظهر في الأرض الفساد) أي ما يفسد ديننا من التحارب والتهاج (وقال موسى) لقومه لما سمع كلامه (إني عدت بربّي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب) ذكر اسم الرب إشارة الى الترية وليحضهم على موافقته في الدعاء لأن اتجاه أرواح كثيرة لغرض واحد أقرب للإجابة (وقال رجل مؤمن من آل فرعون) من أقاربه (يكنتم إيمانهم أقتلون رجلا) أي أنقصدون قتله (أن يقول) أي لأنه يقول (ربي الله) وحده (وقد جاءكم بالبينات) الكثيرة (من ربكم وان يك كاذبا فعليه كذبه) لا يتخطاه (وان يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم) أي فلا أقلّ من أن يصبكم بعضه (إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب) ولو كان مسرفا كذابا لحذله الله ولكنه لم يخذله فأعطاه المعجزات والآيات البينات (ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض) غالبين عابدين في أرض مصر (فن ينصرونا من بأس الله إن جاءنا) أي فلا تقصدوا أمركم ولا تتعرضوا لبأس الله تعالى (قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى) أي ما أشير عليكم إلا بما استصوبه من قتله (وما أهديك إلا سبيل الرشاد) وما أعلمكم إلا ما علمت من الصواب (وقال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم) في تكذيبه (مثل يوم الأحزاب) مثل أيام الأمم الماضية أي وقائعهم كما يقال أيام العرب (مثل داب قوم نوح وعاد وثمود) مثل حجاز ما كانوا عليه دائما أي دائما فكانوا لا يفترون عنه (وما الله يريد ظلما للعباد) أي وما الله يريد أن يظلم عباده فيعذبهم بغير ذنب ولا يخلى الظالم بغير انتقام لأنه يريهم (ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد) أي يوم ينادى فيه بعضهم بعضا ويتصاحبون (يوم تولون) من الموقف (مدبرين) منصرفين عنه الى النار (ما لكم من الله من عاصم) يعصمكم من عذابه (ومن يضل الله فإله من هاد) ولقد جاءكم يوسف) ابن يعقوب (من قبل بالبينات) ونجّهم بأن يوسف جاءهم بالبينات على التوحيد من قبل موسى فشكوا في أمره وبقي

شكهم الى زمن موسى وهذا قوله (فازلتن في شك مما جاءكم به حتى اذا هلك قلتم لن نبعث الله من بعده رسولا) أى وذلك حكمكم من عند أنفسكم من غير برهان (كذلك يضل الله) أى مثل هذا الاضلال يضل الله كل (من هومسرف) فى عصيانه (مرتاب) فى دينه (الذين يجادلون) بدل من مسرف لأنه بمعنى كل مسرف (فى آيات الله) فى دفعها وابطائها (بغير سلطان) حجة (أنهم كبرمقتا) أى عظم ذلك الجدل بفضا (عند الله وعند الذين آمنوا كذلك) هكذا (يطع الله) يختم (على كل قلب متكبر جبار) عن قبول الحق والهدى (وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا) بناء مكشوقا عاليا من صرح الشئ اذا ظهر (لعلى أبلغ الأسباب) الطرق ثم بينها فقال (أسباب السموات فأطلع الى إله موسى) أراد أن يبني له رسدا فى موضع عال برصد منه أحوال الكواكب التى هى أسباب سيارية تدل على الخواص الأرضية فىرى هل فيها ما يدل على ارسال الله إياه ، أو قصد بذلك التثوية على الجهلاء بربهم أن إله السموات الذى يقول به موسى إنما هو إله كالألهة التى هى عبارة عن تماثيل فى مصر يراها الناس الآن بقيت من ذلك الزمان لتضليل عقولهم (رأى لأظنه كاذبا) فى دعوى الرسالة (وكذلك) مثل ذلك التزيين (زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل) سبيل الرشاد وموّه على الناس بهذه التحويلات (وما كيد فرعون إلا فى نيا) أى خسار (وقال الذى آمن) أى مؤمن آل فرعون (يا قوم اتبعون أهدكم) بالدلالة (سبيل الرشاد) لأن ما عليه فرعون غي (يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع) تمتع يسير لسرعة زوالها (وإن الآخرة هى دار القرار) الخلودها (من عمل سبئة فلا يجزى إلا مثلها) عدلا من الله (ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة برزقون فيها بغير حساب) بغير تقدير وموازنة بالعمل بل أضعافا مضاعفة (ويا قوم ماى أدعوكم الى النجاة وتدعوننى الى النار) كرر النداء لإيقاظ لهم من سنة الغفلة ثم أبدل منه قوله (تدعوننى لأ كفر بالله وأشرك به ما ليس لى به) بربوبيته (علم وأنا أدعوكم الى العزيز الغفار) أى من كلت قدرته وغلبت ولا يكون ذلك إلا يعلم وإرادة فهو قادر على التعذيب والغفران (لا) رد لما دعاه اليه قومه (جرم أن ما تدعوننى اليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة) جرم فصل بمعنى حق وأن وما بعدها فاعله أى حق ووجب بطلان دعوته أى ان ما تدعوننى اليه ليس له دعوة الى نفسه فقط ومن حق المعبود بالحق أن يدعو العباد الى طاعته وما تدعون الى عبادته لا يدعو هو الى ذلك ولا يدعى الربوبية فكيف تدعوننى الى عبادة ما لا يسمع ولا يبصر ولا حق له ولا يدعو اليه هذا جهالة فلا أتبعها وعطف على فاعل جرم قوله (وأن مردنا الى الله وأن المسرفين) فى الضلالة والطغيان (هم أصحاب النار) ملازموها (فستذكرون) أى فسيذكر بعضكم بعضا عند معاينة العذاب (ما أقول لكم) من النصيحة (وأفوض أمرى الى الله) ليعصمى من كل سوء (إن الله بصير بالعباد) فيصيرهم مما فرّ من بينهم فطلبوه فلم يقدروا وذلك قوله تعالى (فوقاه الله سيئات ما مكروا) شدايد مكروهم (وحاق بال فرعون) بفرعون وقومه (سوء العذاب) وكأنه قيل مأسوء العذاب فقال هو (النار) ثم استأنف مبينا فقال (يعرضون عليها) وعرضهم عليها إحراقهم بها ، يقال عرض الامام الأسارى على السيف اذا قتلهم وقوله (غدوا وعشيا) أى فى هذين الوقتين يعذبون بالنار وينفس عنهم فيها بين ذلك وبدوم ذلك الى يوم القيامة (ويوم تقوم الساعة) يقال لحزنة جهنم (أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) أى عذاب جهنم ، قال علماءنا : وهذه الآية دليل على عذاب القبر وقد ظهر ذلك العلم فى الجامع النفسية وأوصفناه مرارا فى هذا التفسير وشرحناه تكررارا وصار هذا القول حقا فى علم الأرواح ، وفى حديث البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : « ان أحدكم اذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى إن كان من أهل الجنة فن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فن أهل النار يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله تعالى اليه يوم القيامة » وهذا المعنى هو الذى أطالت به الأرواح لما سألوها بتفصيل ذقراء فى كتابنا المسمى « الأرواح » ثم قال تعالى (و) اذكر

لقومك يا محمد (إذ يتحاجون) أي يختصمون أي أهل النار (في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا) وهذا
تفصيل للخاصة (إنا كنا لكم تبعاً) أتباعاً تحكم جمع خادم (فهل أنتم مغنون) دافعون (عنا نصيباً من
النار) قال الذين استكبروا إنا كل فيها) أي كلنا فيها لا يفتي أحد عن أحد (إن الله قد حكم بين العباد)
قضى بينهم فأدخل قوما الجنة وقوما النار (وقال الذين في النار لحزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً) قدر
يوم شيئاً (من العذاب) قالوا) مزمين لهم الخجة (أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات) تويناها لهم (قالوا بلى
قالوا فادعوا) فانا لا نجترى عليه إذ لم يؤذن لنا في ذلك (ومادعاء الكافرين إلا في ضلال) ضياع لا يجاب
والمقصود من مساق هذه القصة أن عادة الله نصر الرسل والمؤمنين في الدنيا والآخرة ووعدته بالتصريح ، ثم
أمر نبيه ﷺ بالصبر وأن يجتهد في الاستغفار والتسبيح حتى يأتي له نصر الله وهذا قوله (إنا لننصر رسلكم
والذين آمنوا) كما مر في هذه القصة (في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) أي في الدارين ولا ينقض ذلك
بما كان لأعدائهم من الغلبة امتحاناً أحياناً لأن المدار على العواقب ، والأشهاد جمع شاهد كالملائكة والأنبياء
والمؤمنين (يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم) بدل من يوم الأول (ولهم اللعنة) البعد من الرحمة (ولهم سوء
العقار) جهنم (ولقد آتينا موسى الهدى) ما بهدى به في الدين من المعجزات والصحف والشرايع (وأورثنا
بنى إسرائيل الكتاب) التوراة (هدى وذكرى لأولى الألباب) فاصبر) يا محمد على أذاهم (إن وعد الله
حق) في اظهار دينك وفي تأييدك وتأييد كل صادق في دينك كما أبدت موسى ومن صدق من أتباعه
(واستغفر لذنبك) أي وأقبل على أمر دينك وتدارك فرطانك مثل ترك الأولى التي لا يعد ذنباً عند غيرك
لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين وتدارك ذلك يكون بالاستغفار ، وهكذا إذا خالجتك اهتمام بأمر الأعداء
فانزع إلى الاستغفار لأن الله تعالى كافيك في النصر واظهار الأمر وهكذا كل صادق في وجهته الدينية والمنفعة
العاقبة (وسبح بحمد ربك بالعشي والابكار) ودم على التسبيح والتحميد لربك ، وذلك مطابقة لما جاء من
تسبيح حلة العرش الذين هم في الملاء الأعلى . صلى أهل الأرض أن يحذوا حذوهم والله ينصر رسوله القائمين
بدعوة الخير الذين يحذون حذو الملاء الأعلى . والى هنا تم الكلام على القسم الثالث من السورة وتفسيره
اللفظي والحمد لله رب العالمين

﴿ القسم الرابع من السورة ﴾

إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِتَرْتِيبٍ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ
بِيَالْفِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ • خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ
النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ • وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ • إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ
أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ • وَقَالَ رَبُّكُمْ اذْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ
عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ • اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ
مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ • ذَلِكَمُ اللَّهُ

رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ • كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ
 اللَّهِ يَجْحَدُونَ • اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ
 صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ • هُوَ
 الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ • قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ
 أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَ فِي الْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِلرَّبِّ الْعَالَمِينَ •
 هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا
 أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُوْتِي مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ
 تَعْقِلُونَ • هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ • أَلَمْ تَرَ
 إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنِّي يُضْرَفُونَ • الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَإِنَّا أَرْسَلْنَا بِهِ
 رُسُلًا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ • إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ • فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ
 فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ • ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ • مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا
 بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ • ذَلِكَ بِمَا كُنتُمْ
 تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ • أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا
 قَبْلُ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ • فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِنَّمَا تِرْيَاقُ بَعْضِ الَّذِينَ نَعِدُهُمْ أَوْ
 تَوَفِّيكَ قَالَيْنَا يَرْجِعُونَ • وَتَقَدَّرْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ
 وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ
 اللَّهِ فَضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ • اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا
 وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ • وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى
 الْفَلَكَ تُحْمَلُونَ • وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيُّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ • أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ
 فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي
 الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ • فَلَمَّا جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَحُوا بِمَا
 عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ • فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ

وَحَدَّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ
 اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ *

﴿ التفسير اللفظي ﴾

قال تعالى (إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم) سواء أكانوا هم مشركي مكة أم اليهود
 الذين قالوا : ولست أنت الذي وعدنا بك بل هو المسيح ابن داود يبلغ سلطانه البر والبحر وتسيره الأنهار «
 أم غيرهم ، فهؤلاء (إن في صدورهم إلا كبر) أي إلا تكبر عن الحق فلا يتفكرون ولا يتعلمون ، وإنما
 يقولون الملك والنبوة فينا (ماهم بيالغيه) أي بيالغى مقتضاه من الرئاسة والنبوة (فاستعد بالله) أي فالتج
 إليه من كيد من بحسبك ويبنى عليك (إنه هو السميع البصير) بعمك وعلمهم (تخلق السموات والأرض
 أكبر من خلق الناس) ذلك لأنهم كانوا يجادلون في البعث ، فمن قدر على خلق السموات والأرض مع عظمتها
 فهو على خلق الانسان أقدر (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) لا يتأملون لخلقهم (وما يستوى الأعمى والبصير)
 الغافل والمستبصر (والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء) أي والمحسن والمسيء ، فاذن لا بد لهم من حال
 فيها يظهر التفاوت وذلك بعد البعث ، فهنا ﴿ برهانان : البرهان الأول ﴾ لجواز البعث الثاني لوجوبه اقتناعا
 (قليل ما تتذكرون) أي تذكر قليلا تتذكرون (إن الساعة آتية لا ريب فيها) في مجيئها لما تقدم من
 الدليلين (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) لا يصدقون بها لقصور نظرهم (وقال ربكم ادعوني أستجب لكم)
 أي ادعوني أنبكم . وروى انه ﷺ قال وهو على المنبر « الدعاء هو العبادة ثم قرأ - وقال ربكم ادعوني
 أستجب لكم - » (إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) صاغرين (الله الذي
 جعل لكم الليل لتسكنوا فيه) لتستريحوا فيه بأن خلقه باردا مظلما ليؤدى الى ضعف الحركات وهدوء الحواس
 (والنهار مبصرا) يبصر فيه أوبه (إن الله ليرفضل على الناس) لا يوازيه فضل (ولكن أكثر الناس
 لا يشكرون) جهلهم بالنعم واغفالهم مواقعها وجهلهم بالنعم (ذلكم) الذي انصف بتلك الصفات (الله ربكم
 خالق كل شيء لا إله إلا هو فأتى توفكون) فكيف ومن أي وجه تصرفون عن عبادته الى عبادة غيره ا
 (كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يحدون) الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم
 فأحسن صوركم) بأن خلقكم منسجي القامة ، أعضاء كم متناسبة ، متهيئين للعلوم ، وللصناعات ، واكتساب
 الكمالات (ورزقكم من الطيبات) النافعات والذائد (ذلكم الله ربكم تبارك الله رب العالمين) وكل ما سواه
 مرهوب مقتدر اليه (هو الحى) المفرد بالحياة (لا إله إلا هو فادعوه) فاعبدوه (مخلصين له الدين) الطاعة
 من الشرك والرياء (الحمد لله رب العالمين) . ولما طلب الكفار منه عليه الصلاة والسلام عبادة الأوثان نزل
 (قل إنى نهيتم أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاء فى البيئات من ربي) بالوحى والقرآن (وأمرت
 أن أسلم) أن أستقيم وأتقاد (رب العالمين) هو الذى خلقكم من تراب) بخلق أبيض آدم منه أو بخلقكم أتم
 من تراب اقلبت عناصره بالتغذية نباتا وحيوانا فكان منهما غذاؤكم ومنه كانت أجسامكم فكان منها نطفة
 فطفة فضغة فتخرجون أطفالا وهذا قوله تعالى (ثم من نطفة ثم من علقه ثم يخرجكم طفلا) أي يخرج كل
 واحد منكم طفلا ، وقد وضع هذا المقام فى سوابق هذا التفسير (ثم) يبيكم (لتبلغوا أشدكم ثم) يبيكم
 (لتكونوا شيوعا ومنكم من يتوفى من قبل) من قبل الشيخوخة ، أو من قبل بلوغ الرشد (و) يفعل ذلك
 (لتبلغوا أجلا مسمى) وهو وقت الموت (ولعلمكم تعقلون) مافى تقلبكم فى تلك الأدوار من العبر والحجج فان
 أبلغ الحجج ما أحسن به الانسان من نفسه (هو الذى يحيى ويميت فاذا قضى أمرا) أي أرادها (فإنما يقول

له كن فيكون) فلا يحتاج في تكوينه الى عتة أو كلفة (ألم تر الى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون)
 عن التسديق به ، وإنما كثر ردم المجادلة لأنها هي الغالبة على نوع الانسان تكبرا وعنادا وتقليدا وتمسكا
 بالعادات (الذين كذبوا بالكتاب) بالقرآن (وبما أرسلنا به رسلا) من سائر الكتب (فسوف يعلمون *
 إذا الأغلال في أعناقهم) أى فسوف يعلمون جزاء تكذيبهم وقت ماتكون الأغلال في أعناقهم واذ للمضى
 عبرها عن المستقبل لتيقنه كقوله - أنى أمر الله - ثم قال (والسلاسل يسحبون) بها (في الجحيم) في الماء
 الحار (ثم في النار يسجرون) يقال سجر التنور اذا ملاء بالوقود ، ومعنى ذلك أنهم في النار فهمى محيطة بهم
 (ثم قيل لهم) أى قول لهم انخرنوا (أين ما كنتم تشركون * من دون الله) يعنى للأصنام (قالوا ضلوا عنا)
 غابوا عن صيوتنا فلا تراهم (بل لم نسكن ندعوا من قبل شيا) أى تبين لنا أنهم لم يكونوا شيا ، تقول حسبت
 فلانا شيا فاذا هوليس بشئ ، وذلك اذا خبرته فلم تر عنده خيرا (كذلك يضل الله الكافرين) أى كما أضل
 هؤلاء المجادلين يضل سائر الكافرين الذين علم منهم اختيار الضلالة على الهدى (ذلكم) العذاب الذى نزل بكم
 (بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفرحون) أى بسبب ما كنتم تبطرون وما كنتم تتفألون
 (ادخلوا أبواب جهنم) السبعة (خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين) عن الايمان جهنم ، ثم خاطب النبي
 ﷺ قائلا (اصبر إن وعد الله حق) بنصره على الأعداء ، أقول لاجرم أن ذلك النصر يمتد الى كل صادق
 في نصر دينه (فاما زينك بعض الذى نهدهم) من العذاب في حياتك كالقتل يوم بدر فذاك (أو) أن
 (توفيك) قبل ذلك (قالينا يرجعون) يوم القيامة فننقم منهم أشد الانتقام (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك)
 الى أممهم (منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) ولم نذكر لك حال الباقيين منهم ، وما منهم من
 أحد إلا أعطى آيات ومعجزات وقد جادله قومه وكذبوه فيها وما جرى عليهم يقارب ما جرى عليك كما جاء في
 مثل سليمان عليه السلام « ما تحت الشمس من جديد » وكما يقول العلماء « التاريخ يعيد نفسه » وقد
 صبرا ونصروا فاصبر وستصبر ، يقال ان عدد الأنبياء ١٢٤ ألقبى والذين ذكرت قصصهم أشخاص معدودة
 (وما كان لرسول أن يأتي بأية إلا باذن الله) وهى المعجزات إلا عطفا قسمت بينهم كسائر العطايا والنعيم
 ليس لهم في هبتها مدخل (فاذا جاء أمر الله) بالعذاب في الدنيا والآخرة (قضى بالحق) باسعاد الحق واشقاء
 المبطل (وخسر خالك المبطلون) المعاندون باقتراح الآيات . ولما كانت الآيات المقترحات ليس لها إلا نتائج
 ظاهرة كما شرح في هذا التفسير ، وإنما الأمر يرجع الى النظر في العجايب أردفه بقوله (الله الذى جعل لكم
 الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون) فان من جنسها ما يؤكل كالغنم ، ومنها ما يؤكل ويركب وهو الابل (ولكم
 فيها منافع) كالألبان والجلود والأرباب (ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم) أى تحمل أقالكم من بلد الى بلد
 في أسفاركم وحاجاتكم (وعليها وعلى الفلك تحملون) أى وعلى الابل في البر وعلى السفن في البحر (ويرىكم
 آياته) دلائل قدرته كما قال في أول السورة - هو الذى يرىكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا - وسيأتى
 قريبا لماذا قال هنا ريرىكم آياته بعد ذكر الأنعام (فأى آيات الله تنكرون) فتقولون انها ليست من عند
 الله وهذه هى الدلائل القائمة في أنواع المخلوقات من الحيوانات ، ثم أردفها بدلائل آيات الأمم الظالمة وكيف كان
 التكذيب بالآيات الكونية سببا في خراب الأمم فقال (أفلم يسبروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين
 من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الأرض) قصورا ومصانع (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون)
 أى لم ينفعهم كسبهم (فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا) رضوا (بما عندهم من العلم) كأن يقولوا لن
 نبعث ولن نعذب وكان يقولوا نحن نحسن علوم السياسة والزراعة والصناعة والامارة ونظام المدن فهل بعد
 هذا علم ؟ (وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن) أى وحاق بالكافرين جزاء جهلهم واستهزأهم (فلما رأوا بأسنا)
 شدة عذابنا (قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين) يعنون الأصنام (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما

رأوا بأسنا) أى فلم يصح ولم يستقم أن ينفعهم إيمانهم (سنة الله التى قد خلت فى عباده) أى سن الله ذلك سنة ماضية فى العباد وهذا مصدر مؤكد (وخسر هناك) أى وقت رؤيتهم البأس فهو اسم مكان استيعاب للزمان (الكافرون) انتهى التفسير اللفظى للقسم الرابع من السورة

١ - ﴿ لطيفة فى قوله تعالى .. ويرىكم آياته فأى آيات الله تسكرون - ﴾

ذكر الله الأنعام وأعقبها بذكر آياته برينا الآيات ، وقد جاء فى أول السورة - هو الذى يرىكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما ينزلكم إلا من ينبى -

تبين فى سور كثيرة فى هذا التفسير أن الرزق والحكمة متلازمان ، أنزل الله الأنعام والزرع لرزقنا الجسمى والعقلى ، كرم الله ذلك فى القرآن ليبين لنا أن هذه الحياة لم تكن طواولعبا ، اتنا مخلوقون فى عالم كله جبال وكال وحكمة وعلم ، فالويل لمن استمر المرعى وغفل عن نظامه ، إن الأمر لجد فليتهز المسجون الفرصة أيام حياتهم ، وليتأهلوا من تلك النعم رزقا وعلما ، ومن لم يوجهوا عنايتهم الى اقتحام الأخطار وتجنب المشاق ودرس هذه العوالم ويبحثها لا يتألون دنيا بها يتمتعون ، ولا آخرة بها يرقون ، فلبشمر المسجون عن ساعد جدهم - والذين جاهدوا فىنا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين -

م أرجع الى هذا المقام فى ﴿ سورة النحل ﴾ تأمل هناك كيف ذكر الأنعام وأنه خلقها لنا لنستدق بأموافها وأوبرها وأشعارها ، وننتفع بلحمها وشحمها ولبنها ، وأنها لنا جبال فى غدوها ورواحها ، وأنها تحمل أقتالنا الى بلاد نائية ، وكيف ذكر الخيل والبغال والحمير ، وأنها للركوب والزينة ، ثم قال - ويخلق ما لا تعلمون - . فانظر كيف يقول هناك - ويخلق ما لا تعلمون - شق ما ذكره ويقول هنا - ويرىكم آياته - ويقول فى ﴿ سورة البقرة ﴾ بعد الكلام على ذبحها - كذلك يحيى الموتى ويرىكم آياته لعلمكم تعقلون - انظر : لماذا يقول هناك - ويرىكم آياته - ويقول فى النحل - ويخلق ما لا تعلمون - ويقول هنا - ويرىكم آياته - التعل مضارع فى الجميع ، ولقد علمت الاجابة فى ﴿ سورة البقرة ﴾ أن الأرواح لها وجود وهى تكلم الناس فالرجع اليه ، فهذا رمز لما حصل فعلا فى هذا الزمان من مخاطبة الأرواح ، وكذلك مر بك فى ﴿ سورة النحل ﴾ كيف كان ذلك إخبارا بما حصل فعلا فى أيامنا من الكهرباه والآلات المحركات بالبخار فان الكهرباه أصبحت تعطى الناس مانعطيها الأنعام من حرث ونقل فى البر والبحر ، فهذا معنى قوله هناك - ويخلق ما لا تعلمون - وأشار له هنا بقوله - ويرىكم آياته - أى التى بها تتألون ما تنتموه من الأنعام النافعة لكم فى حياتكم (انظر هذا المقام واضحاً فى سورة النحل وتفطن)

لقد تبين لك أن (حم) تشير الى الحمد ، وأن الحمد مرجعه العلم كما شرح فى هذا التفسير مرارا ، وآية ذلك انه قد تكرر الحمد هنا ، فبينما تراه فى آخر ﴿ سورة الزمر ﴾ اذا هو فى حيز الكلام على حلة العرش يسبحون بحمد ربهم ، ثم فى قوله تعالى أمرا لرسوله ﷺ واستغفر لذنوبك وسبح بحمد ربك بالعشى والابكار . وأخيرا فى الكلام على عجائب الحكمة من جعل الأرض قرارا والسماء بناء وتصويرنا فى أحسن صورة ورزقنا من الطيبات إذ ختم هذا المقال بقوله « الحمد لله رب العالمين »

﴿ تذييل التفسير فى سورة حم غافر ﴾

والكلام فيه على « مقصدين : المقصد الأول ، فى قوله تعالى - وصوركم فأحسن صوركم - وقوله تعالى - الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها - الخ « المقصد الثانى ، فى قوله تعالى - النار يعرضون عليها غدواً وعشيا -

المقصود الأول . في تصوير يشمل الانسان والحيوان

ولنخص الكلام على التنفس فنقول :

التنفس الرئوي في الانسان والحيوان

التنفس انما يكون في الحيوان برئات هوائية مثل رئة الانسان . والرئة تكون في الحيوانات الرخوة كهيئة شبكة العنكبوت ، وأرقى من ذلك في الضفادع فهي فيها وعاءان ، وفي الحيات كيس مستطيل فيمخلبا كثيرة ، وفي ذوات الثدي والطيور عضو اسفنجي البناء كالبقرة والجاموس ، وللطيور رئة تناسب حالها في طيرانه

صفة الرئة العامة

جسمان اسفنجيان موضوعان في الصدر ، وظاهر كل منهما متصل بباطن الأضلاع ويتصلان بالقم بقصبة غضروفية يدخل فيها الهواء ، وهذه القصبة متى وصلت الى الرئة تتحول الى شعبتين كل شعبة تدخل رئة تصير شعبا كثيرة منبثة في الرئة اليمنى والرئة اليسرى ، ويصير كل فرع من الفرعين في كل رئة من الرئتين مشبا بكيس وهذا الكيس متصل بالهواء الخارجى بأنبوية صفاقية تخترق الرئة حتى تخرج منها في أعلى الصدر ، واجتماع الأنبوبتين تكون القصبة الغضروفية . والدم اذا عاد من أطراف الجسد بواسطة الأوردة يصب في الأذنين الأيمن من القلب ويسير منه الى البطين الأيمن ويخرج من البطين الأيمن المذكور بشريان كبير يقال له الشريان الرئوي وهو يسير الى الرئتين ويتفرع فيهما كما تتفرع شعب القصبة فننتهي الشعب بالأنايب الهوائية وننتهي الشرايين بالشبكة الشعرية . فاذا دخل الهواء في المسالك الهوائية وانتهى الى الخلايا الهوائية أصبح مجاورا للدم في الأوعية الشعرية . فاذا تمتص الدم الاكسوجين من الهواء وبتفت فيه حامض الكربونيك بقوة حيوية لم تدركها عقول الناس . وحينئذ يدخل الدم في البطين الأيسر والأذنين الأيسر ويتفرع في سائر الجسم اه

لعلك تقول نحن الآن في تفسير القرآن والقرآن سهل . وهذه الألفاظ التي سمعناها الآن لانفهم . فما هو البطين وما هو الأذن وما معنى هذا المقام ؟ أقول لك : إن هذا المقام مقام العجائب والحكمة . انظر الى القلب . انه فيه أربع تجاويف كأنها أربع غرف غرفتان في أعلى وهما صغيرتان وغرفتان في أسفل وهما كبيرتان . والصغريان تسمى كل منهما (أذن) أعنى أذن صغيرة تشبها لها بالأذن . والكبيرتان يقال لكل منهما بطين أي انها كالبدن والبطن أكبر من الأذن . هكذا هاتان أكبر مما فوقهما

ولعلك تقول قد فهمت . إذن أقول لك ان لنا حنجرة وهي القصبة الهوائية . وهذه القصبة تنفرع فرعين كل فرع يدخل رئة من الرئتين كما تقسم . والفروع المنفرعة من الفرعين تكون منتهية بما يشبه الكيس يدخل الهواء فيه من القم . وهذا الهواء الآتي من القم معد لتطهير الدم والدم يأتي من أطراف الجسم في العروق التي يقال لها الأوردة لأن الأوردة تحمل الدم الذي يحتاج الى الإصلاح وهو الدم الوريدي والشرايين تحمل الدم الشرياني أي الذي حصل اصلاحه بالهواء كما سترى . فهذا الدم الذي جاء من طريق الأوردة يصل الى الأذنين الأيمن . وهناك فتحة بين الأذنين الأيمن والبطين الأيمن تفتح وتغلق والقلب أشبه بالآلة الماصة السكابة فينزل الدم من الأذنين الأيمن الى البطين الأيمن تحته ويخرج من البطين الأيمن في الشريان الرئوي وهو يمتد الى الرئة ويتفرع فيها فروعاً شعرية دقيقة . وقد علمت مما مر أن القصبة الهوائية لها فروع منبثة فيها هواء . فههنا تجاوزت الفروع الهوائية الآتية من القم والفروع الشعرية الآتية من الشريان الممتد من البطين الأيمن . وهناك يتلاقى الدم والهواء ويحصل التفاعل بينهما

فاظهر كيف جرى الدم وسار في مسالك في الجسم ثم جرى الى الأذنين الأيمن والبطين والشريان الرئوي

واتمى الى الهواء الآتى من الخارج . وكيف استمرّ هذا العمل ليلا ونهارا والناس لا يعلمون بل ربما يعيش الانسان ويموت وهو لا يدري عن هذا ولا عن غيره شيئا ، ومتى طهر الدم سار في كل من الاذنين الأيسر والبطين الأيسر وخرج الى الجسم في الأورطي وهو يتفرّع الى فرعين فرع يمتد الى أعلى الجسم وفرع الى أسفل ويتفرّع فروعا لتحصي في سائر الجسد لتغذيته وهكذا ، ومتى اتصلت بالور يصلات الجسمية وتغلّت بها رجعت عكورة الدم المتحددة بالمادّة الفحمية وهو الكريون الى القلب بطريق الأوردة وهكذا ، وانما أطلت لك في هذا المقام لأن المدار ليس على كثرة العلم بل المدار على الفهم والتعلل وهذا مقام دقيق يحتاج الى البسط والشرح الدم جاء من الأغذية الداخلة من الفم الى المريء الى المعدة الى الامعاء وخلصته تذهب في الأوعية الشعرية وتدخل الكبد ويطحخ هناك وتخرج منه الصفراء ويخلص منه السوداء والماء ويتجه كل الى مقره فلأولى في المرة الصفراء والثانية في الطحال والثالثة تذهب الى الكلى ويبقى الدم فيدخل مع الدم الشرياني في السورة ، فهذا الدم الآتى من الغذاء محتاج الى الهواء لتجديد مادّة الحياة فيه فهو للدم أشبه بالماء بالنسبة لظاهر الجسم من حيث ازالة المضار فكما أن الماء نشربه وتنظفه هكذا الدم يتطهر بالهواء ويأخذ منه مادّة الحياة كلما ضعفت . هذا ما أردت ذكره في هذا المقام والحمد لله رب العالمين

٢ - (المقصد الثاني) في قوله تعالى - النار يعرضون عليها غدوا وعشيا -

قد ذكرت لك أن علماءنا رحمهم الله قالوا « إن هذه الآية تدل على عذاب القبر ، واذن لا بد أن أذكر لك شذرات من كتاب الأرواح الذي ألفته لهذا الغرض واني أجد الله عز وجل إذ جعل بيني وبين تفسير القرآن حائلا مدة نحو (١٣) سنة مع اني كنت أدرسه في مدرسة دار العلوم وكانت الفرصة سانحة لتتميمه فأراد الله أن يسلط رجال السياسة على وأنا في (دار العلوم) فوشوا بي وقالوا للانجليز انه يعلم تلاميذه الوطنية فنقلت من تعليم طلبة دار العلوم الذين يفهمون الى تعليم تلاميذ الثانوى اللغة العربية لا غير واقطع التفسير وبقى ما كتبت محفوظا عندي حتى انتهت الحرب العظمى ودارت الأيام وانتهت من أعمال الحكومة وفي أثناء هذه السنين اطلعت على علم الأرواح وألفت فيه الكتاب المذكور ، فلولا نعمة الله التي كانت بحسب ظاهرها نعمة وهي تأخير التفسير مع مسيس الحاجة اليه وشغف الطلبة والعارفين به ما أمكن شرح هذا المقام ولا اظهار ما أبرزه الله في العالم الانساني من الخبايا الروحية التي تنطق بمصدق القرآن ، فكلم الله من نعمة اختبأت في ظواهر النقم ، فلا شرع في نقل شذرات من ذلك الكتاب الذي ألفته لهذا المعنى ، فقد جاء في مقدمة ذلك الكتاب ما يأتي :

ألا فيعلم المسلمون في أقطار الأ... أن المحافل الروحية والجامع النفسية في البلاد الاوروبية قد فطقت فيها الأرواح على مرآى ومسمع من مجالس شوراهم والملا من قومهم ومجالس الشيوخ والأعيان في أمريكا وغيرها كما سترونه مفصلا ومبيناً بما تبيان ، لقد شرحت الأرواح ماشاهدته في عالم البرزخ من نعيم وبؤس وهناء وعناء وخاطب الأموات الأحياء والآباء الأبناء فأنصت الجمع وكفكف الدمع وجاءت البشرية بالحياة الأخرى وقال الأموات للأقرب والاخوان « وان الدار الآخرة لمي الحيوان » فصدق الله وعده ونصر عبده وأعز جنده ، وجاء الحق وزهق الباطل ، وفرح المسؤل وفتح السائل

فهل نقف نحن معاشر المسلمين أمام هذا الحادث صامتين ، إنه ليعيب فاضح وخطأ واضح وشين مبين ، نحن أحق بهذا العلم من الغربيين ، إن الأمر لجليل يعوزه كتب تولف وجامع تحفشد وعلما تفتقد ، أنا لست في كتابي هذا أثبت العلم الروحي غيب ، فلقد سبقتم اليه من نشروا الفكرة وأذاعوا أمره بين اخواني المصريين ، انما الذي أدهشني ما عثرت عليه من المحاورات بين الأرواح فلا طمقة من عالم الغيب وبين الأحياء في الجامع العالمية . وكيف كانت آراؤها وتعاليمها تذكرني كثيرا بما طالعت في أمهات الكتب الاحلامية وما جاء

عن السادة الصوفية . أليس من واجبي أن أنشر تلك المطابقات الحجية بين أئمتنا الاسلامية . انه لحرام على أن
أنمض العين ولا أتهدر الفرصة فأذكر كل حادثة من حوادث العجائب الروحية بما يطابقها من كلام أئمتنا الاسلامية
مينا الكتاب والصفحة واسم المؤلف

سيجب المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها اذا جاءهم هذا النبأ الذي عنه يتساءلون من ذا الذي كان
يدور بخلداه أو يهيجس بخاطرهم أن ما جاء من نعيم القبر وعذابه في دينا يعرض اليوم عرضا على الجامع الأوروبية
التقسية كمثل الحاكم الالماني بيلون الذي مات وعمره ٧٩ سنة وقد استغاثت روحه من اضطهاد بقبين له
وحققوا فوجدوا ثبوت غدره باليتامى في دفتار الحكومة في تلك الأقطار

أم من ذا الذي يسمع بحادث مدينة ونجرج اذ تجلت روح محاسب ارتكبت الخيانة فطلب أن تساعده
أرملته اذ دخلها على المسكان الذي أخفيت فيه تلك الدفاتر ففعلت ما طلب وخضع عنه بعض ما يجذب من العذاب المهين
بل من ذا الذي يسمع بحادثة مدينة انجوليم ولا يكون من الموقنين وهي من حوادث لاعداد لها في الجامع
النفسية الروحية . ذلك انه مات غنى بخيل فأحضرت الجمعية روحه فقال هاتوا لي ذهبي ومالي لم أخذتموه في حديث
طويل ستقرؤه مفصلا في الكتاب

أنالست في كتاب الأرواح أسرد الحوادث المنقولة سهلا ولكني أجد ذلك يطابق مانص عليه الغزالي وغيره
بطريق الكشف وكيف قال ان عذاب القبر على هذا الأسلوب وستراه مفصلا في الكتاب

من وقف على أسرار دين الاسلام في أمهات الكتب العلمية عرف ما للذنوب القلبية من الحد والكبرياء
والطمع والجشع من الأثر في العذاب وان العلاقة متينة ثابتة مؤكدة بينهما عند الممات . وكذلك ليس للمرء
من كمال الأعمال العظيمة لبني الانسان . لما قرأت بحوادث الأرواح التي سترها ألفتها جهات مصدقة لما قرأته
في كل كتبه فأبنت المطابقة في هذا الكتاب . وفي الحديث : من كتم علما ألجه الله بلجام من نار يوم القيامة
أفلا يجب نشر هذا التفصيل لآخواني المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ان ذلك يأمر به الدين

نعم لقد بزغ بزوغ الشمس للورى قوله تعالى - يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا - ونبت بالبراهين
و بقين الصدق . قوله تعالى - سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق -
وجاء في صفحة ٣٣ منه وما بعدها ما يأتي :

قال العلامة زين الدين محمد المدعو عبدالرؤف تاج العارفين ابن زين العابدين الخمداني القاهري المعروف
بالمناوي المولود سنة ٩٥٢ المتوفى بالقاهرة صبح يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر الخبيرة سنة ١٠٣١ على
قصيدته النفس لابن سينا صفحة ٣٢ ناقلا عن الغزالي ما يأتي :

والعالم من محرك القلب التاسع من الصفحة التي تلي جهة فوق الى التي تلي جهة أسفلا من أوله جنونا
وملائكة وما يعلم جودريك الاحو الى أن قال ولا يقبني أن بشكر متكرر ذلك وقد شهد شعاع الشمس وروحانية
و بسالته حتى ان قرصها يكون بالقرب وشعاعها بالشرق فهاهو الآن يغيب خلف جبل فيقطع الشعاع الذي
بالشرق بلازمان فلو كان جسما ما قطع في عدة سنين واذا أخذت مرآة وعكست بها الشعاع انعكس الى حيث
شئت ثم قطعه لاقى زمان . وجوهر الشعاع بالاضافة الى جوهر النفس كشيء فليس في العالم موضع الا وهو
معمور بما لا يعلمه الا الله ولذلك أمر الشارع بالستر في الخلوقة وعند الجماع والعلامة مشحون بالأرواح اه

(ثانيا) قال المناوي نفسه في الكتاب المذكور نقلا عن الغزالي رحمه الله صفحة ٨٠ ما ملخصه أنه قال قد
ظهر بالمشاهدة ظهورا أوضح من العيان أن أصناف عذاب القبر ثلاثة أقسام فرقة المشتبهات وخزى خجل
الفاخحات وحسرة فوت المحبوبات

وهذه أنواع روحانية تتعاقب على الميتة إلى أن ينتهي إلى النار الجسدية . ففرقة المشبهات وهو أولها
وصورة المستعارة من عالم الحس والتخييل التبين الذي وصفه الشرع وعدد رهوسه وهي بقدر الشهوات وردائل
الصفات إلى أن قال . والثاني خزي خجل الفاضحات فإذا تطاول الزمن بعد الموت وقد احترق الفؤاد بفراقه ما يشبه
النفس من الأهل والأحباب والمال تحبوا نار ذلك الفراق بطول الزمن فتبدو إذ ذلك نار الخزي في القلب بما
ارتكبت من الذنوب والآثام ويرى نفسه في خزي وفضيحة أمام خالقه والعقلاء فإذا طال الزمن ألف الفضيحة
ثم تظهر آخر الأمر نار حسرة فوت المحبوبات من الأعمال العظيمة والعلوم اليقينية التي يرى غيره بها ارتقى
وذلك آخر ما يلقي من العذاب قبل ما يلج النار في الآخرة هذا ملخص ما ذكره المناوي نقلا عن الفزالي
صفحة ٨١ و ٨٠ ومما قال فيها بالحرف

ولا تنظن أن الله يغضب عليك انتقاما ثم يتخذ نفسك برجاء العفو فتقول لم بعدني ولم تصرفه معصيتي . إذ يلزم
العذاب من المعصية كما يلزم الموت من السم . وهذه الحسرة دائمة لا تزول أبدا انتهى المقصود منه بالحرف الواحد
(ثالثا) : قال في إخوان الصفاء الجزء الثالث صفحة ٣٩٢

واعلم أن النفوس المتجسدة الخبيثة ملائكة بالقوة فلا فارقت أجسادها كانت ملائكة بالفعل كذلك
النفوس المتجسدة الشريرة هي شياطين بالقوة فإذا فارقت أجسادها كانت شياطين بالفعل فهذه النفوس
الشيطنية بالفعل توسوس للنفوس الشيطانية بالقوة لتخرجها إلى الفعل كما قال تعالى - شياطين الانس والجن
يرحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا - فشياطين الانس هي النفوس المتجسدة الشريرة أنست بالأجساد
وشياطين الجن هي النفوس الشريرة المفارقة للأجسام المحتجة عن الأبصار وقال قبل ذلك ما ملخصه . ان هذه
النفوس الشريرة لم تفرقت الجسد وكانت معلقة بالذات والحواس والآلات اللذات حزنت وتمنت لورجعت
للذات كرة أخرى حينئذ تصبح النفس كأنها لاهية ولا مية كما قال تعالى لا يموت فيها ولا يحيا وتقول . يا ليتنا زد
فنعمل غير الذي كنا نعمل . يا ليتني كنت ترابا . هل لنا من شفعا فيشفعوا لنا . وقال تعالى - ولورثوا لعادوا
لمنهم وأنتهم لكاذبون - لما ركب فيهم من الأخلاق الشائنة وتبقى تلك النفوس متعلقة بأبناء جنسها المتجسدة
توسوس لهم وهكذا شأن الغافلين انتهى ملخصا من إخوان الصفاء

ثم جاء في صفحة ٣٨ وما بعد ما يأتي

قال شير محمد عندي سؤال آخر هام لطائفة على كتمه ولا مندوحة على من فهمه وذلك أني قرأت أحاديث
كثيرة في أمر عذاب القبر ونعيمه وأنها أمور جسمية لا معنوية وكيف يقنع المسلمون بقوله هذا وكأنني بمن يسمع
كلامك يقول هذا كلام فلاسفة خارج عن الدين وما تقول في قوله وَيَسْمَعُونَ « المؤمن في قبره في روضة خضراء
ويرحب له في قبره سبعون ذراعا ويضيء حتى يكون كالقمر ليلة البدر هل تدرون فيماذا أنزلت » فإنه معيشة
شسكا » قالوا الله ورسوله أعلم قال عذاب الكافر في قبره يسلط عليه تسعة وتسعون نينا هل تدرون ما لتنين
تسع وتسعون حية لكل حية تسعة رهوس يتخذشونه ويلحسونه وينفخون في جسمه إلى يوم يبعثون
قلت يا شير محمد ان لنا في الجواب عليه وجوها ثلاثة ذكرها الامام الفزالي فلنسر على منهجه ولنفسج

على متواله

(الأول) أننا نبقى الحيات والعقارب والتنانين على حالها بلا تأويل ونسلم أنها موجودة وجودا غير ما نعده .
ولنا في ذلك نظائر . ألم تر أن النبي ﷺ كان ينزل عليه جبريل والناس لا يرونه وهم به مصدقون . لما رأوا
من الآثار والعلم والحكمة وقد أجمع رجال الكشف من المسلمين أنهم يشاهدون صورة ويرفون أموراً يبجلها
سواهم وأنت تعلم أن الوسطاء المؤمنين بالفتح يشاهدون صوراً وأشباحاً ويخبرون بأمر . والناس حولهم
لا يبركون منها شيئا . أفليس لبيت أرفر حربة وأكثر انطلاقا وأوسع نطاقا . فلماذا يسعك أن تنصرو هذا وشئ

عليك فاستمع لما ألقىه اليك في

الوجه الثاني . ذلك اتنا نعتبر بحال النائم فاننا نرى نائمين في فراش واحد وقد قام أحدهما مذعورا كشيء وجلا خائفا مما شاهد وقت نومه . وقال الثاني قد كنت في حديقة غناء مع من أحب وهو مستبشر فرح بمالاق من المسرات والنعيم فلنتأمل الميت الذي صار أكثر حرة وأحد نظر من النائم فتكون الحية والتنين والعقرب موجودة بالنسبة له والحاضرون لا يعلون . فاذا عسر عليك هذا وأبيت أن تقبل فاستمع لما أقول في

الوجه الثالث . بأن نقول ان الحيات ليست مؤذية بذاتها وان المؤذى هو السم الذي نقتته من نايها فيدور مع السم فيكون الألم الشديد بل نفس السم ليس بمؤذ . ألا ترى الى ما حقه الأطباء ان سم الحية ان شرب ولاجرح في الفم ولا في مجرى الطعام الى المعدة صار غذاء لاداء قاتلا . وانما يؤذى ويضر الجسم اذا دار مع السم في العروق والشرايين . فهناك الأذى فالحية ليست بمؤذية ولا السم وانما هو الأثر الناجم من السم المفقود من الحية فكانت النتيجة أن اللذات والآلام كيفيات قد تصل الى الحس بطريق الأعصاب . والمدار على الأثر لا المؤثر . والآلام قسمان قسم جسمي وقسم روعي . فالجسمي اما من داخل وإما من خارج . والنفسي من الخارج إما من الحواس الحس . كالصوت الكريه في السمع . والمنظر البشع والمخزن أو الخيف في البصر . والروائح الكريهة في الشم والمر في النوق . والنفسي من داخل هي الأمراض وهي ترجع إلى انحراف المزاج عن اعتدال الطبائع الأربع وهي الصفراء والسوداء والدم والبلغم . ومن هذه تنشأ سائر الأمراض المتكاثرة

أما القسم الروعي فهو راجع الى الغضب والشهوة والجهل وعدم العدل . ولقد تفرع على هذه فروع كثيرة كتفرع رؤس الحيات وعدد التناين والحيات . فإذالم يترن الغضب بالشجاعة والعلم ولم تحفظ الشهوة بالعبقة . ولم يوصف العقل بالحكمة . ولم يكن اعتدال بين هذه القوى . كانت الآلام النفسية الموجعة التي تبقى في النفس بعد الموت . وهذا انحراف في الأخلاق كما أن المرض انحراف في المزاج . فاذا غلب الهم حدثت الأمراض الناجمة عنه . كما أن الغضب في الأخلاق يحدث عنه أمثال الاحقاد والضغائن واذا غلبت الشهوة حدثت أمور . كالعشق المنحرف عن المادة ومتى فارق المحب ما أحبه جزع . وهناك موازنة ما بين الآلام الجسمية بقسميها وما بين الآلام النفسية . ولنضرب لك مثلا بوضع المقام فنقول لتتخذ حاسة الحس مثلا فان الآلام الواصلة الى الجسم منها تكون بالضرب أو بالجرح مثلا . وتقابلها بالآلام الروحية لفقد المحبوب من مالي وعقار

فلو أن رجلا قيل له أعطني عقارك وضياحك وضرب ضرا بما وجعا فانه لا يترك مامله ولا يدع ما أحب ما يحس من الألم الناجم من فراق المحبوب وهو ما يملكه وهو أشد من الألم الناجم من الضرب المؤلم بطريق الحس . الا أنه لا يزال يوازن بين الألمين ويتحمل الأمرين ويرضى بتزيق جلده . حتى اذا أصبح ألم الجسم لا يطلق . وكادت تلفت الساق بالساق . هنالك يرى الألم الناجم من الضرب الجسمي أقوى من ألم فراق المحبوب فيتركه على قاعدة « اذا اجتمعت هلتان يقع الأخف »

(قال الامام الغزالي . والصفات المهلكات تنقلب مؤذيات ومؤلمات في النفس عند الموت فتكون آلامها كالآلام لبغ الحيات من غير وجود حيات وانقلاب الصفة مؤذيا يضاهي انقلاب العشق مؤذيا عند موت المشوق فانه كان لتبذنا فطرات عليه حال صار اللذيذ بنفسه مؤلما . حتى يرد بالقلب من أنواع العذاب ما يجنى معه أن لم يكن قد تنم بالعشق والوصال . بل هذا بعينه أحد أنواع عذاب الميت . فانه قد سلط العشق في الدنيا على نفسه فصار يشقى ماله وعقاره وجاهه وولده وأقاربه ومعارفه ولو أخذ منه جميع ذلك في حياته من لا يريد استرجاعه . فاذا ترى يكون حاله . أليس بعظم شقاؤه ويشد عذابه ويقول يا ليتني لم يكن لي مال قط ولا جاه فكنت لا أتأذى بفراقه فالموت عبارة عن مفارقة المحبوبات الدنيوية كلها دفعة واحدة

ماحل من كان له واحد * غيب عنه ذلك الواحد

فما حال من لا يفرح الا بالدنيا فتؤخذ منه وتسلم الى أعدائه ثم يضاف الى ذلك الحسرة على ما فاتته من نعيم
الآخرة انتهى المقصود منه
وجاء في صحيفة ٤٤ ما يأتي

﴿ المجلس الرابع ﴾

(في الروح التي أخبرت بموتها وزمنه وفي قوة علم النوع الانساني ومقارنات شتى)

بين أقوال الأرواح وبين القرآن والحديث الشريف

فلما أن جاء الشيخ شير محمد والتأم المجلس شرع بطالبي بما وعدته في المجلس السابق فقلت حبا وكرامة
أما القصة الأولى فهي ما قاله في الكتاب المذكور في صفحة ٦٣ ونصه بالحرف الواحد روى العلم جاردى
نقلا عن إحدى الجرائد الروحانية الألمانية الحادث الآتي :

في اليوم الثالث من شهر آب ١٨٨٢ قعد ثلاثة أشخاص من مدينة . ح . حول طاولة لمساكنها . فلما
استقرت بهم الحال . أخذت المائدة تتحرك اشارة الى رغبتها في التسكلم . فدار بينهم الحديث الآتي :

(س) من الطارق . ح : خياط مقتول

(س) كيف قتلت . ح : مرّ على قطار فداسني

(س) متى كان ذلك . ح : منذ ثلاث سنين

(س) وأين تم ذلك . ح : في أوتتر بارمن

(س) أي يوم . ح : في ٢٩ آب سنة ١٨٧٩

(س) ما اسمك . ح : سيجوار ليكويبيسك

(س) أين كان مقرك . ح : في بارمن

(س) هل والدك في قيد الحياة . ح : نعم

(س) أكنت معلما أم صانعا . ح : كنت أجبر صانع

(س) في أي سن قتلت . ح : في السابعة عشرة من عمري

(س) هل تستحسن أن نبلغ ذلك لوالديك . ح : كلا

(س) لماذا . ح : لأنهما لا يعتقدان الحياة بعد الموت

(س) ربما هنا يقنعهما . ح : لا يشؤونكم من ذلك الا السخرية

(س) كيف تمّ حادث قتلك .

(ح) كنت ذاهبا لزيارة أُنسبائي في أوتتر بارمن واذ كنت ماشيا في طريقني لم ألمح لصف بصرى فقوم

القطار فترّ على وداسني

(س) بما اذا تشغل الآن . ح : لا أستطيع وصف ذلك .

فهب الحضور من هذه الرواية وقصدوا أن يتحققوا صحتها فكتب أحدهم في اليوم الثاني الى مديرية

بارمن ليستقصي الخبر فورد اليه الجواب من رئيس الشعنة في ١٧ آب سنة ١٨٨٢ وهاك نصه : اجابة لطلبكم

رقم ٨ الجارى أُنشرف باعلامكم أننا على أثر مطالعتنا سجلات المديرية وجدنا أن الصانع انلياط المدعو

سيجوار ليكويبيسك وله من العمر سبع عشرة سنة بينما كان مارا في طريق اوتتر بارمن ليلة ٢٦ آب سنة ١٨٧٩

الساعة ١١ والدقيقة ١٤ مر من فوقه قطار السكة الحديدية فصبه ونسبت قضبته الى نجول القليل جهلا منه في

طريق القطار . ٥١

اللطائف العامة لأقسام السورة كلها (١)

﴿ اللطيفة الأولى ﴾

(في قوله تعالى - هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه - الى قوله - فانما يقول له كن فيكون - مع قوله - الله الذي جعل لكم الأنعام - الى قوله - فأى آيات الله تشكرون - مع ملاحظة آية - خلقكم من نفس واحدة - التي في سورة الزمر الى قوله هناك - فيلبسكم بما كنتم تعملون - وقوله فيها - خلق السموات والأرض بالحق - الى - من الله العزيز الحكيم -)
 فهنا خلقنا وخلق أنفاسنا ، وانه حكيم ، وانه خلق هذه العوالم بالحق ، وانه يرضى لنا شكر النعمة ولا يرضى لنا كفرها ، ولا جرم أن المجهول لا يشكر عليه ، إذن المعلم هو الذي يكون عليه الشكر ، وعلى قدر جهل الانسان بالنعمة يكون كفرها وعلى مقدار معرفة حقائقها والعمل بها يكون شكرها ، إذن المسلمون اذا جهلوا الأنعام ونحوها فهم كافرون بنعمتها والله لا يرضى لنا ذلك الكفر ، وأنت عليم أيها الذكي أن شكر النعمة تقم تفسيره تكرارا في هذا التفسير ، ذلك ان شكرها صرفها فيما خلقت له وذلك لا يكون إلا بعد المعرفة فمن عرف نعمة المحسن أحبه وأثنى عليه بلسانه وذلك هو الحمد وأطاعه بتسخير أعضائه كلها له ، إذن هنا قلب عرف فأحب ولسان أثنى وجوارح تسخر في مصالح المشكور والمشكورها هو الله والله غني ، إذن يجعل الانسان كل مواهبه مسخرة لعباد الله ، هذا هو شكر النعمة الذي أساسه المعرفة ، والمسلمون اليوم في أقطار الأرض محروم أكثرهم من معرفة هذه العوالم ، والحرمان من المعرفة يبعث على التقصير في الشكر فوجب على إذن في هذا المقام أن أصطفى نبذا جيلة مفيدة للمسلمين كنموذج لمعرفة علم الحيوان ، ولأخص من غوامض العلم ماتقع أعين الناس عليها وهم عنها غافلون

لما وصلت الى هذا المقام حضر صديقي العالم الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير . فقال : ماذا تريد أن تقول في علم الحيوان ؟ ألم تكتب عنه مقادرا كبيرا في ﴿ سورة النحل ﴾ عند آية - وان لكم في الأنعام لعبرة - الخ وفي ﴿ سورة طه ﴾ نبذا جيلة مصورة بالصور الشمسية البديعة وهكذا في آخر ﴿ سورة الحج ﴾ إذ بينت هناك كيف تقسم الحيوانات الى فقرية وغير فقرية ، وجعلت التباينة المذكورة في الآية محور التقسيم ناقلا من العالم الفرنسي الذي كان يتحدث تلاميذه في أمر التباينة وانها عند عصرها لا يرى لها عظم ولا دم والحسان عند نهشيمة يرى له دم وعظم ، وهناك اتقسمت المملكة الى هذين القسمين وهكذا . ثم إنك في ﴿ سورة النور ﴾ أطلت في هذا المقام ورسمت الصور الحيوانية والنباتية المقسمة على المناطق الأرضية كلها . وهناك إيضاح تام عند قوله تعالى - والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمضي على أربع - الخ وهكذا في ﴿ سورة النمل ﴾ شرحت أحوال النمل شرحا وافيا كما شرحت أحوال الحشرة المسماة بالأرضة وأبنت عجائبها البديعة في ﴿ سورة سبأ ﴾ عند آية - مادهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته - وفي ﴿ سورة الروم ﴾ رسمت صور الحشرات والطيور والتعابين المختلفة الألوان لتبين أن الألوان التي اتصفت بها هذه الحيوانات كانت سببا في حفظ ماشا كلها بهذه الألوان من الحيوانات الأخرى التي خلت من سلاح المقاومة والحفظ وهذا كما اتضح في أول الروم في آية - واختلاف ألوانكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين - واتضح أيضا في ﴿ سورة المؤمنین ﴾ في أولها عند قوله تعالى - وما كنا عن الخلق غافلين - فهناك حيوانات كثيرة مرسومة حفظت بما منحت من الهيئات الخاصة

(١) هذه اللطائف لم تسطر إلا عند طبع هذه السورة ولم يكن لها وجود عند التأليف : المؤلف

والألوان المناسبة لحاها بخلاف تلك المرسومات في ﴿سورة الروم﴾ فإن منفعة ألوان الحيوان تعدت الى حفظ غيره لأن مشابهة ما ليس له سلاح لماله سلاح من الحشرات ونحوها هي التي أخافت الحيوانات المفترسة طرده الحشرات ونحوها فسارت محفوظة ، ذلك كله ظاهر وقد تقدم كما تقدم في ﴿سورة فاطر﴾ بحجاب أنواع الریش في مختلف الطيور ونحو ذلك وهكذا تقدم هناك بحجاب المعدة والامعاء وأعصاب الحس وأعصاب الحركة وما شابه ذلك كله تقدم موضحا أيضا كما أوضح في ﴿سورة السجدة﴾ عند آية - الذي أحسن كل شئ خلقه - الخ هذا كله تقدم في هذا التفسير ، فما الذي تريد أن تقوله اليوم في علم الحيوان ؟ فقلت : أنا أسألك سؤالاً في علم الحيوان . فقال سل . فقلت : ما تقول في نوع السحالي والبرص والحرباء ، أضرار هذه أم نافعة ؟ فقال : لا أدري . فقلت : ما الفرق بين الثعابين السامة والتي لا سم لها حتى تقتل الأول ولاقتل الثاني ، وما الثعابين الذي يعمل الحواة في بلادنا المصرية ؟ وهل هو سام . فقال : لا أدري فقلت : هل تعلم حيواناً في الماء يولد في مكان بعيد عن وطنه الأصلي بعدا شاسعا جدا وهذا المولود وهو صغير يسافر شهورا وشهورا حتى يرجع الى الوطن الذي خرج منه أصله . فقال : كلا . فهذه ماهي إلا الغار فقلت : وهل العلق الذي في الأرض له منفعة ؟ فقال : لا أدري . فقلت : أضرار الحداة أكبر أم نفعها حتى اذا غلب ضررها قتلناها أو نفعها أبقيناها ؟ فقال : لا أدري . فقلت : فلا جيبك على هذه الأسئلة في هذا المقام حتى اذا جاءت فرصة ذكرت فوائد أخرى وذلك في ﴿سبعة فصول﴾ في السحالي والبرص والحرباء والثعابين وثعابين السمك والعلق والحداة . فقال : ولكن يظهر لي أن الكلام وان حسن فقد خرج عن الموضوع . فقلت : إن الله يقول - وأزول لكم من الأنعام ثمانية أزواج - فقد ذكر الأنعام والأنعام نوع من الحيوان إذن فلنبحث في تقسيم الحيوان حتى نستخرج منه الأنعام . فقال : أما هذا فنم . فقلت : نظرنا في كتب المتقدمين فوجدنا أن « اخوان الصفاء » يقسمه الى ناقص الحلقة ونام الحلقة ، وناقص الحلقة مقدم في الوجود على تام الحلقة . ثم قال بعد كلام : واعلم يا أخي أن الحيوان هو جسم متحرك حساس يفكر ويحي ويحس ويتحرك حركة مكانية ، وان من الحيوان ما هو أشرف المراتب مما يلي رتبة الانسانية وهو ما كان له الحواس الحس والتمييز الدقيق وقبول التعليم ومنه ما هو أدون رتبة مما يلي النبات وهو كل حيوان ليس له لإحاسة واحدة وهي اللمس بحسب كالأصداق ، وما كان كأجناس الديدان كلها التي تتسكون في الطين أوفى الماء أوفى الخلل أوفى الثلج أوفى لب الفم أوفى الحب أوفى لب النبات والشجر أوفى أجواف الحيوانات الكبار الجثة ، وهذا النوع من الحيوانات أجسامه لحمية وبدنه متخلخل وجلده رقيق وهو يمتص المادة بجميع بدنه بالقوة الجاذبة ، ويحس باللمس وليس له حاسة أخرى لا الذوق ولا الشم ولا السمع ولا البصر غير اللمس حسيا . وهو سريع التسكون وسريع الهلاك والفساد والي . ومنها ماهي أتم بنية وأكمل صورة وهي كل دودة تتسكون وتذب على ورق الشجر والنبات ونورها وزهرها لها ذوق ولمس . ومنها ماهي أتم وأكمل وهي كل حيوان له لمس وذوق وشم وليس له سمع ولا بصر وهي الحيوانات التي تعيش في قعر البحر والمياه والمواضع المظلمة ومنها ماهي أتم وأكمل وهي كل حيوان من الهوام والحشرات التي تدب في المواضع المظلمة له لمس وذوق وشم وليس له بصر مثل الحفنة . فبالس قوام جثته وبالذوق يميز الغذاء من غيره وبالشم يعرف مواضع الغذاء والقوت وبالسمع يعرف وطأ المؤذيات له فيجتري قبيل الورود والمجرم عليه ولم يجعل له البصر لأنه يعيش في المواضع المظلمة ولا يحتاج الى البصر ولو كان له بصر لكان ذلك وبالاعليه من حفظه من إغماض العين من القذى ضرورة لأن الحكمة الإلهية لم تقط الحيوان عضوا لا حاسة لا يحتاج اليها ولا ينتفع بها . ومنها ما هو أتم بنية وأكمل صورة وهي ما لها حواس كاملة وهي اللمس والذوق والشم والسمع والبصر ثم يتفاضل في الجودة والردامة

(فصل) ومن الحيوانات ما يتدرج كدودة الثلج ومنها ما يزحف كدودة الصدف ومنها ما ينساب كالحية ومنها ما يذب كالعقارب ومنها ما يمدو كالغار ومنها ما يطير كالناب والبق وما يذب ويمشي ماله رجلان ومنها ماله أربعة أرجل ومنها ماله ستة أرجل ومنها ماله أكثر كالدمال وما يطير من الحشرات ماله جناحان ومنها ماله أربعة أجنحة ومنها ماله ستة أرجل وأربعة أجنحة ومشفر ومخالب وقرون كالجراد ومنها ماله خرطوم كالبق والنباب ومنها ماله مشفر وجمه كالزناير ومن الهوام والحشرات ماله فكر وروية وتميز وتديب وسياسة مثل النمل والنحل يجتمع جماعة منهم ويتعاونون على أمر المعيشة واتخاذ المنازل والبيوت والقري وجع النخائر والقوت للشتاء ويعيش حولا ور بما زاد وما كان غير هذين من الهوام والحشرات مثل البق والبراغيث والنباب والجراد وماشا كلها فانها لا تعيش حولا كاملا لانها يهلكها الحر والبرد المفرطان ثم يتكون في العام القابل مشاه

(فصل) ومن الحيوان ما هو أتم بنية مما ذكرنا وأكمل صورته منها . وهو كل حيوان بدنه مؤلف من أعضاء مختلفة الأشكال وكل عضو مركب من عدة قطع من العظام وكل قطعة منها مفننة الهياآت من الطول والقصر والذقة والفاظ والاستقامة والاعوجاج ومؤلفه كلها بمفاصل مهندمة التركيب مشدودة الاعصاب والباطات محشوة الخلل باللحم منسوجة بالعروق محصنة بالجلدة مغطاة بالشعر والوبر والصوف والريش أو الصدف أو الفلوس وفي باطن أجسادها أعضاء رئيسة كالدماع والرئة والقلب والكبد والطحال والكليتين والثانة والامعاء والمصارين والأوراد والمعدة والكرش والحوصلة والقانصة وماشا كلها وفي ظاهر البدن أرجل وأيد وأجنحة وذنب ومخالب ومنافير واحفار والظلف والنفخ وماشا كلها كل ذلك لما آرب وخصال عدة ومنافع جمة لا يعلمها الا الذي خلقها وصورها وانشأها وأتمها وأكملها وبلغها الى أقصى غايتها وتمام نهايتها وهذه كلها أوصاف الأنعام والبهائم والسباع والوحوش والطيور والجوارح وبعض حيوان الماء وبعض الهوام كالحيات والأنعام وهوكل ماله ظلف مشقوق والبهائم ما كلف لها حافر والسباع ما كان لها أنياب ومخالب والوحوش ما كان مركبا بين ذلك والطيور ما كان لها أجنحة وريش ومنقار والجوارح ما كان لها أجنحة ومنقار مقوس ومخالب معقبة وحيوان الماء ما يقيم فيه ويعيش والحشرات ما يطير وليس له ريش والهوام ما يذب على رجلين وأربعة أو يزحف أو يتساب على بطنه أو يتدرج على جنبه

(فصل) ثم اعلم يا أخي أيديك الله وإيانا بروح منه بأن الحيوانات الكبيرة الجنة العظيمة البنية التي لها عظام كبار وجلود نجان وأعصاب غلاظ وعروق واسعة وأعضاء كبيرة مثل القيل والجل والجاموس وغيرها تحتاج أن تمكث في الرحم زمنا طويلا الى أن تولد لعنتين اثنتين احدهما كباها تجتمع في الرحم تلك المواد التي تحتاج اليها الطبيعة في تميم البنية وتكميل الصورة والعلة الأخرى كباها تدور الشمس في الفلك وتقطع البروج الثلاث المشاكلات الطبايع وتخط من هناك قوى روحانيات الكواكب الى عالم الكون والفساد التي تحتاج اليها في تميم قوى النفس النامية النباتية وقوى النفس الحيوانية الحاسية ليقبل كل جنس من الكائنات المولودات ماله أن يقبل من تلك القوى كما ينظر طرفا من ذلك في رسالة مسقط النطفة . ثم اعلم يا أخي أيديك الله وإيانا بروح منه بأن الحيوانات التامة الحلقة الكبيرة الجنة العظيمة الصورة كلها كوت في بدء الخلق ذكرنا وأنتي من الطين تحت خط الاستواء حيث يكون الليل والنهار هناك متساويين والحر والبرد معتدلين والمواضع السكبنة من تصريف الرياح موجودة هناك والمواد كثيرة منهيبة لقيول الصورة وللمركب في الأرض مواضع موجودة بهذه الأوصاف جعلت أرحام اناء هذه الحيوانات على هذه الأوصاف من اعتدال الطبايع لكيما اذا انتشرت في الأرض تناسلت وتوالدت حيث كانت وأكثر الناس يتعجبون من كون الحيوانات من الطين ولا يتعجبون من كونها في الرحم من ماء مهين وهي أعجب في الحلقة وأعظم في القدرة لأن من الناس من يقدر أن يصور حيوانا من الطين أو من الخشب أو من الحديد أو من التحاس كما هي موجودة مشاهدة في أيدي الناس من

خلقة الأصنام ولا يمكن أحدا أن يصور حيوانا من الماء لأن الماء جسم سيال لا تماسك فيه الصورة فتكون هذه الحيوانات في الأرحام أو في البيض من ماء مهين أعجب في الخلقة وأعظم في القدرة من كونها في الطين وأيضاً ان أكثر الناس يتعجبون من خلقة الفيل أكثر من خلقة البقرة وهي أعجب خلقة وأظرف صورة لأن الفيل مع كبر جسده له أربعة أرجل وخرطوم ونابان خارجان والبقرة مع صغر جسدها لها ستة أرجل وخرطوم وأربعة أجنحة وذنب وفم وحلقوم وجوف ومصارين وأمعاء وأعضاء آخر لا يدركها البصر وهي مع صغر جسدها مسطرة على الفيل بالأذية ولا يقدر عليها ولا يمتنع بالتحرز منها . وأيضاً فان الصانع البشري بقدر على أن يصور فيلا من الخشب أو من الحديد أو من غيرها بكامله ولا يقدر أحد من الصانع أن يصور بقرة لآمن الخشب ولآمن الحديد بكاملها وأيضاً فان كون الانسان من النطفة بديام في الرحم جنينا ثم في المهد ضعيفاً ثم في المكتب صبيماً في تصريف أمور الدنيا رجلاً حكماً أعجب أحوالاً وأعظم اقتداراً من كونه يبعث من تراب قبره يوم القيامة ويخرج الناس كأنهم جراد منتشر وهكذا أيضاً مشاهدة خروج عشرين فروجة من تحت حضن دجاجة واحدة أو ثلاثين دراجة من تحت حضن دراجة واحدة ينقض عنها قشور بيضها في ساعة واحدة وعدوكل واحدة في طلب الحب وفرارها وهربها من الطالب لها حتى ربما لا يقدر عليها أعجب من خروج الناس من قبورهم يوم القيامة فما انتهى منع المنكرين من الاقرار بذلك وهم يشاهدون مثل هذه التي أعجب هي منها وأعظم في القدرة لولا جريان العادة بها اهـ

هذا ماجاء في « اخوان الصفاء » أيها الذكي ولا جرم انك رأيت في هذا المقال تعريف الأنعام بحسب ما كانوا يرونه والفرق بينها وبين السباع والبهائم ، هذا نوع آراء المتقدمين ، ولما كان هذا التفسير لا ينع اذكياء قرائه بأراء طائفة دون أخرى أردت أن أريك تقسيم المتأخرين للحيوان وهناك تأتي بالفصول السبعة تعرف أجوبة المسائل المتقدمة ، وهناك تعرف أننا في هذه الاجابة الآتية لم نخرج عن مضمون الآية الكريمة فقد صرح فيها بالأنعام ، وما الحيوان إلا أنعام وغير أنعام ، وهذا الذي سنذكره انما هو بعض المقابل لما في الآية ، وهذا من مقاصد التفسير ، إذن الفصول السبعة الآتية لا تخرج عن مضمون التفسير ، فهناك تقسيم المتأخرين في زماننا الحاضر :

الحيوانات إما أولية أي ذات خلية واحدة . وإما غير أولية أي كثيرة الخلايا . فذات الخلية الواحدة كحيوان الملاريا الذي لا أعضاء له يتحرك بها فيعيش في السكريات الدموية الجراء في دم الانسان فترتفع حرارته بسبب تكاثر هذا الحيوان بالتناسل وهو يستعين بالناموس فيدخل فيه . وهذا ينقله الى انسان آخر فيمرض بهذا المرض . فهذا هو أدنى ! ان خلق ليكون ضاراً بالتوسع الانساني والانسان مكلف بدراسته ليتقيه . فهذه نعمة من حيث انها تحثنا على الدراسة التي بها نعرف مضرة الضار فننتقيه ومنفعة النافع فننصقيه . فاذا جهلنا فأننا لاجمالة مصابون بالضار معاقبون بالحرمان من منفعة النافع . انتهى الكلام على الحيوانات الأولية ذات الخلية الواحدة

أما الحيوانات ذات الخلايا فهنا الاسفنج وهو معروف . ومنها حيوان المرجان . وقد تقدم الكلام عليه في « سورة النحل » وسور أخرى . ومنها الحيوانات ذات الجلد الشوكي كنجمة البحر وهذا تقدم في « سورة الحج » رسمه وقنفذ البحر . ومنها الديدان المفرطحة كالودودة الكبدية والبلهارسيا . ومنها الديدان الاسطوانية مثل دودة الانكستوما . ومنها الودودة الحلقيه وهي دودة الأرض والعلق الطبي . ومنها الحيوانات المفصليّة مثل الصرصار والذباب المنزلي الخ . ومنها الحيوانات الرخوة كالقواقع وأم الخلول . ومنها الحيوانات الفقرية التي جاءت ببعضها هذه الآية . والفقرية منها السمك والضفادع والزواحف والطيور والحيوانات الثديية هذا بمجمل أنواع الحيوانات . ولا جرم أن الفصول السبعة الآتية بعضها من ذات الفقرات كشعابن السمك

وكالحدأة . وبعضها من الديدان الحلقيه كدودة الأرض . وبعضها من الحيوانات الزاحفة كالسحالي والبرص والحرباء والثعابين . إذن فلنذكر الفصول السبعة على ترتيب ماقدّمناه :

(الفصل الأول في السحالي)

اعلم أن السحالي من الحيوانات الوريية . وهذه الحيوانات تغطي أجسامها بالحرشيف أو الدرناات . ولها أربعة أطراف تنتهي أصابعها بمخالب حادة . وهذه الحيوانات في الغالب نشطة وسريعة الحركة وألوانها زاهية وبعضها يمانلون الوسط الذي يعيش فيه وهذا يساعدها على الاختفاء عن الأنظار . وأذنااب هذه الحيوانات طويلة ويلاحظ أنها تتحرك زمنا بعد فصلها عن الحيوان . ولطذه الحيوانات قدرة خاصة على تجديد بعض أعضائها المقطوعة كالأذنااب

تعيش الحيوانات الوريية في المناطق الحارة عادة ويقل وجودها أو ينعدم في الأقطار الباردة . وتتغذى هذه الحيوانات باللحوم كالحشرات والديدان وغيرها . وتضع أيضا تدفنه في الرمال حتى يفقس . وتشمل هذه الفصيلة حيوانات كثيرة مختلفة منها الورل والسحالي والأبراص والحرباء

- (١) الورل : حيوان كبير الحجم نوعا يغطي جلده بدرناات خشنة . ويصل طول أكبر أنواعه الى متر أو أكثر . ويعيش بعض أنواعه في الصحارى وعلى شواطئ الأنهار حيث تقفوس في الماء اذا أزججت
- (٢) السحالي : حيوانات كثيرة الأنواع توجد في جميع جهات القطر في المزارع وغيرها وتنسلق الأشجار وتتغذى بالحشرات والديدان والحيوانات الصغيرة وجلدها لين في الغالب وذوألوان زاهية وتعتبرمن الحيوانات النافعة لأنها تتغذى بالحيوانات الضارة (انظر شكل ١)



(شكل ١ - رسم السحلية)

﴿ الفصل الثاني . الأبراص ﴾

- (٢) الأبراص : زواحف صغيرة تكثر في المنازل ، ولها أصابع مفرطحة نوعا منتهية بمخالب ويتكوّن هذا الجزء المفرطح من أجزاء عضلية مستعرضة بارزة موازية لبعضها تقريبا ، فاذا وضع الحيوان قدمه على سطح أملس انطبق سطح هذه الأجزاء عليه انطباقا تاما ، وذلك بطردالهواء الموجود بينهما وبذلك يتمكن البرص من تسلق الجدران الناعمة والمشى على الأسطح المساء كلزجاج ، وتتغذى الأبراص بالحشرات الصغيرة في المنازل كالصراصير مثلا ، ولذلك يعتبرالبرص من الحيوانات النافعة والذكور في العادة أزهي لونا من الاناث ، وتمائل الأبراص لون الوسط الذي تعيش فيه عادة (انظر شكل ٢ في الصفحة التالية)



(شكل ٢ - رسم البرص)

﴿ الفصل الثالث . الحرباء ﴾

(٣) الحرباء حيوان غريب الشكل متوسط الحجم يعيش على الأشجار ، والحرباء رأس هرمي وعلى جانبيه عينان برزتان بارزتان وتتحرك كل منهما بمفردها في جميع الاتجاهات ، وعنقها قصير وعليه ثنيات جلدية ، ولها ذنب طويل ورفيع يلتف عادة حول أفرع الأشجار التي تقف عليها ، وأصابعها معدة للقبض على أفرع الأشجار . وجلد الحرباء لين ويتغير لونه بسرعة حسب لون الوسط الموجودة فيه الحرباء لتختفي فيه عن الأنظار ، وتصعب رؤيتها حتى من مسافة بسيطة ، ولسانها طويل واسطواني الشكل وينتهي بطرف منبسط كالمعلقة يفرز مادة لزجة . وتتغذى الحرباء بالقدباب وأبي دقيق والصراصير والحشرات الصغيرة إذ عند ما تقرب منها حشرة ينطلق لسانها بسرعة البرق فتلتصق الفريسة بقمته وسرعان ما يعود اللسان بها إلى الفم . والحرباء حيوان بطيء الحركة كسول يترصد لفريسته زمنا طويلا حتى يتمكن منها . وتوجد الحرباء في كثير من بقاع الدنيا القديمة وفي كثير من مناطق الصحارى المصرية حيث توجد بعض الحشائش والأشجار (انظر شكل ٣)



(شكل ٣ - رسم الحرباء)

﴿ الفصل الرابع : الثعابين ﴾

(٤) الثعابين : تتميز الثعابين عن الزاحفات الأخرى بطول جسمها وخلقه من الأطراف (توجد الأطراف الخلفية بحالة أثرية تحت الجلد في البوا والبيتون) ويقناسب شكل الثعابين مع طرق معيشتها حيث تزحف داخل الشقوق والانتفاق الضيقة . ويغطي جسمها بطبقة حرشفية . وتغير الثعابين الطبقة الخارجية من جلدها في فترات منتظمة . وتعيش الثعابين في جميع بلاد العالم وتكثر على الأخص في البلاد الحارة فيعيش بعضها في الغابات ويتسلق الأشجار . ويعيش بعضها على الأرض في أنفاق خاصة . ويعيش البعض في الماء . وأغلب الثعابين المائية سام

توجد بجانب رأس الثعبان عينان ليس لهما جفون متحركة وهذا ما يجعل الحيوان كأنه محقق دائماً . وما يستحق الذكر أن الثعابين لا ترى تماماً أيام انسلاخها لأن الطبقة الخارجية لقرنية العين تغير أيضاً . وبالجزء الأمامي من الرأس يوجد الفم وله فتحة كبيرة ، وتمتكن الثعابين من ابتلاع حيوانات كبيرة بالقسبة لجمها ، وذلك راجع لعدم التحام بعض عظام الرأس التي يتصل بها الفك الأسفل ، وبهذا يمكن فتح فمها واسعا بدرجة غير عادية ، وبما يسهل مرور القرينة الكبيرة اللحم في القناة الهضمية كون أضلاع الثعابين عامة أي سائبة من أسفل ولا تتصل بقص متوسط

وللثعابين أسنان حادة متصلة بالفكين ولسان طويل سريع الحركة وذو طرف مشقوق ويستعمل كعضو للحس (انظر شكل ٤)



(شكل ٤ - رسم رأس ثعبان سام)

(١) النابان السميان (٢) اللسان المشقوق

ويميل أكثر الثعابين للرقاد هادئاً ولا يتحرك إلا من الجوع أو الخوف . وبعضها نهاري ويميل للرقاد تحت أشعة الشمس المباشرة . وبعضها ليلي أي أنه لا يتجول للبحث عن غذائه إلا ليلاً . وتتقلب أكثر الثعابين على فريستها بسرعة حركتها وقوة عضلاتها . وقد وصفها بعضهم بقوله : « إن الثعابين تفوق القردة في مقدرتها على التسلق والأسماك في مقدرتها على العموم والزبرا في مقدرتها على الونب وتفوق على أكبر مصارع وتبطن بالفنر الهائج » وكل هذه الصفات ترجع لقوة مجموعها العضلي

تتغذى الثعابين بالطيور المختلفة وبيضها وفراخها وبالجرذان والسحالي إذ تبتلعها كما هي وتتغذى كذلك بالضادع والأسماك . وتضع الثعابين بيضا تدفنه في الرمال أو كوام الأسبحة وفي الأراضي ، وقد ترقد بعض الثعابين على بيضها . ويولد البعض الآخر أحياء كبعض أنواع الحيات . والثعابين إما سامة أو غير سامة وتتميز الأولى بوجود نايتين كبيرين حاذين بالفك العلوي يعرفان بالنايتين السميان

يفرز سم الثعبان من غدتين موجودتين على جانبي القسم الأمامي من الجمجمة بالقرب من عظام الفك العلوي الذي يحمل النايتين السميان . ومن المحتمل أن هاتين الغدتين هما بلان الغدتين النكسيتين اللعابيتين متحورتين . وتخرج من كل غدة سمية قناة تمتد إلى الناب المقابل لها فتفتح إما في قناة مقفلة تمر في وسطه أو في قناة

مفتوحة هي عبارة عن ميزاب بجانبه . وفي كلتي الحالتين يمر السم الى الجرح الذي سببه الناب في جسم
الفريسة . ولا تختلف الثعابين السامة ذات القناة المفتوحة في شكلها العام عن غير السامة . أما الثعابين السامة
ذات القناة الداخلية فتكون ذات ذيل قصير ورأس مثلث ولونها زاه قليلا كما في الحيات

وسم الثعبان سائل رائق مصفر اللون وسريع التأثير اذا حقن تحت الجلد أوفى الدم مباشرة وذلك ما يحصل
عند ما يعض الثعبان فريسته . ولا يؤثر سم أغلب الثعابين اذا وصل الى القناة الهضمية لأنه يتأثر بالمصبرات
الهضمية كباقي المواد الزلالية فيتعطل تركيبه ويفقد خواصه السامة . وتستعمل الثعابين سمها للدفاع عن
نفسها وكذلك لتسميم فريستها حتى تغلب عليها . وسنذكر هنا بضع أنواع سامة وأخرى غير سامة :

(١) الثعبان الناشر (واسمه العلمي (ناجا حابي) . يعرف هذا الثعبان بالكوبرا المصرى وسمى
بالناشر تبعاً لانبساط رقبته عرضاً عند انفعاله . ويوجد في المزارع في جميع جهات القطر المصرى ولونه العام بني
في سطحه العلوى وأصفر في سطحه السفلى ويصل طوله الى متر وثلاثة أرباع المتر ويتغذى بالمنقذع والبيران
وغيرها وربما بالأسماك لأنه يصبر النزع اذا اضطر لذلك . وتضع الأنثى بيضاً يختلف عدده من ١٨ الى ٢٥
بيضه في حجم بيض الحمام وله قشرة جلدية بيضاء . وسم الثعبان الناشر قتال سريع والفعل ويحدث نوع من
الكوبرا في الهند عدداً من الوفيات كل عام (انظر شكل ٥)



(الكوبرا المصرى)

(شكل ٥ - رسم الثعبان الناشر «الكوبرا»)

(٢) الحية المقرنة (واسمها العلمي (سيراستيس كوزنوتس) وهذا النوع من الثعابين ذو سم قتال
للحيوانات الصغيرة ، وليس من المحقق أنه قتال للانسان ، وتعيش الحيات في الصحارى ولونها مصفر كالرمل
وعليها بقع داكنة اللون وتميز بوجود تنوين صغيرين كالفرون على رأسها وتتغذى بالقبيران والحيوانات
القراضة الصغيرة التي تجدها في تلك المواضع كالجربوع مثلاً ، ويبلغ طولها نصف متر أو أكثر قليلاً (انظر
شكل ٦ في الصفحة التالية)



(شكل ٦ - رسم الحية المقرنة)

(٣) الثعبان ذوالجرس واسمه العلمى (كرونالوس أتروكس) يوجد هذا النوع من الثعابين السامة فى أمريكا ويمتاز بذيبة التى يغطى طرفه بعدد من حراشيف قرنية جافة ومستديرة تحدث رنيناً عند احتكاكها ببعضها أثناء سير الحيوان (انظر شكل ٧)



(شكل ٧ - الثعبان ذوالجرس بالحجم الطبيعى)

(٤) الثعبان الأرقم واسمه العلمى (زامبيس دياجمبا) . هذا الثعبان غير سام وكثير الانتشار فى جميع القطر ولونه العام فى سطحه العاوى رملى مائل الى الاحمرار وعليه بقع ذات لون بنى ، أما سطحه السفلى فتلون أصفر ، ويسكن فى الجهات الجافة فيكثر وجوده فى الحفر العميقة بجوار الاهرام وعلى حدود الدلتا القريبة من الصحراء وفى الدلتا نفسها فى المناطق الجافة الخالية من المزروعات ، ويوجد هذا الثعبان دائماً مع الحوأة ويبلغ طوله (١٣٠) سم تقريباً ويتغذى بالفيران والحيوانات القراصة الصغيرة

(٥) (اليتون) هو أكبر أنواع الثعابين إذ يبلغ طول بعضها تسعة أمتار أو عشرة ، وتوجد في كثير من المناطق الحارة في أفريقيا وآسيا وهي غير سامة . وتقتل فرستها بكونها تلتصق على جسمها وتضغط عليه حتى تموت الفريسة . وتوجد بهذا الثعبان آثار الأرجل الخلفية تحت الجلد كما سبق القول (انظر شكل ٨)



(شكل ٨ - يتون أفريقي يتلعج دجاجة)

﴿ الفصل الخامس في ثعابين السمك ﴾

الأسماك حيوانات مائية تتحرك أجسامها بشكل خاص يساعدها على معيشتها الدائمة في المياه ولواستئناسها الأسماك المفرطة كسمك موسى لوجدنا بقية أنواع الأسماك كلها قريبة الشبه بعضها من بعض . جسمها يشبه القارب ومغطى بقشور متصلة بالجلد من جهة واحدة وسائبة من جهاتها الأخرى . وتغطي القشور بعضها بعضا وكلها في اتجاه واحد . وهذه القشور من أهم مميزات الأسماك كما أن الخراشيف من مميزات الزاحفات والريش من مميزات الطيور . والشعر من مميزات الحيوانات الثديية

من ثعابين السمك نوعان : أحدهما يعيش في أنهار أوروبا وشمال أفريقيا . ويعرف بثعبان السمك الأوروبي الأفريقي واسمه العلمي (أنجلا أنجلا) ويعيش الآخر في أنهار الولايات المتحدة التي تصب في المحيط الأطلنطي واسمه العلمي (أنجلا كريبيا)

ويوجد ثعبان السمك بمصر في النيل والترع الخارجة منه بكميات كبيرة . وهو حيوان استوائي ذو جلد أملس أي لا قشر عليه ولون ظهره أخضر قاتم و بطنه سنجاني وفه في مقدمة الرأس وبضكبه أسنان حادة قاطعة . ويتغذى الثعبان من اللحوم أي انه يأكل الحيوانات المائية التي يتمكن من افتراسها كالأسماك الصغيرة والضفادع والديدان وغيرها . ويختلف طول الثعابين من (٥٠) الى (١٠٠) سنتيمترا . فالثعبنة

في الطول عادة هي التي تعيش بالقرب من مصب النهر وهي الذكور عادة . أما التي تعيش في أعلى النهر فتكون طويلة وهي الاناث . وهذه الأسماك ليلية أي انها تختفي بالنهار بأن تدفن نفسها في الطين أو بين الأحجار وتخرج بالليل باحثه عن غذائها (انظر شكل ٩)



(شكل ٩ - ثعابين السمك ويشاهد بعضها مدفونا في الطين)

ولا تناسل الثعابين أصلا في الأنهار كبقية الأسماك النهرية ومع ذلك فانه يوجد بها كميات كبيرة لا تقل ستة عن أخرى ، وكذلك فانه يوجد بين الكميات التي تصاد أفراد كبيرة وأخرى صغيرة ، ويلاحظ في الوقت نفسه أن الثعابين الكبيرة تهاجر من النهر الى البحر ، أما الصغيرة فتصعد من البحر الى النهر ويتم نمو الثعابين عادة بعد مدة تتراوح من أربع سنين الى سبعة ، وفي هذا الوقت يتغير لونها في السطح العلوي من أخضر الى لون مائل للحمرة ، وفي السطح السفلي من سحابي الى أبيض فضي ، ويكون ذلك في فصل الخريف ، وعند ذلك تترك النهر مجتمعة في عدد كبير متجهة الى مصبه ، وفي المساء عادة تنزل الى البحر فتقوم بنشاط وتبدأ رحلة طويلة فتمر من بونغاز (جبل طارق) الى المحيط الاطلنطي وتعتبر الى جزائر برمودة القريبة من شواطئ الولايات المتحدة فتصلها في الشتاء ، وتقوم ثعابين أنهر أوروبا الغربية بنفس هذه الرحلة

وعند وصول الثعابين الى نهاية رحلتها البحرية الطويلة يكون قد تم نمو أعضائها التناسلية فتضع الاناث بيضا في الماء وتفرغ كذلك الذكور مادتها النوية في الماء أيضا فيتم احصاب البيض بهذه الطريقة وتضع الأنتى كميات كبيرة من البيض تبلغ المليون أو أكثر

أما مصير الذكور والاناث بعد ذلك فجهول ، ولكن الأرجح أن مصيرها الموت كما هي العادة عند بعض الحيوانات ، وعند ما ينفق البيض تخرج منه الصغار المعروفة بالبرقات فتبدأ سياحتها راجعة في الطريق التي أتت منها أبواها ، وتتغذى في طريقها بالحيوانات المائية الدقيقة ، وفي الوقت نفسه تكون هي معرضة

لاقتباس كثير من الحيوانات البحرية ، وتستغرق سياحتها في الرجوع كما يقال سنة ونصف أو سنتين
وعما يدل على أن قيام الثعابين النائمة النمو بهذه السياحة من الأنهار الى المحيط ورجوع برقاتها من المحيط
الى الأنهار فعل غريزي هو أن برقات ثعابين السمك الأمريكية لا ترجع إلا الى الأنهار الأمريكية التي تربي
فيها أبواها ، ولا يوجد ثعبان السمك الأمريكي في أنهار أوروبا ولا أفريقيا وكذلك الحال مع الثعبان الأروبي
الأفريقي ، وعند ما تصل البرقات الى مصب النهر يكون ذلك عادة في أواخر الخريف أو أوائل الشتاء ، ويبلغ
طولها في هذا الوقت تسعة سنتيمترات ، فتصعد النهر ويعيش بعضها بالقرب من مصبه وهذه تكون عادة
ذكور المستقبل ، أما التي تصعد الى أعلى النهر فتكون أنثى المستقبل وهي التي يبلغ طولها عند نهاية نموها
مترا تقريبا

أما الباعث لهذا الحيوان على تنقلاته الغريبة من النهر الى المحيط للتوالد ومن المحيط الى النهر للنمو فلا يزال
غامضا وكل التفسيرات التي كتبت في هذا الشأن ليست شافية

﴿ الفصل السادس في دودة الأرض ﴾

اعلم أن الناس يعبتون ويموتون وأمامهم جمال وعلم وحكمة ولا يدرون ماهي ، لقد كنا أيام الطفولة
نتوجه الى شواطئ البحار مع الأطفال ونبحث عن العلق في الأرض فنستخرجه ونضعه في الشص (الصنارة)
ونصطاد به السمك ونحن لا نعقل ولا آباؤنا ولا اخواننا لم خلق الله هذا العلق ؟ الله أكبر ! فأرانا العلم أن
هذا العلق يصل عدده في القدان الواحد كما سترأى الى (٥٣) ألف دودة جعلت في الأرض لتحرثها حراثمة غير
حرت الانسان . إذن المسلم اذا عاش ومات وهو لا يعرف مجائب هذه الدنيا فقد كفر نعمة الله ولم يشكرها
ومن كفر النعمة حرمها . وهذا سبب ضعف المسلمين . إذن فلا سمعك الكلام على دودة الأرض من كتاب
« علم الحيوان » وهذا نصه :

(١) - ﴿ دودة الأرض ﴾

توجد ديدان الأرض بعدد وافر في الأراضي مهما كان نوعها غير أنه يلزم أن تكون رطبة لأن الرطوبة
من ضروريات حياتها والجفاف قتال لها . ولذلك ينسدر وجودها في الأراضي الرملية والصحارى . ويكثر
وجودها في الأراضي المغطاة بالنباتات والخضروات إذ تقيها حرارة الشمس وذلك كافي أرض الجنائن عادة

﴿ شكلها الخارجي ﴾

ديدان الأرض اسطوانية الشكل ويبلغ طولها ١٥ سنتيمترا تقريبا وطرفها رقيقان ولكن الأمامي
منهما أرفع من الخلفي وجسمها مقسم بطول عرضية الى حلقات يتراوح عددها ما بين ١٢٠ و ١٨٠ حلقة
ولون الجسم قرنفلي وعليه أشواك صغيرة متجهة الى الخلف لتساعد على الحركة دائما الى الأمام وهي أربعة
أزواج في كل حلقة زوجان منها في كل جانب من الجسم . (انظر شكل ١٠)



(شكل ١٠ - دودة الأرض بالحجم الحقيقي)

تغذي دودة الأرض بجلد لين رطب مخاطي ويشاهد بالسطح العلوي للدودة انتفاخ بسيط واضح في الديدان

التامة الخمو يعرف بالسرّج ويمتد من الحلقة الثانية والثلاثين الى السابعة والثلاثين وبه غدد تفرز مادة مخاطية لصنع الكيس الذي تنع الدودة فيه بيضا . وتوجد بالجسم عدة فتحات نذكرها باختصار فيما يلي

- (١) الفم فتحة صغيرة . بأسفل الحلقة الأولى
- (٢) الاست فتحة بيضية في الحلقة الأخيرة من الجسم
- (٣) الفتحات التناسلية أربعة أزواج وهي :-
 - (أ) الوعا آن الناقلان الآتيان من الخصى يفتتحان على جانبي الحلقة الخامسة عشرة
 - (ب) قناتا المبيض الآتيتان من المبيضين يفتتحان على جانبي الحلقة الرابعة عشرة
 - (ج) للدودة أربعة أحواض منوية لتخزين السائل المنوي الآتي من فرد آخر ولها أربع فتحات على جانبي الحلقتين العاشرة والحادية عشرة .
- (٤) على جانبي كل حلقة من جسم الدودة ما عدا الثلاث حلقات الأولى والحلقة الأخيرة فتحتان بوليتان آتيتان من السكيتين . (انظر شكل ١١)



(شكل ١١ - دودة الأرض مكبرة)

{ عاداتها وغذائها }

تعيش ديدان الأرض في الأنفاق التي تعملها في الأرض . وكيفية ذلك أنها تأكل جزءا من الطين لكي تفسح لنفسها مكانا يساعد على ذلك دفع جسمها الى الأمام . وتكون هذه الأنفاق عمودية عادة . وتبقى الديدان فيها أثناء النهار الا اذا اضطرها المطر الغزير الى مغادرتها وعند ذلك تهجرها مرغمة وتشرع في عمل غيرها . وتنشط الديدان أثناء الليل إذ تخرج وتنجول على سطح الأرض باحثه عن غذائها أو أليفها . وكثيرا ما ترى آثارها على الطرق والجسور المبتلة بدرىا في الصباح . وبالرغم من أن الديدان عديدة العين نجدها حساسة لضوء وتتجنبه اذا عرضت له . تخرج الديدان بالليل باحثه عن غذائها وأفضله الأوراق والأزهار المتساقطة إذ عند ماتعثرها تقبض عليها بضمها وتسحبها الى انفاقها لتتغذى بها . وتتغذى كذلك ببذور النباتات التي نجدها في التربة والكائنات الأخرى كبعض الجراثيم وبويضات الحشرات والديدان الصغيرة حية كانت أو ميتة .

وتكتفي الديدان في الأراضي غير المزروعة بالمادة العضوية التي تستخلصها من الطين الذي تبتلعه

(التوالد)

ديدان الأرض خنثى ولكنها لا تلحق نفسها بل يحصل التلقيح عادة بين فردين وذلك بأن تضع الديدان سطحها السفليين مقابل بعضهما على أن يكون رأسهما في اتجاهين مختلفين . وعند ذلك تمر المادة المنوية من كل منهما وتدخل في الأحواض المنوية للأخرى حيث تتخزن بها . (انظر شكل ١٢)



(شكل ١٢)
دودتان في حالة
الاجتماع التناسلي

وبعد هذه العملية تنفصل الديدان وتفرز كل منهما من السرج مادة زلالية قرنية يتكوّن منها حزام حر يض يحيط بجسم الوددة في هذا الموضع . وعند ذلك تنسحب الوددة من هذا الحزام الى الخلف وعند ما يصل الحزام الى الحلقة الرابعة عشرة تنزل فيه الوددة بضع بويضات وعند ما يصل الى الحلقة العاشرة تنزل الوددة في الحزام كمية من المواد المنوية . وعند انسحاب الوددة منه نهائيا يفسد طرفه فيصبح بشكل حوصلة محتوية على بضع بويضات . وقليل من الحيوانات المنوية كلها مغمورة في سائل لبنى مغذٍ يحتمل أن تقوم بإفرازه غدد جلدية وفي تلك الحوصلة تنحصب البويضات وعند فقسها تخرج الأجنة وتتغذى بالسائل اللبني حتى اذا ماتت قليلا خرجت من الحوصلة لتعيد تاريخ حياتها . ولا يخرج عادة من الحوصلة إلا الجنين واحد يشبه الوددة اليافعة بعض الشبه وتضع الديدان بيضها عادة أثناء فصل الربيع والصيف ولكنه قد يستمر طول العام

(الأهمية الاقتصادية لديدان الأرض)

(أولاً) تستعمل الديدان طعاماً في صيد الأسماك إذ يبحث عنها الصيادون على جانبي الترع تحت الأحجار والمواسير وغيرها .

(ثانياً) ديدان الأرض غذاء مهم لكثير من الطيور .

(ثالثاً) تؤثر هذه الديدان تأثيراً عظيماً على حياة النبات وذلك انها تتجول في الأرض فتفككها وبذلك تكون عاملاً مهماً في تهويتها وتصفيتها وتساعد كذلك جذور النباتات على التعمق فيقوى النبات ويكبر لاتساع دائرة غذائه

(رابعاً) عند ماتاً كل الديدان الطين تحدث بمواده المعدنية والعضوية تحليلاً يجعلها أكثر صلاحية لتغذية النباتات

(خامساً) تقتنف الديدان الطين بعد مروره في جوفها على سطح الأرض و بعملها هذا تعرض الطبقت السفلية من التربة الى المؤثرات الجوية فكأنها تقوم بعملية حرارة بطيئة

(سادساً) بما أن هذه الديدان تسحب كثيراً من أوراق النباتات تحت سطح الأرض فبذلك تزيد في خصوبتها عند ماتتغفن هذه المواد العضوية

ولما تحقق الاستاذ تشارلس دارون من فوائدها عنى بأمرها وأجرى تجاربه العديدة لاكتشاف مقدار ما ينسب هذه الديدان من نفع غير مباشر للإنسان فقال (كانت هذه الديدان بمثابة المحراث الطبيعي للأرض قبل أن يخترع الانسان محراثاً لأنها تؤدي عمله الا أنها أبطأ منه . ومنها في الفدان الواحد من أرض الجنائن نحو ٥٣ ألف دودة يمر من أجسامها عشرة أطنان من التربة في السنة وهذا القدر كاف لأن يغطي سطح أرض الفدان الواحد بطبقة سمكها نصف سنتيمتر)

هذه الديدان مقدرة غريبة على تجديد أجزائها المفقودة . فتلا إذا قلمت السوداء الى قسمين أثناء عزيق الأرض يعيش كل جزء مستقلا وبهي الجزء المفقود منه فتلا نحو للقسم الذي به الرأس جزء خلقي

(٢) - ﴿ الملق ﴾

الملق ديدان مائة تعيش في المياه العذبة في البرك والمستنقعات وبعضها في الأراضي الرطبة . وهي حيوانات طفيلية تعيش على السم الذي تمتصه من الحيوانات التي تعثر بها وجسمها خال من الأشواك وتعلق بعائلها بواسطة مصمين موضوعين على طرفي جسمها ويساعدها أيضا على الانتقال حيث يلاحظ ذلك عند حركتها بتثيب الواحد منهما قبل رفع الآخر . وهذه الديدان خثات وتضع بيضها في أكياس تصنعها لهذا الغرض وأهم أنواع هذه الديدان هو الملق الطبي

أقول : أفتبس من المدهش أن نرى في فداننا خسين ألف محراث تحوثر أرضنا قبل أن يضع ابن آدم محراثه في الأرض ، أوليس مما يدهش أن نرى ماهو حقير في نظر الجاهل عظمها في نظر العالم ! وأن هذا الود الذي كنا نستخرجه لتسطاد به السمك هو آمن وأغلى في العلم من الذهب والفضة لأنه به سعادتنا إذ هو يعين على نماء زرعنا ، ولا معنى للذهب والفضة إلا بعد أن يكون عندنا مزارع نأكلها فإذا عدت الزروع فأى معنى للذهب أو الفضة أو الأشجار الكريمة ، الذهب للمعاملة في البيع والشراء وإذا لم تكن حياة بالغذاء فأى بيع وأى شراء ، والأشجار الكريمة للزينة وأي زينة لمن عاش وهو جائع لا يجرد في جواره مضغة . إذن الحياة مملوءة بالجهالة . إذن الموت خير لى آدم حتى يتخلص من هذه الدارات التي فيها قلبت الحقائق الى دار أخرى لتعرفهم تلك الحقائق بعد تمام البحث الممكن هنا . انتهى الكلام على الفصل السادس

﴿ الفصل السابع في الكلام على الحدأة ﴾

الحدأة طير يعرف عند العامة بالحداية وهو من الطيور الجارحة واسمه العلمي (ملفوس اجنيوس) وهو منتشر في كل القطر المصري ولكنه لا يوجد في مناطق الاسكندرية وبور سعيد والسويس ووادي النطرون الامتجولا . وهو كثير في مديرية الفيوم

ويبلغ طوله نحو ستين سنتيمترا وطول منقاره نحو أربعة سنتيمترات والنصف الأعلى من المنقار متقوس الى أسفل كمنقار كل الطيور الجارحة . ويبلغ عرض الطير وهو باسط جناحيه نحو ١٣٠ سنتيمترا . ولون رأسه ورقبته أيضا رمادي يكون فيه شئ من الاحمرار في أعلاهما . والخط المركزي لكل ريشة فيها أسود ولون الريش في أعلى جسمه قاتم . والريش الرئيسي في الجناحين أسود . والذيل مشقوق ولونه قاتم مائل الى الحمرة في أعلاه وأعتم في جنبيه وفيه نحو عشر ريشات . ولون المنقار أصفر ويشاهد أن الحدأة التي لم تبلغ أشدها يكون منقارها أسود وذيلها غير مشقوق ويكون لون أعلى رأسها ورقبتها لونا أصفر يشبه لون الرمل وكل من القدمين ينتهي بأربع أصابع وكل أصبع بمخالب حاد منحني قوى والأنتى أكبر من الذكر في الحجم قليلا

ويشس هذا الطير على الأشجار العالية في القرى وفي المدن ويصنع عشه من أفرع الأشجار الجافة ينظمها على شكل حفرة ويطنها من الداخل بالحشائش الجافة وورق الأشجار والورق الصناعي وبعض الحرق البالية وفي بعض الأحيان تحتل الحدأة عشا مهجورا لطير آخر (مثل الصقر)

وتظهر علامات التنبه الجنسي في شهر مارس حيث يطير الذكر والأنتى متتابعين متلاعبين في أعلى الهواء واسين دوائر كبيرة القطر متتابعة على شكل حلزوني غير منتظم . وأثناء ذلك تكاد تكون الأجنحة ثابتة

ولا يشاهد فيها إلا بعض حركات نادرة . فالطير يخلق في الجوق مستعينا بسطح جناحيه الواسع ومستعملا ذيله في الانجاء . ويشاهد الانسان إذا لاحظ الحدأة وهي طائفة بجناحيها منبسطين أنها ترتفع فجأة في الهواء الى المنطقة أعلى دون أن تقوم بأدنى مجهود وسبب ذلك أنها تصادف في سيرها تيارات الهواء الساخن الصاعد من الأرض فترفعها الى أعلى

وتبيض الأنتى نحو ثلاث بيضات ترقد عليها وحدها وبأى الذكر الى الأنتى بفنائها أثناء ذلك وبعد نفس البيض تنق الصغار منه طويلا في العش ثم حين تطير تبقى مدة أسابيع عالة على أبويها متفدية مما يأتیان به اليها منه . وصوت الحدأة العادي مخالف لصوتها وقت التفريخ

ويأكل هذا الطير صغار النجاج والبط والاوز ويأكل أيضا الجرذان والضفادع والثعابين والسحالي ودود الأرض والحشرات ولا يصجم عن أكل الرم

ولولم تكن شرارته كبيرة في اقتراض صغار الطيور المترلية لكان من أهم الحيوانات المفيدة للانسان بأكله الجرذان والحشرات الضارة وهو من أفييد الطيور في المدن المصرية لأنه ينقى الشوارع من الرم ومن بقايا الحيوانات وينقى الاسطح من كل بقايا للأكل ومن فضلات المطابخ التي تطرح عليها

وهذا الطير بطيء الطيران ولو أنه يطير عاليا وله كثير من الدهاء . وحاسة النظر عنده نامية جدا كما يشاهد ذلك من يتتبع حركته عندهما يسقط فجأة من أعلى منزل مرتفع على قطعة من بقايا لحم الجزارة ملقاة في الشارع هذا ما أردته من كتاب « علم الحيوان » والى هنا تم الكلام على الفصول السبعة والحمد لله رب العالمين كتب في أول أغسطس سنة ١٩٣٠

(خاتمة في الحيوانات النافعة)

أذكر كرك أيها القارئ بما ذكرته في (سورة يوسف) من أني كتبت في مجلة « الملايحي العباسية » مقالة في الطيور لحصرتها الحكومة ثم حرمت صيدها ، وأنى كتبت في (سورة طه) آخر رأى للحكومة المصرية في الطيور النافعة التي يحرم صيدها وهي :

(القنبرة . وعصفور التين . وأبو فصاده . والقلق . والشحفوت . والجليل . والكروان . والسونور . والزرزور . والدخلة . والزريقه . والحسيني . والدح . والسكركي . والوروار . والبشون . وأبو قردان . وعصفور الجنة . والمهدد . والبليل الصغير . والخطاف . وأبو بليقة . وأبو اليسر . والزقراق مطوق . والزقراق البلدي . والغراب الزيتوني . وأبو صدر (أبو الحنام) والجيزه . والسعو . والحزار . والتمحية . وأم الهوى . وزقراق شامى)

هذا ما ذكرته هناك ، فلنزد عليه ما ذكرناه هنا وهي السحلية والبرص وغيرها من كل حيوان قاتل للحشرات كالعنكبوت

فيا سبحان الله: أيليق أن نعيش في دورنا ونحن نجهل ما حولنا . ها أنا ذا في العقد السابع من حياتي ولا علم لي أن البرص يأكل الصرصار وغيره إلا في هذا الشهر فأخبرت أهل المنزل بذلك وقد كانوا متشاكين منه ظانين انه ضار لا نافع فمنعوا عنه الأذى

اللهم إن جهل هذه العلوم من أكبر ما أضر بالأمه الاسلاميه ، وهذا ولقد تقدم في (سورة فاطر) عند آية - ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء - الخ انى ذكرت هناك أن الجراد هجم على مصر أيام طبع تلك السورة وكتبت في جريدة الاهرام أن الجراد تجارة رابحة وأنه يعصر زيتا نافعا في الطيارات ، وأن الجراد المهاجم على بلادنا اذا بعناه كان نعمة عظيمة وتقله يرفع طعام البهائم ، ثم أرسلت الحكومة البلجيكية خطابا

للحكومة المصرية تطلب منها الجراد فلم ترد عليها . وهاك ماجاء في جريدة الاهرام عند طبع هذه السورة يوم (٨) أغسطس سنة ١٩٣٠ وهذا نصه :

(تجارة الجراد في بلجيكا)

والسعى للحصول على مقادير كبيرة منه لمصانع . عدم اكترات الحكومة بما كتب اليها بشأنه منذ أسابيع كتب جناب قنصل البلجيك في الاسكندرية كتابا الى الحكومة المصرية لمناسبة اهتمامها بمحاربة الجراد يقول فيه ماموذاه : « إن في بلجيكا مصانع خاصة تستخدم الجراد لأغراض صناعية . وقال إن بلاده على استعداد لشراء أى مقدار يقدم اليها من جماعات هذا الطير المضر بعد قتل ارجاله ، (كذا) ويظهر أن السلطة التي كتب اليها بهذا الشأن لم تهتم بالأمر كثيرا ، ويقال انها أهملت الطلب حتى انها لم ترد على كتاب القنصل بكلمة

وقد فهمنا الآن أن أحد البيوت المالية البلجيكية الكبيرة في الاسكندرية علم أن العراق مازال بحارب الجراد في بعض أرجائه فجعل يسعى للحصول على مقدار منه من تلك البلاد لا يقل عن مئة طن . وهناك شروط معينة لتوريد الجراد أخصها انه يجب على المورد أن يضع الجراد بعد قتله في الماء الحار نحو (١٥) دقيقة وتوضع في الماء كمية من الملح . وبعد ذلك يؤخذ الجراد ويفرش على الأرض أربعة أيام ثم ينظف ويوضع في أكياس أو صناديق ويشحن الى (ميناء أفرس) حيث يسلمه الطالبون

ولاندري لماذا لم تهتم السلطة المصرية ذات الشأن بما كتبه اليها القنصلية البلجيكية في هذا الموضوع في أثناء محاربة الجراد في الأراضي المصرية أيام كان الأهالي يهلكون ارجال هذا الالاء ويتلفون كل ما يجمعونه منها . وقد كان بالامكان بيع مقادير كبيرة منه لمصانع البلجيك بواسطة القنصلية البلجيكية والكوبتوار البلجيكي . ولو أن الأهالي كانوا يعرفون أن للجراد فوائد صناعية وأن هناك مصانع تطلبه لاهتموا هم بالأمر وباعوا منه مئات الأطنان وربحوا منه المال الوفير

عسى أن لا يأتى الجراد الى مصر مرة أخرى والبلاد في غنى عن هذه التجارة . ولكن اذا الأقدار ساق الى مصر جرادا في وقت من الأوقات فيجب أن يكون مفهوما أن في أوروبا مصانع تحتاج الى ما يقتل من هذا الطائر المضر بالزراعة . انتهى

هذه حال حكومتنا المصرية التي لها في الحكم نحو قرن وثلاث وهؤلاء حكامها يقباطون في منفعتها فبالك أيها الذكي بغيرها من حكومات الشرق المتأخرة . الأفليم التعليم النافع بلاد الاسلام فلا يكون تعليما قسريا إن بعض الحكام في البلاد الشرقية ليس عندهم تهذيب تام ولا عشق للعلوم . إن من عشق العلم يحب الأمة والفضيلة ومن خلا من عشق العلم انصرفت همته الى شهواته فعاش خادما لها بحيث تكون جميع أعماله موجهة الى هذا الغرض وحده فلا يزال يرقى الأمة وسعادتها والله يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو العزيز الحكيم . كل الأمر راجع للتعليم والحمد لله رب العالمين . انتهى ليلة الأحد ١٠ أغسطس سنة ١٩٣٠

﴿ اللطيفة الثانية ﴾

(في قوله تعالى أيضا - هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه - الى قوله تعالى - فانما يقول له كن فيكون - مع ملاحظة آية - خلقكم من نفس واحدة - مع قوله - ذلكم الله ربكم له الملك لا اله الا هو فأتى تصرفون - التي في سورة الزمر الى قوله هناك - فينبشكم بما كنتم تعملون - وقوله فيها - خلق السموات والأرض بالحق - الى قوله - ألا هو العزيز الغفار -)

هذه الآية أولها وحدة النفس التي منها خلقت نفوسنا الكثيرة وفي آخرها وحدة الله تعالى . ولا جرم أن الوحدة الأولى تدل على الوحدة الثانية وهذه من أعاجيب القرآن . يقول الله - خلقكم من نفس واحدة - وخلق من هذه النفس نفسا أخرى . ومن هاتين النفسين خلق نفوسا وهكذا . فالوحدة مبدأ الكثرة وذلك كالعدد أمه الواحد وبانضمام آخر إليه ابتداء العدد لأن العدد يفهم منه التعدد ولا تعدد في الواحد . واعلم أن العلوم الحديثة المنتشرة في كرتنا الأرضية هي التي تفهمنا سر هذه الآية . ألا ترى رعاك الله أن وحدة الانسان ظاهرة بأن له روحا وهذه الروح تنصرف في جسمه وفي جميع أعضاء الحس وأعضاء الحركة وهي متعددة . ومن عجب أن هذه الوحدة الظاهرة في الروح المنصرفة في الجسم ظاهرة أيضا في ملكة النحل وبنودها منه . وفي ملكة الأرض (جمع أرضه) بوزن سمكة المرسومتين في أول سورة سبأ . والمرسومتين أيضا في سورة النحل إذ قلت ان هذه الآية تفسرها العلوم الحديثة . أقول لك أيها الذكي أرجع فاقرا ما كتبت على النحل في (سورة النحل) وفيما كتبت على الأرض في (سورة سبأ) ثم أزيد عليه الآن فأقول :

هاهم القوم في أوروبا ضغطوا على الزر في أوروبا فأوقدوا المصابيح في استراليا ، فدل ذلك على أن هذه العوالم كلها متصلة اتصالا وثيقا ، ولقد تكلم السياحون وهم فوق القطب الجنوبي في هذه السنة (١٩٣٠) مع من هم في الممالك المتحدة بطريق البرق الذي لاسلك له ، إذن هذا الجوكية مملوء بالأسرار مغمم بالأشوار موصل جيد للأخبار

إذا علمت هذا فلتعلم علما ليس بالظن أن ملكة النحل وملكة النمل وملكة (الأرض) بوزن سمك متصلات مع رعاياها بواسطة هذه الأسرار الخفية في الأنير وهي مع مملكتها كأرواحنا مع أعضائنا ، فإذا وصلت أعصابنا أخبار حواسنا الى داخل أجسامنا ، وأوصلت أعصابنا أخبار ملاذنا وآلامنا الى المخ وهو وصله الى أرواحنا فإن الجوق ومافيه من الأنير موصل بلا أعصاب فيه ، فكما وصل أخبار من وصلوا الى القطب الجنوبي لمن هم في الممالك المتحدة ووصل تيار النور من أوروبا الى استراليا في لمح البصر بمجرد الضغط على الزر بسر الراديو ، هكذا وصل الأنير أخبار ملكة النحل الى عمالها فكان منبه المربية للذرية والجامعة للسسل والشمع والتي تنف على باب الخلية حتى لا يدخلها أحد ، ووصل أخبار ملكة النمل كما تقدمت في (سورة النمل) فكانت مملكتها كأرقى مملكة في العالم ، فمنه الديديان والعامل الصغير والجندى والضابط والمرابي للذرية كما تقدمت في سورة النمل ، وهناك ترى مزارع النمل المنظمة البهجة مرسومة موهجة ، فهل يكون ذلك النظام ونظك الطاعة المدهشة تحت أمره الملكة بلا خطاب منها ولا تفهم ؟ كلا . والموصل هو العالم الخفي في الأنير تباركت ربنا وتعاليت ، أنت جعلت الوحدة فينا أي وحدة أرواحنا ، وهذه الوحدة في أرواحنا جعلت قوانا وأعضائنا فكانت علما واحدا ، وجعلتها نموذجاً تفهم به وحدة ممالك النمل والنحل وممالك الانسان بل مملكة الأرض والمجرات والعوالم كلها كلهن متصلات اتصال أعضاءنا بأجسامنا التي تقودها أرواحنا واتصال ممالك النحل بمملكتها وممالك النمل كذلك والأرض (بوزن سمك) كلهن خاضعات لمملكتهن خضوع أجسامنا لأرواحنا ، هكذا العوالم كلها يا الله خاضعات متصلات متحدات مرتبطات ارتباطا وثيقا وأنت المدبر لها ، وقد ضربت لنا مثلا نفهمه من أنفسنا ومن ممالكنا ومن ممالك النحل والنمل - وبنته للتل الأعلى في السموات والأرض - . فإذا دبرت الروح الجسم ودبرت ملكات النحل ممالكها ودبرت ملكات النمل ممالكها وخضعت هذه الممالك كلها لواحد دبرها ، فهأهي ذه مملكتك خاضعة لك دبرها وأنت واحد

بهذا فهنا - ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة - وفهمنا قولك - خلقكم من نفس واحدة - وقولك في أول سورة الزمر - ذلكم الله ربكم له الملك لا اله الا هو فأنت تصرفون - أي فكما لا قسرة للأعضاء

على مخالفة الأرواح ، ولا لأفراد النحل عن الخروج عن أمر ملكاتها . ولا لأفراد النمل عن الخروج عن أمر ملكاتها . هكذا نوع الانسان لاطاقة له أن يخرج عن النظام الأقدس وهو التوحيد الذي أمر به وهو ملزم أن يدرسه ويسير على منواله ويطيع نالقه غاية الأمر أن طاعة الأعضاء للروح وطاعة أفراد النمل لملكاتها وطاعة أفراد النحل لملكاتها وطاعة الأرضات (بوزن سمكات) غريزية طبيعية . وطاعة الانسان ربه يجب أن يكون بالتعليم والتهديب لا غير . انتهى صباح يوم الاثنين (١٥) سبتمبر ١٩٣٠

﴿ اللطيفة الثالثة ﴾

(في قوله تعالى - الله الذي جعل لكم الليل - الى قوله - فانما يقول له كن فيكون -)
لجاء في هذه الآيات :

- (١) ذكر الليل والنهار ، وبيان أن الله له فضل على الناس بتعاقبهما ، وأن الناس قلّ شكرهم على هذا الفضل
- (٢) بيان أن الله خالق كل شيء بمناسبة تعاقب الليل والنهار ، وأن ذلك محل اعتبار فمن صرف عنه فهو خاسر
- (٣) بيان أن الأرض جعلت لنا قرارا والسماء بناء ، وأن صورنا حسنة ، ورزقنا طيب ، فآلة تعالى كثير البركات والخير وهو حيّ فوجب حده والاخلاص له وترك عبادة غيره والتسليم له هو
- (٤) بيان نظام خلقنا وتدرجه في النشوء
- (٥) بيان حياة كل حيّ وموته وتعاقبهما

في هذه المسائل الخمس تدخل العلم الإلهي في العلم الطبيعي والفلسفي ، فالعلم الفلك في عدد (١) ان تعاقب الليل والنهار واختلافهما يترتب عليه اختلاف الحرارة والبرودة في الأقطار . إذن هو الأصل وما بعده من أن الأرض قرار وأن صورنا حسنة ورزقنا طيب وارتقاءنا في الحياة من تراب الى نطفة الى علقة وتعاقب الموت والحياة علينا كل ذلك فروع . إذن العلوم الطبيعية خاضعات لآثار الأفلاك ، فهنا علمان : الرياضيات والطبيعات . وهي فروع جمة واضحة في ننايا هذا التفسير ، وقد تخلل ذلك العلم الإلهي لأن نوعي الرياضيات والطبيعية لانبثا لهما إلا بدبر للعالم ، فلذا كرمجده بذكر في أنثائهما ، فقد قال قبل ذكر علم الفلك ادعوني أستجب لكم وحذرهم من الكبر وخوفهم من جهنم . ثم يتخلل الكلام على العلمين اظهار فضله على الناس وتبيان انه هو الخالق لكل شيء أي فليست هذه العلوم منفصلة مفككة العرى بل لها من يحفظ كيانها . وأخذ يذم الجاهدين لأن الحركات المنظمة لها منظم . واذا كان هذا العالم مملوءا نشاطا وحياة فمن أين أنت هذه الحياة إلا من أن الخالق حيّ ا أفلا تحيا نفوسكم بالاخلاص له وحده والاعراض عن سواه

أليس هو الذي ينقلكم حالا بعد حال في الخلق بل يخلق الموت والحياة فيكم وفي غيركم . إذن في هذا العالم حركات هائلة ليل ونهار وموت وحياة وأرض وسما وصور حسان في الانسان مشتقة من تراب لاهياة فيه . هذه نبذة عامة في مجمل هذه الآيات . فهل لك أيها الذكر أن تسمع ما ألقى عليك الآن من نبا العمران في هذه الأرض المبني على الفلك لتعلم أن الاجال في آيات القرآن يعوزه التفصيل . إن الوقوف عند حفظ القرآن جهل عظيم وفهم المعنى اللفظي والوقوف عنده غرور وموت . وقف المسلمون غالبا عند ظواهر الألفاظ وناموا . لا أيها المسلمون . هذا إجمال أما التفصيل فانما يكون بجميع العلوم وليس معنى هذا أن المسلم يقرأ جميع العلوم تفصيلا . كلا . بل يختص كل جماعة بعلوم خاصة واذن يستخرجون منافع أرضهم ويحجون بهم ويرتفع شأنهم في الدنيا والآخرة . إن الحرارة والبرودة في الأرض ترجع الى الليل والنهار ارتفاعا وانخفاضاً وعلى

مقتضاها يكون ظهور النبات والحيوان وتكاثرهما نارة وقلتها نارة أخرى وعدمهما بتاتا. الناس والحيوان والنبات موزعات على الأرض بقوانين كلها ترجع الى سبرالنشمس. إن الله كما جعل التوسط في الأخلاق من شدة ولين هو الصراط المستقيم هكذا جعل المكان الذي يتوسط فيه وجود النبات على الأرض ويتوسط فيه الحر والبرد هو الذي يعيش فيه الانسان. أما المكان الذي كثر حره ونباته أو المكان الذي كثر برده فهما لا يصلحان لسكنى الانسان. إذن القانون واحد قانون الأخلاق بالتوسط فيها وقانون سكنى الأرض. شجنت كتب انبيات وكتب الفلسفة يعلم الأخلاق. لماذا هذا؟ لأن الانسان لا يعيش مع الناس إلا بخلق متوسط فإذا تعالى في الشدة أو تعالى في اللين نبذه الناس في الأولى بالخوف منه وفي الثانية بضعفه. والنفوس الانسانية لا تحب إلا الاعتدال. ذلك لأنك -مرف قريبا كيف كان الانسان يستحيل عليه أن يعيش في الغابات الاستوائية لوفرة الحرارة فيها التي بها كثر النبات فطرد الانسان منها. ولا في الأقطار الباردة لكثرة البرودة التي منعت أكثر النبات والحيوان فلم يستطيع أن يعيش الانسان هناك. إذن الانسان عالم متوسط في خلقته وحياته. متوسط في أخلاقه رإذن هناك تناسب بين خلقته وخلقه والله حكيم عليم

وستسمع قولاً عاماً على الأرض وسكانها وغاياتها وبدائعها مما لم يسبق له نظير في هذا التفسير، وفيها ترى عجائب هذه الأرض وتعرف فيها ما لا يعرفه السائح حولها لأن السائح بمقله قد يعرف من التفصيل ما لا يعرفه السائح بحسه والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

فقال صاحبي: لقد شوقتني الى ما تقول ولكني أريد أن يكون هذا المقال على سبيل المحادثة بيني وبينك حتى تتجلى الحقيقة واضحة ظاهرة، أنت تريد شرح الحرارة والبرودة وما ترتب عليهما من الحياة على الأرض وهذه كلها فروع لأصل والأصل هو البنية الانسانية، ذلك ان كل ما نزل من العلم على قلوب الأنبياء أو الحكماء أو العلماء إنما يراد به هذه الانسانية، ولقد ذكرت أنت في تفسير البسملة في (سورة ص) ما ملخصه أن الانسان له أعضاء حس وهي الحواس الخمس وله أعضاء حركة وهي اليدين والرجلان، ولقد كان هذا أصراً عجيباً وهل أعجب من أن خلق الانسان جعل مناسباً للعالم فكان العالم نسخته أو هو نسخة العالم، أو كان العالم شجرة وهو ورقها، وقد تقدم في (سورة يس) في المقالة المنقولة من كتاب (علوم للجميع) كيف كانت الشجرة صورة مكبرة لورقة ساقطة تحتها في بعض الأشجار، أو الورقة صورة مصغرة للشجرة التي سقطت هي منها، ذلك ان الزوايا التي تحدثها فروع عروق الورقة مع الخط المتوسط فيها (المشبه في هذا التوسط فقار الظهر مع الأضلاع في الانسان والحيوان) تشبه من كل وجه الزوايا المحاذية من أغصان الشجرة مع جذعها والمحاذية من الفروع الصغيرة مع أغصانها حذو القذة بالقذة، فهكذا نجد وضع هذا الانسان مع العالم المحيط به، ذلك انه (وان غفل جهوره ونام ولم يعن حقيقة نفسه ولا بهجة جسمه ولا جلاله ولا حكمته خلقه) بحواسه الخمس التي تقدم القول فيها قد استعدت لمشاهدة الأنوار والظلمات والحيوان والنبات والعالم العلوي والسفلي وبأعضاء حركته استعدت لأمرين: أمر الانتقال في الأرض بالرجلين، وأمر العمل في الطبيعة باليدين فيصنع ماشاء صنعه بعقله الذي استمدت الصور من حواسه، إذن العالم كله مقسم على أعضاء الحواس وأعضاء الحركة، فأعضاء الحواس للعلم وأعضاء الحركة للعمل. فمنها ماهي للانتقال. ومنها ماهي للعمل. هذا هو الأساس الذي يبنى عليه كل علم في الأرض وكل عمل. فالبناء الذي تريد أن تبنى على هذا الأساس الآن؟ فقلت أريد أن أبنى بناء حسناً جيلاً كما ان هذا البناء حسن جميل. فقال: ففي أي وجهة سيكون بناؤك في ذلك المقال الذي تريد. فقلت: في وجهة نظام العالم الانساني كله. إنى أرى ولا شك في رأيي وأنا موقن به أن جميع النوع الانساني يجب أن يكون كهيئة هذا الجسم. وأرى أن هذا الانسان كله الآن جاهل كثير الجهل. كثير القورور لأن لمن درس هذا الجسم حقاً دراسته ودرس العالم حوله لم يشك أن هذا العالم

بالنسبة لهذا الانسان أشبه بهذه الأعضاء بالنسبة للروح والروح واحدة في الهيكل الانساني والأعضاء مطبقة لها . فلتكن الانسانية واحدة تطيعها العوالم حولها . فقال : هذا قول حسن وتقدم له نظائر في التفسير . ولكن الاجمال يعوزه التفصيل . قلت : إن الانسان سائر الى ما أقوله . فقال : كيف ذلك ؟ قلت : اسمع يا صاح : أضرب لك مثلا رجلا له أبناء كثيرون فبنى لهم قصرا منيفا وأبدعه أيما ابداع . فجعل الأبنية فيه لا تبلغ إلا نحو الثلث والباقي من الأرض جعل بركة عظيمة تتخلل تلك الأبنية التي تشبه في وضعها مدينة البندقية (فينيزيا) فان البيوت يحيط بها ماء البحر والناس ينتقلون في السفن من منزل الى منزل ثم انه ملا تلك البركة بالسماك وملا تلك الأبنية بأنواع النبات والحيوان والخيرات . فهو في أول الأمر جعلهم متفرقين في المنازل وجعل الماء يفصل بينهم . ثم أخذ يعلمهم كيف يضعون خشبات في الماء وكيف يربوونها فكان سكان أحد المنازل اذا ركب في البركة وقابل آخر من منزل آخر أخذوا يتحاربون ويتقاتلون ثم أخذت كل جماعة تحارب الجماعات الأخرى واستمرت النضال جيلا بجيلا وذلك النضال كان هو السبب في بحث عجائب منازلهم وعجائب بحارهم فقرروا قرارهم آخر الأمر انهم يجولون ما أراد بهم والههم . ذلك ان أحدهم قال : اتنى وجدت في حديقتي التي في منزلي اني لا أنال حظا من ثمارها إلا اذا كانت الطيور تأكل السود كأي قردان وبعض الغربان والعصافير المغنية وغير المغنية وهكذا مما تعد بالعشرات ، ووجدت أن البرص والسحلية وغيرها تأكل الحشرات في أرض الحقل ، ومن المدهش اني رأيت العنكبوت تنصب الشباك في الأشجار ولا تقتصر في صيدها على الذباب بل هي تصطاد حشرات كثيرة . فإيها الاخوة : ان أبانا ذوق عقل وذو حكمة ، انه لم يشأ أن يقول لنا الحقيقة فباعدها فيما بيننا ظاهرا وأراد أن نعرف الحقيقة من أنفسنا ولن نعرفها إلا بدراستها ولا دراسة إلا بمقدمات والمقدمات هي العداوات التي كانت بيننا وهي السبب في تعلمنا ، فالعداوة بيننا كانت أشبه بالجوع فالجوع غير مقصود لذاته بل هو مهمما يسوقنا الى الغذاء لنعيش والعداوة مهمما أعلى يسوقنا الى العلم لتخترع ما نشاء في المحاربة وفي نهاية العلم اهتدينا الى ما يأتي :

ان كل واحد منا يقتل أخاه ليأخذ ماله ولكنه في الوقت نفسه حافظ على عصفور وغراب وأبي قردان وكروان وبرص وسحلية وزقزاق بلدي وزقزاق شامي وعنكبوت في الحديقة وعلى جاموسة وبقرة وجل . لماذا هذا كله ؟ لأن كل هذه طعام لنا فيمكننا إبادتها بأكلها في أيام قلائل ولكن نحن بالاختيار أبقيناها لتساعدنا في حياتنا . فبما نبحث به أرض الحدائق . ومنها ما يجرب لنا العجالات لأعمال الزرع في الحديقة . إذن بقاء هذه كلها وان كانت تحت تصرفنا خير لنا من إبادتها (وبعبارة أخرى) إن اللذة الوقتية بأكل هذه الحيوانات شر مستطير لأنها تحرمنا من ثمرات لاحدها . إذن نبتذ اللذة العاجلة إذ احرمنا نفعها عظيما مستقبلا

هذه نظر ياتنا في منازلنا نحن هكذا فعل ، فاذا كان بقاء هذه الدواب والطيور خيرا لنا (لأنها وان كانت تحتل الحق والأرض معنا وبعضها يأكل مما نزرع ويشاركنا بعض المشاركة في الأرزاق فبقاؤها خيرا لنا) أفلا يكون كل واحد منا اذا بنى خيرا لآخوته وان شاركهم في المطعم والملبس كما يشارك كلا منا دابته في أكل بعض الحبوب وفي سكنى بعض أجزاء المنزل ومضايقته ، مع ان نفع الدواب محدود ونفع الانسان أوسع وأعظم قدرا

فلما فكر اخوانه في كلامه قالوا صدقت والله ، وقال آخر منهم : « أيها الاخوان : إن أبانا كان حكما فلم يفعل معنا ما فعلته الطيور تعيش جماعات من غير تعليم ولا تنقيف ، فهو فرقنا ظاهرا ولم يشأ أن يجمعنا إلا بجدتنا واجتهادنا وأحاط منازلنا بالماء حتى يكون لنا ميدان تسابق وسهل لنا سبل التواصل والتعلق حتى اذا اجتمعنا بعد الافتراق كان اجتماعنا بعقل فترفع في السعادة الى أعلى منزلة بخلاف الحيوان فانه يقف عند حد

واحد وعاشوا بعد ذلك وارتقوا ارتقاء لاسد له

هذا هو المثل الذي أردت أن أضربه لأهل الأرض الآن ، فالأبناء تمثيل لبني آدم ، والآب تمثيل لله عز وجل - وفه المثل الأعلى - والمنازل هي القارات والجزائر والبركة المحيطة بالمنازل هي البحر الملح المقسم الى أقسام كل قسم منها سموه محيطا فيقولون المحيط الاطلسي والمحيط الهادي والمحيط الهندي وما أشبه ذلك والخشبات التي ركبها الأبناء هي السفن في البحار والعداوات بينهم مثل للعداوات التي بين أهل الأرض ، وبقية القول معقول مفهوم

وبيت الصيد في هذا المقام أن هذه الانسانية جاهلة غاية الجهل وهي اليوم آخذة في رقيها ، ثم انظر الى ما قدمنا في ﴿سورة يوسف﴾ من أن الطيور النافعة كلن الاورو بيون يقتلون منها أبا قردان وغيره . وهذه الطيور خلقت محافظة على الزرع تقتات من السود في الأرض فيسلم الزرع . فلما كان الاورو بيون في بلادنا قوما لارادع ولا زاجر لامن ضماهم ولا من حكوماتهم عاثوا في الأرض فسادا وقتلوا هذا الطير لتتحلى نساؤهم برشه فهلك الزرع . فلما كتبت مقالا في إحدى المجلات العلمية وقرأه الوزراء صدر الأمر بإبقاء الطيور بالثلث نحو (٣٠) طيرا مذكورا أكثرها في ﴿سورة يوسف﴾ كما قلنا وبقية في سور أخرى

اللهم أكبر : اللهم إني أحمدك على العلم وأحمدك يا رب على الحكمة ، أنت المنم أنت المعلم ، يا رب ان العلم واضح والعيون تشاهد صورته ولكن القلوب مقفلة

اللهم إنك تعلم أن الأمم كلها أشبه بالأمّة المصرية ، والجهل بمنافع الانسان في الأرض كجهل قوما بمنافع الطيور وظهور حكام في الأرض يعلمون الناس ثمرات بقاء الانسان على الأرض كظهور المقال الذي كتبت في فوائد الطيور آكلة السود وتحريم الحرب والقتال بين الأمم اجتناء لقوائد الأمم كلها كتحرير حكومتنا المصرية صيد الطيور فاتفعنا بزرعنا ، وهل الانسان الخالي إلا كما قال الله تعالى - قتل الانسان ما أكرهه - هذا هو المثل الذي ضربته من حيث الطيور المصرية وتحريم صيدها استبقاها لمنفعتنا ومضاهاة منفعة الانسان ببقائه بمنفعة الطيور ، فشهوة اغتيال أمة لأخرى شهوة وقتية وبقاء الأمة الضعيفة مفيد للأمة القوية كما أفادت الطيور والدواب الانسان وهي ضعيفة أمامه . إذن النظرية التي شاعت وذاعت في الكرة الأرضية في القرن التاسع عشر من أن الأقوى يبيد الأضعف وجعلها عاتمة نظرية خاطئة ، فلو كان ما يقولون حقاً لم يش حيوان تقدر على أكله مع ان الطيور في منازلنا وحقولنا وكثير منها حرمنا أكله لمنفعتنا ، إذن هي نظرية جزئية جعلوها عاتمة ، وضلال هذا الانسان أكثره يرجع الى تعميم القضايا والحكم بالجزئي على الكلي - قتل الانسان ما أكرهه -

فقال صاحبي : لقد أجدت والله وأصفت وأثبتت بحكمة شريفة وآية منيفة وعلم تام ، ولكنني أتذكر انك قلت لي « ان الانسانية متجهة الى وجهة الاتحاد العام » . فهل تشرح لي ذلك ؟ قلت : « ان أبناء الرجل الحكيم في قصره الواسع أدركوا أن أباهم أراد إسعادهم من طريق نصيحتهم هم لامن طريق المنفعة الجانية » . فهل تشرح لي الأمرين معا في شأن هذا الانسان ؟ قلت : أما الأمر الثاني فهو واضح ألا ترى رعاك الله أن هذا الانسان أعطيت له الأرض وترك فيها وقيل لآدم وذريته - اهبطوا منها جميعا بضعكم لبعض عدو -

وبالت عداوة اقتصر على أن تكون بين الانسان والانسان بل جعلت بينه وبين ما حوله . الأرض دائرة حول الشمس تقرب وتبعد وفيها مناطق باردة وأخرى حارة . فلا هو بقادر أن يسكن الباردة ولا هو بمستطيع أن يسكن الحارة . فللمناطق الباردة قلّ فيها النبات والحيوان . والمناطق الحارة اكتظت بالنبات فطرده الانسان منها والأمطار تهطل ليلا ونهارا فلن يقدر أن يوقد النار فيها فلا بد من أن يعيش في الأقطار

المعتدلة . وهذه المعتدلة تكون فيها الغابات القوية وتكاد تمنعه أيضا من ولوجها . ولكن لما كانت تلك الأقطار ينتابها الصيف والشتاء والحريف والربيع . وكان الحريف والشتاء ضلين يجرّدان الشجر من قوته بعض التجريد قدر الانسان إذ ذلك أن يدخل في تلك الغابات وينتفع بما فيها . فهو اذا طرد من القطبين ومن خط الاستواء لم يعدم وسيلة بها يدخل في غابات الاقطار المعتدلة حيث تساعد أحوال الجوّ على ولوجها واستعمارها والانتفاع بأشجارها

وما هذا أيها الذكيّ إلا مثال واحد من أمثلة أعمال هذا الانسان . فهو اذا دحرت غابات البرازيل حيث الشمس حارة في أمريكا وطردته غابات افريقيا الاستوائية فلم يستطع سبيلا لتذليلها أو السكنى في أرضها لقوة النبات ولا السياحة في داخلها إلا بمشقة فانه قدر أن يجمع نباتات المناطق المعتدلة ويقابل الطبيعة هناك . ثم ان الانسان لم يستطع ذلك إلا بالجوع الكثيرة منه . فأما الأفراد فلا

يا محببا : هذا تفصيل جسم الانسان ، انه مفصل على مقتضى هذه الدنيا وهذه الدنيا كلها وجدناها مزروعة له ، ثم ألقينا عقل بعض النظريات العلمية لحافظ على كل حيوان نافع له فأبقاه لأنه نافع له في اجتناء الفوائد ، وما هوذا يرى فوائد غزيرة في الغابات الافريقية والغابات في البرازيل ، يرى منافع ومنافع ومجانب تحت الأرض في القطبين ، فهناك الفحم وهناك (غزال الزبه) ومنافع كثيرة ، وكلها موصدة أمامه تحتاج الى عناية ونصب وعقول وقوى ، أفلاتكون تلك المنافع القطبية والتي في الغابات الاستوائية ومنافع الهواء والماء وضوء الشمس التي لاتزال كلها لغزا أمام النوع الانساني . أقول : أفلاتكون هذه كلها مضاهية لمنافع زرعنا وتكون الأمم التي يسمونها ضعيفة بمنزلة الطيور آكلات السود لحفظ زرعنا . لا لا . والله ان الأمم الأرضية أعظم نفعا وذخرا في استخراج ثمرات العوالم المحيطة بنا من أي قردان في حفظ زرعنا ومن العنكبوت في حداقنا المييد لبعض حشراتنا ، فالانسان الآن جاهل أشد الجاهل بهذه النظرية العلمية ، وعلى كل من اطلع عليها وكان من أهل التبل والشرف والجاه والحكمة أن يذبح العلم في أم الاسلام أولا ثم يثقبهم روح الجذّ والنشاط واكتناء العوالم العالوية والسلفية ، ثم إن المسلمين اذا أشربت قلوبهم الحكمة يكونون هم السبب في ارتقاء أهل الأرض لأن أهل أوروبا وأمريكا ينظرون الى الظواهر فيجعلون لون السواد ولون الحجر في أبناء السودان ببلادهم وأبناء أمريكا الأصليين من أسباب العداوة ، فلا يطبقون أن بروهم في أماكنهم العاتمة ، وهكذا أهل (انكلترا) فهم يطردون السود من بعض مطاعمهم ، و بعض تلك الأمم تنقض على الأمم الضعيفة لتأكل خيرها وتذللها كما يفعل الفرنسيون مع أهل مراكش والجزائر وتونس وكما تفعل ايطاليا مع أهل طرابلس وكما تفعل انكلترا مع فلسطين ومصر والهند . وهامى ذه اليوم قد سحنت غاندى الزعيم الهندي الذي قام بالحركة الاصلاحية هناك وطلب بعدم اسراف المال في الملابس الأجنبية وعدم شرب الخمر القاتل للانسانية . إذن هذه الأمم كلها جاهلة قدر الانسانية فهي لاتصلح لرقبها وقيادتها . إن الأسد لا يصلح لقيادة الانسان وإنما يصلح لأكله ونحن نريد أن يحكم الانسان ويعلمه انسان مثله لا حيوان !

الأرض قد بخلت بما لديها فلم تفرط فيما عندها من غابات خط الاستواء ونحوها ولا من المدخرات في القطبين ونحوهما إلا اذا كان أبناؤها جميعا يدا واحدة في استخراج ذلك . وهؤلاء لقلة تبصرهم يتكون الحقائق السكينة . ويصدهم عن هذا النعيم المنتظر للانسانية كلها مظاهر الألوان واختلاف الأديان والأقطار واللغات إذن الانسان جاهل كل الجاهل . فليتعلم المسلمون وليعلموا الانسانية . أناموقن أن هذا القول سيخوض البصار ويقرؤه أهل الأقطار وتنقله السفن في البحار والطيارات والبالونات التي يركبها الناس في الجوّ وتنشر الفكرة ويم الاتحاد وتخرج الانسانية من جاهليتها

إن الإنسانية اليوم استعدت لفهم هذا القول . وهذه الطيارات تطير حول الكرة كلها والسياحون يطوفون حولها في السفن والقطرات البرية والعلماء يتسابقون إلى الكتابات في السلام العام كما كتب أنا الآن إذن أتحد على هذه الفكرة سيرالسفن في البحار حول الكرة الأرضية وطيران الطيارات حولها أيضا وكتابة العلماء في الاتحاد العام . وهذا نوبل مخترع الديناميت المشهور قد أعد جائزة لمن ينفع السلام العام . فأقول اليوم جاء أوانه . فليدل المسلمون دلوهم في الدلاء . وليقوموا أنفسهم أولا ثم ليقوموا الإنسانية ثانيا والله هو الولي الحميد

فقال صاحبي : نعم ما فصلت وحسن مادبجه برادك . ثم أذكرك انك تقول : « إن غابات خط الاستواء وغابات بلاد البرازيل لا يمكن اجتيازها لصعوبتها ، وذكرت أمورا لا يعرفها إلا القليل . فأحب أن تذكرها لنا من مصدر علمي واسع النطاق يشرح هذه المواضيع كلها وما شابهها شرحا واسعا كما وعدت بذلك في أول المقال فقلت اسمع ماجاء في كتاب « الجغرافيا التجارية الاقتصادية » تحت العنوان التالي وهذا نفسه :

(الإنسان وتوزيعه على المعمور)

(تكاثف السكان)

شروط صلاحية للتطير للسكنى ، مقابلة
الإنسان لطابع الاقصاد التي يسكنها . أسباب
تكاثر السكان الاستوائية . مقارنتها في ذلك
بالنباتات المعتدلة . التغيرات الفصلية عند التطير
السكنى ، وكذا التغيرات البحرية ، الحرف
وتأثيرها في عدد السكان

انظر الى خريطة العالم حيث توزيع السكان على المعمور ترى الانسان منشورا في متفرق النواحي من غير
ساواة في العدد فهذه الصين والهند وما جاورها خاصة كلها بالسكان وهناك جهات أخرى من العالم الضيق
لا يسكنها إلا النفر القليل حتى في الولايات المتحدة وهي جمهورية واحدة ترى الانسان متجمعا في جهة الشرق
مم يرق شيئا فشيئا جهة الغرب وفي جنوب أمريكا تراه كذلك عتسدا في جهات منتثرا في أخرى وهاجوا شتى
وكذلك في أفريقية وأستراليا والخلصة أنك بالتأمل في الخريطة لارى الانسان موزعا بانتظام في أنحاء
الأرض بل ترى منها الاختصاص بسكانه فتزاحم عليه وربما كان ذلك لمعهد قديم مثل مصر ومنها ما نصب عدده
فيه مثل معظم أفريقية فلماذا كان بعض الجهات أصلح لقام الانسان من البعض الآخر ؟ هذا ما يجب عنه
الإنسان محتاج الى هواء معتدل فالرطب منه جدا والجاف جدا كلاهما لا يطيبة ومحتاج أيضا الى مقدار
معتدل من الحرارة فالأصحاء الباردة جدا والحارة جدا تضربه ولا تصالح له ومثل ذلك النبات والحيوان ولما
ترى أن الجهات النادرة الحيوان والنبات قل ان تصلح لقام الانسان في أواسط القارة المنجمدة وفي أواسط
الأرض الخضراء حيث توجد فلات الجليد قل أن تدب دابة فلا ينسى للإنسان عيشة فيها كذلك في قلب
بعض القارات حيث ترتفع درجات الحرارة وحيث يجف الهواء جدا فينشأ عنه الصحارى القاحلة لا ينتظر
للإنسان عيشة وكذلك سفوح البراكين الحية وأساها من سطح البسيطة التي لم يستعمرها الحيوان والنبات
سبق خاوا من الانسان مفلتة من قبضة يده إلا إذا تغيرت أحوالها وتبدلت أطواره

ومن المعلوم أن لكل صقع مجموعة خاصة من حيوانات ونباتات فكلما ساد الانسان في صقع وتكاثر فيه
كان ذلك على حساب تلك الحيوانات والنباتات الأصلية يزيحها ويحتمل مكانها . عمر الانسان البرارى الاسكتلندية

مثلا منذ أقل من قرن فاذا تركت قلال جبالها جانبا ونزلت الى حيث يسكن منها وجعت « ابلنج » قد فنى وليس من الارباع صغيرة في المراعى ورأيت حقولا من الشوفان والبطاطا واللفت والكلأ ومثل ذلك وماهى الاحاصلات نافهة في جانب مايزرعه الفلاح الانجليزى في الشرق . ولكنها مع ذلك تمثل المطلوب من أن الانسان يكتسح الاجناس الطبيعية السائدة بالمسح الذى يستمره ويضع محلها نباتاته هى التى يختارها غذاء وكساء . وهكذا كلما نفشى في صقع عمدا الى ذلك العمل على نظام ومنوال أوسع . تطوف بانجلترا وتسير في فرنسا ترى الأفئدة الشاسعة من الأراضى الزراعية المخدمومة تبت أنواع الحاصلات المختلفة وهذه هى قلال الأراضى التى كانت في وقت يحسب الطبيعى غير بعيد تكتنفه كله الغابات الكثيفة وتشوها المستنقعات المؤذية قطنرتها يابد الانسان بالجد والعمل ومثل ذلك وقع على الحيوانات فاذا مسرنا في الأراضى المنصحة من انجلترا واسكتلنده وجدنا من الأسماع والأغنام والخنازير والتمجاج والأوز والبط خلقا كثيرا تملأ الضياع هناك وكل هذه الحيوانات المنزلية قد استقرت الى الروابى ونجد « ديفون » و « كورنول » غزانا كانت تجول في الأوحاج القديمة في بريطانيا . ومن أجلها أيضا استؤصلت شافة الذئب الهائبة التى كانت تعيث في الأرض فسادا وتعيش على تلك الحيوانات البرية وقصارى القبول أن الانسان لا يمكنه أن يعيش في هذه الدنيا إلا بقلب طبيعتها واختصاص نفسه في محل الذى ينزل فيه ببعض الحيوانات دون الأخرى وبمطاردة التى لا تنفعه لتفصح مجالا لها يموزه ويحتاج اليه

قلنا أن الانسان تتعذر عليه الحياة في الجهات التى يسوء فيها نمو النبات وصحة الحيوان ولكن قد تكون غزارة النبات من جهة أخرى سببا في حومان الانسان من سكنى الجهات الفسيحة فاذا نظرت الى خريطة سكان العالم وجدت جزءا عظيما من البرازيل حيث الشمس حارة وضاحنة والمطر وافر غزير يطيب فيه النبات ويزهو ويتكاثر ويعلو فيكون الأوحاج الاستوائية ولكنك تبعد عن الانسان في وسط هذا العالم فلا تكاد تجده إلا قليلا . ومثل هذا في غابات افريقية الاستوائية فليست قلة الحياة النباتية هى التى تعوق مساهم الانسان في استعمار مثل هذه الجهات بل غزارتها ووفرتها الزائدة عن حد الطاقة اذا الغابات الاستوائية هى ما يسيبه النباتى « بالتآلف المطبق » أى المكان الذى يكون نضال الحياة النباتية فيه شديدا قاسيا لا ينسى لأجناس جديدة أن تدخل فيه

فم ان العراك والنضال النباتى كذلك شديد في غابات المنطقة المعتدلة ولكنه تصحبه في كل خريف وشتاء « هدة من الله » اذ تنصف قوى الأشجار ويجمد حياتها في عروقها فيقوى عليها ساعد الانسان فتكون له الغلبة آخر حتى اذا جاء الربيع الذى تتماثل فيه الأشجار الى القوة والقوة لم تغلبه ولم تنصص عليه اذ كان قد ذلها من قبل واجتثحتها وملك ناصبتها ولا يخفى أن في الغابات المعتدلة تكون المقاومة بين الأشجار الكبار لما التبت على أديم الأرض فليست له مقاومة تذكر خلافا للغابات الاستوائية إذ التفت الساق بالساق بزاحفات من النبات متعددة قد تنكس منها على أديم الأرض عالم كبير حتى قال أحد السباح أن في غابة غانة الجديدة الاستوائية اذا سار جماعة فيها ثلاثة أميال في اليوم عد ذلك أمرا عظيما جدا لأنهم في الغالب لا يستطيعون قطع نصف هذه المسافة في اليوم وقال أيضا انه لا يوجد من حاصلات الغابة ما يمتن أن يقتات به الانسان فاذا تمد ما كله تمدهه الجوع بالقتل

النضال في الغابة الاستوائية شديد جدا والظروف الطبيعية هناك توافق حالات النبات لدرجة يتعذر معها وجود حيز فيها غير مشغول فتفرغ الأشجار وتبسط الى عنان السماء تطلو الواحدة جارتها . وكلما تناطحتا وحجبتا الضياء عن الأرض تحتها تسلفت عليهما النباتات الزاحفة طلبا للملأ حيث الهواء والضياء . وقد لا فصل جذورها الى التربة الأرضية بل تجده غذاءها الكافى بين الأوراق البالية . ومن الرطوبة الموجودة في هواء

هذا وعلى ضفاف الأمازون الفائرة حيث يطلب الباحثون المطاط ليرسلوه الى أوروبا لتتخذ منه اطارات السيارات وغيرها من منافع المدينة يتكبد رواده التقاه والعناء من تزامم الشجر اذ لا يرجون التسيار والتنقل إلا بقرب الضفاف حيث تبهر الأشجار ويقل عددها نوعا ونوعا فموزا واليابان والصين يطلب الرواد أشجار الكافور ليصنعوه بخورا أو كرات للتمتع ولكن جهدهم هذا يبلونه أيضا بشق الأنفس لأن أشجار الكافور توجد في الغابة متفرقة الواحدة عن الأخرى فكلما جمعوا شيئا من بقعة ارتحلوا طويلا الى غيرها وكف في هذا من عناء وعذاب

فأ أكبر الفارق بين هذه الغابات وبين أمثالها في المنطقة المعتدلة حيث توجد في بعض جهاتها الرطبة من البحر الأبيض المتوسط مساحات ضخمة كلها من شجر أبي فروة والجوز واللوز والصنوبر والخروب وتوجد مساحات ضخمة من الزان والبلوط ويسميا كلها النباتيون « الأجناس المتجمعة » لأنه اذا وجدت زانة وجد من نوعها الكثير فتتسنى تربية الخنازير على مقربة يطعمونها من حبه . ومثل هذه الأجناس المتجمعة من الأشجار نادرة الوجود في الغابات الاستوائية . ولذلك لا بد من بذل الجهد في طول الغابة وعرضها للبحث عن النبات الصالح

كذلك تكثر في الغابات الاستوائية الحيوانات ذوات الثدي ولكن أفراد كل نوع منها قليلة فلا يوجد فيها مثلا ما عدا من وفرة عدد الجاموس البري ببراري أمريكا ولا الفيلان بسهولة أفريقية ولا الحيوانات الأخرى بسهولة آسيا قبل ان تصل اليها قدم الانسان وما يذكر من الأسباب هنا هو ما سبق ذكره عن المطاط والكافور مقارنا بلزان والبلوط ويوجد بغابات البرازيل أنواع كثيرة من القردة ولكن عدد كل نوع منها قليل جدا ويوجد الحيوان الطيء المسمى بالكسلان ولكنه نادر جدا ويوجد بها حيوانات أخرى أكلة اللحوم تسبق الأشجار ولكنها قليلة أيضا وحالها هنا مصداق ما سبق قوله

والمقصود من هذا البحث أنه اذا قلت أنواع النبات والحيوان التي من جنس واحد عز سببها الاستعمار وصعب الاستمرار وقلت السكنى وزد على ذلك أنه يوجد بالغابات الاستوائية الحيات الرقطاء والحشرات السامة ولكنها مع ذلك أقل خطرا من البعوض القوي أغلبه مصاص الدماء ويحمل من فريسة الى أخرى جوائيم الأمراض مثل الملاريا ومرض النعاس ومنه ما يبيض تحت الجلد فيحدث القرح الأليمة . ومن الحشرات ما يعض أو يخز والكثير من الطوام والبعوض يتأثر من التبرع لضوء الشمس في بعض أدوار حياته فيموت فإذا أمكن للانسان أن يظهر الغابة منه زال الخطر وتسفت المنفعة ولكنه في الغابات الاستوائية المهترئة يجرى الجوق بينه وبين أعظم مساعده على التطهير وهو « النار » فإذا كان ثمة صقع يتناوبه الجفاف والمطر (مثل غابات غرب أوروبا) أمكن للانسان انتهاز الموسم الأول فيشعل الحشائش الطوال ويبيد جيشا كبيرا من النبات المتلف فيكون الرماد الناعم تربة خصيبة تكون مهدا للبذور النبات الصالح التي متى رعاها وتفقدت أي بالخير العميم . ولكن اذا كان الجوق دائما دائما على الأمطار تعذر أشعال النار وغلت بدالموقد

ومن ذلك نرى أن الأصقاع التي يسكنها الانسان يشترط أن تكون عرضة لتغيرات طبيعية صالحة لنمو النبات غالبية مرة ومغلوبة أخرى سواء أ كان التغير في درجة الحرارة كما في مناطق خطوط العرض المرتفعة في المعتدلة الباردة أم في درجة الرطوبة كما في الهند والصين بسبب التغيرات الموسمية أرفيها معا كما في بعض جهات الصين أيضا أعني أن الممالك التي يكثر فيها الانسان هي التي يروج فيها النبات في مواسم مخصوصة بسبب تغيرات الفصول وعلى ذلك فالأصقاع شديدة الرطوبة غير صالحة لأن موسم الرياح فيها قصير جدا أو منعهم بالرة اذا كانت متطرقة في شدتها . وكذلك بعض الاصقاع الاستوائية حيث درجة الحرارة مرتفعة دائما والمطر

ويدخل في معنى الفصول هذه تلك التغيرات الطبيعية الموسمية التي كانت سببا في إخصاب أرض مصر وإعدادها للسكنى من زمان قديم وهي جزء من الصحراء فدرجة الحرارة فيها دائما مرتفعة ارتفاعا نسبيا والمطر يكاد يفقد فيها صفة واحدة فتغير الفصول غير مشاهد فيها بالمعنى المراد اذا قارناها « بنيو فوندلاند » مثلا حيث الفرق بين درجة الحرارة في الصيف والشتاء قد يصل الى ٥٠ درجة ف . من هذه الأسباب كان مورد الحياة في مصر هو نيلها لاغير يعلو ويهبط سنويا في مواسم معينة فاذا علا فاض بالماء الذي فيه حياة أهلها وحاصلاتهم واذا هبط حل الجلب الذي فيه موت كثير من أعداء الانسان من العشب غير الصالح وبعض الطوام وفي أثناء هذه الفترة القصيرة يقضى له أن يجمع حاصلاته وأن يفلب على الماء فيحملة بالقنوات أنى شاء فيتزايد الزرع والحاصل ويموت جيش النبات الضار

والخلاصة أن نباتات أى صقع وحيواناته ماهى إلا مجموعات مرتبطة ملائم بعضها لبعض قد هياها الله لحالة الصقع من أزمان فكل شئ يضرب بسببه ولو قليلا هذا النوازن الدقيق يصبح فرصة سانحة لسخول الانسان وتحصل الاضطرابات هذه في كثير من أنحاء الأرض بسبب دورة الأرض وتغيرات الفصول الناتجة عن تلك الدورة وكلما حصلت هذه التغيرات على نظام أوسع في صقع ما وسهل على الانسان التدخل كان ذلك الصقع ساحة الوغى التي يجول فيها الانسان ويصول بحيله ورجله ويصل فيها الى أوج المدنية

وقد يكون مع التغير الفصلى تغير دهرى يقع في أثناء الأجيال والدهور فيؤثر في نتيجة الموقعة القائمة بين الطبيعة والانسان من ذلك انه يظهر في فلسطين واليونان وفي معظم أواسط آسيا مثلا أن قد تقلب دهور وعصور تغيرت فيها مع البطء الشديد مقادير الأمطار الساقطة هناك فحال هذا التغير بين الانسان وبين كثير من المنافع التي كانت في حظوه قديما وأمكننت الطبيعة البرية من أن تسترد كثيرا من أراضيها المفقودة كذلك عملت تغيرات أخرى من قرون لاعدد لها على جفاف تربة أوروبا . وفي أواخر عهد الجليد تحسنت حال الصارف في جزء عظيم من تلك القارة بسبب تأثير الجليد في سطح الأرض وإيجاده البحيرات ثم انتظمت مجارى الأنهار وفاضت بالطمى فانصلحت الأراضي حتى قال أحد الجغرافيين ان مثل هذه التغيرات الدهرية كانت العامل الأعظم في التقدمات الباهرة التي حدثت في القرون الأخيرة بأوروبا وأمريكا إذا كنتح عهد الجليد نوع الانسان القديم كما كنتح معه حيوانات أوروبا وقد جعل الأرض بما أحدثت من التغيرات فيها صالحة لسكنى الانسان المتمددين

ويقولون ان المدنيات القديمة التي يقرؤها على الحفائر وغيرها في مثل أواسط آسيا وبلاد العراق وفي مثل فلسطين وحتى في جهات أمريكا الوسطى كلها تثبت أن الجوى في تلك الأيام الحالية كان غيره الآن . ولولا ذلك مازرع فيها القمح ولاغيره قديما ولاعاش بها انسان في ذلك الزمان وفي هذا المعنى يقولون أن جوى أوروبا الآن وفلسطين وآسيا الصغرى الخ . قد قلت فيه درجة الرطوبة عن قبل أمطارا وثلوجا

وينسبون التغيرات الدهرية الى إرسال الشمس شعاعها المتغير كثيرا أو قليلا على حسب طبيعة جوها التي هي فيه فاذا اشتد شعاعها كثرت عليها السفع . ويكون ذلك رمزا على كثرة الحرارة التي تعترى سطح الأرض من جزاء ذلك ثم تكون هذه سببا في تسخين الهواء واحداث زوايج الأمطار والثلج (أى في رفع درجة الرطوبة) فاذا شعت الأرض حورتها جميعها صار سطحها باردا جدا وهذا لتعليل برودته ورطوبته قديما وعما تعرف به التغيرات الجوية الدهرية أعمار الأشجار القديمة ففي غرب أمريكا مثلا توجد أشجار عمر الواحدة منها ألفا سنة أو أكثر وعمر الشجرة يعرف من دراسة الحلقات الموجودة على خشبها . ومن هذه الحلقات يستدلون على مقادير الرطوبة في تلك العهود وتعرف التغيرات الدهرية كذلك من دراسة مستوى

البحيرات المملحة القديمة في مثل غرب الولايات المتحدة ولخص طبقات السود يوم والكورين هناك إذ يرى لدى الشاطئ حروز الطبقات فالعالي منها يثبت امتلاء البحيرات الى حده ويدل على كثرة الرطوبة في وقت والواطيء يثبت انحسار مستوى البحيرة الى حده ويدل على قلة الرطوبة وهكذا

نرى من كل ما تقدم أنه لا نبات بر يا ولا حيوان وحشيا قد أظهر من القدرة على الانتشار في العالم مثل ما أظهر الانسان وأنه لا نبات ولا حيوان قد تناسل مثل تناسله فالخلنج على البراري سالفة الذكر قد يكثر حتى يخيل الى الناظر اذا ما وجد هناك أن العالم كله خلنج ولكنه اذا ترك هذه البراري ونزل الى الوهاد أو الى الوديان البسامة لم يجد للخلنج فيها أترامرة واحدة . سر على جبال الألب بين أشجار التنوب وغابات صنوبر فيخيل اليك أن العالم كله تنوب وصنوبر . ولكنك اذا غادرت موقعهما من الجبال مشيت الأيام والليالي دون أن تعثرهما على أثره تكلمنا على الجاموس الأمريكي والرشا الأفريقي وذكرناهما أمثلة من وفرة التناج بجهة من الجهات وهما مع ذلك لم يشغلا من سطح الأرض إلا جزءا صغيرا بالنسبة له

انبت الانسان في جهات الأرض وعمرها وهو وان اضطر الى الفرار من غابات الاستواء وهجير الصحراء وبوادي الأقطاب ومن النجد والوهاد القاحلة فهو مع ذلك فائز منصور حيث لم يحظ غيره من النبات والحيوان بمثل ظفره وانتصاره سواء عنده جوانب الألب الشائخة وهضاب تبت الباردة والوديان البسامة والسهول الخصيبة فقد عمرها كلها وانبت فيها مصطحبا معه أيما حل قطعانه المنزلية ونباتاته الزراعية قد ذلها جميعها فدانت له وتبعته الى أقصى الأرض حيث لم توجد أجناسها من قبل

هذا الحرف العصرية التي يجتد العالم فيها وبلغ الآن وغدا لها تأثير عظيم جدا في السكان على المعمور فالأقطار « الزراعية » تجتذب اليها السكان ويزداد عددهم فيها كلما أخصبت الأرض وأبنت محصولاتها فتفيض عليهم بالأرزاق والأقوات في مثل الهند والصين وغيرهما والأقطار « العشبية » التي تقوم فيها حرفة الرعي يقل عدد سكانها عن الأخرى الزراعية كما يلاحظ ذلك من الخريطة الخاصة ويرجع السبب في ذلك الى عدم سخاء الطبيعة بالقوت الكافي للكثير من السكان

وأما أكثر الحرف اجتذابا للسكان فهما حرفة « الصناعة » وحرفة « التعدين » لما تتطلبه كل من كثرة الأيدي العاملة على استنثار المناطق الخاصة بهما ولما ينجم عن مزاوله الحرف الصناعية الآلية من عظيم الأجر وكبير الربح ولذا ترى المناطق الصناعية من إنجلترا وألمانيا وبلجيكا والروسيا أغص جهات هذه الممالك سكانا وأكثرها ثراء ويسارا وبدهي أن المملكة التي يتجمع فيها عدد من الحرف يتجمع فيها السكان بمقادير عظيمة تمثل ما وصلت اليه هذه الحرف من الرقي كما هو الواقع في شرق الولايات المتحدة وبحسن ملاحظة خريطة حرفة العالم على خريطة تكايف السكان . تهى ما أردته من كتاب الجغرافيا التجارية الاقتصادية

فلما سمع صاحبي ذلك قال : لقد وفيت بالمراد . وأنت بالهجب العجيب . فقلت الحمد لله رب العالمين . كتب

صباح يوم السبت ٢٣ أغسطس سنة ١٩٣٠

﴿ أسرار العلوم الخبوءة في هذه السورة ﴾

جاء صديقي العالم الذي جرت عادته أن يناقشني في هذا التفسير . فقال : لقد فسرت الرجة في البسمة وطبقها على ماني السورة تطبيقا تاما ، ولكن بقي في النفس شيء ، فهل تأذن لي أن أسألك استيفاء لهذا المقام وايضا للأنام . فقلت : نعم . فقال : إن في السورة ﴿ أولا ﴾ الذنوب ومغفرتها ﴿ ثانيا ﴾ الكفر والايماث ﴿ ثالثا ﴾ محادثة المؤمن من آل فرعون معهم ﴿ رابعا ﴾ عجاة الكفار في النار من الضعفاء . والمستكبرين ﴿ خامسا ﴾ ما يقوله بعض المفسرين في قوله تعالى - خلق السموات والأرض أكبر من خلق

الناس - الخ إذ جعلوا ذلك إشارة إلى الدجال ، ألم تر إلى ما جاء في كتاب « تنوير المقياس » من تفسير ابن عباس المؤلف في القرن التاسع الهجري إذ جاء فيه : - إن الذين يجادلون في آيات الله - هم اليهود وكانوا أيضا يجادلون مع سيدنا محمد ﷺ بصفة الدجال ورجوع الملك اليهم عند خروجه وقوله - أن في صدورهم إلا كبر - أي عن الحق - ما هم ببالغه - أي بياني ما في صدورهم من الكبر وما يريدون من رجوع الملك اليهم عند خروج الدجال - فاستعد بالله - يا محمد من فتنه الدجال - انه هو المسيح - لقالة اليهود - البصير - بهم وبأعمالهم وفتنة الدجال وبخروجه ، نذلق السموات والأرض أكبر أي أعظم من خلق الناس أي من خلق الدجال - ولكن أكثر الناس - يعني اليهود - لا يعلمون - فتنه الدجال هذا ما رأيت في ذلك ، وابن عباس رضي الله عنه شرفه عظيم وعلمه نبوي وقد دعاه رسول الله ﷺ هذه هي الفصول الخمسة التي أريد منك شرحها وإن كان في ذلك مشقة عليك ، ولكن أنت محب للعلم ومحب لرفق العقول ، وحديثنا يقرؤه المسلمون بعدنا ، فالفائدة عاتمة فأرجو أن تحدثني كيف يكون الله هو الرحمن الرحيم والناس :

(٢١ و٢) يذنبون أو يكفرون

(٣ و٤) وكيف عصي آل فرعون من آمن منهم ، وأضلّ المستكبرون الضعفاء ، فأبى الرحمة ؟

(٥) وكيف يخرج الدجال فيضلّ الأمم ونحن نستعبد بالله منه كل حين والله قادر أن يرفع هذه عن

الأمم . ولقد تبين لي أن تفسير ابن عباس مؤيد بما ندعوه به في كل صلاة إذ تقول « وأعوذ

بك من فتنه المسيح الدجال » فهذه مشا كل نحن في حاجة إلى حلها وطرق بعوزها التعييد

حتى نكون مذلّة لتسير فيها على صراط مستقيم

فقلت : لقد تقدم في تفسير البسملة ما يعني عن الاجابة الآن . انظر رعاك الله الى ما جاء في تفسير البسملة

في أول سورة الروم وأول سورة لقمان . فقد ذكرت هناك كيف كانت الآلام التي تعرض لأبدان الحيوان

خلقت لمنفعة هو . وكيف كان الضرب والكسر والصدم والجرح والبرد والأمراض والأسقام وكل ما يضرّ

الجسد ويفسده ، كل ذلك إنما جعل منذرا لنا لنصلح ما فسد بسبب الأحوال المادية في هذه الدنيا وهكذا

ذكرت لك هناك أن قتال القرس والروم والمسلمين مقبس على أحوالنا المرضية . فهذه أمراض اجتماعية

تنذرنا باصلاح ما فسد من مجتمعنا كما ان الجوع وآلام المرض تحثنا على الطعام والدواء . فالآلام رحمة . إذن

الرحمة لها جيشان : جيش الآلام . وجيش اللذات . هما جيشان للرحمة . وإذا كانت الرحمة موجهة فقط

إلى لذاتنا فأنها تنقلب تقمة . فاجتماع الآلام واللذات إنعام للرحمة . فاللذات نصف الرحمة والآلام النصف الآخر

هذا ملخص ما تقدم

فقال صاحبي : هذا حسن ولكن هذا الكلام إجمالي عام فإن في هذه السورة أموراً أخرى . فيها

مؤمن آل فرعون . ولماذا يقص الله ذلك القصص علينا ؟ وأي مناسبة بين أمة الاسلام الآن وآل فرعون ؟

ولماذا يقول لهم - فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا - وأي بأس أئذهم به ؟ وهل نزل بهم هذا البأس

وفي أي زمن ؟ ولماذا ؟ كل ذلك أريد أن أعرفه حتى ينتفع المسلمون بحديث هذا المؤمن في زماننا . إن

حديث مؤمن آل فرعون لن يتم الانتفاع به لنا في أمراضنا الاجتماعية إلا بمعرفة ما يرى اليه . وماذا كانت

نتائجها ؟ ثم لماذا ذكر الله محاجة المتكبرين والضعفاء بعد محاجة مؤمن آل فرعون ؟ وما المناسبة بينهما ؟

ثم لماذا نرى ابن عباس يفهم هنا مسألة الدجال . وما الملك الذي ينتفيه اليهود ؟ وهل هم يحاولون ذلك الآن

ثم لماذا نرى المسلم في كل صلاة يستعبد من فتنه المسيح الدجال . كل هذا أمور لا تزال غامضة والمسلمون يصلون

وأكثرهم غافلون . والصلاة بلا عقل قليلة الثمرات . وإذا لم يفهم المسلمون أذعيتهم في الصلاة فالذي استفادوه

إذن إن الحياة المبنية على الحفظ بلا عقل حياة أشبه بحياة الجراد . وتكرار الصلوات بلا عقل قد ذمها الله فقال - فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون - وقال في ذم من يقرؤون ولا يعقلون - أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها - وقال في اليهود إذ كانوا لا يعقلون التوراة - مثل الذين جلاوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الجار يحمل أسفارا بنس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله - الخ

إن بقاء المسلمين على حالهم يصلون ولا يعقلون الصلاة و يقرؤون ولا يعقلون القرآن أوقعهم في الغرور كآبرا عن كابر جيلا جيلا وكل جيل ينزل عما قبله حتى أصبح المسلمون اليوم أجهل الأمم التي على هذه الأرض وقد تركوا مواهبهم ، فإذا لم توضح هذا المقام غير مكثف بما قدمت في تفسير البسطة فإن الحال تستمر على ما هي عليه وكل جيل يكون أقل مما قبله وهذا لا يرضيك . فقلت : إني بحمد الله سأوضح المقام على قدر طاقتي وأبينه بما أقدر عليه والله المستعان فأقول :

إن هذه الأسئلة الخمسة التي تريد الاجابة عليها ترجع كلها الى أمر واحد ومتى عرفناه زال الاشكال . فقال : وما هو ؟ فقلت : هو ما تقدم في ﴿ سورة الزمر ﴾ في أولها عند قوله تعالى - يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل - . ألم أقل لك هناك ان الجنين في الرحم يحيط به ظلمات ثلاث : المشيمة والرحم وبطن أمه . قال بلى . قلت : أليست هذه مع كونها ظلمات جعلت له رجاءات . قال بلى . قلت : ألم تقل هناك ان علماء الفلك يقولون إن الضباب في الجوّ ودخانه يصنعان فيه (١٦) طبقة حاجبة للشمس عن عيوننا رحمة بنا فيكون ضوءها الواصل لنا صباحا أقل من الضوء الواصل وقت الظهيرة (١٣٥٠) مرة . قال بلى قد تقدم ذلك . قلت : ومعلوم أن الضباب والدخان ضاران بأجسامنا يدخلان رئاتنا فتضعف أجسامنا وتقصّر أعمارنا . قال بلى . قلت : ولكن هذا الضار بجتماعه مع ضوء الشمس صار نعمة . قال نعم . قلت : ألم أقل هناك أن وسوسة الشياطين للناس نعمة ولكنها في الحقيقة قد جعلت نعمة لهم لأنهم اذا أعطوا العلم دفعة واحدة لا يطيقونه . قال بلى ولكن هذا المقام يحتاج الى الايضاح هنا . فقلت نعم أوضحه فأقول : أنا لا أخرج عن هذا المثل وهو مثل الشمس ، انظر ، اذا أشرقت الشمس على الأرض فهل تستوى الأرض والماء في قبول حرارتها ؟ قال : أنا أرجوك أن تسمح لي بفهم ما أقول . فقلت له : أيهما أسرع قبولا للحرارة الماء أم الأرض ؟ وأيهما أبطأ ، وأيهما أسرع إخراجا لحرارته التي كسبها من الشمس ؟ وأيهما أبطأ في ذلك . قال الأرض أسرع قبولا للحرارة وأسرع تملصا منها والماء على العكس من ذلك . فقلت : هل تستنتج من هذا شيئا . قال : لست مستعدا لذلك الاستنتاج في هذا المقام . فقلت ههنا قاعدة ، كل ما كان أمم صنعا كان أودم وأحسن فائدة ، وكل ما كان أنقص صنعا كان أقل دواما وأقل فائدة ، فهذه الأرض لما أسرع في قبول الحرارة أسرع في التملص منها ، وهذا الماء لما أبطأ في قبول الحرارة أبطأ في التملص منها . فالغنى الذي كسب المال بجده وعرق جبينه يكون غناه أتم وأدوم والذي نال المال بلا جدّة يكون له ميسرا لأنه لا يعرف قيمته . انظر الى القرع والى النخل فذاك لا يجمر إلا بعد سنين وهذا يطول ويثمر حالا ولكنه سريع الزوال وانظر الى صفار الحيوان كلما كان أسرع نموّا كان أقصر أجلا . ألا ترى أن الكلب يتم نموه في سنة ونصف ولا يزيد غالبا عن (١٢) سنة كما تقدم . وأن الحصان لا يتم نموه إلا بعد ثلاث سنين ويعيش (٢٤) سنة وهكذا وكل هذا تقدم وانما نضربه هنا أمثالا وهذا فعل الله والفعل جليل ولا يعرف جلاله إلا بالعلم والحكمة فأما المعرفة القولية فلا فائدة فيها . وهذا الحرم المبنى في بلادنا المصرية لما كان أمم بناء كان نباته ودوامه أتم . وهذه قاعدة مطردة . قال قد فهمتها . فقلت : وقبل أن أرتب عليها الاجابة على ما طلبت أقول ان هذا الاختلاف في الأحوال قد جعل لغايات شريفة . ألا ترى الى ما تقدم في سور كثيرة أقربها ما جاء في ﴿ سورة الأحزاب ﴾ عند آية - يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا * وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا - فقد وازنت

هناك ما بين قول التابفة للنعمان ابن المنذر * كأنك شمس والملوك كواكب * وما بين هذه الآية وأن فضائل النعمان لانسبة بينها وبين الشمس وأن ثمرات فضائل النبوة تشبه منافع الشمس ، وقد ذكرنا هناك الرياح والسحاب ، وكيف كانا ناجين من الحرارة والبرودة ، وكيف كانت سرعة قبول الأرض للحرارة وضدها وبطء قبول الماء للحرارة والبرودة سببين متضادين أتتجا منافع للناس بالرياح المختلفة ، فلولا هذا الاختلاف لم يكن نسيم البرّ ولانسيم البحر ولاالرياح الموسمية ولاالرياح التجارية الضدية وهكذا . كل ذلك تقدم ، فهذا الاختلاف هو الخير والمنفعة والسعادة للحيوان على الأرض ، إذن اختلاف أحوال المادة جعل لفوائد شريفة . اذا فهمت هذا فأقول إجابة على أسئلتك الخمسة :

ما الذنوب ولا الكفر إلا أشبه بما عرفنا في الماء من انه لايقبل الحرارة بسرعة ، فالكافر والعاصي لم يقبل الايمان والطاعة لأن فطرتها ليست سريعة القبول ، فاذا أسلم الكافر بعد ذلك ، واذا أطاع العاصي بعد اقراراف الذنب وبعد الندم الشديد كان ذلك بعد جهاد ومشاق طويلة فيكون صلاحه أتم وهذا معنى قولهم « رب مصيبة أورت ذلًا وانكسارًا خير من طاعة أورت عزا واستكبارا »
وكم من متوسط الذكاء فاق من هو أذكى منه بسبب طول أناته وصبره وجده في التحصيل فيصير أرق منه وأقدر وأقوى وأعلم

فقال : هذا حسن وقد فهمناه ولكن ماذا تقول في العاصي اذا مات بلا توبة والكافر اذا لم يؤمن ؟ فأين الحكمة إذن في ضلالهما الدائم ؟ فقلت : هذا أدع الجواب عليه الآن فانه من المسائل التي ليس يعقلها كل امرئ . ولتكن الاجابة عليها في وقت غير هذا ولكني أقول لك الآن إجمالاً لا يعقل حكمة ذلك إلا حكيم قرأ العلوم الرياضية والطبيعية والالهية ، فاذا لم يعلم ذلك فلا يجوز له أن يبحث في هذا لأنه فوق طاقته وأنت تقدر على الجواب من نفسك لنفسك . فقال : إذن نكتفي بهذا في الفصلين الأول والثاني . فقلت :

﴿ الفصل الثالث في عجايب مؤمن آل فرعون لقومه ﴾

وملخصها ما يأتي :

- (١) ان كذب الرسول واقع عليه وصدقه ان لم يطع القوم أنزل العذاب بهم ، وهذه الحجّة تفتج أحد أمرين : إما الاقتصار على عدم أداء ، وإما الزيادة على ذلك باطاعته ، والنتيجة التي يقصدها عدم التعرض له بالأذى
- (٢) الملك لا يدوم فاذا تعدينا على غيرنا فانه لنا بالمرصاد فن ذا ينصرنا
- (٣) ان هناك أمما تقدمتنا فعلاوا ماقلنا فهلكوا أفلا تخاف العاقبة
- (٤) بل هناك يوم الحساب
- (٥) أتم قوم اعتدتم التكذيب والشك كما حصل منكم في أمر يوسف
- (٦) إن هذه الحياة كسراب بقيعة فكيف نقتربها
- (٧) والأصنام التي تعبدونها لاقيمة لها
- (٨) ونتيجة ذلك أن الله تعالى وقاه سينات مكرهم ووقع العذاب بالقوم

إذن لنفصل العذاب الذي حلّ بالأمة المصرية بعد زمن المؤمن الذي قال هذا القول من بلادنا المصرية وهذا يعوزه ﴿ ثلاث جواهر * الجوهرة الأولى ﴾ في مجمل تاريخ قدماء المصريين وبيان انه ثلاثة أدوار ﴿ الجوهرة الثانية ﴾ في أن هذا الذي قاله مؤمن آل فرعون كان في السور الثالث . وبيان سرّ التنزيل إذ يقول مؤمنهم - فمن ينصرنا من بأس الله أن جاءنا - وما هو هذا البأس ﴿ الجوهرة الثالثة ﴾ في بيان الأسباب القلبية التي سببت هذا البأس . وكيف كان التقليد وترك العقل جانبا في أعمال الحياة وفي الدين ينتهي بموت

الأمة وهلاكها . وأن هذا الدرس متى فهمه المسلمون أفلحوا عن جهلهم لأن أكثرهم اليوم يشبهون هذه الأمة المصرية في دورها الثالث وأن هذا التفسير هو آخر أذار لهم وهالك بيانها

﴿ الجوهرة الأولى ﴾

جاء في كتاب الأدب والدين عند قدماء المصريين مانسه

﴿ لحة في تاريخ مصر القديم ﴾

ينقسم تاريخ مصر القديم باعتبار السول الأصلية الى ثلاثة أدوار : الدور الأول يشمل السولة القديمة . والدور الثاني يشمل السولة الوسطى . والدور الثالث يشمل السول الحديثة (١) وتاريخ السولة القديمة ينحصر في ثلاثة عصور : وهي العصر الصاوى والعصر المنفى والعصر المراقليوبولونينى

(١) - « العصر الصاوى » وتنهض فيه الأسرnan الأولى والثانية من (من سنة ٥٠٠٠ الى سنة ٤٤٥٠ ق م) وهو يبتدىء بالملك مينارأس الفراعنة الذى جمع تحت سلطانه الوجهين البحرى واقبلى . وجعل : عاصمة ملكه تانيس أوطينة (البربة بجوار جوبا حيث توجد قبور الملوك الأولين

(٢) - « العصر المنفى » يبتدىء من الأسرة الثالثة وينتهى الى الأسرة الثامنة (من سنة ٤٤٥٠ الى سنة ٣٣٥٠ ق م) وكانت عاصمة المملكة فى هذا العصر مدينة منف أو منفيس (المعروفة) الآن بميت رهينة الواقعة على بعد عشرين كيلومترا جنوبي القاهرة . وكانت فى ذلك الوقت محط الرحال . وكعبة الآمال . غنية بعلومها ومعارفها ، متقدمة بفنونها وصناعاتها . وفى هذه المدة توسعت مصر فى الفتوحات حتى استظلت برايتها بلادسينا والنوبة والواحات ، واشتهر من ملوك الأسرة الثالثة (من سنة ٤٤٥٠ الى سنة ٤٢٤٠ ق م) زوسير مشيد الهرم المدرج . وسنفر و مشيد هرمى ميدوم ودهشور . ومن ملوك الأسرة الرابعة (من سنة ٤٢٤٠ الى سنة ٣٩٥٠ ق م) خوفو وخفرع ومنقرع وهم الذين شادوا اهرام الجيزة . ومن الاسرة الخامسة (من سنة ٣٩٥٠ الى سنة ٣٧٠٠ ق م) الملوك ساحورع ونوفراقرع وامرزع واوتاس الذين شادوا اهرام أبى صير . وشيدوا بها المعبد الشمسى . ومن ملوك الاسرة السادسة (من سنة ٣٧٠٠ الى سنة ٣٥٠٠ ق م) نيتى ويبي الأول ويبي الثانى ومرزع الأول ومرزع الثانى الذين بنوا اهرام سقارة ، وقد انتهى عصر هؤلاء الاسر الثمانية بوقوع البلاد فى وهدة الشقاء بسبب الاضمحلال الذى ابتداء بالأسرة السابعة (سنة ٣٥٠٠ ق م) وأخذ يزداد فى الأسرة الثامنة (من سنة ٣٥٠٠ الى سنة ٣٣٥٠ ق م) التى اقرض هذا العصر باقراضها

(٣) - « العصر المراقليوبولونينى » وهو يشتمل على السولتين التاسعة (من سنة ٣٣٥٠ الى سنة ٣٢٠٠) والعاشر (من سنة ٣٢٠٠ الى سنة ٣١٠٠ ق م) وفى عهد هاتين السولتين نشبت الحرب بين ملوك الوجه البحرى وملوك الوجه القبلى

﴿ السولة الوسطى من سنة ٣٢٠٠ الى سنة ١٦٠٠ ق م ﴾

لما كان النصر من حظ ملوك الوجه القبلى . اهتم ملوك الانيف ومنتعوتب . وهم من الأسرة الحادية عشرة

(١) يتعذر على المؤرخين تحديد تاريخ العاديات القديمة المهد تحديدا صحيحا لأن المصريين لم يكن لهم تاريخ معين بل كانوا يؤرخون الحوادث بسنى حكم الملك الجالس على العرش . فليس لدينا اذن الى الآن كشف تاريخى كامل يجمع أسماء الملوك ويعين مدّة الفترات الواردة فى هذا الكشف . فلذا أريد معرفة تاريخ الملوك أو الآثار استعملت أرقام الأسر المالكة حسب ترتيبها

(من سنة ٣١٠٠ الى سنة ٣٠٥٠ ق. م) بحفظ رونق مدينة طيبة (التي من اغتلاطها الآن الاقصر والكركناك والقرنة ومدينة هب) واتخذوها قاعدة للحكم . وجعلوا لهم أمون رع سيد جميع الآلهة . وفي عهد الامنحيبين والأوسرتيين . الذين هم من ملوك الاسرة الثانية عشرة (من سنة ٣٠٥٠ الى سنة ٢٨٤٠ ق. م) كانت مصر زاهية زاهرة باهية باهرة . حافظوا على دولة طيبة الأولى ، وحكموا النوبة حتى الشلال الثاني واحتفظوا بملك سينا . وعمروا إقليم الفيوم . وأقاموا بعلية المعابد الضخمة . والمباني الفضة وشادوا أهراما بدهشور والشت والفيوم . وبنوا قبور بني حسن والبرشة . وأقام الملك أوسرتسن الأول أمام هيكل الشمس مسلتين من حجر الصوان إحداهما موجودة الآن في المطرية وطولها نحو العشرين مترا وقد بنى الملك امنمحت الثالث قصرا شرق بركة قارون بالفيوم فيه ٣٠٠٠ غرفة وهو المعروف بالتيه المعداد من عجائب الدنيا السبعة . وفي عهد الأسرة الثالثة عشرة (من سنة ٢٨٤٠ الى سنة ٢٤٠٠ ق. م) حافظت مصر على نظامها ومجدها . ثم في عهد الأسرة الرابعة عشرة (من سنة ٢٤٠٩ الى سنة ٢٢٠٠ ق. م) تجزأت مصر الى عدة حكومات . ونقلت عاصمتها الى سخا بالوجه البحري . وتردّت بأردية التفهقر والجهل فسقطت في مهادى الفلوالهوان . حتى أنهى عهد الأسرة الخامسة عشرة (من سنة ٢٢٠٠ الى سنة ٢٠٠٠ ق. م) لماهاجم مصر الهكسوس (رعاة آسيا) لم يجدوا مقاومة تذكر من المصريين فاحتلوها . وتقل المؤرخون أن الرعاة حكموا مصر ٥١١ سنة وكان منهم فرعون يوسف الصديق

﴿ السولة الحديثة ﴾

(من سنة ١٦٠٠ الى سنة ٣٤٠ ق. م)

(وهي دولة طيبة الثانية) من سنة ١٦٠٠ الى سنة ١٣٨٠ ق. م

انضم أموزيس أول ملوك الاسرة الثامنة عشرة الى امراء الأسر الملكية المصرية القاطنين بالوجه القبلي بعد أن أخرج الرعاة الى آسيا ، وتوسع في الفتوحات حتى بلغ ملكه نهر الفرات شمالا . والى النيل الأزرق جنوبا . واعتدت هذه الأسرة بالمباني ومظاهر العمران

وفي زمن الأسرة ١٩ (من سنة ١٣٨٠ الى سنة ١٢٢٠ ق. م) التي كان ملوكها رعمسيس الأول وسبتي الأول ورعمسيس الثاني ومنفتح احتفظوا بملك فلسطين وسوريا القبلية واستمرت بلاد آسيا والسودان تابعة لمصر حتى آخر عهدهم . ثم استقلت بعدهم حين ضعف نفوذ الملوك وسقطت سطوتهم بينما كان كهنة أمون قد أحوزوا الجاه الواسع والثروة من الهدايا والتحف التي كان يقدمها هؤلاء الملوك الى المعابد . فبأخذونها غنيمة باردة . وبسبب هذه الثروة الواسعة صار لهم النفوذ . وقويت كلمتهم . واشتدت شوكتهم ، ولم يزالوا يمهون الأمور حتى تولوا الحكم وخلص الملك لهم .

﴿ العهد الصاوي ﴾

(من سنة ٧٢٠ الى سنة ٣٤٠ ق. م)

في هذا العهد كانت مصر في حاجة شديدة الى الوثام والوفاء لانقاء شر الدول المتغلبة ومقاومة الأمم التي كانت استولت عليها . لأن هذه الأمم كانت نهضت لتحريرها وخروجها من نير العبودية ولكنها انقسمت على نفسها وقشا فيها داء التخاذل والتنافر حتى تنقلت العواصم ما بين تانيس المعروفة بصالح الحجر بمديرية الغربية وتل بسطة بمديرية الشرقية . ونتج من هذا الانقسام في مصر أن استولى الاشوريون عليها . وبهم ابتدأت الأسرة الخامسة والعشرون (من سنة ٧١٥ الى سنة ٦٦٦ ق. م)

ثم جاء الصاويون وهم ملوك الأسرة السادسة والعشرين (من سنة ٦٦٦ الى سنة ٥٢٥ ق. م)

فأخرجوا الأشوريين من مصر واستولوا عليها . وفي عهدهم أصاب مصر من الضعف والوهن ما أصابها عقب حكم الملك سامتيك والملك نحاو . واستولى عليها الفرس وخضعت لهم سنة ٥٢٢ ق. م . ثم جاء القتاينيون وهم ملوك الأسرة الثلاثين (من سنة ٣٧٨ الى سنة ٣٤٠ ق. م) فالتصمصر على يدهم الحرية ، ولكنها لم تلبث قليلا حتى استولى عليها اسكندر المقدوني سنة ٣٣٢ ق. م . وقد اتفق المؤرخون أنه من هذا العهد لم يحكم مصر واحد من بنيها . وهكذا الشأن في كل أمة يسود فيها الاقسام و يروج فيها التنافر والتخاذل وكل نزاع فيفتجه الفشل وكل مملكة تنقسم على ذاتها تخرب . انتهت الجوهرة الأولى

﴿ الجوهرة الثانية والثالثة ﴾

لقد علمت في الجوهرة الأولى أن أدوار هذه الأمة ثلاثة ، ودورها الحديث كان من سنة ١٦٠٠ ق. م الى سنة ٣٤٠ ق. م

أقول : إن من أشهر ملوكهم (امنحيب الأول) من الأسرة الثامنة عشرة واموزيس الأول وتحتوتمس الثاني من الأسرة الثامنة عشرة ، وتحتوتمس الثالث من الأسرة الثامنة عشرة ، ورعمسيس الثاني من الأسرة التاسعة عشرة ، ورعمسيس الثالث من الأسرة التاسعة عشرة أيضا ، وهؤلاء كانوا أعظم ملوكهم ، ولكن لا بد أن نذكر أن رجال الدين زاد استيلاؤهم على العقول فاستولوا على الملك ، إن الرعاة الذين جاؤا الى مصر في دورها الثاني كانوا أجانب عنها ، فكانوا يقبلون التنازليين بمصر على الرحب والسعة ، ومن هؤلاء ابراهيم عليه السلام لما مر بمصر وهكذا يوسف واخوته وهم عشرة فاتهم انما جاؤا في أيام الرعاة وبقوا بمصر بعد خروجهم فاضطهدهم المصريون وهذا الاضطهاد حصل في هذا المور ، ولكن لانفس أيها التكي أن العقول في هذا المور أخذت ترجع القهقري ، وذلك بسبب وقوف العقول وتمجيدها التقليد المجرّد وبعدها عن التحقيق وهل أتاك نبأ مامرّ عليك سابقا في هذا التفسير في ﴿ سورة النمل ﴾ عند آية - فتلك بيوتهم خالوية بما ظلموا - وآية - إن الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها - فهناك ترى كيف اشتركت هذه الأمة المصرية الحديثة والأمة الأندلسية في أمر واحد وهو الوقوف على الظواهر والتقليد الأعمى والفسوق ، وهكذا ذكرت لك هناك أم العرب المتأخرة في بلاد الشام والعراق إذ نقلت عن ابن خلدون أن هذه الأمم العربية لما كانت مستمسكة بالدين حفظت بلاد الله ولما نبذت الدين صارت عالة على الأمم فأزال الله ملكهم إذ ذاك

انظر هذا المقام هناك فأنك تجد القوم من مبدأ الأسرة السادسة عشرة اتخذوا الحيوانات (التي كانت دالة على إبداع الخالق ورمزها لجماله) معبودات عبدوها هم وجعلوا المعبود الخلق في الدرجة الثانية فأخذوا يعبدون الطير والسماك والحيتات والتماسيح والقطط والسكّاب ، وهناك ترى حريا دارت بين بلدين إحداها عبت السمك والثانية عبت السكّاب ، فالذين لا يعبدون السمك أو كلوه فأغتاظ عباد السمك وأكلوا سلبها إغائة في عابديه ، فعقول هذا شأنها صارت أسفل من الحيوان في الارض بل هم أضلّ من الأنعام . فلماذا إذن لا يدخل البلاد الأجانب ، وهناك قرأ النبوت التي أعلنها أنبياء المصريين بزوال ملكهم وخراب دولهم فارجع اليه وقرأه هناك فلاسيل لاعادته هنا

فهذه العقول لما خربت خربت الديار . ألا ترى رعاك الله أن الجيش الفارسي لما أخذ يحارب المصريين أحضر ملكهم قططا وجعلها صفوفا بين الجيشين فتحاشى المصريون ضرب القطط لأنها آلتهم مع ان اسلافهم كانوا يحترمونها لأمر واحد وهو انها تأكل القبران فأخذوا هذا التعظيم من حيث هو لامن حيث نتأججه وزادوه حتى صارت نفس القطط آلهة . وبهذه الحيلة دخل الجيش الفارسي مصر . لماذا ؟ لأن تلك العقول

لائي وانحطت تحت قوة الحيوان الأحمق

هذا هو السر في قول مؤمن آل فرعون لهم - يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا - وبأس الله هودخول القامحين من الأشوريين أولاً والفارسيين ثانياً والرومان ثالثاً وهكذا . وكل هذا سببه وقوف العقول على التقليد بلا روية ولا فكر . انظر قوله - أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم - الخ إذن هم لا يفكرون لأن عندهم بينات لم يفكروا فيها . إذن هم قوم مقلدون وبهذا التقليد دخل الفرس بلادهم لاحتطاط عقولهم
ومن الهج أن قول مؤمن آل فرعون يشابه قول (ملا كاتب جلبي) الذي ألف كتاب « كشف الفتنون » في القرن الحادي عشر الهجري ، وقال في حق الدولة العثمانية التركية التي هو مستظل بظلمها ناقلًا من الشهاب الخفاجي في كتابه « الخبايا في الزوايا » يقول :

« إن الدولة التركية لما أفتى أحد علماء الدين بتحريم العلوم والفلسفة أخذت تنحط . ثم قال : وهذا إيذان من الله بذهاب ملك دولتنا » انتهى بالمعنى . وقد تحقق ذلك في هذه الأيام فدولة بني عثمان قد انحلت وذهبت كأمس الدابر

ومن هجب انني وأنا مرهق كنت أنعم في الجامع الأزهر وأرجع الى القرى فأجد أناما يأتون بهيمة وقار واحترام وهم من آل البيت الكرام ويأخذون من الناس رزقا سنويا ولهم أناس يسبون تبعاهم ويبيتون عند الأغنياء ويذكرون ليلا ويأخذون رزقا من الناس يسمونه (العادة) ولقد بطل هذا في زماننا في بعض البلاد

فيأجبا . كل ذلك للجهالة الفاشية ، فالعطي جاهل والآخذ جاهل . كل ذلك للجهالة الخالة بأمر الاسلام لا يجوز أن يكون في الأمة عاطلون ، وما أولئك الذين يعيشون من كسب غيرهم بحجة الدين إلا كذباب أو حشرات أو نباتات طفيلية ، فيجب على العلماء وعلى الأمراء أن لا يسمحوا بهذا ، بل يجب أن يعم التعليم لأن الجهل هو الذي أوسى الى الجهال أن يتزبوا باسم الدين ويأكلوا أموال الناس بالباطل

إن شرار أمة الاسلام أولئك الذين يأكلون باسم الدين . إن كثيرا منهم يومنون العامة أنهم يشفون لهم عند الله في جلب الرزق والصحة ولهم التصرف في الأنفس فيصرفون عقولهم عن ربهم الى أشخاصهم وإذا وجدنا المصريين في الدولة الحديثة قد جعلوا الحيوانات في الدرجة الأولى والله المعبود الحق في الدرجة الثانية فوائده ان الجهل قد أوسى بذلك فعلا الى جهلة المسلمين فما عليك إلا أن تنزيا بزى الصلاح والتقوى وظهر للعامة أمورا توهمهم بها حتى يعتقدوا هذا فيك ولم أر حكما ولا عالما في أمتنا الاسلامية يرضى بذلك والذي يرضى به هو الجاهل لأن العالم قلبه معصور بالعلم والحكمة . أما الجاهل فلخلق نفسه من العلم بتعبه ويفرح بقول العامة انه قطب زمانه كما يفرح كثير من أولئك التعساء اذا تعلموا في المدارس العالية ولكن الأمة تحتقرهم لسوقهم وسوء سلوكهم فلا يحسون في نفوسهم بسعادة فيتلمسونها من كلام الناس ويسعون عند الملوك ليعطوهم ألقاب الشرف ويفرحون بقول القائل لهم سعادة فلان وعزته وهو لاسعادة له ولاعزة لأن السعادة والعزة إن لم يحس بها القلب غير ممكنة اللهم إلا الرياء والرياء ليس سعادة بل هو كسر ابقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الآلام فوق الآلام والشقاء فوق الشقاء ظلمات بعضها فوق بعض وعذاب أليم

فقال صاحبي : لقد أقنعتني وفهمت الحقيقة . وأريد الآن أن تأتي بنبرة من أحوال مصر في عصرنا هذا استطرادا لتقارن بين وعظ الواعظين في الدولة الحديثة المصرية منذ (٣٥٠٠ سنة) وبين وعظ الواعظين الآن وانما أردت هذا لأفرح بالموازنة بين عقليين بينهما (٣٥٠٠ سنة) والله تعالى لم يدرأه بلانذير فكل زمان له

نذير . فمؤمن آل فرعون نذير قومه . فأريد أن تصطفي عبارة أدبية ليكون ذلك من لطائف مجلسنا في تفسير هذه الآية . فقلت :

اعلم أن الأمة المصرية الآن اعتورتها الخطوب واتبثتها الصعاب وأحاطت بها الأمم من كل جانب فأول من أذلها في الأزمان الأخيرة الأمة التركية إذ جردتها من سلاح العلم وأخذت صناعتها منذ (٤٠٠ سنة) وحصرت مجموع الأمة في الزراعة وحذفت من البلاد بيوت العلم شيئاً فشيئاً حتى إذا تغلبت دول أوروبا على بعض بلاد الشرق أرسلوا المبشرين فزلزلوا العقائد . وزاد الطين بلة أن الانجليز أزالوا أكثر آثار النهضة العلمية التي أحدثها المرحوم محمد علي باشا في القرن التاسع عشر وذهبت ورعة الدين ، وترى أكثر أكار الأمة وعظماؤها لا يحلو لهم جلوس ولا سمر إلا في المجال التي فتحها الفرنجة في نفس بلادنا يحسنون فيها أنواع الشراب من البيرة والخمر والشمبانيا وأكثر المعلمين لا يعمل لهم إلا أن يكونوا في مناصب الحكومة لأن التعليم تعليم لفظي لم يخالف بشاشة القلوب ولم يحرك اليدين للعمل . فهل لك أن تقرأ ذلك الخطاب الذي أرسلته أنا لمجلس النواب ولوزارة المعارف ومجلس الشيوخ فأقرأه في سورة بونس في أولها

إذا عرفت هذا أدركت مضمون ما يكتبه الكتاتيبون في بلادنا فإن التعليم إذا كان لفظياً لا يملأ القلوب روعة وظاهرياً مخلوطاً بالزيغ والاخلاد فإن نتائجه أن لا يكون بعض أهل الحل والعقد في البلاد إلا بمن لا يرقبون في الله لومة لائم ولا يقيمون العدل إلا قليلاً ولا يعملون عملاً صالحاً إلا رياء . أما مراقبة النفس والعمل للصحة العامة فذلك قليل . ومما زاد الطين بلة أن المحاماة في البلاد أصبحت من أهم الحرف والصناعات . ومبنى المحاماة أمام القضاة إنما يكون على أساس الخداع والغش وقلب الحقائق . وبعض هؤلاء يتولون القضاء ثم يصيرون وزراء وحكاماً . وقد يكون الرجل منهم سبي السيرة مخجوراً مشتهراً بذلك بين معاصريه . ثم يتولى الرئاسة وهو مفضوب عليه فلا يقيم للحق وزناً ولا للروية قسطاً

والحق الذي لا يحض عنه أن الجهال أصفي نفوساً وأصح إيمانا وأتقى عقائد من بعض هؤلاء الذين لا يتقون ولا هم بذكر

إذا عرفت هذا أدركت ما يرمى إليه الكتاب في زماننا الحاضر . فهذه هي الأصول التي تنفرد عليها فرود الكتابة المنشئة في زماننا ، فإذا كانت نصيحة رجل من آل فرعون في البلاد المصرية على هذا الأسلوب المذكور في الآيات التي نحن بصدد الكلام عليها فهذه هي الأصول التي يدور عليها محور الإرشاد في أيامنا مضاهيها مامنيت به الأمة من تهتك النساء والتبرج المزري والتقليد الضار والسبع على نهج لارأي فيه ولا هدى ولا كتاب منير والله الأمر من قبل ومن بعد

هذا مجموع ما يقال على أمتنا المصرية من حيث العموم . وقد آن أن أبحث معك أيها الذكي في أمرنا خاص وهو أن هذه الأمة اليوم غير الأمة أيام مؤمن آل فرعون . هذه الأمة اليوم عربية بحتة نعم فيها أقوام من نسل آل فرعون ولكن أكثرهم أسلموا من الذين بقوا على دين النصرانية لا يتكلمون إلا بالعربية وأبناؤهم يتعلمونها ويقرؤون آداب العرب وأشعارهم وعلومهم وغالب الأمة مسلمون والقليل جدا هم القبط . وإذا كانت عربية فلها اتصال بأهل طرابلس وتونس والجزائر ومراكش وأهل السودان وسوريا وفلسطين وشرقي الأردن ونجد واليمن والحجاز وبلاد العراق والموصل . ولكن أصابها الترك فزقوها في قرون مضت حتى فرقوا أوصالها رمزقوا أحشائها . وعلموهم كيف يتدابرون . وأفهموهم كيف يكونون جاهلين فهدوا بذلك للدول الثلاث هم (فرنسا وانكلترا وإيطاليا) هذه الدول الثلاث هم الذين اقتسموا أبناء العرب وعلومهم كيف يجهلون وينامون وقالوا لهم أتم وطنيون فليس لكل منكم إلا وطنه . فأهل أوروبا كلهم يفتخرون بأنهم نصارى وعلى دين واحد . ويقولون لأبناء العرب : « دعوا صلة الدين وتفرقوا بالوطنية »

ولما كان المصريون هم الذين اخص بهم هذا المقال أردت أن أذكر هنا رسالة شاب نابغة تعلم في مصر وألمانيا وكان من تلاميذ المدرسة الخديوية وله في صلة وهو رئيس تحرير مجلة « الشبان المسلمين » وهو الذي اخترت أن أكتب رسالته في نصيحة المصريين أن يتعاونوا مع اخوانهم العرب والمسلمين عموما لتدرك أيها الذكي الفرق بين الناصح المذكورة في القرآن من مؤمن آل فرعون في بلادنا أيام القراعنة وبين نصيحة الشاب المصري ، وكيف كان مؤمن آل فرعون يذكر قومه برهم وعظمتهم ويدرهم على صدق رسالة موسى عليه السلام بمجزاته ، وأن عظمة الملك لا دوام لها ، وأن الله بالرصاد للظالمين ، وكيف أظهر فرعون العظمة واستبد بالأمر ، وكيف حذر المؤمن قومه من غضب الله عليهم كما غضب على الظلمة من الأمم السابقة في الدنيا والآخرة ، وكيف عبرهم بالتمادي في الانكار . وكيف حقر أصر الأصنام وانها لا تعقل . وكيف فوض أمره الى الله تعالى . وكيف وقاه الله مكر القوم . فاذا وازنا هذه النصائح بنصائح كتابنا كما ستراه في هذه المقالة التي اخترناها ألفتنا أن صديقنا يحيى السردير يذكر العرب عموما والمصريين خصوصا بتاريخ أمهم وانهم ان جهلوه هلكوا . وذكرهم بالأخلاق الفاضلة والعمل بالدين . وأراهم أن فصل تعاليم الدين عن التعاليم الوطنية مهلك للأمة . وأن المصريين القدماء قبل إلحادهم وكفرهم كانوا أمة موحدة . وأوصاهم بالتحالف مع اخوانهم في العراق ونجد واليمن والشام وشمال افريقيا . إذن الناصح اليوم في مصر متجهة الى الدين أولا وتصحيح العقيدة كنصيحة مؤمن آل فرعون . ولكن هنا زادت أمرا جديدا وهو الجامعة العربية . فهناك نص المقالة المذكورة :

﴿ النعمة القومية والفكرة الاسلامية ﴾

قامت في هذه الأيام ضجة حول مبدئ التمسك بالوطنية وترك ما عداها . وأنصار هذه الدعوة رفعوا شعار « الدين لله والوطن للجميع » فقال المصريون منهم نحن مصريون فرعونيون قبل كل شيء . وقال بعض السوريين نحن فينيقيون . وقال بعض العراقيين نحن كندانيون وقس على ذلك . تريد كل فئة أن تتمسك بمجدها التاليف وتحتبس في حدودها غير ناظرة الى ما يهددها من المخاطر من جراء عزلتها التي تجعلها فريسة سائفة لكل مستعمر قوى مقاتل

يجب على كل أمة أن تعرف تاريخها قديمه وحديثه لأن ماضي الأمة يلعب دورا كبيرا في حاضرها ومستقبلها ولا يمكننا أن نفنسى الماضي لأن عقائدنا وأفكارنا كلها آتية منه . وهو الذي يكون روح الأمة وشكلها ولذلك كلما كانت الأمة عريقة في المدنية وذات مبادئ حقة كان نسلها ذا استعداد طبيعي لكل تقدم ورفق . قال الدكتور جستاف لوبون « حظ الشعب متوقف على ما يعتقد أنه الحق . وانت التطورات الاجتماعية . وتأسيس أو هدم الممالك وتقدم أو انحطاط المدينة ناتجة عن قليل من العقائد التي تنزل من النفوس منزلة الحقائق وهي تمثل مسيرة الشعب الوراثة وفقا لحوادث الدهر

« ان من أخطر الفلطات في العصر الحاضر ترك الماضي . وعدم الاعتراف به . وكيف يمكن ذلك ؟ ان ظل الأسلاف يحكم أرواحنا . وهو يكون الجزء الأكبر منا . كما عليه ينسج القدر حظنا . وان حياة الموتى أكثر بقاء من حياة الأحياء . لا يمكن لأي مدينة أن تبقى بدون مرشدين أقوياء من المتعلمين أو بالأحرى بدون مبادئ عامة قوية . لأن قوة الأخلاق أو القوة المعنوية هي الآن المحرك الحقيقي للعالم »

معرفة الماضي يجب أن تكون أداة لا ذكاء روح الحية والغيرة والعزة والرفعة والاستقلال وهنا حدود الوطنية البريئة ولكن لا يجوز أن تعددها الى الصلف والكبرياء والعزلة والانعزال بالنفس وعدم الاعتراف للغير بفضائله ومحاسنه فهذا هو الطيش والحق

قامت في مصر الفكرة القومية أو الدعوة الوطنية منذ نشأتها على أساس صحيح معقول وهي تحرر الوطن من كل غاصب مغتال حتى تصبح مرافق الأمة في أيدي أبنائها وأن يكون اعتماد الأفراد على أنفسهم في سبيل تحرير بلادهم . وقد وصف الزعيم الأول للنهضة المصرية مصطفى كامل ما يجب على كل وطني عمله . فقال : ان الأمم لا تنهض الا بنفسها . ولا تترد استقلالها الا بمجهوداتها . وان الشعب كالفرد لا يكون آمناً على نفسه الا اذا كان قويا بنفسه مستجمعا لكل عدد الدفاع وآلات الذب عن الشرف والمال والحياة . « ان قانون الحاكم في معاملته للحكوميين خاضع لدرجة احترامه لهم . فان رأهم أمواتا في أزياء أحياء يقولون ما لا يعتقدون . ويطلبون من الاصلاح كما يطلب السائل الاحسان . لا كما يطلب صاحب الحق حقه استبد فيهم وسخرهم لسلطته كما تسخر الأنعام »

على مثل هذه المبادئ السليمة قامت الدعوة الوطنية الشريفة . ولقيت من الأمة المصرية آذانا صاغية وقلوبا واعية . وأصبحت حرية البلاد واستقلالها عقيدة قوية لا يصح التهاون فيها . وهي كما قال مصطفى كامل « اذا صح التسامح في بعض الأمور وفي ظروف معينة . فان التسامح في الوطنية اعدام لها وقضاء عليها . وان من يتسامح في حقوق بلاده ولومرة واحدة يبقى ابد الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان » . وقال أيضا « ان الذين يطالبوننا بعدم ذكر الاستقلال انما يريدون أن تموت روح الوطنية في مصر . أي تموت الأمة المصرية . لأن حياة هذه الأمة ومستقبلها مرتبطان بمقدار قوة هذه الروح في الشعب »

الوطنية الصحيحة لا تقوم الا على الأخلاق الفاضلة وهذه بدورها تستمد قوتها من الدين الحنيف . وتاريخ مصر قديم وحديثه شاهد على ما نقول ولذلك كان من أهم أغراض المستعمرين طمس معالم التاريخ القديم لتعليم النشء في المدارس لتضعف فيهم روح الاعتزاز بالماضي ويلتقون في روعهم أنهم عالة على الأمم الأخرى . ومحاربة الدين الاسلامي على الخصوص لأنه يبعث في نفوس النشء الاسلامي الاحتفاظ بالكرامة ومبادئ الحرية والشجاعة وهذا ما لا يتفق مع سياسة المستعمر الغاصب في اخضاع الأمم الاسلامية واذلالها فالذين يدعون الى الوطنية وترك الدين جانبا انما يدعون الى قضية محققة الخسران . لانهم يدعون الى مبادئ لا روح فيها ولا حياة . اذ كيف يكون حال نشء في الوطنية وهو خلو من مبادئ الفضيحة ومراقبة الله عز وجل في السر والعلن ؟ هؤلاء لا تكون لهم الا سياسة واحدة وهي سياسة المنافع وبيع المغام أو عبادة أخرى سياسة الهوى وهي سياسة مقضى عليها بالفشل . وقد قال لامارتين : بحق « ان ضميرا خاليا من الله كالمحكمة الخالية من القاضي »

ان تاريخ مصر القديم والحديث يثبت أن الدين والوطنية وحدة لا تنفصل بل هما بمثابة الروح والجسد في عالم الحياة . جاء في مجلة علم الآثار المصرية في الجزء الأول للمجلد الثاني ص ٣٧ للاستاذ العالم ريفو : « الدين كان له التدح المعلى والمكانة الاولى في نفوس قدماء المصريين الورعة واليه يرجع الفضل في كراهة الاجانب الغاصبين . وتوحيد القوى الوطنية . التي بها أمكنهم أن يطردوا الهكسوس ومن بعدهم الاشوريين . ويشهد المؤرخ اليوناني هردت وقد زار مصر في عهد العجم أن هؤلاء القلايين (المصريين) كانوا يبغضون الغاصب ويحتقرونه بما كانوا يسدون من مقاطعه وقطع كل صلة مع الغاصبين . فلا يجلسون معهم على مائدة ولا يأكلون معهم »

اذا تبينا سيرة الحياة المعنوية لروح الأمة المصرية في أطوارها نراها روحا اسلامية بحتة سواء في عهد الفراعنة أو غيره لأن روحها روح التوحيد وقد تأصل في قرارة نفسها بالرغم مما طرأ عليها من صروف الحداث والمظاهر الكثيرة التي أولوها في كثير من الأحيان على غير وجهها الصحيح . قال المؤرخ الشهير (شمبليون فيجياك) : « قد استنبطنا من جميع ما هو مدون على الآثار صحة ما قاله المؤرخ (جامبليك) وغيره

من أن المصريين كانوا أمة موحدة لاتعبد الا الله . ولاتشرك به شيئا . غير أنهم أظهروا صفاته العلية الى
البيان مشخصة في بعض المحسوسات . وأنهم لما غرقوا في بحر التوحيد . علموا أبدية الروح . وأيقنوا بالحساب
والعقاب . ولاعبرة بماقاله بعض مؤرخي الأجانب الذين حضروا محافل المصريين الدينية وشاهدوا بها كثرة
تماثيلهم الرمزية . وانهم لجهلهم للفتنهم . وبحقيقة عباداتهم جلاوا الأمور على ظاهرها . وحكموا عليهم بالكفر
والالحاد مع انهم لم يفهموا منها المراد . فكأنهم دخلوا في قول الشاعر :

وكم من عائب قولنا صحيحا * وآفته من الفهم السقيم

راجع كتاب الأثر الجليل لقدماء وادي النيل لأجدبك نجيب ١٢٣ وقال العلامة مسبرو د من تأمل في
الآثار الباقية الى الآن بالبيار المصرية واللوحات الدينية المنقوشة باطيا كل وماعلى الورق البردي حالته كثرة
هذه الآلهة المصورة عليها . حتى يظن أن مصر كانت مسكونة بهؤلاء الآلهة . وان أهلها ماخلقوا الالعبادتها . وسبب
ذلك أن المصريين كانوا أمة مخلصه في العبادة إما بالفطرة أو بالتلقين أو التعليم . فكانوا يرون الله في كل
مكان . فهامت قلوبهم في محبة . وانجذبت أفئدتهم اليه . واشتغلت أفكارهم به . ولازم لسانهم ذكره وشغنت
كتبهم بمحاسن أفعاله . حتى صار أغلبها صحفا دينية «

كانوا يقولون انه واحد لا شريك له كامل في ذاته وصفاته وأفعاله . موصوف بالعلم والفهم . لا يحيط به
الظنون . منزه عن الكيف . قائم بالوحدانية في ذاته . لاتفسيره الأزمان . ثم عددوا صفاته العلية وميزوها
بالأسماء واشتقوا منها نعوتا شخصوها في المحسوسات . وكل شئ نافع . وجميعها ترجع اليه . ولأجل التمييز جعلوا
لكل اسم تمثالا . فانشرت هي وما اشتق منها حتى ملأت المدن والبلاد . «

ان الساعة التي تسرب فيها الاحاد والشرك الى العقيدة المصرية كان ذلك نذير زوال مجد مصر . اذا عرفنا
أن تاريخ المصريين يرتبط عقيدتهم الدينية (قديما وحديثا) بالله عز وجل وأنه تعالى يجب أن يكون قصدهم
متبعين أوامرهم متبهين عن نواهيهم فالاسلام عندي هو الدستور الطبيعي الذي يوصلهم الى غاياتهم السامية قال
تعالى - ومن أحسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحاً وقال انني من المسلمين -

الدين الاسلامي الحنيف لم يبغض الوطنية حقها . بل جعل حب الوطن من الايمان . وان تحرير الأوطان
لا يكون الا بالدأب على العمل المنتج « وقل اعلموا فبى الله عملكم » وان الثمر متوقص على بذل الجهد -
وأن ليس للانسان الاماسى - فلماذا إذا نحيد عن هذا الطريق المستقيم الذي يقودنا الى سعادة الدنيا بالعمل
الصالح المنتج . والى سعادة الآخرة بمعرفة الله عز وجل 17

لقد أعلن دعاة السوء دعوة على غير وجهها الصحيح وأذاعوها من أن المصريين هم فرعونيون غير
عرب . وان واجب المصريين أن يشتغلوا بشئونهم دون سواهم . اما أن يشتغل المصريون بشئونهم (أولاً)
فهذا مايقره عليهم الاسلام حسب قاعده « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول » واما أن ينزلوا عن بقية الأمم
الاسلامية المجاورة لهم فهذا مبدأ لا يتفق مع مصلحة المصريين ولا مع مبادئ الاسلام السليمة . ونحن في عهد
تحالف واتفاقات دولية أصبحت احدى وسائل القوة والمنعة ومن عاش منفرداً في هذا الزمن عرض نفسه الى
السلب والتهر

ان الدعوة القومية المصرية التي ألبسها دعاة التفريق ثوب الفرعونية ليخرجوها عن بقية الأمم الاسلامية
انما أرادوا بها اتحار مصر الأدي

أريد أن أحمس في أذن هؤلاء النفر الناعر بالقومية الفرعونية . وأنا مصري صميم مسلم موحد . اذا كان
حقاً ما تدعون من الاعتزاز بالمصرية الفرعونية هل غاب عنكم أن رسول الله ﷺ يتصل بكم في جدته
العليا هاجر المصرية أم اسماعيل عليه السلام وهو أبو العرب المستعربة وان خاتم الرسل عليه السلام تزوج

منكم مارية القبطية . فنحن تصل بالعرب بصلة الرسم والنسب فهم أقر بأوثان وجيراتنا وهم أولى الناس بمحبتنا وعطفنا ومساعدتنا . ان دعوة رسول الله محمد ﷺ يجب أن لا تؤيد من ناحية المسلمين المصريين من جانب بل من ناحية المصريين كافة مسيحيين وغير مسيحيين أيضا حسب الأصول المتبعة في الدفاع عن حق القرابة والنسب والجوار

يجب أن نفهم الحقيقة على وجهها الصحيح حتى لا نضل الطريق السويّ فنهلك . ان انتجبل شأنه هو الذي اختار رسوله الأمين محمدا ﷺ ليبلغ دينه الى الناس كافة فلهذا الاسلام هو دين للجميع لادين عرب أو عجم وان من أكبر قواعده الديمقراطية أنه لم يجعل الفضل للجنية بل جعله للعمل الصالح المنتج فقال تعالى - إن أكرمكم عند الله أتقاكم - وقال عليه الصلاة والسلام « خير الناس أنفعهم للناس » الاسلام هو الدستور البشري السليم الذي يعطى كل ذي حق حقه ولا يبيخس الناس أشياءهم . وان اشتغال المصريين بمسائلهم القومية والدفاع عن حرياتهم واستقلالهم لا يمنعهم بأي حال من الأحوال من العطف على الأمم الاسلامية ومساعدتهم حسب ما في قدرتهم و - لا يكلف الله نفسا إلا وسعها -

نحن نرتبط مع جيراننا من الأمم الاسلامية بروابط كثيرة منها رباط اللغة والدين . فيجب أن نحرمص عليهما أشد الحرص ونعمل على تمكين هذه الروابط وتوثيق العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بيننا وبين الأمم الشرقية كافة والاسلامية منها خاصة ونحن في عصر التحالف الذي لا يستطيع أمة أن تنفرد فيه بنفسها . فالممالك الكبيرة تحالف الصغرى بالرغم مما يملكه كل منها من وسائل القوة كتحالف إنجلترا لفرنسا مثلا وكذلك الممالك الصغيرة فقد قام التحالف الصغير يضم بولونيا ورومانيا وتشكوسلافيا و بوض بلاد البلقان وقامت تركيا تحالفت مع جاراتها الجرم وروسيا

ان مصر من العالم الاسلامي القلب النابض والرأس المفكر وفلسطين وسوريا والعراق وبلاد العرب واليهن والهند وامن الساعد الأيمن وطرابلس وتونس والجزائر وصرا كش وما اليها الساعد الأيسر فيجب أن لا يشغل مصر حالها عن أحوال جيرانها فانهم حصونها الطبيعية المكيمة وان كل عدوان على أي بلد إسلامي نعتبره معشر المصريين عدوانا علينا في الصميم

يجب أن نحضر سياسة القاصيين المستعمرين وهي سياسة التفرقة والتفريق وقيام الحوائل الجنية والقومية بين المسلمين والشرقيين ليستغل كل منهم بنفسه فيدوم لهم إذلالهم وخضوعهم ان عمل كل أمة شرعية كانت أو اسلامية لرد حريتها واستقلالها لا يمنعها بأي حال من الاشتراك مع جاراتها المظلومة في رفع الصوت عاليا بالاحتجاج وبذل ما يمكن بذله لموتها الأديبة والمادية لرفع مآلق بها « والله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه » و - إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون - انتهى كلامه والى هنا من الكلام على الفصل الثالث في حجة مؤمن آل فرعون لقومه وجواهره الثلاث والحمد لله رب العالمين

وقبل الشروع في الفصل الرابع الآتي قريبا نذكر ما فتح الله به عند طبع هذه الآيات وها هو ذا :

﴿ نور العلم في صلاة الوتر بعد صلاة العشاء ﴾

(في قوله تعالى - فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والابكار -)

(كتب ليلة السبت ٨ نوفمبر سنة ١٩٣٠)

بيننا أنا أصلي في هذه الليلة صلاة الوتر في الساعة الثانية بعد نصف الليل وأنا أقول في الركوع « سبحان ربى العظيم » وأكررهما من ثلاث الى إحدى عشرة خطرتلى أن هذه السورة التي تطلىح الآن مبدوءة بفقران الذنوب وقبول التوبة . ثم ذكر فيها أن حلة العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في

الأرض . وأنبغ ذلك بأحوال الكافرين وعذابهم . وضرب مثلا لتلك بكفر بني اسرائيل . وأنبغه بذكروا من آل فرعون . ثم لخص الموضوع كله بأن موسى أوتى الهدى والذكرى . وأنبغ ذلك بأمر نبينا ﷺ بالصبر والاستغفار والتسبيح والتحميد . وهذا التسبيح وهذا التحميد والاستغفار هي التي صدرت من حاملي العرش ومن حوله فيما تقدم . ففي أول السورة ان تنزيل الكتاب من الله وانه غافر الذنب وقابل التوب واذا استغفر الملائكة فتما يستغفرون للمؤمنين لا لأنفسهم لأنهم ليسوا في أجسام مادية كأجسامنا حتى يستغفروا لذنوبهم بل استغفارهم لأجل أهل الأرض . ورسول الله ﷺ أمر أن يستغفر لذنبه هو أولا . ولا جرم أن الله قابل التوب كما هو مذكور أول السورة . ومتى خلصت نفس الانسان من الذنب سبح ربه وحجده . ولا جرم أن التسبيح والتحميد هما ملخص الحكمة المحبوبة في هذه الدنيا وفي الآخرة

يا الله : عجبت لصلواتنا كيف أمرنا بالتسبيح وأمرنا بالتحميد . نكثرت رما صباحا ومساء . تقول « سبحان ربك العظيم » في الركوع . وتقول « سبحان ربك الأعلى » في السجود . ونسمعك تقول نبينا ﷺ - سبح بحمد ربك - الخ ونسمعك تقول - فسبح باسم ربك العظيم - ونسمعك تقول - سبح اسم ربك الأعلى - ونسمة ﷺ يقول « اجعلوا هذه في ركوعكم واجعلوا هذه في سجودكم » فجعلناهما كما أمر . فنحن الآن نسبح كما أمرنا ونستغفر كما يستغفر نبينا ﷺ والخلف يتبعون السلف في هذه الثلاثة ثم اننا نعلم أن نبينا ﷺ معصوم من الذنوب فكيف يستغفر لذنبه ! والملائكة لما كانوا في عالم لامادة فيه كان استغفارهم لمنافع غيرهم شفقة على الذين آمنوا . لكن الرسول ﷺ استغفر لذنبه هو نفسه فأين هذا الذنب وهو معصوم ؟ وهو كما استغفر لذنبه استغفر للمؤمنين كما تفعل الملائكة فهو ذواستغفارين استغفار لنفسه واستغفار لغيره . أما الملائكة فلا يستغفرون إلا لغيرهم لأنهم لا يتبعون في معصية ولكنك تقول له - واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات - . هذا ما خطر لي في الصلاة (الجواب) ولقد فتح الله عز وجل بما يشرح الصدر في هذا المقام . فلا تجعل الكلام في (ثلاث مناهج) في استغفار النبي ﷺ لذنبه . وفي تسبيحه . وفي حجده . فأقول :

اعلم أن الذنب على قسمين : ذنب هو مصدر وذنب هو فاعل ، وبيانه أن هذه الطبيعة البشرية المترتبة بالمواد الأرضية والمائية والهوائية معدة للذنوب والاذنوب إلا ما كان من الانحراف عن الاعتدال في حال من أحوال النفس والذنب لا يصدر إلا عن هيئة في النفس تكون نتيجتها المخالفات والشروخ . فهذه الهيئة التي في النفس والصفة القائمة بها والميل الذي اتصفت به هو المصدر ، وأما الفعل فهو ما يكون من آحاد الذنوب (مثال ذلك) صهي عاش بين قوم لصوص فاكسبت نفسه تلك الصفة وأشرب حبها . فهذه الصفة هي المصدر الذي عنه تصدر أفعال اللصوصية . فاذا لم تكن الصفة في النفس فلن يكون الفعل . فكل سرقة بالفعل تكذب ذنبا على العبد ولكن لولا ذلك المصدر وهي الصفة القائمة بالنفس بسبب المعايمة واستحسان هذا الفعل من أهل والأقارب ما صدر ذلك الفعل . هذا معنى المصدر ومعنى الفعل . والاستغفار من الذنب يتبادر الى ذهنه انه راجع الى الفعل لا الى المصدر . ولا جرم أن محو المصدر القائم بالنفس والهيئة الشريرة فيها أقوم قبلا وأهدى سبيلا . واذا استغفر الانسان وطلب من ربه غفران ذنب من ذنوبه الشهوية والفضوية كشراب الخمر أو الظلم مثلا مع بقاء الصفة في النفس كما فعل شيئا عظيما ولو انه طلب من الله أن يزيل ذلك الميل من قلبه لكان خيرا له واستغفار النبي ﷺ لذنبه راجع للمصدر لا للفعل إذ لا فعل وذلك من باب تسمية السبب باسم المسبب وهذا في علم المعاني مجاز مرسل علاقته المسببية كما في قوله تعالى - إني أراني أعصر خرا - أي عبا . فكما يقال عصرت خرا أي عبا هكذا يقال استغفرت من ذنبي أي طلبت من الله أن يديم لي عدم الصفة التي هي مصدر للذنوب كما تقول في الصلاة - اهدنا الصراط المستقيم - أي أدم هدايتنا . إذن قد حلت مشكلة

- واستغفر لذنبك - وحلت مشكاة - إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر -
 ومعنى هذا ليديم لك ذلك الغفران . وقوله - ما تقدم من ذنبك وما تأخر - معناه أن لا يكون هناك مصدر
 لذنب أصلا . فهذه الجملة ترجع الى عدم تلك الصفة التي يصدر عنها الذنب . ويقول الله تعالى - إنا فتحنا لك
 فتحا مبينا - ورب على هذا الفتح المغفرة أى زوال ذلك المصدر أى الميل والصفة التي بسببها تكون آحاد
 الذنوب أى رتب على الفتح دوام تلك الطهارة التي عبر عنها في بعض الروايات بأن صدره شقّ وأخرج منه
 حظ الشيطان . فهذا هو المصدر الذي تنشأ منه الذنوب . ولاجرم أن من صفت نفسه هذا الصفاء تكون نفسه
 على تمام الاستعداد للعرفة والعلم والوقوف على الحقائق . ومن نتائج العلم العمل . ومن نتائج الأعمال فتوح
 البلدان لينتشر الاسلام . وكما أن للذنب مصدرا هو المقصود من الاستغفار هكذا لفتوح البلدان ونشر الاسلام
 في الكرة الأرضية مصدر هو امتلاء النفس بالحكمة والعلم إذ القلب المقفل لاسلطان له على قلب الغافل فاذا
 عمر القلب بالعلم كان له تأثير على الجاهلين فيتعلمون ويعملون . إذن لفتح للبلدان إلا بعد فتح القلوب ولا
 انتشار للاسلام إلا بعد أن كان الداعي لذلك الانتشار معمورا قلبه بالعلم الذي به يؤثر على سامعيه ولو كان علمه
 كعلم الفلاسفة أو علم العلماء لكان مثلهم فتكون آثاره محدودة كما نراه . إذن هناك فتوح أعلى وأن قصة
 تسمت من العوالم القدسية وتشاهد الملك والملائكة وهو لا يعطينا إلا ما يناسبنا . ولولا انه يحس في نفسه
 بالمشاهدة والقرب لذلك المقام الأقدس ما أطاعته هذه الأمم في حياته وبعد موته ، إذن الغفران يرجع لمصدر
 الذنب والفتح يرجع لمصدره وهي علو نفسه ﷺ والفتوح العلمي . وكما يلزم من انعدام مصدر الذنب وهوام
 ذلك الانعدام من النفس انعدام نفس الذنب هكذا يلزم من الفتوح بالمشاهدة والقرب بالعلوم والمعارف المستمدة
 من ذلك الجناب القدسي ظهور الآثار في المؤمنين بفتح البلدان وانتشار الاسلام ، وكما كان الاستغفار موجها
 الى مصدر الذنب فيدوم عنده هكذا الفتوح راجع الى مصدر فتوح البلدان وهو فتوح العلوم ويلزم من
 ذلك فتوح البلدان الذي هو إحدى نتائج الفتوح العلمي ، راذاروى البخارى انه صلى الله عليه وسلم
 قرأ - إنا فتحنا لك فتحا مبينا - لما دخل مكة وقد ظهرت عليه هيئة السرور فليس ذلك طهذه الظواهر
 وحدها . كلا . بل ذلك لمصدرها وهو الفتح الحقيقي لنفسه ﷺ بالعلوم والمعارف وفرحه بربه ، الأثرى
 انه ﷺ قال : « إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زينة الدنيا الخ » والحديث مذكور في
 أول (سورة الأنفال) وقد ظهرت أسرار هذا الحديث بذل الأمم العربية التي فتحت تلك البلاد وظهرت
 آثار خوفه ﷺ على أمته فعلا في زماننا وقبله . إذن فتوح البلدان وان كان لا انتشار للاسلام فيه الخير
 والشر ، فالخير للصحابة والتابعين ومن نحا نحوهم لما عمروا أرض الله ، والشر لمن بعدهم وقد لحقنا نحن
 وأصبحنا اليوم تحت ضغط أم أوروبا لأننا لم نقم بحق الفتح . إذن فتح البلدان فيه الخير وفيه الشر كما أخبر
ﷺ وظهرت آثاره غينا . إذن مصدر الفتح هو الذي فرح به رسول الله ﷺ وأخذ يقرأ سورة الفتح
 عند الكعبة يوم الفتح وكان قلبه مفعما بالسرور لذلك ، وكيف يفرح بفتح البلدان الظاهري وهو يظهر
 خوفه علينا من ذلك الفتوح ويقول ان أكثر خوفه علينا من ذلك كما في الحديث الصحيح . إذن الفتح
 راجع لانكشاف الحقائق العلمية التي لا يخاف من زواها وهي السعادة التي لانهاية لها إذ لا سعادة لهذا
 الانسان كله إلا بالاطلاع على الحقائق ، وكل ما يصيبنا في الحياة قصد به أن يكون مهمازا نساقي به الى العلم
 وهو تمام النعمة وهو النصر العزيز

إن ترتب الهداية على كمال العلم والوقوف على الحقائق أقرب من ترتبها على فتح البلاد لأن الهداية ألصق
 بالعلم وأيضا قد شرح الله صدره ﷺ ووضع وزره عنه ، ورفع ذكره ، وهو لا يزال في مكة قبل فتح مكة
 وقبل صلح الحديبية وهو مهدي الى الصراط المستقيم قبل ذلك فكيف يترتب عليه الهداية إن الفتوح فتوح

العلم وبالعلم جمع القوم وبالعلم قازوا

وهذا له نظير في لفظ الفنى ، فلفظ الفنى يكتفى هذا النوع الانسانى منه بظاهره وهو كثرة المال ، والنوع الانسانى أكثره مخطن في ذلك لأنه ظن أن امتلاء خزائنه بالمال سعادة له وهو وهم باطل إذ لا سعادة إلا ببنى النفس ، وكلما أوغل الانسان في حوز المال توغلت نفسه في الطمع والحرص فيزيد ذلة ومهانة . فالبنى الحقيقى النفسى هو السعادة كالفتح الحقيقى والغفران الحقيقى . وكما انه لا يلزم من غفران آحاد الذنوب زوال مصدرها الذى شرحناه هكذا لا يلزم من فتوح البلدان المعروف بين الأمم الفتوح العلمى بدليل أن القواد الحريين يفتحون المدن وهم لا يعلمون إلا فن الحرب . وكما انه يلزم من غفران مصدر الذنوب المتقدم ذكره عدم نفس الذنوب بتاتا هكذا يلزم من الفتح العلمى المذكور الفتح الاسلامى للبلاد فى الأرض هذه مبادئ السر فى هذه الآية - واستغفر لذنوبك - وآية - إنا فتحنا لك فتحا مبينا - الخ والفتح بالمشاهدة يترتب عليه دوام زوال مصدر الذنوب ودوام النصر وتمام النعمة
هذا ما فتح الله به فى هذا المقام وتم الكلام عليه كتابة حوالى الساعة الثالثة بعد نصف الليل . وهذا هو المنهج الأول فى الاستغفار

﴿ المنهج الثانى والثالث فى التسبيح والتحميد ﴾

لقد قامت لك أن الذى حفزنى الى كتابة هذا الموضوع هو اننى فى الركوع كنت أقول « سبحان ربى العظيم » وهناك خطرت لى هذه الخواطر ، ولما رفعت رأسى من الركوع قلت « سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شئ بعد ، أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد ، كنا لك عبد ، لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا راد لما قضيت ، ولا ينفع ذا الجبد منك الجبد »

فما أتمت ذلك الثناء حتى جال فكرى فى هذه المعانى وأخذت أقول : « يا سبحان الله : نحن نسبح فى الركوع وفى السجود وعقب الصلوات والنبي ﷺ أمر أن يسبح ويحمد باللسان والابكار ، ونحن بعد التسبيح ترانا نذكر السموات والأرض وما بينهما وما وراءها . إذن الأمر عظيم . إذن هذه الصلاة ليست ألقا غلب . كلا . انها متن وشرحه هذه الدنيا كلها . نحن نسبح ونحن نحمد ونستغفر . أما الاستغفار ففتح باب لصفاء القلوب إذ العلم لا يجتمع مع الظلمة فى القلب . فبى التسبيح والتحميد ولقد كررت معناها فى كل مناسبة فى كل مقام بحسبه . وإن ببنى ما أقوله فى مقام عما أقوله فى مقام آخر فى معناها إذ العلم أشبه بأنواع الزرع وأنواع الطعام . ولا جرم أن اختلاف المزارع والطعوم لمقاصد وفوائد لاحصر لها . فهنا أقول : أكبر المسبحين هم الذين يقفون على حقائق هذه الدنيا . وإذا درسوا نفس هذا التفسير حصلت لهم ملكة بها يقتدرون على أن يعرفوا أن شرور هذه الدنيا ونكبات الدهر ومصائب الموت والفقر والدل وكل مصيبة تحل بفرد أو أمة فأنما ذلك موجه للخير العام والخير العام موجه للخير الأفراد . وأكثر العقول الانسانية لن تقدر على تصور ذلك ولكن هذه هى الحقيقة التى لا يشك فيها المفكرون

إن السعادة الحقيقية فى الحب . ولا سعادة فى الحب إلا اذا توجه لموجود لا يموت وهو جليل وحكيم وله صفات بدية . وكل ما ينسب له من الاهلاك والتدمير يحدث فى القلوب خوفا لا حبا . فأكثر أهل الأرض وقفوا عند درجة الخوف من البطش لا الخوف من انقطاع الحب . والتسبيح الحقيقى به تقف على حقيقة هذه الشرور ومتى أدركنا سرها (وأن جهلنا هو الذى أفهمنا أن ذلك كله موجه لإذلالنا وتفريق شملنا واهانتنا وتفريق جماعتنا) وعرفنا الحقيقة . هنالك تكون السعادة لأن تلك الذات المقدسة كل أعمالها رجة موجهة لنا . وهذه الرجة لا تكمل ولاتم إلا بهذه الشرور والايمان بهذه الأشياء حسن ولكنه لا يبلأ

القلب سعادة كما يملؤها الوقوف على الحقائق . وهيهات هيهات أن يقف الانسان على هذه الحقيقة أو يكون له بها يقين إلا بأن يجعل حياته وقفا على درس سائر العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية وغيرها (وهي التي كان يظنها جهلة المتأخرين من المسلمين كفرا) اذا أمكنه ذلك ويساعد العقل على الفهم الصلوات والتسيبات فانها لها آثار في القلوب . وهناك يفهم المسلمون ما يقولونه في الرفع والاعتدال كما قدمته « لاما نعلمنا أعطيت ولا معطى لما منعت . ولا راد لما قضيت . ولا ينفع ذا الجد منك الجد » ويفهمون أيضا لماذا كان رسول الله ﷺ يعاهد المسلم على أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره من الله . وسر التسيب فهم أن هذا الشر الذي هو من الله إنما هو خير في الحقيقة . وهناك هناك بحل الحب الحقيقي من العبد لله ومع السعادة الحقيقية . وهذا يفهمنا معنى قوله تعالى - رفع الله الذين آمنوا منكم والذين أتوا العلم درجات -

هذا هو الفرق بين العالم والجاهل . الجاهل أمر أن يؤمن بأن الخير والشر من الله ووقف عند درجة الخوف من الله وعند درجة التسيب اللفظي واعظام الله تعالى إعظاما مصحوبا بالخوف . والعارف هو الذي يعرف بعقله أن هذا الشر موجه للخير وأن هذا الشر مكمل للخير والخير بدرته ناقص . فهناك يجب ربه جبالا حذله ويسعد سعادة لاحد لها لاسيا اذا أمده الله بعلوم وحكم وأفاض عليه . فهذا هو التسيب . أما التحميد فهو معرفة جميع العلوم المذكورة من حيث جلالها وكبرها وحكمها . وهذا هو الشر في ذكر التسيب غالبا مع الحمد لأنهما في الحقيقة بينهما صلة وهما يرجعان للعلوم . هذا ما فتح الله به كنيته عقب ورود هذا المخاطر بعد ما انتهت من نفس الصلاة والحمد لله رب العالمين .

﴿ الفصل الرابع في محاجة الضعفاء والمستكبرين إذ يتحاجون في النار ﴾

ونتيجة المحاجة أن الجميع في النار ﴿

إن هذه المحاجة قد ذكرت بعد نصائح المؤمن من آل فرعون لهم من باب ذكر السبب بعد السبب فان آل فرعون قوم مقلدون للرؤساء والمقلد للرؤساء بلا عقل هالك . إذن هذا من أسرار القرآن فانه بعد أن ذكر آل فرعون (وقد تبين في تاريخهم الذي ذكرناه أن عقولهم إذ ذاك قد أخذت تنحط حتى عبدوا الحيوانات ، وقد ظهر ذلك ظهورا واضحاً في آثارهم) أخذ يذكر المحاجة بين الضعفاء والمستكبرين في النار والمقصود من هذا أن الله كأنه يقول : « أنا لم أذكر مؤمن آل فرعون ومحاجته مع قومه عناية بالتاريخ كلا . وإنما ذكرتها أشبه بمنال للقاعدة المذكورة بعد ، والقاعدة المذكورة بعد أن وقوف العقول هو البلاء الأكبر . وليس الانتكال على الرؤساء بنافع المرء بين فأن العقول عند الجميع ، وما انتكال المرؤسين على الرؤساء إلا كالاغترار بالمسيح الدجال ، فالمسيح الدجال يوهم الناس فيقبعونه والرؤساء كذلك . إذن ماسياتي في الفصل الخامس متم لما في هذا الفصل وعلى هذا تكون الفصول الثلاثة متصلة كل فصل مكمل للآخر فضلال المصريين سببه الاغترار بالرؤساء والمرؤسون لا يفهم الاحتجاج بالرؤساء مهما أوهموهم ، واذا كان إيهام المسيح الدجال لأتباعه واضلال عقولهم واظهار الامور المحجبة لا يبغى أتباعه من العقاب على أتباعه لما لهم من العقول التي تركوها والمواهب التي أناموها فكيف يفت الضعفاء من العقاب اذا اتبعوا رؤساءهم الذين لا يبلغون في المكر والحديعة عشر معشار المسيح الدجال ! - لكل ضعف ولكن لا تعلمون - وهذه الحجج القرآنية دامغة واضحة وآيات ساطعات قد ظهرت في هذا التفسير ليعلم المسلمون قاطبة في أنحاء الكرة الأرضية أن دين الاسلام قد انحطت به تقاليد كاذبة وضلالات خاطئة ومن قرأ كتاب « الفرق بين الفرق » وعرف مافيه من الفرق التي تبلغ نحو نيف وسبعين فرقة ودرسها درسا جيدا واطلع على بعض تلك الفرق الباقية الآن أدرك يقينا أن كثيرا من تلك الآراء قد أصقت بالدين لغرض واحد وهو الجاه والتزود والملك

والرئاسة وحوز المال والتعالى والعزة والبطش

إن هذا الكتاب ألفته للمسلمين عامة ، ولست أريد أن أوضح أكثر من هذا ، وليس عندي لهذا الداء
لجميع الأمم الإسلامية إلا دواء واحد وهو دراسة جميع العلوم وتعميم التعليم

(الآراء الحديثة وآيات القرآن)

انظر الى ما تقدم في قوله تعالى - قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون - واقراً ما نقلته عن
العلامة (كانت الألمانية) فانظر كيف يقول : « إن البصيرة متوقفة على التعليم والتعليم متوقف على البصيرة
وهذا دور والدور محال ، ثم أجاب عن هذا الاشكال بما ملخصه أن كل جيل من أجيال الأمة يجتد فيها ورثه
عن أسلافه ويزيد عليه ويسلمه لمن بعده جيلاً جديلاً حتى يصل الانسان الى السعادة »

ومما قاله أيضاً : « إن المعلم اذا اتبع طريقة من قبله بلا تعقل فانه ينقص عنه وهكذا جيل ينقص عما
قبله حتى تنزل الأمم الى أسفل سافلين »

وملخص آراء الرجل أن العلم لا يؤخذ إلا مع أدلته على شريئته أن يعرف الانسان أصول الأشياء فيزيد
شيئاً ويرتقى الخلف عن السلف من حسن التصرف . أما اذا لم يكن هناك إلا التقليد المحض رجعت الأمة
القهقري ، وهل في هذه الآيات إلا هذا ؟

هذا ملخص هذه الآيات ، ومن اطلع على الشبان المسلمين في المعاهد الدينية يجد انهم يلقنون في سفرهم
أن عقولنا أضعف وهمنا أقل وكل جيل يأخذ عن من قبله ويكون أقل منه حتى ان أتباع الامام الشافعي في
زماننا ينظرون الى الرملي وابن حجر بعين العظمة ولا يقرون أن يفكروا في البويطلي من أصحاب الشافعي
فكيف اذن بالشافعي رضي الله عنه وأبي حنيفة . أما القرآن وأما الحديث وأما أحوال النبي ﷺ فهذه كلها
ينظر اليها نظراً تاريخياً لا غير أوتبركياً غالباً وهذا هو الرجوع القهقري

فليقرأ المسلمون جميع العلوم الطبيعية والرياضية وغيرها لتتسع عقولهم ويدرسوا تاريخ كل علم ليعرفوا
أصولها ، ثم ليكن في كل قطر جماعة من هذه الطبقة الممتازة ، ولتكن نتائج آرائهم موازنة في مجلس عام
مع آراء المصنفين من الجماعات المختلفة ، وليكن لهم مجلس عام في مكة أوفى غيرها ، ثم ليقرر ما يجب من
الاصول المرعية للمسلمين ، ولا يصح أن يتولى زعامة المسلمين أناس لم يدرسوا تلك العلوم ، فوالله انهم ليسوا
أهلاً لإدارة شؤونها سواء أ كانوا ملاكاً أم أمراء أم علماء . هذا هو المناسب لهذا الزمان . ولقد كتبت نظير
هذا في مواضع كثيرة من هذا التفسير

هذا هو الذي فهمته أيها الذكي من هذه الآيات . فقال : لقد أجدت صنعا وأحسنت وأفدت فنته الحمد
والمنة ، ولكن لا يزال بعض الاشكال قائماً بل لا يزال بحاله . فقلت ولماذا ؟ قال : إن الرحمة تقضى أن لا
يكون شيء من هذا وتكون الحياة سعادة . فقلت : هذا السؤال مكرّر في هذا المقام وفي غيره وكم أجبت عنه
فقال نعم ولكنني أريد زيادة الايضاح . فقلت : ماذا أوضح بعد ما ذكرت لك في أول هذا المقام من مثال
الماء والأرض والحجارة فيهما وانها في أحدهما أبطأ من الآخر ، وابطاء تصاعدها على مقدار إبطاء قبولها
فهكذا الأمم اذا تدهورت بسبب الرؤساء أو شيوخ الدين أو شيوخ الصوفية أو الجهلاء الذين هم غير كاملين أو
المستعمرين الذين يدخلون البلاد فيجعلوا الشعب أشبه بالحيوان يسخرونه

كل هذا لم يخرج عن كونه تأخيراً للرقى ، وهل هذا التأخير إلا نقص إبطاء قبول الرقى ، وهذا الإبطاء
يجعل الرقى أدوم . إذن السجالون والمستعمرون والشيوخ الجاهلون كل هؤلاء جعلوا في الأرض امتحاناً
لعقول الأمم يؤخرون رقبهم ، فإذا استيقظوا بأمثال ما كتبت في هذا التفسير وبالآلام والاذلال فانهم يجتدون
في تثبيت مدينتهم تثبيتاً أتم . أما اذا شربوا العلم شرباً بدون آلام ولا تأخير فقلما يدوم في أجيالهم ، ولعل

ففساه المصريين لم يدم ملكهم خمسة آلاف سنة إلا بعد أن قاسوا حروبا واذلالا آمادا طويلة
فذل الأمم التي يصيبها الذل بالاستعمار والشيوخ الجاهلين كتل الماء فيما تقدم وما أحسن ضرب المثل
بالماء فقد جعل مثلا للعلم في آيات القرآن وعلماء الطبيعة جعلوه مبدأ لارتفاع سطح الأرض لأن سطحه منتظم
وجعلوه مقياسا يقاس به الوزن النوعي للجوامد وللغازات بحيث يكون الحجم الذي مثل حجم الماء من الزئبق
يساوي وزن الماء ١٣ مرة و٦ من عشرة ، ومن الذهب ١٩ مرة وثلاثة أعشار المرة ومن الأثير الكبير يتى
سبعة أعشاره لا غير إذن هذا أخف من الماء والهواء أخف من الماء ٧٧٣ وستة أعشار أى ان الهواء المساوي
لحجم الماء يكون أخف منه بهذا المقدار

أقول : فإذا كان الماء قد جعل مقياسا في علم الطبيعة لوزن كل شيء وزنا نوعيا إذا كان على درجة ٤
فوق الصفر من سنتجراد وكانت هذه المعادن وغيرها على درجة الصفر منه ، فهو إذن معيار عظيم هكذاها
هو خير معيار يجب به عن ظواهر المظالم والجهالات فتقول انها لم تفعل شيئا أكثر من تأخير الرقي للأمم وهذا
التأخير لأجل الشوق لتلك الرقي والشوق مثبت له . وهذا هو قوله تعالى - فسي أن تكروهوا شيئا وهو
خير لكم -

هذه هي الحكمة الإلهية في تحمل الضغط والاذلال . وعلى المفكرين في الأمم أن يحملوها على دفع
هذه المظالم ورفع هذه الأثقال عنهم والله من ورائهم محيط . قال : لقد انشرح صدرى بهذا المقال . فليبدأ
بالكلام على الفصل الخامس

﴿ الفصل الخامس في المسيح السجال ﴾

فقلت : لقد ذكرت المسيح السجال غير مرة في هذا التفسير . وكل ما أحاول أن أقوله قد دمره نظيره . فقال :
ولكني الآن أريد أن نشرحه شرحا عاما لتشرح صدرى وصدور القراء ، فأنا أريد أن أعرف كيف يقول
ﷺ في حديث أبي داود والترمذي أن الأنبياء أنذروا قومهم به ، وأن نوحا أنذر قوميه به ، وكيف نستعيد
بالله منه في كل صلاة ، وكيف يستعيد رسول الله ﷺ منه في صلواته ولم يظهر في زمانه ، إذن الأنبياء
يستعيدون بالله ونحن والصحابة والرسول ﷺ من شيء لم يحصل وهذا محال ! فقلت : إن الحيرة في هذا
إنما تأتي لمن يجاهلون علوم اللغة العربية ، فالعامة يجاهلون البلاغة في كلام العرب ولكن الأدباء وهم قوم
أعطوا حظا من علم اللغة هم الذين يهتمون أمثال هذا المقام . إن القرآن في أعلى طبقات البلاغة والبلاغة علم
فاذا جعلنا تفسير القرآن على يد طائفة تجهل هذه العلوم حصلت لهم الحيرة . أما نحن فلاحيرة عندنا . إن في
علم البيان (وهو أحد علوم البلاغة الثلاثة) التشبيه والمجاز والكناية . والكناية باجتماع العلماء أبلغ من الحقيقة
وأى كلام أحق بالبلاغة من القرآن . قال : هذا حسن . فقلت : وما الكناية إلا لفظ له معنى ولكن ليس
المقصود هذا المعنى بل المقصود الحقيقي معنى آخر مع ان المعنى الأول لا يزال بحاله ويراد أيضا من اللفظ . فاذا
قال رجل للآخر « إن كلبك جبان » وكان القائل بليغا فان السامع اذا كان بليغا أيضا يفهم منه أن هذه
الجملة معناها انه كريم لأن جبن الكلب انما جاء من كثرة الأضياف فانهم لكثرتهم لم يتحمل الكلب كثرة
النباح عليهم . فهذا الممدوح من جهة كريم وهو المقصود . ومن جهة أخرى يصح أن يكون له كلب وذلك
الكلب جبان فعلا . فهذه هي الكناية . فالمقصود فيها المعنى الذي كنى باللفظ عنه . فهنا تقول : هذا المسيح
السجال الذي يظهر الجباب وناره جنة وجنته نار وبقته المسيح ابن مريم له معنيان كسألة جبان الكلب .
والمعنى المشار اليه هو المقصود والمعنى الأصلي جائز لانه من

هذا هو الذي يقتضيه علم البلاغة . واذا لم نستعمل هذا العلم فيما خلق له وهو فهم الدين أفقتصر في استعماله
على أشعار العرب ونحوها . فقال : ولكن لا بد للقرينة من كناية فما هي القرينة هنا ؟ قلت : هنا قران

لا قرينة واحدة بل قرأتين يجب علينا أن ندرسها . فقال : وما هي ؟ قلت : كيف نستعيد من فتنه المسيح ولا فتنه له الآن ! وهل يستعيد رسول الله ﷺ من شيء لا وجود له ؟ وهل ينذر الأنبياء أقوامهم بما لا وجود له ؟ فقال : إذن المستعارة من كل من كان ظاهره الصلاح وباطنه الخداع والظلم والجور . قلت : نعم وذلك يشمل الدجال الحقيقي متى ظهر ويشمل كل دجال من المستعمرين للبلاد ومن الشيوخ الجاهلين في الاسلام وغير الاسلام فكل هؤلاء دجالون لأن أحدهم يظهر العلم وليس بعالم ويظهر الزهد وليس بزاهد . والأمم المستعمرة تجعل أنفسها داخلة لاصلاح البلاد اذا هي تمنع العلم عنهم

كل هؤلاء استعاز النبي ﷺ منهم ونستعيد نحن . فهم في ظواهرهم أشبه بالمسيح ابن مريم يريدون السلام العام وفي الحقيقة لا يريدون إلا التسخير غيرهم لهم . ولقد ابتليت أمتنا بقوم من هؤلاء . فكثير من القائمين بالملك في الأزمان القديمة كانوا لا يريدون إلا العلو على الناس لا أنهم يريدون الخير للأمة . نعم الصحابة رضوان الله عليهم كان لهم اجتهاد ولكن الأمم المتأخرة كثير فيهم طلاب الملك والرئاسة . وأنت ترى آثار ذلك السبل في الجهة من الشيوخ الذين يحملون الأعلام ويدقون الطبول . كل ذلك آثار من آثار أسلافهم الذين كانوا يفعلون ذلك لأجل الملك . ولقد أحسن صنعا مصطفى كمال باشا في تركيا إذ أخرجهم فقاموا بأعمال تنفع الأمة ولم يبقوا عالة عليها كما هو حاصل في بلاد الهند . وقد تقدم مقال مطول شارح للاولياء الهنود في (سورة الأحزاب) عند آية - يا أيها النبي - إنا أرسلناك شاهدا - الخ ذكرته هناك ليعلم المسلمون أن هذه الطوائف التي جعلت الدين مصيدة سبقنا بها البراهمة فقرأه هناك ، ومستحيل أن ترتقي الشعوب الاسلامية إلا بالاطلاع الواسع حتى يزبحوا هذه الأوهام ، ولم ترأمة من أمم الفرنجة دخلت بلادا اسلامية كبلاد السودان أو بلاد شمال افريقيا إلا اتخذت هذه الطوائف أهوانا لها . لماذا هذا ؟ لأنهم اخوان شركاء في الصيد . فالمتعمرون من أوروبا والآساد والظهور وهؤلاء الشيوخ كالذباب والحداد فأنها تأكل فضلات أولئك المستعمرين . ولقد أخبرت منذ أيام أن رئيس طائفة كبيرة من الصوفية ببلاد المغرب قد تزوج امرأة فرنسية . إن فرانسوا تعرف كيف تؤكل الكنتف . إن أوروبا (كما يقول غاندى مصلح الهند) أشد خطرا من الشيطان وما أكذب الشيطان اذا نشر شره وهو يذكر الله (وبعبارة أخرى نقول) إن الأحاديث الواردة في الدجال يراد منها ما هو حاصل الآن فعلا في بلاد الاسلام ، حتى يقول المسلم « اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ، ومن عذاب النار ، ومن فتنه الحميا والممات ، ومن فتنه المسيح الدجال » فهذه الفتن كلها حاصلة والمظهرون الصدق والاخلاص في العالم وهم كاذبون كثير أفرادا وأمتا . فهؤلاء الشيوخ يقولون للناس « واطبوا على الأورداد صباحا ومساء فقط » ولكن لا يحبونهم في العلم لأن أكثرهم جهلاء والمتعلمون منهم كالتعلمين من أهل أوروبا يقولون « اذا تعلموا تعالوا علينا » وهذا المقام تقدم شرحه في مواضع كثيرة من هذا التفسير مثل ما جاء في سورة الكهف عند آية - وما كنت متخذ المضلين عضدا - وفي سورة ابراهيم في آخرها ، وفي سورة سبأ عند آية عجاذة الضعفاء والذين استكبروا مثل ما هنا وهكذا . فقال : لقد انشرح صدرى لهذا الجواب ، ولكن بقي أمر واحد وهو : « كيف يقول ابن عباس ان اليهود يتخيلون ملكا يكون لهم على يديه ، فهل هذا له أثر . قلت : إن أمر اليهود لا يخرج عما قررتاه . إنهم الآن مشتتون في كل أمة من الأمم وهم أذكيا جدا ولهم تاريخ مشهور ، فهم يحافظون على مجدهم ولأمة في الأرض تضارعهم في هذا لأن التوراة قد ملئت بأخبار أسلافهم ، وهم قد أخذوا على أنفسهم أن يكونوا فتنه الأمم كلها كما قلته في هذا التفسير منقولا عن التلمود ، فلا تجد فيهم عالما ولا حكما ولا سياسيا إلا وهم موجه الى خير أمتهم وان هلكت جميع الأمم . وأقرب شاهد على ذلك أن الذي أثار الحرب الكبرى في ألمانيا وأوروبا هم فلاسفة اليهود فان تشبيه يهودى وهو الذى نشر فيها « ان الرحمة في هذه الأرض خطأ فلا يبقى إلا الأقوياء » وانتشرت آراء كثيرة في هذا المعنى

قامت الحرب بين الأمم كلها . ثم هم أنفسهم لما رأوا أن ألمانيا أخذت تنصرونشروا في طول البلاد وعرضها انها أمة متوحشة فثارت الأمة على الحكومة فسلمت ألمانيا لمن هم أضعف منها . وقد مضى على هذا نحو (١٣) سنة لأننا الآن في سنة ١٩٣٠ وإيقاف الحرب كان في سنة ١٩١٨ ونسبع أثناء طبع هذه السورة أن ألمانيا قامت تنفض الفبار عن وجهها ويقول رجالها في الحزب الاشتراكي القوي فيها الذي قام الآن فضلا « لا يبقى يهودى في البلاد » لأنه يستحيل أن يكون يهوديا وألمانيا في آن واحد . هذا هو الذي يقال فضلا عند طبع هذه السورة . وهامى ذه ألمانيا يقوم شبانها في هذا الاسبوع فيصطمون زجاج منازل اليهود . إن اليهود يريدون أن يجعلوا لهم السلطان على العالم كله ولو بطريق غير مباشر

ولقد أراحوا القناع عن أمرهم أيضا في مسألة فلسطين . فبعد الحرب التي ارتجت لها الكرة الأرضية وحصل الصلح أخذ اليهود يطلبون أن تكون لهم دولة في فلسطين . وهذا من مكرهم وخداعهم . وأيضاً ان القائم بأمر البلشفية في روسيا هم اليهود ولاندرى ما يتم في ذلك . فالعالم كله اليوم مخدع وأكثرا للناس خداعا اليهود . ونحن نستغيث بالله من هذا الخداع

وعلينا أن نسي في رقى المسلمين بعالم الأمم ثم نكمل ما نقص من أخلاق غيرنا بعد كل أنفسنا نحن . واذ ذلك نعم أجيالا وأجيالا يكونون صادقين لخدمة الأمم فيذهب خداع الأمم بعضها بعضا وأكاذيب السياسيين واليهوديين وشيوخ الطرق وأكاذيب التجار بل خداع الشهوات والذوات فهي ملحقات بخداع الجهالين لأن الانسان مخلوق مسكين تخدعه شهوته ويخدعه غضبه ويخدعه تقص علمه ويخدعه الأمم ويخدعه الشيوخ الجاهلون . ولست أقول إن شهواتنا من قبيل الجهالين . كلا . بل أقول انها ملحقات بذلك مقيسة عليه . فلنجد نحن المسلمين في العالم لساوى الأمم ثم نسير على صراط مستقيم للتهدية الى السلام العام بين الأمم الذي عبر عنه بزمان عيسى ابن مريم ولن يكون زمان المسيح إلا بعد أن يقتل الجهال . إذن لنقتل الجهل من بلاد الاسلام أولا ، ولن يكون ذلك إلا بالعلم وبعد ذلك تقتله من الأمم ثم يكون السلام العام وهذا هو المقصود ، فليس في هذا أيها الذكي انكار للمسيح على حسب لفظ الأحاديث وللدهال على حسب لفظها ، وانما الذي يجب علينا نحن أن نعمل من الآن لهدم أركان الجهالين وترقية النفوس ليصلح العالم ويم السلام . هذا ما أدين به وحسبنا الله ونعم الوكيل

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : لقد نطقت بعلم وأفدت بفهم وشرحت صدرى ولكن ما تقوله من السلام العام وانه يحصل بامانة الجهالين وتعميم التعليم بعيد الحصول ، فاضرب مثلا مشاهدا أقيسه عليه . فقلت : أذكرك بما تقدمت في أول (سورة يوسف) . ألم أكتب مقالة أحجل فيها على الحكومة المصرية لاهمالها حفظ الطيور النافعة . قال بلى . قلت : ألم تأمر الحكومة بحفظ هذه الطيور . قال بلى وتبلغ فوق (٣٠) عدا منها أبو قردان والكروان والزقزاقين الشامي والبلدي الخ . قلت : فأيهما أنفع للناس : أكل أبي قردان وأكل هذه الطيور كما كان ذلك حاصلا قبل منع حكومتنا أم إبقاؤها لتأكل الحشرات والذود فينمو الزرع كما هو الحاصل الآن قال : بل إبقاؤها خير ، ونسبة منفعة أكلها الى منفعة ما ناله من قاشها أقل من نسبة الهواء الى الماء من حيث الخفة إذ تقدم انه أخف منه (٧٧٣) مرة قريبا . واذن تكون المنفعة في أكل تلك الطيور أشبه بالعدم فقلت : وماذا تقول في البقر والجاموس التي تساعدنا في الحرث والسقي اذا فرض انه ليس لدينا غيرها اذا ذبحناها وأكلناها ، أنا أكلها أم نبقها ؟ فقال : بل نبقها كما نبق الطيور ، ومن أكل هذه الطيور أو هذه الحيوانات المذكورة فهو أولى بأن ينسب الى الجنون من أن ينسب للعقل . فقلت أحسنت ، ثم قلت انظر : هنا ماء يسقي الزرع وهواء يتنفس فيه ويأخذ منه الكربون كما تقدمت في (سورة يس) عند آية - سبحان الذي خلق الأزواج كلها - . قال نعم . قلت : وطيورنا كل

الحشرات والسرود ، وذوات أربع تحرث الأرض وتسقى الحرت . أليس كل هؤلاء تعاونوا على المزرعة . قال بلي . قلت : وهم مختلفون صفات اختلافاً بينا . قال بلي . قلت : فإذا تقول في الانسانية العامة . أليسوا مختلفين ألبا وأفرادا اختلافاً كثيراً أو قليلا . قال بلي . قلت : والاختلاف لغايات كالاختلاف بين صفات الانسان وصفات الطير والهواء . والتأثير تبع ذلك الاختلاف . قال نعم . قلت : أفليست الدنيا كلها مزرعة واحدة . وبنو آدم اذا قتل بعضهم بعضا يكونون في سخافة عقولهم أشبه بهؤلاء الزراعين الذين ذبحوا أبا قردان وأكلوه وذبحوا البقر والجاموس وحرموا الزرع من تلك المنافع فأصبحوا خاسرين . قال بلي والله حسن جدا . إذن الانسانية الآن في غاية النقص . قلت نعم وكماها بذبح السجل والاستعمار ، فهذا الشيخ الذي يقول للتلميذ « اتبعني واترك كل علم غير ما أقوله لك » مرعبا بذلك ايقاف عقله أشبه بالفلاح الذي ذبح أبا قردان لأكله ونسى انه هو الذي يأكل حشرات حقله ، وهذه الأمم المستعمرة التي قتل الشعوب ليدوم خضوعهم هم أشبه بذلك الفلاح أكل الطيور وذبح البقر والجاموس وقعد يضرب أحاسا لأسداس . قال : ما هذا ؟ إذنت الانسانية الآن بهذا البرهان ضعيفة غبية . فقلت : حقا لا انسانية . وهذا لا يزول إلا بأن يفهم المسلمون آيات هذه السورة ويعلموا أنهم هم المقصودون بانتقال الانسانية من حقها وجهلها لأنهم - خير أمة أخرجت للناس - . وأن اليهود لن يرجعوا عن إضلال الأمم ودمس الفتن فيها وكذلك أم أوروبا لن ترجع عن إضلال الأمم فتصنع معها ما يصنع الفلاح الفبي الذي يأكل أبا قردان وذبح البقرة والجاموسة اللتين تنفعانه في تموزرعه إلا بظهور الحقائق ظهورا تاما ونشر الثقافة في الأمم والتعلي بالأخلاق الفاضلة وحين ذلك يفهم المسلمون سر قول ابن عباس في تفسير هذه الآيات . وأن اليهود وغير اليهود لن يسلطوا على هذه الانسانية وانها لا بد من ارتقاها وأن الحرب ستزول ويكسر الصليب لأن دينا اخترعه العقل الانساني واجتلبه من دين البوذية لن يبقى إلا بالمشرين وهم يحملون الصليب

فهذه وأمثلة استخف وطأها وتعرف الانسانية الحقائق ويكون الناس إخوانا في نفس الحياة ، انما مثل المستعمرين الذين يفشون الجهل في الأمم والشيوخ الذين يتاجرون بالدين كمثل من رأى صيا يرضع من ثدي أمه فحكم بأن لا يترك هذا الثدي أمد الحياة وهو يرى ويعلم أن هذا الطفل له أدوار ثلاثة : دور الجنين ودور الرضاعة ، ودور الاستقلال في الطعام والشراب ، فاقصر المر يد على قراءة الأوراد أشبه باقتصار الطفل على لبن أمه أمد الحياة ، واقتصر الأمم التي استعمرها الأجنبي على أن يكونوا خدما وقد قتلوا ذكاهم أشبه بذلك الصبي الذي لا يترك لبن أمه ، فهؤلاء وهؤلاء قد حرموا فوائد عظيمة فقدتها الانسانية بتأخيرهم رقي غيرهم ، وكتابتنا العزيز وتفسير ابن عباس يدلان أن الانسانية ستأخذ حظها ولا يتم إلا بالسلام العام وبقتل المسيح الدجال ولا يبش في الأرض إلا الصادقون المخلصون

أم ترى قوله تعالى - إنا لنصر رسنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا - أي النصر ليس قاصرا على الحياة الأخرى ، إذن فلنبشر الانسانية كلها بالنصر وانهم يصلون للسلام العام لأن دين بالسلام وأمة الاسلام المستقبلية ستعصر في هذه العقيدة العيسوية المحمدية وتقتل السجل وتعطي السلام العام الذي يقوله المسلم في عبادته فلما سمع صاحبي ذلك . قال : ما أجل هذا المقال ، وما أبهج العلم ، وما أسعد العلماء ، ولكنني أريد منك زيادة إيضاح في موضوع الدجالين . فقلت : أيها الذكي اقرأ ما تقدم في آخر سورة المائدة عند قوله تعالى - واذا قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله - ثم انظر كيف كان هذا الدين صورة منقولة من (دين خريستا) ومن (دين بوذا) بالهند أحدهما قبل الميلاد بثلاث سنين والآخر قبله بألف سنين ، وتأمل فيما كتبه هناك نجد أصول الدين منقولة بالحرف الواحد وهي هناك واضحة أيما إيضاح ، وعلى هنا ترى هذا الدين له مبشرون قائمون بأمره ، محافظون على تعاليمه ، ومن عجب أنهم

يتصرفون فيها تصرفاً مزدياً ، ومن أفضله أن الحرافات التي عمت الكرة الأرضية الآن هم المشيرون بها وهم القاتكون بالأثم وهذا مخالف لنص هذا الدين على خط مستقيم . ولقد جعل مبشروهم الذين آله لتزريق الأثم وزلزلة العقائد حتى ان فتح مصر لبلادنا المصرية لم يتم إلا بما اتخذوا لذلك من مبشرين زعزعوا العقائد فدخلت جنودهم البلاد بعد أن دخلت شرورهم وسومهم القلوب

وهامى ذه فرنسا ترحب بالدين خارج بلادها لاضرار عقائد الأثم ولكنها فضطهده في داخل بلادها علما منها أن تعاليمه ضارة بنظام بلادها . وبالجملة فالديانة المسيحية الآن أحبولة لاصطياد النفوس وقنابل لتفريق الجموع . أليس هذا هو أثر من آثار المسيح الدجال . وأى دجل أعظم من هذا . ونظرة في المقالة الآتية التي سطرها أحد الفضلاء في « مجلة جمعية الشبان المسلمين » نكتفي لتبيان ماقلنا وذلك في عدد نوفمبر سنة ١٩٣٠ وهذا نصه :

﴿ من كان بيته من زجاج فلا يرحم الناس بالحجارة ﴾

يحكى أن سائحا انجليزيا رأى صبيا يصنع سخنا من الأرز المطبوخ فوق قبر فقال له متهاكبا : « متى تظن أن فقيدك يقوم فيأكل هذا الأرز ؟ » فأجابته الصبي بقوله « يكون ذلك متى جاء فقيدكم يستنشق روائح الأزهار التي تضعونها على قبره » وهذا الرد الطريف المسكت ذكرى بكلمة لصبي آخر عن أعمال المبشرين في الصين فيها نفس المغزى وهو : « ان من كان بيته من زجاج فلا يرحم الناس بالحجارة » كنت قد قرأتها من زمن بعيد ثم رأيت أن أنقلها اليوم لقراء مجلة الشبان المسلمين كرد (خالص) على ذلك الاختلاق وتلك التقارير الوهمية التي يذيعها المبشرون عن انتشار المسيحية في أنحاء العالم وتراجع الاسلام تحت ضغط انتشارها باعتبار أن الكلمة صادرة عن رجل يتكلم بلسان ربيع سكان المعمورة وهذه هي : لأى غرض جاء الى بلادنا هؤلاء المبشرون ؟ هم يقولون انهم جاءوا بدين يرون فيه لنا أسباب السعادة في الدنيا والآخرة . ويسمون هذا الدين بالدين المسيحي ولأننا لم نكن في حاجة لمثل هذا الدين بل مرة لأنه في نظرنا دون شريعة كوفوشوس وبوذا لم يستطع المبشرون مدة أربعة عشر قرنا أن يؤثروا به فينا اذ لا يوجد حتى الآن بين أمتنا التي يربو عددها على أربعمئة مليون نفس أكثر من أربعين ألف مسيحي صيني ولست بحاجة لأن أعرفكم بهؤلاء الصينيين المسيحيين فهم الفقراء الذين لا يقدررون على كسب قوتهم . ولذلك صاروا مسيحيين لأن المسيحية لديهم هي العيش ولم يستطع المبشرون رغما عن الجهد الجهد استئالة رجل ذي شأن ككاتب مطلع أو موظف أو تاجر أو أى ذى حرفة ولم يجتمع حولهم غير النساء والمثبردين . وكيف يكون الأمر غير ذلك مادام بوذا قد علمنا كل مايعاول هؤلاء المبشرون تعليمه لناصرة أخرى ومادامت فلسفة كوفوشوس أكل وأجل قانون عرفناه الفضيلة والأخلاق حتى اليوم . على أن أساس الديانة المسيحية وحده يكفى لابعاد كل ذى تفكير حر عن المسيحية واتى أترك لكم الحكم على صحة قولى هذا . يقول المسيحيون ان الله أراد في يوم من الأيام انقاذ العالم وبما أنه القادر على كل شئ - وانما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون - كان يجوز أن يظهر رغبته في انقاذ العالم بكيفية بسيطة ولكن الأمر لم يجر بهذه البساطة فهم يقولون ان الله الذى كان واحدا فردا رأى أن يصير ثلاثة مع بقائه فردا فليضهم ذلك منكم من يستطيع . وكانت نتيجة ذلك أن الله رزق بكرًا من بنات آسيا غلاما وهذا الغلام صار رجلا والها في آن واحد فهاهذه التعقيدات والاشكالات . إني أسألكم هل يوجد صيني سليم العقل يقبل هذه القصة ؟ أليس هذا وحده يفسر لنا لماذا لم يجد المسيحيون سيلا لنشر دعوتهم في هذه البلاد التي تترك الحكومة فيها للشعب حرية تامة في التفكير في مسائل الدين كما أثبت ذلك القسيس هوك . الى جانب هذا نعلم أن المسيح (نبي البيض) دعا قومه الى التسامح والرحمة والفرقان (كما فصل

كونفوشيوس من قبل) وأوصاهم بأن يعيشوا مع الناس في سلام وأن لا يعملوا مع الغير ما يريدون أن يعمل
الغير معهم . فهل المبشرون يتبعون الشريعة التي يريدون ادخالها بيننا . كلا فالذين ماهو الا وسيلة في أيدي
هؤلاء القسوس الذين جاءوا لانتقاذ أرواحنا (كما يقولون) بغير أن نطلب ذلك منهم لأنهم كانوا الطلائع لغيرهم
من مواطنيهم وهم التجار الذين ظننا أنهم هم الآخرون أتوا لتبادل المنفعة معنا فقابلناهم بكرم ولطف ورعاية
صرفها إذا قابلوا حسن صيغنا . قابلوه باحتلال الجهات التي يسكنونها من الأراضي الصيفية وادعوا أنهم ملك لهم
ومحكومة بقوانينهم ومحال انهم كانوا يقبلون ذلك في بلادهم لو ادعى صينيون مناها ملك مثل دعواهم فتركتناهم
مع ذلك وشأنهم ولكنهم ما لبثوا أن أصبحوا لا يطاق لهم وجود لأنهم أرادوا أن يكونوا هم السادة أصحاب الأمر
والنهي وأن نكون نحن أرباب البلاد وأسيادها خدما لهم يحكموننا بالقوة والأرهاب الخ » وهي كلمة طويلة
نكتفي منها بما تقدم . والذي يلفت النظر فيها بنوع خاص هو أن المسيحية التي يدهي المبشرون أنها تنتشر
في أنحاء المعمورة وان الاسلام يتراجع تحت ضغطها لم تستطع (بعد جهد جهيد استمر نحو ١٤٠٠ سنة) ان
تجذب اليها رجلا واحدا ذاتا في بلاد الصين وان كانت فازت بعد ذلك الجهد بأربعين ألف مسيحي صيني
لاأظن ان العالم المسيحي الأبيض يغتبط بأخوتهم لأنهم . كما يقول ذلك الكاتب . أناس ضحكوا على ذقون
المبشرين ليأكلوا (عيشهم) والمبشرون من جانبهم يضحكون بهم على ذقون من يمدونهم بالمال ليعيشوا هم
الآخرون . فالاسلام لاخوف عليه من تهديد المبشرين ومزاعمهم

زعم الفرزدق أن سيقتل مر بها * أبشر بطول سلامة يا صريح

بإدام هذا الدين السمح الذي كفل الحرية الصحيحة للناس في حدود الفضيلة وحرر النفس البشرية
وساوى بين الناس فلم يفضل أبيض على أسود أو أحرأ أو أصفرا الا بالتقوى والعمل الصالح . لاخوف عليه وهو
دين الحرية والديموقراطية من طغيان الدين المسيحي عليه . ذلك الدين الذي يحتفل أبناءه البيض (في بلاد
المدية والعدل والحرية أمريكا . معقل رجال الدين ومصدر المبشرين) بتعذيب اخوانهم ومواطنيهم المسيحيين
السود ونحن تتحدى كائنا من كان من المبشرين في مشارق الأرض ومغاربها أن يكذب هذا الخبر الذي
نورده هنا وهو هذا

احتفل أميركيو ولاية نيويورك في مدينة نايور بتعذيب زنجي اسمه « دان دافيز » فلما شد وثاقه الى
شجرة . بعد التعذيب الوحشي الشديد . لاحرقه حيا نوسل « دافيز » المسكين الى ذلك الجمع المحقد من
الرجال والنساء بعبارة مؤثرة تستدر الدمع أن يتقدم واحد منهم ليقطع عنقه قبل أن يسام ذلك العذاب الأليم
فقال اني أرجو أنها السادة أن يكون بينكم رجل عامر القلب بالمسيحية فيقدم ليقطع عنقي ويريني من
هذا . فكان جواب الانسانية المسيحية البيضاء على هذا التوسل رنين تحركات السحرة والاستهزاء من
الجنس اللطيف والجنس الخشن سوا

نم . لاخوف على الاسلام من طغيان المسيحية التي دعائها المبشرون . انما الذي بهم جماعة الشبان
المسلمين أن يفتقوا عليه هو أن الدين أصبح وسيلة في أيدي المبشرين يسترون تحت ثوبه مفسدة عمرانية
اعتقادية تنتقل مع الأجيال وحسب القراء أن يطلعوا على تصريح رئيس وزراء فرنسا في سنة ١٩٠٠ المسيو
وليك روسو عن هذه الطائفة في خطبة علنية أمام مجلس النواب حينذاك حيث قال : ان اختلاف التربية
والتعليم باختلاف المدارس بين أهلية ودينية أحدث في النساء الفرنسيين فرقتين مفترقتين قلبا وقلبا ومبدأ وغاية
ففرقتي يجب فرنسا ويخلص للجمهورية ويعاهد نفسه على الصدق في خدمتها وتأييد ذلك النظام الذي
اختاره الشعب وفرقتي تربي في حجر جماعة اتخذوا لباس الدين ردا مرييا ورواه خداع ربون الأبناء على كراهة
الجمهورية ويبتون في نفوسهم مبادئ تناقض مبادئنا الخ

واكتفى بهذا البيان على أن يترك التعليم حرا ولكنه أفضل أبواب الوظائف الحكومية في وجوده خير يحمي مدارس تلك الجماعات ثم ظهر بعده من لم يكف بذلك بل قضى باقتال مدارس الرهينات صيانة للأمة مما يهدد حكمها الثوري ونظامها الدستوري الذي أراقت في سبيله السماء الغزيرة حتى ظهر من انتصر للرهنات . ولا يهمننا نحن وجهة نظر كل فريق منهم إنما نورد هنا خلاصته . فبينهم كاتب من كتاب الفريق الثاني وهو المسيو « دريمون » في جريدة « الليبر بارول » في سنة ١٩٠٢ حيث قال : في ألمانيا التي لا يحكمها أصحاب البدع والحق . يتصرف ولاة أمورهما مع الرهنات بغير ما تصرفنا به ويعاملون معاقيض ما عملنا . فان جيراننا الالمان لماعلموا علم اليقين أن المبعوثين أقوى العوامل السياسية والتجارية تأثيرا وأجداها أترا أمموهم بعنايتهم وأظلوهم بحمايتهم . الى أن قال : فلم يمدد للانجليز سبيل فتح مسر الا المبعوثون الانجليكان . فاذا كان باقيا هناك من لم يزل يتكلم باللغة الفرنسية فأنما الفضل في ذلك يرجع الى مبعوثينا القدير أسانذة المدارس المسيحية الذين حافظوا على اجتذاب بعض القلوب الى فرنسا . نعم ليست العبرة بكلام هذا ولا بكلام ذاك من حيث وجهة نظر كل منهما إنما العبرة بمدلول كلامهما حيث كشف لنا كل منهما سوءة من سوءات المبشرين ونهبنا الى جانب من جوانب الخطر الذي يهدد الجنس الشرقي والاسلامي الملقى زمامه الى هذه الطائفة على ظن أنها تقوده الى مراقي العلم والفلاح . فليتنق المسلمون الله في أبنائهم وخلفائهم من بعدهم ليتدبروا في كلام الرجلين حيث يظهر بوضوح جنابة المبعوثين الدينيين ومدارسهم على النفس . وليس لهم علينا حجة بعد إيراد شهادة شهود من أهل المبشرين عليهم والظاهر أن الفتنة الأخيرة المدافعة عن الرهنات قد انتصرت فهاهي فرنسا اليوم تشهر في وجه الاسلام سيوف الاعتداء على العقائد بتعطيلها الشعائر الاسلامية في بلاد المغرب واقفالها محلات عبادة المسلمين في نفس الوقت الذي تنشر المدارس التي تلبسها ثوب التعليم ونشر الثقافة وتستر تحت هذا الثوب نفس الفكرة التي أجرى الله بها لسان الميسودريمون فظهرت الحقيقة

أما الدين الاسلامي نفسه ففرنسا (وغيرها) تعلم علم اليقين أنه طود شامخ ثابت بمبادئه الانسانية . سام بتعالجه الروحية . فان جيوش المبشرين الذين تملأ بهم الدنيا لن تقوى على زخخته عن موضعه قيد شعرة ولكن حب الاستعمار هو الذي يدفعها الى ركوب هذا المركب الخشن لأنها ترى في تعاليم الدين الاسلامي عقبة في سبيل الاستعمار ولكن لتفهم فرنسا أن نيتها مفضوحة وأن المسلمين اليوم غيرهم بالأمس . انتهى

فلما سمع صاحب ذلك . قال : لقد شرحت صدرى . فقلت الحمد لله رب العالمين . والى هنا تم الكلام على سورة غافر وذلك صباح يوم الخميس ١٦ أكتوبر سنة ١٩٣٠



تفسير سورة فصلت

(هي مكية)

(آياتها ٥٤ - نزلت بعد غافر)

﴿ هذه السورة خمسة أقسام ﴾

﴿ القسم الأول ﴾ في تفسير البسملة

﴿ القسم الثاني ﴾ في التوحيد وذكر بدء الخلق من أول السورة الى قوله - ذلك تقدير العزيز العليم -

﴿ القسم الثالث ﴾ في ذكر إهلاك بعض الأمم التي كفرت كعاد ونمود الذين هم أقرب الى المرسل اليهم ديارا ولفسة وعوائد وتاريخا من قوله تعالى - فان عرضوا فقد أنذرتكم - الى قوله - فأخذتهم صاعقة العذاب الهون * بما كانوا يكسبون * ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون -

﴿ القسم الرابع ﴾ في ذكر الحشر وشهادة الجلود والحواس واختصاص الناس مع أعضائهم والقرناء واضلاهم وانهم يتتابعون في العذاب كما تتابعوا في الاقتداء وتناسى عقولهم ثم اذا ظهرت الحقيقة تنابدوا وتناكروا وتعادوا واتباع ذلك بالتواد والتحاب بين العوالم الطاهرة من الملائكة وعوالم الانس ، وكيف يبشر الأولون الآخريين قائلين لهم وقت الحياة وعند الموت « لا تخافوا مما ترون عليه ، ولا تخزنوا على ما خلقتم من الأبناء والأهل والأمم ، فستردون الجنة . وتناولون أعلى المقامات ، في ضيافة الله واكرامه ، ثم وصية المؤمن أن يكون هينا لينا ، رحما ودردا عفوا ، يتألف أصحابه ولا يتبرم بهم ليصبحوا أحببه ، وذلك لا يكون إلا بالصبر والاحتمال وحسن الخلق والتواضع والتألف ، وأن يستعذ بالله من قرناء السوء من شياطين الانس وشياطين الجن اذا وسوسوا له ويزغوا بينه وبين أصحابه وفتحوا له باب الشر والنزاع والشجار ، وذلك من قوله تعالى - ويوم يحشر أعداء الله الى النار - الى قوله - فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم -

﴿ القسم الخامس ﴾ من قوله تعالى - ومن آياته الليل والنهار - الى آخر السورة ، فذكر الشمس والقمر وبهجتهما ومنافعهما ، وأن ذلك لا يفتنى أن يوقف الهمم عندهما عبادة وسجودا لأن الانسان لم يخلق في هذه الدنيا إلا للرقى ولالرقى اذا وقف عقله عند مصنوع أرضي كالأصنام أو مصنوع إلهي كالشمس والقمر ، فاذا وقف العقل عند أحدهما سواء أكان صنما أم جوما مضيئا باهرا كان ذلك المعبود حاجزا بينه وبين ارتقاء عقله ، وكيف يبحث عن الأجرام السماوية البديعة التي شمسا بالنسبة لها صغيرة جدا ، كيف يبحث عنها اذا كان يرى أن الشمس أكبر وأعظم الأشياء لأنها معبودة والمعبود يفوق كل ماسواه ، فاذا تكون الشمس أعظم موجود ، فاذا عن لعالم فلكي أن هناك شمسا أكبر منها صدق الدين عن ذلك الاعتقاد ، فما بالك اذا رأى أن هناك (١٠) آلاف مليون من الشمس أصبحت شمسا بالنسبة لها كبرقالة بالنسبة لبطيخة بل قلعة فضلا عن شمس لانزال محجوبة عن الأنظار ، هذا هو مقصود الديانات ومقصود القرآن ومقصود العلوم ، إن الله قد أرسل ابراهيم الخليل فذكر صرح عبادة الشمس والقمر والكواكب ، وتم هذا نبينا ﷺ فانطلقت العقول بعد أن كانت محصورة أيام الصابئين في عبادة كواكب معلومة ، وحجرت العقول ومنعت من الاطلاع على عوالم لانهاية لها ، ثم أتبع ذلك بما يفيد : « انكم يا أهل الأرض لستم شيئا مذكورا بالنسبة

لعوالمنا الأخرى الروحية ، فإذا أبيتهم بأهل الأرض أن تعبدوا ربكم ليقس لكم المجال فيرقي عقولكم لتخرجوا من العالم المادى ، فاعلموا أن هذه السموات والشموس والأقمار والنوابع ليست خالية من السكان ، إن هناك عوالم وهى الملائكة والملائكة صفوف وكلهم يعبدونى ، فإذا لم تبلغ مراتبكم هؤلاء فأتتم وشأنكم . فكم هناك من عوالم تسبح ربها عاكفة على السجود له والقيام بأمره ولا يسأمون بل عبادتهم بشوق وتوق وحب لاقترب نفوسهم من ذلك الجلال الأبهى كما ان الشموس والأرضين دارت طائفة بنوع الجاذبية ، وإذا ظنتم أن أرضكم الحقيرة الصغيرة قليلة الشأن هى التى حظيت بالعقول والعلم وأن العالم كله محروم منها فكبروا أربعا على عقولكم وادفنوها فى الترى ، وكيف تظنون ذلك وأتم ترون أن البحار التى زاد عمقها عن مائتى قامة وضوء الشمس محبوب عنها قد خلقنا فيها عوالم من سمك وسرطان وأعطيناها كل ما تحتاج اليه ، وأضأنا لها ضوء تصرفه على مقدار حاجتها ونطفه متى شئت ، وتوقده متى شئت ، ونطارده متى شئت بهدايته ، وتتخلص من عدوها متى شئت ، فتظهر نورها الوهاج أمام عينيه كي تبهره ثم تختفي وهى أمامه ، فإذا فعلت ذلك فى قرار بحاركم الذى يصل الى مايقرب من مائتى قامة ولا أذره يكون بلا حياة فهل أذرت الشموس العظيمة التى شمسمك بالنسبة لها لا تعد شيئا مذكورا فضلا عن أرضكم المحقورة الضعيفة التى خلقتكم فيها زمانا ثم لأنقلكم الى عوالم أخرى تستأهلونها بما فطرم عليه فى هذه الأرض من الأخلاق والأعمال أسمى بعضها بالجنان وبعضها بالنيران . كلا . فأنا لم أدع عالما حقيرا كأرضكم ولا عالما عظيما كالشموس العظيمة وتوابعها إلا أسكنت فيه عالما يليق به ، وكلما كان للسكون أرقى كان الساكن فيه أعلم وأعظم وأقرب الى ربه كما تقرب حاسة العين والسمع من العقل ، وتبعد عنه حاسة اللمس بعض البعد ، إن العين والسمع يعرفان القريب والبعيد ، واللمس لا يفتقه إلا القريب ، فأتم يا أهل الأرض أشبه بحاسة اللمس لأن علومكم مادية والعوالم الأخرى يقرب سكانها من ربهم لبعده نظروهم وكبر عقولهم وتشبههم بربهم ، وهذا ما يأتى من قوله تعالى - يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون - . ثم ذكر أن الأرض اذا نزل عليها الماء اهتزت وزادت ومزخرفت بالنبات هكذا تحيا النفوس بالبعث كما تحيا الأرض بانزال المطر عليها . ثم ذكر أن هذا القرآن محفوظ لا يتطرق اليه الخلل تذكرة للأمم الأرضية الضعيفة لأنه نزل بحكمة وهى نعمة على الناس يستحق مسديها حمدهم له ، وأن الأمم المدعوة لهذا القرآن تقابله بما قابلته به الأمم السابقة أنبياءها لأن أهل الأرض منغمسون فى المادة ضعاف العقول غالبا أظنهم الشهوات عن الحكمة لاقترابهم من عالم الحيوان والنبات ، فهذه جيلة فيهم والله سبحانه سيجازى المسئى والمحسن منهم بما هو أهله من عقاب وثواب ، ثم إن هذا القرآن لو نزل بلفظ غير العربية كما يقترح بعضهم لكان ذلك بدعا فيقال نبيّ عربى وقرآنه أعجمى فتقوم حججهم عليه ويقولون فى آذاننا وقرى كلا . بل الأمر واضح نبيّ عربى وقرآن عربى تسمعه أمة عربية وتنقله الى الأمم ثم تضيع لغتها وينشردينها وتقوم دول بها ، ولا يصح ذلك إلا اذا كان بلفظ العرب ، ثم أبان أن أمر الساعة كأمر خروج الثمرات من أكمامها وكأمر وضع الحوامل ، فهذه الأجسام الأرضية الانسانية تحمل أرواحا تربي فى الأرض بالخير والشر وتمتحن بالنعم والنقم والبلايا والرزايا وترسل لها الأنبياء ويخلق فيها العلماء فتفتح الأجسام عن أرواحها بالموت كما تفتح الأكمام عن الزهر والكفرا عن الطلع والحامل عن الطفل . فالأجسام بالموت تمحض كتمحض الحوامل وتبرز تلك الأرواح ظاهرة واضحة على حسب ما جبلت عليه كما يخرج الطفل حاملا ماورثه من أبويه وذويه ودولته وأمه فى الدنيا فيعيش على ما كان عليه فى الرحم من تلك الموارث ويتلقى كمال علومه فى الحياة ، فإذا مات فقد تمحض جسمه عن روحه وأصبح فى عالم جديد يحمل صفات وآراء وأخلاق حتى اذا بعث برز هناك أمام الله والعالم بأخلاقه نفسه كما برز الطفل فى الحياة بما هو من جبلته . ثم قال وهذه الامور ليست بالطبع بل لا تعمل أتى ولا تضع إلا بعلمه هكذا لا يعمل عامل عملا ولا يحشر الى جنة أو نار إلا بعلمه

لأن هذا نظام له قانون لا يتعداه . ثم أخذ يذكر أخلاق أكثر النوع الانساني فوصفه بأنه لا يجب إلا الامور المادية ، فاذا قص منها شيء يئس مع انه خلق ليهدب ويربي ، واذا أتم عليه نعم كثيرة وغمرها اغتر وطق أن ذلك أمر دائم وأن النعم الروحية والأخروية تابعة للنعم المادية الجسمية ، ثم بشر الله النوع الانساني لاسيا العالم الاسلامي قائلا : « أيها الناس : إني سأفتح لكم أبواب العلوم والمعارف والحكم ، وأبين لكم الحقائق ناصحة واضحة ، وأولا أفتح للمسلمين البلاد شرقا وغربا وهذه دلالة صادقة على النبوة المحمدية ، كيف لا وأن النبوة تستلزم إيجاد الأمم وترتيبها ، فدين يجمع أمة وتعيش أمدا طويلا وهو ثلاثة عشر قرنا ويضم من الشرق والغرب آلاف الآلاف ، إن ذلك لدليل على أنه من عند الله لاسيا اذا كان الذي نزل عليه ذلك الدين آتيا لا يقرأ ولا يكتب وهو في أرض حقة لاصلة بينها وبين العلم . وثانيا ان هذا القرآن قد فتح للناس باب قراءة العلوم والمعارف فانتشرت الفكرة في العالم كله وجاءت المحروب الصليبية فانتعشت أوروبا وظهرت الجهاب السكونية وظهر علم الأرواح وعلوم النفس وهذه معجزة للقرآن . فهنا معجزتان : معجزة فتح البلاد على أيدي المسلمين . ومعجزة ظهور العلوم في أوروبا التي أدهشت العقول وحيرت الأفكار . وقد ذكرنا كثيرا منها في هذا التفسير . فهذه العلوم هي تقصها آيات الله تعالى أظهرها الله كما أخبر القرآن . والعلوم المذكورة قسما قسم في العلوم الطبيعية والفلكية وهي علوم الآفاق . وقسم في علم الأرواح وعلم النفس وهو علم الأنفس . وذلك كله معجزة للقرآن . والا فكيف يقول - سريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق - وأوليس ذلك لنا نحن المسلمين الآن !

يقول الله - حتى يتبين لهم أنه الحق - . فليسمع المسلمون في أقطار الأرض كلام ربهم . هذا أوامه . يقول لكم : سأريك آياتي في أنفسكم وفي الآفاق . أيها المسلمون : هذه الآيات قد ظهرت وبهرت . ظهرت شمس وبهرت العقول . ظهرت علوم الكيمياء . ظهرت عوامل بدبعة غابت عن عقول الأمم الماضية . ظهر ذلك كله . ظهرت أسرار النفوس وعلوم الأرواح . كملت الأرواح الأحياء . كلوهم بما جاء به القرآن . قالوا لهم « اننا نغذب وننعم » . قالوا لهم : « اننا نألم لكل ذنب اقترفناه » . قالوا لهم : « ان العلم والأخلاق الحميدة هما المسعدان لنا بعد الموت » . قالوا لهم ملخص ما جاء في القرآن

أيها المسلمون : هذا هو دينكم بأمركم أن تدرسوا كل علم وتقرأوا كل فنّ ويقول لكم الله إني عبادي قد فتحت لكم أبواب الجنات في هذه الدنيا . فتحتها على مصارعها . انظروا تأملوا ما فيها من جلال . وأين هي الجنان ؟ هي العلوم التي أبرزها الله في الأرض . إن الجنان نتائج العلوم والأخلاق . واليران نتائج الجهل والذنوب . يقول الله - سريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم - . ولقد أرانا الله ذلك . كان آباؤنا أشرف خلق الله فملكوا الأمم لاسعادها . ولما سكنت ربحهم وغابت شمسهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فلقوا غيا فأذلتهم الأمم . وهذه أيضا من آيات الله التي أراها الله لنا . أرانا آيات في آياتنا إذ أخضعوا الأمم . وأرانا آياته في أنفسنا في مصر والشام وسوريا والحجاز وفلسطين والعراق وبلاد المغرب وفي بلاد روسيا والهند وسائر أقطار الاسلام وفيما وراء البحار . خضعت أكثر هذه الأمم للفرنجية . أذاقها الله النكال . هذه من آيات الله تعالى لأنه هكذا أوعد الله الذين لا يفكرون . أظهر الله علوم الكائنات من شمس وأقمار وكواكب صغار ومعادن وحيوان ونبات وجمال أرضي ومعجائب حكمية وعلوم أرواح . كل هذا من آيات الله في الأنفس والآفاق ثم أيد ذلك بأن الله شهيد على كل شيء فهو يحقق هذه الامور كما وعدناه عالم بالأشياء كلها وقد تم ذلك كله في هذا الزمان وسيزيد في الأزمان المستقبلية

إني لأدهش أيها المسلمون حين أرى هذا كلام ربنا وأرى انه ديننا وأقول في نفسي كيف يكون هذا دين أمة الاسلام والناس كلهم يرفون العلم أما هم ظنهم تأمبون

عجبا لأمة أصبحت أشبه بملك أصم - أعمى تقام له المحافل وهو غافل وتضرب له المدافع وهونائم وتنصب له الحفلات وهو في سبات أو كeros أقيم له الاحتفال ونشرت الزينات وأنشدت القصائد وهونائه غافل لا يبى ما يقال ولا يدري

يا قوم : يقول ربنا - سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم - ويقول انه شهيد على كل شئ محقق للوعد والمسامون لا يعلمون هذه الزخارف والزينات القائمة في الأرض والمجائب البارزة زفها الله اليكم ، استخرج الله منافع البر والبحر وكلم الأموات الأحياء . كل هذا أخبر به نبيكم ﷺ فكيف تقام هذه الزينات وتنصب لكم الحفلات وأتم في غفلات . نعم إن المسلمين اليوم أشبه بملك العباسيين في آخر أيامهم أو ببعض المماليك في الدولة المصرية إذ تقام لهم الحفلات باسمهم وتنصب لهم الزينات وهم مسجونون هذا ماجاش في نفسى عند تقسيم هذه السورة وهو كخصر لتفسيرها فلا بدأ في تفسير هذه الأقسام فأقول مستعينا بالله

﴿ القسم الأول في تفسير البسملة ﴾

هذه قد أخرجتها الى اللطائف وهى أول لطيفة من ست ، وذلك لأن فهم الرجة هناك من حيث شبهوها لما في السورة من المجائب يحتاج فيه الى معرفة ظواهر تفسيرها ولذلك أخرجتها

﴿ القسم الثاني من السورة ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم • تنزيل من الرحمن الرحيم • كتاب فضلت آياته قرءانا عرييا لقوم يعلمون •
 بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون • وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا
 إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون • قل إنما أنا بشر
 مثلكم يوحى إلى أنما ألهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين •
 الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون • إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات
 لهم أجر غير ممنون • قل أنبئكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ويجمعون
 له أنذادا ذلك رب العالمين • وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها
 في أربعة أيام سواء للسائلين • ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا
 طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين • فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سما
 أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم •

﴿ التفسير اللفظي ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(حم) هما حرفان وهما الحاء والميم وقد علمت أنهما في سورة غافر تشيران للحمد الذي اكتشفهما والنتيجة أنهما ترشدان الى اقتناص سائر العلوم ، وهذا ملخص مامضى في هذا التفسير ، انما لكل سورة منزلة والمزية التي في هذه السورة غير التي مضت ، فانظر الى ماسألتيه عليك ، انظر كيف يذكر الله الحاء والميم المذكورين في قوله تعالى - تنزيل من الرحمن الرحيم - فالحاء والميم في كل من الاسمين ، وكيف يقول - نزلا من غفور رحيم - ، وكيف يقول - تنزيل من حكيم حميد - فالحاء والميم في الحمد والحكمة والرحمة المذكورات في هذه السورة ، ولاجوم أن الحمد أعم هذه المعاني لأنه لا يكون إلا على نعم ولانعم بحمد عليها إلا اذا عرفت ، ومتى عرف الانسان أن الله رحيم ورحمته شملت العوالم العلوية والسفلية رحمة مصحوبة بالحكمة لا كرحمة الأمهات بل هي كرحمة الآباء مصحوبة بشدة للتوازن والحفاظة عليها . متى عرف ذلك حمد الله فإذن يرجع الأمر الى التنبيه على العلم لاسيما أن الحاء والميم في الحمد قد جا آ في أول الكلمة متتالين فأما في الحكمة والرحمة فليسا كذلك فرجعت هذه السورة كالتي قبلها مع تفصيل في هذه . ألا ترى كيف ذكر بده الخلق وانه نظم السموات والأرض وأودع فيها الأقوات والأرزاق وأعطى كل شئ خلقه وانه أمر الأرض والكواكب بالاتبان اليه فأنت له طائفة بطريق الجاذبية لا بطريق القسر والقهر وهذا السوران مبنى على الحكمة والنظام الجيب . وكيف زين السقف الذي فوقنا بمصايح مضبوطة مشرقة بهجة سر الناظرين فبينما الانسان ينظر في حقله فيرى أزهارا وأتوارا وجمالا وبهجة وماء لطيفا شفافا تظهر فيه الوجوه والطيور تحوم حوله ويرى أنعاما وأشجارا وأنواعا شتى من الفخار في الأرض اذا هو ينظر فوقه فيرى سقفا مرفوعا مزينا بالسور الجلية والقناديل المعلقة والرسوم البارزة والوجوه الباسمة والأوضاع المشوقة والبهجات الشارحة للسور المنصنة للقلوب المزينة الغيوم المذكورة بالأحباب المبعدة للنصب المزينة للغيوب المناجاة لتدوى العقول الشريفة الملهمة لهم الجمال السارة المفكرين المذكورة برب العالمين المصفرة لحياتنا الحيوانية العظيمة للحياة الملكية الخاصة بالكبراء المنوعة عن الجهلاء المحجوبة عن ذوى الكبرياء تبرقت عن الأغيار وظهرت للأخيار وازينت وابتهجت وأبهجت . ذلك من الرحمة التي ذكرها في قوله - الرحمن الرحيم -

ثم انظر الى الحكمة التي بينها في السورة . الاتراء بين أن قرناء السوء يوسوسون الى أمثالهم وقد زين لهم وسوستهم كما زين السماء لأصحاب العقول الكبيرة . ثم تراه يجعل الملائكة ملهمين للنفوس الشريفة في الأرض كما يبشرونهم عند الموت وعند البعث ويسلمون عليهم . أليس ذلك للحكمة . فبده الخلق رحمة . ووسوسة النفوس الشيطانية الى النفوس الشهوية وإلهام النفوس المسكية الى النفوس الفاضلة في الأرض من آثار الحكمة . ذلك أن الحكمة تقتضى أن يقرن الشبيه بما يشبهه . فالشياطين توحى الى أمثالها من الناس والملائكة تلهم من يقرب لها في الخصال ليلحقوا بهم بعد موتهم . ثم أفاد أن الملائكة يعرفون ربهم أكثر من أهل الأرض فكأنهم شمس تتبعها أرضون ، فإذا رأينا شمسا قد تبعها السيارات والأرض وقوايعها ونحوها هكذا تلك الأرواح الكبيرة تتبعها أرواح صغيرة في أرضنا وغيرها فكأنها تدور حولها كما تدور أرضنا حول شمسنا ، وكما أن أرضنا تستمد من الشمس النور هكذا الأرواح الصغيرة في علنا تستمد العلم من أرواح فوقها أعلى منها بالالهام أو الالتقاء في الروع وهذا هو المقصود من قوله - فالذين عند ربك

يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون - وانهم ينزكون على أهل الأرض يقولون لهم لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا . كل ذلك من الحكمة . ومن الرحمة أن الأرض تخرج النبات فينتفع به أهل الأرض . ومن الحكمة أن ينزل القرآن باللغة العربية لمناسبة المرسل اليهم الذين هم أقرب اليه . ومن الحكمة مناسبة خروج النورات من الأكام ووضع الاناث لقيام الساعة فكلاهما نتائج وثمرات لمقدمات

وبعد أن ذكر آثار الرحمة وآثار الحكمة وان كان كل منهما مصاحبا للآخر ختم السورة بما يوجب الحمد وهو انه يرينا آياته في الأنفس والآفاق . واذا ارانا آياته فمعناه انه يظهر العلوم والأسرار كما ظهر لك منه كثير في تفسير هذه السورة وغيرها وبالعلم وانكشاف الحقائق يكون الحمد فوجه الأمر كله الى معنى (حم) فقوله حم إشارة الى الحمد والحمد لا يكون إلا بمعرفة النعمة والنعمة المذكورة في السورة منها ما غلبت فيها الرحمة وهي بدء الخلق وانبات النبات . ومنها ما ظهرت فيه الحكمة وهي وسوسة الشياطين لأمثالها والهام الملائكة لتلاميذها واتباعها ونظام الأمر كله انه يرينا الآيات وهذا سبب في الحمد . حقا ان هذه السورة روضات الجنات إن من يقرأ هذه السورة يرى ألقاظها متشابهة ومعانيها متشابهة وكأنه لا يرى شيئا جديدا فلذا أمعن النظر افتتحت له خزائن العلم والحكمة كما يحصل عند ما يسمع الانسان قوما يتكلمون بلغة لا يفقهها فانه يرى أن الألفاظ متشابهة ولا يفهمها إلا ببحثها وكما يشاهد جيشا عرمرما من بعيد فانه يراه شيئا واحدا لا اختلاف فيه وكلما اقترب ظهر له تفصيله . وكما يرى الشمس والقمر وهو على الأرض فانه يرى جسمين صغيرين فاذا ارتقى بالعلم في الدنيا أو بعروج روحه الى السماء وكان من أهل ذلك هاله عظمتها . هكذا هذا القرآن نرى اننا كلما توغلنا فيه ظهرت لنا علوم جديدة تعزز في ثنابها

هذا ما سبقنا في معنى حم فالحمد والميم يعبران عن الحمد والحمد يستلزم العلم . والمسلمون اليوم مخاطبون وهم الآن أقرب الى العلوم من كل زمان لأن الله أرأهم الآيات في أسلافهم وفيهم وفي الآفاق من العلوم والمعارف . فاذا قصر مسلم بعد ما يبيانه فان الله عز وجل يخفف به وبأمثاله الأرض وذلك بالنفلة والحوان مم الاقراض وهذا أمر لا شك فيه وأصبحت موقنا به كل الايقان . وقوله (تنزيل من الرحمن الرحيم) أي هذا تنزيل من عمت رحمة عظيمة الامور ودقيقتها في أكثاف السموات وآفاق الأرضين . وقوله (كتاب) خبر بعد خبر مم وصفه بأنه فصلت آياته في معان مختلفة من عجائب خلق وابداع صنع واحكام نظم وازال غيب وازال وحى أولهام واضاءة سقق مرفوع وتبيان الحقائق واخبار بمستقبل العلوم ووعظ واحكام وأمثال ووهده ووعيد وبهجة للناظرين وهذا قوله (فصلت آياته) أمدح (قرآنا) موصوفا بوصفين : الأول كونه عربيا . الثاني كونه (لقوم يعلمون) ووصفه بأنه عربي من الاشارات المحيية فان اللغة العربية اليوم لا يتخلو محفل من محافل العالم شرقا وغربا من ذكرها والترجم بمحاسنها والقيام بشأنها ومعرفة تاريخها وتاريخ دينها والبحث والتنقيب عن أسرارها وآثار أهلها كما تقدم في ﴿سورة سبأ﴾ وأنت ترى المستشرقين في العالم الغربي مولعون بهذه اللغة ولولا القرآن لم يكن لها هذا الشأن . لقد اشتهرت الأمة العربية وما شهرتها إلا بالقرآن . لقد اشتهرت الأمة العربية وأصبحت لها صيت عظيم ومجد كبير مع اننا اليوم تحت قهر الأمم ولكن القرآن العربي جلال لنا وزينة . يدعوننا الى الرقى والسلام . أليس من العجب أن يخبرني أكبر طابع للكتب في مصر وهو الذي تعهد بطبع هذا الكتاب أن تفسير الطبري لما طبعه لم يقدم على الاكتتاب فيه من مصر المسلمة إلا ثمانية عشر رجلا ، ولكن ألمانيا النصرانية قد اشترك منها ثلاثون فيه ، ومن عجب أن أول مطبع المصحف في العالم طبع في ألمانيا وهذا سرّ قوله تعالى - عربيا - مشيرا الى صيت العرب وذكرهم بهذا القرآن حتى طبعوا كتبهم ودينهم في مطابعهم !

فيا ليت شعري اذا كان هذا شأن اللغة العربية عندهم وهم مسيحيون فما بالك لو كانوا مسلمين ! هنا

كله سرّ قوله تعالى - قرآنا عربيا لقوم يعلمون -

إن أوروبا اليوم فيها غول العلماء ، ولقد شاهدناهم وكاتبناهم فوجدناهم يدرسون اللغة العربية دراسة تامة ويعرفون أسرارها أكثر من كثير من المسلمين ، ذلك كله أشار له القرآن بقوله - عربيا - والافعالوم أن القرآن عربي

﴿ حكاية ﴾

كان أحد الملوكة الاسلاميين وهو في سفره له سمير يحادثه ويطبق عليه الملح والنوادر والفكاهات وكان لا يتكلم معه إلا بحكمة ، فيينا هما سائران إذ لمحا بناء . فقال له ماهذا البناء ؟ فقال هذا بيت عاتكة الذي قال فيه الشاعر :

يا بيت عاتكة الذي أتفزل * حذر العدا وبه الفؤاد موكل

ولما كان من عادة الخليفة أن لا يسمع من هذا السمير إلا ماله حكمة قال في نفسه . يا عجبا : لم قال هذا البيت ؟ إن الجواب يكفي فيه أن يقال بيت عاتكة فلم ذكر السبب فسأل خواصه وندماءه هل هناك شيء يلاحظ بالنسبة لهذا السمير ؟ فقالوا نعم انك وعدته وعدا فلم تنجزه فظنن الى أنه يشير الى قول الشاعر :

ولأنت تفرى ما تقول وبعضهم * ملق اللسان يقول ما لا يفعل

فأعطاه كل ما كان وعده به وأجازه لحسن أدبه

فما يشير له لفظ - عربيا - أن القرآن سيصير شرفا للعرب ولوفى أيام محنتهم . إن أبناء العرب اليوم أصبحوا أضعف من آباؤهم في الجاهلية من حيث السياسة ولكن شرف القرآن ألقى عليهم شعاعا وبارقة أمل نسعها أيام هذا التفسير وسيكون لهم مجد لأنهم الآن أخذوا ينفذون غبار الكسل والذل عنهم وهم مجتدون وفي آية أخرى - وانه لذكر لك وقومك وسوف تسألون -

يشير الله الى أن القرآن شرف للعرب وللتبى ﷺ والى أننا مسؤولون عنه لأننا أرباب اللغة . إن ذلك توييح لنا في العصر الحاضر . يقول الله اذا كنتم أتم أبناء العرب فكيف تهربون من محكمكم ؟ كيف يقوم أبناء الألمان المستشرقين الذين لا يبلغون ثلثائة فيقرءون تفسيره الكبير وهو تفسير الطبري المذكور . وأتم يا أبناء العرب تعرضون عنه . يقول الله القرآن عربي فأتم يا أبناء مصر والشام والعراق والحجاز عرب فعليكم نشره . واذا كان أبناء أوروبا الذين هم ليسوا مسلمين يطبعونه وينشرونه أفلستم أولى به ؟

وقد أخبرني السيد مصطفى الباني الحلبي الذي طبع ذلك الكتاب . قائلا : طبعت التفسير المذكور فلما أرسلته الى ألمانيا لم يجههم الفهرست فوضعوا له هم فهرستا آخر من عندهم . وأخبرني أخبارا كثيرة من هذا القبيل

لقد اطلعت على عجائب في أيام حياتي . ذلك أتى وجدت كثيرا من عظماء أمتي يحقرون الدين والعرب وكل شيء منسوب لآبائهم . لماذا ؟ لأنهم ظنوا جهالة أن الدين واللغة والاتساب للعرب هو الذي جعل الفرنجة يدخلون بلادنا . وظن بعضهم انهم باحتقارهم عاداتهم وتقاليدهم وانهم يندمجون في الأجانب الذين دخلوا بلادهم يرتقون ولكن تغيرت الأيام وظهر في الشرق وفي مصر رجال غيروا الرأي وأخذت العقول تنشط ولكن الى الآن لم تصل الى درجة الارتقاء التي يفيدها قوله تعالى - قرآنا عربيا - فان صبغتنا العربية الآن محجوبة وهي تظهر قليلا قليلا وسيكون لها الشأن الأكبر قريبا كما قلت مرارا في هذا التفسير . إن التعبير بلفظ - قرآنا عربيا - يفيد بقاء اللغة العربية أجيالا وأجيالا لأن القرآن حافظ لشكل اللغة ملازم جميع الأمم العربية وغير العربية المختصة بدراسة الأمم العربية أن تقرأ النحو والصرف وما أشبههما وذلك الشكل يبقى مابقي القرآن

والقرآن باق الى آخر الزمان وهذا الموضوع مذكور في أول سورة آل عمران وهناك ملخص رواية منقولة عن أحد الألمان ملخصها أن اللغة العربية هي التي تبقى بارزة الى آخر الزمان وهي التي تحفظ العلوم لأن جميع اللغات بعد مئات السنين تتغير تغيرا كبيرا واللغة العربية تبقى لأن القرآن يحتم أن تبقى هذه اللغة على حالها بخلاف لغات العالم كلها فهي في تغير مستمر كما هو معلوم في علوم اللغات . وقوله (بشيرا ونذيرا) أي للعاملين به والمخالفين له (فأعرض أكثرهم) لأنه لم يتدبره (فهم لا يسمعون) سماع تأمل (وقالوا قلوبنا في أكنة) في أغشية جمع كنان (مما تدعوننا اليه وفي آذاننا وقر) الوقر أصله الثقل (ومن بيننا وبينك حجاب) يمنعنا من التواصل (فاعمل) على دينك (إنا عاملون) على ديننا (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى اليّ إنما إلهكم إله واحد) لست ملكا ولا جنيا لا يمكنكم التلقي عنه ولست أدعوكم بلغة غير لغتكم فإذا صدكم عن الفهم فتقولون قلوبنا في أغشية وآذاننا فيها قتل وتعرضون هذا الاعراض (فاستقيموا اليه) الى الله (واستغفروه) مما أتم عليه (دويل للمشركين) من فرط جهالتهم (الذين لا يؤتون الزكاة) ليخلهم وقلة رأفتهم على الخلق (وهم بالآخرة هم كافرون) لاستغرابهم في طلب الدنيا فلا علم لهم بالآخرة فيرعون عن الانهماك في المال فيعطونه للقراء ولاشفقة تدفعهم الى الاحسان اليهم ، ثم ذكر أصدادهم فقال (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون) أي غير ممنون به عليهم أو غير مقطوع

﴿ ذكر بدء الخلق ﴾

قال تعالى: (قل) يا محمد (أنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين) في نوبتين (وتحملون له أندادا) أي ولا يصح أن يكون له نذ (ذلك) الذي خلق الأرض في نوبتين : نوبة جعلها جامدة بعد أن كانت كرة غازية ومصرة جعلها (٢٦) طبقة في ستة أدوار ظاهرة في علوم طبقات الأرض ، مجموعها نوبة ونظام طبقاتها نوبة (رب العالمين) لا ربه وحدها فهو مربى كل عالم ، فلئن ربها في نوبتين فقد ربي غيرها في نوبتين أو أكثر (وجعل فيها رواسي) جبالا ثوابت (من فوقها) مرتفعة عليها لتكون أساسها في الأرض وهي الطبقة الصوانية التي تقدم الكلام عليها في علم طبقات الأرض في ﴿سورة هود﴾ وغيرها بمثابة حصن حصين فوق الكرة النارية التي هي عبارة عن الأرض كلها ، وهذه الطبقة التي هي أول ما تكون فوق الكرة النارية هي التي برزت منها الجبال ، فالجبال أساسها بعيدة الغور ضاربة في جميع الطبقات واصلة الى أول طبقة وهي الصوانية التي لولاها لم تكن الأرض أرضا ولم تستقر عليها ، فهذه الطبقة أشبه بنظام الأجسام الحيوانية تكون حافظة للساعات الداخلة من الطعام والشراب والدم والشحم وما أشبه ذلك ويسترها اللحم والظفر والشعر والعروق والشراير والأوردة والشحم وغيرها ، هكذا كرة النار التي هي عبارة عن أرضا غطيت بالطبقة الصوانية وفوقها طبقات ألطف منها تكوّنت فيها الحيوانات والنباتات على مدى الزمان كما يكون على أجسامنا وأجسام الحيوان الشعر والوبر والصوف ، فأما هذه الجبال فما هي إلا تتواتر تتأت من تلك الطبقة وارتفعت فوقها عشرات الآلاف من الكيلومترات ثم ارتفعت فوق الأرض وصارت مخازن للمياه وللعادن وهداية للطرق وحبسا للسحاب والهواء حتى تحفظه ولذلك عطف عليه قوله (وبارك فيها) أي وأكثر خيرها وذلك بالأبهار المستدنة من الجبال المذكورة الحافظة من حيث أصلها للأرض أن تتبدد الخازنة لمائها ومعادنها كالذهب والنحاس والحديد (وقر فيها أنواتها) أقوات أهلها . كل ذلك حصل في نوبتين فيكون خلق الأرض وجعل الرواسي فوقها واكثر خيرها وتقدير أقواتها من أنواع الحيوان والنبات كل ذلك (في أربعة أيام) فهذا كالفلك لما تقدم استوى (سواء) استواء (للسائلين) أي الذين يسألون الأقوات وهو كل حيوان على وجه الأرض قال تعالى - يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في

شأن - فالتناس والحيوان كلهم سائلون ربهم ما يحتاجونه من طعام وشراب ولباس ودواء وذلك السؤال طيبى فيهم مفروس في جبلتهم ، يسأل الحيوان كالتحفة والنحلة والشاة والذئب الرب كما يسأل الانسان سواء بسواء ، فالتحفة تطلب قوتها فتجده والنحلة والعنكبوت والحزير والكلب والشاة والذئب ، تطلب الشاة الطعام فتجد الكلاب ، ويطلب الذئب الطعام من ربه فيجد الشاة ، فقد أجاب الكل وكل يحبه ، وقد ألقى بينهم العداوة والبغضاء ليوم الارتقاء لآكل والمأكول ، فالغزاة تهرب من الذئب فتعطى قوة ونشاطا لولا الخوف ما كانا وذلك يقويها ويرقيها ، والذئب يجوع وقد حرم عليه أن يأكل الحشائش فهو مضطرب أن يأكل الغزاة وهو هو الخيف المزعج لها (وعبارة أخرى) هو المقتوى لعضلاتها لازعاجه إياها بصوته وحلته فيغير على القطيع العظيم فيأخذ منه غزاة واحدة أو شاة واحدة ، ذلك أجرا فله لأنه كأستاذ يعلمهم علم القوة وتربية العضلات والحذر ويقوى القوى الخيالية ، وينال مكافأة على ذلك شاة واحدة من قطع يبلغ المئات من الشياه وربما يأخذ الضعيف المزبل منها لضعفه عن الجرى أو تأخره وما تأخر إلا لضعفه ويربح الجؤ من التعفن بتلك الجثث التي تقع فيه من الحيوانات ، فهذا من معنى قوله تعالى هنا - سواء للسائلين -

ثم إن الانسان يهتم بحال ماحوله من الأرض فلذلك قدم ذكرها وبين انها هي وما عليها قد كوتنها في أربع نوبات : فنوبة لتجمد المادة الأرضية بعد أن كانت غازا ، ونوبة لتكميل بقية طبقاتها ويدخل فيها معادنها ، والمرنان الأخرى ان إحداهما للنبات ، والثانية لعموم الحيوان ، ولما فرغ من الكلام عليها أخذ سبحانه يذكر السماء على سبيل الترتيب الذي كرى أى ان الأرض أولا في الذكر (ثم استوى الى السماء) أى قصد نحوها يقال استوى الى مكان كذا اذا توجه اليه (وهى دنان) أى مادة غازية نارية أشبه بالدخان أو بالسحاب أو السديم وتسمى اليوم في العلم الحديث (عالم السديم) وقد شاهدوا من تلك العوالم اليوم ستين ألف عالم تبرز للوجود من جديد لاتزال على الحالة السديمية كما نقلته لك من الكتب الفرنجية في غير هذا المكان ، ورأوا أن من تلك العوالم ماهو في أول تكوونه ، ومنها ما قطع مراحل في تكوينه ، ومنها ما قرب النجوم وهى عوالم كعالمنا الشمسى الذى نحن فيه ، وسيبرز للوجود كبرزت شمسنا وسياراتها وأرضها وكانت في الأصل دخانا وستستمر في التكوين ومدتها نوبتان ، ونحن لا نقدر أن نعرف كيف تكون النوبتان غاية الأمر أن نقول نوبة للبداية ونوبة للنهاية ويكون هذا القول من اجل العمارة وفائدته أن التكوين لم يكن في لحظة واحدة لثلاث تطرق الى العقول انه كان كذلك في الأصل بل يريد انه جار على الحكمة والنظام وقد كوتن في غير نوبة وكفى هذا في كتاب مقدس كالقرآن يقول انه خلق الأرض في نوبتين وما عليها كذلك والسموات السبع كذلك . فهذه العوالم كلها التى شوهدت بالمناظير المعظمة ستبرز للوجود في نوبتين بثوبها القشيب كما برزت أرضنا وكوتن شمسنا في نوبتين إذ قصد الله اليها والى كل شمس من الشموس التى كشفت والتي لم تكشف وهى تعد بنحو خمسمائة مليون ، بل قدرها بعض الفلكيين في هذه السنة بما يبلغ أثنى مليون ويقولون هذا قطرة من بحر العوالم المجهولة ، فهذه كانت عالما دخانيا فدورها وكوتورها فدارت آلاف آلاف من السنين ، ثم خرجت منها الأرضون والسيارات كما خرجت أرضنا وسياراتنا من شمسنا أثناء دورانها ثم برزت الأرضى التى قدرت على الأقل بنحو ثمانمائة ألف ألف أرض أى ان تلك الأرضى الدائرة حول الشمس وحول أنفسها بردت قبل شمسها (فقال الله لها) أى تلك العوالم السماوية (وللأرض) أى جنس الأرض التى دارت حولها وهى مئات الملايين (اتقيا طوعا أو كرها) شئنا أم أبينا (قالتا) أى السموات والأرضون (أيننا طامعين) وهذا دلالة على الحركة المستمرة المعبر عن سببها بالجاذبية فهى حركة أشبه بحركة المشوق فهى تجرى جوى طاعة لاجرى قسر ، والدليل المشاهد على ذلك اننا نرمى الحجر الى أعلى قسرا فيأبى إلا أن ينزل الى الأرض بطريق الجاذبية ، فهو مجذوب الى الجسم الذى هو أكبر منه . هكذا

الأرض مجذوبة إلى الشمس التي هي أصلها وهي حركة دورية بالطول لا بالعرض لأن الحركة القسرية كرمي الحجر إلى أعلى وهي سريعة الزوال . أما حركة الطاعة فهي الدائمة مادام المطيع متخلقا بخلق الله الذي هو عليه (فتضاهن سبع سموات في يومين) أي نوبتين دلالة على النظام والسير بالحكمة كما تقدم في خلق الأرضين ومن هذا يفهم كيف قال - فقال لها وللأرض - الخ ، ذلك للدلالة على أن حركة الاثنين منهما مصطحبة فينما ترى الأرض دائرة حول نفسها وحول الشمس ترى الشمس دائرة حول نفسها وحول شمس أكبر آلاف الآلاف منها ، فهذا هو السبب في ذكرهما معا أي انه قال لهما معا وأجاباه معا وحقيقة الأمر كذلك لأن الأرض لما كانت من ضمن الشمس كانت دائرة من جولة أجزائها ، فالقول كان لهما معا وهو الآن لهما معا ، وانما تقدم الأرض في الذكر على السماء للسبب المتقدم أولا ولأنها تم تكويتها بعد البرودة . وأما أكثر الشمس فلا يزال هناك زمن طويل حتى تبرد وتصير أرضين (وأوحى في كل سماء أمرها) شأنها وما يتأتى جعلها عليه اختيارا . ثم ذكر ما هو أهم لنا فقال (وزينا السماء الدنيا بمصابيح) فان هذا العالم الذي نشاهده وهو أقرب إلينا الذي نراه مرصعا بالنجوم هو الذي نسميه السماء الدنيا ، ولو اننا ارتفعنا إلى بعض عوالمه لرأينا سماء أخرى بكواكب غير هذه وهكذا إلى آخرها ، فهو سبحانه يقول انه زين سماءنا الدنيا بهذه المصابيح الثلاثة المتوهجة ، ثم يقول (وحفظناها (و)حفظناها (حفظا) من الآفات ومن أن يدرك سرها من لا يتأهلون لمعرفة ذلك تقدير العزيز العليم) البالغ في القدرة والعلم . انتهى التفسير اللفظي للقسم الثاني من السورة

﴿ لطيفة في قوله تعالى - وقدر فيها أقواتها - ﴾

اعلم أن الله لما خلق الإنسان قدر أقواته متفرقة ، وأوحى كلاً إلى كل بحيث ترى من يسكن بلاد آسيا يحتاجون إلى أهل أفريقيا ، وأهل أفريقيا يحتاجون إلى أهل آسيا ، وهذه الترتيبية يراد بها التواصل طوعاً أو كرهاً ، فتجد القطن بمصر وأمريكا وكل الأمم في حاجة إليه . وترى النخل لا يكون إلا بالبلاد الحارة . وليس للبلاد الباردة فيه من نصيب . وترى النارجيل في الأقطار التي هي أشد حرارة . والبندق في البلاد الباردة . وهكذا جعل لكل قطر خاصية . وأوحى الأمم الأخرى كل منها إلى بقية الأمم . وكلما ارتقت الأمم ازدادت الحاجات . وهذا في الحقيقة داعية إلى التواصل والتحاب طوعاً أو كرهاً . فتارة يتاجر بعضهم مع بعض وآونة يتصلون بالسياحات . وطوراً بالكتب والمراسلات . ووقتها بالبعثات العلمية . وساعة بالحرب والقتال وهكذا كل ذلك دلالة عملية أن هذا الإنسان تقدير قوته يدغوه إلى التواصل والتحاب . وذلك يدعوه بيتنا إلى العلم فان تقدير الأقوات لما بحثناه وجدناه يدعو إلى البحث عنه . ولا بحث إلا بعلم . فأمة الإسلام أصبحت ملزمة بانساع العلوم في كل آية من كتاب الله والافكيف يقول - وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين - وقد تقدم بقية الكلام اه

﴿ القسم الثالث من السورة ﴾

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ • إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ • فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْحَدُونَ • فَأَرْسَلْنَا

عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَذِيرِهِمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ
الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ • وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ
فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً الْمَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ • وَبَجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ •

﴿ التفسير اللفظي ﴾

قال تعالى (فان أعرضوا) عن الإيمان بعد هذا البيان (فقل أنذرتكم صاعقة) عذابا شديدا يقع
كأنه صاعقة والصاعقة رعد معه نار (مثل صاعقة عاد وثمود) إذ جاءهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم
أي آتوهم من كل جانب وعملاوا فيهم كل حيلة فلم يروا منهم إلا الاعراض . أو أنذروهم وقائع الله فيمن قبلهم
من الأمم وعذاب الآخرة . وقوله (أن) هي تفسيرية بمعنى أي (لا تعبدوا إلا الله قالوا) أي القوم (لوشاء
ربنا لأنزل ملائكة) أي لوشاء ربنا إرسال رسل لأنزل ملائكة . وإذا كنتم أتم بشرا ولستم ملائكة (فانا
بما أرسلتم به كافرون) لأنكم لستم على ما شرطناه وهو أن يكون الرسول ملكا فرسانتكم لا تؤمن بها (فأما
عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق) أي فتعظموا فيها على أهلها بما لا يستحقون فولايتم عليها بلا استحقاق
(وقالوا من أشد منا قوة) اغترلوا بقوتهم وشوكتهم (أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة) قدرة
(وكانوا بآياتنا يجحدون) يعرفون أنها حق وينكرونها (فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا) باءة تهلك بشدة
بردها (في أيام نحسات) جمع نحسة أي نكدات مشؤمات (لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا) أي
عذاب الدال فيها والهوان في مقابلة استكبارهم في الأرض (ولعذاب الآخرة أخزى) أشد خزيا وهو اسناد
بجazy للبالغة (وهم لا ينصرون) لا يدفع العذاب عنهم (وأما ثمود فهديناهم) فذللتناهم على الحق (فاستحبوا
العصى على الهدى) فاختاروا الضلالة على الهدى (فأخذتهم صاعقة العذاب الهون) أي ذى الهوان (بما
كانوا يكسبون) من اختيارهم الشرك (وبجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) الشرك والمعاصي وهم صالح
والمؤمنون . انتهى التفسير اللفظي للقسم الثالث من السورة

﴿ لطيفة في قوله تعالى - فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة - الخ ﴾

جاء في بعض الروايات أن قريشا اجتمع ملاء منهم وقالوا التمسوا لنا رجلا علما بالشعر والكهانة والسحر
فليكلم محمدا وليأتنا لنعرف ما الذي جاء به فقال عتبة بن ربيعة أنا لها ، فلما دخل على النبي ﷺ قال له
أنت خير أم هاشم وعبد آباه وقال : كيف تشتم أمهاتك وتسه أعلامنا ، ثم عرض عليه المال والنساء والسيادة
وأن يكف عن ذلك ، كل ذلك والنبي ﷺ ساكت ، فلما فرغ قرأ رسول الله ﷺ حم * تنزيل
من الرحمن الرحيم ، إلى قوله : فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة ، فأمسك عتبة على فيه وناشده الرحيم
ثم رجع واحتبس ولم يخرج ، فذهب إليه أبو جهل في جماعة واتهمه بالحاجة للمال من النبي ﷺ لأنه صبا
إليه فغضب من ذلك وحلف لا يكلم النبي ﷺ ولكنه قال أقول الحق ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر
وقص عليهم ما جرى وما سمع ﷺ أني خفت أن ينزل بك العذاب

وفي رواية أخرى انه وصل إلى السجدة فسجد ثم قال أسمع يا أبا الوليد فأنت وذاك فقام عتبة إلى آخر
ما تقدم وقال يا معشر قريش خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه فوالله ليكوننق لقوله الذي سمعت
منه نيا فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وأن يظهر على العرب فلكم ملككم وهزمه عزكم وأنتم أسعد
الناس به فاستهزوا به ساخرين

﴿ القسم الرابع من السورة ﴾

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ • حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ
 سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ • وَقَالُوا لَوْلَا جِئُونَا بِآيَاتِنَا قَالَُوا
 أُنْظِقْنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ • وَمَا كُنْتُمْ
 تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ • وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ
 لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ • وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ
 مِنَ الْخَاسِرِينَ • فَإِنْ يَصْبِرُوا قَالَ النَّارُ مَتَىٰ هُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُسْتَبِينَ •
 وَبِضُنَا لَهُمْ قُرْآنًا فَرِيقًا هُمْ مَا يَنْ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرِ قَدْ
 خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ • وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا
 لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالنَّوَىٰ فِيهِ لَسَّكُمْ تَعْلِيلُونَ • فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ
 أَشْرَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ • ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارِ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا
 بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ • وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضْلَلْنَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لِنَجْمَلَهُمَا
 تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ • إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ
 الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ • نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي
 الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَعُونَ أَنْفُسَكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ • نَزَّلْنَا
 مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ • وَمَنْ أَحْسَنَ قَوْلًا بِمَنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ •
 وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ
 وَلِيٌّ حَمِيمٌ • وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ • وَإِنَّمَا يَنزِفُكَ
 مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ •

﴿ التفسير اللفظي ﴾

قال تعالى (ويوم يحشر أعداء الله إلى النار) أي إذ كرمهم بجمعهم (فهم يوزعون) يساقون
 ويدفعون أو يجلس أولهم حتى يلحق آخرهم لكثرتهم (حتى إذا جاءوها) إذا حضروها (شهد عليهم سمعهم
 وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون) وذلك بلسان المقال أو بلسان الحال الخاصة التي لا توجد في غيرها

من الممكنات فتكون فيها علامات وشواهد دالة على أخلاقها وأعمالها وآرائها ، وذلك عبارة عن سوائل روحية متباينة كل سائل يدل على خلق من الأخلاق لا يجب واحد منها الآخر كما يكون في أنواع النبات والشجر ورائح مختلفة ، وكما يكون في الهواء أنواع الأصوات والروائح ، فالعلم والحلم والنشاط وحب الناس لها سوائل جيلة والجهل والبطش والكسل وبغض الناس لها سوائل رديئة . وتلك السوائل الروحية ملازمة لأربابها مضايقة لهم مشقية أو منعمة لهم مفرحة . وتختلف الناس بتلك السمات اختلافهم في الدنيا بالألوان والأشكال والأصوات وخطوط اليد وخطوط الابهام بحيث لا يشابه أحد غيره ، هكذا الأجسام الروحية بسد الموت تكون على هذا المنوال لاتشبه نفس نسا أخرى في أوصافها ، فهذه هي الشهادة التي تشهد بها أسماعهم وأبصارهم وجلاودهم ، وههنا يبدو السجيب منهم قولاً أحوالاً وهو المعبر عنه بالسؤال والجواب وهما (وقالوا بلأولادهم لم شهدتم علينا) . سؤال توبيخ (قالوا أنطقنا الله) نطقاً لفظياً أو فطرياً وهما أوضح من النطق اللفظي (الذي أنطق كل شيء) فكل شيء يدل بلسان حاله دلالة أفصح من الدلالة اللفظية . انظر هذا المقام في سورة النساء فانك ترى الكشف الحديث مجيزة للقرآن . ثم قال تعالى (وهو خلقكم أول مرة) وفيه دلائل واضحة كخطوط اليد والابهام والأصوات وألوان الوجوه وأشكالها وظهور آثار الأخلاق على الوجوه ، كل ذلك كان في خلقكم أول مرة ، وقليل من الناس من يظن له (واليه ترجعون) وتلك العلامات أصبحت أشد ظهوراً عند رجوعكم اليه ، ولقد كنتم في الدنيا تستترون عن الناس خوفاً للضيعة والعار عند ارتكاب الذنوب وما ظننتم أن أعضاءكم وجسمكم الأثري الذي هو على صورة الجسم الظاهري قد سطرت فيه جميع أعمالكم كأنه لوح محفوظ لها فلذلك ما كنتم تستترون عنها بترك الذنوب ، وهذا قوله (وما كنتم تستترون) خيفة (أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلاودكم) لأنكم لم تكونوا عالمين بشهادتها عليكم (ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون) أي ولكنكم اجترأتم على ما فعلتم لظنكم أن الله لا يعلم كثيراً مما كنتم تعملون وهو الخفيات من أعمالكم (وذلك ظنكم الذي ظننتم بربكم) مبتدأ وخبر ، وقوله (أرداكم) أي أهلكم خبر ثان (فأصبحتم من الخاسرين) إذ صرفتم ما منحتم من أسباب السعادة إلى الشقاء به (فان يصبروا فلنار مثوى لهم) لا خلاص لهم منها (وان يستعبدوا فهاهم من المعتنين) أي وان يسترضوا فهاهم من المرضين ، أو يقال وان يسألوا العتي وهي الرجوع إلى ما يحبون فهاهم من المجابين اليها (وقيضنا لهم) وقد قرنا للكفرة (قرناء) اخواناً من الشياطين (فزيناوا لهم ما بين أيديهم) من أمر الدنيا وشهواتها (وما خلفهم) من انكار الآخرة (وحق عليهم القول) كلمة العذاب حال كونهم (في أمم) في جلة أمم (قد خلت من قبلهم من الجن والانس) وقد عملوا مثل عملهم (إنهم كانوا خاسرين) تليل لتلك والضيم لهم وللأمم (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) والغفوا فيه واللفظ كثرة الأصوات فكان يوصى بعضهم بعضاً بالكلام وهو يقرأ حتى يختلط عليهم ما يقول (لعلكم تتلبون) محمداً على قراءته (فلندينن الذين كفروا عذاباً شديداً) وهم هؤلاء القائلون (ولنجزيهم أسوأ الذي كانوا يعملون) أي بأسوأ (ذلك) أي الأسوأ (جزاء أعداء الله) مبتدأ وخبر هي (النار لهم فيها دار الخلد) يقيمون فيها (جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون) ينكرونها الحق (وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلنا من الجن والانس) وهما نوعاً شياطين الانس والجن (يجعلهما تحت أقدامنا) نجعلهما في الأدرك الأسفل (ليكونا من الأسفلين) مكاناً ودلاً انتقاماً ، ولما أنهى الكلام على قرناء السوء وأنهم بعد المودة في الدنيا يكونون أعداء في الآخرة أعقبه بالقرناء الظاهرين الخبيرين فقال (إن الذين قالوا ربنا الله) اعترافاً بربوبيته (ثم استقاموا) في العمل مع الثبات على الإيمان والاحلاص (تنزل عليهم الملائكة) عند الموت وعند الخروج من القبر ، ثم فسر ذلك فقال (أن) بمعنى أي (لا تخافوا) مما تقدمون عليه (ولا تحزنوا) على ما خلفتم في الدنيا من أهل وولد فانا نخلفكم في ذلك

(وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) في الدنيا على لسان الرسل (نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا) أي أنصاركم وأحباؤكم تلهمكم الحق ويحملكم على الخير بخلاف الشياطين كما تقدم (وفي الآخرة) بالشفاعة والكرامة أما الشياطين فانهم يكونون أعداء الكفار (ولكم فيها) في الآخرة (ما تشتهي أنفسكم) من اللذات والكرامات (ولكم فيها ما تذهبون) أي تمنونه حال كونه (نزلا) رزق النزيل وهو الضيف (من غفور رحيم) * قال العلماء : وإذا كان هذا كله نزلا وهو ما يقدم للضيف فما بالك بما بعده ، وأقول : إن اللذات البدنية مهما طال أمدها لا تنكفي النفس الانسانية ولا أماني النفوس إلا العالم الروحاني ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ أن تصل الى لقاء الله تعالى وترقى فوق طبقات أهل الجنة وهو المشار اليه بقوله تعالى - ولدينا مزيد - وقوله - وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة - فكان السالحين يكونون في الجنة أمدا على مقدار استعداداتهم ثم يرحلون الى ما هو أعلى منها وهو العالم الأعلى المسمى بهلين كما ورد « أريت الجنة فإذا أكثر أهلها البله وعليون لأولى الأبواب » وفسر الامام الغزالي البله بمن ليس لهم فكر في حب الله تعالى ، فهؤلاء يقفون عند الثواب الجسمي وليس عندهم شوق الى الامور الالهية ، فهؤلاء هم الصالحون الذين يصلون ويصومون لأجل لذات جسمية في الآخرة فينالونها ، ولكن هناك من هم أرقى منهم وهم عشاق العلم في الدنيا أي نظام هذه الدنيا وبجانبها ، فهؤلاء اذا ماتوا طاروا في عالم الجمال وتركوا اللذات الحسية لمن لم يعرفوا هذا النعيم الأعلى . انظر ايضا هذا المقام في أوائل ﴿ سورة البقرة ﴾ ثم قال تعالى (ومن أحسن قولا لمن دعا الى الله الى عبادته (وعمل صالحا) فيما بينه وبين ربه (وقال إني من المسلمين) فيعتقد قلبه الاسلام ويتلفظه (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة) في الجزاء وحسن العاقبة ، ولا الثانية مزيدة لتأكيد النبي يعني ان الحسنة والسيئة متفاوتتان والحسنة والأحسن منها متفاوتتان كذلك ، فاذا اعترضت سيئة وحسنة فخذ بالحسنة ، واذا اعترضت حسنتان في دفع السيئة فخذ في دفعها بالتي هي أحسن ، فاذا أساء اليك رجل فليس طر بقه أن تسيء اليه وهناك حسنتان : العفو عنه ، والاحسان اليه ، والاحسان أحسن من العفو فخذ به ، فاذا ذمك فلا تكف بالعفو بل امدحه وهكذا (فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) فانك اذا فعلت ذلك انقلب عدوك المشاق مثل الولي الحميم مصافاة لك (وما يلقاها) أي يلقى هذه السجية وهي مقابلة الاساءة بالاحسان (إلا الذين صبروا) على تحمل المكروه وتجزع الشدائد وكظم الفيظ وترك الانتقام (وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) من الخير وكمال النفس (واما ينزعك من الشيطان نزع) النزع يشبه التحس ، والشيطان ينزع الانسان كأنه ينحسه أي يبعثه الى ما لا ينبغي أي وان صرفك الشيطان عما وصيت به من الدفع بالتي هي أحسن (فاستعد بالله) من شره ولا تطعه (إنه هو السميع) لاستغاثتك (العليم) بينك وصلاحك . ثم التفسير اللفظي للقسم الرابع

﴿ القسم الخامس من السورة ﴾

وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ
الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ
بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْئَمُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنك تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا
الْمَاءَ اهْتَرَّتْ وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُخِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * إِنَّ الَّذِينَ
يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ

أَفَعَمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ • إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالَّذِ كَرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ
 عَزِيزٌ • لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ • مَا يُقَالُ
 لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَدُوٌّ وَمَغْفِرَةٌ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ • وَلَوْ جَعَلْنَاهُ
 قُرْءَانًا عَجَبِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَتَعْجَبِي وَعَرَبِي قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ
 وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْءَانَهُمْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ • وَقَدْ
 آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ
 لَنِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ • مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ
 لِلْعَمِيدِ • إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ تَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا
 تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا إِذْ نُنَاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ • وَصَلَّ عَنْهُمْ
 مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحْصِيٍّ • لَا يَسْمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ
 مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَسُ فَيَنْوُ • وَلَنْ أَدْفِنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءِ مَسَّهُ لَيَقُولُنَّ هَذَا لِي
 وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا
 عَمِلُوا وَلَنُدَيِّقُنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ • وَإِذَا أُنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا
 مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ • قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ نُفٌّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَصْلٍ
 يَمُنُّ هُوَ فِي شِقَاقِي بَعِيدٍ • سَتُريهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ
 الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ • أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا
 إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ •

﴿ التفسير اللفظي ﴾

قال تعالى (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لانسجدوا للشمس ولا للقمر) لأنهما مخلوقان
 مثلكم ، وقد تقدم الكلام بالاسهاب على هذا وما قبله عند تلخيص تفسيرها في أول هذه السورة ، وقوله
 (واسجدوا لله الذي خلقهن) الضمير للأربعة (إن كنتم إياه تعبدون) ولا جرم أن السجود أخص أنواع
 العبادات ، فمن سجد لشمس أو قمر ظانا انه يشترّب الى الله فهو في ضلال (فان استكبروا) عن الامتثال
 (فالذين عند ربك) من الملائكة (يسبحون له بالليل والنهار) دائما (هم لا يسلمون) لا يملون وقد تقدم
 ذلك فارجع اليه إن شئت (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة) يابسة متظامنة (فاذا أنزلنا عليها الماء
 اهتزت) تحركت بالنات (وربت) انتفتحت (إن الذي أحياها لمحي الموتى إنه على كل شيء قدير) فيكون

قادرا على البعث (إن الذين يلحدون في آياتنا) يميلون عن الحق في أدلتنا بالظمن (لا يخفون علينا) وعيد
 لهم على نحر يظهم القرآن عن جهة الصحة وطمعهم (أفمن يلقى في النار خبيراً من يأتي آتنا يوم القيامة)
 تمثيل للمؤمن والكافر (اعملوا ما شئتم) نهاية في التهديد (إنه بما تعملون بصير) فيجازيكم (إن الذين كفروا
 بالذكر) بالقرآن بالظمن فيه وتحريف تأويله (لما جاءهم) حين جاءهم يذوبون (وإنه لكتاب عزيز)
 كثير النفع عديم الظير عجي - بعناية الله (لا يأتيه الباطل) التبديل أو التناقض (من بين يديه ولا من خلفه)
 بوجه من الوجوه (نزول من حكيم جيد) مستحق للحمد (ما يقال لك) ما يقول لك كفار مكة ونحوهم
 (إلا ما قد قيل للرسل من قبلك) أي إلا مثل ما قيل الخ من كلمات جارحة ومطاعن (إن ربك لذو مغفرة)
 لأوليائه (وذو عقاب أليم) لمن هم أعداؤهم ، ولما قالوا لماذا لم ينزل القرآن بلغة الجهم قال الله (ولو جعلناه
 قرآنا أعجمياً لقلوا لولا فصلت آياته) بينت بلسان نطقه (أعجمي وعربي) أي أكلام أعجمي ومخاطب عربي
 (قل هو الذين آمنوا هدى) إلى الحق (وشفاء) لما في الصدور من الشك والشبهة (والذين لا يؤمنون)
 مبتدأ هو (في آذانهم وقروهم عليهم همي) أي صموا عن استماع القرآن وعموا عنه فلا انتفاع لهم به (أو لئلا
 ينادون من مكان بعيد) فهم لعدم قبولهم الحق أشبه بمن ينادون من مكان بعيد للإيمان فلا يسمعون لبعد
 المسافة (ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه) ما بين مصدق ومكذب (ولولا كلمة سبقت من ربك)
 وهي فصل الحسومة يوم القيامة (لقتضى بينهم) باهلاك المكذبين (وانهم) أي الذين لا يؤمنون (لنبي شك
 منه) من التوراة أو القرآن (مرتب) موجب للاضطراب (من عمل صالحاً فلننفسه) نفعه (ومن أساء فعليها)
 ضره (ومار بك بظلام للعبيد) فيعذب غير المذنب (إليه ردة علم الساعة) أي إذا سأل سائل عنها يقال له
 لا يعلم وقت قيام الساعة إلا هو والخلق محجوبون عن معرفة ذلك ، ثم أشار بطرف خفي إلى نظام يوم القيامة
 وجزاء المحسن والمسيء ليكون علماً للمسنبر فقال (وما تخرج من ثورات من أكامها) جمع كم بالكسر
 (وما تحمل من أثني ولا تضع إلا بعلمه) إلا مقرونا بعلمه واقعا حسب تعلقه به ، فكما أن الثمر لا يخرج من
 الاكام إلا وهو عالم به وأن حمل الحامل ووضعها لا يكون إلا بعلمه هكذا لانكون الساعة لا يتقدره ومشيته
 وكما أن الثمر نتيجة الشجرة وعلى مقتضاها والولد يكون نتيجة أحوال الوالدين جسماً ومالاً غالباً هكذا نكون
 النفوس المنسلة من الأجسام الأرضية هناك على مقتضى ما كانت عليه في الدنيا - ومن كان في هذه أعمى
 فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً - وكان هذا العطف أفادنا بطرف خفي أن الناس يوم القيامة على حسب
 أحوالهم في الدنيا كالثمر على مقتضى شجره والولد على مقتضى أبيه ، وعلى هذا تكون العوالم كلها متوافقة
 في نظامها متسابقة إلى حسن النظام والائتمار الخاصة بها ، فاذن يكون العالم كله راجعاً لمبدأ واحد لأن النظام
 الواحد مدبره واحد ، ولذلك أعقبه بقوله (ويوم يناديهم أين شركائهم) (قالوا آذناك) أعلمناك
 (ما من من شهيد) من أحد يشهد لهم بالشرك ، وذلك أنهم لما رأوا العذاب تبرؤوا من الأصنام (وضل عنهم)
 ما كانوا يدعون) يعبدون (من قبل وظنوا ما لهم من محيص) مهرب (لا يسأم) لا يمل (الإنسان من
 دعاء الخير) من طلب السعة في النعمة (وإن مسه الشر) الضيق (فيؤس) من الخير (قنوط) من الرجعة
 (ولئن أذقناه رجعة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي) أي وإذا أحلنا الصحة محل المرض والغنى محل
 الفقر قال إن هذا حق استوجبه بأعماله وهو لا يزول عنى بل هو دائم (وما أظن الساعة تأتيه) أي ما أظنها
 ستقوم (ولئن رجعت إلى ربي) كما يقول المسلمون اليوم (إن لي عند الله حسني) أي الحال الحسني والكرامة
 والنعمة ، فإذا كان الله أعطاني نعمة فهو يوم القيامة يوليئني كرامته (فلننبئن الذين كفروا بما عملوا) فلنخبرنهم
 بحقيقة ما عملوا من الأعمال الموجبة للعذاب (ولنذيقنهم من عذاب غليظ) شديد لا يفترون عنهم (وإذا أنعمنا
 على الإنسان أعرض) عن النعم وبطرت النعمة فنسى الشكر (ونأى بجانبه) تباعد عن ذكر الله ودعاؤه

وتكبر وتعظم ، والجانب المكان والجهة فنزلت منزلة نفس الانسان كما حول كتبت الى جهة فلان والى جانبه العزيز أى نفسه ، فقوله - نأى بجانبه - معناه نأى بنفسه (وإذا مسه الشر) الضر والفقر (فقد دعاه عريض) كثير أى يقبل على الدعاء والابتهاال والتضرع (قل) يا محمد (أرأيتم) أخبروني (إن كان من عند الله) أى القرآن (م كفرتم به) من غير نظر (من أصل) من هو فى شقاق بعيد) أى من أصل منكم وجواب الشرط محذوف دل عليه الاستفهام أى فأتتم ضالون وإنما لم يقل منكم بل من هو فى شقاق بعيد أى خلاف للحق بعيد عنه لبيان حالهم وتقر بهم من غير مواجهة بالخطاب (سفرهم آياتنا فى الآفاق) من فتح البلاد شرقا وغربا وظهور العلوم فى العالم الانسانى ، وكشف ما كان مجهولا فى البحر والبر ، وتحليل المركبات الى عناصرها وظهور مخبئاتها وانها مركبات بحساب لاخلاف فيها كما بينا فى القرآن إذ قلنا - وأبنتنا فيها من كل شئ موزون - وقلنا - وان من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم - وقلنا - وكل شئ عنده بمقدار - وقلنا - إنا كل شئ خلقناه بقدر - وقلنا - والسماء رفعها ووضع الميزان * ألا تظنوا فى الميزان - وقلنا - إن الله سريع الحساب - وهذه كلها ستظهر لكم أيها الناس فتعلمون أن هذا القرآن حق . أقول : قد ظهر هذا كله اليوم وعرفنا أن النبات بحسب فى عناصره الداخلة فيه وكذا الحيوان وهكذا حركات الكواكب والمسافات التى بين كل كوكب وآخر ، كل ذلك ظهر فى العلم اليوم وكله مجزة للقرآن إذ قال الله - سفرهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم - وهكذا خاطب الأموات الأحياء وكلوهم وتعارف الأحياء والأموات وفهم كل الآخر ، كل ذلك مجزة للقرآن ، وهكذا نظر الناس عم تشريح الحيوان وتشريح الانسان ونظام النبات ، كل ذلك على وتيرة واحدة - ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور * ثم ارجع البصر كرتين - فانك لا تجد خلا إلا عند الجاهلين ، فهذه العلوم التى ظهرت فى العالم الانسانى يجب على العقلاء أن يدرسوها (حتى يتبين لهم أنه) أى القرآن (الحق أولم يكف بربك) أى أولم يكف بربك أى ألم تحصل الكفاية به ثم أبدل منه قوله (أنه على كل شئ شهيد) أى محققه فيصقق أمرك باظهار الآيات الموعودة أى ألم تكفهم شهادة ربك على كل شئ أى ان هذا الموعود من إظهار آيات الله فى الآفاق والأرض سيرونه ويشاهدونه فيتبينون عند ذلك أن القرآن تنزيل علم الغيب (الأنهم فى صريرة) فى شك (من لقاء ربهم ألا إنه بكل شئ محيط) علم بحمل الأشياء ومفصلاتها . انتهى التفسير اللفظى للقسم الخامس من السورة والحمد لله رب العالمين

﴿ لطائف هذا القسم ﴾

- (١) فى قوله تعالى - ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت - وقوله - اليه برد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه -
- (٢) فى قوله تعالى - لا يسأم الناس من دعاء الخبير - الخ
- (٣) فى قوله تعالى - سفرهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم - الخ

﴿ اللطيفة الأولى ﴾

(فى إنزال الماء من السماء . وانبات النبات ، وإخراج الثمرات ، ووضع الحملات أطفالهن ، مع قوله تعالى - اليه برد علم الساعة -)

(١) اعلم أن المواد المعدنية والنباتية والحيوانية لاتنمو ولا تعيش إلا فى الظروف الخاصة بها ، فإذا لم تكن الظروف الموافقة فانها تنق فى حالة لا تغير فيها ولا تنمو ولا حياة ، ومتى لاءمت الظروف اندفعت ذرات العناصر

وتقاربت وتجاذبت وتحابت ، وبتربكها مع بعضها تنشأ هذه الجبابب المنظورة والبدائع المسطورة والزهر والشجر والحداثق والجنات والأعشاب والأنعام والغزلان والآساد والذؤبان ، فترى النبات بما يعتوره من الحرارة والنور والرطوبة واليوسوسة يهب ويرفع نارة مسرعا وأخرى مبطئا ، كل ذلك لحوزة ما يلائمه أوفقده ذلك وهذه قاعدة مطردة كانت قديما وتبقى الى آخر الزمان وانقطع الدهر وزوال العصور

(٢) يستنتج من ذلك أن مادة الحياة الأولى انما جاءت من تجميع البسائط التي لاءمتها الظروف والأحوال
 (٣) تركيب العناصر والمواد التي على وجه الأرض يحصل بثلاث طرق كل واحدة أقل مما بعدها وأرق مما قبلها (الطريقة الأولى) أن تركيب العناصر تركيبا خاليا من صناعة الكيمياء ونظامها كما تركيب الأشجار في الجبال فان تركيبها من عناصر ليس على نظام كيميائي ولا نظام حيواني إذ ليس هناك قانون الكيمياء ولا قانون الحياة ، وذلك كحجر الخبير المسمى أيضا بحجر البناء وهو كتل مختلفة الحجم ولونه أبيض أو سنجابي أو محمر وله أسماء مختلفة فيقال (دبش) و (دقشوم) وهذه الأحجار مكونة من كالسيوم وأوكسوجين ، والكالسيوم فلز ذولعنان أصفر يتغير بسرعة في الهواء الرطب ، واذا سخن على صفيحة من البلاتين يحترق بلهب شديد اللعان وهو يحلل الماء على الدرجة المعتادة ، فهذا الفلز وهو الكالسيوم مع الاكسوجين يكون مخلوطا بالرمل والطفل (بفتح الطاء) وأوكسيد الحديد وكر بونات المغنسيوم ، فهذه الأشجار جميعها تكون مخلوطة بتلك الأجسام ، فاذن هذا ليس تركيبا كيميائيا بل هو أمر اتفاقي لا قانون له كما بيني الناس بيوتا بمواد مختلفة (الطريقة الثانية) طريقة التركيب الكيماوي (مثال ذلك) البوتاسا الكالويه وهي عبارة عن مركب من البوتاسيوم والاكسوجين والايديروجين والكالسيوم والكربون ، فيكون ثلاثة أجزاء من الاكسوجين وجزء من الكربون ومثله من الكالسيوم واثنتان من البوتاسيوم وجزء واحد من الايديروجين فهذا المركب على هذا النظام يسمى مركبا كيميائيا ، فهذه الأجزاء تفتل فيحصل الاتحاد بغيرها ثم تروق وتصفى وتساعد بسرعة وبعد التصعيد تصهر في جفنة من الفضة وتصب على سطوح من الرخام أوفى قوالب معدنية وهو في حداته يكون قطعا بيضاء معتمة ، فالمركب من هذه الأجزاء الخمسة يصبح جسما جديدا قد عدم جميع صفات الأجزاء التي تركيب منها فلا تجد للكربون ولا للكالسيوم ولا للبوتاسيوم أثرا في هذا الجسم الجديد بخلاف ما تقدمت في حجر الخبير فانك تجد الترات الرملية والترات الطفلية وهكذا حافظه خواصها . فهذا هو الفرق بين الأول والثاني (الطريقة الثالثة) طريقة الحياة النباتية والحيوانية . ها أنت ذا أيها الذكي قد تبين لك كيف كان المركب العادي قد حفظت أجزاءه خواصها والمركب المعدني قد فقد المركب فيه خواصه وأصبح عالما جديدا بخواص جديدة تخصه . فانظر الآن فيما أقصه عليك وتأمل في هذه الأرض التي نعيش عليها . نعيش عليها ونحن لانفكر في أقرب الأشياء إلينا . أقرب الأشياء إلينا حياتنا وحيات النبات والحيوان . فاذا أخذنا الاكسوجين والايديروجين والاوزوت والكربون أعنى اذا أخذنا مقادير من هذه الأربعة التي عليها العماد في تركيب كل نبات وحيوان وانسان أي ان كل شيء لابد من أنه يتركب منها مع اضافة عناصر أخرى أو أملاح وجعلنا هذه المقادير مع بعضها بلانظام كانت أشبه بتركيب حجر الخبير فيما تقدم . واذا ركبناها بطريق كيميائي بنظام تام وأجزاء ثابتة أصبحت لها صفة جديدة وفقدت خواص الأجزاء الأولى ولكن هل يمكنها أن تموت وهل يمكنها أن تحس وتمتدح . كلا . مم كلا . فليتركب الكيمائيون ماشاؤا فانهم لا يقدررون أن يخلتوا ورقة واحدة ولا دودة ولا زهرة . فعلماء الكيمياء أولئك الذين يركبون العناصر بنظام تام على قوانين خاصة لا يقدررون أن يذروها عاجزون جميعا عن إحداث حال جديدة للمركب بها يحس أو بها يمتدح ! إذن فلنبعد عن الحياة

﴿ الحياة سرّ سار في المادّة الأصليّة للكائنات ﴾

لقد تعلم أيها الدكيّ أن المادّة تنوّع الى نور والى حرارة والى كهربائية والى مغناطيسية . هكذا تنوّع الى قوّة حيوية وهذا التنوّع سرّ لا يدركه الناس فهو قاسر يقسرها وقاهر يتهربها يتوّعها تنوّعات مختلفات . فما مثل الحياة إلا كمثل من رمى حجرا الى أعلى فارتفع الى الجوّ ولما بطلت القوّة الرافعة له التي استمدّها من الرامي كرتّ راجعا الى الأرض . هكذا كل نبات وكل حيوان وكل انسان فتكسب النطفة في الانسان قوّة وسرا يعطيها حياة فتأخذ في الارتقاء والنموّ . وهناك نكسب في الجسم عمليتان : عملية الهدم وعملية التجديد ففي أوّل الحياة تقوى عملية التجديد على عملية الهدم كما يقوى الحجر وهو صاعد على مقاومة الجاذبية . فإذا بلغ الانسان أشدّه تعادلت القوتان ثم تغلب قوّة الهدم على قوّة التجديد فيأخذ الجسم في الانحطاط والرجوع الى الوراء فيصير هرما فيموت ، فاللوت إذن ناجم من نفاد القوّة الحيوية كما نفدت القوّة الرافعة للمحجر فهبط وليس الموت من أجل تلف الأعضاء وضعف وظائفها بل المسبب الأصلي للموت هو نفاد القوّة الحيوية يتبعها ذلك الضعف ، فالضعف تابع لأصل ، ولو بقيت القوّة الحيوية بحالها لأمكن أن تقوم بالتجديد باذن الله تعالى

﴿ كيف بدأت الحياة ﴾

بدأت الحياة بمادّة هلامية في قعر البحر كشفها العلماء وسموها (بروتوبلاسم) وهي مادّة رخوة لزجة تصيب كل الاشكال بسهولة ، ومتى تكاثفت كانت منها (حويصلات) جمع حويصلة ويقال لها (القلالي) فالحوصلة الواحدة تنقسم الى قسمين وكل قسم الى قسمين وتصبح هذه الحويصلات الجديدة متمتعة بحياة ونمو كالحوصلة الأولى ، والأسهل أن نسميها أيضا جمع بيضة كيضة الهياججة تسهلا لفهم ، فكل نبات وكل حيوان وكل انسان في الأصل بيضة واحدة تنقسم الى قسمين كل منهما يصير بيضة وهكذا هاتان تقسمان ويترد الانقسام ويصبح كل قسم بيضة كاملة تامة الحياة تتغذى بفضاء خاص ، فكل نبات تراه وكل انسان تراه وأنا وأنت أجسامنا عبارة عن بيضة انطلقت فصارت بيضتين كل منهما كالأولى وهكذا ، وفي أثناء الانقسام صار لنا العين والأذن والقلب والشعر وصالر للنبات الزهر والورق والفواكه والثمار وصالر للحيوان الثوب والظلف والظفر والقرن والأرجل وهكذا . هذه صورة الحياة على وجه الأرض

﴿ صورة ارتقاء الحياة على الأرض ﴾

إن الحياة على وجه الأرض سلسلة غير منقطعة كما قال الله تعالى - ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت - فالنبات عبارة عن البروتوبلاسم وقد تكوّنت فصارت بيضة فاجتمعت اليضات فكان النبات والنبات يولد ويحيا ويموت ويفتدى ويناسل وهو محتاج الى النور والحرارة والماء وتقلبه الموادّ السائلة ويتنفس وفي بعض أنواعه إحساس . ثم ان النبات من أعلاه متصل بالحيوان فان نوع التوفيق يربط الحيوان بالنبات فهو على شكل النبات لثبته بالأرض ولكنه حيوان ويليّه الاخطبوط الهلامي وهو لا يمتاز عن النبات إلا بإمكان التنقل وله معدة وبعض ظواهر الأعصاب وليس له نظر ولاشم ولاسمع . وبعد ذلك الديدان وهو أقوى وأقدر وأكمل أعضاء من الاخطبوط . ثم الحلزون والبراق وذوات الأصداف التي ليس لها فقرات . ثم الحيوانات القشرية التي لها قشر كسرطان البحر . ثم عقرب البرّ وله سم وبصر وله أعصاب عقديّة . وبتلك الأعصاب تكون حركة الغذاء ودورة الدم . ثم ذوات الفقرات كالسمك وله دماغ ونخاع شوكي . ثم الديدان الأرضية . ثم الطيور وأتائها تبيض . ثم ذوات الثديين . ومنها ذوات الكيس وهي تحمل فيها صغارها وهي توجد الآن في استراليا . وهكذا ترتقى الحيوانات حتى تصل الى القرود ثم الانسان فهذه هي السلسلة التي نظمها الله عزّ وجل من أدنى الى أعلى . فبينما تكون الحياة مادّة رخوة في البحر

إذا هي قد ارتقت في النبات من أذناه مرتقية إلى أعلاه . وفي الحيوان الأدنى مما يلي النبات وترتقي فيه إلى أعلاه حتى تصل إلى الإنسان . ومعنى هذا أن هذه العوالم أشبه بعقد منظم موضوعة خرازته بنظام مهندس . وليس معنى هذا أن كل خزرة ولدت الخزرة التي بعدها بل معناه أن الذي نظم هذا أحسن صنعه ولم يدع في العقد موضعا خاليا ، فأما كون هذه الخزرة قد اتبعت ما بعدها فليس ذلك معلوما بل قال به قوم ولم يبق الدليل عليه الآن ، وهذا لا يهم الباحث إنما المهم النظام والجمال

(خلق الإنسان)

وهنا وصلنا إلى مقصودنا من تفسير الآيات ، فها أنت ذا اطلعت على نظام النبات إجمالا وكذا الحيوان وانظر قوله تعالى - وما نخرج من ثمرات من أكامها وما تعمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه - ألت ترى أن الأكام التي على الشجر والحل التي في رحم المرأة عبارة عن تلك المادة الهلامية مضاعفة أضعافا مجتمعة ، فتأمل كيف كان اجتماع تلك البيضات التي لا عدد لها منتبها بفوائد متحدة أي كيف كانت نتائج الأشكال النباتية ملائمة لتنتج الأشكال الحيوانية . وانها مناسبة لها غذاء ودواء . ثم كيف كان هذا الإنسان إذ كان أرقاها يود أن يستولى عليها عقليا وعمليا ، فهو مفرم بمعرفة كل نبات وحيوان وبحوز كل منهما . إذن انظر في تركيبه في بطن أمه . انظر كيف كان خلقه تدريجيا لاطفرة . يقول الله تعالى - اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق - . وانظر كيف رأى العلماء انه يكون دودة صغيرة وهي العلقة المذكورة ثم حلزونة ثم سمكة ثم ذبابة ثم قردا ثم يتوارى ذنبه ويصير انسانا . فالدرودة والحلزونة والسمكة والنبابة والقرد هي التي أشار لها الله تعالى فقال : - ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة - أي مسواة وغير مسواة ، فما قبل الانسانية هي غير المسواة ، والانسانية هي المسواة ، واعلم أن هذه الصور التي رآها العلماء ليست يقينية بل هي تخمينية (انظر هذا المقام في سورة آل عمران)

وانما المهم في هذا المقام أن تفكر في أمر حياتنا فانها في أول أمرها بيضة تصلح للنبات والحيوان ثم ترتقي فتصير حيوانا ثم تصير انسانا

هذا درس ألقاه الله لنا . يقول لنا : أنا لم أخلقكم لأهينكم بل أنا أرقبكم . ففي أمد قصير ارتقيتم في بطون أمتياتكم درجات كثيرة وهي النباتية والحيوانية . فاذا عثتم على وجه الأرض رأيتم الحيوان خاضعا لكم . ثم أنزلت عليكم علوما وقلت لكم إن لي ملائكة ولي عرش وعالم أرواح وبعث إلى آخره . فاذا تم فاعلموا أن العوالم التي تصلون إليها عظيمة جدا لاتقاس بسلامكم . فإلى يرد علم السامع لاغيري لأنها عوالم لاتقاولونها لأنكم لم تروها ولا تدركون زمانها إذ جعلته مجهولا عندكم لحكمة أردتها ونعمة قصدتها . الألوان خروجكم من أجسامكم الأرضية كخروج النمر من أكامه والولد من بطن أمه . فكلاهما نتيجة لما خرج منه وقد انتهى إلى عوالم لم تخطر بباله فهل كان التفاح يشمر أنه يكون على موائد الملوك أو كان الجنين في بطن أمه يدور بخلده انه يوما ما يكون ذا ملك عظيم ويذهب ويبقى في الأرض ويركب الخيل ويدبر الامور . هكذا حياتكم بعد موتكم تكون في عالم نسبته إلى أرضكم كنسبة الدنيا إلى بطن الأم هذا اذا كانت النفوس عظيمة . فأما النفوس الضعيفة فانها تكون هناك عمياء أشبه بالطفل الأعمى الأصم في الأرض فتكون السعة هناك على مقدار درجات الأرواح العائشات هناك . وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى والحمد لله رب العالمين



﴿ اللطيفة الثانية ﴾

(في قوله تعالى - لا يسأم الانسان من دعاء الخير وان مسه الشر فيؤس قنوط -)

هذا بيان لحال الانسان اذا لم ينوع العلم والدين عقائده وآراءه . إن الناس قبل أن يهدّوا ويربوا متى أصابهم الشر أخذوا يلقون ويسطربون ويندبون حظهم ويحزنون ويأسون من روح الله ، ويطنون أنه لا فرج لهم ولا عزّ لهم ، وأنه قد أفلتت في وجوههم أبواب الفلاح والنجاح ، فإذا سكن جأشهم وخف حلمهم ورجعت اليهم عقولهم أخذوا يدعون ويتضرعون ويلحون أن يعطيهم الله تعالى الفتي والسعة ، فإذا أجيّبوا الى دعائهم وأعطوا نعمة نسوا ما كانوا فيه من الضيق وظنوا أن تلك النعمة دائمة لهم لا تفارقهم وهم أحقّ بها بل ربما ظنوا دوامها وأنكروا الآخرة لأن النعم أبطرتهم واللذات أسكرتهم

فهذا الانسان أمره عجيب ، يسلب النعمة فيضطرب ويكون مسلوب اللب يالسا خزينا . ثم اذا خفّ الأمر عليه دعا الله . فإذا كثرت النعم أصبح أعمى عن الحقائق ناسيا ربه ظاناً أن ماله من الصحة والمال والمنصب والقوة دائم وهذا من غفلاته وجهالاته . وليس يخرج الانسان من هذه الجهالة العمياء إلا التذكر والتفكير ودرس العلوم والحكمة والصبر حتى يعلم الانسان أن النعمة والثقمة كل منهما درس له . فكل حال من أحوالنا دراسة لنا . فكما ندرس أطوار حياتنا في الرحم وفي الحياة الدنيا وندرس الحيوان والنبات يجب أن ندرس ما يحيى به الله لنا من المسكاره والنعم لننظر ما فائدة ذلك لنا لأننا نأمن نارة ونفترأ أخرى فان ذلك فعل الذين عاشوا كالحیوان لا يفكرون ولا يعقلون . انتهى الكلام على اللطيفة الثانية

﴿ اللطيفة الثالثة ﴾

(في قوله تعالى - سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق -)

لقد أشبعت الكلام على هذه الآية فيما تقدم . ولكن أقول لك الآن ان هذا الزمان أخصّ الأزمنة بهذه الآية وأولها بها

لتعلم أيها التكي أن هذا زمان الانقلاب . ان الله قد كشف العلوم وأظهر العجائب في جميع أنواع الحكمة والمسلمون لا يعلمون . يقول الله هنا - سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق - . أنت قرأت في التفسير الى هذا المقام واطلعت على ما أبدعه الله في هذه الدنيا وعلى العلوم التي أبرزها في الأرض وأن ماني هذا التفسير خلاصة العلوم وجمالها وبهجتها وحكمتها ولن تراه مجرّوا في كتاب . هو خلاصة علوم هذه الكرة ومخرتها . ففيه من كل فن وكل علم وكل حكمة . أفلتت ترى بعد هذا انك قد اطلعت فيما تقدم من هذا التفسير على تفسير هذه الآية أعني انك قد قرأت فيه معنى هذه الآية . فاذا سمعت الآن قوله تعالى - سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق - . أفلتت تقول نعم قد تبين لي أنه الحق وأن الله حقيق ذلك . وليس معنى هذا أن تقول إلى آمنت بالله ورسوله فالإيمان أمر يشترك فيه الجاهل والعالم وإنما أقول انه قد تبين لك أن هذا الدين حق واني واثق انك ستقول نعم . أقول لك : إذن أصبح دين الاسلام ليس هو الذي يعرفه العامة بل هو دين الحكمة والعلم ودين الفلاسفة أي انه هو الدين الذي لما ظهرت العلوم الحديثة كانت مبينة حقيقته . واذا كان كذلك فأنت صرت شريكاً في العمل أعني انه حرام عليك أن تنام . قم أيها التكي وقل للمسلمين اقرأوا العلوم وادرسوها حتى تقوموا بنصيبكم من إسماعد الأمم فانكم الآن عائلة على أوروبا . ادرسوا العلوم وأقيموا الحق فان هذا هو الزمان الذي أظهر الله فيه سرّ كتابكم وقد قال لكم - حتى يتبين لهم أنه الحق -

فقل للمسلمين إن الاقتصار على قراءة حديث و بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله الخ ، عار عليكم فلا تقتصروا على ظواهر الدين بل ادرسوا حقائق الكائنات يقول الله لكم - سخرهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم - فهل رأيتم ذلك ؟ كلا . لا ترونها إلا بدراسة . فليدرس المسلمون كلهم على قدر استطاعتهم ليجتوا . والله يسأل يوم القيامة وعند الموت من يقرأ هذا التفسير ولا يقوم هو مستقلا بالعدل لرقى الانسانية

أيها المسلمون : أتم خلفاء الله في الأرض ونبينا خير الأنبياء ونحن خير أمة أخرجت للناس . وهذه العلوم يجب علينا أن ندرسها . وهذا التفسير وأمثاله جاء في وقت انتقال الأمم من حال إلى حال والمسلمون سيأخذون دورهم وأتم حتماً آخذون دوركم فان لم تقوموا به طوعاً تنم به كرها . وهذا التفسير وأمثاله تنبيه وانذار للأمم الاسلامية . وسيفرؤه النبهاء فيهم بشوق . فان لم يوقفوا الأمم الاسلامية بأقوالهم وأفعالهم فليعلموا أن الله قد أعد العدة لكل متعاص عن العمل من الأمم والأفراد . وسينزل غضبه على كل عالم لا يعظو على كل أمة متعاسة متعادة - إن الله لا يشير بما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم - ، وكل من حض المسلمون على ما ذكرنا من الحكمة والعلم فله أجر المجاهدين . ومن ترك ذلك فهو من المقصرين

إن ورود هذه الآية في هذه السورة الواردة في أواخر القرآن لما يدعو إلى الحجب فان القارئ لما قبلها من السور ، المطلع على ما حوت من بدائع الحكمة في الأتقن والآفاق يقر إذا وصل إليها بأن القرآن يدعو إلى علم الأتقن والآفاق . فاذن تأخرها إلى الربع الأخير من القرآن بل الخمس الأخير منه طه هذه الحكمة الهجبية ألا وان هذا هو الزمان الذي سيرقى الله فيه المسلمين . فطوبى لمن يادر من العاملين . وبشرى لمن كان من المبشرين الموقظين . انتهى الكلام على اللطيفة الثالثة والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الاثنين (٢٦) رمضان سنة ١٣٤٣ هجرية

(تذييل لتفسير هذه السورة)

(وفيه ثلاثة فصول)

(الفصل الأول في إيضاح الكلام على قوله تعالى - إليه ردة علم الساعة -)

بعد أن أتمت الكلام على هذه السورة خطر لي ليلاً أن أحققها بهذه الجواهر الثلاث فلم أدافع المخاطر لاني رأيته خاطر خير . فهذه الأولى في ردة علم الساعة إلى الله تعالى مع ذكر الجمل والوضع والخمر والأكام سبحانه من أبداع هذه الدنيا وأحكم نظامها . تأمل رعاك الله في السرّ المسكنون والياقوت البديع . انظر كيف جعل للانسان هذه المراتب وهو جنين . ينتقل مراتب في الرحم . فمن دودة صغيرة وهي العلقة إلى قوقعة إلى سمكة وهكذا حتى يصل إلى هيئة القرد فهية الانسان

ظنّ المشركون وعلماء الأجنة اليوم أن تلك هي الأدوار التي مرّ عليها وهم بذلك يوضحون نظامه ، يمرّ الانسان على هذه الأدوار وتكون نفسه في تلك الأدوار مشاكسة لنفوس تلك الحيوانات ولكنها تمرّ عليها مسرعة ثم تقفز قفزة فتكون إنساناً ، فاذا رأينا الطفل يداعب الهرة ويحب الحمامة ويلعب بالعصفور فذلك لأنه كان بالأمس مثلها . إن المدرّس لا ينجح في تعليم تلاميذه إلا إذا مرّ على أدوار التعليم وكان تلميذاً فيمكنه أن يمثل أدوار التعليم كما مثل أمامه . إن الله لم يجعل في الأرض عظيماً في علم أوفى مال أوفى ملك إلا إذا مرّ على الأدوار المنحطة وارتقى منها فرفعها فرجع إليها وعلى ذلك تجد الحكومات في رؤساء الصوص الذين تابوا خير معاون على التجسس على الصوص ، فرب البيت أدري بما فيه ، وهكذا تجد الأنبياء عليهم السلام يرعون الأضغان صفاراً ويرعون الأمم كباراً . وأمهر الأطباء اليوم من يجرب الدواء في نفسه ليعرف

أدولره ثم يصفه في كتبه لينتفع به الناس ، هكذا هنا صرّ الانسان على الأدوار الحيوانية وهو جنين لأنه أولاً سيكون له بها علاقة في الحياة الجثمانية زراعة وركوباً وأكلًا وشرب لبن وليس صوف وشعر ووبر وجلد وما أشبه ذلك واحتراساً من أسد ونمر وهكنا . وثانياً ليدرسه ادراسة علمية اذا كان من أهل الحكمة ورجال العلم . وثالثاً ليدرّس نفسه وأحوالها فانه يجد صفات هذه الحيوانات فيه وهو يجاهد ليخرج منها الى عالم ارقى من عالم الأرض ، إن هذه الحيوانات تارة تطلب المنافع بالبصبة كالكلب والسنور وأخرى بالحيلة كالعنكبوت وتارة بالقلبة كالأسد وتارة بالفرار كالأرانب والظباء والطير وقد يدفع بالسلح كالقنفذ وقد يتحصن في الأرض كالقار والحوام ، وهو شجاع كالأسد ، وجبان كالأرنب ، وسخى كالديك ، وبخيل كالكلب ، وعفيف كالسمك ونفور كالفراخ ، ووحشى كالنمر ، وانسى كالحمام ، ومحتال كالثعلب ، وسليم كالغتم ، وسريع كالغزال و بطيء كالذب ، وعزيز كالفيل ، وذليل كالجل ، ولص كالعقرب ، وثانه كالطاووس ، وهاد كالقط ، وضال كالنعامة ، وماهر كالفحل ، وحليم كالجل ، وحقود كالجار ، وشموس كالبقل . ومستحل كالذب . ومضّر كالنار . وجهول كالخنزير . وغير ذلك

فهذه وغيرها من صفات الحيوان معرض لها الانسان . فهو يجد بما أنزل من البيانات وما سطر من العلوم أن يخرج من هذه القيود الحيوانية ويتعلّى بالحيلة الملكية ويخرج من الدائرة الأرضية الى الدائرة الروحية . وهناك يتعلّى له بعض قوله تعالى - اليه برّد علم الساعة -

إن الانسان مادام مغرماً بالأحوال الأرضية فهو أبداً حول هذه الأرض بعد الموت لا يبرحها وكيف يبرحها وهو لا يجد لذة إلا فيها . ولا سعادة إلا في أكنافها فيصبح اليها مجذوباً مبعداً من عالم أعلى . ومعنى هذا الانجذاب أن يعذب بعذاب جهنم فيكون في حفرة من حفر النار . فان جهنم ملازمة لمن لا يعرف إلا المادة والجنة ملازمة لمن يتزوّج عنها فيقال انه في روضة من رياض الجنان حتى اذا تخلص من ذلك بتاتا صار في جنة عرضها السموات والأرض لاضيق جهنم الذي هو ملازم لمن كان لا يعرف إلا العالم الأرضي إن مرور الانسان على العوالم الحيوانية أعطاه أنه بالحيوان في أحواله المادية ودراسة العلوم القشرية والخلقية وجهاده في الحياة ليخرج من حال الحيوانية الى الحال الملكية . وهذه نبذة من علم الساعة التي لا يعلم عليها إلا الله تعالى واليه وحده برّد علمها . وهذه ساعة من ذلك العلم وبارقة من سماء الحكمة . فأما العلم الحقيقي فهو عند الله « وعنده مفاتيح الغيب » وهذه من أسرار القرآن . وسرّ من أسرار عطف الحمل والوضع على علم الساعة . انتهى الكلام على الفصل الأول

﴿ الفصل الثاني والثالث ﴾

(في إيضاح الكلام على قوله تعالى - سرّهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق -)
فلأذكر فيه نبذتين : النبذة الأولى ما كتبت في كتابي « ميزان الجواهر » تحت العنوان الآتي وهذا نصه :

﴿ خاتمة تتضمن فكرة المؤلف في العلوم عاتمة وفي فن التوحيد خاصة ﴾

مما أجمع عليه رأى الحكماء انه يجب على الانسان أن يجعل له في حياته غاية يسعى لها والا عاش عيشة مهمل . وقد كنت في ابان تعلمي بالجامع الأزهر أتلقى العلوم الدينية وآلاتها من فنون العقليات والنقليات واذا ذهبت الى بلادنا بالشرقية أنظر ماذا ذرأ الله من النبات العجيب . وما أودع في الكائنات من الغرائب . وأنامل مافي الأنهار والعدران من سيال عجيب يذهب فكري في ذلك كل مذهب وأقرن ما أراه بما أسمع فلابد مناسبة . وأقول في نفسي : لماذا لانسمع في العلوم التي تلقاها شيئاً يحوم حوله ما نشاهد كل يوم من

المزارع المحضرة والجنات وبدائع الحكمة الربانية ، وأجد في نفسي شوقا وثوقا الى ذلك . وأتمنى أن يكون له مدخل في معارفنا الدينية ، ثم أكرر كلمة نحو ما أنلقاه من الفنون الدينية فأجدها توسع المجال جدا في احكام المعاملات والميراث والحدود والدعاوى والبيئات ، ولا أرى لما أشاهد في أرض الله الواسعة إلا ان العالم حادث وكل حادث لابد له من محدث ونحو ذلك ، وما يذكر في أبواب السلم والربا من المكيلات والموزونات والتسليم والتسليم ، وكذلك الكلام في بيع ما بدأ صلاحه أو ما بدأ يبد صلاحه ، ومع كونه إجاليا فإتما يتكلم عليه من وجهة المعاملات بين الناس لا من الوجهة الإلهية

سارت مشرقة رسرت مغربا * شتان بين مشرق ومغرب

وكنت أسمع كلاما من أفواه أسانذني وفي كتب التوحيد أن العالم في غاية النظام وأن القرآن في غاية البلاغة ، فإذا توجهت الى بلاد الشرقية وخلوت بنفسي وتفكرت في العالم وفي القرآن أجده الأمر صعبا على جدا ، ولا أشم لهذا النظام وتلك البلاغة رائحة ، فإذا نظرت رأيت بهائم ترتع ، ونباتا يطلع ، وأناسا تذهب وتجي ، وبحارا تجرى من أرض عليا الى أرض سفلى ، فأقول أين النظام الذي يقوله العلماء ؟ فصررت أجلس على شاطئ نهر جار وأنأمل في الحيوانات الصغيرة التي تخفي في الأعشاب وأقول : لو رأيت حيوانا عليه خطوط فيها هيئة انتظام لدخل عندي شعور بهذا النظام ، ثم اذا عرفت أن هذا العالم منتظم كما يقول العلماء الأخيار أكون أسعد الناس وأكثرهم نشاطا وجدا واجتهادا إذ يكون إيماني يقينا . وبينما أنا كذلك إذ فتح لي باب آيات من القرآن . ولم أكن إذ ذلك أعرف تفسيره ، فاستحضرت بعض التفاسير وطالعت آيات المجانب وكان أول ما طالعت قوله تعالى - إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار - الى آخرها فتأملتها تأملا صحيحا فانفتح لي باب الفكر ، وصررت أعرض تلك الكلمات على عقلي وأنظر بنفسي في هذه الصنعة الإلهية وهكذا بقية آيات المجانب ، فأخذت الفكر يطلب والمطالعة تزيد وحلا لي الفهم ، ثم اتصلت بالأزهر بعد انقطاع طويل وحضرت التفسير وغيره من العلوم حضور محب وله بل عاشق وصررت لا أنلو القرآن إلا بتدبر وفهم ، ثم ساعدتني المقادير بدخول مدرسة « دارالعلوم » فتأملت علومها تأمل من يريد أن يعرف هذا العالم . فكنت أحضرتك العلوم وأطبقتها على العالم الخارجي على حسب ما سبق في النفس من الشوق الى ذلك حتى اتضح لي أن كل هذا العالم على غاية النظام والاحكام وفهمت آيات القرآن في تلك المجانب فهما يقينا لا تقليديا وصار كل شئ من العالم دروسا توحيدية وكان المتأمل فيه يطالع مجانب القدرة الإلهية والحكم الربانية فمن درس الهندسة والحساب والطبيعة أو التشریح أو غيرها من العلوم ولم يذق منها لذة النظر من وجهة الحكمة العلية فهو صاحب صناعة يعيش بها ولم يمتز - العامة إلا بالمظاهر الفانية . وكذلك من قرأ دروس البلاغة والنحو والصرف في أى لغة من لغات العالم من العربية أو غيرها ثم لم يستخدمها في مطالعة ذلك الجمال الإلهي في آيات القرآن العظيم والعلوم العالية مع استحضار الذهن ووزنها بميزان العقل الفريرى فليشربها أضع أيامه ولم يحصل من حياته إلا على مفايشه وانه يأكل كما تأكل الأنعام . فأف لحياة يكون القصد منها ومن تحصيل العلوم فيها ما كل ومشارب تشاركنا فيها الحيوانات والنباتات . أولابرى المخرورون من ذوى التصور عن الاطلاع على ذلك الجمال أن الغذاء والتناسل عامان في جميع النبات . فان كنت في شك مما أوامنا اليك فاذهب الى الحقول وتأمل زهرة من الزهر كالقطن مثلا أو الوردة تجدان الذكران في زهرة الأول أربعة قد أحاطت بمحل الاماث الذي هو في وسطها وقد ألقحتها وهكذا النرة يلقح عليها سافها على منوال ما ينطه الحيوان بحيث ترى ذلك الطلع الذي في أعلاه ينزل على شرابة الكوز ويحصل الاقحاح ، ثم تلك الحبوب من جميع الأصناف هي المقصودة للانسان أو له وللحيوانات إذا النبات خادم لها وهكذا الحيوان خادم للانسان ويخضع بالذتين تمتعاً حقيقيا . فاذا استعمل الانسان عقله فيما يحصل به ما بين الشهرين اللتين قد شاركا فيهما النبات والحيوان

فبثت العلوم وبثت الحياة التي ترجعه من أفق الانسانية الى أفق البهيمية أو النباتية بل الحياة حياة العلوم العالية والنفوس الكاملة الشريفة التي تطالع ذلك الجمال الأبهي من هذه العوالم وهذا الكمال يشا كلها في العوالم العالوية والسفلية

على نفسه فليكن من ضاع عمره * وليس له منها نصيب ولا سهم

ومن قرأ هذا ولم يأخذ بمجامع هواه وأعرض عنه واكتفى بما لديه من العلم فذلك داخل في قوله تعالى - فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم - وقوله - وكأين من آية في السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون - وجميع العلوم آيات ودلائل تشف عن حكمة عالية وقدرة باهرة وعلم تام . والذي أراه أن الشرقيين لا يزالون مجدهم إلا إذا رجعوا الى حالة التعليم قبل اندراس العلم لتثبت فكرة التوحيد في جميع الأذهان واستحضار الخلق في جميع الحركات والسكنات ، ولا يخفى أن علم التوحيد أخذ في أدوار تعليمه أشكالاً وألواناً شتى من ابتداء الوحي الى الآن ، ففي زمن الصحابة والتابعين لم يكن فنا له قواعد وأصول وفروع بل كان باقياً على الفطرة الانسانية المستمدة من آيات القرآن ، وكل يعطيه الله من العلم على حسب استعداده تخلف من بعدهم خلف خرجوا عن الفطرة بما تلقوه من الجدل والفلسفة وانقسموا الى طوائف وحصلت مشاغبات ومنازعات وأخذ ورد تخاف أئمة الدين رحيم الله على العقائد فألفوا فنّ الكلام ليكون حصناً يقي من تهويش أذهان الناس بالمشاغبات فلم يكن مقصوداً لهم لذاته وإنما هو سلاح وجهاد ونحن في زمان مات فيه ذلك العدو وبادت تلك المذاهب ، فن استعمل ذلك السلاح الآن فهو غير يقاتل في غير عدو وكيف وقد ظهر عدو آخر للعقائد في هذه الأيام ، فيجب على العلماء الآن أن يبذلوا جهدهم للنظر في كلام الماديين الاوروبيين وجميع المخالفين لبردوا عليهم فان اللغات منتشرة بين الأمم والأفكار تنتقل وجميع ذوى الضعف في الدين يؤثر عليهم كل فكرة يسمعونها ، أما المذاهب البائدة فالكلام فيها عبث - تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون - فان قلت كيف يعلم التوحيد ؟ أقول : يجب على المعلمين في المدارس وغيرها أن يتدثروا بذكر غرائب العالم من النباتات الجبية والحيوانات الغريبة والنجوم ذات البعد العظيم والقدر الكبير والسرعة الهائلة ، ثم ينتقلون من الأغرب الى الغريب الى المعتاد وذلك لأمر :

(١) إن الفطرة الانسانية ميالة الى الغرائب والاحداث أكثر عشقا لها وولوعا بها

(٢) إن دليل الأثوية أقرب الى أذهان البسطاء في الغرائب كالتوحشين حتى ان أهل الهند على نهر الكنج يعبدون نباتا يتحرك في الدقيقة ستين مرة لا اعتقادهم أن فيه قوة إلهية ، وما ذلك إلا لظهور تلك القدرة الباهرة بأعظم وضوح

(٣) إن آيات القرآن كلها ناطقة بأن النظر في العوالم هو طريق التوحيد

(٤) إن المعلم متى أوقف المتعلم على كل عجيبة وذكر عند ذلك القدرة والعلم وصفات التقديس والتزبيد بحيث تكون جميع صفات الربوبية تذكر تطبيقاً على تلك العجائب كان أثبت في الذهن ورسخ الايمان رسوخاً لا تزلله الرياح العواصف

(٥) إن ذلك مع كونه علم التوحيد هو أيضاً تاريخ طبيعي وطبيعة وتاريخ وفلك وهكذا فيكون ماصرفه من الزمن في تعليمه قد اكتسب به التعليل علوما تنفعه في دنياه وهو لا يشعر - من كان يريد حوث الآخرة زدد له في حوته - فيكون قد أراد معرفة خالقه وهو في الحقيقة يقرأ علوما كثيرة إذ التوحيد هو جميع العلوم بل مثل من يقرأ توحيداً بهذا الوصف مثل انسان زرع أرضاً شجراً مشعراً فان هذا لم يفته خروج حشائش لنوع البهائم فقد جاء التصد الأدنى مع القصد الأعلى ، إن الله

يعطى الدنيا مع قصد الآخرة ولا يعطى الآخرة مع قصد الدنيا
 (٦) إن التلميذ إذا نظر العلوم العالية يرى في نفسه عند مطالعتها كأنه يطالع حكمة الباري في تشريحه
 ويطهرته وطبه وزرعته وحصاده وهكذا لاعتياده على ذلك من صفته ، ولأسباب لقساد أخلاق الشبان
 الذين يتعلمون في المدارس إلا خلق عقولهم من استحضر الخالق فيما عرفوه من العلوم ، ومن
 المقرر أن الحكمة لا تفيد إلا من يستحضر الخالق بسره ويعرفه بعقله
 (٧) إذا رأى علوم الدين التي أزلها الله على نبيه لا تخالف الطبائع الكونية فإنه يشب على تطبيق ديبه
 على ظواهر الطبيعة وينفرد ذلك في نفسه ويستشعر استنصارا تاما بذلك كما هو مقصود القرآن ،
 ألا ترى رعاك الله أن آيات الرحمة والعذاب يؤتى بعدها بآيات عجائب الكون ، ألم يكن ذلك ليظهر
 للناس أن العلمين متوافقان ، ومن العجيب أن بلادنا تنقسم الى قسمين : فيعض الذين تعلموا
 العلوم الدينية وحدها ينكرون العلوم الكونية من الطبيعيات والفلكيات ، ويظنون أن الدين
 يرى منها وماهم إلا جاهلون بها ، وبعض من لم يتعلم الدين ودرس في المدارس تلك العلوم ينكر
 موافقتها للدين ويقول انها تخالفه - ذلك مبلغهم من العلم - و - كل حزب بما لديهم فرحون -
 بل كل من الحزبين مقصر لجهله بما لم يعلم ، ومن جهل شيئا عاداه ، بل الواجب على كل فرد من
 أهلها أن يأخذ من كل فن طرفا والاصدق عليه قول الشاعر

ومن يك ذا فم مرت سقيم * يجد مرآة به الماء الزلالا

فالله خلق هذا الكون بنواميس خاصة تجارية على نسق بديع جعل من تلك النواميس قوانين وشرائع
 بين الناس ، فالكون من فعله وتلك القوانين والشرائع المنزلة على خواص خلقه من قوله . وهل يناقض
 فعل الرب الأكبر قوله - تعالى الله عما يقول الجاهلون علوا كبيرا - . فيبين النواميس الطبيعية والشرائع
 المنزلة تطابق وتوافق لا يعرفه إلا من عرف العلمين . وأما من درس أحدهما وجهل الآخر فهو سوى بأن
 يدعى تنافي العلمين ، بل كثير من قارئ الشرائع لتصور عقولهم يرون نصوصها متعارضة لعدم وقوفهم على
 أصل مأخذ النصين وما هو المقصود منهما فكيف يرون موافقتها للأشياء الخارجة عنها من النواميس الطبيعية
 فالخلق أن الشرائع الالهية والناواميس الطبيعية متوافقة متلائمة وأن من أنكر فاعلمنا ينكر لتصور في عرفانه
 وضغف في بصيرته

هذا ما أردت ذكره بالنسبة للاهليات . أما النبوات فاللهي أراه أن يذكر صفات الأنبياء وسكارم أخلاق
 سيد الوجود ﷺ وتكون المعجزات داخلية في ضمن تلك الأخلاق حتى يشب الطفل على حب النبي
 ﷺ وعلى التعلق بأخلاقه ويصدق فيه الصدق حين يسمع المعجزات وتكون الواجبات في حق الرسل
 قد ثبتت في الأذهان عرضا . فهذا فضلا عن كونه علم توحيد علم أخلاق فيخرج قارئ التوحيد من المدارس
 وقد درس علوما طبيعية وأشياء وفلسفا وأخلاقا . ولنا أمل وطيد من المدارس التي تأسست بالقطر المصري بهمة
 ذوى الثروة والجمليات أن تسمى في أن تلك هذا المسلك الجميد وتدرس التوحيد على هذا النمط ليم بها
 المقصود إن شاء الله تعالى . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم . وبهذا تم الكلام على التينة الأولى
 والحمد لله رب العالمين

﴿ التينة الثانية ﴾

أذكر فيها ما كنت كتبت في مجلة «نور الاسلام» منذ نحو (٢٥) سنة . وسبب كتابتها أتى كنت رأيت
 في المنام عقب قراءة كتاب نقله المرحوم فتحي باشا زغالول عن أمة الاسلام من الفرنسية الى العربية رأيت

أن ملكا يعرب لى « بدأ الاسلام غريبا وسيعود كما بدأ » ودلم على هذا الاعراب والشرح طول الليل وهو يقول : قوله غريبا صفة لموصوف محذوف ، فالوصف ناب مناب المصدر ، ثم يقول : والمعنى المقصود انه بدأ بدأ غريبا لم يمهده له نظير وسيعود كما بدأ أى انه ينتشر انتشارا غريبا لم يمهده له نظير ، وبقيت طول الليل وأنا أسمع هذا القول ويكرر كأنى كنت تلميذا يعلمنى الاعراب والمعنى . ولا يفتأ يقول وأنا أسمع وكنت أرى فى هذا التفهيم استعمال الطرق التى كنت ألقبها على التلاميذ لأنى كنت أعطى السنة الثالثة والرابعة فى مدرسة (الخيزه) كتاب النحو وأعطيتهم باب المفعول المطلق ، وكنت أقول لهم ينوب عن المصدر وصفه وآله وهكذا فسرت أسمع مثل ما أعطى وهو يقول : غريبا وصف نائب مناب المصدر الى آخره ، وكنت وأنا نائم أعلم أنى نائم وأعلم الحجره التى أنا فيها وأعلم أن هذا ملك وهو يلقى الى هذا القول ، فاستيقظت من النوم وقلت فى نفسى إن هذه الرؤيا محيية ولكن هى أشبه بأضغاث الأحلام ومع ذلك وجدت فى النفس وجدانا غريبا ولكن كنت أشد الناس حرصا على أن لا أكلم أحدا لأن مثل هذه يسخر الناس منها ، فإذا أفعال ؟ كتبت مقالة وضمتها هذا المعنى باعتبار انه جاء من عندى ابتكارا وعنوانها « مما أوجب للمسلمين السقوط ، جعل اقتراب القيامة سبب القنوط » وأرسلتها الى إدارة مجلة « نور الاسلام » التى كانت تصدر بمدينة الزقازيق وطلبت أن لا يكتب اسمى تحتها خيفة التشفيع واللوم ، ثم اتى بعد نحو (٢٠) سنة بمبحث عن المقالة فلم أجد لها فأسفت بكل الأسف ، ولكنى بعد بحث وجدتها فى مكتبتى بمجموعة فى ضمن أعداد هذه الجريدة فسرت سرورا عظيما وهأنذا أكتبها هنا بنصها بعد اليأس منها

وبعد أن سبق الكلام على هذا المعنى فى سابق التفسير إذ ذكرت أنى فى هذه السنة اطلعت على مقالة فى الاهرام لكاتب ذكر هذا المعنى وقال اننى وأنا صغير قرأته فى كلام أحد الفضلاء وعدت أسماء من المشهورين وقال فلا أدري أيهم قاطها ، وشرح نفسى ما ذكرته لك ففرفت أن هذا المعنى وصل الى بعض الناس وقد انتشر فى الجرائد السيارة ، واذن عرفت أن هذه الرؤيا أراد الله اظهارها للأمم ، وانها بشاره لها ، وأنا وان كنت أكتمها عن الناس وقد ظهرت فان آمالى من ذلك اليوم صارت معلقة برقى الاسلام موقنة به ولكن ليس من هذه الرؤيا وحدها . كلا . بل هناك ما هو أصدق وأبدع وأجل وأعلى ، وليس هذا مجال القول فيها فانى رأيت أعجب من هذه بما لا يقاس . فهذا هو السبب فى إيقانى برقى المسلمين . ولهذا ألفت هذا التفسير . وهذا كله سرّ قوله تعالى - سترهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم - . فبذلك فليفرح المسلمون . وبذلك فليسعد المسلمون . وهالك نص المقالة المذكورة

﴿ مما أوجب للمسلمين السقوط . جعل اقتراب القيامة سبب القنوط ﴾

سبحان من أعزّ وأذلّ وشكل الأشكال المختلفة والأنوان البديعة والأصل واحد - وأن الى ربك المنتهى - أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها - فازداد الحلو حلاوة والمرء مرارة (١) والغذاء تفضية والسواء مداواة والجميل جالا والقيح قبحا والعناصر لم تتغير . فياهبجا لهذا الاحكام . وما أعجب هذا النظام وكيف من الأصل الواحد تستخرج المتناقضات . وتنتج المتضادات . إن فى ذلك آيات . وينزل الخير والجلود الإلهى فيكسب كلا ما يشاكل طبعه فتشرق الشمس على المحموم والصحيح فتزيد كلا على حسب استعداده وتجمد الطين وتذيب الجليد . فالضوء واحد والقابلية اختلفت - إن ربك حكيم عليم - وهكذا العلم والهدى يصيب القلوب فيعطى كل قلب على حسب استعداده فيضل ويهدى ويسعد ويشقى ويعزّ ويذل والعلم فى نفسه واحد والقابليات مختلفات

(١) ليست الزيادة عامة فى الكل اه

جاء الدين الاسلامي والناس في جهالة وعمىة فأخرجهم من الظلمات الى النور. وبما جاء فيه ان الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ، وانها اقربت وحان وقتها وأن النبي ﷺ بعث هو وإياها كأنهما متلازمان حتى قال ﷺ « بعثت أنا والساعة كهاتين »

فكانت تلك الأدلة والآيات والأحاديث من أقوى ما بحث على أعمال الأمة بل هي أكبر باعث على استنهاض همم أبطال وعزائم رجال الى أعمال البر وترك الكسل والخمود إذ انهم وقت موت الانسان وقيام الساعة التي يلاق فيها ربه يبعث فيه روح نشاط على أن يستعد في كل نفس من أنفاس حياته للخبرات على حسب استعداده إما لنفسه أو أهله أو وطنه أو بني دينه وجنسه ، ويكون أمام الخالق الأكبر كأنه خليفة على عباده يعمل لهم ما فيه صلاحهم ، فمن هذا عرفنا أن انهم وقت الساعة والموت من أجل سياسة إلهية كبرى كيف لا وهي سياسة ملهم الملوك ومرشد العلماء . وعلى هذا سلف الأمة الاسلامية جهدوا في الأعمال عملا بقوله تعالى - سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للتقين - لا للتكاسلين والعاجزين فلنفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، وكانوا يعلمون حقا أن من طلب منه عمل الآخرة فإنه طبعاً طلب منه عمل الدنيا معها إذ هي مزرعة لها وطريق اليها ، ومالا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، فسكانه طلب منهم عمل الدنيا وزيادة لنفع نوع الانسان ، وقد ضربوا لذلك مثلاً رجلاً زرع أرضاً أشجاراً مشمرة فإنه لا يعدم حشائش تخرج للبهائم فقد جاء القصد الأدنى مع الأعلى ، أما من زرع البرسيم مقتصرًا عليه فلا تخرج له الثمرات وعلى ذلك قال تعالى - من كان يريد حرث الآخرة زد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤثمه منها وماله في الآخرة من نصيب - فكان وعظ القرآن وحثه داعياً لعلو الخيم وعملو المهمة من الايمان ، ومن سفلت همته فهو بمنزل عن الفهم والعلم ، ولا تكمل نفس الانسان إلا بآرقة ماء الحياة في سبيل منافع أمته وبلاده مع القصد الأعلى وهو التقرب للخائق الأكبر

هذه أعمالهم وهذه نياتهم ، فانظروا يا قوم كيف تغيرت الأوضاع وانعكس المعنى وأصبح ما كان وسيلة للارتقاء سبباً للذلة والهوان ، ولكن لا غرابة في ذلك فالقرآن لم يزل والقلوب تغيرت - إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له - . هذه الفاتحة وأين عمر . سمع سلفنا في الدين القرآن في الساعة وقربها فأطاعوا وصيت وحثهم على العمل ، وسمعنا فصينا وأشرب في قلوبنا حباً بحول الجهل وشبان الخلاعة والأمل ، وباليتنا اقتدينا بأسلافنا في الوطن إذ مع كونهم عبدوا الجبل سارعوا الى العمل وما أشبه العلم بالماء يتلون بلون انائه ويمثل على حسب مادخله في بيته وأجزائه وبالتور يظهر على حسب لون الشفاف الذي هو فيه ، فكما اهتدى أسلافنا بآيات قيم الساعة ضلنا نحن بها - يصل به كثيراً ويهدى به كثيراً وما يصل به إلا للفاسقين -

أصبح المسلمون الآن في كافة أنحاء المعمورة ولأمل لهم في شوكة ولادولة ولاعز ولاصولة حيث يسمعون من أفواه الجهال بالدين الذين يقولون ما لا يعلمون ان هذا الدين سيمحي وأن هذا أوانه وأن الكفر يعلو وهذا حينه ، وتمسكوا بقضايا لا يعرفون معناها إذ هي محل نظر وبحث بين أكابر العلماء ، وانتشرت تلك الفكرة بين العامة والخاصة ، وبما يوجب الأسف والحزن أن الأذهان تطابقت على جمع الفكرتين وهما ان الساعة قربت جدا وأن الاسلام يمحى ، وحيث اتنا في زمان كثير أنصار الجهل فيه وجب علينا أن نبين للناس فنقول ومن الله التوفيق

أما قرب الساعة فهو لا يدل على ملز عمه الجاهلون إذ يجوز أن تبقى الدنيا قروناً متطاولة بل آلافاً من السنين بل ملايين ، وربما استعظم هذا بعض العقلاء واستبعده جدا بناء على ما رشح في أذهان الصوم مستدلاً بآيات كثيرة وأحاديث كما تقدم على أن الساعة قريبة قول له على رسلك أيها الأخ فان القرب ليس

من المعهود بيننا والاقامت الساعة في حياة النبي ﷺ أو بعده بقليل فإن أعمالنا قصيرة ونحن نرى أن أقل من القرن قرب ولكن القرب على حسب علم ذلك القادر القاهر . ألا ترى الى قوله تعالى - إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا - فالأرض لها ملايين كثيرة وهي سائرة في الفضاء . فإذا نسبتنا مائة ألف سنة أو مليوناً الى تلك الملايين الكثيرة كانت قريبا بتلك النسبة . فاذن لا مانع من بقاء هذه الدنيا وهذا العالم الى آلاف من السنين والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . فكل أمة اتسمت بمكارم الأخلاق وصلحت في أعمالها وكان صلاحها أكثر من فسادها فذلك هي التي تبقى حتى تتغير النيات وتهبط العزمات فتزد الى أزدل العمر . وهذه الأمة الاسلامية قد أخذت دورها في الضعف . ولقد آن أن ترجع الى صلاحها وتأنس رشدها وهوم من رقدتها . ومتى برهنت أمام الله والناس انها أصبحت سالحة للقيام بالخلافة في الأرض سلمت اليها أماتها - ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون - ولقد علم الله وشهد العالم للمتدين (أي العارفين بمقام الاسلام منهم) أن الاسلام أعظم نصير للدينة كما يصلم بأدنى التفاته للتاريخ . وان كنت في شك مما قصصنا عليك فاقرا كتاب «خواطير وسوانح في الاسلام» الذي ترجمه فتحى بك زغلول تأليف الاستاذ هنرى أحد الفرنسيين . أواقرا كتاب ذلك العالم المؤرخ الشهير (سديو الفرنسى) ترالعجب العجيب من أمة ودين ومكارم اخلاق هيمنت على العالم أجمعه

لجئوا أيها المسلمون واعلموا أن أوان ظهور مجدكم وعوده قد آن . فاسترجعوا مجدكم القديم فقد عرف العالم المتدين وشهدت النظر الصادقة بل شهدت العقول ودلت التجارب أن هذا زمن ظهور الاسلام ورجوع مجده القديم فقد بدا وانتشر انتشارا غريبا لم يمهده له مثل في تاريخ الأديان وتم من نحو ١٣٠٠ سنة وهاهو الآن قائم يهود كما كان وينتشر انتشارا غريبا كما انتشر أولا وهذا معنى ما قيل «بدا الاسلام غريبا وسيعود كما بدا» أي كما انتشر أولا انتشارا غريبا لم يمهده له مثل في الأمم . هكذا سيعود وينتشر بتلك الغرابة وبينها والسرعة الفائقة حتى تكون معجزة أخرى . فقوله غريبا صفة لمقدر محذوف أي بدأ غريبا . وهاهو ذا الآن أوان رجوعه بتلك الغرابة . علم الله وشهد كل عالم من علماء الأرض المحققين أن للاسلام رجعة جارية وقدما غريبا قد ظهرت بوادره وجاء أوانه وعلى أيديكم أيها العقلاء يكون ظهوره ذلك ان شاء الله . فجتوا لارجاع مجدكم وحوزتكم . ومتى صحت المقدمات صدقت النتائج

لوتأمل علماءنا اكتشافات القوم الحديثة وما لديهم من العلوم لعلموا انها تفسير لما أوجلت في الدين الاسلامي وتوضيح لما غم علينا فيه (وبعبارة أوضح) ان تلك العلوم والأسرار ايضاح وكشف لنبات القرآن . وأوضح من ذلك أن ذلك مقدمات ظهور سيدنا عيسى وتمهيدات له حين يأتي والناس قد استعدت فطرهم للاسلام قاطبة وتصبير الأرض كلها اسلاما بأمر سيدنا عيسى وكأني ببعض اخواني يضحك من سماع مثل هذا الكلام ونحن نقول له أعر استحضار الأرواح هناك لفئة ترالعجب العجيب وتجد عجبات العلوم تظهر على أيدي هؤلاء - وتعلمون نبأ بعد حين -

جاء وعد رسولنا الصادق الأمين بأن عيسى عليه السلام يأتي في آخر الزمان ويحكم بشر يعتنا أو يظن أن ذلك يكون بدون مقدمات للاسلام ومبشرات بين يدي ذلك النبي . كلا . مم كلا . وهذا الظهور كل من العلماء يفهمه بما يوافق مشربه ولا يتعرض له وانما علينا ذكر النص . وكل يفهم ما يناسب معارفه انظروا الى المستشرقين في أوروبا يقرؤون هذا الدين ويحبون أي احباب . انظروا لأولئك المتربين في أوروبا الذين يجيبهم كل شيء صدرنا وهم نظير المترجمين عندنا فالقوم في بلادهم لا يعرفون عن الاسلام شيئا إلا قليل منهم وكل من عرف شيئا منه تشبث به . ولا بد أن يكون هذا القرن الآتي أوان ظهور شمس حقايقه في ربيع العالم المتدين حتى تأنس ببعض معارفه الأذهان قبل مجيء ذلك النبي في آخر الزمان يحكم

بشرع خبر ولد عدنان . فكيف بعد هذا كله يقنط المسلمون من رحمة الله . وهذا وعد لهم . أم كيف نبت في عقولهم أن دوهم تنقرض وهم الذين ورد فيهم : لانزال طائفة من أمتي قائمة على الحق حتى يأتي أمر الله « فهذا الدين وهذه نصوصه . فمن ضمن أن الساعة قد جاء وقتها وأن الاسلام سينقرض فقد جهل وضل وأضل » وادعى انه أعلم من رسول الله ﷺ

وانه تعالى يقول - يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى لا يعلمها لوقتها إلا هو قلت في السموات والأرض لا تأتينيكم إلا بفتة يسألونك كأنك حنى - عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون -

فكيف جاء قوم اليوم جعلوا أنفسهم أعلم من رسول الله وزعزعوا قلوب الناس وأرجفوا وخوفوا وافترخوا على الله كذبا في أمر الساعة - إن الذين يضنون على الله الكذب لا يفلحون - وما أمر الساعة إلا كالحب البصر أو هو أقرب إن الله على كل شئ قدير - ولكن إن بحثت عن هؤلاء تجد ان أكثرهم بها لا يعرفون - يستهجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون انها الحق ألا ان الذين يمارون في الساعة لنى ضلال بعيد -

فأتملوا يا قوم وافهموا القرآن فان إخفاء الساعة سر - مكنون ومنه أن يقيم الناس دوهم ويأملوا في بقائها ودوامها . ومتى عرفوا قربها اخلت روابها الأمم ووقفت الحركة وانزعجت البركة . ولذلك أعقب هذه الآية بما يشير الى ذلك حيث قال - الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز -

وإذا كان إخفاء الساعة سياسة لاصلاح المعاش والميعاد معا واطفا من الله بالمعاش في الدارين لاني الدنيا فقد أرشدنا الى أن الرزق المذكور يؤتى به كالتابع لأعمال الآخرة ولذلك أعقبه بقوله تعالى - من كان يريد حرث الآخرة زد له في حرمه ومن كان يريد حرث الدنيا فؤته منها وما له في الآخرة من نصيب هذا ورجأى من كل من اطلع على هذا أن ينشر هذه الفكرة في كافة أنحاء المعمورة حتى تنزع تلك الضلالة من الأذهان اه

﴿ تذكرة ﴾

إني قلت « بدأ الاسلام الخ » بصفة انها حكمة عامة .

اللطائف العامة لأقسام السورة كلها (١)

وهي ست لطائف

﴿ اللطيفة الأولى ﴾ في تفسير البسطة وذكرا الرحمة فيها ومناسبتها لما ذكر في السورة من طبقات الأرض وما فيها من صور جميلة وبدائع كشفها القوم في زماننا مصداقا لقوله تعالى في آخر السورة - سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم - الخ

﴿ اللطيفة الثانية ﴾ في قوله تعالى - فصلت آياته قرآنا عربيا - وكيف بقيت اللغة العربية محفوظة مصداقا لقوله تعالى - لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - وقوله - سترهم آياتنا - الخ وفي هذه معجزتان : الأولى ان الكشف أظهر أن الأرض لم تتكون فجأة . الثانية : ان الأيام قد بلغت في علم التلك مئات الملايين وهذا يقرب من أيام خلق الأرض

﴿ اللطيفة الثالثة ﴾ في قوله تعالى - حتى اذا ما جاءها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم - مع

(١) هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف ولم يفتح الله بها إلا عند طبع هذه السورة : المؤلف

قوله - يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم - وكيف ظهر علم الأيدي والأرجل وكشفها للجنايات في الدنيا وانها اذا قبلت شهادتها عند الله فالتفتة أخرى أن يقبلوا شهادتها وهذه مجيزة أيضا لأن الأيدي والأرجل اختصتا بذلك في الكشف دون سائر الأعضاء

﴿ اللطيفة الرابعة ﴾ في قوله تعالى - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة - الخ

﴿ اللطيفة الخامسة ﴾ في قوله تعالى - ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة -

﴿ اللطيفة السادسة ﴾ في قوله تعالى - سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم -

﴿ اللطيفة الأولى ﴾

(في البسمة وذ كر الوجة فيها ومناسبتها لما ذكر في السورة من طبقات الأرض وما فيها من صور

كشفتها القوم في زماننا مصداقا لقوله تعالى في آخر السورة - سنريهم آياتنا في الآفاق -)

تجلت الزجاجات العائمة في هذه السورة بصورتين اثنتين جيلتين بهيتين ، صورة الحروف ، وصورة العناصر ورمز لهدن بالخاء والميم ، الوجة وسعت كل شئ ، وتجلت في هذه السورة في الحروف والعناصر ، والحروف والعناصر يرجعان لشي واحد هو التحليل ، اللغات التي يعرفها الناس تقدر الآن بنحو خمسة آلاف لغة ذكرت بجلها في ﴿ سورة الروم ﴾ عند قوله تعالى - واختلاف ألسنتكم وألوانكم - فارجع اليه إن شئت ، وكلها راجعات لشي واحد هو الصوت كما ان العناصر التي وصل المعروف منها الآن حوالى الثمانين عددا منها تركبت جميع هذه المخلوقات ، اللغات حركات في الهواء ، ومجائب الطبيعة حركات في الأثير ، وكلها تحلل الى أصولها الأولى ، باللغات ندرس العلوم ويتعارف الناس ، وبالعناصر وتركيبها تكون حياة الحيوان والانسان

تجلت رجحات الأصوات والحروف في قوله تعالى - كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا - واللغة العربية كما تقدم في ﴿ سورة الروم ﴾ إحدى اللغات السامية التي تدرجت من حال الى حال كما ستره قريبا ، فهي أبدا متقلبة متقلبة ، فبينما ترى قدماء العرب في الجزيرة قبل تاريخ الميلاد بيضعة آلاف يكتبون بالقلم السومري الآتي بيانه وصورته اذا هم يكتبون في الجاهلية قبل الاسلام بقلم آخر اذا هم يكتبون في زمن النبوة بقلم أقرب اليها ، وهكذا نفس الألفاظ تتغير لهجاتها تباعا متطورات تطوار الأزمان والقرون والسنين ، ولكن لما جاء الاسلام استقرت اللغة العربية لفظا وخطا على أساس مقاربة الى الآن مجيزة لهذا القرآن كما ستره موضحا ، إذ انك ستري فيها يأتي سورة الفاتحة والاخلاص مكتوبتين باللغة الصينية ومعهما اللغة العربية ، فذلك التبديل الذي يصير اللغات لم يجر على اللغة العربية إلا في طريقة التحسين والبهجة ، أما تغيير الحروف لفظا وخطا تغييرا جوهريا كما يعترى جميع اللغات فهذا لم يكن . ولما كان هذه المجيزة آثارها التي ظهرت في المسكونة من أقصاها الى أقصاها قال في نفس هذه السورة - ولوجعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أ أعجمي وعربي - الخ فكانت هذه الآية رمزا الى ما هو حاصل الآن من أن القرآن يكتب باللغة العربية وان كان القراء له أعجميين لأنهم لو قرؤوه بلغاتهم لورد عليهم هذا الاشكال . أنهي عربي وقرآن أعجمي . وهذا هو السر في حفظ نفس اللغة العربية مع القرآن أينما حل

هذه هي الوجة التي تجلت في هذه السورة في قوله تعالى - كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لأنه لو كان أعجميا لقبل هلا فصلت آياته بالعربية التي نزل بها فاذا قرئ بغيرها لم يكن منصلا بل كان مبهما أعجميا . وبهذا تم الكلام على الآيات المفصلات الناجات من الحروف

﴿ الآيات المفصلات في المادة الأرضية والسموية ﴾

اعلم أن القرآن لا يفرق في الآيات بين كونها متلوة بالألسنة أو بين كونها مسموعة بالأذان أو مخلوقة في الأرض

والسماوات مركبات من العناصر منظورات بالعيون . الله خلق السمع والبصر . وللمسمع جاءت اللغات ومنها العربية . وبالعربية سمعنا القرآن وبقى الى الآن باللغة العربية لفظا وخطا . وللبصر خلق الكواكب والمركبات الأرضية والدسائط . إذن الآيات مسموعات ومبصرات . وكما جاء في القرآن ذكر السمع والبصر . ويقول سبحانه - إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا - وما الفؤاد إلا الهبة النفسية التي بها تفهم وتبصر فيما سمعنا وفيما رأينا ، والسورة مبدوءة بالآيات المسموعة لأن الناس في أول أمرهم يعملون بما يسمعون ، فإذا ارتقوا قليلا فهموا ما يبصرون ، فالناس أولا يؤمنون بما يسمعون بسبب صدق الخبر لهم ، ثم بعد ذلك يفكرون بأنفسهم فيما سمعوه ، فالآيات المسموعات تكون أولا والآيات المبصرات تتلوها . لهذا ذكر المسموعات وتفصيلها أولا ثم تلاها بالآيات المبصرات ، فإذا تلا علينا ٧ نبي علينا أولا اجبال هذه الدنيا وأن الأرض خلقت فيها الجبال والنبات والمعدن والحويان والانسان ، وكان ذلك كله في أربعة أيام ، وأن السماوات خلقت ورتبت ونظمت وأعطيت كل سماء نظامها الخاص بها وزينت بأجمل زينة وأبهج منظر . وذلك في يومين . وكان مبدأ أمر السماء دنانا فما زالت العناية بها حتى صارت وصارت الأرضون بالخال التي نراها عليها الآن . ولا جرم أن المذكور هنا إجمال . فهنا سماء وههنا أرض أمرا أن يأتي طوعا أو كرها ولكنهما أقل من أن يعصيا خالقهما فأطاعنا والطاعة إنما تكون بالخدمة ولا خدمة إلا بحركة والحركة دائمة من أول خلق العالم الى فناءه ، بل نفس العالم هو نفس الحركات كما قررناه في مواضع من هذا الكتاب فالعالم كلها مسخرات جاريات متحركات وكلهن آيات . وهذه الآيات المبصرات ترجع الى آيتين اثنتين في المشاهدات آيات السماء وآيات الأرض . وكما أن مبدأ السورة فيه ذكر الآيات المسموعات القرآنية في تفصيل القرآن العربي والآيات المبصرات الكونية في خلق الأرض والسماوات ، هكذا في القسم الآخر منها تأييد كون القرآن لا بد من بقائه بالعربية الى آخر الدهر كما قدمنا وذلك في الآيات المسموعات وتبيان الآيتين الكونيتين المذكورتين أول السورة إذ يقول تعالى - ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لانسجدوا للشمس ولا للقمر - ويقول - ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت - . إذن ما جاء في أوخر السورة مبين لما جاء في أولها . فكون القرآن لا يصح أن يكون أعجميا راجع لقوله تعالى - كتاب فصلت آياته - الخ وكون السماوات من آياته وخروج النبات من الأرض من آياته راجع لما في أولها من خلق السماوات والأرض ومن قبل ذلك اتبع ذكر الآيات القرآنية والآيات السماوية والأرضية بإنداز المتركين وشهادة الجلود ونطقها . والنار المؤلمة لهم . والعداوة التي تقع بينهم إذ يعدون ونبشير المؤمنين بأن لهم ما يشتهون . ثم ذكر علم الأخلاق . وذكر حسن المعاشرة . والصبر . وجبل الأخلاق . وختم السورة بوعد جميل قائلا : إن الآيات بسميها سواء أكانت في القرآن كانت في السماوات والأرض سأريكموها . فمن آيات القرآن المسموعة ان هذا القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وهذا قد ظهر ظهورا واضحا فان أهل أوروبا الذين كان هذا القرآن سبب نهضتهم الحديثة أصبحوا اليوم يبطنون بالاسلام وبأهل الاسلام . ومع ذلك غابهم هذا الدين وبقى محفوظا . والبليغ على ذلك ما نراه من أنه مكتوب بالحروف العربية في بلاد الصين كما سترأ في الصورة الشمسية في هذه السورة كما ذكرت آنفا . أفليس هذا هو نفس الوعد الذي في آخر السورة . وهل أحد ملزم أن يظهر هذه المعاني أكثر منا نحن الذين نعيش في الأرض الآن . المسلمون المتأخرون قبلنا لم تكن لديهم مواصلات مثلنا . إذن وجب على أنا أن أقول للمسلمين بعدنا أيها المسلمون : وعدنا الله أن يرينا آياته وهذه الآيات منها المسموع مثل ان القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وقد ظهر وانضح . وأن أقول أيضا . أيها المسلمون : إن الآيات المبصرة التي وعدنا الله أن يريناها لنا قد أراها فعلا ونشرها في الأرض . الله وعدنا أن ير بنا آياته . والآيات المبصرات المذكورات في السماوات والأرض جعلت اثنتين اجبالا في السورة

ولكن هذا الاجال فصل . وتفصيل هذا الاجال جاء في علمين اثنين : علم الفلك . وعلم طبقات الأرض
(الجيولوجيا)

الله أكبر : هاهو سرّ القرآن ظهر ، هاهي العلوم ، هاهي ذه علوم الله وآياته ظهرت وبهرت ، هذا وعد
الله والله لا يخلف وعده ، الله رحيم ومن رحمته أنه لا يدع عباده يتخبطون في دياجير الظلام تأهين حائر
لا يستقرون . الله سبحانه وتعالى لا يدع المسلم متحيرا يقول يارب أنت قلت أنك خلقت الأرض ونظامها في
أربعة أيام . وخلقت السموات في يومين . فأنا يارب في حيرة . يارب أنت أمرتنا بالوضوء وبالصلاة وبالزكاة
وبالحج وبالمعاملات . وخلقت لنا المجتهدين كالشافعي وأبي حنيفة ومالك وابن حنبل والامام زيد والمجتهدين من
الشيعة . فيارب إن هؤلاء ماينونا إلا الأعمال . والأعمال تصقل النفوس . والنفوس متى صقلت استعدت
للعلم . وأنت أنزلت في هذه السورة آيات مسموعة وآيات مبصرة وأمرتنا بالاستقامة فيها إذ قلت - فاستقيموا
اليه واستغفروه - . وبعد ذكر الاستقامة ذكرت لنا آيات السموات وآيات الأرض . وكما أنك أوضحت آية
المبصرات وآية المسموعات في أواخر السورة بذكر كون القرآن عربيا . وبيان أن السموات والأرض من
آياتك أوضحت أيضا نتائج الاستقامة المذكورة في أول السورة إذ قلت - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا
تنزل عليهم الملائكة - الخ . ففي السورة آيات مبصرة وآيات مسموعة وأعمال مشروعة بالاستقامة وكلها
فصلت في السورة . وهذه الأعمال المشروعة لصقل عقولنا ما هي إلا المقدمات للتبحر في العلوم . وكيف تدخل
العلوم قلوبا غير صافية لم تصقل وصلفها بالاستقامة . ونريد ياربنا أن نكون علماء فبالعلم فصل اليك

يقول الله أنا رحيم ، رحمتي وسعت كل شيء . ، أنا رحمت الخشرات فجعلت لبعضها آلاف العيون لتبصر
فكيف لا أعلم الانسان . هاأناذا شرحت وفصلت الآيات في علم الجيولوجيا والفلك ، فليقرأه المسلمون لأنه
جليل ولأنه بهيج . نعم إن هذه العلوم الأرضية لم تصل الى غاية الكمال لأن نفوسكم لا تحتمل الكمال في العلم
وأتم الآن عندكم مبادئه يأهل الأرض لأنكم لا تؤتون من العلم إلا قليلا ، ومن هذا القليل علم الجيولوجيا
والفلك . أقول أنا ولقد جاء في هذا التفسير أن اليوم إما (٣٤) ساعة وذلك بدوران الأرض حول نفسها في
اليوم واللييلة واما أن يكون أكثر من ذلك حتى يصل الى (٣٠٠) مليون سنة وأكثر من ذلك وأقل ، وهذه
الثلاثمائة المليون سنة لدوران الجرة التي منها شمسنا على نفسها ، فإذا سمعنا الله يقول - وان يوما عند ربك
كألف سنة مما تعدون - أو يقول - في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة - فهذا فتح باب لمعرفة دوران
الكواكب وأيامها وسننها ، وبه نعرف الأيام التي خلقت فيها السموات والأرض . وهذا كله لاتسع العلوم
والمعارف فليست الأيام قاصرة على ألف ولا على خمسين ألف و ٣٠٠ مليون سنة بل تكون أكثر وأقل
باختلاف الشمس والمجرات والسدم . وأنا أجد الله تعالى إذ كان هذا التفسير مملوا بهذه الجوانب ، فيه
ممنع لكل من اطلع عليه ، فالجد لله الهدي لهم وعلم . هذا من حيث الأيام وأن علومها اتسعت في زماننا
فأصبحنا نعدّها بمئات الملايين

بقي علينا أن نبحث من علم الجيولوجيا في نظم هذه الأرض والسموات وندرجهما من حال الى حال
وأن السموات كانت دنانا وهذا بيت التصيد

فلاشرح هذا الموضوع بتدر الامكان من علم الجيولوجيا تفسيرا لقوله تعالى - سنريهم آياتنا في الآفاق
وفي أنفسهم - ولقوله - قل أنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون الله أندادا ذلك ربّ
العالمين * وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين * ثم استوى
الى السماء وهي دنان - الى آخره

أيها المسلمون : إن الله تعالى من عنايته بنا ذكرهنا (عشرة أفعال) في هذا المقام : « خلق ،

جعل ، برك ، قتر ، استوى الى السماء ، فقال ، قالتا ، فقضاهن ، أوسى ، زينا ، فهذه الأفعال العشرة جاءت على وتيرة واحدة وهي أفعاله تعالى نفسه . وإذا كان الأئمة رجهم الله قداعتوا بآية الوضوء والغسل والتيمم فألقوا فيها كتباً وليس فيها إلا أفعال خمسة من أفعالنا نحن وهي اغسلوا وامسحوا اطهروا تيمموا فامسحوا هذه أفعال خمسة من أفعال العبد استفرقت كتباً في المذاهب المختلفة ولم تنل هذه الأفعال العشرة التي هي من أفعال الله جزءاً من ألف مما استفدته نتائج الأفعال الخمسة العملية في الوضوء والغسل والتيمم . أفليس هذا أعظم تقصير ! أفليس من العار أن يسمع المسلم الله يقول - فقال لها وللأرض - الخ ولا يبحث ولا يذكر ، إن ذلك جهل مبین

إذن لنبحث ونشر عن ساعد الجند في كسب أمرين : أمر علمي ، وأمر عملي . أما الأمر العلمي فهو الجمال والبهاء والنور والحكمة والسعادة النفسية لأن علم طبقات الأرض وعلم الفلك يرقيان نفوسنا ، ولا معنى للإنسانية إلا العلم ، ومتى ارتقت النفوس قربت من ربها إذ لا قرب إلا بالعلم ، وما العمل إلا سقل للنفوس واعدادها غالباً ، هذا هو الأمر العلمي

أما الأمر العملي ، فالتأمل نال حظاً في حياتنا إلا بالعلم . وكيف نعرف خواص النبات أو الحيوان إلا بدراستهما . وكيف نستخرج الفحم من الأرض والملح والمعادن والسوائل كالبترول والغازات اللاتي عرفها أهل أمريكا فأوقدوا بها مصابيحهم من نفس الأرض إلا بعلم طبقات الأرض التي وعدنا الله بتفصيلها . فأذكر لك فيما يأتي شفرات منه . وعلى المسلمين بعدنا إتمام ما بدأناه فان ذلك واجب عليهم شرعاً ، فأجعل الكلام على الأرض في ﴿ باين ﴾ باب العلم ، وباب العمل

- (١) باب العلم . لأبدأ أولاً بذكر معلومات عامة عن الكرة الأرضية
 - (٢) ثم أتقى بذكر أهم النظريات الحديثة من حيث ان أصل الأرض كانت سديماً أى ذرات معدنية
 - (٣) ثم أتبعه بذكر العصر الأول للأرض
 - (٤) وبعده عصر الحياة القديمة
 - (٥) ثم عصر الحياة الوسطى
 - (٦) ثم عصر الحياة الحديثة وما فيه من بقايا خشب وغابات متحجرات
 - (٧) وما يتبع ذلك من العصر الحجري القديم
 - (٨) ثم العصر الحجري الحديث . وعصر البرنز
- ثم يلي ذلك باب العمل ، وهو ذكر نبذة من تاريخ المعادن بالقطر المصري . فلا شرع في تفصيل ذلك فأقول ومن الله التوفيق

(باب العلم وفيه ثمانية فصول) ^(١)

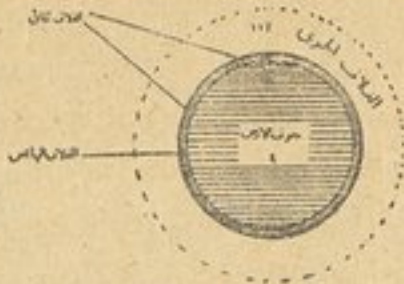
(الفصل الأول)

(في ذكر معلومات عامة عن الكرة الأرضية)

تطلق لفظة الأرض أو الكرة الأرضية على الكوكب الذي نكنه سواء منه اليابس والماء وعلى ما يحيط به من هواء

ويمكن تقسيمها لسهولة البحث تقسماً طبيعياً إلى أربعة أجزاء (انظر الشكل ١٣ في الصفحة التالية)

(١) هذا وما بعده في هذا العلم من كتاب الجيولوجيا تأليف الدكتور حسن صادق مراقب مصلحة المناجم



- (١) الهواء - الغلاف الجوي
- (٢) الماء - الغلاف المائي
- (٣) اليابس - القشرة اليابسة
- (٤) جوف الأرض

(شكل ١٣)

قطاع تخيلي يوضح أقسام الكرة الأرضية
وفي الواقع أن الجيولوجيا تبحث في تكوين وتركيب القشرة اليابسة وما تحده في العوامل الناتجة
من تفاعلات الأجزاء الثلاثة الأخرى

(الغلاف الجوي)

يطلق هذا اللفظ على مجموعة الغازات التي تحيط بالكرة الأرضية . ولا اعتبارات عديدة يترسمك هذا
الغلاف تقديراً تقريبياً بنحو ٥٠٠ الى ٦٠٠ ميل على أنها بحكم قلة ضغطها أو كثافتها كلما بعدنا عن سطح
الأرض تكاد لا تكون محسوسة على ارتفاع ٢٥ ميلاً من السطح
يتركب الهواء من الغازات الآتية بالنسبة المئوية المئوية أمام كل منها

آزوت (نروجين)	٧٩	في المائة
أوكسجين	٢١	
نافي أوكسيد الكربون	٠.٠٣	ر .

وهذا أعداداً قليلة جداً من غازات نادرة مثل الأرجون والهيليوم والكريبتون والنيون والجزئون
وكذلك بخار الماء الذي يوجد بكميات متفاوتة بتفاوت سطح الأرض من حيث الرطوبة والجفاف . وهذا
الأبخرة والغازات البركانية والأترية الدقيقة وهي مواد وان لم تكن أساسية في الهواء لها أحيانا أهمية خاصة
من حيث أثرها في العوامل الجوية

وترجع أهمية الهواء كعامل من العوامل المؤثرة في سطح الأرض اليابسة إلى صفتين :
(أولاً) التأثير الكيميائي لبعض العناصر المكونة للهواء في المعادن والصخور التي يتكون منها اليابس
(ثانياً) ميعه الهواء وسهولة حركته من جراء تغيير الحرارة والضغط وما ينتج عن هذه الحركة من رياح .
ومن الهواء تهطل الأمطار ومن هبوه تتكون الأمواج وهذه كلها عوامل ذات أثر ظاهر في القشرة
الأرضية اليابسة . وسبأني وصف كل من هذه العوامل وأثرها

(الغلاف المائي)

يطلق هذا الاسم على ما يوجد على سطح اليابسة من ماء في المحيطات والبحار والبحيرات والأنهار وما
يتخلل جفواتها وشقوقها . ولو كانت الأرض كرة ملساء لانعراج في سطحها لفظها ذلك الماء بغلاف سمكه
ميلان أما وسطح الأرض بين مرتفع ومنخفض فقد اجتمع الماء في مناطق الهبوط فتكونت منه المحيطات
والبحار والأنهار التي تغطي نحو ثلاثة أرباع من مجموع سطح الكرة الأرضية

(أعمق البحار والمحيطات)

يختلف عمق هذا الغلاف المائي من مكان لآخر اختلافاً كبيراً فالأنهار والبحيرات غالباً قليلة العمق والبحار
قد يبلغ متوسط عمقها بضع مئين من الأمتار بينما المحيطات قد تبلغ من العمق آلاف الأمتار . وقد برهنت

المقاسات التي أجرتها بواخر الاستكشاف وبواخر وضع الأسلاك البرقية البحرية أن متوسط عمق المحيطات من ٤٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ متر وقد بلغ أكبر عمق رصدته تلك المواخر نحو ٩٤٣٠ مترا بالمحيط الهادى قرب جزائر البوليونيز

كذلك يستدل من نتائج أعمال بواخر الاستكشاف المذكورة أن قيعان المحيطات هي عبارة عن سهول ممتدة نكتفها سلاسل من الجبال مغمورة تحت الماء وقد يصل بعضها إلى قرب سطح الماء أو يعلوه فيشكل منها بعض الجزائر في وسط المحيط كجزائر القديسة هيلانة في المحيط الأطلنسى وجزائر ساندوتش بالمحيط الهادى والماء هو مركب كيميائى من اتحاد الأوكسجين والهيدروجين بنسبة ذرة من الأول وذرتين من الثانى إلا أنه يوجد في الطبيعة دائماً مذاباً فيه أملاح مختلفة تتفاوت في مقدارها تفاوتاً عظيماً فياه الأنهار وأغلب البحيرات عذبة . أى لأن الأملاح المذابة بها قليلة بينما مياه البحار والمحيطات مالحة أى مذاب بها كمية كبيرة من الأملاح

وتزيد نسبة الأملاح المذابة في مياه البحار المغلقة في المناطق الحارة نظراً لارتفاع نسبة البخر وهضم تعويض المياه التي تفقدها كافي البحر الميت بلسطين . انتهى الفصل الأول

﴿ الفصل الثانى ﴾

(في أهم النظريات الحديثة من حيث أن الأرض كانت سديماً)

اعلم أن العلماء بحثوا في أصل الكرة الأرضية علما منهم بأن المركب أن لم يحلل إلى عناصره والعلم أن لم تعرف أصوله ومبادئه وأحواله الماضية لم يتفح الناس به كما إن اللغات لاتكون مفيدة مالم تحلل الجمل إلى كلمات والكلمات إلى حروف ، والحاء والميم اللذان كورتان في أول هذه السور شاهد عدل بذلك لتقوم حجة رمزية على المسلمين الذين يجهلون تحليل العلوم وأصولها لأنهم لا يتفحصون بها ولا بالحياة على هذه الأرض وإذن نسرع في آراء العلماء فنقول .

لقد وضع العالم الفلكى الألماني (كانت) سنة ١٧٥٥ نظرية لأصل هذه العوالم . فقال « إن الفضاء السماوى كان قبل تكوين الشمس العظيمة وسياراتها مملوفاً بسحابة عظيم جداً مركب من مواد غذائية مرتفعة الحرارة جداً ، ثم أخذت الجاذبية تلتصق بعض أجزائه ببعض بحيث صار كتلا كل كتلة لها مركز خاص يدور بعضها على بعض وتأخذ الحرارة تنقص شيئاً فشيئاً وهذه هي الشمس التي نسميها نجوماً »

فلما اطلع على هذه النظرية (لابلاس) الفرنسى سنة ١٧٩٦ - ١٨٢٤ اشتق منها نظريته المعروفة وهي « إن المجموعة الشمسية كانت سديماً حاراً يملأ فضاء واسعاً فأخذ يبرد شيئاً فشيئاً ، وبعد ذلك أخذت حلقه وحلقه وراء حلقه وهذه الحلقات تتكثرت وبردت وهي تدور حول نفسها وحول الشمس وهذه هي الكواكب السيارة ومنها الأرض ، فالأرض على هذا الرأى ما هي إلا من ذلك السديم وقد كانت جزءاً من الشمس ، والشمس لما أخذت تنقلص وتبرد تركت أجزاء منها هي عين السيارات وعين الشمس الخ »

هذا رأى (لابلاس) الفرنسى بعد (كانت) الألماني . ومعنى هذا أن حرارة الأرض الآن أقل من حرارتها في العصور القديمة جداً (عصور الجيولوجيا) أى علم طبقات الأرض ، وهذا الرأى هو الذى كنا ندرسه وتلقاه ونحن تلاميذ بدار العلوم منذ نحو (٤٠) سنة ، ولكن هذا الرأى الآن ظهر بطلانه لأنهم لما نظروا إلى الحيوانات التي استخرجوها من باطن الأرض (وسترى بعضها) وقد مضت عليها آلاف وآلاف من السنين وجسدها لا تحمل حرارة أشد من حرارة الأرض الآن وأن حرارة الأرض الآن هي حرارة الأرض قديماً .

إذن هذا الرأي بطل الآن وحل محل رأى آخر وهو أن السديم ليس غازا بل معنى المتعارف بل هو معدن وهذا المعدن ذرات صلبة بينها جاذبية فتكون منها سحابة سمارية أو غبار سماوى يخضع لقانون كانه جسم واحد . أقول والقول الأول والثاني في نظر القرآن سواء لأن الله يقول - ثم استوى الى السماء وهي دخان - فنظر السماء دخان ، ولكن كون هذا الدخان شديد الحرارة وليس معدنا أو معدنا له أجزاء طائفة في الجوق كالغبار ، فهذان بيان في أنهما يسميان دخانا . فالرأى الحديث الذى استقر عليه القوم أن الأصل الأول سديم والسديم كما قلنا ذرات معدنية صلبة طائرات مرتببات بقوانين ، أو هي غبار سماوى ، أو (دخان) وهالك صورته (انظر شكل ١٤)



(شكل ١٤ - منظر السديم المعروف في مجموعة نجوم الجبار كما يرى بالنظارة الفلكية المعظمة)

ثم ان هذا السديم امتدت منه أذرع أخذت شكلا حلزونيا بسبب دوران شكل السديم فأصبح بذلك أشبه بالسديم الحلزونى الذى يرى في مجموعة النجوم المعروفة بالسلاقى (انظر شكل ١٥)



(شكل ١٥ - منظر للسديم الحلزونى في مجموعة نجوم السلاقى كما يرى بالنظارة الفلكية المعظمة)

وهكذا أخذت المعادن أثناء الدوران نفوس وتزل في وسط هذا السحاب . ولما غاصت تركت وراءها مادة ألطف منها . فكانت هذه هي القشرة الأرضية . وهذه القشرة لما جدت بالبرودة انكسبت وصارت

مجمدة فهبطت منها أجزاء وهي المحيطات وبرزت أخرى وهي القارات . وقد أحاطت بالأرض أبخرة صارت ماء . وبهذا تم الكلام على الفصل الثاني والحمد لله رب العالمين

﴿ الفصل الثالث في العصر الأولي للأرض ﴾

جاء في كتاب الجيولوجيا ما نصه

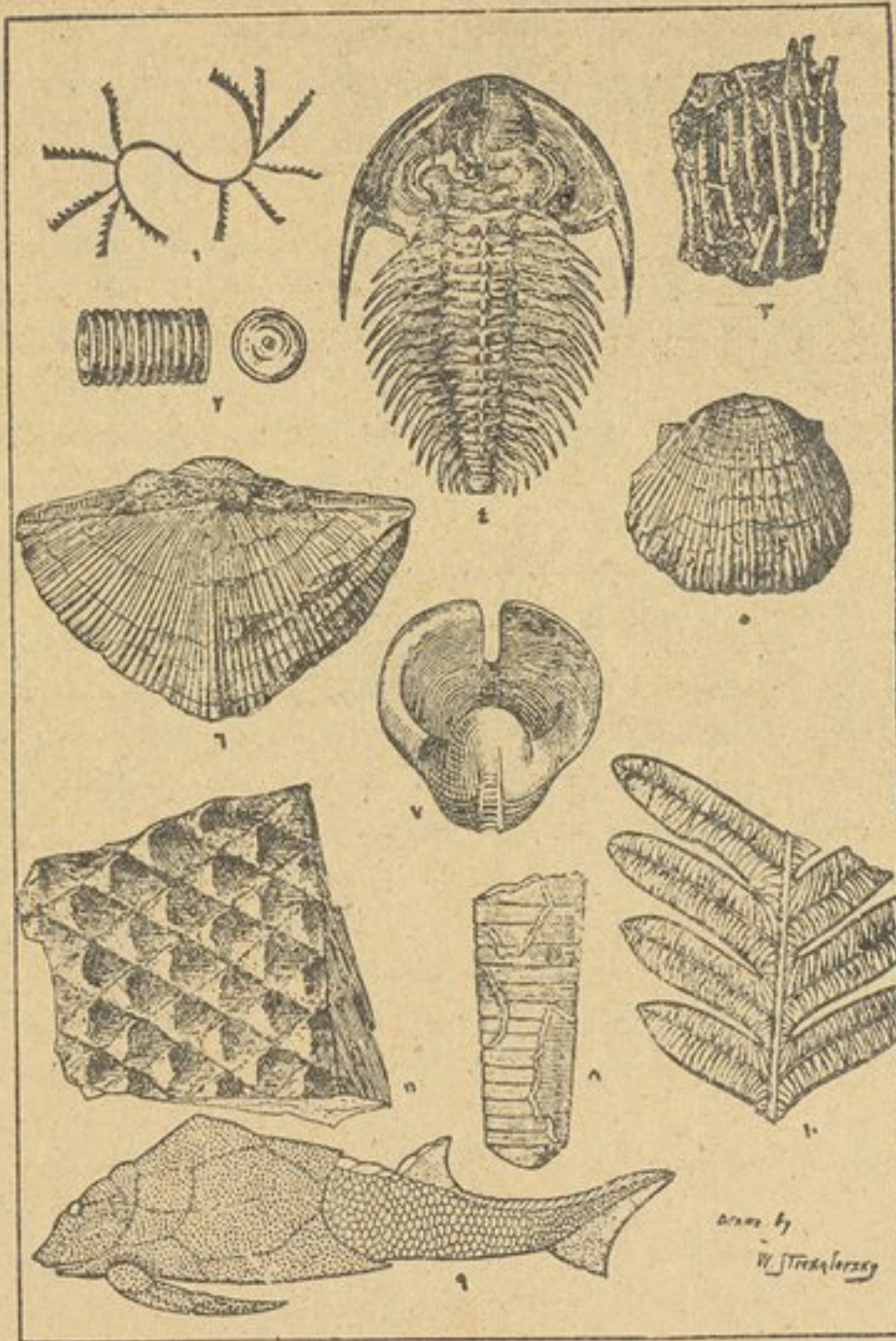
﴿ العصر الابتدائي للأرض ﴾

يبدأ هذا العصر وقد أصبحت الأرض وحدة كروية مستقلة ذات قشرة خارجية من صخور جرانيتية . وتجمعت هذه القشرة بالانكماش الناتج عن البرودة فبرزت منها أجزاء هي القارات وانخفضت أجزاء أصبحت أحواض المحيطات بفضل ما يجمع فيها من المياه التي تظرت بالبرودة من الأبخرة التي كانت تحيط بهذا الكوكب في حالة نشأته الأولى وتعرضت القارات الى عوامل التعرية فتفتت صخورها ثم اكتسحت المواد الفتنة الى البحار والمحيطات من جوار بعض العوامل التي تقدم وصفها كالرياح والأمطار والأنهار فتكونت الرواسب على قيعان البحار ومن ثم بدأ تكوّن الصخور الراسبة

﴿ الفصل الرابع : في الحياة القديمة ﴾

يمثل هذا الحقب جزءا كبيرا من مجموع الزمن الجيولوجي يقدر كإقدا بنا نحو ٣٠ في المائة من مجموع . وتدلنا الحفريات الكثيرة التي وجدت دفيئة بين صفحات صخوره أن سطح الأرض وجوف البحار كانت وقتئذ سرعا لأنواع من الحياة تختلف كل الاختلاف عن الكائنات الحية التي تعمروها الأرض الآن . فكانت من بينها أجناس وفضائل ورب قد بادت وانقرضت فليس شئ يشابهها الآن على وجه الأرض كما أن على سطحها الآن من الفضائل الشائعة ما لم تكن قد ظهرت بعد . (انظر اللوحة الأولى) في الصفحة الثالثة ومن أهم فضائل الحيوانات التي يختص بها هذا الحقب القديم الجرابتوليت والتريلوبيت التي عاشت واندرت قبل انقضاء ذلك الحقب فلا أثر لها بين صخور الحقب الذي يليه . (انظر رقمي ١ و٤ باللوحة الأولى) والجرابتوليت من فصيلة الحيوانات البحرية المعروفة بالبوريفرا . وهي عبارة عن سلسلة متصلة من الخلايا يربط بعضها ببعض عمود دقيق . وقد تكون فردية مستقيمة أو مقوسة أو حلزونية وقد تكون متفرعة الى فرعين أو أكثر (شكل ١ باللوحة الأولى) والتريلوبيت من فصيلة الحيوانات القشرية تنقسم طوليا لثلاثة أقسام هي الرأس والجسم والذنب وعرضيا لثلاثة أقسام أيضا (شكل ٤ باللوحة الأولى) ومن أنواع الحيوانات أيضا الشعاب المرجانية (شكل ٣ باللوحة الأولى) والحيوانات المحارية (الشكلين رقمي ٥ و٦ باللوحة الأولى) وكلها من أنواع وأجناس بادت قبل انقضاء ذلك الحقب فلم يظهر أثرها بين صخور الأحقاب التالية وليس لها وجود في البحار الحالية وقد كانت الأسماك أولى الحيوانات الفقرية التي ظهرت في البحار أبان ذلك الحقب . على أنها كانت تختلف اختلافا بينا عن أسماك البحار الحالية إذ لم تكن هياكلها العظيمة قد تعظمت تماما وكان يستعصم عنها الحيوان بدرقة خارجية تغطي رأسه وجزءا من جسمه (انظر الشكل رقم ٩ باللوحة الأولى) ومن الأسماك نشأت أنواع الأمفيا أو الحيوانات البرمائية . على أن ظهورها كان قرب انتهاء ذلك

الحطب ومنها نشأت الزواحف التي كان لها شأن عظيم في حقبة الحياة الوسطى (انظر شكل ١٦)



{ الملوحة الأولى - انظر شكل ١٦ }

(الحفريات الميمنة بهذه الملوحة حسب الأرقام الميمنة أمام كل منها) (١) جرابتوليت (٢) كرينويد
(٣) شعب مرجاني (٤) تريلاويت (٥) برودكتوس (٦) سيريفر (٧) بايريفون (٨) ارثوسوراس
(٩) سمك بتريكس (١٠) نبات سرخسي (١١) لبيدودندرون)

﴿ الفصل الخامس في عصور الحياة الوسطى ﴾

جاء في كتاب « الجيولوجيا » مانعه :

كان هذا الحقب فترة سدون وهبوط لم تتعرض القشرة الأرضية فيه لمثل ما تعرضت له من حركات أرضية هنيئة إبان الحقب . ولم تكن الأرض في غضون هذا الحقب المتوسط مسرحاً لتفاعلات بركانية شديدة ومع أن البحار قد عدت على بعض أجزاء من الأرض ففعمرتها وألقت فوقها برواسبها المختلفة إلا أن ذلك لم يكن نتيجة حركات عنيفة من نوع التي ألبت في الأحقاب الأخرى اليرفع سلاسل الجبال العظمى كذلك كانت هناك براكين في بقاع مختلفة ولكنها لم تبلغ الشأو والانتشار اللذين بلغتهما في العصور السابقة وليس للسخور البركانية شأن كبير بين صخور تكاثر الحقب المتوسط وقد كانت أنواع الحياة من نبات وحيوان تختلف في مجموعها عنها في عصور الحقب القديم * فبادت من بينها فصائل كانت قد أبتعت وازدهرت في العصور الأولى كالتريلوبيت والجرابتوليت وانتشرت بدلا عنها أجناس اختص بها هذا الحقب كالأمونيت والبلمينيت التي بدأت مع ابتداء ذلك الحقب واندثرت قبل انتهائه فأصبحت من أخص مميزاتنا .

والأمونيت (شكل ١ باللوحة الثانية) جنس من الحيوانات المحارية الرخوة محاربه مستديرة الشكل مفلطحة في التواءات حلزونية بداخلها تجويف حلزوني مقسم إلى غرف أكبرها الفرفة الخارجية التي كان يسكنها الحيوان . وتتصل هذه الغرف بعضها عن بعض قطاعات مجمدة . وقد كان من هذا الجنس نحو أربعين ألف نوع يختلف بعضها عن بعض في حجمها وشكلها وزخرفها الخارجي . أما البلمينيت (شكل ٢ باللوحة الثانية) فهو حيوان ذو مخارة سوداء مستطيلة أعلاها مجوف حيث كان يسكن هذا الحيوان وأسفلها ينتهي بنقطة حادة ومن أنواع الحيوانات التي تكاثرت في العصور الجيولوجية الوسطى الشعاب المرجانية التي كانت تشبه الشعاب التي تجمو الآن في بحار المناطق الاستوائية (انظر شكل ١٧) في الصفحة التالية

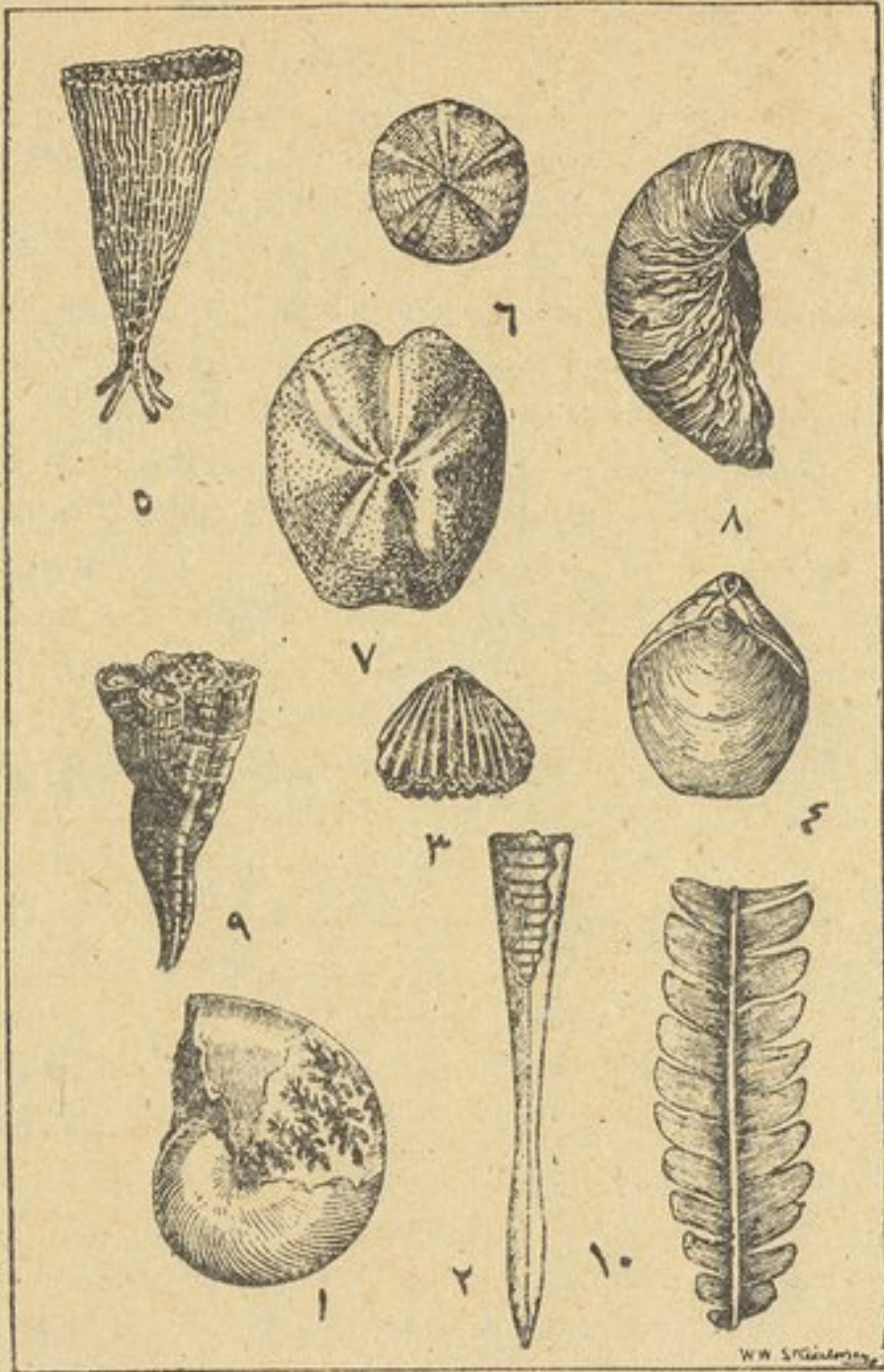
﴿ الفصل السادس . في عصور الحياة الحديثة . (الكاينوزوي) ﴾

جاء في كتاب « الجيولوجيا » مانعه .

ترجع تسميته إلى الشبه الكبير ما كانت تعيش فيه من نباتات وحيوانات وما يعيش منها الآن مع العلم أن كلمة (كاينوز) يونانية معناها حديث أو جديد وكلمة (زون) كلمة أخرى معناها حياة وقد بدأ ظهور الفصائل والأسر والأجناس الحالية من حيوانات ونباتات مع ابتداء هذا الحقب وصارت تزايد نسبتها كلما تقدمنا فيه . فكانت مجموعة الحياة تزداد شبيهاً بالمجموعة الحالية . وكان في ذلك تدرج من الحياة الوسطى إلى الحياة الحالية

وكانت أجناس الأمونيت والبلمينيت التي اختصت بها العصور الجيولوجية الوسطى قد اندثرت شيئاً فشيئاً قبل بزوغ الحقب الحديث كذلك بادت الزواحف الكبرى التي تفوقت في تلك العصور على باقي الحيوانات ولم تترك وراءها من تلك الفصيلة سوى أجناس قليلة الأهمية صغيرة الحجم هي التي بقيت على وجه الأرض الآن كالسحالي والتماسيح والأفاعي

ومن أخص مميزات أنواع الحياة في ذلك العهد الترموليت والسرنيوم وهي لم تكن قد ظهرت قبل ذلك ومن الحيوانات القترية استازت الثديية فتفوقت على باقي أنواع الحيوانات جميعاً . وبلغت المملكة النباتية



(اللوحة الثانية - شكل ١٧)

(مجموعة أهم الحفريات في صخور حقبة الحياة الوسطى بالقنطرة المصرية)

(أسماء الحفريات الميمنية باللوحة الثانية حسب الأرقام الميمنية أمام كل منها هي ٠ - (١) أمونيت (٢) بلعنيت (٣) رينكونيلا (٤) تريبرانولا (٥) اسفنج فنريكوليفس (٦) هولكنيوس (٧) هيميبيتر (٨) أوستريا (٩) رودستا (١٠) نبات سرخسي)

ما لم تكن قد بلغت قبل ذلك من تنوع أجناسها وانتشارها وتوزعها
ويقترون عدد أنواع الحيوانات التي عاشت في عصور الحقب الحديث بنحو ٢٠ ألف نوع أهمها تابع
للأجناس الآتية

النوموليت وهي حيوانات من فصيلة القورامينقراتسكن الى هيكل جبرى مستدير يختلف حجمها وشكلا
من حبة العدس الى القطعة ذات العشرين قرشا . وقد كانت استدارتها ورقتها التي جعلتها شبيهة بقطع النقد
سببا في تسميتها . فاذا قطعت نصفين رؤيت منقسمة في الداخل الى خلايا صغيرة مرتبة في صفوف حلزونية
يفصل بعضها عن بعض حواجز رقيقة (انظر شكل رقم ١ باللوحه الثالثه) وقد اقتصرت حياة النوموليت
على العصر الأول من عصور هذا الحقب وتكاثر فيه وكان من جراء تراكم محاراتها أن تكوّنت الأحجار
الجيرية النوموليتية ومنها أحجار جبل المقطم وهضبة أهرام الجيزة

ومن القنافذ البحرية جنس الأكينولامياس . ومن الحيوانات الرخوة السربنيوم وهي من القواقع
ذات المحارات الحلزونية المزخرفة من الخارج بأزرار وخطوط وقد بلغ بعض أنواعها حجما كبيرا . ومنها أيضا
البلانوريس وكانت تسكن المياه العذبة

ومن الحيوانات الرخوة ذات المحارات المزدوجة الأوستريا (شكل ٦ باللوحه الثالثه) والبيكتن (شكل ٧
باللوحة الثالثه) واللويسينا (شكل ٢ باللوحه الثالثه)

وقد انتشرت الحشرات انتشارا كبيرا وذلك يرجع لانتشار النباتات الزهره . فكان من بينها أنواع النحل
والبعوض والنمل والفراش وقد حفظت حفريات بعضها بحالة جيدة جدا داخل قطع الكهر باه (الكهرمان)
التي هو عبارة عن صمغ بعض الأشجار الصنوبرية التي كانت منتشرة في غابات ذلك الحقب

ومن الحيوانات الفقرية الأسماك وكانت تشبه الأسماك الحالية كل الشبه . والأمفيا والزواحف التي كان
من بينها السحالي والثعابين والسلاحف والتماسيح التي لا تختلف كثيرا عن مثيلاتها في الوقت الحالي

واندرت الطيور ذات الأسنان التي كانت قد نشأت في أواخر العصور الوسطى وأخذت مكانها أنواع لا أسنان
لها تشبه الطيور الحالية

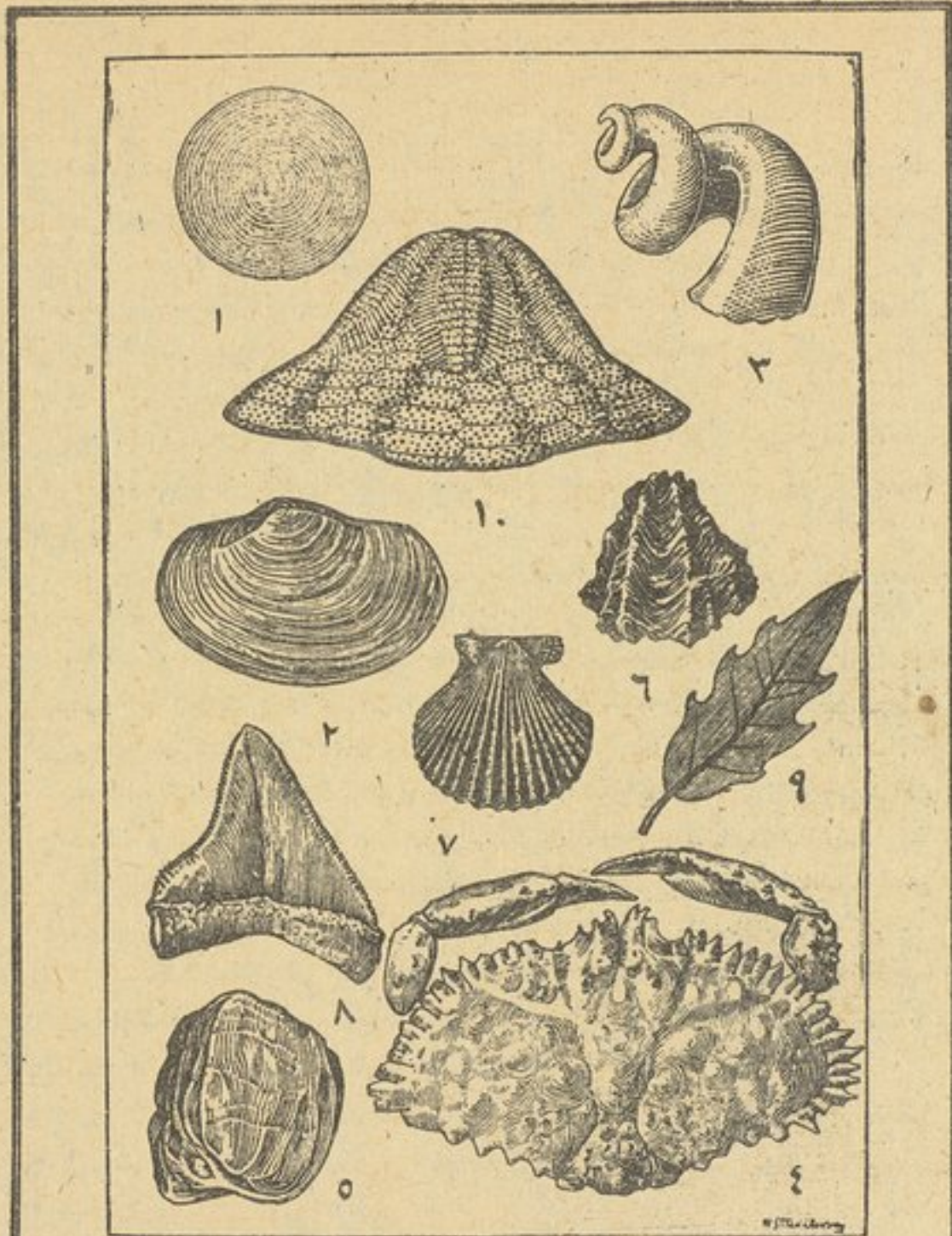
أما الحيوانات الثديية فقد بلغت أقصى حدود الكمال في ذلك الحقب وتوقفت على باقي أنواع الحياة جميعا
ومن الهياكل العظمية التي وجدت مدفونة في باطن صخور ذلك الحقب أمكن تتبع الحلقات المختلفة في

نشوء بعض الأجناس التي تعيش على الأرض الآن

فالليل مثلا نشأ في العصور الأولى من ذلك الحقب من جنس الماستودون وهو حيوان بلغ طوله (٥) ونصف من
الأمطار وارتفاعه ٤ أمتار وله نابان في كل من الفك الأعلى والأسفل (انظر شكل ١٨ أي اللوحه الثالثه) في

الصحيفة التالية





(شكل ١٨ - اللوحة الثالثة)

(مجموعة أهم الحفريات في منحور حقب الحياة الحديثة بالقطر المصري)

(أسماء الحفريات الميمنة باللوحة الثالثة حسب الأرقام الميمنة أمام كل منها هي (١) نوموليت (٢) لوسينا (٣) نايكالونجا (٤) سرطان بحري (٥) فاكهة منحجرة (٦) أوستريا (٧) بكتن (٨) سن الحوت (٩) ورقة شجر (١٠) كليباستر)

﴿ الفصل السابع في المصر الحجري القديم ﴾

اعلم أن عصر الحياة الحديثة المتقدم ذكره قسمه العلماء الى قسمين عظيمين : عصر ثلاثي وعصر رابعي وفي العصرين ظهرت أنواع من الحيوانات الرخوة وهي لا تزال حية الى الآن . وقد وجدوها ستة أنواع في أزمان مختلفة . وفي هذا العصر كانت بعض الغابات المتحجرة وهي الأماكن التي تظهر على سطحها هذه الطبقات الرملية التي تحتوي على بيا الخشب المتحجرة . وبتأثير عوامل التمرية فيها تكسح الرمال وتبقى الأشجار المتحجرة ملقاة على السطح . ومن أمثلتها « الغابة » المشهورة الواقعة على بضعة كيلومترات شرق العباسية حيث ترى كثيرا من سيقان الأشجار يبلغ طول بعضها عشرين مترا . وهي محتفظة بدقيق تركيب أليافها حتى إنها تشبه الخشب في شكلها الخارجي إلا أنها مركبة من مادة سيليسية بدلا من مادتها الخشبية الأصلية . وقد استبدلت بالمادة الأصلية مادة السيليس ذرة لفترة في مياه معدنية سيليسية كانت قد تفجرت من عيون في نهاية ذلك العصر (انظر الشكل رقم (١) والصورة الفوتوغرافية رقم (ب) باللوحة الرابعة) (انظر شكل ١٩ وشكل ٢٠)

(اللوحة الرابعة)



(شكل ١٩) (١) قطعة من الخشب المتحجر



(شكل ٢٠) (ب) منظر الغابة المتحجرة قرب القاهرة



إذا عرفت ما تقدم فلنض الكلام على العصر الحجري وهو
العصر الذي كان الانسان يستعمل فيه الأحجار الصلبة ليصنع
منها آلاته المختلفة ، ولقد كانت هذه الآلات في أول الأمر مهذبة
تهديبا بسيطا لا تدل على مهارة خاصة ثم تدرجت الى أرق فأرقى
حتى بلغت في النصف الأخير من هذا العصر درجة كبيرة من
الاتقان . ولذلك قسم العصر الحجري الى قسمين

(١) - (العصر الحجري القديم)

وكانت فيه الآلات الحجرية بسيطة الشكل غير مصقولة ومن

أمثلتها المجموعة التي رى في الشكل رقم ٢١

ومن الحالات التي توجد فيها هذه الآلات يتضح أن الانسان
كان في أول الأمر عائما على وجهه منتقلا في السهول والوديان
باحثا عن صيد أو هاربا من حيوان مفترس . و بعد ذلك لجأ الى
سكنى الكهوف والمغارات حيث ترك وراءه فيها هياكله العظمية
و بعض آثاره من آلات حجرية



(شكل ٢١)

ولقد بلغ بعض ساكنى هذه الكهوف مبلغا عظيما من الفن
فتركوا على حيطانها رسوما متقنة تمثل ما كان يحاصرون من
أنواع الحيوانات البائدة كالماموت و بعض أنواع الغزال

ومن آثار هذه الكهوف يظهر أن الانسان كان في تلك
العصور النائية قد دفعه فائدة النار في طهى الطعام والتدفئة . كذلك كان قد بدأ يستفيد مما عاصره من حيوانات
فكان يصنع من أنياب الفيلة ومن قرون الغزال سكاكين ويدهوسا للرمح الى غير ذلك من آلات بسيطة الصنع

(٢) - (الفصل الثامن . في العصر الحجري الحديث ومعها عصر البرنز)

تتماز آلات الانسان في ذلك العهد بصقلها ورقتها ودقة صنعها واختلاف أشكالها . فكان منها رموس
الرمح والسهام والبلط (انظر شكل ٢٢)



(شكل ٢٢ - مجموعة من الآلات من حجر الصوان تابعة للعصر الحجري الحديث)

ذلك لأنه كان قد تقدم درجات محسوسة في سلم المدنية فزادت احتياجاته والحاجة كما نعلم هي أم الاختراع . ومن الرسوم التي تركها على جوانب الكهوف وعلى أيدي السكاكين يظهر أنه كان قد نجح في إخضاع بعض الحيوانات الوحشية فصارت أليفة تساعد على كفافه في الحياة . فكان له منها الثور والحصان والحمار والكلب والقط . كذلك كان قد تعلم فنون الزراعة فزرع التمح والشعير لعلامة وزرع التيل ليصنع منه ملابس يتق بها عوادي الطبيعة ويستعملها في الزيتة . كذلك كان قد علم شيئا عن صناعة الفخار فصنع لنفسه منه أواني بسيطة

وقد هجر الكهوف في آخر الأمر إلى بناء مساكن بأوى إليها في أواسط بعض البحيرات ليأمن فيها من اعتداء الوحوش الضارية وقد بقيت آثار بعض هذه المساكن في بحيرات بسويسرا وغيرها من البلاد . ويظهر أنه كانت له وقت ذلك معتقدات دينية فقد ترك وراءه هياكل أو معابد مكوّنة من جلاميد منحوتة ضخمة لا بد أنها تطلبت منه مجهودا عظيما في إقامتها

﴿ عصر البرنز ﴾

هذا العصر يتفق في أغلب البلاد مع ابتداء العصر الجيولوجي الحديث أي عقب انتهاء عصر البليستوسين فكان قاعة العصور التاريخية المعروفة ومن الغريب أن ينقل الإنسان من صناعة آلاته من الصوّان لجأة إلى البرنز الذي هو خليط من معدنين وقد يكون ذلك من باب المصادفة

وقد شد سكان وادي النيل القدماء عن هذه القاعدة العامة في التدرج فلم يمتروا في عصر البرنز بل انتقلوا من العصر الحجري الحديث إلى استعمال النحاس الذي كانت لهم فيه طريقة خاصة لجعله شديد الصلابة أما عصور الإنسان الحجرية في القطر المصري فتوجد آثارها من آلات من الصوّان في رواسب الرمل والحصى على جانبي وادي النيل وفي اللوديان بالصحاري . وقد جمعت أحسن أمثلتها من طبقات الرمال والحصى بالعباسية فكان من بينها أنواع تمثل جميع درجات العصر الحجري القديم من ابتدائه إلى انتهائه . كذلك وجدت آثار العصر الحجري الحديث في بعض بقاع متفرقة في وادي النيل نفسه وعلى مقربة من بحيرة قارون ويستنبط من هنا أن الإنسان في العصر الحجري القديم كان منتشرا في وادي النيل والصحاري وقد يكون ذلك للملازمة الأحوال الجوية لتقله في هذه المناطق . على أنه في العصر الحجري الحديث قد لجأ إلى أماكن معينة بوادي النيل واتخذ عيشة أكثر سكونا من الأولى . وإلى هنا تم الكلام على باب العلم وفصوله الثمانية والحمد لله رب العالمين

باب العمل

ولأذكر هنا نبذة من علم الجيولوجيا خاصة بالقطر المصري الذي هو بعض البلاد الإسلامية وهناك نصها

﴿ نبذة عن تاريخ التعدين بالقطر المصري ﴾

يرجع أول اهتمام بالتعدين في مصر إلى العصور التاريخية القديمة . فقد كان قدماء المصريين يهتمون به اهتماما عظيما يظهر أثره فيما فتحوه من مناجم للذهب والنحاس وبعض الأحجار الكريمة . وقد كان لما استنبطوه من المعادن بعض الفضل في المركز الممتاز الذي تبوّه بين باقي الأمم . وقد ظهر من مسطوراتهم على البردي وعلى جدران بعض المعابد أنهم كانوا يبحثون إلى الصحراء بعونا بمجهزة رجال الفن المعدنيين تحرسهم فصائل من الجند لتصد عنهم عادية أهل البدو المعادين

واستمر هذا الاهتمام بأمر التعدين طول عصر قدماء المصريين حتى عهد الرومان . ثم تولاها كاتولي باقى
مرافق الثورة حول تام لم تقم منه إلا فى عصور متقطعة إبان الحكم العربى الاسلامى
فلما أن تبوأ عرش مصر ساكن الجبان محمد على باشا مفتشى الأسرة العلوية الكريمة فقه بناق بصره
أن المعادن هى أساس الصناعات جميعا ، فوجه عناية خاصة للبحث عنها ونذب من علماء الأوربيين من
جاءوا الصحارى المصرية باحثين متقين . على أن المنية عاجلته قبل أن تتم جهوده الفخرة التى كان يرجوها
ولم يضع مجهوده سدى . فاتجهت الأنظار بعد ذلك إلى مسائل التعدين فى مصر ومابداً القرن الأخير حتى
كانت جهود قيمة تبذل فى سبيل البحث عن المعادن بالصحارى المصرية . فأعيد فتح مناجم الذهب القديمة
واستمر استغلال بعضها سنين عديدة ، وكشفت موارد الفوسفات والبترول والمنجنيز وبلغ استغلال بعضها
شأنا لا يستهان به وسقتصر فى الكلام هنا عن أهم المعادن على حسب ترتيب أهميتها

(زيت البترول)

أول ما دل على وجود البترول بالأراضى المصرية ما كان ينز منه منذ القدم على سطح الماء عند سفح
جبل الزيت على شاطئ خليج السويس . وكان هذا النزيا فى تسمية الجبل بهذا الاسم
م كشف بعد ذلك عام ١٨٨٥ بمنطقة الدمنة (جسا) فى مغارات كانت قد فتحت قرب الشاطيء
لاستخراج معدن الكبريت . فأدى ذلك إلى البدء فى عمليات البحث التى لم تتم قبل عام ١٩١٠ . ومن
ذلك الوقت بدأ استغلال منطقة جسا كحقل بترول واستمر استغلالها حتى عام ١٩٢٧ حيث نصب أغلب آبارها
فأهمتها الشركة التى كانت تستغلها (أنظر صورة أحد آبار جسا رقم ب باللوحه الخامسة فى الصفحة التالية)
وفى عام ١٩١٤ كشف الشركة نفسها منطقة الفردقة التى تبعد ٦٠ كيلو مترا جنوب جسا ، وقد تقدمت
الفردقة تدريجيا حتى بلغت الآن درجة كبيرة من الإنتاج وأصبحت المورد الأكبر لزيت البترول ومستخرجاته
بالقطر المصرى (الصورة (ا) باللوحه الخامسة فى الصفحة التالية) . وسنورد بعض الأرقام للدلالة على أهمية كل
من هذين المكانين

(جسا)

بلغ مجموع آبارها	٣٤ بئرا
عدد الآبار المنتجة	١٠ آبار فقط
متوسط عمقها	٤٠٠ متر

ومجموع ما أنتجته من البترول من وقت ابتدائها حتى أغلقت ١٨٢٤٨٨ طنا وكان البترول الذى أنتجت
آبار جسا من نوع جيد غنى بالمواد الخفيفة كما يستدل من الأرقام الآتية

قله النوى	٨٢٧ ر .
نسبة البنزين	٢٨ فى المائة
نسبة الكيروسين	٣٢ فى المائة
نسبة المازوت	٤٠ فى المائة

(الفردقة)

بلغ مجموع آبارها	٨٢ بئرا
عدد الآبار المنتجة	٦٩ بئرا
متوسط عمقها	٦٠٠ متر

مجموع ما أنتجته حتى نهاية عام ١٩٢٨ ٩٥٥ و ٢٨٦ و ٢٨ طنا

(اللوحة الخامسة)



(شكل - ٢٣ (١) منظر لجزء من حقول البترول بالفردقة)



(شكل ٢٤)

(ب) بئر في أول إنتاجه يتدفق البترول من فوهته بقوة عظيمة - جسا

(شكل ٢٥)

(ج) أحد عروق الرو الحاملة للذهب بمناجم سمناء بالصحراء الشرقية



(١) - منظر عام للمناجم القوسيات قرب مناجم الصحراء الشرقية (شكل ٢٦)



(شكل ٢٧)

(ب) - منظر منطقة مناجم المنجنيز بشبه جزيرة سيناء

أما نوع البترول الذي تنتجه الآبار فهو أقل جودة من نوع بترول جاسا كما يستدل من الموازنة بين الأرقام الآتية والأرقام التي أوردناها

٩٢٠ ر .	الثقل النوعي لبترول الفردقة
٨ في المائة	نسبة البنزين
١٥ في المائة	نسبة الكيروسين
٥٧ في المائة	نسبة المازوت
١١ في المائة	نسبة الأسفلت
٧ في المائة	نسبة البارافين (الجم)
٢ في المائة	نسبة الكبريت

وتخرج هذه الزيوت مخلطة بماء مالحة تحتاج لفصلها عنها الى عمليات خاصة كما أنه تبعت من الآبار غازات كثيرة يقطر منها الجاسولين وهو نوع من البنزين الخفيف . انتهى من كتاب الجيولوجيا للدكتور حسن صادق وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى والحمد لله رب العالمين



﴿ اللطيفة الثانية ﴾

(في قوله تعالى - كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا - وكيف بقيت اللغة العربية محفوظة مصداقا لقوله تعالى - لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - الخ : ولقوله تعالى أيضا - سفرهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم - الخ : وهذه مجيزة ثالثة)

اعلم أيها الدكي أن في وصف القرآن بأنه عربي ﴿ مبعثين ﴾ المبعث الأول ﴿ لغوى ﴾ المبعث الثاني ﴿ علمي وسياسي

﴿ المبعث الأول وهو اللغوى ﴾

جاء في كتاب « الاتقان . لعلوم القرآن » في الجزء الأول صفحة ١٢٧ ما نصه :
 « وأقوى ما رأته لنزول غير العربي في القرآن وهو اختياري ما أخرجه ابن جرير بسند صحيح عن أبي مبسرة التميمي الجليل . قال : « القرآن من كل لسان » . وقال قبل ذلك : وأجابوا عن قوله تعالى - قرآنا عربيا - بأن الكلمات البسيرة بغير العربية لا تخرج عن كونه عربيا ، والقصيدة الفارسية لا تخرج عنها بلفظة فيها عربية . ثم قال . وروى مثله (أى مثل ما قاله أبو مبسرة) عن سعيد بن جبير ووهب بن منبه . فهذه إشارة الى أن حكمة وقوع هذه الألفاظ في القرآن انه حوى علوم الأولين والآخريين ونبا كل شيء ، فلا بد أن تقع فيه الاشارة الى أنواع اللغات والألسن لينتم إحاطته بكل شيء فاختر له من كل لغة أعذبها وأخفها وأكثرها استعمالا للعرب . ثم رأيت ابن النقيب صرح بذلك فقال : « ومن خصائص القرآن على سائر كتب الله المتزلة انها نزلت بلغة القوم الذين أنزلت اليهم لم ينزل فيها شيء بلغة غيرهم ، والقرآن احتوى على جميع لغات العرب وأنزل فيه لغات غيرهم من الروم والفرس والحبشة شيء كثير » اه
 وأيضا فالنبي ﷺ مرسل الى كل أمة ، وقد قال تعالى - وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه - فلا بد أن يكون في الكتاب المبعوث به من لسان كل قوم وان كان أصله بلغة قومه هو اه
 وهأنذا ملخص لك ما جاء في ذلك الكتاب مما ورد من لغات قبائل العرب المختلفة ، ثم أتبعه بما جاء فيه من لغات الأمم المختلفة ليكون ذلك ذكرى لأولى الأبواب
 ولقد اخترت أن يكون على هيئة جدول لطيف بحيث تكتب الكلمة . وأمامها معناها وأمامها في صفها اسم القبيلة ليكون ذلك أحسن وضعا وأتم صنعا وأقرب فهما وهما هي في الصفحات التالية



القبيلة	معناها	الكلمة	القبيلة	معناها	الكلمة
هذيل	ناحية	شاكنه	جبر	مكتوبا	مسطورا
»	ظنا	رجا	كنانة	الجهال	السفهاء
»	ملجأ	ملتحدا	»	صاغرين	خاسئين
»	يخاف	يرجو	»	تلقاه	شطره
»	نقضا	هضبا	»	لانصيب	لاخلاق
»	مفبرة	هامدة	»	أحرارا	وجعلكم ملوكا
»	أسرع	واقصدى مشيك	»	عيانا	قيلا
»	القبور	الأجدات	»	سابقين	مجزين
»	مضى	ثاقب	»	يغيب	يعزب
»	بالهم	بالهم	»	تيلوا	تركنا
»	ينامون	يهجعون	»	ناحية	غوة
»	عذابا	ذنوبا	»	ملجأ	موتلا
»	المسامير	دسر	»	آيسون	مبلسون
»	عيب	تفاوت	»	طرذا	دحورا
»	نواحيها	أرجائها	»	الكذابين	المخراصون
»	ألواما	أطوارا	»	كتبا	أسفارا
»	نوما خفيها	بردا	هذيل	كفور للنم	كنود
»	خاتمة	واجفة	»	العذاب	الرحز
»	محاغة	مسفة	»	باعوا	شروا
»	المسرف	المبذر	»	حققوا	عزموا الطلاق
جبر	نجينا	تفشلا	»	نقا	صدا
»	اطلع	عثر	»	ساعانه	آناه الليل
»	جنون	سفاهة	»	وجهمهم	فورهم
»	ميزنا	زبطنا	»	متابعا	مدرارا
»	حقيرا	مرجوا	»	مخرجا	فرقانا
»	الاناء	السقاية	»	حض	حرض
»	متن	مسنون	»	فاقة	عيلة
»	مكتاب	إمام	»	بطانة	وليجة
»	يحركون	ينغضون	»	اغزوا	اغزوا
»	بردا	حسابنا	»	الصائمون	السائمون
»	نحولا	من الكبرعيا	»	الائم	العت
»	جعلا	خرجا	»	بدرعك	بيدتك
»	بلاء	غراما	»	شبهة	غمة
»	البيت	الصرح	»	زوالها	دلوك الشمس

القبيلة	معناها	الكلمة	القبيلة	معناها	الكلمة
ازدشنوة	مكرويلين	كاطلين	جبر	أقبحها	أنكر الأصوات
»	الحارز القدي	غسلين	»	ينقصكم	بترك
»	تناهي حرته	لراحة	»	محاسين	مدينين
مذحج	جاء	رفث	»	شديدة	راية
»	مقترا	مقينا	»	شديدا	ويلا
»	بكنب	بظاهر من القول	جرهم	بسلط	بجبار
»	الفناء	الوصيد	»	النحاس	القطر
»	دهرا	حقبا	»	بمجموعة	مخشورة
»	الأف	الخرطوم	»	محبوسا	مكوكفا
»	زرعون	تسيمون	»	زنا	مرض
ختم	منشر	مرجج	»	استوجوا	فباوا
»	مالت	عفت	»	ضلال	شقاق
»	ضجورا	هاوما	»	ملا	خيلا
»	كذبا	شططا	»	كأشياء	كذاب
قبس عيلان	فريضة	نحلة	»	تيموا	تعولوا
»	ضيق	حرج	»	بتمتوا	يفنوا
»	مضيعون	لخاسرون	»	نكل	شرّد
»	تسهرتون	قندون	»	سفلتنا	أراذلنا
»	حصونهم	صياصيم	»	شديد	عصيب
»	تقنعون	تجبرون	»	جيعا	لتيقا
»	لمعون	رجيم	»	متقطعا	محسورا
»	ينقصكم	يلنكم	»	جانب	حذب
سعد العشرة	أختانا	خفاة	»	السحاب	الخلال
»	عيلال	كل	»	المطر	الودق
كندة	طرقا	ججا	»	عصابة	شردمة
»	فنت	بت	»	طريق	ربح
»	تخزن	تبتس	»	يخرجون	يفسلان
عذرة	اخزوا	اخشوا	»	مزجا	شوبا
حزرمون	رجال	ريون	»	الطرائق	الحبك
»	أهلكتنا	دمرنا	ازدشنوة	الحائط	سور
»	إعياء	لقوب	»	لاوضح	لاشية
»	عصاه	منساته	»	الحبس	العضل
غسلان	عمدا	ظنقا	»	سنين	أمة
			»	البئر	الرس

الكلمة	معناها	القبيلة
بئس	شديد	غسان
سى ٣٣	كرههم	»
لا تغلوا	لا تزيدوا	مزينة
إملاق	جوع	لخم
ولتغرن	ولتقهرن	»
جاسوا خلال	تخلوا الأرزقة	»
لديار		
الغزوة	المهود	بنى حنيقة
الجناح	اليد	»
الرهب	الفرع	»
حصرت	ضائق	الجمامة
تياوا ميلا عظيما	تخطئون خطأ بينا	سأ
تبرنا	أهلكنا	»
نكص	رجع	سليم
الصاعقة	الموت	عمان
ينعق	يصيح	طوي
رغدا	خصبا	»
سفه نفسه	خسرها	»
يس	يا انسان	»
أفضوا	افزوا	خزاعة
الاضواء	الجماع	»
خيالا	غيا	عمان
نققا	سرما	عمان
حيث أصاب	أراد	عمان
بهدامة	نسيان	نميم
بفيا	حدا	»
طائره	عمله	أعمار
أفضش	أظلم	»
لأحتسكن	لأستأصلن	الأشعر بون
نورة	مرّة	»
اشمازّن	مالت ونقرت	»
ئينة	نخلة	الأوس
ينفضوا	بذهبوا	الخزرج
ظفرو	ظاقض	مدين

وجاء في صحيفة ١٣٦ من الجزء الأول من كتاب الاتقان المذكور أيضا مانسه :

وقال أبو بكر الواسطي في كتابه الأرشاد في القراءات العشر : في القرآن من اللغات خمسون لغة ، منها لغة قريش وهذيل وكنانة وخثم والخزرج وأشعر ونمير وقيس عيلان وجرهم واليمن وأزد شنوية وكنندة ونميم وحمير ومدبن ولخم وسعد العنبرة وحضرموت وسدوس والممالقة وائمار وغسان ومنميج وخزاعة وغطفان وسبأ وعمان وبنو حنيقة وثعلب وطوي وطامر بن صعصعة وأوس ومزينة وتقيف وجذام وبلي وعذرة وهوازن والنمر والجمامة

وفيه من غير العربية الفرس والروم والنبط والحبشة والبربر والسريانية والعبرانية والقبط ، ثم ذكر في أمثلة ذلك غالب ما تقدم عن أبي القاسم وزاد الرجز العذاب بلغة بلي طائف من الشيطان نخسة بلغة تقيف الأحقاف الرمال بلغة ثعلب . وقال ابن الجوزي في فنون الألفان في القرآن بلغة همدان الربحان الرزق والعيناء البيضاء والعقري الطنافس ، وبلغة عامر بن صعصعة الحفدة الخدم ، وبلغة تقيف العول الميل ، وبلغة عك الصور القرن . وقال ابن عبد البر في التمهيد : قول من قال نزل بلغة قريش معناه عندي الأغلب . انتهى

ثم ذكر في صحيفة ١٣٨ وما بعدها الألفاظ الواردة من كلام غير العرب مرتبة على حروف المهجم وهذا نصها

الكلمة	معناها	الأمة
أبار بى	طر بى الماء أوصب	فارسية
أبا	الماء على هيئة	عربية
أبلى	الحشيش	عربية
أسباط	ازدرديه	حبشية
إستبرق	قبائل	لغة بني يعقوب وهي العبرية
أسفارا	الديباج الغليظ	الجم
اصرى	الكتب	السريانية والنبطية
أكواب	عهدي	النبطية
	أكواز	»

الكلمة	معناها	الأمة	الكلمة	معناها	الأمة
أبم	موجع	زنجية أو عبرانية	زنجيل	هو فارسي	الخبثية
إنا	نضجه	أهل المغرب	السجل	الرجل	الخبثية
أواه	موفن أو الرحيم	(البربر)	د	الكتاب	فارسي معرب
أوب	مسح	الخبثية	سجبل	أولها حجارة	الفارسية
الجاهلية لأولى	الآخرة	الخبثية (فمندهم)	سجين	وآخرها طين	هو غير عربي
بطانها	ظواهرها	القبطية (فمندهم)	سرادق	هو غير عربي	الفارسية
كيل بغير	كيل حار	الأولى آخره	سريا	الدهليز والدار	السريانية
بيع	الكتاب	وبالعكس)	سفرة	نهر	النبطية
تنور	الكتاب	قبطية	سقر	القراء	هي أمجمة
تغيرا	الكتاب	عبرية	سجدا	مقنى الروس	الفارسية
من تحتها	من بطها	فارسيان معربان	سكرا	الثل	الخبثية
الجبث	الشیطان أو الساحر	هو فارسي معرب	سلسيل	هو أمجمي	هو أمجمي
جهنم	أصلها كهنام	هي بالنبطية	سندس	الديباج	الفارسية والهندية
حرم	الخبثية	النبطية	سيدها	زوجها	النبطية
حصب جهنم	حطب جهنم	الخبثية	سينين	الحسن	الخبثية
وقولوا حطة	وقولوا صوابا	فارسية أو عبرانية	سيناء	د	النبطية
الحواريون	الفضالون أصله	وجب	شطر	تلقاء	الخبثية
حوبا	حوارى	الزنجية	شهر	هي كلمة سريانية	هي كلمة سريانية
دينار	إنما	العبرية	الصراط	الطريق	الروم
راعنا	هو فارسي	النبطية	صرهق	شققهق	النبطية
ربانيون	بلسان اليهود	الخبثية	صلوات	كنائس اليهود	العبرانية
ربيون	هي عبرانية أو	هو فارسي	طه	وأصله (صلواتا)	الخبثية
الرحن	سريانية	بلسان اليهود	طه	هو كقولك يا محمد	الخبثية
الرس	سريانية	هي عبرانية أو	طه	يارجل	النبطية
الرقم	عبرانية أصله رخر	سريانية	طه	يارجل	الخبثية أيضا
رسرا	أجمي	سريانية	الطاغوت	الكاهن	الخبثية
رهوا	اللوح	عبرانية أصله رخر	طفقا	قصدا	الرومية
رهوا	تحرريك الشفتين	أجمي	طوبى	الجنة	الخبثية والهندية
رهوا	سهلا دمتا	الرومية	طور	الجبل	السريانية
الروم	ساكنا	العبرية	طوى	للا معرب أو هورجل	بالعبرية
	فيها الجبل من الناس	النبطية	عبدت	قتلت	النبطية
		السريانية	جنت عدن	جنت الكروم والأعصاب	السريانية

الكلمة	معناها	القبيلة	الكلمة	معناها	القبيلة
العرم	المسناة التي	الحبشية	كفلين	معفين	الحبشية
غساق	تجمع الماء	التركية	كقورت	غورت	الفارسية
غيض	الباردالماتن	الحبشية	مقاليد	مفاتيح	الفارسية
فردوس	شص	الرومية	مرفوم	مكتوب	العبرية
»	بستان	النبطية	مزجاة	قليلة	الحجم أو القبط
فوم	فرداسا	العبرية	ملكوت	ملك	النبطية (ملكوتا)
قراطيس	حنطة	غيرعربي	مناص	فرار	القطبية
القسطاس	معروف	الرومية	مهل	عكر الزيت	أهل المغرب
القسورة	العدل	الحبشية	ناشة الليل	قيام الليل	الحبشية
قطنا (بشديد الطاء)	الأسد	النبطية أو	ن	أصع ماشفت وأصله (انون)	الفارسية
قطار	كتابنا	الفارسية معربة	هدنا	تبنا	العبرانية
الفيوم	١٢ ألف أوقية	رومية سريانية	هودا	اليهود	الأعجمية
كافور	و بربرية	السريانية	هوبا	حكما	السريانية
كفر عنا	هو الذي لا ينالم	معرب	وزر	الحبل والمجأ	النبطية
	معروف	النبطية	بحور	يرجع	الحبشية
	اح عنا		بصهر	ينضح	العبرية

قال المؤلف : هذا ما وقفت عليه من الألفاظ المعربة في القرآن بعد الفحص الشديد سنين ولم تجتمع قبل في كتاب قبل هذا . وقد نظم القاضي تاج الدين بن السبكي منها سبعة وعشرين لفظا في أبيات ، ووذيل عليها الحافظ أبو الفضل ابن حجر بأبيات فيها أربعة وعشرون لفظا ووذيلت عليهما بالباقي وهو بضع وستون فتمت أكثر من مائة لفظة . فقال ابن السبكي :

السلبيل وطه كقورت بيع * روم وطوبى وسجبل وكافور
والزنجبيل ومشكاة سراقق مع * استبرق صلوات سندس طور
كذا قراطيس ربانهم وغسا * ق ثم دينار القسطاس مشهور
كذلك قسورة واليم ناشة * ويؤت كفلين مذكور ومسطور
له مقاليد فردوس يعد كذا * فيها حكى ابن دريد منه تنور

وقال ابن حجر

وزدت حرم ومهل والسجل كذا السرى والأب ثم الجبت مذكور
وقطسنا وإناء ثم متكنا * دارت بصهرمه فهو مصهور
وهيت والسكر والأواه مع حسب * وأؤبى معه والطاغوت مسطور
صرهن اصرى وغيض الماء مع وزر * ثم الرقيم مناص والسنا النور

وقلت أيضا :

وزدت يس والرحن مع ملكو * ت ثم سبين شطر البيت مشهور

ثم الصراط ودرى، يحور ومر * جان ألبم مع القنطار مذكور
وراعنا طققا اهدنا ابلبي ووراء * والأرائك والأكواب مآثور
هود وقسط وكفر زمرة سقر * هون بصقون والمنساء مسطور
شهر مجوس واقفال يهود حوا * ربيون ككر وسجين وثبير
بعير أزر وحب وردة عرم * آل ومن تحتها عبدت والصور
ولينت فومها رهو واخذ مز * جاة وسيدها القيوم موفور
وقل ثم اسفار عنى كتبنا * وسجدا مم ربيون تكثير
وحطه وطوى والرأس نون كذا * عدن ومنظر الأسياط مذكور
مسك أبريقى ياقوت رووا فهنا * ماقات من عدد الألفاظ محصور
وبضهم عد الأولى مع بطائنها * والآخرة لهانى الضد مقصور
هذا ما أردته من كتب الانتقان فى علوم القرآن ، وبهذا تم الكلام على المبحث الأول فى اللطيفة
الثانية والحمد لله رب العالمين

﴿ المبحث الثانى ﴾

فى اللطيفة الثانية وهو العلمى والسياسى فى قوله تعالى - كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا قوم يعلمون -
وصف الله القرآن بأنه عربى ، ولاجزم أن هذا الوصف لا يحتاج فى حد ذاته الى بيان أو تصريح لأن
النبي ﷺ عربى والسمعون له عرب ، فهو معروف بداهة ، إذن ذكر هذا الوصف قد جرى به لغرض
سام وحكمة تظهر للأمم جيلا بعد جيل . ولقد ظهرت بعض آثار ذلك فى أيامنا هذه . ياسبحان الله : إن
لغات آثارا عجيبة فى أحوال الأمم وتطورها وترقيتها من حال الى حال

(١) فلأذ كرك أولاً اللغة اللاتينية ، وكيف كان لها السيادة فى القرون الأولى بالدول الغربية ، ثم
تلتها لغات أخرى وحلت محلها كما يقوم الابن مقام أبيه ويرث ما يملكه

(٢) ثم أتبع ذلك بذكر دولة جورانى وهى الدولة البابلية الأولى من سنة ٢٤٦٠ ق.م الى سنة ٢٠٨١ ق.م
وكيف اقتبست القلم السومرى القديم على عهد السومريين الذى كان شكله أشبه بشكل الكتابة الهيروغليفية
(المصرية القديمة) وكيف استخدموا اللغة السومرية فى المكتابات ، ثم تركوا اللغة وأبقوا الخط ، ثم تغيرت
هيئة الخط

(٣) ثم أتقى بذكر اللغة العربية قبيل الاسلام : وكيف كان خطها النبطى والفرق بين ذلك الخط والخط
المبارى وبينهما نحو ثلاثة آلاف سنة .

(٤) ثم أتبع ذلك بالنسبة بين هذا الخط النبطى واللغة العربية إذ ذاك فى القرن الرابع بعد الميلاد وبين
ما حدث من التغيير فهما أيام البعثة المحمدية

(٥) ثم أذكر بعد ذلك كيف نسخت اللغة العربية لغات الأمم التى حلت بها فى مصر والشام والعراق
(٦) ثم أتبع ذلك بما هو المقصود فى تفسير هذه الآية من هذا الموضوع كله ، وهو أن اللغة العربية
سحرا حلالات وبفضل القرآن دامت قرونا ، أى نيفا و١٣ قرنا ولغة القرآن لم تتغير استبقاء بوصف القرآن
بالعربية ، حتى ان هذه اللغة كلما حاولت الدهور والقرون تغييرها على السنة العامة على مقتضى قانون التطور
العام ، أتت أن تفارق اللغة الفصحى واجتذبت أهل الأقطار العربية والحجبية المسلمة الى تلك اللغة فأصبحت
كهرباء فصل ما بين أمم وأمم فى عصرنا الحاضر ، وهل أعجب من أن ترى الصورة الشمسية لسورة الفاتحة وقل

هواؤه أحد مكتوبتين باللغة الصينية في نفس بلاد الصين واللغة العربية بالخط العربي بمصداق لقوله تعالى هنا - قرأنا عربيا - ولقوله تعالى أيضا - إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون -

فهيها إذن (ستة فصول في النصل الأول) في مقدمة هذا المقام يذكر اللغة اللاتينية وكيف بحيث مع انها كانت لغة الدين والسياسة (النصل الثاني) في عرب الجاهلية الأولى وهي دولة حوراني فيما بين النهرين (الفصل الثالث) في اللغة العربية قبيل الاسلام وكيف كان خطها النبطي (الفصل الرابع) في النسبة بين هذا الخط النبطي وبين الخط واللغة العربية أيام البعثه المحمدية (الفصل الخامس) في أن اللغة العربية نسخت لغات الأمم المصرية والسورية والعراقية (الفصل السادس) في المقصود من هذا كله في تفسير هذه الآية وهو أن بقاء اللغة العربية محفوظة الى الآن في بلاد العرب وأوروبا والصين من أكبر المجهزات

(الفصل الأول)

(في مقدمة هذا المقام يذكر اللغة اللاتينية وماطراً عليها تمهيدا لما سندكر من اللغة العربية وماطراً عليها تبيننا لمجهزات القرآن)

اعلم أن الدولة الرومانية كانت صاحبة السلطان في جنوبي وغربي أوروبا فكانت حضارتها ولغتها ودينها وعاداتها وقوانينها ساريات في تلك الأمم

ومن عادات الله في الأمم أنها اذا استفعلت وكل عمرانها وعظم شأنها أخذت ترجع القهقري كما يكون ذلك في الانسان والحيوان والنبات - وتلك الأيام نداولها بين الناس - . وقيل « مصائب قوم عند قوم فوائد » فكان الرومان كلما ازدادوا في ترفهم اقتربت منهم الأمم المتوحشة حولهم وهم سكان سواحل البلطيق وأودية الطونة والرين الذين كانوا في شمال وشرق الدولة . ومازال أولئك المتوحشون يترهبون بتلك الدولة الدوار وبشنون الغارات تلوالغارات الى أن كانت سنة ٤٧٦ ميلادية إذ تمكن ادوكر (وهو قائد من قواد القبائل الألمانية الذين يوصفون بالمتوحشين) من إزالة سلطان (ريمبولوس) آخر أمبراطور للدولة الرومانية العربية وجعل نفسه حاكماً لرومه . وهذه الدولة الغربية غير الدولة الشرقية التي كانت عاصمتها القسطنطينية ثم احتلها الترك بعدقرون . فلما زالت المملكة الرومانية الغربية انتشرت الفوضى والهرج والمرج والفساد لأن هؤلاء قوم لا قوانين لهم ولا نظام ، فأهملت الطرق وجهلت التجارة والصناعة والزراعة ، وهناك أصبح الناس هناك جماعات كل جماعة لهم رئيس يجتمعهم ليصدوا عنهم جيرانهم ، وأصبح هناك نظام معروف باسم (نظام الاقطاع) وهو المعهود في تاريخ العصور الوسطى

ومثل الألمان في الاغارة على تلك الدولة أهل فرنسا وقد عظم شأنها حيناً من الدهر أيام شارلمان سنة ٧٦٨ الى سنة ٨١٤ وسميت إذ ذلك بالدولة الرومانية . والذي يهمننا في هذا المقام هو اللغة اللاتينية التي هي لغة الكتابة بين العلماء ثم انحصرت بين رجال الكنيسة ، وذلك أن هناك لهجات أخرى مؤسسه على اللاتينية في ايطاليا وفرنسا واسبانيا ولهجات أخرى مناسبة لها في شمالي أوروبا ترجع الى الأصل التيتونوي . وفي آخر العصور الوسطى قد ابتداء أولئك الأقوام يتغنون بلغاتهم وان لم تكن مكتوبة ، تفتى قوم من فرنسا باللغة الفرنسية الشمالية ، وجماعة من ألمانيا بالألمانية ، وظهر (داتشي) فألف كتابه المسمى « الكوميديا الالهية » باللغة الطليانية . وكتب شوسر الانجلى حكايات كنتبري باللغة الانجليزية السكونية القديمة . وظهرت في اسبانيا أشودة السيد باللغة الاسبانية ، فهناك تكونت أصول اللغات الأوروبية الجديدة ، وظهر أثر ذلك في ترقية معارف تلك الشعوب ، ذلك لأن أكثرهم يجهلون اللغة اللاتينية التي كانت وحدها لغة العلم وقلما

ألفت الكتب باللغات التي يعرفونها اتسعت مداركهم واسفارت عقولهم ، وساعد على ذلك أمران : الأمر الأول الحروب الصليبية التي بها اختلط القوم بالمسلمين وحاولوا كتبهم وعلومهم ، فلما رجعوا غيروا أساليب حياتهم وعرفوا الحقائق وتعلموا الصناعات الكثيرة ، وهذا التفسير قد تقدم فيه هذا موضعاً في سور كثيرة . الأمر الثاني سقوط الدولة الرومانية الشرقية سنة ١٤٥٧ باستيلاء الدولة العثمانية عليها ، فلقد كانت تلك العاصمة حافلة بالعلماء ، فلما أحسوا بدول العثمانيين رحلوا منها ومعهم الكتب الاغريقية العظيمة في الفنون المختلفة التي كانت تجمها أوروبا ودخلوا المدن الايطالية فصار هؤلاء أسانذة في مدارسهم وجامعاتهم ، وهذه أهم الأسباب في نهضة إيطاليا ومنها انتشرت في أنحاء أوروبا ، وهناك سبب ثالث لا يتقص عنها أهمية وهو أن الأندلس كان سقوطها في نفس ذلك القرن ، وأنت أيها الذكي ربما قرأت في مواضع كثيرة من هذا التصير أن ابن رشد لما نفي تفرقت تلاميذه اليهود في أوروبا ورحبت بهم ألمانيا وترجوا كتبه باللاتينية والديرية وغيرها ، وأيضاً قد كان بعض بابوات رومه كما تقدم قد تعلم في الأندلس ، وبعض علماء الانجليز قبل ذلك التلحرج تعلموا العلوم الرياضية وترجوا كتباً من بلاد الأندلس ومصر

باللهج : إذن هذا القرآن الموصوف بأنه بلسان عربي هو السبب الحقيقي في نهضة أوروبا الحديثة . ذلك لأن الأندلسيين المسلمين لم يذوقوا الحروب الصليبية ثم التزم المسلمون التابعون لهذا الدين الذي نزل باللغة العربية هم ثلاثة الأثافي . إذن أول النهضة الأوروبية وآخرها هو القرآن العربي وهذا من أسرار وصف القرآن بأنه عربي وقد ثبت بهذه اللغة ولم يتغير تبعاً للتغير المستمر في جميع اللغات من قرن لآخر كما يأتي فانك ستري أن اللغة العربية في مدة ثلاثة قرون قد تغيرت ألقاظها واختلفت كتابتها لاختلافنا بيننا ، وهذا القرآن العربي لم يتغيرت له مخالفاً في ذلك كل لغة كاللاتينية التي حلت محلها لغة أخرى مبنية عليها ولغات أخرى لاصلة بينها وبينها ، وهذا من أسرار ذكر الوصف بأنه قرآن عربي ، فلوغة اللاتين لغة دينية ومع ذلك تغيرت ولغة العرب لم تتغير ولو تغيرت لزال هذا الدين ثم ان العداوة بين أهلها وبين غيرهم كانت سبباً في طرد جماعة من القسطنطينية وآخرين من الأندلس ، كان كل ذلك سبب انتشار العلم والنهضة الحديثة ، ولو تغيرت اللغة العربية كغيرها لانحصر الدين ولم يظهر فيلسوف كإبن رشد ، ولا ملك يهاجم النصرانية كمحمد الفايح ، ولا ملك يدافع النصرانية كصلاح الدين أيام الحروب الصليبية ، والتركي لسانهم غير عربي ومع ذلك تأثروا بذلك اللسان العربي ، وبهذا كله كانت هذه النهضة الحديثة

ومن آثار هذه النهضة الثلاثية في أوروبا بفضل القرآن العربي أن التعليم في تلك الأقطار كان مقصوراً على علوم الدين والقانون الروماني وقانون الكنيسة وفلسفة أرسطاطاليس ، فإذا جرى ؟
(أولاً) قامت مناظرة بين العلماء أشهرها المناظرة التي بين (بترس ايلارد) وبين (الأب برنارد) فالأول يقول بأن الناس يسبرون بمقتضى عقولهم ولا يقتصرون على القوانين الدينية ، والآخر كان ينتصر للكنيسة ويحكمها في كل شئ

(ثانياً) ان الكنيسة قوت (برنارد) ونصرته وخذلت (ايلارد) وحققت تعالجه ومع ذلك قامت جامعة باريس على أثر هذه المناظرة ثم تلتها سالونو وبولونيا في إيطاليا ثم اكسفورد في إنجلترا
(ثالثاً) ظهر هنالك العلماء مثل (توماس اكوناس) وهو من ذوى الابتكار والعبقرية ، ومثل (روجر بيكن) صاحب النظرية المشهورة وهي البحث العلمي واستنباط القواعد الطبيعية من المشاهدات

(منحص ما تقدم)

ان النهضة التي قامت بأوروبا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ترجع للحضارة العربية الآتية من الأندلس ومن آثار الحروب الصليبية وآثار علماء القسطنطينية القرنين من الترك ، وكل هذا ينطوي تحت هذه الآتية

- كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا - ونشأ عن ذلك :

(الرقّ السياسي)

كان البابا والامبراطور لهما السيادة ولا رادّ لقضائهما فهذا له سيادة الدين وهذا له سيادة السياسة في جميع العالم المسيحي لأن هذه الأمم كانت تخضع لحكم (الاقطاعات) في الممالك المختلفة وكانت السلطات منشعبة في أيدي أمراء مختلفين وكل أمير مقاطعة ينادى الآخر ويحاربه في تلك القرون الوسطى أي التي بين سقوط الدولة الرومانية الغربية وبين سقوط الدولة الرومانية الشرقية المتقدم الكلام عليهما وذلك في مدة نحو أئتمسة كما هو واضح ، ولكن العقول متى تحركت نشطت الأجسام وهبت من رقادها وقامت من نومتها ونفضت غبار نومها ، فترى أحسد هؤلاء الأمراء يقوى ويشدّد ازره ويفلب الآخر حتى ظهرت روح القومية ودبّ حب الاستقلال التام في الماخل والخلرج .

(أ) فظهرت في فرنسا أسرة (هيوكايت)

(ب) وفي انكلترا أسرة (النرمنديين) و (الابنخن)

(ج) وفي اسبانيا أسرتان وهما (قستاله) و (ارغونه)

(د) وقامت أسرة (هنتوفن) وأرادت تكوين مملكة قومية في (ألمانيا) في القرن الثالث عشر فاضها البابا

(هـ) وقام الوطني (ريزي) في منتصف القرن الرابع عشر وحاول تحرير ايطاليا وتوحيدها

(و) وظهر «كتاب الأمير» وهو كتاب وضعه (مكيافلي) وهو كتاب سياسي من أهل فلورنسه شرح فيه أعمال الملوك ، وبين أن الأبرار التي يحفظ كيان دولته لا بد أن يخالف القنمة والضمير والمرودة والانسانية والدين في بعض الأوقات ، هنالك أخذ الملوك يقاومون نفوذ البابا التي كان إذ ذاك له النفوذ السياسي والديني

إذن مبدأ نهضة القوم في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ولكنهم اعتبروها ابتدأت في القرن الخامس عشر حينما ظهرت علوم وأدييات قديمة يونانية ورومانية أ كملت ما جاء لهم من الأندلس العربي وعلماء القسطنطينية وإلى هنا تمّ الكلام على الفصل الأول والحمد لله رب العالمين

﴿ الفصل الثاني ﴾

(في عرب الجاهلية الأولى وهم دولة جوراني فيما بين النهرين)

جاء في كتاب « تاريخ العرب قبل الاسلام » تحت العنوان التالي ما نصه

﴿ العرب البائدة ﴾

(أو عرب الشمال في الطور الأول)

يقول العرب ان هذه الطبقة تشمل على عاد وثمود والعمالقة وطسم وجديس وأميم وجوهم وحضرموت ومن يتسمى بهم ويسمونها العرب العاربة وانهم من أبناء سام . قال ابن خلدون « وكان لهذه الأمم ملوك ودول في جزيرة العرب وامتد ملكهم فيها الى الشام ومصر في شعوب منهم ويقال انهم انتقلوا الى جزيرة العرب من بابل لما زلحهم فيها بنوحام فكنوا جزيرة العرب بادية مخيمين . ثم كان لكل فرقة منهم ملوك واطلم

وقصور الى أن غلب عليهم بنو يعزب بن قحطان» (١) وقال في مكان آخر « إن قوم عاد والعمالة ملكوا العراق» (٢)

وإذا تدبرت ما نقله العرب عن القبائل البائدة رأيتهم يقسمونهم الى قسمين العماليق من نسل لاوذ بن سام وسائر القبائل البائدة من نسل ارم بن سام (٣). قال ابن خلدون « كان يقال عاد ارم فلما هلكوا قيل نمود ارم فلما هلكوا قيل نمود ارم فلما هلكوا قيل سائر ولد ارم ارمان» (٤)

قال العرب يمتون العرب البائدة ساميين من نسل ارم. أي آراميين الا العمالة فيقولون انهم من نسل لاوذ بن سام أخي ارم ويقولون انهم ملكوا العراق «بابل» ثم زحوا منها الى جزيرة العرب. فهذا القول على اختصاره يوافق خلاصة ما وصلنا اليه بعد النظر فيما كشفه العلماء في بابل واشور من النقوش أو قرأوه في كتب اليونان وغيرهم

ثم ذكر العمالة الذين فتحوا مصر وكانوا شمالي الحجاز مما يلي جزيرة سينا، وأن النساين ينسبون العرب البائدة الى (لرم) والعماليق الى أخيه (لاوذ). والذي يهم في هذا المقام ذكره دولة جورابى أو الدولة البابلية الأولى. وسنورد هنا نبذة من تاريخها. وهالك فيها:

(تمدن دولة جورابى أو الدولة البابلية الأولى)

(من سنة ٢٤٦٠ ق.م الى سنة ٢٠٨١ ق.م)

إذ استولى سامواى أولاً على شمالي بابل نحو سنة ٢٤٦٠ ق.م وكان الجنوب في حوزة العلاميين ، وأخذ الملك ينتقل من ملك الى ملك ، وكان السادس منهم جورابى ، وهو الذى أخضع دولة العلاميين ، واستمر في الفتح الى البحر الأبيض المتوسط . والذي يهمنا في تفسير الآية أن نذكر مدينة تلك الدولة ومن أين اقتبسنا ، وما قلها الذى كانت تكتب به لإيضاح لتفسير الآية فنقول ومن الله التوفيق

كان السومريون قبل هذه الدولة قد اتخذوا ديناً ووضعوا شريعة واخترعوا كتابة ولهم لغة خاصة . فلما غلبهم الجورابيون اقتبسوا تمدنهم ونظاماتهم كالفصل العرب المسلمون بعد فتح بلاد الفرس . وكان الجورابيون في أول دولتهم يستخدمون اللغة السومرية في الكتابات ثم أمحلوها بالترجيح حتى ذهبت وذهب معها العنصر السومرى . وبقى العنصر السامى كما تقلب العنصر العربى بمصر والشام بعد الاسلام بتقلب اللغة العربية . ولكن الجورابيين استبقوا الخط السومرى وهو القلم المسهارى لانهم استخدموه في تدوين لغاتهم وزادوا فيه أحرفاً لتكن في السومرية (انظر شكل ٢٨)



(شكل - ٢٨)

(القلم المسهارى القديم على عهد السومريين لا يزال شكله سورياً)

وكان القلم المذكور في أصل وضعه سورياً مثل المبروغليف المصرى كما ترى في شكل ٢٨ ثم نشأه شكله بالاستعمال وباستخدام السامير في طبعه على الطين فصار على هذه الصورة شكل ٢٩

(١) ابن خلدون ج ٢ ج ٢٥٩ ج ٢ (٢) ابن خلدون ج ٢ ج ٢٥٩ ج ٢ (٣) حزة ١٢٢ و ١٢٨

(٤) ابن خلدون ج ٢ ج ٧١ ج ٢

أما المسلمون فأهلوا الأقاليم التي كانت شائعة قباهم في العراق وفارس والشام ومصر وهي الفهلوي والكلداني والتبتي وغيرها ونشروا قلمًا جلوه معهم كان يستخدمه عرب مشارف الشام وأعلى الحجاز هو الحرف التبتي وتكيف بتوالي الأجيال حتى صار إلى الحرف العربي المعروف وعم العالم الإسلامي العربي وغير العربي

أما تمدن السومريين فاقتبسه الجوراييون ورفقه وزادوا فيه كما فعل المسلمون بتمدن الروم والقروم وأكثرهم عناية في ذلك جورابي فإنه جمع الشرائع ونظمها وبوبها فعرفت باسمه وقدرتها في ٢٨٢ مادة وجدوا نسخة منها سنة ١٩٠١ في بلاد السوس منقوشة بالحرف السامري على مسلة من الحجر الأسود الصلب طوطها سبعة أقدام وتدل تلك التسمية على تقدم تلك الأمة في سلم الاجتماع إلى أرقى ما بلغت إليه تلك العصور ولاسيما في شروط الزواج والطلاق والتبني والارث . انتهى الكلام على الفصل الثاني

﴿ الفصل الثالث والرابع ﴾

(في اللغة العربية قبيل الاسلام وكيف كان خطها التبتي وفي النسبة بين خطها التبتي

وطبعتها وبين خطها وطبعتها في أيام البعثة المحمدية)

جاء في كتاب آداب اللغة العربية تحت العنوان التالي مانصه

﴿ العصر الجاهلي قبيل الاسلام ﴾

(من القرن الخامس ليلاد الى ظهور الاسلام)

ان الحكم على ما تقدم من أحوال الجاهلية الأولى مبني على الحدس والتخمين لاستغراقه في القدم وضيق اخبار تلك الجزيرة بجمادى الأيام . ولعلمهم اذ انشطوا للحفر والتنقيب كشفوا عن حقيقة هذه الفنون الستار

(الفرق بين لغة الجاهلية الأولى والثانية)

وفي كل حال أن عرب ذلك العهد القديم يختلفون عن عرب عصر الجاهلية الثانية قبيل الاسلام لغة ودينا وأدبا وخلقا . فالجوراييون كان أكثرهم أهل حضارة وتمدن يتوطنون المنازل والمدن . وأما عرب الجاهلية الثانية فأكثرهم أهل بادية ونجح وكانت لغة الجوراييين أقرب إلى الأثورية منها إلى العربية . فلفة أيوب إذا كانت عربية فهي غير عربية مضر التي وصلت إليها من عرب قریش وسائر الحجاز . وقد يكون الفرق بينهما كثيرا جدًا أكثر من الفرق بين لغة القرآن ولغة عامة مصر أو الشام الآن . لأن أهل هذين للمصرين قيدوا أنفسهم بالمحافظة على لغة القرآن وأساليبه . فكلما ساقتهم طبيعة النشوء نحو التغيير أعادهم التقليد إلى الأصل . ولولذلك لكان الفرق بين لغة عامتنا واللغة الفصحى أبعد من ذلك كثيرا

فمس مقدار الفرق بين لغة مضر ولغة عمالقة العراق بالفرق الذي وجدوه بين لغة عرب الشام في أوائل القرن الرابع ليلاد مما قرأوه على قبراسرى القيس بن عمرو ملك الحيرة وبين لغة مضر عند ظهور الاسلام . وذلك أنهم عنوا في اطلال الحضارة في حوران على حجر عليه كتابة عربية بالخط التبتي نقشت في أوائل القرن الرابع ليلاد أي قبل الاسلام بثلاثة قرون وهذه صورتها (انظر شكل ٣٠) في الصحيفة التالية

١
٢
٣
٤
٥

(شكل ٣٠)

(رسم كتابة عربية بخط نبطي على قبر امرئ القيس بن عمرو سنة ٣٢٨ م)

واليك نصها كما تقرأ كل سطر على حدة

- (١) في نفس امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كله ذوا أسر التاج
- (٢) وملك الأسدين وزيرو وماوكهم وهرب مذحجو عكدي وجاء
- (٣) بزجو (٢) في حبيج نجران مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه
- (٤) الشعوب ووكاه لفرس ولروم فلم يبلغ ملك مبلغه
- (٥) عكدي هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكساول بلسعد ذوالسه

هذا لسان عربي تشوبه صبغة آرامية يحتاج تفهيمها الى إيضاح وهاك تفسير هذه الكتابة باللغة العربية

الفصحى وهو

- (١) هذا قبر امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي تقلد التاج
- (٢) واخضع قبيلتي أسد وزيار وماوكهم وهزم مذحج الى اليوم وقاد
- (٣) الظفر الى اسوار نجران مدينة شمر واخضع معدا واستعمل بنيه
- (٤) على القبائل وأنابهم عنه لدى الفرس والروم فلم يبلغ ملك مبلغه
- (٥) الى اليوم . توفي سنة ٢٢٣ في اليوم ٧ ايلول (سبتمبر) وفق بنوه للسعادة

وكان أهل الشام وهوران ومايليهما يؤرخون في ذلك العهد بالتقويم البصري نسبة الى بصرى عاصمة
هوران وهو يبدأ بدخولها في حوزة الروم سنة ١٠٥ لبلادها فاذا أضيفت الى ٢٢٣ كان المجموع ٣٢٨ لبلاد
وهي السنة التي توفي فيها هذا الملك

انظر الى الفرق بين الأصل وتفسيره والمدة بين هذين العصرين ثلاثة قرون فكيف تكون وبينهما بضعة
وعشرون قرناً؟ والتغيير طبيعي في كل لغة عملاً بناموس النشوء . اعتبر ذلك في الفرق بين اللغة اللاتينية الأصلية
وماتخلف عنها من الايطالية والاسبانية وبين اللغة الانكليزية القديمة والحديثة وغير ذلك

فآداب العرب في جاهليتهم الثانية يراد بها آدابهم قبل الاسلام وهم أهل بادية لا يقرءون ولا يكتبون . وانما
جمعت هذه الآداب بعد الاسلام بالأخذ عن الافواه . انتهى الكلام على الفصل الثالث والرابع والحمد لله رب العالمين

﴿ الفصل الخامس ﴾

في أن اللغة العربية نسخت لغات لم تقم لها قائمة الى الآن فقد جاء في كتاب تاريخ أدب اللغة العربية
(لجورجي زيدان) تحت العنوان التالي مانعه :

﴿ الدولة الأموية واللغة العربية ﴾

أما الدولة الأموية فاهمة كانت متجهة فيها على الخصوص الى الآداب العربية الجاهلية . لأن الأمويين
كانوا شديد الحرص على منزلة العرب كشيء العناية في حفظ الانساب وهم الذين جعلوا الاسلام دولة فأبدوها

ونشروا اللغة العربية في المملكة الاسلامية بنقل السواوين من القبطية والرومية والفارسية الى العربية . وبعد أن كانت مصر قبطية والشام رومية والعراق كلدانية أو نبطية أصبحت هذه البلاد بتوالي الأجيال عربية النزعة وتنوسبت لغاتها الأصلية وهي تُعد الآن من البلاد العربية . وإذا زلها التركي أو الافرنجى أو غيرها من أى أمة كانت وتوالدها عدتله عربيا

وظل العرب في أيام بنى أمية على بدواتهم وجفائهم . وكان خلفاؤهم يرسلون أولادهم الى البادية لائقان اللغة واكتساب أساليب البدو وآدابهم . وظل كثير من عادات الجاهلية شائعة في أيامهم كالفاخرة والمباهلة ومناشدة الأشعار في الأندية العمومية فكان أشرف أهل الكوفة يخرجون الى ظاهرها يتناشدون الأشعار ويتعادتون ويتذاكرون أيام الناس . وأهل البصرة يخرجون الى المر بدهذه الغاية كالمسيحي . كأنهم خرجوا بصبيتهم الى ما كانوا عليه قبل الاسلام . ولم يبلغ العرب من العز والسؤدد ما بلغوا اليه في أيام هذه السولة . وقد تكاثروا على عهدهما وانتشروا في ممالك الأرض . انتهى الكلام على الفصل الخامس والحمد لله رب العالمين

﴿ الفصل السادس في المقصود من هذا كله ﴾

في تفسير هذه الآية وهو أن بقاء اللغة العربية محفوظة الى الآن في بلاد العرب وأوروبا والفرس والهند والصين وبلاد جاوه مجزة من أكبر المجزات

انظر الى هذه اللغة التي تغيرت لهجاتها وصور أشكالها من كتابة السومريين الأولى ثم انها تغيرت ثم تحولت الى أن صارت قبل الاسلام كما رأيت في (شكل ٣٠) المتقدم قريبا ثم انظر الى طورها الرابع وهو ما كتبت به المصاحف ، وكيف بقيت الحروف محفوظة ، وهيئاتها متقاربة نيفا وثلاثة عشر قرنا . ومن أجل الأدلة وأنصعها ما تراه في هذه الكتابات التي أمامك ، فهامى ذه الحروف العربية واضحة مكتوبة في بلاد الصين ، ومعها الخط الصيني لسورة الفاتحة وسورة الاخلاص (انظر شكل ٣١ في هذه الصحيفة وشكل ٣٢ و٣٣ في الصفحتين التاليتين)

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 其意我 奉普慈 今世獨 慈後世 眞主的 尊名起 又接唸 法體哈
 الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ

آیات زُحُودٍ وَإِيَّاتٍ سَبِّحِينَ
 أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ
 صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ
 عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ
 عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ

其感讚是惟獨
 接哈阿米勒
 保養普世普慈
 今世獨慈後世
 切迷路的人
 他們也不覺
 執掌還報日期
 的主我們惟獨
 們不受怒惱
 拜你我們惟獨
 們上行恩他
 求你相助哪主
 路道你在他的
 你指引我們正
 道那些人的

امين

其意。哪主。你准承我們。的。若跟隨。的。以。媽。母。同。以。媽。母。低。唸。阿。接。唸。米。勒。隨。唸。所。勒。隨。唸。那個不可言。定。或。唸。這。個。

قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ
 اللهُ صَمَدٌ
 لَمْ يَلِدْ وَلَمْ
 يُولَدْ
 لَمْ يَكُنْ
 لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ

其意。你。說。此。主。命。聖。事。情。人。說。如。此。主。是。獨。一。的。主。是。無。求。祈。的。他。不。生。人。人。不。生。他。無。有。一。物。與。他。為。對。○

فهمنا تعاون الصينى والألماني والفرنسى والانجليزى والتركى والهندي والاسبانى والافغانى والعربى والجمي
والأهم كلها على حفظ اللغة العربية والنطق العربى ، فلم يدخله ولم يدخل لفته ذلك التحريف الذى حل بساحة
لغة وخط العرب البائدة أيام جورانى ولأيام الجاهلية فى القرن الرابع الميلادى قبيل البعثة المحمدية بل هو باق
كما هو ، فهذا معنى - لانبديل لكلمات الله - ومعنى - إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون -
وبهذا كله نفهم أيها التكى لماذا وصف القرآن بأنه عربى والحمد لله رب العالمين . كتب ليلى الاثنين
(٢٠) أكتوبر سنة ١٩٣٠ الساعة العاشرة مساء . تمت اللطيفة الثانية . ويقع هذه اللطيفة الثانية جوهرتان

﴿ الجوهرة الأولى ﴾

(فى قوله تعالى - قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى الى إنما إلهكم إله واحد -)
جاء فى مجلة « النهضة النسائية » تحت العنوان التالى مانصه

﴿ فى وجود الله تعالى ﴾

(الكتاب الأمريكى الشهير ارثر برزبان)

يرعون أن العقل البشرى موجه اهتمامه بالأكثر الى المسائل الاجتماعية التافهة مثل جمع الأموال وكيفية
عقد الزواج وماشا كل ، أما نحن فعلى غير هذا الرأى ونعتقد أن العقل البشرى لا يوجه أخص اهتمامه الى
هذه المسائل دون سواها ، لو أن محرر جريدة أتى على قراء جريدته سؤالاً عن « الزواج هل هو أفضل أم
العزوبة » لوردت عليه الأجوبة الكثيرة بضعه أيام أو بضعة شهور . مما يضجر الناس من هذه المناقشة وتتقطع
الكتابات

وكل سؤال يكون نصيبه الاعمال بعد اشتغال الناس به زمناً معلوماً محدوداً ، وأما مسائل خلود النفس
ووجود الله ومصير الانسان بعد وفاته فانها ما برحت تشغل أذهان الناس منذ البداية ، وسوف تبقى موضوعاً
لاهتمامهم العظيم الدائم

تأتينا الرسائل فى هذه المواضع كل يوم من كل سنة فى مسائل تشغل خواطر الناس على السواء
يتساءلون « هل يوجد إله وهل تكون النفس خالدة ؟ » وهذه الكتابات الكثيرة الهائلة تختلف فى
لغتها وطبقتها وهى الدليل على مبلغ إيمان كاتبها ، وبعض هذه الرسائل تأتىنا من المرتابين المتشككين واللحدين
والكتاب ومن سائر الذين أسكرتهم تلك المعرفة القليلة التى جعلوها حكمتهم ودينهم بدلا من ثقة الأجيال
الكثيرة تلك الثقة بوجود الله وخلود النفس

ويظن بعض هؤلاء أنهم اهتموا الى طريقة جديدة مبتكرة تساعد على الحياة بالاستغناء التام عن
الله وأن العلم قد وقهم الى هذه الطريقة الجديدة

ولكن العلم لم يفعل شيئا من ذلك ، بل ان العلم فعل ما هو مخالف على خط مستقيم لظنونهم وأوهامهم
العلم أثبت وجود الله وخلود النفس ولا يسمح لنا القارىء أن نضرب لذلك مثلا صغيراً
رجل عنده صندوق ووضع فيه بعض ققط فقدت أمها وهى صغيرة جداً ولم تفتح عيونها بعد . اعتنى هذا
الرجل بالقطط المذكورة وأحسن معاملةها وجعل للصندوق عجلات فكان يجره الى ضياء الشمس لتمتع القطط
بحرارة الشمس . كان يفتيها باللبن فى مواعيد معينة بجزء التدقيق . كان يطرد الكلب الشرير إذ يجازل الاعتداء
عليها ويخيفها ويرعبها كثيراً ، كانت هذه القطط تنق بالرجل وشعرت أنها فى حاجة اليه وأن لاغنى لها عنه
وكان هذا دور الإيمان

وحدث ذات يوم أن كلبا توصل الى قطة منها فقتلها بعد أن قطعها بأسنانه وشوه جسمها ذلك لأن القطة قد خالفت القوانين والشرائع التي سنها لها الرجل خرجت من صندوقها غلّ بها ذلك الحساب . وكانت احدى القطط قد بدأت تبصر قليلا باحدى عينيها فقالت مفررة بالقليل الذي تراه : « أنا لا أعتقد بوجود الرجل فإذا كان موجودا حقيقة فهو ظالم اذ سمح أن تقتل أخنى الصغيرة وأن يمزقها الكلب لأصدق ما ترجمونه من أن أخنى قتلت بذنبها لأنها خرجت من الصندوق والحقيقة أن الرجل غير موجود فأنما نحن القطط أولياء أمورنا وسادة الكيان وعلينا أن نحارب عدونا وندافع عن أنفسنا هذه القطة هي قطة « انجرسول » الملحد الأمريكى الشهير

ثم ان قطة أخرى بدأت تبصر بعينيها وهي أرقى من رفيقتها الأولى فقالت (أنا عالة . وقد وجدت أتى غير مدينة للرجل وعنايته بشيء وانما الشرائع والنواميس ولية أمورنا . هذا الصندوق قائم على عجالات يدور في نور الشمس بمجرد إرادته لا أنكر أتى أجهل ماهو الذى يدفعه ولكن أعلم أن الرجل لا يستطيع دفعه وعلمت أيضا أنه لاوجود لناموس (توزيع اللبن علينا) فأنما يأتينا اللبن في مواعيد معينة بحكم السور وبحيى اللبن ناموس طبيعى فقد كان يحبىء من قبل وهو يأتى الآن وسيأتى كذلك بعد . دعونى فمن دعاويكم الفارغة فأنا منقلبة الى فراشى لأنام ولكن لا نذكروا على مسمع منى أمر رجل يحب يعنى بنا . الأمر كله نواميس طبيعية وأنا عظيمة فى ذاتى لأتى أول من اهتدى الى هذه النواميس

هذه القطة هي قطة « اسحاق نيوتن » ولكنها لم يكن لها إيمان نيوتن ويضيق بنا المجال لو أردنا أن نذكر مآقاته قطة « داروين » فقد كانت طويلة اللسان . ولكن اليك ماجزى بعد ذلك كبرت القطط التي بقيت حية بعد أن ماتت تلك التي أصابها الموت جزاء مخالفتها وشروطها عن الصراط المستقيم وانفتحت هيومنهن جيما فصارت تبصر جيدا فرأت الرجل عيانا وهرفته واعترفت به وتوسلت اليه أن يسمح لها بالاقامة فى منزلة . قالت القطط للرجل

(لا تؤاخذنا يا سيدي واغفر لنا حماقتنا وجهالتنا إذ كنا صغيرات جاهلات ولكنك تعلم بأن بصرنا كان ضعيفا واننا كنا لا نبصر ولا نعلم) فقال الرجل الكريم لابأس انصرفن الى البدرورن فى أسفل المنزل وتمتعن بالراحة والقوت هناك

اتهى المسئل الذى ضربناه . وانما نحن قطع عمياء فكما حاولنا التعمق فى اكتشاف أسرار الطبيعة ومخائنها زداد توغلا فى خفايا جديدة لاندر كها نكشف أن الأرض تدور حول الشمس ولكن لا بد لأعظام عالم من الاعتراف بهجزه عن الاهتداء الى سبب دورانها يقول هذا العالم « أعطنى المحرك الأول وكل شىء سهل بعد ذلك » وهكذا قالت القطط العمياء فى صندوقها قالت (ادفع صندوقنا دفعة واحدة وعلينا فهم الباقي)

واطلعت القطط على ناموس توزيع اللبن فجعلته بدلا من هناية الرجل بها شأن الذى ادعى التمسك بناموس الجاذبية العام فظن أنه يقدر بواسطته على مجود الله . ولكن العقل الكبير الذى اهتدى الى ناموس الجاذبية العام كان عقلا متدينا تقيا علم أنه ضعيف فى ذاته لا قدرة له على إدارة كل شىء

ان نيوتن لم ينسك وجود الله . وكان أدرى الناس بغموض أسرار حكمته ونواميسه . علم وعلم الناس أيضا أن ذلك الناموس ما يبرح عاملا منذ الأزل وهذا كل ما ادعاه وكل ما يقدر أن يدعيه سواء والعالم المصرى (ورد كلفين) من أشهر أتباع نيوتن قيل له : ماهوسر الجاذبية ؟ فأجاب : لايجزى للعالم أن يحاول كشف أسرارها فأننا نجعلها تماما ولا نعرف عنها شيئا

لذلك قول المرئيين : ارتابوا اذا كان لابد لكم من ذلك ولكن اجعلوا الحكم أساسا لريمك وارتابوا
أولا في تكتمكم التي لازيد عن حكمة تلك القطط العمياء
اذ كروا أنكم لا تعرفون شيئا طالعوا كثيرا ولكن لانتمحووا آراء غيركم القاصرة أن تسطو على
عقولكم وتجعلكم آلة للريب والشكوك مهما فعلتم لانتمرضوا العقائد الآخريين ولعمائمهم ، انشروا المعرفة وأذيموا
الحقائق . وأما الريب التي زعج الآخريين وتذهب بسعادتهم فاحفظوها لأنفسكم أذيموا ما تعرفونه عن يقين
واكتموا مادون اليقين، فهل يسمع الملحونون . وبهذا انتهت الجوهرة الأولى

﴿ الجوهرة الثانية ﴾

(في قوله تعالى - وجعل فيها رواسي من فوقها -)

وهي الجبال ، ولقد تقدم الكلام على الجبال في مواضع كثيرة مثل ما جاء في ﴿ سورة الرعد ﴾ عند
آية - وفي الأرض قطع متجاورات - الخ وهكذا سيأتي في آية - أفلا ينظرون الى الإبل كيف خلقت *
والى السماء كيف رفعت * والى الجبال كيف نصبت - الخ ولكن نذكر هنا عجيبة جاءت في مجلة « اللطائف
المصورة » فقد جاء فيها تحت العنوان التالى مانصه :

﴿ في أميركا الجنوبية غنى طبيعي ﴾

هناك جبل من فضة لا ينضب له معين

بوليفيا جمهورية صغيرة من جمهوريات أمريكا الجنوبية ، كانت فيما مضى مستعمرة اسبانية لكنها استقلت
سنة ١٨٢٥ بعد حروب دموية بينها وبين الجيوش الاسبانية ، وهي صغيرة جبلية يتراوح ارتفاع جبالها
بين ٣٠٠٠ الى ٦٠٠٠ متر ، وفي وسطها اكلت تسمى لا يونا فيها ثروات معدنية لا يحصى طاعده ، يقتر
ما فيها عثبات بل بألوف الملايين من الجنيهات ، من بينها جبل كاه من فضة يطلق عليه اسم (سيرودي بوتوزي) ، ظل
مئات السنين يدرّ الأموال الطائلة على الدولة الاسبانية ، فكان لها المراد الأكبر الذى يأتيها من كل مستعمراتها
الواسعة . وقد اكتشف هذا الجبل رجل هندي من هنود أميركا للققين بفوى الجلود الحمراء يسمى جوالكا
فقد كان مسافرا في أيام الشتاء الباردة فخارحله فوق هذا الجبل ، ولما قرسه البرد أشعل نارا تصطبلى ، فما كان
أشدّ دهشته عند ما أبصر الصخور تدوب تحت تأثير الحرارة وتسيل معدنا أبيض جيلا ، فتأمله طويلا لكنه
لم يدركه ، فأسرع الى سيده القبطان (جون دى فيلارويل) وأعلمه على الأمر ، فاستحوذ هذا على
جبل الفضة باسم ملكه الأمبراطور شارل كان في يوم (٢٢) ابريل سنة ١٥٤٥

ولما ذاع خبر هذا الاكتشاف فى اسبانيا تقاطر الى بوليفيا كل مغامر وأخذوا يتقاتلون ويتناحرون فى
سبيل الاستحواذ على جزء من هذا الجبل الذى كان يدرّ أموالا يكلّ عن إدراكها الحصر لاسيما فى ذلك
الزمن الذى كان أقلّ مبلغ فيه يدرّ ثروة . وقد استخرج من جبل سيرودي بوتوزي من سنة ١٥٤٥ أى
منذ اكتشافه حتى سنة ١٨٢٥ وهى السنة التى خرجت فيها بوليفيا من أيدي الدولة الاسبانية (١٦) ألف
مليون ريال طيبلى أى ٥١٢٠ مليون جنيه فى ٢٨٠ سنة ، فيكون معدّل غلته فى كل سنة من هذه
السنين (١٨) مليون جنيه وثلاث . وقد بلغ مائاله التاج الاسبانى من هذا الايراد (٦٤٠) مليون جنيه .
وقد دفع أصحاب منجم واحد من هذا الجبل للحكومة بصفة جزية (١٦) مليون جنيه وثلاثة أرباع المليون
وقد أراد الأمبراطور شارل كان يوما ما أن يكافئ سكرتيره الخاص الهدون فرانثيسكو دى لوس كوبروس
فطلب منه أن يمنح عليه ما يريد فضمّم الهدون فرنثيسكو بين شقيقه : « أريد يا مولاي (ريل) واحدا على

كل رطل « (والرطل يساوي مليون ونصف من حملتنا) . فأجاب الأمبراطور منذهلا « أمدا كل ما تطلبه ؟
ولما رآه مصمما على طلبه غذا الذي صفر في عيني شارل كان وقع له على الأمر وتاوله إياه ، وبعد ثماني
سنوات أي في سنة ١٥٦١ مات السون فرانشيسكو وترك ثروة تقدر بأكثر من (٧) ملايين من الجنيهات
جمعها مما عاد عليه من المليون ونصف التي كان يأخذها على كل رطل فضة يستخرج من جبل سبوا المذكور
ولم يزل هذا الجبل الى الآن ملوفا بالفضة لكنها تخرج بمزوجة بالتصدير . ولم تحض على اكتشاف جبل
الفضة سنوات حتى أقيمت بازائه مدينة بوتوزي . وقد بلغ عدد سكانها في القرن السابع عشر ٢٠٠.٠٠٠
نسمة فكانت أكبر مدينة في أميركا الجنوبية وأكثرها سكانا

وكان لكل اسباني (هيدالجو) أي منحدر من صلب اسباني صميم ليس في عروقه دم يهودي أو عربي
مفري أن يكون له حق بأن يستقل جزءا من الجبل

والعادة المتبعة في ذلك والتي لم يزل معمولها الى الآن أن يأخذ الواحد له ركنا ويحفر فيه نفقا ويستولى
على كل ما يجده فيه حتى أصبح في الجبل أكثر من ثلاثة آلاف نفق . وكان المنود الجرهم القائمون بالحفر
يشغلون في الاتفاق المظلمة التي ليس فيها نور ولا يتخللها شعاع من الشمس ، وسيط أسيادهم الاسبانيين
تتهال على أجسامهم اذا بدا منهم أقل وهن وأدنى ضعف . وكان المتراجحون على استقلال جبل الفضة يتقاتلون
حتى أدى بهم التناسخ الى الانقسام الى حزين كثير بينهما الاغتيال ثم القتال في صفوف مرصوصة . أما اليوم
فمدينة بوتوزي التي كانت منذ مائتي سنة زاهرة زاهية لم يعد فيها غير ١٥٠.٠٠٠ أو ٢٠٠.٠٠٠ شخص لأن
سعر الفضة انخفض كثيرا في أوروبا وقل الطلب عليها وكثر من جهة أخرى على التصدير ، ولكن من سوء
حظ البلاد أن الأرض لم تعد تغل من هذا الصنف إلا كميات أقل مما كانت تغله فيما مضى . وبهذا تمت
الجوهرة الثانية وبهما تم الكلام على اللطيفة الثانية والحمد لله رب العالمين

﴿ اللطيفة الثالثة ﴾

(في قوله تعالى - حتى اذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلاودهم بما كانوا يعملون *
وقالوا لجلودهم لم شهد علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون
وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلاودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا
بما تعملون - الآيات)

قد تقدم في ﴿سورة يس﴾ - وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون - . فههنا ذكر الجلود
مع الأسماع والأبصار وهناك خصص الجلود بالأيدى والأرجل ، وفي هذه مجازتان أظهرهما الكشف الحديث
فتكون مجازات هذه السورة بالكشف الحديث حسنا . ولقد ذكرت لك هناك أيها النكي حكاية القائل
البياني الذي قتل مشوقته التي رغبت من زواجه ، وعرف بعد مدة بسبب آثاره ، وهذه مشروحة هناك
بإسهاب وإيضاح تام ، ولكن هنا أذكر ما جرى من المحادثة بيني وبين صديقي العالم الذي اعتاد أن يناقشني
في هذا التصبر . قال : كيف تنطق الجلود وتشهد ؟ وما معنى كون الأيدى والأرجل تشهد عند الله ؟ فقلت تعالى
يقول في ﴿يس﴾ - وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم - لم فلم خص الأيدى والأرجل بهذه الشهادة ؟ وكيف
تقول الجلود - أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء - . فقلت : أعلم أن هذه المخلوقات المادية المشاهدات على
قسمين : قسم لنا القدرة على التصرف فيه ، وقسم لا قدرة لنا على التصرف فيه . فالذي لنا القدرة على
التصرف فيه شهوات الطعام والشراب والشبق والكلام ، فهذه خلقت فينا لأجل حياتنا وبقائنا ، وهذه تأتي
بالخوف والبلل ، فإن الانسان قد يجموع في كل الأكل قد يضره ، ويطش فيشرب والشرب قد يضره ، وينتهي

الواقع والواقع قد يضرمه ، ويتكلم والكلام قد يضرمه . ذلك لأن من شهوات الطعام ما تكون شهوات كاذبة ، ومن شهوات الشراب ما تكون كاذبة ، ومن شهوات الواقع ما تكون كاذبة ، ومن الكلام ما يكون كذبا لا صدق فيه . إذن أحوالنا الحيوانية يعثر بها الصدق والكذب . فن الكلام صادق وكاذب . ومن الجوع والظما وشهوات الواقع ما يصدق وما يكذب . فكثيرا ما نرى أنفسنا بعد الطعام بمدة يسيرة نطلب الطعام ، وقد نطلب الشراب قبل مضي ساعة أو ساعتين وقد تتكلم كذبا . هذا هو القسم الأول وهو الذي لنا القدرة على التصرف فيه . أما ما لا قدرة لنا على التصرف فيه من الفاكهة والحب والمخضر والمعادن والمجرو والشجر . فهذه صوادي في أفعالنا ناطقات بالحق ، فلم تر حبة القمح أنبتت ذرة أو برسيا ، ولم تر بذرة القطن أنبتت كلاً أو بذنجانا ، ولم تر الشمس أصبح تينا ، ولا التين أصبح عنباً ، بل هناك نظام ، ولم تر الهواء أصبح غذاء ، ولا الفداء صار سماً ، بل هذه كلها نواطق بالحق ، لا عوج ولا كذب ولا خداع . وإذا رأى الناس أن في الطبيعة ما لم يهدهوه كحوادث الزلازل والبراكين فذلك ليس من أكاذيبها ، بل هذه المفاجآت جاءت لغايات صادقة وإن أخذت الناس بغتة فغاياتها شريفة . فأما غايات العواطف الناقصة في الإنسان فأنها تكون شراء فالأكل بشهوة كاذبة والشراب والواقع كلها مقصرات للحياة جالبات للرض بخلاف حدوث البراكين في الأرض من حيث لا يشعر الناس بها فقد تكون لها منافع تروى على مضارها مثل انبعاث بخار الماء وغاز الهيدروجين المكرر وغازات أحماض كبريتية أخرى فأنها تكون هناك رواسب منها معدن الكبريت حول فوهة البركان وقد تصير طبقات سميكة تصلح للاستغلال كما نرى براكين كثيرة في جنوب إيطاليا إذ هي أغنى مورد لمعدن الكبريت وتفتح كل عام منه (٢٠٠٠٠٠) طن ، فهذه النعم الكبريتية إنما جاءت بفضل البركان . إذن مفاجآت البراكين ليست كمفاجآت الكذب وأمثاله . ومن ذا يقول إن شرور شهوات نفوسنا وغضبنا الغضب المنفضي إلى القتال والدمار والهلاك والتقاطع كغضب الطبيعة بحدوث البراكين . وهل الحرارة الناجمة في (بزولس) بالقرب من نابولي بجنوب إيطاليا البالغة (٣٦٠) بميزان ستجراد التي سوتها القوم إلى قوة كهربائية يستعملونها في الصناعات المختلفة . وكذلك نظائر هذه البراكين في جزائر (ليباري) وفي (شيلبي) يرسب بسببها الكبريت والبوريك والشب

أقول : هل هذه التي وجهت للنافع العامة بالمعادن النافعة والأعمال المفيدة تشبه شرور أنفسنا بالكذب وآثار الشهوات الكاذبة ، فالجوع الكاذب ، والعطش الكاذب ، والعداوة المبينة على سوء الظن ، كاهن جالبات لنا سوء بخلاف ما نراه في الطبيعة ، فهو على قسمين : قسم تتأخره والمنحة لا تخطئ فيه كالفاكهة والأب وقسم لا تعرف أحواله لاشتباهه علينا كككون الأرض فظن أن لبراكين فيها إذا هي نائرة ، فهذه ظاهرها شر ولكن باطنها نعمة . أما نتائج الكواذب من طبائنا فهو شر محض حده أيها التكي مقدمات لطلبك ، فألسنة الناس تصدق وتكذب ولكن لسان الطبيعة صادق غير كاذب فأننا لم نر الذهب يوماً زاد وزنه أو نقص فهو (١٩) بوزن حجمة من الماء وهكذا الزئبق (١٣) تقريباً واعلم أنه لا معنى للكلام إلا الحركات في الهواء ، وبذلك الحركات مختلفات باختلاف الخارج ، وباختلافها انتاز بعضها عن بعض ، وبانضمام صوتين أو ثلاثة أو أكثر تكون كلمة ، وبانضمام الكلمات تكون جمل ، والجمل تدل على المعاني ، وهذه الدلالة تارة تصدق وتارة تكذب . إذن فائدة الكلام أنه يدل على المعاني ، ولكن هذه الدلالة قد تخالف الواقع . فلننظر في مخلوقات أماننا ترى الماء ونحن ظمأى فنحس في أنفسنا بمعنى . وما هو المعنى ؟ هو انه يبلى ظمأنا . ومثل ذلك الفاكهة والمخضر والحب وما أشبه ذلك . فكل هذه لها دلالات ولكن دلالتها صادقة لا كذب فيها بخلاف الكلام الصوتي فيدخله الكذب . إذن البال إما بحرف وصوت وفيه الصدق والكذب . وإما بلاصوت وهذا لا كذب فيه . وكلام المخلوقات ليس بحرف

ولاصوت . وكلام الانسان بحرف وصوت

واعلم أن الكلام الذي ليس بحرف ولاصوت قسمان : قسم قدسي وهو كلام الله القديم . وقسم مخلوق وهو كلام هذه العوالم . فأما كلام الله فانه فوق عقولنا ولانسبة بينه وبين كلام المخلوق بحرف وصوت . وبلا حروف ولاصوت فهذا فوق متناول عقولنا . ولكن لما تاهت عظمته وجلت قدرته أبرز لنا في الوجود عوالم تكون نتائجها صادقة بدون كلام حرفي أو صوتي حتى سمعناه يقول - وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم - كيف تكلمه الأيدي وكيف شهدت الأرجل ؟ كلامها ليس بحرف ولاصوت ففيها دلالات ثوابت

ومن باهر الصنع ودلائل الانفاق وبواهر الرحمة والحب أن الله تعالى لما احتجب عنا فلم نعرف كيف يتكلم بلاحروف ولاصوت وكان رموزاً بالعباد أراد أن يضرب مثلاً بالمخلوقات . فكما عرفنا علمه وقدرته بضرب مثل بما نحس به من علمنا وقدرتنا وأن تكمن النسبة مفقودة بين صفاتنا وصفاته تعالى هكذا عرفنا كون كلامه ليس بحرف ولاصوت كما نشاهد في هذه المشاهدات من الدلالات الصادقة :

(١) على حكمته وقدرته وعظمته

(٢) وعلى معرفة الجنان بالطرق العلمية في بحث خطوط اليدين والرجلين

(٣) وبما تنتفع به من خواص ما تأكل وتشرب وتداوى وهكذا . فهذا عرفناه بلا حروف ولاصوت - والله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم -

فقال صديقي : لقد فهمت من مقالكم أن هذه العوالم صادقة في دلائلها والانسان قد يكذب وأن هذه الأيدي وهذه الأرجل دلائلها صادقات وفيها علامات مثبتات جرائم أصحابها وليست كاذبة بخلاف ألسنة الانسان في الأرض فهي كاذبة . ولكن هل علم الله تعالى بأعمالنا في حاجة الى أمثال الأيدي والأرجل ؟ فقلت : كلا . هو يعلم ذلك . ولكن هذه الآيات موجهات لاصلاح نفوسنا ولها دالتان : أولاً ان الله عليم بأعمالنا . ثانياً انه ضرب لنا مثلاً بأن أيدينا وأرجلنا فيها علامات . ولصدق هذه العلامات الدالات على أفعالنا نسب اليها أن تخاطب بلاحروف ولاصوت من كلامه ليس بحرف ولاصوت . واذا سمع الله منها أفلا يسمع القضاة نطق هذه الأيدي فيحكمون بما تدل عليه ؟ فقال : عجب ! مالنا وللقضاة ؟ فقلت : القضاء قضاء ان قضاء الله يوم القيامة . وقضاء القضاة في الدنيا . فإذا كان الله يوم القيامة وهو العليم بأفعالنا يقول على سبيل المجاز أو الحقيقة أن الأيدي والأرجل تكلمنا وتشهد بأعمال العباد وقد قبل شهادتها وسمع كلامها ، أفلا يقبل شهادتها ويسمع كلامها قضاء الأرض ؟ فههنا علمان جليلان : علم الطبيعة الموزونة الجميلة التي نعبّر عن جمال مبدعها الذي أبدعها وجعلها بهجة صادقة . وعلم القضاء الذي يترتب على صدق مقدماتها . فاذا سمع المسلمون وقضاةهم الله يقول - وأشهدوا ذوى عدل منكم - ويقول - واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء - فليس معنى هذا أنه لا يثبت إلا على هذا المتوال ، فقد أجمع علماء الاسلام قاطبة أن حكم القاضي مبنى على الظن والنهي عنه كان يحكم بحسب الظاهر والله يتوفى السرائر ، لأننا لا نزال في الأرض . واذا وجدنا أن الظن جاء معه يقين ظاهر ألفينا هذا الظن . ألم يقل الله تعالى في ﴿ سورة النجم ﴾ - ان الظن لا يثبت على شيء -

فاذا سمع القاضي رجلاً يقول ان الشمس لم تطلع مع أنها هي طالعة ، فهذه الشهادة لا تقبل لأنها خالفت الحق هكذا إذا دلت أصابع المجرم على أنه هو القاتل وأن آثار الأصابع ظهرت على صنجة السيف والسيف وجد على رقبة القتيل وجاءت شواهد أخرى على ذلك ، فانا اذا سمعنا شاهداً يبنى هذا يقول له كذبت أيها الشاهد . إن هذه الآيات أيها الصديق نزلت في القرآن ليفتح لنا بها في القضاء باب كان مقفلاً إلا قليلاً فان الخنفة يقولون : « إن القرآن لما دخل في إنبات الجرائم » ولكن هذا الزمان الذي ارتقت فيه الأمم

ارتقت فيها أسباب الجرائم فأنزل الله تعالى هذه الآيات تقرأ في كل حين ندينا وذكرا لله ثم استنابا بعنه
ذووالعقول الكبيرة . ولقد تقدم في (سورة الكهف) في قصة الحضرة وموسى عليهما السلام ما ملخصه
أن قتل الحضرة للفلام وخرقه السفينة راجع الى انلاف النفس وانلاف المال وهذان أهم حقوق الناس . وإذا
وجدنا ذلك في القرآن وعلما أنه قد تم الحقيقة على الظن لأنه عرف أن هذا الفعل المخالف لطواهر الظنون أفضل
وأحسن وهذا على طريق الكشف ونحن لا كشف عندنا بل لو كان عندنا كشف لم نحكم إلا بالظاهر ، فلنا
طريق آخر وهو أننا متى تحققنا بطرق علمية أن هنا ضررا محققا قام عليه الدليل الظاهر لأهل الحل والعقد
فاننا تقدمه على الحكم الذي عرفناه بطريق الظن ، فارجع اليه فالحق هناك موضع بكلام الأئمة وأكبر علماء
الاسلام مع دلائل العقل ، وعليه وجب على علماء الاسلام في الأرض قاطبة أن يحدوا في جميع العلوم ومن
أهمها أدلة اليدين والرجلين التي ورد ذكرها في القرآن لصدق دلائلها

فقال يا هبيا : ولماذا خصت اليدين والرجلين ؟ أليس جسم كل امرئ فيه علامات تدل عليه ؟ فلان فرق
بين الأيدي والأرجل وغيرها . ثم كيف تقول ان لساننا يكذب واليدان والرجلان لا كذب فيهما كما هو
شأن العوالم للمشاهدة من صدق شهادتها مع أن الله سوى بينهما وبين اللسان فقال تعالى - يوم تشهد عليهم
أستهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون -

فقلت الجواب على هذا يرجع لنصليْن اثنين : الفصل الأول في قيمة شهادة اللسان . الفصل الثاني في اختصاص
اليدين والرجلين بالشهادة

(الفصل الأول في قيمة شهادة اللسان)

يقول الله تعالى في (سورة يس) - اليوم نحتم على أفواههم - وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما
كلموا بكسبون - فهنا أخص الله اللسان وأنطق اليدين والرجلين وقبل منهما الشهادة . ويقول الله في سورة
أخرى - يوم تشهد عليهم أستهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون - فهنا - سوى الله بين شهادة الثلاثة
إذن هنا اللسان يصدق تارة وبكذب أخرى بدليل انه ختم على الفم تارة وأنطق اللسان تارة أخرى . فإذا
كان الانسان بعد الموت ويوم الحساب لا يزال مالكا لقواه وعواطفه كما كان في الدنيا بحيث يتصرف كما
يتصرف في هذه الحياة وية أن ينطق بخلاف ما في ضميره ، فهناك يختم على لسانه وتبقى شهادة الأيدي
والأرجل . فأما إذا أصبحت عواطفه غير خاضعة لإرادته وليست تحت تصرفه كما ترى في النوم المغناطيسي ونحوه
فهذا لا ينطق إلا بالخفايق فهناك يطق اللسان فينطق كما تنطق الأيدي والأرجل . إذن اليدان والرجلان لما
مزينة ليست للسان فيظننته بإصاح مقتضيا المساواة أراه أنا مانعنا . وبه انتم الفصل الأول والمدونة رب العالمين

﴿ الفصل الثاني ﴾

(في السبب في اختصاص اليدين والرجلين بالشهادة دون باقي الجسم مع أن الأعضاء كلها
متساوية في انها لا يظهر تغير هيئتها الأصلية مدة الحياة)

اعلم أن الاجابة عليها ترجع لعلم اسمه التحقيق الجنائي . وهذا العلم حديث النشأة لم يظهر ولم يبرز لعالم
الوجود إلا في هذا القرن أي في الزمن الذي يؤلف فيه هذا التفسير كما سترناه . وأما الآن كتاب في هذا
العموم مؤلفه الاستاذ (محمد بك شعير) ويكسى إدارة التفتيش بمقرارة الداخلية وهو مدرس بكلية الحقوق
تهذه حادله في ذلك الكتاب :

(بصمات الأصابع والأيدي)

« ليس ما قرؤه من الوقائع المدهشة عن (شيلوك هولمز) و (كلترز) وأمثالهما وما يكتبه الروائيون أمثال (كونان دويل) و (ليكوك) وغيرهما ومازاه يشخص (بشديد الخفاء) في دور الصور المتحركة من الروايات البوليسية الغربية التي يتعقب فيها البوليس السري الجناة ويتعرف شخصهم ويظهر حقيقة أمرهم من إثناء لمسوه أو وعاء أمسكوه أو كوب شربوا منه أو خزانة فتحوها . ليس كل هذا حديث خرافة وإنما هي ثمرة العلم الحديث ونتيجة مجهودات العلماء الذين أتوا بالمحجزات في فن بصمات الأصابع والأيدي »
 إلى أن قال « وكان الصينيون والهنود من قديم الزمان يستعملون البصمة في العقود والمشارطات لتقوم مقام الختم والامضاء . وقد أحسنوا في ذلك لأنها لا تشابه ولا تقبل التغير والتزوير . فلما أنعمنا النظر في باطن اليد وأطراف الأكتاف والأصابع وباطن القدم وجدناها مكسوة بخطوط بارزة دقيقة يتخللها فراغ . ترسم هذه الخطوط أشكالاً وتعاريف وانحناءات مختلفة لا تتطابق في شخصين قط كما نجد ثنيات تحت عقل الأصابع وتجمعات ناشئة من أطباق اليد وتحتها (انظر شكل ٣٤)



(شكل ٣٤)

وهذه الرسوم والأشكال تتكون والجين في بطن أمه من الشهر السادس للحمل ولا تتغير أبداً وتبقى خاصة شكلها واتجاهاتها في سن الطفولة والشباب والرجولة والهرم بل وبعد الممات إلى أن يتحلل الجسم ويصل كما شوهد ذلك في الموميات المصرية القديمة وفي بعض أجسام القرود المحنطة . وكل ما يبدو عليها أنها تمزقته كبير وتوسع تبعاً لنمو الجسم كلما تقدم الإنسان في السن إلى أن يصل إلى الواحدة والعشرين . وقد ثبت ذلك من مباحث كيميائية من العلماء وأخصهم (السير فرانسيس جالتون) الذي له فضل كبير في هذا الباب . ومن المبررات الملائمة المحفوظة بإدارات تحقيق الشخصية بأغلب البلاد الراقية . والبصمات هي الوحيدة في جسم الإنسان التي لا تتغير طول حياته بل تبقى حافظة شكلها في أية سن وفي أية حالة كان عليها . اللهم إلا ما يطرأ على الجلد من العوارض كالقطع أو الخرق أو المؤثرات الأخرى والتعوية بعد ما يصل الإنسان إلى سن الشيخوخة . وذلك خلاف باقي أجزاء الجسم فلها كل عام السنخ وترجع تتغير بسرعة ويعبرجة كبيرة بتغيرها

معرفة بعد بضع سنين ، فالسحنة وتطابق الوجه والأسنان ولون البشرة والشعر ولونه وكيفية حتى لون العينين يتغير . لذلك كانت خاصية البقاء على حالة واحدة في بصمات الأصابع (مع اختلاف شكلها ليس في مجموع الأصابع فقط بل في كل أصبع) الأساس الذي بنى عليه علم تحقيق الشخصية وهو أساس من غير قابل للنقص ولللعن بأى وجه . ويشبهون بصمات الأصابع بأوراق الشجر فانها قد تشابه في شكلها العمومى ولكنها تختلف في تركيبها وتفصيلها

أما حكمة وجود هذه الخطوط وما يتخللها من الفراغ وما يقطعها من التجمعات والذنيات في راحة اليد وباطن القدم فلم يمكن تعليلها بشكل صريح . وقد اختلف علماء وظائف أعضاء جسم الانسان في ذلك ، فبعضهم يرى أن مهمتها تسهيل خروج الإفرازات المكونة للعرق ، والبعض الآخر يرى أن لها دخلا باللس والحساسية

ولم يكن استخدام بصمات الأصابع في الجنائيات للتعرف على شخصية تاركها وترتيبها بطريقة ثابتة للاستعانة بها في استخراج السوابق معروفا في أوروبا إلا حديثا ، فقبل سنة ١٨٩٠ لم يعرف عنها شيء في الحياة العلمية ، ولو أن بعض علماء الألمان بحثوا فوائدها في أوائل القرن التاسع عشر ، وفلا ألقى الأستاذ (بوركنجى) مدرس علم وظائف أعضاء جسم الانسان بجامعة برساو محاضرة نفيسة في سنة ١٨٢٣ باللغة اللاتينية عن بصمات الأصابع وفوائدها ، وقسمها الى تسعة أنواع ، واقترح لإيجاد طريقة لترتيبها وحفظها والاستعانة بها ولكن بمجهوداته لم تلق ماتتبعه من القبول في ذلك الوقت على أن ماتؤديه من الخدمات في الوقائع الجنائية وفي تحقيق الشخصية وإرشاد المحققين والقضاة عن سوابق الجناة واضع لاجتياز الى برهان ولا أدل على ذلك من تقارير فطاحل هذا العلم المقدمة لل مؤتمر الجنائى الدولى الذى عقد بمدينة (بورين) سنة ١٩٠٧ فقد وفى الموضوع حقه الأمانة (لوكار) و (ريس) و (داسكاريللى) و (دى جاستى) و (دى فيرى) وغيرهم . انتهى من كتاب التحقيق الجنائى

فأعجب لأمرين اثنين أيها الصديق (الأمر الأول) قول المؤلف : « إن باطن اليد وأطراف الأقدام والأصابع وباطن القدم ، كل هذه مكسوة بخطوط تختلف باختلاف الأشخاص (الأمر الثانى) انها تلازم الانسان من المهد الى اللحد وأن غيرها مما على جسم الانسان يتغير . حينئذ ظهر أن اختصاص اليدين والرجلين في الآفة دون بقية الجسد أصبح مجزة في القرآن ، فاليدان والرجلان فضلا عما ذكرته سابقا من أنهما نافعان في أعمال القضاة هما مجزة قرآنية أنزلها الله في القرآن وأبرزها فعلا في الزمان الذى كنت أعلم فيه في مدرسة دار العلوم وملا بها الكرة الأرضية في أثناء طبع هذا التفسير لأن سنة ١٨٩٠ المتقدم ذكرها هي مبدأ تعلمي في مدرسة دارالعلوم وهذه السنة التي أكتب فيها هذا القول سنة ١٩٣٠ وبينهما (٤٠) سنة . وفي هذه الأربعين سنة ظهر هذا العلم وعملت به الأمم ، فبدأ الظهور سنة ١٨٩٠ وفي هذه المدة انشر حتى وصل اليها . ومن العجب أن مؤلف الكتاب المذكور كان أحد تلاميذى في اللغة العربية قبل سفره الى أوروبا وذلك في المدرسة الحديوية في أول هذا القرن في العشرة السنين الأولى منه . ومن أعجب العجب أن تختم هذه السورة بما يفيد ذلك إذ يقول - سفرهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم - الخ كأنه يقول : اختصاص شهادة الأيدي والأرجل دون بقية الأعضاء أمر يشكل عليكم ولكن سأظهر لكم بعض سره في الدنيا وقد أظهره في زماننا ولم يظهره في غيره ، فوجب علينا أن نقول للمسلمين ذلك ونخبرهم بهذه المعجزة التي لم يظهرها الله إلا في زماننا فهي مجزة من وجهين : أولا اختصاص اليدين والرجلين ثم ظهور ذلك فعلا لمكان - سفرهم آياتنا في الآفاق - الخ . والى هنا تم الكلام على الفصل الثانى والحمد لله رب العالمين

وظهر لك أيها الذكى ظهورا واضحا علميا أن اليدين والرجلين اختصت بخصوصية لم ينسرف بها بقية الجسم

واشهما أيضا أصدق من اللسان ، فلم يبق إلا شرح خصائص خطوط اليدين والرجلين ، وكيف كانت الخطوط فيهما لامشابهة فيهما بين رجل وآخر . فأقول جاء في الكتاب المذكور أيضا تحت العنوان التالي ما نصه :

﴿ البصمات الخفية وطرق اظهارها وحفظها ﴾

يكاد الانسان لا يصدق أن أطراف الأكتاف ، وأجزاء راحة اليد ، أو باطن القدم ، اذا لامست جسما مستويا أملس كالورق أو الزجاج أو الصيني أو المرآة أو المعادن والأخشاب المصقولة على العموم تترك عليها بصماتها بكل تفصيلاتها ورسومها لأن هذه البصمات تكون غير ظاهرة وغير مرئية للعين المجردة وبخاصة اذا كانت على الورق ، أما على الزجاج وبعض المعادن المصقولة ، فاذا دقق الانسان النظر فيها وتداها بقليل من البخار الذي يخرج من الفم فانه يرى بعض شعاع منها لا يلبث لحظة حتى يزول ، وليس لتعليل ذلك من العضلات العسيرة التي لا يمكن تصورها بسهولة بل الأمر أبسط وأسهل مما نظن فان بشرة الجلد مغطاة بطبقة دهنية خفيفة ناشئة من افرازات العرق ، فاذا لامت الأنامل أوراخه اليد جسما مما سبق ذكره تركت عليه بصماتها وانطبعت عليه الخطوط والرسوم بأجسامها ومميزاتها ، ولكون تلك المادة الدهنية عديمة اللون تبقى البصمة مستترة غير ظاهرة ، لكن قليلا من المواد الكيميائية على شكل مسحوق أو سائل يظهرها للعيان ويخرجها من سترها واضحة جليلة كالبصمة المأخوذة بالطرق العادية بحيث يمكن استخدامها والاستفادة منها في التحقيقات الجنائية إذ ليس من المقبول عقلا أن الجناة لا تلمس أيديهم بعض هذه الأجسام أثناء ارتكابهم الجرم فتترك عليها أثرا غير ظاهر إلا اذا احتاطوا لذلك من مبدأ الأمر بلبس قفاز مثلا أو نعدوا لإزالة ذلك الأثر بعد انتهائهم عملهم ولا نكون مبالغين اذا قلنا انه لا تخلو حادثة من الحوادث التي تقع في الأماكن المنحصرة من وجود تلك البصمات التي لو عني بالمحافظة عليها وعدم اختلاطها بغيرها أو إزالتها بواسطة تعرضها للتأثيرات الخارجية كانت من أتم الأدلة المحسوسة وأرجحها



واعلم أن خطوط الأصابع (أربعة أنواع) رئيسية ولكل منها فروع ، فهي منحنيات ومنحدرات إلى اليمين ومنحدرات إلى اليسار ومستديرات

﴿ النوع الأول ﴾ المنحنيات أو المقوسات بحيث يكون شكل البصمة فيه عبارة عن خطوط أفقية منضبة أو مقوسة الأعلى على الأقل وليس فيه زاوية ولا نواة له ، واذا وضع فيه زاوية لا يتخللها خطوط (انظر شكل ٣٥) وهذا يرمز له بهذه العلامة (٨) في مصر



(شكل ٣٥)

(النوع الثاني) المنحدرات الى اليمين ورمزه في مصر (ا) وهوماتكون فيه نواة بشكل قناة ذات حافتين متصلتين من ناحية واحدة ، وهذه القناة تنحدر من اليسار الى اليمين وبه زاوية واحدة الى اليسار ، وقد يكون داخل القناة خط منفصل أو خطان أو أكثر (انظر شكل ٣٦)



(شكل ٣٦)

(النوع الثالث) المنحدرات الى اليسار ورمزه له بهذه العلامة (ب) وهوماتكون فيه نواة البصمة عبارة عن قناة ذات حافتين متصلتين من ناحية واحدة . وهذه القناة منحجرة من اليمين الى اليسار وبه زاوية واحدة الى اليمين بعكس النوع الثاني (انظر شكل ٣٧)



(شكل ٣٧)

﴿ النوع الرابع ﴾ المستدبرات ويرمز له عندنا بمصر بعلامة (٥) وهو ما تكون فيه نواة البصمة على شكل دائري أو مضاوي أو حلزوني بين زاويتين متقابلتين إحداهما إلى اليمين والأخرى إلى اليسار كما في (شكل ٣٨)



(شكل ٣٨)

ولما كانت آيات القرآن وتفسيرها يوجب علينا أن نستوفى هذا الموضوع وجب أن نذكر ما ظهر من آثار الرجلين في العلم الحديث كما ذكرنا آثار اليدين فنقول ومن الله التوفيق :
جاء في كتابه « التحقيق الجنائي » تحت العنوان التالي مانصه :

﴿ آثار الأقدام ﴾

قص الأثر معروف عند العرب من زمن بعيد فأنهم كانوا وما زالوا يتبعون الإبل والواشي المسروقة في الصحارى والقفار ويستدلون على محل وجودها ولو كان على مسافات بعيدة ومرآحل شاسعة . وجل اعتمادهم في ذلك على قوة الباصرة والخبرة والتجربين وقليلاً ما يحتضن نظرهم فقد أتوا في هذا الباب بالمداهشات التي يحار في تعليلها الانسان فينبئك الواحد منهم بما اذا كان تارك الأثر ذكر أو أنثى طويل القامة أو قصيرها سليم النظر أو به مرض بأحدى العينين أو ببعض أجزاء جسمه حاملاً شيئاً أو غير حامل . وفي النساء ما اذا كانت إحداهن حبلى أو غير حبلى وهكذا . ولا غرابة في ذلك فان الاعرابي معتاد منذ الصغر على التجوال في الصحراء وهي أصلح مكان تنطبع عليه القدم وتترك أثرها بشكل واضح يمكن قراءته كما يقرأ الانسان في كتاب . وما يساعد على بقاء هذه الآثار وعدم محوها واختلاطها بغيرها اتساع تلك البقاع وقلة السكان وندرة المرور فيها وعدم وجود أسباب الرقاية والعمران بها . فعلى من الأيام يعرف سكان كل ناحية بعضهم بعضاً كما يعرف كل منهم أولاد الآخر وناقته وماشيتته . ويمكنه في غير عناه معرفة مشية كل منهم وتمييز آثاره . ويستشهدون بها عند حدوث سرقة أو ضياع ماشية . وهذه قاعدة متبعة للآن في جميع أنحاء السودان وفي الجهات النائية

كالواحات ومصلحة أقسام الحدود. ولما كان هؤلاء القوم مازالوا على الفطرة ولم ينالوا من العلم قسطا يمكنهم من التعبير عن أفكارهم وتعليل استنتاجاتهم واقتناع الغير بصحتها كما ان كل عمل من هذا القبيل مهما بلغ صاحبه من دقة النظر واصابة الرأي عرضة للخطأ. لذلك وجب أن لا يعتمد على أقوالهم اعتمادا كاملا. ولا بأس بأخذها بتحفظ تام وعلى سبيل الاستئناس فقط. وهذا لا يمنعنا من الاعتراف بفضلهم وخصوصا في الارشاد عن الاتجاه الذي سار فيه الأثر والطريق الذي سلكه الجناة

ولم تكن الاستعانة بآثار الأقدام بطريقة علمية معروفة في أوروبا إلى عهد قريب. فأول حادثة اكتشفت فيها فائدة آثار الأقدام العارية وقعت في (٢٧) نوفمبر سنة ١٨٤٦ م وسرى في الأشكال الآتية صور بعض آثار الأقدام المختلفة (انظر شكل ٣٩ و ٤٠ في هذه الصحيفة وشكل ٤١ و ٤٢ في الصفحة التالية)



(شكل ٤٠)

نفس القدم وصاحبها واقف



(شكل ٣٩)

قدم عارية وصاحبها سائر





(شكل ٤٢)

قدم منبسطة



(شكل ٤١)

قدم مقوسة

هذا ما أردته من كتاب «التحقيق الجنائي» مؤلفه محمد شعير بك تفسيرا لقوله تعالى - حتى اذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون - الخ وبهذا تم الكلام على اللطيفة الثالثة والحمد لله رب العالمين

﴿ اللطيفة الرابعة ﴾

آراء حكماء الأمم وعلماء الاسلام

في الأخلاق

تفسيرا لقوله تعالى - إن الذين ظلموا ذنبا عظيما لم يستقاموا تنزل عليهم الملائكة أن يخالفوا ولا تحزنوا - الخ قوله - إنه هو السميع العليم -

ولأجل الكلام على هذه الآية في خمس أمور :

(١) للكلام على الإيمان بالله والاستقامة

(٢) إلهام الملائكة المؤمنين بالخيرات

(٣) مساعدتهم في الحياة وبعد الموت

(٤) محاسن الأخلاق وملاطفة الأعداء

(٥) الالتجاء الى الله في كل شيء

في يوم الجمعة (٢١) نوفمبر سنة ١٩٣٠ بينا أنا جالس أفكر في معنى هذه الآية ، وأنا أعجب من أن الانسان يحس في نفسه مذكرا يذكره بامور علمية أو أخلاقية وهذا شائع بين الأمم ، وكيف كان هذا من مضمون الآية إذ جاء فيها - نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة - على لسان الملائكة

أقول : بينا أنا كذلك إذ أخذتني سنة غفيل الى أنى في روضات بهجات ، مزينات بأجمل الزينات ، والرياش الفاخر في جو بهج مضيء مشرق في قصر منيف ، فيه فرش هر فوغة ، وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وهناك من الجواهر مالا أقدر على وصفه وأدرك كنهه

فبينما أنا في دهش عماريت وفي عجب عجاب إذ أقبلت فتاة أشرق نورها وأضامت المسكان ببهجة جمالها وماتحت به من أجل الحلي ، ومالبست من أبدع الحلل ، وقد عطرت أرجاء القصر بالروائح العطرية ، فسلمت وحيث . فهناك نسبت جمال القصر وبهجة الزينة والرياش وأخذت الجمال يبصرى وبصيرتى حتى نسبت كل شيء إلا ما رأيت من منظر ناضر وطرف ساحر وجمال باهر ونور زاهر ، فما كان إلا كلمح البصر حتى خرت صعقا وغابت الذاكرة ونامت الباصرة وأخذت فؤادى تلك النظرات الساحرة ، فصرت كالسحور الذى لا يبى ما حوله ولا يدري كيف يقول . وهكذا بقيت على هذه الحال مدة . فلما أفقت من غشيتى وقت من غفوتى رأيت الفتاة أمامى وهى تبسم فكنت آخر صعقا ككرة أخرى إذ لم أر مثل هذا الجمال فى الأرض أمد الحياة وخطر لى خاطر قديم . ذلك انى يوما كنت دخلت (دار الصور المتحركة) بمصر فرأيت من تلك الصور التى تظهر فيها صورة (كليبوترا) ملكة مصر من دولة البطالسة . وقد لبست أنفرا للملابس التى يقال ان ثمنها يبلغ آلافا مؤلفة . فقلت فى نفسى إذ ذاك : يا حسرة على مصر . مصر التى انتهكت حرمتها الدول وأبقوا فيها امتيازات الأجانب فأدخلوا صوراً تفسد الأخلاق وتثير الشهوات . فأما فى بلادهم فإن الأكثر فى مشاهد (دار الصور) أن تكون معلمة للشعب الفنون والعلوم وأحوال الحياة بأتم مظاهرها . فهذا الخاطر الذى خطر لى قبل أن تجتهد لى إذ رأيت هذه الفتاة . فقلت يا ربلى ماذا أقول الآن وهل مثلى فى هذه السن يلعب الجمال بعقله أو يخطر الغرام بلبه . إن ذلك منزه بالمسئوب . وإذا كنت أخاف على الشبان من هفوات الأجسام . أفلا أخاف على أدبى وعقلى من زلات الضمير وقتنة القلوب والصبوة ولو بالخواطر والهفوة ولو بالتواظر

وبينما أنا كذلك إذ رأيتها ازدادت ابتساما وقالت سلاما - لاما لا تترىب عليك ماهذه بصبوة ولا أنت الآن فى غفلة . إنك الآن مكين أمين لإيم ولا حرج . أنت الآن فى عالم المثال لا فى عالم الأجسام . فأنت روح وأنا مثلك . ثم أمسكت ييدى فكان نورا قبض على نور . ولم أحس بتلك العظام ولا العضلات ولا ثقل الأعضاء الغليظة ، فقضيت العجب وقلت فى نفسى : وهذا كله فى عالم الخيال ؟ ، ولم أكد أتم هذا الخاطر حتى أخذت تقول هذا العالم هو الجمال الحقيقى ، ألم تقرأ - وان الدار الآخرة لهى الحيوان - ، فقلت فى نفسى : ياليت شعرى ما اسم هذه الروح ؟ فقالت على الفور أنا اسمى (البصيرة) فتذكرت قوله تعالى - بل الانسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره - وخطر لى خواطر الآية التى نحن بصدد الكلام عليها وأن الذين يعرفون الله واستقاموا يبشرون ويلاحظون فى حياتهم الدنيا وبعد الموت وتلههم الملائكة ، وقلت فى نفسى : هل هذه صورة روحية لبصيرة الانسان ؟ واليت شعرى أهذه تشاكل بصيرتى أنا أم يمازج جميع الناس فى الأرض ا وهل يمازج الناس جمال فان على هذا المنوال ، فأجابت بلاتردد ولانوان وقالت إن جمال أرضكم جزئى

إته جمال نزل الى الأرض بقدر . ألا ترى أن جمال الرجل أو المرأة لا يبقى إلا ريثما يلدان التربة . فلذا أسنا ذهب الجمال وعمّوا بدل الجمال الظاهري محبة ومودة ورحمة بها يشتركان في تربية التربة وفي المنافع المنزلية والامور المادية . إذن الجمال في الأرض ليس مقصودا بالذات وما جاء لسبب فهو لا محالة ذاهب بذهاب سببه . أما الجمال هنا فهو أرق من الجمال في الأرض من جهتين : أولا ان نسبة جمال أهل الأرض الى جمال عالمنا كنسبة نور السراج في الأرض الى نور الشمس . ثانيا ان نسبة دوام الجمال عندنا الى دوامه عندكم كنسبة دوام نور الشمس الى فناء نور السراج . الجمال عندكم مقتّمات وعندنا مقاصد وغايات وسعادات . ولقد أخبرتك بأنى أنا البصيرة . إن بسائر أهل الأرض جميعا قد جعلني الله مثلا لها ، فأنا مثال البصيرة الكلية وعضوان لها ودليل عليها ، بل أنا هي ولست تتمكن من رؤيتي إلا على هذه الحال . هنالك قلت هذا مقام العائذ بالله وبك ألا تدريني أنخبط في ظلام الأوهام ، إلى أودّ المقام بجوارك أمد الدهر . فلقد قضيت دهري في حياة كلها غرام بك وحبّ للنتائج الخلقية والعملية التي أنت المبرزة لها . فقلت لك لا تطيقني الآن . أولا لأن مظهرى الآن ربما لا تحتمله اذا طال مقامك هنا ، ألم تر أنك خرت صعقا حين لاقيتني . ثانيا انك السابعة كما ذكرت لك في عالم الروح . ولقد قضت العناية أن ترجع الى عالم الأجسام باليقظة ، وعينك هنا ترى ما لا ترى عينك هناك ، وهذا الجمال الذي ظهر لك إنما هو الجمال الكاسب لهذه الدرجة الروحية ورواها درجات متتابعة تخلق لها عيون على مقدارها في عالم الأرواح العالية . ولو أن درجة من درجات الجمال ظهرت لأرواح لم تستعد لمشاهدتها لأهلكتها ، فلئن لا بد من رجوعك الى عالم الحس المادى زمانا لكي تكمل نفسك فلا تصعق كما صعقت الآن حين رأيتني . قلت ولكن لا صبر لي على فراقك . فقلت إن لكل مقام مقالا ، فأرجع الى الأرض عالم المادة واشهد مزارعى التي زرعتها في الأرض . فقلت أى مزارع ؟ فقلت مزارع القلوب ، قلوب الحكماء والعلماء والأولياء ، فأقرأ ما ألقينته على قلب كوتوشوشوس حكيم الصين وقلب أفلاطون وسقراط وقلوب الرواقيين وقلب الاستاذ (كنت الألماني) ، فهؤلاء ولما نظم الذين برعوا في علم الأخلاق قديما . وهكذا قلب الغزالي والرازي وأمثالهما من علماء الاسلام بل أمثال الشعرائى من الصوفية فهذه مزارعى التي غرستها في قلوب هؤلاء في علم الأخلاق . فتذكرت إنى قرأت في « جريدة الضياء » مقالا يوم الأربعاء ١٩ نوفمبر سنة ١٩٣٠ وهذا نصه :

(المذهب الذى يعتنقه ٥٠٠ مليون من الناس)

الكونفوشيوية هي مجموعة التعاليم التي دعا اليها كونفوشوش منذ ٢٥٠٠ سنة ورواها عنه أقدم حكماء الصين ، ولم يكن كونفوشوش يميل بطبيعته الى التغافل فيما وراء الطبيعة والتعمق في التأملات الدينية ، ولكنه كان شديد العناية بالفضائل والخلقيات

فهو يوجه جلّ اهتمامه الى دراسة المسائل العملية الخاصة بالعلاقات الانسانية ويدعو الى اتباع السبيل النويم في المعاملات . وكان في حياته الخاصة شديد الاعتقاد بالقضاء والقدر ، والايمان بأن الله منه الحياة وحدوده المهمة التي يؤدّيها ، وانها تحميه كيد أعدائه

ومن قوله « ما أعظم قوات الأرواح . اذا نظرنا لانراها واذا أنصتنا لانسمعها . ولكنها تدخل مع ذلك في كل الأشياء ولا يوجد شيء بدونها »

وكان لا يصرّح بمثل هذه الأمور الخاصة أتباعه في خلواته ، أما نتائجه فكانت كلها عملية ، لأنه كان معمم أخلاق ورجل سياسة . وكان يعتقد أن معرفة الله شيء يفوق قوة تصوّره . ومع ذلك فإنه اعترف وهو يعزى نفسه بقوله انه ولد في السماء وان الله أوجدها القضيّة التي فيه . وأن قنعت بالله لا حدّها ، فهو لا يتدّم من القنلاء

كما أنه لا يتبرم بالناس . وقوام عقيدته الاعتراف بضعف الانسان وحاجته الى مساعدة الاله ، ومحاولة التمتع بمباهج الحياة ومزاياها عن طريق الاتصال المباشر بالله . ونكاد الكونفوشيوسية تكون طريقة مرسومة للحياة فهي الصفة الدينية لأنها تحض متبعيها على عدم مخالفة قوانين الطبيعة والتأقلم بقية الناس ، وتنتهي عن حب الثروات وتأمير بتضحية النفس في حب الآخرين . وقد نجح كونفوشيوس في اكتساب العقيدة الصينية ، بفضل شخصيته القوية ، ومحافظته على التقاليد ، ولأنه اتخذ لنفسه صفة القيادة والزمامة فأمنت تعاليمه مسلما بها من الجميع ، وأص الخارجون عليها في حكم الكفرة

وأساس فلسفة كونفوشيوس « التار » وهي قطعة الابداء ، والطريق الذي يتحرك فيه الوجود ، والنظام الذي يسير عليه العالم ، أو النظام الطبيعي . وهو السبيل الذي ينبغي أن يسلكه الناس جميعا . والاتجاه الخلقى لكل انسان . وهناك طرق ثلاثة طريق السماء وطريق الأرض وطريق الانسان وهو أهم الطرق الثلاثة ولكن الطريق شيء غير منظور لا يرى إلا في أعمال الناس فهو مبدأ خلقى مستور تفرع منه فضائل الحياة اليومية . ويؤمن كونفوشيوس بنبات الطبيعة على مبدأ خلقى واحد ، فهو يقول بأن السماء والأرض قد أظهرتا نباتا معنويا في طرفهما المطردة . والكون نظام ولبس فوضى . وتتجلى في كل أعمال الطبيعة مظاهر الاخلاص التي يجب أن تعتبر نقطة السير للحياة الخلقية

ويعتقد الكونفوشيوسيون بأن الطبيعة هي خير في ذاتها ، وأن مبادئها وقوانينها انما وضعت لارشاد الناس الى التصرف الواجب . ومع ذلك فان تصرفات الطبيعة غامضة ولا يمكن كشفها . وهذا ما جعل تصرفات الناس خاضعة لأحكامها المقدره من قبل . فعادة الانسان وشقاؤه ، وتوفيقه ونحسه كلها مقدره ، واذا كانت لا توجد علوم تمكن الانسان من السيطرة والتحكم في الحوادث الطبيعية ، فان وقوع هذه الحوادث يصبح لتلك لا محيص عنه ولا مفر منه . ومع أن وقوع هذه الحوادث التي لا مفر من وقوعها ، ومع ما يبدولنا من قسوتها وشذبتها أحيانا . كان وقوعها مرهونا في الغالب بتصرفات الناس أنفسهم . لأن الطبيعة ليست شريرة في أعماقها . وكل ما هنالك أنها عادلة وهي تضع دائما الخير مع الخير ، والشر مع الشر ، فالطبيعة شريفة وتصرف بطريقة خلقية سامية . وكونفوشيوس مثل لوك وعلى عكس هوبز ، يعتقد بأن الأصل في طبيعة الانسان الخير وأنها تلتهم الخير كما يلتهم الماء الانحدار . وأول ما يتعلمه التلميذ الصيني في كتابه «السنن الصغير» الناس عند ما يولسون يكونون خيرين بطبيعتهم «

ويضرب أئمة الكونفوشيوسية هذا المبدأ بأن كل انسان يملك في صميم نفسه مبدأ خيرا ، يسوقه الى المعطف على الآخرين ومساعدتهم ، ومبدأ عاد لا يشعره بالخجل من كل ما يثير الخجل ، والكراهية لكل ما يستحق الكراهية . ومبدأ للياقة يحمله على احترام وتمجيد من يستحقون الاحترام والتقدير ، ومبدأ حكيما يعرف به الحق ويؤيده . ويدرك به الباطل ويرزح عنه

وهذه المبادئ ليست مخالفة للطبيعة الانسانية ولكنها مركبة في غرائز العقل الانساني ولاغنى للبشرية عنها . وليس على الانسان الا أن يطبع هذه المبادئ الكامنة فيه ليأمن العثار ويسلك الخجب الذي لاغبار عليه . ويصبح انسانا كاملا . ان الناس يولدون أطهارا بطبيعتهم غير أنهم إذا طعموا غذاء دسما . واكتسوا ملابس تشيع الدفء في أجسامهم . وسكنوا أماكن مريحة فانهم يصبحون كالبهايم تقريبا . فغاية التعليم القصوى هي استرداد العقل المفقود ، وأغلب الناس قد فقدوا عقولهم

ومن مميزات الثقافة الصينية العناية بأداب اللياقة ، وهي ظاهرة الأثر في النظام الكونفوشيوسى ويضع كونفوشيوس نظاما خاصا من العوائد والاقبسة لكل العلاقات الأساسية بين الناس . وكل ما يشاهد في الصينيين من مظاهر اللياقة وحسن التصرف انما منشؤه من هذه العادات . فالأثر الذي يقابلون به أي موقف من

مواقف الحياة يرجع الى استعدادهم الداخلى الذى جرى منهم مجرى الفراز بفضل مرانهم الطويل مدى
العصور المتعاقبة

لذلك لا يحتاج الصبيون الى كتب فى اللياقة لأنهم نشأوا منذ نعومة أظفارهم على اتباع أصولها المتبعة
فى تقاليدهم الدينية المنسوبة الى كونفوشيوس . حتى أصبح الثبات واللياقة طبيعة ثانية فيهم . فانت لا تلمح أترا
للجلافة عندهم حتى فى أحط الطبقات الجاهلة ، بل تراهم جميعا قوما يحسنون التصرف بلباقة فى الأحوال
ويفضل كونفوشيوس فى كتابيه الثالث والرابع المعروفين (بتعليم الوضاعة) الكيفية التى يستطيع بها الانسان
أن يتجشئ فى قوانين الطبيعة لى تظهر عناصر الخيرية المركبة فى طبيعته . وهالك بعض فقرات من الكتابين
التناسب طريق الطبيعة . والوصول الى التناسب هو طريق الانسان . فالذى يتجشئ مع الطبيعة يصيب
الهدف من غير نصب ، ويفهم الحقيقة بدون تفكير والحكيم من يمتدى بظفرته الى الطريق القويم من غير عناء
والتناسب أو التجشئ مع طبيعة الكون هو فعل العليم فى الآداب الكونفوشيوية ، فالرجل الذى يصل الى
هذه الدرجة من التناسق يصبح انسانا كاملا . ويدعو كونفوشيوس الى الاهتمام بالأمرين (شو) ومعنى الكلمة
الحكم على الغير باختبار الانسان الشخصى . لأن التشابه بين الناس فى تفكيرهم يمكن الفرد من الحكم على
الآخرين فلأنتى عاملت كلبا أو جوادا بما لا أحب أن أعامل به ، فليس معنى ذلك أن هذه المعاملة لا تنطبق
بالكلب أو الجواد . ولما كنت أنا انسانا واخوتى الآخرون هم أيضا من بنى آدم أعرف ما يسبب لى الألم فأتى
أمكننى أن أعرف أن الآخرين عند ما يتأثرون بنفس العامل يتألمون مثلى . وإذا اتخذت قلبى دليلا لى فأتى
لا أعمل لغيرى مالا أرضاه لنفسى

ويعرف كونفوشيوس الرجل الرافى ، بأنه الشخص ذوالفضيلة الكاملة ، الانسان الذى رفع نفسه الى
مستوى الكمال الخلقى . بعكس الرجل الضيق العطن العادى التفكير ، وجمع الصفات التى تتألف منها أخلاق
الانسان الكامل هى : الاحسان . والانسانية والايثار . وإنكار الذات والروحانية والمحبة . أما المحبة فهى فى
عرف كونفوشيوس غاية الحياة الانسانية . ومن رآه أن الانسان الكامل يجب أن لا ينسى هذه الغاية ولو مرة
واحدة . أثناء تناول وجبة واحدة . أو فى ظرف يكون فيه مشغولا جدا أو عند ما يفضل فى عمل فشلا فأتى
ويأمر كونفوشيوس بحب الناس . أى أن يشعر الفرد بمحبة النوع الانسانى وينظر الى البشر جميعا كأنهم
اخوته . ويعتبر الانسان اجتماعيا بالطبيعة . ويحلل النظام الاجتماعى الى خمس علاقات : الملك ووزيره والأب
وولده . والزوج وزوجته . والأخ الأكبر وأخوه الأصغر . والصديق وصديقه . فالانسان بطبيعته مغمور فى نظام
من العلاقات ولا يستطيع أن يعرف نفسه الا داخل هذا النظام . وهذه العلاقات تتضمن فوارق ، فالخضوع ليس
معناه تحديد الحرية الطبيعية . ولكنه شىء طبيعى لا بد منه اه

فلما قرأت هذا وهى مصففة لى (وهجبت إذ رأيت المقالة أمامى كأنى أشاهدها) قالت انظر فى الآية التى
نفسرها أنت الآن . ألم تر أنى ألهمت حكيم الصين أن يقول : « إن الله منحه الحياة وحدد له المهمة التى
يؤدبها وأنه بحميه كيد أعدائه » . قلت بلى . قالت أليس هذا يعينه ما فى هذه الآية - تنزل عليهم الملائكة
الأنحافوا ولا تحزنوا - الى قوله - نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة - . ثم قالت : ألم تر أن ملخص
كلامه عن نظام السموات والأرض انه فى غاية الكمال ، وأن نظام النفوس الانسانية فى الأعمال يجب أن
يكون على مقتضى هذا النظام (وبعبارة أخرى) إن النفوس الانسانية يجب أن تكون مخلصة وصادقة
كالاخلاص والصدق فى نظام الأرض والسماء ، وهذه المعانى هى التى برزت فى تفسيرك للقرآن لأن هذا
التفسير سيكون نموذجيا يؤمهم فى الشرق والغرب يسبرون على النظام الطبيعى فى أعمالهم باخلاص وأمانة
وحب لربهم . ثم إن تعريف كونفوشيوس للرجل الرافى هو عين قوله تعالى - ولا تستوى الحسنة ولا البتة

ادفع بالنى هي أحسن - وأما الحب العام الذى ذكره فهو مضمون نفس هذه الآية ومطلوب القرآن - إنما المؤمنون أخوة -

إذن آراء كونفوشيوس هي مقاصد القرآن والله أعزك عليها الآن لتكتبها فيعلم المتعلمون من المسلمين الذين قرؤوا العلوم الفلسفية الأوروبية . إن آيات القرآن المبذولة للجهال والعاماء على حد سواء ليست هي كما يظنون غير مستحقة عنايتهم بدعوى أن قراء القرآن أكثرهم جهلاء فقراء ، فإن هذا القرآن من عند الله كما أن الماء المبذول لجمع الناس من عنده وهكذا الحب المبذور والنوى فى الأرض الذى تظوه البهائم هو هو نفسه الذى يصير حبا وثمارا جنية ، فليس عموم النعمة دلالة على قصها ولا شمولها الجاهل والعالم عنوانا على هوانها . كلا . فليعلم أولئك المتكبرون أن كبرهم فى غير محله وأن القرآن تفسره الفلسفة فى الشرق والغرب وحكمة الحكماء وعلم العلماء - بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم -

ثم أتى تذكرت بعد ذلك بعض آراء أفلاطون من المة التي كتبها الأستاذ (بارنلى ساتهليبر) أستاذ الفلسفة اليونانية فى الكونج دي فرانس ثم وزير الخارجية الفرنسية التي ترجها الأستاذ (أحمد لطفي السيد) مدير دار الكتب المصرية ، فأسمعتها مانسه . قال :

(١) وقد استعار أفلاطون استعارة أخرى ليجود بيان هذا الطبع المزوج للإنسان فقال : (فانتصروا أن كل واحد منا هو ما كينة جية خارجة من يد الاله . فالشهوات التي تحسها هي كأنها حبال أو خيوط يجذبنا كل الى ناحيته ، وبتعاكس حركاتها تجذبنا الى أعمال متضادة . وهذا هو ما يقرر الفرق بين الرذيلة وبين الفضيلة ولكن الحس السليم يدلنا على أن واجبنا أن لانطواع الا أحد هذه الخيوط وتبع انجماه وتقاوم شديدا كل ما عداه من الخيوط الأخرى . ذلك هو خيط الذهب المقدس . خيط العقل الذى هو القانون العام للممالك وللأشخاص . ينبئ أن يكون الحكم للعقل مادام أنه هو عمل الحكمة وأنه مكلف بأن يسهر على النفس بتمامها ولا يفتنى ألبتة أن يعنى المرء فى نفسه إلا إلى صوت العقل ، لأن العقل المستقيم إنما هو صوت الله يخاطب به أنفسنا . ولأن يعتقد المرء أن النفس تسمى بالمعارف أو بالثروة أو بالجاه والسلطان ، ذلك ليس الا تقصا فبا يجب من تشريف ما فى نفسه من الجهة القدسية ، وتفر يطامنه فى إكرام نفسه ، فإن إكرامها الحقيقى ينحصر فى الأدب على تمية الفضيلة فيها وحمايتها من الكبرياء واللذات ، ومن الترف الذى يجعلها تحين عن احتمال المشقات الضرورية ومن الجزع عند لقاء الموت بل حمايتها أيضا من جواذب الجليل ، فان الجليل لا يفتنى أن يؤثر على الخبير ، بل يلزم أن يقال : إن كل ماعلى سطح الأرض وما فى باطنها من ذهب لا يستحق أن يوازن بالفضيلة . وإن المرء إن لم يقصر نفسه على الخير وحده بكل قواه ، كان موردا نفسه ذلك السكان القدسي موارد العار والاحتقار^(١)

(٢) وقال المترجم أيضا « وبعتمضى ذلك كان الواجب الأول على الانسان ، بل الواجب الوحيد الذى يشمل جميع الواجبات الأخرى هو أن يدلك فى الحياة سبيل العقل المستقيم . وإن أكبر خطيئة يرتكبها ، وأكبر جهالة يقع فيها إنما هو أن يعصى العلم والحكمة والعقل ، وهي ثلاثها سادته الحقيقون . إنما هو أن يكره شيئا حكما هو بأنه حسن جميل بدلا من أن يحبه . إنما هو أن يحب ويعانق من يحكم هو أنه ردى . على أن النفس تجذب طمأنينة تامة ، وقوة أيعا قوة حينما تنفق إحساساتها وأعمالها ، فتعقب بأنه ليس لها أن تمود باللائمة على نفسها فى فكرة أو عمل ظالم فى حق الله أوفى حق الناس . وإن أكبر حوب فى الحياة هي الحرب

(١) القوانين ك ١ ص ٥٤ - الجمهورية ك ٤ ص ٢٤٠ وك ٩ ص ٢٣٢ - طبلاس ص ٢٣٥ -

كريتون ص ١٣٥ - فروطا غوراس (الفسطاطيين) ص ٥٧ - القوانين ك ٥ ص ٢٥٤ - الجمهورية

ك ٩ ص ٢٠٩ - فيدون ص ٢٦٦

التي تقع بصدد صبرورة المرء فاضلا أو شريرا. (١) وقد يقع المرء في الضلالة إذا هو ظن أنه الرجل الذي له قيمة تقضى عليه أن يحسب حسابا للموت أو للحياة ، بدل أن يقصر سعيه على البحث فيها إذا كان ما يعمل هو خيرا أم شرا ، وما إذا كان عمله عمل رجل صالح أم عمل رجل سوء . كل امرئ اختار مركزا ، لأنه رأى أشرف من سواه ، أو لأن رئيسه وضعه فيه ، يجب عليه أن يقيم فيه ثابتا ، ولا ينظر إلى الخطر ولا إلى الموت ، ولا إلى شيء آخر غير الشرف . كذلك كان سقراط ، لما جرى به ليحاكم أمام الشعب الآتيني على تهمة كبرى ، لم يتأخر ألبتة عن تنفيذ هذه المبادئ بالعمل . فلما كان يخدم وطنه في ميدان القتال ، احتفظ كما يحتفظ الجندي الباسل بجميع النقط التي وضعه فيها القواد في بوييدة وفي أفنيوليس وفي ديليوم . كذلك لم يكن ليتحول عن المركز الذي خصه الله به . بل دأب على درس الفلسفة على رغم الخطر المهائل الذي كان يتهدد ، حتى إنه لما مثل أمام القضاة ، لم يحظر بياله ليتقى الموت أن ينازل إلى التخصع بسؤال العقوب ، ولا إلى التملقات العادية التي اعتاد الناس أن يستمدوا بها شفقة القضاة . وما كان الكلام هو الذي يعوزه في هذا الصدد . بل الذي كان ينقصه هو عدم الحياء من نفسه . فلم ينزل عن عزته إلى سكب الدموع . وما يستتبعه المتهمون المسنينون بكرامتهم من الدنيا ، كان الخطر الذي هوفيه لم يكن فدرايه داعيا إلى إتيان ما هو غير خليق برجل حر . فالتأن أمام الحاكم كالشأن في ساحة القتال ، لا يسمح للمرء أن يتسرع بأي وسيلة من الوسائل المختلفة لحفظ حياته . فكما أنه في الحرب لا ينبغي ألبتة أن يلقى المحارب سلاحه ، ولأن يطلب الأمان ، كذلك لا ينبغي ألبتة تلقاء غيرها من الأخطار أن ينسفل (٢) إلى حد أن يقول كل شيء ، ويعمل كل شيء . كذلك مضى سقراط ، من غير أن يخسر من شرفه شيئا إلى الموت الذي حكمت عليه به المحكمة ، وترك الذين اتهموه ملطخين بوجاهة الظلم والعار التي حكم عليهم بها الحق . لزم عقابه كما أنهم لزموا عقابهم . والتأن في ذلك كما يقول هو أن كل شيء هو على أحسن ما يكون . ليس المهم أن يعيش المرء ولكن المهم هو أن يعيش عيشة حسنة . ذلك المعنى هو الذي جعل سقراط على أن يرفض خدمة المخلصين كريتون ، فلم يشأ أن يهرب من السجن ليخلص من حكم ظالم لأنه يعلم أن هذا الهرب مهما بره الظاهر ، فإنه ليس في الواقع إلا مخالفة لقوانين الوطن . ذلك هو إذن المبدأ الأول الذي قرره سقراط ، وأيده بالمثل القلي . هو أنه لا ينبغي ألبتة إتيان الشر بأية حجة كانت ، بل ليس ساقفا أن يدفع الشر بالشر ، ولئن قيل : إن العدل إنما هو إتيان كل إنسان ماله ، فليس معنى ذلك في عرف الحكيم أن الرجل العادل يجب عليه لأعدائه الشر ، كما يجب عليه لأصدقائه الخير ، وليس عمل السوء لأي إنسان من العدل في شيء .

من هذا المبدأ استنبط سقراط نتيجة ضرورية ثابتة لم تكن من قبل ، وهي أن النفس متى كسبت السيئة بمائل الجهل أو الضعف ، على الرغم من شدة تحفظها ، فأول ما يجب الاهتمام به هو شفاؤها من المرض الذي أصابها ، والذي يمكن أن تشفى منه . وعلاج الخطيئة إنما هو العقاب ، فلا ينبغي للذنب أن يتدمر من العقاب الذي أصابه إما بيد الله أو بيد الناس ، بل يجب عليه أن يعتبط بالبلاء الذي يكفر سيئته ويخلص نفسه مهما كان مؤلما . إن العقاب ضرب من الطب المعنوي . وشأن المذنب الذي يحاول اتقاءه شأن المريض (٣) الذي قد يؤثر المرض المهلك على أن يذهب إلى الطبيب الذي يعيد إليه الصحة بالحديد أو النار . ولا يعزب عن سقراط أن هذه المبادئ يبين عليها باديء بدء أنها تصادم الرأي العام . وفي الحق أن من النادر في الواقع أن يوجد

(١) أفلاطون - فروطافوراس ص ٣٨ - غرغياس (البيان) ص ٢٦٢ و ٣٦٧ - القوانين ك ٣

ص ١٦٧ و ١٦٥ - غرغياس ص ٤٠٢ - الجمهورية ك ١٠ ص ٢٦٥

(٢) أفلاطون - تقریظ سقراط ص ٩٠ و ٩١ و ١١٤

(٣) أفلاطون - تقریظ سقراط ص ١١٤ و ١١٥ - كريتون ص ١٤٣

جناة يأتون ليسلوا أنفسهم الى العدل الذي يقتص منهم ، ولكن قد يكون ذلك مما لا يعبأ به ، فانه يلزم أن لا نهم بما ستقوله عنا الغوغاء ، بل بما يقوله الذي يعرف العدل والظلم . وهذا القاضي الوحيد لأعمالنا إنما هو الحق ، إنما هو الله . فإذا جهد المذنب . كما هي العادة . ليخلص من العدل ، فإتما هو حقيق بأن يرى له ، حيث يضيف الى سيئته الأولى التي هي الجنابة سيئة أخرى شرا منها . وهي بقاء تلك السيئة من غير عقوبة تكفرها . لكن القلب المخلص المستقيم متى كسب الخطيئة بالمصادفة . عجل الى طلب العقوبة راغبا فيها ، لأنها هي التي تصلح بينه وبين نفسه وبين الفضيلة (١)

(٣) وقال في صحيفة ٣٩ وما بعدها مانسه : والخير الأكل كما عرفه أفلاطون في كتابه «فيليب أو اللذة» ليس كله في العقل ولا في اللذة ، بل هو في مزيج منهما جميعا . ونسبته فيهما مما يندق تعيينه . لكن الفيلسوف مع تقييده للذة لا يريد إهدارها كما حاولت مذاهب الغلاة من بعده بزمان ، فان لديه سعادة العيش وشقاءه مسألة كبرى ليس عنده هم أشد من حلها على الوجه الحسن ، لذلك كان شديد الرغبة في أن يبين أن الفضيلة لا يقصر شأنها عن أن تكون أجل شيء في ذاتها . كما هو مسلم به ، الا عند العقول المريضة بل هي أيضا أضع وأسد ما يكون . تلك هي نقطة من الأهمية بأعلى مكان . ولما كانت شرائط الفضيلة في هذه الدنيا لا تتغير . كان توضيح سقراط إياها يهينا كما بهم معاصريه تماما . فاننا لا تزال نشكو من الخن المؤلمة الفضيلة كما كانوا يشكون . و إليك ما رآته نفس الحكيم الكبيرة التي زهقت فريسة الظلم الصارخ

إنه يشهد فيها التجربة . أجل ، متى أراد المرء تذوق الفضيلة والتزامها (٢) منذ حداثة سنه ، لا يتركها كما يفعل المرند عن مذهبه ، فانها تقر في القلب . أجل إنها تولد لنا كثيرا من اللذائذ وقليل من الآلام في جميع مدة الحياة . من ذا الذي يفكر حقيقة ويستطيع أن يؤثر الجنون والجبن والافراط والمرض على العقل والشجاعة والاعتدال والصحة ؟ من ذا الذي تلقاه مشهد الأحوال الانسانية يستطيع أن ينكر على العموم بعد الموازنة ، ان الفضيلة ليست أشمل سعادة من الرذيلة ؟ إنها فوق ما تحفظ على نصرائها من النعم النفسية الباقية تكسب مكافآت الرأى العام وتوزعها عليهم . إنها لا تخدع ألبته من يعتقدونها باخلاص ، فان الملائكة لا يتخادون عن أي كان يحاول بالمرون على الخير أن يشبه بهم في الحدود الممكنة ، إذ ليس من الطبيعي أن كائنا على هذا الخلق يتحلى عنه الموجود الذي به يقسبه . فالفضيلة إذن مكفولة بحماية الله . أما من جهة الناس . أفليس الأمر كذلك أيضا ؟ أليس ما يحصل للخبيثين والأشرار هو عين ما يحصل لهؤلاء المستقيمين الذين يجرون سراعا عند صدورهم عن مقر حفة السباق لكن لا عند رجوعهم اليه ؟ يفنون أولا بالسرعة ولكن على آخر الشوط يصبرون في حال نعمة . آذانهم بين أكتافهم . يزدرون سراعا دون أن يتوجوا . في حين أن العدائين الحقيقيين يصلون إلى الغرض حائزين قصب السبق ويتوجون بتاج النصر . أليس حظ العدائين عادة هو كذلك (٣) ؟ أليس حقا أنهم متى وصلوا إلى آخر مشروع من مشروعاتهم . يكتسبوا من سلوكهم وعيشتهم اسما حسنا . ويحصلوا من الناس على المكافآت الواجبة لهم ؟ أليس أنهم يصلون متى بلغوا سن الرزاة إلى ما يرجون من علو المناصب ؟ أما الأشرار فانهم وإن أخفوا أمرهم على العيون في شباههم . فان أكثرهم ينفذ أمره ويرتدى بالسخرية في أتريات أيامه . ومتى صاروا أشقياء في شيخوختهم . باؤا بمسبات الأجانب والمواطنين . بله ما يلحقهم من

(١) أفلاطون - غرغياس ص ٢٥٧ و ٢٨١ و ٢٨٤

(٢) أفلاطون - القوانين ك ١ ص ٣٣ و ٥٣ «فيليب كل المحاور» الجمهورية ك ٩ ص ٢٠٠ - القوانين

ك ٥ ص ٢٦٧

(٣) أفلاطون - القوانين ك ٥ ص ٢٦٧ و ٢٦٩ - الجمهورية ك ١٠ ص ٢٧٦ و ٢٧٧ و ٢٧٨

للثلاث التي تكاد تصيبهم دائما في هذه الحياة الدنيا . وما يتلقاهم يوم القيامة من عدل الله - الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه -

ان أفلاطون مقتنع بصدق هذه المبادئ في العمل الى حد أنه كان يظن أنه مستطيع أن يعين بالأرقام المضبوطة مقدار المقارنة بين سعادة الرجل الفاضل وبين الشرير . وجد بحسابه خاص أن أولهما أسعد من الثاني بسبعائة وتسع وعشرين مرة . وإنه ليريد فوق ذلك أن يسحر بهذه القواعد الجميلة التي هي ثمرات تجربة يؤبدها العمل اليومي نفوس الصبيان وهي لا تزال لينة مطيعة . ثقة منه بأن هذا الكلام يقر في هقوطين بأسهل من كل ما عداه . ولما أقنع قلب شاب شريف مثل « غلوكون » كاد يطلق مناديا ينادي بأعلى صوته في الناس جيعا بهذا الحكم الذي أصدره ابن ارسطون « ان أسعد الناس أعددهم وأفضلهم وان أشقى الناس أظلمهم وشرهم »

الى هذه المشجعات التي لم تكن لتعط مقام النفس أضاف سقراط نصيحة من شأنها أن تظمتها وتكبرها ان حوادث الحياة لا تستحق منا مثل هذا الاهتمام العظيم . العقل يهدي الى أن من الجليل الاحتفاظ بالشاشة عند المصائب وأن لا يدع المرء نفسه الى الشهوة تلتقي به في اليأس . وذلك لأن الانسان يجمل (١) ما اذا كانت هذه العوارض في حكمة الله خيرات أم شرورا . ولأنه لا يكسب شيئا من وراء الحزن لها ولأن الألم ليس لإعاقها عما يلزم المبادرة بعمله في هذه المواقف . فالرجل العاقل المستقيم الأخلاق اذا حلت به مصيبة كفقد ولد له . أو ضياع شيء آخر عزيز عليه يحتمل المصيبة بصبر لا يطيقه أي رجل آخر . وليس هو في ذلك ألبتة عديم الشعور لأن عدم الشعور في مثل ذلك الموقف حديث خرافة . ولكنه يضع حدودا لألمه سواء أكان في جمع من أمثاله أم كان منفردا بنفسه فاذا يلزم اذن عمله في هذه المحن ؟ « أن يستشير المرء عقله فيما وقع . وأن يصلح سوء حظه بأحسن الوسائل التي يحكم بها العقل . وأن لا يروح للصدمة الأولى واضعا يده على جرحه كالأطفال يضع الوقت بالصراخ . بل أولى به أن يروض نفسه على علاج الجرح بأسرع ما يمكن . وأن يرفع ماسقط . وأن يتدارى بدلا من أن يتطير . ذلك هو خير ما يستطيع الرجل عمله في المصائب التي تحمل به (٢) »

(٤) وقال أفلاطون : « وليس من الممكن وجود صداقة مستديمة إلا بين الأخيار . وإن الفضيلة التي هي شرط للسعادة الفردية هي كذلك شرط للسعادة في الجمعية . إن الأشرار لا يستطيعون أن يألفوا زمنا طويلا . فاذا قاربت المنفعة بينهم لحظة . فلا تلبث أن تباعد بينهم . بل المنفعة التي تساعد الرذيلة « وما الرذيلة إلا أسرع منها انتقالا » تسلبهم بعضهم على بعض وتصبح الجمعية . وليس فيها إلا أشرار . غير مستطاعة أن تبقى يوما واحدا . ان هذه القاعدة العتيقة « الشبيه يبحث عن الشبيه » ليست صادقة إلا بالنصف . فان الرجل الخير هو وحده صديق الرجل الخير . أما الشرير فانه لا يستطيع ألبتة أن يعقد صداقة حقيقية . لامع الخير ولا مع الشرير شبيهه . ولما كان الشرير لا يثبت له على حال متغيرا متخالفا مع نفسه . ضادا لها . كان بعيدا عليه أن يشابه غيره . ويحبه . وحيثما اقترب الشرير من شبيهه واشترك (٣) معه ، صار عدوه حتما . لأنه سيعتدي عليه بعض الشيء . وكيف يكون ممكنا أن يبقى المعتدى والمعتدى عليه صديقين

(٥) وقال عن سقراط مافسه : « ولما كان محظورا عليه ألبتة أن يأتي الشر . كان لا يعمل السيء لأعدائه كما لا يعمل لأصدقائه . ذلك منه بعيد . فانه يعرف أن الشر الذي يقع على الأشرار يزيدهم رذيلة على رذيلتهم .

(١) أفلاطون - الجمهورية ك ١٠ ص ٢٧٨ وك ٩ ص ٢٢٤ - القوانين ك ٢ ص ١٠١ - الجمهورية ك ٩ ص ٢٠٤ وك ١٠ ص ٢٥٦

(٢) أفلاطون - الجمهورية ك ١٠ ص ٢٥٥ و ٢٥٦ و ٢٥٧

(٣) أفلاطون - فورطاغوراس ص ٣٦ - ليريس ص ٥٩ - فيدر ص ٨٦

شأن تلك الدواب الشمس . يضر بها السائس الأخطل . فتصير بذلك غير قابلة للتذليل . وما فعل الشر حتى بالاشرار إلا قاعدة لايجرى عليها غير الطفلة أو المجانين أمثال «فرديكاس» و«بريندر» و«أكر كسبس» أما الرجل الحكيم فإنه على الضد من ذلك يلفظ الشرير بما يعمل له من الخير . أو على الأقل بما يضر به له من المثل الصالح من عدالته . إن الشرير أولى الناس بالشفقة . لأنه مريض النفس قد اعتراه المرض في جزئه الأفس حقاً من القلوب ماقدبلغ في الفساد حدّاً لا يمكن معه شفاؤها . بل أخذت منها الرذائل مأخذاً أصبح معه علاجها عسراً جدّاً أو مستحيلاً . ولكن هذه هي الاستثناءات التي بندر وجودها . أما أكثر الشريرين وفي شفائهم بقية من الرجاء . فيلزم أن يكظم الغيظ في قهقم . وأن لا يؤخذوا بالمقوبات القاسية التي لا يكون من ورائها إلا أن يركبوا متن الحدة ويتعدوا عن السواء الشاق

إن ما يكتسب مبادئ سقراط هذه من رفعة وميزة خاصة بها أنه لم يقصر أمره على تقريرها . بل كان يعاني تطبيقها . وما كانت حياته إلا وقفا على هذا التطبيق الطويل الشاق . فإنه منذ تلقى من إله «دلفوس» رسالته المقدسة . واستنارت نفسه بنور الحق ما زال يعلم مواطنيه بأكل ما يكون من الرعاية التي قد لا تخلو من التفرغ بمحض لهم أنفع الناصح . ويحمل إلى السرائر الخالصة نور سريره الساطع . وقد كان يرى أن نفع الناس وتخليصهم مما هم فيه من الشرور واجب عليه إلى حد أنه لو استطاع أن يخلصهم بتقديم حياته قرباناً . لما تأخر في ذلك . فلو قال له أهل آتينا

«يا سقراط إنا نطرح رأى (أينوس) ونحکم ببراءتك . لكن على شرط أن تكف عن الفلسفة وعن أبحاثك التي اعتدتها . وإنه إن وقع منك ذلك واكتشف أمرك عوقبت بالقتل لما تأخر عن أن يجيبهم بأهل آتينا إلى احترامك وأحکم ولكني أطبع الله لأطيعكم أتم . وما يقبت أنفسى تردد في صدري . وبقي لي حظ من القوة . لا أفأ أنذركم وأنصح لكم وادعوك من لقيته باللسان الذي عرفهم منى . ولو أتى كفتت في هذه الساعة لما كان هذا خوفاً على نفسي كما قد يبدر للأذهان . بل خوفاً عليكم أن تحاربوا الله بالحكم على هذا هو اعتقاد سقراط وذلك هو إحسانه إلى الناس . فلا يجب من يسمع تقريره من أن يرله قد تقدم المسيحية نفسها إذ يقول لأهل جمهوريته : يا أيها الذين تتألف منهم المملكة كلكم اخوان . لأنه هو نفسه لم يفتل لحظة عن الاعتقاد بأنه أخو قاتليه (١)»

كفي بالمذاهب الأخلاقية التي من هذا النوع دليلاً على المذاهب الدينية التي تتوجها . فمن السهل استنباط المعتقدات الدينية لأفلاطون وسقراط من مذهبهما الأخلاقي . فإذا كان للصوت الذي يخرج من أعمق ضميرنا هو صوت الله . وإذا كان الله هو الشارع الذي نجب علينا جميعاً طاعته . وإذا كان الناس لا يؤلفون فيما بينهم إلا عشيرة واحدة . فمن اليبهي أن نرى العالم انما هو الله الذي رضى لهم أن يجروه كما يحبون أنفسهم بعضهم بعضاً . وإن الصلة بينه وبين الانسان دائماً فلا يستطيع أن يقر منه أبداً . ولو صغر حتى تقف في باطن الأرض أو كبر حتى (عرج في جوف السماء) . وأبعد من ذلك أن يستطيع التغلب على الإله أبداً . أو يتخلص من هذا النظام الثابت الذي شرعه والذي يجب احترامه إلى مالا نهاية . ومن الكفر البين بعد إنكار وجود الله أن لا يعتقد بالعبادة الإلهية . فإن ذلك يستفيع القول بأن هذه العناية يمكن أن تتحل عن الانسان لحظة فلا تراه . ونسمة بغير حساب إلى سورة رذائله أو عجز فضائله . إن أجل ألقاب الانسان وأحسنها أنه «صنعة صنعها الله يديه» فلا شيء لدينا إلا وهو من فيض إحسانه . ولا نستطيع أن نوقيه الشكر على نعمائه يصلواتنا وما تقرب من القرابين وما نأني من العبادات المستمرة إنه هو قوتنا ولولاه لم تكن شيئاً مذكورياً . «إن الله على حسب الثاليد القديمة هو الأول وهو الوسط وهو الآخر لجميع الموجودات . وهو يسير على خط مستقيم تبعاً لما موسى في حين

(١) أفلاطون - تقرير سقراط ص ٩٣ و ٩٥ - الجمهوريّة ك ٣ ص ١٨٦

أنه يحبط العالم . ووراء العدل المنتقم في الجرائم التي تقع ضد شرعته . فأبما امرئ شاه أن يكون سعيدا .
فلينصل بهذا العليل الالهي ويقتف أثره خاضعا متواضعا . أما من انتفخ كبيرا . وأسلم قلبه الى نار الشهوات . ووطن
أن لا حاجة له بسيد ولا هاد . فان الله يتركه الى نفسه . ولا يلبث أن يدفع الدين الى العدل الالهي . وينتهي
أمره بأن يهلك هو وعشيرته ووطنه (١) »

مادام هذا هو النظام الثابت للأشياء . فيم يفكر الحكيم وماذا يعمل ؟ بديهى - أن كل انسان عامل
يفكر في أنه ينبغي له أن يكون من الذين يتقربون الى الله . لكن ماهو السبيل المقبول عند الله ؟ هو طريق
واحد . لأن الله بالنسبة لنا هو المقياس المضبوط لجميع الأشياء . لا الانسان كما زعموا باطلا . فلا سبيل الى أن
يحظى الانسان بقرب الله حتى يعمل كل ما في وسعه ليقبسه به . أعنى بمقدار ما يتيح للانسان أن يبلغ من التشبه
بذلك المثل الأعلى الذي لا يباغاه أحد . ومتى أمن الانسان على هذا الاتصال وذلك «النسب الالهي» واقتنع
بأن عناية الله تحرسه بلا انقطاع كما تحرس بقية الدنيا . وأبده ضميره الذي يرضى عنه لحسن طاعته للنظام العام
فماذا عسى أن يجنيه في العالم بأسره ؟ وكيف يمتنع قلبه عن الايمان بهذه الحقيقة المعزية : أن الانسان الخبير
لاخوف عليه في حياته ولا بعد مماته ؟ فلذامه في هذه الحياة سوء . فكيف لا يحفظ الاعتقاد الراسخ بأن الاله
يهب له ما لا يزال يهب للأخير من لطف في المصائب التي تصيبهم ، وتغيير في حالهم الحاضرة الى خير منها ،
على أن النعم المعنوية التي اكتسبوها والتي ليست نعمة زائلة أو منتقلة تبقى لهم الى الأبد ، على أمثال هذه
الآمال وفي أمثال هذه الأفكار يجب أن يقطع المرء عمره ، يذكر بها نفسه وغيره في كل فرصة وفي كل مقام من
مقامات الجسد واللهو (٢) »

(٦) وقد قال عن سقراط مانعه : « أظن أنت سقراط هو أول من حاول من الحكماء إثبات صفة
الله في الطبع الانساني بطريق البحث والتنقيب ، وقد صدر في ذلك عن هذا المعنى العميق الذي قرره
« انكساغوراس » وهو أن العقل أصل كل شيء في العالم فاستنتج منه كما ذكر في « فيدون » هذه النتيجة
وهي : أن عقلا مدبرا خالقا يجب أن يكون قدام كل شيء . على أحسن ما يكون . وليس على الباحث لمعرفة
طبع أى شيء الا أن يبحث أحسن حالة يمكن أن يكون عليها ذلك الشيء ، فليس على الانسان في كل ما يتعلق به
إلا أن يبحث ، كما هو الحال في بقية الأشياء . عما هو الأحسن والأكل ولقد كان « هرقليت » يقول من قبل
سقراط : إن أجل القردة إذا تورن بالانسان ظهر قبيحا . كذلك الانسان الحكيم لا يظهر بجانب حكمة الله
وجاله إلا كالقرد ، ولكن سقراط عزّ عليه أن يقف بحته على درس الجسم كما فعل « هرقليت » فيلسوف
يوناني . فتمشى مع مبدأ الأحسن في درس الروح التي جعلها الجهة الوحيدة للرس الطبع البشرى اه

هذه هي المقالات التي تذكرتها في حضرة تلك الروح الشريفة الجلية ، فلما سمعت هذه المقالات من كلام
أفلاطون وسقراط وأرسطاطاليس . قالت نعم هذه من أجل مؤارعي في الأرض فيما بلفسكم من العلم منذ ٢٥٠٠
سنة الى الآن . وكل هذه هي التي توضح هذه الآية وقد تلاقت كلها على (أمرين : الأول) الوازع لنداخلى
والقانون الوجداني وهو . . . فتبسمت بوقار . فقلت (البصيرة) قالت نعم - بل الانسان على نفسه بصيرة .
ولو أتى معاذيره - (والثاني) إن هناك قوة عليا تساعد من أطلع هذا القانون وسار عليه . وللناس في أمرك
أنت مدكر وموعظة حسنة . أنت تحسن في نفسك بما يشد عزيمتك في أوقات الشدائد . قلت بل والله .
قالت : أنت في أثناء هذا التفسير تحسن في نفسك بسعادة وهناك لم تر طمأ نظيرا مدة الحياة . قلت بل . قالت

(١) أفلاطون - القوانين ك ١٠ ص ٢٥٣ و ٢٦٧ وك ٧ ص ٣٩ وك ٤ ص ٢٣٣ و ٢٣٥

(٢) أفلاطون - القوانين ك ٤ ص ٢٣٤ وك ١٠ ص ٢٥٣ وك ٥ ص ٢٦٦

أبست المعاني والمساعدات العلمية لانفتاحاً تترادف عليك وكلما ازدادت في التأليف إيعالاً ازدادت مداً وعلماً وانشرائح صدر وسرورا . قلت بلى . قالت فهذا هو الذي يقوله كونيثيوس وسقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس ويقوله بعدهم الرواقيون الذين جاءوا بعد أرسطاطاليس وأغرموا بعلم الأخلاق وقالوا إن سعادة الانسان في الأخلاق وجهالها ولهم مذهب خاص بها نقل أحمره علماء الاسلام من الفلاسفة والصوفية ، وقد ملأ النزالي من علمائكم كتاب الإحياء بعلم الأخلاق وهو معروف مشهور ، هاهي ذه بعض مزارعي التي زرعنها في القلوب فاذا رجعت الى عالم المادة فاستوعب ذلك كله وأدخله في تفسير الآية حتى يعلم المسلمون أن كلام الحكماء تفصيل وتفسير لآيات القرآن وأن آية - بل الانسان على نفسه بصيرة - وآية - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - الى آخره تفسران بعلم الفلاسفة . اليوم يشهد المسلمون أن دينهم أقيمت علومه على عقول الحكماء قبل نزول القرآن ، فهذه من عجازه العجيب . إذن أنا أظهر في كل قلب بحسب درجته وتكون الجمل والانشاء على مقتضى اختلاف العقول والأمم . فانظر الى الشيخ الشعراي رحمه الله الذي جاء في القرون المتأخرة . فهذا قد ظهرت آثاره على قلبه بهيئة أخرى ، أنا واحدة ومظاهره كثيرة كالشمس تختلف أضواؤها فيتمو بها كل نبات والاختلاف يكون على حسب القوايل قوة وضعفا ، وإذا كلن في العوالم المادية نظام جميل :

(١) كقوانين الجذر والتربيع في امتداد النور والحرارة والكهرباء والمجاذبية وفي قوانين الحجر الساقط في بئر (هذا في سورة الرعد عند آية - وكل شيء عنده بمقدار -)
(٢) وكقوانين الذكور والاناث في تلقيح الزرع والشجر ، وفي نظام أوراق الأشجار من حيث هندستها وحسابها (هذا في سورة الحجر في آية - وأرسلنا الرياح لواقح - وآية - وأنبثنا فيها من كل شيء موزون -)

(٣) وكنظام ممالك النحل والنمل والأرض وغيرها (في سورة النحل والنمل وسبا)
(٤) وكجمال الأزهار والثمار ووجوه الانسان

وإذا كان ذلك كله جيلا وبديعا بحساب عجيب كحساب العناصر من حيث وزنها وترتيبها في جداول منتظمة (هذا في سورة العنكبوت) أفلا يكون عالمنا الروحي الذي هو أصل تلك العوالم وهو سيدها أجل وأبهى وأبدع نظاما وحسابا من عوالم المادة . إذن فلنعلم أن لنفوسكم نظاما لا تدركون كنهه ولافتاحاً فصلحه أحد الدهر ، فتارة تظهر في عقول الفلاسفة ، وآوتة في عقول رجال الدين ، ووقتا تظهر بهيئة صوفية ، والمبدأ واحد والمظاهر مختلفات ، فهل تذكر شيئا من آراء الشيخ الشعراي رحمه الله ؟ قلت نعم . قال في المنن الكبرى مانعه :

«ومما من الله تبارك وتعالى به على عدم تكثري على شيء فأتني من الدنيا وتكثري بمن صدها عنى وذلك لعلمي ويقيني بأن كل شيء فأتني فليس هو برزقي ولا قسم لي فكيف أحزن على شيء لم يقسمه الحق تبارك وتعالى لي أو أتكثرت بمن صدها عنى بالوهم وهذا خلق غريب في هذا الزمان وغالب الناس يحزن ويتكثرت بمن سعى في قطع رزقه أو خروج وظيفته عنه وربما عادي من عارضه في رزقه الذي كان يتوهم انه له أبدا ما عاش (وقد رأيت) خطيبا كان يخطب في الجامع الأزهر . فلما دخل السلطان سليم مصر وصل في الجامع الأزهر قال الناس لا يخطب اليوم الا فلان لفصاحته ومعرفة بالوعظ المناسب للسلطان ومنعوا صاحب التوبة تلك الجمعة لجزءه عن مثل ذلك . فلما خطب رسم له السلطان بخمسين دينارا فقال هذه لي ولم يعط صاحب التوبة منها شيئا فغضب في الصلح بينهما فلم أقدر ولم تزل العداوة بينهما الى أن ماتا على العداوة فقلت لصاحب التوبة ابن قولك في الخطبة والله ثم والله ثم والله ما يعطى ويمنع ويرفع الا الله تعالى فنادى ما يقول وبالجملة فلا يقع في مثل ذلك الا جاهل محجوب عن الله تعالى فان كان ولا بد للمؤمن من أن يحزن فليحزن على ساعة مرت به لهدى كره الله تعالى فيها فان ذلك محمود ولولم يمكن تداركه لما فيه من التعظيم لجناب الله تعالى والحزن على فوات

مجالسته تعالى والوقوف بين يديه جل وعلا كما هو شأن كل محب مع محبوبه ومن لم يحزن على فوات مجالسة محبوبه فليس له في مقام المحبة نصيب (واعلم يا أخي) أن الحزن على ما فات من الطاعات إنما هو محمود للعبد مادام محجوبا باختيار خلاف ما يختاره له ربه جل وعلا فإذا رفع عنه الحجاب لم يجد شيئا قسم له مما فاته أبدا لأن ذلك لا يصح عقلا ولا شرعا (وكان) الشبلي رضي الله عنه يقول وهو في بداية أمره اللهم ان عذبتني بشئ فلا تعذبني بذل الحجاب فلما كمل حاله صار يقول الحمد لله الذي حببني في الوقت الفلاني عن شهوده فإنه تعالى ما حببني عنه إلا رحمة بي خوفا أن لا أقوم بأدب الشهود وتارة يقول اني لا أشتهي رؤية الله عز وجل أبدا فقيل له في ذلك فقال ازه ذلك الجل البديع عن رؤية محدث مثلي انتهى ولكل مقام رجال فافهم يا أخي ذلك والله سبحانه وتعالى يتولى هداك والحمد لله رب العالمين » اه

وقال أيضا في صحيفة ١٨٨ من الكتاب المذكور مانصه : « ومما من الله تبارك وتعالى به على عدم قطع برى وحسبتي للناس اذا كفروا واساطني في ذلك فاني عبد ليس لي فضل على أحد وإنما أنا مستعمل فيما أمرني الحق تبارك وتعالى به وليس لي معه ملك أرى به فضلا على أحد من عبيده مطلقا وبتقدير رؤيتي الفضل على العباد فكما كفروا واساطني توفري الأجر بخلاف ما إذا مدحوني فربما كل ذلك المدح يرجع على ذلك العطاء فلا يبقى لي حسنة وقد كان سيدي علي الخواص رضي الله تعالى عنه يقول أعظم الناس أجرا من يحسن الي من لا يشكره أولى من يؤذيه من الأعداء انتهى . وسمعت أيضا رضي الله تعالى عنه يقول من أراد النصره على أعدائه فليحسن اليهم وليتأمل في نفسه الذي يعاقب ولده وتلميذه مثلا بقطع الاحسان اليه فيجد الحق تبارك وتعالى يرزقه ليلا ونهارا مع كونه مخالفا له فينبغي للعبد أن يعامل عبيد سيده بالحلم والرفق والصفح وعدم المعاملة بالعقوبة كما يعامله سيده . ثم لا ينبغي أن الائم الواقع لمن يعاقب ولده مثلا بقطع رزقه إنما هو من حيث قصده هو والا فالعبد لا يقدر أن يرد ما قسمه الله تبارك وتعالى لغيره أبدا انتهى فافهم يا أخي ذلك واعمل على التخلق به ترشدا والله تعالى يتولى هداك والحمد لله رب العالمين » اه

وقال أيضا في صحيفة ١٨٩ من الكتاب المذكور مانصه : « ومما من الله تبارك وتعالى على حضور قلبي مع الله تبارك وتعالى حال أكل وشربي وشهودي ان ذلك من فضل الله تعالى علي لا أستحق ذرة منه بل لا أقوم بواجب حقه تبارك وتعالى علي لو سفت الرماد ثم اذا وقع لي أنني أكلت غافلا عن ذلك المشهد أو شربت استغفرت الله تبارك وتعالى حتى ينزل علي ظني أن الله تبارك وتعالى قبل استغفاري فضلا مني وإنما لم أقل استغفرت الله مرة فقط لأن مثلنا ربما لا يقع له حضور في استغفاره الا بعد سبعين مرة وأكثر وسمعت سيدي عليا الخواص رضي الله تعالى عنه يقول ما أسبغ الله تعالى علينا النعم بالاصالة ليمكر بنا وإنما أسبغها علينا ليجمع قلوبنا عليه ولا يخرج من حضرته تبارك وتعالى الا لعذر شرعي وكأن الحق تبارك وتعالى يقول من كنت كافيه عن الحرف والصنائع التي تحجبه عني بما سخرته له من الرزق علي يد عبادي من حيث لا يحتسب ولا تستشرف نفسه اليه فلا شيء يخرج من حضرتي (وسمعته) رضي الله تعالى عنه أيضا يقول تيسير استعمال الطعام نعمة كالصلاة فكما أن الصلاة ما شرعت الا لحضور العبد فيها بقلبه مع ربه تبارك وتعالى فكذلك الحكم في مشروعية الأكل والشرب ما شرعا الا ليحضر العبد فيها مع من أحسن بهما اليه انتهى » واعلم يا أخي انه ما واظب أحد على الحضور مع الله تبارك وتعالى حال أكله وشربه الا أورثه الله تبارك وتعالى القناعة والزهد في الدنيا وكفاه شره نفسه انتهى من كتاب لطائف المنن الكبرى

فلما سمعت ذلك . قلت : أي فرق بين هذا القول وما قبله إلا في العبارة على مقتضى الأحوال واختلاف الأمم ، فكل ذلك الاذعان لله والحب للناس . ثم قالت : بقي أن تذكر ما تعلمه من كلام علماء أوروبا في هذا المقام . فقلت : قال الاستاذ (بارتلمي ساتهليبر) المذكور في كتاب «علم الأخلاق» مانصه :

« حينما يريد الانسان أن يختبر نفسه ويدخل في أعماقها ، فهناك المشهد الكبير الوحيد الذي يكشفه فيها عند الفكرة في بعض الأفعال التي فعلها ، بل التي ينوي فعلها ، يسمع في أعماق عقله صوتا يمدحه تارة ويلومه تارة أخرى ، ويقطع النظر عن أمثاله الذين يمكن أن يجد لديهم أحيانا صدى هذا الصوت الداخلي فإن من المستحيل عليه أن لا يلتقي اليه سمعه . ونظرا الى أنه يحمل في نفسه هذا الصوت فلا يستطيع أن ينكره ولا أن يلزمه الصمت متى أتم بأمره يشعر بأنه حمل صالحا . ومتى عقه يشعر بأنه عمل سيئا . وإنما في هذا التردد بين الطاعة وبين العصيان تنحصر كل حياته الأخلاقية فاضلة في حال ورذلة في الحال الأخرى ، ولأن يسلم للمرء نفسه وبلا رجى الى خدمة هذه الأوامر الداخلية ويخلص لتنفيذها في جميع امتداداتها من غير أدنى اعتبار للأشياء الخارجة وأن يكون دائما مستعدا لأن يضحي لها بكل الضحايا التي تقتضيها ، ذلك هو القانون الأعلى الذي يشعر الانسان بالخضوع له ولو أنه لا يعرف إلا نادرا أن ينفذ مع التعرّج أحكامه السارمة . ذلك هو المثل الأعلى الذي لا ينال والذي تتطلع اليه أنظار نفس الانسان وان كان بعيد عنه في الغالب إلا أن مرجعه اليه على الدوام . ذلك هو الأمر الواقع المسلم به الذي هو بسيط وجليل معا والذي يتكوّن الأخلاقية كلها . هل الانسان وحده هو الذي يعرف هذا القانون ويملكه لكل ما بهم من هذا هو أن الانسان يملكه حقا وذلك هو ما يميزه عن سائر الخليفة التي يعيش فيها والتي لا تتمتع بهذه الميزة

إلى هذا الأمر يضاف أمر آخر ليس أقل منه وضوحا ولا أقل منه عجبا . إن الانسان حيال هذا القانون الذي يناجي ضميره مناجاة علوّ وقمرة في بعض الأحيان يشعر دائما أنه يستطيع مقاومته ، فبنا بوضعه هذا القانون أن يلزم العدل في فعله وعبثا يزكى العقل هذه الوصية . فالانسان قادر على أن يرفض تحت مسئولية هذه التصامح القوية الحقة . ذلك لأن له بجانب ذكائه وعقله ملكة أخرى أقوى منهما بوجه ما لأنها تستطيع دائما (متى شاءت) أن تكسر نير طاعتها للعقل . تلك هي الإرادة التي لا تخضع لشيء إلا لنفسها . فوجود مثل هذه الملكة فينا وحولها محلا من الاستقلال والسيادة في الدائرة الثانوية التي تخصها هو ما نستطيع اللادرية للتحدثي بها حينما تهجم على الحق وعلى الحقوق العام ، غير أن ما نقوله هذا يجمع عليه من الجنس البشري بل معترف به من جانب اللادرية نفسها إن لم يكن بأقوالها التي كان للسفسطة فيها شأن عظيم ، فبأفهامها التي منها ينبجس على رغبها وضوح المبدأ الذي تنكره الإرادة في الانسان هي هذه القدرة التي يستعملها للتصميم على وجه أو على آخر من غير أن يقتدر شيء في الدنيا على إكراهها مادامت لا تقبل هي نفسها ذلك الاكراه ، وبين أن هذه القدرة هي كل الانسان وهي التي تقوم ماهيتها إن هذا الصوت الذي يناجي ضميرنا هو فينا ولكنه ليس إباننا مادام أنه قانون يلزمنا ، نحن لم نضعه مادنا غير قادرين على تغييره على رغم وحى المنافع وعماليات الشهوات ، أما الإرادة فهي ضد ذلك هي نحن ونحن وهي شخصنا ، هي نحن وحدنا بعظمتنا وضعفنا وبقدرتنا المزدوجة على الطاعة والعصيان

ذلك هو ما يسمى بالحريّة ، تلك الهبة المهجرة الخيفة التي هي قوّة الانسان والتي يترتب على قدر ما يحسن أو يسيء في استعمالها سعادته أو شقاؤه علوّه أو سقوطه ذلك هو ما يسمى بلفظ (كنت) «حياد الإرادة» لامن جهة أن إرادة الانسان كما قد يعتقد (كنت) تضع لنفسها قوانينها ، بل من جهة أن الإرادة يمكنها دائما أن تطيع أو تعصى القوانين التي يملها عليها العقل والضمير ، فمضى حياد الإرادة هو أنها تستطيع أن تقرر ما يجبها حتى ضد كل عقل وكل منفعة

يتضح بهذا أن القانون الذي هو في ضمير الانسان يناجي عقله هو المبدأ الأسمى وفوق الانسان . والإرادة الحرة التي تنفذ هذا القانون أو تخالفه هذه هي المبدأ الانساني والتابع وهما اتناهما . صلوعم الأخلاق ومفتاحه . فالانسان يحمل في نفسه قانونا وعقمة بوجه ما تحكم براءته أو إباداته بحسب الأحوال ، ولها من

القوة التنفيذية إما الرضا الجليل بأنه عمل خيرا وإما الندم ووخز الصمير على كونه عمل شرا . والانسان يحس نفسه رعية لقوة هي أعلى منه منعمة لطيفة إذا أطاعها منتقمة جبارة اذا عصاها . ومتى اقتضى العدل مجلت له العقاب الخارجي بما تسومه من سوء العذاب الداخلي الذي يعرف الأثيم سره الأثيم حتى لو تخلص من انتقام الهيئة الاجتماعية

هذان الأمران : القانون الأخلاق والحرية ، هما فوق كل مناقشة ممكنة ومن ينكرهما ينزل بذلك عن اسم الانسان وينحط بنفسه (علم أوجهل) إلى ماعت منزلة البهيمة وان كان أذكي منها بلاشك إلا أنه فاسد الأخلاق والبهيمة ليست كذلك

ليست النتائج ههنا بأقل وضوحا من المبادئ ولا بأقل عجبا فان الانسان متى قبل بإرادته نير القانون فذلك يرفعه ويشرفه . ويعيد أن يكون سببا في خفضه . إنه بطاعته الاختيارية يشرك بمحض إرادته شيئا أكبر منه ويحس أنه مرتبط بنظام أعلى منه يشد أزره . وقلمما يخسر بهذه الطاعة شيئا بل يكسب بهامن العظمة والوقار ما لم يكن له من قبل بدونها . إن العالم الأخلاقي الذي يدخل فيه على بينة من تحديد حريته هو العالم الحقيقي الذي يجب أن تعيش فيه روحه في حين أن جسمه يعيش في عالم مخالف تماما حيث توشك الحرية أن لا يكون لها عمل . إماما هو ذلك من الطهر والسلام حيث لأرجاس ولازعزع إلا ما يسمح لها الانسان بالمخول فيه . فالسكينة والنور فيه لاتعلق إلا بالانسان وحده ، ومتى شاء استطاع أن يبسط في هذه السماء الداخلية سموا لا يكد . ويمتدأر ما يوغل عقله في الطاعة يكتسب من القوة وتسير الأرض التي يرتكز عليها كذلك أكثر ثباتا وخصبا . إن اعتقادات الضمير تزداد ثباتا بالمران وإن بهذه المعارضة بين الطاعة الاختيارية من جهة والقوة المكتسبة من جهة أخرى تكبر قيمة الانسان في عينه الى حد لم يكن يعرفه من قبل كبرا لا ياباه عليه تواضعه لأنه ينسب أصله الى قوة أسمى منه . من ذلك يستمد ذلك الاحساس الشريف الجيب الذي يسمى احترام الذات وهو الكفيل للمره بأن يؤدي له أمثاله الاحترام الواجب عليهم والذي يؤديه هو لهم في دوره ، ولو عودل بين هذه الخبرات الداخلية التي هي فوق كل ثمن هذه الفيوض القدسية (كما كان يقول أفلطون) وبين الخبرات الخارجية لقلت قيمة هذه بالنسبة لذلك ، ومع ذلك فان هذه الخبرات الداخلية يضحى بها من غير تردد بل من غير ألم في سبيل خبرات لا قيمة لها ، على أن الثروة والصحة والمحبة والحياة نفسها لا بقاء لها ، فليضح بها عند الحاجة قربانا للاحتفاظ بما هو أسمى منها إذ لا يستطيع إثارةها على الأمر الوحيد الذي يجعل لها شيئا من القيمة ،

وقال في صهيقة ١٧ وما بعدها مانصه : « لا يمكن القوانين الانسانية أن تكون أساسا لقانون الأخلاق لأنها تستمد منه ، وهو الذي يقضي عليها ويدينها حينما تنحرف عن جادة أوامره الواجبة الاتباع ، كذلك التربية التي يتعدى بها بعض الفلاسفة لتفسر قانون الأخلاق الذي هو أكبر سلطانا عليها من القوانين العمومية ، والواقع أن التربية مهما كانت ممتازة فليس لها من صورة إلا التشريع المسنون للطفل بدلا من أن يكون مسنونا للناس ، وهذا التشريع الضيق ليس له قواعد إلا التشريع المدنية ، فن أي ناحية نظر الى علم الأخلاق لم يوجب له من حيث أصله أثر بشري ، وانه ليدبرشون الانسان ويلى أمره بسبب أنه ليس من عمله ، ومتى أراد الانسان أن يدرس فيه سبل الله عرف منه بوضوح وجللاء أن الله قدير وأن الله لطيف . » في العالم المادى بأسره مهما كان جيلا ومهما كان منتظما لا يجد المشاهد اليقظ شيئا يؤنبنا أقل فكرة من قانون الأخلاق ، وان الآثار التي تصادفها أحيانا عند الحيوانات الأرقى تركيبا ونظنها آثارا لقانون الأخلاق ليست إلا تخيلات فاننا نغيرها مانحن عليه ، فنترض أن لها طبعنا إما لجهل مناقد يكون إنما متى كان يرمى إلى الخفض من مستوانا الانساني ، واما لنوع من العطف التافه ، ولكن الحق أن قانون الأخلاق ليس له محل

إلا قلب الانسان ، وأن الذي خلق العوالم والقوانين الأزلية التي تسيرها لم يخلق شيئاً يضارع ضميرنا في العظم فإن الحربية مع ما بها من ضعف هي أحسن من الطبيعة كلها مع ما بها من ثبات لا يتزعزع ، بل إن المقارنة لا محل لها من الامكان لدى عقل قد فهم ذاته ، لأنها مقارنة سخيفة ، إذ أن رفعة العالم المعنوي لا تقاس بها رفعة على الاطلاق وأن قدرة الله تظهر حينئذ فينا بمظهر أجلى من مظاهرها في الخارج ، وإن في إقامة التليل على وجود الله بهذا القانون الذي نعمله في قلوبنا وتعترف به عقولنا لبلوغنا بالاستدلال الى أجل البراهين وأرفعها ، غير أن حلم الله يسارى على الأقل قدرته ، تنظر في هذه القوانين غير الكاملة التي يسنها الناس مسوقين بدافع الحاجة لاستعمالها ، فترى دائماً في أوامرها وزواجرها شيئاً من الغلظة والوحشية ، حتى متى كانت غاية في العدل فإن العقوبة التي تقع على المجرم يمكن أن تعدمه ولكنها لا تمس نفسه تخيفه من غير أن تصلحه ، الارهاب يحوله دون أن يحسن حاله ، أما هنا فلا شيء من ذلك ، في شرع الله المره هو قاضى نفسه مؤقنا على الأقل ، ومن أجل أنه يمكن أن يحكم على نفسه يمكنه أيضاً أن يتقى الوقوع في الخطيئة التي يشعر بأها كبيرة من الكبائر ، فإن الصوت الذي يناديه من داخل نفسه قد أهدره بلائى الأمر إنه يحض له النصيح قبل أن يقرعه باللوم وإنما هو يعاقبه حيناً بصم أذنيه ، ولو أن قانون الأخلاق سلك في التأديب سبلاً غير معنوية محضة لكان في ذلك من التناقض ما فيه ، فكيف في هذا التأديب من محاملة تراعى في حق الجنائي ! وكف من مجهود ينفق في سبيل رده الى الخير ولا يشعر بهذا المجهود أحد إلا هو ولا يذاع خبره في الخارج تحفظ وحرصاً أجمارصانه ، ولا شك في أن الانسان يجاوز غير مرة حدود الاعتدال بهذه الرحمة ، غير أن الشكوى منها إنما هي الجمع بين كفران النعمة وسوء الخلق . حسب الانسان استهانة برحمة الله أنه لا ينتفع بها فإن كل قلب هما قسا يجب بها ويشكر الشارع الأسمى على لطفه في جانب عظيم قدرته

« إليك نتيجة أخرى لهذا النظام القدسي ليست أقل من الأولى صدقا ولا أخف منها وزناً . وهي أن الانسان متى أحسن من نفسه الاختيار في طاعة قانون العقل أوفى عهده أحسن بذلك أنه مسئول عن أعماله أمام القدير الصانع لهذا القانون ولهذا الاختيار ، فليس عليه البتة أن يخافه الخوف الذي لا يليق إلا بالعبد ، لأن طبيعة طاعته قد تجعله يعامل أبا رحماً لاسيداً ، ولكنه يجب أن يتقى غضبه عليه بتعدى حدود القانون الذي يعترف هو نفسه به أنه غاية في العدل ، ولئن كان الانسان يغضب في قلبه من الخطيئة التي وقع فيها ، فمن باب أولى يجب أن يعتقد أن الشارع يغضب على من يرتكب الخطيئة وهو في مكنة من اجتنابها ، وأن الانسان الذي له بقانون الأخلاق في هذه الدنيا حظ ممتاز يجب عليه أن يؤدى الحساب عما يكون قد أتقى فيه هذا الحظ ، ليس عليه حساب لأمثاله ، لأن غاية ما يعرفون هي أعماله التي يعاقبونه عليها أحياناً ولأنهم رعية مثله فإهم وهو إلا على حد سواء ، لا يستطيعون أن يكونوا قضائه الحقيقيين ، لأنه يعزب عن علمهم ما تجسس به الصدور من نيات جميع الأفعال ومقاصدها ، على أن النيات والمقاصد وعلى جملة من القول كل ما يخفى بحكم الضرورة على العدل الإنساني هو مورد الحكم ، فإما أن تنسكرة قانون الأخلاق وحرية الانسان ومسئوليته ، وإما أن تقبل كنتيجة لازمة حياة أخرى تتلو هذه الحياة الدنيا فيها يقيم الله الوزن بالقسط ويرتب الجزاء الذي أعدّه للذين عملوا الصالحات وللذين كسبوا السيئات ثواباً وعقاباً تفرّد وحده بعلمهما . غير أن علم الأخلاق لا يتعدى حدوده إذا هو قرّر أن هذا العدل النهائي لا محالة واجب وأن حياة الانسان الدنيا لا يمكن أن نفهم بدون الحياة الأخرى التي يجب أن تتلوها »

الى أن قال : « فعمل الأخلاق بمجاوزته هذه الحياة الأرضية يتجه من الانسان الى الله ، ويثبت وجود الحياة الآخرة بما فيها من الثواب والعقاب كما يؤكّد نظام هذه الحياة الدنيا . ليست هذه فروضاً محضة لاسند لها ، ولا هي من مسلمات العقل العملي كما قد يقول الاستاذ (كشت) بلهجته الشاذة ، بل هي نتائج صادقة

لازمة عن مقدمات صادقة لأجدال فيها . وفوق ذلك فإن هذه النظريات في غاية الوفاق مع الاعتقادات الفريزية
للجنس البشرى تؤيدها البيانات المينة وتوضحها الفلسفة .

وقال في صحيفة ٢٢ من المقدمة مانسه : « غمّل الجسم على الاعتدال ورياضته الى حد ما وإبتاؤه
حقه من حاجاته وحبسه عن كل ما يتعداها ، وعلى جملة من القول جعل الجسم آلة تمثله وخداما مطيعا ، تلك
هي إحدى القواعد الأصلية للحياة الأخلاقية وبالنتيجة أحد الأجزاء الكبرى للعالم . إن اجتماع الروح والجسم
أعنى العقل والمادة هو مسألة خفية ليس لعلم الأخلاق أن يثير نازرها لاختصاصها بعلم ما وراء الطبيعة . غير أن
من واجبه أن يبحث عن ظروف هذا الاجتماع ويفسرهما على نور القانون ، إنما هو عمل يدرسه كأعمال الضمير
وليس بأقل أهمية منها فإغفاله قص عظيم وحذفه من علم الأخلاق قد يعرض الى عدم فهم الحياة الأخلاقية
حتى فهمها مع أن هذه الحياة الأخلاقية ليست في الحقيقة إلا ضربا من المبالغة بين هذين الأصلين المتقابلين »
وقال في صحيفة (٢٤) وما بعدها من المقدمة أيضا مانسه : « إن النقطة الأساسية لهذا العلم هي أنه يبين
للإنسان أن قانونه هو عمل الخير دائما مهما وقف في طريقه من العقبات التي يسببها تعقد الأشياء الانسانية ،
وأن عمل الخير إنما هو طاعة لا محدودة ولا مقرونة بالنفم مع استسلام ، بل مع ثبات وبسالة إذا اقتضى الحل
ذلك طاعة لأوامر العقل المنشورة في الضمير والتي قبلتها إرادة لها من سلاسة القيادة ما لها من حدة الذكاء ،
الأوامر التي يمكن أن تمثل أمام الشخص بأنها أوامر الله . ذلك هو مركز الحياة كما هو مركز العلم ولكنه مع ذلك
أيضا ميدان القتال في النظريات وفي العمليات . فإن الفرد يأتي الشر على العموم إما عن عدم التفات وإما
عن جهل ولا يكاد يقارف الامم أبدا بعد تدبر وروية عالما بأنه يرتكبه . وإن كان من الطابع ما هو من الشقاوة
يبحث إن أجل مواهبها لا يتخمد إلا الرذيلة . غير أنه في العلم لا عنر بالجهل ولا بعدم الالتفات . وإذا كان التسامح
في ماجريات الحياة يلزم كثيرا حتى بالنسبة للجنة فإنه لا يلزم أبدا بالنسبة للنظريات الفاسدة بل يجب
دحضها بلاشفقة وإيضاح خطئها ليقول خطرها وتوجب مداعبتها أمام محكمة الضمير التزبته وإدانتها نهائيا بلا
استئناس ، وليس بجانب نظرية الخير الذي هو الواجب الوحيد على الإنسان إلا حل آخر يمكن وهو نظرية المنفعة
مع ما يقترن بها من التيه والحنايا التي تشعب فيها شخصيتها وتضل طريقها فإن المنفعة تظهر على صور عديدة ،
تظهر أولا على صورة من الحشونة بكان ، وتلك الصورة هي الثروة مع كل الخبرات الثانوية التي تؤلفها ثم على
صورة مصقولة نوعا وهي صورة اللذة مع جواذبه التي لا تقاوم ثم على صورة أقل تعينا وأكثر قبولا تبدو
في رداء حسن خداع وهي السعادة . إنه يجب على القانون الأخلاقي وبالنتيجة أيضا على علم الأخلاق أن
يشكر المنفعة ويحاربها على أي شكل كانت عليه من الثروة أو من اللذة أو من السعادة نفسها وأن لا يقبل أي
واحد من هذه العوامل على أنه عامل لسلك الإنسان ، لاشك في أن هذه العوامل هي المتسلطة فعلا في
الغالب بل قد يكون من الحسن أن تسلط الى حد معين ، ولكن ليس لواحد منها أن يدعى السلطة ولأن
يفتصب لنفسه السيادة دون مبدأ الخير صاحب السيادة وحده . إن قانون الأخلاق الذي تمثله القلوب الجاهلة
أو الضعيفة بألوان قاسية ، هكذا لكي تسهل مخالفته لا يحرم الإنسان من الثروة التي هي ثمرة عادية يستحقها
لعمله ولا من اللذة وهي حاجة طبيعية له ، ولا من السعادة التي هي رائد جميع مجهوداته ، ولكنه يهديه الى أنه
يجب عليه في بعض الحالات على قدرتها أن يضحي للخير بالثروة وباللذات وبالسعادة بل بالحياة ذاتها ، وأنه
إذا لم يعرف أن يقرب هذا القربان فأعما هو بعيد أصنام ولا يعبد الله الحق ، وأن هذه التضحيات على قدرتها
عند الذي يفهمها تسكني لكشف القناع عن قانون الأخلاق في أسنى بهائه . وبما أن الخير هو الذي ينال الظفر
عند أكبر المنازعات وأشدّها علانية يكون بذلك هو السيد الحقيقي للإنسان . ولأنه يكون جميع العوامل الأخرى
المتولدة عن المنفعة على درجات مختلفة كالثروة واللذة والسعادة إلا كما يكون العائغة الظالم لرعيته ، انتهى

مأردته من مقدمة المترجم لكتاب (علم الأخلاق) وهو الاستاذ بار تلمي ساتهليز والجد لله رب العالمين فلما أقيمت عليها ذلك . قالت : فهذه أنوارنا أقيمت إليكم وأنا أهنيك بها إذ تطلع المسلمين على خلاصات علم الأخلاق فتشرح صدوركم وبها تعلمون أن حكماء أُمّ الشرق والغرب يجمعون على غفوى هذه الآيات القرآنية . فعلماء اليونان والفرنسيين وحكماء الصين جميعاً أيقنوا بأن لهم داعياً في نفوسهم بحاسبهم إذا قصرُوا ويشترهم إذا أطاعوا وبهذا يعرف الناس عظمة القرآن ، وهذا الزمان مبدأ ظهوره لحكماء الأمم شرقاً وغرباً ، فهذه هي آثارى ، أنا البصيرة والقرآن بصائر للناس . فهذه المقالات التي قرأتها على من هؤلاء الحكماء هي قرأتى وهذا الجمال الذى شاهدته فى وراء ما هو أجل منه ، وهناك مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ولن يرى الله إلا نفوس حازت صفتين : علماً كاملاً بهذا الوجود . وإخلاصاً وخدمة لنوع الإنسان مع أخلاق كاملة . الجمال يحيط بالناس فى المادة وفى النفوس . وما أسعد من اعتاد النظافة والاتساق والتنظيم ودرس فنون الجمال فى الكواكب والبحار والأنهار والزرور والأشجار . فهذه المناظر كلما ازدادت عنده تمسكتا ازدادت نفسه شغفا بالجمال الحقيقى . وهناك يشاق للذات الروحية وهى أبهى وأبهرو أجل وأكمل . وهذه الطائفة أقرب الناس الى طبيعتى فاذا أسديت لهم النصائح استمعوا لها بلا توان . لقد شاهدت فى قلبك أنت (ثلاث صفحات مكتوبات) صحيفة الكواكب فى سماها . وصحيفة الزرور والأنهار والأشجار والعوالم الأرضية . وصحيفة آراء العلماء والحكماء قديماً وحديثاً ، فاقراً على من صحيفة الحكماء مامنه يكون القبس مم تبسنت ، وهذه الانقسامه إشارة الى قوله تعالى - وهل أناك حديث موسى إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا لئى آنت نار العلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى - (وقد كنت فى الليلة السابقة أرددها فى الصلاة وطالصة بآراء الفلاسفة سأوضحها) . فأسمعنى من اللوحة الثالثة من قلبك آراء حكماء بعد من ذكروا الآن ومتى أتبعته بالقبس يتضح المقام أتمّ إيضاح . قلت :

آراء الحكماء بمد أرسطاطاليس

(أولاً) آراء أتباعه مثل (فأورسطس) المتوفى سنة ٢٧٨ واستراقون المولود سنة ٢٨٨ المجهولة وفاته وخبرهم عن كانوا خلف أرسطو فى رئاسة دار التعليم بأثينا ، فهؤلاء عدلوا عن الإلهيات ، ذلك لأن أرسطو اعترض على أفلاطون أستاذة وقال له : « إن المثل التى استدلت عليها بأدلتك العقلية وقلت انها معان معقولة تكون أصلاً لكل موجود فى الخارج غير واضحة ولا ظاهرة هى خفية ، وخبرنا أن نبدلها بما هو خير منها من المادة والصورة وانهما أصل العلم لأن الصورة فى المادة أقرب الى الفهم من تلك المثل والمعانى التى لانعرفها »

فرده هؤلاء العلماء التابعون لأرسطاطاليس قوله وقالوا : « إن الصورة متغيرة لا ثابت لها فى المادة ، فكيف نسد العلم الى ما هو متغير ! ، وأدلة كثيرة من هذا القبيل أوجبت رجوعهم عن الإلهيات (ثانياً) هنالك ظهرت فرقان : فرقة (أبيقورس) وهؤلاء قالوا باللذة أى ان الانسان يقرأ الفلسفة لأجل اللذة المستفادة من فهمها ، وهو مولود سنة ٣٤١ ق.م ومات سنة ٢٧٠ ق.م . وفرقة الرواقيين ورئيسهم زينون توفى سنة ٢٦٤ ق.م وكرزيبوس المتوفى سنة ٢٠٩ ق.م ومذهبهم انه ليس هناك إلا جوهر واحد هو المادة والله يلقى عليها شعاع نوره ، والإلهيات والطبيعات عندهم علم واحد . فهناك عقل يضبط المادة ألقف جدا له قوة تحرك العالم . فالعالم كحيوان وهو كروح . والانسان عالم صغير فى مقابل العالم الكبير . والانسان له من ذلك النور الإلهى أكثر من غيره . والأخلاق عندهم عليها مدار الفلسفة . وإذا كان نور الله مشرقاً على الانسان أكثر من غيره وجب عليه أن يتلقى ذلك بالترحاب . وهل يكون ذلك إلا

بالأخلاق الشريفة . وما الفلسفة إلا بستان المنطق سياجه وعلوم الطبيعة أشجاره ومخاسن الأخلاق ثمرته . فلا علم إلا بعمل ولا حكم إلا من بلغ من العلم والعمل الدرجة العليا . ولا قصد للحياة إلا التخلق بأخلاق الله ولكنهم جعلوا الإنسان مجبوراً لا مختاراً فصار مذهبهم فيه بعض الانتقاض . وأيضاً رجعوا إلى غيبوبة النفوس وأهملوا الأعمال الظاهرة نوعاً ما وأخذوا يبحثون في معرفة ما وراء الحس والكشف . وتبعهم في ذلك بعض الأمم الإسلامية وهم كثير من فرق المتصوفة . ولم يحدث بعد هاتين الطائفتين ارتقاء في العلم هناك

(٣) ثم جاء في أواخر القرن الثاني للمسيح أمثال (نيقوماخس الجهرسبني) الذي عاش إلى سنة ١٤٠ بعد المسيح القائل بأن الأعداد هي أصول الموجودات وهو صاحب كتاب الارتمطاطيقي ومن فلاسفة هذا العصر جالينوس الطبيب . ولقد ظهر بالاسكندرية إذ ذاك (امونيوس سكلس) ومعنى سكلس (الجمال) لأنه كان في أول نشأته يحترف بتلك الحرفة وكان نصراني الأصل ثم انتقل إلى ملة اليونان العتيقة وهي الوثنية وتعالى الفلسفة واشتهر فيها . وقد ولد سنة ١٧٥ بعد الميلاد وتوفي سنة ٢٤٢ وجاء بعده تلميذه أفلاطون المتوفى سنة ٢٦٩ م. وبعد أفلاطون تلميذه بروفيوريوس ولد بصور الشام سنة ٢٣٢ م. وتوفي سنة ٣٠٤ م. وهؤلاء ومن تبعهم يسمون الفرع الاسكندري . وبعدهم ييليوخوس ومن تبعه ويسى الفرع الشامي إشارة إلى مولده ييليوخوس إذ كان بإحدى بلاد الشام وتوفي سنة ٣٣٢ م. ثم سريانيوس وبرفلس ومن تبعهم وهم يسمون الفرع الأثيني لكون دار التعليم إذ ذاك قد انتقلت إلى أثينا . ولد بروفلس سنة ٤١١ م وتوفي سنة ٤٨٥ م كل هذا من كلام (ستلانه التلياني) في كتابه (تاريخ الفلسفة) والتي هنا انتهى دور اليونان ومن تبعهم

فهذه أم خلقت ثم جاء الإسلام وكان عصر الصحابة رضي الله تعالى عنهم وبنى أمية . ويحسن أن نذكر هنا نبذة من كتاب « مبادئ الفلسفة » المترجم من اللغة الإنجليزية بقلم الأستاذ أحمد أمين في الكلام على عصر العباسيين فقد جاء فيه ما يأتي :

فلما جاءت الدولة العباسية « ١٣٢ - ٥٦٥ هـ » عظمت حضارة المسلمين ، وهضموا ما أخذوه (بالتفتح) عن الفرس والروم والهند ، وقلوا علوم الأمم التي سبقتهم في المدينة ولاسيما الهند واليونان . وفي زمن أبي جعفر المنصور والرشد والمأمون ومن بعدهم ، ولاسيما المأمون توسع الناس وخاصة السريانيين (في ترجمة علوم اليونان على اختلاف أنواعها : من طب وهندسة وهيئة وتقويم بلدان ، وفلسفة بفروعها المختلفة من طبيعيات وإلهيات ومنطق وفسف وسياسة وأخلاق) إلى اللغة العربية فترجموا في القرن الثاني والثالث للهجرة كتب أفلاطون وأرسطو وأقليدس وبطليموس وجالينوس وغيرهم ، وبحثوا فيها وتداولوها بشرحونها مرة ويختصرونها أخرى ، وخصص كثير من المسلمين حياتهم لدراسة الفلسفة وتفهمها فكانوا بعد فلاسفة وكان أغلب مؤسسي الفلسفة عند العرب ومؤيديها أطباء وعلماء في الطبيعيات أكثر منهم رجال دين ، وعلى العكس من ذلك فلاسفة الغرب في القرون الوسطى فقد كان أكثرهم قساوسة . ولهذا لم يقصر المسلمون نظرهم على الإلهيات بل كان البحث في الطب القديم والعلوم الطبيعية عندهم يسير جنباً لجنب مع البحث في الإلهيات وما وراء الطبيعة ، وترجموا كلام جالينوس في الطب وأقليدس في الهندسة كما ترجموا كلام أرسطو في الإلهيات (١)

غير أنه يظهر أن ما ابتكروه من عند أنفسهم قليل إذا قيس بما نقلوه من اليونان ، نعم أنهم في بعض فروع العلم كالكيمياء وعلم المعادن والطب وعلم وظائف الأعضاء كان لهم أثر ظاهر ، واستكشفوا من القوانين ما لم يصل إليها اليونان قبلهم ، ولكنهم في غير ذلك من فروع العلم كالمنطق والنفس والأخلاق كانوا أقله أكثر

منهم مبتكرين ، وكانوا في طريقهم العلمية ونظامهم في البحث وأنظارهم الى العالم وترتيب فلسفتهم وقواعدهم متأثرين تأثراً عظيماً بفلسفة أرسطو والأفلاطونية الحديثة .

ولهم الفضل على القرب بكل مما نقلوا أو ابتكروا ، فكثير من كتب اليونان وأبحاثهم ما كان يصل اليها الغربيون لولا حفظ العرب لها ودراستهم إيها . كما أن كثيراً من مبتكراتهم واختراعاتهم تعد (بحق) من أسس المدنية الغربية .

ابتدأ المسلمون لأول عهدهم بالفلسفة يدرسون الفلسفة « الأفلاطونية الحديثة » (وهي مذهب مزيج من الفلسفة والدين ظهر في أواخر القرن الثاني للميلاد ، وكان مقره الأصلي الأسكندرية ، حاول مؤسسوه التأليف بين الدين المسيحي والمذاهب الشرقية ومذاهب اليونان ولا سيما أفلاطون وأطلق عليه « فلسفة أفلاطون الحديثة » ومن أشهر دعائه (أفلاطون) ولد في مصر سنة ٢٠٤ م قيل انه رحل الى فارس ودرس الفلسفة الشرقية وعلم فبرومة من سنة ٢٤٤ م ومات نحو سنة ٢٦٤ وكانت تعاليمه مزيجاً من الفلسفة العلمية والتصوف الديني) والتي دعا المسلمين الى اعتناقهم هنا الضرب من الفلسفة انها كانت فاشية لعهدهم في النام وأنها مصبوغة بالفلسفة الدينية ، ثم ارتقوا منها الى النظر في فلسفة أفلاطون وأرسطو ، ولكن كانت قد غلبت عليهم فلسفة أفلاطون الحديثة ، فلما أن نظروا بعد في فلسفة أفلاطون . وأرسطو نظروا اليها بعيون متأثرة بالأفلاطونية الحديثة .

وأول من اشتهر من المسلمين بالفلسفة يعقوب الكندي ويلقب (بفيلسوف العرب) لأنه عرف في صميم تبصر في الفلسفة . وقد كان تابعاً للأفلاطونية الحديثة وتعالم أرسطو أكثر منه فيلسوفاً مستقلاً . وأكثر ماله من الفضل جاء من ناحية الترجمة والنقل ، وقد ظهر له في عهد المأمون والمعتمد كتب كثيرة بعضها ترجمة وبعضها تأليف وصل اليها من أسماؤها نحو ٢٥٦ كتاباً عنها صاحب أخبار الحكماء ، وفهرست ابن النديم ومات نحو سنة ٢٦٠ هجرية .

وجاء بعده أبو نصر الفارابي المتوفى سنة ٣٣٤ هـ عاش تحت كنف سيف الدولة بن حمدان وكان يعرف لغات كثيرة وبرز في الموسيقى والرياضيات وعلم اللغة والفلسفة ، درس فلسفة اليونان ومهر فيها ، وقد كان كالكندي تابعاً للأفلاطونية الحديثة (وان لم يعرف هو هذا الاسم) وتعالم أرسطو ، وكان معشوقه من فلاسفة اليونان أرسطو حتى قيل إنه وجد (كتاب النفس) لأرسطو وعليه بحث الفارابي (إني قرأت هذا الكتاب مائة مرة) وقد لقب بالمعلم الثاني (والمعلم الأول هو أرسطو) لجه معياري الفلسفة اليونانية ، وكان الفارابي كسائر فلاسفة المسلمين يرون أن الاسلام من قرآن وسنة حق . وأن الفلسفة حق . والحق لا يتعد فوجب أن يكون الفلسفة والاسلام متفقين . فغير أنه يؤخذ على فلاسفة الاسلام أنهم لم ينظروا الى الفلسفة اليونانية (كما كان ينبغي أن ينظروا اليها) من أنها مجموعة أقوال ومذاهب قد يناقض بعضها بعضاً . ولأن ما يذهب اليه أرسطو في مسألة قد يكون مناقضاً لما يذهب اليه أفلاطون فيها ، بل نظروا اليها كأنها حقيقة واحدة ملتزمة ، وقالوا ان أفلاطون قد يختلف مع أرسطو في طريقة البحث أو التعبير عن المقصد ولكن آراءهما في الفلسفة واحدة ، وصلت اليهم تعاليم أفلاطون كما حكاهما فورفروريوس (وهو من أصحاب مذهب الأفلاطونية الحديثة) وتعالم أرسطو كما حكاهما متأخرو المشائين ودخل عليهم فيما نقل اليهم من فلسفة اليونان ، ولا سيما فلسفة أرسطو ، خلط وتشويش . يدل على ذلك أنه في زمن المعتمد ترجم أحد نصارى لبنان جزءاً من آيينه أفلاطون الى العربية وسماه (لاهوت أرسطو) وتلقى المسلمون كل ذلك بالتبول ، وهدوا أقوال الفلاسفة المختلفة شرحاً لحقيقة واحدة فبدلوا جهداً عظيماً في التوفيق بين أقوال أفلاطون وأرسطو ، وزاد عليهما للتدوين (القرآن) وهذا ما فعل الفارابي ، فقد كان مؤمناً بأقوال أرسطو وأفلاطون منزهاً للقرآن عن الخطأ ، فخرج

اللوح والقلم والكرسى والعرش والملائكة والسماوات السبع بتعاليم اليونانيين اللوثنيين مع ما بين أجزائها من التناقض ، ومحاولة ذلك تستدعي ذكاه نادرا وتصورا و (كشافا) وغموضا وسبحا في الخيال

وبحث الفارابي كذلك في السياسة في كتابه (آراء أهل المدينة الفاضلة) واختار من أشكال الحكومة الحكومة الملكية الدينية ومزج في هذا الكتاب بين آراء أفلاطون في (الجمهورية) وبين أقوال الشيعة في الامام المصوم إذ كان سيف الدولة بن حمدان مقرب الفارابي وحاميه شيعيا

ومن لم أثر كبير في الفلسفة الاسلامية جمعيا شبه سرية تسمى (اخوان الصفا) اجتمعت في البصرة نحو منتصف القرن الرابع للهجرة ودعاهم الى جعلها سرية كره عامة الناس وعامة المتدينين للفلسفة ومن اشتغل بها ومحاولتهم ايقاع الأذى بالفلسفة ، وقد عد التفتي في أخبار الحكماء أسماء خمسة من أعضائها وكان قصدهم نشر المعارف بين المتعلمين في جميع الأقطار الاسلامية وتغيير أفكارهم الدينية والمادية . قالوا (ان الشريعة قد دنست بالجهالات ، واختلطت بالفضالات ، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة ، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية . وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال (١) فالتوا إحدى وخسين رسالة ضمنوها خلاصة أنواع العلوم المعروفة لهدمهم فهي (دائرة معارف) تشمل على معارف العرب إذ ذاك باختصار ، قالوا في أول هذه الرسائل : ان الحكماء والفلاسفة الذين كانوا قبل الاسلام تكلموا في علم النفس ولكنهم لما طولوا الخطب فيها ، ونقلها من لغة الى لغة من لم يكن قد فهم معانيها ، حرفها وغيرها حتى انقلب على الناظر فيها فهم معانيها ، ونحن قد أخذنا لب معانيها وأقصى أغراضهم فيها وأوردناها بأوجز ما يمكن من الألفاظ والاختصار في إحدى وخسين رسالة اه)

وكانت تعاليمهم فيها كذلك مزيجاً من أبحاث (الافلاطونية الحديثة) والتصور وماقاله ارسطو في العلوم الطبيعية وماقاله الفيثاغوريون في العدد (الرياضة) وقد كان لها أثر كبير في العقول بانتشارها بين الناس ولكن فيها من الخلط والتشويش ما ذكر قبل . وقد ظن بعض الباحثين أن هذه الجمعية جمعية باطنية (اسماعيلية) لما بين مايجي فيها أحيانا وبين تعاليم الباطنية من التطابق ، وقد عثر المقول عند فتحهم قلعة الموت (وكانت في يد الاسماعيلية) على كثير من نسخ الكتاب

وكان لأبي علي بن سينا البخاري (٣٧٠ - ٤٢٨) شهرة فائقة في الفلسفة ، وفلسفته تقرب من الفلاسفة الارسطاط ليسيبة الصرفة ، وربما كانت أقرب فلسفات المسلمين اليها ، وكتابه (القانون) كان العمدة في الطب في القرون الوسطى عند الشرقيين والفربيين معا وله فضل كبير في نشر الفلسفة بين الناس بمؤلفاته العديدة ولاسيما الاطيات والمنطق . هذا الى كثير من أمثال هؤلاء الفلاسفة كالبيروني وابن مسكويه وابن الهيثم

وقد كان انتشار الفلسفة بين المسلمين في القرن الثالث والرابع والخامس للهجرة سببا في حركة جديدة قام بها المتكلمون (علماء الكلام) يريدون بها مقاومة تعاليم ارسطو وأفلاطون والافلاطونية الحديثة المنطلقة بالاطيات أو الرد عليها ودحضها فنشأ من ذلك أبحاث كلامية كثيرة فيبحثوا في العلة والمعلول والزمان والمكان والحركة والسكون والجوهر الفرد والدور والتسلسل ونحوها ، ولم تكن ردودهم موجهة الى الفلاسفة فحسب بل الى كل من خالف سنتهم من معتزلة وزنادقة وفلاسفة وظاهرية وحنابلة ، ومن أعلام هذه الطريقة أبو الحسن الأشعري وامام الحرمين والباقلاني ، ولكن أحدا منهم لم يخصص الفلسفة بالطنن ولارد عليها من جميع جهاتها حتى جاء الفزالي (٤٠٥ - ٥٠٥) فدرس الفلسفة اليونانية دوسا دقيقا (كما حدث هو عن نفسه) ، ثم حل عليها حجة شديدة من جميع جهاتها وأتق في ذلك كتابه المشهور «تهافت الفلاسفة» وكفر الفلاسفة لبعض تعاليمهم ، وأظهر منافاة الفلسفة لتعاليم الدين ، ودعا الناس الى الرجوع الى دينهم الصحيح الخالي من الفلسفة

(١) أخبار الحكماء

ورغب في التصوف وأبان أنه الطريق الحق إلى الله ، وكان بليغا في قوله مختصا في حديثه سهل العبارة قوي الحجج ، فأثر ذلك في المسلمين أثرا كبيرا ، وكان من آثاره أن حول الناس عن الاشتغال بالفلسفة ، ورجعهم إلى الكتاب والسنة ، وأعلى شأن التصوف والصوفية وحبب ذلك إلى الناس . وسار على طريقة الغزالي كثيرون من بعده هذا بمجمل حال الفلسفة في الشرق ، أما في الغرب أعنى في الأندلس وشمال إفريقيا فقد أظهرت الفلسفة (حينئذ) أكثر من أزهارها في الشرق . وكان فلاسفة الأندلس والمغرب أكثر ابتكارا من فلاسفة المشرق ، وكان ينسب بين مسلمي الأندلس الخلاف في العقائد والمذاهب كالتنبي كان عند المشارقة ، فكلمهم الاقليل مالكي سني ، أخذوا الفلسفة عن أهل المشرق فقد كان منهم رحل إليه رحلوا عن طريق القاهرة وأمنوا في الرحلة حتى إلى فارس وانتفخوا بعلومهم ، وجاء الحكم الثاني ٣٥٠ هـ - ٣٩٦ هـ ، فبعت في شراء الكتب إلى الأقطار رجالا من التجار فجمعوا إليه كتباً ، فاشتغل الأندلسيون بلرياضة والعلوم الطبيعية والتنجيم والطب بعد أن نقلت إليهم كتب الفارابي ورسائل اخوان الصفا وطب ابن سينا . وقد تعاون المسلمون واليهود معا على الاشتغال بالفلسفة في الأندلس . ولم يلبث أن نبغ منهم كثيرون . مع مقاومة العامة وأشياهم مقاومة أشد من مقاومة المشارقة

ومن أشهرهم (١) ابن باجه وقد اتبع تعاليم الفارابي (٢) وأبو بكر بن طفيل (مات سنة ٥٣١ م) وصل البناء من تأليفه رواية (حى بن يقطين) وكان بطلها (حى) يعيش في جزيرة لا يسكنها أحد من الناس ، وليس له علاقة بأحد من أهل الجزائر الأخرى . بحث بعقله بحثا منطقياً متدرجا من البسيط إلى المركب حتى وصل الاعتقاد بالله . وغرضه فيها أن يبين أن الشرع يتفق مع العقل . وقد ترجمت إلى اللاتينية وظهرت سنة ١٦٧١ م وسنة ١٧٠٠ م ولم يبعث على ظهورها عشرون سنة حتى ظهرت رواية روبرتو كروسو (١) و (٣) ابن رشد وهو أشهر فلاسفة الأندلس على الإطلاق (٥٢٠ - ٥٩٥) كان يعد أرسطو أكبر الفلاسفة . وقد شرح تعاليمه حسبما وصلت إليه . ودافع عن الفلسفة وألف كتابه (تهافت التهافت) ردا على الغزالي في طعنه على الفلسفة ، وأبان في كتب أخرى أن الفلسفة لاتناقض الدين . وألف في ذلك كتابا صغيرا سماه (فصل المقال فيما بين الشريعة والفلسفة من الاتصال) وأكثر مؤلفاته لا توجد بالعربية وإنما موجود ترجمتها . من ذلك شرح أقوال أرسطو مع الرد على الغزالي رتب وطبع باللاتينية في البندقية سنة ١٥٦٠ م في أحد عشر مجلدا . وترجم له كتاب في الطب بلع كذلك في البندقية . وله كثير من المؤلفات مترجم إلى اللغة العبرانية . وكان لفلسفته شهرة في الكنائس والمدارس الأوروبية منذ القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري)

وباتهاء القرن السادس الهجري تقريبا وقف المسلمون عن البحث الفلسفي والنظر في العلوم الكونية . ولم يكن العلم الانتقلا . فمؤلف ينقل عن غيره حسب ، حتى لانكاد نجد في كتاب جلة ذات معنى جديد ، والمعلم إنما يعلم ما سمع من أساتذته ، والاختلاف الذي يظهر بينهم إنما هو اختلاف في الشكل لا في الجوهر (وليس تمت بحاله للبحث في أسباب ذلك) ولم ينبغ منهم نافع مبتكر ذو شخصية ظاهرة إلا ابن خلدون (المتوفى سنة ٨٠٨ هـ) فإنه باجماع الشرقيين وكثير من الغربيين مخترع فلسفة التاريخ أوصل الاجتماع ، وأكبر الباحثين فيه في الشرق والغرب إلى القرن التاسع عشر الميلادي ، فبحث في (أحوال العمران ، في الملك والسلب والعلوم والصنائع بوجوده برهانية) وكما قال هو في مقدمة كتابه ان كثيرا قبله حوموا على الفرض ولم يصادفوه ولا عمقوا قصده ولا استوفوا مسأله (وأمل ممن يأتي بعده أن يستمروا في البحث ويضعوا أساقته من المسائل وقد تحققت أعراض ابن خلدون ولكن لم يكن الذي حققها هم المسلمين بل أوجت كومت وسبغوا أساقها

(١) فنلند - ورواية روبرتو كروسو إحدى الروايات الإنجليزية الشهيرة لمؤلفها (ديفو) فرض فيها بحال الرواية قد عاش في جزيرة وحده بعد أن كسرت مركبه وأمكن أن يصل بعقله إلى كثير من الأمور

(وكما كان ابن خلدون في هذا الموضوع هو السابق فلم يكن له بين المسلمين لاحق

وأما من عداه فداروا في دائرة ضيقة وكانت سنانيهم بالمسائل اللفظية تفوق العقلية ، قصروا نظرهم على كتب للتأخرين محدودة لا تبعث شوقا إلى علم ولا تهيج العقل إلى بحث ، قد ألفوا في معانيها وركزوا ألفاظها ، فوجه للتعلمون أعظم جهدهم إلى حل مصيبتها وتفسير أغراضها وقليل من الجهد (إن كان) إلى نفس الموضوع وكان العلم والفلسفة قد سارا شوطا بعيدا في الغرب ، والشرق جامد في مكانه ، وبدأ الشرق يغالب النوم والنوم يغلبه ويسارع الكسل والكسل يصعده ، حتى أزججت الحوادث وأقلقت راحته ضواء احتكاك الشرق بالغرب ، فاتبه متأخروا وحس بتأخره وتقصان علمه وضرورة التعلم حتى يستطيع مشاركة غيره في شؤون الحياة ، وما أخرج به اليوم إلى الهداة يضيئون له السبيل . ويأخذون بيده في هذا المعترك العجيب . وينقلون إليه زبدة ما وصل إليه الغرب فيمعن النظر فيها ويهضمها بعقله الشرقي . ويكون له مدينة وصلها تتفق مع نوقه وجوه دينه - والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم - انتهى من الكتاب المذكور

فلما سمعت ذلك . قالت : لقد أجدت في اختيار النقل وحسن الاختيار ولكن للكلام بقية لابد من ذكرها . فقلت : وهل بعد ما أجت قول في هذا المقام . فقالت : لا تنس أنك تفسر قوله تعالى - إن الذين قالوا ربنا ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة - الخ وأن المواضيع هنا ثلاثة : معرفة الله ، والعمل الصالح ، والمكافأة عليه في الآخرة . وأنت تعلم أن معرفة الله لابد منها أولا بطريق علمي حتى يعرف العاقل أنه في هذه الحياة له مشرف يشرف عليه لا أنه مطلق من كل قيد ومجرد السماع من الكتب الدينية ليس يكفي العقلاء فوجب عليهم البحث بأنفسهم ومأخذه من تاريخ الفلاسفة إنما هو تمهيد وتوطئة للمقصود ، وهل المتعود إلا تبيان الحقائق واضحة ، أزل الأشكال لجميع الناس ولكل الأمم ، إذ كره لهم أمثلة من أنفسهم ، بين اختلاف المذاهب أولا في معرفة الله وفي الأخلاق ، أوضحه أيضا تلمحا ، لا تقصر في الأيضاح . بين آراء الملحدين وآراء الموحدين . وبين آراء من يقول « إن أصل كل شيء هو المادة وأنه لا إله لهذا العالم » . وبين آراء من يقول « إن العالم له إله » وأوضح مذاهبهم . ثم أذكر مذهب من يقول « إن الإنسان خلق لمصلحة نفسه وحده » ومن يقول « إن الإنسان خلق لمنفعة غيره وأن ذلك سعاده » . وبعد هذا البيان أوضح برهانك أنت بحيث تظهر الحقيقة لكل عاقل في هذه الأرض لأنك إذا لم تظهر هذه الحقيقة بالبرهان الذي يدركه كل امرئ متوسط العقل من نفسه يبقى الناس حيارى فيقولون من نتج ؟ أنتج من يؤمن بالمادة وينفي وجود إله ؟ أم نتج من يؤمن بالله وعقله لا يفرق بين البراهين وأيهما هو الحق ؟ أم عمل لنفسي فقط وأترك الناس ؟ أم أهمل للناس وأضحى ببعض مصالحه . فإذا برهنت على الحقيقة في الأمرين : أمر معرفة الله . ومعرفة العمل الصالح ظهر معنى - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - ومتى ظهر ذلك للمعنى بوجه علمي صحيح أخرجت العقلاء في هذه الأرض من حيرتهم وأصبحوا موقنين بالحقائق وهناك يفهمون معنى - تنزل عليهم الملائكة - بسبب الإيمان والعمل الصالح بل يصبحون فاعلين هذا النزول وبحسبون به من أنفسهم

فكر في هذا الموضوع وأنا سأصينك لأنني أطلع على قلبك وأشاهد فيه اللوحيتين تتقابلان لوحة الكواكب وأتولها وجالها . وهي اللوحة الأولى ولوحة آراء العلماء وقد ارتفعت الثانية من أحد طرفيها وتقابلت مع الأولى بهيئة نورية مشرقة وأحادي المناظر السماوية المشرقة مع المنظر القلبية التي هي مزارعي في القلوب ينتجم عنه اليقين وهذا اليقين الذي تحس به الآن وأشاهده في قلبك بعد امتحانك لآراء أوروبا في القرون الحديثة سينقل منه إلى قلوب شريفة في الشرق وفي الغرب وبه يخرج الناس من التخبط والانحلال في الأخلاق الخالصة وفي السياسة العاتية . واضل أن قولك هذا سيكون له أنصار في كل مكان . فقلت : إني منشرج الصدر لما أمرتني به ولكن المقام يطول . فقالت : ليصكّن القول مختصرا والمهم هو برهانك أنت عندنا فنصل

بين علماء الأمم في العلم النظري والعملي بعد أن تبين للناس القبس القسي قبسته . قلت : سأذكر ذلك بزيادة الاختصار وليكن في ﴿ ثلاثة فصول ﴾ الفصل الأول في آراء علماء أوروبا في الحكمة العلمية والحكمة العملية ﴿ الفصل الثاني ﴾ في القبس الذي في آية - وهل أتاك حديث موسى - الخ لثمة مناسبة لهذا المقام وكيف فهمته في أثناء الصلاة ليلا ﴿ الفصل الثالث ﴾ في تبين الحقيقة في الحكمتين العلمية والعملية وبهذا يظهر معنى قوله تعالى هنا - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - الخ

الفصل الأول في آراء علماء أوروبا

في الحكمة العلمية والحكمة العملية

القائلون بالمادة . والقائلون بالروح . والقائلون بالمادة والروح معا

إن الانسان اذا خلا بنفسه . وأخذ يفكر في هذه الدنيا لا يخرج تفكيره عن واحد من ثلاثة لارابع لها . إما أن يقول إن أصل العالم المادة . وإما أن يقول إن أصله الروح . وإما أن يقول إن أصله الروح والمادة معا (١) ذلك ان كلا منا ينظر فيرى له جسما مركبا من عظم ولحم وعروق وعضلات وشحم ودم وأعضاء مختلفات ، ثم ينظر حوله فيرى الأرض والحجر والشجر والماء فيقول أنا لا أشك أن هذا هو الأول وهذا هو الآخر ، وما هذه الحركات ولا العقول ولا الاحساس إلا نتائج هذه المادة ، وهل الفكر إلا حركات في المادة كحركات النمو والذبول ، وهل الموت والحياة إلا أحوال تعزى المادة ، وبالتالي في تاريخ الفلسفة ترى أن هذا الرأي دائما يكون مبدأ التفكير عند الأمم سواء في ذلك اليونان والعرب والاروربيون (٢) ونارة يقول القائل . كلا . ماهذه المادة ؟ إن هي إلا عدم محض ، وكيف لا تكون عدما محضا وقد عرف الناس اليوم أن العالم لامادة فيه ، وهل المادة إلا وهم وكذب صراح ، من أين جاءت هذه المادة ؟ المادة لم توجد ، ولن توجد ، نحن لاشيء عندنا سوى التأثير وهو ليس مادة ، والأثير إن هو إلا عالم أشبه بخيالنا لا محس به وإنما أدركته عقولنا ، وهذا الأثير بالحركات المتتابعات فيه المختلفات كثرة وقلة يكون ضوئا وحرارة وشجرا وحجرا وشمسا . فالضوء يحتاج الى حركات في الثانية من (٤٠٠) مليون مليون الى (٧٠٠) مليون مليون والجوامد تحتاج الى نحو ستة آلاف مليون مليون حركة في الثانية . هذه هي المادة أولها وآخرها ماهي إلا حركات في شيء يشبه خيالنا . إذن العقل هو المسيطر على هذا العالم . لجسمي والأجسام حولى نتائج حركات ظهرت لحواسنا فسميناها بأسماء مختلفات - إن هي إلا أسماء سميتوها أتم وأبأؤكم - لا غير والأفهي لا وجود لها ولا دوام (٣) ونارة يقول الانسان - الحق أحق أن يتبع - إن هنا مادة وروحا تدبرها والعالم كله لم يخرج عن مادة وعن شيء آخر يحركها هذه هي الصور التي تجول بأفكار الأمم كلها قديما وحديثا . وإذا كانت العوالم لا تخرج عن هذه الثلاثة فلا جرم ان اختلفت العقول باختلاف أنظارتها . ولأذ كر هنا ما كتبت في كتابي ﴿ جوهر التقوى ﴾ في علم الأخلاق وأنا أدرس هذا العلم لطلبة دارالعلوم أولا وأتبعه بمرور المصريين ورموز الرومانيين في هذا المعنى (١) فأما ما كتبت في ذلك الكتاب فهذا نصه :

تحليل الأخلاق والأمور النفسية

التربية الجسمية

لقد أضنا فيما سلف في اثبات النفس ، وأبنا كيف يبفت الجسم وان جوهرها أشرف وأعلى وأجل وأغلى

فلتين في هذا الفصل امتزاجها بالجسم وعلاقة أحدهما بالآخر وظهور آثار فعله فيه حتى عسر التمييز بينهما ،
ودق الفارق على الناظر الحادق . فتشابها وتشاكل الأمر حتى ضربهما الشاعر مثلا لتزواج المعنى بالكلم في قوله

وكم معنى بديع تحت لفظ * هناك مزاج كل ازدواج

كزاج في زجاج أو كروح * سرت في جسم معتدل المزاج

ولم يقف أمد تزارجهما وتفسر التمييز بينهما على خيال الشعراء ، بل تخطى إلى أفكار الحكماء فنفرقوا
طرائق « وكل حزب بما لديهم فرحون » ففريق أحمل أمر الجسم وعكف على إصلاح النفس وقال ما للانسان
إلا نفسه فهي القوامه عليه المدبرة له الحافظة لشكله . الساعية لتنميته تدبر احشاءه وتعدى أعضائه وتنولى
شأنه وان هو الا عناصر مؤلفة وعمما قليل يلحقها الردى ويسودها البلى ولقد يموت المرء بكلمة تؤذيه ويضرح
وييش بخبر يسره ويرضيه فالجسم وجوده عدم . وآخرون نبذوا الروح وراههم ظهر يا كآتهم لا يبشون ،
واتبعوا في سيرهم أمر جسمهم وقالوا ما الانسان الا الجسم وما الروح إلا عرض من أعراضه كسواده وبياضه
ولئن لحقه مرض أو ألم به ألم أو نقص أو تلف تعدى للنفس أثره فهو حاملها وحافظها بل جوهره هي عرضه

وجاء قوم آخرون وهم المستبصرون وقالوا بالجواهرين وآمنوا بالزوجين وجمعوا بين الدليلين ونظروا بالعينين
فلم يعمطوا الروح حقها ولم يسلبوا الأجسام حظها بل راعوا الجانبين وتربصوا الحسنيين ونظموا إدارة الجسم
كما أداروا مملكة الروح وانا لذلك مختارون

لذلك نظمنا جوهر الجسم في سمط عقد الأخلاق لثلا تبخسه حقه فلا يقولن امرؤانى اذا هذبت نفسى
وجعلتها عنوان درسى كفتانى ذلك في التهذيب . إلا أن له آرا في نفوسنا وسلطانا في عقولنا ألا ترى أن المرضى
أسوأ الناس أخلاقا وان للأغذية والماء والأجواء المدة لأجسامنا آثارا تصل لنفوسنا كالقبض والبسط والفرح
والحزن فلها اذا كانت رديئة وصل للجسم انحراف على مقدار ردايتها وان كانت صالحة فالصلاح اليه واصل
وعليه وارد . سرفى نظام جسمك على قانون الصحة يعتدل مزاجك وتصف روحك . فلمعرك ما العلوم التى
بها جلب الغذاء من صناعه وتجارة وزراعة ولانسلك الذى ترجوه بقاء ذكرك وظهور أثرك بنوع ما ولا نظام
أمتك في اجتماعها وسياستها الابدع حفظ صحة جسمك وإدارة نظام هيكلك في الرتبة وما الأموال المجموعة ولا
الاخوان المحبوبة بمغنية عن المريض شيئا وانما من ذلك مدده واصلاحه فلا وربك لا أمة الا من الاسرات
وانما الاسرات مركبات من أفراد فاذا اعتلت الأجسام فلا اجتماع ولا اتلاف ولا أخلاق ولا آداب . تهذيب
النفس شرع لتجاذب القلوب . وتحابب النفوس واتلاف الأفراد . ونظام الجمعية وتعاونهم أجمعين . فالتهذيب
مؤخر في وجوده عن وجود الافراد والافراد قوامها الصحة

وإياك أن يلعج في خاطرك غرابة الكلام على صحة الأجسام في علم الأخلاق أو تقول نركه لعلم قانون الصحة
فانك عرفت قبلا علاقتهما وآثار أحدهما في الآخر فلئن ذكره الأطباء فانما ذلك لأنه مقصود في علمهم بالذات
والنفس تبع . فأما علماء الأخلاق فانهم يبحثون عنه كركب للنفس وسعيها السائرة في بحر الحياة المعجى .
ردابتها التى تركبها فالجسم فرس . والنفس راكبها والسعادة قنيتها ولاقيصة لمن كات فرسه كما لاسعادة ولا
أخلاق لمن ضعف جسمه إلا من رحم ربك . ولقد أودع الله في فطرة الانسان من الفرائض والمشاعر والادرا كان
وأحاطه بالمنفردات لتتهلكه ما ان عمل به وسار في سبيله بنظام هدى الى طريق رشاده . ألا ترى الى الحر والقر
والجوع والعطش وما جبل عليه الأطفال من حب اللعب وتنشيط الأعضاء بالحركة ومصادمة الأجسام ومقارعة
الأبطال ان كل ذلك إلا مرشد للعاطلين كم من امرئ جهل أمره واستسهل الأمر اليسير من شأنه كاللقمة
يزرددها بلا كثير مضغ والحجرة يسكنها رديئة الهواء أو ضئيلة النور والبيت يقطنه تحيط به الروائح الكريهة
فأساطت به خطوب الزمان ومن عجبات الأمراض أول يعلم ما للانسان من الحكمة والآلام الحر والبرد من الانذار

والاعلام إلا أن الفطنة عن الصغار في أمور الأجسام تجر الى الكبار في أمر النفوس والعقول فكم يحدث فساد الصحة من تغير في طباع المرء كسرعة الغضب والتبجح المزرى ويقعده عن تأدية الواجبات الاجتماعية والمرض اذا حل بالجسم فزال أبقى له آثارها فيه حتى يحين أجله وبذهب عمره . لا بد من ارادة قوية يندبها الشهوات البهيمية وعزم صارم يكبح به تلك الضاربات الهاججة حتى لا تشتري القذى هو أدنى من اللذات الحسية بالتمنى هو أعلى من الصحة وسعادة الحياة والفرح بالاخوان وبهجة الجمعية التومية ونعيم العباد في البلاد

فاعتدل في ما أكلك ومشر بك وملبسك ومسكنك ونومك ويقظتك واجعل لكل وقتا خاصا به ، ونظم أوقات أكلك كما نظمت الأفلاك في سيرها والنجوم في جريها والنمس في أبراجها وأقلل من الشرب وحرمة بعد اقضاء الأكل حتى يهضم الطعام واجعل لك وقتا للرياضة الجسمية كاللشي والأعمال الزراعية أو الصناعية في أوقات عطفتك ليكون أجم نشاطا لعقلك وأتم قوة لجسمك وكالحركات الرياضية في المدرسة فلعمرك انها تحرك من نشاطك وانها تفتح لك شهوة الطعام

الآن المستبصر الخاذق من سار على منهج قانون الصحة قتل مرضه . فذلك خير من يهمل الجسم فيقع في قبضة المرض فيضطره لتعاطي الدواء فالخير لكل الخير في تدير الطعام والشرب في الصحة . وقد أنى الله على بعض عباده الأصحاء العلماء فقال (وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء) . انتهى ما أردته من كتابي جوهر التقوى

(٢) وأما ما كان بمصر فانه قد كان بها هرم في هيكل (ابريس) وهي إلهة مصرية زوجة (اوزيريس) اشترت عبادتها من مصر الى اليونان ورومه وكانت عبادتها تنافس النصرانية . وكانت في بلدة (صالحجر) من أعمال مركز كفر الزيات تبعد عن رشيد قليلا . وقد كتب على ذلك الهرم ما يأتي : « أنا كل شيء كان وكل شيء يكون ومحال على من يفنى أن يزيل النقاب الذي تنقب به من لا يفي »

(٣) وأما ما كان من رموز الرومانين فذلك انه كان في إحدى حجر الفاتيكان صورة شهيرة في حائط صورها (روفائيل) اسمها مدرسة (أيتنا) وفي مركز هذه الصورة أرسطو وأفلاطون ومع كل أتباعه وأفلاطون يشير الى السماء بأصبعه وأرسطو يصني بفتور مشيرا الى الأرض بيده اليمين ، والحق أن هذه الصورة و اشاراتها تمثل جمع أفكار الانسان من أوله الى الآن

فإذا عرفنا أن أفلاطون قد قال : « إن الشمس المشرقة المضيئة سبب ظاهري لما على الأرض من نبات وحيوان الخ » من حيث إيجادها ومن حيث هداية الحيوان والانسان بها الى السبر في الأرض ، وأن ذلك يهدى الانسان الى أن هناك إله للعالم في مقابلة الشمس وقد خلق عالما لطيفا في مقابلة هذا العالم الكثيف وألقى من لدنه نورا على ذلك العالم لطيف فعرفناه وهو متعلق العلم وبه عرفنا الكليات في عقولنا وصور الجبال المجردة والكمال والحكمة والغدل كما ألقت الشمس نورها على حواسنا فعرفنا طرقنا وسرنا في الأرض . وإذا عرفنا أن أرسطو يقول . كلا . فنحن لا نريد قط أن نجعل العوالم المعنوية وهي المثل الأفلاطونية متعلق العلم لدوامها بل نقول العلم يتعلق بالصورة والمادة والقواعد المستنتجة من ذلك هي كليات قامت بالهن ليس لها وجود في الخارج

أقول انا عرفنا ذلك عرفنا أن هذين الرأيين هما أول العلم وآخره لا غير فاما أن نقول على المادة واما أن نقول على الروح وأما المذهب الثالث فقد جمعهما

القائلون بالمادة منهم الاستاذ (كارل ليفت) ومن قوله : « إن المخ يفرض الفكر بعين الطريقة التي يفرض بها الكبد الصفراء والكليية البول » . ومنهم الاستاذ (بجنر) الألماني وقد ألف كتابا اسمه القول الفصل في المادة . وهؤلاء لا يقولون بالروح ولا باللائكة ولا بالنباطين ولا بالله

(١) وعلماء الجواهر الفرد قديما من أنصار هذا المذهب مثل ديموقراطيس سنة ٤٢٠ ق.م وهو من

الإيونيين يقول إن المادة تتحرك من نفسها

(٢) وجاء أبيقور سنة ٣٤٠ ق.م وقال « إن النفس والفكر والعقل والقوة أعراض للمادة » ومثله

ليوكاروس سنة ٩٩ ق.م المؤلف الروحاني الشهير ومن أنصار هذا المذهب

(٣) ثم توماس هويز سنة (١٥٨٨ - ١٦٧٩) في إنكلترا وهو يقول : « إن الروح جسم طبيعي

ارتقى ولم تدركها حواسنا »

(٤) ثم (لامتريه) في فرنسا سنة (١٧٠٩ - ١٧٥١)

(٥) ومثله (باردن هليك)

(٦) ومثله (كلباني) أيام الثورة الفرنسية سنة ١٧٥٧ - ١٨٠٨

(٧) وفي ألمانيا ظهر (مولشت) في القرن التاسع عشر وقال « لاقوة بلا مادة ولا مادة بلا قوة »

(٨) وتبعه (كارل جنت) ولد ويح بخبر المتقدم ذكره

فأما القائلون بالروح ، والقائلون بالروح والمادة معا . فالأولون منهم يقولون « إن المخ آلة الفكر ولكنه

هو ليس سبب الفكر . وقالوا : ليس من المعقول أن يكون الفكر الإنساني الجيب مسنتجا من مادة ميتة

لا تحس ولا تعقل . فالشاعر يفكر في المادة والحكيم كلاهما لا يمكن أن يكون فكلهما مادة . فهل مادة

تفكر في مادة ؟ . وقد قال شاعر فرنسي ما يأتي

إن امرأ طنّ المعارف أشرفت * أنوارها من مظلم لجهول

وهذا المذهب الروحاني ظهر بعد المادى

(١) وقد أوضح أفلاطون نظرية المثل وقال إن لها وجودا حقيقيا والظواهر تتبعها

(٢) وجاء (ديكارت) فأحيا عقيدة الروحانية

(٣) ثم (لبنيز) سنة ١٦٤٦ - ١٧١٦ وهو الذى ضبطها يقول : « إن أساس الموجودات شىء

واحد وهو الروح وهناك قطرة روحية لأعدادها وكل نقطة من هذه تسمى (الذرة الروحية) وهذه

الذرة خلقها الله ، وكل جوهر فرد مركب من مجموعة من هذه الذرات وعدم قبول الجواهر الفرد

للقسمة أمر ظاهرى لا غير والا فهو يقسم الى ما لا نهاية له لأنه مركب من أرواح حية وكل جسم

مركب من ذرات روحية . وهذا الامتداد الذى نراه في الأجسام ناشئ من اجتماع ذرات روحية

وحقائق الأشياء هي هذه الذرات الروحية . وقد جعل الله تلك الذرات مراكز للقوة ومنحها قوة

إدراكية وهي مختلفة الأشكال والأحوال كثيرة التغير

فلاندوم على حال تكون به * كما تلون في أتواها الغول

وهذه الذرات مرآة العوالم الحية وهي ان شعرت فهي الحيوان وان لم تشعر فهي الجماد . وقال كل

ذرة لها جسم وروح فلروح هي الحقيقة والجسم مظهرها

(٤) ومثل هؤلاء (جورج بركلي) سنة ١٦٨٥ - ١٧٥٣ وهو مؤلف جوماتي يقول : « المادة لا

وجود لها في الخارج ، وإنما ذلك خيال ، ولا وجود إلا للروح والعقل ، ولا فرق بين الصور التى

تخيلها والتى زارها ، والعقل يتصور الشىء ويسمى فيبرزه في الخارج ، وليس هناك شىء خارج عن

العقل . ويقول : إن الشمس والقمر والجبل والشجر لا وجود لها إذا لم يكن هناك عقل يدركها

وإدراك الانسان مستمد من الله . ومنى طبعت الصور في عقولنا سمينا ذلك أشياء حقيقية . وله

كتاب سماه (السلسلة) جعله ناصا بمنافع القطران ونسكالم في نهايته على الموجود المطلق . قال :

« لم تكن المعاني التي ندركها أوهاما بل هي حقائق لا تتغير ، ألا ترى أن وجودها أثبت في قوسنا من الأشياء الخارجة . المحسوسات الظاهرة تتغير وهل المتغير يصلح مناطا للعلم . وكالاتصلح موضوعا للعلم لاتصلح للدراك

(٥) وفقى على آثاره هؤلاء (هرمان لوتز) فشرح في كتابه المسمى « العالم الصغير » هذا المذهب

(٦) ومثله (شو بنهور) إذ يقول : « إن الإرادة هي حقيقة الأشياء »

(٧) وهكذا نغفر إذ يقول : « إن كل شيء في الوجود شيء »

والذين يقولون بالروح والمادة معا هم مثل :

(٨) انكسافورس سنة ٤٥٠ ق.م

(٩) وأرسطاطاليس

(١٠) والرواقيون

وقد يصدّ هو بارت ولوتز ونغنه من هؤلاء . وهناك طوائف يسمون (المؤهلين) يعتقدون بالله وبالأنبياء . وآخرون يسمون (العقليين) يرون أن الله يعرف بالعقل وحده ولا يحتاجون الى وحى . وآخرون يعتقدون الحلول الذي برهنا على منافاته للعقل فيما تقدم في تفسير البسملة في السور السابقة والعالم عندهم مظهر الله . وآخرون يسمون « أصحاب مذهب الجوهر الفرد » إذن المذاهب المذكورة أربعة :

(١) مذهب الجوهر الفرد

(٢) « المؤهلين

(٣) « العقليين

(٤) « الحلول

فالأول قال به ليوسيبس وتلميذه ديموقراطيس ، وقال بالثاني أرسطو وأفلاطون الخ ، وقال بالثالث تولاندوم وتندال وستانسبري وهم يقولون : إنه يدبر العالم بنظام ، وقال بالرابع كتاب (ريك فيدا) وهو كتاب الهنود المقتس وهكذا جيوردانو برونو وسبينوزا من امستردام (٢٦٣٢ - ٢٦٧٧) وهذا أعلن لإعلانا مدعشا فيه إغراق وغلق . فقال : « إن في العالم جوهر واحد وهو الله وهو مطلق لا يتحد وكل الجواهر الأخرى المحدودة منبعثة منه ومظروقة فيه وليس لها إلا وجود زائل صائر الى الفناء . والله صفتان يظهرهما لنا في الامتداد والعلم . فبالامتداد المتنوع تتكوّن الأجسام . وبالعلم المتنوع تتكوّن العقول . وهاتان الصفتان ثوبان لله نسجتهما المكوك الدائمة الحركة في نول الزمن العاصف ، وتبعه شلوا وجوتيه وهرد وشلوما كرى وهينى وشلى ولسنج

صمت طويل وضيق صدر وألم نفس . كل هذا حصل لي بعد هذا الحديث الطويل . فلما حثت ذلك تبسّمت ونظرت لي طويلا وقالت : لقد قرأت في صفحات قلبك انك الساعة مشمئزمن سرد هذه المذاهب المختلفة وضاق صدرك ؟ فقلت حقا اني حالما شاهدت جمالك أذهب عنى الحزن وشرح صدري ونسبت كل ألم وبه نلت كل أمل فكل ما فاتني غير قربك لا قيمة له وطلبت البقاء لديك . فقلت لي . كلا . إنك سترجع الى عالم الحس وأنت الآن في عالم الخيال ، فوطن نفسك على أن تدرس مزارعي في القلوب ، فهاهي ذه مزارعك في القلوب قرأت منها صفحات ، فرأيت تناقضا في الآراء ، وتباعدا في المعاني ، فمهدت في صدري اقتباسا لم أعهده ، فأين صحائف هذه القلوب التي بها ظهر تاريخ الفلسفة في العالم من صحائف هذه الدنيا ، تلك الصحائف التي أقرؤها متى خلوت بنفسى وأنا مستيقظ فأشاهد جمالا بارعا وحسنا باهرا وبهجة في النجوم وفي مناظر الموالبد الثلاثة

وقد أصبحت في الحال الاعتيادية أطرب لتمايل الأغصان وترنح العبدان وغوير الأعشاب وخزير الماء
وصرير الباب ، وأشاهد في الليل إذا عسعس أوانس الكواكب ونواعس النجوم ، وألظ في الليل
البهم سكونا مهيبا ولألاما بهيجا في مناظر السماء ، وآنس في النهار نضرة النعيم في كل مادب وطار ، وهل
الحشرات المنبونات اللواتي يحمل بعضها من العيون مئات في نظري إلا لآئي وقناديل وحسن وجمال ،
ألا ليت شعري هل تحسن أقوال هؤلاء الفلاسفة واختلافهم في العبارة وقول (اسبينوزا) قولاً موهماً في
المقام الأعلى الأقدس كما تقدم « انه ظرف العالم ومنه الامتداد ومنه العقول وبالآول كانت الأجسام وبالتالي
كانت العقول » . نعم إن العبارات ضيقة عند أهل الأرض حين يعبرون عن ذلك المقام القدسي . ولكن
أليس هذا بعينه هو الحال ؟ والحال معلول معلول

يفرم الانسان بربه غراما لا حد له فيصل للتطرف والاغراق والافراط ويقول هو كل شيء . نعم اذا أصبح
الانسان في حال لا يحس فيها فانه لا يبصر ولا يفهم ولا يدرك ولا يبصر ولا يسمع إلا ما يذكره بربه . ولكن
لن يكون ذلك للعقل . إن العاقل لا يسمع إلا أن يفرق بين الخالق والمخلوق . أما هذا التهوين والاغراق
والتطرف في القول فهو مغل عزن وهو في ديننا الاسلامي كفر وأى كفر أ ألم أ كذب هذه النظرية فيما تقدم
في موضعين بالبرهان العقلي . وكيف يكون الرب هو نفس العبد ! نظرية خضع لها كثير من علماء أوروبا
والهند والمسيحيين وبعض الصوفية ، وهؤلاء كلامهم موهوم أيما لمهام

أقول : هل يقوم كلام هؤلاء في نفسى مقام الجلال الذي ألحظه في بهجة الكون والشمس عند شروقها
وغروبها والنجوم إبان طلوعها وأفولها ، والنجم اذا هوى ما حل تاريخ الفلسفة الحديثة ولا القديمة في قلبي
محل هذا الجلال المنسوب والفرار الممتد في السماء والأرض

إن قراءة علم ما وراء الطبيعة والفلسفة الطبيعية وعلم النفس وعلم المنطق وعلم الجلال وعلم الأخلاق وعلم
الاجتماع وتاريخ الفلسفة اليونانية والرومانية والفلسفة الحديثة والفلسفة الاسلامية والوقوف على ذلك كله
(وهذه هي أقسام علم الفلسفة المتعارف الآن) ليس ينفع به إلا أفراد يقودون الأمم وهم قليل جدا ولن
ينفعوا بهذه إلا بشرطين اثنين : الأول أن تكون قلوبهم قد أحست بالجمال في هذه العوالم الأرضية
والسماوية مع الذكاء المتوقد . الثاني أن يكونوا قد درسوا جميع علوم الطبيعة والعلوم الرياضية أتم دراسة على
أحسن نظام . فهؤلاء اذا قرءوا تلك المذاهب الفلسفية ودرسوا فروع الفلسفة فانهم يكونون قادة لأمم الشرق
فأما قراءة كتاب مختصر أو مطول في تلك العلوم . والاطلاع على أقوال الماديين كالذي قلته أنا الآن .
وأقوال الروحانيين . وأقوال الذين يجمعون بين الروح والعقل . وهكذا يرون قوما عقليين لا يهتمون بالوحى .
وآخرين إلهيين يهتمون بالوحى . وآخرين يقولون بالجزء الذي لا يتجزأ وغيرهم يقول : إن الله حل في كل شيء
فانها لانفيد إلا ضياع الذهن وتشيت العقل والكفر الصراح والشك المستمر . وكيف لا يكون ذلك والشاب
حين يسمع ذلك وهو جاهل بعلوم هذه الدنيا . ويرى أن هؤلاء يسمون فلاسفة . يقول : فاذا كان الفلاسفة
أصبحوا مختلفين إذن المسألة ترجع للشك . فأننا أيها المحبوبة أقول هذا رأى في قراءة المذاهب الفلسفية . انها
تضل كثيرا ولا تهدي إلا قليلا . فكيف أمرتني أن أرجع عن الصور الجميلة في السموات والأرض التي أنا بها في
أنس وجور ، وأن أفكر في أقوال متضاربات وأحوال متضادات لاسما انى آليت على نفسى أن لا أكتم
عن أحبابي قرآء التفسير جملة واحدة ، وكيف أكتم أعظم محاورة وأعجبها بيني وبين محبوبة جميع النفوس
وقرة أعين النضلاء والحكماء والعلماء والأنبياء ، ألسنت أنت قررة كل عين ، ألسنت جمال النفوس ، ألم
أكن ألحظك في كل ذرة وقطرة وكوكب ونجم وشجر ، ألسنت أنت رفيقة قلبي وشارحة صدرى ، ألسنت أجمل
مافى الوجود . وكيف أكتم جمال علمك عن أعز الناس عندي قرآء التفسير ، ومتى استيقظت من هذا

الخيال كتبت مدار بيننا ومدار بيننا حديث الفلاسفة واختلافهم وانهم فرق مقشاكسون ، نعم انك لما أمرتني أن أقرأ آراء القوم قام بنفسك اني الآن لا أصلح لمجالستك ولا أقوى على محادثتك طويلا وان نفسي لم نزل يعوزها التصفية كما قلت لي من قبل ولكن ألا أستحق مساعدتك والأخذ بيدي وشد أزري والقيام بنصري ، ألت اليوم في جهاد ، ألت اليوم في أم أريد أن تسيقظ ، وخير العلم ما جاء في دور الانتقال ، والشرق الآن قد جاء دوره ، فهل من نظرة بها أسعد ومنك الجمال والكمال ، واذا كان الله جعل صور الجمال في أرضنا سرية الزوال وأوقات اللذات كبرق خلب ، وكانت الحكمة في ذلك أن يذكر قلوبنا بالجمال الدائم والحسن الباقي الأكمل ، فالظهور للذكرى وسرعة الزوال لتسكون في مأمن من تعلق القلب بها والعكوف عليها والحنين اليها وذلك في صحيفتي السماء والأرض ، فهل هكذا الصحيفة الثالثة وهي صحيفة القلوب وآراء الفلاسفة ، إذ نرى في القول جلالا ثم يعقبه الاضطراب والاختلاط والتبويض وضباع الوقت . إن طريقي في العلم أن أقرأ صحيفة الوجود ثم صحيفة نفسي ، فهناك أرى اشراقا وجمالا . أما صحائف القلوب فاسما تجمع الفث والسبين والصحيح والمزبل (وبعبارة أخرى) إلى أخاف أن قرءاء التفسير بعدي يسوءهم مسامني ويؤذيهم ما آذاني . وأنا أحب أن يكونوا في بهجة وجمال

سمعت ذلك كله وهي صامته تبسم وهناك رأيت وجهها قد زاد جمالا ونورا وبهجة فلم أقو على النظر اليها كما ان عيني لا تقوى على التحديق في ضوء الشمس . وهناك أخذت تقول : لقد قلت قولا جيلا وطلقت بالصدق . إن الفلسفة وتاريخها لن يعقلها إلا أناس صفت نفوسهم وهم أذكياء وقد قرؤوا علوم الرياضيات والطبيعات بحب وشغف . إن الفلسفة لا يهتأ بها إلا أفراد قلائل في الأمم ومافلت في الجمال الأرضي وسرعة زواله حق وهكذا ما أبديته في مجال العلوم المترلة على أفئدة العلماء . كل هذا أقرت عليه وأنا نصية لك فكن منشرح الصدر قويا متينا . أما امرى لك بقراءة آراء القوم فان أم الاسلام اذا اطلع خرواصهم على آراء العلماء في الأمم انتشتت عن قلوبهم سحائب الجهالة وأضاعت نفوسهم بأضواء الهداية وحلوا المبهمات وأنسوا بجمال المدرجات . ولولا اني مطلعة على قلبك وانك في الفصل الثالث (الذي بعد فصل القبس وهو الثاني) ستحل المشكلة العلمية أحسن حل وتقيم الدليل الذي يعرفه كل امرى من نفسه في القوة العلمية والقوة الخلقية . ما أمرتك بقراءة الآراء المتضاربة فإذا لم تقدم هذه الآراء أولا لا يكون للفصل الثالث كبير مزية . وكيف تفصل في مشكلة قامت في أعظم العلوم النظرية وأعظم العلوم الخلقية من غير أن تقدم ذكر ذلك الخلاف . وكيف يقضى القاضى في نزاع بين الخصوم وهم لم يطلعوه على رجوه الدعوى وهيئة النزاع . فكن اليوم أيها الجوهرى (متحنا) لمختلف الآراء . وانك قد أسمعني آراء العلماء في معنى قوله تعالى هنا - إن الذين قالوا ربنا الله - فأسمعني خلافهم في قوله - ثم استقاموا - ومتى تم هذا الفصل بتسميه قد نثي بالفصل الثاني وهو القبس الذي خطر لك وأنت في صلاة التراويح قبل الفجر لأنه أشبه بضرب مثل لآراء الفلاسفة في الأرض . فقلت : لأجعل الكلام على ذلك في (مقامين * المقام الأول) في مذهب الفريزة الخلقية ومذهب التجربة (المقام الثاني) في الغاية من سلوكنا الأخلاقى . فقلت : قل وأنا أحادثك . فقلت :

المقام الأول في مذهب الفريزة الخلقية ومذهب التجربة

كما ان شعور النفوس الانسانية بالجمال غريزي في كل الأمم هكذا شعورهم بالحسن والتبجح في الأخلاق ، إن الجمال وان اختلفت مظاهره باختلاف الأذواق والأشخاص والأمم والأحوال والبيئات ثابت الأصل في النفوس . فلذا تعددت المظاهر واختلفت الفريزة حية ثابتة ثبات الحياة . فكما اختلفت أحوال الأحياء وهي

ثابتة هكذا اختلفت مظاهر الجمل والفرزة ثابتة . ومثل ذلك يقال في الحسن والقيح . فأهل الشرق وأهل الغرب كل يعرف الحسن والقيح في الأفعال الإنسانية وان اختلفت المظاهر . وهذا المذهب قال به كارليل و بطلر . وقال به من الألمان غنثه والاسناذ كنت . وقال آخرون : « كلا . إن الحسن والقيح في الأفعال لا سبيل لمعرفة إلا بالتجربة . وإذا كان مذهب النشوء والارتقاء ظاهرا في الحيوان والنبات أفلا يكون كذلك في الحسن والقيح ؟ أفنعيش على آراء من سبقنا في معرفة الحسن والقيح . كلا . بل ننظر الى الفائدة من أعمالنا ونحكم عقولنا ونكون أعمالنا على مقدار فوائدها . هذا هو السبيل الأقوم »
وقال بهذا القول وهو مذهب التجربة كارنوبى ومل و بين وهر برت سبنسر . ثم الكلام على المقام الأول والحمد لله رب العالمين

المقام الثانى فى الغاية من سلوكنا الأخلاقى

هل الغاية من سلوكنا سعادتنا الذاتية ؟ أم السعادة العامة ؟

يقول قوم : « إننا لم نخلق فى هذه الأرض إلا لمنفعتنا الخاصة ، فكل امرئ إنما خلق لاسعاد نفسه هو ، والمسألة كلها هى حب الخير لنفس الانسان » ومن هؤلاء (هوبز)
ويقول آخرون : كلا . ثم كلا (مثل هيوم وآدم سميث) إن فى الانسان عاطفة الحب العام ومن ذا الذى ينكرها فى نفسه . لقد غرست فى نفوسنا عاطفة حب الناس واسعادهم وحب الخير لهم وتكميلهم . وهذه تسمى نظرية الايثار
ومن أتباع المذهب الأول (ماكس سترز) و (بنتشيه) ومن أتباع الثانى وهو الايثار (كنت و غنثه وشوبنهور) . وفوق ذلك يقول آدم سميث وجون ستورث ميل : « إن الانسان عليه أن يضحى بنفسه إذا كانت تلك التضحية سببا فى سعادة غيرنا »
ويقول الاستاذ (مل) « ما أقص هذه الدنيا وما أدخل نظامها إذ كان من سنها أن أحسن طريقى فى تحصيل السعادة هى التضحية التامة . وإذا كان هذا هو شأنها فأتى أقر بأن الاستعداد للتضحية أكبر ضحية يتصف بها الانسان » . وههنا مسألة ثالثة وهى :

ما الذى يسوقنا لحسن السلوك ؟

عرفنا أن هناك غرائز أو تجارب للتمييز بين الخير والشر . وعرفنا ما الذى تقصده من السلوك . ولكن ما الذى يبعث فىنا النشاط لحسن سلوكنا ؟ ويكون مهمازا يسوقنا الى الغايات ؟ فقال الاستاذ (مل) « إن القانون الأخلاقى مقيم فى أعماق نفوسنا يساعدنا على كشف حجب الامور حتى نصل الى إدراك ما يجب علينا وله سلطان قوى وتأثير وجاذبية . وهذه نظرية (القانون الذاتى) . وهذا سموه (صوت العقل) ومن القائلين بهذا القول الاستاذ كنت »

وقوم يقولون : « إن الشعور والعواطف لها سلطان أيضا » وهذا قول هيوم وشوبنهور وآدم سميث فالعقل والشعور يرجعان الى القانون الذاتى

ويقول آخرون « إن الخوف من الله . أو من الناس . أو من القوم . أو الرغبة فى المديح . أو تحصيل الثواب . كل هذه قوى خارجية لها سلطان علينا تسوقنا الى فعل الخير »

وأنا أرى أن هذه كلها لها سلطان بدرجات مختلفات وتختلف باختلاف الأشخاص والبيئات والتربية والى هنا انتهى الكلام فى ذكر الآراء فى علم الأخلاق ومناهج السلوك وبه انتهى الفصل الأول فى معرفة معنى قوله تعالى - إن الذين قالوا بنا الله ثم استقاموا - وبه فهمنا آراء الأمم فى معرفة الله وآراءهم فى الاستقامة

الفصل الثاني في القبس المذكور في سورة طه

هنا أذ كر ما وعدت به بمافهمته أثناء قراءتي آيات من ﴿سورة طه﴾ في صلاة الوتر بعد نصف الليل منذ أيام إيفاء، بوعدى لك وقياماً بحقك وليكون ذلك مثلاً مضروباً لاقتباس عقولنا من آراء عقول العلماء والحكماء من الأمم جمعاً

كنت أقرأ قوله تعالى كما قدمت - وهل أنك حديث موسى إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعل آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى - فلما أتتها نودي بأموسى إني أنا ربك - الخ ، فأخذت أكرر هذه الآيات مراراً وقد استحضرت في ذهني الحجر والشجر والبر والبحر والايقاد واللهب ، كل ذلك حصل في قضي كلعج البصر ، وهذه المظاهر أصبحت كأنها مشاهدات أمام بصري وأنا أكرر الآية وكأني في عالم غير عالمنا ، عالم الجمال ، عالم الحكمة ، وخيل لي إني خرجت من كل هم وغمّ وحزن وألم لأن هذه عوارض عالم الحس والآية أحضرت لي عالم الخيال ، أو عالم المثال ، أو عالم البرزخ ، عالم لا كدر فيه ولا شقاء ولا أعداء ولا منافسين ، وما أجل قيام الليل ، فإذا لم يكن فيه إلا هذا الجمال كفى ، وما أحسن الصيام فهو يصني النفوس ويذهب عنها البؤس . وما أجل الذكر . وما أحسن الفكر

فنظرت في الأشجار إذا هي لا تقبل الا لتهاب مع انها مشحونة بالنار . كيف لا وفي كل مائة رطل من الأشجار (٤٨) رطلاً من الاكسوجين ولن تكون نار ولا طب إلا بالاكسوجين وهذا مصداق قوله تعالى - وقودها الناس والحجارة - وإنما لم تحترق الأشجار لصلابتها ومنايتها . ثم نظرت في نحو الحديد من كل جسم يعاوه الصدا فوجدت أن ذلك فيه احتراق فإن الاكسوجين يأخذ في التزاج والاتحاد والاتلاف مع الحديد ولكن ذلك الاتحاد والاتلاف والزواج لا تصحبه زينة ولا فرح . فلزينة هي اللهب والفرح هي الحرارة وهذه هي التي اعتادها الانسان متى أراد البناء بعروس أظهر الزينة والسرور والفرح . هكذا إذا أراد إيقاد النار زوج الاكسوجين بعروس فذلك العروس إن كانت عجوزاً شمطاء كالحديد لم يكن فرح ولم تكن زينة بل يتم التزوج بيطء فيكون الصدا وذلك كعاشرة هذه العجوز . وإن كانت العروس خفيفة الروح شابة فهناك الحرارة وهناك اللهب . وإنما يحصل اللهب بازدياد الاكسوجين مع الاودروجين ومع الفحم . وهذان العنصران يقيان معا في كل نبات وكل حيوان . فهما في الخشب والحشب والفحم الحجري والزيت والدهن والورق . فتقرب النار من الورق اشتعلت الحرارة وظهر اللهب وأخذ الاودروجين والسكر بون الساكنان يظهران ويريدان التخلص ولكن هيات هيات فيقعان في قبضة الاكسوجين ولا يفلتان وهناك يتم الزواج

الاودروجين المذكور جزء من أجزاء الماء وهو متحد مع الاكسوجين فيه فهو يحبه اذا صادفه في الورق والحشب وغيرهما . والايدروجين أيضا داخل في تركيب الغاز (الايدروجين المكرين) أعني اودروجين مزدوج بالفحم واسمه (غاز الاستصباح) وهو الذي تاربه الشوارع والأزقة والحارات والمخازن والخوابث وهو يجري في أنابيب تستمد من احتراق الفحم في أفران معدة لذلك وهذا معروف مشاهد . والاودروجين أخف من الهواء (١٤) مرة ونصف مرة ولذلك يجعلونه في الطيارات فتتحف وتطير في الجول لأنها أخف من الهواء . هذه هي النار وهذا سرها . والنار من أعجب العجب في هذه الدنيا والناس يعيشون ويموتون ولا هم يدركون جمالها وبهجتها . والسبب في ذلك انها مبدولة لحم بلاتعب ولا نصب مع ان ماتقدم في آخر سورة ﴿يس﴾ من الصور المرسومة لقوم متوحشين بوقسودئها يشق الأنفس بدل على أنها كانت مستعصية على النوع الانساني وكانت آمن مما على الأرض وما في باطنها من جواهر وما في البحار من لآلى حتى ان زوادشت قال انه جلبها من السماء وصر في طريقه بجبال عمليا وكانت هذه معجزة له عند أتباعه في بلاد الفرس .

وأخذوا يبسدون النار وهي مقتسة . لماذا هذا ؟ لغزتها ونفستها إذ ذاك . وهكذا زعم الروم أن بروموتيه اختلست النار من عبادها (بتدبير الباء) وسترتها عن أعينهم وأهدتها لأناس غيرهم ، فكان الرومانيون يقدسون النار كما يقدسون القوس ، ولها سدنة يقومون بخدمتها ويحافظون على دوامها ، فلما أن صارت اليوم سهلة الحصول زالت تلك الهيبة من النفوس والعظمة

هذه هي النار ، وهذا تاريخها ، تاريخ النار تاريخ الحياة ، فلهب النار وحرارتها يرجعان للتفاعل والتزواج وتنتيجة اتحاد العناصر أن يكون هناك نبات وحيوان وإنسان كلهم ناشتات من ذلك الاتحاد ، وبدوم ذلك التفاعل مدة ، ومتى يطل التفاعل بطلت الحياة . إذن النار سر الله في أرضه

العلوم والمعارف

ليس في الأرض علوم ولا معارف إلا على نمط إيقاد النار ، وهل المعارف إلا ازدواج بين القضايا الذهنية إذ تكون مقدمتان ومنهما تكون النتيجة ، أليس ازدواج التضيئين في النفس يعطى فكرة كأنها حرارة وتكون النتيجة كاللهب (وبعبارة أقرب لما نحن فيه) أن آراء علماء الغرب والشرق متى ازدوجت في فئوسنا حصل لعقولنا نتائج وهذه النتائج يصحبها نشاط في مقابلة حرارة النار ويكون سرور في مقابلة اللهب إن انشراح الصدر بالمعارف خير من الدنيا وما فيها ، واذن يكون مافي الأرض من دهن وزيت وخطب كل هذه نشبه بها آراء علماء اليونان والرومان والألمانيين والفرنسيين والانجليز الذين تقدم ذكرهم . ثم إن قلب هذه الآراء وبحتها واستخراج نتيجة تفههما العقول واحدة ويفرح بها أهل العلم في العالم كما سيأتي في الفصل الثالث إن شاء الله أشبه بازدواج هذه المواد وظهور الحرارة واللهب منها واشراقها للعيون

ثم اني بعد أن فرغت من فهم هذه المعاني في الآية أخذت وأنا لأزال أكررها في الصلاة أفكر في معناها وأقول : إن موسى قال لأهله امكثوا إني آتيت نارا ، ورجا أن يبال منها أحد أمرين : الأمر الأول لأهله ، والثاني له هو . فأما الذي لأهله فهو القبس لأجل الاستدفاء بالحرارة . وأما الذي له هو فهو أن يرى هاديا يهديه للطريق في الجبل ولله فيعرفه طريق الوصول اليه كما قاله بعض المفكرين . إذن موسى عليه السلام قسم فوائد النار بينه وبين أهله ، فهكذا المفكرون في المسلمين بعد ظهور هذا التفسير وأمثاله عليهم أن يتخذوا علوم الأمم كلها مباحث لهم ويستخرجوا منها أولا المنافع المادية في مقابلة القبس الذي ذكره موسى وثانيا المنافع العلمية والهادية الخلقية في مقابلة هداية موسى . ونتائج ذلك لأهم الاسلام أن يعيشوا بسلام سعداء وإذا ماتوا اتقوا ربهم وقد آمنوا ما عليهم ، وهذا في مقابلة قوله تعالى - فلما أتاها نودي يا موسى إني أنا ربك فأخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى -

كل هذا أقوله وهي مصغية الى سامعة لي وكلما ازدادت إيضا ازيد وجهها إشراقا . هنالك قلت لي : هل هذه المعاني تفسير للآية ؟ وضع هذه الفكرة . قلت كلا ، إنما هي معان تحظر للنفوس عند قراءتها . والافعنى الآية يعرفه العاقبة والخاصة ، وهذه تسمى المعاني الاشارية أو الرمزية التي تحظر للنفوس على حسب استعدادها . وإذا كان هرون الرشيد قتل البرامكة وأمعن في ذلك حينما سمع المغني يقول :

ليت هذا أنجزتنا ما تعدد * وشفت أنفسنا مما نجد

واستبدت مرة واحدة * إنما العاجز من لا يستبد

فهكذا تفهم العقول الحكيمة المعاني التي تناسبها حينما تسمع القرآن من باب أولى ، والقرآن أولى من كتاب (كليله ودمنه) بالحكمة والعلم وهذا أمر واضح لأولى الألباب . وبهذا تم الكلام على الفصل الثاني في القبس وفهمه من الآية في الصلاة والحمد لله رب العالمين

الفصل الثالث

في جلاء الحقائق العلمية وتبيان الصواب في آراء هؤلاء العلماء العلمية والعملية أي النظرية والحلقة أي معرفة الله تعالى وعلم الأخلاق (وبعبارة أخرى) - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - الخ وهي آيتنا التي نحن بصدد الكلام عليها

هنا أخذت أستعرض آراء علماء أوروبا الحديثة وآراء القدماء وأفكر في الماديات والروحيات . وكيف نسمع قوما يقولون «لا وجود إلا للمادة» ويقول آخرون «لا بل الموجود هو الروح» وبينما أنا أفكر وهي إلى شائخة إذ لاحت لي التفاتة إلى وجهها الجميل فأخذتني الدهشة واعترتني الشبهة وغابت عني الحواس ولم أشعر بما حولي ، فلعمرك ما أدرى كم ساعة قطعتها وأنا في غشيتي ثم أحسست بيد ناعمة تمر على وجهي ورائحة عطرية لم أشم مثلها مدة حياتي عطرت المكان ، إذا هي قد أخذتني بين يديها لتوقظني ، فما آنتها بعد الغشبة حتى قلت ما قاله ابن الفارض

ما بين معترك الأحداق والمهيج * أنا القليل بلا إثم ولا حرج
ودعت قبل الهوى روي لما شهدت * عيناي من حسن ذلك المنظر البهيج

فقلت نعم لا إثم ولا حرج - لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثما إلا قبيلا سلا سلا - . فقلت ياسيدي أخبريني بالحق ؟ أنا الآن في عالم الآخرة ، أنا لأعرف ما أنا فيه ، إن هذه المعاني التي تجول بخاطري لم أعهد لها في أيام حياتي ، فقل لي مت ؟ فقلت هذا صفاء نفس لاموت ، وعند الموت تكون حالك أرق من هذه الحال بملاحة له . فقلت : ولكن ما هذه الحال ؟ قلت : ألم أقل أنك في حال البرزخ والمثل والخيال . فقلت : وهل هذه الحال لها وجود ؟ قلت : هي أصل الوجود والصور الأرضية فرع . فقلت : أنا إذا استيقظت وأخبرت الناس بذلك طالبوني بالبرهان . فقلت : أتذكر أنك أيام الشباب رأيت صوراً جميلة . قلت نعم . قلت فهل ذرو تلك الصور الآن لا يزالون يحملونها . قلت : كلا ففهم من أصبح في القبر ربما ومنهم من أصبح محجوزاً وشيخاً هرمياً أكل الدهر عليه وشرب وابيض شعره ويبس جلده وانحلت عراه . قلت فهل تغيرت هذه الصور الجميلة في خيالك ؟ قلت كلا إني أراها في نفسي نائمة الجمال كما كانت لم تتغير . فقلت هذا مثل واحد ضربته لك لتعلم أن جميع الصور التي ترونها في المادة التي تتخيلونها باقية في عقولكم إلى أمد الدهر ، وبقا كَمَا تنتج أخلاقاً وعوائد وسعادة وشقاء على حسب ما تصورت - كفي بنفسك اليوم عليك حسيباً - بل الإنسان على نفسه (بصيرة) - وهنا ابتسمت ابتسامة وأضاء المكان بالنور وعبق العبير . ثم قالت : إن الوجود الأصلي إنما هو ما حفظته النفوس ، أما وجود المادة فهو تبعي لأصل ، ألم تركب لا يكون عمل إلا بعد فكر ، فهل الهرم ظهر في الوجود إلا بعد رسم في الخيال ، وهل الكرسي والباب والشباك والآلة البخارية والقطار السائر في الأرض والسفن في البحار والمنطاد في الهواء وكذا الطائرات والجيوش المنظمة في الجوّ وفي الأرض وفي البحر برزت في الوجود إلا بعد أن رسمت في صحائف الفكر فكان إبرازها للعيان بعد ظهورها في الأذهان . فإذا حرق الكرسي والباب والشباك وحطمت الطائرة وهزم الجيش وتفرقت جوعه فان صورها تبقى في الأذهان . ألا ترى أن أخبار معارك هينبال وحروب رومه وقرطاجنه تنقلها القلوب وتداولها الألسنة وتلقاها الأجيال مع ان تلك الأمم قد زالت من الوجود وخلفتها أمم آخرون من نسلهم أو من أم أخرى ، إذن الأشباح المنظورة نتائج الصور المعقولة لافرع لها ، أولست أنك قد ذكرت في التفسير في غير ماموضع أن هذا العالم كماه حركات في عالم يسمى الأنير ، وما الأنير إلا اسم تجهلون . معناه ، وماهو إلا أشبه بالخيال ، ويؤيد هذا نظرية (اينشتين) إذن لامادة ، وغاية الأمر أن هنا حركات مختلفات الأعداد

والأحوال بها ظهر للعيون وللحواس أشباح . فقلت : إذن هذا تأكيد لمذهب الروحيين . قلت هنا أرواح
وهنا أجسام ، إن المواد لها وجود في درجة الحواس فهي موجودة معدومة هي مترددة بين الوجود والعدم
فأما عالم الصور العقلية فهي موجودة أبداً - وإن الدار الآخرة هي الحيوان - . فقلت : وهل هذه آخرة ؟
فقلت : إن عالم المثال الذي أنت فيه الآن مقدّم لعالم الآخرة ، ثم تبسّمت وقالت : ولكن أنت الآن لم تمت
فأنت حي . ثم أنها فجأة قالت استودعك الله ، فراعنتي هذه المفاجأة وقلت .

أمت حيث ثم قامت فودّعت * فلما تولت كادت النفس تزهي

فقلت أنا ما ودّعتك إلا وأنا واثقة بما لديك من الهبات العلمية ، وما منحك الله من الحكمة ، وانك
ستلقى للناس حقائق ورفائق حتى يعلموا أن آراء الفلاسفة ليست مقدّسة وأنا مطّعة على قلبك أقرؤه كالصحيفة
أمامي ، وانك ستقول للناس قلطبة « إن كل فيلسوف له رأى » فهذا الرأى راجع لحال خاصة * وبعبارة
أخرى * إن أنظار هؤلاء الفلاسفة جزئية لا كلية ، ومتى أوضحت كل قول وأوضحت سببه عرف الناس أن كل
واحد له حق من وجه واحد ولكنه باطل من وجوه عدّة ، هذا كله ستقوله أنت ، فانصرتي الآن يكون
بعد ما خبرت قلبك وانك ابن بجدتها ^(١) وأخوعذرتها ، وبجديلها المحكم ، وعذيقها المرجب . فقلت : ولكني
لا أطيق فراقك ، ومتى قت وأنا لم أتم ما شرعت فيه من أني أسمعك ما سأكتبه في هذا المقام بنائي ما لا يطلق
من الهم ، وإن إصفاك لي وسماعك لكلامي وإن كنت مطّعة على ما في قلبي يحدث فيه مسرّة لأن إصفاء
المحبوب لقول المحب أشهى إليه من الحياة وأعزّ عليه من روحه كما فرح موسى عليه السلام بقوله لرب العالمين
وهو يعلم ما في نفسه - هي عصا أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها ما ربّ أخرى - ويحدّد في
قلبي حكمة إذ أطمئن على ما سأكتبه وأثق بما ألقيه في هذه المسألة التي حارفتها أهل الشرق وأهل الغرب .
فقلت : لا ترع قد أجبتنا طلبك ورحنا نضرك فآتم ما شرعت فيه

وهنا حوت من شدّة الوجد والهيام ، كأنني في أضغاث أحلام ، وتذكرت قول ابن المعتز في الشرق :

وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفا * على الجرد كنا والحواشي على الأرض

يطررها قوس السحاب بأصفر * على أخضر في أحر تحت مبيض

كهيئة خود أقبلت في غلائل * مصبغة والبعض أقصر من بعض

وقول إبراهيم بن سهل الاسرائيلي في الأندلس

أشمس في غلالة أرجوان * وبدر طالع أم غصن بان

وتفر ما أرى أم نظم در * ولحظ ما حوى أم صارمان

وقلت في نفسي هذا وإن الجذل والغزل في صور لا تفنى ولا تزول ، فأما في الأرض فانها صور زائلة وهذه هي
السعادة التي لانهايتها ، فإن هذه الحسناء الطيفاء قد ازداد جالطابضع مرات وهي تزداد بهجة وجمالاً وحسناء وورقة
إن الجمال في أهل الأرض لم يجتمع لا مرئى قط ، فإذا أشرق وجه الشباب بالجمال ، فالهيام إنما يكون
بالظواهر غالباً فيه ، وإذا أضاء قلب الحكماء والعلماء أحسهم تلايمدهم وأغرّموا ذلك الغرام بيواطنهم لا
بظواهرهم لأنهم لا يستأهلون لذلك الهيام والحب إلا بعد استكمال قواهم الداخلية وتتمام عقولهم وعلاهمهم ،
ولكن لم ير أحد من أهل الأرض جمالا كما أرى أنا اليوم ، فالوجه مشرق والروائح عبق لم أرهما نظيراً على
الأرض ، والجمال يزداد على مدى الساعات ، والحكمة والعلم يباهيان حكمة أكابر الحكماء وعلم العلماء
هنالك أشارت لي أن أشرع في تحقيق الحق في الآراء المقدّمة كما تقدم . فقلت : وإن الناس إذا

(١) هذه أربعة أمثال تضرب لمن هو كفه للشئ - وهو به جدير بجدة كسجدة ، وعذرة بوزن غرفة

وجديل صفر جذل ، وعذيق على وزنه

أرادوا أن يقفوا على جلية الحق فلينظروا لأنفسهم ، وذلك من (وجهين : الوجه الأول) من جهة الحواس الخمس والعقل وذلك للعرفة (الوجه الثاني) من جهة العواطف والشعور وذلك للأخلاق

الوجه الأول معرفة الانسان من جهة حواسه الخمس والعقل

إن حواسنا خمس : أذناها المس ، وأعلاها البصر ، وفوقها كلها العقل :

- (١) أما المس فأنما يستمد معرفته من المواد المحيطة به مباشرة ، فهو إذن كالأعمى يتلمس ما يحيط به
- (٢) وأما النوق فإنه وإن كان كالمس ففيه مزبة أرق ، وهوانه يسقط ما هو أليق للغذاء ، ولا يقبل إلا ما اختاره بخلاف المس فهو أعم
- (٣) وأما حاسة الشم فهي أبعد مدى وسلطانها يكون على المسموعات الالاقى هي ذرات منفصلات من المواد والهواء السفير بين حاسة الشم والمشموم ، إذن هذه واسعة الأفق تمتد الأكناف شريفة فيها لطف به اقتربت من عالم الأرواح
- (٤) وأعلى منها حاسة السمع فهي أبعد مدى ، وأشرف مرتبة ، وأعلى مزبة ، وسلطانها يحكم في الهواء وحركته لافى ذرات متناثرات من المادة فهي إذن أقرب من الشم الى عالم الأرواح
- (٥) وفوقها حاسة البصر فهي لاسلطان لها على عالم المادة ولا صلة بينها وبينه فلا تتصل بنفس المادة كحاستي النوق والمس ، ولا بغيرت طائرات منها كالشم ، ولا بلطف الهواء كالسمع بل سلطانها في عالم متوسط بين المادة وبين الروح وهو عالم الأثير الذي يحمل الصور الضوئية من المادة ويوصلها إليها . فترى الأشباح والصور والأشكال وقد امتد سلطانها الى أبعد غاية . فإذا كان السمع لا يعلم إلا ما كان في عالم الهواء والهواء محدود لا يتجاوز (٥٠) ألف كيلومترا فإن البصر يمتد سلطانه الى أبعد ما كان في هذا الجوّ الفسيح . فهو يرى الشمس على بعد هائل عظيم بحيث تصل القبلة لها في ١٢ سنة ويصل لها القطار السريع في (٣٥٠) سنة . وبعد الشمس الهائل لا يقطع النور في أكثر من (٨) دقائق و (١٨) ثانية . ووراء الشمس كواكب وشموس وسدم رأت العين أتوارها في أبعاد شاسعة تقتر بسير النور لابسير القطار ولا بسير قبة المدفع مائة ألف سنة بل مائة مليون سنة وأكثر . إذن تبين أن العين أعظم الحواس سلطانا وهي تحكم في عالم الأثير الحامل للنور فعالمها أقرب الى عالم الأرواح

قاعدة

وهنا ظهرت لنا قاعدة هامة جدا « إن كل حاسة وهبت لنا لن تنفصل عن عالمها فهي به متصلة اتصالا يناسبها . فاللس متصل بعالم عظيم وهي المواد المحيطة بنا وهكذا الذوق وهكذا الشم دائماً ملاصق للهواء وكذا العين والبصر يشرف على عالم أوسع وأوسع . وكلما ارتقت الحاسة عما قبلها اتسع عالمها والعين بلغت النهاية في اتساع عالمها حتى انما بالمنظير المعظمة لم تقدر المدى الذي تراه العين في الاتساع والعظمة واللطافة المتناهية وهي لطافة النور في عالم الأثير

(٦) - العقل

وهنا آن أن نبعث في حاسة فوق هذه الحواس . نعم هذه الحواس تحضر الصور وهذه الصور تخزن في خزائن الدماغ وهناك يحصل ازدواج الآراء وتحصل نتائج . فياليت شعري أى عالم اتصل بالعقل فأعطاء نور المعارف الخاصة به وق له : « خذ الظواهر البسيطة الآتية من الحواس الخمس ونصرف فيها واستخرج في الحساب وفي الهندسة وفي الجبر وفي الكيمياء آلاف القوانين » . إن هذه القوانين لا وجود لها في صور المادة الواصلة للحواس الخمس . فمن أين أتى ذلك العلم للعقل ؟ أجا له من تلقاء نفسه ؟ إذن فلماذا ترى الحواس

كلها لاعلم لها إلا ما حوطها ولكل حاسة عالم يناسبها ويشأ كلها وهي درجات بعضها فوق بعض وأرقاها البصر وعالاه وسط بين المادّة والروح - وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا - . إن العقل حقا له اتصال حقيقي بعالم عقلي وهو أوسع من عالم النور بملاحد له بل هو عالم لانهاية له قياسا على ما قدمنا ، إذن الانسان يجلس وقد وضع القلم في يده وأخذ يكتب ما يعلى عليه عقله ، فالقلم متصل باليد والعقل متصل بعالم عقلي وينبوع منه يستمد الفكر ، واتصال العالم العقلي بعقولنا كأصاال القلم بأيدينا ، وكما أن اليد جسم كشيء اتصلت بجسم كشيء يليق لها وهو القلم هكذا عقولنا متصلات بعالم لطيف تستمد منه استمداد العين من الضوء والأذن من الصوت وحاسة الشم من الروائح في الهواء

وهذا البرهان لا يبرد عليه ما روود على أفلاطون إذ استدلل على عالم المثال بوجوده كما تقدم بأنه مقيس على المخلوقات الأرضية التي كانت الشمس سبب وجودها وسبب ظهورها لعيوننا وهدايتنا لها . فالتة في مقابلة الشمس وعالم المثال في مقابلة المحدثات بسبب ضوئها وهداية الله لعقولنا كهداية الشمس لعيوننا وعالم المعاني كالجمال والخير والعدل والعظم والقوة وغيرها عالم لا يتغير باق كما ان الله لا يتغير وبق ، والحوادث الأرضية تفتى لأنها وجدت بواسطة عالم يفتى ويتغير وهي الشمس . وهذا البرهان الذي قاله أفلاطون لم يكن مقبولا عند أرسطاطاليس ففتى عالم المثال كما قلناه فيما تقدم . وقال كلا ، مم كلا . إن عالم المثال لا وجود له والعالم العقلي غير موجود وإنما الموجود عالم المادّة ، وبجرت النظر للمادّة والصورة كاف في أن عقولنا تدرك القوانين ، وهذا هو السبب فيما وجد مرسوما في الصورة التي رسمها الرسام الايطالي التي تقدم ذكرها من أن أرسطاطاليس يشير إلى الأرض وسقراط يشير إلى السماء ، وبسبب هذا اختلف الأضراب بعد أرسطاطاليس . وقد تقدم الكلام على الرواقين والأبيقوريين وكيف وقع هؤلاء في الخلل وشكت (بتشديد الكاف) طائفة وألحدت أخرى وهكذا مما تقدم في هذا المقام

وبقى العلم على هذا اللتوال حتى جاء العصر الحديث وظهر العلماء في أوروبا وفيهم يقول الاستاذ (بارتلمي ساتهليز) مترجم أرسطو من اليونانية إلى الفرنسية في القرن الماضي وهو التاسع عشر في صحيفة (١٠٣) من المقدمة المترجمة ما يأتي

« بعد الرواقية وبدون أن أقف على شيشرون ولا على سنيك الروماني أقنم عشرين قرنا وأمضى إلى (كنت) أكبر أخلاق في الأزمان الأخيرة ، أننا نجد من نظرياته خليطاً من المذاهب الثلاثة الخ » أي مذهب أفلاطون ، ومذهب أرسطو ، ومذهب الرواقين

أقول : ولقد قدمت في هذا التفسير مرارا أن الاستاذ (سنتلانه التلياني) ومثله (سبنسر) الانجليزي يقولان كما يقول جميع العلماء منهم : « إن فلاسفة القرون المتأخرة بالنسبة لسقراط وأفلاطون كالبقية بالنسبة للفيثاغوريين في مثل هذه المواضع الشريفة الراقية » وها هو ذا الاستاذ (بارتلمي) يقول كذلك في مواضع كثيرة من كتابه حتى جعل علماء أوروبا مدينين لليونان . كما ان العلامة (سدبواقرنسي) المؤرخ جعلهم مدينين للأهم العربية الاسلامية ، وكل قال على مقدار ما وصل له من العلم . إذن (بارتلمي) لا يرى علماء نبغوا في علم الأخلاق بعد عشرين قرنا إلا الاستاذ (كنت) ، فإذا يقول فيه ؟ يقول في صحيفة (١٣٦) مانصه :

« اذا كان من اللازم ترتيب هؤلاء العظماء الذين حلت أفكارهم فاني لا أتردد في أن أضع العلامة أرسطاطاليس في الصف الثالث والاستاذ (كنت) في الثاني وأفلاطون في الأول ، وبني ذلك الترتيب على الاعتقاد لأن أرسطو لم يتكلم في مستقبل الروح ولا في علاقتها بالله وجعل لسعادة الانسان مدخلا كبيرا في الأخلاق مع ان الفضيلة وعمل الواجب هو الأولى بالرعاية . وقال : إن (كنت) وان اعترف بالله وبقائه الروح فان دليله ضعيف جدا أقل من دليل أفلاطون ، فان (كنت) يقول : اذا كان الانسان يسعى لاسعاد

نفسه من جهة ولعمل الواجب لغيره من جهة أخرى فان العمل للواجب قد يتعارض مع العمل لنفسه ، وهناك لا ينال مطالبه في الحياة الدنيا . إذن الحياة قاصرة هنا فلا بد من حياة أخرى يرقى فيها ويكون الخلود وهناك يكافئ الخالق كلاً بما فعل ،

إذن الاستاذ (كنت) جعل الاقرار بالله وبقاء الروح تابعين للقانون الأخلاقي ، وهذا ضعف ظاهر ولكنه على كل حال أرقى من آراء أرسطاطاليس وان كان أقل من آراء أفلاطون . هذا بجمل الكلام الذي ذكره وأوضحه أيما إيضاح في المقدمة المذكورة

وأنا أقول : ههنا آراء أفلاطون وهي الصف الأول ، وآراء (كنت) في الصف الثاني ، وآراء أرسطو في الصف الثالث . وقد عرفنا فيما تقدم أن آراء أفلاطون وهو في الصف الأول لم يعبأ بها أرسطاطاليس . وبسبب ذلك تحجبت الانسانية نحو عشرين قرناً من رواقية وأيقورية وملاحدة أوروبية ، وظهر أمثال ليوكاروس وتوماس هوزي في انكلترا ولامتريه في فرنسا وهكذا من الماديين ، لماذا ظهر هؤلاء ؟ لأن العلماء تحبطوا من أيام أرسطاطاليس دهموا فلم يجدوا من يخدمهم عن الحقيقة بأكثر مما قاله أفلاطون ، وأفلاطون عارضه أقرب الناس اليه وهو تلميذه ، فأين يذهب الناس ؟ فلما جاء (كنت) أتى بمذهب وسط وترك برهان أفلاطون ونزّل الى برهان ضئيل

هذه هي الآراء المنتشرة في أم الأرض ، وهذا آخر العلم فيها . فأما البرهان الذي قلته أنا الآن فليس يرد عليه من الطعن ماورد على برهان أفلاطون فضلاً عن (كنت)

لقد برهنت ببرهان لا يقبل النقص وأقل ما فيه انه برهان الاستقراء فقد استقرينا الحواس فوجدناها متصلة بعوالم تحس بها ، فلماذا يكون العقل وحده هو الذي يقوم بعملية الاحساس من ذاته بلا عالم يمدّه مناسب له ! وهل يمتد العقل إلا عقول تماثل وتناسبه ونسبته اليها نسبة الشم الى الهواء والسمع الى الهواء والعين الى الضياء

وأزيد عليه برهاناً آخر وهو ان الأرض لم يكن في استطاعتها وعجزت أن تعطى النبات نمواً والحيوان هداية . إن النبات لن ينمو إلا بحرارة وجماء ، والماء لن يكون إلا بالبخار ، ولابحار يشور إلا بحرارة ، وهذه الحرارة لم تستطع ابرازها الأرض فأرسلتها الشمس . ثم ان الحيوان محتاج الى أن يرى سبله في الأرض . والأرض لم تقدر أن تهديه نوراً من لديها . إذن الأرض قد برهنت على عجزها في الحرارة وفي الضوء لنمو النبات والحيوان وهداية الأخير . والضوء أيضاً مساعدة في نمو النبات (كما تقدم في سورة يس عند آية - سبحانه الذي خلق الأزواج كلها - لأن ضوءها يساعد المادة الملونة في تعاطي الغذاء من الهواء)

وإذا عجزت الأرض عن أخس الأمرين أي الحرارة والضوء لترقى أبنائها فهي عن أشرفهما أعجز وهو الإدراك والعقل وغرائز الحيوانات . فاذا كان الضوء استعارته من عالم السماء فهي الى استعارة العقول والغرائز أحوج من عالم الطيف من عالمنا

فهذان برهانان قطعيان يثبتان عالم الأرواح الثابتة ويرفعان هذا الانسان من الحضيض الذي وقع فيه واذن لا يرد على هذين البرهانين ما أورده أرسطاطاليس على أفلاطون ويبقى هذان سليمين من الطعن . وإذا كانا أثبت من برهان أفلاطون فهما من برهان (كنت الألماني) أكثر متانة وقبولاً . واذن ظهر معنى قوله تعالى - إن الذين قالوا ربنا الله - الخ . وثبت بالبرهان العقلي الركن المهم في علم الأخلاق وهو بقاء الأرواح ووجود الله تعالى . وذلك ان هذه النفوس الأرضية متى ثبت اتصالها بعوالم روحية تناسبها قانا تقول هذه العقول الروحية لا بد من اجتماعها كلها بوجود أعظم منها ولا بد أن يكون واحداً كما ان أضواء الشمس مهما تكاثرت عددها فلها منبع واحد

وههنا تسقط تلك المذاهب المادية لأول وهلة وتقول لأمثال الاستاذ (كارل غت) القائل : « إن المخ يفرز الفكر بين الطريقة التي يفرزها الكبد الصفراء والكليّة البول »
 لقد أخطأت المرمى ولم تصب المحز ، لقد نسبت أن المخ عضو الاحساس الأعلى والأعضاء الحساسة لها أحكام غير أعضاء التغذية ، ذلك ان أعضاء الحس متصلة بعوالم خارجية وهذا عضو في داخل البدن . ثم قول له ولأمثاله : « نحن لانكذبكم لأنكم أشبه بحاسة اللمس فاحكامكم موجهة الى الدرجة التي وقفت عندها والرجل الأصم الأعمى ينكر الصوت والضوء »
 إذن ظهر أن فلاسفة الأمم كل يقول ما وصل اليه عقله لا غير ، وعلى الحكماء في الاسلام أن يدرسوا هذه العقول في هذه الأمم ويستخرجوا الزبد ليرفعوا هذه الانسانية المسكينة
 فقالت : لقد أحسنت كل الاحسان وأجدت كل الاجادة وبهذا ثبت البرهان على أساس متين ، فشكرتها . والى هنا تم الكلام على الوجه الأول وهو معرفة الانسان من جهة الحواس وما يتعلق بها وبه ثبتت المعرفة النظرية ، وهذا المقام سيزيد إيضاحا في (سورة محمد) ﷺ عند قوله تعالى - فاعلم أنه لإله إلا الله - في الرسالة التي سميتها «مرآة الفلسفة»

الوجه الثاني

البحث في الانسان من جهة عواطفه وشعوره

وههنا أقول : قد تبين بالوجه الأول أن حواس الانسان وعقله أشبه بمدرسة يتعلم فيها الناس الارتقاء في الأحوال والسعادات ، فن وقف عند الطعام والشراب وحب المال فهو من الطراز الأدنى لأنه لم يجاوز حاسة الطعام . ونرى الناس يسارعون الى السفر برا وبحرا ، لماذا يهجرون الأوطان ويتعشمون المشاق ؟ ليطلعوا على عجائب الأمم والبر والبحر ، وآخرون يتكون القراش الوثير والطعام اللذيذ والروائح العطرية في بساينهم ودورهم ويترددون على دور الصور المتحركة ومحال القناء مفضلين لذة البصر والسمع على لذات اللمس والشم والذوق . إذن المحسوس كلما كان أطف كان أشرف وأذ . إذن المحسوسات بالعقل أطف المحسوسات وأشرفها ، فن قصرني فهمها ولم يشتق الى ذلك العالم الأعلى فهو غيبي لم يدرس نفسه بهذا رهذا وحده يفهم النوع الانساني كله أن الآخرة والأولى ندرسهما من أحوال أجسامنا ، وهذا من سرّ قوله تعالى - وفي أنفسكم أفلا تبصرون - وهذا الذي عرفناه في الوجه الأول تبعه بما وعدنا به في الوجه الثاني فنقول :

إن الطفل بعد ولادته نراه لا يعرف إلا نفسه ، ويظن أن كل من حوله مسخرون له ، ثم يأخذ جسمه في النماء وشعوره وادراكه في الازدياد . فاذا تكامل شعوره وتمّ نماءه أدرك أن له أمّا وأبا واخوة ومدينة وأن عليه حقوقا وواجبات فيكون له ذرية وتلاميذ وعشيرة وأمة ، ويحس في نفسه بحب لهم غريب ، وكلما ازداد عقلا ازداد شعورا بحب الناس حتى أن الفلاسفة والحكماء بعد الأنبياء أحبّ بنى آدم للناس بحبون لهم الخبير على مقدار ذمتهم . وعلى مقدار ازدياد العلم يزداد الحب . وعلى مقدار النقص يكون تقص الحب للناس . ونرى هناك تناسبا عجيبا بين الأم نحو أبنائها وبين النبي والحكيم نحو أمتهم . فهذه تحنو على طفلها وتسهر عليه وتعطي للطبيب ما ملكه من مال وما عندها من حلى ولاتام ولانأ كل ويلحقها الضنى وتبيت على الطوى مع انها قد تكون شابة فتية جميلة . ولولا هذا الطفل لأخذت زينتها وتبرجت بحلاها ولكن الرحمة الآخذة بمؤاذاها قهرتها وأخضعتها لهذا الطفل . وعجبا الأمم من الحكماء يطفون عليهم هذا العطف عينه . وهكذا القواد الصادقون يخدمون أوطانهم بأنفسهم . ونرى العالم يزهد في لذية العيش ويبيت ليله شاهرا ونهاره طملا

ليفرح باسعادته ورفقاً بأبنائها ونجاحهم وفلاحهم . ولقد كنت في أول زمان شباني أقول في نفسي « أتمنى أن أتص على الحقائق وأكون مجهولاً لا يعرفني أحد ويكون ذلك مسرة لي » . ولما حارت سني أربعين سنة فأكثر كنت أتمنى لو أنني جلست في مكان وسمعت الأمة حولي فرحة قد أقامت الأفراح لانتصارها وارتقاتها وأنا جالس لا يعلمون مكاني وتكون غاية أمتي أن أعلم ذلك وأستد به وإن كانوا لا يعلمون

وعلى هذا الذي ذكرناه الآن تعرض آراء الفلاسفة . فإذا سمعنا (كارليل) يقول : « إن الإنسان يعرف قيمة الخير والشر بمجرد الإطعام والشعور بدون حاجة إلى تمرين » . فذلك ظاهر في حال المرأة إذ تربي طفلها وفي حال الحكماء وعظماء الرجال . وما من رجل أو امرأة إلا وعنده أثر من هذه الغريزة قليلاً أو كثيراً فيقول في الجهلاء ويكثر في العلماء غالباً . فإذا رأينا (كارنزي) و(مل) و(بين) يقولون ذلك إنما يكون بالتجربة والتمرين فنقول : نعم إن معاشره الكرماء وقراءة تولى ربحهم وما أشبه ذلك وكذلك نتعود على الكرم . كل ذلك يزيد فيما اتصف به الإنسان بظفرته وهكذا بقية الأخلاق

وإذا قيل إن المتصد من الأخلاق هو سعادة الإنسان نفسه وهي الأثرة كما يقول (ماكس سترنودنشه) قلنا لا غرابة في ذلك ، وهذا حق لأن الطفل هذا شأنه ، ولكن المرأة تفدى طفلها بنفسها والحكيم والقائد كذلك . إذن هذان نظرا نظرا جزئياً كما تقول لأمثال (كارل نغت) القائل فيما تقدم : « إن الملح يفرز العقول كما تفرز الكبد الصفراء والكلى البول » . إنك صادق بحسب ما وصل إليه عقلك وعقلك لم يترق عما نلمسه الأيدي بحاسة اللمس ولو كنت مبصراً أوسميتها لعلمت ما علمنا . فأمثال (ماكس سترنودنشه) نظروا نظراً الصبي في أول حياته يرى أن الناس مسخرون له

له حق وليس عليه حق ، ومهما قال فالحسن الجليل

هذه هي أخلاق الإنسانية وآراؤها ذكرنا نموذجاً لتحليل قضاياها العلمية والعملية ورددنا كل رأى إلى مقره ، وآراء العلماء في هذه الأرض أكثرها راجعات لأحوال خاصة . أما النظر العام فهو الذي يكون على نسق ما بيننا « وما كل مصقول الحديد يماني »

وإذا قيل : « إن السابق لسلكنا في أعمالنا هو الخوف من التعبير والنم أوجبنا مدح الناس فذلك قص . وإذا كان الخوف من الله أو الرغبة في ثواب الآخرة فهو أكمل ولكنه ليس في المرتبة العليا . أما إذا كان العمل لأحد أمرين إما حب العمل نفسه مع النية من حيث أنه جميل ومحجوب ونافع كأولئك الذين يفتدون الوطن بأرواحهم ، فهؤلاء يجدون في هذا الأقدام سعادة ، فهنا اجتمعت سعادة الناس مع سعادة الإنسان نفسه . والمرأة التي تسهر ليلاً على ابنها ترى في ذلك أنها عملت واجباً أرضاهم ولا ترضى به بديلاً . وأما حب الله وطاعته بدون نظري ثواب أو خوف من عقاب . فهذا العامل هو الذي يكون كأنه في جنة عرضها السموات والأرض لأنه في كل حين يكون مستحضراً ذلك المقام الأقدس فرحاً به في غدوه ورواحه لا يبالي بالمستقبل بل يفرح بأنه قائم بواجب في حضرة ربه ويكون إذ ذاك كأنه بين يدي الله تعالى ويحدثه نفسه أن رب الدنيا هو نفسه رب الآخرة . ومثل هذه النفس تجل لها السعادة في الحياة الدنيا فتكون الأعمال مزوجة بالسعادة . وهذا الفرق موجود في الأرض الآن ولكنهم مجهولون ، يحسون أن الله ناظر إليهم ، وإذا رفقوا في العراء ظنوا أنه أغرى النجوم الثاقبات لتبصر الأرض فتذكرهم بجماله فيكونون حالاً في حضرة وان كانوا في أجسامهم الظلمانية . فالسالكون للخوف عبید مسخرون والسالكون للحب هم المقربون هذا تحقيق المقام . كل ذلك وهي صامتة لا تبدي حراً كما

فلهذا آمنت هذا المقال . قالت : لقد أجدت ووفيت المقام حقه على قدر ما يسهه ، وقد أذن الله بظهورها في هذا الزمان لأن الأمم منذ أكثر من عشرين قرناً لم تكن تستعد لها . أما الآن فإن الإنسانية أخذت تقرب والعقول أخذت تنقية . وأنت من المهديين لرقبها والمجدين لاسعادها . ثم قالت : استودعك الله .

ووضعت يدها على صدرى وقرأت كلمات فلم أحسن بشدة ألم لفراقها . ثم غادرت المسكن وأنا لا أزال في عالم
الخيال ، وهناك استيقظت فألفيتني في مكاني لم أبرحه ، وقضيت العجب مما رأيت ، وكتبته ليلة أول ديسمبر
سنة ١٩٣٠ م

وفي صباح يوم الاثنين أول ديسمبر حضر صاحبي الذي اعتاد أن يباحثني في هذا التفسير واطلع على ما
كتبته . فقال : حيا الله هذه الروح التي ساعدتك على إبراز هذه المعاني ، فلقد حوت كل ما يعوزنا من
الحكمة ، فهأى ذهجت آراء علماء اليونان وعلماء أوروبا وبها أدركنا ما وصل إليه فلاسفة العالم أجمع في
قوله تعالى - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - وبهذا فهمنا معنى ماورد : « أوتيت جوامع الكلم واختصر
لي الكلام اختصارا »

فإذا كانت هاتان كلمتان لم نفهمهما إلا بعد أن درسنا آراء أفلاطون مع سقراط ثم أرسطاطاليس ووجدنا
الآخر يعول على المادة في العلم والأخلاق ، ولكنني أسألك في معنى السعادة عند أرسطاطاليس . فلذا كان
هولم يسلم بنظرية العالم المجرّد وخالفه الاستاذ (كنت) الألماني بعض المخالفة إذ أثبت الثاني العقل المجرّد
ورتبته على أن قانون الأخلاق والسلوك يؤدي في نتيجته الى أن هناك عقلا مجردا لينال جزوه جزاء وفاقا ،
فهو يكتمني الأول في السعادة بمجرد عمل الواجب واللذة العقلية به . قلت . كلا . ان أرسطاطاليس يقول :
« إن السعادة يلحظ فيها جانب الأهل والأصحاب حتى جبال الانسان نفسه » . فالسعادة عنده رأسها سلامة
العقل ووفور الحكمة . ويداها ورجلاها الزوجة والولد والأصحاب والمال

وقد قررت ذلك الامام الغزالي رحمه الله تعالى في كتابه الاحياء وفصل السعادة الى ستة عشر نوعا وجعل
للعقل أربعة وللأصحاب والولد والأهل أربعة وللأمور الخارجة عن هذا كله أربعة كالتوفيق والتأييد وما
أشبه ذلك . ولاجرم أن ذلك يرجع الى رأى أرسطاطاليس . فقال : وماالرأى في هذا ؟ فقلت : إن الرأى عند
الفلاسفة قد قدمته وهو أن الفكرة العاتية الايثار وأن يجعل المرء نصب عينيه إسهاد المجموع . فلما هذه
الأقسام التي زادها هو على السعادة النفسية وتبعه الامام الغزالي فيها فهي صالحة للسعادة والشقاء . فالولد والمال
والأصحاب . كل هذه صالحات لخير الانسان وشره . وهي تعين على عمل البر كما تعين على عمل الشر . إذن
هذه آلات صالحات للسعادة فتزيدها وصالحة للشقاوة فتزيدها . وخبر من أفصح عن ذلك هو « نغز قابس »
الذي لخصناه في مواضع من هذا التفسير . وعلى ذلك لا تصلح هذه الخبرات الأرضية للفرح بها . وكيف يفرح
الانسان بها وهي معرضة لوزوال فيكون الحزن والحزن شرّ وهذا سرّ قوله تعالى - إن الله لا يحب الفرحين -
لأن الفرح يدل على قلة المعرفة بالحقائق . وهذا هو السبيل الذي انتقد بسببه بعض فلاسفة أوروبا الأخلاق
عند أرسطاطاليس ، فنجد أن (بارنلمي) الذي تقدم ذكره في صحيفة (٩٨) من المقدمة التي ذكرها في النسخة
الترجمة يقول : « انى أضع أخلاق أرسطو مع ما بها من عظم في مقام أنزل بكثير من أخلاق أفلاطون وسقراط .
وان (بروك) أقسى منافي حكمه إذ يرى أن أخلاق أرسطو إنما جرّه اليها مظهر معيات الملوك التي عاش فيها
وليس صالحا إلا الى تكوين بطانة تهمهم ثروتهم أكثر مما تهمهم سعادتهم ، أو أمراء كالاسكندر أشغف بالمجد
منهم بالفضيلة » اه

وأقول أنا : فما ذكره الامام الغزالي في الاحياء تابعا أرسطاطاليس قد لطفه هو في الاحياء كثيرا واضطر
لذلك فيه لأن فلسفة أرسطاطاليس هي الشائعة إذ ذاك . ثم ان أرسطو كما تقدم جعل العلم ليس راجعا إلا الى
المادة لاني المثل الأفلاطونية . وقد تقدم شرحه مرارا . وهذان سببان فيما تقدم من أن روفائيل المصور صورّه
في الفاتيكان مشيرا الى الأرض كما صور سقراط مشيرا الى السماء . إذن أرسطو كما أنزل العلم النظري الى عالم المادة
وجعله مرتبطا به هكذا جعل السعادة في الأخلاق لها ارتباط بالمادة

وأذكر كرك أبها الذكي بما كتبه في (سورة البقرة) عند قوله تعالى - وبشر الصابرين الذين إذا أصابهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون - الخ فهناك ترى ملخص (لفز قابس) اليوناني الذي عاش في زمن سقراط قبل أرسطاطاليس بزمن ، وكان ذلك في نحو القرن الخامس قبل الميلاد

ويقرب منه من حيث هذا المعنى كتاب « الكوخ الهندي » المؤلف في القرون الأخيرة بالفرنسية وقد نخصته سابقا في هذا التفسير . فقال : « أيّ الفريقين يؤيد القرآن ؟ فريق القائلين بأن السعادة مادية ، أم القائلون بأنها معنوية ؟ فقلت : الفريق الثاني . فقال ماديليك ؟ فقلت : - ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون - ، فقوله - ويؤثرون - الخ هو عين ما يقوله علماء الفرنجة فيما تقدم (التفضحية) . ومن هذا القبيل الجهاد في سبيل الله ومنه - إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم - الخ وكيف يكون المال والولد سعادة (كما يقوله أرسطاطاليس) في القرآن والله يقول - ولا تحببكم أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وزهق أنفسهم وهم كافرون - فإذا كان المال والولد عذابا كما في القرآن وفي صريح قول سقراط وقابس فكيف يكون سعادة ؟ فقال باللبس إن حكم القرآن وأسراره هي نفس آراء أعظم الفلاسفة . وهذا أود أن سمعت أن أسألك في معنى بقية الآية فإن ما تقدم كله في معنى - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - الخ لأن النظر في النظر العملية ترجع لقوله تعالى - قالوا ربنا الله - والنظريات الخلقية كقضية أرسطاطاليس وكنت وغيرها ترجع الي - ثم استقاموا - فما معنى قوله تعالى - تنزل عليهم الملائكة الأتخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون * نحن أوليؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهون أنفسكم ولكم فيها ما تنقصون زلا من غنور رحيم - قلت : هذا المعنى تقدم في أول هذه المقالات . ألتزم الي ما يقوله حكاه الأمام قبل الإسلام وبعده وقد نقلناه قريبا والمنقول عن علماء الصوفية بحر لاساحل له في مساعدة الله تعالى للصالحين والمسلمون قد برعوا في هذا والسبب في تلك المساعدة والمدد هؤلاء الصالحين انهم متى صلحت أعمالهم ، وانارت عقولهم ، وعرفوا أن نفوسهم متصلة بعوالم مجردة غير مادية صاروا أقرب اليها وأصبحت عند عقولهم قربة كقرب الملائكة من أجسامهم ، فهناك يحسون بالهام وبتحباب وبتشائر ، ولا يعرف هذا إلا هم ، أما غيرهم فانهم محرومون من ذلك ، فمثلهم كمثل أكثر النوع الانساني من حيث مشاهدة الجمال ، فالجمال حولهم ولكنهم لا يفحسون به لأنهم محجوبون عن جمال النجوم والشجر والأنهار والبحار والأزهار ، ذلك لأنهم من يوم أن أتوا الي الأرض لم يسمعوا عن سعادة إلا سعادة المال والسلطان ولم تفتح لهم أبواب سعادة الجمال ، فأغلب النوع الانساني محرومون من هذا الجمال والاحساس . مع انهم يرونه بعيونهم وهم محرومون منه . ولا يد أن المحسوسات بالحواس أقرب الي عقول الجمهور . فإذا كان الأقرب لعقولهم وهو الجمال لم يدركوه ولم يستعدوا به فكيف بما هو أبعد من حواسهم وان قرب من عقولهم وهو عالم الاطعام والبتشارة في عوالم عقلية متعلات بعقولهم وهذه العوالم صلة بينهم وبين ربهم . فهؤلاء هم المحجورون بسبب أن أبواب عقولهم أقفلت بينهم وبين الأرواح العلية . فإذا أحسوا بالهام أو رأوا رؤيا أو فرأوها صباحا مثل فلق الصبح ثم رأوا مثلها مرارا وتكرارا فانهم يقولون هذه مصادقات . وإذا أغمضوا في حال الضيق أو ألهموا أمرا ناعما فانهم كلما يكثر ترون له ويقولون هذه مصادقات وهم يجهلون انهم مغمورون في رحمة الله وهو قريب منهم وهذه علامات قرب به ولكن استعدادهم الناقص يحجبهم عن ربهم فلم تفتح لهم أبواب السماء . وهذا الباب يفتح للعامة بطريق الذكر والتقوى وللخاصة بذلك والتفكير والعلم

واعلم أن كثيرا من قراء هذا التفسير سيفتح لهم هذا الباب وهم المتوسطون في الفهم الذين لهم صلاح به يدركون البرهان الذي فتح الله به علينا فان أحدهم يجلس وقد أغمض عينيه وفكر فبى أن روجه ظهره

متصلة بعالم روحى تستمد منه . وهناك بحسب أحدهم بأنه فى عالم قدسى . وهؤلاء هم الفريق الذى ورد فيه الحديث «عبد الله ككأنك تراه الخ» فهذا باب من أبواب كأنك تراه . وهذه من أعظم درجات الناس فى الدنيا : فتح لآثرى الله بعين البصرة ولكن بهذا البرهان تراه بالبصيرة . وهناك درجة أقل من هذه وهى أن نعبد الله ونعلم أنه هو يرانا . وهذه درجة أقل من تلك لآثرى إذا كنت ألاحظ الله وجماله فى نفسى وفى كل ما هو حولى فان ذلك أشرف من أن أكون عبداً سوء فأعبده خوفاً من ناره أو طمعا فى جنته وتكون عبادتى مبنية على تلك الأسباب مرتقبا منه إزاحة ناره عني أو أن يدخلنى جنته . وغير من هذا أن أكون كأثرى أراه فى الحياة فإذا مات قاتى أراه بعد موتى ورؤيتى له فى الآخرة أجل من الجنة وهو المعبر عنه بقوله تعالى - ولدىنا مزيد - والمقول فيه - وجوه يومئذ ناظرة الى ربها ناظرة -

ولما وصلت الى هنا قمت وتوضأت وسجدت لله شكرا على نعمة العلم فى هذا المقام وصاحبى يشاهد ذلك فقال : لقد شرحت صدرى ، وصرت موقنا إيقانا تاما ، وأصبح المصور ميسورا ، والمجهول معلوما ، وعلمت أنا ما لم أكن ولا كثير من أمثالى نعلم وكان فضل الله علينا كثيرا . فقلت : الحمد لله رب العالمين

تذكرة

إنى غادرت القاهرة وتوجهت الى مزروعاتنا بالمج يوم الاثنين أول ديسمبر سنة ١٩٣٠ م وسرت على قدمى نحو أربع ساعات لجرم الرياضة ، وهناك خطرت لى هذه الحواطر فكتبتها يوم الثلاثاء ٢ منه وهى :

نواضر الجواهر ، لنفائس العرائس

فى خلاصة ما تقدم هنا من الحكمة العلمية والعملية

ذلك إنما مثل النفس الانسانية مع حواسها كمثل الشمس مع سياراتها ، فكما أن للشمس سيارات عليا كزحل والمشتري تدور حولها ، وسيارات سفلى كالزهرة وعطارد ، هكذا للنفس مدرجات عليا كالعقل والعين ومدرجات سفلى كاللس والدوق ، وباعتبار آخر ان المدرجات (ثلاثة أقسام) قسم أعلى كالعقل . وأوسط كالعين . وأدنى كبقية الحواس ، فباعتبار التقسيم الأول كان الفلاسفة على قسمين : قسم أقرب الى المادة وهم الملدبون ، وقسم هم أقرب الى العقل وهم الروحانيون ، وكل لم يقل إلا ما وصل اليه جده واجتهاده لأقل ولا أكثر ، فالمدابيون أشبه بالصم الصمى لم يعرفوا إلا ما نقلسه أيديهم ويشمونه وبذوقونه ، والآخرون لهم عيون ولهم عقول . والصورة التى رسمها روثه ثيل فى القانتيكان مظهر لذلك التقسيم . فأرسطو تقسم الأرضى وسقراط للقسم السهلوى . وباعتبار التقسيم الثانى يكون أفلاطون كالعقل والاساذ كنت كالبحر وأرسطو كالحواس المادية لعالم المادة . ذلك ان برهان الأول فى إثبات وجود الله وخلود الروح أرقى من برهان الثانى وبرهان الثانى لا يحتمل المصادمة لأنه علقه على قوانين الأخلاق وأن من الناس من لا يتناولون مكافآت فى الحياة فلا جرم تكون للناس حياة أخرى وإله يجزى بالعدل . وبرهان أفلاطون رجع الى الشمس وما خلقه الله بسببها وهدايتها للحيوان وأن ذلك يقاس عليه وجود الله ووجود عالم المثال

وهذا هو خلاصة عقول الناس منذ (٢٥) قرنا ، فأوظف أفلاطون مع سقراط ، وهذا هو برهانه الذى نبذه أرسطو وعقوله على المادة والصورة فى برهانه بخلافه تلاميذه ، فأخذت الإنسانية كلها تتخبط الى وقتنا هذا فكان الرواقية والأبيقورية قبل الميلاد ، فالرواقية وقعوها فى الحلول ، والأبيقورية قالوا بالذلة الرواقية بالفلسفة . وتعالى الرواقية فى القضاء وفى البحث عن كشف ما وراء الحس

فأما بعد الميلاد فقد نشأت الفرق الثلاث : الاسكندرية والأبينية والسورية . وأشهرهم أفلاطون وشيخته مدينة الاسكندرية وهؤلاء هم الأفلاطونية الطبيعية

ثم انتقلت الفلسفة الى الأمم الاسلامية والأمم الاوروبية ولم يظهر بعد الرواقيين في الأخلاق عند أوربا إلا الاستاذ (كنت)

هذه خلاصة الأمم تجلت وانحوت جلية ، وقد عرفت أهم آراء هذه الأمم كلها ، وعرفت براهينهم بغاية الجلاء والوضوح

أما تفسير الجواهر فقد أتى يرهانين (الأول) المدركات كلها مغموسة مغمورة ومتصلة بعوالم تناسبها ، وهذه العوالم تكون أعظم وألطف وأجمل وأوسع كلما كانت أرقى ، فإذا وصلنا من أدنى الحواس الى أعلاها وهي الخمس ووجدنا هذه القاعدة مطردة فمن الجهل ومن البله ومن الحق أن نحرم المدرك السادس وهو أعلاها بل سيدها من هذه المزية وأن يكون متصلا بعالم يشاكله ويكون أعظم وألطف وأجمل وأوسع من العالم المتصل بالمدرك الذي يليه مباشرة وهو العين . وهذا البرهان حديث النشأة لم يذكره أحد من هؤلاء الفلاسفة ، ولن يرد عليه أى اعتراض مما ورد على الاستاذ (كنت) ولا مما ورد على أفلاطون وسقراط ، واذن تستأنف الانسانية اليوم دورا جديدا في العلم والحكمة بعد هذا البرهان (البرهان الثانى) يسارى البرهان الأول في القوة ان لم يكن أقوى منه ، وذلك أن نقول ان الأرض محجرت عن إجماد حرارة بها تثير البخار من البصر وتثير الرياح فيكون مطر من السحاب المحمول بالرياح ، ومحجرت أيضا عن ضوء يساعد النبات على التغذية والحيوان على الاهتداء في فجاج الأرض ومسالكها والانتفاع بالحياة فيها ، ونجدها استعارت الحرارة واستعرت الضوء من الشمس ، فالتناجد الحيوان لا يرى غذاءه ولا يميز عدوه من حبيبه إلا بالضوء ، وزى المطر والرياح لا يكونان إلا بحرارة باعثة ، وزى أوراق النبات لا تحتذب غذاها من المواد الغذائية فى الهواء إلا بمساعدة ضوء الشمس لها (انظر ما تقدم فى سورة يس عند آية - سبحانه الذى خلق الأزواج كلها - الخ فهناك ترى الأوراق مرسومة مشروحة وتفهم ذلك هناك فهما تماما)

فإذا رأينا أرضنا محجرت عن إمداد أبنائها بالحرارة والضوء واحتاجت الى الشمس فى ذلك فهمى عن إمداد ما يكون عليها من حيوان بالادراك والفرأز والعواطف والعقول أولى ، ومن محجرت عما هو أسهل وهو المحسوس بحواسنا من الحرارة والضوء فهو عما فوق ذلك مما تدرك عقولنا أشد محجرا . فثبت بهذا البرهان أن المادة لا تقوى على إحداث نفس أو عقل أو فرزة أو شعور فى الحيوان لأننا وجدناها قد أظهرت محجرتها ولم تسفنا بما هو أسهل وأقل عنها

فهذان البرهانان اللذان وضحا تماما بهما طاحت تلك المذاهب البائدة وبهما تخرج هذه الانسانية من خطل الرأى والاعتزاز بالألقاب الفخمة العريضة الطويلة التى يفتخر بها الأحدث فى المدارس فيظنون يسهون بسبب سوء التقليد بلا عقل ولا هدى ولا كتاب منير

هذا هو نهاية الكلام على الحكمة العلمية . وما يلحق بهذا مسألة الحرية وهل نحن أسرارى أفعالنا وإذا لم نكن أسرارى العقاب وإذا كنا أسرارا فأين هى تلك الحرية ! أفلاطون أجمل فى هذا وآخرون استدلوها على وجودها بما اتفق عليه العقلاء من التمييز فى العقاب بين العاقل وغير العاقل وهكذا فدل ذلك على أن هناك حرية تتمتع بها ولا أطيل فى هذا الآن

الحكمة العملية

ملخص ما تقدم

(أولا) إن فى الانسان إلهاما يميزه بين الحسن والقبيح فى الأعمال كما يميز بين الجليل وغير الجليل فى الأجسام والتجربة تعين الانسان على ذلك

﴿ثانيا﴾ إن غاية سلوكنا إما أن يكون نفعنا الخاص بنا وهي الأثرة وأما أن يكون النفع العام
 ﴿ثالثا﴾ ما الذي يجبنا إلى تلك الأخلاق؟ أهو صوت باطنى فى نفوسنا أم هو أمر خارجى كالخوف من
 الله أو من الناس، أو حب الملح، أو حصول الثواب

هذه آراء الأمم، أما ما جاء فى تفسير الجواهر فهو أننا كما فعلنا فى القسم النظرى إذ عوّلنا على النظر فى
 المدركات الست للإنسان هكذا فعلنا فى القسم العملى الخلقى وقلنا لننظر الفرق بين طفل يستخدم جميع مواهبه
 فى الاستعانة بما حوله وبين حكيم وحب لوطنه وأم ترضع ولدها وأب ينفق عليه، فهؤلاء فى النروة العليا من
 العطف والاشفاق والرحمة والإيثار وذلك فى الترك الأسفل فى الحياة، وعلى ذلك يزول خلاف الفلاسفة إجمالا
 فمن قال لا أعمل إلا لنفسى قلنا له: هأنت ذا عرفت درجتك، فأنت إما طفل، وإما صبي، وإما مرهق،
 والناس درجات لا حصر لها كدرجات الإنسان فى حياته، فهذا المثال لا يذرمذبا إلا دخل فيه، فمن قال
 بالمداية الذاتية فهى مشاهدة، ومن قال بالتجربة فكذلك، ومن قال أخدم المجموع. فهلم هذه الأم مع
 ولدها وهكذا فالتكال واضح جلى. وقيمة الفلاسفة تختلف باختلاف معارفهم. وأذ كياه قرء هذا التفسير هم
 الذين يكونون شهداء على الناس. ذلك لأنهم يقرؤن علوم الأمم لكنهم هم الذين يحكمون على الفلاسفة
 بقولهم على منوال ما جاء هنا فى تفسير الجواهر. أما ترك هذه الانسانية تتخطى فى ديجور الظلام فهذا لا يجوز
 ولا يصح ونحن خلفاء الله فى أرضه

﴿ جمال العلم فى الحكمة العلمية والحكمة العملية ﴾

أقد ضربنا المثل بالإنسان فى الحكمة العلمية والحكمة العملية ورأينا أن قوته العقلية كما تتخذ الحواس
 الخمس آلات لها فى اكتساب المعارف الجزئية تستمد من العالم العقلى الكليات والكليات هى العلوم الحقيقية
 أما مدارك الحواس فهى قليلة جزئية ويعتريها الخطأ فان العين قد ترى الكبير صغيرا كالشمس. وترى الصغير
 كبيرا كالأصبع فى الماء. وكم للحواس من خضع ولا يصلح تلك إلا العقل السليم

إذن كل ما عندنا من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها مستمد من عالم عقلى وهو مستمد من المبدأ الأعلى
 الفياض القدسى كما تشرق الشمس بأنوارها على أرضنا وعلى السيارات الأخرى. فهكذا فى أخلاقنا وأعمالنا
 وشعورنا وعواطفنا نقول ما قلناه فى القسم النظرى: « إذا عجزت المادة عن أن تمد الأجسام بالحرارة
 والعيون بالضوء فما أشد عجزها وأضعف قوتها وما أوهى جبلتها فى إلهام الأم حب ولدها وإلهام الاستاذ حب
 ارتقاء تلميذه وشوق نفوس الحكماء إلى التأليف للأجيال المقبلة التى لم يروها ولن يروها، فمن أين أتت محبات
 الأقارب والأصدقاء والأزواج والنزيرة؟ بل من أين أتت هذه الشهوات الطالبات ملابس وأغذية وأزواجا
 ونزيرة ومساكن وملكا عظيما، ومن أين أتت هذه البواعث الشديدة فى نفوسنا من المحافظة على العرض
 والشرف والنجدة وحماية الثمار، فإذا قلنا إن ذلك من نفس المادة التى خلقت هى فيها، وأن تلك العواطف
 والحب والفرام والشوق كلها ناجيات من نفس الطبيعة يكذب أن هذه الطبيعة الميتة عجزت عن إحداث الحرارة
 اللازمة لها وعن إحداث الضوء وبالأولى عجزت عن إحداث عقل وإدراك، فهكذا هى أشد عجزا عن إثارة
 الحب والفرام والعواطف والشهوات

فثبت إذن أنه كما إن الحرارة تثير البخار من البحار وتثير الرياح ويحمل الأخير الأول فيكون مطر
 ويحدث نبات وحيوان هكذا هناك فينا شهوة فى مقابلة الماء وغضب فى مقابلة الرياح، وهناك باعث من أعلى
 لا من الطبيعة يثير أنواع الشهوات لتتغذى وتلد وتلبس وتسكن، ويشير الحية فتعافظ على الشرف والمال
 والعرض، وهذا الباعث للسلط على نفوسنا أت من العالم الأعلى كما إن الإدراك فى القسم النظرى صدر منه،
 ضهور هذا الباعث هت من العالم الأعلى القدسى فى مقابلة صدور الحرارة من الشمس فى العالم الحسى والضوء

واترة السحاب والرياح ثم هداية الحيوان على الأرض ، ونتيجة ذلك كله البهجة والجمال والحسن والكمال
 فإذا جلست أيها الدكي في خلوتك وفكرت في نفسك وأيقنت أن عقلك وجميع علومك لها اتصال بعالم
 عقلي أنت فرع منه وهذا العالم العقلي أوسع من عالم النور وهو مستمد من الله ، فهناك تحس بأنك في عالم
 جميل بهيج ، وإذا لم تبتهج بذلك ففكر حالا في جمال النجوم ليلا والشجر والزهر والأنهار نهارا وهكذا ترجع
 الى ما ألهت من عواطف ، وما منعت من شرف وحجاسة وعفة وكمال وحب عالم لرقى نوح الانسان ورقى
 أهلك وعشيرتك . وقد علمت أن هذه إن هي إلا قبس من ذلك الفضل العميم والحب الأعلى والاحسان
 الكامل وأن إحسانك وحبك وعطفك كل ذلك مقتبس من العالم القدسي وأن العوالم التي يستمد منها عقلك
 هي نفسها التي تستمد منها عواطفك الحب والاحسان والرفق والغرام بالنفع العام . فترى نفسك إذن كأنك
 عالم صغير وتفرح بلأن لك صلة بجمال لاحد له وكمال لانهاية له فترقب الموت ارتقاب الفرح بالكمال المقبل على
 سعادة لانهاية لها . ولن يتم لك ذلك الحب والغرام إلا باطالة التفكير والبحث وصفية النفس وكثرة الصيام
 والقيام . هذا هو سر هذا الانسان . وهذه هي سعادته . وهذه هي النفس المطمئنة التي نوديت فقيل لها
 - يا أيها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي -

خطاب الله عز وجل شكراله

لك الحمد اللهم على الاطعام والالهام والحكمة والجمال ونعمة العلم والنور . علمتنا وأزرت بصائرنا فنحن
 نعلن شكرنا ونثني عليك الشناء كله . أرىنا آياتك في الآفاق وفي أنفسنا . نظرنا في نفوسنا وفي الآفاق فأفينا :

(١) أولا صورا جميلة في السواكب وفي الزروع والشجر والنهر والقمر وفي المعادن والحيوان وفي الانسان
 وجمال وجهه في محاسن الخدين والعينين والأف والشم

(٢) ثانيا أثرت في أنفسنا شهوات لا قوام لحياتنا إلا بها . وهمل نعيش إلا بالطعام والشراب واللباس

والمسكن . وهمل نحافظ على هذه الهياكل الجسمية إلا بحفاظ يحفظها وهي القوة الضمنية التي بها
 ندافع الأعداء من الخارج ونهذب أنفسنا من الداخل ولا نفرط في حقوق الجسم والحفاظ على

بثارة الحياة لأجل حب البقاء

(٣) ثالثا جعلت لنا عقلا ينظم القوتين السابقتين فهو يبراهما ومعلمهما ومهندسهما ومنظفهما

ولما عز علينا فهم تلك الدقائق ومعرفة تلك القوى العاملة فينا أرىنا ما في الآفاق نعرفنا الحقائق . أرىنا

الماء وأرىنا الهواء ومنهما تثير الحرارة البخار وتزجي الرياح ويحمل الريح الماء على مته ويسوقه الى الأرض

البعيدة مرغما لسقي الأرض فيكون النبات والحيوان ، فيكون الضوء مساعدا على تغذية النبات أولا وعلى

هداية الحيوان ثانيا

فهما عالمان : عالم حامل ، وعالم محمول أثارتهما الحرارة وجاء دور الضوء فكان الغذاء لتقام الاشكال

وللهداية للسبل

فلما نظرنا في هذه الحرارة وفي هذا الضوء وجدناهما جاءا من عالم الأثير بسبب الشمس وعالم الأثير وسط

بين عالم المادة وعالم الأرواح . والضوء في هذا العالم الوسط يجرى بسرعة هائلة بحيث يدور حول الأرض نحو ٧

مرات في ثانية واحدة . هذا هو العالم الوسط بين المادة وبين الروح الذي أثار الماء وأثار الهواء ونظم الظلمة

والهداية في فجاج الأرض . والأرض لا قبل لها بالحرارة ولا قبل لها بالضوء

فلتنظر فيما هو أبعد مدى من ذلك فإنا نجد أمرا عجبا . نجد أولا قوى تبث على الغذاء . وأخرى تحافظ

على هذه الهياكل داخلا وخارجا وهي الضمنية وأخرى هادية مرشدة . وهذه تقابل الحرارة والضوء في عالم المادة

فن أين أنت هذه القوى الثلاث؟ أمن المادة أنت؟ كلا . لأنها مجزئت عن أحداث الحرارة والضوء وهما وسط بين الحسى والعقل ، أجهت من عالم النور الآتي من الكواكب وهو العالم المتوسط بين العالمين . كلا . فأين النور وأين العقل مثلا الذي هو ألقف منه . إذن هذه القوى بريئة من المادة وهكذا القوى المنظمة للعوالم الكوكبية والنباتية والحيوانية اللاتي تحدث التزويق والجمال

فهذه كلها لن تكون إلا من عالم فوق عالم النور وهو عالم الأرواح ، وهذا العالم قاض من الفئات القدسية كما قاض النور من جرم الشمس . إذن كل جمال في الانسان والعوالم حوله ، وكل قوة فيه علت أو سفلت قائم من عالم روى متصل بالقدس الأعلى

وبهذا فهم قوله تعالى - الله نور السموات والأرض - ، فكل جمال في شجر أو زهر أو كوكب روى فهو قيس من العالم القدسي وهكذا قوانا الباطنية من عقلية وغذائية والقوى المحافظة على ذلك فكلها نور ومعنى وزع على منافنا من ذلك الجمال الأقدس

وهذه الأنوار الداخلة في أجسامنا ، الظاهرة في جمال ماحولنا ، وفي وجوهنا يشملها قوله تعالى - مثل نوره كشكاة فيها مصباح - . إذن يارب أنت في علمك القديم علمت مجزنا عن أن ننظر أنوارك فلات أرضنا بأنوار جعلتها في مقابلة نورك ، وكل نور منها مشكاة ، فمواطننا وعلومتنا وجمالنا والقوى الداخلة فينا وبهجة القمر والنجوم والأزهار كل واحدة منها كأنها مشكاة من نورك ، ولكن لم نبح لنا أن ننظر نورك فله لأننا لا تقدر عليه غاية الأمر أننا تفكر أو ننظر جمال الشجر أو الزهر أو الوجوه الجميلة ، أما وجهك فلا . أنت يارب بالنسبة لعقولنا كالشمس بالنسبة لأبصارنا ، مجزرت أبصارنا عن أن ننظر إليها فهكذا مجزرت عقولنا عن أن تراك ففرحنا بالمشكاة إذ لا تطيق أكثر منها ، المشكاة في أرضنا مستمدة من الشمس وعقولنا ونجيب الجمال الداخلة والخارج عندنا مستمدة من أنوارك الجميلة

إن نبينا ﷺ رأى وهو في حال الاحتضار ذلك الجمال والكمال والحكم والحب العام والرحمة ، وغاية الجمال الذي كل جمال في الأرض ماهو إلا مشكاة ، فإذا قال ؟ « قال اللهم الرفيق الأعلى » رآك بعين بسيرته ولكننا الآن عرفنا ذلك بمجرد الفكر ، نحن الآن نطبق الفكر في هذا ولكننا لا نطبق جمال « الرفيق الأعلى » ولا أنواره إلا اذا كملت نفوسنا ، إن جمال عقولنا وكمال نفوسنا أشبه بنا فنحن نطبقه ، ورسولك لما رآك وقدر أن يراك غفاطك قائلا « اللهم الرفيق الأعلى » لأنه رأى جمالا نسبته إلى جمالنا كنسبة نور الشمس إلى نور السراج فوصفك بالأعلى يعني ونحن رفقاء ولكننا أدنى ، وإنما كنا أدنى لأن علمنا وجمالنا وحلمنا وجمال صنع صناعتنا ورحمتنا لعبادك ضئيلة جدا ، فيرحم أحدنا طفلا ولد له ومرضا أشرف على الهلاك . ولكن لضيق الرحمة مندنا وضيق الحب لم نبذلها إلا لعدد محصور لأن رحمتنا محصورة وحبنا محصور على مقدار ضعف نفوسنا لأن: كلا منا مشكاة . فإذن كل منا رفيق أدنى . ولما رآك ﷺ واطلع على رحمتك وجمالك وحبك لكل مخلوق وأنت منعم على الكل ترك هؤلاء الرفقاء الضعاف واشتاق إلى الرفيق الأعلى . انتهى والحمد لله رب العالمين . كتب ليلة الخميس (٤) ديسمبر سنة ١٩٣٠ م

وقبل الفراغ من هذا المقام يحسن بنا أن نختمه بما يناسب الآية التي نحن بصدد الكلام عليها وذلك ﴿ بزهرتان : الأولى ﴾ في قوله تعالى - إن الذين قالوا ربنا الله - وهي الحكمة العملية ﴿ الثانية ﴾ في قوله تعالى - ثم استقاموا تنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون * نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم - وهي الحكمة العملية - فلا شرع في ذكرهما فأقول مستعينا بالله

زهرة في بستان الحكمة العلمية والعملية

الزهرة الأولى في قوله تعالى - إن الذين قالوا ربنا الله - وهي الحكمة العلمية

جاء في جريدة الضياء بتاريخ يوم الأحد أول شعبان سنة ١٣٤٩ هجرية الموافق ٢١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ م تحت العنوان التالي مانصه :

التوفيق بين العلم والدين

رأى العلامة سرجيمس جينس

إن عقولنا تتحيز للتفسير الآلي ، ويرجع بعض السبب في ذلك الى طريقة نشأتنا العلمية الأولى كما يرجع السبب فيه أيضا الى أننا ننظر كل يوم الامور تفسير آليا ميكانيكيا . لذا كان التفسير الميكانيكي هو التفسير الأسهل الذي لا يحتاج الى كثير عناء أو الى مجهود فكري عنيف ، وهو علاوة على ذلك تفسير طبيعي ، ولكن اذا نظرنا الى الحالة العامة نظرة دقيقة وثاقمة غير متأثرين بنوع تربيته العلمية والى شعورنا الشخصي برى أن المادة قد فشلت فشلا مروعا سواء أكان ذلك في العلم أم في الفلسفة ، ويوجد الآن شبه اجماع بين العلماء أن العلم يتطلب نحو الحقائق غير الآلية وصار ينظر الى العالم كأنه يمثل فكرة عظيمة بعد أن كان يعتبره آلة ضخمة وابتدأ العلماء يشعرون بأن المادة ليست غريبة عن العقل ، ثم أخذوا يرحبون بالعقل ويعتبرونه منظما للادة لا يقصد بذلك عقل الانسان ولكن يقصد العقل الذي منه تمت عقول الناس

إن العلم الحديث يلزمنا أن نغير موقفنا الذي اتخذناه بدون طوليل بحث أو رؤية ، ذلك الموقف الذي كنا نجاه فيه أن العالم مادي لا أثر للحياة فيه ولا علاقة له بالعقل ، ذلك الموقف الذي كنا فيه نعتقد أن بين المادة والعقل علاقة قائمة ، يجب أن نغير ذلك الموقف لأنه لا عداوة أو اخلافا بين المادة والعقل بل هما يتفقان وذلك لأن المادة وليدة العقل وهو سببها

ومن هذا يتبين أن التفسير المادي للكون قد صار قد بما وأن العلم قد ارتقى فترك هذا التفسير أثرا بعد عين ، ويشعر علماء النفس الآن أن في العالم حقائق روحية ونفسية لا يمكن ادراكها إلا اذا اعتقدوا بصحة الدين وضرورته . انتهى ما أردته من الخبريدة المذكورة . تمت الزهرة الأولى

الزهرة الثانية

جاء في كتاب اخوان الصفاء ما يأتي :

ذكر أن رجلا من المترفين وأرباب النعم ممن قد بسط له دنياه ومكن فيها جعل أكثر جهده وكده طول عمره ليلا ونهارا في تنم بدنه ورعاية جسمه ولذة عيشه واصلاح شهواته حتى لم يكن له في طول نهاره شغل إلا دخول الحمام وخلق رأسه وتمرح بدنه أو تغيير لباسه أو تبخير ثيابه وبدنه واستنشاق طيبه أو تنزهه من مجلس الى مجلس في تجديد لذاته واصلاح شهواته حتى لم يكن يأكل ولا يشرب إلا أطيب الطعام وألذ الشراب ، ولا يلبس إلا أنعم اللباس ، ولا يقعد إلا على أوطأ المراكب وألين الفرش ، وكان لا ينالم إلا على سرير معلق في الهواء في وسط قبة له مخافة ديب يعرضه أو غبار يصيبه ، فعاش على هذه الحال زمنا طويلا حتى شعر في الناس بطيب عيشه ولذته شهواته ، وجعل الراغبون في شهوات الدنيا يتمنون حاله ويغبطونه فيما فيه ، ويتشبه به المترفون من أهل زمانه وأرباب النعم كل واحد بحسب امكانه واتساع حاله حتى صار قدوة لطالبي اللذات في اتباع الشهوات ، وكان مع هذه الحال كلها لم يكن يعرف شيئا من اصلاح نفسه ولا تحسين أخلاقه ، ولا تقوى في الدين ، ولا نزودا لآخرته ، ولا تفكرا في أمر معاده ، ولا رغبة في علم ، ولا طلبا لأدب

ولافكرة في زوال الدنيا ولاذكرا الموت بل كان مقبلا على طلب شهواته محتقرا لأمور الناس مزديا على من
دونه معرضا عن الفقراء مهاجرا لأهل العلم متهاونا بأمر الدين ثم أراد الله تعالى أن يفنجه من نوم غفلته ورقدة
جهالته ويرى للعباد قدرته ويجعله عبرة لغيره وعظة لمن سواه فبينما هو ليلته نائم على فراشه فوق سريره معانقا
لحيبته وأبواب داره مغلقة وستوره مسبلة وحول سريره شموع تزهو وعلى أبواب داره خدمه وغللمانه مستيقظين
إذ رأى فيما يرى النائم كأنه في بركة قفرة وحده وهو عربان جائع عطشان وبدنه مسود وشعره طويل وجسده
ملوث برجيع مائي جوفه وعلى ظهره ثقل ثقيل وإذا هو بأسودين منكر خلقتهما طويل قامتهما وعيونهما
تبرق ومن مناخرهما يخرج الدخان ومن شديهما تلتبب النيران وبأيديهما حواب حداد وهما بقر بان نحوه
ليأخذاه فلما رآهما ولي هاربا من بين أيديهما وهما يتبعانه حتى إذا أمكن في هر به إذا هو بجبل شاهق فيه
طريق ضيق وعمر مسلكه سلكه بمشقة شديدة وعناء طويل حتى إذا انتهى إلى قلة هوى من الجانب الآخر
في واد منكسا على رأسه حتى وقع في بئر يخرج منها دخان معسكر يأخذ بالأنفاس ولهب يشوي الوجوه
والاسودان في أثره لا يفارقانه . فمن هول ما رأى وعظم ما عاين وشدة ما لقي صرخ في منامه صرخة واضطرب اضطرابا
شديدا ووقع من سريره إلى الأرض وانقبه كل من كان في داره ومن حوله من جيرانه من شدته زعقته وطاش
عقله وشخصت عيناه وارتعدت مفاصله وانفلق لسانه واجتمع حوله كل من كان في داره من خدمه وغللمانه
وأقربائه يسألون ما الذي أصابه فلم يطق جوابا بقية ليلته حتى أصبحوا وجعت له المعزومون والرافون وظنوا أنه
أصابه لم من الجن أو سحر من الأعداء ووسواس من الشيطان . فقال لهم ليس في ما نظنون ولكن رأيت رؤيا
هالتي وأفزعني وأدهشتني فجمعت له المعبرون وقصت عليهم رؤياه (فقال) بعضهم أضغاث أحلام وقال بعضهم
هذا من خلط سوداوي ومزاج غليظ . وقال آخر لابل فكر ردي وتخيل فاسد . وقال آخر لابل هو من الجن
وجعلوا يرجون الظنون حتى جنهم الليل فجمع خدمه وغللمانه وأقربائه في مجلس واحد حول سريره ونام هو
بينهم فوق فراشه وجعلوا يقرؤن الرقي والعزائم والعموذ ويبخرون الدخان حتى كان من ذلك الوقت من الليل
فاذا هو برؤياه ذلك بعينه بل هو أعظم وأهول وأصرخ ففر من فراشه وأفرغ كل من كان حوله . ثم أدر كوه
وجعلوا يسألون عنه وهو صرير مرعوب لا ينام ولا ينامون ترجعا له إلى الصباح وتسامع الناس بخبره وجمعت له
الأطباء فوصفت له الحمية والاستفراغ والشربة وظنوا أنه نافع من هذا العارض فضل وما نفع شيء . فلما كان
من الأسبوع الماخول في مثل ذلك الوقت من الليل فاذا هو برؤياه بعينه بل هو أعظم وأهول فأنبه مرهوا بامر قهدا
إلى الصباح مانام . فلما كان من الغد جمعت له المنجمون والمعزومون والرافون وسئلوا عن موجبات أحكام
النجوم فدكروا أن مثل هذا العرض إنما يعرض للإنسان من أجل أنه يكون في أصل مولده من استيلاء
النحوس على درجة طالع أو واحد الأوتاد في نحو بل السنين والشهور . فتيل لهم في الدواء النافع فيه والمنجي
له فقالوا يختار له يوما يكون القمر متصلا بالسعود وطلعا جيدا يكون السعود في الأوتاد والنحوس سواقط عنها
ويتحول من ذلك الوقت من بلد إلى بلد أو من محلة إلى محلة أو من دار إلى دار ففعل ذلك وما نفع الدواء له
وشاع حديثه في الناس وتسامعت به الأخبار في البلاد وصار في موضع رحمة بعد أن كان بحال غبطة وأصبح الذين
تمنوا مكانه بالأمن خائفين أن يصيبهم مثل ما أصابه من البلوى والمحن وجعل أهل المدينة ليس لهم حديث في
مجالسهم ومحافلهم الأحديث ولاهظة إلا ما أصابه فينبأ يوما جماعة من جيرانه قعود على الطريق في حديثه إذ مر
بهم رجل يعرف بالناسك وكان من أهل العلم والدين والسر قد رزق العلم والإيمان . فتيل له كيف غمك على
فلان جارك قال كتم أب مشفق طيب على ولد عليل فقيل له وكيف ذلك قال لأن عندى تأويل رؤياه ودواء
دائه . فتيل له لم لا تصدده وتعرفه ما عندك قال لانه لا يسمع قولي ولا يقبل نصيحتي فقال ولم ذلك قال لأن أزهده
الناس في علم الرجل جيرانه ولكن أخبركم انا وعرفوه أتم ولانذ كروني عنده فاني خائف ألا يقبل استيفارا

لما أقول أو يفعل من غير يقين فلا ينفعه قالوا له عرفنا نسمع ما تقول ، فقال أما رؤيته البرية القفرة فهو برأته
من الدنيا وبرأتها منه يوم يموت وأما فقره فهو فقره بعد الموت وشدة الحاجة في الآخرة إلى الزاد ، وأما هربه
فهو هربى من الأعمال الصالحة التي لها ثواب الآخرة ، وأما جوعه وعطشه فهو رغبته وحوصه في طلب شهوات
الدنيا وأما سواد بدنه فهو سواد وجهه عند الله لسوء أعماله وأما طول شعره فهو شعور حزن طويل في الآخرة
وأما تلوث بدنه برجيع ماني جوفه فهو خوف واكتئاب يناله في الآخرة بمعنى الرجعة إلى الدنيا ولا سبيل له إلى
ذلك . وأما الثقل الذي رأى على ظهره فهو ثقل أوزاره وسوء أعماله ، وأما الشخصان للسكران فهو منكر
أفعاله ونكير أخلاقه وسوء عادته لا يظارقان نفسه حيث مازهبت يقبعاها . وأما الجبل الشاهق فهو جبلته وعادته
التي هو عليها مشقة والشاهق شقاء يناله بعد الموت إلا أن يتوب ويرجع إلى الله عن أئمه . وأما الملك الوعر
فهو طريق الآخرة التي لا بد له من سلوكها بنصب وعناء ، وأما الوادي فهو وادي جهنم والبر المهورى هي
الطارية التي إليها تصير نفوس الأشرار وأرواح القهقار فقولوا ان هو بادر وتدارك وتلافى قبل الموت فيكون
مصيرته إلى هناك بعد الموت فان الله تعالى أراد بهذه الرؤيا أن يعظه ويذكره ليتوب ويرجع عما هو فيه
من الغفلة في أمر الآخرة والحرص على الدنيا ، فقالوا له فنادواؤه ، قال ينوي نية صادقة ويعزم عزيمة صحيحة
ويرجع إلى الله ويتوب مما قد سلف ويتصدق بشطر من فضول ماله على الفقراء والمساكين ولبس الخشن من
التياب ما يورى العورة ويصوم في كل أسبوع يومين ويمشي إلى المساجد خاضعا وينفقه في الدين ويستعمل
القرابين ويصلي في ظلمة الليل ويستغفر في الأسحار ويسأل الله تعالى أن يكشف ما به وانه تعالى يفعل ذلك إن شاء
فقام القوم من ساعتهم ودخلوا عليه وعرفوه بما أصابه وبما هو خائف متروك له ثم أخبروه بما قال لهم الناسك فقال
لهم من أين لكم هذا التأويل ومن وصف لكم هذه الرؤيا فقالوا أخبرنا العالم في الدين الناصح الذي لا نشك فيما
قاله فقبل قولهم وجع جماعة من العلماء والفقهاء وأهل الدين فأخبرهم بما قيل له ، فقالوا حقا ما قبل وصوابا
ما وصف فسألهم عند ذلك عن التوبة النصوح كيف تكون وعن فقه الدين وطريق الآخرة وأمر المعاد وصفة
الجنان وثواب الأخيار وأين يكون منقلب الأشرار فوصفوا له ما هو مذكور في كتب الأنبياء عليهم السلام
فقبل ما قالوه وفعل ما أمره بين شك ويقين وخوف ورجاء ، فلما كان في الأسبوع الآخر مثل ذلك اليوم صام
نهاره وصدق عند افطاره وأكل يسيرا من الطعام وقام يصلي ليلته ، فلما كان من ذلك الوقت وهو ساجد
إذ غلبه النوم فرأى في منامه كأنه في تلك البرية بعينها وقد اخضرت من العشب والكلأ وقد فتحت زهر
الرياحين وراح نسيمها فاذا هو على رأس قفة عليها عين من الماء الزلال وكأنه قد اغتسل من مائها فتأثر عن
بدنه ذلك الشعر والدرن وقد ألبس ثيابا جديدة تقوح منها رائحة الطيب واذا هو بشخصين قائمين أمامه كأنهما
صورتان من النور تشف أبدانهما عليهما زي الجمال ومحاسن الكمال وروني الشباب وهيبة الوقار وهما يتسلمان
في وجهه كالمتبشرين له يشيران إليه بالنظر إلى قدم فتأمل اذا هو بفضاء فيسبح يقصر دونه الطرف
وبأوتار قدملات الآفاق من الضياء واذا في ذلك الفضاء رياض خضر كان بينها نسج الذهب من الزهر والنور
والزعفران واذا في وسطها أنهار تجري على أرض بيضاء كأن حصابها المر والياقوت والمرجان ، وعلى حافت
تلك الأنهار أشجار كأن أوراقها الحرير والسندس والأرجوان واذا هب نسيم تخشعشت أوراقها كأنها أصوات
نغمات أوتار العيوان وبين تلك الأوراق ألوان الثمار متنفة الأشكال والطعوم والألوان واذا بين ذلك قصور
شاهقة كأنها جبال من رخام أبوابها مفتحة وصحون واسعة وإبروانات متقابلة فيها سرر موضوعة عليها فرش
مرفوعة وغارق مصفوفة وبينها سادة كرام متكئين متقابلين عليهم زين الجمال ومحاسن الكمال وهيبة الوقار
بأيديهم التحف يسمي بينهم ولذان وغلمان وجوار حسان أتراب مبرقات بالبحاسن والجمال ، فلما رأى تلك
المحاسن قال لصاحبيه ما هذه قالوا هي الجنة دار السلام ومعدن الأرواح ومسكن نفوس الأخيار ومستقر الأبرار

فإن أنت دمت على ما أنت عليه إلى الموت فيكون مصيرك إلى هناك بعد مفارقتك جسديك فتجد لذة العيش
وسرور النعيم صافيا بلا تنقص ما بقي الدهر فمن فرح ماسم وسرور مباشر استنزاه ذلك فانتبه دهشا متفكرا
يتمنى عسى أن ينام فيرى تلك الرؤيا ثانيا بعد أن كان كارها للنوم مخافة أن يرى رؤياه الأولى ، فلما أصبح
تصدق بجميع ماله وأعتق كل عبده ولبس المسوح وكان طول نهاره صائما وسهر ليله قائما محاببا للناس لا يكلم
أحدًا بل يصلي نهاره با كيا حزينا زاهدا في الدنيا راغبا في الآخرة حتى فشاخه في الناس وتسامت به في المدينة
والبلاد فتصده الناس من الآفاق يسألونه رؤياه ويسمعون تأويله ويتعظون به ، ثم صار بعد ذلك يتكلم على
الناس في المجالس بالحكمة والموعظة ويضرب لهم الأمثال ، ويدلهم على طريق الآخرة ويرغبهم في ثواب الجنة
ويزهدهم غرورها وأمانها ويحذرهم الاغترار بها . فقيل له من أين لك هذه الحكمة والموعظة وأنت لم تكتب
الحديث ولم تسمع الأخبار ولم تقرأ الكتب ، قال أجد قلبي كالمرآة يتراءى فيه حقائق الأشياء وأجد لساني يجري
على الصواب من غير تكلف مني وأجد نفسي كالترجان تسمع من وراء الحجاب وتعب وتؤدي إلى أبناء جنسي
عما تسمع بلا تصنع مني . فعلم عند ذلك أنه مؤيد بملك من الملائكة يلهمه ما يذن الله جل ثناؤه ، ثم صار ذلك الرجل
قدوة في الدين لأهل زمانه فبينما هو يوما في محفل والناس حوله يسألونه عن أمر الدين وهو يفهمهم والناس ما بين
مستمع مصدق وشاك ومتعجب منه كيف كان بالأمر أرغب الناس في الدنيا وقدوة لطالبي الشهوات وكيف هو
اليوم في أمر الدين امام لطالبي الآخرة إذ وقف في المجلس رجل من أولئك الذين دخلوا عليه يمدونه
فراى ذلك الناسك في مجلسه يسأله عن مسائل من أمر الدين ويستوصف منه طريق الآخرة فدنا منه وقال له
شبه للمتعب هذا صاحبك الذي فسرت منامه ووصفت دواؤه وأنت اليوم تسأله عن أمر الدين وطريق الآخرة
قال نعم ولكن قد جاءه من العلم ما لم يأتي وقد قبل نصيحتي أمس فنفتحه اليوم وأنا أقبل منه اليوم ما عسى
أن ينفعني غدا وكانت صفته له أمس تعلينا بشريا وصفته اليوم تعليل ملكي ، ثم ان ذلك الرجل التائب بقى مدة
من الزمان مجتهدا في عبادة الله على عادته حتى قرب أجله ووقت مفارقتة فراى في منامه كأن روحه قد خرجت
من جسده وإذا هي على صورة مثل شكل الجسد وهيئة سواء غير أن هذا الشكل جسماني وتلك صورة
روحية شافية لا ينالها لمس ولا حس وإذا هي قد ثبتت في الهواء حيث شامت وكيف شامت بلا كلفة ولا عناء
وهي تجرد ذاتها خفة وراحة وسرور وروحا وذة وفرحا لا يوصف بمثلها حال الأجسام ونظرت إلى جسدها إذا
هو مطروح لا حراك به فخذت إليه لطول الصحبة وإلف العادة . فلما دنت منه وتأملته فاذا هو كأنه قد أتى عليه ثلاثة
أيام بعد الموت وهو منتفخ منتن الرائحة يسيل منه الدم والقيح والصديد ويجرى بين لحمه ودمه الديدان ويخرج
من فيه ومنخر به وأذنيه الديدان والقمل . فلما رأته ذلك الهائل اشمازت منه وتأخرت عنه وأنت من الدنو
إليه وجعلت تقبض حالها حين فارقتة وخرجت منه ونجت من وسخه ودرنه ووحشته وعاره ووباله ثم التفت فاذا
هي أبواب السماء قد فتحت والمراج قد امتد من السماء إلى الأرض والملائكة نزلت وامتلات الآفاق من
النور والضياء وسمعت مناديا ينادى - يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي
وادخلي جنتي - فانتبه من نومه ذلك ، ثم أخبر بما رأى وأوصى وصيته وما مكث إلا أياما حتى توفي ومضى
لسيله : انتهى ما أردته من اخوان الصفا والحمد لله رب العالمين

ويقع هذا (حكمتان : الأولى) بعنوان (حكم عامة) في موازنة عطف الأم على ولدها بنفع
الحكيم لأمته (الثانية) في السعادة المزيفة وهناك نصهما في الصحيفة التالية

حكم عامة

الحكيم	الأم
الحكيم يغذى الأمة والأم يعلمه مع شفقة ومحبة	الأم تغذي ولدها مع شفقة ومحبة بلبنها
.....
الحكيم يسهر على الأمة والأم ويكلؤها بعطفه	الأم تسهر على ولدها وتكلؤه
.....
الحكيم لا يبالي بالمشاق في سبيل إسعاد أمته	الأم لا تبالي بالمشاق في سبيل تربية ولدها
.....
الحكيم يبذل ماله وما يقدر عليه من عمل ووقت في إسعاد أمته	الأم تبذل مالها وكل ما تقدر عليه وتصرف وقتها في إسعاد ابنها
.....
الحكيم يستلذ النصب والتعب في إسعاد أمته	الأم تستلذ النصب والتعب في تربية ابنها
.....
الحكيم يحسن بلذة رقى الأم يعلمه أعظم من لذة الأم ، نسبتها إلى لذتها بولدها كنسبة الجوع الكثيرة التي هداها إلى الولد الواحد الذي ربه الأم	الأم تحسن بلذة تضاهي ما تراه من رقى ولدها

السعادة المزيفة

- (١) القائمون بأمر الأم أغلبهم ذوو سعادات لفظية
 - (٢) الملوكة منهم والأمراء اكتفوا بالنساء وكثرة المال والحصول على الشهوات
 - (٣) هؤلاء الحكام يتقنون بمناظرة سعادة ، مع ان القوى الجسمية كلما ازدادت تعاطيا للشهوات ضعفت وقلت لذاتها ثم فقدتها
 - (٤) فإذا ضعفت شهواتهم أخفوا يستعوضون عنها بالترب والنياشين من الملوكة ، وما كان لرتبة ولا نيشان ولا ألقاب تعظيم أن تنيل القلب سعادة ، أو تصرف العلم عن الفؤاد
 - (٥) وإذا ملئت خزائنها بالمال وقد ولي العمر وحالت الحال رجعوا إلى أنفسهم فوجدوها خاوية على عروشها فازدادوا انقباضا وبس المسير
 - (٦) إذن مكافأة الجهلاء من نوع الانسان أشبه بمكافأة الأطفال بالدسم واللعب والأثواب المزركية ، والولدان يعلمان أن ذلك وقتي قليل القيمة . هكذا العناية الإلهية كافأت أطفال الرجال بما يشبه مكافأة الأطفال استصغار العقولم ورجحة بأهمهم ، فهم أشبه بفناء لأهمهم يسهرون على راحة المجموع ويكافئون بما أكثره شؤم عليهم لأنهم لا يعقلون اه
- واعلم أيها التكي أن هذا المقام العام ملخص في تفسير البسملة في سورة الدخان ، وفي رسالة (مرآة الفلسفة) في سورة محمد ﷺ عند آية - فاعلم أنه لا إله إلا الله - فانظره هناك إن شئت . وإلى هنا تم الكلام على قوله تعالى - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة - الخ والحمد لله رب العالمين

اللطيفة الخامسة

في قوله تعالى - ومن آياته انك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت - الخ وفي
قوله تعالى - سفرهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم - الخ
في هذه اللطيفة فصلان

الفصل الأول في قوله تعالى : فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت

جاء في مقال في جريدة الاهرام يوم السبت ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٣٠ تحت العنوان التالي مانصه :

وحدة الحيوانات والنباتات

يمتد أغلب الناس أن بين الحيوانات والنباتات تباينا كلياً واختلافاً تاماً ، وأن كل فريق منهما مستقل
عن الآخر . وقد كانوا يعلموننا في المدارس أن هناك عالم الحيوان وعالم النبات أو ما يعبر عنه الفرييون بمملكة
الحيوان ومملكة النبات . وبما لا شك فيه أن من يلقي نظرة سطحية على الحيوانات والنباتات الراقية يجد
أن بينها اختلافات ظاهرية . فالحيوان يتحرك ويتغذى ويتأثر . أما النبات فهو ثابت في مكانه ولا يظهر أنه
يتحرك أو يتغذى أو يتأثر على أن من يحد النظر ويحقق في البحث يتضح له أن هذه كلها اختلافات بظاهرة
لاحقيقة لها

ذلك لأن كل مميزات الحيوانات مثل الحركة والتأثر والتغذى والتنفس والتولد توجد كلها في النباتات .
وهي في الواقع تعتبر إلى حد ما مميزات جميع الكائنات الحية من حيوان ونبات
فالحركة لا يختص بها الحيوان . فإن هناك حيوانات عديدة ثابتة منذ نشأتها إلى موتها مثل كثير من
الحيوانات المسماة بالجوفاء كالرجان . وكذلك الحيوانات التي تعيش في قاع البحار وتشب في شكلها النباتات
والأزهار . ومنها الحيوانات المسماة بالتونسية أو القمصية السابقة للحيوانات الفقرية أو بالأحرى إحدى
الحلقات المتوسطة بين الفقرية واللافقرية . فانها تكون عند ولادتها متحركة مثل سائر الحيوانات . ولكن
صغارها لا تلبث أن تثبت على صخر في البحر وتظل هكذا إلى مدة حياتها إلى أن تموت

كما أن هناك من جهة أخرى نباتات متحركة مثل النباتات القترسة فإن لها أعضاء خاصة تنقبض على ما يقع
عليها من التراب والحشرات والحيوانات الصغيرة الأخرى وتطبق عليها وتفرز حوطاً عصيراً هضمياً مثل عصير
الحيوانات فتضم ما يقبل الهضم منها وتمتصه ، ومن النباتات المتحركة النبات المعروف للعامة باسم « المستحية »
ومنها فصيلة كاملة من النباتات الطحلية المائية للسماة « أوسيلير » فانها في حركة اهتزاز مستمر مثل رقاص
الساعة ، وأبلغ من هذا حركات بعض النبات الأولية ذات الخلية الواحدة فإن لكثير منها شعراً صغيراً عديدة
ولها أشعرة واحدة طويلة في مؤخرها مثل الذنب تستعين بها على العوم في الماء فتذهب ونحو مسافات
تذكر لافرق بينها وبين الحيوانات ، وكذلك بذرة أوبويضات النباتات الطحلية المائية وبذرة صف « الموس »
وصف النباتات ذات التولد الخفي . فإن تلك البذور تستعين بذنبها . أي بالشعرة التي في مؤخرها للتحرك في
الماء بحيث لا يستطيع الانسان أن يميز من أول وهلة بينها وبين الحيوانات الصغيرة التي من حجمها . ولهذا
سميت بالبذرة الحيوانية

هذا كله في الظاهر أما إذا حققنا النظر في الأمور فإنا نجد أن الحركة نتيجة لازمة للمادة الحية على الإطلاق
سواء أكانت نباتية أم حيوانية . وتفصيلاً لهذا الاجمال ، نقول ان أنسجة جميع الحيوانات لا تترى إلا

بالميكروسكوب ، وشكل هذه الخلايا وتركيبها واحد في الحيوانات والنباتات فانخلية مكوّنة من مادة زلاية أو بالأحرى من خليط من مواد زلاية مختلفة ومواد دهنية . ومواد سكرية أو نشوية . وقليل من بعض مواد معدنية . وفي وسط كل خلية نواة تركيبها واحدا في الحيوانات والنباتات . وللخلية في معظم الأحيان غلاف خارجي من مادة زلاية أخرى مرنة عند الحيوانات ومن مادة جامدة تسمى بالسيليلوز عند النباتات . وهي مادة القطن وورق الكتابة

ومدة الخلايا التي يسمونها بروتوبلسما أو المادة الحية (خليط من المواد الزلاية والدهنية والسكرية) من أهم خواصها الحركة أي أن أجزاءها في حركة مستمرة مادامت حية . ولاشك في أن هذه الحركة نتيجة تفاعلات كيميائية دقيقة مترتبة على حريق المواد الغذائية . التي تصل الى الخلايا بعد الهضم والامتصاص ومثل حركة المواد الحية حركة السوائل . وهي تفلّي والآلات الميكانيكية بسبب حريق الفحم أو البنزين أو الزيت وغيرها

ولافرق في ذلك بين الخلايا الحيوانية والخلايا النباتية . ولكن لما كانت أغشية الخلايا الحيوانية من مادة زلاية مرنة كما تقدم كانت الحركة التي تبدأ في راحة منها تنتقل الى جاريتها وتأخذ في الامتداد فتشعرك المجموع بعكس الخلايا النباتية فان مادة كل خلية منها محبوسة داخل أغشية صلبة من السيليلوز . فالحركة التي تقوم في بعضها لا تستطيع الانتقال الى ما جاورها من الخلايا ولا الانضمام اليها . ولهذا كانت مواد كل خلية ذليقة تتحرك في مكانها داخل غلافها وبمجموع النبات ثابت . والخلاصة أن الحركة من خواص جميع المواد الحية النباتية والحيوانية على السواء

وفي الحقيقة والواقع ليست الحركة وقفا على الأحياء ولكنها تحصل في الجاد وجميع المواد المعدنية . وقم كل مافي الكون من أكبر الأجرام النلكية الى أصغر ذرات المادة أو الجوهر النرد . وما هو أصغر منها مما اكتشف أخيرا ونفى اليون أو الالكترن . فاذا رفضنا نظرتنا الى السماء نجد أن جميع الكواكب والشموس والسيارات (بما فيها أرضنا) والأقمار وذوات الذنب في حركة مستمرة لا تعرف السكل . وكل ما يحيط بنا على الأرض متحرك كذلك بلا انقطاع من أمواج البحار وبياه الانهر وهواء الجوّ والزوايع والزلازل وتساقط الأمطار والتلج والبرد ودوى الرعد واحضاض الصواعق وغير ذلك من العوامل الطبيعية التي دكت الجبال الشاهقة وغبرت من شكل الكرة الأرضية مرات عديدة في الأعصر الجيولوجية القديمة منتملايين من السنين الغابرة . وكذلك الحال بالنسبة لجزيئات المادة وجواهرها الصغيرة وذرات هذه الجواهر فانها في حركة مستمرة تزداد بارتفاع الحرارة وتنقص بانخفاضها . وبالجملة فان الحركة هي الناموس الأسلمي الذي يدبر الكون بأسره منذ الأزل والى الأبد

وما يقال عن الحركة يقال عن التأثير فانه صفة لازمة للمواد الحية الحيوانية والنباتية على السواء . فاذا ملئ الانسان بسلك رفيع مثلا خلية من الخلايا الحيوانية أو النباتية . وهي تحت الميكروسكوب يراها تتأثر وتتحرك فتسكمش أو تمتد . وهذا الذي يحدث عرضا بفعل الانسان يحدث عادة وعلى السوام بفعل المؤثرات الطبيعية والكيميائية التي تحصل في أجسام الحيوانات والنباتات أو في البيئة التي تحيط بها وتؤثر عليها ولا فرق في خاصة التأثير بين الحيوان والنبات ، وكل مافي الأمر أن أغشية خلايا النباتات تحول دون انتقال التأثير من خلية الى خلية نظرا الى جودة تلك الأغشية فيظهر النبات في مجموعته كأنه لا يتأثر . والحقيقة أن مواد خلاياه تتأثر . ولكن يحجب هذا التأثير مادة السيليلوز الجامدة

على أن التأثير ليس في الحقيقة من مميزات المواد الحية دون غيرها ، بل يشترك فيه كثير من الجلال مثل المواد المفرقة ومثل المواد الكيميائية غير الثابتة التي تتأثر بالنور كمواد التصوير الشمسي (التوتوغرافيا)

أو بالطوبة أو بالحرارة أو بالكهرباء وغيرها . ومن الأمثلة على تأثر الجادات أسهمعروف في علم الصوت (جزء من علم الطبيعة) وهو أنه إذا دق انسان دقة على وتر من آلة موسيقية وكانت في الفرقة آلة أخرى مثلها فان الوتر الذي يقابل فيها الوتر الذي دق عليه بالآلة الأولى يهتز من تلقاء نفسه اهتزازا خفيفا ولكنه يظهر جليا بواسطة الآلة المكبرة للصوت

أما من جهة التغذية فمن المعلوم أن النباتات تتغذى مثلها في ذلك مثل الحيوانات فإداتها الخضراء (الكالوروفيل) تستعين بضوء الشمس لتحليل حمض الكربونيك (ثنائي أكسيد الكربون) المنتشر في الجو وتأخذ منه الكربون اللازم لفيذائها وتمزجه بالماء فتكون أولا السكر والنشاء والسيليلوز (مادة القطن وورق الكتابة) ومادة الخشب وغيرها . ثم تكون أحيانا عضوية تركب منها المواد الصلبة . وتمتص من الأرض الماء وبعض المواد المعدنية المشتملة على الأزوت مثل الأزوتات أو النترات وتمتزج هذه بالمواد السكرية والنشوية والأحماض العضوية فتكون المواد الزلالية وهي أهم غذاء لها وللحيوانات . وبالجملة ان النباتات تتغذى كالحيوانات . وتناول لفيذاتها نفس المواد التي تتغذى منها الحيوانات وهي المواد الزلالية والدهنية والسكرية فضلا عن الماء وبعض الأملاح

والتغذى ليس قاصرا في الحقيقة على الاحياء من حيوان ونبات بل يحدث لكثير من الجادات فبقعة الضدا التي تبدو صغيرة على قطعة من المعدن ثم تكبر الى أن تنتشر على سطح المعدن كله انما هي تغذى في الواقع من بخار الماء والحامض الكربونيك المنتشرين في الجو ومن مادة المعدن القائمة على عليه فتتغذى وتنمو وتكبر وتتوسع كالنمو ويكبر الجسم الحي والباقيات الصغيرة المنفصلة في ماء مشبع من محلول موادها تتغذى من المادة النابتة في الماء فتتغذى وتصبح بلورات كبيرة . والآلات الميكانيكية المتحركة تتغذى بالفحم أو البنزين أو الزيت . وليست مواد الوقود الاغذاء تلك الآلات الميكانيكية تحرق فيها فتولد القوة اللازمة لحركتها وقياسها بأعمالها ويلحق بالغذاء التنفس . وغير خاف على كل من درس علم الفسيولوجيا النباتية أن النباتات تنفس مثل الحيوانات ولها مسام صغيرة في أوراقها وغصونها يدخل منها الهواء ومعها الأوكسجين الذي هو العنصر الأساسي في التنفس أن الغرض من التنفس واحد في الحيوانات والنباتات وهو احراق (أي تاكسد) المواد الغذائية داخل الخلايا لتوليد القوة اللازمة للحياة وقد عرف علماء الفسيولوجيا الحياة بأنها حرق أي تاكسد مستمر . وما الأجسام الحية الا آلات لتحويل القوة الكيميائية الكامنة داخل مواد الغذاء بواسطة احراقها الى حرارة وحركة انتقال . وحركة افراز . وحركة نمو . وحركة تولد وما الى ذلك من القوى الحيوية . مثلها مثل الآلات الميكانيكية التي تتغذى بالفحم أو البنزين أو البنترول

وقد أثبت علماء الفسيولوجيا هذه الحقيقة بتجارب حاسمة حيث وضعوا حيوانات داخل كالوريمتر دقيق (آلة لقياس كمية الحرارة . وهي خلاف الترمومتر الذي لا يقيس الا درجتها دون كيتها) وكانوا يقيسون حرارة ما يتناوله الحيوان من الغذاء وما ينتج جسمه من الحرارة . بعد خصم الكمية التي لم تهضم ولم تمتص من الغذاء فوجدوا أن الكميتين متعادلتان وقد طبق اثنان من العلماء الامريكان هذه التجربة على الانسان وهما اتوتر وبنديكت فسنا كالوريمتر كبير حجمه كالغرفة المتوسطة واتخذوا كل الوسائل الدقيقة والاحتياطات الشديدة ، وكانا يقيسان مقدار الهواء الداخل من جهة الخارج من جهة أخرى ودرجة حرارتهما وما يتملان عليه من اوكسجين وحامض الكونيك . وقيسان في كالوريمتر صغير على حدة ما ينتج من الحرارة كمية الطعام الذي يتناوله الشخص الذي يعمل عليه هذه التجارب وغير ذلك من الاجراءات . فكانت النتيجة تعادل كمية القوة التي تدخل جسم الانسان في هيئة غذاء وكمية القوة التي تخرج منه في شكل حرارة . ومعنى هذا أنه لا توجد في الجاهم الا القوى الطبيعية ولا تعمل فيه الا القوى الطبيعية

أما التلقيح والتوليد والنمو والتطور وكافة مظاهر الحياة فلا حاجة لقول بأنها مشتركة بين الحيوانات والنباتات . ويطول بنا المقام لو أردنا أن نثبت أن هذه المظاهر كلها مع التفاوت في الجاد أيضا يتفق مما تقدم أنه لا يوجد أي فارق جوهري بين الحيوانات والنباتات . وقد حار العلماء في إيجاد حد فاصل بينهما أو محك للتمييز بين بعض الأحياء السفلى الملتبس في أسرها وهل هي حيوانات أم نباتات فلم يجدوا أمامهم سوى فاصل واحد يقرون بأنه سطحي ظاهري وهو مادة السيليلوز المكونة منها أغشية الخلايا النباتية فإن هذه المادة لا توجد لها في الحيوانات

ولكن هذا الفاصل غير شامل لجميع النباتات في جميع أدوار حياتها لأن هناك بعض نباتات سفلى من صف النباتات الفطرية يقسم الفصيلة المسماة ميكزوميست تقضي حياتها كلها أو بعضها وخلاياها شائكة بلا أغشية تفصلها عن بعض . ولكن إذا سامت الأحوال الجوية واشتد البرد ونهطت الأمطار أو الثلوج فترز هذه النباتات حولها أغشية سيليلوزية لتعجن نفسها داخلها فتتقي هكذا خطر تقلبات الجو . أما في الفصول المعتدلة فإنها تعيش خالية من هذه المادة . فهي تشبه من وجوه كثيرة . وهي على هذه الحالة بعض الحيوانات الأولية ذات الخلية الواحدة مثل الأميبا التي يسبب نوع منها مرض السوسنطاريا

ومن جهة أخرى في بعض الحيوانات مادة تقرب كثيرا ككباريا من مادة السيليلوز وهي الحيوانات التونسية أو القمصية المتوسطة بين الحيوانات الفقرية وبين اللاقضية مما تقدم لنا الإشارة إليه . كما أنه في جميع الحيوانات مادة هي شقيقة السيليلوز من الوجهة الكيميائية وأغني بها السكر فكلاهما مكونة من لحم وماء . ولذا أطلق على مجموع هذه الفصيلة الكيميائية اسم هيدرات الكربون

وهناك فاصل فيولوجي بين الحيوان والنبات قد يكون أوجه من الفاصل المتقدم وهو كيفية التغذية . قلنا فيما تقدم أنه لا بد لغذاء الحيوانات والنباتات من مواد زلالية ومواد دهنية ومواد سكرية . ولكن الفرق بين الحيوانات والنباتات هو أن الحيوانات تتناول هذه المواد مركبة جاهزة كالحى من أجسام النباتات أو الحيوانات الأخرى التي تأكلها بعكس النباتات فإنها لا تجد أمامها . هذه المواد الضرورية لغذائها كما تجدها الحيوانات (مع استثناء النباتات المفترسة) فتضطر أن تركيبها على الوجه المتقدم يات . قبل أن تتناولها . وبالجملة فإن الحيوانات تتناول طعامها جاهزا أما النباتات فتكسده وتشتق في تركيبه قبل أن تتغذى به . على أن هذا الفاصل غير شامل لجميع النباتات فيوجد صف نباتات هي النباتات الفطرية لم تجد عليها الطبيعة بالمادة الخيطية (الكولوروفيل) فلا تستطيع أن تركيب غذاءها بنفسها لهذا هي تتصرف في الحياة كالحيوان بمعنى أنها تتناول طعامها جاهزا من حيوانات أو نباتات أخرى ومن أجل هذا نجدها كلها طفيلية تعيش على غيرها من الحيوانات والنباتات الحية أو على أجسامها الميتة . وعلى هذا فتكون الفصيلة الفطرية الحلقة المتوسطة بين الحيوانات وبين النباتات . ولولا وجود السيليلوز فيها لجزم العلماء بأنها حيوانات فهي نبات من جهة السيليلوز وحيوان من جهة كيفية تغذيتها

وفي هذا برهان واضح على وحدة الحيوانات والنباتات وتسلسلها من أصل واحد وهو الجاد . وقد جاءت المباحث والتجارب الجليلية التي قام بها العالم الهندي الكبير السربوز مؤيدة لهذه الحقيقة التي أصبحت الآن أساس العلوم الطبيعية . وقد كان لاختراعه للآلة التي تكبر حجم الخلية الحية عشرة آلاف مرة تأثير كبير وتأتي هائلة في العلم . وعلماء أوروبا يتحدثون في جامعاتهم وفي مؤلفاتهم باكتشافاته ومباحثه الأخرى منذ أكثر من عشرين عاما ومع ذلك نرى قوما هنا يحملون على هذا العالم الشرقي الجليل لأغراض باباها العلم وشرف النفس

نصيف المنقبادي الحاي

خريج كلية العلوم بجامعة باريس (السوربون)

ويلحق بهذا ما جاء في جريدة الاهرام أيضا يوم الجمعة ٤ يولييه سنة ١٩٣٠ وهذا نصه

رأى في علاج الأزمة المالية

كاد ينقضى على انشاء وزارة الزراعة عشرون عاما . ومع ذلك لم يتم بشئ من المهمة التي أقيمت على عاتقها بينما نرى اختصاصات وزارات الزراعة في السول الاخرى لا تقتصر على تبخير الأشجار وهمل الاحصاء السنوي لكمية المنتظر من محصول القطن . أو الارشاد الى ادخال تحسينات نافهة على الزراعات القائمة . أو مقاومة بعض الآفات مقاومة لانجدي ولا تنفع . أو الحصول على بعض الأسمدة والبذور الخاصة بالنباتات التي تزرع عادة . لو أن مهمة وزارة الزراعة اقتصر على ذلك لمكان الأمر على الجمعيات الزراعية الأهلية . ولا كتفت للحكومات بمعاونتها دون انشاء وزارة خاصة بالزراعة . ولكن المهمة أجمل وأسمى من ذلك . المهمة خاصة بانماء الثروة الأهلية بإدخال زراعات جديدة تستثمر فيها رموس الأموال المنجمدة من الزائد عن النفقات الزراعية والنفقات المعاشية للفلاح . المهمة خاصة بإيجاد مشتل من صنع الاخصائيين نجو ويكبر على توالى الايام داخل معامل التحليل والابتكار والتطعيم لتزويد البلاد برأس مال جديد في كل عام لا أن يقتصر الأمر على ايجاد بضات زراعية سنوية الى مختلف البلاد ليعود أعضاؤها ويشغلوا الوظائف الكتابية أو وظائف التفتيش الرئيسية فتصمد فيهم الحية وروح الابتكار ولا ان يكونوا في مكاتبهم وفوق كراسيهم كالدبلوماسات وشهادات الامتياز جنبها الاطارات الرائجة ولا قيمة لها الا في أعين حلتها . مع ان الواجب كان يقضى أن تكون قيمتهم في نظر الأمة وللأمة حتى تستطيع أن تقرر بحق انها استثمرت ما أنفقته عليهم من أموال في تخصصهم وتعميقهم . ويستطيع الآباء أن يعلنوا مباحاتهم بثمره كدهم وتعبهم في سبيل تربية أبنائهم . والا فإذا أدخلت وزارة الزراعة المصرية على زراعاتنا من جديد يعاون في سبيل الاحتفاظ بثروة الأمة بعيدا عن تهديد الازمات والأخطار التي تصيب محصولا لا تقول الا عليه ، لتقل لنا الوزارة ماذا صنع مقبل زراعة المناطق الحارة حتى الآن وأي نتيجة لتجارب أدت الى ادخال عامل زراعي جديد في مصر مع أن زراعة المناطق الحارة قد درست في مصر قبل الآن درسا عميقا أيام حكم ساكن الجنان اسماعيل باشا الخديوي الأسبق والمؤلفات والتقارير الزراعية عن نباتات المناطق الحارة في عهده تكاد تزيد عن الضروري . وما كنا في حاجة الا الى مراجعتها لتعلم أي الزراعات تدخل في مصر حتى تتعدد الحاصلات وتجنب الأضرار الجسيمة التي يلحقها القطن بثروتنا العامة بين آونة وأخرى ونكرها على البكاء والعويل مادامت مصر في عهد اسماعيل هي مصر الآن جوًا وتربة وماء مع مراعاة ان العمار قد ازداد والسكان قد تضاعفوا والأيدي العاملة قد ربت وطرق المواصلات قد تعددت والمسالك الزراعية نظمت والترع كثرت . لقد تكلمنا فيما تقدم عن زراعة الكاوتش في مصر ورجونا من المصريين أن لا ينتظروا الا نتيجة جهدهم وكدهم في ادخال هذه الزراعة الفنية بحاصلاتها في مصر حتى ينقلوا أنفسهم بأيديهم من مخالب الافلاس الذي يهددهم دائما أبدا بسبب تحكم مستهلكي القطن أو زيادة المحصول الأمريكي الخ واليوم نقول كلمة أخرى عن زراعة المناطق الحارة الصناعية وما يجوز ادخاله في مصر بناء على آراء الأخصائيين ولما كنا قد بدأنا بزراعة الأشجار في سبيل أحياء عصر الغابات في مصر وجب علينا الاستمرار في هذه السبيل مقتصرين في بياننا على الجهات التي تستورد منها هذه النباتات ومنافسها

(شجرة البقرة) ان هذه الشجرة من « كرا كاس » وساقها معتدل باسق . وطول أوراقها بين ٢٥ و ٣٠ سنتيمترا في عرض عشرة سنتيمتر . وثمرتها كالبندقه الخضراء . وترجع شهرة هذه الشجرة الى طبيعة ألبانها التي تحاكي من كافة النواحي لبن البقرة ولذلك فإن اهل « كرا كاس » يتغفون منه . ويمكن الحصول عليه بجزء ساق الشجرة في عدة نواح . ولقد أثبت المسيو « ريفيرو » والمسيو « بوسينجو » ان صفات هذا العصير

السكري كصفات لبن البقرة مع فارق بسيط هو أنه لرج قليلا وله رائحة كرائحة البلسم أما خاصية الكيمائية فلها تختلف عن خصائص ألبان البقر إذ الأحماض لا تؤثر فيه أما «الاسبرتنو» فانه يؤثر فيه الى درجة معينة حيث يجمد قليلا اذا أضيف له قدر منه واذا وضع في «حمام ماري» استخرج منه عطر كذلك الذي يستعمل في ايطاليا لتطيب القفازات . ولكنه مع ذلك يختلف مع سائر العصارات الازرجة لانه لايشمل أى كمية من الكاوتش وقد زرعت هذه الشجرة في بروكسل . ومن باب أولى أن تزرع في مصر لاستعمالها غذاء وواسطة لاستخراج عطرها . وتصديره وتصدير هذه الألبان في زجاجات خاصة

(ذات اليد) وهي شجرة يغطي قم فروعها بر أشقر اللون وتستعمل ثمراتها المحمرة في اسوداد لعلاج الصرع ويمكن استيراد هذه الشجرة من البرازيل كما يمكن استيرادها من أوروبا بأجنس الأمان ومن السهل شتلها بواسطة الفسائل في فصل الربيع (حشيشة الورق) وهي شجرة صغيرة من بلاد الصين ترتفع الى خمسة أوسنة أمتار ويستخرج لباب ساقها ليصنع منه الورق الناعم في الصين التي تصدر في العام ورقا بما قيمته ٦٤٩ و ٩٧٧ و ٣ (هاى لوان تايل) أى ريال ولكنه غير ثابت القيمة . ودائما يتراوح بين ٦٦ في المائة من الدولار وبين دولار ونلت . ولقد أدخلت هذه الشجرة الجليية ضمن الزراعات المصرية في سنة ١٨٦٨ ونجحت نجاحا عظيما ولكن لسوء الحظ لم تستخدم في الغرض الذي جلبت من أجله وهو استخراج لبابها لصناعة الورق الناعم مع أن زراعتها في مصر من السهولة بمكان اذ يكفي وضع عقل الفسائل في بطن الأرض وتغطيتها بقليل من التراب فلا يضي وقت قليل حتى تنبت

(شجرة الحرير) وهي شجرة من نوع الأشجار العملاقة . وليس هذا التعبير لمجرد الخيال وإنما هو الحقيقة فإن الميسو (برتران بوكانديه) قد حكى أنه رأى في كازامانس مراكب طولها ١٥ مترا في عرض مترين ونصف تصنع الواحدة من ساق احدى هذه الأشجار وتسع كل مركب من هذا النوع ثلاثين ثورا وستة عشر بحارا للتجديف وثلاثة رجال للعزف على الموسيقى . فضلا عن هذا فهي تحتوى على غرف ومطبخ وحمام الخ . أما نوعها فهو من المراكب السريعة ذات الشراعين والمجاديف . وهذا ما يكون عندنا فكرة من محيط ساق هذه الشجرة . غير أنها لا تعيش أكثر من قرن . ولذلك فان الاهالى يزرعون شجرة منها عند ميلاد كل ولد من أولادهم فاذا ما بلغ الطفل السن التي تبيح له الاستقلال بمعيشته وجد في هذه الشجرة كل ما يلزمه لبناء منزله دون أن يمس باستمرار نعامها

واذا ما بلغت هذه الشجرة من الانتاج أثمرت فأكمة يخرج منها بر قطنى حربرى في كمية جسيمة تترامى على الأرض الى مسافات بعيدة تراها وتأن السماء أمطرت لؤلؤا وتلججا . ويستخدم هذا الورق في صنع الوسادات والكنبات وغيرها ويمكن غزله لاستخدامه في صناعات مختلفة . ولقد أدخلت هذه الشجرة في مصر بواسطة الدكتور فيجارى بك وبوجد منها نوع في قصر العينى (أما حشيشة الملوك الشوكية) فان ارتفاعها يصل الى عشرة أمتار وساقها ضخمة وشائك . وتزرع هذه الأشجار بصنفها بذرة أو عقلة

(شجرة الدهن) وهي شجرة متوسطة الطول وتزرع في الأراضي الرطبة من الصين . ولها لور تحوى كل واحدة منها ثلاث حبات وأهميتها فيما يقطبها من طبقة دهنية بيضاء سميكه صلبة الى حد ما ويضيف الصينيون واليابانيون الى هذه المادة قليلا من شمع النحل وزيت الكتان لصنع الشمع الأبيض الذي يضيء مدة طويلة ، ولإستخراج هذا الدهن يجب سحق البذرة وإبقاء مسحوقها في ماء على درجة الغليان حتى تطفو المادة الدهنية على وجه الماء فيسهل استخلاصها (ومن جهة أخرى) هم يستخرجون من هذه الحبوب نورا من الزيوت الساحلة للوقود ، وقد وجدت شجرة من هذه الأشجار بمدرسة الطب ، ولكننا لاندرى ماذا صنع بلوزها ، كذلك زرع في حديقة الروضة شجرة من هذا الصنف ، ولاندرى لماذا لا تزرع

هذه الأشجار في مصر مع أن زراعتها سهلة سواء من ناحية البذرة أو العقلة
 ﴿ شجرة البهار ﴾ هي شجرة من مدغشكر طويلة جميلة المنظر، وتستخدم أوراقها وجلدها كبهار
 ودواء. وهذه الشجرة تنمو في الحدائق المصرية. وتوضع أوراقها في الطعام خضراء. ولا بد لزراعتها في مصر
 من الحصول على بذرتها من مدينة مدغشكر أولاً فأولاً
 ﴿ شجرة الثعابين ﴾ وهي شجرة صغيرة في البرازيل طولها يقرب من متر. وتستخدم جذورها دواء
 للشفاء من لسعات الثعابين. وهذه الشجرة تصلح في مصر فقط لأنها لا تزرع إلا في الطينة الصالحة للزراعة
 والمناطق التي جهزت بمعدات الري وتزرع عقلاً
 ﴿ شجرة الاراروت ﴾ وهي شجرة ذات جذور سكرية لها ساق طوله يقرب من متر ونصف متر.
 وجذوع هذه الشجرة غذاء قوى للأطفال على ما نعرفه جميعاً. وهي تزرع على الخصوص في جزيرة الاتشي
 وأمريكا الجنوبية. وهي صالحة للزراعة في التربة المصرية
 ﴿ الكمبري الأمريكاني ﴾ أو كمبري الحامي: وهي شجرة تدرّ اللبن الذي يتجمد في صلابة القشدة
 ويستخدم في التأثير على القماش بإشارات لا تمحى، أما الفاكهة ذاتها فأنها غذاء جيد، وتدخل هي والأوراق
 في كثير من الأدوية، وهي تزرع بطريقتي البزور التي تجلب من البرازيل. ويمكن استخدام العقل (بهم
 العين وفتح القاف) في زرعها بعد أن تنبت وتشتد في مصر. انتهى ما أردته من الجريدة المذكورة

بهجة العلم

في قوله تعالى أيضاً - ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت
 إن الذي أحياها لمحي الموتى إنه على كل شيء قدير -

يقول الله تعالى في أول هذه السورة - كتاب فصلت آياته - ويقول في سورة أخرى - يدبر الأمر
 بفصل الآيات لعلكم بقاء ربكم توقنون - ، إذن الايقان بقاء الله تعالى مرتب على تفصيل الآيات ، والآيات
 المنفصلة في هذه العوالم هي التي تعطينا اليقين ، واليقين هو الذي لا يعتره شك ، فهل لك أن أريك اليقين
 في هذه الآية بعينك حتى تتمكن من نفسك كنص الآية ، وتعلم إلى أي مدى وصل هذا القرآن اليوم ،
 وهل تفصيل الآيات المورث لليقين إلا ما قام عليه البرهان أو ثبت بالمشاهدة . فهناك ﴿ عجيبين ﴾ إحداهما
 من علم الحيوان ، والأخرى من علم الأرواح

﴿ العجيبة الأولى التي هي من علم الحيوان ﴾

جاء في كتاب (بول بيرت) العضو بالأكاديمية العلمية وأستاذ السربون ووزير المعارف العامة بفرنسا
 المترجم بقلم زوجته الاسكتلندية إلى اللغة الانجليزية (وقد نقلت عنه في هذا التفسير كثيراً) فقد جاء فيه في
 صحيفة (٧٩) و(٨٠) تحت عنوان « أنفاسوريا » ما نصه :

« إنني سأريك نبأ عظيمًا عن مخلوق مدهش غريب يختلف اختلافاً كثيراً عن سابقه ، وأين يكون هذا
 الحيوان ؟ إنه يكون فيما تعافه النفوس وتحتقره العيون مما يكون على جسم الحيوان الذي فسدت جنته
 بالتعفن والنبات الملقى المزدرى ، وهذه المخلوقات أكثرها يسمى في علم النبات باسم (أنفاسوريا) وسترى
 صورته قريباً . ولكن هناك حيوانات ليست منه عجيبية الأشكال ومع ذلك ليست قليلة الفائدة . انظر إلى
 هذه الزباجة التي فيها الماء التي أحضرت فيها بعض الدريس (أي مثل البرسيم الجاف المعروف في بلادنا)
 أمسك الزباجة واجعلها بينك وبين ضوء الشمس حتى ترى بوضوح وتفصيل كل ما تحويه ، أنت ترى فيها

أشياء صغيرة تتحرك في الماء (انظر شكل ٤٣ الآتي قريبا) . إن المنظار الزجاجي يجعلك قادرا أن تقيّن هذه المخلوقات بطريق أوضح ، ولكن (المكرسكوب) يجب الاستعانة به لتكوين الرؤية أ كمل ، إن هذه كأنها قط غبر متميزة صورها ، وفي الحقيقة هي حيوانات تعيش . وهي آلاف مؤلفة ، هانت ذا ترى في الزجاجية حيوانات صغيرة ذات صور مختلفات وأشكال متباينات بعضها قد صغر جدا ، وليس يظهرها لعيوننا إلا الآلات الزجاجية المكبرة بمقدار عظيم جدا ، وآلاف مؤلفة منها تعيش في قطرة ماء . وهنا أخذ يسأل التلاميذ قائلا : من أين جاءت كل هذه الأشياء اللاتي أعشت أبصاركم ؟ مم أجاب قائلا : إنها جاءت من العصف المأكول والتبن والبريس . ثم قال : كيف كان كل هذا ؟ وأجاب بقوله : هذه المخلوقات جافة كأنها بيض فهي تعيش هكذا وهي بهيئة طحلب لا يشعر به فوق سقف المنازل وهي جافة أثناء الصيف ، فإذا نظرناها بالآلة المكبرة فأنها تظهر لنا بهيئة حبوب صغيرة من رمل أخضر ، ولكن إذا أنزلنا عليها قطرة ماء وهي على هذه الحال فأننا نراها قد تحوّلت حالا وامتد جسمها وأخذت تبحث عن رزقها وما به حياتها ، فإذا غاض ماؤها أو صار بخارا رجعت خامدة لا حركة لها ، جامدة لا حياة لها كما كانت من قبل متربصة هطول آخر من الماء ينزل عليها فتحيا به . هذه مخلوقات عجبية ! ألسنت ترى ذلك ؟ وهذه تريك أن أعظم مايسرّ النفوس وأبدع العجائب ليس خاصا بالحيوانات الكبيرة (انظر شكل ٤٣ و ٤٤)



(شكل ٤٣)

(أغاسوربا) لآ ترى بالمعين المجردة
وقد طاشت في قطرة من الماء الآسن



(شكل ٤٤)

حيوان البكتريا وهو لا يرى بالمعين المجردة

العجبية الثانية التي هي من علم الأرواح

نذكر في هذه العجبية ما جاء في إحدى المجلات العلمية وهي مجلة « كل شيء » يعدد ٢٣٤ في يوم السبت (٣) مايو سنة ١٩٣٠ وهذا نصه :

توفيق دوس باشا يخاطب روح والده

زيارته لكلية علم الأرواح في لندن

لما سافر الوفد الحكومي المصري الرسمي إلى لندن برئاسة عدلي يكن باشا لمفاوضة الحكومة البريطانية في حلّ المسألة المصرية . رافق الوفد يومئذ سعادة الاستاذ الكبير توفيق دوس باشا بصفة مستشار قضائي وسعادة شريف صبرى بك وحضرة الاستاذ عبد الملك حمزة بصفة سكرتيرين . وبعد وصول أعضاء الوفد إلى لندن بقليل أخبر الاستاذ عبد الملك حمزة صديقه توفيق دوس باشا وشريف صبرى بك انه من المهتمين بدرس علم الأرواح وأنه يود أن يدعوها إلى زيارة « كلية علم الأرواح » التي تديرها المستر ستيدي ابنة المستر وليم ستيدي الصحافي الانجليزي المشهور الذي غرق في الباخرة « ديتانك » في سنة ١٩١٢ فسألاه عن هذه الكلية وأغراضها فقال لهما انها معهد علمي يؤتمه الأشخاص الذين يأنسون في أنفسهم قوة الوساطة فيمتحن المعهد هذه القوة فيهم بين الأرواح التي في الآخرة وسكان هذا العالم ممن ان كثيرين من العلماء الذين

يشغلون بعلم الأرواح يترددون على هذه السكينة لاجراء تجاربهم العلمية فيها فهي ليست والحالة هذه دارامن دور النسب التي يدخلها بسطاء العقول ليدفعوا جنبها أو جنبيين مقابل (مخاطبة الأرواح) وهنا ندع الكلام لتوفيق دوس باشا لكي يصف لنا زيارته لتلك السكينة ، قال :

ولما سمعت هذه المعلومات من الاستاذ عبد الملك حجة تولدت في رغبة في زيارة كلية علم الأرواح لأميط اللثام عن حقيقة ما كنت أعتقده تدجيلا ، فرافقني حضرته اليها وصحبنا شريف صبرى بك ولما بلغناها قدما للسزستيد فطلبت منها أن تحيلنا الى وسيط من القادرين على مخاطبة الأرواح فمررتنا بشخص اسمه الستريتر ولما اختلينا به طلب إلى أن اضمر الشخص الذي أريد أن يستحضر لي روحه بدون أن أسر اليه باسمه فاضمرت والذي جلس الرجل على كرسي أمامنا وماهى الاثوان قليلة حتى أخذت عضلات وجهه وشرايين حلقه تنفخ انتفاخا أزعجني منظره ثم لم يلبث أن نام نوما عميقا وأخذتكم باللغة الانجليزية وهى اللغة التي كان والذي يجهلها تماما فقال لي : « أنا والدك » فقلت له « وما ذلك على ذلك ؟ » فقال « أنا أطول منك قليلا » فقلت : (هذا لا يكفي) فقال (وأخف قليلا) فقلت « وهذا لا يكفي أيضا » فقال (ولى لحية خفيفة لى الشيب بجزء منها) فقلت له (وكيف انتقلت إلى العالم الثاني ؟) فقال . (بعملي عملت لي هنا) (وأشارالى مكان الأسماء والمائة والكبد) فقلته . (هذا لا يكفي) فقال . (عمل لي العملية طبيبان وفي أثناء انهما كهما بعملهما دخل عليهما طبيب ثالث وعاونهما . ولما انتهوا من مهمتهم قالوا لكم ان العملية نجحت ولكنى توفيت في اليوم التالي) فقلت . (وهل تعلم لماذا نحن في لندن ؟) فقال (لأجل مسألة كبيرة) وفتح ذراعيه على وسعها فقلت . (وهل تنجح فيها ؟) فقال (كلا ويجاني سيدة تزاحنى لكي تخاطبكم بدلامنى .) وهنا أخذ الوسيط يتكلم بلسان هذه السيدة فوصفت نفسها وصفا ينطق تماما على عمه زوجتى فقلت . (وهل لك أولاد ؟) فقلت لي . (ابن وابنة) فقلت . (وهل هما بهيدان عنك ؟) فقلت (بيني وبينهما بحر كبير) فقلت . (وهل هما في مصر ؟) فقلت . (كلا)

قال لنا توفيق باشا . (واذا استثنينا هذا الجواب الأخير (أى هل هما في مصر فأجابت كلا) فإن جميع الأجوبة السابقة والبيانات التي تضمنتها تطابق الواقع . وقد عززت ذلك في بادى الأمر الى مايسمونه علم قراءة الأفكار وقلت في نفسى ان هذا الوسيط له قوة قراءة أفكارى فيسترشد بها على الاجابة على أسئلتى ولكن هذا الاعتقاد زال عنى لما قال لي الوسيط . (ان هناك سيدة تزاحم والى لتتكم معى) فانتى لم أكن أفكر قط في عمه زوجتى ساعتئذ لكي يقال ان الوسيط قرأ أفكارى في صدها أيضا ولذلك لأعرف كيف أعطل هذا الحادث على الاطلاق

ومضى توفيق باشا في حديثه معنا فقال . (وقيل لي بعد ذلك ان في السكينة وسطاء لهم قوة استحضار وجوه الأرواح بحيث يستطيع تصويرها بالفوتوغرافيا فذهبت الى السكينة في يوم آخر مع شريف صبرى بك وعبد الملك حجة بك وأخذت معى زجاج التصوير (البلاك) منعا لكل تلاعب ولما قابلنا السزستيد قلت لها . انتى أريد تصوير وجه والدى) فقادتني الى أحد الوسطاء القادرين على استحضار وجوه الأرواح فدعانا الى قاعة طليت جدرانها باللون الأبيض وأجلسنا على ثلاثة كراسى متلاصقة وأخذ يرتل بعض الصلوات والأناشيد الدينية ثم فتح آلة التصوير وصورها ولما انتهى من عمله أخذت زجاج الصورة وكان شريف بك قد وقع عليها بامضائه لثلا تسبيل بلوحة غيرها وعينت بتحميلها في محل للتصوير بأشراقى فاذا بالصورة التي ظهرت فيها تختلف عن ملامح والدى تماما فقصت في الفد الى السزستيد وقلت لها : (انكم تسخرون منا فان الرسم الذى ظهر في الصورة ليس رسم والدى) مطلقا فقلت « قد يحدث ذلك أحيانا ويكون سببه أن شخصا أقوى من والدك على تصوير نفسه بواسطة الوسيط بزواجه على الصورة فينجم عن ذلك أن يظهر رسمه بدلامن رسم والدك

قلت لها : اننى سأعطيك الآن فرصة أخرى لاقامة الدليل على صحة كلامك فهيا بنا الى الوسيط ولما اجتمعنا به قلت لهم (اغلقوا الباب) فأغلقوه فناولتهم زجاج التصوير فوضعوه فى الآلة أمامى ، فقلت للمرسيد عندئذ : (اننى سأطلب من الوسيط رسم وجه والدك المرسيد وأظن انه أقدر الأرواح على تصوير نفسه ولا يستطيع أحد أن يزاحه على ذلك وقد أمضى حياته فى درس علم الأرواح) فأخذ الوسيط برتل وينشد الاناشيد الدينية وبعد قليل التقط الصورة ولما حضاها ظهر فيها رسم المرسيد فجزت فى تحليل هذا الحادث فقلنا لتوفيق باشا : (هل لاحظتم فى أثناء التقاط الصورة أن هناك شيئا غريبا ظهر فى القاعة ؟) فقال (لاطلقتا) فقلنا . (إذن كيف يظهر على زجاج التصوير رسم لوجود لصاحبه فى القاعة) فقال (سألتهم عن ذلك فكان جوابهم أن عدسة آلة التصوير أقوى من العين جدا وانها لذلك تستطيع رؤية شبح الروح الذى لا يراه العين العادية) فقلنا . (وهل أتم واتقون من أنه لم يقع تلاعب فى زجاج التصوير ؟) فقال (أنا واثق من ذلك ولا فائدة ، من أن تتعبوا أنفسكم بالأسئلة فقد اتخذت يومئذ جميع التدابير التى خطرت لى لمنع أى فحش كان) فقلنا له (وكيف تعلمون ذلك ؟) فقال (اتى لأؤمن بعلم الأرواح ولكنى لأجد تعليلا لما روته لكم) فقلنا . (ألم تسألوا المرسيد عن التعليل ؟) فقال : (سألتها فكان جوابها لوجاءك رجل من عشر سنوات فقط وقال لك انهم سيخترعون تليفونا لاسلكيا أفلا كنت تقول عنه انه مصاب بجن فى عقله فلماذا لا يعقل أن تقتنع بعد سنوات بصحة علم الأرواح وحقيقته) وهنادفع الينا توفيق دوس باشا بالصورة التى صورت يومئذ بمحضوره فى كلية الأرواح فنشرنا اثنين منها مع هذا الحديث ، وهالك صورتها . (انظر شكل ٤٥ و ٤٦)



(شكل ٤٦)

توفيق دوس باشا والى يساره شريف مسرى بك
والى يمينه عبد الملك جزء بك وفوقهم الرأس التى ظهر فى الصورة
عند استحضار روح والد توفيق باشا + وترى فى أعلى إصغاه
شريف بك على زجاج الصورة



(شكل ٤٥)

رأس المرسيد كما ظهر فى الصورة التى صورت لروحه بمحضوره
توفيق باشا دوس

ولما كتبت هاتين الجيبتين حضر صديق العالم الذى اعتاد أن يناقشنى فى هذا التفسير . فقال : وما
يبدنا فى هذه الآية من هاتين الجيبتين ؟ أنت أوضحت لنا فى الجيبة الأولى كيف تكون الحيوانات الدقيقة
معدودة بالآلاف فى قطرة ماء ، وانها تموت اذا غرقها الماء وتحيا اذا وصل اليها ، قالموت والحياة يتناوباها ،
وقصصت علينا فى الثانية نبأ رجل مصرى فى البلاد الانجليزية خاطب والده الميت واحدى قرىباته واحترس
أشد الاحتراس فى المحاورات وفى أخذ الصور وتصويرها . فأى علاقة لهذين بالآية ؟ الله تعالى يقول - ومن

آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحي الموتى إنه على كل شيء قدير - . فقلت : إن هاتين العجبتين مناسبتان للآية أشد المناسبة . لقد تجلى في العجبة الأولى أن الحياة شاحسة أمانا في كل ما يحيط بنا . فهذه الأوراق والحطب والوقود وكل ما يحيط بنا تعلق به مواد لانتهاء لها . وهذه المواد الدقيقة تحيا إذا جاءها الماء وتنفارق الحياة إذا تحلى عنها . إذن الموت والحياة في المواد المحيطة بنا كالنوم واليقظة ، موتها وحياتها أشبه شيء بنوم النحل والزناير مدة الشتاء واستيقاظها في زمن الربيع ، وهكذا نوم أمثال الحيات والثعابين شتاء واستيقاظها في زمن الربيع وبعض السمك في الطين إذا جف وفي الثلج إذا تراكم عليها ثم تقوم هذه إذا نزل الماء على الطين وذاب الثلج . ولقد تقدم في آخر سورة الأعراف أن بعض حبوب القمح تحتوي على أكثر من عشرة آلاف حيوان ، جفف هذه الحيوانات بعض العلماء وبعد التجهيف نذاهم بالماء فرجعت لها الحياة ، بل تمدى العلامة (بيكر) فندى القمح بالماء بعد ما جفنه (٢٨) سنة فرجعت الحياة ، وقد جزم العلماء بأن تلك حياة جديدة . إذن الحياة والموت أمران عاديان حولنا ، وهذه الحيوانات التي لانراها تموت ثم تبعث ثانيا والحياة والموت عندها أمران عاديان (و بعبارة أخرى) ان الموت ليست له تلك القيمة والخاف التي جسمها الانسان

هذا ما قرؤوه في تلك الحيوانات المحيطة بنا الصغيرة ، وهذه الخلال بعينها هي حالنا ، فإذا رأينا الحيوانات الضعيفة تحيا وتموت ولا حاجز بين الموت وبين الحياة إلا اشفاق رقيق ، هكذا رأينا الأمر بالنسبة لأنفسنا نحن ، يعيش الانسان أمدًا ما ويكون له أصدقاء وذرية فيموت أو يموت أهله أو ذريته أو أصدقاؤه فيخلع اليأس قلبه قائلا « إني مفارقهم الى الأبد » فنسبح أولا أرباب الديانات وكبار الفلاسفة يقولون . كلا . لا موت وإنما هو ثوب نزعتموه ولبستم ثوبا آخر ، فيشك أكثر الناس ويقولون . كلا . لم تر شيئا من ذلك فاقضت الحكمة أن تحضر الأرواح فتظهر فيشك قوم أيضا ، فيبحثون حتى يصل بعضهم الى الحقيقة فيطمئن لها ويبقى آخرون حتى يعرفوا أن نتيجة القارورة والماء الذي فيها في العجبة الأولى وحضور الأرواح في العجبة الثانية واحدة ، ومعنى ذلك أن الانسان لا يموت لأن روحه المتصرفة في جسمه هي التي تبقى بعد الموت في جسم شفاف كجسمه الحالي لأن هذه الأجسام التي تعيش بها أنوار متراكمة قد أظلمت بهذا التراكم ، فإذا تركنا هذه الظلمات رجعنا الى أنوار أخف منها ولكن على هيئة هذا الجسم فصرنا في حالة إطلاق لا غير ، غاية الأمر أن هذا الجسم الذي هو مدرستنا يكسبنا العمل به نتائج تراها في حياتنا في الجسم الآخر اللطيف وليست هذه الظاهرة التي قدمناها في العجبة الثانية فريدة في بابها ، فلها نظائر تمتد بالآلاف المؤلفة ، وكما في عالم الأرواح من عجائب ، وأن هذه الروح التي حلت محل روح ذلك المصري وظهرت صورتها في الصورة روح من الأرواح المتأخرة لأن هذا فعل صياني لا أثر للعقل فيه ، فقد ظهر عند العلماء اليوم أن الأرواح السخيفة في هذه الحياة هي أنفسها سخيفة بعد الموت وطأ ربع درجات مشروحات في كتابي « الأرواح » ولعلك ترى هذا المقام مشروحا في آخر { سورة الإسراء } . فالروح السخيفة الطفلة في الدنيا هي نفسها السخيفة السمجة بعد الموت . وقد ثبت بظهور نفس صورة (استيد) المتوفى ثبوتا لا يشك فيه من صدق الخبر به أن الأرواح تكون بهيئتها بعد الموت ويعرفها الناس في الدنيا . أي أن الأرواح بعد الموت بتلك الهيئة الدنيوية لا أقل ولا أكثر . وبالاختصار ان العلم الآن قد قرب لنا مسافة الحياة بعد الموت لنفهم سر قوله تعالى - ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحي الموتى إنه على كل شيء قدير - . وذلك ليريح قلوبنا من مخاوف العدم المحض . فالحياة إذن مستمرة والسطلة بالأعمال الصالحة . كتب صباح يوم الخميس (٨) مايو سنة ١٩٣٠ وبهذا تم الفصل الأول من اللطيفة الخامسة

إيضاح لما تقدم

ثم حضر عندي صديقي العالم الهندي اعتاد أن يحادثني في هذا التفسير . فقال : لقد شاقني حديثك في المخوقات الخافية الدقيقة ، وأبهجتني ما شاهدته منها الآن في الرسم والشرح ، فهل تشرح صدى بالأفظة في هذا الموضوع فانه جليل . قلت : إن أكثر الثبات هو بالانزواء ، ومازناه قليل بالنسبة لما لانزواء . فقال : فهل ترى بعض ما لانزواء بالعين المجردة ؟ قلت : انظر شكل ٤٧ وشكل ٤٨ وهذه صورتها

فقال ما هذا ؟ قلت هذا هو أصغر نبات وهو مركب من خلية واحدة . فقال ما معنى خلية ؟ قلت الخلية لها :

(١) غشاء رقيق يحيط بها

(٢) وفي داخلها مادة تسمى (البروتوبلازم)

(٣) وفي هذه الثانية نواة هي أصل الحياة

فقال : هي إذن أشبه بالبيضة لها قشر ولها

(شكل ٤٨)

(شكل ٤٧)

ياض ولها ح وهي المادة الصفراء ومن هذه يكون الفرخ . قلت : والله لقد أصبت المحز ونطقت بالصواب ، ما الخلية التي أمامك إلا بيضة ، حسن جدا . فقال : إذن هذه البيضات التي يسمونها خلايا التي هي أمامي الآن ومنها الكروية والحلزونية والعصوية هي أصغر الأحياء في العلم . قلت : كلا فان هناك ما هو أصغر منها ولم يدركه الناس . فقال عجبا ! قلت لانحجب فان المناظير المقرّبة لما رصدت الكواكب العظيمة ، ورأت أن المسافات في البعد قد وصلت الى مئات الملايين من السنين في بعد الكواكب عنا أخذوا بخرعون مناظير مقرّبة بحيث يكون قطر عدسة المنظار (٢٠٠) بوصة ، وسبتم قريبا ، ومتى تمّ يجدون من الكواكب ما لانحجب به الآن . فهاهم أولاء لم يصلوا لأقصى ما هو عظيم وبعيد كما لم يصلوا الى أصغر ما هو قريب ، وكل ما عرفوا مخلوقا منها بحثوا عما وراءه ، وهذه الخلايا النباتية التي أمامك تصل في الصغرى واحد من الألف من المليمتر . وقد قلت لك ان هناك ما هو أدق من ذلك والمناظير المعظمة لم تستطع رؤيته . فقال : أنت قلت انها نبات . قلت نعم . فقال النبات يتنفس ونمو ويتغذى ويتوالد . فقلت : هذه تتغذى بالسوائل والغازات وتعيش في كل مكان ، تعيش في الهواء وفي الماء وفي التراب ، فهي مقيسة على العوالم التي حولنا والتي في الهواء تنفس منه والتي في غيره تستخرج منه ما تحتاجه ، ومنها ما يتغذى بأجسام حية تسمى طفيلية ، ومنها ما تعيش على الأجسام العضوية غير الحية فتسمى (الرميه)

وأما التي تعيش على ما ليس مادة عضوية فانها قليلة ، وأما توالد هذه الأنواع فإمما يكون بالانقسام متى وجدت أفرادها ما يلائمها . فقال : يظهر لي أن النبات المعلوم لنا كالقمح والقطن أسرع نموا من هذا . قلت كلا . فقد قال العلامة فيشر : « إذا تكاثرت بيضة واحدة أي خلية واحدة في مكان ملائم فانها تنتج في مدة (٢٤) ساعة (١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠) و يبلغ زنة هذا نصف مليون رطل ، فقال : يا عجبا هذه الخلية التي أمامي التي لا تزيد عن واحد من الألف من المليمتر تكاثر في ٢٤ ساعة فتصير نصف مليون رطل أي نحو خمسة آلاف قطار . قلت نعم . فقال : إذن اذا كانت في الماء والهواء والتراب فعنى هذا أن هذا الموت يحيط بنا من كل مكان . فقلت نعم والحياة ، ففي هذه المخوقات منافع ومضار . فقال هل هذه تتحمل الحرّ والبرد كالنباتات المعروفة . قلت انها أقوى منها . فقال وكيف ذلك ؟ قلت انها اذا كانت في

حالة حياتها تتحمل البرودة تحت الصفر الى الدرجة التي يصير فيها الهواء سائلا وهي درجة (١٩٠) تحت الصفر ، ومعنى هذا أننا كما نرى البخار اذا قلت حرارته صار ماء ودرجة حرارته فوق الصفر ، هكذا اذا انزل الهواء تحت الصفر الى درجات تبلغ (١٩٠) فإنه يصير سائلا ، فهذه الخلايا التي تعيش بيننا لامتوت في هذه الدرجة ولكنها لا تتحمل الحرارة أكثر من (٥٥) درجة فوق الصفر ، فهي إذن ذات قدرة عظيمة تفوق قوة النبات والحيوان المعروفين . فقال : أنت قات انها لامتوت في هذه الدرجة ، فهل معنى هذا انها تكون كالنباتات المعروفة ذات حياة . فقلت نعم . فقال : ومتى تمجد تلك الحياة . فقلت تمجد وتصير أشبه بيضة المراجعة اذا صادفت وسطا لا يلائمها . فقال : فاذا يحصل ؟ قلت يحيط بها غلاف سميك يحفظها كقشر البيضة وهناك تعيش سنين كما تقدم في المقال الأول موضعها وتبقى الحياة كاملة ، ومعنى صادفت وسطا مناسباً رجعت لها الحياة ورمت القشرة الحافظة وعاشت حالا كما تقدم . فقال ما صورتها ؟ فقلت ها هي ذه (انظر شكل ٤٩)



(شكل ٤٩)

فقال : ههنا أر يد أن تبين كيف تكون هذه نافعة ؟ فقلت لولاها لم نعش على الأرض . فقال أوضح . فقلت إن هذه يسمونها (البكتريا) وهذه منها نوع يسمى (بكتريا التعفن) وذلك انها هي التي تحلل المواد المركبة المنبثقة في الأرض وترجعها الى عناصرها الأولى ، وبهذا يمكن النبات أن يمتص من الأرض غذاءه . فهذه الجنود المجندة هي التي تعين على نمو النبات . فهي أشبه بالطحالب والمجانين والخبازين لنوع الانسان عليهم تتوقف حياة كثير من الناس . فقال : والله إن هذا ليجب ! فقلت إن النبات كالتفاح والقمح لا يستطيع أن يتعاطى عنصر (الاوزوت) مثلا وهو من أهم العناصر المكونة للنبات إلا بحالة خاصة وهذه الحال الخاصة لا تحصل تكون الجراثيم في البكتريا إلا بعمل هذه الخلايا في المواد العضوية المعقدة التركيب . إذن هذه نعمة من الله على الناس - إن الله ليرفض على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون - وكيف يشكرون وهم يجهلون . وبهذا ظهر السر في أن هذه النباتات في حال خودها كما في (شكل ٤٩) تقدر أن تتحمل الحرارة الشديدة وتأثير المواد الساقطة أكثر من التي هي غير خادمة بل حية ، ويسمون الحية خضرية . والتي خدت يسمونها بالجراثيم . فقال إذن هذه النباتات التي لا ترى تقوم بتحليل العناصر والنبات المعروفة عندنا تقوم بتركيبها . قلت : لقد أحسفت ، فلولا صحة التحليل وصدقه ما أمكن التركيب . فقال : وهل لها فعل غير هذا ؟ قلت كثير :

(١) بعض أنواعها يكون سببا في الخلل ، ذلك كما قلنا انه يحيط بنا : فهو ينزل في نحو النبيذ والخبز فينمو ويتكاثر فيكون الخلل

(٢) ولا يمكن دبح الجلود إلا بعد قيام نوع آخر منها بعملية خاصة فيها ، وهذه الزبدة التي نأكلها لا يحسن طعمها ولا رائحتها إلا بعد أن يختمر اللبن بنوع من هذه المخلوقات الخفية . وهكذا اللبن ان يكون (لبناً زبادياً) إلا بواسطة هذه المخلوقات . فهي التي تنسكتر فيه حتى يختمر . إذن هي تحضر لنا غذاءنا كما تحضر للنبات غذاءه

فقال : إذن فاذ كر لي ضررها ؟ فقلت هي تدخل أمراضا كثيرة في الانسان بطرق مختلفة ويجب على الانسان أن يتقيا وأول من أوصىها الاستاذ (باستور) منها :

- (١) مرض التسمم
- (٢) والطاعون
- (٣) والتيفود
- (٤) والتيفوس

(٥) والالتهاب الرئوي وهو السل

ويدخل للإنسان بالأول من طريق الجرح في الجلد ، وبالثاني من طريق البراغيث ، وبالثالث من طريق القمل ، وبالرابع من طريق الغذاء جاريا في القناة الهضمية ، فيكون هنالك الاسهال الشديد والسل الرئوي والتيفود كما قدمنا . كل هذا سببه هذه الحيوانات . وبالخامس من طريق الرئتين وللوقاية من هذه يجب النظافة واستعمال المطهرات والمعقمات في الأول ، والنظافة وابداء الحشرات في الثاني والثالث . وابداء الذباب واستعمال الماء النقي وتعيم اللبن وحفظ الأغذية في أما كن نظيفة وهكذا في الرابع ، وتجنب الأما كن التي فيها التراب ، ومعالجة الزكام والبرد بسرعة ، وتجنب البصق ، والابتعاد عن المرضى ، وتناول الطعام الجيد ، والمحافظة على الصحة بوجه عام في الخامس

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : لقد أحسنت وشرحت صدري ، ولكن هل هذا نعمة ؟ قلت أجل نعمة فهذا يعطي الناس دروس الجهد والاجتهاد في الحياة . فإذا كان بعض هذه الجرائم الخضر والحيوانات الدنيئة تقوم بتحليل المواد العنصرية ليعيش زرعنا ويدرك ضرعنا فها هو . ذه بعضها تقوم بتقويم العقول وتنمية الملكات وتهذيب الأخلاق ، فهي التي تدعونا لتنظيف أمكنتنا وثيابنا وطعامنا وشرابنا ونكون رجلا نشطين لا خامدين . إذن هذه جيوش مرسلة من الله لاطعامنا ولاحداث النشاط فينا بسبب مقاومتنا لها ، ومماثل هذه النباتات القوية التي تحلل العناصر لتغذية النبات فتعيش بها ، والتي تحدث الأمراض من طريق الجلد والقناة الهضمية والرئة إلا كتل النحل ودودة الحرير وهكذا الحيات والعقارب فكما ان الحيات والعقارب والحشرات الأخرى تحثنا على تنظيف أقبنتنا ومنازلنا وثيابنا ، والنحل ودود القز نفيدنا غذاء وملبسا هكذا هذه النباتات فيها القسمان الضار والنافع ، فبالضار يكون الاحتراس والابتكار والاختراع وتقدم الطب وانشاء الكليات ومدارس الطب وارتقاء علوم كثيرة ، وبالنافع يكون نمو النبات ومنافع أخرى كصلاحية الزبدة والحل للتعاطي فقال : لقد استوفيت هذا المقام ، فأرجو أن تبين لي هل هذه الجرائم والخلايا النباتية التي شرحتها الآن ذات ألوان كالنباتات المعروفة ؟ فقلت هي ثلاثة اقسام ، قسمان منها لالون لهما ، والثالث له لون وهو الطحلب والذيان لالون لهما أحدهما يسمى الفطر والثاني يسمى البكتريا ، فثال

البكتريا ما ترى في (شكل ٥٠) الذي أمامك الآن



(شكل ٥٠)

رسم العقد التي تشاهد على جذور النباتات البقلة

هأنت ذا شاهدت العقد المحيطة بهذه البكتريا العقدية ، أتدري من أين أنت هذه العقد ؟ أنت من تلك الجرائم ، فانها تعيش وتتكاثر فوق النبات وتتغذى بطعامين اثنين : طعام هو الكربون الذي في الشجرة ، وطعام هو الاوزون الذي هو أحد أجزاء الهواء . فلا يزال يتكاثر حتى يموت بانتهاء آجاله ومن الذي يرث هذا الميت ؟ يرثه نفس هذا النبات الذي قبله في ضيافته فخل بساحته ، فإذا يجد النبات عند حصر التربة يجد أن الكربون الذي تمثل في جسم تلك النباتات الصغيرة موفرا بحاله ومعه أمر آخر وهو الاوزون الذي حصله ذلك الضيف من الهواء وهو كان قبل ذلك محتاجا اليه ليقوى به . إذن هذه النباتات نافعات للنبات من جهة ومن جهة أخرى تنكسب الأرض خصوبة باضافة أوزون جديد الى تربتها

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : أود أن توضح لي مسألة الطحلب . فقلت سأريك الآن العجب العجيب في مسألة الطحلب . وذلك ما ستراه من الأشكال البديعة في الصفحات التالية . فهناك ما جاء في كتاب « علم النبات » وهذا نصه

الطحالب

الطحالب نباتات ثلاثية مركبة من خلية واحدة أو من خلايا عدّة ، وهي بسيطة التركيب لا تتميز فيها جذور أو سوق أو أوراق ، وتحتوى خلاياها على مادة الكلوروفيل ، وتعيش في الماء المالح أو العذب ، والقليل منها يعيش في التربة أو على جذوع الأشجار

والطحالب أهمّ غذاء للأسماك ، ويستخرج من بعضها اليود والبوتاسا ، ولدراستها أهمية عظيمة من الوجهة العلمية إذ أنها في بساطة تركيبها وطرق معيشتها تساعد على تعرف طرق معيشة النباتات المائية . ومن المنفق عليه أن الكائنات الحية نشأت في الماء . والطحالب على أنواع تختلف في ألوانها وأحجامها :

(الطحالب الخضراء) تعيش طفافية على سطح الماء أو مثبتة على الصخور الواقعة على الشواطئ معرضة لضوء . وهي في الغالب صغيرة الحجم . وحيدة الخلية . أو كثيرة الخلايا . مكوّنة خيوطاً متفرعة أو غير متفرعة أو مستعمرات (انظر شكل ٥١ و ٥٢ و ٥٣ و ٥٤)



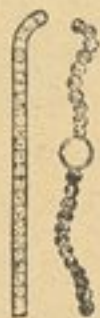
(شكل ٥٢)

مستعمرة من الطحالب الخضراء



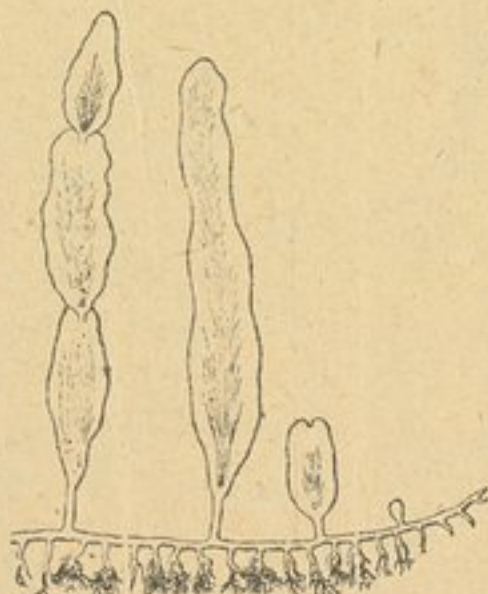
(شكل ٥١)

طحالب خضراء وحيدة الخلية



(شكل ٥٤)

طحالب زرقاء مخضرة

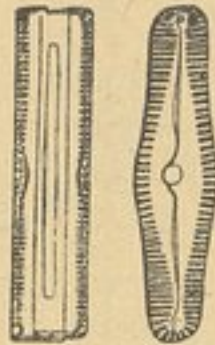


(شكل ٥٣)

طحالب أخضر وحيدة الخلية أعضاؤه تشابه أعضاء النباتات الراقية

(الطحالب)

(الطحالب البنية) تعيش على عمق يسير من سطح الماء . أوطافية عليه . ومن هذه أنواع مركبة من خلية واحدة يحيط بها هيكل سيليسي (انظر شكل ٥٥) وعند موتها ترسب هياكلها وتتكون منها طبقات سيليسية



شكل ٥٥ - طحالب بنية وحيدة الخلية (دياتومات)

وفي الغالب تكون الطحالب البنية مثبتة على الصخور الموجودة على مستوى ماء الجزر فتتعرض للضوء مدة الجزر وتختفي قليلا مدة المد . وهي تختلف في أحجامها من طحالب صغيرة الى طحالب كبيرة الحجم (الطحالب الحمراء) تعيش على أعماق كبيرة من سطح البحر . وأغلبها صغير الحجم خيطي التركيب . وكل الطحالب على ألوانها المختلفة تحتوي على مادة الكلوروفيل ولكنه يوجد في الطحالب البنية والحمراء فضلا عن الكلوروفيل مواد ملونة تخفي لونه الأخضر

ومن الطحالب ما يماثل النباتات الراقية في وجود مثبتات لها تشبه الجذور يعلوها جزء اسطوانى يشبه الساق ويخرج منه ما يشبه الأوراق . وقد يبلغ الواحد منها أحيانا حجم شجرة كبيرة . وتتكاثف بعض تلك الطحالب الكبيرة كالسرجاسوم (انظر شكل ٥٦) في مناطق معينة . منها منطقة في المحيط الأطلسي تعرف بحرسرجاسو . ولشدة تكاثفها وكبر حجمها تعد خطرا على الملاحة في هذه المنطقة . وبعض الطحالب الحمراء يفرز هيكلا خارجيا من كربونات الكالسيوم يحيط به ويساعد على تكوين الشعب المرجانية (انظر شكل ٥٦)



(شكل ٥٦ - السرجاسوم : أحد الطحالب البنية الكبيرة الحجم)

الفُطر

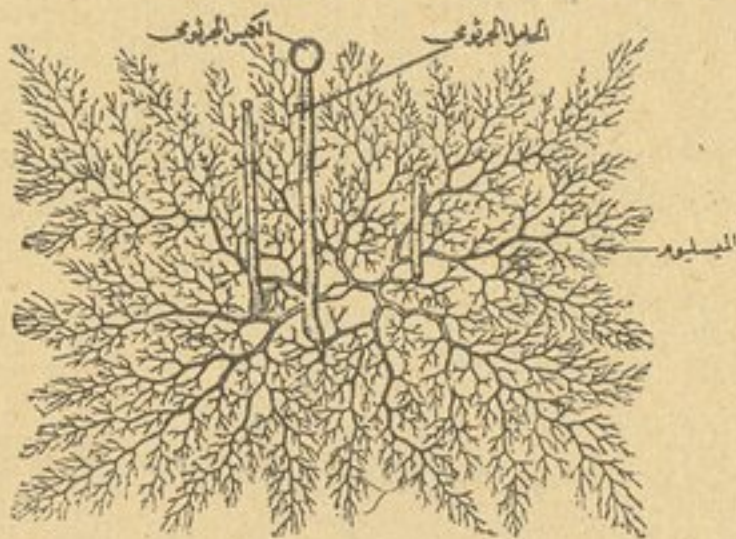
الفطر تشبه الطحالب في بساطة تركيبها . غير أنها كالسركتر بأحاليه من الكلوروفيل . ولانعدام الكلوروفيل فيها تأثير كبير على طرق معيشتها . فهي غير قادرة على تمثيل الأغذية غير العضوية . ولذلك تحتاج الى مواد عضوية مجهزة . وتنقسم الفطر بالنسبة لمصدر غذائها الى قسمين :

(١) فطرية وهي التي تناول غذاءها مجهز من المواد العضوية الميتة . وهذه الفطر أهمية كبيرة في الطبيعة إذ أنها تساعد البكتيريا على تحليل المواد العضوية الميتة وتحولها الى مركبات بسيطة . وبعضها يسبب فساد كثير من المواد الغذائية . فتعفن الخبز والمربات وكثيرا ما يسبب عن إصابة هذه المواد بأنواع مختلفة من الفطر

(٢) فطرية . وهي التي تناول غذاءها من (بروتوبلازم) الكائنات الحية مباشرة . ومنها ما يصيب النباتات فبسبب لها أمراضا مختلفة قد ينجم عنها خسائر فادحة في الثمار والزراعة ومن الفطر ما يصيب الحيوانات والانسان . فالقراع مثلا يتسبب من إصابة جلد الرأس بنوع من الفطر الطفيلية . والفرق بين الفطرية والفطرية غير واضح في بعض الأحوال لأن بعض الطفيليات قد يستمر على التغذي من عائله بعد موت ذلك العائل كما ان بعض الفطرية قد يتحول الى طفيليات في ظروف خاصة

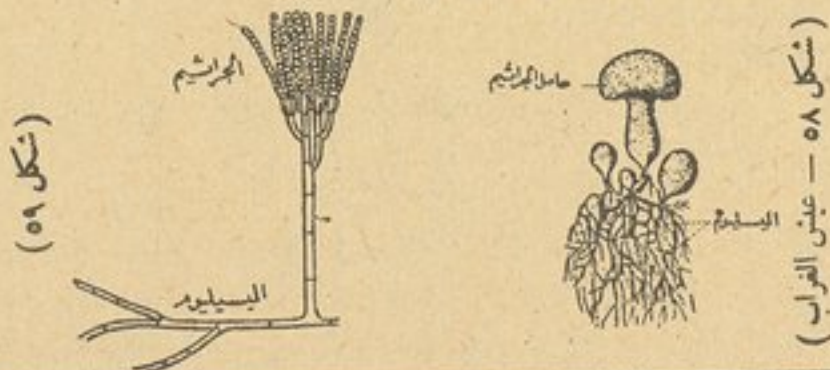
(تركيب الفطر)

يتركب جسم النبات الفطري إما من خلية واحدة كالتحيرة . وإما من أنابيب رفيعة كثيرة التفرع تسمى كل منها (هيفات) ومجموعة هيفات الفطرية الواحدة تعرف بالميسليوم كما في (شكل ٥٧) وقد تكون الهيفات مقسمة بحواجز عرضية (شكل ٥٨) أو غير مقسمة (انظر شكل ٥٧)



(شكل ٥٧)

وقد تتكاثف هيفات بعض الفطر وتلتصق فتتكون منها كتلة تشبه أنسجة النبات الرقيقة كما هو الحال في «عيش القراب» (انظر شكل ٥٨ و ٥٩)



﴿ جمال العلم في قوله تعالى - ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة - مع قوله تعالى - وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين - ﴾

سبحانك اللهم شملتنا بإحسانك . وبهرتنا بجمالك . ونحن الى جلالك أشوق . والى علمك أكثر بهجة وأفرح قلوبا

سمعناك يا ربنا تقول - وقدر فيها أقواتها - . فأخذنا نستقرئ هذه الأقوات . فوجدنا عجبا وجدنا أن أسبابها هي المشرقات الجيبات من الشمس والكواكب والأقمار . أدركنا الطرف الى تلك المشرقات فألفيناها لاقتنا نلقى الأشعة والأنوار على أرضنا الجيلة البهجة الحسنة . ووجدنا أن حركات تلك المشرقات لها حساب لاخلل فيه ولاخطأ ولاخلل . ورأينا صيفا وشتاء وربيعا وخريفا وليلا ونهارا كلهن بحساب . ثم ان الأنوار الواصلة الى الأرض مختلفات ضعفا وقوة باختلاف ذلك الحساب . وعلى مقتضاه وجدنا النبات في الأرض قلنا لعل الحساب في تلك الكواكب وحدها . أما النبات فالحساب فيه . بل هو خارج بمقتضى المصادقة . ولكننا لما نظرنا في أمر النبات وأخذنا نستقرئ أنواعه وأجناسه وجدناه بحساب إذ رأيناه موضوعا أيضا بدقة لأنه محمول لغذاء الحيوان والانسان . والانسان يحتاج في اليوم والليلة من الغذاء الى مقدار أقله نحو نصف كيلوجرام وأكثره نحو كيلوجرام . وسيأتي تفصيل هذا المقام في أول ﴿ سورة الجاثية ﴾ فراجعه ولا تعول إلا على التفصيل هناك ولنجهل بعضه هنا فنقول

رأينا أن الانسان يحتاج الى نوعين من الطعام : نوع هو مواد عضوية مركبات من مواد نشوية ومواد دهنية ومواد زلالية (آزوتية) . ونوع هو مواد غير عضوية كالألاح المختلفة والماء . والجرام من المواد الدهنية يعطى الجسم حرارة تولد نشاطا فيه وحركة . وتلك الحرارة لها وحدة يسمونها (كالورى) أو (سعر) ومجموع ما يحصل من جرام الدهن (٩) كالورى . وما يكون من جرام النشاء (٤) كالورى . وما يكون من جرام الزلال (٤) كالورى ، فاذا كان في الطعام (٣) كلوجرامات من كل واحد جرام كان فيه (١٧) كالورى (سعر)

﴿ غذاؤنا لا بد فيه من مواد دهنية ، وأخرى نشوية ، وأخرى زلالية ﴾

فالدھنية كالزيت ، والنشوية كالأرز ، والزلالية كالبيض واللحم وهكذا ، فهذا الذى نحتاج اليه في طعامنا ألفيناها في النبات وفي الحيوان ، ثم وجدنا نسبة مختلفة ، فتارة يكثر الزلال ، وتارة يكثر الدهن ، وتارة يكثر النشاء ، ولنا أحوال مختلفات من صحة ومرض وضعف وقوة وعلى مقتضاه تختلف أطعمتنا ، فتارة نكثر من النشاء . وتارة نكثر من الدهن . وتارة نكثر من الزلال . ثم اننا لما بحثنا النبات وجدنا هذه فيه بنسب مختلفة أيضا فعرفنا أن ههنا حسابا موضوعا بدقة لنستعمل ما يوافقنا منه بعد التروى والبحث والتقيب . وهالك مثلا لتلك :

﴿ المواد النشوية ﴾

رأينا المادة النشوية تكثر في الارز والقمح والبرزلة الناشفة والبقول الناشف واللوية الناشفة والعسل والبلح الناشف . فهذه الأنواع التسعة يكون النشاء فيها من نصفها الى ثلاثة أرباعها . ونرى الكرب والطماطم والسبانخ والخض وكشك الماز والخيار والشمام والبطيخ والبرقال والليمون فيها أقل من عشرة في المائة مواد نشوية . ونرى البقول السوداني والتفاح والكمثرى والخوخ والتوت والعنب واللوز والتين واللوز والبندق والجوز وأبوفروه وجوز الهند والبندق والصنوبر . كل هذه فيها النشاء أكثر من عشرة في المائة .

﴿ المواد الدهنية ﴾

وترى المواد الدهنية تكثر في اللوز والبندق والجوز والفسدق وجوز الهند والصنوبر فهى في هذه أكثر من النصف . وترى الدهن في الديك الرومى والأوز والضانى والبقرى والقول السودانى والبيض أكثر من عشرة فى المائة . وزراه فى القمح والتمر واللبن والبطاطس والبظاطة واللوية الخضراء وما أشبه ذلك قليلا جدا

﴿ المواد الزلالية (الآزوتية) ﴾

اننا ترى للمواد الزلالية فى الديك الرومى والأوز والفراخ والضانى والبقرى، والصنوبر والفسدق والجوز والبندق واللوز والقول السودانى والعدس واللوية الناشفة والقول الناشف والبرلة الناشفة فى كل هؤلاء أكثر من عشرة فى المائة . وزراها أقل من عشرة فى المائة فى البرلة المقشرة وفى السكرن والطماطم وهكذا محبا يارب بنا : وزنت سبر التيرات . وأدهشنا بعلم الفلك . ولكنك فى خلق الحيوانات والنباتات وجدنا حسابك مركبا مضاعفا . فانك جعلت أجسامنا مركبة من مواد دهنية ومواد آزوتية ومواد نشوية . ونفس هذه المواد وجدناها بمقادير مختلفة . ثم سمعناك تقول فى كتابك - وقترفيها أقواتها -

يارب بنا للجهالة . تبا للجهال . يسمع المسلم - وقترفيها أقواتها - فتمر عليه الكلمة غالبا كأن لم يسمها . أو أنه لأهم الاسلام الثامنة . أفلم يدبروا القول إذ جاءهم !

إن هذه المات كل قد وزنتها الأمم حولنا ونظروا فيها نظرانهم . فهل يبقى المسلمون مكتوفى الأيدي . إن للسامين بعد انتشار هذا التفسير لجولة ودولة وصوله واسعادا لنوع الانسان . هذه النباتات طلاس وأغاز لا يحلها إلا علماء جميع النوع الانسانى لا بعضه . والمسلمون يلفون نحو الخس أو الربع من نوع الانسان ، فليهم أن يقوموا بما عليهم حتى اذا درسوا ما أنتجت قرائح آياتهم . ثم ما أنتجت قرائح الأمم المتأخرة بدمهم قاموا إذن بشيهم من البحث فى الأغذية وأنواعها قيما بحق قوله تعالى - وقترفيها أقواتها - إذ وضها بوضع مقتر فكانت المواد النشوية والمواد الأزوتية والمواد الزلالية كل منها له نسب خاصة فى المواد العضوية وذلك لاختلاف الآكلين والأمنجة والأمكنة والأشخاص ، وذلك بعوزة كثرة البحث والتنقيب حتى تكون هناك نتائج بها يخص لكل قبيل ولكل امرئ ما يناسبه زمانا ومكانا ، هنالك تقل الأمراض وترقى العقول وتسد الانسانية . ولن يتم ذلك إلا اذا ساعد الغربى الشرقى ، والشرقى الغربى ، فى درس هذه الدنيا ونظامها ورموزها

خطاب المؤلف لربه

يارب فى القلوب حبك ، وفى العقول شكرك ، وعلى الألسنة نناؤك ، لاسعادة فى الحياة إلا بالحب ، ولاحب إلا بعد العلم
تحبك الله وأب والأنعام لأنك تسدى اليها الغذاء ، وتحبك العائمة من نوع الانسان لأنك تطعمهم من جوع وتفتنهم من فقر ، وهذا حبك كحب عبيد العسا يحسون بحب ساداتهم اذا رفعوا عنهم ضرب العسا ، فهو حب على دفع الألم بعد حصوله ، وهل اللذة إلا بعد الألم . ويحبك بعض آخر من العائمة لأنك فوق ماغذيتهم بالطعام ملكتهم منه كثيرا ، وأنعمت عليهم بالمال الوفير والخيرات والبركات وآيتهم ملكا فى الدنيا . ويحبك الأطباء لأنهم اطلعوا على أسرار الأغذية وخواصها فشفيت بها مرضاهم . ويحبك الحكماء وجهم لك أعلى من حب السابقين

﴿ تذكرة ﴾

اذا أردت أن تعرف كيف ترتب غذاؤك فاقرأ ما تقدم فى آخر سورة ص عند قصة آدم عليه السلام ،

وفى سورة آخِر سورة طه ، وفى سورة الشعراء عند آية - وإذا مرضت فهو يشفين - وفى سورة الحجر وفى سورة الأعراف عند قوله - وكلوا واشربوا - الخ وفى سورة البقرة عند آية - أنسبلون الذى هو أدنى بالذى هو خير -

انهم يحبونك لعلمك الذى ظهرت آثاره فى نحو تقدير الأتوات ولزجتك التى تجلت فى عنايتك باستيفاء أنواع أغذية الحيوان ، ولجمالك الذى تجلت آثاره فى صور النبات وأشكاله وبدائع الحيوان ، ولحبك الذى أمد بعضه القلوب فأحبت الاحسان والجمال والكمال . إن سعادتنا بالحب . ولا كمال للحب إلا على مقدار العلم المحبوب . يصلى المسلم فيقول « الحمد لله رب العالمين » ويسبح ويكبر . فبالسبح يتصور أن ذلك المحبوب أرفع من كل ما يعلمه . وبالتحميد يتذكر إحسانه وعلمه فيزداد حبه . وبالتكبير ينسى كل مخلوق ويفرح بذلك الوجود الأكمل ، وهناك يفهم - وإذا رأيت ثم رأيت نعبا وملكا كبيرا -

بازدياد العلم يزداد الحب . وبازدياد الحب تزداد السعادة . وأفضل سعادة الدنيا هو الحب . وأفضل سعادة الآخرة هو الحب

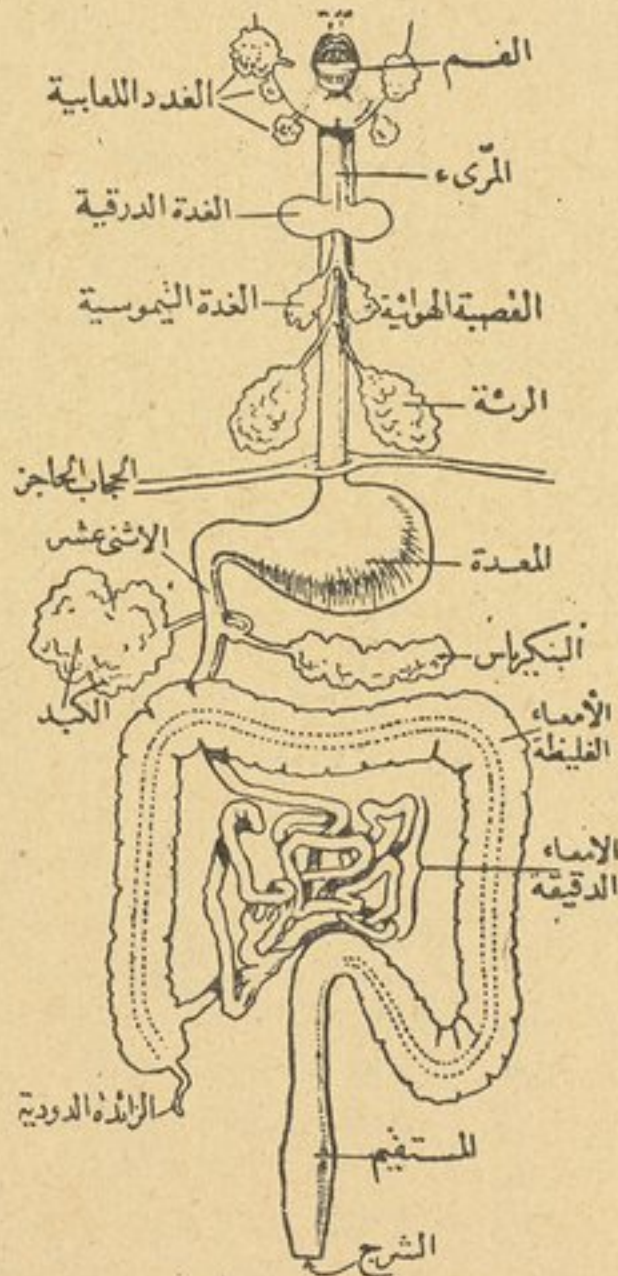
﴿ نور على نور وضرب مثل بما نحن فيه لما يلهب القلوب حبا ويملؤها جمالا ويبرها أنوارا ﴾
أريد أن أضرب مثلا ببعض أنواع النبات ونظامها وموافقها للجهاز الهضمي . ياسبحان الله : ترى الانسان يعوزه فى اليوم (١٨٠٠) سعر اذا كان فى فراشه . وقد عرفنا ماهو السعرة فيما تقدم قريبا أن الذى يحده فى الجسم هو المادة الدهنية والنشوية والاوزونية . وهو يحتاج الى (٤٠٠٠) سعر إن كان فى شغل شاق والى نحو (٣٠٠٠) اذا كان فى شغل متوسط . ولقد عرفنا أن الجرام من المادة النشوية ومن المادة الزلالية يحدث (٤) سعر (كالورى) ومن المادة الدهنية يحدث (٩) كالورى فلننظر فى المرة والقمح والصنوبر والفول السوداني فإذا نجد ؟ نجد الجدول التالى

الصفة	ماء	آزونية زلالية	دهنية	نشوية	القيمة الغذائية للرتل المصرى
قمح	١٢ر٨	١٠ر٨	١ر١	٧٤ر٨	١٥٦٤
أذرة	٩ر٣	٩ر٩	٢ر٨	٧٦ر٣	١٥٤٧
صنوبر	٣ر٤	١٤ر٦	٦١ر٩	١٧ر٣	٣٠٤٠
فول سودانى	٩ر٢	٢٥ر٨	٣٨ر٦	٢٤ر٤	٢٤٣٤

إمما اختلفت هذه الأغذية لأنها تعطينا ضروب التفاوت فى مقدار السعر وفى المقادير الدهنية والاوزونية والنشوية ، فقد ارتفع الفول السودانى فى المادة الاوزونية ، والصنوبر فى الدهنية ، والقمح والأذرة فى النشوية وارتفع الصنوبر فى قيمة التغذية . ويلىه الفول السودانى وأقل منهما القندرة والقمح

هذه صورة تظهر لنا مقادير الأغذية فى النبات ، إن كل نبات لا يتخلو من هذه المواد ، ففيها الماء ، وفيها المواد الثلاثة ولكن النسب مختلفة كما اختلف الناس أوطانا وقوى وأجساما وقبائل وعادات فاختلقت النباتات كما اختلفوا . وهما مدهشات ومجائب ا هو أمر الشمس وأمر جذور النباتات وأمر أوراقه والجهاز الهضمي للانسان مثلا . أليس من العجيب أن الشمس ترسل الأشعة فتساعد تلك المادة الملونة التى تقدم وصفها فى ﴿ سورة يس ﴾ عند آية - سبحان الذى خلق الأزواج كلها - يارب عجبا (انظر الموضوع هناك إذ ترى صور الورقة ، ووصف الحجرات فى كل ورقة ، وانها تكون مئات وألوف وملايين فى الورقة الواحدة والمادة الملونة فى تلك الحجرات يساعد ضوء الشمس فى اجتذاب الغذاء من الهواء ، ولولا هذا لم يكن نبات) وهكذا

تري جذور الأشجار والزرور ذات مسام شعرية تختلف فتحاتها اختلافا على مقتضى اختلاف النبات بحيث تكون الفتحات الشعرية لكل نبات صالحة لاجتذاب وقبول المواد التي يمثل بها النبات ، وفتحات هذه الأنابيب هي مفاتيح سرّ النبات ، فتكون في الصنوبر غيرها في الفول السوداني غيرها في النرة والقمح بحيث لو اختلت أو اضطرت فدخلت مواد تزيد في المادة الدهنية أو النشوية أو الأوزونية عما هو مقرر لكل منها لم يكن في الأرض فول سوداني ولا ذرة ولا قمح ولا صنوبر ، فنظام هذا العالم نظام أدبي عجيب ، لو اختلت الأوراق في سمراتها أو الجذور في فتحاتها فدخلت ذرات لا توافق حساب المواد المقررة للنبات لم يكن ذلك النبات وفسد هيكله ولم يرض حيوان ولا انسان قال تعالى - وكل شيء عنده بمقدار - . والأمر الأدهب أمر الجهاز الهضمي (انظر شكل ٦٠)



(شكل ٦٠ - رسم الجهاز الهضمي)

تجيب لهذا الجهاز . انتركيف نظمت مصانعه على مقتضى نظام النبات . ومعنى هذا انه جاء مطابقا للمواد الداخلة في النبات ، فكما نرى في كل نبات :

- (١) مادة نشوية وتغلب في الحبوب كالقمح والشعير والأرز ، وفي الخضراوات كالبطاطس والبطاطة واللفت والجزر والبنجر ، وفي البقول كالفول والعدس واللوبية والبرزلة (الجافة)
 (٢) ومادة زلالية أوزوتية وتغلب في البقول واللحوم
 (٣) ومادة دهنية وتغلب في الزيوت (والسمن والزبدة ودهن الحيوان والطيور)
 هكذا نرى في هذا الجهاز المرسوم في الصحيفة السابقة :

﴿ أولا ﴾ - (١) مصانع في القم وهي (٦) يتابع تهضم بعض المواد النشوية (٢) ومابقى من الغشاء بلاهضم بهضمه البنكرياس بخميرة خاصة به ويزيد هذه المادة هضم (٣) عصارة الأمعاء الدقاق

﴿ ثانيا ﴾ المواد الدهنية وهي تهضم بعصير يخرج من مصنعين : أحدهما البنكرياس ، وثانيهما مايفرزه الكبد من الصفراء

﴿ ثالثا ﴾ المواد الآزوتية وهي تهضم بالعصير المعدي والبنكرياس

المواد	الهواضم
النشاء	(١) لعاب القم وهوست يتابع
الآزوتية	(٢) العصير المعدي
الدهنية	(٣) الصفراء
النشاء الآزوتية	(٤) البنكرياس
النشاء	(٥) عصير الأمعاء الدقاق

فإذا نحن جاوزنا لعاب القم أقمينا بحجبا لثانيا البنكرياس تهضم الأنواع الثلاثة بأنواع من الهواضم مختلفات ، والثانيا العصير المعدي والصفراء والأمعاء قد وزعت عليها أنواع الأغذية الثلاثة توزعا عادلا فساعد كل مصنع في هضم مادة من المواد ، إذن لكل مادة نوعان من الهواضم إذا استثنينا لعاب القم للمواد النشوية ههنا ننظر في ضوء الشمس ، وفي حجرات الأوراق ، وفي فتحات الأنايب الشعرية ، فنجدها قد حسبت حسابا متقنا حتى حصلنا المواد الغذائية ، ثم نبعد في الجهاز الهضمي فنجد المصانع فيها موزعات على هذه المواد التي عملت فيها عوامل الأضواء وورق وفتحات الجذور الشعرية

﴿ نظام الأمم الأرضية ، والشوق الى مبدع النظام ﴾

فيا ليت شعري يا معاشر بني آدم ، أفتعلمتم عن هذا النظام ، ألم تعلموا أن هذا مثل فضله الله للناس بنفس نظام ما كلفنا ، وقال لكم : « لولم يكن هناك البنكرياس مع العصير المعدي ، ولولم يكن البنكرياس مع الصفراء ، ولم يكن البنكرياس مع عصير الأمعاء لم تهضم المواد الآزوتية والمواد الدهنية والمواد النشوية » - يدبر الأمر بفصل الآيات لعلكم تلقوا ربكم توفقون -

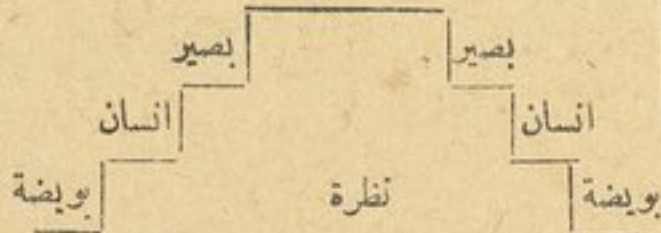
فقط هو التفصيل ، وهذا هو التدبير ، وبهذين يكون الايقان ، واليقين هو العلم الذي لا يدخله الشك . لو أن مصنعا من هذه المصانع الهواضم للمواد لم يكن في الجهاز الهضمي لاختل نظام الهضم . ألم يعلم هذا النوع الانسان أن الأرض جميعها أشبه بالجهاز الهضمي وأن عقول بني آدم أشبه بهذه المصانع الهواضم لهذه المواد وأن اختلال عقول أمة أو ضعف قوتها يحرم المجموع الانسان مما تنتجه تلك العقول كما يحرم الانسان من هذا

الانتفاع بشيء وبدن وبزلال لم يجد ما بهضمه . أئى فرق أياها الناس بين القوى الهاضمات المواد والأغذية المختلفة وبين العقول المختلفة الموزعات على الناس ، أليس هذا النظام الجسمي الجيب مشاكلا كل المشاكلة للنظام العام . اللهم إني أكتب هذا القول في كتابك وأناطب عبادك جميعا في الأرض ، وأقول : « مادامت هذه الأرض فيها أمة واحدة لم يستخرج ما عندها من القوى العقلية وما في أرضها من القوى المادية فأهل هذه الأرض جميعا معذبون على مقدار ما نقصهم من فوائد تلك العقول كما تنقص سعادة الانسان الواحد بما نقصه من القوى الهواضم لمواد طعامه ، وهذا القول أنا به موقن
عروج النفس الى العالم الأعلى

لقد قدمت في غير ما موضع من هذا التفسير لاسيا في آية - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - الخ في هذه السورة أن المادة عجزت عن إمداد عوالمها بالحرارة والضوء . فهي عن إمدادها بالتصوير والادراك والعقول والفرايز والقوى أشد عجزا ، وأقول الآن : إن العلم اليوم في العالم الانساني أثبت أنه لا وجود للمادة لأنها عبارة عن حركات تنوعت فإن كانت من ٤٠٠ مليون مليون في الثانية الى ٧٠٠ مليون مليون فيها فذلك هو الضوء ، وإن كانت نحو ٦ آلاف مليون مليون في الثانية فهي العناصر ومركباتها ، فليحذف النوع الانساني من صحائفه ذكر الفلاسفة الماديين ، فإذا لم تكن مادة فكيف يكون لها فلاسفة . ولكن الناس يذكرونهم وهم ينافلون عن رقى العلم اليوم .

فلم يبق إلا أن هناك : علما ورجة وجمالا وحبا استمدت منه الناس علمهم ورجاتهم وحبهم وصورت العوالم بالصورة الجلية التي لا تقدر عليها المادة الموهومة ، فهنا نتيجتان : نتيجة سياسية ، وهي ان الأمم الأرضية لا تزال مضطربة معذبة حتى يستقر قرارها بنظام يشمل جميع نوع الانسان فيكونون كجهاز هضمي واحد يقوم بجميع ما في الأرض من الأعمال ، ونتيجة علمية ، وهي ان أسعد حياة للانسان أن يدرك هذه الحقائق بعقله من غير تقليد ، وهناك يرى أن عقله والرجة التي عنده ، والجمال المبدع في العوالم حولنا ، والحب المنبث في العوالم كل هذه آثار لعلم ورجة وجمال وحب واسع ، فحق أحسن - بذلك دخل في عداد السعداء في هذه الحياة ، ويكون من قبل فهم . - لا يجزئهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون -

عاقل



وسياتي تفصيل هذا المقام في تفسير البسمة في سورة الدخان ، وسيترى هناك كيف خيات لي درجات رقى الانسان أولا في بطن أمه وثانيا في درجات إحساسه ثم في عقله ، وهناك ترى رسما أظهر من هذا الرسم إذ يكون بويضة في الرحم فيرتقي الى أن يصير ذبابة وقردا وانسانا ، ثم بعد الوضع يلمس ويدنق ويشم ويسمع وبصر ثم يعقل وهناك وصلت ، في الخيال الى الذرة العليا ، وعلوت الى ذلك المستوى الرفيع ، وغادرت عالم المحسوسات ودخلت في عالم المقولات ، غدوت ردى نظرتان : نظرة الى الأعلى ، ونظرة الى أسفل وبعبارة أخرى نظرة الى عالم العقل والروح والحب والجمال ، ونظرة الى عالم المادة كالارض ومن عليها وأشجارها وزروعها وأحجارها ورمالها وجبالها وبحارها ، هنالك تبينت لي الحقائق ، وابتهجت نفسي بالمعارف ، وأخذت أوازن مليون هفين النظرين ، وبين الصلاة في الاسلام ، فتارة كنته أحصر الفكر في العالم اللطيف الذي أسكرتني غيبته

وأبهجتني حكمته ، وأسعدتني بهجته ، فأعرف إذ ذاك كيف يكون الحمد على النعم والشكر عليها والرحمة العاتمة ومبدأ الهداية الى الصراط المستقيم ، وتارة أنظر الى العالم الأرضي أسفل هذا المعراج ، فأفهم لماذا يسلم المسلم على الأنبياء وعلى الصالحين وعلى نبيه ﷺ وعلى نفسه تارة ، ويصلى على نبينا ﷺ وعلى الأنبياء قبله تارة أخرى (وبعبارة أخرى) ان النظرة الأولى لعالم الأرواح والجمال والعقل منبع للنظرة الثانية وأصل لها ، فالأنبياء هم الذين يشنون السلام في الأرض مما اقتبسوه من ذلك العالم ، فالفاتحة أقرب الى عالم الجمال والعلم ومابهما والتشهد في الصلاة مفرغ عليها ، فإذا كان هؤلاء الأنبياء هم مبدأ السلام في الأرض اقتبسوه من عالم العلم والجمال ، فالمسلم يسلم عليهم ليقدمهم بسبب كثرة استحضارهم في نفسه فيصبح ذلك ملكة راسخة في نفسه فيفشي السلام في الأمم كما أفشوه ويستعمل أهم الطرق لذلك ويتدى بتحية الله عز وجل وهذا سر السلام على كثير من الأنبياء في (سورة الصافات) وانتهت السورة بتسبيح رب العزة والسلام على المرسلين كلهم وعلان الحمد لله لأن هذا الحمد الذي تشمله الفاتحة المبني على العلم والرحمة الخ مبناه وأصله سبب في أن الأنبياء أفشوا السلام في الأرض ، ومن هذا يفهم المسلمون سر قوله ﷺ « افشوا السلام » وسر تسليم المؤمن على أخيه كلما قابله . انتهى مساء ٣١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ والحمد لله رب العالمين

بهجة الحكمة وجمال العلم

في قوله تعالى أيضا - ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت -
أنا الساعة أظن اني نجحت في مشاركتك أيها الدكي في فهم مقادير النبات ونسبتها الى جهازنا الهضمي والى الشمس والضوء والأنابيب الشعرية وفتحاتها المختلفة ، فحق لي أن أريك الآن جدول الأطعمة من كتاب « الغذاء في الأمراض » تأليف الدكتور حسن عمر . فقد جاء فيه تحت العنوان التالي مانصه :

تحليل الغذاء كيميائيا

إن معظم المواد التي يتغذى بها الانسان إما أن تكون عضوية أو غير عضوية . فغير العضوية هي عبارة عن مختلف الأملاح التي يأكلها الانسان في غذائه ومشربه . أما المواد العضوية فهي غالبا مركبة من مادة نشوية ودهنية وزلالية (آزوتية) . هذا وسنرى في الجدول الآتي قائمة فيها تحليل معظم ما كولاتنا في المائة مع ذكر قيمتها الغذائية للجسم في الرطل المصري الواحد (انظر هذا الجدول)

القيمة الغذائية للرطل المصري بالعر	نشوية	دهنية	أزوتية (زلالية)	ماء	الصف
١٥٦٤	٧٤٫٨	١٫١	١٠٫٨	١٢٫٨	قمح
١٥٤٠	٧٩٫٤	٠٫٤	٧٫٤	١٢٫٤	أرز
١٥٤٧	٧٦٫٣	٢٫٨	٩٫٩	٩٫٣	أذرة
٣٢٥	٥٫٠	٤٫٤	٣٫٣	٨٧٫٠	بن
٦٨٥	٠٫٠	١٠٫٥	١٤٫٨	٧٣٫٣	بيض
٢٩٧	١٤٫٧	١٫١	١٫٨	٦٢٫٦	بطاطس
٤٥٠	٢١٫٩	١٫٦	١٫٤	٥٥٫٢	بطاطه
١٣٦	٤٫٧	١٫٣	٢٫٣	٨٩٫٣	لوبية خضراء

القيمة الغذائية للارطل المصرى بالسعر	نشوية	دهنية	آزوتية (زلاله)	ماء	الصف
٣٢٠	١٣٢٧	ر٤	٣٢٤	٨١٢٨	بزله بقرونها
٤٦٧	١٦٢٩	ر٥	٧٢٧	٧٤٢٦	بزله مقشره
٢٤٥	٩٢٨	ر٢	٣٢٦	٨٥٢٣	بزله فى العلب
١٥٧٨	٦٢٢٠	١٢٠	٢٤٢٦	٩٢٥	بزله ناشفة
١٥٨٩	٦٥٢٥	١٢٥	١٨٢١	١٠٢٤	فول ناشف
١٥٢٧	٥٩٢٦	١٢٨	٢٢٢٥	١٢٢٦	لوية ناشفة
١٥٢٧	٥٩٢٢	١٢٠	٢٥٢٧	٨٢٤	عدس
٢٤٤٣	٢٤٢٤	٣٨٢٦	٢٥٢٨	٩٢٢	فول سودانى
١٥٠	٥٢٨	ر٤٠	١٢٨٠	٨٩٢٦	كرف
١٥٠	ر٤	ر١٠	٠٢٦٠	٩٧٢٤	» مطبوخ
١٢٠	٥٢٠	ر٢٠	١٢٣٠	٩١٢٩	طماطم
١٢٠	ر١	ر٢٠	١٢٠٠	٩٤٢٥	طماطم مطبوخة
١٣٢	٣٢٨	ر٥٠	٢٢٥	٩٠٢٦	سبانخ
١٨٩	٢٢٦	ر٤٠	١٢٤٠	٩٤٢١	خص
٩٨	٢٢٩	ر٢٠	٢٢٢٠	٩١٢٧	كشك الماز
٥٨	٢٢١	ر١٠	ر٨٠	٩٥٢٩	خيار
٢٥٠	١٢٢٥	ر٥	ر٤٠	٨٢٢٥	تفاح
٢٣٨	١١٢٥	ر٦	ر٤٠	٨٣٢٩٠	كبرى
٢٥٧	١٣٢٤	ر٢	ر٥٠	٨٨٢٨٠	خوخ
٥٢٤	١٥٢٤	٥٢٧	١٢٣٠	٨٤٢٧٠	توت
٣٣٣	١٥٢٥	١٢٠٠	١٢٠٠	٧٩٢٠	عنب
٢٦٦	٧٢٦	٣٢٠٠	ر٧٠	٨٩٢٨٠	شمام
١٢٤	٦٢٥	ر١	ر٣٠	٩٢٢٩٠	بليخ
٤٦٢	٢٢٢٩	ر٧	١٢٥٠	٧٤٢٠	موز
١٩٥	٨٢٧	ر٦	ر٩٠	٨٦٢٧٠	برتقال
٢٠٠	٨٢٣	ر٩	١٢٠٠	٨٢٩	ليمون
١٣٢٨	٦٥٢٧	٢٢١	٤٢٤٠	٢٢٠٨	بليخ ناشف
٣٩٥	١٨٢٨	ر٩	١٢٥٠	٧٢٩١	تين
١٥٥٨	٧٤٢٧	٤٢٧	٢٢٥٠	١٢٤٠	زيب
٢٨٧٣	١٧٢٣	٥٤٢٩٠	٢١٢٠	٤٢٨	لوز
٣١١٦	١٣	٦٥٢٣٠	١٥٢٦	٣٢٧	بندق
٣١٣٣	١٤٢٨	٦٤٢٤٠	١٦٢٨	٢٢٨	جوز
١٠٧٤	٤٢٢١	٥٢٤٠	٦٢٢	٤٥٢٠	أبوفرة

القيمة الغذائية بالرطل المصرى بالسعر	نشوية	دهنية	آزوتية (زلاية)	ماء	الصف
٢٦١٩	٢٧٢٩	٥٠٢٦٠	٥٢٧	١٤٢١	جوز هند
٢٨٥٦	١٥٢٦	٥٤٢٥٠	٢٢٢٦	٤٢٢	فسق
٣٠٤٠	١٧٢٣	٦١٢٩	١٤٢٦	٣٢٤	صنوبر
٩٨٥	٠٠	١٧٢٥	١٦٢١	٥٢٢٥	بقرى بيت الكلاوى
٨٤٨	٠٠	١٢٢٨	١٩٢٠	٦٧٢٠	بقرى نغذه
٥٩٠	٠٠	٧٢٩	١٥٢٥	٦٠٢١	بنلو نغذه
٨٥٥	٠٠	١٤٢٧	١٥٢١	٥١٢٢	ضاني «
١٣٧٠	٠٠	٢٨٢٣	١٣٢٥	٤٢٢٠	ضاني كستلية
٢٨٣	٠٠	١٢٤	١٢٢٨	٤٣٢٧	فراخ
١٤٢٩	٠٠	٢٩٢٨	١٣٢٤	٣٨٢٥	أوز
١٠٢٠	٠٠	١٨٢٤	١٦٢١	٤٢٢٤	ديك روى

﴿ قسمة علم النبات بيننا وبين الأطباء ﴾

يقول عمرو بن كاثوم

فآبوا بالنهاج وبالبايا * وإنا بالملوك مصفدينا

ويقول عنتره العبسي :

لى النفوس والطير اللحوم ولا وحش العظام وللخيلة السلب

يقول إني عظيم القدر شريف المنزلة ، لا أجعل نضى وقفا على الامور المادية ، واذا قنعت الطيور بلحم من أجندهم فى الميدان ، وقنعت الوحوش بالعظام ، ورجال بما على اقتول من دروع وملابس ، فاني أكبر نسا وأعز شرفا ، فكفاني آنى أنا القاتل . فهؤلاء مقاصدهم مادية ، فأما أنا فأرى بشرف قدرا وهو انى قاهر الأقران موصوف بالشجاعة والعتق والقهر ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ لداني روحية ولقنت هؤلاء حسيه ، واللذة الروحية أعلى مرتبة وأشرف غاية وأكمل سعادة

واذا رأينا هذا الشاعر فى البادية يفخر باللذة الروحية ولا معارض له مع انها لم تمتاز عن لذة النحر ، ذلك لأنه قد يقتل الحيوان مجرد القتل لا لسد جوعه ، ولولا استلذاذه بالقتل ما فتك لغير داعية الجوع ، فهذه إذن لذة سبعية لا لذة عقلية شريفة . أفلا يحق لنا أن نقول للأطباء : « أيها الأطباء لكم المرضى فأفرحوا بشفايتهم اذا عرفتم هذه المقادير ولكم الأصحاء فعلموهم مقادير الأطعمة ليحترسوا من الوقوع فى المرض . أيها الأطباء هذا هو النبات وهذه مقاديره ، وهذا علم الطب بقسميه : علم حفظ الصحة ، وعلم مداواة المرضى ، فقوموا بهما واشفوا المرضى من علالهم وأمراضهم ، ونسأل الله نجاحكم ،

ولكننا نحن نريد مقاما أعلى لهذه الانسانية بعد أن تكونوا أتم قتم بصحة أجسامهم وحفظ صحتهم ليفهموا كلامنا لأن المريض قلما يفهم ما نقوله ، وهناك حقول مختلفات فى السماع تتوفىها أنواع العلوم الرياضية والطبيعية والتاريخية والأدبية والسياسية وهكذا كما دل عليه الكشف الحديث ، ذلك ان فى السماع محال مخصصات لكل علم قامت عليه الأدلة التشرىحية بحيث تم تلافيف خاصة باستعمال علوم معلومة ، وباعمال تلك العلوم لا يكون لهذه المحال فى السماع نمو . فاذا كان الجهار المضمي قد اقسم المواد للنشوية والدهنية

والأوزونية ، فهكذا نجد المخ اقسام المواد العلمية من رياضية وطبيعية وأدبية وهكذا . وكما وجدنا أن للأغذية مبدأ وهي الشمس أشرف الموجودات المحسوسات هكذا نجد لأغذية العقل للتصرف في الدماغ الذي هو أشرف من الجهاز الهضمي مبداً وهو أشرف الموجودات الغائبة عن الحس وهو الذات القدسية ومنه انبثت العلم في نفوس هي وسائط توصل لنا الادراك والفهم والعلم على وزن توسط النبات بيننا وبين ضوء الشمس وحرارتها . وإذا كانت كل حاسة من حواسنا الظاهرة متصلة بعالم يمانها . فلتكن عقولنا متصلات بعوالم عقلية هي مستمدة من الله عز وجل

إن هذا البرهان يقينى كالبرهان الذى تقدم فى قوله تعالى - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - الخ فى هذه السورة

﴿ هذا زمان ظهور الحقائق ﴾

هاهنا برهين أرسطاطاليس وسقراط وأفلاطون ومن بعدهم من الأمم الى وقتنا الحاضر قد شرحتها لك واضحة فيما تقدم وأبنت طرقها . ولقد اختلفوا خلفاء تلك البراهين على الذات القدسية أن الله عز وجل لم يشأ أن يظهر الحقائق للأمم مرة واحدة . إن الله نظر الى الأمم كلها نظره الى نفس واحدة . وهذه النفس الواحدة أخذ يعلمها بالتدرج والطفرة محال فألمهم سقراط ماعرفته هناك . وألمهم أفلاطون تدوينه . وأوعز الى أرسطاطاليس أن يرد البرهان . وكان ذلك سبباً فى ظهور فرق متشاكسات من أبيقوريين ورواقيين قبل الميلاد والى الأفلاطونية الحديثة . ثم الى فرق متعددة فى الاسلام وفى أوروبا . ولكن اليوم إذ ظهر سرّ النبات وانتشر واستعدت قلوب الأمم للعلم

ظهرت البراهين الآن فى هذا الكتاب جلية واضحة بحيث يسهل على المتوسطين فهمها وسيسهل الاختلاف فيما كتبناه فى هذا المقام وأوضحناه فى هذه السورة . ولقد جاء فى كتاب « المذهب الروحاني » لمؤلفه عبد الله اباسى أحد الروحانيين الشرقيين فى صحيفة ١٤١ أسئلة تناسب المقام . وهالك نصها :

(س) هل يمكن للطبيب أن يستحضر المرضى الذين ماتوا على يده ، ويستوضح منهم بعض الدلائل يزداد بها خبرة وعرفه ؟

(ج) قد يصح ذلك وينال المساعدة من الأرواح العلوية ذاتها بشرط أن ينكب على درسه هذا بالاستقامة وصغاء لابنية حشد المال وكسب المعارف من دون جد ولاعناء

(س) هل يمكن استرشاد الأرواح فى المباحث والاكتشافات العلمية ؟

(ج) إن العلم هو صنع العقل ، ولا يكسب إلا بالعمل ، وبالعمل وحده يتقدم المرء فى طريقه ، أى فضل

يبقى للإنسان إذا أمكنه أن يعرف كل شىء باستنباه الأرواح ؟ أليصبح العسى الجاهل بهذه

الطريقة عالماً ؟ ثم ان لكل شىء وقتاً معيناً يأتى فى حينه أى عندما تكون الأفكار مؤهلة لقبوله

وأما بتلك الطريقة فيقلب الانسان نظام الأشياء ، إذ يقطف الثمرة قبل نضجها

(س) ألا ينال إذن العالم والمخترع عوناً من الأرواح فى مباحثه ؟

(ج) إن العون لا ينقصه عند ما يكون أو ان الاختراع قد دنا فتوافيه وقتئذ الأرواح وتلقى اليه بعض

الإلهامات الفكرية فينقرها هو ويستغل بها الى أن ينتج منها الاكتشاف المقصود فيكون

معظم الفضل راجعاً له ، فلما كم إذن والزيف عن محجة الروحانية والتطرف الى أمر لا يلحقكم

منه إلا الخلداع والسخرية (١) اه

(٧) اتصل الجهل ببعض عند ظهور الحوادث الروحانية الى أن يتطلبوا من الأرواح نسخة فى صبغة

الشعر ، وعلاج السمائل فأصبحوا موضوع السخرية عند ما أشاعوا فيها بعد التراكيب التى تلقنوها من

الأرواح الماكرة

أقول : فبناء عليه نقول إن هذه البراهين التي جاءت في هذا التفسير قد استمدت لها الأذهان . ألا ترى
 أن طائفة الماديين اليوم لا وجود لهم لأن المادة لا وجود لها عند علماء القرن العشرين ، وإذا سمعت عنهم
 كالذي نقلناه فيما تقدم فأنما هو أمر تاريخي لا غير ، لأنك علمت أن علماء عصرنا أجمعوا أنه لا مادة ، فالمادة
 كلمة تطلق على كل ما محسوس به وليس هو بمادة ، بل هو حركات في أمر خيالي سموه (أثيرا) وهذه الحركات
 باختلافها ظهرت لنا أنوار وحارة ومناطيس وحقايق ومركبات أخرى وعناصر بسيطة ، وإذا سقطت المادة
 باجتماع العلماء في عصرنا فقد سقط معها المذهب المادى اللهم إلا عند المدرسين في المدارس النظامية في
 الشرق الأدنى كعصر والعراق وسوريا وما أشبه ذلك لأن هؤلاء يكررون على مسامع تلاميذهم ما قرعوه في
 كتب منقولة عن علماء القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، أما قرءاء هذا التفسير ففهم علموا أن النوع
 الانساني كانت معارفه مبثورة قبل النبوة . فلما أشرقت النبوة المحمدية قال الله على لسانه ﷺ - سريرهم
 آياتنا في الآفاق - الخ وقال - وقل الحمد لله سب ربكم آياته فتعرفونها - فهم سيقولون عرفنا يارب ووصلنا إليك
 بعقولنا وآمننا بشارتك ، ياربنا قبلنا البشارة التي بشرتنا بها . إذن لتكن أعمالنا ياربنا من الآن موصولة
 برحمتك ، مستمدة من نور علمك ، موقنين بأننا معك واننا سنكون خير أمة أخرجت للناس . و من
 الذين يوقنون ربهم وتكون أعمالهم في الحياة أعمال قوم كأنهم في حضرة ربهم . فاذا رأوا النمل والنحل
 وحشرات الأرض كل من أفراد هذه الممالك تعمل وهي فرحة بأنها أرضت الملكة الجليلة على عرش الملك
 المرسومة في السور المتقدمة . فهكذا نحن قرءاء هذا التفسير ومن نحنا نحوهم نعمل وقد أيقنا ايقانا أشبه بالعيان
 بأن الله مع كل نفس منا ومطلع على أعمالنا ، فنحن جزاؤنا في نفس عملنا لأننا نعمل بحسنة وإخلاص .
 وإذا وجدنا الصبي مخلصا في عمله لأبيه ، فرحا بأن أباه راض عنه . فهكذا نحن أصبحنا موقنين بأننا نعمل
 والله راض عن أعمالنا ونحن نحسن في أنفسنا بسعادة وانشرح صدر صادرين من صانع العالم المطلع على
 سر أربنا وتلاحظه عقولنا كما تلاحظ الشمس وضوها عيوننا ، فالحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا
 لغفور شكور

الناس وإن كانوا أحرارا فهم إما هائمون بالجمال إن كانوا سعداء ، وأما مستعبدون بالشهوات إن كانوا
 أشقياء . قال ابن الفارض :

أنت القليل بأى من أحييته * فاختر لنفسك في الهوى من تصطفى

اللهم انك أرىنا الجمال في زروعك وشجرك وزهرك وفرك ونجمك وشمسك . اللهم انك ملأت قلوبنا
 جمالا وأبهجتنا بصنعك ومنحت بصائرنا التمتع بالجمال في هذه الحياة وكشفت العشاوة وأحططنا بالأنوار
 ورأيانك ألهمت الشيخ الدباغ فيما نقله عنه الشيخ أحمد بن المبارك إذ يقول : « إن فتح الحواس الظاهرة
 صابرة عن لذة تحصل في الحواس الظاهرة ، وذلك بفتح العروق بما أدركته الحواس ، وبهذه اللذة يكمل
 البسط ، في البصر لذة بها يحصل الميل الى الصور الحسنة وعن ذلك ينشأ العشق والانتفاع الباطني للنظور ،
 وفي السمع لذة بها يحصل الخضوع عند سماع الأصوات الحسنة والنعمة المستقيمة وقد ينشأ عن ذلك اضطراب
 واهتزاز في الذات وهكذا سائر الحواس ، ففي كل حاسة لذة زائدة عن مطلق الإدراك ، والفرق بين فتح
 الحواس الظاهرة الذي هو من البسط وبين كمالها أن فتح الحواس يزيد على كمالها بفتح العروق فإن فتح
 العروق زائد على الإدراك الذي هو في كمال الحواس وبذلك الفتح الحاصل في العروق والتكليف الجاذب
 لصاحبه يقع الانتفاع الى المدرك . فترى صاحبه ينقطع مع كل نظرة الى كل ما يراه وقد تحصل له غيبة خفيفة
 مع ذلك الانتفاع بخلاف مطلق الإدراك فإنه لا يحصل معه هذا الانتفاع . فكم أمرى برى أمور حسنة ولا
 يتأثر بها . وكمن من آخر يسمع أصواتا حسنة ولا تقع منه على بال . وبهذا الفتح والتكليف يحصل كمال البسط »

اتهى كلامه بالحرف

هذا كلام ذلك الأُمى وهو الشيخ الديباج ، ذلك الذى لم يتعلم أنى لنا بسر وهذا السر يحيط بنا ولكننا لانظن له . هذا السر هو أن جمال هذه الدنيا وشموسها ونباتها مباح للناس . نحن جميعا نراه فنا من هو مغمور بالمحاسن فرح بها سعيد مبتهج . وهذا الابتهاج وهذا السرور أمر آخر وراء مطلق الادراك . نحن ننظر . نحن نسمع . نحن نتعلم . نحن نقرأ العلوم الرياضية . نحن نقرأ العلوم الطبيعية ولكن النظر والسمع والقراءة والفهم والتفكير وحوز العلوم والفوز فى الامتحان والتفوق على الأقران فى العلم . هذا كله شيء وذوق المسموع والمبصر والمعلوم الرياضى والطبيعى والالهى والفرح بها والاستلذاذ والابتهاج بها شيء آخر ، فأول الرجلين وهو الذى لا يحسن قلبه بجمال مدركاته الحسية والعقلية تجده دائما يبحث عن حبيب يهجه ويفرح به فلا يجد له مناصا من حبيب يأسرفؤاده مادام ذلك المدرك ليس حبيبا له ولا معشوقا ولا هوامم به . وإذا كانت المدركات العلمية بقسمها ليست محبوبه له ولا جميلة فهو لا محالة يختار ضدها وهى الشهوات فيبحث عن الجليل للشهوة الحسية وعن المال للاستمتاع الجسمى والفخر الظاهرى وعن السلطة التى بها يرهب الناس . وبالجملة ان المحبوب إذ ذاك شهوة البطن والفرج وشهوة الغلبة والصيت والولد والمال . وهذا كله أمر آخر غير الجمال . إذن صدق قول ابن الفارض « اننا قتلنا من نحب » فإن أحيانا الجمال انقطعنا اليه وكفانا . وإن لم نحب الجمال أحيانا الشهوات وهى هذا الثانى أكثر هذا النوع الانسانى وعلى المبدأ الأول القليل أو المتأخر منهم وهؤلاء هم أشرفه وساداته وعظماؤه وحكامؤه

فلنتنظر فى حال المسلمين اليوم وفى عالم النبات الذى كلامنا فيه . النبات بتحليله أرى انه جليل ومحكم مشوق لتلك الذات القدسية هام بها عند رؤيته قوم وكفاهم حبه والغرام به يهجم أنى سارولو يكونون فى الحياة سعادة لأهمهم . ولكن أكثر الناس فى الاسلام كان هذا النبات سببا لاستعبادهم وشقاؤهم مثل سائر عرض الحياة الدنيا ، فإذا كان الأولون قتلوا الجمال ، صرعى الحب والغرام ، يهيمون بالذات القدسية الرفيعة العلية ، مغررين بتعليم الأمم وارشادها قد أعدوا أنفسهم خلفاء الله فى أرضه ، قوامين على عباده ، يبشرونهم بالخير وينذرونهم بالشر فإن الآخرين وقد حرموا من الاستلذاذ بذلك الجمال يقعون لا محالة فى الهيام بظواهر الشهوات فيكونون عبيدا لها ، ومن استعبده الشهوات استعبده الناس

مثلا نحن فى مصر نزرع القطن ولكننا قوم محرومون من النبوغ فى الصناعات وكثرتها ، فنحن نبيع القطن بأبخس الأثمان ونباع فى أوروبا ونشتره ملابس بعشرات بل بمئات أضعاف ما بعناه به وقد رجع الينا ما لوينا بألوان زاهية فرحنا بها . إن بلادنا المصرية للسكينة هائمة بملابس الفرنجة وتقليدناهم فى كل شيء وخزينة الحكومة مفتحة الأبواب للعالمين فيها ، فهؤلاء يأخذون ثلثها بصفة مرتبات لهم ويصرفونها فى الملابس والمساكن والنجار والتهو واللعب وهكذا نساؤهم ورجال ونساء ذوى القصور والضيقات والمقارن الواسعة ، فهؤلاء وهؤلاء لما حرموا الاستلذاذ بالحكمة والعلم لم يجدوا لهم مناصا من غشيان أبواب الفجور والتباهى بالثياب الملونة المصبوغة بألوان من القطنان المستخرج من الفحم كما تقدم تفصيله فى أول سورة سبأ ، وكأنى وأنا أكتب هذا أشاهد أكثر قومي ومن على شا كلهم مقرنين فى الأصقاف سرايلهم من قطران وفضى وجوههم النار ، تراه بصيرتى

سبحانك اللهم وبحمدك . أنت محسن رحيم جميل حكيم . حبست أرواحنا فى هذه الأرض لأنها ليست أهلا لمكان أرقى . وحبستنا فى لذاتنا وشهواتنا . وكلما ازدادنا شهوة اتقلت الأغلال على أعناقنا . ذلك بما كسبت أيدينا . أفليس الناس اليوم مبعدين من الأغلال . اللهم لا وأى غل أشد وطأة من غل الأخلاق والآراء والعادات . تعس الانسان ما أجهله

بأني التجار من أوروبا بالملابس المصبغة والتياب الملونة والجرالقائلة والشهوات الفاتنة ، فنسكب عليها ولا تقوم نحن بعمل ما ولا صناعة ما ورجالنا ونسائنا ووجهائنا مقتنمون بأن ذلك هو الرقي ، فتذهب الثروة للأجانب وهؤلاء هم الذين يسيطرون على الشعب ويمنعونه من الرقي ومن العلم ومن الاستعداد الحربى . فاذا عجز الناس عن فك أغلالهم فى الدنيا فهم عن فكها فى الآخرة أهجـز - ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا -

هذا ما خطر لى وأنا أصلى الصبح يوم الأحد ٢١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ وأنا أقرأ هذه الآية - وترى الجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاذ سرايلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب - فأتى أثناء القراءة كنت أشاهد بالبصيرة أن هذا منطبق انطباقا تاما على حال كثير من أم الشرق الأدنى ومنهم كثير من أهل بلادى

اللهم إنى أشاهد الأغلال من الآن موضوعة فى أعناقنا فى أرضك ومن أشدها الملابس المصنوعات المزخرفة التى قتلت المسلمين لجهلهم وقلة الدعاء والوعاظ فيهم وكثرة جهلهم حتى ان القطن الذى نزرعه نحن فى مصر ينسج فى مصر أغلالا لنا واستعبادا والاستعباد اليوم راجع للتجارة . إن التجارة اليوم هى الأغلال فى الأعناق وهى السبيل التام لذلك . فأخرج المسلمين فى مصر وغيرها من هذه المآزق . إنك أنت الرعوف الرحيم . انتهى فى صباح يوم الأحد ٢١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ وبهذا تم الكلام على الفصل الأول من اللطيفة الخامسة فى قوله تعالى - فاذا أنزلنا عليها الماء اهترت وربت - والحمد لله رب العالمين

﴿ الفصل الثانى ﴾

من اللطيفة الخامسة

فى قوله تعالى - سترهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم -

فى هذا الفصل ثلاث مباحث

(١) فى المخاطبة على بعد عشرة آلاف ميل

(٢) فى الصلة بين علماء الشرق والغرب

(٣) فى أحوال نفس المؤلف

﴿ المبحث الأول ﴾

جاء فى إحدى المجلات العلمية تحت العنوان التالى مانصه :

بين القطب الجنوبى ونيويورك

فى غرفة فى الدور الثالث من إحدى ناطحات السحاب النيويوركية القائمة فى قلب المدينة عند ميدان التيمس جلس شاب على أذنيه ساعتان سوداوان . وعلى وجهه أمانر تدل على انه سمع شيئا مع ان الكون سائد فى الغرفة حتى تكاد تسمع دقات القلب . ولاشئ أمامه إلا صندوق أسود قائم على طاولة . وإذ ابده تمتد الى قضيب نحاسى فى نهايته عقدة سوداء فى وسطها مساطيفا فىلج النور فى غرفة مظلمة فى الدور السابع عشر من ناطحة السحاب ذاتها ويسطع من صف من المصابيح من غير أن يحدث انفجار كهربائى أو أى صوت آخر . ليس فى الغرفة أحد . فاذا انقطع لمعان المصابيح انشحت الغرفة بسود حالك

أضت الرجل الذى فى الدور الثالث قليلا ثم أخذ قلما بيده وكتب العبارة التالية ؟ « اصغ الى الطيارة » النجوم والخطوط » فى الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة عشرة صباحا ، ولعت المصابيح نائمة ناظلة الى مصدر

الرسالة السابقة جواب الشاب « اننى حاضر »

في القارة المنجمدة الجنوبية على عشرة آلاف ميل من نيويورك - من الفرقتين اللتين يقيم فيهما الشاب وتلمع المصابيح - مقر البعثة التي أعدها الأميرال برد الأميركي لزيارة المناطق المنجمدة الجنوبية والوصول الى القطب الجنوبي عن طريق الجوّ . انه يعدّ طيارته الآن - أي حين وردت الرسالة الى العامل اللاسلكي في نيويورك قاصداً أن يحلق بها فوق مفاوز الجليد بفرض الوصول الى القطب الجنوبي .

الساعة الثالثة والدقيقة الرابعة عشرة ! ونيويورك نائمة ولكن العامل اللاسلكي الفتي مستيقظ ، مقم في غرفته منتظر انباء الاميرال برد وطيارته

الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة عشرة . لقد انحنى الفتي والتقط قلمه وكتب « الطيارة على وشك الارتفاع من سطح الجليد . انتظر »

ويلبس مفتاحاً آخر امامه فيدوى في اذنيه - وهو في نيويورك - صوت محركات الطيارة وهي تستعد للتعلق في الجوّ فوق مفاوز القطب الجنوبي .

وتحلق الطيارة في الجوّ فينتقل الاتصال اللاسلكي من محادثة تدور بين المحطة اللاسلكية في مقر بعثة برد وبين العامل اللاسلكي المذكور - الى محادثة تدور بين العامل اللاسلكي في الطيارة المحلقة في الجوّ ثلاثة آلاف قدم فوق مفاوز الجليد والعامل اللاسلكي المذكور التابع لجريدة نيويورك تيمس . هذه هي أول مرة في التاريخ تمكن فيها رجل محلق بطيارة أن يخاطب صديقا له على بعد عشرة آلاف ميل كأنه يخاطبه على بضعة أقدام في مكتبه أوصالونه . ان صوت العامل اللاسلكي في طيارة برد كان ينتقل أمواجاً لاسلكية فوق مفاوز الجليد القطبي وجانب من المحيط الباسفيكي ثم فوق أميركا الجنوبية وخط الاستواء الى أميركا الشمالية والولايات المتحدة - من عواصف القطب الثلجية الى صيف أميركا الجنوبية الى قيط خط الاستواء الى نيويورك المعطاة بالثلج . كل هذا كان يتم في غفلة عين أو أسرع أي بسرعة ١٨٦ ألف ميل في الساعة

وارتفع ستار الليل وأخذ الفجر ينبج وأخذت الاشارات اللاسلكية في المحادثات المذكورة تضعف رويداً رويداً ولكنها تتراوح بين الضعف والقوة حتى بادت تماماً عند شروق الشمس وهكذا ضرب النور ستارا بين ممثلي الرواية القطبية وسائر العالم . وصدرت صحف المساء - بعد الظهر - وعلى صفحاتها الأولى عنوان بحروف ضخمة سوداء « مؤداها » ان كلمة واحدة لم تسمع من الرواد الشجعان في اثناء عشر ساعات « فاضطرب الجمهور وقلق ، مع ان رجال اللاسلكي كانوا يعلمون ان الصمت ليس دليل الفاجعة ولكنه ناشئ عن تعذر التخاطب في اثناء النهار بالأمواج القصيرة . وظل الجمهور مضطرباً قلقاً حتى وافت الساعة الرابعة مساء فأخذ ستار الليل يفسد رويداً رويداً وأخذت الاشارات اللاسلكية تزداد وضوحاً كلما زاد انسداد الستار . وما أقيمت الساعة الخامسة حتى كان العامل اللاسلكي النيويوركي يتلقى نبأ من الجنوب يفيد أن برد وصحبه حلّقوا بطيارتهم فوق القطب الجنوبي وحاموا حوله ، وان برد أول رجل بلغ القطب الشمالي عن طريق الجوّ هو كذلك أول رجل بلغ القطب الجنوبي عن طريق الجوّ . فبعث العامل بالنبا الى محرر نيويورك تيمس . وهذا يستعمله ليحرز لجربده فوزاً صحافياً عظيماً . انتهى ما أردته من مجلة المتكلم

المبحث الثاني

بين الشرق والغرب . حول زيارة ناغور لانجلترا

جاء في جريدة الاهرام في يوم ٢٢ مايو سنة ١٩٣٠ مانعه

لندن في ٢٠ مايو - لمراسل الاهرام الخاص - أثارت زيارة رابنغراث طاغور ، شاعر الهند وفيلسوفها

الكبير اهتماما كبيرا في إنجلترا لأنه مضي وقت ليس بالقصير على زيارته الأخيرة لهذه البلاد ولأن مؤلفاته مقاما كبيرا بين رجال الأدب الانجليز . وقد ألقى ناغور مساء أمس المحاضرة الأولى من محاضراته الثلاث في قلعة المحاضرات بجامعة اكسفورد التي ازدحت حتى الأبواب بينما لم يستطع الكثيرون الدخول للمرة ومن الملاحظات التي تسترعى الاهتمام أن الفيلسوف الهندي يقابل بمظاهر الترحيب أينما حل على الرغم من الحالة في الهند والانباء التي ترد كل يوم عن انتشار الاضطرابات والقتل فيها . وكما ان دوائر الأندية الرياضية ترحب بدوليبي سنهجن بطال الكريكيت الهندي وتطلب أن يكون واحدا من الأحد عشر الذين سيمثلون إنجلترا . في المباريات التي ستجرى مع استراليا ، كذلك ترى رجال الادب . والعلماء يتهافتون على سماع طاغور و يقدمون فروض النجدة والاحترام الواجبة لهذا العبقري العظيم وربما كان الكثيرون على رأى جريدة المانشستر جارديان فيما قلته اليوم وهو : ان خير سفير لهند ليس المهاتما غاندى وإنما هو طاغور الشاعر والمفكر فن الصعب معاملة غاندى سياسيا لأن السياسة من أعمال الرجال العاديين أما غاندى فقيديس ، والتديسون رجال شواذ أما طاغور ففي وسعنا أن نتفاهم معه لأنه ليس قديسا بل شاعرا ومفكرا ، فهو من هذه الوجة يستطيع أن يفهمنا ويعطف على أفكارنا نحن الرجال العاديين ، وإذا قرأنا مؤلفاته أوسمنا أقواله رأينا أن الهندي العادى لا يختلف عن الأوربي العادى ، وان للترلع الأبدى بين الشرق والغرب ليس قضاء الطبيعة المتتم انتهى من جريدة الاهرام . تم المبحث الثاني

المبحث الثالث

آيات الله في صحة جسمي بسبب تدير الأغذية

في هذا اليوم (١٥) مايو سنة ١٩٢٩ صباحا نظرت في عضدى وفي جنبي وفي صدرى فرأيت أمرا عجبا ! وهذا العجب لا تعرفه أيها الذكي إلا بمقدمة فهامى ذه :

لقد كانت أيام حياتي سلسلة تجارب في الطعام والشراب ، ولقد تركت اللحم منذ نحو (٨) سنين ، ولما تركته وجدت تحسنا مطردا في جسمي ، ولكنني وجدت هناك أمرا عجبا ! وجدت أن في عضدى وفي جنبي وفي صدرى بقعا جلدية مخالفة للجلد في اللون ، وهذه تارة تظهر وتارة تختفي ، وقد كانت كذلك قبل ترك اللحم ولكن لما تركته زاد ظهورها وتارة تختفي ، فأذهلني هذا المنظر ، وقابلت الأطباء فوجدت أقوالهم لا تشفى من عله ، ولا تروى من غله ، فقال قائل منهم : « خذ هذه الأعشاب واشرب منقوعها كل يوم » فلم يقد . وقال آخر : « كل الزيت الطيب وادهن به » . وأخيرا خصني طبيب أعلم ممن قبله . فقال : « هذا داء ليس معديا ، وليس له دواء ، وهذه البقع إنما تظهر في الأعضاء التي لا تظهر للشمس وأكثر ظهوره في زمن الصيف ، وسببه نقص في التغذية » وبعد ذلك عملت تجارب كثيرة فلم تفد . ثم اتى لم أعرف ما سبب نقص التغذية المذكور الى أن اطلعت على الكتب الطبية الحديثة . ورأيت في كتاب الاستاذ ويلكوكس ما يفيد أن الناس يأكلون الخبز من دقيق القمح الذي تخلوه . وأن ترك النخالة نقص في التغذية . وأن الدم مركب من (١٦) عنصرا . وهذه العناصر كلها ثابتة في البر . وإذا ترك الناس النخالة ونحوها فعناه لهمم تركوا عناصر من دماهم . إذن الناس ببذ النخالة والمادة الأخرى المسماة سنا (بشديد النون) من القمح إنما يبنون قوى أبدانهم وصحة أجسامهم وسعادتهم

فلما قرأت هذا وأيقنت انه منى على العلم عرفت جهل هذا الانسان وغفلته وأن عقول الناس في ناحية وأعمالهم في ناحية فلم أتدب في العمل بالعلم كما تقدم في سورة طه وفي سورة الحجر فهذا المقام مستوفى هناك هنالك أكلت الخبز الذي يصنع من دقيق البر كاملا غير منقوص . وهامى ذه سنة مرت على تلك الحال .

هذه هي المقدمة

فلما أقبل الحرّ هذا العام نظرت في جسمي وأعضائه المنطاة ، فرأيت أمرا عجبا رأيت البقع الملونة التي كنت أراها كل سنة لم تظهر . فقلت : يا سبحان الله ها هوذا الحرّ أقبل ونلك البقع التي عودتني الزيارة كل سنة بالظهور على جسمي في الضد وفي الظهر وفي الصدر وفي الجنبين لم تترني هذه السنة بعد أن أقبل الحرّ ، ولقد كان من شأنها أن تقبل اذا أقبل فصل الربيع والصيف وبعض الخريف ، فها هي ذه لم تحمل بساحات جسمي ولم يكن لقدمها علامات ولا مقدمات ، ذلك اني كما قدمت الآن أخذت آكل الفواكه والخبز المذكور وزيت الزيتون والتمر غالباً ، وهذه الأغذية مستوفية ما يجب لجسم الانسان فليس يهوزها مواد أخرى ، فالبرتقال الذي آكله معه بعض الطماطم في بعض الأيام فيه مادة الفيتامين من درجة عالية وهكذا الخبز المذكور فيه جميع مواد التغذية . ها أنذا تركت اللحم والخضراوات هذه السنة واللبن واقتصرت على الفواكه والحبوب فصحّ الجسم وصحّ التفكير بحسب ما أعرفه وما أحسّ به من نفسى الآن وههنا أقول يا سبحان الله : أرىتنا يا الله آياتك في أنفسنا وفي الآفاق ، ذلك ان هذا الجسم الذي سكنته نفسى مكون من مواد مخلوقة في أرضنا ، وهذه المواد لها حساب وجهلنا بما تقبل منها وما ترك هو الذي جعلنا مرضى الأجسام نارة والعقول أخرى

سبحانك اللهم . أنت حكيم وقد ملأت أرضك بالحكمة وعلى مقدار قصنا في فهم مصنوعاتك تنقص صحتنا وعقولنا ومدنيتنا . هذا المثال الصغير مثال جسمي مع العوالم الأرضية المحيطة بنا يبين لنا أحوال هذا الانسان . يظهر لي انا لو عرفنا الحقائق حق المعرفة لكننا إنما راقية سعيدة سعادة تامة في الأرض

تبين لي أن تقص سعادتنا في الأرض مبني على تقص معرفتنا وعلومنا . تبين لي أن أم الأرض لم يظهر فيها حكماء وعلماء يظهرون جميع الحقائق ، ولو أن الأرض برز فيها أناس على هذا النمط لأصبحوا جميعا سعداء فأول الشقاء وآخره الجهل ، وأول السعادة وآخرها العلم ، فكاه الباكيات على الميت ، وحزن الخبزين على النقر والدّل وما أشبه ذلك كل ذلك للجهل الذي غطى على العقول

يظهر لي أن هذه الانسانية بوما تبا ينبغ فيها نابضون يظهرون ما كمن في هذه الدنيا ، ومتى ظهر ذلك سعد الناس في هذه الحياة نفسها ، وأكبر الحزن يكون للموت أو للمرض أو للفقر أو للذل وكل ذلك مبناه الجهل بهذا الوجود ، فلو عرف الناس ناموس الموت وأيقنوا بأن الميت انتقل الى عالم أعلى ، وهكذا لو انهم عرفوا الأبرار الخبوة في الأغذية والأدوية والفواكه والملابس ودرسوها حق دراستها وعرفوا ما في الطبيعة من عجائب واستعملوها لقلّ المرض والفقر وبطل الاستعمار وضار الناس أصدقاؤه

لانجب أيها التكيّ من أن أقرن حال جسمي وصحتي بحال الأمم والأفراد وأوصابهم وأحوالهم فانه لا فرق بين الأمرين . نحن نعيش في عوالم تجهلها وعلى مقدار جهلنا نحسّ بالآلام . إذن قصنا مبناه جهلنا لأقلّ ولأكثر ، ودليلي على ذلك ما عرفته في نفسى ، فاني لما أكلت المواد التي استوفت شرائط غذاء الجسم زالت البقع من جلدي ، ولما كنت آكل بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير كانت هذه البقع تظهر نارة وتختبئ أخرى . ولا فرق بين جسمي وجسم العالم الانساني كله فهو لما فيه من جهل يحارب بعضه بعضا عبادة وجهلا بحال الوجود وحال الانسانية . ومتى ظهر فيه حكماء وأعلموه بأن المعاونة العاتمة خير وأبقى وأن يكون كل امرئ في عمل خاص ينفع المجموع الانساني فان هذا النوع الانساني يصبح سعيدا ومتى حلت السعادة في أهل الأرض لم يحسوا بحزن لأنهم يكونون قد عرفوا ما هو الموت وتقل الأمراض والعداوات بينهم لأنهم قسموا الأعمال في الأرض على مواهبهم التي خلقت في أجسامهم وعقولهم . هنالك يعلم أهل الأرض قاطبة أن المصائب التي تحمل بالأمم وبالجماعات أشبه بالبقع التي كانت تظهر على جسمي وأن قيام كل فرد من أفراد الأمم

بعمل نافع قائم مقام أخدى لجميع عناصر التغذية بطريق العلم . فهنا أمران ثانيهما مركب على أولهما في جسمي وفي الأمم . فإذا قامت الأمم كلها في الأرض كل منها بعملها الخاص لها وجميع أفرادها فان المجموع الانساني يصبح سعيدا كما ان جسمي لما أعطيته الأغذية الكافية لتغذيته ذهبت عنه تلك البقع التي تظهر على مظهر على ما هو مستور منه ، وإذا قصرت الأمم في ذلك أو بعضها فان المجموع الانساني تظهر فيه نقائص على مقدار التصغير كما ان جسمي أصابته البقع لما كنت أجهل أصول التغذية ، إن الأمم اليوم والأفراد سيان يتبعون شهواتهم وعاداتهم ، فالناس يأكلون ويشربون مقلدين لأبائهم أو متبعين حواسهم هكذا دولهم في سياستها يتبعون التاريخ خذوا القذة بالقذة ، والتاريخ مملوء بالكيد والخبث والمكر

فليكن في الأرض حكماء ، وليكن فيها نظم سياسية أرقى مما كان قبلا وذلك هو قوله تعالى - سزيرهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم - . جسمي الذي حلت نفسي فيه ماهو إلا ذرات مجتمعات من الآفاق وله ارتباط وثيق بهذه الآفاق فان جمعت ذرات جيدة باختيارى وعقلى كان جسما نافعا حسنا وان جعبتها بهيئة غير حسنة ولا مرتبة ولا منظمة ضف الجسم وتبعه العقل ، والسياسة العامة في الأمة كالسياسة الخاصة في الجسم يؤخذ من هذا كله اننا جئنا هذه الأرض لأمر واحد وهو العلم ، فلاحرب ولامرض ولا فقر ولا لثة ولا ألم إلا لأجل حشنا على العلم وعلى مقدار علمنا تكون أرواحنا في درجات لها بعد مغادرة هذه الدار . انتهى الكلام على المبحث الثالث والحمد لله رب العالمين

اللطيفة السابعة

في قوله تعالى - سزيرهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم - الخ

إيضاح بعض كلام الشيخ البياغ

في مسألة الجنة والنار والتوحيد

هنا سألتى صديقي العالم . فقال : يقول الشيخ البياغ إن على وجه الأرض عجائب لو شاهدها أو باب الأدلة والبراهين ما احتاجوا الى دليل ، فغنا ما به تعرف الوحدانية ، ومنها ما به يعرف وجود الجنة ، ومنها ما به يعرف وجود النار ، وكل ذلك بلا إقامة أدلة على ذلك . فأنا أرجو أن تشرح لى هذا المقام . فقلت : يا سبحان الله أرتظن اننى في مقام الشيخ البياغ حتى أطلع على ما يعرفه ! نحن قوم كلفنا بالنظر والبحث العقلى . فقال : ولكن أرجو أن أسمع منك ما توجه فضك اليه في هذا المقام ، ولست أطلب منك ماهو فوق متناول عقولنا لأننى أعلم انك تخاطب العقلاء عموما لا أهل الكشف وحدهم ، ثم إن أهل الكشف وان كثروا في الاسلام فانهم لم يحدثوا في الأمم الاسلامية رقيا عاما ، فعلاهم خاصة بطائفتهم . فقلت : أما اذا أردت هذا فانى أقول ما يفتح الله به الآن . فقال : أى العجائب تعرفنا التوحيد بلا إقامة دليل ؟ فقلت : جميع العجائب التي وردت في هذا التفسير وأسأله تعرفنا الله بلا إقامة دليل . فقال عجب هذا ! إن نفس العجائب أدلة أو مقدمات لأدلة فقلت : إنه يريد ان بعض العجائب حين نشاهدها تكاد تحترق القلوب ويحصل للنفس انفعال برؤيتها وتنقل النفس من هذا الخلق الى خالقه وهذا هو مقصوده فيما أظن أنا . فقال : ما مثال ذلك ؟ فقلت : مثله أعين الذباب وأعين النمل . هذه حشرات صغيرة يزدريها الانسان وهي تعيش على ما تعافه النفس من القاذورات والفضلات والقمامات والفضلات ، وعلى ماهو منبوذ من الحبوب وفضلات الخبز والقطع المنثورات في الأرض وقد جعلت أشبه بالكناسين والزابيلين لأنها تنظف الأرض من عفوناتها ومن بقايا فضلاتها وتحيلها الى أجسامها ومع هذا كله تراها قد أعطيت عيوننا كثيرة ، فلنمثلة فوق (٤٠٠) عين كل عين مستقلة عن الأخرى ،

والنباية نحو أربعة آلاف عين كل عين مستقلة عن الأخرى . ومعنى هذا أن للنملة حمة عيون ثلاثة منها
مفردات موضوعات على هيئة مثلث واثنان منها موضوعتان في مقدمة الوجه بهيئة أعيننا نحن وفي كل واحدة
منهما نحو مائتي عين ، ومثل ما قلنا في النملة تقول في النباية ، ولكن نذكر أربعة آلاف عين فيها بدل
(٤٠٠) عين . فقال : هذا عجب ! وهل العقل يسوّر ذلك ؟ فقلت : إذن أنت لم تقرأ ما تقدم في « سورة
النحل » وأن هناك رسالة سميتها « عين النملة » وفيها هذا المقام موضح . فقال : ورأيت بنفسك عين النملة
إنها مركبة من مائتي عين والعينان معا فيهما نحو (٤٠٠) . فقلت إني ورئي رأيتها بعيني رأسي أراها لي
صديقي شوقي بك بكبير في منزله بمدينة حلوان تحت المنظار العظيم وهو من كبار علماء التاريخ الطبيعى ، وصلى
به انه كان قبل ذلك تلميذى بالمدرسة الخديوية . فاذا رأى العاقل ما رأيت أنا في النحل أوفى النحل أوفى النباية
فانه لا يسهه إلا أن يتذكر الخالق عند النظر الى هذا الجمال في الخلق . فقال : أريد أن أسأل سؤالاً آخر ؟
فقلت : سل ما بدا لك . فقال : لم جعل الله هذه الجباب التي فوق طوق البشرى أحقر حيوان . فقلت :
ذلك من مقصود كلام الشيخ الألبانغ . قال : وكيف ذلك ؟ فقلت : إن الإبداع والاعراب اذا ظهر في جبل
بهيئة الطلعة حسن الشكل مرغوب فيه لم تكن له روعته في الحقير المنبوذ . النفس الانسانية يدهشها أن
ترى في الحقير المنبوذ حكماً لا حد لها بل ترى أعظم جمال وأجل حكمة في الحقير

ترى أربعة آلاف عين ، وكل عين لها طبقات ورطوبات وألوان في داخلها وعجائب ونظم مدهشة ،
واذا فقت إحداها لم تطل البقية كما هو واضح هناك . فهذه عند العقلاء أشبه بمن كان يحفر في منزله
فتر على كنز جفأة فهذه المفاجأة في الكنز يقابلها المفاجأة في أمر عجائب الحشرات مثلا . فكما أن النحير اذا
عثر على كنزدهش وحصلت له حال غريبة وانفعال ، هكذا العاقل اذا اطلع على هذه الجباب في أحقر الخلقوات
فانه يجد في نفسه حالاً عجيبة تذكره بالصانع من غير استدلال بدليل وذو العقول الصافية في نوع الانسان
لا يسههم تلتاه هذه الجباب المدهشة (في الامور الحقيرة التي ليست محلا للجمال بحسب العادة) إلا التعجب
وهذه الحال لا يحلم بها ذلك الذي قرأ علم المنطق وعرف الاشكال وقرأ علم التوحيد المعروف وأخذ بقرآنك
البراهين فيدخل في ساحات وأحوال عويصة ويتسرب الشك الى قلبه من حيث لا يشعر لاسيما اذا قرأ أدلة
الحدوث والقدم التي نقلت عن اليونان . وقد تبين فيما نقلته عن علماء الترجمة في نفس هذا التفسير أن كبار
فلاسفة اليونان كانوا يقولون أيام سقراط « ان العالم حادث » بطريقة مشوقة تقدمت في هذا التفسير فبعض
ما جاء في كتب علماء التوحيد والفلاسفة من حركك للعقول مهووس للأذهان تقاوه عن علماء الاسكندرية أيام
دولة الرومان بمصر وهؤلاء كانوا مقلدين . أما طيباوس الحكيم الذي كان أيام سقراط فقد شرح هذا المقام ونقل
بعضه في مواضع فارجع الى بعضه في سورة الروم وغيرها . فقال الآن فهمت كيف كانت تلك الجباب مذكرة بالله
فكيف تكون تلك الجباب مذكرة بالجنة والنار وبها يعرف الانسان أن هناك بعد الموت جنة ونار مع ان الجنة
والنار من السميات . واذا كان العقل لا يصل الى السميات فكيف توصل اليها مناظر الجباب . فقلت : ما الجنة
ولالنار الاداران ممتازتان . فأحدا مما فيها كل محبوب . وثانيتها فيها كل مكروه . ونحن في هذه الأرض لانعرف
المحبوب إلا ما وافق حواسنا الخمس من صور جميلة ونغمات لذيذة وروائح طيبة وطعوم لذيدة ولمسوسات موافقة
كأن تكون ناعمة مثلا . ذلك للبصر والسمع والشم والذوق واللمس وهكذا إذا تخيلنا تلك الصور ولكن حضورها
في الخيال أقل لذة من حضورها في الحس وهكذا المعاني الشريفة الموافقة لعقولنا من العلوم البهجة وانكشاف
الحقائق بالبراهين واقتناع النفس بالمعلومات . فهذه بهجتنا . فلعل قوة فينا بهجة تناسبها . فالمعقولات بهجة
للعقل . والمحسوسات بهجة للحس . والصور الخيالية بهجة لخيالنا . فهذه المذكورات هي مجامع ما يحبه في هذه
الدنيا . والذي نكرهه يقابل ذلك فكل قبيح صورته مشوه خلقته أو غير طيب الرائحة أو غير متزن النغمات

أوغير لقيده الطم أو غير ناعم مثلا فاننا نكرهه كما نكره تصوره في خيالنا . وهكذا خلق عقولنا من العلوم وجهلها وغاوتها وعدم معرفتها حقائق الأشياء وتخطبها في المعارف تخبطا بزري بها . كل ذلك مكروه عندنا . إذن الجنة دار تجميع ما يحب وجهنم دار تجميع ما نكره ، ولكن الحياة الدنيا فيها ما يحب وما نكره معا ، فيها امتزج المحبوب بالمكروه . وأصحاب العقول الثيرة اذا طافوا في هذه الأرض ودرسوا هذه الجحائب يدهشون من نحو ما أذكركه ويحصل لهم علم من غير كد ولا نصب بالجنة والنار . فقال : هذا هو الذي سألتك عنه وكيف ذلك ، فقلت لترجع الى مثال النباب والنمل مع جميع الحشرات ، ألت ترى أن النباب والحشرات خلقت لتنظيف الجو كما تنعم لأنها هي وأمثال الناموس والحنافس وغيرها تقتذى بالمواد الفاسدة التي لو بقيت تلك الانسان والحيوان . فقال بلى . فقلت ألت ترى أن الأغذية على قسمين : قسم هو طعام شريف مثل الحبوب واللحوم والحشائش وأماطها وهذه يأكلها الانسان وذوات الأربع من نحو الأنعام والسباع . قال بلى . قلت وقسم هو قاذورات تقتذى بها الحشرات كما أوضحه الآن . قال بلى . قلت ألت ترى أن ما هو قاذورات على قسمين : قسم هو بقايا الرم الملقاة في الفلوات عقب الغزوات والحروب والاهلاك والتدمير وانقراض الحيوان في البرارى والقفار . وقسم ليس كذلك بل هو عفونات وقاذورات لبست ناشئة من انقراض الحيوانات المعروفة ولا من قتال الانسان . قال بلى . قلت : لتنظر في أمر هذا الانسان الذى يسمع بالجنة والنار فاننا نجد له عقلا وهذا العقل لا تخلو حاله من حالين لانه لما ، فهو إما أن يتحل بالحقمة وادراك الحقائق ، ولما أن تكون سلوكه بالغبية والنميمة والشتمات وتبغ العورات والفتك بالأعداء ومساوقة الأقران وحوز الصيت والمال والملك وما أشبه ذلك

فاذا أغرم العقل بالحقمة والعلم وادراك الحقائق فان غذاءه أشبه بالغذاء الشريف في المحسوسات كالفاكهة والحب والمخضراوات من كل ما هو غذاء للحيوانات المعروفة والانسان . فأما اذا كانت لذاته خاصة بتفوقه على الأقران أو شتماته في الأعداء أو انتقامه منهم ، فهذا الغذاء العقلي يشب غذاء الحيات بالصفادع وغذاء الصقور والنسور والشواهين والكلاب بالرم الملقاة في الفلاة ، وتكون منزلة هذه العقول لا تزيد في معقولها على منزلة الصقور والكلاب في تعاطي ربحها ، واذا كانت لذات العقول لا تعاد حوز العقار وبناء الدور وشراء الحقول وحوز المال والدرهم والدينار ، فهي في درجة النباب في أكل القاذورات والعفونات

وبهذا الايضاح صارت الدرجة الثانية درجتين : درجة القوة الغضبية ، ودرجة القوة الشهوية . هذه هي الدرجات الثلاث للعقول في هذه الأرض . فهي إما عقول تحب الحقائق ، وأما عقول يقلب عليها الفطر والانتصار ، وأما عقول لا تفرح إلا بالمال والشهوات الحيوانية في مقابلة الأغذية الثلاثة المتقدمة لذوات الأربع ولنحو الطيور الكواسر ولنحو النباب . وان يخلو عقل على هذه الأرض من هذه الاعمال الثلاث اجلس مع من تشاء وحادثه فانه يهش ويظرب لما يناسبه من حكمة ، أو من ذكرا الحرب والضرب ، أو من ذكرا لذات الأجسام الحيوانية

فاذا سمعت الرجل نظورا برفع القضاب والانتصار أمام القضاء فهومن الفريق الثانى ، أو بحوز المسكيب والمال فهومن الفريق الثالث ، أو بالعلم والحكمة فهومن الفريق الأول هذا هو نوع الانسان أوله وآخره عقولهم جميعا موزعة على المعقولات الثلاثة كما وزعت أنواع الحيوان على أنواع الأغذية

فقال : أحسنت لقد فهمت هذه الثلاثة وقد كانت في أول مقالتي لى غامضة على ولكن الآن وضحت لى وضوحا تاما مع ملاحظة أن ذكر الحيوانات وأغذيتها في هذا المقام مجرد تنظير لتقريب الفهم ، ولكن الى الآن لم نصل الى الحقيقة التي سألتك عنها وهي ان النظر في هذه الجحائب يكون معرفة بالجنة والنار . فقلت

كل ما ذكرته الآن مقدمة لذلك ولولا مبادرتك لي بالاستحسان لأنت بالنتيجة . فما إذا الآن أقول
لوانك أخضت الجبل ووضعت أمامه لها أفيأ كاه ؟ قال لا . قلت : فلوانك أتيت بأسد ووضعت أمامه
سناش أقرأه يأكلها ؟ قال لا . قلت : فاذا وضعنا النيب في مكان نظيف لارطوبات فيه أيبش . قال كلا
قلت إذن ما أنتج من هذا ؟ قال أنتج قبيجة واحدة وهي معنى هذا المثل « إن الطيور على أشكالها
تقع » ومعنى هذه الآية - قل كل يعمل على شاكلته - ، وبصريح العبارة كل حيوان لا يفادر عادته في
طعامه . فقلت : حسن وهكذا في العقول بطريق قياس التمثيل ، فلا عقل يستلذ إلا بما عرفه كما لحيوان
يستلذ إلا بما أنفه . قال حسن جدا . قلت : اذا عرفت هذا فانظر في هذا الانسان اذا فارقت روحه جسده
وربى العقل وحده في الجسم الأثري بعد الموت فأنت معان تحمل فيه ؟ فقال : طبعاً المعاني التي غلبت عليه
في الحياة . قلت : وهذه غذاء عفى له كما ان للأجسام غذاء مادياً . قال نعم . قلت : فاذا كان الشريفي في
الحياة لا ينتم تنها عقلياً إلا بمزاولة الشر ثم مات فان هذا الخلق يلزمه ويريد أن يفك بمن اعتاد الفتك بهم
أو يقاضيهم فلا يجد منهم أحداً فيكون ذلك عذاباً له ، واذا وضع مع أقرانه وعاش معهم في عالم الأرواح فإنه
يفعل معهم ما كانوا يفعلونه في الدنيا لأنهم لا يعرفون غير ذلك ، واذا كنا نجد للصوم وقطاع الطرق
لا يفرحون إلا بانوائهم . ولا يألون مجالس العلماء والحكام ، فهكذا تكون أرواحهم بعد الموت لا تألف إلا
أبناء جنسها لأنها اعتادت الاجرام وهم مجرمون وهي بهم فرحة وهناك تكون مسرات وقتية بعدها آلام
وهكذا . قال : حقا لا يكون غير ذلك . قلت واذا رأينا النيب لا يفرح إلا بالقاذورات فهكذا فيمكن أولئك
الذين انغمسوا في المادة وحرمت عقولهم من الأدب والكمال لا يلد لهم إلا مثل ما كانوا فيه في الدنيا ، فهم
لذلك يعيشون مع أمثالهم وأصحابهم ويفرح بعضهم ببعض وقتاً ويلعن بعضهم بعضاً في وقت آخر كما كان
شأنهم في الدنيا . فقال : حقا لأن الطباع لا تتغير . فقلت إذن بهذا القول انضحت الحقائق ، وأن الدنيا
دار امتزج فيها المحبوب بالمكروه ، والآخرة دار امتاز فيها المحبوب من المكروه وهناك يكون الناس في مراتبهم
وكل طائفة لا تعاشر إلا أقرانها ، ومن كانت أخلاقهم وعقولهم كاملة في الدنيا يكونون في لذة ذات نظام وسعادة
ومن غلبت عليهم شهواتهم الحيوانية أوقواهم الفضية ، فهم في الدرك الأسفل كل على مقتضى خلقه وطبعه
(وبعبارة أخرى توضح هذا المقام) ان الجباب المشاهدة في هذه الحيوانات أرتنا تفاوت الأغذية بتفاوت
أنواع الحيوان ونظيره العقول ، فكل عقل له غذاء يناسبه فان كانت صور الغذاء العقلي شريفة فيها والا
فهى خسيسة ويوضع في مرتبة هناك

وكما اتا نرى في الحياة الجرذان والحشرات ذليلة هكذا نرى بعد الموت النفوس التي تشابهها ذليلة ، ولو
قيل لامرئ في الدنيا أيهما خير لك أموت أم تصبح فأرا ، فإنه لا يتردد في أن يقول العدم خير من الوجود
اذا كان على هذا المثال ، ومن هذا قوله تعالى - قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً - . إذن
درجات النفوس بعد الموت ظاهرة واضحة في الحيوانات المشاهدة ، وهذه العقول قد تربت في هذه الأجسام
وصارت درجاتها مختلفة اختلاف هذه الحيوانات فمن عقولهم في نزلها تشبه الحشرات تعيش معا في المكان
المسمى بجحيم ، ومثلها النفوس التي أشبهت الصقور ، ولكن اذا كان هذان القسمان قد هذبا وألتي العقل
عليهما والذين نصائح فانهما يكونان في الجنة بشروط خاصة

وبالجملة فان أحوال أهل الجنة لها نظير في العالم المشاهد ، وهذه المعاني التي ذكرتها الآن مع طولها
تمر ببعض العقول في وقت قصير جدا ، ومن النفوس الصافية ما تحظر لها هذه الحواطر حالا ، ولكن عدم
مزاولة العلوم واللغات يقعدا عن التعبير . هذا ما أمكنني أن أجيبك به الآن . فقال لقد فهمت حق الفهم
وأنا لك شاكر ، ولكن هل من فوائد ترتب على ما تقدم في أحوالنا المدنية ؟ فقلت : اذا تفصلت بإيضاح

السؤال أمكنني الإجابة . فقال : لقد ذكرت أن أمثال الذباب تعيش على الفغونات والرطوبات ، وجعلت هذه مثلا للنفوس الشهوية ، وذكرت أمثال الصقور والشواهين وجعلتها مثلا للنفوس الغضبية ، ولقد اتبينا من تفسير كلام الشيخ الديبغ وأن هذه تذكرة لأحوال النفوس بعد الموت ، فهل من سبيل الى الانتفاع بهذه العلوم اللطيفة في مصر والشام والعراق وبلاد السودان وإفريقيا . فقلت حسن ما تقول ، نعم انظر الى الأمم المستعمرة تدخل بلاد الشرق وتعطيهم من العلوم فشورها ومن الصناعات أضعفها وتمنع عنهم نور العلم وتعدهم أشبه بالحيوانات الدلية ، فهي تسهل ادخال المشروبات الروحية من الخمر والمخدرات ، وتسهل لهم أحوال البطالة والكسل بما شجع أرباب المحال التي تستهوي العقول فيجلس الشباب أكثر النهار بلا عمل فيها ، وتوعز للذين يأتون بالصور المتحركة (السينما) أن تكون كلها أوجها حافلة بالشهوات والمجازي وكل ما يسقط النفوس في المهامى ، فهذه المناظر وتلك المشارب جعلتها الأمم المستعمرة شبكات لاصطياد العقول القوية بها يضطادونها فلا تقدر بعد ذلك على الخلاص ، وهذا هو الذي يبقى الاستعمار ، وهكذا يذيعون الروايات المملوءة بما يحط بقيمة النفوس الانسانية ، فتتحول العقول في تلك البلاد الى حال تشبه حال الحمامات . ولكن الأمم الحرة لا تدخل شريكا للسينما إلا اذا وجدته مهذبا للأخلاق رافعا للنفوس معلما للأمة ما تعيش به كالفلاحة والصناعات المختلفة ، فبدل أن تكون السينما والروايات لتشويق النفوس الى كل ما يهدم الانسانية تكون لاعلاء شأنها ورفع قدرها وتعليمها الصناعات ، وشوقها الى المعاني والمعالى ، فالروايات والسينما وأمثالها إما مهيات نفوس الناس الى منزلة من منازل الجنة ، وإما الى حفرة من حفرة النار . والسبب في ذلك هم المستعمرون من الفرنجة الذين هم خلفاء المسيح الدجال لأنهم يظهرن أنهم مصلحون وهم يفسدون . هذا هو الذي كنت تريد أيها النكي . فقال نعم هو والله جزاك الله خيرا . قلت : هل بقي لك سؤال ؟ فقال سؤال واحد وهو انه ظهر لي أن قوله تعالى - سرهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق - ظاهرا أكثر ظهور في علوم عصرنا الحاضر . فقلت حقا فان مشاهدة أعين النبابة وأعين الخلة مثلا ونحو ذلك من الهجائب المذكورة في هذا التفسير تدعش العقول وهو هو من مصداق انه يرينا ، فهنا رأينا ذلك بالبصر بالمنظار المعظم والكشف المتتابع ، وذلك لم يكن فيما مضى . واذا كان البرهان مبنيا على المشاهدة كان الى اليقين أقرب . واذا كان الله شهيدا على كل شيء والملائكة يشهدون العوالم . فهامهم العلماء في زماننا يشهدون في عالم الحس عجائب الصنع وهذا قوله تعالى - شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط - . فهل بقي لك سؤال أيها الصديق ! فقال إن أذنت لي . فقلت : سل ما تريد . فقال : لقد ذكرت أن الدنيا امتزج فيها الخير والشر . أليس كمال الشيء أن يكون تاما لانقضا والوجود لا يكون تاما إلا اذا كان فيه الأمران معا فانك أثبت في هذا التفسير أن الرحمة لا تتم إلا بوجود الضدين معا والضدان هاهما الآن في الدنيا إذ الخير والشر امتزجا فيها . فقلت : إن العقول الشريفة في أرضنا جل اهتمامها بالبحث والنظر وأفعال الله في كل وجود كونه وعقولنا اليوم تعيش في وسط الكمال والجمال غاية الأمر ان أكثرها لا يكشف له عن ذلك الجمال لغلبة المادة عليه . فإذا خلصت الروح من المادة ظهر لها الجمال فتكون أشبه بالمحبوس لم يرف في السجن إلا صورة ضئيلة مما في الخارج فإذا خرج منه كان في حالة أشرف وأجل . واذا شبهناه بالجنين حين خرج من بطن أمه صح التشبيه . فقال قد اكتفيت ولم يبق في نفسي شيء . فقلت الحمد لله رب العالمين . والى هنا تم الكلام على الطبيعة السابعة في قوله تعالى - سرهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم - الخ كتب في صباح يوم الاثنين ١٠ نوفمبر سنة ١٩٣٠

(تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء التاسع عشر من كتاب « الجواهر » في تفسير القرآن الكريم)

وبليه الجزء العشرون . وأوله تفسير سورة الشورى)

فهرست

(الجزء التاسع عشر)

من كتاب الجواهر في تفسير القرآن الكريم

- صحيفة
- ٢ تقسيم السورة أربعة أقسام
- ٣ القسم الأول في تفسير البسملة . وتبيان أن الرحمة فيها موجهة الى العرش والخافين به المذكور في آخر سورة الزمر، وفي أوائل سورة المؤمن ، إن العرش ذكر في سورة التوبة ويونس وهود وهو هناك مشير الى أن عروش الأمم القاطنة في بلاد عاد وثمود والأرض التي كان يقطنها ابراهيم ولوط وشعيب وموسى المذكورة في تلك السور كلها اليوم بلاد اسلامية ولا تزال الى الآن في أيدي المسلمين ، فعروش تلك البلاد في قبضتهم الى الآن وهكذا ذكر هنا في السورتين لمكان العلم والتعليم ، والعلم راجع للتسبيح والتمجيد والتعليم راجع للاستغفار ، لاعرش في الأرض يقوم إلا على دعائتين من العلم ودعائتين من العمل ، ودعائتا العلم هما العلوم الطبيعية والحياة السياسية ، والعمل بالقدرة ، والقدرة بالمال والرجال ، فهنا أربع دعائم لكل عرش في الأرض ، والعلم والقدرة المذكوران في شرح الكرسي المذكور في آية الكرسي ، والذي بهم في مقامنا هذا أن يكون المسلم متبعاً للملائكة الخافين من حول العرش فيكون عالماً مغيضاً للعلم على الناس ، والعلم إن لم يحقق المحسوس المشاهد فما أعجزه عن ادراك المعقول الغائب وذكر الغفران والتوبة مع العرش لصفة العلق والعظمة ، وفي هذه السورة مباحث ، مباحث رحمانية كفجاج الأرض الواسعة ، والسموات والأرض والأنهار ، وتدرج الانسان من تراب مم من نطفة ، والاتجاه اليه ، وقبول دعوته اذا أخلص ونصر المصلحين وهكذا
- ٦ ﴿ القسم الثاني من السورة ﴾ فيه آيات السورة من أوّلها الى قوله تعالى - إن الله هو السميع البصير - ثم تفسيره اللفظي
- ١١ لطائف في قوله تعالى (حم) وقوله - الذين يحملون العرش ومن حوله - وبيان أن (الم) في أوّل سورة البقرة سبقت للجهاد ، وفي العنكبوت سبقت لكشف نسب العناصر بعضها لبعض وهكذا بقية السور أفلا تكون هنا الحاء والميم إشارة الى جد الملائكة ، ولامعنى للحمد ولالتسبيح لإبدراة صفات الجلال والاكرام ، ولن يتم ذلك إلا بدراسة علوم الأمم حولنا ، إن من ينكر الملائكة الخافين حول العرش جاهل بما عرفه علماء الشرق والغرب كالامام الفزالي والرازي وأصحاب اخوان الصفاء إذ قالوا : « إن أرواح الناس التي فارقت الأجساد تعين الأحياء على الأعمال » . وهكذا يقول أكبر عالم طبيعي انجليزي « إني ناجيت الأرواح وحادثتهم وهم يهتمون بنا »
- ١٣ ذكر الأحاديث الواردة والآثار في هذا المقام كقول كعب وكقول جعفر بن محمد عن أبيه عن جده ، وبيان معنى كون العرش يكسى كل يوم بألف لون من النور وأن ذلك واضح لمن قرأ العلوم اليوم ، وكقول وهب بن منبه : « إن حول العرش سبعين ألف صف من الملائكة صف خلف صف » وأن تلك المعاني يعرفها إجمالاً من درس علم الفلك ، وبيان أن الحاء والميم فتحا هذا الباب
- ١٤ الكلام على صلاتنا نحن معاشر المسلمين وأن تسبيحنا فيها متبوع بذكر السمع والبصر والمخ والعظام

- والعصب الخ ولا معنى لهذا كله إلا العلم ، إذن تسبيحنا في الصلاة ومأمعه يراد به التشويق للعلم . فإذا
سبح الملائكة فنحن نسبح والنتيجة هي العلم بنظام هذه العوالم الجيلة
- ١٥ ﴿ القسم الثالث من السورة ﴾ من قوله تعالى - أولم يسبروا في الأرض - الى قوله تعالى - بالعنق -
والإبكار - والتفسير اللفظي
- ١٩ ﴿ القسم الرابع ﴾ من قوله تعالى - إن الذين يجادلون في آيات الله - الى آخر السورة وتفسيره اللفظي
- ٢٣ لطيفة في قوله تعالى - ويريك آياته فأى آيات الله تنكرون -
تذييل التفسير في سورة حم غافر ، والكلام فيه على مقصدتين
- ٢٤ ﴿ المقصد الأول ﴾ فيه الكلام على التنفس الرئوي لأنه في الانسان والحيوان . و بيان صفة الرئة العامة
وعلاقتها بالقلب وما فيه من طبقتي الأذنين والبطينين
- ٢٥ ﴿ المقصد الثاني ﴾ في قوله تعالى - النار يعرضون عليها غدواً وعشيا - و بيان ما جاء في كتابي المسمى
(الأرواح) الذي ألقته بعد أن منعت مواعع السياسة من مواصلة درسه في دار العلوم . وفي تلك المدة
تمكنت من تأليف كتاب الأرواح المذكور . وفيه جاءت محجبات هذا العلم الذي منه ذكرت ها في
التفسير مقدمته لمناسبتها لهذه الآية وأن الأرواح قد نطقت في المحافل العلمية بأمرىكا وشرحت ما شاهدته
في عالم البرزخ . وأن المسلمين سيحبون من الحاكم الألماني الذي أسعفت روحه من اضطهاد يقيمين
ومن روح محاسب في مدينة (ونسبرج) ارتكبت خيانة فطبت لتساعده ومن روح غنى بخيل عذبت
روحه بالمال وأن ذلك كله هو مقتضى آيات القرآن بل هو محور دين الاسلام وأصوله
- ٢٧ و يوافق هذا ما قاله الغزالي إذ يقول : « إن الميت في أول أمره يعذب بفرقة المشتهيات وثانياً بالمحجل من
الفضائح وثالثاً بالحسرة على فوت ما هو محبوب من الأعمال العظيمة » و بيان أن العذاب والتعذيب أمران
لازمان للطاعات والمعاصي . فانه لا ينتقم وإنما هو عدل . وهنا كلام (اخوان الصفاء) الموافق للغزالي من
وجه . و بيان معنى الحيات والعقارب والتنانين الواردة في عذاب القبر وانها إما أن تكون صوراً حقيقية
لا تظهر إلا لأهلها فعذيباً لهم كما يظهر الملائكة للأنبياء تملأهم لالغيرهم . واما أن تكون أشبه بحال
النائم . واما أن يكون المقصود الآلام المشبهات آلام العقارب ومأمعها لأن المقصد هو العذاب وهو حاصل .
و بيان أن الآلام جسمية وروحية الخ وههنا شرح طويل و بيان للامام الغزالي
- ٢٨ ﴿ المجلس الرابع ﴾ في الروح التي أخبرت بموتها وزمنه وفي قلة علم النوع الانساني وموازنات شتى بين أقوال
الأرواح وبين القرآن والحديث الشريف . وذكر القليل الألماني الذي مضى له (١٧) سنة وأخبر بموته
وطابقت الحكومة على قوله
- ٢٩ الطائفة العامة لأقسام السورة كلها ﴿ اللطيفة الأولى ﴾ في قوله تعالى - هو الذي خلقكم من تراب
مم من نطفة - مع قوله - الله الذي جعل لكم الأنعام - الخ و بيان أنه لا معنى لشكر النعمة وللحمد
عليها إلا بتقديم العلم بها ، فاعلم هو الأسم الذي يبنى عليه الحب وتناء اللسان ونشاط الجوارح في الأعمال
والعلم بهذه الأنعام ومحجبات الخلق قد تقدم في سور كثيرة مثل النحل والحج وطه والتور والنمل وسبأ
والروم والمؤمنين وقاطر والسجدة ، ومع ذلك فاننا هنا تزيد مسائل لم تذكر في تلك السور مثل السحالي
والبرص والجرباء ، أضارة هي فتقلها أم نافعة فتبقيها ؟ وأي فرق بين التعابين السامة وغير السامة ؟ وهل
ما يعملها الحواة (المشعوزون) من التعابين سام أم غير سام ؟ وما هو الحيوان الذي يولد في ماء مم بهاجر
الى المسكان الذي خرج منه أبواه وهو لم يره ا وهل الهدأة ضارة ؟ وانما ذكرت هذه هنا لأن الآية فيها

٣٠ ذكر الأنعام وانها ثمانية أزواج ، وهذا يقتضى تقسيم الحيوان الى أنعام وغير أنعام ، فهذا من القسم المقابل لما في الآية ، وفي هذا المقام يقسم الحيوان الى ناقص الخلقه وتام الخلقه ، والأول مقدم على الثاني ويقسم أيضا الى أشرف وما هو أقل شرفا وذلك بحسب الحواس ، فهو إما ذوات حاسة أو اثنتين أو ثلاث أو أربع أو خمس ، فذوات الحاسة كالذود في حب الثمار ، وذو الحاستين كالذود الذى على ورق الشجر وزهره ، وذوات الثلاث فلا سمع له ولا بصر وهو الحيوان الذى فى قعر البحار والأمكنة المظلمة غالبا وذو الحواس كلها ماعدا البصر وهو الطولم والحشرات التى تدب فى المواضع المظلمة مثل (الحلمه) والكامل ما فوق ذلك وبيان أن منها المتدحرج والزواحف والذى ينساب أو يدب أو يعدو أو يطير أو يمشى ، وهذا له رجلان أو أربعة أو ستة أو ثمانية أو أكثر ، والذى يطير من الحشرات ماله جناحان وأربعة وستة أجنحة ، ومنها ماله ستة وقرود ومشافر ومخالب وخرطوم ، ومنها ماله فمك وروية وتميز وتديير وسياسة ، ومنها ماله أعضاء مختلفة مهندسة مفصلة مغطاة بالجلد وعليه الشعر والوبر والصوف والريش والصدف والفلس خارجا ، وفي الداخل الدماغ والرتة والقلب والكبد والطحال والكليتان والمثانة والأمعاء والمصارين والأوراد والمعدة والكبرى والحوصلة والقائصة ، وفي الظاهر الأرجل والأيدى والأجنحة والأذنان والمخالب ، وههنا الفرق بين البهائم والسباع والوحوش والطيور والجوارح والحوام والحشرات . وبيان أن كبير الجنة يمشى فى الرحم طويلا لتدور الشمس دورتها فيستكمل فى الرحم ، وهذه خلقت أولا عند خط الاستواء ثم تناسلت وانتقلت الى مواطن أخرى ولكن أرحام الاناث حفظت تلك الحرارة . وبيان أن الناس يتعجبون من خلقه الفيل وهم لوعلموا لتعجبوا من خلقه البقرة أكثر لأن لها أرجلا أكثر وتزيد الأجنحة وغيرها ومع ذلك هى تؤذي . هذا بالاجال تقسيم المتقدمين . أما تقسيم المتأخرين فهم يقولون إن الحيوان إما ذو خلقية واحدة وهو الأذى ، وإما ذو خلایا ، والأول كحيوان الملايا الذى لا أعضاء له ويعيش فى الكرات الجراء فى اللحم ، وذو الخلایا الكثيرة منه الاسفنج وحيوان المرجان وذو الجلد الشوكى وقنفذ البحر والديدان المفرطحة كدودة الكبد والبلهارسيا والديدان الاسطوانية كدودة الانكلستوما وكالدودة الحلقيه والمفصليه ومنها الحيوانات الرخوة والفقرية ومنها السمك والضفادع والزواحف والطيور وذوات الثدي . والحيوانات السبعة المتقدمة من ذوات الفقرات فهى مشاركات للذكورات فى الآية وهى الأنعام . فأولها السحالى وهى من أنواع الورل (شكل ١) صحيفة (٣٤) وهى حيوانات نافعة للإنسان لا ضرر منها . وثانيها الأبراص جمع برص وهى حيوانات تراهانى منازلنا ونظن جهلا انها ضارة وهى نافعة فوجب أن لا تقتل (شكل ٢) صحيفة (٣٥) وكذلك الحرباء (شكل ٣) صحيفة (٣٥) وهى حيوانات نافعة أيضا

٣٦ الثعابين منها ماهوسام (شكل ٤) صحيفة (٣٦) وشكل ٥ صحيفة ٣٧ والثانى هو الكوبر المصرى أى الناسر . والحية المقرنة (شكل ٦) صحيفة (٣٨) والثعبان ذوالجرس (شكل ٧) صحيفة (٣٨) وهناك ثعبان غير سام وهو فى القطر المصرى كثير وهو رملى يميل الى الاحرار عليه يقع ذات لون بنى وسطه السفلى أصفر وهذا هو الذى يحمله الحواة (المشعوزون)

٣٩ (شكل ٨) صورة ثعبان يسمى (الببتون) وهو أيضا غير سام الكلام على ثعابين السمك وهى قسمان : قسم يعيش فى أنهار أوروبا وشمال افريقيا . وقسم يعيش فى أنهار الولايات المتحدة التى تصب فى المحيط الاطلسي . ومن ثعابين السمك نوع بمصر (شكل ٩) فى صحيفة (٤٠) وأكبر مدة يتم فيها نمو ثعبان السمك سبع سنين . ومتى تم نموها تجتمع وتهاجم الأنهار

وتترك مصابها وتنزل في البحر الى بوغاز جبل طارق فالبحر الاطلانطيقي جزائر برمودة القريبة من الولايات المتحدة وتعاين أنهار أوروبا تفعل هذا كله ، وهناك تضع الاناث ايضا وتفرغ الذكور مادتها المنوية عليها في الماء فيتم احصاب البيض وربما تضع الأنتى أكثر من مليون بيضة ، ثم يموت الذكور والاناث وتخرج الذرية وترجع الى المحال التي خرج منها آبؤها وأمهاؤها وهي لم ترهن
 ٤١ ولن تفعل ذرية تعاين السمك الأمريكي ولا الاخر يبقى طريقها بل كل يرجع الى المسكان الذي خرج منه الآباء والأمهات

٤١ الكلام على دودة الأرض (شكل ١٠) وهي ذات أشواك صغيرة ولها جلد رطب مخالطي
 ٤٢ وترى في (شكل ١١) حجمها مكبرا والذي تقدم هو حجمها الطبيعي ، وهي تخرج أثناء الليل لتبحث عن غذائها فتأكل الفضلات من الأوراق والأزهار الساقطة وتسحبها الى داخل الأرض ، وكذا بذور النبات والبويضات والحشرات والديدان وهي تتوالد

٤٣ (شكل ١٢) رسم دودتين في حالة الاجتماع ، وهذه لها منافع للناس ، فهي اصيد السمك ، ولغذاء الطيور ، وهي تحرث الأرض فيدخل الهواء فيها ، وتساعد الجذور على التعمق فيها ، وبأكلها الطين يدخل فيه مواد عضوية فيكون سادا ، وهي بقذفها الطين ترفعه الى سطح الأرض فيقابل الشمس فهي أشبه بالحمرات ، وتسحب الأوراق الى بطن الأرض فيكون سادا ، وقد يكون في الفدان الواحد من أرض الحدائق (٥٣) ألف دودة يمر من أجسامها (١٠) أطنان من التربة وهو يسطي نصف سنتيمتر تقريبا

٤٤ ﴿ العلق ﴾ تعيش في المياه العذبة في البرك والمستنقعات وبعضها في الأرض الرطبة وهي تعيش في اللحم وهي خثائي وهي تتعلق بكل حيوان تعثر عليه ، وأهم هذا النوع هو العلق الطبيعي

٤٥ الكلام على الحدة ، وبيان انها تأكل صغار البساج والبط والأوز والجردان والضفادع والثعابين والسحالي ودود الأرض والحشرات والرمل ، وهي مفيدة جدا في تنظيف الشوارع من الرمل وسطوح المنازل من بقايا الماء كل ، وضررها أقل من نفعها
 خاتمة في الحيوانات النافعة مثل المذكورة في يوسف عليه السلام

٤٦ تجارة الجراد في بلجيكا ، وبيان أن الحكومة المصرية اليوم لم تستيقظ لمنفعة الجراد الذي هجم على مصر مع ان في بلجيكا شركة تصنع منه زيتا ، ولم تبال بالطلب الذي قدّم لها ، فعلى من يبدنا أن يربوا الحكام تربية أرقى من هذه لأنهم لو باعوه لعوضوا النقود الضائعة في مطاردته

﴿ اللطيفة الثانية ﴾ في قوله تعالى - هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة - الخ مع ملاحظة آية - خلقكم من نفس واحدة - وقوله - لا إله إلا هو - فهنا وحدة النفس المنصرفة في الأعضاء ووحدة الله ، ولا فرق بين وحدة نفوسنا مع كثرة أعضائنا وبين وحدة ملكة النمل وملكة النحل وملكة الأرض (جمع أرضة) . وقد وصل تيار من وصلوا الى القطب الجنوبي الى القن في الممالك المتعددة في لمح البصر بمجرد الضغط على الزر . إذن اتصال الخبر بين النمل والنحل بنفس طريقة كطريقة الراديو إذ أن العالم ذو وحدة لها محرك واحد وبه تفهم - ما خلقكم ولا بئسكم إلا كنفس واحدة -

٤٨ ﴿ اللطيفة الثالثة ﴾ في قوله تعالى - الله الذي جعل لكم الليل - الى قوله - كن فيكون - وفيها ذكر الليل والنهار ، وخلق كل شيء بسبب هذا التعاقب وأن الأرض قرار ونظام خلقنا وتدرجه وحياته كل حتى وموته ، في هذه المسائل الخمس تدخل العلم الطبيعي والإلهي والفلسفي

٤٩ إن الحرارة والبرودة في الأرض يرجعان الى الليل والنهار ، والحيوان والنبات موزعان على مناطق الأرض المختلفة بسبب سير الشمس ، ثم إن المكان الذي كثر نباته أو قل لا يعيش فيه الانسان ، أما الذي اعتدل نباته فهو الذي يمكن عيش الانسان فيه ، فالغابات الاستوائية والأقطار الباردة لا يصلحان لسكناء ، فالانسان كما يجب الاعتدال في أخلاقه وجب الاعتدال في محل سكنه ، ومن يجب أن جسمه مفصل على مقتضى هذه العوالم حوله ، فأعضاء الحس للعلم بالموجودات ، والرجلان لحركة الانتقال ، واليدان لحركة العمل فكان الانسان الورقة المسوّرة بصورة الشجرة وهي هذه الدنيا . إذن العالم مقسم على أعضائه علما وعملا كما تقدم في أول ﴿ سورة ص ﴾ وهذا الانسان اليوم جاهل لم يدرس جسمه ومن درس جسم الانسان وجسم العالم عرف أن الانسان والعوالم حوله أشبه بالروح والأعضاء الجسمية فكما أن أعضاءنا مطيعة لأزواجنا هكذا العوالم حولنا يجب أن تطيع الانسان والانسان سائر الى هذه الحال ، وأضرب لذلك مثلا : رجلا بنى لأبنائه بيوتا منفصلة بماء البرك وهم ينتقلون الى بيوتهم بالسفن والأبنية لا تبلغ إلا الثلث والباقي ماء ، وبهذه الطريقة كانوا يتحاربون ، وهذا القتال هو السبب في نشاطهم ومعرفة أسرار الماء والأرض وهكذا ، وفي آخر الأمر قرّروا أنهم على ما أتى :

ذلك ان أسدّم . قال : أيها الاخوة إن أبانا حكيم لأنه لم يشأ أن يعطينا مجانا بل أراد أن نفكر بأنفسنا . انظروا . أسنا نحافظ على الطيور كالزقراق البلدي والشامي وأبي قردان ونحافظ على البقر والجاموس ، فهذه قد أجبنا أننا اذا أكلناها ولم نبقها لتنفعا في زرعنا إما باتقاط الديدان واما بالحرق والسقي فإنا نهلك لاحالة ، وهذا برهان يقيني واذا حافظنا على العنكبوت لأكله الذباب وعلى الحشرات لضعفها أفلا نحافظ على الانسان نفسه الذي اذا أبقيناه ساعد مساعدا أتم من مساعدة الحشرات وغيرها وبهذه زال الحرب بينهم ، الأب ضرب مثل لله تعالى والاخوة بنو آدم والمنازل هي القارات والماء هي المحيطات المعالمة . إن الانسان لم تقتصر العداوة على أن تكون بين أفراد بل انه حرم من المناطق الباردة القطبية والحارة الاستوائية المملوءة نعماء وخيرات لاحد لها . انه لم يحظ إلا بسكنى المناطق المعتدلة أما غيرها فلا . إذن هذه المناطق محبوبة لهذا الانسان وهي عاصية عليه حتى يجتمع كله ويتحد ويصبح جميع الناس أمة واحدة وهم أولى بالاتحاد في هذه الأعمال من اتحادهم مع أبي قردان والجاموس والبقر تلك الحيوانات التي اتحدت معهم في المنفعة ، فهل منفعة الانسان أقل من منفعة الحيوان ! إن الانسان جهول والأنعام اليوم أرقى منه . اللهم إني أشكر اليك هذه الأمم ، وأهل أمريكا يقتلون السود جهلا وخبثا لمجرد اللون . وأهل انكرا يطردونهم من مطاعمهم لمجرد اللون

٥٣ الانسان وتوزيعه على المعمور . شروط صلاحية القطر للسكنى . مغالبة الانسان طبائع الأقطار التي يسكنها أسباب قلة سكنى الغابات الاستوائية وموازنتها بالغابات المعتدلة . التغيرات الفصلية تعد القطر للسكنى وهكذا التغيرات الدهرية . الحرف وتأثيرها في عدد السكان

٥٧ أسرار العلوم المحبوبة في هذه السورة ، وذكر خمسة أسئلة (١) الذنوب ومغفرتها (٢) الكفر والإيمان (٣) محاوره مؤمن آل فرعون (٤) محاجة الكفار في النار من المستكبرين والضعفاء (٥) ما يقوله بعض المفسرين في آية - خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس - فان ابن عباس يقول : إن ذلك اشارة الى الدجال وأن الآية ردة على اليهود الذين يقولون إن الدجال يرجع لحم ملكهم . والاجابة على السؤال الأول والثاني أن الآلام كالضرب والكسر والصدم والجرح والأسقام كلها منذرات . واللذات نصف الرجة والآلام نصفها الآخر . ثم ان ماتقدم في أول سورة الزمر من أن في الجوق (١٦) طبقة سببها

الغبار والدخان ، وهذه الطبقات تحجب ضوء الشمس صباحا بحيث يكون أقل (١٣٥٠) مرة منه وقت الظهيرة . وهذه الحجب ودخانها الضار بأجسامنا المقصر لأعمارنا أصبح نعمة ، فنفه أكثر من ضرره ، فهكذا الذنوب . فهي منعت أفاضة العلوم على عقولنا دفعة واحدة لئلا نهلك . ثم ان الأرض أسرع قبولا للحرارة من الهواء وأسرع تخلصا والماء بالعكس وهكذا كل حيوان أو نبات أبطأ في النمو كان أكثر نفعا والعكس بالعكس . فهناك فرق بين النخل والقرع وبين الحصان والكلب . وهكذا هناك فرق بين الهرم وبين أبنيتنا من حيث الاتقان المناسب للدوام . هكذا الكافر والمذنب اذا صلح حالهما بعد العناء الشديد كان صلاحهما وإيمانتهما أتم لأنه بعد عناء . وهذا هو السر العام في كل ما نحن فيه من الشفاء والنصب في هذه الحياة

٦٠ ﴿ الفصل الثالث ﴾ في حجة مؤمن آل فرعون لقومه وفيه ثلاثة جواهر

٦١ الجوهرة الأولى في حجة من تاريخ قدماء المصريين وهذا التاريخ ثلاثة أدوار: الدولة القديمة ، والدولة الوسطى والدولة الحديثة ، وتاريخ الدولة القديمة يتدنى بالملك (مينو) الذي جمع تلك الوجهين البحري والقبلي وعاصمت (تاينس) أوطية بجوار جوجا ، ثم انتقلت العاصمة بعد ذلك الى منفيس عند ميث رهينة بقرب القاهرة ، وهناك شيد (زوسير) الهرم المدرج وسنفر وهرمى ميدوم ودهشور وخوفو وخفرع ومنقرع اهرام الجيزة الثلاثة وساحورع ونوفوارقرع وأمزنع وأونس وتيتي ويبي الأول والثاني ومزنع الأول والثاني ، فهؤلاء منهم من شيد اهرام أبي صير والمعبد الشمسي ، ومنهم من شيد اهرام سقاره . ثم تلت هؤلاء حروب وجاءت الدولة الوسطى ، وهؤلاء من الوجه البحري ، وجعلوا مدينة طيبة مقرهم ، وحكموا النوبة ، وأقاموا المعابد بطيبة ، وشادوا اهرام دهشور والشت والقيوم ، وبنوا قبور بني حسن والبرشه ومسلتين من حجر الصوان إحداهما بالمطرية ، والقصر الذي هوشرفى بركة قارون . ثم نقلت في الأسرة الرابعة عشرة الى الوجه البحري في (سخا) ثم سقطت الدولة ودخل الهكسوس وجاءت الدولة الحديثة فرجعت الى طيبة وعظمت مصر وعظم سلطان الكهنة ، ثم أصبحت العاصمة (صالحجر) بالغربية وتل بسطه بالشرقية . وفي هذا الوقت ابتداء الانقسام فدخل الآشوريون وضعفت مصر ثم دخل الفرس ثم دخل اسكندر المقدوني . كل ذلك بالانقسام . والمهم في الآية أن هذه الأمة وأمة العرب في الأندلس مقابلهتان في الانقسام فالصربون عبدوا الطير والسمك والحيات والتماسيح والقطط والكلاب كما تقدم في ﴿ سورة النمل ﴾ واقتتلوا على ذلك ومعنى خربت العقول ضاعت الأمم . وهكذا الأندلسيون افترقوا عشرون دولة صغيرة فأهلكهم الآشوريون . وهذا هو السر في قول مؤمن آل فرعون لهم - يا قوم لكم اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا - الخ فبأس الله هو التفريق والانحلال الذي جاء بعد هذه النصبة لأنه كان في الدولة الوسطى . وأعقب ذلك الزمن الدولة الحديثة التي كانت هي انتهاء دولة المصريين كما انتهت دولة العرب في الشرق والغرب بنفس هذا الانقسام بعينه ومعينه مع خراب العقول وضاعها بالتقليد الأعمى . وهذه هي حال المسلمين اليوم . ولقد فعل الفرنجة بأهل مصر في زماننا ما حصل لهم أيام الفراعنة . فأولئك لما أراد الله اعلاهم سلط على عقولهم الحرافات فجعلوا الحيوانات في الدرجة الأولى من الألوهية والمعبود الخفي في الدرجة الثانية ففتروا . وهما نفرقتنا نحن بسبب البشرين المتبشرين في البلاد الذين زلزلوا عقائد الأكارب فأصاعوا البلاد ودخل الانجليز مصر وأصبح المتعلمون إلا قليلا منهم يقشرون بالفرنجة في كل أحوال حياتهم . فما أشبه اللذة بالراحة . إذن قصة مؤمن آل فرعون منطبقة على حالنا اليوم . إن الرياء والخداع هما الرأحمان . وقد

يقوم بأمر البلاد أحسن النفوس وأضعف العقول والسفهاء وأصحاب الماضي التليث والسيرة القبيحة ،
وقليل من يتولاها من ذوى النفوس الشريفة الصادقين ، والمصريون اليوم عرب لهم صلة بالعرب في
شمال أفريقيا والحجاز واليمن والعراق الخ

٦٦ فهناك نصيحة الدكتور يحيى الوردبري إذ رفع موته في صحيفة الشبان المصريين قائلا : « لابد من اتصال
المصريين بالأمم العربية ، فأما الاقتصار على الوطنية المصرية وحدها وعدم اتصالها بالوطنيات الأخرى في
العراق والشام الخ فغناه الموت والهلاك ومعناه الانقسام (وبعبارة أخرى) ذكر المصريين بروابط
الدين واللغة والنسب مع العرب الآخرين . فهذه نصيحة مصرى في عصرنا لماوازيها بنصيحة مؤمن
آل فرعون وجدنا بينهما مشابهاة ما ، وعسى أن تكون هذه النصيحة يعقبا ارتفاع الأمة وإن كانت
نصيحة مؤمن آل فرعون أعقبها هوان الأمة لأنهم لم يتعظوا

٦٩ نورالعلم في صلاة الوتر بعد صلاة العشاء ، ههنا ذكر المؤلف معنى الاستغفار ، فم يستغفر رسول الله
ﷺ ؟ أمن ذنبه وهول ذنب له . كلا . إذن استغفاره ﷺ هنا راجع الى إزالة سبب الذنوب أى
دوام ذلك الزوال كما تقول اهدنا الصراط المستقيم ، والفتح المذكور في سورة الفتح ترتب عليه الغفران
بهذا المعنى إذ الفتح هناك راجع لفتح العلم وهو يحدث الأثر في قوس السامعين فينشرون العلم بفتح
البلدان ، إذن الفتح والغفرة راجعان للفتح العلمى وصفاء النفس وخلوصها من سبب الذنب . أما
التسبيح والتحميد فهما أمران محجبان : ان النعم التي نشاهدها غزيرة ولكننا نراها بمزوجة بالشرور
وهذه الشرور تحدث عندنا خوفا من الله ويكون الحب لله على مقدار ما يكون من اللطف الذي نحس
به بعد كل شر يصيبنا فنكون عبيد سوء لانعرف النعمة ولا نحس بها إلا اذا أصابنا الشر لنفرق بين
النعمة والنقمة ، ولكن اذا أدركنا بعقولنا ودراستنا العلوم الرياضية والطبيعية ، وتحققنا بعقولنا أن
الشرور لا بد منها لتمام النعم أصبح حبنا لله لاحد له وهناك فقط تفهم معنى الرضاء بالقدر ومعنى « الإيمان
بالتقدير خيره وشره من الله » وهناك هناك فقط تكون سعادة هذا الانسان ويكون الحب الحقيقي ، وهل
السعادة إلا الحب ، والحب هو النعم كله والسعادة كلها ، فلادنيا إلا بالحب ، ولانعم في الآخرة بحق إلا
بالحب . هذا هو سر الاستغفار والتسبيح والتحميد

٧٣ (الفصل الرابع) في الحاجة الضعفاء والمستكبرين في النار . وبيان أن ذكر المسيح الدجال بعد حاجة
الضعفاء والمستكبرين للدلالة على أنه اذا كان المسيح الدجال (مع ماله من السكر والدهاء التي لا يباينها
في الخديعة الرؤساء الضالون والشيوخ الغاشون) لا يعنى أتباعه من العقاب لأن لهم عقولا فأولى بالعقاب
هؤلاء الذين يتبعون المضلين من الشيوخ والأمراء المضلين . إن الحاجة بين المستكبرين والضعفاء في
آية تفرغ للسامعين الحاليين الذين تركوا مواهبهم وعقولهم ونسوا أن كتاب « الفرق بين الفرق »
التي اشتمل على (٧٣) فرق من فرق المسلمين ، كان كل اختلافهم المذكور فيه غالبا لا يرجع إلا الى سبب واحد
بحسب الأصل وهو الجاه والتروء والملك ، ولادواء لهذه الأمة عنسدى إلا دراسة العلوم الرياضية والطبيعية
وجميع علوم أهل الأرض ، ولا يصلح لقيادة هذه الأمة رجال يجهلون هذه العلوم ، فلرجال الدين ولرجال
السياسة ولا الأمراء ولا الملوك ولارؤساء الجمهوريات في أمة الاسلام بنافعين مالم يتحلوا بهذه العلوم .
وكفى كل واحد من هؤلاء أن يعلم بأكثر ما في هذا التفسير . فأما غير من اتصفوا بذلك الوصف فهم
لا يصلحون لرقى هذه الأمة لأنهم جهلاء غالبا جهلامر كبا

٧٥ (الفصل الخامس) في المسيح الدجال . لقد تكلمنا على المسيح الدجال في مواضع كثيرة من هذا

التفسير، وفي كل موضع فائدة ليست في الموضع الآخر. فاختلاف العبارات باختلاف المواضع كاختلاف الزروع. لكل وجهة وفائدة، إن المسيح الدجال أنذره الأنبياء قومهم، وليس من المعقول أن ينذروا بالذي لا يحدث لأمتهم، وليس من المعقول أن يستعبد المسلمون ١٣٥٠ سنة من شيء لم يكن له أثر، إن الدجال والغش والخداع محيط بأمم الإسلام من جميع الجهات، فمن شيوخ لاعلم عندهم يفرون الأمة ويقولون «لاموجب لقراءة العالم» فتنام الأمة، ومن قوم يأتون بتجارة أجنبية تبتز الثروة والأمة نائمة عن الصناعات، ومن أمم أوروبية أو مسلفة شرقية تحتل بلاد الإسلام. وتذل الرعية، فالأولون بحجة الإصلاح الكاذب، والآخرون بحجة أنهم على ديننا، فكل هؤلاء من أتباع المسيح الدجال، ولا ينافي هذا أنه يظهر في آخر الزمان، ولكن نحن ننظر لما هو حاصل الآن، فليكن هو كناية وهي معروفة في علم البيان. فكل هؤلاء استعاذ منهم النبي ﷺ ومنهم نستعبد نحن فظواهرهم كالمسيح ابن مريم وبواطنهم انهم دجالون، فاستئن الصحابة والتابعين وأمثال صلاح الدين وعمر بن عبدالعزيز وضع يدك على من تشاء تجدهم مترفين منعمين دجالين إلا قليلا كانوا مخلصين. إن المستعمرين مادخلوا أمة من أمم الإسلام إلا أصبح شيوخ الطرق غالبا دعاة لهم. وأما قول ابن عباس «إن الآية واردة في اليهود» فهو حق وظهوره الآن والا فإذا نرى. أن الحرب العظمى ما أشعلها إلا ألمانيا بسبب الفلاسفة اليهود مثل نيتشه والبلشفية في روسيا رؤساؤها اليهود مثل لينين وفتنة فلسطين وطمعهم في الوطن القوي ظهرت في هذه الأيام وهي من اليهود. أليس هذا هو عين قول ابن عباس بل هو مجرزة وهو انهم سيتكلمون في ملكهم على المسيح الدجال وهاهي ذه الدول المستعمرة هم الدجالون وعليهم انكسر اليهود وابن عباس قال لا يبالون شيئا. فعلى المسلمين أن يرقوا تعليمهم ليزول خداع الأمم وتفك أغلال العالم على أيدي المسلمين والا فان نفع الانسان لأخيه الانسان أقوى ألف مرة من نفع (أبي قردان) الذي حافظنا عليه لزعمنا، فهل (أبو قردان) أنفع من الانسان للانسان؟ إذن الانسانية اليوم بلهاء جاهلة، وعلمنا نحن أن نرقبها لنقتل الدجل منها، ومن أهم الدجل إبقاء الأمم جاهلة بسبب الاستعمار تارة وبسبب الشيوخ الجاهلين تارة أخرى، ومن أهم الدجالين المبشرون الذين يزلزون العقائد لاصطياد الأمم، وجاء في إحدى المجلات العلمية وهي مجلة «الشبان المسلمين» مقالة بهذا المعنى عنوانها «من كان بينه من زجاج فلا يرجم الناس بالحجارة» وأن الصينيين يقولون: تعاليم المسيح عرفناها من قبل إرساله لكم ولم تنالوا من الصين أكثر من (٤٠) ألف نصراني يكسبون منكم رزقهم، وههنا سرد حكاية عيسى وهم مع انهم يدعون إلى السلام مادخلوا أمة إلا أهدنوا فتنة وادعوا ملكا وثارت الحرب فهل هذا هو السلام. ولما علمت ألمانيا أن رجال الدين هم الذين مهدوا للانجليز دخول مصر بسبب بث العقائد الزائفة أخذوا يستعملون هؤلاء للبشرين لما يريدونه

٨٢ ﴿سورة فصلت﴾ وهي خمسة أقسام: تفسير البسمة والتوحيد. ذكر بدء الخلق. وذكر إهلاك بعض الأمم كعاد وثمود. وذكر الحشر. وشهادة الجلود والحواس الخ. والخامس في ذكر أن الليل والنهار آياتان إلى آخر السورة

٨٥ ﴿القسم الثاني﴾ من السورة إلى قوله - العزيز العليم - قد كتب مشكلا

٨٦ التفسير اللفظي لكلمة (حم) وهذان الحرفان يرجعان للعهد والحد على نعم، وههنا سرد المؤلف نعم الله التي في هذه السورة

٨٩ ذكر بدء الخلق - قل أنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين - الخ

- ٩١ (القسم الثالث) من قوله تعالى - فان أعرضوا - الى قوله - وكانوا يتقون - وتفسيره اللفظي
- ٩٣ (القسم الرابع) من قوله تعالى - ويوم يحشر أعداء الله - الى قوله - فاستعد بالله - الخ قد كتب مشكلا ، ثم تفسيره اللفظي
- ٩٥ (القسم الخامس) من قوله تعالى - ومن آياته الليل والنهار - الى آخر السورة قد كتب مشكلا وبعده التفسير اللفظي
- ٩٨ لطائف هذا القسم : هي ثلاثة . الأولى في إزال الماء من السماء وانبات النبات الخ
- ٩٩ اعلم أن المواد المعدنية والنباتية والحيوانية لاتت كامل إلا في وسط موافق لها وأقل درجات الاجتماع أن تكون العناصر لافها تركيب كيميائي ولانظام حيواني كحجر الجير ويسمى حجر البناء (والدبش) و(الدقشوم) فهذه مركبات من كالسيوم وأكسوجين ، وأرقى من هذه التركيب الكيميائي كالبوتاسا الكاربه ، ففيها البوتاسيوم والاكسوجين والادروجين والكالسيوم والكربون ، فباتحادهذه بنظام خاص تصبح جسم له خواص جديدة ، وأرقى منهما طريقة الحياة النباتية والحيوانية ، فلنأخذ الاكسوجين والادروجين والآزوت والكربون التي لا بد من وجودها في كل نبات وحيوان ، فهذه يركبها الكيميائي ولكنه لا يقدر أن يخلق فيها الحياة ، ان الحياة فيها سر البناء والطدم كرفع الحجر الى أعلى فيرتفع الى حد خاص ثم ينزل الى الأرض . إذن الموت ناجم من نقاد القوة الحيوية ، وأمسك الحياة مادة هلاميه (بروتوبلاسم) تصبح حوصلة والأحسن أن تسمى بيضة والبيضة تنقسم بيضتين و٤ و٨ و١٦ و٣٢ وهكذا (انظر هذا في سورة مريم مع الموسيقى ومع حساب بيوت الشطرنج) فأنا وأنت وكل نبات وحيوان أصلنا هذه البيضة ويحصل الانقسام وفي أثنائه تكون العين والأذن والقلب الخ الحياة سلسلة والنبات من أعلاه متصل بالحيوان كنوع (الذوفيت) فهو على شكل النبات ولكنه حيوان ، ثم الاخطبوط الهلامي ، ثم الديدان ، ثم الحزرون والبزاق وذوات الأصداف ، فالحيوان القشري فعقرب البر وذوات الفقرات كالسمك ، فالديدان الأرضية ، فالطيور فذوات الثديين وهكذا الى القرد فالإنسان
- ١٠١ (خلق الانسان) انه بخلق تدريجيا في الرحم فيكون دودة غلزونة فسمكة فذبابه فقردا فالإنسان سويا وهذا هو معنى قوله - مخلقة وغير مخلقة -
- ١٠٣ (اللطيفة الثانية) في آية - لايسأم الانسان من دعاء الخير - . أمر الانسان بحب ، ا يسلب النعمة فيضطرب ، فاذا خف الأمر عليه دعا الله ، فاذا كثرت النعم أصبح أهمي ، وليس يخترمه من جهله إلا العلم (اللطيفة الثالثة) في قوله تعالى - سترهم آياتنا في الآفاق - الخ فهاهوذا قد تبين الحق في زماننا ، وأنت أيها التكي اذا قرأت ماتقدم في التفسير أيقنت أن ما فيه خلاصة علوم الأمم في أرضنا . إذن أنت اطلعت على معنى هذه الآية بقراءة ماسبق في هذا التفسير . إذن أصبح دين الاسلام دين الحكمة والفلسفة . إذن أنت شريك في الفكرة حرام عليك أن تنام
- ١٠٣ أيها المسلمون القارئون هذا التفسير : أتم خلفاء الله في أرضه تذييل لتفسير هذه السورة وفيه ثلاثة فصول : الفصل الأول في إيضاح قوله (اليه يرد علم الساعة) العجب ان الانسان يرتقي في الرحم كاتقدم في درجات الحيوانية ، فاذا رأينا الطفل يلاذ بالهجرة ويجب الجماعة ويداعب العصفور فذلك لأنه كان بالأمس مثلها . إن التلميذ يجب أن يمر على جميع درجات التعليم حتى يمكنه أن يعلم (لذلك لم يكف المسلمين أن يعلمهم قوم من الذين نالوا العلم لشف لأنهم لم

بمروا على السرجات كلها كما مر الجنين

١٠٤ ﴿ الفصل الثاني والثالث ﴾ في إيضاح الكلام على آية - سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم - الخ
وذکر نبذة من كتابي « ميزان الجواهر » تتضمن البحث في نظام علم التوحيد في بلاد الاسلام
وأن المؤلف وهو في حال الصبا كان يتخلى لو أن المسلمين درسوا هذه المشاهدات في المعاهد الدينية .
وانه شاهد بعض الحيوانات الصغيرة المرقشة فأدهشته ، وأخذ ينظر بعقله ، ويقرأ التفسير في الحقول
وهو بعيد عن دور العلم ، فخلا له الفهم ، ثم اتصل « بدار العلوم » وأصبح موقنا بأن هذا العالم له نظام تام
ففرح بذلك فرحا شديدا وأخذ يقول : « تبأ لمن تمر عليه هذه الحياة وهو لا يعقل هذه العجائب ،
أما التماسل والمات كل فأمران عامان . فمن استعمل عقله في هاتين الشهوتين فقط فإلهام خير منه
وهو أسمى » وهننا سبعة أمور : — (١) ميل الفطرة الانسانية للغراب (٢) دليل الاوهمية في
الامور الغريبة أقرب الى أذهان البسطاء (٣) آيات القرآن ناطقة بذلك (٤) ويجب أن يطبق العلم
على صفات التنزيه والتحميد عند كل عجيبة (٥) فذلك مع كونه علم توحيد هورقي للانسانية (٦)
مطالعة العلوم على هذا المنحى لزيادة علم بالله (٧) بهذا يشب الطفل على حب الله

١٠٧ ﴿ النبذة الثانية ﴾ ما كتبه المؤلف في مجلة « نور الاسلام » لأنه رأى رؤيا وأن ملكا في النوم كان
يعلمه معنى « بدأ الاسلام غريبا » وأخذ يفهمه طول الليل أن الاسلام سيظهر وينتشر انتشارا غريبا
اليوم كانتشاره أولا . فأخذ المؤلف هذه المعاني وجعلها من عنده في مقالة تحت عنوان « مما أوجب
للمسلمين السقوط . جعل اقتراب الساعة سبب السقوط » . جاء في القرآن أن الساعة آتية لا ريب فيها
وانها قريبة وذلك لاحداث النشاط للعمل . فالسلف كانوا مجتدين في العمل بهذا السبب ولكن نفس
هذا السبب اتخذته جهال المسلمين سببا للبطالة إذ يقولون : « قربت الساعة فلماذا نعمل » وهؤلاء
جاء الكسل . ولكن قرب الساعة ليس يفهم كما يفهم الجاهل . ان أعمارنا قصيرة فالقرب عندنا عشرات
السنين . أما القرب بالنسبة لصانع العالم فهو مبني على النظام العلم القديم الزمان . واذا نسبنا مائة ألف
سنة أو مليون سنة الى مئات الملايين كان ذلك قريبا . وهذا معنى - أنهم يرونه بعيدا وزاه قريبا -

١١١ اللطائف العائمة لأقسام السورة كلها وهي ست لطائف


١١٢ ﴿ اللطيفة الأولى ﴾ في البسمة ومناسبتها لما ذكر في السورة من الزمير الى طبقات الأرض وما فيها من
صور كشفها التوم . الآيات المفصلات في المادة الأرضية والسموية . للسمع جاءت اللغات . وللبصر خلقت
المشاهدات . والسورة بدئت بالآيات المسموعة ثم انتهت الآيات البصرية والأرض وما عليها كلها في (٤)
أيام . والسوات في يومين . العوالم كلها ترجع الى سماء وأرض . وتنصليهما يكون بعلمين : علم الفلك
وعلم طبقات الأرض . يقول الله : « أنارحيم رحمت الحشرة بالآلاف العيون ورحمتكم أتم بعلم الجيولوجيا
والفلك لتقرموا الجمال »

١١٥ وسيكون في الجيولوجيا بابان : باب العلم . وباب العمل . أما العلم فبذكر معلومات عامة وأهم النظريات
الحديثة . والعصر الأول للأرض . وعصر الحياة القديمة . والحياة الوسطى . والحياة الحديثة . والعصر
الحجري القديم فالحديث وعصر البرزخ . في ذكر معلومات عامة

١١٦ قطاع تخيلي يوضح أقسام الكرة الأرضية (شكل ١٣) الغلاف الجوي والغلاف المائي وأعماق
البحار المحيطات . ويبان أن سمك الغلاف من (٥٠٠) الى (٦٠٠) ميل . ويبان تركيب الهواء الخ

١١٧ الكلام على أهم النظريات الحديثة من حيث ان الأرض كانت سديما . آراء الاستاذ (كانت) سنة

- ١٧٥٥ « انه كان هناك سحب مركب من غاز » ومنها اشتق (لابلاس) مذهبه . ومعنى هذا أن حرارة الأرض الآن أقل من حرارتها قديما ، وهذا الرأي باطل الآن
- ١١٨ منظر السديم المعروف في مجموعة نجوم الجبار (شكل ١٤) منظر للسديم الحلزوني في مجموعة نجوم السلاقي بالمنظار الفلكي ، والأول يمثل كون الشمس دنانا والثاني يمثلها وقد امتد منها ذراع
- ١١٩ (الفصل الثالث والرابع) في العصر الأولى للأرض . العصر الابتدائي والحياة القديمة . وفيه الكلام على أشكال الحيوانات البحرية القديمة
- ١٢٠ لوحة فيها (١٢) صورة لحيوانات قديمة في ذلك العصر ونباتات وأنواع من انفار
- ١٢١ عصور الحياة الوسطى ، وفيه وصف البحار وقد طفت على اليابسة . وكيف ظهرت حيوانات واقترضت أخرى . وذكر انه كان هناك بعض الحيوانات الرخوة المحارية (الامونيت) وكان من هذا الجنس وحده (٤٠٠٠) نوع مختلفات وقد كثرت فيه الشجاب المرجانية . والكلام على عصر الحياة الحديثة
- ١٢٢ لوحة فيها (١٠) صور فيها أهم الحفريات في صخور حقب الحياة الوسطى بالقطر المصري
- ١٢٣ وهنا وصف التنافذ البحرية والاورستريا وأن الحشرات انتشرت انتشارا كثيرا الخ
- ١٢٤ لوحة فيها أهم الحفريات في صخور حقب الحياة الحديثة بالقطر المصري فيها عشرين صورا منها فاكهة متصجرة وسرطان بحري وسم الحوت وورقة شجرة وغيرها
- ١٢٥ العصر الحجري القديم . وهنا اللوحة (٤) فيها (١٩) رسما تشتمل على (١) قطعة من الخشب المتصجر و(ب) منظر الغابة المتصجرة قرب القاهرة . وههنا ذكر الغابة المتصجرة القريبة من العباسية فيها أشجار تبلغ عشرين مترا
- ١٢٦ العصر الحجري القديم والحديث . وعصر البرز . وههنا ستة أشكال منها آلات من الصوان الحجري القديم بالقيوم ومجموعة من الآلات من حجر الصوان تابعة للعصر الحجري الحديث
- ١٢٧ وهنا ذكر أنهم وجدوا رسوم أيدي السكاكين التي أخضعوا بها الحيوانات والوحش كالثور والحصان والحمار والكلب والقط . وقد عرفوا الزراعة والصناعة ثم هجروا الكهوف وسكنوا وسط البحيرات خوفا من الحيوانات
- ١٢٨ (عصر البرز) ومن الغريب الانتقال من آلات الصوان الى البرز والمصريون وحدهم انتقلوا الى عصر النحاس وهو عجيب !
- (نبذة من علم الجيولوجيا خاصة بالقطر المصري) اهتم قدماء المصريين بالمعادن وفي زمن الرومان ثم أيام المغفور له محمد علي باشا وفي هذه الأيام انجھوا كرة أخرى
- (زيت البترول) كان ينز عند سفح جبل الزيت على شاطئ الخليج وكشف عام ١٨٨٥ في جسا في مفرات قرب الشاطئ كانت معدة لاستخراج الكبريت
- ١٢٩ هنا أشكال : شكل ٢٣ منظر لجزء من حقول البترول بالفردقة (شكل ٢٤) يترقى أول الاتنج يتدقق البترول من الفوهة بقوة عظيمة من جسا (شكل ٢٥) أحد عروق المرواحاملة للذهب بمناجم سينا بالصحراء الشرقية (شكل ٢٦) منظر عام لمناجم الفوسفات بسفاجه بالصحراء الشرقية
- ١٣٠ (شكل ٢٧) منظر لمنطقة مناجم المنجنيز بشبه جزيرة سينا . موازنة بين أنواع البترول بهذه الجهات
- ١٣١ اللطيفة الثانية في آية - كتاب فصلت آياته - الخ وهو بحثان : مبحث لغوي ومبحث علمي سياسي والمبحث اللغوي جاء فيه قول ابن النقيب : « إن القرآن وإن كان كله بلغة العرب قد دخل فيه من لغات

لغات الأمم ألقاظ لأنه  مرسل للجميع

١٣٣٢ وههنا جدول بالألفاظ تقرب من (١٥٠) لفظة من قبائل العرب المختلفة مثل : مسطورا أي مكتوبا بلفظ حبر ، ومثل السفهاء أي الجهال عند كنانة ، ومثل كنود أي كفور للنم عند هذيل ، ومثل : أنكر الأصوات أي أقبحها عند حبر ، ومثل : بجبار أي بسلط عند جوم ، ومثل لاشية أي لاوضح عند أزدشنوة . ومثل رفت أي جاع عند مذحج . ومثل مريج أي منتشر عند خثم . ومثل نحلة فرضة عند قيس عيلان . ومثل حفدة (أختانا) عند سعد العشيرة . ومثل جابجا أي طرقا عند كندة ومثل اخسوا أي اخزوا عند عنزة . ومثل ربيون أي رجال عند حضرموت . ومثل طنقا أي عمدا عند غسان . ومثل لاتقلا أي لاتزيدوا عند مزينة . ومثل أملاق عند نهم . والعقود عند بني حنيفة وحصرت أي ضاقت عند الهجامة . ومثل تميلوا عند سبأ . ومثل نكص عند سليم . والصاعقة لسان . وينق عند طي . وأفيضوا عند خزاعة . وخبالا عند عمان . وأمه أي نسيان عند نعيم . وطأزه عمله عند أعمار . ولأحتكق عند الأشعرين . ولينه نخله عند الاوس وهكذا . هنائي قبائل العرب . وهكذا لغات الأمم مثل : أيريق فارسية . ابلي حبشية . وأسباط لغة بني يعقوب . واستبرق هجينة . وأسفارأي كتب (سريانية وقبطية) . اصري أي عهدي (نبطية) . أليم أي موبج (زنجية) . ولأله فضجه (أهل المغرب) . وأواه موقن (حبشية) . الأولى أي الآخرة وبالمكس (قبطية) . بطانها ظواهرها (قبطية) . كيل يعبر (حجر) عبرية . جهنم فارسية . حوم أي وجب (حبشية) والحواريون الفسالون (نبطية) . وراعنا بلفظ اليهود وهكذا . وغساق : انبارد للثمن . وفردس (رومية) والهيوم سريانية . ويصهر ينضج بربرية

١٣٣٦ وههنا نظم لأربعة وعشرين لفظا أوله (السلبيل وطه الخ)

١٣٣٧ (المبحث الثاني) وهو السياسي العلمي في قوله تعالى - كتاب ضلت آياته - الخ وهذا المبحث فيه الكلام على العرب أيام جاهليتهم الأولى وجاهليتهم الثانية . فهم في جاهليتهم الأولى أيام حوراني إذ كانوا بالمرق تفلبوا على السومريين حوالي سنة ٢٤٦٠ ق.م وكتبوا بالقلم السومري وهو أشبه بالقلم الميريوغليقي المصري . وفي أول أمرهم لما تفلبوا على السومريين استعملوا لغتهم وقلمهم ثم أهملوا لغتهم وحفظوا قلمهم . وله صورة بديسة في صحيفة ١٤١ (شكل ٢٨) وهذا الخط لازال يتغير حتى كانت سنة ٣٢٨ م . إذ أصبح بشكل ما كتب على قبر امرئ القيس بن عمر . وهو خط يفاير الأول (شكل ٣٠) في صحيفة ١٤٣ ولاجزم أن هذا كان قبل البعث بثلاثة قرون . ومن زمن البعث الى الآن بقي الخط العربي بهيئته الأصلية ومعه التحسين والخط واللغة محفوظتان (انظر شكل ٣١ و٣٢ و٣٣) وهي رسم لسورة الفاتحة وقل هو الله أحد بالغة العربية والصينية وذلك في صحيفة ١٤٤ و١٤٥ و١٤٦ ومن يقارن ما حصل في اللغة العربية من حفظها بجده مخالفا لما حصل في اللغة اللاتينية التي كانت لغة الدين والعلم والسياسة . فان السولة الرومانية صاحبة تلك اللغة لما هجم عليها المتوحشون وهم آباء هؤلاء الأوروبيين ونبتت منهم أمة الألمان وسكنت رومه وكانوا همجيين سنة ٤٧٦ م . باختل الأمن أخذت كل أمة تكتب بلغتها وأصبحت اللغة اللاتينية لغة تاريخية لاغير وحلت محلها الألمانية في ألمانيا والانجليزية في انكلترا وهكذا . وهذا بخلاف اللغة العربية فانها لم تحل محلها لغة أخرى . فقد أعدمت لغة القبط بمصر والروم بالشام والنبطية أو الكلدانية بالمرق وحلت محلها الى الآن ولما نشأت منها لغات أخرى وهي لغات العامة بمصر والمغرب والشام بقيت هذه الأمم تحافظ على العربية

الأصلية . وكلما تباعدت عنها أخذ القرآن يقرّبهم منها . إذن هذه الآية ظهر سرّها الآن إذ رأينا اللفظ اللاتينية التي كانت سائدة في أوروبا دينا وسياسة بطلت والعربية بقيت . هذه هي المهجزة القرآنية المذكورة في هذه السورة - لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - مع قوله - سنريهم آياتنا في الآفاق - الخ وهذا من مدهشات القرآن

١٤٧ ههنا جوهرتان : الأولى في مقالة للكاتب الأميركي إذ يقول : « إن جميع المسائل يكتب الناس فيها أيلما وشهورا ويسكتون ، ولكن معرفة الله وخلاص النفس لاتقف الكتابة فيهما في الماضي والحال والاستقبال ، وضرب مثلا للعلماء بالتقطط العمياء التي وضعت في صندوق والرجل يرفعه وينغذي التقطط باللبن ولكن إحداها قتلها الكلب لأنها خرجت من الصندوق ، فقالت قطة منهم : أين الرجل ؟ لو كان موجودا ، لارجل هنا ولاجنق ولاشفقة ، فهذه تشبه (أنجرسول) الجاحد الأميركي ، وقالت أخرى إن الصندوق يجري على نواويس طبيعية . أما الرجل فلا وماهذا اللبن إلا أمر نظامي طبيعي لاغير . أما الرجل فلا وهذه القطة تشبه (اسحق نيوتن) ولكنه هو مؤمن ولكن التقطط بعد ذلك أبصرت فرأت الرجل فاعتذرت له فقبل عنرها

١٤٩ ﴿ الجوهرة الثانية ﴾ في آية - وجعل فيها رواسي - وان من الرواسي وهي الجبال جبل الفضة بأمريكا الجنوبية التي عثر عليه رجل أمريكي أصلي تابع للقبطان (جون) فاستولى عليه باسم ملكه سنة ١٥٤٥ وبقى معهم ٢٨٠ سنة ، وهذا الجبل بمملكة بوليفيا وقد خرجت من يد الإسبان سنة ١٨٢٥ وقد كسبوا منه ١٦ ألف مليون ريال أي ٥١٢٠ مليون جنيه ، فيكون الكسب منه كل سنة ١٨ مليون جنيه وثلاث ، والفضة اليوم قلت قيمتها ، وفي الجبل قصدير ، ولا يصدر منه إلا قليل الآن

١٥٠ ﴿ اللطيفة الثالثة ﴾ في قوله تعالى - حتى إذا ماجعواها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم - الخ ، وذكر آيات أخرى مع هذه مثل آية - يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم - هنا علم عجيب ، ذلك انه لماذا ذكرت الأيدي والأرجل وحدها في الشهادة ، ولماذا شهدت مع اللسان نارة ونارة وحدها والقلم عثوم عليه ، وجواب ذلك أن اللسان يشهد معها إذا كان الانسان أشبه باللقوم تنوعا مغناطيسيا لاحرية له ، فأما إذا كان مستكملا قواه فانه يكذب فإذا كذب شهدت هي وحدها ، واختصاص هذين العضوين بالشهادة لسرّ قد ظهر في عصرنا ، فان الناس سنة ١٨٩٠ وهي التي دخلت فيها دارالعلوم استندوا في علم الباحث الجنائية الى هذين العضوين لأنهم وجدوا هذه الخطوط لاتغير أمد الحياة من المهد الى اللحد ، فهي ترسم في الجنين وتبقى الى ما بعد الموت بخلاف بقية ظواهر الجسم فهي كلها متغيرات تغيرا تاما . وهذا هو الذي عليه الاعتقاد اليوم في تحقيق الجنائيات . وهذا الذي يجب أن يعمل به قضاة الشرع الاسلامي . فاذا تعارض قول الشاهد مع هذه الآثار التي تركتها الأيدي والأرجل على نياب القاتل أو على السيف أو نحو ذلك . فهذه يقينية وشهادة الشهود ظنية بالاجماع . واليقين مقدم على الظن . واذا قبل الله شهادتها وهو ليس في حاجة اليها فالقضاة أولى بقبولها مع حاجتهم اليها . وهذا السرّ ظهر الآن في هذا التفسير وأنا أعلنه للمسلمين بعدنا . وههنا (٩) أشكال للأيدي والأرجل من نمرة (٣٤) الى (٤٢) وهي مرسومة في الصفحات من ١٥٤ الى ١٦٠ وهي تبين بوضوح أشكال الأيدي والأرجل . وتبين أن خطوط الأصابع أربعة أنواع رئيسية فهي إما منحنيات واما منحدرات الى اليسار . ولما منحدرات الى اليمين واما مستديرات . ثم الاقدام إما أن تكون لرجل

صاحبها سائر. واما أن نكون لرجل صاحبها واقف. ولكل واحد من هذه الأحوال شكل من الأشكال المنتظمة، ومن الأرجل ما هي مقوسة، ومنها ما هي منبسطة. هذا هو الاجال

١٦٠ ﴿الطيفة الرابعة﴾ في آراء حكماء الأمم وعلماؤهم في الأخلاق تفسيراً لقوله تعالى - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - الخ وذلك أن المؤلف بينا هو جالس إذ أخذته غشية فأحس - ككأه في عالم آخر وقد رأى فرشا مرفوعة وأكواباً موضوعة، وهناك فتاة رائحة الجمال. فلما رآها خرّ صريعا لهشته من الجمال، ولما اشتاق وأشفق أن يكون ذلك حواما عليه لأنه هام بالجمال الحسى. قالت له هذا ليس حواما عليك، انك في احوال الروحية، وأفهمته أنها هي البصيرة، فهي رمز لبصائر الناس جميعا في الأرض، فاستغاث بها أن لا تتركه، وأخذ يقول لها: أنا مفرد بك، إن كل حياتي فكر والفكر منك وفيك. فقالت له. كلا. ولكن انظر الى من ارعى في عقول علماء الأمم. فهناك امثال أمرها. وأخذ يقرأ عليها آراء كوفنشيوش الصيني قبل ٢٥٠٠ سنة، ويتبع مذهبه ٥٠٠ مليون نفس، وهذا المذهب ملخصه أن يحب الانسان جميع الناس شرقا وغربا، وأن الطبيعة موزونة، وأن الانسان له بالله صلة، والله يرعاه ويرعى كل مخلوق في الأرض، ويقول هو: «إن تقه باقة لاحد لها وهو يساعده، وهو الذي عين له الوظيفة التي يقوم بها الآن، والطبيعة التي خلقها الله لاسر فيها، والانسان له بجميع الناس علاقة، والحب هو نهاية المقاصد في الدنيا فيجب جميع الناس كما يجب العلم ويحب ربه. وفي كل انسان مبدأ للخير. ومبدأ للعطف على الناس. ومبدأ لما يثير الخجل من عمل الشر. ومبدأ يميزه الخبير من الشر. والحق من الباطل. والناس يولسون أطهارا. والترف والنعيم وكثرة الطعام والدمم والدفء يجعلهم بهايم. على هذه الأخلاق درج الصينيون. هذا ملخص آراء كوفنشيوش

١٦٥ وهناك آراء أفلاطون فهي قريبة منها. يقول: «إن الشهوات والأهواء تنازعنا فعليا أن نسمع صوت العقل واكرام النفس في شيء واحد وهو الفضيلة. إن الفضيلة تمتع الروح. ان الفاضل وان تعثر في أول أمره فانه يسعد سعادة حقيقية داخلية في أول أمره. وداخلية وخارجية في آخر أيامه إذ يسمع الثناء الحسن والاحترام من الناس جميعا. إن الفضيلة فوق المال والمتاع وكل ما يقتنيه ونجب به»
١٦٦ ومثال ذلك سقراط قام بما عليه في ميادين القتال وامثل أمر رؤسائه. وهكذا لما صار يعلم أبناء أبنائه العلم ووقف موقف الموت اختار الموت ولم يترك العلم والعدل ولم يرض بالهروب من السجن لأنه يعتقد أن ذلك شر، والذي يقابل الشر بالشر لئيم. وعلق الاستاذ (بارتلمي ساتهليلر) على هذا بما يفيد أن المصائب ما هي إلا عقوبات والعقوبات يجب قبولها بالسرور ولا يجوز الهرب منها

١٦٨ ونقل عن سقراط ما يأتي: «إن حجة الأشرار ليست حجة. وحجة الأخيار هي المحبة. إن الأشرار يخون بعضهم بعضا. فأين المحبة إذن؟ وما دام الانسان يرى انه يمتاز عن صديقه بمال أو بكرامة أو غيرها فلا مداقة بل هناك أحوال متغيرات واضطراب. ثم ان عمل الشر مع الأشرار يزيدهم شرا فيجب أن لا يفعل الشر معهم»

١٦٩ وقال أيضا: «أصحاب النفوس الشريرة لا يجوز لفاضل أن يقابل شرهم بالشر لأنهم مرضى. وهذه المقابلة تزيدهم شرا. وأكثرهم يرجع بالبين. والنادر ليس كذلك. فيجب كظم الغيظ والعفو، وقد ضرب سقراط نفسه مثلا لذلك. فانه لما علم من الكهانة انه أعلم الناس شعر عن ساعد الجدد وقام بنشر

العلم امتثالا لأمر الله وقدم نفسه للقتل ولم يهرب من السجن مع تمكنه حفظا للفضيلة . إن في القلب صوتا من الله يأمرنا بالأعمال الفاضلة مع الجميع ، فكيف نفرّ من هذا الصوت والله هورب الجميع ، الله صنع الانسان وهو معان به يراعى من يلبى هذا الصوت ، ولا سعادة لاصريه إلا بذلك . فأما من أسلم قلبه للشهوات فإن الله يتركه لنفسه . ليقنع كل امرئ بأن الله يحرسه دائما فهو إذن لا يخاف شيئا في طائنا ، لا خوف على الانسان الخبير في الدنيا ولا في الآخرة ، وإذا مسه الشرّ فإنه يرى لطفا فيه متعاقبا ١٧٥ ليقطع المرء عمره بهذه الآراء . وقال عن (سقراط) انه قرّمأه أنكسافورس : « إن العالم صسر عن عقل ، فالعقل أصل كل شيء » وعليه رأى سقراط أن نبحت عقولنا حتى نعرف طباعها . وههنا ذكرت الروح التي تحدث مؤلف هذا الكتاب أن الله يساعده دائما في هذا التفسير ، وأخذت تسمع منه ما يقوله الشيخ الشعرائي في العفو عن الشرير وعن الذي يسي في قطع الرزق عنه . وذكر ما حصل بين خطيبين لأجل دنائير أهداها السلطان سليم لأحدهما . وذكر أيضا أدبه في الأكل وانه فيه يحضر قلبه مع الله تعالى . وأطنب في العفو عن المذنبين

١٧٣ ههنا ذكر المؤلف آراء أهل أوروبا في الأخلاق وخص بالذكر (الاستاذ بارتلمى) الذي قرّر أن هنا أمرين في داخل نفوسنا : أمر فوق مستوانا . وأمر هو عملنا ، أما الأول فهو أن الصوت الذي نحس به في كل وقت يؤنبنا نارة ويمدحنا أخرى ، وههنا ليس منا بل هو من الله بدليل انه يورثنا الندم ويعاقب نارة ويفرحنا ويمدحنا أخرى . إذن هو أعلى منا . أما الأمر الثاني فهى الإرادة . إن لنا في داخلنا اختيارا ، فلنا أن نطيع ذلك الصوت ، ولنا أن نصيه ، فهو معلم ولكن الإرادة منفذة فهى تعصى وتطيع كما تشاء هى لا كما يشاء ذلك الصوت الداخلى ، وليس في العوالم حولنا هذه الحرّية ، بل كل العوالم تسير بقوانين أو بواعث لانعرفها . فخاصية الانسان إذن هى الإرادة التى هى المتمتعة بالحرّية . إذن الضمير والإرادة هما أصل علم الأخلاق ، وقبول الإرادة ذلك القانون يشرف الانسان ويرفعه في أعين الناس والله أيضا يرفعاه ، وليس في العوالم المشاهدة أشرف من ضمائرنا وهى مؤدبة لنا تأديبا شريفا تهجز عنه قوانيننا . وههنا يعرف الانسان انه مسؤول أمام خالقه ، وعلم الأخلاق يقرّر عدلا إلهيا بعد الموت وخلودا للروح لتنال جزاءها الذى لم يتم في الدنيا خيرا أو شرا

١٧٦ سعادة النفس والسرور الوجداني بالفضيلة أحبّ الى نفوسنا مما دون ذلك من المتاع والمال والبنين أولا ، ومن اللذات ثانيا ، ومن السعادة ثالثا ، بل الانسان قد يختار أن يفد هذه كلها ليعيا حياة السعادة النفسية ، وماهذه المذكورات إلا أمور ثانوية

١٧٧ آراء الحكماء بعد أرسطاطاليس . آراء أتباع أرسطاطاليس بعده . وهم أولا فادوفرستس والستراتون ومن نعمنا نحوهما ، فانهم لما وجدوا أدلته وأهية في اسناد العلم الى الصورة القائمة بالمادة وانها سبب في حضور السكليات في أذهان الناس تركوا التكلم على الإلهيات . وثانيا الايقوربيون . وأولهم أيقورس القائلون باللذة (أى في الفلسفة خلافا لما هو مشهور) . وثالثا الرواقيون ورئيسهم زينون توفى سنة ٢٦٤ ق م القائلون : الله والعالم جوهر واحد (وهذا كفر في ديننا) والإلهيات والطبيعات علم واحد والمدار عندهم على الأخلاق ليحلّ النور الإلهي في جسد كامل بالأخلاق

١٧٨ م (نيقوماخس) صاحب علم الأعداد سنة ١٤٠ ب م . وههنا ثلاثة فروع : فرع أثيني ، وآخر شامى ، وثالث أسكندرى . وأشهر الاسكندر بين بعد الميلاد أفلاطين . وأشهر الشاميين بيليوخوس . وأشهر الفرع الأثيني سريانوس . وههنا انتهت الفلسفة القديمة اليونانية وفروعها

ثم جاء الاسلام وفتحوا الفرس والروم والمند وقرؤوا علوم الأمم وترجموها وكان المترجمون رجال علم بخلاف فلاسفة أوروبا في القرون الوسطى فهم كانوا قسبيين ، فبحث فلاسفة الاسلام في أكثر العلوم بخلاف الآخرين ، ان ما ابتكره العرب قليل بالنسبة لما ترجموه ولكن لهم الفضل فأولاهم لم تترق أوروبا على هذا الخط

١٧٩ المسامون درسوا الفلسفة الأفلاطونية الحديثة أولاً ، ولما عثروا على آراء أفلاطون وأرسطو كانت الأولى قد تمكنت فيهم وفيها مزج الصلح بالدين ، وأول الفلاسفة يعقوب الكندي والفارابي الذي اتبع الأفلاطونية الحديثة ، ويظن انها تعاليم أرسطو ، وقد قرأ كتاب النفس (١٠٠) مرة ، والفلسفة اليونانية متناقضة ومناقض بعضها للدين ، فيها خلط وتهوؤيس

١٨٠ والرداقيون أفرموا بالكشف ومعرفة ما وراء الحس ، والصوفية في الاسلام مشتقون من هؤلاء ، وكتاب الفارابي المسمى « آراء أهل المدينة الفاضلة » له مزج بين آراء الشيعة وبين آراء جمهورية أفلاطون واخوان الصفاء ظهر في القرن الرابع بالشرق ، وانتقل الى بلاد المغرب ، وهو دائرة معارف والواضع لها جمعية سرية كانت بالبصرة عند القفطي من مؤلفيها خمسة ، وقصدتهم أن يتقوا للفلسفة من الخلط والصعوبة ، وأن يهذبوا الدين ويصلحوه بها . ومن الفلاسفة أبو علي بن سينا في القرن الرابع الهجري على رأي أرسطاطاليس وكتابه « القانون » عمدة في الطب وأن علماء الاسلام ردوا على الفلسفة ، ولكن الامام الفزالي هو الذي صد الناس عنها بقوة بيانه ورجعهم الى التصوف

١٨١ ولما انتقلت الفلسفة الى الأندلس وساعد في رواجها الحكم الثاني الأموي في القرن الرابع وتبع ابن باجه وابن طفيل مؤلف (حجى بن يقظان) الذي ترجم الى اللاتينية وظهر سنة ١٦٧١ سنة ١٧٠٠ وبعد عشرين سنة من ظهوره ظهر رواية (روبنسون كروزو) ثم ابن رشد أشهر فلاسفة العرب تبع أرسطو ورد على الفزالي ، ومن كتبه فصل المقال المشهور ، وأكثر مؤلفاته بغير العربية ، ولكن الموجود ترجمتها مع شرح أقوال أرسطو مع الرد على الفزالي في ١١ مجلدا وكتابه في الطب لاتيني ، وله كتب بالعربية ، وطارت شهرته بالمدارس والكنائس الى ابتداء القرن السابع الهجري أى الثالث عشر المسيحي . ولما انتهى القرن السادس عشر وقف المسلمون فلابحث لهم . وبقى المسلمون في الألفاظ تقديما وتأخيرا وذكرا وحذفا ولكن نبع ابن خلدون في مقدمته في علم العمران وطلب أن يتجه من بعده . فأجاب طلبه (أوجست كومت) أما المسلمون فلا . ولم يظهر بعد ابن خلدون نابغة اسلامي ولكن بقي الشرق نائما حتى أيقظته الحوادث اليوم . فها هو ذا قائم ينفذ غبار الكسل

١٨٢ فلما سمعت هذا المقال . قالت : لقد سمعت . وأخذت تذكر المؤلف بقولها : لانتس انك في تفسير آية من القرآن - إن الذين قتلوا ربنا الله ثم استقاموا - الخ وأن تاريخ الفلسفة تمهيد للتحقيق في ذلك التفسير . فلا بد من تحقيق آراء الفلاسفة في معرفة الله وفي علم الأخلاق . وهنا أجاب المؤلف تلك الروح قائلا : سأبحث هذا الموضوع في ثلاثة فصول

١٨٣ وشرع في الفصل الأول في الحكمة العلمية والعملية مبينا أن المذاهب ثلاثة في الانسان : أهو الروح ؟ أم الجسم ؟ أم هما . ناقلا ما كتبه في كتابه « جوهر التقوى » في ذلك

١٨٤ ذا كرا أن الروح والجسم متحدان فيشبهان على الناس كزجاج والمزج . وهذا هو السبب في الخلاف إذ يقول بعضهم : « الانسان هو الروح والجسم لاشيء » وعكس آخرون الخ وعلم الطب ينظر لعلم الصحة نظرا تاما . إذن الطيب يهيم الجسم . فهو إذن يقول بالروح والجسم . ذلك لأن آثار النفس

تطلى الجسم صحة وسقما كما يفعل الجسم في الروح اقتباسا وانساقا
 ١٨٥ وههنا بقية المقال كتنصيصه الانسان أن يمتدل في مأ كله ومشر به وهكذا ، مم ذكر المؤلف ما كان
 بمصر من العبودة المصرية التي كتب على قبرها «أنا كل شيء» ، وهكذا صورة أرسطو وأفلاطون
 واختلاف اشارتهما الى السماء والأرض ، كل ذلك له آثار في علم الأخلاق ، فاذا أيقن الانسان بقول
 أفلاطون وبرهانه على أن الله بالنسبة لعقولنا نظير الشمس بالنسبة لعيوننا فانه يكون سعيدا بهذا الايقان
 وأن الصورة التي رسمها روفائيل الدالة على سقراط وأفلاطون هي نبراس أول العلم وآخره لأن الأمر
 دائر بين الروح والجسم .

١٨٨ من القائلين بالمادة (كارل نغت) وبخبر وديمقراطيس . وههنا ذكر أبيقور وتوماس مم (لامتريه)
 وكياي وغيرهما . وبالجملة في هذا المقام سر العلماء القائلين بالروح والقائلين بالجسم من أيام اليونان
 الى الآن إجمالا مثل أنكساغورس وأرسطو والرواقيين وأصحاب الجوهر الفرد والمؤلفين والعقليين
 وأصحاب الحلول . أما سينوزا فقد أعلن أن هذا العالم جوهر واحد وهو الله وهو إعلان مدهش والعالم
 فرع منه

١٨٩ وههنا تألم المؤلف من سرد هذه المذاهب ، واعترض على الروح وقال لها : كيف أمرني بسر المذاهب
 الفلسفية وهي مملوءة بما هو مهوش صربك للفكر مع ان قلبي فيه صحيفتان أجل من ذلك وهما صحيفة
 جمال السموات وجمال الأرضين . إن قراءة تاريخ الفلسفة ضارة فوافقتة على ذلك ، وانما نفعها
 يكون لأناس قليل عددهم وقالت انك لا بد من اطلاعك عليه لتبين الحقيقة للناس ، وهل القاضى
 يحكم بغير معرفة أقوال الخصمين ، وفي أثناء ذلك يقول المؤلف انه برؤيته وجهها انشرح صدره بعد
 اقتباضه بقراءة هذه الآراء ، وأجابته قائلة : أنا أعلم من اطلاعك على قلبك انك ستحل المشكلة للعالم
 كله فقل وأنا معك . وبهذا تم الكلام على الفصل الأول في آية - إن الذين قالوا ربنا الله -

١٩٠ فأخذ يحدثنا عن المقام الأول في مذهب الفريزة الخلقية ومذهب التجربة ، وبكل قال علماء ، فبالأول
 قال (كارليل) وبالثاني قال (كارنوب) وغيره ، والمقام الثاني في الغاية من سلوكنا وفيما يسوقنا الى
 ذلك السلوك ، فهل الانسان خلق لمنفعة هو أم لمنفعة العموم ؟ بكل قال قوم ، وغيرهم من يقول
 بالتضحية مثل الاستاذ (مل) ، والذي يسوقنا لحسن السلوك إما القانون الأخلاقي في أعماق نفوسنا
 واما العواطف ، واما الخوف من الله ، أو ذم الناس ، بكل قال قوم . والمؤلف يقول : « إن الناس
 درجات فلكل وازع يناسبه »

١٩١ (الفصل الثاني) في القبس المذكور في سورة طه وايضاح أن الحبر والشجر والزرع كلها مملوءة
 بالنار . فالحبر فيه (٤٨) جزءا من مائة جزء كلها اكسوجين . ويمنع اتقاده بالنار جوده . والحديد
 يحصل فيه التأكسد أى الصدا وهو نوع من الاحتراق بطي . وأما الخشب والفحم والورق والزيت والدهن
 ففيها كربون وأودروجين . ومتى قربت النار منهما أخذتا يفران فيقبض عليهما الاكسوجين . فههنا
 زواج وارتباط . والحرارة أشبه بالفرح القلبي . واللهب أشبه بالزينة التي تقام في العرس

١٩٢ إن ازدواج القضايا العلمية ، وآراء علماء الشرق والغرب أشبه بازدياد الكربون والادروجين مع
 الاكسوجين ، والمسلمون بعد قراءة هذا التفسير سيقدمون علوم أم الشرق والغرب ويصطفون منها
 ما هو حسن وتكون النتائج مستعملات في المنافع المادية في مقابلة القبس عند موسى لأهله ، وفي
 المنافع العلمية في مقابلة قول موسى - أو أجد على النار هدى - . إذن منافع القبس العلمى متوجهة

للذيات وللعنويات كقبس موسى عليه السلام حذو القذة بالقذة

١٩٣ (الفصل الثالث) في جلاء الحقائق العلمية والعملية ، وامتحان آراء علماء الأمم الخلقية : أخذ المؤلف

يفكر في آراء الأمم أمة أمة ، وكيف يقول قوم بوجود الروح وحدها ، وآخرون بالمادة وحدها ،

وكانت تلك الروح الجميلة البهجة تنبسم وهي صامتة ، فنظر المؤلف الى جبال وجهها ، فرآه ازداد جلالا

وبهجة وحسنا ، فأغشى عليه ، فأخفت هي تلاففه وتمرت بدها عليه حتى استيقظ ، وأخذ يتفكر بكلام

ابن الفارض : * ما بين معترك الأحداق وللهمج * الخ وأخذ يسألها : أنا الآن في حال

البرزخ وقد مت ؟ فقالت كلا بل هو صفاء نفس ، فسألها : هل هذه الخلال لها وجود مع انها خيال ؟

فقالت : هي أصل الوجود مستقلة بدليلين : أحدهما اننا نرى الصور القديمة في عقولنا لا تتغير بخلافها

في المادة ، ثانيهما ان كل عمل نعمله في الخارج أصله من الآراء التي تجول بأذهاننا ، بل للمادة لا

وجود لها لأنها نتيجة حركات الأثير الواقعة على حواسنا . إذن هي موجودة في مرتبة الحواس لا غير

فهي وجود عدم ، وهما أخذ المؤلف يتفكر فيها فكرة أخرى لبهجة جمالها والأنس بها وأن صورتها

أجل صورة رأها لأن المعشوق في الأرض إما حسن الظاهر خاوي الباطن ، وإما بالعكس ، وهذه جمالها

ظاهر باطن معا ، وأرادت أن تنصرف ، فاستغاث بها ، فقبلت البقاء معه ليتمتع بسماعها لكلامه ،

فأمره ، إذن أن يحقق الأدلة للناس في مقام العلم والعمل في علم الأخلاق فأرجعها معا الى الانسان ،

فانظر الى حواسه الخمس والى عقله يفهمنا أن هناك عالما روحيا ، كما ان نظرنا الى عواطف الأطفال من

حيث انهم يرون جميع من حولهم مسخرين لهم ، وفي عواطف الحكماء والقواد الذين يرون انهم

مسخرون للعطف على سائر الناس ويقذفون بمهجمهم في منافع أنهم ، فهذا النظر يبررنا لماذا خلقنا

ويوقفنا على حقائق الأعمال الخلقية ، وهاتان النظريتان اللتان ظهرتا للمؤلف في حضرة تلك المشوقة

هما معيار علم الأخلاق الذي ابتكره المؤلف ، وكل نظرية ، أورأى المؤلف قديم أو حديث تندرج فيهما

٢٠٠ فإذا سمعنا أن أفلاطون وسقراط ثم أرسطو ثم الاستاذ كانت ، قد أتوا بأدلة في إثبات الله ، فدليل

الحواس الانسانية والعقل أقرب الى اليقين لأن كل حاسة من لمس أو ذوق أو عين لها محسوسات ترتقي

بارتقاء الحاسة والعقل الذي هو أظفها تكون مدركاته لها اتصال به وهي تناسبه . إذن عقولنا متصلات

بعقول كبيرة . إذن نحن سعداء الآن حتما ، فلا اعتراض على هذا كما اعتراض أرسطو على (المثل)

التي قالها أستاذه أفلاطون . وإذا وجدنا علماء أوروبا وغيرهم يختلفون : هل نحن مخلوقون لنفوسنا

أم مخلوقون للعموم ؟ فانا نقول لهم لاخلاف . فمن كان كالأطفال فهو لنفسه . ومن كان كالحكماء فهو

لغيره . والأمر ظاهر واضح . بهذين البرهانين خرجت الانسانية من مأزقها في العلم والعمل الخلقين

وهذه نهايات علوم العلماء (٢٥) قرنا . وهذا هو الامتحان الذي قدمه المؤلف لأمم الشرق والغرب

٢٠٢ (نواضر الجواهر ، لنفائس العرائس) هذا مقال موضح لما قبله ، بشرح صدور القراء ويهيج نفوسهم

يقول المؤلف فيه ان براهينه قد وصلت الى تمام الحكمة في هذا المقام بعد دراسة الحكمة السابقة

في (٢٥) قرنا . ويقول ان برهانه لا يحصل فيه خلاف كالذي حصل لبرهان أفلاطون ولأرسطو إذ

قامت بعد ذلك فرق وهي الأيقودية والرواقية وفرقة الاسكندرية والأينية والشامية قبل الاسلام ،

وفرق الصوفية بعد الاسلام ، وهما استعرض برهان الاستاذ كانت وبرهان أفلاطون ، وأقارن

برهان « تفسير الجواهر » أثبت ، فان الانسان اذا علم أن عقله متصل بعقول أكبر منه كاتصال العين

بنور واسع المدى فإنه يوقن لإقناعنا تماما بعالم الأرواح . وإذا وجدنا أن الأرض قد عجبت عجبا تاما عن

إمداد أبنائها بالضوء والحرارة للحياة والهداية ، واستعارت لهما ذلك كله من الشمس فهي إذن عن إمدادهن بالعقول والعواطف والفراز أشد مجزا . وهذا برهان آخر واضح فلا حاجة إذن الى برهان الاستاذ (كانت) الألماني ولا أفلطون اليوناني لأن هذا البرهان أيضا يقيني . هذا في الحكمة العلمية ٢٠٤ أما الحكمة العملية فأمرها ظاهر في الموازنة بين طبع وحكيم في عواطفهما . إذن سقط خلاف علماء الأمم الأوروبية

٢٠٥ ثناء المؤلف على ربه لأنه ألهمه الحكمة وعلمه هذه البراهين وأن هذه البراهين التي علمها الله للمؤلف جعلته ينظر الى الجمال في الصور السماوية والأرضية ، وإلى الشهوات التي في النفوس ، وإلى العقول الانسانية ، وإلى الماء والهواء والحرارة التي تثيرهما فيعمل الهواء الماء ، وإلى الضوء ، وأن الله لما علم ضعف عقولنا عن فهم المنبع الذي وردت منه هذه الصور الجميلة وهذه العواطف والقوى والعقول أهي المادة ضها أم شيء آخر أظهر لنا الحرارة والضوء من الشمس وقال لهما : يا أيها الحرارة ويا أيها الضوء : لتقم الأولى باثارة البخار من البحار وباتارة الرياح فيكون سحاب ، ويساعد الضوء في التغذية وفي هداية الحيوان لطرق معاشه ، وأنتا لستا من الأرض بل من عالم آخر غيرها . ليقول نوع الانسان اذا مجزت أرضنا عن الضوء والحرارة وهما حسيان فهي أجهز ألف مرة عن إحداث صور الجمال وخلق العقول والعواطف والقوى الشهوية والنفسية والفراز الحيوانية ، وهنا يفهم المسنون مامعنى قوله ﷺ « اللهم الرفيق الأعلى » عند الاحتضار

٢٠٧ زهرتان في بستان الحكمة العلمية والعملية . الزهرة الأولى : رأى الاستاذ (سرجس) في أن الناس فكروا في المادة لأنهم متأثرون بها ، والحقيقة أن المادة وليدة العقل ، والعلماء اليوم عندهم شبه لإجماع على هذا ، فالقول بالمادة قديم ، والقول بالعقل قول حديث

الزهرة الثانية فيما جاء باخوان الصفاء ، وذلك أن رجلا من المترفين التمتعين أصحاب التصور والصور والولدان والياب الفاخرة والمجالس والشراب بمن يقدّم المترفين ويتزيا بزيمهم الغافلون رأى رؤيا أفزته وتكررت هذه الرؤيا ، إذ رأى انه في أرض مقفرة وهو مشوّه الوجه عار كئيب جامع شعره طويل وجسده ملوث بالقاذورات ، ووراءه أسودان منكران يخرج اللسان من شديقيهما وبأيديهما حراب وهما يطارداه فهرب منهما ، فعارضه في طريقه جبل شاهق ، فطلع عليه ، وسلّكه بمشقة ، ثم هوى منكسا في حفرة عميقة فيها دنان معسكر وطب يشوي الوجوه ، فصرخ صرخة أفزعت أهل القصر ، فغضر العلماء والمنجمون والأطباء ، وكلّ قال ما خطر له ، فلم تنجح العزائم ولا البخور ولا الأشربة ولا الأدوية ، فان الرؤيا رجعت بعينها ككرة أخرى بأشد من الأولى وهكذا مرة بعد مرة ثم انه أخيرا عبرها له عالم فقال : ان ذلك كله انما هو إشارة الى سوء أعماله وسلوكه وحومه على الدنيا وزهده في الآخرة ، وأن كل وصف من أوصاف المنام راجع الى وصف من أوصاف حاله يوم القيامة وبعد الموت من الطوان والعقاب والحساب والعرض والعدل والخوان . ثم وصف له الهواء وهو التمتع بفضول ماله والصوم نهارا والصلاة والتهجد ليلا ، ففعل ذلك وصار قدوة في الدين بعدما كان قدوة في الشهوات ، وصارت الحكم تلقى على لسانه من غير تكلف وهناك ملك موكب به يلهمه هذه الحكم حتى ان ذلك العالم القوي وصف له ذلك صار يتلقى العلم عنه ، وهذا هو معنى قوله تعالى - تنزل عليهم الملائكة - الخ

٢١٠ وههنا ست حكم عاتمة في الموازنة بين الأم مع والدها والحكيم مع أمته والأمم كلها . وبيان أن سعادة

الحكام حقة وهناك سعادة مزينة للاحرار والملوك الذين لم ترتق عقولهم فان المحكمة الإلهية عاملتهم
معاملة الطفل مع أبيه ، فانه يضطك عليه بالصوم الموقرة التي لا قيمة لها ، هكذا الله يفعل ذلك مع صغار
العقول من نبي آدم في الأمم الجاهلة ، فيطلي هذا الأمير مالا كثيرا ، وقصورا ونساء ، ويضع له باب
الشهوات ، ويجعل هذا مقربا له على أن يحفظ البلاد ، غانا المسكين أن ذلك هو المكافأة ، وما يرى أنه
هو نفسه تضعف قواء الصحة والتناسلية بكثرة جناباتها ، وبعد ذلك يرى نفسه خاليا من تلك العظيمة
اللفظة ومن تلك اللفة الخسبية

٢١٧ (الطيفة الخامسة) في آية - ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة - الخ وفيها بيان الكلام على وحدة
الحيوانات والنبات ، وأن الفصل بين هذين الخسبين حسر فالحركة والتغذية والتناسل والنمو وغيرها
مشركة ، فأين الفاصل إذن بينهما ؟ ففي الثبات نبات مقترن ، والافتراض معه حركة ، والنباتات
المستحبة تتحرك ، وبفرة بعض النباتات الطحلوية ، وبفرة من الموس لها شجرة تتحرك بها ،
وهكذا بعض النباتات ذات الخلية الواحدة تعوم بشرك كثير أو بشجرة واحدة ، بل الأمر فوق ذلك كله

٢١٤ إن الحركة لازمة لقادة الحياة على الإطلاق ، إن خلية النبات ، وخلية الحيوانات مركبتان من مواد
مختلفة ، ولكل خلية نواة ، والخلية خلافا خارجي زلافي في الحيوان جامد في النبات من المادة التي
يكون منها القطن وورق الكتابة . والفرق بين خلايا الحيوان وخلايا النبات أن الأولى خلافا مرين
مركبتها الدائمة فيها تنقل الى جاراتها فيتحرك الحيوان ، وخلافا الثانية جامد فلا تنقل الحركة من
الخلية الى جارتها ، إذن الحركة دائمة عامة ، والفرق إنما هو الانتقال وعدمه فيهما ، على أن هذا الفارق
بين النبات والحيوان ليس عاما ، فن الحيوان ما يتحرك الحركة ، ومن النبات ما يتحرك كما قسم . فان
بعض النباتات النظرية تكون خلاياها شائعة بلا فاصل بينها كخلايا الحيوان . ثم إن التغذية في الحيوان
معلوم . ويستعين النبات بالمادة الخضراء (الكوروفيل) على التغذية إذ يتجدد بنوء الشمس
لاستخلاص الكربون من الجو فيمزجه بالماء فيكون السكر والنشاء والسيلولوز ومادة الخشب ثم
يكون أحيانا ضوية تكون منها المواد الدسبية . ثم النبات يأخذ الماء من الأرض وكذا والمعادن التي
فيها أوزوت ومخرج كلها بالمواد السكرية والنشوية والأحماض الضوية فتكون المواد الزلاية التي هي
أهم غذاء للحيوان . ثم إن التغذية ليس قصرا على ملكة النبات والحيوان فبقعة الصدا على سطح
المعدن تغذي من بخار الماء ومن المعدن وغيرها . والبزرات المقفومة في ماء مشبع من محلول
موادها تغذي من المادة الدائبة في الماء فتكبر . والآلات الميكانيكية المتحركة تغذي بالفحم ونحوه
وهكذا الحركة لا تختص بهاتين الملكتين فان الكواكب والزواج والأمواج وجميع الجزئيات والجوهر
الفرد كلهم متحركات . وهكذا التأثير فاذا تأثر النبات والحيوان فان المواد المفروسة والكيميائية غير الثابتة
تتأثر بالنور كمواد التمثول الشمسي وبالحرارة وبالطوية . واذا دق على وتر آلة موسيقية وفي الغرفة
نظيرها تحرك الوتر المماثل لذلك الوتر

٢١٦ ههنا موضوع في علاج الأزمة المالية في مصر . ولكن المقصود منه ما فيه من عجائب النبات ، مثل :
شجرة البقرة ذات الفجرة الخضراء كالسندقة ولها عجاكي لبن البقرة وأهل كراكلس يتغنون منه وله
صبر مسكري . ومثل : شجرة ذات اليد . وشجرة الحرير . وشجرة المهن . وشجرة البهار . وشجرة
الناعين . وشجرة الأرابوت . وشجرة الكمثرى الأمريكية . فهذه الشجرات من أولها يصنع
الورق الناعم في الصين . ومن ثانياها يخرج وبر حوريري فطنى ينزل على الأرض كالزؤلؤ والثلج ويقول

٢١٨ ويدخل في صناعات مختلفات . ويبلغ طول الشجرة (١٥) متراً فأكثر وعرضها على الأقل متران ونصف متر تستعمل مسكنا وهي لاتزال مزدهرة ، ومن الثالثة تستخرج حبات لها دهن يساعد في صنع الشمع الأبيض الذي يضيء مدة طويلة . وفي استخراج زيت صالح للوقود ، ومن أوراق الرابعة ويطبخها بهار ودواء ، ومن جذور الخامسة دواء للشفاء من لسعات الثعابين ، ومن جنوع السادسة غذاء قوى للأطفال ، ومن السابعة يدر لبن يتجمد في صلابة القشدة

٢١٩ بهجة المر في قوله تعالى - ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة - الخ وفيها عجيبتان : العجيب الأولى من علم الحيوان ، آلاف مؤلفة من حيوانات صغيرة تعيش في قطرة ماء ، وهي تخلف على الورق الجفاف والتبن والتريس وهي بهيئة طحلب فوق سقوف المنازل وهي نجف أثناء الصيف وتظهر بالآلة المكبرة بهيئة حبوب يرمل أخضر ، ومتى نزل عليها الماء تحوّلت حيوانا حلا ، فإذا غاض الماء أوصار بخلا رجعت ميتة لامرأك لها ، فإذا نزل عليها الماء تحركت حالا (انظر شكل ٤٣ و ٤٤)

٢٢٠ العجيب الثانية : زيارة توفيق درس باشا لسكينة علم الأرواح ، وأنه كالم روح والده وعرفه بعلامات ، وذكر له أحوالا يعرفها ، وطلب أن يأخذ صورته فأجيب الى ذلك ، ولكن لما صورته وجد صورة أخرى في الرسم ، فسأل بنت الاستاذ (ستيد) عالم الأرواح المشهور فأجابت أن روحا أخرى أقوى من روح والده تقدمت للصورة ، فطلب تصوير روح والدها واحترق أثناء الاحتراق فأجيب لذلك وظهرت صورة والدها ، ففجأ لذلك ! وسأل : كيف أمكن تصويرها وهي لا ترى ؟ فقيل له أن عدسة الآلة المصورة تصل الى ما لاتصل اليه عدسة عيوننا . وهنا شكل ٤٥ و ٤٦ يبينان الصورة التي جاءت شامنا من عالم الأرواح وصورة (ستيد) في صحيفة ٢٢١

٢٢٢ وهنا ذكر المؤلف أن مسألة العجيب الأولى ، قد كررنا بنوم التحل والزناير مدة الشتاء واستيقاظها أيام الربيع ، وكذلك الحيات والثعابين ، وبعض السك الذي يكون في العين إذا نجف ، وفي الثلج القراكم ، وهذه كلها تقوم إذا زال المنافع . إذا عرفنا ذلك فهنا أن الموت والحياة في هذه الحيوانات القرية أشبه بالنوم واليقظة في الحيوانات الكبيرة . إذن الموت أمر مبهود لا أهمية له ، فكيف أعظم أمره هذا الإنسان ! إن العجيب الأولى في الحيوان والعجيب الثانية في الأرواح من واد واحد كلاهما أظهر أن الموت ليس أمرا عظيما ، فإذا كانت الحيوانات الحقيقية تموت وتحيى بكل سهولة ، والأرواح ظهر أن لها وجودا بعد الموت . إذن الأمر سهل

٢٢٣ إضاح لما تقدم . إن أكثر النبات هو مالانراه (انظر شكل ٤٧ و ٤٨) مثل بكتريا حازونية وبكتريا عضوية وبكتريا كروية . فهذه أصغر النباتات مركبة من خلية واحدة . فهي كيفية لها غشاء ومادة داخلية فيها . وهذه الثانية لها نواة هي أصل الحياة . وهناك ما هو أصغر منها ولكن لاتراه . وأحدها يكون واحدا من الأمت من المليمتر ، وهذه تتغذى وتنفس وتموت وتولد وتموت

٢٢٤ الكلام على ما تعيش على مادة غير عضوية . والبيضة الواحدة إذا وجدت مكانا صالحا تموت وتصير في ٢٤ ساعة نصف مليون رطل وهي تعيش على درجة ١٩٠ تحت الصفر وهي الدرجة التي يصير فيها الهواء سائلا كالماء . ولكنها لاتتحمل الحرارة أكثر من ٥٥ درجة فوق الصفر . إذن هذه نباتات أقوى على العمل من كل نبات نعرفه . ومتى جندت يصير لها غلاف سيك يحفظها وتبقى سنين حتى إذا صادفها وسط مناسب رجعت لها الحياة مرة أخرى (شكل ٤٩) رسم تكوين الجراثيم في البكتريا

إن البكتريا تعين على نمو النبات . فهي كالفطحاتين والطحينين والخبزين . إن القمح والقمح وكل نبات كبير لاقدرة له على امتصاص عنصر الآزوت من الأرض إلا بحال خاصة ، وهذه الحال الخاصة لا تتم إلا بتحليل البكتريا الصغيرة له فيسهل على النبات الكبير تناوله . والبكتريا أيضا تكون سببا في الخلل وديغ الجلد وقبول طعم الزبدة ورائحتها واللبن الرابدى فهذه من منافعها ، ومن مضار البكتريا مرض التسمم والطاعون والتيفود والتيفوس والالتهاب الرئوى والسل

٢٢٥ والوقاية من الأمراض المتقدمة بالنظافة واستعمال المظهرات الخ . ويان أن هذه المخلوقات (البكتريا) من حيث ضررها ونفعها أشبه بالنحل ودودة الحرير والحيات والقارب ، فنها يكون النسل والملاصق ومنها يكون الضرر . والجراثيم النباتية ثلاثة أقسام : قسمان منها لالون لهما . والقسم الثالث له لون وهي الطحالب . ثم ان اللذين لالون لهما أحدهما يسمى الفطر (بضم الفاء والطاء) والثانى يسمى البكتريا (انظر شكل ٥٠) فهذه البكتريا تغذى بالكربون الذى فى الشجرة وبالآزوت الذى هو جزء من الهواء ، ولا تزال هذه تسكاثر على جذور النباتات البقلية حتى تموت باتبيلها آجالها فيرت النبات هذه البكتريا ويتفع بالميراث ، فقد كسب منه أمرا فوق الكربون الذى أخذه منه وهو الآزوت الذى أخذه من الهواء ، فهذه البكتريا أعطت للأرض أمرا جديدا هو الآزوت الذى حوته من الهواء الى الأرض

٢٢٦ ﴿ الطحالب ﴾ من شكل ٥١ الى ٥٤ وهي أشكال جميلة بهجة تزين الطحالب الخضراء والزرقاء المنخفضة ، والتي أعضاؤها تشبه أعضاء النباتات الراقية ، ومنها ما هو مستعمرة من الطحالب
٢٢٧ (شكل ٥٥) طحالب بنية وجيدة الخلية ، (وشكل ٥٦) أحد الطحالب البنية الكبيرة الحجم ومن الطحالب ما هي حمراء تعيش على أعماق كبيرة من سطح البحر
٢٢٨ ﴿ تركيب الفطر ﴾ (شكل ٥٧ و ٥٨ و ٥٩) ههنا تتكاثف بعض الفطريات فتكون كتلة تشبه أنسجة النباتات الراقية كما فى عيش الغراب

٢٢٩ جبال العلم فى آية - ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة - مع قوله تعالى - وقدر فيها أقواتها - الخ مخاطبة المؤلف لربه ، يقول له : « باربنا أخذنا نستقرى هذه الأقوات التى قدرتها فجبتنا من أن المشرقات تجرى بحساب ، ووجدنا نفس النبات الذى ظهر بسبب أنوار المشرقات أيضا بحساب ، ورأينا اننا نحتاج فى طعامنا الى مواد دهنية وآزوتية ونشوية ، وهذه الثلاثة وجدناها فى النباتات بنسب مختلفة ، فنها نأخذ فيها الدهن ، ومنها ما زاد فيه المادة النشوية وهكذا ، إذن أنت كما حسبت شمك وكواكبك حسبت قيمة الغذاء الداخلة فى كل نبات من دهن ونشاء وآزوت »

٢٣٠ خطاب المؤلف لربه أيضا ، يقول له : « بارب فى القلوب حبك ، تحببك الثواب لطفها ، والعامه لطعامها أولامها ، وهؤلاء عبيد العسا . والأطباء لا اطلاعهم على أسرار الغذاء . والحكام حبهم أعلى من السابقين . انهم يحبونك لعلمك الذى ظهرت آثاره فى تقدير الأقوات ولرحمتك ولجمالك »

٢٣١ نور على نور . وذكر بعض أنواع النبات كالقمح والذرة والسنوبر والقول السودانى . وأن منها ما مادته الآزوتية كثيرة أو الدهنية أو النشوية . وهذا الاختلاف تابع لاختلاف الفتحات الشعرية فى الجنود وعند امتصاص الغذاء و لاختلاف الأوراق أثناء امتصاص الكربون من الهواء عند مقابلة نور الشمس وتعاونهما على ذلك الامتصاص . وهكذا هيئة الجهاز الهضمى المرسوم فى صحيفة ٢٣٢ (شكل ٦٠) فيه آلات وأدوات لهضم المواد النشوية ، وأخرى لهضم المواد الدهنية ، وأخرى لهضم الآزوتية .

إذن يلربنا ههنا عجب اشمس نضىء وتساعد الورق بفتحات مختلف باختلاف الأشجار، وهناك يمتص من الهواء كربونا وتمتص جذور الأشجار بفتحات أخرى أغذية من الأرض فيكون حب على مقتضى هذه المقدمات له تركيب خاص من أنواع الأغذية فيحصله الانسان فيأكله فيتقاه الجهاز الهضمي فتكون الأغذية موزعة على الآلات الهاضمات في الجهاز الهضمي، إذن يلربنا هناك مناسبات تامات بين الضوء والنبات وفتحات أوراقه وجذوره ثم سبويه والآلات الهاضمات في الحيوان، إذن أكثر النوع الانساني في جهل عميق

٢٣٣٣ نجيب لهذا الجهاز الهضمي الذي حوى ما يهضم المواد الثلاث التي في النبات بحيث كانت فيه مصانع للنشاء وللأزوت وللواذ الدهنية، ولكل واحد من هذه الثلاث نوعان من المصانع ماعدا النشاء فه ثلاث مصانع في نفس الجهاز الهضمي، فاذا تجاوزنا هذا الجهاز الى ضوء الشمس وفتحات الأوراق والجذر التي فيها والى فتحات الأنابيب الشعرية في الجذور ألقينا الحساب هناك متقنا اتقانا بدبها بحيث ترى الأنابيب الشعرية والفتحات كلها لا تدخل في النبات غير المواد المخصصة له

٢٣٣٤ نظام الأمم الأرضية والشوق الى مبيع العالم، ويبان أن بني آدم غافلون عن هذا النظام، والا فأى يقين لهم بعد هذا التفصيل، إن المجموع الانساني أشبه بالأجهزة الهضمية، والأرض وما عليها أشبه بالحب والنبات وما فيها من المواد الثلاثة المختلفة، فاذا لم تسلط مجموع العقول على جميع المنافع في الأرض أصبحت بعض المنافع عاطلة لم تجد من يستخرجها وهذا قصص للجميع وهذا هو قوله تعالى - من قتل نفسا بغير نفس أوفسادا في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا - الآية

(عروج النفس الى العالم الأعلى) و بيان أن في تفسير قوله تعالى - إن الذين قالوا ربنا الله - إضاح أن المادة لججزها عن إحداث ضوء وسرارة لما عليها برهنت على أنها عن إحداث عقول وعواطف وغرائز أشد حجرا، ونز يدعى هذا أن المادة اليوم ثبت عدم وجودها، إن هي إلا سركت في الأثير إذن الفلاسفة الماديون سقطوا من قوائم الفلاسفة، إذن هناك علم ورجة وجمال وحب منها استمدت الحيوان والانسان مالم يهيم من ذلك العالم القدسي، والانسان متى أحس - أن علم ورجته مستمدة من هناك أحس - بالسعاد في هذه الحياة ولا يحجزه الفزع الأكبر، والانسان اذا وصل الى ذلك المقام نظر الى أعلى والى أسفل فاستمد وأمد

٢٣٣٥ بهجة الحكمة وجمال العلم في آية - ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة - الخ . يقول المؤلف انه نجح في أن القارئ شاركه في فهم مقادير النبات وفي نسبتها الى الجهاز الهضمي، فههنا يبين أن المواد غير عضوية كالأملاح وعضوية وهي النشوية وأختها، فههنا ذكر الجدول ليعين أكثر النباتات : قمح أرز، ذرة، بطاطس، بطاطه، لوبية الخ . وبالجملة في هذا الجدول (٥١) أكثرها نبات وبعضها حيوان، وهذه المواد هي التي يتعاطاها الناس غالبا، وقد ظهر لكل مادة قيمتها الغذائية في الرطل المصري الواحد

٢٣٣٦ قسمة علم النبات بيننا وبين الأطباء، الطبيب يفرح بهذه المقادير ليحافظ على الأصحاء ويشفي المرضى، ولكن الحكيم يرتقي فوق ذلك فيقول : « أيتها الأطباء، لتفرحوا بشفاء مرضاكم وبقائه صحة أصحاء الناس، ولكن نحن ننظر في توزيع العلوم على مناطق الدماغ كما وزعت آلات الهضم على مختلف النبات، واذا كانت الأغذية لها مبدأ وهي الشمس، فهكذا للدرا كانت مبدأ وهي الذات الغائبة عنا القدسية ومنها انبعث العلم في نفوس عى واسطة بيننا وبينها كما كان النبات واسطة بين ضوء الشمس

وبين أجسامنا

٢٣٨ وههنا أبان المؤلف انه أوضح آراء الأمم من أيام سقراط الى الآن ، وقد عاملها الله كلها في (٢٥٠٠) سنة معاملة نفس واحدة ، وأنزل العلم قليلا قليلا ، وفي هذا التفسير صار أقرب الى عقول الأمم الحاضرة ، والاستثناس على ذلك بما تقوله الأرواح ، وهو أن العلم لا يلقى الى الناس إلا اذا استعدوا له ، وبيان أن هذا التفسير جاء في زمان استعنت له الأذهان فيها . فاذا قلنا ان المادة التي ثبت أنها لا وجود لها بسقوطها سقط المادّيون . فقد بنينا كلامنا على إجماع علماء العصر الحاضر . فأما هؤلاء المدرّسون في مصر وسوريا والعراق ونحوهم فأنما يكتررون على مسامح تلاميذهم صدى صوت العصور الفاتنة في القرن الثامن عشر . وههنا خاطب المؤلف ربه . انه يحسّ في نفسه بأشراح وسرور عظيمين . وانه موقن أن المسلمين سيكونون خیرأمة أخرجت للناس بعد ظهور هذا التفسير . وههنا أردف هذا القول بشرح قول الشيخ الدباغ . وهي ان الاحساس بالشيء غير الابتهاج به . فكم من جبل تراه ولا يتأثر بجماله إلا قليل وهذا سار في جميع الحواس . والمؤلف يقول : إن جميع المعلومات والمحسوسات يشترك كثير من الناس فيها ولكن ادراك الجمال قليل . وأكثر الناس إذا عجزوا عن ادراك الجميل اهتموا بشهواتهم التي كأنها تمل من محموم لا بارد ولا كريم لأنهم مترفون . إذن الانسان مفرم بما أحبه . فان أحب الجمال العلمي فهو منكم فيه . وان أحب الشهوة فهو منكم فيها . ولما كانت الشهوات مسيطرة مع الكسل على كثير من المسلمين ككثير من أهل مصر كان القطن الذي زرعه سببا في إذلالنا إذ نبيعه بمن يحمس ونشترى منسوجه بأعلى الأثمان . هذه أغلال في أعناقنا . بل هذه هي السراويل التي من قطران المشبهات ما في الآية - سراويلهم من قطران - لأنها مصنوعة بقطران الفحم كما هو معلوم . وذلك خطر للمؤلف وهو يتلو الآية في صلاة الصبح

٢٤١ ﴿ الفصل الثاني ﴾ من اللطيفة الخامسة في آية - سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم - الخ وبيان أن الأميرال (برد الأمريكي) الذي زار المناطق الجنوبية الجامدة . ووصل الى القطب بالطيارة . وصلت الاسائل منه بالتلغراف الذي لا سلك له الى نيويورك . والمسافة عشرة آلاف ميل . وكأنه يخاطب عامل التلغراف على بعد أقدم فقط ﴿ المبحث الثاني ﴾ ان الانجليز قابلوا ناغور الهندى بالاكرام مع ان الأتئين بينهما عداوة واضطراب شديد . فهذا يدل على أن نوع الانسان قابل للسلم ﴿ المبحث الثالث ﴾ فيما شاهده المؤلف في همة جسمه . كانت في جسمه بقع ملونة تظهر وتختفي وقال له الأطباء انها ليست معدية . ولكن لا يعرفون دواها . وخيرا قالوا سببها نقص في التغذية . ولما أكل الفواكه والحبوب وزيت الزيتون والخبز الذي لا ينخل والبرتنقال ونحوه ذهبت تلك البقع . وههنا يقول المؤلف : « إن نقص السعادة الانسانية لنقص العلم بطرقها قياسا على همة جسم المؤلف بالعلم ومرضه بسبب الجهل .

فعلى الأمم الاسلامية أن تتصافروا وتتعاونوا في البحث عن طرق سعادة هذا الانسان

٢٤٥ ﴿ اللطيفة السابعة ﴾ في آية - سترهم آياتنا - الخ وفيها تبيان معنى كلام الشيخ الدباغ : « إن في الأرض عجائب تعرف الوحدانية بلا دليل . وتعرف وجود الجنة كذلك والنار » ويفسر المؤلف ذلك بأن التوحيد يعرف بالعجائب المذكورة في هذا التفسير بلا حاجة الى براهين علم التوحيد كعيون النحل والذباب والنحل وتعداده بالمئات . فان هذه العجائب لما ظهرت في حشرات منبذات فيما تعافه النفس كانت عجبا أشبه بكنز ظهر فجأة

٢٤٦ هنا ولما كانت النفوس الانسانية إما مفرمة بالحكمة . ولما مفرمة بالقهر والغلبة والنزاع . ولما مفرمة بالشهوات . والأولى أشبه بمن يأكل الفواكه من الانسان . والثانية أشبه بكل حيوان يأكل كل الرم والثالثة أشبه بالنسب آكل العفونات . كانت جهنم تؤخذ اعتبارا من القسمين الأخيرين . واللجنة تؤخذ من القسم الأول . فاذا تفاوتت الأغذية بتفاوت الحيوان . هكذا تتفاوت أغذية العقول على مقتضى درجاتها . وبالجملة أحوال الآخرة لها نظير في العالم المشاهد

(تمت)



﴿ التقار يظ ﴾

لما كان هذا التفسير قد قرظه كثير من علماء الشرق والغرب وأطنبوا في مدحه رأينا أن نشرها تباعا تمبها للفائدة

التقر يظ الأول

جاء في جريدة المقطم يوم ٢٨ ذى القعدة سنة ١٣٤٥ هجرية تحت العنوان التالي مانصه :

كتاب (الجواهر)

في تفسير القرآن الكريم

تأليف الأستاذ الفيلسوف حكيم الاسلام الشيخ طنطاوى جوهرى

المدرس سابقا بدار العلوم والجامعة المصرية

اذا كنا بحاجة الى كتب مفيدة نافعة تناسب حالات العصر وتقتضى وما نحن عليه من اختراعات واستكشافات وظهور مافى الطبيعة من مكنونات . فان حاجتنا اعظم الى تفسير كتب الله المنزلة على انبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام لما فى ذلك من تثقيف العقول وتفجير بناييع الرحمة فى قلوب الخلق . ولقد طالنا كتب التفسير فلم نوفق الى تفسير يشفى العلة وينقع الغلة حتى صادفنا «الجواهر» وهو تفسير للقرآن الكريم وضعه الأستاذ الجوهري فاذا به يمتاز على غيره من التفاسير بكثير من المزايا . منها ان عبارته سهلة مشوقة لا يملها المطالع . وانه جمع فادعى فكأنه دائرة معارف جامعة . وفيه أكثر من مائة مسألة من مسائل العلم الحديث تضمنها القرآن وسبق اليها وهي مجزة النبوة . وانه ألم بقصص الأنبياء فأظهر ان المقصود منها تأنجها والاتعاظ بها . وانه نظر الى المسلمين نظرة حكيم وحضهم على الاكباب على العلوم العصرية والأخذ منها بقسط وفير . وانه لم ينسج على منوال أولئك الذين يبذلون جهودهم فى الجدل اللفظى وشرح الكلمات شرحا عملا . وانه راعى تطبيق الآيات على خلاصة الفلسفة العصرية والعلوم الحديثة وما تضمنت من الرياضيات والفلكيات والمعدنيات والنباتيات والحيوانيات . وانما سبيله فى التفسير أن يبدأ السورة بحصر مقاصدها ثم يبينها اجالا ثم يأخذ فى تلخيص تلك المقاصد اجالا حتى ان المطلع بهذا يدرك ملخص السورة . ثم هو من بعد ذلك يشرع فى تفسير تلك المقاصد مبتدئا بكتابة المقصد من القرآن بخط مشكل ليقرأها المطلع قبل تفسيرها ثم يفسر مافى المقصد من ألفاظ ثم يعقب على ذلك بمفاتيح الآيات من أحكام شرعية ثامة وما تضمنت من العلوم جميعها فتعم العمل وجبذا المهم

التقر يظ الثانى

جاء فى مجلة (المرشد) وهى مجلة علمية أدبية دينية تصدر بمدينة بغداد بتاريخ (١) محرم سنة ١٣٤٦

هجرية تحت العنوان التالي مانصه :

تفسير الجواهر

لا ينكر ما لعلماء المسلمين اليوم من النزعة الى تفسير القرآن واطهاره بشكل يلائم روح العصر الحاضر ،

ومالهم من الرغبة في استكشاف ما أقره العلم ووصل اليه من آي القرآن المجيد كالاتسكحاجة المسلمين الشديدة الى ذلك . ولقد سبق للأستاذ الشيخ محمد عبده أن فسر القرآن تفسيراً كان في بابه فائحة دور جديد في التفسير ولما لم يكن وافياً بالمقصد تماماً ولم يستوف الأجزاء والسور القرآنية مقتصر في أكثر أبحاثه على السياسة ومعارضة الوثنيات المتغلظة في طوائف المسلمين بحسب ما اعتقد مما جعل النفوس تشرب الى وجود كتب تفسير أخرى تلائم العصر الجديد وعالومه بصورة أوسع

ولقد قام العلامة الحكيم الشيخ طنطاوي جوهرى الأستاذ بالجامعة المصرية بزممة تفسير القرآن لجاء بتفسيره المسمى (بالجواهر) فكان آية من آيات العصر لأنه أفاض في ذكر المخترعات والمكتشفات الحديثة واجتهد في ذكر الأحاديث الناطقة بها والآيات الدالة عليها سواء في مباحث السياسة وال عمران أو في مباحث العلم والفن . وقد امتاز مع ذلك كله بأسلوب أخلاقى أدبى نفيس ينفع جدواوعاظ المسلمين وخطبائهم . وقد أثبت هذا التفسير ماقاله سماحة العلامة الأستاذ السيد هبة الدين الشهرستانى الأعظم في مؤلفه الأستاذ الجوهري (انه رازى عصره ، وشرالى مصره) . وقال أيضا : «وهذا التفسير على ما هو عليه من الامتياز قد جاء بطبع متقن وعلى ورق صقيل . غرئى بأن لا تخلو منه مكتبات رجال العلم والفضل فانه كاف عن اقتناء مئات من الكتب الممتازة»

التقرير الثالث

جاء في مجلة (المرشد) أيضا في غرة شهر رمضان سنة ١٣٤٦ هجرية تحت العنوان التالى مانصه :

كتاب تفسير الجواهر

الجزء ١ - ٥

ان للأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهرى أباى يضاء على الأمة الاسلامية بمقام به نحوها من الخدمات العظيمة التي لم يحرز قصب السبق في مضمارها سواء فهذه تاليفه الكثيرة في شتى العلوم والفنون وكلها شاهدة على فضله وجلال قدره وطول باعه ، وهي اما تخدم الأمة الاسلامية مباشرة أو بواسطة . وان النزعة التي كانت تخلج ضمائر علماء المسلمين وتغلقت فيها هي تفسير القرآن الحكيم على نمط يلائم روح العصر الحاضرة ويخلص من شوائب الدس والخرافات التي ليست من الدين الاسلامى في شئ . وقد وفق اليها العلامة «طنطاوي» فتفسيره هو التفسير الوحيد الذي جاء على هذا النمط وهو الذي يطلعنا على أسرار الشريعة الاسلامية وحقائقها الناصعة وما خفي قبلا على المفسرين

التقرير الرابع

جاء من صاحب الفضيلة مفتى إيران في ٨ ربيع الثانى سنة ١٣٤٨ هجرية ما يأتى

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه السالكين على منواله وسلم انه من عبد الله مفتى الديار الإيرانية السيد أبى القاسم الكاشانى عفا الله عنه الى روضة العلم التي أربعت أزهارها ، وشجرة الفضل التي أينعت أثمارها ، الفاضل التحرير ، والكامل العديم النظير ، من اذا قيس عليه قس لفصاحته كان ازدرابه ، وان شبه بأدبه أدب سبحان كان تقيصافى أدبه الامام الأعظم ، والهمام الأقوم ، حضرة الأستاذ الحارثى ، أعزّ المقامر الشيخ الجوهري الطنطاوي ، لازال كوكب فضله مشرقا وشجر نبله مورقا .

وبعد فن فضل الله علينا ، وإحسانه الأسنى إلينا ، ان سرتح أنظارتنا في تصنيفاتكم الشريفة . وتقدر
أبصارنا بتأليفاتكم المنيقة ، التي هي للعيون جلامونور ، وللقلوب بهجة وسرور ، فوجدتها بعدما تقدمتها ، والحق
يقال عديمة المثال ولاسيما التفسير الذي هو فريد النظر فكم بدت به نجوم مجتلى زهرها ، وزهت فيه نجوم
مجتلى زهرها ، يقتبس منها ما يرام من الأنوار ، ويقتطف منها ما يشاء من الأنوار ، كأنه مسك به الأرباب تمسكت
وروح به الأرواح تمسكت ، يلوح منه شعاع يجمع كل شعاع دائم ، لك فضل استباق الغاية في تفسيرك البديع
الجليل الغاية .

فسرت وحى الله في حسن النسق * فراق لفظه ومعناه ورق
أطربت في تفسيرك المثاني * من لم يكن بطرب بلثاني
راق يياته وما أرقه * اذ احتوى من البيان حقه
سعر حلال حل في البيان * فأبهرت آياته ياتي
فما فؤاد واع إلا اعتلقا * بها اذ الناطق فيها نطقا
يتاوطأ القراء سورة الفلق * حفظ للماز من حسن النسق
بديع تفسير به المعاني * راتقة فاققة البيان
لابدع في مبدعه ولا عجب * فانه رب الكمال والأدب
سما المعارف العليم الخاوي * صحاح جوهر الهدى الطنطاوي
شمس سماء الفضل والفقاهه * وبدر أفق النبل والتباهة
العلم الفرد التي به اجتمع * شمل العلوم وسناؤها اتع
منار مجتلى الرشاد والعلم * ومفرد النضائل النور العلم
علت مزايده النجوم عدا * وانها هيات أن تصفا
في وصفها الرائق ما أقول * نجمل الوصف له فصول
أصرت عنه تصور في القلم * عن وصف تفسيري جم الحكم
فالملح كل الملح إبداع الجيز * عن أن ينال بالأقل الجزى
دمت منارا للورى ومجتملى * نور الهدى لمن سناؤه اجتملى

وفي الختام نهدي جزيل السلام

السيد أبي القاسم الكاشاني

خادم الشرح الشريف ومفتي المياد الأبرانية

عني عنه

(٨) ربيع الآخر سنة ١٣٤٨ هجرية



التقرير الخامس

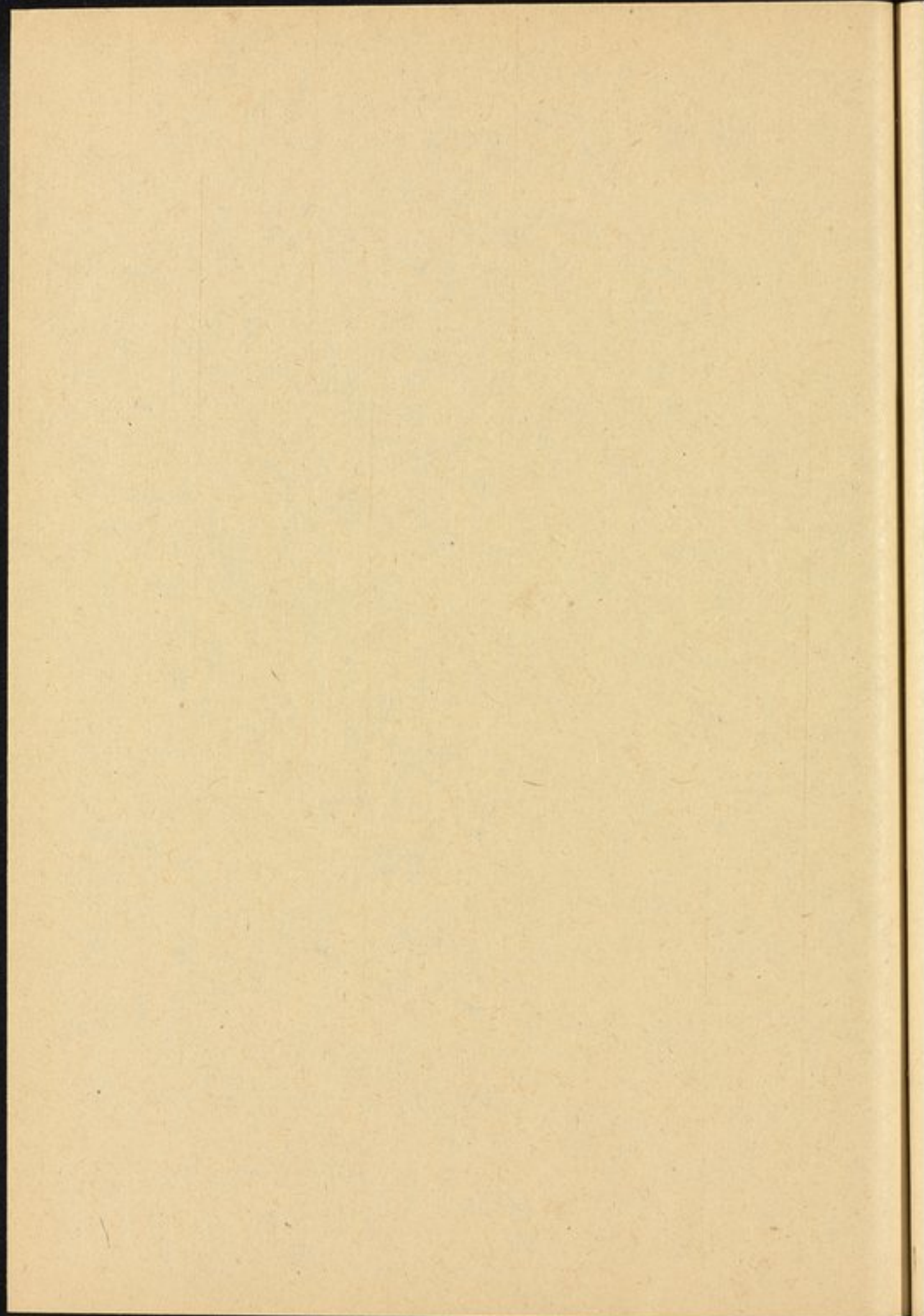
جاء في مجلة المجمع العلمي العربي الشهري التي تصدر في دمشق في الجزء الخامس والسادس من المجلد العاشر بتاريخ ١ ذي الحجة سنة ١٣٤٨ هجرية ما يأتي

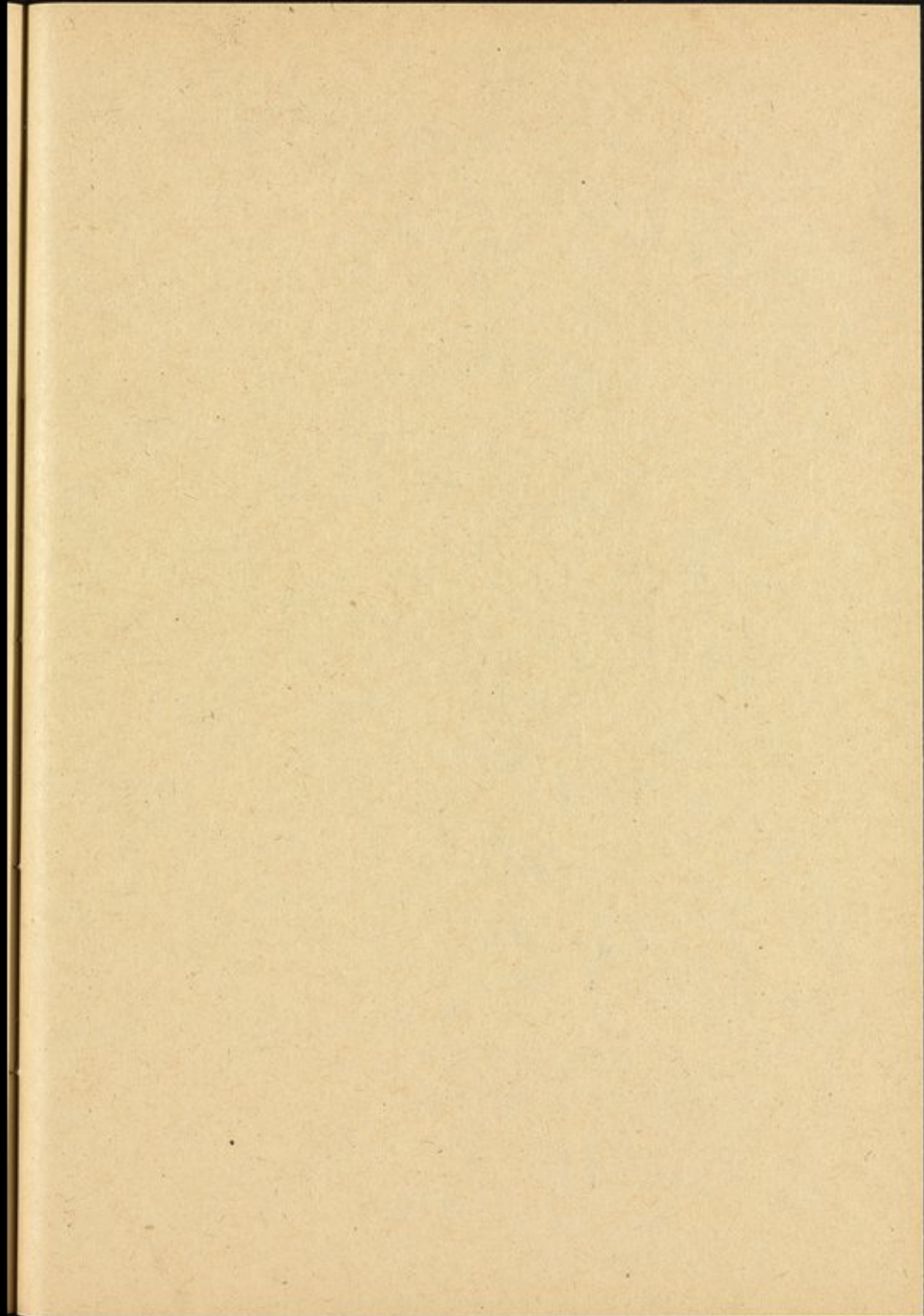
الجواهر في تفسير القرآن الكريم

أهدانا السيد مصطفى الباني الحلبي صاحب المطبعة المشهورة بمصر الأجزاء التي صدرت الى اليوم من التفسير النفيس المسمى (بالجواهر) وهي ستة عشر جزءاً تأليف العلامة الأستاذ «طنطاوي جوهرى» وقد قضى الأستاذ سنين طويلة في تحبير هذا التفسير ولما يتم . وقد بلغ فيه سورة فالطر . ومن تصفحه أدرك سعة علم الأستاذ كما أدرك مبلغ العناية التي كابدته في وضع هذا التفسير والعناية التي بذلها في جمع مواده ، وتنسيق مباحثه . وأول ما يحضر للناظر فيه أنه لا ينظر في تفسير قرآن وإنما هو ينظر في « دائرة معارف » على القرآن تضمنت شرحاً لآياته ثم تاريخاً وأدباً وأخباراً وفلسفة وسياسة واجتماعاً وزجراً ووعظاً وتنبيهاً وتحذيراً حتى أنه لم يخل من ذكر نظرية «اينشتين» والاستشهاد بها على ما هو بصدده من تفسير الوحي الالهي ، وكثيراً ما يقع نظارك على بحث في ثنايا الكتاب فتعجب لذكر مثله في تفسير القرآن حتى تراجع صفحات كثيرة سبقت فيقين لك اذذاك وجه المناسبة ولو ضئيلة بين هذا البحث وبين الآية المفسرة . افتح مثلاً الجزء العاشر ص ٢٢٩ يقع نظرك على مسائل تحت أرقام متسلسلة ثم تقرأ تحت الرقم الأول مانحه (الشعوب التي هي جدوة بالاستقلال التام . ويجب أن تتمتع به في الحال . وبينها الصين ومصر وسورية والعراق) فلا تكاد تصدق أنك تقرأ تفسيراً للقرآن فتفرج أدراجك الى ما سبق من المباحث مبهتاً مبهتاً فتجد نفسك في تفسير قوله تعالى (والتي أحصنت وبعثناها وابنها ان هذه أممكم كل اليناراجعون)

فتفسير (الجواهر) لم يؤلف للطالب الجبرل . ولا للشجر المائل . وإنما ألف لازمة الوقور . الجليل الصبور . وتوجب أن يكثر أمثال هؤلاء بين أبنائنا . وأنا لنشكر للؤلف الفاضل خدمته كما نشكر للطابع الناشر هديته جزاها الله عن أمتهما خير الجزاء







الجواهر

في تفسير القرآن الكريم

الشيخ علي عجمي شيخ المكنون وأستاذ الأئمة الأربعة

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهرى

المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقاً
مع الله المسلمين بآمين

الجزء العشرون

الطبعة الثانية

١٣٥٠ هـ - رقم ١٧١

حقوق الطبع محفوظة

طبع بطنجة

مُصِطَفَى البَابِي الحَلَبِيّ وأولاده بمصر
مباشرة بمطبع عثمان

« وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »

(قرآن کریم)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسیر سورة الشوری

ہی مکہ

إلا أربع آيات من قوله « أم يقولون افتري على الله كذبا فإن يشأ الله يختم على قلبك » إلى قوله « والكاغرون لهم عذاب شديد » مع قوله « وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وبنشر رحمته وهو الولى الحميد » قدنية

آياتها ٥٣ - نزلت بعد فصات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم • عسق • كَذَلِكَ يُوحى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ •
لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ • تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ
فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِنْ اللَّهُ هُوَ
الْغَفُورُ الرَّحِيمُ • وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ
بِوَكِيلٍ • وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ
الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْحَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّمِيرِ • وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً
وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ • أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ
دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ • وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ
مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ • فَأَطِرُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ

شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ • لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ
 لِأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ • شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا
 وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ
 مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ • وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ
 مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ
 الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ • فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا
 أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ
 اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا
 وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ • وَالَّذِينَ يُجَاهِدُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ
 رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ • اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ
 وَمَا يُدْرِيكَ لَمَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ • يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ
 مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُعَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ • اللَّهُ لَطِيفٌ
 بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ • مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ
 فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ • أَمْ لَهُمْ
 شُرَكَاءُ وَاشْرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ التَّمَلُّقِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ
 الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ • تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا رَمَوْا وَقَعُ بِهِمْ وَالَّذِينَ
 ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ
 الْكَبِيرُ • ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ
 عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
 شَكُورٌ • أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يُخَيِّمِ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْغُضُ اللَّهُ
 الْبَاطِلَ وَيُخَوِّقُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ • وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ

عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ • وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ • وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا
 فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ • وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ
 مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ • وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَنَّةِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ • وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَمَا
 كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ • وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ
 اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ • وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ • إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ
 فَيَظْلَمَنَّ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ • أَوْ يُوقِعَنَّ بِمَا
 كَسَبُوا وَيَعْفَى عَنْ كَثِيرٍ • وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ • فَمَا أُوتِيتُمْ
 مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَاعِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ •
 وَالَّذِينَ يَحْتَسِبُونَ كِبَارًا تَرَاثُمُ الْأَنْثَمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ • وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا
 لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ • وَالَّذِينَ إِذَا
 أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ • وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَىٰ
 اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ • وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ • إِنَّمَا
 السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ •
 وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ • وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَبِئٍ مِنْ بَعْدِهِ
 وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ • وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا
 خَاشِعِينَ مِنَ اللَّهِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفِ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا
 أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ • وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ
 يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ • اسْتَجِيبُوا لِلرَّبِّ كَمَا كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ أَنْ

يَأْتِي يَوْمَ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ • فَإِنْ
 أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِلَّا أَلْبَاحٌ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً
 فَحَرَحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ • اللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَّا تَا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ اللَّهُ كُورٌ • أَوْ يُزَوِّجُهُمْ
 ذَكَرًا وَإِنَّا تَا وَيَجْمَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ • وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ
 إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِلَاذِنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ
 وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ
 جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ • صِرَاطِ
 اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ .

اعلم أيها التلميذ أن هذه السورة تشتمل على قسمين : القسم الأول من أول السورة إلى قوله « لم
 عذاب شديد » وفي هذا القسم :

(١) أن الله ملائكة يقومون بتدبير شؤون العالم للآدمي من جماد وحيوان وإنسان . وأيضاً يقومون
 بإلهام الناس ما ينفعهم في أمورهم الدينية والدينية تسمى لقوله « سرهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم »
 فإن ما يعرفه البشر من العلوم والعارف يكون بإلهام ، فإذا استعد الإنسان لصل نافع دنيوي أو أخروي أحس
 في قلبه بفكرة ، ثم هو نفسه بعد ذلك يتصرف فيها بحقله ، لأنهم لا يلهمون إلا من وجدوا عنده استعداداً
 للإلهام .

(٢) وأنه صلى الله عليه وسلم أنزل عليه قرآن عربي لينذر أهل مكة ومن حولها . وذلك بالوحي الذي
 أنزله الله عليه بواسطة الملائكة المذكورين كجبريل . وليس الوحي لقوم والإيمان والكفر لآخرين إلا على
 مقتضى الاستعداد . وهذا العالم لا يمكن أن يكون جميع أفرادها على حال واحدة . فهم مختلفون في جميع
 الأحوال وهذا الاختلاف نجم منه الاستعداد للإيمان والاستعداد للكفر . فعالمنا هذا لا يصبح إلا على هذا
 الضرب من الاختلاف .

(٣) وكما اختلف الناس في أحوالهم كالإيمان والكفر اختلف كل شيء في السموات والأرض كالكفر
 والأرض والإنسان والأنعام ، فأما هو فليس كذلك شيء ، وإنما مفاتيح العوالم بيده ، فمن شاء وسعه في رزقه
 ومن شاء ضيق عليه ، فإذا اختلف الناس إيماناً وكفراً ، واختلفت المخلوقات ذكورة وأنوثة ، وتوفا
 في الخليفة فهكذا اختلفوا في الأرزاق بحسب الاستعداد والنظام ضيقاً وسعة .

(٤) ثم رجع القول إلى الوحي والدين والنبوة ، فأفاد أن الوحي الذي أنزله الله على الأنبياء جميعاً كنوح
 ومحمد صلى الله عليه وسلم وإبراهيم وموسى وعيسى يدعو إلى أمر واحد وهو الإيمان بالقلب والطاعة بالعمل

وأن لا يختلفوا في هذا الأصل ، ثم إن شرائعهم تفرع كل بحسب زمانه كما تفرعت الحيوانات إلى أنواع وذكران وإناث والأصل واحد وهي الحركة والنمو ، ثم إن الأمم بعد ما عرفوا أن التفرق ضلال وأن رسولهم حق وقد قرءوا كتبهم وعقلوها تفرقوا ، وهكذا هؤلاء الذين دعوتهم كبر عليهم ما تدعوم إليه وكذا أهل الكتاب في زمانك أصبحوا في شك مقلق .

(٥) فاصدع بأمرك ، وادع للدين ، واستقم على الدعوة ، ولا تتبع أهواءهم ، وكلهم في القوة العلمية والقوة العملية ، وحججهم لا تقوم ضد الحقائق الثابتة .

(٦) ثم إنه سبحانه أبان أن نظامه كامل والعالم كله موزون منظم ، وهذه الكتب الدينية إنما نزلت لإقامة العدل بين الناس بحسب الظاهر ، فمن كان باطنه غير كامل وهو ظالم فأمامه العدل العام في السموات والأرض يتلقاه يوم القيامة ، وهذا برهان إما خطابي وإما عقلي على اليوم الآخر كما ستراه بعد ، والناس فريقان : في أمر الساعة ، فريق مستهزئ بها ، وفريق مصدق خائف . إن الله وسع في ملكه البار والفاجر والصالح والطالح ، فلم يهلك للمستهزئ ، بل أمهله إلى يوم القيامة . وإن أمر الرزق ليس تابعا للمقائد بل هو تابع للمشيئة وللصلحة المألومة عنده تعالى . وأمر الآخرة يرجع إلى إرادة الإنسان نفسه . فمن جعل همه العاجلة نالها لا غير . ومن جعل همه الآجلة أعطى الثمنتين . وذلك على حسب النظام العام . والعدل أن لا يسطى الإنسان إلا على مقدار ما يستحقه وما يثبته استمداده . ولذلك يكون الظالمون يوم القيامة وجليل خائفين من ذنوبهم والصالحون منعمين . وهذه هي البشارة التي بشر الله بها عباده الصالحين . ثم أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أنه لا يسألهم على التبليغ أجرا وإنما يسألهم أن يودوا الله ورسوله في تفرغهم إليه بالطاعة والعمل الصالح وذلك ليكونوا في روضات الجنات .

وأما القسم الثاني وهو من قوله تعالى « ولو بسط الله الرزق لعباده » إلى آخر السورة ففيه أن تسخير العباد في جلب الرزق لم يكن عبثا بل هو لتدريبهم على العمل ، ومن فوائد ذلك عدم التكبر والبطر والظلم ولأجل ارتقاء نفوسهم وتدريبهم على الصبر جعلهم بين رجاء وخوف وضيق وسعة ، فلا يزل للقاء عفوا بلا مال بل يجعل الأرض يابسة ليطلبوا الماء ويشتاقوا إلى المطر ، ثم يزل ليكون ذلك أدهى للتفكير والتدبر والاستبصار والشكر ، وإذا ركبوا في البحر جرت الرياح جريا غير متصل ليحصل لهم الخوف والرجاء كما حصل في المطر .

على أنه إذا نزل المطر وعم الحصب واستقامت السلامة ، فليس كل هذا له معنى في نفسه إن ذلك متاع الحياة الدنيا ، ولكن الفضائل النفسية والأخلاق والعلوم هي الباقية ، فمن تلك الفضائل الشورى بين المسلمين والإحسان ، والجلود بالمال على مستحقه ، والنفوس عن الذنب ، وأن لا يكون عقابه إلا على قدر ذنبه ، وخير من هذا النفوس ، فهو خير وأبقى .

ثم ختم السورة بما يفيد اختصاصه الملك ، وأنه يفعل ما يشاء على مقتضى حكمة يعلمها ، وأن الناس مختلفون في القدرة من حيث الذكر والإناث والتنعم وعدمه ، وهكذا في القرب منه حتى خص الوحي بفريق مستعد لذلك ومع ذلك فللكلام الله معهم شرائط وأحوال ثلاثة . انتهى إجمال المقال على السورة .

التفسير اللفظي

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(حم . عسق) الحاء والليم يرجعان للحمد كما تقدم في السور السابقة، والحمد يرجع لأمر الدنيا والآخرة فهو متضمن معرفة النعم وذلك يستوجب سائر العلوم، وقد جاء الحمد في السورة السابقة في قوله تعالى « تنزيل من حكيم حميد » وفي هذه السورة في قوله « واللائكة يسبحون بحمد ربهم » والعين في العزيز والعظيم والعلی ، والقاف من قدير في قوله « وهو على جميعهم إذا يشاء قدير » والسين من الساعة ، فهذه الحروف فاحشة فيما تقرر في أول « آل عمران » وغيرها، وتخص بما اختصت به آل حم في أنها حاضنة على الحمد وازدياد العلم والحكمة ، لاسيا بما سيأتي من البرهان على الساعة وقيامها . فإن هذا البرهان عقلي أو إقناعي ترشح إلى النفوس وتطمئن القلوب كما استراه لأنه مستمد من علوم الخليفة والنظم الطبيعية . فانه يقرر في النفوس قدرة الله على جمع النفوس البشرية يوم القيامة . وهذا دلالة السين والقاف . أما العين فرجها جلال الله وعظمته وكبرياؤه وعزته وعلوه فهاهنا محامد وعلوم يراد بها القرين من ذي العزة والعظمة . وبهذه العلوم تعرف البراهين الدالة على عدله وأنه لا يدع أمر العالم سدى بل لا بد من بشم وحسابهم ، وكأن هذه المعاني التي تشير لها هذه الحروف أهم ما في السورة فإن العلوم جميعها وأخصها ما تعلق بالله وباليوم الآخر ليس بعدها مزيد لمستزيد . قال تعالى : (كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم) أي مثل ما في هذه السورة من المعاني يوحى إليك الله العزيز في ملكه فلا يكلم أحدا إلا وحيا ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء ، ذلك لعلوه وعزته وحكمته ، فلغزته رفع عن أحوال الحوادث والحكمته كلمهم على مقدار حالهم . ثم وضع عزته وعلوه فقال (له ما في السموات وما في الأرض وهو العلي العظيم) هذه الجمل كلها لتبيان عظمته وعلوه وكبريائه وحكمته (تكاد السموات يتفطرن من فوقهن) أي يتفطرن من علو شأنه وعظمته أي تكاد كل واحدة تفطر فوق التي تليها من عظمة الله تعالى . ولذلك ترى هذه العوالم التي نعيش فيها واشتقت منها المادة ما هي إلا أثر أي عوالم لا لون لها ولا لعم ولا وزن فهي في الحقيقة عوالم ذاتية منفطرة بل تكاد تكون حركات مضطربات لا مستقر لها ومنها كونت الشمس . فهذه الشمس السارحات في عالم الأثير تكاد تفطر وذلك من عظمتها ، إنه على ، وإنه عظيم ، ولما لا تتناوله الحواس وهكذا المادة التي خلقها هو ودبرتها اللائكة لتسيبها الحواس وإنما الشمس والأقمار والأرضون هي التي تناهها الحواس . وهذه على جرف هار ، فهي أيضا مستعدة للانفطار والانشقاق كما ثبت في علم العصر الحاضر ، فما من كوكب أو شمس أو قمر إلا وهي مستعدة يوما ما لأن ترجع أثيرا ، فهي تكاد ترجع للطبيعة كرة أخرى لأنها مفروسة في العالم الأثيري اللطيف فتكاد ترجع لأصلها ، وإنما الذي يحفظها ويقيم أمرها هم عوالم اللائكة بإذن ربهم وهذا قوله (واللائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض) فهم يحافظون على هذه العوالم خيفة أن يتطرق إليها الخلل بنواميس سنابلهم ، ويلهمون الناس ما يحتاجون إليه ، فأمثل اللائكة إلا كمثل الضوء يعطى الحياة بمرارته ويعطى الهدى بنوره ، هكذا هؤلاء اللائكة يحافظون على الشمس والأرضين بقوتهم المستمدة من ربهم ، ويلهمون الخير لمن استعد لذلك . فالشمس التي تراها والأرضون لولا اللائكة لتأبث في الأثير والحافظ لها اللائكة . وإنما نبه الناس على ذلك ليفكروا في ذلك ويملوا أن هذا العالم الذي نعيش فيه كله حياة وحكمة . فعلى الإنسان أن يفكر في أن يكون عضوا نافعا في جسم

هذا العالم السكلى حتى يلحق الملائكة الأعلى . فليكن من الصالحين في الأرض على قدر طاقته . ولا جرم أن
إلهام الملائكة ومحافظتهم على الناس بأمر ربهم مفيدة للناس ، وذلك دلالة على أن الله كثير الغفوة والرحمة
إذ سخر الملائكة للاستغفار لمن في الأرض فضر لهم ورحمهم وذلك قوله (ألا إن الله هو الغفور الرحيم . والذين
أخذوا من دونه أولياء) شركاء (الله حفيظ عليهم) رقيب على أعمالهم فيجازيهم (وما أنت عليهم) يا محمد
(بوكيل) بموكول إليك أمرهم (وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا) أى مثل المعنى الذى فى الآية التى قبل
هذه من أن الله رقيب عليهم لا أنت . بل أنت منذر . وقد تكرر فى القرآن فى مواضع كثيرة ، أوحينا إليك
قرآنا عربيا (لتذر أم القرى) أى أهل أم القرى وهى مكة (ومن حولها) من العرب (وتذير يوم الجمع) يوم
القيامة تجمع الخلائق فيه والأرواح والأشباح والأعمال والعمال ، وقوله (لا ريب فيه) جملة اعتراضية وهم
بعد جمعهم (فريق فى الجنة وفريق فى السعير . ولو شاء الله لجمعهم أمة واحدة) مهتدين أو ضالين (ولكن
يدخل من يشاء فى رحمته) بالهداية (والظالمون ما لهم من ولى) يدفع عنهم (ولا نصير) بمنهم من العذاب
(أم أخذوا من دونه أولياء ، فالله هو الولى) هو ولىك يا محمد وولى من اتبعك (وهو يحيى الموتى وهو على كل
شئ قدير) وكيف يستحق أحد أن يكون وليا إلا من كان بهذه الصفة (وما اختلفتم) أتم والكفار (فيه
من شئ) من أمر من أمور الدنيا أو الدين (لحكمه إلى الله) مفوض إليه ، فهو يميز الحق فينصره من المبطل
فيخذله (ذلكم الله ربى عليه توكلت) فى مجامع الأمور (وإليه أنيب) أرجع فى المضلات (فاطر السموات
والأرض) خبر آخر لتدليلكم (جعل لكم من أنفسكم) من جنسكم (أزواجا) حلائل (ومن الأنعام أزواجا)
أصنافا ذكرانا وإناثا (يذروكم) يخلقكم أو يكثركم (فيه) فى الرحم (ليس كمثل شئ) كلمة التشبيه
كررت لتأكيد نفي التماثل أى ليس مثله شئ . (وهو السميع) لسائر السموعات (البصير) لسائر البصرات
(له مقاليد السموات والأرض) مفاتيح الرزق فيها ، فى السماء بالأقطار وفى الأرض بالإنبات ، ولذلك
أعقبه بقوله (يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) أى يوسع على من يشاء . ويضيق على من يشاء ، ذلك لأن مفاتيح
الرزق بيده (إنه بكل شئ عليم) من البسط والتضييق (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى
أوحينا إليك وما مبينا به إبراهيم وموسى وعيسى) أى شرع لكم من الدين دين نوح ومحمد ومن بينهما من أرباب
الشرائع أى الأصل المشترك بينهم وهو المبين بقوله (أن أقيموا الدين) الإيمان والطاعة (ولا تفرقوا فيه)
ولا تختلفوا فى هذا الأصل ، فأما فروع الشرائع فهى مختلفة (كبر) عظم (على الشركين ما تدعوهم إليه)
من التوحيد (الله يحثي إليه من يشاء) يجتلب إلى الدين (ويهدى إليه) بالإرشاد (من يشاء) يقبل عليه
(وما تفرقوا) أى الأمم السابقة (إلا من بعد ما جاءهم العلم) بأن التفرق ضلال (بغيا بينهم) عداوة وطلب
للدنيا (ولولا كلمة سبقت من ربك بالإمهال) إلى أجل مسمى (هو يوم القيامة) لفضى بينهم (باستئصال
المبطلين) وإن الذين أوتوا الكتاب من بعدكم) يعنى أهل الكتاب الشركين فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم
فان هذين القسمين أوتوا القرآن وشكوا فيه بعد ما تفرق قدام أهل الكتاب وهم يعلمون أن التفرق ضلال ،
فقوله (لئن شك منه) من الكتاب أى القرآن (مريب) مقلق ، أو مدخل فى الرية (فلذلك) فلذلك
ذلك (فادع) إلى الاتفاق على اللغة الحنيفية (واستقم كما أمرت) واستقم على الدعوة (ولا تتبع أهواءهم)
الباطلة (وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب) أى جميع الكتب السماوية (وأمرت لأعدل بينكم) فى
الحكم إذا خصمتم فتحاكمتم إلى (الله ربنا وربكم) أى كلنا عبده (لنا أعمالنا ولكم أعمالكم) كقوله
« لكم دينكم ولى دين » (لا حجة بيننا وبينكم) لا خصومة لأن الحق قد ظهر والحجة قائمة عليكم
(الله يجمع بيننا) يوم القيامة (وإليه المصير) المرجع (والذين يجاجون فى الله) يخاصمون فى دينه (من

بعد ما استجيب له) من بعد ما استجاب له الناس ودخلوا في الإسلام ليردوم إلى الجاهلية (حجتهم داحضة) باطلقة (عند ربهم وعليهم غضب) بكفرهم (ولهم عذاب شديد) في الآخرة (الله الذي أنزل الكتاب بالحق) ملتبسا به بعيداً من الباطل (والميزان) أي العدل والتسوية وهو النظام العام، ولا جرم أن الكتب السماوية من نوع الميزان العام والعدل الشامل الذي ظهر في عالمنا الأرضي والسماوي. ولما كانت الأحكام القضائية لا تعتمد إلا على الظواهر وكان هناك مواطن محبوبه أرجئت لقيام الساعة حتى يكون الميزان الإنساني تاماً كالميزان العام فكان سائلاً يقول: يارب إنا نرى الناس في الدنيا يغشون ويكذبون ولا عدل بينهم والقضاء يحكمون بالظاهر، وأيضاً ربما رأينا الصالح حقيراً أو الشرير عظيماً فأين الميزان في عالمنا؟ فأجاب (وما يدريك لعل الساعة قريب) منك أي لعل الساعة قريب وأنت لا تدري (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها) استهزاء (والذين آمنوا مشفقون منها) خائفون منها (ويعلمون أنها الحق) السكائن لا محالة (ألا إن الذين يمارون في الساعة) يجادلون فيها (لن يضلل بيده) عن الحق (الله لطيف بعباده) في إيصال النافع وصرف البلاء من وجه بلطف إدراكه (يرزق من يشاء) يوسع رزق من يشاء إذا علم مصلحته، وفي الحديث: «إن من عبادي المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الفنى ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي للؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك ثم قال (وهو القوى العزيز) الباهر القدرة للنبيع الذي لا يظلم (من كان يريد حرث الآخرة) أي كسب الآخرة، أي من كان يريد بعمله الآخرة (زادله في حرثه) بالتضعيف (ومن كان يريد حرث الدنيا) أي يريد بعمله الدنيا مؤثراً لها على الآخرة، سمي ما يعمله العامل مما يتنقى به الفائدة حرثاً مجازاً (نؤته منها) شيئاً (وماله في الآخرة من نصيب) إذ الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى (أم لهم شركاء) أي بل ألم شركاء (شرعوا لهم) بالترتيب (من الذين ما لم يأذن به الله) أي لم يأمر به (ولولا كلمة الفصل) القضاء السابق بتأجيل الجزاء (لقضى بينهم) بين الكافرين والمؤمنين (وإن الظالمين لهم عذاب أليم) أي وإن للشركيين لهم عذاب أليم في الآخرة وإن لم يعذبوا في الدنيا (ترى الظالمين) الشركيين (مشفقين) خائفين (مما كسبوا) من جزاء كفرهم (وهو واقع بهم) نازل بهم لا محالة (والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات) والروضة أطيب بقعة في الجنة وأزهرها (لهم ما يشاءون عند ربهم) أي ما يشتهون ثابت لهم عند ربهم (ذلك هو الفضل الكبير) على العمل القليل (ذلك) الفضل الكبير (الذي يشر الله) به (عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لا أسألكم عليه) على التبليغ (أجرأ) نعماً منكم (إلا المودة في القربى) أي لكن أسألكم التقرب إلى الله والتودد إليه بالطاعة والعمل الصالح وهذا قول الحسن ويدخل فيه مودة النبي صلى الله عليه وسلم ومودة قرابته ومودة القرابة من المسلمين، فمن تقرب إلى الله أحب رسوله وأكرم قرابة الرسول وقرابته هو من المسلمين، وهكذا يكرم أبويه إذا كانا كافرين، فهذا القول يجمع سائر الأقوال؛ ومن إكرام قرابته صلى الله عليه وسلم تعليمهم إذا جهلوا. وتذكيرهم إذا غفلوا. وأما إكرامهم بمعنى التعظيم وحده فهو قصور معيب وجعل بديننا القويم (ومن يقترف حسنة) ومن يكتب طاعة، سبباً حب آل الرسول صلى الله عليه وسلم (زاد له فيها حسناً) أي في الحسنة بمضاعفة الثواب (إن الله غفور شكور. أم يقولون) بل يقولون (افتري على الله كذباً) افتري محمد بدعوى النبوة أو القرآن (فإن يشأ الله نختم على قلبك) أي إن يشأ الله خذلانك نختم على قلبك لتبترى بالافتراء عليه. ثم استأنف فقال (ويح الله الباطل) حذف الواو من نحو خطأ ولفظاً وهي مثبته في مصحف نافع، فهو فعل مرفوع بضمه مقدره على الواو (ويح الحق بكلماته) أي بما أنزل من كتابه على لسان نبيه. وهذا وعد قد تحقق. فهو محاط لهم وأثبت حق الإسلام. وأيضاً لو كان ما يقوله محمد صلى الله عليه وسلم مفترى لعمرة الله حرياً على

عادته أنه يحو كل باطل (إنه عليم بذات الصدور) فهو يعلم البطل والحق فيعامل كلاهما هو أهل له (وهو الذي يقبل التوبة عن عباده) بالتجاوز عما تابوا عنه ، والنوبة صدق العزيمة على ترك الذنوب وأن لا يجد حلاوة الذنب في القلب عند ذكره (ويغفو عن السيئات) وهي مادون الشرك ، فهو يغفو عن شاء بلا توبة (ويعلم ما تقبلون) من التوبة والعصية (ويستحب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله) إذا دعوه استجلب دعاءهم وأعطاهم ما طلبوا وزادهم على مطلوبهم (والكافرون لهم عذاب شديد) في الآخرة (ولو بسط الله الرزق لعباده) أى لو أغناهم جميعاً (لبغوا في الأرض) أى لبغى هذا على ذلك . وذلك على هذا . فالغنى يطر أو يتكبر (ولكن ينزل بقدر) بتقدير (ما يشاء) ما اقتضته مشيئته (إنه بعباده حبير بصير) يعلم خفايا أمرهم وظواهر حالهم فيعطى كلا ما يناسبه (وهو الذي ينزل الغيث) المطر الذي يغيثهم من الجذب (من بعد ما قنطوا) أيسوا (وينشر رحمته) في كل شئ من مخلوقاته (وهو الولي) الذي يتولى عباده بإحسانه ونشر رحمته (الحميد) المستحق للحمد على ذلك (ومن آياته خلق السموات والأرض) مع عظمهما (وما بث فيها من دابة) أى وما فرق من الدواب في الأرض وحدها والتعبير بهذا كالتعبير في قوله « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » مع أن اللؤلؤ والمرجان لا يخرجان إلا من البحر الملح كما يقال بنوعيم فيهم شاعر مجيد وإنما هو في عقد من أغاذهم . هذا إذا وقفنا عند النظر السطحي . فأما إذا فكرنا فإننا نجد هناك من العوالم ما تستحق أرضنا بالنسبة له . ولقد يظن علماء الهيئة الآن أن أقل عدد يظن من الأرضيين لا ينقص عن ثلثمائة ألف ألف أرض فيها سكان قياساً على أرضنا التي نحن عليها ، هذا ما يقوله علماء الفلك فأما علماء الأرواح فإنهم لما استنطقوها قالت : « إن هناك عوالم في هذا الكون مسكونة تستحق أرضكم بالنسبة لها ، وما أنتم بالنسبة لهم إلا كالحمل بالنسبة لكم » .

وهناك جملة من كلام روح غالى لما استحضروها قال : « إن الملايين من الشمس المؤلف منها مجرتكم يحيط بأكثرها سيارات وعوالم تستمد منها النور والحياة ، فمنها ما يماثل نجم (سيربوس) الذي ربو حجمه وبهاؤه على شمسمك ألوفاً من المرار والسيارات الهيطة به تفوق سيارات الشمس كبرا وسنا ، ومنها شمس مثناة : أى نجوم توأم تختلف وظائفها الفلكية عن وظائف شمسمك ، ففي السيارات الهيطة بتلك الشمس المثناة لانهال السنون والأيام كما في أرضكم ، وأحوال الحياة فيها تبعذر عليكم تصورها ، ومن الشمس مالا سيارات له إنما أحوال سكانها خير الأحوال » انتهى المقصود منه .

فها هو ذا (غالى) لما استحضروا روحه أفادنا أن من السيارات ما هو خير من أرضنا كما أن شمسه أحسن من شمسننا ، ومن السيارات ما يسكن نفسه وتكون السكنى فيه والحياة خيراً من سواه ، وأن السيارات التي تنبع الشمس التوأم تكون الحياة فيها كأنها جنة بالنسبة لأرضنا . وعلى ذلك أصبح ما كان عند الفلكيين ظناً عند علماء الأرواح يقينا ، وإذن يكون هذا تفسيراً للقرآن [وبعبارة أخرى] هذا هو سر القرآن إذ يقول الله تعالى « سر بهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » في السورة السابقة . وأى آيات أبداع من هذه . يقول الله « وما بث فيها من دابة » ويقول العلم الحديث ظناً تارة وإقناعاً أخرى ، إن أرضنا لا قيمة لها والحياة فيها حقيرة . والحياة هناك أجمل وسعادتها أتم ، بل جاء في مقال هذه الروح أيضاً أن هناك عوالم أقل من أرضنا استعداداً وأهلها أكثر شقاء من أهل الأرض ، إن ذلك معجزات القرآن قد أرانا الله آياته في الأنفس والآفاق ، والمسلمون مقصرون في البحث والعلم والتفكير . فليجدوا في علوم الفلك والطبيعة والأرواح ، وقوله تعالى (وهو على جميعهم إذا يشاء قدير) أى في أى وقت يشاء متمكن منه . ثم إن قولنا في هذا المقام إن اللؤلؤ لا يخرج إلا من البحر للملح كذب العلم الحديث أيضاً فسيأتي في سورة [الرحمن]

أن للماء المذب يخرج منه الأولو ، فهذه معجزة ثانية للقرآن (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم)
للراد بالمصائب الأحوال المكروهة من الأوجاع والأسقام والقحط والقلاء والفرق والصواعق ، والذي كسبته
أيدينا هي الذنوب والمعاصي (ويعفو عن كثير) من الذنوب فلا يعاقب عليها . وهذه الآية في المجرمين .
أما غيرهم فإن مصائبهم لرفع درجاتهم بالأجر لصبرهم عليها . وفي رواية عن ابن عباس : « أنه ما من خدش
عود ولا عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثره » . وروى عن علي كرم الله وجهه « ألا
أخبركم بأفضل آية في كتاب الله حدثنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم
ويعفو عن كثير . وسأفسرها لكم يا علي : ما أصابكم من مصيبة أي مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا فبما كسبت
أيديكم والله أكرم من أن يثقي (بتشديد النون) عليكم العقوبة في الآخرة وما عفا الله عنه في الدنيا فله أحلم من
أن يعود بعد عفو » ، وروى عن غيره ما يفيد أن المصائب إما لرفع درجة أو لغفرة ذنب . هذا ملخص
ماعليه جمهور أمتنا الإسلامية . وقامت طائفة تميل إلى التناسخ . [لو لم يكن للأطفال حال كانوا عليها قبل
هذه الحالة ماتوا] . وأجاب العلماء بأن الآية مخصوصة بالمكلفين كما هو السياق . وإذا أردت تحقيق
المقام عقليا فارجع إلى ما في هذا التفسير في [سورة البقرة] عند قوله تعالى « وبشر الصابرين » النج فإنك
سترى كيف كان القرآن معجزا . وكيف كان الفيلسوف قابس ألف كتابا على هذا المعنى يسمى [لنزقابس]
وأما اللثام عن هذا المقام . هناك تعرف سر القرآن وأن العلوم كلها له برهان . فوالله ما قلت لك هذا
وأنا من المتكففين وإنما أنا من اللوقنين . وإلا فكيف تتحد العلوم الفلسفية والآيات القرآنية . وكيف
يقول قابس في رسالته التي ترجمت إلى جميع لغات أوروبا إنه لا ينال السعادة في هذه الدنيا إلا الذين عركهم
الدهر وطحنهم بكله ومرنهم على تحمل المصائب وأذاقهم العذاب المحون حتى صقلهم بصقاله وآذام بنياله
وقتلهم بسيف رجاله وحط بساحاتهم ونزل بديارهم وأجلب عليهم بخيله ورجله وشاركهم في الأموال والأولاد
ولم يبق بالعلوم وفهمها ولا بالآداب ودرسها ولا بالنعم وحوزها ولا بالأموال وكثرها . وجعل ذلك كله
يسبب البار والفاجر والمالم والجاهل كالليل والنهار والحرب والبرد والحسن والصبح فأى علاقة لسعادة الإنسان
بما يتره من الأحوال أنه لا سعادة له كاملة إلا بأن تصقله للمصائب صقلا وتنزل عليه تفسيرا وجملا حتى يتكامل عقله
ويكظم غيظه ويتم احتاله ويظهر جماله بهذا يظهر جمال القرآن ويعرف الناس سر الفرقان ، ولكن بعد أن تدرس
ما كتب في سورة [البقرة] وكأن الإنسان خلق وفيه نقص كثير بطبعه ، وهذا النقص لا يذهب إلا بأعمال
شريفة وعلوم منيفة ومصائب تساعد على ارتفاعه . فالكسب ربما كان لما هو أعم مما جبل عليه الإنسان
من النقص وما فعله يده من الذنوب « والله هو الولى الحميد » ثم قال تعالى (وما أنتم بمجزيين في الأرض)
أى فأتين ما قضى عليكم من المصائب (وما لكم من دون الله من ولى) يحرسكم منها (ولا نصير) يدهنها
عنكم (ومن آياته الجوارى) السفن الجارية (فى البحر كالأعلام) كالجبال (إن يشأ يسكن الريح) التى
تجربى بها السفن (فيظللن رواكده على ظهروه) أى فيبين ثوابت على ظهر البحر (إن فى ذلك لآيات لكل
صبار شكور) لكل مؤمن كامل صبر على المصائب وشكر على النعم وحسن نفسه على النظر فى آيات الله
والشكر فى آياته الذى هو نوع من الشكر (أو يوقهن) أى أو يهلك أهلهن (بما كسبوا) من الذنوب
بإرسال الريح العاصفة المفرقة ، والمعنى إن يشأ يسكن الريح فيركدن ، أو يعصفها فيفرقن بصفها (وجف عن
كثير) من الذنوب فلا يجازى عليها أى إن يشأ يهلك قوما وينج آخرين على طريق العفو عنهم ، وإنما يوق
من يوقهم بما كسبوا لينتقم منهم (ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا) فى إبطالها (ما لهم من محيص) مهرب من
العذاب (فما أوتيتهم من شئ) من زينة الدنيا (فتنازع الحياة الدنيا) أى ليس هو من زاد المماد (وما عند الله

من الثواب (خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) وحينئذ يكون المؤمن والكافر مستويين في متاع الحياة الدنيا فإذا صار إلى الله تعالى كان ما عند الله من الثواب خيرا وأبقى للمؤمن (والذين يحبون كبار الإنس) كالقتل والزنا والسرقة (والفواحش) ما عظم قبحه من الأقوال والأفعال (وإذا ما غضبوا هم يغفرون) أي يكظمون الغيظ ويحملون (والذين استجابوا لربهم) أي أجابوه إلى ما دعاهم إليه من الطاعة (وأقاموا الصلاة) المفروضة (وأمرهم شورى بينهم) يتشاورون فيما يبدو لهم ولا يجعلون ولا ينفردون برأي أشد تيقظهم وحذريهم ، يقال « ما تشاور قوم إلا هودوا لأرشد أمرهم » (وما رزقناهم ينفقون) في سبيل الخير (والذين إذا أصابهم البغي) الظلم والمديون (هم ينتصرون) ينتقمون من ظالمهم من غير تمدد . قال النخعي كانوا يكرهون أن يذلووا أنفسهم فإذا قدروا عفوا . فالؤمنون إذن قيمان : قسم ينفون قيدا بذكرهم وهو قوله « وإذا ما غضبوا هم يغفرون » . وقسم ينتصرون من الظالم وهو المذكور في هذه الآية . ثم لحسهما فقال (وجزاء سيئة سيئة مثلها) سمي الثانية سيئة للآزدواج (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) وفي هذا عظيم للموعود به (إنه لا يحب الظالمين) المتدينين بالسيئة والمتجاوزين في الانتقام (ولمن انتصر بعد ظلمه) بعد ما ظلم (فأولئك ما عليهم من سبيل) بالمعاقبة والعاقبة (إنما السبيل على الذين يظلمون الناس) يبتدئون بهم بالإضرار (ويغفون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم) على ظلمهم (ولمن صبر) أي لم ينتقم (وغفر) تجاوز عن ظلمه (إن ذلك) الصبر والتجاوز (لمن عزم الأمور) أي بما ينبغي أن يوجه العاقل على نفسه ولا يترخص في تركه ، وحذف الضمير الراجع لأنه مفهم أي إن ذلك منه الخ . واعلم أن هذه الآيات كلها لإيضاح المقام وتبينه ، ففيها ذم الظلم بالأبداء أو مجاوزة الحد ، وفيها أنه لا عتاب على من عاقب بمثل ما عوقب به ، وفيها إعظام أمر العفو ، فهنا ظلم وانتصار وعفو (ومن يضل الله فله من ولي من بعده) من ناصر يتولاه من بعد خذلان الله إياه (وترى الظالمين لما رأوا المذاب) يوم القيامة (يقولون هل إلى مرد من سبيل) أي إنهم يسألون الرجعة إلى الدنيا (وتراهم يعرضون عليها) على النار (خاشعين من الذل) متذللين خاشعين (ينظرون من طرف خفي) يسارقون النظر إلى النار خوفا منها وذلة (وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم) بتعرضهم للمذاب المهلك (يوم القيامة) ظرف لخسروا (ألا إن الظالمين في عذاب مقيم) . وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله (ومن يضل الله فله من سبيل) أي وصول إلى الحق في الدنيا والجنة في القبي (استجيبوا لربكم) أي أجبوا داعي الله بنبي محمد صلى الله عليه وسلم (من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله) لا يردده الله بعد ما حكم به (مالكم من ملجأ) مفر (بومئذ وما لكم من نكير) إنكار لما اقترتموه لأنه مكتوب في صحائفكم وتشهد به ألستكم وجوارحكم (فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا) رقيقا أو محاسبا (إن عليك إلا البلاغ) ليس عليك إلا البلاغ . وفيه تسلية له صلى الله عليه وسلم (وإننا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة) كالتفنى والصحة (فرح بها وإن تصبهم سيئة) تحط أو مرض (فإن الإنسان كفور) نعم الله للترادفة عايه كأنه يقول : إن هذا الجنس موسوم بكفران النعم أي إنه إذا مسه الشر يكون جزوعا كما إذا مسه الخير فإنه يكون منوعا . ولكن تهذيب نفسه بالعلم والدين يجعله احتملا صابرا . ومن تأمل النفوس الإنسانية وجدها كالمهيولة على اليأس ونكران النعمة وقت هجوم الصائب ، ولا يخرج الناس من هذا التأزق إلا الدين والعلم والصبر ، وما ابتلى به الناس فيجعلهم يكفرون النعم أمر الذرية ، فيقول من لا ولد له ياليت لي ولدا ، ويقول من رزق بنات ياليتني أعطيت ذكرا ، ومن عنده ذكور يقول ياليت لي من البنات ولو واحدة ومن غلغله الصبيان ربما اختراه أحد أمرين ؛ إما الإعجاب والبطيان ، وإما كفر النعمة من الفقر والنسب في تغذيتهم وتربيتهم ، فليعلم الناس أن ذلك منهم رعوثة ، فليرض كل بما قسم له فإنهم إنما

خلقوا في الأرض ليتعلموا الصبر والقناعة، وهم لا يطربون إلى العالم الأطلى إلا بقوام النفسية، فلا ذكر ولا أنثى عند الموت ولا مال ولا جذر ولا أعوان، إن الله رب الجميع وهو مالك السموات والأرض ويعلم المصلحة ويعطي زيدا ما منع عمرا - الحكمة أرادها، ويعص كلابية، فيعطى من لا ولد له مزية أخرى، ويعمر من له ولد من جنس اللزايا وهكذا (الله ملك السموات والأرض) فله أن يقسم النعم والتعم كيف يشاء (يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور) فلا يولد للأول ذكر ولا للثاني أنثى (أو يزوجهم ذكرانا وإناثا) يجمع بينهما فيولد له الذكور والإناث (ويجعل من يشاء عقيبا) فلا يولد له ولد (إنه عليم) بما يخلق (قدير) على ما يريد أن يخلق فيفعل ما يفعله بحكمة وعلم، هذا في تقسيم النعم البدنية. وأعقبها بتقسيم النعم العقلية وأفاد أنها أيضا على مقتضى الحكمة ولا اعتراض على القسمة فيها. فالناس محجوبون عن ربهم لأنهم في عالم المادة وهو منزّه. ولكن منهم من رق حجاباه وخلصت نفسه.

(١) فيحس بمعاني تلقى في قلبه وهو معنى الفتى في الروح كما روى (فتى في روعى) أو يرى رؤيا منامية كرؤيا الخليل عليه السلام بذبح ولده.

(٢) أو يسمع كلاما من وراء حجاب كما سمع موسى عليه السلام من غير أن يبصر السامع من يكلمه. فالعبد هنا سمع كلاما ولم ير التكلم.

(٣) أو يرسل الله ملكا فيوحى للملك إلى النبي بإذن الله ما يشاء. ومن النوع الأول نبوة النبي صلى الله عليه وسلم في ابتدائها فلما كانت في المنام ستة أشهر؛ ومن الثالث ما بعد ذلك، فقد كان جبريل ينزل عليه بالوحي. وأما الثاني فهو ما حصل لموسى عليه السلام. وهذا قوله تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء) أى وما صح أن يكلم الله أحدا إلا موحيا أو مسمعا من وراء حجاب أو مرسلا. وقوله (إنه على) أى عن صفات الخلقين (حكيم) يفعل ما تقتضيه الحكمة (وكذلك) وكما أوحينا إلى سائر الرسل (أوحينا إليك روحا من أمرنا) نبوة أو قرآنا فهو به حياة الأرواح (ما كنت تدري) قبل الوحي (ما الكتاب) أى القرآن (ولا الإيمان) أى شرائعه (ولكن جعلناه نورا) أى جعلنا القرآن أو الإيمان نورا (نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي) أى لتدعو (إلى صراط مستقيم) دين الإسلام (صراط الله) دين الله الذى شرعه لعباده (الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور) أى أمور الخلائق فيضع كلا في درجته من جسيم ونعيم. انتهى التفسير اللفظى للسورة كلها.

لطائف هذه السورة

(١) فى قوله تعالى «تكاد السموات يتفطرن من فوقهن ولللائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض».

(٢) وفى قوله «جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا» مع قوله «يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور» الخ وقوله «ومن آياته خلق السموات والأرض وما بينهما من دابة وهو على جميعهم إذا يشاء قدير».

(٣) وفى قوله «الله الذى أنزل الكتاب بالحق واليزان» الخ.

(٤) وفى قوله «الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز».

(٥) وفى قوله «وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون».

(٦) وفى قوله «وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا» الخ.

(٧) وفى قوله «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير».

اللطيفة الأولى والسادسة

(١) في قوله «تكاد السموات يتفطرن من فوقهن» الخ .

(٢) وفي قوله «وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً» الخ .

لقد جاء في هذه الآية الثانية وجه آخر غير ما تقدم . فيقال : لا يكلم الله البشر إلا بأحد طرق ثلاث : إما أن يوحى إلى الأنبياء بالملائكة ، وإما أن يكلم الأمم بواسطة هؤلاء الأنبياء الذين تلقوا عن الملائكة ، وإما بأن يكلم الأنبياء من غير أن يروه كسأله موسى عليه السلام : وإذن نشرح في عجائب هاتين الآيتين فنقول :

اعلم أن الله عز وجل جعل العالم المادى والعالم الروحى بينهما تشابه كما قال تعالى «ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت» وقال «ووضع الميزان . ألا تظفوا في الميزان» فالعالم الروحى والعالم الجسمى يختلفان جوهرًا ويتحدان في النظام العام . فانظر أولاً في هذا العالم للشاهد ، وتأمل تجمد الناس يعيشون في وسط الأنوار فأما الظلمات فهي قليلة . إن الشمس لا تكاد تمد ولا تحصى ، فأما السيارات حولها فهي مستضيئة بها . وكذلك التوايح : فأرضنا وقرنا يستضيئان بنور الشمس . وكذلك السيارات . ويظن أن للشموس سيارات ولكن لا يستضيء منها إلا ما كان جسمه معتماً كالأرض أي برد سطحه وصار مثلها . وجميع الأقسام تنقسم إلى ثلاثة أقسام : أجسام مضيئة كالشموس التي هي هذا العالم كله ، حق إن أرضنا كوكب مضيء لولا قشرتها ، فأما باطنها فإنه نار على حاله ، فأكثر أجسام العالم مضيئة ، والنادر جدا ما لا ضوء له وهي أمثال قشرة أرضنا الصغيرة ، وأجسام معتمة كسطح الأرض والقمر والنبات والحيوان والأحجار ، وأجسام شفافة كالهواء . فالأول يفيض النور ، والثاني يستضيء ، والثالث يقبله ولا يحجبه عن العتم . والأجسام المعتمة منها ما هو صقيل كسطح المرأة فإنه يقبل النور ويحجبه عما وراءه ولكنه ينعكس على ما أمامه . هذا هو العالم للشاهد وأقسامه ، فلننظره نجد أن الشمس تفيض النور والهواء شفاف منفصل وجرم العين شفاف متصل بالأجسام فلننظر في عالم العقل والروح نجد أن في العالم الإنسانى من يقبلون العلم بالتعليم وهم جمهور الأمم ، فهم في قبولهم العلم أشبه بهم حين يقبلون الصور التي وردت من طريق العين الواردة من الخارج ، ونجد الأنبياء والمعلماء فيهم أشبه بالعيون المركبة فيهم ، فكما قبلت العيون الصور بسبب ضوء الشمس وأدتها إلى النفوس هكذا قبل الأنبياء وهم عيون الأمم العلوم ووصلوها إلى أهمهم . فإذا تبين لنا أن العالم للشاهد أوضح لنا ست مسائل من ثمانية ، وإيضاحه أننا نقول : في العالم الروحى نفس متعلمة وأنبياء معتمون وملائكة موصولون والله مبدأ الفيض ، فمن لا تعلم من هذه الأربعة إلا اثنين : تعلم النفس المتعلمة ، والنفس المعلمة ؛ ولكن الإثنين الباقيان محبوبان عنا ، وهما الله والملك ، فأرانا الله هذه الأقسام الأربعة في العالم المادى وقال : انظروا تجدوها واضحة ، أجسام مظلمة تستضيء ، وأجسام شفافة متصلة تقبل ، وأجسام شفافة منفصلة ، وأجسام مضيئة للنور . فهذه القسمة تامة في العالم المادى وقد رأيت اثنين في العالم الروحى ، فبطريق الإقناع تعرفون أن هناك ملكاً ووراء الملك إله كما كان وراء العين هواء ووراء الهواء شمس ، وهذا لمن لم يقرأ علم الأرواح ، فإنه تعالى هو المعلم وهو الذى يكلم الناس بالملك وبالأنبياء كما أن الشمس تضيء على الأرض وتوضح لنا الصور بطريق الهواء الشفاف وبطريق العيون والفضل كله راجع للشمس ، هكذا العلوم الدينية والطينية والصناعية ، وجميع حافى الأرض من علم مكل لأهلها مصدره الله تعالى ، غاية الأمر أنه تارة يكون بوسط

للجمهور وبغير وسط للنفوس الشريفة . وهذا يوضح لنا قول علمائنا : [إن الله عليم الجود ليس بجامع له
عن أحد ، ولكن الفيض يكون على مقدار الاستعداد] .

فاذا سمعنا أن زيدا قد ألمم العلم ونشر الحكمة ، فلنعلم أن في نفسه صفاء استعد به أن يتقبل الحكمة
العامية المغروسة في قلوب نفوس الأرواح الخائفة حولنا وهي مستعدة من الله كاستعداد الهواء النور من الشمس ،
وإذا سمعنا أن عمراً اتبع هواه وأغراه الشيطان فلنعلم أن النفوس التي ألهمته منحرفة وهو يشابهها في
الانحراف كما نرى الزجاج للونه تلون للماء الذي وراءها فتراه أصفر أو أخضر أو أحمر تبعاً لها مع أن
النور عام والناس مطلقون عليه ولكن لا قدرة لهم على تغيير الطباع ، فالأرواح الشريفة يرون الشياطين
أمامهم أشبه بذلك الزجاج الملون ، ويرون الأحياء الذين يشاكلونهم مفرمين بآرائهم عاكفين
على الإصغاء إليهم .

هذه مجامع الحكمة في هذه الآيات . إذا عرفت ما ذكرته لك . فانظر في هذه الآيات . ذكر الله السموات
والأرض وأن عظمة الله تكاد تنفطر فيها السموات . ثم أتبعه بذكر الملائكة مشيراً إلى ما ذكرنا كأنه يقول
انظروا إلى السموات والأرض وإلى عظمي فهما فإنكم ترون الظلمات والأنوار الع . فانظروا إلى الملائكة
إنهم يسبحون ويمجدون . فهم يعرفون جلال الله وإكرامه أي صفات التقديس وصفات الإكرام فهم يعرفون
بعده عن مشابهة المخلوقات ويقدمونه تقديساً ويقرون عجائب صنعه وحكمته وقدرته العبر عنها بالحمد . فهم
يعرفون أن ذاته كاملة تفيض الخير . تقدم التسبيح لأنه يرجع لكمال الذات وآخر الحمد لأنه يرجع لتكميل
الغير وإفاضة النور فالمقدس ذات منزهة كاملة ، والمقدس المحمود ذات كاملة مفضية الخير والكمال على غيرها
وبهذه العلوم والمعارف كانت للملائكة أرقى من أهل الأرض لأن أرواحهم لطفت فلم تلامس هذه المادة ولا
تعيش فيها فأصبحت كالهواء من حيث قبول النور العلى وإفاضته ، وليس يمنع الناس عن ذلك الكمال إلا
الجهل كما قال سقراط : [الناس لا يذبون إلا لجهلهم ، ولولا سعة علم الملائكة ما ارتفعوا عن المادة وما
كانوا مسيطرين عليها ، وعلى مقدار جهل الإنسان يكون بعيداً عن العالم الروحي] :

فهذا ملخص ما يفيد قوله « يسبحون بحمد ربهم » . وأما قوله « ويستغفرون لمن في الأرض »
فهو إفاضة الخير ، فهم من حيث التقديس والتحميد يفاض عليهم من الله ، ومن حيث الاستغفار مفيضون
الخير على الناس . ولما كان الإنسان لا يقدر أن يرى النور إلا بآلة متصلة به وهي العين هكذا لا يقدر الجمهور
من الناس أن يدركوا العلم إلا بنفس تكون منهم تشبه العين في جسم الإنسان ، فهي تتصل بالملائكة من
وجه وتتصل بالناس من وجه آخر ، أي أن الأنبياء بروحانيتهم متصلون بالملائكة وبماديتهم يتصلون بالناس
كما اتصلت العين بالضوء من جهة الهواء واتصلت بالمش من الداخل واتجهت الصور منها إلى النفس فأدركتها
فهى قابلة موصلة والأنبياء قابلون موصولون ، فافقه كالم الأنبياء بالملائكة وكلمنا بالأنبياء ، ويشير إلى هذا
القام أيضاً ماجاء في [سورة النبأ] « رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطاباً .
يوم يقوم الروح والملائكة صفا » .

وبهذا نفهم الآيتين في أول السورة وآخرها ، وهذا القام من عجائب العلم والحكمة ، إن الناس يرون
هذا كله بأعينهم الجهال والعلماء ، ولكن لا يدركه إلا من اقتضت بصيرته إليه . انتهى الكلام على اللطيفة
الأولى والسادسة .

اللطيفة الثانية والرابعة

- (١) في الكلام على التناسل واختلاف الله كور^١ والإناث في الحيوان والإنسان .
 (٢) ولطف الله في تفضيته .

فمن الثاني ماجاء في كتابي [جواهر العلوم] في صحيفة ٩١ وبعدها وهذا نصه :

فقال إبراهيم : اعلمى نورك الله بنور العلم أن الخالق جل اسمه جعل تركيب الأسماك مناسبة للمعيشة في الماء كما جعل للطيور أجنحة تساعد على الطيران في الهواء . فقالت : وكيف ذلك ؟ فقال : إن الأسماك تحتاج في تصرفها في معاشها وتقلبها في أطوارها إلى أن تنمو في الماء من جهة إلى أخرى أو تنخفض تارة وترتفع أخرى أو تتجه يمينا ويسارا تبحث عن غذائها أو تهرب من عدوها أو تطلب صيدها لجعل الله سبحانه وتعالى لها عوامات كمجاديف السفينة تشاهد في الأسماك في الجوانب وعلى الظهر ومن خلفها وحوصلة تسمى حوصلة العموم، وهي عبارة عن كيس مملوء هواء خالصا تضغطه إذا أرادت أن تفر في الماء فيصغر حجمها وتمده إذا أرادت أن تطفو على سطحه فيكبر حجمها وجعل ذنبها مستمدا لأن يديرها يمينا وشمالا في البحر فكما أن للسمة عوامات تخترقها الماء كذلك جعل للسفينة مجاذيف وشرعا تسيرها حينما أراد الإنسان وكما أن لها ذنبا يكون موازنا لجسمها عند الانحراف يمينا وشمالا كذلك جعلت الدفة (السكان) للسفينة حتى يسهل التفاتها يمنا ويسرة، فلو انقطع ذنب السمكة مثلا ما أمكنها أن تنحرف إلى إحدى الجهتين بل تتجه دائما جهة الأمام ولو انعدمت عوامتها التي في جوانبها وعلى ظهرها لوقفت في مكان واحد وتمطلت عن اكتساب معيشتها ومن الجيب أن الأسماك جعل شكلها على هيئة تناسب احتراق الماء فلم تجعل رأسها مفرطحة حتى تقاومها ليج ليلها فتعوقها عن السباحة، فما أدق صنعه سبحانه وما أعظم رحمته وكل حي يغدو ويروح في بحار نعمه مشهولا يسواؤها قال عز وجل « وما كنا عن الخلق غافلين » فجانب الكون ظاهرة والناس عنها غافلون بلذاتهم وشهواتهم . قال عليه الصلاة والسلام : « لولا أن الشياطين يحومون حول قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السموات والأرض » فالإبل مثلا قصرت أذنانها لاستغنائها بطول أعناقها وعكس ذلك في البقر، وكم من حكم ضربنا عن ذكرها صفحا ليراجعها محب الحكمة في العلوم الطبيعية « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » .

﴿ فصل : في حكمة خلق الحشرات ﴾

فقالت ياسيدي إنى أعتقد أن كل هذه العوالم مؤسسة على حكم تحارفيها العقول ولكن إلى الآن لم أصل إلى حكمة خلق الحشرات من نحو الزنايبير والتدباب والبعوض فهل عثرت على ذلك في كتاب ؟ قال نعم إن الله عز وجل يخلق الشيء لحكم كثيرة منها ما يعرف ومنها ما لا يعرف . أما هذه الحشرات كالزنايبير والتدباب وغيرها فإن حكمها كثيرة؛ منها أن العفونات الفاسدة التي على وجه الأرض لو بقيت لفسد الهواء وجاء الوباء وانتشر الهلاك وعم الحراب، فخلق الله سبحانه وتعالى تلك الحيوانات منها ليصفو لهما ولا يعرض لها الفساد الذي هو سبب الوباء وهلاك الحيوان ولذلك تزين الزنايبير والديدان والحنافس في دكان القصاب (الجزار) والديباس^(١)

(١) الديباس: هو صانع الدبس، وهو ما يسيل من الرطب .

أكثر مما يرى في دكان البراز (القماش) والحداد فاقتضت الحكمة الإلهية صرف العفونات إليها ليصفوا الهواء منها ونسلم من الوباء . ومن الحكم العجيبة والأسرار الطبيعية الإلهية أنك ترى أن نحو الحيات والعقارب تسكن عادة وتكثر في الأماكن العتيقة والمحال الفاسدة وهكذا خشاش الأرض من الخنافس والفضاصير وغيرها ، وتربن (الناموس) لا يتولد إلا في المحال للمستنقعة وكذا النمل يكثر في المحال القذرة وذلك كله لطف من الله بعباده ورحمة بهم فهذه كلها فضلا عن كونها تعيل إلى جسمها المواد الفاسدة وتنقي الهواء فهي من جهة أخرى مؤذية بطبعها ينفر منها الإنسان فتحمله على إزالة ذلك السبب فكان لسان حال الحيات والعقارب يقول إن لم تصلح هذا المكان أو نخرج منه وإلا لدغتك .

ولما كان الهواء القاسد الحامل للمواد للضررة لا يحس الإنسان بضرره فيحدث الضرر في الأجسام أو يبت الإنسان وهو لا يشعر به جعل الحكيم الخبير تلك الحيوانات وأودع فيها سما يحس بألمه الإنسان فيتنبه فيتخذ الاحتياطات اللازمة للابتعاد عنه وهو مع ذلك لم يقصد منه إلا البعد عن تلك الأماكن العفنة فضلا من الله ونعمة .

وهكذا ترى أن من على وجهه قدر يعلوه الذباب لينتق ما عليه وخلق في الإنسان كراهية طبيعية لذلك حتى يضطر أن يغسل وجهه فيزيل ذلك القدر فكان الذباب شرطي (حندي) يلزم أهل القدر ويأمرهم بالنظافة وإلا ضربهم بسوط يؤلمهم وهو الكراهية الشديدة ، فسبحان من أودع في كل صغير وكبير من الحيوانات من الحكم والفرائب ما يحمله أكثر الناس وهو نافع لهم ولذلك ضرب الله بهذه الحيوانات الأمثال حتى قال (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) فأنكره الجاهلون من المشركين فرد عليهم بقوله (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضه فما فوقها فأمّا الذين آمنوا فاعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا) ثم بين أن الذين يفهمون ذلك هم العالمون فقال في آية أخرى (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ، خلق الله السموات والأرض بالحق إن في ذلك لآية للمؤمنين) فأفاد بهذه الآية أنه لا يفهم تلك الحكم إلا أصحاب النفوس العالية الشريفة الناظرون في ملكوت السموات والأرض الذين عبر عنهم بالعالمون بكسر اللام . هذا ، ومن عجب الحكم أنه عز وجل جعل صفارها مأكولة لكبارها ولولا ذلك لامتلا وجه الأرض منها فليس في ملكة ذرة إلا وفيها من الحكم ما لا يحصى ، وأعجب من هذا أن كل ما جعل سببا لهلاك حيوان جعل لحمه سببا لدفع ذلك السم فإن الأطباء الأقدمين قالوا إن في لحم الحيوان قوة دافعة لسمه فأدخلوا لحمها في الترابيخ والتجربة تشهد أن من لدغته عقرب يبلطخ الموضع برطوبة لحمها فيسكن ألمها في الحال ، ثم إن هذا النوع من الحيوانات يختلف حالها عند الشتاء فمنها ما يموت من برد الهواء كالديدان والبق والبراغيث ، ومنها ما يكمن فيه ولا يأكل شيئا كالحيات والعقارب ، ومنها ما يدخر ما يكفيه لشتائها كالنحل والنمل . فتأمل تلك الأفعال العجيبة واعلم أن هذا العالم كله حكم ومصالح (وما يعقلها إلا العالمون) فربما ظهر للخاصة من حكمه ما لا يظهر للعامة وظهر للخاصة الخاصة ما لا يظهر للخاصة فإن من رأى تلك الحشرات الصغيرة لم يدرك في خلدته أن لها بعض تلك النافع والحكم من تلقيح الأشجار وإصفاء الجو من العفونات فهي من المعينات على ما كنا وبقاء حياتنا ، وإن من أجل الحكم والطفها وأدقها أكل الحيوانات بعضها بعضا فكم في الجبال والأودية والسهول والقفار من حيوانات لو بقيت جنبها لفسد الهواء ثم هبت الرياح إلى ما جاورها من البلاد وعم الحراب ولذلك قال الشيخ كال الدين الدميري في [حياة الحيوان الكبرى] إن القذوب يصيد الثعلب فيأكله وانقلب يصيد القنفذ فيأكله والقنفذ يصيد الأفعى فيأكلها والأفعى تصيد العصفور فتأكله والعصفور يصيد الجراد

فيا كاه والجمر قد يلتصق فرائخ الزناير فيا كاهها، والزبور يسجد النحلة فيا كاهها والجملة تصيد الدبابه فتأ كاهها
والدبابه تصيد البموضة فتأ كاهها اه على أن في ذلك فضلا عن تصفية الجو تغذية الحيوانات وعدم ضياع ذلك
الجسم سدى بلا فائدة فلا ترك بلا أكل لتعطلت حكمته إذ ليس في الملك ما تضع حكته البتة ففيه دفع مضار
وجلب منافع اه .

ومن الأول ما جاء في كتاب جواهر العلوم أيضا وهذا نصه :

« ومن عجيب صنائه كفيات التناسل التي ليست على نمط واحد ، فإن من الحيوانات ما يتم جنينه
في داخل جسده ثم يلد كالحوانات الببونية ، ومنها ما يخرج بيوضها منها ثم يتخلق الجنين فيها ميثاله
داخلها جميع ما يلزم من الغذاء وذلك كالطير وبعض الحيات ومن ذلك كفيات الإلفاح وتغذية الجنين فإنها
كفيات متباينة تؤدي إلى مقصود واحد فبعض الحيوان لا يتم تلقيح ذكره إلا إذا وصل للث في باطن الأنثى
ولو تعرض للهواء لفسد كالإنسان وكثير من الحيوان ومنه ما يلقى منه على بيض أثناءه بعد خروجه منها فلا
يفسد الهواء ، ومنه ما سفاده في وقت معين ، ومنه ما لا يمتين لوقته ، ومنه ما يعلو أثناءه عند السفاد ، ومنه
ما يدبرها ومنه ما يلمص جنبه بحبها ويحماها حتى تلقى بيضها وهو يلقى منه على تلك البيوض فيلمصها وذلك
كبيض الأسماك ومنها ما يهدى صفاره بلبين أعده الخالق الحكيم الرحمن الرحيم في تربيته أو انديته التي
تكون على عدد أولاده في الغالب ، ومنه ما يزرق أولاده زقا كالحمام ، ومنه ما يسمى بأولاده ويدلها على
أقواتها كالذجاج ، ومنه ما يشترك في تربية أولاده الذكر والأنثى وذلك عندما تكون لولادة غير قادرة
على السعى من أول ولادتها وذلك كالصافير والحمام والإنسان لأن أفراد الواحد بالتربية مع سعيه على رزقه
أيضا يكلفه فوق طاقته ، ومنه ما تنفرد أثناءه بالتربية وذلك عندما تكون أولاده قادرة على السعى وذلك
كالذجاج والحجل فإذا تأمل العاقل في هذه العوالم وجدها نسي لمقصود واحد خاضعة لإرادته متجهة لنظام
الكون متعاونة على إكائه ، فالعلويات والسفليات مرتبطة ارتباطا تاما بقوانين الجذب العام والتناقل
وعقول بني آدم وإدراك الحيوانات وما بينها من المحبة والألفة والشوق فالجذب العام كحبة عمومية بين
جميع أجزاء العلويات والسفليات وحب الحيوانات لبعضها وشوقها روابط جزئية بين أجزاء صغيرة من هذا
الكون فكل ما تراه في الحقيقة إنما يسعى للنظام التام وهو يظن أنه يسعى لمصاحته الخاصة ، انتهى ما أردته
من كتابي جواهر العلوم .

اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى « الله ألقى أنزل الكتاب بالحق والوزان » الخ^(١)

اعلم أن هذه الآية قد كنت رأيت في المنام منذ نحو ٢٧ سنة حينما كنت أؤلف كتاب جواهر العلوم
وأنا مقیم بالجيزة أن قاللاقرأ هذه الآية أماي ؛ وألقى في نفسي أن معناها ما تقدم من أن النظام تام في هذه
الدنيا ، وأن الأحكام الشرعية والقضاء تكون على حسب الظاهر ولم يبق إلا الباطن فيرجع إلى النظام
العام وهو يكون يوم القيامة ، ولذلك لما استيقظت من النوم كتبتة ثم أدرجته في الكتاب ، فأنا اليوم
أحمد الله عز وجل إذ حيت على هذه الأرض حتى أتيح لي تفسير القرآن ووصلت إلى نفس الآية ، وأقول
الآن إنني لما استيقظت من النوم إذ ذاك وفكرت في الآية ؛ لم أكن لأصدق أن الآية كما رأيت في النوم ،

(١) سيأتي في اللطائف العامة دلائل بقاء الأرواح ألقاها خطيب مصري على سبيل الخطابة وهكذا
أراء أفلاطون والمؤلف مع بدائع التفسير هناك .

بل ظننت أنها حصل فيها تغيير ، فلما سألت مدرس القرآن بالمدرسة قرأها لي كما رأيت ، ونظرت
 للمصحف فوجدتها كما هي طارفتي فرحا ، وصكتبت للنبي في كتابي « جواهر العلوم » ، وقد
 كنته في نفسي ، وما أنا ذا اليوم أكتب لك ما جاء في « جواهر العلوم » وإن لم أذكر فيه من أين جاء
 وهذا نصه :

﴿ الفصل السادس عشر ﴾

في الاستدلال على اليوم الآخر وعلى وجود الله بأدلة عقلية قريبة غريبة

ثم قال إبراهيم : قد تكلمنا في مجالسنا السابقة على كثير من دلائل قدرة الله عز وجل ، وهي
 في الحقيقة أدلة عقلية ، فهل عندك من دليل غير ما يذكره في كتب علم الكلام بحيث يكون مقنا للعقول
 فأنا كثيرا ما سمع قولهم في كتب التوحيد إن دليل الآخرة سمي ، أي إننا نأخذ من الأدلة الشرعية لا من
 العقل . قالت الفتاة : أنا لا يمكنني أن أقول غير ما سطر في كتب التوحيد . فقال إبراهيم . أنا قد خطر لي
 دليل لا يفهمه إلا أولو الألباب والراسخون في العلم . فأشرق وجه الفتاة وقالت هات ما عندك :

فقال من نظر بين البصيرة ، فيما أودع في هذا العالم من الحكم والمدل والقوانين السارية في العلويات
 والسفليات والحيوانات ولغاتها وإدراكاتها وعقولها حكم بالبداهة على أنها جارية على نواميس حقة وحساب
 منتظم دقيق لا يأتينا الباطل من بين يديها ولا من خلفها هذه الكواكب والشمس والقمر سابحة في مداراتها
 على قوانين لا تقبل التغيير والتبديل ثم لننقل نظرنا إلى السفليات نجدها حذت حذو العلويات في النسق
 والترتيب والنظام فأى حيوان تمدى طوره وأى نبات تجاوز سنته ثم لننظر العقول البشرية نجدها مفعورة
 على حب العدل والنظام وحذت حذو ذلك النظام الأعلى فلا ترى إنسانا على وجه الأرض إلا واستحسن العدل
 واستمبح الجور ولقدك ترى أرباب القوانين المحترعين لها من نوع الإنسان بل للستبطين لها في الحقيقة من
 الشرائع الإلهية يبحثون على بواطن القضايا كظواهرها هذه الدول الثرية أمامنا كم ينفقون الأموال ويرسلون
 إلى الجهات للتباعدة من يبحث على الجاني ولو أنفقوا ما أنفقوا وكل ذلك لميل العقول إلى العدل ، وأن يجازى
 المحسن بإحسانه والسيء بإساءته ومالنا ولأرباب القوانين والسياسة فلننظر إلى سيد المائلة فإنه يعاقب على
 ذنوب أهل منزلته ويجازى كلا بما فعل بل أى إنسان ولو من أضعف الناس عقلا وأقلهم إدراكا . رأى رجلا
 يضرب آخر فإنه لا يتالك نفسه أن يأخذ بناصر الضمير « فطرة الله التي فطر الناس عليها » دعينا من الإنسان
 وانظري الحيوانات فإنه مركوز في جبلتها العدل أيضا لما شوهده كثيرا فيها بل كثيرا ما علم أنها تعاقب بالقتل
 على التهمة بالزنا وغير ذلك مما هو مشاهد ثبت أن هذه الفطرة منبثة في كل حي على وجه البسيطة بل هي من
 اللوازين التي قامت بها السموات والأرض واستقر بها كل موجود ، ومن العلوم لسكل من اطلع على علم الهيئة والنلك
 والنبات والحيوان والإنسان وعلوم الأحكام والنطق وعلوم الأدب كاللغة والنحو والصرف والمعاني والبيان
 والبديع وغيرها أن هذه العلوم كلها قوانين تدلنا على سريان النظام في كل شيء من الوجودات وعلى نهجها
 وضمت قوانين للجرمين في هذا العالم وتجري على يد الإنسان ولكنها معها بالغ العقلاء فيها لا تحم إلا على الظواهر
 ولا يمكن وصولها إلى الحقائق بوجه ما ، نعم أشبهت بالجمال الظاهري فإنه يدل في الغالب على الجمال الباطني ومن
 غير الغالب قد تختلف القضية فكذلك الأحكام بالقوانين الشرعية أو الوضعية تاجدة لأقوال الشهود والقوانين
 ودلائلها ظاهرية فقط وقد قدمنا أن كل شيء في العالم يسير على نهج الحق والصدق والبرهان العدل فلا بد أن
 يكون لباطن هذه القضايا حاكم يحكم فيها في وقت آخر حتى يكون ميزانها على حسب اللوازين الأخرى الصادقة

من العلويات والسفليات وأيضاً قد تقرر أنه لا يضيع شيء سدى في هذا العالم كما هو مقرر في العلوم الطبيعية فلا تضيق حركة ولا حرارة ولا كهربائية قطبل تتقلب الحركة وحرارة والكهربائية تكون حرارة ثم ضوء فهكذا تتقلب هذه الأفعال في الآخرة نمياً أو عذاباً ألياً فتذكروا يا أولى الألباب، فلم تضيق أفعال العباد والذين لم يؤخذ بنصرهم أو الذين أحسنوا في هذه الدنيا ومن تأمل فيما قلناه فهم معنى قول الشاعر :

من يزرع الشر يحصد في عواقبه ندامة ولحصد الشر إبان

وقول الآخر :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

وقول الآخر :

الخير أبقى وإن طال الزمان به والشر أخبث ما أوعيت من زاد

ألا تترين أن زارع الورد لا يجني الشوك وزارع النخل لا يجني الذرة . وعلى هذا القياس تربي النفوس تتأثر بأقوالها التي تصدر منها حسناً وقيحاً فمن أكثر من ذكر شيء أحبه بل خاطر الإنسان يؤثر على أخلاقه شرفاً وضة فقلنا أن هذه القاعدة مطردة في المحسوسات والمفكرات وجميع الموجودات ومن فهم ما قلنا جزم قيناً أنه لا بد من يوم يقوم الناس فيه لرب العالمين حتى يقوم بين الناس بالقسط لما ثبت أن كل هذا العالم قائم بالعدل وبقية أفعال الإنسان لم توزن إلا وزناً ظاهرياً فلا بد من وزن آخر ليكون فصلاً حقاً يميزان عدل لا يفسد شميره وكيف ينتقم رئيس الأسرة وسيد العشيرة من السيء ويحسن إلى الحسن ولا يفعل ذلك رب الأرباب (أفجعل الدين آمنوا وعملوا الصالحات كالفاسدين في الأرض أم نجعل للتقين كالفجار) (أفجعل المسلمين كالجبريين ما لم كيف تحكمون) (أغضبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون) (أم حسب الذين اجترحووا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محييم وممانهم ساء ما يحكمون) ثم إن كل ما صرحت به أو لوحت في هذه المقالة من بحر آية من القرآن وهي قوله تعالي (الله الذي أنزل الكتاب بالحق والليزان) قد فسر بالعدل والتسوية كما في الحازن والنسفي (وما يدريك لعل الساعة قريب) فلي تأمل العقلاء وما يدريك لعل الساعة قريب بعد قوله « أنزل الكتاب بالحق والليزان » وليلاحظوا ما ذكرناه في هذه المقالة يظهر وجه هذا التصيب العجيب، ثم أعقب ذلك بقوله جل شأنه (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويصلون أنها الحق ألا إن الذين يمارون في الساعة) يخاصمون فيها أو يشكون (لفي ضلال بعيد) عن الحق لعدم فطنهم وإدراكهم موازين هذا العالم وفطرة حيوانه على الجزاء وعدم تدبرهم ما أنزل في الكتب النجوى للطائفة تمام الطائفة لما يرى في العوالم بالعقل والنظر الصحيح على أن لنا وجهاً آخر في ذلك وقد عرضته سابقاً على أكابر العقلاء والمعلماء فاستحسنوه جداً وهو أن كل بني آدم على أي دين نراهم يحبون تخليص أنفسهم إما نقشاً على الأحجار أو في الكتب المؤلفة أو على ألسنة الناس وأيضاً يحبون الجلود وطول الأعمار ولا يرى أحداً يحب الفناء إلا من شد شدوداً بيننا ثم ذلك الشدود لا يدوم وأيضاً نرى جميع أهل الأرض قاطبة يزورون موتاهم ويتصدقون على أرواحهم وإذا نظرنا إلى هذه الفطر الثلاث المنفرسة في نفوس البشر دلتنا دلالة واضحة على أن لنا بقاء بعد موتنا إذ جميع فطرنا التي فطرنا عليها سادقة وليس فيها كاذبة البتة ولم نرى لا يفهم ما قلناه إلا من درس جميع العلوم وعرفها حق معرفتها ألا يرى شهوة الغذاء والتأمل والغضب وما فينا من حياة وجبن وكبر وشجاعة وغير ذلك فكل هذه الفطر خلقت فينا لمصالح صحيحة ومنافع عظيمة وكلها فطر سادقة كما يعرفه أهل العلم فكذلك هذه الفطرة لحبنا البقاء وتخليدنا أسماءنا دليل على أن لنا بقاء بعد الموت وزبارة الأحياء للأموال وعموم هذه العادة في جميع بني آدم دليل على وجود أرواح الأموات وإلا

فما هذا التهاوت على المقابر والتصدق على الأموات ولنا وجه آخر وهو أننا لا نتنع في هذه الدنيا بمال ولا علم مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم (منهومان لا يتبعان طالب علم وطالب مال) وكل تقس من النفوس البشرية تستشمر في نفسها حب لذة أعلى من جميع اللذات في العالم المشاهد لها بدليل أنها لا تتقف عند حد محدود بل كلما ارتفعت زهدت فيها وصلت إليه وأحبت أعلى منه وما سمعنا بأن أحداً قال غير هذه العبارة (هل من مزيد) فهذا لاستشمار النفوس جميعها بأن لها لذة أعلى من هذه فلا بد أن تكون في عالم آخر الذي يطابق وصفه ما أحبت النفوس وحثت إليه .

وهذه الأدلة كلها لم أرها في كتاب وإنما هي سوانح (١) ويقرب من هنا أن كافة بني آدم يميلون إلى عبادة الخالق في كل صقع من أصقاع الأرض حتى أهل جزائر المحيط الهادى الذين تباعدت ديارهم عن المتمدنين وإنما اختلافهم في تعيينه فمنهم من ظنه شجراً ومنهم من ظنه تمثالا ومنهم بما لا يحصى كما هو معلوم مستفيض شائع ولا شك أن هذه الفطرة وحدها كافية للاستدلال على صانع هذا الملك العظيم . فأعجب الفتاة ما قال إبراهيم وقالت ما سمعت أدلة أوضح وأبين من هذه اه ما جاء من كتابي جواهر العلوم .

فالحمد لله الذى وقفنى إلى تأليف هذا التفسير والشكر له على أنى عشت حتى وصلت إلى تفسير هذه الآية وذكرت ما كان خطرى منذ ربع قرن فأكثر : وما كان ليخطر لى إذ ذاك أنى سأكتب هذا أو أنشره بين الناس فالحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الخامسة

في قوله تعالى «وأمرهم شورى بينهم»

أذكر في هذا اللقاه ما اتفق لى أثناء هذا التفسير إذ ألقى الترك دولة الخلافة وأقاموا الجمهورية مقامها وكتب للمسلمون فى ذلك . وطلب منى بعض أصحابى أن أكتب فى هذا الموضوع فكتبت رسالة فى جريدة «القطم» وقد تقدمت فى سورة النساء .

هذا ولتذكر هنا ما جاء فى جريدة «وادي النيل» يوم الخميس ٢٩ ربيع أول سنة ١٣٤٧ هجرية الموافق ١٣ سبتمبر سنة ١٩٢٨ م فى معنى هذه الآية . وإنما ذكرناه هنا لما فيه من الأخبار لزيادة الفائدة ، فقد جاء فيها ما نصه :

الدين والدستور

جاءتنا هذه الرسالة ونحن ننشرها عملاً بحرية النشر محتفظين برأينا الذى أبديناه من قبل فى هذا الموضوع نارت مناقشات عنيفة بين الشيخ محمد شاكر والسيد وحيد الدين الأيوبى فى مرجع الضمير من قوله تعالى «وأمرهم شورى بينهم» وقوله تعالى «وشاورهم فى الأمر» فجعله الأول خاصاً بأولى الرأى المعتد بهم فى الإصلاح

(١) اطلمت بعد هذا على استدلال أفلاطون بحب البقاء والخوف على الحياة على أن هناك أمراً ثانياً وهو صورنا الدائمة فى عالم آخر ثم اطلمت على بنية هذه الوجوه فى كلام الحكماء بعد تأليف هذا الكتاب بستين فعمدت الله حمداً كثيراً اه المؤلف

وجه الثاني عاما لجميع الأفراد ، ومع كثرة القلات في أعداد القطم واتساع نطاقها خرج الفريقان من الميدان على غير نتيجة للقراء .

ولما كان البحث دينيا يجب تحجسه لخلوص العقيدة انتظرنا العودة إليه من غيرها فلم يكن : فكان حقا علينا وعلى جريدة وادي النيل بالأخص - لأنها المدافعة عن الدين الإسلامي والشرق - أن نتفتح هذا الباب مرة أخرى لنفحص علله وضارته فنقول : إن المشاورة في الأمر هي المشاركة في الآراء للحصول على النتائج النافعة لاقتنائها أو الضارة لاقتنائها . ولن تكون كذلك إلا من أهل الحكمة والفقه والتقوى والأمانة قال تعالى « فاسألوا أهل الذکر إن كنتم لاتعلمون » وروى البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما جئت الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان - أي وزيران - بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه وبطانة تأمره بالنهي وتحضه عليه فالمصوم من عصم الله تعالى » قال في الصطواني فيؤخذ من هذا الحديث مشروعية أن يكون عند الحاكم أهل مشورة من أهل التقوى والعلم والأمانة اهـ .

وقد استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم خواص أصحابه في غزوة بدر ثلاث مرات ولم يستشرهم كاهن . وفي ثالث مرة قال له زعيم الأنصار سعد بن معاذ : يا رسول الله كأنك تمرض بنا ولعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقا عليها ألا تصيرك إلا في ديارهم ، وإني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم فانظروا حيث شئت وتخذ من أموالنا ما شئت وأعطنا ما شئت وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت ، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تابع لأمرك فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من عمان لسيرن معك ، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر حضناه معك ، وقال له المقداد : لا تقول لك كما قال قوم موسى لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ولكننا نقاتل عن يمينك وعن شمالك ومن بين يديك ومن خلفك ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لهم « سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين وإني قد رأيت مصارع القوم اهـ » .

وروى البخاري « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حين أذن له المسلمون في عتق سبي هوازن وكانوا جاءوه مسلمين يطلبوا منه أن يرد عليهم سبيهم وأموالهم ، فمن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما ينفي الله علينا فليقبل فقال الناس قد طيبنا فقال صلى الله عليه وسلم إني لا أدرى من أذن منكم ممن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم فرجع الناس فكلهم عرفاؤهم فرجعوا (أي العرفاء) إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه أن الناس قد طيبوا وأذنوا له أن يتق السبي اهـ من القتيبي . وكان هؤلاء العرفاء زعماء المجاهدين وكلمتهم نافذة ولم يرجع العرفاء لكافة المسلمين في هذا الحكم الذي بل إلى البعض ويشترط في العريف أن يكون كفوا عالما فطنا وقورا له رأى بارز لأنه عضو عامل في المملكة كالعضو المامل في الجسد ولكل عضو من الجسد خاصية يمتاز بها عن غيره قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد هممت أن أبعث إلى الأمم رجلا يدعوهم إلى الإسلام ويرغبونهم في الدين فأبعث ابن أبي كعب وسالم مولى أبي حذيفة ومعاذ بن جبل كما فعل عيسى ابن مريم عليهما السلام فقالوا يا رسول الله أفلا تبعث أبا بكر وعمر رضي الله عنهما فقال صلى الله عليه وسلم هما لا بد لي منهما ، هما مني بمنزلة السمع والبصر اهـ يعني أن يستشيرهما في الأمر وهما خواص من خواصه في الشورى ولو كانت عامة لاستغنى عنهما بغيرهما .

وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله يرضى لكم ثلاثا : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأن تتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وأن تناصحوا من ولاء الله عليكم » رواه مسلم والناصح هي المشاورة في الأمر ، والناصح لا يكون جاهلا أو مفسدا . وقال صلى الله عليه وسلم « العرافة حتى ولا بد للناس من عريف والعراف في النار » رواه أبو داود ، قال في القتيبي (قوله) والعراف في النار يشمر بأن العرافة على خطر ، ومن يشرها غير آمن

من الوقوع في المخطور وترك الإصناف للنفى إلى الوقوع في المصيبة فلهذا يجب أن يكون من ذوى الأمانة والعلم والتقوى .

ولما طعن سيدنا عمر رضى الله عنه قيل له استخلف ، قال إن هذا الأمر شورى بين ست رهط من قريش وأرسل إليهم وهم على بن أبي طالب وعثمان بن عفان وطلحة بن عبد الله (وكان غائباً) والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وحينما اجتمعوا لديه (ماعدا طلحة) قال يامشر المهاجرين الأولين إنى نظرت في أمر الناس فلم أجد فيهم شقاقاً ولا نفاقاً فإن يكن بحدى شقاق ونفاق فهو فيكم تشاوروا ثلاثة أيام فإن جاءكم طلحة إلى ذلك وإلا فأعزم عليكم باق لا تضرقوا من اليوم الثالث حتى تستخفوا أحدكم فإن أشرتم بها إلى طلحة فهو لها أهل وليصل بكم صهيب هذه الثلاثة أيام التي تشاورون فيها فإنه رجل من الموالى لا ينازعكم أمركم وأحضروا معكم من شيوخ الأنصار وليس لهم من أمركم شيء وأحضروا معكم الحسن بن علي وعبد الله بن عباس فإن لهما قرابة وأرجو البركة لكم من حضورهما وليس لهما من الأمر شيء ومحض رأيي عبد الله مستشارا وليس له من الأمر شيء . ثم قال : إن الناس لن يبدوكم أبها الثلاثة (يعنى عثمان وعلياً وعبد الرحمن) ثم قال : فإن كنت يا عثمان في شيء من أمر الناس فأتق الله ولا تحملن بنى أمية وبنى أبي معيط على رقاب الناس وإن كنت يا علي فأتق الله ولا تحملن بنى هاشم على رقاب الناس وإن كنت يا عبد الرحمن فأتق الله ولا تحملن أقاربك على رقاب الناس ومن تأمر من غير إمرة فاقتلوه اه .

فحضر سيدنا عمر الشورى في ستة رهط فقط والنس منهم إحضار بعض من يوثق بأرائهم وتلتبس بركانهم مع أن الأمر في الخلافة هو أهم ما يستشار له وبهم به كافة المسلمين اه .

أمين إبراهيم الأزهرى

اللطيفة السابعة

في قوله تعالى « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » الخ

لقد عرفت مجمل ما قاله العلماء في الآلام التي تصيب الأطفال والبهائم والإنسان . وأزيد الآن أن بعض علماء الإسلام يقول : (إن الأطفال والبهائم لا تألم) وهذا القول قال به بعض علماء أوروبا من الفلاسفة وعملوا تجارب على ذلك ومنهم فيلسوف ألماني عظيم كان يقطع عضوا من أعضاء الكلبة بلا شفقة ولا رحمة وهي ترضع ولدها ولم يلبها قطع رجلها عن إرضاعها ولدها فكان هذا بعض أدلتهم . ولأذكر لك الآن طرق النوع الإنساني في حال الإنسان . فإن القرآن قد فتح المجال ليرقى العقول . اعلم أن أمم الهند ترى أن الناس بعد الموت يقون في حال أشبه بما كانوا عليه في الدنيا من الأخلاق فإن كانوا أشرار عاشوا عيشة بطريق التناسخ تكون عقابا لهم . والأخيار يعيشون في حال أجمل حتى إذا خلصوا من المادة رجعوا إلى ربهم .

إليك خلاصة ما أثبتته العلامة (جاكوليو) و (ديبوا دى جانسيفي) و (هالهدوسيسيه) و (برونوف) و (روديه) و (بونسن) وكثير غيرهم . أثبت هؤلاء أن المهنود تركوا تماثيل عجيبة وفلسفة وحكمة . وبما كانوا قد اعتادوه أنهم كانوا يؤرخون موت ملك أو انتخاب (براهمانا) أى بابا البراهمة . أن يسطروا على كتاب خاص النقطة التي يلفها الشمس في منطقة فلك البروج في الدرجة والدقيقة والثانية . يقول مؤلف الكتاب : إن معنى هذا أنهم كانوا يراعون مبادرة نقطة الاعتدال التي تتقدم كل نحو

ألقى سنة برجا واحدا. وفي نحو (٢٥) ألف سنة (١٢) برجا. ويقول علماء الهند إنها (٣٦) سنة لا (٢٥) سنة فلنرجع إلى ما نحن فيه فنقول :

إن هؤلاء الهنود لهم أربعة أسفار مقدسة عندهم ، يقولون إن الله واحد ، قوام بذاته . موجود في كل الكائنات لاتصيه الحواس للمادية . بل الروح وحدها وهو المزمع عن كل ما يرى .

وقال كولوكا الهندي : « إن المؤمنين الأقدمين مع أنهم ألخوا الطبيعة للتعددية لم يعتقدوا إلا إلها واحدا مبدع الكائنات ، أزليا غير مادي حاضرا في كل مكان . منزها عن كل كدر وهم . وهو الحق بذاته ومنبع كل عدل وحكمة . مدبر الكل ، والمرتب نظام العالم . لاشكل له ولا صورة ولا حد ولا نسبة » .

وكان البراهمة يقولون لمن دخل عندهم في الدرجة الثانية هكذا : « يابن إنه لا يوجد إلا إله واحد فقط رب الجميع ، وعلو للكائنات ، والواجب على كل برهمي أن يعبد في الباطن . وهذا سر يجب عليك كتمه عن العامة والجهال » .

ومن تعاليمهم : « إن الكائنات نشأت من الله ، وإلى الله سوف تعود بواسطة الترقى والنشوء الدائم . والنفس عهد انفصالها من البدن لانفقد المادة تماما وإلا لهلك في السكون العظيم ، بل يبقى لها جسم مصوغ من النار ، والإنسان شرارة أو شعاع من النار الإلهية تبقى مع جسمها اللطيف البهيم ، ثم بعد زمن تتجدد بجسد جديد منظور عند ما يأتي وقته » ا هـ .

فانظر وتعجب كيف وحدوا الله كما نوحده نحن ، وكيف يقولون : « إن الميت تكون روحه في جسد نارى بهى جميل » ولعل هذه النفس هي الصالحة وتكون الشقية معذبة بذلك الجسم النارى ، كما أن حرارة الشمس تنفعا تارة وتؤذينا تارة أخرى . وانظر كيف يقولون : « إنه يرجع بعد زمن جسما منظورا » وهذا هو البعث عندنا في دين الإسلام إما إلى جنة وإما إلى نار على حسب الأعمال . وكانت لهم عبادة قلبية وأخلاق ذكرها (مانو) المشرع الفيلسوف قبل موسى عليه السلام بآلاف السنين : « الصبر ومقابلة الإساءة بالإحسان ، والقناعة ، والاستقامة ، والطهارة ، وكبح جماح الحواس ، ومعرفة الكتب المقدسة ، ومعرفة الله ، والصدق : واجتناب الغضب » . فهذه هي الوصايا العشر عندهم . وبها يخرج الإنسان من العذاب بعد الموت .

وكان للهنود نساك ينفردون في الغابات . ويعبدون الله . ويفسرون الكتب الدينية . ويعرفون أسرار الطبيعة ، ولهم بقية الآن . وعلى هؤلاء تعلم (خريستا) وهو أول مؤسس دين ظهر في التاريخ سنة ٤٨٠٠ قبل الميلاد المسيحي ، فهناك بعض تعاليمه مما يخص ما نحن فيه أو ما يقرب منه . قال : « إن الجسد فيه النفس وهو زائل وهي باقية ، النفس سرمدية لاوزن لها ، وتصيبها بعد الموت يرجع لسر التناسخ إذا انحل الجسد عن الروح ، فإن غلبت الحكمة على النفس طارت إلى الأقطار العلوية ورأت الله . وإن كان الهوى متملكا رجعت إلى الذين هم متعلقون بالأرضيات . والمولود شقيا كان أو سعيدا نتيجة عمل سابق » .

وهنا سر أعظم من هذا ، وهو أنه « من رام بلوغ الكمال فليكتب علم الوحدة التي هي أجل من الحكمة أى يلزمه أن يتعالى إلى الكائن الأسمى الذى هو فوق النفس المستقر في كل منا ، إن في باطنك صديقا إليها لاتعرفه لأن الله مستقر في باطن كل امرئ » ، ولكن قل من يعرف أن يعبد ، فمن يضحى رغباته وأعماله للكائن الأزلى الذى منه نشأت مصادر الأشياء كلها وبه تكون العالم ، ينال بهذه التضحية الكمال لأن من يجد في ذاته سعاده وفرحه ونوره فهو واحد مع الله ، فاعلموا إذن أن النفس التي وجدت الله تعنى من المولد والموت والشيخوخة والألم وتشرب من ماء الخلود » :

ثم جاء قبل التاريخ المسيحي بستائة سنة (بوذا) المسمى (ساكيا موني سودوا دانا) ملك كايلافاستو فلما بلغ العشرين من عمره أخذ يتأمل في حال شعبه ، وما دخل في الدين من الطقوس والحرافات ، وله وصايا عشر وتعاليم أشبه بما تقدم ، ووصاياه هي :

« لا تقتل . لا تسرق . كن عفيفا . لا تشهد بالزور . لا تكذب . لا تحلف . تجنب كل كلمة عجة .
كن خالي الفرض . لا تأخذ بالتأثر . لا تعتقد اعتقادات باطلة » ٥١ .

لملك تقول : ها نحن أولاء اطلعنا على الدرجات الثلاث لدين البراهمة ، لما فائدة ذكرها هنا ؟ أقول لك ذكرتها لتنظر في تعاليم الأمم وتفكر في العقائد والأخلاق ، انظر إلى عقيدة التناسخ فإن الدين القديم قبل ظهور (خریستا) لا نص على التناسخ فيه ، بل قال إن الروح لها جسم نارى هبى وتبقى أمدا حتى تلبس جسما منظورا متى قضت بذلك شريعة الله ، ولم يقل : بما بعد جسم ، فلا تناسخ ولا أجسام . فهذه الشريعة أشبه بشريعة الإسلام إذ جاء فيها : «إنا نعذب أو نتمم إلى يوم البعث ويكون لنا أجسام منظورة» .

ثم انظر . لما جاء خريستا ، ماذا فعل ؟ تكلم عن التناسخ . أى أن الإنسان بعد الموت إذا كان مذنبا يدخل في جسم أرضى ويحيى مثل ما يحيى نحن . ويحتر هذا قضاء لذنوب ارتكبها . وكل مصيبة تصيبه تكون لأجل ذنب مضى .

انظر كيف يتوسع صاحب الدين التأخر في المعنى الذى قاله المتقدم : ثم انظر من جهة أخرى إلى وصايا (خريستا) وإلى وصايا (بوذا) ، فوصايا خريستا أرق لأنها ترجع إلى العلم والأخلاق الباطنة ، ووصايا بوذا ظاهرية كالخلف وما أشبهه . فكان القوم أيام (خريستا) كانوا أرق ، وانظر إلى أمنا الإسلامية كيف كان الصحابة والتابعون رضوا الله عنهم يراعون البواطن من الإخلاص والصدق ، وكيف تأخر المسلمون اليوم فلم يعرفوا إلا العبادات الظاهرة وأكثرهم عن البواطن معرضون فلا يحاسبون عليها .

ثم انظر نظرة إجمالية في قول الهنود : «ان الله في باطن كل امرئ» وانظر كيف يقول الله تعالى : «وهو الله في السموات وفي الأرض» ويقول «وهو معكم أينما كنتم» وكيف يقولون : «إن الإخلاص لله هو الذى يعتقنا من المذاب» وانظر إلى القرآن كيف كان كله على هذا النمط .

ثم انظر إلى علماء الإسلام رحمهم الله تعالى ووازن بين آرائهم وآراء الهنود لتقف على الحقائق : انظر كيف يقول علماء الهنود للتأخرون فيما تقدم : (إن المولود يكون على حسب ما كان له في التجسد السابق . إن كان شريرا يكون هنا في ذل ، وإن كان صالحا يكون في حال سعيدة) .

وانظر إلى علمائنا رحمهم الله تعالى كيف نظروا الآية التى نحن بصددها وهي «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم» الخ ؛ فقال قوم منهم ، (إن الإسلام لا تناسخ فيه) وهم جمهور الأمة ، لحصول هذه المصائب ليس بذنوب سابق وإنما هو امتحان وتكليف لاعتقوبة ، ومعنى قوله تعالى «فبما كسبت أيديكم» أى إن الأصلح عند إتيانكم بذلك الكذب إنزال هذه المصائب عليكم لأن الدنيا ليست دار جزاء بل هي دار تكليف .

وقال أهل التناسخ من أمة الإسلام : (إن هذه الآية تنفيذ للتناسخ ، ألا ترى أن الأطفال والبهائم يحصل لهم الألم فلا بد أن يكون لهم وجود سابق ، والألم نتيجة ما كانوا عليه سابقا) .

وقال الذين ينفون التناسخ : كلا . فالبهائم والأطفال لا ألم عندها . والقول بالتناسخ فاسد .

وقالت طائفة : (دعونا من هذا كله) يقول الله «فبما كسبت أيديكم» هذا الخطاب للعقلاء ، فأى دخل

للبهائم والأطفال ! .

﴿ رأى للؤلؤ ﴾

اعلم أن الأمم من هنود ومسلمين وغيرهم إنما يكامون الناس على قدر عقولهم حتى نفس الأرواح كما سيأتي وإلا فالنتيجة واحدة . وإيضاحه أنه إذا فرضنا أن الناس كان لهم وجود سابق وأذنبوا فيه . فما الذنب إلا من النقص في النفس . ولو كانت كاملة ما أذنبت . فلو قيل نقصها نشأ من الذنب السابق تقول يلزم التسلسل وهو مستحيل . فالأصل هو النقص ، والله سبحانه وتعالى يرقى النفوس بالألم كما يرقبها بالعلم والعمل وغاية الأمر أن علماء الأمم لا يريدون أن يزيدوا على ما ورد في كتبهم والله أعلم .

﴿ آثار هذه الآية في الأمة ﴾

عن الحسن رحمه الله قال : دخلنا على عمران بن حصين في الوجع الشديد فقيل له ، إننا نغتم من بعض ما نرى فقال : لا تفعلوا فوالله إن أحبه إلى الله أحبه إلى ، وقرأ « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » فهذا بما كسبت يداي ، وسيأتي عفو ربي اه .

ولعلك تقول . وما رأيك في هذا المقام ؟ أقول لك : أمارأي الذي ألقى الله عليه فهو أمر عام واحد لا غير وهو أن النفس الشريرة تلاقى الملائكة . والنفس الفاضلة تلاقى خيرا ، وهذا هو المعبر عنه بجهم والجنة ، وجهم ليست خاصة بالنار بل ورد فيها الزمهرير ، وقال بعض الصحابة رضى الله عنهم . « إنهم يحرقون بالزمهرير كما يحرقون بالنار » وهو عجيب جدا لأن العلم الطبيعي أثبت هذا وهو أن البرد الشديد يحرق الأجسام كالنار وهكذا فيها الحيات والمقارب . وجميع أنواع المذاب الروحي والجسمي ، والجنة بالعكس فيها جميع أنواع اللذات يقول الله : « فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين » ويقول : « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » .

فالمسلم عليه أن يعتقد الاعتقاد العام وهو سهل بسيط أن يفعل الخير بقدر الإمكان ويحترس من الشر ويرتقب رضا الله .

رأى الأرواح

واعلم أن العلماء الذين يحضرون الأرواح برونهم مختلفين في هذه المسألة فمنهم من يقول هناك تناسخ ومنهم من يقول : كلا وهذا إما أنهم حججوا عن الحقيقة وإما أنهم عرفوا : ولكن كل يعطى تعامله على حسب ما يرى من السامع . ونحن نقول : مالنا ولهذا كله لانهمم بالتفصيل فلنجد لنخلص من المادة ونرجع إلى الله ونخلص نفوسنا من الطمع والغل والحسد وما أشبه ذلك وعملاً القلب بالمعارف والعلوم اه

﴿ اعتقاد قدماء المصريين ﴾

إن اعتقاد قدماء المصريين مشتق من اعتقاد الهنود وكما رأيت أن (خريستا) صرح بالتناسخ ولم يكن صريحا في دينهم القديم لأن الشعب كانت حاله تقضى أن يقال لهم ذلك ، رى قدماء المصريين لما أخذوا هذه العقيدة ألبسوها لباسا آخر ، فماذا فعلوا ؟ اعتقدوا أن الروح لها جسم ، وهذا الجسم اسمه (خات) وبعد الموت يتحول إلى جسم روحي (سمجو) وهذا الجسم يعيش مع اللاشك في السماء . وبالاختصار الإنسان عندم :

- (١) جسم فان .
- (٢) جسم روحي .

(٣) قلب .

(٤) ازدواج .

(٥) نفس .

(٦) ظل .

(٧) روح (أى مادة أثيرية لطيفة مضيئة غير ملموسة) .

(٨) (شكل إلهي) .

(٩) اسم .

ويقولون : (إن الإنسان بعد الموت يأكل مواد لاتعفن ، ويشرب خمرا لا يفسد) وبالجملة فعقيدتهم أشبه بالقرآن من حيث النعم .

﴿ فتوح الرحمن الرحيم ، ونور الدين الإسلامي ﴾

انظر أيها الذكي تعجب من أمر الأمم ودين الإسلام ، انظر واضح لما أقول ، وتعجب من العلم وكيف أضاء الله للمسلمين الدنيا ، وأشرفت الأرض بنور ربها .

ألا تتعجب معي فيما أقول لك ؟ أقول لك مافتح الله به الآن فقط . أنا الآن أقرأ ماسطره علماء أوروبا يوم (٢١) أغسطس سنة ١٩٢٤ ومنه مقالة عن عقيدة قدماء المصريين . انظر كيف جاء فيها أن شريعة التحنيط إنما جاءت سنة ٤٥٠٠ قبل الميلاد ، وانظر إلى ما ذكرته لك ، وهو أن (خريستا) جاء قبل المسيح بنحو سنة ٤٨٠٠ وتأمل ماقلته لك ، وأن التناسخ لم يكن مصرحا به في كتابهم المقدس وصرح به (خريستا) . وانظر إلى قدماء المصريين . فإنهم استعملوا التحنيط خمسة آلاف سنة أي من سنة ٤٥٠٠ قبل الميلاد إلى سنة خمسمائة بعد الميلاد . أفلا ترى معي أن عقيدة (خريستا) انتقلت إلى مصر في ثلثمائة سنة وأنهم فهموها فهما مكوسا فقالوا : « إن الإنسان إذا مات يبقى زمنا طويلا في السماء منعا ، أو في الجحيم معذبا . وذلك بما غلب على نفسه من صلاح أو طلاح » مثل ما قال البوذية سواء بسواء ، ولذلك جعلوا هناك ٤٢ قامنيا ولهم ميزان يزنون به قلب الميت وأعماله فتغلب الحسنات أو السيئات ويكون الجزاء على مقتضى تلك الغلبة كما رأيته في تعليم الهنود وكما جاء في القرآن سواء بسواء . فكأن العالم كله يفهم شريعة متشابهة من حيث الأصول . ثم انظر كيف يقول الهنود قبل المسيح بأربعة آلاف وثمانمائة سنة : (إن الإنسان يرجع بعد أمد إلى الأجسام ويولد ثانيا ، ويكون في حال على مقتضى حياته السابقة ، ولا يزال يعود مرارا حتى يظهر وبعد ذلك يرجع إلى الله مع اللأ الأعلى) .

وقد قلنا لك إن هذه جاءت من (خريستا) لا بمن قبله أشبه بيدة دينية . ثم انظر كيف نقلها المصريون بعد ثلثمائة سنة محرفة . فقالوا : (يرجع الإنسان إلى جسمه الأصلي) .

يا عجبنا ! إن الأمم تأخذ العلوم على مقتضى أخلاقها . قد كان قدماء المصريين يعالجون عظام موتاهم بالبقار لأجل حفظها من الفساد ، فلما سمعوا هذه الفكرة عن الهنود قلبوها إلى عادتهم وقالوا : يرجع الإنسان لنفس جسمه الأصلي ، فأخذوا يحنطون الأجسام خمسة آلاف سنة .

إياك أن يبهرك الفلسفة والعلم والحكمة عند قدماء المصريين ، فنقول : لم خرفوا ؟ فاعلم أن فلاسفة كل أمة ينشأون على العقائد التي عندهم ، فإذا رأيت الزخرفة والنقش والحكمة ، وما أذاعته الجرائد عن قبر الملك (توت عنخ أمون) وأن فيه مسرجتين من مرمر لما أوقدوا المصباح فيهما ظهرت صورة الملك والملكة بألوان باهرة ، فلما انطلق المصباح ظهرت المسرجتان بمحلهما تماما لاصورة فيهما ، وقد قيل إن هناك (٣٠)

صندوقاً محتومة بفتح الملك لم تفتح ومستفتح فيها بعد ، والسائحون من سائر أقطار العالم يمدون على بلادنا لمشاهدة هذه العجائب

وظهر في آخر مجوار الهرم على بعد (٣٠) متراً من سطح الارض ، ويقال إنه كشف عظيم الأهمية أقول : إذا سمعت ذلك فلا تدعش لأن الأمم كلها أشبه بعالم عند صاحب العقيدة . فترى الفيلسوف والصانع والأمير والزارع ، كل هؤلاء ينطقون بفكرة واحدة . أعني أن أكبر فيلسوف عندهم لا يقدر أن يقول إن هذا خرافة بل يقدره كما يقدره القوم . والمهندس والصانع وأمثالهما . كل هؤلاء يتقنون الصناعات وهم عند الفكرة الدينية أشبه بحاشية الملك والرعيه كلهم يقدرونه ولو كان فاسقاً وبطيحونه . هكذا عقيدة التناسخ التي ظهرت في الهند وغيرت وجهها في مصر إلى رجوع النفس إلى جسدها تقبيل أمداء طوبى لاحق جاء دين المسيح ودين الإسلام فغيرت العقيدة

تميش الأمم آلاف السنين ولا تترشح عن عقائدها . حتى إذا جاء مصلح غيرها ، فهاهنا جاء الإسلام ونزل في القرآن أننا بعد اللوث نذهب أو نتم ، وأنا نحشر على مقتضى سابق حياتي ، وأن منا من ينظرون ربهم . ومنا من يحجبون عنه وهكذا . فلم يذكر رجوع الجسم للولادة مرة أخرى ولا رجوعه لجسده ثانياً ثم انظر إلى الأمة الإسلامية كيف احتجبت أظفارها الآن عن أسرار الكون وبدائمها وغاب عنها ذلك وتشبثت بالوقوف على الظواهر ، وأن الله اليوم يريد رجوعها إلى أصل دينها ، وما أصله إلا النظر في عجائب العلم والحكمة ، ودراسة الكون الذي نسكنه حتى نلاق ربنا ونعمن نعرفه ونحبه ، ونكون في الدنيا قد قضينا ما علينا لأمتنا وللأمم حولنا ، فإننا نحن - خير أمة أخرجت للناس .

ليكن السلم خليفة الله ، ليكن العالم كله تحت رعايتنا . لنسكن خلفاء الله فندرس نظامه ونكفل عباده لأنهم إخواننا ، فمن دخل في ديننا فيها ، ومن لم يدخل أعناه ، ورعايتنا وأحفظنا ، وإن اعتدى أديناه ، هكذا جاء ديننا ، ولرجع إلى أخلاق السلف الصالح من الشفقة والإخلاص ومراعاة أحوال القلوب ، وذلك هو الذي يرى إليه الإسلام ، بل هو مستقبل الإسلام وللسلمين .

(سؤال ورد على المؤلف)

ولما وصلت إلى هذا المقام . قال لي أحد الفضلاء : كيف يحفل أن يحفظ المصريون موتاهم بمجرد ما سمعوا التناسخ عن (خريستا) بالهند . قلت له : إن للقوم قصة خيالية لهذا الغرض قد تقدم ذكرها في هذا التفسير ، يزعمون أن (أوزيريس) كان عبداً للمصريين ولنوع الإنسان كله ، وأخذ معه (توت) وسار بجيوشه وفتح الأرض كلها باللطف لا بالحرب ، فلما رجع إلى مصر حسده أخوه (سيت) ، فصنع صندوقاً جميلاً ، وصنع وليمة ، وقال : من كان هذا الصندوق على قدر جسده فليأخذه لنفسه ، فكان ذلك على قدر (أوزيريس) فأطبق الصندوق عليه خيابة ورموه في النيل ، فقامت زوجته إيزيس وجزعت وقصت شعرها وبجحت عن الصندوق فوجدته على شاطئ فينيقية ، فأزلوه في سفينة إلى آخر ما تقدم ، وإنها وضعت عند نهاية ، فمر عليه (سيت) فقطع أخاه أربع عشرة قطعة ودقها في مواضع كثيرة ، ثم جمعها وحفظها وهنا بيت القصيد ، فكون إيزيس حنطت أوزيريس زوجها التي أثارت هذه الثائرة . ولكن التي أقول إن هذه الخرافة لا تكفي في هذا العمل الشاق ؛ فلابد أن تكون العقيدة هندية لامتداد التاريخين . فأما هذه الخرافة فهي لا تستبد أمة بتامها . انتهى والله أعلم .

اللطائف العامة للسور كلها^(١)

اللطيفة الأولى

بهجة العلم في الحكم للودعة في بسم الله الرحمن الرحيم . حم . عسق .

بدائع أسرار التنزيل

(بسم الله الرحمن الرحيم)

في ليلة الجمعة ٣١ أكتوبر سنة ١٩٣٠ استيقظت قبيل الفجر . ولكني لم أستطع أن أقوم بعمل ما من عبادة أو علم لعارض جسمي طارئ على ، فغلب لي كآتي انسلخت من هذه العوالم المادية ، وكأني أنظر إلى المجرات وشموسها ، والسدم وأحوالها . ولا جرم أن الخيال نكل امرئ لا يبدو ما عرفه . ونحن نعرف أن مجرتنا التي شمسا فيها قد عرفت الأمم أن شموسها بحسب ما وصل إليهم تبلغ عشرة آلاف مليون شمسة وهذه مجرة واحدة من آلاف الملايين منها . وهكذا خيل لي أيضا أنها كلها دوائر وحولها سياراتها وأراضيها وأقارها . وكل شمسة لها حركة خاصة كما أن كل سيار له حركة خاصة حول شمسه وكل قر حول الكوكب السيارة فإذا اجتمعت هذه كلها مرة واحدة ولا حظها الإنسان خيل له كما خيل لي أن العالم كله موشبيخ فوق ما يتصوره المفكرون . ونفحات بهجات فوق ما ينتهج به اللبثجون .

الله أكبر . هنالك ازددت في الخيال تعمقا . وتوغلت النفس في صورها . وابتعدت عن العالم المحسوس إلى عالم الخيال المحض ، فهناك هنالك خيل لي كأن إنسانا تراهي لي ، وجسمه من النور ، ولكن له جميع خصائص الإنسان الجسمية ، إذا هو يمدق بصره إلى ؛ فأخذ فكري يجول في أمره ، وفي نظراته ، وفيه يتفرس من أمرى ، وأى الأمور يريد أن يحدثني بشأنه ؟ فابتدرني قائلا : (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) فقلت : خبرني ماذا تريد رحمتك الله ؟ فقال : أحدثك في أمر نفسك وأمر المسلمين في الأرض ، فقد اتبع خيالك عقلك ، وراح يجول في ساحات واسعات ، وباحات صفت فيها الصور ، وظهرت فيها الحكم ، وبهر النور ، هذا الخيال الذي تبدي لك اليوم تابع لما قرأت من كشف الحقائق ، ولكن هناك بعد مفارقتك هذا البدن ستري ما هو أعجب وأبدع ، نظراً حقيقياً لا خيالياً ، وإذا كانت للسرة التي تحس بها نفسك الآن تكاد تكون فوق طاقتها ، فذلك لأنها محبوسة في المادة ، ولكن إذا انطلقت منها ستحتمل من اللذات ما لا يحده ويكون ذلك على مقتضى العلم ومقتضى العمل « ولكل درجات مما عملوا » .

أنت الآن تتخيل للوسيقى في العالم العام تخيلاً وهناك سيكون ذلك حقيقة . فقلت وكيف تقول إن هذا العالم موسيقى ، وهل هذا للنظر الذي يخيل لي له مناسبة ما بالسور التي تطبع الآن في التفسير ؟ إن الله عز وجل عودني أثناء طبع هذا التفسير أن لا يمر بخاطري فكر قويم إلا كان مناسباً أشد مناسبة لما أنا صده فهل هذا الخيال من هذا القبيل ؟ فقال إى وربى . فقلت : وكيف ذلك ؟ قال : إن هذه الناظر سيتجلى بها بعض أسرار « بسم الله الرحمن الرحيم . حم . عسق » : فإزداد عجبى ! وقلت : فلا تركني يرحمك الله . فقال : كلا لا أتركك فاستبشر وقر عينا ، فإني مرسل من عالم آخر لأقر عينك في هذا التفسير ولكني لم أحضر في خيالك إلا الآن . فقلت ؛ كيف أعرف أن هذه الناظر مفسرات لما ذكرتم . فقال لأسألك أولاً :

(١) هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف ولم يفتح الله بها إلا عند طبع هذه السورة . المؤلف

- (١) ما صفة الموسيقى عند القدماء .
 (٢) وما هيئتها عند علماء العصر الحاضر .
 (٣) ثم ما صفة الموسيقى في العالم كله الذي تخيلته أنت الآن ، وهل هذا النظام البديع تابع لعلم عالم حكيم أم هو مصادفة .
 (٤) ثم ما نتائج هذه النظم كلها من الرحمة .
 (٥) ومق أحسن العقلاء بالرحمة وعلوها حمدوا مسديها .
 (٦) وهنالك يتجلى معنى البسملة والرحمة فيها ، ويتجلى معنى الحاء والميم والعين والسين والقاف ، إذن في المقام ستة فصول ، فما أنادًا سائلك في :

الفصل الأول والثاني

ما صفة الموسيقى عند القدماء ، وما صفتها عند علماء العصر الحاضر .
 ققلت يا سبحان الله . أنا لست من علماء الموسيقى حتى تسألني هذا السؤال . قال نعم . أنت لست من علماءها . ولكن لك إلمام بها إلماما عليا ، فأذكر ما تعرفه . ققلت أنا أنذكر أن (فيثاغورس) الفيلسوف سمع مطارق حداد فأطربته رنانها ، وسرته مناسبتها ، فوزنها فكانت نسبتها هكذا ٦ و ٨ و ٩ و ١٢ فأتى بأوتار أربعة متساويات طولاً وسمكاً ، وعلق فيها أنفالا على هذه النسبة ، فكانت مطربة مفرحة تشرح صدور البائسين . هذا كان أول ما خطر له ووضعه . فقال هذه العبارة بالحرف من كتابك «الموسيقى العربية» ولكن هناك أمر آخر أقرب من هذا . ققلت نعم . كتاب [إخوان الصفاء] فإن أوتار العود لها نسب غير هذه والأوتار عند القدماء أربعة وهي (الزبر والثلث واليم) وهي مرتبة من أعلى إلى أسفل ، وقد كانوا يظنون أنها مناسبات لسكرة الأثير والهواء والماء والارض بهذا الترتيب ، الأعلى مماثل للأعلى والأدنى مماثل للأدنى ، وقد قالوا :

« إن وتر الزبر مركب من (٢٧) طاقة من الحرير ، والثلث يزيد عليه الثلث فهو (٣٦) طاقة والثلث يزيد عليه ثلث (٣٦) فهو إذن (٤٨) واليم يزيد على ما قبله ثلثه وهو (١٦) فيكون (٦٤) وبهذا انتظمت النغمات وابتهجت النفوس » .

قال هذا هو الذي كنت أريد أن أسمه منك ، هذا في القديم ، فهل تذكر نظير ذلك في الموسيقى الحديثة . ققلت : لا أذكر الآن . فقال عجبا ! تذكر ما في كتابك في الموسيقى وقد مضى على تأليفه سنون ولا تذكر ما كتبت في (سورة مريم) من الموسيقى الحديثة ، ققلت نعم أتذكر الآن أنني ذكرته هناك وهو « إدراك الإنسان للأصوات ينحصر في (١٠) دواوين أي أبعاد كلية موسيقية . فإذا ورد على الأذن (١٦) موجة في الثانية ، فهذا أقل الأصوات ثم ٣٢ - ثم ٦٤ - ١٢٨ - ٢٥٦ - ٥١٢ - ١٠٢٤ - ٢٠٤٨ - ٤٠٩٦ - ٨١٩٢ - ١٦٣٨٤ » .

ومعنى هذا أن أسمعنا تفرح بنظام الحركات بأي شكل كان ، ففي العود العربي القديم تفرح نفوسنا بالنظام اللبي على ازدياد الطاقات بالثلث ويكون ذلك منتظما . وهاهنا تفرح النفس بما تحس من نظام التوالي الهندسية البديعة . فنفسنا هي قديما وحديثا لا تفرح إلا بما هو منظم ، وأقرب شيء لها الأصوات التي يعرفها الجهلاء والعلماء . فقال أحسنت أحسنت ، أعم القول . ققلت : أما نظام الأفلاك وحركاتها وعجائبها ونظام الطبيعة فليس يدركه إلا الأقلون . فقال هذا هو الذي أريد أن أختبرك فيه .

الفصل الثالث

في النظام العام في العالم

فحدثني إذن: هل النظام العام على مثال ما رأيت الآن في الموسيقى القديمة والحديثة. قلت نعم. قال: فاضرب لي أمثالا. قلت:

(أولا) إن أعداد السيارات تتبع نظاما معلوما، فإذا أخذنا الأرقام التالية وهي (٣ و ٦ و ١٢ و ٢٤ و ٤٨ و ٩٦) ثم أضفنا (٤) إلى كل رقم كانت سلسلة متتابعة نضمنا نسبة مسافات السيارات وأجدها عن الشمس وهي (عطارد، الزهرة، الأرض، المريخ، المشتري، زحل) فهي على هذا الترتيب في بعدها عن الشمس أي أنها على مقتضى التوالي الهندسية (وجارة أخرى) هي أشبه بالدواوين المتقدم ذكرها في الموسيقى الحديثة التي يدرسها الفرنيجة الآن في قسم من أقسام العلوم الطبيعية، فأما الأقدمون فكانوا يدرسونها في العلوم الرياضية ولكل وجهة صادقة، فالموسيقى ترجع للصوت أولا وحسابه ثانيا، فالتقدم جعلوها في علوم الرياضة لمكان حسابها، ولتأخرون جعلوها في العلوم الطبيعية لأن الصوت أمر طبيعي لأنه حركات في الهواء.

(ثانيا) إن الحجر إذا نزل من أعلى الجبل إلى أسفل البركان حسابا هكذا: في الثانية الأولى يقطع (١٦) قدما إنجليزية، وفي الثانية الثانية تضرب هذا العدد وهو (١٦) في (٣)، وفي الثانية الثالثة تضرب هذا العدد في (٥) وهكذا (٧) و (٩) و (١١) و (١٣) إلى ما لا يتناهى. وإذا ربعتا الثواني وضربنا المربع في (١٦) يكون الحاصل ما قطعه الحجر جميعه، فإذا مضت ثانيتان ضربنا ٢ في ٢ يساوي ٤ ونضربها في ١٦، وإذا مضت ثلاث ثوان ضربنا ٩ في ١٦ وهكذا، فهذه كلها مضاعفات منطقت كما انتظم ما قبلها.

ثم توقفت عن القول برهة. فقال: فكر فيما كتبت في [سورة الرعد] عند قوله تعالى « وكل شيء عنده بمقدار ».

(ثالثا) وذلك في أمر الصوت والنور والحرارة والجاذبية، فهذه الأربع تقل بمقدار ما يزيد من الحد عن الجسم الحار والجاذب والنير والذي منه الصوت فتذكرت ذلك، وهناك أمثلة تبين المقصود فلم أشأ أن أكتبها هنا خيفة الإطالة، وهناك نظام وحساب في سير الأجرام الفلكية أقرب ما تقدم في [سورة يس] وفي [سورة الزمر] وتجد في [سورة يس] أيضا موازنة ما بين الشعر والموسيقى وحساب الفلك، كل ذلك تقدم موضحا.

فهذه النظم في أعداد الكواكب، وفي سقوط الأحجار، وفي سرعة الأصوات والأنوار الخ تحيط بالمادة وكلها منظمة أنظمة جميلة حساية موسيقية، فإذا ترقينا قليلا رأينا نفس النور على هذا النمط: أي أنه جار على حساب باعتبار ألوانه السبعة، ذلك أن العين لا تتأثر من تجموع الألوان الذي يزيد عدد درجاته في الثانية عن (٧٩٠) مليون مليون، أو ينقص ذلك العدد عن (٤٠٠) مليون مليون. فأقل الألوان وأولها الأحمر وأكثرها تجمعات وآخرها البنفسجي وبقية الألوان بينها، إذن حاسة السمع آلة لسماع حركات في الهواء، وحاسة البصر آلة لالتقاط حركات الأثير فتظهر لها هيئة نور، إن هذه العوالم كلها حساية موسيقية عجيبة. فما وافقنا سميناها جميلا لذيذا، وما لم يوافقنا سميناها قبيحا مؤلما، فهذه الحركات في الهواء المحصور ما بين التهايتين الكبرى والصغرى فيما تقدم، وهكذا عددها المحصور ما بين التهايتين

في الضوء كلاما قد أحدث آثارا في أسماعنا وفي أبحارنا ، والسألة زجع إلى نفس الآلة ، وهكذا تحول في نعومة الحرير وخنونة الخيش ورائحة الورد والروائح الكريمة وطعم التفاح والحنظل ، فهذه منها السكره ومنها المهبوب ، ولا حبه ولا صكره إلا على مقتضى اللامه والنافرة ، ولا ملامه إلا على حسب النظام المصوب حسابا جاريا على قوانين توافق حواسنا ، ولا منافرة إلا على مقتضى اختلاف القوانين المذكورة فإذا هذا العالم كله إلا حركات ، وغاية الأمر أنها باعتبار الآلات القابلة فينا أصبحت هذه نورا وهذه صوتا وهذه رائحة وهذه ذوقا الخ .

ألا ترى رطاك الله إلى ما قررناه سابقا أن كل الجوامد وكل السوائل مثلها كمثل الأنوار في أنها حركات وتلك الحركات تمثل لنا أجساما وأنوارا ، ومن الأجسام سوائل وجوامد وغازات ، كل هذا واضح في مواضع كثيرة من هذا التفسير

فما مع ذلك . قال : أحسنت كل الإحسان ، فلنشرع في الكلام على :

الفصل الرابع ، والخامس ، والسادس

وهو الكلام على نتائج هذا كله وهي الرحمت ، ثم ما يترتب عليها من الحماد

بمعنى الحياء والليم ، والمين والسين والقاف .

قلت : أما هنا فإني أرجو أن تفتح لي الباب حتى أفهم هذا اللقاه . فقال انظر انظر بالبصيرة ، فنظرت . فقال ما ترى ؟ قلت أرى المجرات والشموس والسيارات كلها كأنهن حفلات ذات بهجات ، وكأن النور انقلب أصواتا ونغمات ، بل هذه المجائب أقد عند عقلي من أن أسمع نغمات العود والغاني ، فهأنا جمال وإبداع وحسن وكمال . فقال من الذي يدبر هذه الكواكب ؟ قلت : نفوس عالية وهي الملائكة . فقال فإذا سألت أهل الأرض وقالوا لك ما البرهان ؟ قلت : أقول لهم قد تقدم في سورة (حم السجدة) عند آية « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة » الخ أن النبات على قسمين . قسم يحل للواد في الأرض . وقسم يركبها فالحلل للواد هي (الفطر والبكتريا) وهذه وإن جلب بعضها الأمراض فإن أكثرها لولاء لم نمش يوما واحدا لأنها تخضر الأغذية في خبايا الأرض وتجهزها للنبات الذي بقينا ، بل أزيد على ذلك أن هذه الفطر (بضم الفاء والطاء) ونحوها تعيش في الأمعاء الغلاظ تربيص الأغذية التي تمر في الجهاز الهضمي وقد عجز عن هضمها أنواع الماضيات من البناسيع الستة التي في الفم ومن البسكرياس ونحوها ، فتلقاها تلك الفطر التي لا تراها الميون ، فتحلل ما بقي فيكون بذلك تمام أغذيتنا ، ولولا هذا لم يكمل غذاؤنا ، بل نموت جوعا وإن كنا آكلين . فإذا كان غذاء النبات وغذاء الحيوان وغذاء الإنسان لا يتم الارتفاع به إلا بهذه المخلوقات التي لا ترى وما كان أحد في الخلق يظن أن ذلك يحتاج لفاعل يفعله فكيف تكون شموس وكواكب وأرضون وأقمار ومجرات تجري ولا مجرى لها ؟ فإذا كانت الأمراض كالسكريا والنيفوس والجدرى ، وإذا كانت الأغذية كل هذه لفعلها أسباب موجودة ، فكيف يحتاج أحقر المخلوقات إلى فاعل ولا يحتاج أعظمها إلى فاعل ؟ إن ذلك يخالف العقل وللنطق والصواب .

وعليه أقول : إن هناك ملائكة هي التي تدبر هذه الكواكب والمجرات والشموس وبسبب هذا الدوران المختلف حصلت لنفسى مسرات أكثر مما تسرها نغمات اللوسيقار : فقال : حدثني ، أهؤلاء ليس لهم قائد ؟ قلت بلى وهو قاهر فوقهم . فقال إذن أنت فهمت الجواب . قلت لم أفهم . فقال بل فهمت والله ، ألا تذكر أن الرحمة في البسمة . قلت أذكرها ، فقال هذه الكواكب والموالم هي آثار هذا النظام والحساب فهي رحمت والرحمة لا تكون إلا مع علم كما تقدم في آية « ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما » ، فالرحيم

لا تتم رحمته إلا إذا كان علما بمواضع الحاجات لمن يرحمهم . قلت أي وربي . قال الحاء والميم في (حم) تذكرة بالرحمة أولا وتذكرة بالحمد ثانيا ، ألا ترى أن مبدأ المخلوقات علم الله ، ثم إنه على مقتضى العلم خلقها ، ولما أحسننا بالنعمة وعدلناها حمدناه . قلت حسن . قال هذا هو ملخص الآيات ، علم الله فرحة منه فملنا حمدنا ، الرحمة في البسمة والحمد في قوله « يسبحون بحمد ربهم » فالرحمة مبدأ والحمد نهاية ، ولا رحمة إلا مع علم ولا حمد منا نحن إلا مع علم . ثم إن هؤلاء الملائكة المدبرين لهذه الكواكب مسكنهم في السموات ، وهم عارفون بجلال الله فهم يسبحون (السين) وبهذا زل الوحي وهو القرآن (القاف) وملخص هذا أنك لما تخيلت هذه العوالم :

- (١) عرفت الرحمة السابقة والحمد اللاحق ، ويشير لها الحاء والميم .
- (٢) وتفكرت في أن الملائكة في السموات يعرفون جلال الله وهم يدبرون هذه الكواكب بهذا النظام اللوسيقى ، وهذا ظهر في قوله « السموات والتسبيح » لأن كلا منهما مبدوء بحرف السين (٣) ولا حظت في عقلك أن الله فوق الجميع علما وقدرة ، وهذا في قوله « العزيز العلي العظيم » كلها مبدوءة بحرف الميم .
- (٤) وهذا الوحي زل في القرآن ، وهذا حرف القاف ، وأيضا هذه العوالم كانت في أزمان سابقة وهي لا زال كذلك إلى الآن ، وهذا في لفظ من قبلك (القاف) .

ولاجرم أن قوله تعالى « تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض » أصبح واضحا مما تقدم ، لأن العوالم حركات لا غير كما أثبتته أنت في التفسير مرارا . وما الأثير إلا كالحيال في النفوس البشرية ، والحيال متى تركه صاحبه طاح وذهب . والأثير أشبه بهذا الحيال لأنه ليس مادة ، فهو يكاد يتفطر لأنه في الحقيقة لا شيء والحركات هي التي تتجلى لكم . ثم إن الملائكة لهم [سفتان] صفة معرفة الله ، وصفة تلميم الخلق . وللأولى « يسبحون بحمد ربهم » وللثانية « ويستغفرون لمن في الأرض » وفي كليهما السين ، وهذه هي الحصلة التي تجب على كل عالم في الإسلام علم بجلال الله وجماله : ثم أن يكون مفضلا منبعا للخير فيأبى نافعا للناس . هنالك قلت يا ليت شعري . إذا كانت هذه الحروف لم نعلم منها الآن إلا ملخص الآية من حيث إنها رمز لها فماذا أفادتنا ؟ فقال إنها جمعت العوالم العلوية والسفلية في نظر النفس وأصبحت كأنها هيئة بهجة تشرح الصدور وتعرف جلال الله وجماله . وهذه تأنس بها الأرواح والإشارة أبلغ من العبارة ، وهذه لا تدرك إلا بالذوق ، وإنما الفرق بين هذه المزايا التي جاءت في هذا التفسير وبين المزايا التي فهمها المتقدمون أن مزايا هذه الإشارات هنا تحت على التعقل والتفكير ، فأما ما جاء عن بعض المتقدمين أن هذه الحروف مقتطفات من اسم الله ، أو أنها تشير إلى أعداد خاصة كالجمل (بتشديد الميم) كما زعم اليهود ، أو أن تكون إشارة إلى مافي العوالم العلوية من المنازل كما تقدم في أول (سورة آل عمران) فإن ما ذكر هنا أقرب منه إلى رقي الأمم الإسلامية ، وأي بهجة ونعمة أبهج وأكل من استحضر صور العلوم كلها وكان الله مشرف عليها والنفس تطالع ذلك وهي مغتبطة أي اغتباط وذلك عند النطق بخمسة حروف جمعت العوالم ، ثم فصلت تلك المعاني بعد ذلك في السورة .

منافع الموسيقى العلمية

وضرر الموسيقى العملية

قلت له : لقد طال المقال في نظام الموسيقى العالمي في السموات والأرض . وإن للطلعين على هذا التفسير ربما يرون أن للموسيقى في الأرض عند العامة والجهلاء كالموسيقى التي أبدعها الله لأنني وازنت ما بين العود ونظامه والسموات ونظامها . فقال : حقا إن هذا يتبادر إلى الذهن . فبين هذا المقام هنا ؟ قلت : لقد ذكرت في أول (سورة الصافات) ما في التعليم العربي في الأمم الإسلامية من النقص الفاضح والجهل المريع من حيث الشعر العربي . ولا جرم أن بين الشعر والموسيقى صلة نسب وإتقان واتصال . إن الأمم الإسلامية منيت بأشعار العرب قبل الإسلام وبعده وفيها الفث والسمين . ولقد سرت هذه الفكرة سريان النار في الهشيم . وظنوا أن هذه الأشعار على علانها تعرف أسرار القرآن . والحق الذي لا مفر منه أن كل ما أدخل بالأخلاق من الأشعار . وما كان منه فيه مجنون أو غرام فهو لغو بل ضار . لأن ذلك يعلق في النفس من صباها فلا يتركها فيصبح خلقا فيها ، وتلازم الغرام والصبوة في الشباب فعلا وفي الشيخوخة قولاً وأماناً . وإني ليدهشني والله أن أرى هذه الأمة في الأندلس وفي الشرق لا تفرق بين الشعر المهرض على العفاف والشعر المزرى بالمرودة ولم أجد من يحد من ذلك الخلط ، لا في زماننا ولا في الأزمان السابقة ، وهكذا أجدم فعلوا ذلك في الموسيقى وفي الأغاني ، فكل هذه أباحها القوم ولا نكير إلا عند الفقهاء ، وأسمعهم يروون جميع الأشعار في كتبهم وفي سمرم وفي مجالسهم ، بل أرى الصوفية يرمزون بالنزل إلى القادسية العلمية ، وأجد العلامة الغزالي يبيح السماع بشروط ، والعلامة ابن سينا يجعله هو وطائفة من الصوفية مرقيا للنفس بشرائط خاصة كما هو واضح في آخر (كتاب الإشارات) .

والحق الذي لا يحصى عنه أن أكثر الأشعار وأكثر الأغاني وأنواع الموسيقى ضارات بمجموع هذه الأمة . إن ما يقوله الإمام الغزالي رحمه الله من جوازها بشرائط ، وهذه الشرائط ترجع إلى أمر واحد وهو أنها إذا سمعها الإنسان لم تتوجه نفسه إلى محرم بل تتوجه إلى إدراك المعاني وشريف الحصول . أقول : إن ما يقوله حق ، ولكن أكثر الناس غير مستعدين لذلك ولا هم يذكرون ، فأكثر الأشعار وأكثر الموسيقى ضارة بمجموع هذه الأمة ، والقليل منها هو النافع ، إذن ليست موازنة للموسيقى في الأرض عند الناس بالموسيقى في السماء عند الله من حيث الحساب تفيدنا أنهما سيان في السكال . كلا . فهناك الموسيقى نظام جميع العلوم ، وهنا استعمالها أكثره مزرع بنوع الإنسان وهكذا الأشعار .

ولقد أسمى (سقراط) في الكتاب المباشر من الجمهورية على طائفة الشعراء ، وأخذ يلوم (هوميروس) الشاعر ويحط من أقدار هذه الطائفة ويقول إنهم لا هم في العير ولا في الفير ، قوم لا حقائق عندهم ولا علم ، وما هم إلا مقلدون للحقائق ، وما مثلهم إلا كمثل الرسام الذي رسم لجام الفرس واللجام صنعه صانع وهذا الصانع وضعه بالهيئة التي طلبها راكب الفرس ، فراكب الفرس هو الذي يطلبه والصانع يعمل على مقتضى الطلب ولكن الرسام يقلد الصانع ، هكذا الشاعر فما هو إلا راسم للمعقولات ، لا تمتثل ولا عالم ، إذن الشعر خيال والخيال غير الحقيقة .

عجب أن تكون أكثر الشعراء هذه قيمتها ، والله يقول « والشعراء يتبعهم الغاؤون » . وهاتنا عجب وألف عجب أن نسمع القرآن يذم الشعر . وقد وافق في ذلك الفيلسوف من قبله . وهذا قوله تعالى « بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم » .

ثم إن للمسلمين في الشرق والغرب طاحت دولهم وذهب مجددم في الثورة الباسية والثورة الأندلسية بما تركوا مواهبهم ، ولم يكن لهم هم في الأكثر إلا في الشعر ونسوا للمقول وتركوه للأعاجم . لذلك ذهبت ربههم وأصبحوا أثرا بدي عين .

إن « حم » عسق جاءت رمزا لنظام العالم العلوي والسفلي وهو للموسيقى الجميلة والعلم والحكمة . أما شعر الشعراء في الأرض وغناء اللغنين فصرهما أكثر من شعهما ، فليفكر العلماء في الإسلام بدنا في قوانينهم للشعر النافع والموسيقى ، وليحتاطوا في ذلك ، وليفرقوا بين النافع والضار ، فلا تكون الموسيقى إلا حيث يكون إيمان النفس للمعالي والعلوم وأشرف الأخلاق ، وكذلك الأشعار . فأما إذا كان كلاهما لتوسيع الزوات فيحرم بتاتا . إذن هناك فرق بين ما دلت عليه « حم » عسق وبين ما يخرى بانحطاط النفوس الإنسانية .

فما سمع ذلك قال : أجدت ووفيت للقام حقه . وبعد أن سمعت هذه الجملة منه انصرف الخيال من أمامي ، ونظرت في نفسي ، فوجدت أنني لا أزال في الفراش ، وعجبت من نفسي كيف كان حوارى مع خيالها النورى تخيلته هي ، ثم أخذت أفكر في هذه المعاني فوجدتها معقولة ، بل فرحت بها فسطرتها ببصرة وذكري لى ولأصدقائي قراء هذا التفسير والمحدثه رب العالمين . كتب صباح يوم الأحد ٢ نوفمبر سنة ١٩٣٠ م .

إشراق شمس هذه المقالة

في سحر ليلة الإثنين ٣ من شهر نوفمبر سنة ١٩٣٠ استبان لى من غوى هذه المقالة أن (حم عسق) رحمت للحكما والعلماء في هذه الأرض أربعة منازل وهي :

(١) انبعث النفوس من الخلق إلى أنوار الحق .

(٢) ثم انتناسها بتلك الأنوار .

(٣) ثم يكون الاقتباس بعد الانتناس .

(٤) ثم الإفاضة على الناس من تلك الأنوار .

فالمنزلة الأولى هي الانبعث ولها (حم) وذلك أن تشاهد أنفس أهل العلم بهجة هذه الكرات السماوية وتطالع أنوارها وحسابها وأعدادها وعظمتها ، فإذا امتلأت بتلك الأنوار وأشرفت بها أيما إشراق تكون المنزلة الثانية ، وهذه المنزلة الأولى تشير إليها الحياء والميم لأن تجليات العوالم وظهورها من العدم سر الرحمت والرحمة يسبقها العلم والعلم به النظام وتقدير الحركات والدرجات . ويدراك ذلك الجمال ترتقي النفس إلى المقام الأعلى وهو المنزلة الثانية (ع) الانتناس إذ تنجلي للفكر تلك العزة والعظمة والمعلو اللانق أشرفت بها أنوار العين في (عسق) . وهنا ارتقت النفس من المقدمة إلى النتيجة ، ومن الخلق إلى الخالق ، ومن الأثر إلى اللؤثر ، ومن الرحمة إلى الرحيم ، ومن الجلال إلى الجليل ، ومن الصنعة إلى الصانع ، وهناك تتجلى أعمال الملائكة الحافين حول العرش ، وهم يشاهدون العوالم كلها ، مطلمين على بدائعها ، منظمين لحركات السموات ولم يتم ذلك إلا بعد إشراق نفوسهم بما استمدوا من علم وما استفادوا من حكمة من العلى العظيم العليم ، وهذه هي المنزلة الثالثة وهي الاقتباس (السين) من (عسق) فإذا كانت المنزلة الأولى ارتقاء من الصنعة إلى الصانع ، والثانية تفكير في أوصافه ومشاهدة أنوار الآثار ، فالثالثة الاقتباس ؛ ألا ترى أن المؤثرين

الدين لم نرم شاهدنا آثارهم ، وعلى مقدار اختلاف الآثار يكون اختلاف المؤثرين ، وهم الذين سميهم ملائكة وضرب لهم الثل في نظام العوالم بنظام أعضائنا ، فسكان في كل عضو قوات خاصة ، هذا في كل عالم ملائكة مختصون به يدبرونه ، وكما أن أعضاءنا تطيع القوات الدبيرة لها هكذا العوالم للشاهدة تطيع الملائكة للدبرين وكما أن الإنسان مثاله نفس واحدة ، وهذه النفس لها قوى كثيرة لا تقدر أن نحسبها نحن والله يحسبها هكذا الله واحد وله ملائكة ينفذون أمره ، وهم كثيرون ، وكما أننا نحس في أنفسنا بأن هناك في عقولنا قوى مختلفة مثل : (الخيلة ، والفكرة ، والحفاظة ، والذاكرة) وفي أجسامنا قوى أخرى أقل منها درجات من القوة الجاذبة والمهاضمة والماسكة والمافضة والفاذية والنمية والولادة ، ومثل القند المختلفات كقند الصفراء والبنكرياس وغدد اللعاب الآتى في الفم وهي ست ، وهكذا عما تقدم إيضاحه في (سورة فاطر) هكذا في العالم :

(أولا) ملائكة سماويون يدبرون العوالم تديرا محكما بنظام متقن ، وهم يستمدون ذلك من المقام الأقدس كما تستمد الحفاظة والفكرة ونحوهما من الروح الإنسانية معارفها واختراعها ، إذ لولا أرواحنا ما كانت هذه القوى الآتى تحت سيطرتها ولا كانت معارفها ولا أعمالها .

(ثانيا) ملائكة أرضيون يدبرون الزرع والشجر والبر والبحر كما ترى الماسكة والمهاضمة النع والقند المختلفات تعمل في أجسامنا أفعالا مختلفات وأطوارا متباينات وهي أقل منزلة من قوى الدماغ لأن تلك للعالم والتدبير وهذه للعمل وإحداث الآثار .

وما هذا الذي ذكرته إلا ضرب مثل « وقد للثل الأعلى » فإذا ضرب الله لنوره مثلا بالسراج للعموم فما أسهل ، وما أبدع ، وما أجمل أن نبين لدوى العقول السليمة والحكماء والعلماء في الإسلام قاطبة .

(١) إن نفوسنا وأجسامنا وقوانا توضح هذه الآيات إيضاحا شافيا ، وأن وحدة النفس مثال لوحدة الله تعالى وإن كان الفرق شاسعا بين الثل والمثل له كالبعد ما بين نور الله ونور السراج .

(٢) وأن قوانا في الدماغ ضرب مثل للملائكة السماوية الحافين حول العرش .

(٣) وأن قوانا الجسمية من البنكرياس والصفراء وأمثالها ضرب مثل للملائكة الأرضيين .

إذن ظهر بضر الثل معنى قوله « وترى الملائكة حافين من حول العرش » في سورة أخرى ، وإياك أن تظن أن الشبه كالمشبه به ، فقول القائل (وجهه كالقمر) ليس معناه أنه هو نفس القمر أو أنه مثله من كل وجه ، فهذا أمر واضح هكذا هنا ، فإذا كانت قوانا الجسمية لا عقول لها مستقلة فالملائكة ليسوا كذلك فهم ذوو عقول مستقلة بها يدبرون ، ولكن لهم صلة بربهم صلة القمر بالشمس يستمد منها .

هذا معنى كونهم حافين من حول العرش فهناك فهما إجماليا ، وأما كونهم يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ، فهذا موضع الاقتباس . فإن قوانا المختلفات في الدماغ الآتى لها وظائف عامة من فكر وحفظ وذكر وهكذا لم تتركها أرواحنا سدى بل لها صلة بها ولن تكون أعمالها إلا على مقتضى ما وصلت إليه أرواحنا ، فليس حفظ ولا فكر ولا تذكرة زيد مشابها كل الشبه لهذه الثلاثة عند عمرو ومعنى هذا أن هذه القوى مستمدات الاستمداد التام من نفوسنا بدليل أنها مناسبة لها لا لغيرها . فهكذا نقول في الملائكة « وقد للثل الأعلى » إتهم لم يكن لهم عمل إلا على مقتضى علومهم المستمدة من ربهم . ولذلك نجد النتائج منتظمة . فهم إذن عارفون بصفات الجلال وصفات الإكرام أى الصفات السلبية من أنه مخالف للحوادث ، وأنه لا أول له النع وصفات الإكرام وهي صفات اللعاني كالقدرة والعلم النع والأولى تدخل تحت التسييح والثانية تدخل تحت الحمد . فقول « يسبحون بحمد ربهم » دخل فيه العلم بالجلال والإكرام (وجبارة أخرى) صفات التنزه وصفات الإفاضة والحلق والرحمة .

ليس من العقول أن يكون للسمع علم الأصوات ، وللبصر علم الأضواء ، وللذوق علم الطعوم وللمس علم الروائح ولمس علم الحشن والناعم الخ ثم لا يكون للعقل علم يناسبه وهو علم كله عقول ؟
 ليس من العقول أن كل فعل من الأفعال الطبيعية له فاعل من جنسه كما تقدم في النبات وفي الحيوان من أن هناك (الفطر والبكتريا) التي تحلل المواد الأرضية لغذاء النبات والواد التي في الأمعاء الغلاظ لإكمال الهضم كما تقدم قريبا ثم تكون آرائنا وأفكارنا لم تستمد من علم عقلي يشبهها ؟ إذن هنا ملائكة وهؤلاء هم الذين يدوننا على حسب قوانا . وسيأتي إيضاح هذا المقام أيضا تماما في كتابي للسمى «مرآة الفلسفة» أذكره عند آية «فاعلم أنه لا إله إلا الله» وهناك يزول ذلك الإشكال الذي بقي ٣٤ قرنا في أمر العقول والنفوس والنبات وعلاقتها بصانع العالم ، وقد وصلت بحمد الله لحل هذا الإشكال للعقد ، وسترى هناك مراتب الفلسفة في العالم ، وكيف كان أفلاطون يقول بالمثل الأفلاطونية ، وكيف رد عليه تلميذ أرسطاطاليس بأن هنالك لئلا ليست نحل المشكلة ، والصواب عنده أن العلوم مرجعها غير تلك للئلا وهي الصورة القائمة بالمادة ؛ ولما جاء بدم قوم آخرون رأوا الخلاف عسيرا والحل صعبا . توقفت العقول عند هذا الحد . فتركوا الإلهيات واقتصروا على العلوم الأخرى . وسترى أن (سبنسر) الفيلسوف الانكليزي والاساذ مبتلانه الفيلسوف التلياني يقولان . «إننا بالنسبة لأصول الفلسفة أمثال هذه المسألة لا قدرة لنا على حلها . ونحن بالنسبة لأمثال سقراط ومن معه كالبقية بالنسبة للقليل .

وأنا أعلن المسلمين خصوصا والعالم الإسلامي عموما أن الله عز وجل قد من على بالتوفيق في تلك الرسالة وسترى فيها طريقا غير طريق هذين الحكيمين خاليا عما ورد عليهما من الإشكال . فقد بينت لك هناك إثبات برهان وجود الملائكة ومعرفة الله بطريقة كطرق الهندسة يفهمها الخاص والعام من أهل العلم . وهناك ثبت علم الملائكة نبوتنا هندسيا .

وقد تقدم في السورة السابقة في آية « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » بعض ذلك واضحا وعمامة سيأتي في الرسالة المذكورة إن شاء الله تعالى .

وبناء على ذلك فهم قوله تعالى «شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط» فالعلم منه وهو يفيض على الملائكة والملائكة يفيضون على الناس . فقوله تعالى «والملائكة يسبحون بحمد ربهم» راجع ذلك لاستمدادهم منه بالبرهان الذي ستراه في (سورة محمد) عليه الصلاة والسلام والناس يستمدون من الملائكة . فاستغفارهم لمن في الأرض لمن يتم لهم إلا لما نالوا من العلم بجلال الله وإكرامه . والناس من الملائكة يستمدون وهذه هي المنزلة الرابعة من المنازل المتقدمة .

فالمنزلة الأولى نظام العوالم . والثانية إدراك صانعه . والثالثة إدراك الملائكة . والرابعة العلماء في الأرض فهم يعرفون العوالم كلها ثم يفيضونها على الناس . ولهذا الإشارة بقوله «يوحى إليك وإلى الذين من قبلك» فالوحى هو القرآن وهذا هو حرف القاف (وبعبارة أخرى) «يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض» فهم يتبعون الملائكة حذو القعدة بالقعدة والملائكة يستمدون من الله .

هذا ملخص (حم ، عسق) فهي أربعة منازل : هي نظام هذه الدنيا وعقولها وعلومها وهيام القلوب بصانعيها ، وهل هذه المنازل الأربعة إلا أشبه بما جاء في (جمهورية أفلاطون) من الفاترة والنار .

حم . عسق . ومفارة أفلاطون

اعلم أن ماقرناه من النازل الأربعة في (حم . عسق) هو نفسه الذي قرره أفلاطون في جمهوريته كما تقدم في هذا التفسير . ألم تر أنه تصور جماعة في مفارة وجوههم متجهة إلى مؤخرها . وأمامهم ضوء نار على ذلك المؤخر وهم مسلسلون بحيث لا يرون ما وراءهم من النار التي تضيء وراء سور ، وهناك أناس يسيرون وهم يحملون أنواعا من الحيوان والنبات والنار ترسم تلك الصور في مقابلة وجوه هؤلاء الذين في المفارة . وهؤلاء سموا هذه الصور بأسماء وقالوا إنها هي الحقائق بعينها . ثم إن أحدهم خرج منها وأخذ يتمرن على نور القمر في الماء وكذا النجوم ليلا ثم يراها بأنفسها ، يرى صورة الشمس في الماء ، ثم يراها بنفسها (وبعبارة أخرى) أنه أخذ يتدرج في النظر فأدرك أن هذه الصور التي على الحائط ما هي إلا آثار صور الحيوانات الحقيقية وأن النار نفسها ما هي إلا أثر من آثار الشمس . وبه تعرف الفصول والسنون والشهور والأيام . فإذا جعلنا الشمس بدل النار ، وجعلنا سكان الأرض بدل سكان المفارة ، وجعلنا النبات والحيوان بدل الصور التي على الحائط ثم لنا للقصود وظهر للثل بأوضح معانيه . وعليه تكون الشمس ضربت مثلا لله والنبات والحيوان يكونان على مقتضى عالم للثال الذي يقول به أفلاطون ، وسكان أهل الأرض كسكان المفارة . فهم جهال وليس يدرك الحقائق إلا أناس تركوا آراء الجمهور وبحثوا فرفوا العلوم . ثم إن ذلك الذي خرج من المفارة وعرف الحقائق في مثال أفلاطون رجع ثانيا إلى إخوانه وقاسى الشدائد في تفهيمهم كما قاسى المشقات في تمرن عينيه على نظر الأنوار الحقيقية ، إذن هنا صعود من المفارة ؛ ثم تعلم ثم رجوع إلى من فيها وتعليم لهم .

أفليس هذا كله هو عين (حم . عسق) ارتقاء عن المادة ، معرفة باقئ والملائكة ، ثم رجوع إلى الناس وتعليم لهم على مقتضى ما تعلم .
هذا هو معنى قوله «والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض» فالحمد لله على نعمه الوافرة ، وآلائه الفاخرة اه .

جوهرة في آية : الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان

وما يدريك لعل الساعة قريب

إن التلميع أكثرهم نبذ الكلام على الآخرة والدين وإن ذلك تقدم في التفسير . وهذه أول مرة قام فيها رجل له حمة وله احترام من التلميع بهذه الخطبة ، وهذه بشارة أزفها بأن الجو في تلميع الشرق الأدنى أخذ يتغير إلى الأحسن بعد أن كانوا يحتفرون هذه الآراء ؛ وهذا الإحتقار أصاح بلادهم . وهالك نص الخطبة للذكورة .

بأي ميزان تزن الحياة ؟

(محاضرة الأستاذ توفيق دياب)

ألقاها في ألف ومئتي مستمع

أخواني وإخوتي :

ذلك السر الغامض الذي يبدأ بال ميلاد وينتهي بالوفاة . ذلك السر الغامض الذي نسميه الحياة ، وزى أنفسنا في غماره متدافعين إلى الأمام أو متراجعين إلى الوراء . ذلك البحر الحضم الذي تلقينا بين أمواجه يوم نولد قوة خفية ، حتى إذا سبحنا فيه شوطاً قصر أو طال ، نزعنا منه تلك القوة الخفية حين يحل الأجل ، هذه الحركة التي نساقي إليها غير مختارين ، ونفصل عنها غير مختارين . هذه الحياة ماهي ؟ وما غايتها ؟ ولماذا ولدنا ؟ ولماذا نموت ؟

ليت أحداً يستطيع الجواب عن هذا السؤال في كلمة أو كلمتين . إذن لاستراح الفلاسفة وأصحاب اللذات المختلفة في كنه الحياة . فقد بما كان . وإلى اليوم مازال هذا السر الرهيب موضوع البحث للبحر ومثار الجدل العنيف بين العلماء والمفكرين : وليس عجباً أن يفكر الفلاسفة في مرمى الحياة ، وإنما العجب ألا يفكر في مرمى الحياة جميع الناس .

نولد أجنة وندرج أطفالاً وننشأ صبية ونراهق فتياناً ونستوى رجالاً ونبلى الكهولة وتدر كنا الشيخوخة إن قدر لنا أن نعلم ، ثم ماذا ؟ ثم نجف الشجرة وتذوى الأزهار ويتساقط الورق ، وما هو إلا نفس أخير نلفظه فإذا نحن رفات . وذلك دون أن نفكر يوماً لماذا ولدنا ولماذا حينئذ نموت ، ودون أن نفكر من أين جئنا وإلى أين نمود ، وهل جئنا من عدم لنعود إلى عدم أو جئنا من وجود لنعود إلى وجود ؟

وأنت مع ذلك إذا أخذت سنة من النوم ، ثم استيقظت فوجدت نفسك في غرفة لا عهد لك بها ، فلن تستقر على حال من الدهش ؛ حتى تعرف ما هذا المكان ومن ذا جاء بك إليه وكيف جاء بك ولماذا ؟ ستظل من نوافذ الغرفة لترى على أية حديقة أو فناء تشرف ، ستفتح الباب فإن كان موصداً غابته حتى يفتح أو ينحطم ، فإذا خرجت من الغرفة جعلت تنظر بمنة ويسرة في ذهول وحيرة . ثم جعلت تطوف بأرجاء الدار متسائلاً نفسك أين أنا وما هذه الدار ولمن هي وفي أية مدينة؟ ولن يهدأ لك بال أو يستقر لك حال حتى تلقاك سيدة هي أشبه ما تكون بالمرضات فتنبئك بأن هذه الدار (عالمك الله) مستشفي ، وإن إغماءة طارئة غشيتك غفاب عليك والدك فأسرع بك إليه ، حتى إذا بشر الطبيب أباك بأن الأمر حين لا خطر فيه . آرتك الإقامة هنا أياماً إلى أن تستعيد صحتك فترجع إلى دارك سلباً معافى .

حينئذ تدرك حقيقة المكان ومن جاء بك إليه وما السبب ؟ فإذا عرفت أن الغاية هي استشفائك بمايك ، لم يزدك علمك بهذه الغاية إلا أخذاً بأسبابها واستيفاءاً لشرائطها ، حتى يتم لك منها ما أرادته والدك وما أصبحت تريده لنفسك .

هذا شأننا من الدهش والتساؤل إذا طوحت بنا الطوائف إلى مكان مجهول . فما بالنا نبعثنا إلى هذه الدنيا قوة خفية على غير قصد منا ولا اختيار ثم تتوفانا مستضعفين على غير قصد منا ولا اختيار ، نظهر ونخفي على

سطح هذا المحيط الهائل . كالفقاع تنفتح وتنفتح في مثل ملح البصر ، دون أن يأخذنا دهش يدعوننا إلى
الحيرة والتساؤل والتفكير .

لماذا بثتنا القوة الخفية القديرة الجبارة إلى هذه الدنيا . أنقض في هنائها أو عنائها ، في صحتها أو مرضها
في غناها أو فقرها ، في عدلها أو ظلمها ، في إختائها أو ولدها ، في رفقها أو جفائها ، أو في مزيج من هذا
كله ستين أو سبعين عاما إذا طال بنا العمر .

وما ستون أو سبعون عاما في امتداد الأزل الذي لا أول له . وفي امتداد الأبد الذي لا نهاية له . إن
السلام ليصلون السنين التي سلختها الإنسانية على هذا الكوكب بالملايين لا بالألوف ، ويقدرون لها البقاء
فيه ملايين أخرى تربو على الإحصاء . فما أنا وما أنت ، وما نصيبى وما نصيبك في هذا السرمد الذي تحار
فيه الألباب . ذرة ضئيلة من جبل أشم ، قطرة هينة من محيط مترام .

وإذن فما حياتك وما حياتي وما حياة هذا الجيل كله وما حياة الأمم الحاضرة كلها ، حتى نجعل موضوع
هذه المحاضرة (بأى ميزان تزن حياتك ؟)

إن التاريخ للدون أو المكتوب لا يعد وستة آلاف من السنين . وهي التي شغلت أقلام المؤرخين ،
وهي التي ظهرت فيها حضارات واختفت حضارات . وارتقت أمم وانحطت أمم ، وهي التي وقع فيها
من الظالم والحروب ، وطمى فيها من الرق والاستعباد ، وتقلب فيها من العقائد والأديان ، واختلف
فيها من طرائق الخير والشر ، وتماقب فيها على الجماعات والأفراد من السعادة والشقاء . وأظلم فيها من
الضلالات والجهالات ، وأضاء فيها من المعارف والعلوم (ماتصيق عن الإحاطة به مئات الألوف من المجلدات
ومئات الألوف من العقول . وهذا كله تراث ستة آلاف من السنين . وما هي من ماضى الإنسانية المجهولة
ومن تاريخها غير المكتوب ، وما هي من مستقبل الإنسانية الذي لا تتراعى إلى حدوده عين الخيال) إلا
بمثابة الدقيقة الواحدة من ألوف الأعوام .

إذن أليس من الفرور أن أتكلم عن حياتك وحياتي وعن ميزان حياتك وميزان حياتي .
ماحياتك وما حياتي إذا قستها بهذا المقياس الخفيف . إنك لو نظرت إليها بالميكروسكوب لعز على الميكروسكوب
أن يكشفها لمن ينظر إليها من أفق الأزل القديم والأبد الخالد .

ألا تصدق ؟ إذن ألا تعلم أن كوكبك هذا الذي عاش فيه أجدادك من البشر ملايين السنين وسيعيش فيه
أحفادك ملايين أخرى لا يحصها العد ، إن لم يصطدم به جرم سماوي آخر فاذا أرضك هباء في مثل قصف الرعد
أو خطف البصر (ألا تعلم أن هذه الأرض بماضيها الزاخر ومستقبلها العظيم الباهر إنما هي شظية تطايرت من
الشمس كما تطاير الشرارة من التنور الهائل المستمر ، فجالت شرارتك في الفضاء حتى أخذت مدارها من
نظامنا الشمسي واستحالت حصة (مستقلة ذات سيادة) .

أنا وأنت وهو وهي وهم وهن آحاد في عداد ملايين الأمة المصرية . والأمة المصرية إحدى العشرات
الكبيرة من أمم هذا العصر . وأمم هذا العصر حلقة قصيرة من سلسلة ترجع إلى ماض لا يدرك الخيال مبتداه
وتتمد إلى مستقبل لا يدرك الخيال منتهاه على هذه الأرض وهذه الأرض شظية كانت ملتبهة تنارت من الشمس
فصلرت من نظام الكون حيث تدور فلماذا عسى تكون حياتي وماذا عسى تكون حياتك ، لاسما وأنت
تعلم أن نظامنا الشمسي ليس إلا واحدا من نظم كثيرة تماثله . لو أطلنا التفكير في كتبها وفي تلك
القوة الخفية التي تسخرها لقضينا أعوامنا الستين أو السبعين في التفسير ، دون أن نزداد في تفهمها إلا
ذهولا وحيرة .

سيداتي وساداتي :

هل تختملون منى كلمة جريئة ؟ إذن تفضلوا فاسموها :

إذا كانت الحياة هي الأعوام الستون أو السبعون التي نعيشها في هذه الدنيا ، من غير أن نكون مرتبطين قبل قدومنا بقوة هي التي بثتنا الحكمة ، ومن غير أن نكون مرتبطين بعد رحيلنا بقوة هي التي استدعتنا إليها الحكمة . إذا كانت الحياة مصدرها الدم ومصيرها العدم . إذا كان مولدنا في هذه الأرض مصادفة لم تفصدها قوة مريضة مدبرة ، وكان موتنا مجرد انتهاء لهذه المصادفة ، إذا كان وجودنا مجرد نتيجة آلية عضوية لمجرد تفاعلات آلية عضوية ، وكان زوالنا نتيجة مادية لأسباب مادية لا أقل ولا أكثر ، إذا كانت أيماننا في هذه الدنيا برزخنا ناعسا بين بلقيس و بلقيس الماضى قبل أن نولد . وبلقيس المستقبل بعد أن نموت . إذا كنا في هذه الدنيا مجرد أحلام زائلة وأشباح حائلة ، إذا كان كل هذا العناء وهذا الكدح وهذه الآلام وهذه الأمراض وهذه الخطوب التي نشاهدها أو نختملها أو نكافئها في سبيل الإنسانية ، إذا كانت كل هذه المضارات وهذه العلوم وهذه الفنون وهذه الآداب التي تسمو إليها الأمم جيلا بعد جيل . إذا كانت هذه الشرور كلها وهذه الخيرات كلها ليس وراءها إلا مطلب واحد (هو أن يعيش كل فرد من الناس خمسين أو ستين عاما معدودة بحدين : عدم مطلق منذ الأزل وعدم مطلق إلى الأبد ما عدا هذه الأعوام الخمسين أو الستين) . إذا كان الأمر كذلك . فما أحق الأحياء الذين يؤمنون بهذا العدم من قبل ومن بعدهم يعيشون . إن الانتحار أولى بهم وأجدر . أما أنا فلو كنت منهم لانتحرت . إن هذه الأعوام الستين التي يعيشها المرء في هذه الدنيا لا تساوى في ذاتها عضة الفقر ولا قلة الحاجة عاما واحدا . إنها في ذاتها لتساوى برحاء المرض الممض نصف عام . إنها في ذاتها لتساوى احتمال ظلم الظالمين ولا جيروت التجيرين . إن المرء ليصادف في هذه الأعوام الستين أو السبعين من ضروب الأذى مما لا يحتمله إلا لشعور واحد ، هو أن الحياة سر قديم خالد : لا حياة الجماعة فحسب بل حياة كل فرد من أفرادها كبر أو صغر ، جل في نفوس الناس أو هوان .

إذا سألت بعض علماء المادة الذين يرون حياة الفرد مسبوقة بعدم منتهية إلى عدم ، إذا سألتهم لماذا يعيشون . قالوا نعيش طوعا لغريزتين : غريزة الحرص على بقائنا ، وغريزة الحرص على بقاء النوع . أما حرصنا على بقاء أنفسنا فواضح حتى في الطفل يتجنب السقوط من عل ويتجنب النار اللاذعة والحفرة العميقة . وأما حرصنا على بقاء النوع فواضح في الأم تسهر على ذرايعها . والأب يعول أبناءه . حتى ولو كانت الأم حيوانا أعجم .

ونحن نفهم هذا التعليل بقوة الغريزة من غير السادة العلماء . فأما وهم من أهل التفكير الذين من شأنهم أن يرجحوا حكم العقل على اندفاع الغرائز ، فقد كان الأولى بهم إذا لم يؤمنوا بأن الحياة الفرد اتصالا وثيقا بالخلود كان أولى بهم أن يدركوا هذه الأعوام القليلة التي ستسلمهم عما قريب إلى فناء لا وجود لهم بعده . هذه الأعوام لا تستحق منهم عناء البحث والتنقيب في مظاهر كاذبة وزيارح باطلة ، ولا تستحق منهم هذا العكوف على العامل والآلات والنظائر المكبر والنظائر الصغر والتعليل والتحليل والكدح بالليل والنهار للوصول إلى حقائق مهما تكن في نظرم جليلة فهي نافهة مادامت هذه الحقائق الإنسانية والسادة العلماء في طليعتها كائنات نافهة تظهر اليوم من ظلام العدم لتنتهي في الغد إلى ظلام العدم . كان أولى بهم أن يقفوا مبشرين بالفناء ، وأن يقولوا للناس فيم الكدح وفيم العناء في سبيل غاية مقفرة مظلمة ، إلى العدم العاجل بيد أنت أيتها الإنسانية مختارة طائفة ، فذلك أكرم وأروح للبال من أن يحل بك العدم غير طائفة ولا مختارة .

يقولون إن حياة الإنسانية تهيء وحياة الفرد شيء آخر ، حياة الفرد إلى المدم . فأما حياة الإنسانية فإلى العاقبة . لذلك يخدمون الإنسانية بالعلم والفن والأدب ، ليحيى الجيل اللاحق خيرا من الجيل السابق ، ولتحيى الحضارة الآتية أعظم وأروع من الحضارة الماضية ، وهذا في الحق سخف عظيم ، لأن معناه أن جميع الأجيال الماضية وجميع الأجيال الآتية كانت وستكون مجرد عتبات ومدارج ، أو مطايا وبرازع ، يعلوها في النهاية آخر جيل تتمضخض عنه الإنسانية ، فإذا استوى الجيل الأخير على قمة الجبل لم يكن مجده خالدا ، بل كان مجده زائلا كذلك ؛ ولو عمر الإنسان الأخير بفضل العلم ألف سنة . ثم ينقضى هذا الجيل الأخير بانقضاء صلاح الأرض للحياة ، وانتهت الدنيا إلى غايتها . وفيت حضارة الشمس ، وانطفأ ضياؤها ، واستحالت البحار جليدا والشجر والنبات هباء أمست الإنسانية عدما مطلقا إلى آخر نسمة فيها ، ولم يبق للإنسان المسكين حتى ولا الذكرى ، إذ من ذا يذكر الإنسان وقد انمحنى من صفحة هذا السكون آخر إنسان . وانمحنى لا ليمسوا إلى عالم آخر ولكن ليبقى غريها في غمرات الفناء ، خالدا فيها أبدا لأبدى .

هل هذه إذن غاية الإنسانية ؟ هل غايتها أن تقضى مئآت الملايين من السنين لتنتج جيلا واحدا هو الجيل الأخير . ثم يكون هذا مصير ذلك الجيل الأخير ؟ أتعرف الساحر الذي يخرج علبة من جوف علبة ثم يخرج الثالثة من جوف الثانية . والرابعة من جوف الثالثة والخامسة من جوف الرابعة وهكذا حتى تمتد عشرات من العلب يخرج بعضها من جوف بعض حتى ينتهي بك إلى علبة لا تسكاد تراها لضوئها . ثم يوجهك بأن فيها قطرة من سائل هوماء الحياة . فاذا تناولها المتناول وأسرع بالقطرة إلى فيه ليرزق الخلود خر على الأرض فاقد الروح . تلك صورة فكاهية من الحياة الإنسانية كما يفهمها أولئك الماديون .

سيداتي وسادتي :

هل تريدون مني كلمة جريئة أخرى ؟ هذا الإنسان أكبر وأعظم من الأعوام السبعين أو المائة التي تمتد إليها حياته في الدنيا . ولكن هذا الإنسان متناقض عجيب . أتذكرون أيامه القائرة ؟ أيام كان بأوى إلى الكهوف وبأكل الصيد نيئا . ويضرب في الغابات عاريا . ولانسكاد تميزه من سائر الحيوان .

هذا الإنسان ما الذي هداه إلى ما هو اليوم فيه ؟ ما الذي صعد به إلى المستوى الذي بلغه في القرن العشرين معجزة القرون ؟ في الدنيا حروب وفيها عدوان وفيها آفات وفيها عيوب . ولكنها عيوب الصاعد إلى المثل الأعلى رويدا رويدا ، ولا سبيل إلى أن ينجو من تراث الماضي وغرائز الأناية الأولى كل النجاة في الفصام كلا ولا في عشرة آلاف . قد يشن الحروب ويعتدى على الحقوق . ولكن لطيفة خفية تنزع به إلى السلام والانصاف بعد النزوع . له اليوم قوانين وشرائع إن طغت عليها يد العدوان يوما . فان الجماعة كقيلة بردالحق إلى نصابه وإن كره المعتدون . له اليوم علوم قيمة وفنون جميلة وآداب أفسحت أمام عقله سبجات المهناة المعنوية . له تعاون على البر والاحسان . يلطف من تعاون الأشقياء على الغدر والاساءة . له أديان مشروعة ومثل من الأخلاق موضوعة . له طائرات في الجو وغاصات في البحر وله أسباب ممدودة تراها العين أسلاكاً برقية أو نفونية أو لاتراها ، لأنها أسباب من الأثير تحمل الأصوات وتخفي عن النظرات .

وهو مع ذلك متناقض عجيب . ذلك الذي دوخ الأرض وسخر الجو والبحر ونقذ في الصخر وكشف من الأسرار عجائب كانت قبل عشرة أعوام أو عشرين في عداد المعجزات . ذلك الذي يقف وراء المدفع الضخم فيطلقه على البرج المشيد أو القرية العامرة فإذا هي أطلال . ذلك الذي كشف أسرار الأفلاك والكواكب والنجوم . وعرف مزاج بعضها وتأليف مواده وتركيب عناصره وقاس أبعادها وحقق حسابها حتى ليتبأ لها بحوادثها وبحرياتها قبل أن تقع بمئات الأعوام . ذلك الذي اتخذ من الغاز موموما . ومن الهواء غذاء . ومن

حرارة الشمس وهدير الماء قوة مستعملة أو مذحورة . ذلك المني أضاء الليل بثرياته مكهربة فكأنها شموس وأقمار . ذلك الذي يطوف الآن حول الأرض على متن الهواء قبل أن يطوف أخوه البدوي مناخ قبيلته على ظهر البعير . ذلك الذي كشفت له الأشعة مكنون الجسوم واخترقت له حجب الغيب فأصبح يرى مالم تكن تراه العيون .

ذلك الإنسان تقنله البعوضة وتمرضه نسمة الهواء . وتشرقه جرعة الماء . وبصرفه الهوى عن الجادة ويريد الأمر المستطاع فيصرفه عنه التخاذل ! ذلك الإنسان يعدل ويظلم . ويقسو ويرحم ويتخذ العلم للخير ، فما هذه القوة وما هذا للضعف ؟ وما هذا النور الساطع وما هذا الحلاك الدامس . وكيف يجتمعان ولأيهما القلب آخر الأمر . وهل نستطيع أن نستخلص من بين هذه الأطوار المتنافرة . والمظاهر المتناكرة حقيقة الحياة وعناية الحياة وميزان الحياة ! ثم وأنيك يجب أن نستطيع .

سيداتي وسادتي :

هل تريدون مني كلمة جريئة أخرى ؟ نحن تلاميذ القوة العظيمة التي بعثتنا إلى هذه الدنيا يوم ولدنا والتي تتوفانا يوم على الأجل نحن تلاميذها وهي تعلمنا من حيث لأزهارها ، وقد أودعنا سرا يسميه الفلاسفة عقلا . وتسميه الأديان روحا . وأنا لاهمني ماذا نسميه . هو قيس من هذه القوة العظيمة وشعاعه من نورها وليس يولد إنسان إلا وينطوى على هذا القيس أو هذه الشعاعه كمنة ! وإنما توقعها تجارب الحياة من ألم ولذة وحرمان وإحراز ومرض وصحة وإخفاق ونجاح ! فالألم يوقظ هذا السر السكين ، وبروضه على النظر كيف ينجو من الألم . واللذة تبعث فيه حب الاستزادة لحب الحركة في سبيل إحراز تلك اللذة والحرمان يبعث فيه حب التحصيل والإحراز . ولذة الإحراز تدفعه إلى طلب المزيد . والمرض يعلمه التوق ويعلمه الصبر والجلد . والصحة تشعره الهناء . والإخفاق يضره بالكدر ومعاودة العلاج . والنجاح يزيد حمة وعزيمة .

كان هذا منبت الغرائز في الإنسان الأول . ثم رأى ذلك التلميذ الناشئ . على كرا الأجيال أن في بعض لذاته إيلا ما لاخوته . وأن في بعض سعاده شقاء لسواه . فازدادت فيه الحساسية ، فوازن قليلا بين سعاده وشقاء الآخرين . فانصرف قليلا قليلا عن الأنانية المطلقة . ومازج تقديره شيء من العطف على سواه .

السر الذين يستيقظ ، الشعاعه السكينه ترسل ضوءها خارج نفسها لأول مرة ، بذرة الإنصاف والعطف والغيرية تستحيل ثبته مزهر . التلميذ يتعلم في مدرسة الحياة درس العدالة ، فيحاكي المعلم الأعظم الذي بعثه إلى مدرسة الحياة ، التلميذ يدرس منهاج الفضائل في مدرسة الدنيا مكرمة بدمكرمة . ومحمدة بعد محمدة . أليس المعلم الأعظم كريما حميدا ؟ وهذا تلميذه أودع فيه نفسه ليتقدم بزمام الحوادث والتجارب . أهى البسالة والإقدام ؟ إن المعلم الأعظم يعلم عن المخاوف فهو القوى للثيق ! أهو الدأب والسكفاح والعزيمة لا تعرف اليأس ولا القنوط . إن المعلم الأعظم شديد المراس يعلم عن الفترة والوهن . أهو البر والإحسان ؟ إن المعلم الأعظم هو المحسن البار وهو يذوق البر والإحسان .

ومامن فضيلة ولا مكرمة الا اشتق أصاها من تلك القوة لهيمنة ومن ذلك المعلم الأعظم . ولكن المعلم الأعظم لا يعلمنا الشجاعة ولا قوة العزيمة ولا البر والإحسان إلا عن طريق الحوادث والتجارب . فقبل الشجاعة ساد الجبن حتى استيقظت شعاعه المعلم الأعظم في التلميذ فاحتقرت الجبن والجبناء ؛ وقبل الوفاء ساد القدر . وقبل البر والإحسان سادت القسوة والجفاء .

وفي هذه المدرسة مازال التلاميذ يدرسون ولن يزالوا ؛ وإلى جانب الأخلاق التي تروضهم عليها حوادث المدرسة ويقظة السر السكين . يشبه ذلك القيس إلى محاكاة المعلم الأعظم في العلم والقدرة والإرادة فضلا

فتأ الأضمة الأزلية الخالدة التي تصل قلوبنا بعظمته ، لا تفتأ تبحث وتقب في أسرار هذا الوجود ، فتستكشف اليوم قانونا من قوانين الطبيعة وتتكشف غدا جوهرها من جواهرها الخفية ، حتى استطاع التليذ بمحركه من أوصعه أن يحيل القرقة الظلمة نورا وهاجا ، لأنه عرف سر الكهرباء ، فما كان بالأمس معجزة يرتاب في جوازها العقل ، أصبح اليوم حقيقة مألوقة لا يدهش لها الأطفال .

واستطاع التليذ أن يشافه صاحبه بكلمات تلوكها الألسن وتسممها الآذان ، هذا في جنوب الممور وذاك في شماله من غير حاجة إلى أسلاك . واستطاع التليذ أن يشارك الطير في ارتياد الجو فكان كل مخلق في الجو سليمان . وغاص مع الأسماك في مساربها . وتبعها إلى مهاربها .

ذلك أن العلم الأعظم يريد لتلاميذه أن يحاكوا عظمته في العلم والإرادة والقدرة ، كما يريد لهم أن يحاكوه في المحامد والمكارم ، أليس للمعلم الأعظم قدرا على كل شيء ؟ أليس فعلا لما يريد ، أليس يقول للشيء كن فيكون ، وها هو ذا تليفه ، هاهو ذا سره وقبسه في هذه الدنيا الإنسان قد استطاع أن يسخر الهواء والماء والكهرباء ، وكثيرا مما ترى ولا ترى من قوى هذه الطبيعة المذراء .

سيداتي وصادق :

إذن لا يرو عنكم أن تكونوا ذرات صغيرة الأحجام محدودة الأعمار في هذه الدنيا ، إذن لا تستبينوا بأنفسكم إذا قستموها بما سبقكم من الأجيال وما خلفكم منها حتى إذا رجع الماضي إلى الأزل وامتد إلى الأبد . ولا يهولنكم أن يكون كوكبكم شظية تناثرت من الشمس ، فكل واحدة منكم سيداتي ، وكل واحد منكم صادق يحمل بين طوابعه سر الوجود . هذه الأرض ستفنى . والشمس التي هي أصل الأرض ستفنى ؟ والنظم الشمسية على اختلافها قد يجعلها المعلم الأعظم مظاهر أخرى لقدرته وصورا جديدة لإرادته لكن ذلك القبس الذي هو نعمة من روحه حلت روحه وعلت عن الأرضين والشموس والأقمار ، ذلك القبس الذي يصلكم به صلة أزلية خالدة لا تنصم ، ذلك القبس هو سر الوجود .

فيأى ميزان وزن الحياة ، أميزان الطعام والشراب والفقر والغنى والدور والتصور والبنخ والمناعم والوظائف والمناسب ، أم يميزان المحامد والمكارم والعلم والإرادة وكبريات الصفات التي تحاكي بها معلمك الأعظم ؟ نحن لا نحقر الطيبات من الرزق ولا نبغض إليكم كسب المال وإفناقه في سبيله الخيرة ، بل نحض على ذلك فيه حفز للهيم وعود على النفس وذوى القربى وأهل الخصامة بالمتاع الحلال . ولكن الأمر كل الأمر الذي أريد أن أذكر نفسي به وأذكركم ، هو أن كل مرافق الحياة من متاجر ومزارع وصناعات ، ومن مطاعم ومشارب ومساكن ، هي أدوات ووسائل لا بد منها ولكنها ليست غاية الغايات أذكر نفسي بهذه الحقيقة الأولية وأذكر بها حضراتكم لاغضا من الوسائل ولا صرفا لكم عن اتخاذ الأدوات ، ولكن لأنك لو أحصيت في زماننا هذا أولئك الأبقاط الذين لم تصرفهم وسائل الحياة عن غاية الحياة ، لألفيتهم زرا يسيرا لا يبلغ عددهم فيما أحسب واحدا في كل ألف .

أولئك بزنون الحياة عامة ، وزنون حياتهم خاصة بما تحوى جيوبهم من مال ، لا بما تحوى نفوسهم من خصال ، وبما يشغلون من مناصب لا بما يخدمون من مبادئ .

سيداتي وصادق :

هذه الأرض مدرسة بثنا إليها بديع السموات والأرضين . وهذه حقيقة الحياة ، حياة الأفراد وحياة الأمم . وغاية هذه الحياة هي أن تحاكي صفات المعلم الأعظم ، تحاكي عظمتك في غير

صاف ، نحاكي رحمته في غير ضعف . نحاكي علمه وقدرته في غير زهو ولا غلظة . نحاكي إرداته في خير نجر ولا غرور .

سيداتي وسادتي :

في هذه المدرسة الربانية الكبرى تلاميذ مختلفة درجاتهم فمنهم البرز ومنهم المتخلف ، فلا تمجّبوا إذن لجد ما بين الناس من تفاوت في الأخلاق والعزائم والعرفان ، لكن حين يعلم الناس أنهم هاهنا تلاميذ وأنهم لم يرسّلوا إلى الحياة لعباً ولا لهواً . وأن معلمهم هو ينبوع النور والعرفان والقضائل في كل قلب مضى ، ورأس عامر بالعلم ونفس خفاقة بالشعر أو يبدائع الفن الجميل . حين يعلم كل ذي موهبة . وكل ذي فضيلة وكل صاحب اختراع وكل مستكشف لسر من أسرار الطبيعة ، أن ملهمه ومرشده هو ذلك القبس للستمد من قوة الله حينئذ يطل الغرور حياءً من الله . وتتضاعف المهم مرضاة للمعلم الأعظم . ويكون ميزان حياتك هو مبلغ محاكاة الصفات للصدر لكل عظمة من عظام الصفات .

هذه هي الخطبة التي ألقاها الأستاذ توفيق دياب وشمرت في الجرائد . كتبها لأنها تمت إلى الحقائق بسبب (ويانه) أن الناس قسمان : قسم لا يعرف من الوجود إلا الظواهر . وهذا القسم هو أغلب نوع الإنسان . وقسم يبحث عن حقائق الوجود . وهذه الخطبة ، تمت إلى القسم الثاني ، لسبب ذلك كتبها في هذا التفسير . وهل لك أيها الدكي أن أحدثك حديثاً عجيباً . إن هذه الخطبة ذكرتني بمجهرتين : الجوهرة الأولى أنها تقرب من كلام أفلاطون في جمهوريته في الكتاب الخامس : الجوهرة الثانية : أنها تقرب بعض الاقتراب بما خطر لي وملا قلبي جمالا وبهجة وسرورا وانشر احاصباح يوم السبت ٥ رمضان سنة ١٩٣٤ الموافق ٢٤ يناير سنة ١٩٣١ م .

الجوهرة الأولى في موازنة هذه الخطبة بأراء أفلاطون في جمهوريته

ترجع هذه الخطبة كلها إلى أن كثيرا من الناس لا يفقهون إلا الحياة الحاضرة وهي في ظاهرها مسبوقة بعدم وبلحقتها عدم . فسواء أ كان اجتهاد الناس في الدنيا موجها لأنفسهم هم ، أم كان موجها لأبنائهم وأحفادهم ، أم كان موجها إلى مواطنهم ، أم كان موجها للأمة كلها ، أم كان موجها لأجيال سيأتون بعد آلاف آلاف السنين ، فهذا كله ما هو إلا وبال وسمى لتير فائدة ، فالوجود الذي يقبه الفناء وجود خير منه عدمه والفناء .

هذا ملخص الخطبة ، وعادة هذا الإنسان المتدين وللهد أنهم لا يفكرون على هذا الأسلوب ، وغاية الأمر أن المتدين يقول : « أعمل خيرا ليكون لي ثواب ، فأتمتع بالذات بعد موتي » أما أمثال هذه الآراء فإن عادة الإنسان في الأرض عدم خطورها بياله خطورا يمت على البحث ، وإذا خطرت بذرونها بلا بحث ويكتفون بدياناتهم التي نشأوا عليها وهم لا يفهمون منها إلا قشورها ، فهناك ما قاله أفلاطون في جمهوريته . إن هذا الفيلسوف كما تقدم كثيرا في هذا التفسير لا يرى أحداً يصلح لحكم الأمم إلا الفلاسفة ، ذلك لأنهم وقفوا على الحقائق فصاروا كأنهم خلفاء الله في أرضه ، وبهذه الخلافة يقلدونه في صنع ما هو كامل ويحفظون الأمم كما يحفظ هو الكون كله ، وعلى هذا أخذ يصف هؤلاء الفلاسفة ، وبدور محور كلامه على أمرين اثنين لا ثالث لهما ، وهما أن للوجود إن كان دائما فالقائم به المتحقق به هو الفيلسوف ، وإن كان

للوجود غير دائم فالمكتفى به ليس فيلسوفاً لأن علمه متعلق بما ليس له دوام ، فهو يبنى أساس عقله وعقده على ما ليس بثابت ، فهو أشبه بمن يبنى قصوره على شفا جرف هار ، أو على أرض بركانية يتور فيها البركان وقتاً بعد وقت ، أو كمثل من يركب الأسد ، فهو في جميع أحواله خائف يرتقب الهلاك وهكذا مساحب الكاذب الخائن ، فهو في جميع أوقاته يرتقب غدره وإيقاعه في الهلاك وهكذا .

إن ما هو معدوم يكون تصوره جهلاً ، وما هو موجود دائم يكون إدراكه علماً ، وما يكون متردداً بين الوجود والعدم يكون إدراكه تصوراً ، فهو متردد بين العلم والجهل .

هذا إجمال كلامه وإن أردت يا صاح إلا الإفصاح ، فدونك الصور الجميلة والأنتام الشجية والقصور الفخمة والأطعمة اللذيذة والثياب الملونة والأشربة المفرحة والمزارع النضرة والبساتين الجميلة والممالك الواسعة التي يملكها الملوك ، والأرض الواسعة التي يملكها الأفراد ، وأمثال ذلك مما يعرفه جمهور الناس وهو شائع بينهم .

هذا كله موجود مشاهد ، والناس في الشرق والغرب قديماً وحديثاً لا يرون لهم سعادة ولا عزاً ولا مجداً ولا لذة إلا في التمتع بهذه وأمثالها ، فتجد الإنسان مفتوناً بمشوق جميل ملك قياده كعادة هيفاء ، أو بنوع من الشراب يفتن فيه أوقات فراغه ، أو قصصى يقص عليه أخباراً مسلية ، أو جوقة تمثل رواية غرامية . أو السينما (دار الصور المتحركة) التي تعكس صوراً بهجة غريبة .

وبالجملة إن هذه كلها هي التي يفرح بها الناس ويظنون أن هذا وجود حقيقي وهذا خطأ . إن كل هذه متردات بين الوجود والعدم . فمن وقف نظره عليها خانه عقله وأخطأه جده فإن هذه كلها لها وقت فيه تتميز ولا تبقى . فالقصور والبساتين والمزارع والغادات الفاتنات والصور المتحركت في السينما إذا أخذناها باعتبارها هي وأنها مقصودة لذاتها وأن هذا الجمال الذي فيها لا ينطرب شيئاً وراه فإن عقولنا إذن تكون في غاية الخطأ . والدليل على ذلك أن حياتنا محدودة . وكذلك وجود كل هذه المشاهدات التي فرحنا بها . إذن وجودها عدم وأي عقل يفرح بما ليس بدائم . العقل الذي يفرح بما ليس بدائم عقل مجبول . فهذه الصورة الجميلة التي سلبتني لبي وأخذت على مشاعري . وهذه الحديقة الجميلة . وهذا الملك الواسع . وهذه السلطة ، سيحصل أحد أمرين : إما أنى أنا أضعف عن التمتع بها بموت أو مرض أو غيرها . وأما أنها هي تزول أو تفارقني أو تأتي عوارض تحول بيني وبينها . فترى هذه الغادة الجميلة أغرمت بغيري أو ماتت . وهناك ينقلب المشق مرضاً ولهفاً وحزناً . وهكذا يقول أفلاطون : كل هذه الأشياء مترددة بين العدم والوجود فالفرح بها والاعتداد بوجودها والوقوف عندها عدم عقل وضعف في البصيرة . إذن ماذا يفعل هذا الإنسان المسكين الذي كله لا يعرف إلا هذا ؟ فقال : يتخذ هذه الصورة الجميلة . وهذه اللذات المختلفة والقصور والدور والممالك والأبهة وسيلة للتوصل بها إلى إدراك أن هناك جمالاً مطلقاً ومملكاً كبيراً وعدلاً تاماً ونظاماً دائماً لا يعبثه الفناء . ومعنى ذلك أن الفيلسوف يبحث بالطرق العلمية ويدرس جميع العلوم وجميع هذا الوجود . وتقوده تلك الصور الجميلة والنظم البديعة إلى ما وراءها من جمال دائم ومملك واسع وماهذه إلا صور تشف عما وراءها : ويكون كل ما يصبو إليه الجهال من صور جميلة ومال عند الحكيم مذكراً ووسيلة لترقى عقله إلى جمال أتم ومملك أوسع ولذة أكمل مع الدوام بلحظه بعقله ويميش قرير العين بحيث إذا غاب ذلك الجميل أو غدر أو زال ذلك الملك أو المال فإن نفس الفيلسوف سعيدة . ذلك أن محبوبها لم يضب عنها . فإن محبوبها هو الجمال المطلق والمملك المطلق . فأما هذه الصور التي ظهرت له فما هي إلا ظواهر مذكرات بما وراءها لاحتقائق ، فأمثال هؤلاء الفلاسفة هم الذين يجب أن يقوموا بنظام الأمم .

أنا الآن أعتقد أني قدمت لك أيها الذي فكرة عامة عما يريد أفلاطون في جمهوريته ، وهذا القول
الوحيد هنا يكفيك الآن :

فإذا عرفت هذا فهت ماقاله مترجم الكتاب في صحيفة ١٢٢ وهذا نصه : «الفيلسوف الحقيقي هو المرم
كل الغرام ، بالحكمة في كل فروعها ، وعلينا أن نميز في هذا الموقف أدق تميز بين الفيلسوف الحقيقي
وبين المدعى حب الفلسفة تديجلا ، وتستقر نقطة الفرق بينهما في أن الدجال يكتبي بدرس الموضوعات الجيلة
مثلا ، أما الفيلسوف الحقيقي فلا يقف عند ذلك الحد بل يتجاوزه الى إدراك الجمال المطلق ويمكن وصف
حال الأول العقلي بأنه (تصور) وحال الثاني أنه (معرفة حقيقية) أو (علم) فهناك الوجود الحقيقي الذي
يتناوله العلم . واللاوجود أو العدم الذي نسبته الى الجهل نسبة الوجود الحقيقي الى العلم . ويتوسط بين العلم
وبين الجهل التصور . فستنتج أن التصور يتناول الوجود الظاهري . فالذين يدرسون الوجود الحقيقي
يدعون محي الحكمة أو (فلاسفة) والذين يدرسون الوجود الظاهري يدعون محي التصور (لا فلاسفة) .
وفهمت ماجاء في المتن . وأذكر لك بعضه في صحيفة ١٤٨ من الجمهورية إذ سأل سقراط غلوكون .
فلسفراط (س) ولغلوكون (غ) وهالك نصها :

(س) إن الراغب في تذوق كل أنواع المعرفة فيكب على دروسه بسرور ورغبة ولا يكف أن إنسانا كهنه
بحق ندعوه فيلسوفا ألا ندعوه .

(غ) إن وصفك هذا يشمل عددا عديدا . ويضم طائفة مسهجة . ويحب كل عشاق الطلب فلاسفة
لأنهم راغبون في المعرفة . وكذلك المنصبون على سمع القصص ثم طبقة خاصة بين الفلاسفة . أعني بهم الذين
لا يشهدون محاوراة فلسفية . ولا غيرها من أنواع المحاورات على أنهم سامعون مواظبون لا يسيبون عن حفلة
ديونيسية^(١) في مدينة أو قرية . فكأنهم آجروا آذانهم للسمع لكل جوقة في وقتها ، أفتب لهؤلاء لقب
فلاسفة ولأمثالهم ممن لا ذباى نوع من الدروس ولأساتذة الفنون الصغرى :

(س) مؤكد لا بل ندعوم فلاسفة زائفين :

(غ) فمن هم الذين ندعوم فلاسفة حقيقيين ؟

(س) هم الذين يحبون أن يروا الحقيقة .

(غ) لا يمكن أن نخطئ في هذا ولكن هل تريد أن توضح ماتعنه

(س) ليس ذلك سهلا مع غيرك . أما أنت فتجود على التسليم الذي أنشده .

(غ) وما هو ذلك التسليم .

(س) هو فيما يأتي : لما كان الجمال ضد القبح فهما شيثان .

(غ) مؤكد أنهما شيثان .

(س) وإذا كانا شيثين فكل منهما واحد على حدة .

(غ) وهذا أيضا حق .

(س) ويتمشى هذا الحكم نفسه على العدالة والتعدى ، وعلى كل التصورات للعمومية فكل منها شئ .

واحد ، لكنه يظهر متعددا باعتبار علاقاته للتبادلة بالأشياء والأعمال التي بها يتجلى في كل مكان .

(غ) أنت مصيب .

(١) أو مختالية : نسبة إلى باخس ، وهي حفلة شرب ومرح .

(س) واستنادا إلى هذا للبدا أمير بين الدين وصفناهم الآن أنهم عشاق النظر والصناعة ومحبة الفنون ورجال العمل من جهة واحدة ، وبين الذين نحن في صدمهم وهم وحدهم نسميهم فلاسفة في الجهة الأخرى .

(غ) أوضح ماتني .

(س) أعنى أن محي النظر والسمع ينجبون بالجميل من الأصوات والأشكال والألوان والصور ، وكل ما دخلت في تركيبه هذه الأشياء من متوجبات الفن ، ولكن فهمهم يقصر عن إدراك كنه الجمال واعتاقه .

(غ) نعم إنه كما تقول .

(س) أو ليس القادرون على التفكير الحر في الجمال المطلق هم قلائل .

(غ) حقا إنهم قلائل .

(س) فإذا أدرك امرؤ وجود الأشياء الجميلة ولكنه جحد الجمال المطلق وعجز عن اتباع من تقدمه إلى إدراكه ؛ أفلما نحسب حياة إنسان كهذا أم يقظة ، تأمل أليس الحالم ، في يقظة أو في منام ، هو الذي يخلط بين الحقائق وبين الصور المنعكسة عنها .

(غ) اعترف أن امرأ كهذا حالم .

(س) وما قولك فيمن غايره ، تفهم الجمال المطلق ، وامتلك قوة التمييز بين هذا الجوهر وبين الأوساط التي يتجلى بها فلا يخطيء في حسابان الجمال جوهرها ولا الجوهر مجالي ، أفلما نحسب حياة هذا أم يقظة ؟

(غ) يقظة دون شك .

(س) أفلنا مصيبين إذ ذاك ، في تسمية فعل الشخص الثاني المقلد معرفة لأنه أدرك الحقيقة ، وفعل سابقه تصورا لأنه تصور فقط .

(غ) غاية في الصواب .

(س) حسنا ؛ فإذا امتعض من حيناه متصورا لا عارفا ، وغضب علينا مدعيا أن ما قلنا غير صحيح ، فهل لنا من سبيل لتلطيف غضبه وإقناعه برقة ولين ، ساترين عنه حقيقة حاله ، وهي أنه ليس في حال الصحة .

(غ) ذلك أمر مرغوب فيه .

(س) فانظر فيما يلزم أن تقول له . أنت تحسن أن نحادثه مسلين أنه لو عرف شيئا لما حسدناه على علمه أقل حسد ، بل كنا نسر بأنه كما يدعى ، ولكننا نقول له أجب عن هذا السؤال إذا عرف ذو الحجى فهل عرف شيئا أولا شيئا أجب عنه يا غلوكون .

(غ) أجب أنه عرف شيئا .

(س) أموجود ذلك الشيء ، أو لا موجود ؟

(غ) بل موجود ، لأنه كيف يمكن غير الوجود أن يعرف .

(س) أفتثبتون نحن من هذه الحقيقة ، في أية صيغة نظرنا فيها أي أن الوجود حقيقة يعرف معرفة تامة ، أما المعلوم فجهول بتاتا .

- (غ) إنا مثبثون منها كل الثبث .
- (س) حسنا . فإذا كان هنالك شيء متردد في الوقت نفسه بين الوجود وبين العدم أفلا يوضع في رتبة متوسطة بين الوجود يقينا وبين المعدوم بتاتا
- (غ) يلزم أن يوضع .
- (س) فإذا خصت المعرفة بالموجود والجهل بالمعدوم ، أفلا يلزم أن نجد حالة متوسطة بين العلم والجهل تختص بما هو متردد بين الوجود والعدم .
- (غ) يقينا .
- (س) أقول أن التصور شيء .
- (غ) بلاشك
- (س) أفنحسب قوة متميزة عن العلم أم نحسبه العلم نفسه .
- (غ) هو شيء متميز عن العلم .
- (س) فنخص العلم بدائرة نفوذ ، والتصوير بدائرة أخرى بطبيعة مافي كل منهما من قوة .
- (غ) عاما .
- (س) أفليست طبيعة العلم المختص بالموجود هي معرفة كيف وجد أولا ؛ وإلا فهناك فرق واضح يلزم تحديده .
- (غ) وما هو ؟
- (س) إن القوى كجموع قائم بذاته . هي مانعمل به نحن . وكل أحد مايمكن عمله مثلا : إني أدعو السمع والبصر قوتين . إذا كنت تدرك الفكرة الخاصة التي أروم أن أصورها .
- (غ) إني أدركها .
- (س) فاصح ماأراه فيها . لست أرى في القوة شكلا ولا لونا . ولا غيرها من الأعراض التي أراها في مختلف الأشياء . وبها أميز (أي بالأعراض) بين شيء وشيء ؛ أما في القوة فأعتبر وظيفتها ودائرة نفوذها وبذلك توصلت إلى تسميتها فأدعو القوى التي من نوع واحد وتعمل عملا واحدا . ولها وظيفه واحدة (قوى واحدة) ولكن القوى التي تختلف دوائر نفوذها وتنفرع وظائفها فادعوها (قوى متنوعة) فما قولك .
- (غ) هكذا بالتمام
- (س) فأخبرني باصديق الفاضل في أية رتبة تضع العلم أنتحسبه قوة .
- (ع) نعم أدعوه قوة ؛ وهو أعظم القوى كافة .
- (س) وهل التصور قوة أو ندرجه في سلك آخر .
- (غ) لا آخر . لأن ما به تصور لا يكون إلا تصورا .
- (س) وقد اتفقنا الساعه أن العلم والتصوير غيران .
- (غ) وهل يجمع العاقل بين الخطأ والصواب .
- (س) أحسنت فتفق في أن التصور شيء غير العلم .
- (غ) غيره .
- (س) فلسلك منهما بطبيعته ميدان نفوذ خاص وتأثير خاص .

(غ) الاستنتاج قاطع .

(س) فييدان نفوذ العلم هو معرفة طبيعة للوجود .

(غ) نعم .

(س) وميدان نفوذ التصور هو (الظن) .

(غ) نعم .

(س) أفيتناول التصور حتماً وفلامادة العلم . وبجارية أخرى هل مادة التصور هي نفس مادة العلم . أو

إن ذلك محال .

(غ) إنه محال : بناء على ماقررناه أى أنه إذا سلمنا أن للقوى للتنوعه دوائر نفوذ مختلفة . وأن العلم

والتصور قوتان متميزتان . وقد جزمنا بذلك ، فهذه اللقدمات تجعل توحيد مادة العلم ومادة

التصور محالا .

(غ) طبيعي .

(س) فإذا كان للوجود مادة العلم لمادة التصور هي حتماً شيء آخر غيره .

(غ) يلزم أن يكون غيره .

(س) فهل يتناول التصور للمدوم ؟ أو أن تصور المدوم غير ممكن إصالة . افنكر من يتصور الأيوج

أفكاره نحو شيء . أفيمكن أن يكون تصور في الاشياء .

(غ) غير ممكن .

(س) فن يتصور فقد تصور شيئاً .

(غ) نعم .

(س) ولكن المدوم لا يدعى شيئاً بل هو لاشيء .

(غ) بالتمام .

(س) وقد الزمنا أن نخس الجهل بالمدوم والمعرفة بالموجود .

(غ) وبالصواب فعلنا .

(س) فموضوع التصور ليس الموجود ولا المدوم .

(غ) لا هذا ولا ذاك .

(غ) فليس التصور معرفة ولا جهلا .

(س) أفيستقر وراء أحدهما ، فيفوق المعرفة بقينا ، ويفوق الجهل إبهاما .

(غ) يظهر أنه ليس كذلك .

(س) قتل : أنحسب التصور أقل وضوحاً من المعرفة ، وأقل خفاءً من الجهل .

(غ) نعم وهو متميز عن الاثنين كثيراً .

(س) فهو إذا بين هذين الطرفين .

(غ) نعم .

(س) فنحسب التصور إذن شيئاً بين الاثنين .

(غ) بالتمام .

(س) أو لم تقل الساعة إنه إذا بان لنا شيء أنه موجود وغير موجود في وقت واحد ، فيجب وضه بين الوجود الحقيقي وبين المدوم المطلق . فلا يكون إذن مادة علم ولا مادة جهل : بل هو مادة قوة ثلاثة بين العلم والجهل يجب اكتشافها .

(غ) قلنا ذلك .

(س) وقد اكتشفنا الآن قوة بين الاثنين دعوناها تصورا .

(غ) واضح أنا اكتشفناها .

(س) بقي أن نكتشف ما يشترك في الوجود والعدم ، وليس هو أحدهما بكتبه فإذا ظهرت لنا ماهيته دعوناها بحق (مادة التصور) ناسبين للطرفين ماهو لهما ، وللوسط ماهو له ألت مصيبا .

(غ) إنك مصيب .

(س) فإذا وضنا هذه القروض ، فإني أسأل ذلك الرجل المعتبر الذي يذكر وجود شيء كلي ، أو أي صورة من صور الجمال المطلق ، التي تظل إلى الأبد كما هي غير قابلة للتغير ، مع أنه يعترف بوجود أشياء عديدة جميلة ، ذلك الذي يجب المنظورات ، وهو لا يحتمل أن يقال له إن الجمال واحد وأن المدالة واحدهم جرا ، فأقول له ؛ ياسيدي العزيز أ يوجد بين كل الأشياء الجميلة شيء واحد لا قبس فيه ، وبين كل الأشياء الماددة عادل واحد لا ظلم فيه ، وبين كل الأشياء الطاهرة طاهر واحد لا دنس فيه .

(غ) كلا بل تظهر كلها بلا تخلف ، جميلة وقيحة ، عادلة ومعتدية بارة ودنسة باعتبارين

(س) وأيضا . ألا يمكن اعتبار المضاعفات الكثيرة إنصافا علاوة على أنها مضاعفات .

(غ) تماما كما أنها أيضا مضاعفات .

(س) وجريا على الأسلوب نفسه هل للأشياء التي ندعوها كبيرة ، وصغيرة وخفيفة وثقيلة حق في أن تدعى كذلك أكثر من أضعافها .

(غ) كلا بل كل منها يمكن أن يدعى بالإسمين على السواء .

(س) فتكون أقرب إلى الصحة إذا وصفنا كلاما من هذه الأشياء بأنه قد يكون وقد لا يكون كما وصف

(غ) إنك تذكرني بأحجية التضاد التي تتلى على موائد الطعام (للتسلية) ولنز^(١) الأولاد عن الحصى

التي رمى الحفاش بما رماه به ، هو جاتم على ماهو جاتم عليه . لأن الأشياء الشار إليها فيها النמוש

نفسه فلا يمكن الإنسان أن يميز هل هي موجودة ، أو غير موجودة معا .

(س) أفيمكنك إفادتي ماذا تعمل بها ، أو هل عندك رتبة لها أفضل من الرتبة الوسطى بين الوجود

والمدوم لأنها في مذهبي ليست أخفى من المدوم لتكون أكثر عدما منه ، ولا أوضح من الوجود

فتكون أثبت منه وجودا .

(غ) إنك مصيب كل الاصابة .

(١) تقول الأحجية : قيل إن رجلا وليس برجل ، رمى وماري ، طائرا وليس طائرا جانما وليس

جانما . على غصن وليس بنصن . بحجر وليس بحجر . وهكذا وقد فسرت هذه الحكاية

نوعا في اللين .

- (س) قد اكتشفنا أن الأفكار الشائنة في الجمهور في العدالة والجمال وأخواتهما هي تأنية بين الوجود للطلق وبين عدم المطلق .
- (غ) اكتشفنا .
- (س) وقد سلنا سابقاً أنه إذا ظهر شيء من ذلك دعى تصوراً لا معرفة . وإن ما يتراوح بين الأمرين فيهم بقوة متوسطة .
- (غ) قد سلنا هذا التسلم .
- (س) ولذلك حين تقع عين الناس على شئ الأشياء الجميلة ، ولكنهم لا يقدرّون أن يروا الجمال بالذات ولا أن يتبعوا من يقوّم إليه . وحين يرون أشياء عديدة عادلة ولا يرون العدالة بالذات . وهكذا في كل مثل . فلنا نقول أن لهم في كل موضوع تصوراً . لا معرفة حقيقية في الأشياء التي يتصورونها .
- (غ) الاستنتاج ضروري .
- (س) ومن الجهة الأخرى . ماذا يجب أن نقول في أولئك الذين يفكرون في الأشياء على ما هي في ذاتها كأنه دون فناء ولا تغير ؟ أفلا نقول إنهم عارفون وليسوا متصورين .
- (غ) وهذا أيضاً استنتاج ضروري .
- (س) أفلا نقول أن هؤلاء يحبون بمواضيع المعرفة ومحبتها وأولئك يحبون بمواضيع التصور لأننا لم ننس أننا قلنا إنهم يحبون ويطلبون الأصوات والألوان البديعة ونحوها من الأعراض ولكنهم لم يسمعوا بوجود الجمال المطلق .
- (غ) لم ننس .
- (س) أفتخطئ إذا سمينا محي التصور . بدلا من تسميتهم (فلاسفة) أو يستاءون كثيرا إذا أسميناهم كذلك .
- (غ) كلا إذا قبلوا رأيي . لأنه من الخطأ أن يسوونا الحق .
- (س) فالذين يحبون للوجود الحقيقي . في كل موضوع لا ندعوم محي التصور بل فلاسفة .
- (غ) نعم . من كل بد . انتهى الكلام على الجوهرة الأولى .

الجوهرة الثانية

في ذكر ما خطر بقلبي وملاءة جمالا وبهجة وسرورا صباح يوم السبت ٥ رمضان سنة ١٣٤٩ . ذلك أني بينا أنا بين اليقظة والنوم صباحا إذ تجلّت لي هذه الدنيا بهيئة جميلة . وازينت بزينة بهجة بديعة . وخيلت لي الأرضون والسموات وما بينهما بهيئة غير ما أراها بصرى . وهذه حال يحجز قلبي عن التمييز عنها . فما أسرع خاطري للتفكر فيها . وما أبهج قلبي بمشاهدة مناظرها الخيالية فهناك هناك خيل لي كأن قاتلا يحدث عثلي ويقول : « يا عجباً لهذا الجمال الصون عن الجهال . إيه أيها الإنسان . إيه يا أهل الأرض ، واهالك ، هذه الشمس وهذا القمر ، وهذه النجوم ، وهذه الأنوار مرملات اليك وأتم لا تبصرون . لا لا ، أتم أرواح من الطراز الضئيل ، يظهر أنكم كنتم في عالم غير هذا ولم تصلحوا لقيادته

ولا لسيادته ، فأقصيتم عن المكان الرفيع ، وأنزلتم إلى هذا المكان ، أصلكم شريف ، أتم من عالم أهل
 أتم من نور ، أتم من أصل كريم ، أتم نور من الله ، ولكم ضعفتم عن أن تسبروا على سنته فكانت
 هيئتكم كهيئة ماتعافونه من قمامات النازل ، وماتسمدون به الأرض من كل مالا يصلح لذالكم ولا انتفاعكم
 فأنتم تجعلونه سادا لزرعكم فيكون الحب والحضر والفاكهة : إن السداد من مادة النبات والجاهل بحقره ،
 ولكن العالم المدارس يرى المادة واحدة ، ولكن السداد تنزلت مرتبته عن الفاكهة ، لما هي إلا شهر معدودة
 فيزول وصفه القديم ويكسب وصفا شريفا يؤهله أن تحبه نفوسكم ، فنفسكم شريفة من العالم العلوي ، ولما
 عجزت عن أن تسير على القانون الإلهي أنزلت إلى هذه الأرض (وتشير لذلك قصة آدم) والقانون الإلهي
 يرجع إلى أمرين اثنين . وهما حب العلم ، وحب الأمم . الله لا حد لعلمه ، ولا حد لإنامه على الخلوقات ،
 ولكن أرواحكم لم تقو على السير على سنته فأرسلت إلى هذه الأرض . ومن درس هذه النفوس البشرية
 اعتراه العجب منها . ذلك أنه يجد أنها مجبولة على حب ذواتها تريد أن تجعل العالم كله خادما لها . وجميع
 السحرة في هذه الأرض وكل رجال السياسة هم والشحاذون على حد سواء كلهم يريدون أخذ مال القير بسهولة
 أي يريدون أنفسهم لا غير . فالساحر وقارى المزعة ورجل السياسة الذى يحكم الأمم لمجرد شهوات أمته
 لا لرفي تلك الأمم . كل هؤلاء قوم شحاذون أو لصوس أو قطاع طرق ، بل كل شيوخ الدين ورجال
 الصوفية (غير الصادقين) أى الذين يحبون الشهرة لا غير أو جمع المال فهؤلاء . وهؤلاء كلهم شحاذون وقطاع
 طرق ولصوس .

وبالجملة كل من لا يريد إلا نفسه فإن نفسه لا تزال ضعيفة ، لا فرق في ذلك بين الفرد وبين الأمة وبين
 السوق واللوك ، فهؤلاء جميعا لم يخرجوا عن أنهم في هيئة أطفال ، فشيوخهم وشبانهم وكهولهم كأطفالهم
 على حد سواء .

خلقت هذه الصفة في الإنسان في حال صباه ، وألم أن يسمى لرزقه ويكد ويكدح ، وفى أثناء ذلك
 قرأ العلوم وعرف الصناعات ، كل ذلك لشهوته الخاصة لأن روحه لم تقدر على أكثر من ذلك ، ولكن
 بعض هذا الإنسان فى أثناء بعته يظهر له أنواع الجمال والعلوم فيقع نطق عقله يوما فيوما فيرى شجوسا
 وأقارا وأراضى ومعارف وأما ، ويرى دائرة وجدانه تنسع فيرى زوجة وولدا وعشيرة وقرية وأمة ،
 فيحس فى نفسه محب واتصال بهؤلاء ، فكلمتا اتسع وجدانه زاد إحساسه بهؤلاء ، فلا يزال الإنسان فى
 استكمال قواه حتى يصبح فيجد نفسه محب سعادة جميع نوع الإنسان ، وأن يكونوا أمة واحدة . أو ما يشبه
 ذلك بقدر الإمكان .

هذا من حيث العمل ، أما من حيث العلم فإنه يرى هذه العوالم كلها جنته وسعادته ، فيكون مغرما بالعوالم
 كلها فهما وبصيرة لا تنما زائلا ، هنالك تصل هذه الأرواح الأرضية إلى عالم أرقى من هذه الأرض وتقرب
 من ربها وتكون رياضتها فى أرضا مشابهة بعض الشابهة لما يحصل فى القمامات للزهداة فى الأرض من
 انقلابها نفاحا وموزا وتمرا .

وهانها أخذ يقول وأنا أسمعه : « هذه الأرواح الأرضية يحيط بها الجمال وهى لا تقفه ، شموس وأقار
 وأرضون وأنوار تحيط بهم أفلا يملقون ! هاهنا رحمة لا حد لها ، وجمال لانهاية له وعناية تامة تحيط بكم ، والله ليل
 على رحمة الله التى لا حد لها وعلمه وعنايته أن نفوسكم مع قهورها وضمفها واقتصارها على لذة نفسها وما ينفعها
 فى حياتها وتفاضها عن منفعة الآخرين أحيطت بكل جمال وكاله من أنوار الكواكب والأقار والشموس
 والهواء واللأ والطاء والنم ، ولما كانت لضمفها لا تقوى على النظر إلى وجه ربها ، وهو لشدة رحمتكم لكم

وخصه عليكم بحب إنكم رونه لتبتهجوا به لأنه كرم إذا كم صوراً جميلة وبث زيبته في كل مكان ، وأودع في قلوب الآباء والأمهات رحمة ، وفي قلوب الملوك والحكام غيره على ممالكهم بالمحافظة عليها ، وفي قلوب اليربين والأساندة والأمهات والمراضع عطفًا وشفقة على من يقومون بم تربيته أو تغذيته ، وعم الرحمة في كل حيوان كل ذلك إن هو إلا مظاهر لجلاله ولرحمته ولصنائه ولعلمه ، أرسلها لهذه الأرواح من وراء حجاب لما عجزت نفوسكم أن تنظر إلى ربها فعلا ، ومن الرحمة العظيمة أن الصور الجميلة لا تبقى على حال واحدة وهكذا الأمهات والآباء وكل ما تملكون ، فهذه كلها تسلب منكم ولا تبقى ، فاقه يقول لكم : « يا أهل الأرض . فهمتم عطف الأمهات وعشق القادات والتمتع باللذات والنظر السارات . ها أناذا أريكموه ولكن أسلبه منكم رحمة بكم لتفكروا ، أهذا التمتع به السلوب منا هو الذي نقر به عيوننا ، أم هناك ما هو دائم ثابت نقرح به بلا انقطاع » فبين الإعطاء والتمتع يكون التفكير ولا وصول لكم إلا بهذا . أنا سلطت بعضكم على بعض وكل يحارب الآخر أفراداً وأماً . وفي أثناء ذلك تحدث المعرفة فيعرف الغربي الشرقى والعكس . ذلك لأن نفوسكم خامدة ولا وسيلة لإنعاشها بحسب ضعفها إلا بأن يقال لها حاربي لتغضى . وهامى ذه الحروب الصليبية جرت مقم العلم والمعرفة وبها عرف الصليبيون علوم المسلمين مع أنهم جاءوا لإبادتهم . هذه الحرب العظمى وضمت لإشباع الشهوات ولكن أعتسها منافع عامة ككثرة الكلام في السلام العام وارتفاع فن الطيران . وبعض ما استعمل للحرب أصبح نعمة في السلم مثل الآلات المهلكات المستخرجات من نفس (الأوزون) الذي هو أحد عنصرى الهواء فإن ألمانيا حولتها بعد الحرب إلى سجاد . والحرب الفصل في انتشار هذا الاختراع . كل هذا ناتج من قصور هذه الأرواح فإنها مجبولة على حب النفس وتجهل غيرها ولكن هذه الآنانية استخدمت وسيلة للمنفعة العامة . هذه أخلاق هذه النفوس . فسياسة الأمم العامة هي بينها سياسة الله في الأجسام . فالمرء يأكل لذته وإزائة جوعه ، ولكن التصود بقاء حياته . ويقرب الأثنى لجرد اللذة ولكن الحكمة العامة تريد الولد لدوام نوع الإنسان .

فتيجة هذا كله أن النفوس الأرضية لما ضعفت عن اللحاق بالأرواح الإلهية من حيث عموم العلم وعموم الرحمة وعموم الجمال ، تجلى الله لها بالجمال في عوالم تناسبها كالأقمار والشموس ، ونسبة جمال هذه العوالم إلى جمال مبدعها كنسبة ضوء أنوار الشمع والبتروال إلى ضوء الشمس ، ونسبة هذه العوالم إلى كمال مبدعها كنسبة الساعة التي نعرف بها الوقت إلى الشمس العظيمة التي تدور أرضنا حولها وتنظيم الأوقات العامة .

الإنسان مغمور في الجمال ، وفي الكمال وفي العلم ، وهو لضعفه قصير النظر والله لعطفه وكرمه يأخذ بيده والإنسانية كلها سائرة إلى هذا الخير في عالمنا وفي عوالم أخرى إلا ماشاء الله . كتب صباح يوم الأحد (٦) رمضان سنة ١٣٤٩ هـ الموافق ٢٥ يناير سنة ١٩٣١ م

هذا كله سر من أسرار القرآن

مخبوء في حرفين : حاء ، وباء

وما إن كتبت هذا العنوان حتى حضر صديقي العالم الذي اعتاد مناقشتي في هذا التفسير . فقال : ما هذا العنوان ؟ أتريد أن تقول أن ما ذكرته أنت وما ذكره الخطيب المصري من أمر النفوس الإنسانية وأن الحياة التي لها نهاية لا تستحق العناية وهكذا ما ذكر أفلاطون أن كل ملائكة له من الصور وللتابع لقيمة له أقول إن هذا كله في حرفين اثنين في القرآن وهما حاء وباء . وإن أخاف أن أحدا ممن يسمعون هذا أو

يقدمه من السليبي (لا أنا طبيبا) يقول إن هذه مجازفة وإغراق ، فأى حرفين في القرآن يفيد أن هذه
 للعاتي ، وأى حاء وباء تريد . إن هذا القول أمره عجب . قلت : أيها الأخر الفضال ماذا جرى ، لعلك
 اليوم فلت ما يفعله بعض الناس إذ يسمع « لا تقربوا الصلاة » فيقول الصلاة منهي عنها ، أفلا تصبر حتى
 أخبرك الخبر بعد المبتدأ . فقال : ولكن هذا العنوان نفسه هو التي حفزني أن أقول هذا القول لأنه
 عنوان غريب ، وأنا مشفق على التفسير أن يطعن فيه الطاعنون . قلت : ها أنا ذا أشرح لك أيها التدي
 ما تريد ، أتذكر آية إبراهيم في الأنعام . قال نعم . قلت ماذا فيها ؟ قال إنه أيقن بالله ، وهذا الإيقان بسبب
 أنه ظن أولا أن الله هو الكوكب ، ثم لما أفل قال أنا لأحب الأفلين ، ولما رأى أن القمر أبهى من النجم
 قال هو ربي . ولما أفل أظهر الحيرة تمليا لقومه ورجع إلى ربه ، ولما رأى الشمس بازغة فعل كما تقدم ،
 ولما أفلت وجه وجهه لله ، هذا هو ملخصها . قلت له : ألم تتري أثناء هذه القصة التي ذكرتها على هذا السر
 فقال : وأى سر أهو الحام والباء ؟ قلت إي وربي . فقال : أى حاء وباء ؟ قلت : ارجع وفكر في الآيات
 فقال : لا أرى شيئا . قلت : ألم تعلم أنه نفي الإلهية عن الكوكب وعن القمر وعن الشمس لأنها متحركة
 والإله لا يتصف بالحركة لأن ذلك فعل الحادث ، ولأنها غابت بعد الظهور ، والإله لا يغيب بل معناها كنا
 وما يغيب لا يكون لها ، فالألوهية يناقضها الحركة ويناقضها غيوبتها . فقال : هذا حسن ولكنه لم يأت
 بالفائدة المرجوة وهي بعبدة عما تريد أن تبرهن عليه . فأين الحاء والباء ؟ قلت : أنا أتركها لبحثك أنت
 لأن العلم إذا جاء عفوا لا يفيد ، والرزق كذلك ، بل نفس الآية معناها أن معرفة الله إذا جاءت عفوا لا تثبت
 لها ، وإلا فلماذا ترى إبراهيم يفكر في الكوكب والقمر فالشمس ! أليس هذا معناه البحث ، فأنا أفل معك
 ما فعله الله مع إبراهيم وإذا كان إبراهيم نبيا وعمول هذه للعامة تمليا لقومه أفلا أعاملك أنا كذلك ؟ فلتبحث
 أنت عما رمزت لك به . هنالك أخذ يكرر الآية مرارا ويقول : « الحاء في (حنيفا) ولكن أين الباء ،
 والحاء في (حاجه) ولكن أين الباء ، والباء في (إبراهيم) ولكن أين الحاء ، ثم رجع ثانيا وقال ،
 أهما مجتمعتان أم مفترقتان ؟ قلت فكر بعقلك ولا تسألني ، وأضاع زمنا ثم قال : نعم (لا أحب الأفلين)
 قلت نعم . فقال : أنا والله إلى الآن لا أفهم في « لا أحب الأفلين » معاني تتضمن كلام أفلاطون وكلامك
 وكلام الخطيب المصري ، فإذا تفضلت بشرح هذا اللقاه كنت لك من الشاكرين ، ويشكرك المسلمون بعدنا
 أجمعون . قلت : أيها الصديق : إن إبراهيم لما رأى الكواكب والقمر والشمس كان عند كل واحد منها
 يقول في نفسه انه مسخر مغمور لأنه متحرك وهو يغيب ويحضر والإله لا يكون كذلك . قال نعم . قلت :
 فكان مقتضى الظاهر أن يقول أنا لا أعبد الأفلين لأن اللقاه مقام العبادة ، ألا ترى أنه قال « هذا ربي »
 ولما رأى أنه لا يستحق الربوبية حصل له شك فيه بل إنكار ، فمقتضى الظاهر أن يقول مثلا « هذا ليس
 ربي » لأنه على خلاف صفات الرب وإذا لم يكن ربي فلا أعبد ، فهو قال هذا ربي ، وعند الإنكار يقول
 هو ليس ربي ويلزم من ذلك انه لا يجيد فهو لم يقل هذا ولا ذلك ، ولكنه عبر بعبارة عجيبة وهي أنه نفي
 الحب عن لا يتصف بصفات الرب ، وهذا هو السر ، وقوله « أحب » للنفي بلا مشتمل على أربعة حروف
 المحمز وهي زائدة والحاء والباء مضاعفة فرجع الأمر إلى الحاء والباء . فقال : أنا فهمت الآن ولكن لم
 أصل للمقصود . قلت : نعم سأوضحه .

اعلم أيها التدي أن العابد إما أن تكون عبادته من أجل الرهبة ، وإما أن تكون عبادته من أجل
 الرغبة ولم يكن عابد في هذه الأرض يبدي الله إلا لأحد أمرين : إما أنه خائف من الله فلا يدخله جهنم ،
 وإما أن يجده لأنه طامع في دخول الجنة ، أو لجرد الحب . فالعبادة إما لحوف وإما لرجاء ، فلا عبادة إلا

على هذا الخط وخير الجميع أن يجده جباله وغرأما به وشوقا إليه وعشقا له ، وهذه العبادة هي المنبغية على
 الحب ومستحيل أن يحب الإنسان أحدا إلا بعد معرفة أعماله وصفاته فيعشقه . قال نعم هذا التفسير كله على
 هذا النمط . قلت فكل فأبدي في الأرض لا تكون عبادته إلا عن رغبة أو رهبة ، وعبادة العابد التي أحب
 ربه أحد قسمي الرغبة . فقال نعم . قلت : إذن للذكور في الآية من أحد شقي سبب العبادة وهو الحب
 والعبادة فرع الاعتقاد في الربوبية . فقال حسن . قلت : ها هنا وصلنا إلى القصد . فانظر رعاك الله إلى
 ما أقول : ألت ترمى أن كل ما تقدم من كلامي وكلام أفلاطون وكلام الخطيب المصري راجع إلى أمر واحد
 وهو أن مالا يبقاه ولا دوام يحب علينا أن نحقره وأن هذه الحياة الدنيا القصيرة ليس من العقول أن تكون
 لها قيمة عند العقلاء أصلا إذ لم يكن لها دوام ، وهذا هو قول الخطيب المصري المتقدم ، واستنتج من
 هذا أن الحياة تدوم وإلا كان كل هذا عبثا وهوا وجاهلة . فقال بلى . قلت : ألم تر أن كلام أفلاطون
 يرجع برهانه إلى أن العقول الصغيرة تنفق عند ظواهر الجمال والمال والثروة ، وحقر هذا كله وحكم على
 أكثر عقول الإنسان أنها خاوية جاهلة إذ تظن أن هذه الصور الجميلة والأغاني وكل ما في هذه الأرض
 من زينة محل للتمتع ومناط المسرة والسعادة وهي كلها ذاهبة ، وكيف يفرحون بما لا يثبت له ، ثم أفاد أن ماله
 ثبات وهو الجمال الطالق الثابت الذي لا تدركه الحواس وإنما يدركه العقل هو الذي إليه تتجه الهمة والعقول
 فقال بلى والله . قلت إذن الحياة التي لا يبقا لها لا يصح أن يحب ولا يبذل عليها . وكل ما هو جميل أو نافع ثم هو آفل
 وذاهب لا ينبغي أن يكون محط الرجال ولا هو مناط الآمال . قال نعم . قلت : أليس هذا كله معناه أن المحبوب الحقيقي
 هو الذي يبقى فقال بلى . قلت إذن ثبت أن العلم والحكمة أثبتا إثباتا حقيقيا لا نشوبه شائبة أن كل هذه الحياة الدنيا
 وكل صورها لا ينبغي أن تكون مقصودة لذاتها بل مقصودة لغيرها ، وذلك الغير هو الذي يحب وتكون هذه
 المحبوبات الوقتية مذكرات بالمحبوب الدائم . وهذا المحبوب الدائم يمدح به هو اللجنة أونازر . إذن أصبح هذا النوع
 الإنساني بدرهين الفلسفة التي خضعت لها جميع حكما ، أوروبا والشرق وهي فلسفة سقراط وأفلاطون وما يوافقها
 من كلام غيرهما ، كله إلا قليلا وإهما في أمر المحبة ؛ فالمحبة التي على غير هذا النمط محبة جاهلة . فقال نعم
 قلت : إذن قد وصلنا إلى القصد وهو أن التعبير بقوله « لا أحب الآفلين » قد حوى تلك المعاني . فإذا
 كانت حياة الناس على الأرض ليس لها إلا هذه المدة الوجيزة ثم تفض قهي حياة لا تستحق الاهتمام فلا
 يصح الحرص عليها لأنها لا تستحق الحب ، وهذا كلام الخطيب المصري ، وإذا كان كل ما في هذه الدنيا من
 لثا والولذ والصور الجميلة ، وما تملك من عقار ومال ومتاع . وما نسمع من الألحان ، وما نستلذ به من
 أنواع المشروبات والمذوقات والموسمات والمسوعات والمنظورات . جميعه متغيرا لا يبقا له مالا يبقا له لا ينبغي
 للعاقل أن يحبه بل يحب سببه الدائم الذي يعرف بالعقل لاهو كما يقوله سقراط . أقول : إذا كان كذلك
 أفليس هذا هو معنى « لا أحب الآفلين » أي أن ما يغيب ومالا يبقى لا يصح حبه . فقال الله أكبر . الله أكبر
 جل العلم وجلت الحكمة . وهناك اعترته دهشة وقال والله لم يكن ليخطر لي أن هذه المعاني يحويها القرآن
 وهذه أسرار غريبة ، هذه أوروبا وهذه أمريكا وهذه الأمم حوانا يعظمون سقراط وأفلاطون ويتخذون
 الجمهورية نبراسا لهم ويقرونها أبوابا لتربية الجيوش والأسرات ويقدمونهم ويقولون إن الله لم يخلق مثلهما
 في العالم الإنساني . فهذان المقدسان عندهم المظمان هما اللذان أتيا بهذه النظرية أي نظرية الحب وأنه لا ينبغي
 أن يكون لغير الباقي وهذه شملت كل ما جاء في الجمهورية وهما عن أولاء وجد . في معنى الحب .
 ثم أخذ يقول : فليحضر علماء البلاغة قديما وحديثا وليقولوا ما شاءوا . فهذه هي البلاغة . وهذه هي
 الحكمة وهذا هو العلم . الله الله الله ، هذه هي المعجزة التي لا نظير لها .

أبها المسلمون : انظروا فلسفة أفلاطون وسقراط . وملخص الكتاب الخامس من جمهورية أفلاطون دخلت في القرآن بل في حرفين اثنين .

يا إخوتائي أبناء العرب أبناء مصر وبلاد شمال أفريقيا وسوريا والعراق والوصل ونجد واليمن تماثوا انظروا ديننا ، انظروا قد حوى جميع علوم الأمم ، ها نحن أولاء نرى حرفين ابتلما أعظم الفلسفة .
لنشعروا عن ساعد الجهد ، ولتدرسوا علوم للشرقين وعلوم للغربين ، ها ها ، ها أنا ذا عرفت ، عرفت مايشيح على الألسنة أن القرآن فيه علوم الأولين والآخرين ، فذلك من هذا الوادي يكون ، فإذا سمع السلم « قل انظروا ماذا في السموات والأرض » علم أن كل العلوم مطلوبة ، وإذا بحث وفكر في عجائب العلوم استخرج جزئياتها من بعض الكلمات أو الجمل ، اللهم إنا نحمدك على العلم والحكمة . فقلت الحمد لله الذي أقر عينك . ففرفت أني ما كتبت عنوان المقالة مجازفة أو غلوا أو إغراقا ، فأنا كنت في أول حياتي أشك في كل شيء ، فكيف أكتب مالا أوقن به أو ماليس مبنيا على برهان .

هنالك ذرفت عيناه بدموع الفرح . وقال : أريد أن تفيض بعض القول في عوالم السموات وجمالها . فقلت ياسبحان الله ، إن هذا الكتاب أكثره في عالم السموات ، فقال ولكن لماذا نسمع الله يقول في آية الكرسي (بعد ذكر السموات والأرض) « وهو العلى العظيم » . فقلت : حسن . اعلم أن هذه من الأسرار التي تجلت للخليل عليه السلام وهي تتجلى لبعض النفوس الشريفة الإسلامية ، وذلك أن الإنسان إذا فكر في النجوم واستحضرها بحياه - لاسيا إن كان دارسا لعم القلك ، وقد درس قبل ذلك العلوم الرياضية التي تعرفه عجائبها - تحدث في نفسه روعة وإعجابا ومحس بجمالها ورفعتها وعلوها وعظمتها ، فيقول في نفسه [إن خالقها على عظيم وجميل أيضا] ، فالملو والمظمة ذكرت في آية الكرسي تذكيرا بما يحظر للفكرين من العقلاء فضلا عن الأنبياء . فقال : وهذه أيضا من أسرار البلاغة التي لم يعلمها أحد قبل هذا الزمان . ثم قال : ولكن هنا أمر يؤسف له . لماذا لا نرى في النوع الإنساني أثرا عظيمًا لرب الله المذكور في الآية « بحمهم ومحبتهم » و « لا أحب الآفلين » فإن مقتضاه أن الإنسان يحب غير الآفل وهو الله ، وهذا الحب قليل أو صئيل ؟ فقلت : أبها الحبيب . أكثر الناس في هذه الأرض يحبون ربهم . وهذا الحب غير واضح لهم وعلى قدر اكتناه العجائب بزاد الحب ، إن حب الله مغطى بألف غطاء ، فإن السموات والآلام والعداوات والأمراض والحسد . كل ذلك قد غطى على هذا الحب ، ولو ظهرت هذه العجائب للناس لتقطعت قلوبهم من العشق والحب . كيف لا ونفس الجسم الإنساني لا حد للكمال الذي فيه ، وهذه النفس الإنسانية العجيبة . هنما التي جعل هذا الملح لها مزرعة تزرع فيه أنواع العلوم والمعارف وفي كل منطقة من مناطقه يزرع علم مخصوص من رياضيات وطبيعات وإلهيات حتى إن العلماء عرفوا تلك المناطق بعض المعرفة اليوم وفوق هذا علم النفس الذي جاء بطريق التجربة في عصرنا وسترى بعضه في أول [سورة الجاثية] عند آية « وفي خلقكم » الخ .

فهذا العلم أظهر أن في النفس عجائب لا تزال عجيبة وستعجب مما ستقرؤه هناك فهذه العجائب في نفوسنا وفي أجسامنا وفي العوالم حولنا لو أنها كشفت لنا ولم تغط بالمرض والحسد والعداوات والحروب لهلك الناس من عشق مبدع هذه العوالم ولكن هذه الأعطية من النعم العجيبة التي أنعم الله بها على الناس حتى يقدروا أن يعيشوا في الأرض وإن كانوا معذبين فجياة مع هذا العذاب خير من العدم .

إن الله مزج الضار بالنافع رحمة بنا ليصرف عقولنا عن هذا الكثر المحبوس في الدنيا وهو الجمال الباهر حتى نتسع عقولنا وإذا ذلك يسره لنا في عالم الأرواح وهي القامحة تراه يذكر الرحمة وبتبعها بقوله « مالك

يوم الدين « فيها شدة ولين كما نراه جعل في النبات قوة امتصاص الكربون من الجو بمساعدة المادة للآونة في الورق مع ضوء الشمس وهذا الكربون يتحد مع الماء فيكون هناك النشاء والسكر ومادة (السيلولوز) التي منها القطن والكتان، وهذه المادة تجعل في الحويصلات التي يتركب منها النبات غطاء حلف كل خلية من الخلايا التي يتركب منها النبات، لجميع الخلايا مغلقة بهذه المادة كما تقدم مرارا فها هنا في النبات مادة الحياة داخل كل خلية وكل خلية يحيط بها غلاف يحفظها فهذا الغلاف فيه معنى الملك والحفظ « مالك يوم الدين » وداخل الحويصلة مادة وهو معنى « الرحمن الرحيم » فهكذا كل العالم فيه ما يبرنا وفيه ما يؤلمنا. فالملوم أشبه بغطاء حافظ لما يبرنا فهذه الشرور مانعات حياتنا من الانحلال لأننا لو عرفنا جمال هذا الوجود لم نتحمل نفوسنا هذا الجمال فنشئ عليها بالمصائب والبلايا والمرضى والموت حتى لا نعرف الحقائق دفعة واحدة بل تتلصق شيئا فشيئا بالتعلم والدرس والرياضة والعبادة فالعجائب أشبه بمادة الحياة في حويصلات النبات وخلاياه، وحوادث الدهر أشبه بما يغلفها من مادة السيلولوز الحافظة للخلية الواحدة ، ومن الخلايا كان كل حيوان وكل نبات ، فهذا هو السبب في عدم ظهور حب أكثر النوع الإنساني لصانع هذا العالم الحكيم العليم ، فقال. الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الأولى كتب يوم الخميس ١٠ رمضان سنة ١٣٤٩ هـ ، و ٢٩ يناير سنة ١٩٣١ م .

اللطيفة الثانية

في قوله تعالى « وهو الذي ينزل الغيث » الخ

جاء في جريدة الأهرام في يوم ٦ يناير سنة ١٩٣١ ما يأتي :

أشجار يرجع تاريخها إلى قبل ١٥ مليون سنة

« اكتشف في غربي كندا بقايا أشجار يظن أنها ما نبتت في أمريكا الشمالية قبل خمسة عشر مليون سنة وقد أحدث اكتشافها ضجة في القامات الجيولوجية لأنه يثبت بالنظريات الحالية فيما يتعلق بالأزمة السابقة للأزمة المعروفة في التاريخ . وهي قد اكتشفت في السنة الماضية في بطن الرمال بحمة (فورد مكوراي) فأرسلت إلى علماء الجيولوجيا الذين في خدمة الحكومة ، وهم بعد بحث طويل دقيق يقولون الآن : إن وجودها يثبت بالنظريات المشار إليها ، ويؤخذ من التقارير الأولى أنها نبتت ونمت على ما يظهر في العهد الذي كانت فيه طبقة سطح الأرض في دور التكوين . ويقول الدكتور (بيلاي) وهو عالم كبير معروف : إن هذه الأشجار هي من نوع الأشجار التي كانت تنمو في أرض اليابان . وهذا القول يعزز نظرية القائلين إن شمالي أمريكا وآسيا كانا في غابر الأزمنة قارة واحدة ، وسيقوم العلماء بمباحث جديدة في السكان التي اكتشفت فيه بقايا تلك الأشجار » انتهت اللطيفة الثانية .

اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى : (ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الريح فيظلمن رواكد
على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور)

اعلم أبتك الله بالعلم أن هذه العوالم كلها آيات الله ، ولكن ليس يدرك ذلك إلا أناس امتازوا بأمرين :
الصبر والشكر ، والصبر أقسام كثيرة ، صبر على البأساء وهو الفقر ، وعلى الضراء وهو المرض ، وعلى البأس
وهو الحرب ، وعلى طلب العلم ، وعلى القناعة والاكتماء باليسير ، وعلى الصدق في القول والعمل والعبادة ،
وجميع أنواع الطاعات . وهذا الصبر يتحد مع الشكر في كثير من مواطنه ، والشكر لا يتم إلا بمعرفة النعم
ولا تعرف النعم إلا بالدراسة ، وكيف تم الدراسة إلا بالصبر عليها ، فهنا صبر وهنا شكر أعدها عملاً واختلافاً
تسمية ، فقل لي رعاك الله ، أيعرف نعمة الرياح المهربات للسفن وللحباب كل إنسان وكل حيوان . كلا . فإن
كل ذى عينين يدرك الحقائق ، وكيف يدرك الإنسان الحقائق إلا بالفهم والعمل ، فهناك مسألة جرى الرياح
هل تعرف إلا بالصبر عليها ، ومن ذا يصبر إلا القليل من الناس ! هذا بعض السر في قوله تعالى « لكل
صبار شكور » .

فانظر رعاك الله لى الهواء الجوى ، ينظر الجاهل إلى الهواء الجوى فيراه يهب تارة ويسكن أخرى فلا يدري
من أين جاء ، ولكن إذا درس وصبر على التدريس علم أن أسباب الرياح كلها ترجع إلى (سببين اثنين) كما
قال تعالى « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون . ففروا إلى الله » .

خيالى يوم الأحد ٢٨ إبريل سنة ١٩٢٩ م

كأنى أسمع رب العزة لما خلق الهواء واليابسة والماء يقول : « أينها اليابسة ، وأينها الماء ، اسمعا ، ها أنا ذا
أريد أن أخلق نباتا وحيوانا وإنسانا ، وهؤلاء لا حياة لهم إلا بسحب ماطرات ، والسحب الماطرات لا يبد
لها من رياح ، والرياح لا يتم إلا بأمرين : حرارة وبرودة . هذان زوجان جعلتهما سبب الرياح والرياح
تحمل السحب وتسير السفن . فقالت اليابسة للماء : نحن لك يارب مطيعون . فقال : أما أنت أيها الماء
فعليك أن تكون بطيء الحرارة بطيء البرودة . وأما أنت أيها اليابسة فعليك أن تكونى سريعة البرودة
سريعة الحرارة ، ومتى تم ذلك حصل في الهواء اختلاف كثير فهبت الرياح ، وهناك يدور الهواء عليك
كما يدور الدوئلاب وكما تدور السواقي وكما تدور الطواحين ، إن الساقية تدور بحجل صنعها عبادى :

(١) فيدور الثور ، وبدورانه في مدار الساقية

(٢) يدور (النير) الذى فوق رقبته

(٣) والنير يحجر الحبل

(٤) والحبل يحجر خشبة أخرى متصلة بعمود خشبي

(٥) والعمود الخشبي يدور آلة خشبية مدورة كبيرة لها أضرارس أقبية الوضع

(٦) وهذه الأضرارس تدور آلة مدورة أصغر منها رأسية الوضع

(٧) وهذه تدور عمودا أفقى الوضع

(٨) وهذا العمود يدور دائرة خشبية عليها قواديس رأسية الوضع

(٩) وهذه القواديس عملاً ماء عند نزولها وتفرغه عند طلوعها ، وهناك تسقى الزرع .

هذه حيل العباد في إخراج الماء ، أما حكمتي أنا في الهواء فإني حركته فوق الكرة الأرضية وجعته رياحا بالحرارة والبرودة ، إنني لو جعلتك أيها الماء ، وأيتها اليابسة بطبيعة واحدة في الحرارة والبرودة لم تكن رياح فلا يكون لي خلق ، لذلك أمرتكما أن تكونا مختلفتين حرارة وبرودة ، وباختلافكما كانت هذه النعم وهذه المخلوقات ، إن اختلافكما نعمة ، بل هي أصل النعم في الأرض ، وهناك إيضاح هذا اللقاه بالرسم من كتاب [الجغرافيا الرشيدة] فقد جاء فيه ما يأتي :

تأثير الحرارة في الضغط الجوي



(شكل ١)

أول أسباب اختلاف الضغط الجوي توزيع الحرارة على وجه الأرض بدرجات متفاوتة ، ففي شكل (١) مسطح وجه الأرض (هـ و زح) مقسم إلى ثلاث مناطق (هـ و) و (وز) و (زح) ونظرا لسقوط الأشعة العمودية في المنطقة (وز) تشتد عليها الحرارة فيسخن الهواء الذي فوقها ويتمدد ويصعد في اتجاه السهم إلى الطبقات العالية من الهواء وهي التي فوق الخط الوهمي (اب ج د) وبارتفاع هذا الهواء يضغط على الطبقات الفوقية المحصورة بين السطوين (بج) و (بج) و (بج)

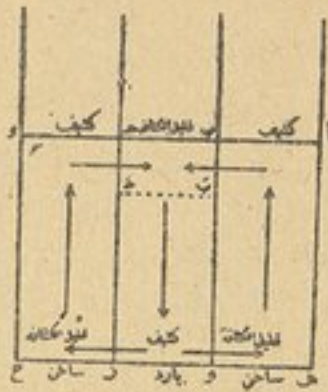
فتصبح كثيفة ويشتد ضغطها على الأهوية المجاورة لها فوق (اب) و (ج د) لأن هذه الطبقات ما زالت قليلة الكثافة ، ويترتب على ذلك هبوب تيارات هوائية فوقية إلى الجانبين في اتجاه السهمين للرسمين في أعلى الشكل .

وفي أثناء ذلك يتخلخل الهواء فوق (وز) وتقل كثافته ، على حين أن الهواء لا يزال على جانبيه في (هـ و) و (زح) كثيفا فيترتب على ذلك هبوب تيارات هوائية سطحية في اتجاه السهمين في أسفل الشكل وباستمرار هبوب هذين التيارين واستمرار تسخين الهواء فوق منطقة (وز) يستمر طلوع الهواء وهبوب التيار الفوقية تجاه (اب) و (ج د) . ويثول أمر هذا الهواء إلى السقوط في اتجاه السهمين الجانبين على (هـ و) و (زح) ليسد النقص الحادث من انتقال التيار السطحية .

وهناك توضيحا آخر لهذه المسألة بعينها : كما تراه في شكل (٢) الآتي في الصحيفة التالية فيه رقعة من سطح الأرض (هـ و زح) مقسمة إلى ثلاث مناطق (هـ و) و (وز) و (زح) والمنطقة (وز) مشغولة باليابس والمنطقتان (هـ و) و (زح) مشغولتان بالماء .

ونظرا لإقبال فصل البرد قد برد اليابس قبل الماء فبرد الهواء فوق (وز) وتقلص وتكثف وهبط سطحه من (بج) إلى (بج) على حين أن الهواء لا يزال فوق (هـ و) و (زح) عاليا كما كان ، فيترتب على ذلك تياران فوقيان في اتجاه السهمين للرسمين في أعلى الشكل .

وفي أثناء ذلك يزيد الضغط عند (وز) ويخف عند كل من (هـ و) و (زح) فينشأ عن ذلك تياران سطحيان في اتجاه السهمين للرسمين في أسفل الشكل (انظر شكل ٢) .



(شكل ٢ نظرية هبوب الرياح)

فيتضح من التلخيص السابقين أن التيارات الهوائية السطحية تنتقل من الجهات الشديدة البرودة إلى جميع الجهات المجاورة . وهذه التيارات السطحية هي التي تؤثر تأثيرا مباشرا في المناخ وهي التي نخصها بالكلام فيما يلي :

وينتج من ذلك نظريا انتقال الرياح من الجهات القطبية إلى خط الاستواء ، فيكون اتجاهها من الشمال إلى الجنوب في نصف الكرة الشمالي . ومن الجنوب إلى الشمال في نصف الكرة الجنوبي .

نسيم البحر ونسيم البر

كأن الله يقول : أيتها الأرض ، إذا طلعت الشمس عليك ففسرعي بقبول الحرارة ، وأنت أيها الماء عليك أن تكون بطيء الحرارة . فإذا فعلت ذلك فإن الهواء الذي يكون فوقك أيتها الأرض يكون أسرع سخونة بمجاورتك ، ومتى أسرع سخنانه خف وعلا ، ومتى خف وعلا أسرع الهواء الذي فوق الماء يجري فوقك لأن الأثقل يحمل محل الأخف ، فإذا جاء الليل فلتكوني أيتها الأرض سريعة البرودة . ولتكن أنت أيها الماء بطيء البرودة فتكون الحرارة فوقك أكثر منها فوقها وإذن يجري الهواء من فوق اليابسة إليك كما كان يجري منك إليها نهارا . فهذا هو النسيم البحر ونسيم البر ، فإن النسيم يهب من البحر إلى البر نهارا ومن البر إلى البحر ليلا . ولذلك يخرج الصيادون في القوارب وقت الفجر مع نسيم البر وفي الضحى يعودون مع نسيم البحر إلى الساحل ومعه السمك ، فهذان النسيان يلطمان مناخ السواحل ومثلهما .

الرياح الموسمية

وكما يجيل لي خطاب الله للبر والبحر يجيل لي خطابه للقفارات والمحيطات . فالقارة بدل البر والمحيط بدل البحر . والصيف كالنهار والشتاء كالليل . فثلا تشتد الحرارة على جبال آسيا الوسطى مثل جبال (هالايا) فتقل كثافة الهواء فوقها . ولكن المحيط الهندي لا يكون مثلها . فتهب الرياح من المحيط للذكور إلى آسيا كل ذلك في زمن الصيف . وهذه تسمى الرياح الموسمية . وبسببها يكون الري والحصب في سهول الهندستان وهناك يعيش نصف سكان الأرض في الهند والصين واليابان . وذلك بفضل غزارة الأمطار وتولد الأنهار العظيمة ذات الفيضان السنوي . وتكون هناك سهوله (غرينية) خصبة تتوافر فيها للمواصلات والري وأسباب العيش والرفاهية ، وهكذا يحصل في بلاد الحبشة بالرياح الموسمية أيضا إذ ينشأ بسببها في أول الصيف فيضان النيل وهكذا ساحل (ناتان) في شرقي أفريقية ، وساحل الولايات المتحدة الجنوبية الشرق إذ تسقط عليهما أمطار صيفية يمثل هذه الرياح وهكذا الساحل الشرقي لآستراليا . فإذا جاء الشتاء تنعكس الحال فتبرد هضبات اليابس ويظل البحر دافئا . فتنشأ رياح تنتقل من البر إلى البحر وهي جافة لصدورها من الجبال وهو البر .

فأعجب أيها الذكي لأمرين اثنين : حرارة وبرودة نشأ عنهما سعادة سائر الناس والحيوان على الأرض

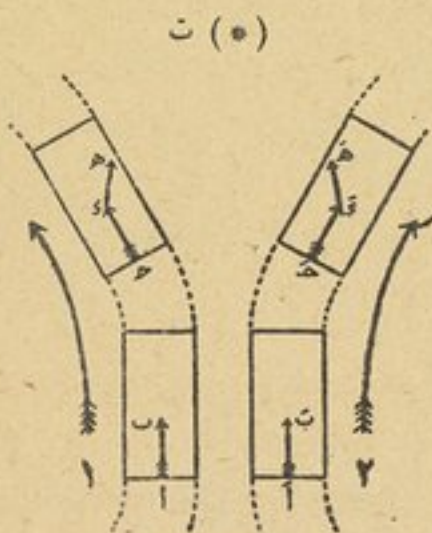
فهذا الهواء فعل الله به ماقدناه نحن في التواجر والسواقي وآلاتنا ، ولكن هو أدار الهواء بأمرين
الذين : حرارة وبرودة ، وجعل الأمر عدلا ، نسيم من البر إلى البحر وبالعكس ورياح موسمية بحيث يكون
مداهما ستة أشهر ، فهاهنا ليل ونهار لنسيم البر ونسيم البحر ، وهاهنا صيف وشتاء للرياح الموسمية . وهاهنا
عاشت الأمم بهذه الرياح : وهذه الرياح مبنها الحرارة والبرودة .

التيارات البحرية

وقبل الدخول في الكلام على تلك التيارات وخطاب الله عز وجل لها أقدم مقدمة من كتاب الجغرافيا
الرشيدة يتضح بها المقام وهاك بيانها .

تأثير دورة الأرض على محورها

تتحرف الرياح في أثناء حركة الأرض على محورها عن اتجاهها الأصلي ، وتوضح ذلك نضرب المثل
الآتي في شكل (٣) :



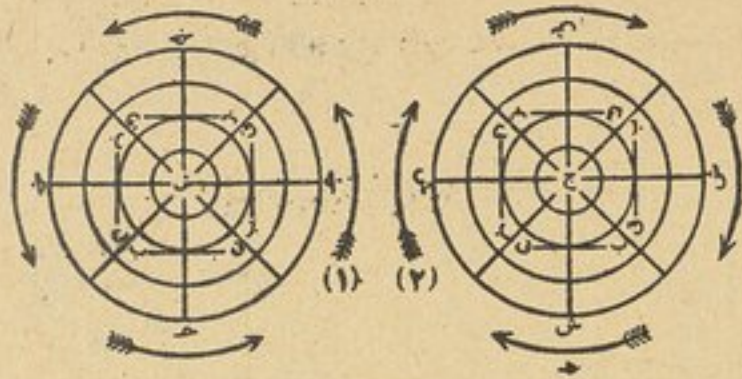
(شكل ٣)

انعطاف مركبة الترام في طريق منحن

راكب ترام ينظر إلى الشمال أمام الترام وينقل
متجها نحوه في العربة في الاتجاه اب ثم ينعطف الترام
يسارا كما هو موضح في القسم الأول من الرسم (١) فإذا
كان الراكب مصمما على السير تجاه الشمال فإنه يتحرف
نحو اليمين ويكون حمله سيره في اتجاه السهمين (ج د)
و (د هـ) .

وبالعكس من ذلك إذا انعطف الترام يمينا كما هو
موضح في القسم (٢) من الرسم فإن مجموع سيره نحوه
الشمال يكون في اتجاه السهمين (ج د) و (د هـ) .
ففي كلتا الحالتين يحدث انحراف بعكس انعطاف الترام

وكذلك الحال على الأرض ، إذ تحرف الرياح بسبب الدورة اليومية : ففي شكل ٤ شطران : يمثل
الأول منهما نصف الكرة الشمالي ويمثل الثاني النصف الجنوبي .



(شكل ٤ دورة الأرض على محورها)

(١) ففي مركز الدائرة في الشطر الأول القطب الشمالي ، وكل اتجاه يعدنا عنه جنوب وبتميز الشمال والجنوب يكون الشرق إلى اليمين والغرب إلى اليسار ؟ وبذلك تكون دورة الأرض في اتجاه الأسهم المحيطة بالدائرة .

(٢) وفي مركز الدائرة في الشطر الثاني القطب الجنوبي ، وكل اتجاه يعدنا عنه شمال ، وبذلك تكون دورة الأرض في اتجاه الأسهم المحيطة بالدائرة .

فإذا وازنت بين شكلي (٣ و ٤) تعرف أن الرياح تحرف إلى اليمين في نصف الكرة الشمالي وتحرف إلى اليسار في نصف الكرة الجنوبي ، وتسمى هذه القاعدة (قانون قرل) وبمقتضاها تصبح الرياح الشمالية في نصف الكرة الشمالي رياحا شمالية شرقية ، وتصبح الرياح الجنوبية في نصف الكرة الجنوبي جنوبية شرقية .

مناطق الضغط العظيم خلف المدارين



(شكل ٥ دوران الماء في الوعاء)

في الشطر الأول من شكل (٥) وعاء فيه ماء فإذا دار الماء في الوعاء حول القلب (ق) باستمرار لا يلبث أن يهبط سطحه في الوسط ويرتفع عند الحافة ، فيكون سطح الماء كما ترى في الشطر الثاني من الشكل عند (ا ق ب) .

وكذلك حال الهواء على وجه الأرض إذ تزيجه

دورة الأرض على محورها بعيدا عن القطب ، وتعمل على تكثيفه عند خط الاستواء . ولولا الحرارة عند خط الاستواء لأصبح الهواء عنده كثيفا جدا . وبالعكس من ذلك محلخلا عند القطبين بسبب دورة الأرض على محورها .

لكن هنا عاملان متعاكسان : فالحرارة تعمل على إيجاد منطقه الضغط العظيم عن خط الاستواء . ودورة الأرض على محورها تعمل على إيجادها عن القطب . ونتيجة منافسة هذين العاملين وجود منطقتي الضغط

المعظم حوالي خط عرض 30° شمالا و 30° جنوبا .
 أما خطا عرض 60° شمالا و 60° جنوبا فيكون الهواء عندهما قليل الكثافة بسبب فعل الدوران في إبعاد
 الهواء عن القطبين .

الرياح الدورية علي وجه الأرض

ينتج مما تقدم ما نراه في (شكل ٦) فنجد
 خطي العرض 30° شمالا و 30° جنوبا تزيد كثافة
 الهواء قتب الرياح منهما إلى خط الاستواء وتسمى
 بالرياح التجارية .

وتهب من كل منهما إلى خط عرض 60°
 الرياح العكسية .

وتتحرف الرياح التجارية نحو الغرب بسبب
 دورة الأرض على محورها ، وبذلك يكون
 انحرافها إلى اليمين في نصف الكرة الشمالي وإلى
 اليسار في النصف الجنوبي .

وتتحرف العكسية نحو الشرق أيضا لهذا
 السبب :

تهب الرياح التجارية من الشمال الشرقي

في نصف الكرة الشمالي ، ومن الشرقي في النصف الجنوبي ، وتهب الرياح العكسية من الجنوب الغربي
 في نصف الكرة الشمالي ، ومن الشمالي الغربي في النصف الجنوبي . وحول كل من القطبين منطقة ساكنة .
 وعند خط الاستواء منطقة ساكنة يكون برقع عندها الهواء بفعل الحرارة إلى الطبقات العليا من الجو ، وعند
 خطي عرض 30° شمالا و 30° جنوبا منطقتان من السكون تسقط عندهما الأهوية من الطبقات العليا انتهى
 ما أردته من كتاب الجغرافية الرشيدة .

تلخيص ما تقدم

ها هنا آن أن أذكر ما يجيل لي من خطاب الله عز وجل الماء كأنه عز وجل يقول : أيتها المياه . اسمي
 ها أنذا جعلت الحرارة من الشمس الساقطة على الأرض سببا في إثارة الهواء ، فباختلاف قبول اليابسة والماء لها
 أدت الرياح فكانت نسبات البر وكانت نسبات البحر ، فإذا كان الليل هبت النسبات من البر إلى البحر لأن
 جو اليابسة يكون أبرد وجو البحر يكون أقل برودة ، فتجري الرياح من البارد النقيص وهو البر إلى
 الحار التمدد وهو البحر ، فإذا كان النهار قلبت الوضع وأجريت الرياح من البحر الذي لم تسرع الحرارة
 فيه إلى البر الذي أسرعته فيه الحرارة ، فها متعادلان نسيم من البر إلى البحر ونسيم من البحر إلى البر ومثله
 الرياح الموسمية ، ثم إن أدت الكرة الأرضية على محورها من الغرب إلى الشرق والهور منته من الجنوب
 إلى الشمال ، وبسبب هذا الدوران يفر الهواء من القطبين إلى ناحية خط الاستواء . لكن خط الاستواء

يطرد الهواء بحرارته ، فلا يحبس للهواء إلا أن يلتجئ إلى نقطة معينة وهي هنا درجة (٣٠) شمالا ودرجة ثلاثين جنوبا ، وهناك منطقة تكون تتجه منها ريحان : ربح تتجه إلى جهة خط الاستواء راجعة وهي السمة التجارية ، وأخرى تتجه إلى ناحية القطبين وتسمى ضدية أو عكسية ، ولا بد من انحراف كل من الرياح التجارية والرياح العكسية أو الضدية لأجل تأثير دوران الأرض (انظر شكل ٧) .



(شكل ٧)

فها هنا يقول الله للرياح التجارية : أيتها الرياح التجارية الجارية في المحيط الأطلسي عليك أن تحركي تيارين : أحدهما في جنوب خط الاستواء ، وثانيهما في شمال خط الاستواء ، يتجهان معا من سواحل أفريقيا إلى سواحل أمريكا ، فأما التيار الاستوائي الجنوبي فعلى بلاد البرازيل أن تصده متى صدته يتعطف محاذيا للساحل الشرقي لأمريكا الجنوبية . وأنت أيتها الرياح العكسية أرجعيه ثانية إلى مقره الأول فيرجع إلى سواحل أفريقية ثانية ، ويتم دورته حول منطقة ساكنة . وهكذا يفعل التيار الاستوائي الشمالي ، فليتوجه من سواحل أفريقيا إلى خليج المكسيك ، وليسر محاذيا للساحل الشرقي لأمريكا الشمالية ، وأنت أيتها الرياح العكسية وجهيه إلى خليج المكسيك (يسمى تيار الخليج) وهناك يجب أن يقطع قطعتين فيكون هناك تيار أوروبا الغربية وتيار آخر للترويج ، وهكذا يسكن ذلك في المحيط الهادى ، فلتتحرك الرياح التجارية تيارين على جانبي خط الاستواء كهذين ، فأما التيار الاستوائي الذى جهة الجنوب فعليه أن يتوجه من سواحل أمريكا إلى سواحل استراليا ، وأنت أيتها الرياح العكسية رديه ثانية إلى أمريكا ، وأما التيار الاستوائي الذى جهة الشمال فعليه أن يتجه من أمريكا أيضا إلى ساحل آسيا عند اليابان وهو التيار الأسود (كوروسيوه) بالرياح التجارية ، وهليك أيتها الرياح العكسية أنت ترديه إلى أمريكا ثانية ، وهكذا تفعل الرياح التجارية والرياح العكسية حول استراليا في المحيط الهندي ، فلتتحرك أيتها الرياح التجارية تيارا واحدا جنوبى خط الاستواء فقط لأن نصف الكرة الشمالي مشغول بقارة آسيا ، وليسر التيار من ساحل استراليا إلى سواحل أفريقيا ، وعلى الرياح العكسية أن توده إلى استراليا ثانية .

هذا هو الخطاب الإلهى الذى يحيل إلى كآته حقيقة ، وكأن الله عز وجل يقول في منافع هذه التيارات

فيا تيار الخليج ، وياتيار البرازيل في المحيط الأطلسي ، وياتيار (كوروسيوه) ، وياتيار شرقي استراليا في المحيط الهادي ، وياتيار موزنبيق في شرق أفريقيا في المحيط الهندي . أنا نقلت بعضكن من الجهات الاستوائية إلى العروض البعيدة عن خط الاستواء لمقصد سام وحكمة بالغة « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعين . ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون - يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » أنا نقلتك من الجهات الحارة إلى الجهات الباردة لأجل تلطيف كل مناخ تمرين عليه ، إنني بالتاليين اللذين عند غرب أوروبا وعند التروج أذبت مياه بحر الشمال مع أن بحر البلطيق الذي يساويه في درجات العرض يكون جامدا خمسة أشهر في السنة. والرياح العكسية لحرارتها أثرت في تيار الخليج فأدفأته فوصل إلى سواحل أوروبا دافئا فكان للمطر الكثير والدفء العظيم .

ثم كأنه عز وجل خاطب البحار القطبية والبحار المدارية قائلا ؛ إنك أيها البحار القطبية لم أسلط عليك حرا كثيرا لذلك كان ماؤك محفوظا فلم يكن منك بخار كثير بل زدتك ومددتك بكثير الثلج فزادك ماء . وأما البحار المدارية فإن الحرارة ترفع ماءها إلى الجو بهيئة بخار ؛ فعليك أيها البحار الشمالية أن ترسل تيارات مائية إلى الأقطار الاستوائية لأنني عدل ، فلما سمعت هذا الخطاب البحار القطبية الشمالية أرسلت من لديها مددا وهو تيارات بحرية إلى خط الاستواء .

(١) مثل تيار (لبرادو) الذي يحاذي سواحل (جرينلند) و(لبرادو) و(نيوفنلند) ثم يقابل تيار الخليج وهودافى فيتلاشى فيه .

(٢) وتيار شمالي شرق اليابان الذي يحاذي شبه جزيرة (كشتكا) وجزيرة (يسو) ومق قابل تيار (كوروسيوه) يتلاشى فيه .

(٣) وهكذا المحيط المتجمد الجنوبي أرسل تياره حول الدنيا من الغرب إلى الشرق دائما سائرا مع الرياح العكسية الغربية ؛ ومق قابل الأطراف الجنوبية لأفريقية وأستراليا وأمريكا الجنوبية يتفرع منه تيارات في المحيط الأطلسي وفي المحيط الهندي وفي المحيط الهادي ، وهذه كلها تقابلها تيارات دافئة لتخفيها وتدممها ، فأنت أيها التيارات الباردة لك آثار حسنة . فإنك تؤثرين في جهات (جويسو) في اليابان فتكون أبرد من (جوهنشو) وفي مناخ جهات (بيرو) في غرب أمريكا الجنوبية فإن حرارتها تكون ألطف مع قربها من خط الاستواء الموجب لشدة الحرارة ، ولقد جعلتك أيها التيارات الباردة أشبه بالقطعة والصناع إذ ينقلون التراب والحجارة من مكان إلى مكان لإصلاح البقاع والبناء ونحو ذلك ، فأنت تعملين الثلج ومعه صخر ، فنتى وصلت بثلجك وصخرك إلى شواطئ القارات تكون هناك مساحات واسعة مرتفعة عند سواحل (نيوفونلاند) بالمحيط الأطلسي وعند سواحل الشمال الشرقي لليابان ، وما هي إلا صخور ذات الثلج الذي كان معها أصبحت هي محال لتزية السمك فيصطاده الناس عند تلك السواحل ، إذن أنت أيها التيارات الباردة تعملين برودة معك لتلطيف الحر وتصنعين صنع البنائين والقطعة ، فإنك تبينين أماكن للسمك يصطاده الصيادون .

خطاب الله للناس

وكانني أسمع خطابه للناس إذ يقول : يا بني آدم ، أين عقولكم ، وأين أحلامكم ؟ أليست هذه آياتي؟ هن آياتي الرياح في البحر . ولو آتى أسكنت الريح يسميه أمعاد الحرارة على الماء واليابسة لم تكن رياح ولم تكن تيارات . انظروا يا عبادي ، فمن أين تكون تياراته حارة تنفذ إلى غرب أوروبا وعند التروج . فتذيب بحر الشمال لمنفعة عبادي في أرضي ، ومن أين تكون تياراته باردة تذهب إلى (بيرو) في غرب

أمريكا الجنوبية لتلطف حرارتها . سياسة أبدعت ، وحكمة نظمت ، وآيات وعجب ! هذه عجائب سمي ما خلقها لكم عبثا . أنتم قلدم الطيور فطرتم في الجو بطيارتكم ، وقلدم النمل في الحرب . والأسود في الاقتراس . فزحون وتمرحون وتقولون قد امتطينا الطيارات وقتلنا الأمم بالقذائف النارية وتظنون أنكم بهذا مفلحون . كلا ، ثم كلا . وعزى وجلالى إن هذه إلا أساليب الشياطين وأخلاق الحيوان والسياع . فإذا لم يفهم أهل الأرض حكمتى فإني سأهلكهم أجمعين أكتعين أبعين .

أيها الجهلاء . أيها الغافلون : ألم يأتكم نأ تيارات الماء للذكورة . ألم تروها تجري من الجهات الباردة إلى الحارة ومن الحارة إلى الباردة لإصلاح أحوال عبادى . فها هي ذه التيارات القطبية تجري إلى جهات الاستواء لتلطف الحرارة والتيارات الاستوائية تتجه إلى الجهات الباردة فتقلل برودتها . ألم يكن هذا درسا لكم ؟ ألم يأن لكم يا أهل الشرق ويا أهل الغرب أن تكون سياستكم كسياستى ؟ هذه سياستى فمن الذى يقلدها ! أعوام السمك أم أعوام الدواب ؟ كلا . بل أنتم القصدون بتقليدها ، نعم أنتم قلدم فى الأمور الشهوية ، فطرتم فى الجو لتغيروا على غيركم ، أو لتسافروا لأغراضكم الخاصة ، ولكنكم قط لم تدركوا حكمتى ولم تقلدوني فى صنعى . أنا بالحرارة واختلافها أجريت الرياح وأجريت التيارات شرقا وغربا ، هكذا فلتسكن حرارة العلم متأججة فى قلوب الناس شرقا وغربا ، ولتسكن منها جاذبية فى قلوب الأمم كلها فى نظام السياسة والاتحاد كما سرت الجاذبية فى التيارات وانتظمت بها تيارات تشبه الأقطاع النافسة التى تسير فى الكواكب فى السماء ، فأصبحت التيارات البحرية من أفريقيا إلى أمريكا ومن أمريكا إلى استراليا وآسيا وهكذا كلها متجهات إلى تكوين قطع ناقص تشبه نظام الكواكب فى سيرها لأن كل أم يتبعها ولدها ، وكأنها إشارت أن نظام الإنسان فى المستقبل سيكون أشبه بنظام هذه التيارات والرياح التى بعد الحار منها البلاد الباردة والبارد منه البلاد الحارة ؛ ألم يأن لكم أيها الناس أن تجملوا أممكم أمة واحدة ، قلوبها يواسى سنيها وتلطفون فى الهداية والسياسة بحيث يكون للتوحشون فى كنف التعلين من جيرانهم ، ليكن مسلمو أفريقيا نورا لتوحشها . وهكذا ليكن الناس بعضهم لبعض معين ومساعد كما ظهر فى التيارات البحرية باردة وحارة .

ومن عجب أن تكون هذه الآية فى سورة الشورى ، فإن لم يكن العالم كله أمة واحدة الشورى أفلا يكون للمسلمون وخدم أمة شورية ؛ والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الجمعة ٣ مايو سنة ١٩٣١ .

جوهره فى قوله تعالى

« إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره »

نظرة راكب السفينة فيما حوله من الماء والأرض

راكب السفينة نظرات فيما حوله ، فبارة ينظر فى الرياح واتجاهها واختلافها وتتأججها كما تقدم ها . وتارة أخرى ينظر فى جوهر الماء والبحر والبر وصور الخلوقات البرية والبحرية ، يرى أشكالا والوانا وعجائب وهذا تفرؤه فى (سورة الروم) فى قوله تعالى « فطرة الله التى فطر الناس عليها » وإهم مفطورون على البحث فى الأشكال والأحوال والحكم على هذه المادة بأشكالها وبيان مساحتها ونظمتها المختلفة وإن هذه الضول جوهرها المطيعة لم تحتج فى مساحة محيطات الدوائر ، ولا فى مساحة الدوائر ، ولا فى مساحة سطح الكرة ولا فى معرفة حجم الكرة إلا أن تسمح نصف القطر ، دلالة على

حكمة مبدعها وقدرته وعلمه ونوره الذي ألقاه على هذه النفس فنفتت إلى صوباء الأجسام فاخرقتها وحكمتها وحكمت عليها بنصف القطر وحده بحيث ترجه تارة وتكعبه أخرى وتضربه في أعداد معلومة محنونة ، كل ذلك تفرؤه في سورة الروم ، ولكن المقام الذي يليق أن يوضح هنا أبعج رونقا وأبهي منظرا وأشرق نورا وأليق بهذا المقام ، لأن ذلك عام في كل ذي شكل في بر أو بحر ، أما ما هنا فإنه يختص بالماء والسماء .

الماء والسماء

إن راكب السفينة يرى بينه نجوم السماء وأمواج الماء ، فهو بين نجوم وماء ، فلا جرم يجب أن يقرأ عجائبها ، ولتلم أن هذه العلوم مبينة بالبراهين معروفة بالقوانين فلا يصدك عنها قول كثير من المتظاهرين بالعلم إنها ظنون أو أوهام . كلا فلا علم إلا وله براهين أقنعت أهله وكل من دخل معهم اعترف بصدق نظرياتهم ، فإذا قرأت ما سأقصه عليك فلا يخذعك عنه خادع ، ولا يصدك عنه مارق ، يقول لجهله ولجسده : ما هذه إلا ظنون ، فلتقرأ وتدرس وتعلم أن هذا هو الذي يطلبه الله ودينه ونبيه صلى الله عليه وسلم .

إن العلماء كما بحثوا الأشكال وعرفوا مساحتها أدرکوا أيضا أبعادها ، فعرفوا أبعاد الشمس والقمر والكواكب ووصلوا إلى أن عرفوا أن من أبعاد الكواكب ما وصل إلى مائة مليون سنة بحيث إن نور تلك الكواكب لم يصل بعد خروجه من كوكبه إلى أرضنا إلا بعد أن قطع في سيره مائة مليون سنة وهذا واضح في غير هذا المكان من التفسير ، وهذه القادير وإن كانت تقريبية قام عليها البرهان : أي البرهان الهندسي بحيث يستعملون في ذلك الثلثات التي لها أحوال خاصة . وعلم الهندسة علم يقيني . غاية الأمر أن القادير تزيد وتنقص على حسب آلة الرصد لا غير ، فلا يصدك عن ذلك قول القائل : إن علم الفلك علم غيبي . كثيرا ، فإن هذا القول صادق في علم أحكام النجوم وهو العلم الذي يمر بالحوادث المستقبلية ، فهذا العلم يكذبه العقل ويغبطه النقل ، فأما حساب السنين والشهور وأبعاد الكواكب فذلك قامت عليه البراهين إذن فلا شروح في الكلام على السماء ثم أتبعه بالكلام على الماء .

الكلام على السماء

إن راكب السفينة بعد أن يدرس الرياح المتقدمة يخطر بباله ما يرى فوقه من النجوم ، وهذه النجوم قد تقدم الكلام عليها في مواطن كثيرة ، ولكن الذي أذكره هنا هو الكلام على مدة دوراتها في الفلك كما أذكر في الماء القوانين العملية التي بها قاس فيه أجسام وعام على سطحه أجسام أخرى ، فإن ثقل الأجسام وخفتها يؤثران في صعودها على سطح الماء وسقوطها في قاع البحار ، كما أن السيارات تختلف مدة دوراتها حول الشمس باختلاف أبعادها وأحجامها وقوتها الطاردة والجاذبة ، وسأوضح هذا لعجب الأذكياء من نجوم باهرات سائرت بقوانين لا تختلف على مدى الأزمان ، ومن ماء جميل يستقبل الأجسام في أسفله تارة وفي أعلاه تارة أخرى بقوانين بحيث يخرج المطلاع على هذا بعد فهم هذا الموضوع وقد تحلت نفسه بحلية العلم واتجهت بزينة الجمال وعرفت سرا من نيا قوله تعالى « ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين » وأدرکت قبسة من نور قوله تعالى « والسماء بيناها بأيدينا وإنا لموسعون » ومن قوله أيضا « والسماء رفعها ووضع للبرازن : ألا تظنوا في البرازن » .

ينظر راكب السفينة في السماء فيجد الكواكب تنقسم قسمين : سيارات وثوابت ، فالثوابت هي

كل ما تراه في السماء من الكواكب إلا قليلا ، والقليل هي السيارات والسيارات تسير حول الشمس ، فمنها :

(١) عطارد يدور حول الشمس في (٨٨) يوما تقريبا ، ويبعد عن الشمس (٥٧) مليون كيلومترا
(٢) الزهراء تبعد عن الشمس (١٠٧) مليون كيلومترا ، وأبعادها وأحجامها تقرب مما للأرض عنها .

(٣) المريخ : السيار الذي يلي الزهراء بالنسبة للشمس هو الأرض وهي معروفة فيما تقدم في أجزاء هذا التفسير والذي يليها هو المريخ ، وبجده المتوسط عن الشمس قدر بعد الأرض عنها مرة ونصف مرة ومقداره (٢٢٥) مليون كيلومترا تقريبا . والقطر الظاهري من المريخ يساوي (٠.٥٤) من قطر الأرض تقريبا أعني (٦٨٠٠) كيلومترا ، وحجم المريخ (٠.١٤٧) من حجم الأرض ، ودورته السنوية مركبة من (٦٦٩) يوما نجميا للمريخ .

(٤) المشتري هو قدر حجم الأرض (١٣٠٠) مرة وقطره يساوي (١٢٠٠٠٠) مليون ، فهو قدر خط الاستواء الأرضي (١١) مرة ، وبجده المتوسط عن الشمس يساوي (٧٧٠) كيلومترا ، وسنته (١٢) سنة من السنين الأرضية .

(٥) زحل : البعد المتوسط لزلحل عن الشمس هو قدر بعد الأرض عنها تسع مرات ونصف ، أعني (١٤٠٠) مليون كيلومتر تقريبا ويقطع الفلك في (١٠٧٥٩) يوما أعني (٩) سنة ونصف تقريبا ، وحجم زحل قدر حجم الأرض (٧١٨) مرة وقطره الاستوائى هو (٩٢٩٩) .

(٦) أورانوس : مدة دورته حول الشمس (٨٤) سنة تقريبا أو (٣٠٦٨٧٧) يوما بالضبط وبجده عن الشمس (٧٠٨) مليون فرسخ ، وحجمه قدر حجم الأرض (٦٩) مرة ، وقطر كرتيه (٤٢٥) بأخذ قطر الأرض وحده .

(٧) نبتون : بجمه المتوسط عن الشمس (١١٠٧٠٠٠) فرسخ وهو أبعد السيارات ويتم دورته في ١٢٥ سنة وقطره (٣٨٠) بالنسبة لقطر الأرض .

هذه هي السيارات المعروفة التي عرفها الإنسان الآن ، اختلفت أحجامها وأبعادها وأصواتها ومدد دوراتها . وللمهم في هذا المقام أنها مع هذا الاختلاف قد حفظت أبعادها ومدد دوراتها فلم تتغير . فلا فرق بين أرضنا وبين تلك الكواكب في حفظ مدد دوراتها .

اللهم أزل الغشاوة عن عقولنا ؛ هذه المعلومات البسيطة التي ذكرتها هنا ليست إلا شيئا يسيرا جدا مما تقدم في مواضع هذا التفسير ، ذكرتها ليتفكر راكب السفينة في عجائب الكواكب : تلك الكواكب التي لا تخطى في سيرها ولا تعدى مارس لها من مداراتها تذكرة لقوله تعالى « قال لها وللأرض ائقيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائمين . قضاهن سبع سموات في يومين » فهذه سبع سيارات منظمات سواهن الله عز وجل ونظمهن وأحكهن وقال لمن : سرن أيها السيارات في طرفكن ولا تهدين مارصته لكن ، سارت هذه السيارات وهي طائفة مختارة ولم تخطى في تفسير ولم تنقص في سيرها ولم تزد ثانية واحدة وهذا هو السبب في بقاء هذا العالم منظما آمادا وآمادا . إذن فلننظر في :

علم الماء

هانحن أولاء نظرننا عوالم السماء فرأيناها منظمة سائرة بحكمة وعلم تامين ، فلننظر في عوالم الماء التي تسير السفينة فوقها فهل نجد لها قوانين تشبه تلك القوانين بحيث نفهم به قول الله تعالى « فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين » .

هانحن أولاء عرفنا من هذا المقام ومن غيره كيف كانت عوالم السماء قد أنت لربها طائعة ، فهل فعلت مثلها عوالم الأرض وأنت طائعة ، نحن لانعرف ذلك إلا بالدراسة فنقول :

إن في علم الطبيعة تعرف الكثافة والوزن النوعي ، يقولون إن كثافة الجسم هي كتلة وحدة حجومه وهذه الجملة في ظاهرها غير مفهومة ولكنها لا بد من ذكرها وفهمها والسير في هذه المباحث حتى نعرف أن عوالم الماء كعوالم السماء لها قوانين وقد أطاعت الله كما أطاعته الكواكب . وكل منهما يحتاج إلى دراسة تامة . يقولون إن كتلة السنتيمتر المكعب من الحديد تساوي (٧٨) من الجرامات . وكتلة السنتيمتر المكعب من الزئبق تساوي (١٣٦) من الجرامات . وكتلة السنتيمتر المكعب من البلاتين تساوي (٢١٥) من الجرامات ، فكثافة هذه الأجسام هكذا بالترتيب (٧٨) و (١٣٦) و (٢١٥) من الجرامات . ومعنى هذا أن الحديد والزئبق والبلاتين إذا أخذنا منها مقادير مساوية لحجم السنتيمتر المكعب من الماء فإن أوزانها تزيد عليه بهذه المقادير فيكون الحديد أثقل منه (٧٨) والزئبق أثقل منه (١٣٦) والبلاتين أثقل منه (٢١٥) وهذا هو الوزن النوعي ، لأن الوزن النوعي لجسم هو النسبة بين حجمين متساويين منه ، ومن الماء المقطر وهو في درجة (٤) فوق الصفر من الميزان الثوري (مستمراد) .

وهنا لا بد من ذكر قاعدة (أرشميدس) وهي كل جسم مغمور في سائل يكون مدفوعا من أسفل إلى أعلى بقوة تساوي وزن مقدار من السائل حجمه يساوي حجم الجسم . (وبعبارة أخرى) وزن السائل الذي يحل محله الجسم . وينتج من هذه القاعدة ما يأتي :

إذا طفا جسم على سطح سائل كان وزنه مساويا وزن السائل الذي يحل محله الجزء للغمس فيه . ولهذا السبب يطفو الرخام والحديد على سطح الزئبق ، ويمكن أن تطفو الأجسام الكثيفة جدا على سطح الماء إذا كانت مشكلة بشكل يمكن معه أن يكون وزن السائل الذي يحل محله الجزء للغمس فيه مساويا لوزن الجسم كله ، فمثلا الكرة المعدنية الجوفاء التي حجمها (١٠٠) سنتيمترا مكعبا ووزنها (٦٠) جراما لا يغمس منها في الماء إلا مقدار يحل محل (٦٠) سنتيمترا مكعبا فقط ، وفي هذه الحالة يكون وزن الماء مساويا وزن (٦٠) جراما وهو وزن الكرة المعدنية ، والسفينة التي وزن (٥٠٠٠) طنولاته لا يمكن أن تطفو فوق الماء إلا إذا زاد حجمها على (٥٠٠٠) متر مكعب حتى يحل الجزء للغمس منها محل هذا القدر من الماء . ولذلك تطفو السفن التي من الحديد فوق الماء ، مع أن كثافة هذا المعدن أعظم كثيرا من كثافة الماء .

ومن المصعب أن الماء أوجدوا الوزن النوعي للأجسام بطريق الطفو ، فيضعون مثلا من البلوط متوازيًا مستطيلا في وعاء فيه ماء فيطفو فوق سطحه ، ويحسبون الجزء الطافي والجزء للغمس في الماء . ويترحون الطافي من للغمس ، فالباقي يكون هو الوزن النوعي للبلوط وهو طبعًا أخف من الماء . بعكس الحديد والزئبق والبلاتين والذهب فإنها أثقل من الماء .

أليس هذا عجبا ! أن الماء يصبح حكما في معرفة كثافة الأجسام (وكتلتها) المنجحة في أحجامها ، فالشكل المنجحة في الأحجام التي تعرف بها كثافة الجسم يظهرها الماء ، فإن كانت الأجسام أخف من الماء طفت أو أثقل انغمست ، وهناك درجات معينة لتقل الأجسام وخفتها قد أظهرها نفس الذي جعله الله ميزانا يوزن به ثقل الأجسام وخفتها .

هاهنا علمت أيها الذكي لماذا ذكرنا هنا كواكب السماء ، ومقادير أبعادها وأحجامها وعدد حركاتها فإن أجسام للعادن والخشب وغيرها ثلث وخفت بمقادير معينة عنها الماء وأوضحها أيضا كما تبينت الأبعاد والأحجام في السيارات ونسبنا أحجامها ونسبنا إلى حجم الأرض ونسبنا ، والنسب الكوكبية في السيارات لا تتغير والنسب الوزنية في الأجسام الأرضية ووزنها النوعي لا يتغير ، وهذا قوله تعالى « قلنا أتينا طامعين » فهذه هي الطاعة ، طاعة الكواكب وطاعة الأجرام الأرضية ، بل الطاعتان ترجمان لأمر واحد هو الجاذبية ، فالحديد ثقيل وخشب البلوط المتقدم خفيف ، ففاس الحديد في الماء وطفا الخشب على الماء ، ذلك لأن الحديد أكتف من الخشب ، فلكذلك انجذب إلى الأرض على مقدار كثافته ، فكان أسرع نزولا إليها ، فقلنا هذا ثقيل ، فلكل من الخفيف والثقيل حركات تخصه نسبها ثقلا وخفة كما اختلفت حركات الكواكب بالنسبة لاختلاف أوصافها وأحوالها وأبعادها ، ولقد بنوا على قاعدة (أرشميدس) تطبيقات أخرى وهاك بيانها :

- (١) منها أن انغماس السفن في مياه البحار الملحة أقل من انغماسها في مياه الأنهار العذبة .
- (٢) ومنها أن السمك يتمكن من العوض في الماء إذا ضغط حوصلته وبعده فيه إذا مددها فانسعت ، فبالضغط والتمدد لحوصلة العوم فيه يضم جسمه فيغوص في الماء أو يكبر فيرتفع ، وهذه الحوصلة يراها الإنسان وهو يأكل السمك .
- (٣) ومنها أن السفينة إذا مست قرار البحر أو غاصت في رماله ، فلنجاتها وإنقاذها تربط في سفينة أخرى عائمة ثقيلة الحمل ، ثم يلقى محمولها فترتفع وترتفع معها السفينة العائمة العارقة .
- (٤) ومنها أن جثث الغرقى تطفو على سطح الماء بعد أيام لأنها تحللت مادتها فتكونت فيها غازات تصيرها أقل كثافة من الماء فتطفو عليه .

هناك حضر صاحبي العالم الذي اعتاد أن يسألني في مسائل هذا التفسير . فقال : هاهنا سمعت كلمات ربما تكون غامضة على كثير من قراء هذا التفسير ، وأنا رأيت أنك تريد أن تجعله سهلا لجميع القراء ، ذكرت السفينة التي تزن (٥٠٠٠) طونولاته ، وذكرت الجرام ، وذكرت السنتيمتر للكعب ، فكل هذه ألفاظ تحتاج إلى إيضاح . فقلت : اعلم أن الله عز وجل كما جعل الماء في الأرض حياة لأجسامنا ونماء لزرعنا وأنعامنا جعله ميزانا لأعمالنا ، والموازين على قسمين : موازين طبيعية ، وموازين صناعية . فالموازين الصناعية هي التي سألتني عنها . فأما الموازين الطبيعية فهي الوزن النوعي ، ومعنى هذا أننا نعرف تراكم المادة في الرصاص أكثر من تراكمها في النحاس ، ونعرف تراكمها في النحاس أكثر منه في الحديد وفي الحديد أكثر منه في الخشب بموازنته بالماء ، فإله هو الذي يحكم بينها . ولقد وجد العلماء ما يأتي :

الاردواز : وزنه النوعي ٢٧٧ والبلايين : وزنه النوعي ٥ ٢١ والحديد ٧٨٦ ر ٧ والحارصين ١ ر ٧ والنهيب ٣٢ ر ١٩ والرغام ٢٨ ر ٢ والرصاص ٣٧ ر ١١ والعلاج ١٩ ر ١ والنفة ٥ ر ١٠ والفلين ٣٦ ر ٠

والقولاذ ٧٩ ر ٢٩ والتصدير ٧٩ ر ٧ والكهرمان ١ ر ١ والبخ ٥٨ ر ٠ والماس ٥٢ ر ٣ والنحاس الطروقي
٨ ر ٩ والنيكل ٩ ر ٨ .

هذه أشهر الموازين النوعية ، فاذا أتيت بالعاج وعينت منه حججا خاصا فإنك تجد وزنه يساوي الحجم
الذي يساويه من الماء مرة ٩ من عشرة من ذلك الوزن ، وإذا فعلت مثل ذلك في الذهب رأيت كتلة
الذهب أثقل من نظيرتها من الماء أي للساوية لها في الحجم ١٩ مرة ونحو ثلث المزة وهكذا .

فهذا هو الماء الذي جعل معيارا للوزن النوعي لهذه المخلوقات ، الماء معيار للوزن النوعي ، ولماذا كان
كذلك؟ ذلك لسر الربوية ، سر خفي ، سر يحمله الناس ، الناس يركبون السفن وبهم تسير من قطر إلى
قطر ، ولا يعرفون منها إلا أنهم بها يصلون لأغراضهم ، وفاتهم أن حياتهم قصيرة ، وأنهم خالقوا في الأرض
للدراية ، وأن هذه العقول لم توضع في أدمغتهم إلا للدراسة ، يركبون السفن ويفعلون عن السر الذي
حفظها ، ويفعلون عن قول مجرى السفن في البحر « ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام إن يشأ يسكن
الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » .

إذن الآيات على قسمين : آيات في نفس السفن ، وآيات في هبوب الرياح . أما آيات الرياح فقد تقدمت
قبل هذا المقام مستوفاة . وأما آيات نفس السفن فهي التي نحن بصدد الكلام عليها .
العقول الثائمة لا تنقل أن في السفن آيات ، ولكن العقول المفكرة تدرس السفن وتعمل الورد النوعي
لها ، وتدرس قوانين صعودها فوق سطح الماء ، وتعرف أن هذا الماء أمره عظيم . إن أمر الماء وبقاءه
متناسب الأجزاء محفوظ القوام هو الذي به بقيت السفن وحفظت وجرت ، ولو أن أجزاء الماء اختلف نظامها
لترقت السفن ، كما أن الكواكب التي تقدم وصفها لابقاء لها في مداراتها إلا بمسك أمسكها بقيت في مداراتها ،
إذن هنا بمسك بمسك الكواكب في مداراتها وبمسك ذرات الماء فتبقى متلاصقة متماسكة وبمسك ذرات
الحديد والنحاس والذهب فتبقى متماسكة ثابتة ، ولولا هذا المسك لم يستقر قرار لهذه الموجودات .

سبحانك اللهم وبمحمدك ، أزت السبل بالعلم ، وحفظت هذه الدنيا ، وأتمت نظامها . هذا العالم الذي
نميش فيه كله مركب من مادة في غاية السفر وأجزاؤها الدقيقة وهي الجواهر الفردة بينها مسافات في غاية
الصغر ويسمونها للسافات (الجزئية) ولم ير أحد الجواهر الفرد المذكور ولم يرق دليل على وجوده وأمسكهم
اقتنعوا به في تحليل الطواهر ، ولقد أظهر النظائر العظيم أن آلاف الآلاف من المخلوقات الحية نميش في قطرة
ماء كما ذكرناه كثيرا في هذا التفسير ، وهذا القول يدرس الآن في مدارس الشرق والغرب فلا خلاف فيه
ولا منكر له ، وهذه الملايين من الأحياء تنمو وتكثر هناك ، ولا يغلو منها مستنقع ، وهي تغذى بدقائق
أصغر منها لا تنكاد تدرك لصغرها . ومع ذلك يعتبر الجواهر الفرد أصغر من هذا كله .

إن العلامة الانجليزية (ولیم تمسن) توصل بطريق الحساب إلى ما يأتي : « إذا تصورنا قطرة ماء تمددت
حتى يبلغ حجمها حجم الأرض ما يبلغ حجم الجزر فيها حجم رملة » .

فإذا كانت هذه حال اللادة من الصغر والكثرة ومسافات الصغيرة بين تلك المواد الدقيقة فليس يحفظها
متلاصقة مجتمعة إلا أمر آخر هو الذي يسمى « قوة التماسك » .

يقول علماء الطبيعة : « إن كل جزئين من نوع واحد يجذب كل منهما الآخر بقوة تتغير تبعا لطبيعة
مادتهما وتقوى تبعا لصغر المسافة بينهما ، وخاصة التجاذب هذه المسماة « قوة التماسك » واضحة جدا في
الأجسام الصلبة ، وأقل وضوحا في السوائل ، ومعدومة في الغازات . فتقوة التماسك المذكورة هي القوة التي

بها حفظت دقائق الماء متلاصقة بحال واحدة ، وكرات الكواكب في السماء في مداراتها وهو العبر عنه بقوله تعالى « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده » .
 فهذا عرفنا بعض آيات الله في السفن الجارية في البحر كالأعلام ، فهي جرت في البحر لأن ذرات الماء الدقيقة جدا ذات المسافات الصغيرة بقيت متناصقة بحال واحدة في جميع الأزمان فعاش الناس آمنين ، يسافرون عليها ولا يخافون افتراق هذه الأجزاء فتغرق السفن لأن الله لا يخلف وعده « وعد الله لا يخلف الله وعده » فأنه لا يخلف وعده في حفظ الكواكب في مداراتها وفي سيرها منظمة ، ولا في انتظام أجزاء المادة وتلاصقها وبقائها محفوظة كما حفظت الكرات السماوية ، فبقى الناس آمنين على انتظام أزمانهم وساعاتهم ، وآمنين من الفرق فلا تفرق أجزاء الماء المتصقة ؛ إذن هنا قوة حافظة لهذه العوالم كلها ، وكذلك الله لا يخلف وعده في حفظ أجزاء الحديد والنحاس والذهب والفضة والخشب ، فهو يبقها بالقوة التي أمسكها فبقى بوزنها النوعي ، فيعيش الناس بها بسلام مطمئنين على ذلك الوزن النوعي وهم سالمون آمنون ، كل ذلك سر قوله تعالى « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا » الخ وبهذا تم الكلام على الموازين الطبيعية .

أما الموازين الصناعية التي سألتني عنها ، فاعلم أيديك الله أن الماء كما كان بثباته سببا لمعرفة الوزن النوعي للأجسام صار أيضا سببا لمعرفة الموازين الصناعية التي اصطلح عليها الناس أجيالا وأجيالا ، وذلك أن المتر وهو للقياس الفرنسي للشهور ينقسم إلى مائة جزء كل جزء منها يسمى سنتيمترا ، وهذه المائة إذا ربت تصير عشرة آلاف ، وإذا كتبت تصير ألف ألف من ضرب مائة في مائة في مائة ، فهذا هو اللبون .

فإذا كان لدينا إناء طوله متر وعرضه متر وعمقه متر وملأناه ماء مقطرا درجته أربعة فوق الصفر فإن هذا الإناء يكون قد حوى ألف ألف سنتيمتر مكعب ، وكل واحد منها طوله سنتيمتر وعرضه كذلك وعمقه كذلك وكل واحد منها سموه جراما . إذن هو يحتوي على ألف ألف جرام أو ألف كيلوجرام ، ولا جرم أن هذه تبلغ فوق (٢٢) قنطارا . ومعلوم أن الكيلوجرام (٣٢٠) درهما وبضرب الألف فيها تبلغ (٣٢٠) ألف درم . والقنطار (٤٥) كيلوجراما .

إذن القناطر (٢٢) قنطارا ، ويضاف إليها (١٠) كيلوجرامات ، وهذه أيضا (٨٠٠) أنة ، وكل ٣٦ أنة قنطار فيكون الباقي بعد (٢٢) قنطارا (٨) أقات .

إذن الطنلثة تبلغ (٢٢) و (١٠) كيلو جرامات أو (٨) أقات . إذن للماء بثبات دقائقه وتلاصقها حفظ لنا أوزان الأجسام النوعية أي التي نسب ثقل أحجامها إلى ثقل حجم الماء المساوي لها في الحجم بحيث يكون مضاعفا له مرتين أو عشرة أو عشرين أو مساويا لبعض أجزائه كالثلث والربع كما تقدم . وحفظ لنا موازيننا المعتادة من الجرام ومضاعفاته وما يوازنه من الدرهم والأرطال والقناطر . ذلك كله يدعو إليه فهم قوله تعالى « ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » .

ولقد تبين لك من هذا المقام أن هذه المعاني لا يمكن أن يعقلها إلا من يصبر عليها صبرا مستمرا وإلا فكيف يتسنى للرجل الشهواني الغر الجاهل أن يصبر على ما ذكرناه هنا من عالم الكواكب المناسب للمقام وعالم الماء وعوالم المعادن ونحوها ، ويستمر في بحثها ويصبر على دراستها ، ولا جرم أنه إذا صبر هذا الصبر أصبح شاكرا لأن الشكر يرجع إلى فهم النعمة . وفهم النعمة لا يعقل إلا بالصبر على دراستها وتعقلها وكما كان الصبر على الدراسة أتم كان الشكر أوفر . ولذلك يقول الله « لكل صبار شكور » وكلاهما صيغة مبالغة فمن بالغ في الصبر كان أكثر شكرا وعلى مقدار الصبر ودراسة النعمة يكون شكورها ، وشكرها أن يحس

الإنسان في نفسه بحسب مسدى النعمة ، وينطق لسانه بالثناء في المدارس والجامع والوعاظ ، وتتعلق جوارحه بخدمة الأمم التي يعيش الشاكر فيها ، فهو كما يعشق مسدى هذه النعم ويحبه لإتقانه صنعه وإبداعه يكون مصدر العلم والحجرات لعباده ، بل يكون خليفته في الأرض ، وذلك بأن يكون مقتدياً بالأنبياء سائراً على نهجهم في الإصلاح وإسعاد الناس ، وهذا الشكر هو الذي ورد وجوبه في قوله تعالى « واشكروا لي ولا تكفرون » فعلى مقدار العلم يكون هذا الشكر .

ولا جرم أننا مأمورون بازدياد الشكر وبازدياد العلم ، وهذا وجوب عيني على كل قادر نص عليه علماء الأصول . فقالوا : « شكر النعم واجب » وقد علمت معناه .

أما إسداء النعم للناس بهذه العلوم فهذه فروض كفايات ، والأمم الإسلامية اليوم قصرت في ذلك كل التقصير . فأمثال هذه الموازين النوعية الطبيعية ، والموازين الاصطلاحية لا بد لها من رجال مختصين بها ويكون عددهم على حسب احتياج الأمم الإسلامية ، فلندرس هذه العلوم جميعها ، ولنوزع على جماعات تكفي نظام الأمم الإسلامية وحياتها ، هذا تحقيق المقام والحمد لله رب العالمين ، تم هذا الموضوع مساء يوم الأحد ٢٦ مايو سنة ١٩٢٩ م .

إيضاح بعض أسرار قوله تعالى

« ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام » إلى قوله : « إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور »

مع قوله تعالى : « فما أوتيتم من شيء فتناع الحياة الدنيا » الآية

ها هنا جعل الله السفن الجاريات من آياته ، وهذه الآيات لا تظهر إلا لمن صبر وشكر ، فأما الصبر فعمل والعمل والتنظيم ، وأما الشكر فلا يكون إلا بعد فهم النعم ، وكيف تفهم إلا بالدراسة ، ومن عجب أن آية سورة فاطر مثل هذه الآية في ترتيب نظامها إذ يقول تعالى « وترى الفلك فيه مواخر ، لتبتغوا من فضله ولملئكم تشكرون » فالابتغاء من الفضل إنما يكون بالعمل ولا عمل إلا بصبر ، فالابتغاء هناك في مقابلة الصبر هنا والشكر مشترك بينهما . ولقد بينت هناك بعض تعميم السفن من حيث تسهيل النقل مع وصف البحار وأعماقها ، وذلك كله واجب للشكر ، فإنك ترى هناك أن في البحر عجائب مثل الكشالوت ذو الأنياب المحددة والروكال التي يبلغ طولها (١٢٠) قدماً ، ومثل عمق البحر (٢٧٥٠) قامة مع أن النور لا يبعد أكثر من (٢٠٠) قامة ، فهناك في الظلام حيوانات تعيش بلا نور خارجي ، بل إن النور يخرج منها نفسها ، فهو تحت أمر السمكة ، إذن هناك في (٢٢٥٠) قامة في الظلام أحياء ، ومنها ماله نور فسفوري . وفي البحر المرجان يبني جزائر كثيرة كما بنت الأرضة في اليابسة مباني عالية ، إذن الأرضة برا والمرجان بحرا فعلا ما عجز عنه الناس ، فإن المرجان أحدث في البحر آلافاً من الجزائر عاش فيها الحيوان والنبات ، ومن العجائب أن قوة الحصان نجر (٣٠٠٠) رطل في البر بسرعة ثلاثة أقدام في الثانية ، وعلى السمكة الحديدية (٣٠٠٠) رطل للسافة نفسها والوقت نفسه ، وفي البحر (٢٠٠٠) رطل ، إذن الماء أكسبنا تسليلاً فوق السير المعتاد (٧٠) مرة ، هذه سر آية « وترى الفلك فيه مواخر ، لتبتغوا من فضله ولملئكم تشكرون » إذن المسلمون عليهم أن تكون لهم يد في البحار عظيمة ، هذا ملخص ما كتبتة هناك :

وأزيد هنا ماجاء في كتاب (الجغرافيا التجارية الاقتصادية) لمؤلفه الأستاذ محمد حمدي بك ناظر مدرسة التجارة العليا . فقد جاء فيه ما يأتي :

الإنسان ومغالبة البحار والمحيطات

في موضوع ترقى الملاحة

ملاحة الأنهار. علاقتها بالسكك الحديدية والقنوات.
ملاحة البحار والمحيطات. مراكب التجارة. اللوانى
وأنواعها وأشهر اللوانى التجارية. اللوانى المصرية
تأثير القنوات للملاحة في تجارة المحيطات. قناة
السويس. قناة بناما.

للملاحة غريزية في الإنسان من القدم إذا كان يدفع بنفسه في الأنهار والبحيرات لصيد الأسماك وكان
ولا يزال بأوى للسكنى على سطح البحيرات في مساكن يقبعا هنالك أمانا من الأخطار التي يمكن أن تحل به
من البر فكان دائما في حاجة شديدة إلى أى نوع كان من الزوارق.

ولا يخفى ما للأنهار من الأهمية في اجتياز الممالك الغاية أو المستنقعات، كذلك لا يخفى أن قواعد المدينة
الأولى كانت راسخة في وديان الأنهار العظمى وإذن كانت هذه الأنهار سبل التجارة بين أرجاء البلاد مثل
مدينة المصريين القدماء على تلك السلخة الأرضية التي يغمرها النيل بجميره ومثلها بابل وآشور في الوديان
السفلى لدجلة والفرات ومما نلاحظ في نظام تجارة مثل الممالك سابقة الذكر أن تقوم الملكة بسد حاجاتها
بنفسها خصوصا فيما يتعلق بمواد الغذاء الرئيسية التي هي موضوع التجارة الدولية في العالم في الوقت الحاضر
على موال لم يسبق له مثيل. وإذا كانت قد قامت حركة تجارية بين تلك الأمم القديمة بواسطة الطرق البرية فأما
كان ذلك في أواخر أدوارها من الرقى وكانت قاصرة على اللواد الصغيرة الحجم العالية الثمن من اللذائد
لا الضروريات التي لا مندوحة عنها ولم يسمع في عهدها بالتجار في اللواد الأولية والصناعية (بكيات طائلة)
لأن طريق البر كانت تستخدم فيها الناس والدواب للنقل فكانت الأحمال على قدر طاقة هؤلاء فضلا عن
أن التجارة كانت عرضة في الزمان القديم إلى سطو اللصوص وقطاع الطريق إذا انتقلت إلى مسافات بعيدة
برا أو بحرا.

ولقد كان التدرج في بعض الممالك من ملاحة الأنهار إلى ملاحة البحار طبيعيا وفي أم أخرى كانت ملاحة
البحار هي الخطوة الأولى لها كما بين سكان الجزر في المحيط الهادى أو الاسكيمو في القطب، ترقى الملاحة
إذن ليس أمرا قديما بحسب بل هو أمر عام في أنحاء الأرض ولا يقع طبعاً في الأستقاع الجافة الحالية من الأنهار
كما يفهم من حال العرب في بدء مدينتهم حتى لقد كان يكره سيدنا عمر البحر وبها به مع أنه كان يرى فضل
التقل بالماء إذ أمر بحفر خليج أمير المؤمنين بمصر، ولا في الأستقاع الموهلة بالبحار الخطرة الطلقة الساحة
كما في الجنوب الغربي من أفريقيا:

وترقى صنع القلح يمكن تصب في التاريخ ابتداء من الحشبة الطافية باللوص المهزوم مما يتسنى له أن يحمل
رجلا وحملة ثم الكتل الحشبية القرعة فالهيكل السبق الموهط بالجلد فالقارب المصنوع من الأخشاب المسمرة
ثم إلى تهيئته (بالدفة) وهكنا.

والبوس هو أشهر ما صنع منه الفلك قديما في الممالك الحالية من الأشجار في مثل أراضي النيل وبحيرات العجم، وأول ما ظهر من القوارب على شكل الأسبات الملقوفة في الجلود كان في نهر الفرات ثم امتد التقليد والترقى في ذلك تدريجيا .

وفي الأدوار الأولى للرقى التجارى تقتصر المملكة على استخدام أنهارها لللاحة وتكون هذه في غاية الأهمية لأهلها ولكنهم في أدوارهم الأخيرة يعمدون إلى استعمال السكك الحديدية مع الأنهار التي ربما قد يقل استعمالها بترقى هذه السكك وتضرب لهذه الأدوار أمثلة :

ففي حوض « الأمازون » تجرى جميع اللواصلات تقريبا بواسطة الأنهار والنهر الرئيسى قابل للملاحة بواسطة البواخر الضخمة المحيطية إلى مسافة ٣٠٠ ميل لغاية بلدة « ايكوتوس » ثم ما فوق هذه مسافة ٥٠٠ ميل قابل للملاحة بواسطة مراكب أقل حجما مما تسحب الواحدة أربع عشرة قدما ثم يصادف النهر شلالات كثيرة مثل « بنجودى مازريكى » وغيره، وهى من خصائص نهرياته أيضا لاسيا في كثير من جهاتها العالية وفي أواسطها وأحيانا في أسفلها فتجرى الملاحة بواسطة الأنهار في كل جهات البرازيل إلا إذا اعترضتها الشلالات فيلجئون إلى نقل البضائع برا، وليس بالبرازيل سكك حديدية إلا ما ندر منها على الشواطئ* ولقد شرعوا حديثا في مد خط على نهر ما ديرا من سان انطون على مقربة من شلالات متوالية (١) .

وحوض « الكنفو » من أحسن ما يمثل ارتباط التجارة النهرية بالسكك الحديدية إذا تقرر تسيارها بسبب الشلالات تدخل مراكب المحيط من المصب إلى « ما نادى » ومن بعدها شلالات هى من خصائص جميع الأنهار العظيمة لأفريقية حتى في مجاريها الواطئة وهى التي كانت سببا مهما في تباطؤ كشف أفريقيا ورقى تجارتها، لأنه يتعذر سلوك الأنهار إلى الداخل لذلك توجد سكة حديدية طولها ٢٦٠ ميلا من مانادى إلى « ليوبولديل » على بركة « ستانلى » فيتجنبون بواسطتها شلالا عظيما اسمه « يلالا » وبعد ذلك يوجد نحو ١٠٠٠ ميل من النهر صالحة للملاحة لغاية شلالات استانلى فتوجد سكة حديدية أخرى تبلغ ٣٠٠ ميل لتعاشى هذه الشلالات أيضا وهى من « ستانلى فيل » إلى « بوتشير فيل » ثم يقب هذه ٣٠٠ ميل من النهر قابلة للملاحة وبعدها سكة حديدية ثالثة من « نيانجوى » يصلون بها إلى جزء آخر من النهر قابل للملاحة في « لوالايا العليا » (٢) .

وكذلك هو الحال في « وادى النيل » إذ ترى مثل هذه الخصائص من عدم وصول السكة الحديدية فيه إلى حد السكالك فهى تمتد في حوضه الواطئ من البحر الأبيض المتوسط إلى الشلال الأول على مدى ٧٠٠ ميل تقريبا ثم تنقطع لضيق الوادى وتبتدى ثانية من وادى حلفا في حوضه الأعلى إلى السودان المصرى الإنجليزى فيبقى النهر الوصلة بين الشلال ووادى حلفا وهكذا يجب تتبعها لدراسة سيرها مع النهر .

وفي « كولومبيا » بجنوب أمريكا أمثلة كثيرة للسكك الحديدية التي وظيفتها مجرد إيصال بعض المدن الشهيرة على الأنهار بالمدن الواقعة خارجة عنها ، ويعمن لذلك دراسة حوض « الغدلينا » .
وتزداد فوائد الأنهار بشق الترع والقنوات في أحواضها، والقنوات إما أن تشق وتكون حافظة مستوى واحد على طول مداها فيتبع في نظام حفرها مستوى سطح الأرض وإما أن يكون من نظامها تنيير ارتفاع سطح الماء فتجهز « بالأهوسة » وقد تبين الأهوسة كذلك على الأنهار خصوصا إذا كان تيارها سريها لا تيسر

(٢٠١) يجب تتبع هذه المعلومات في خريطة طبيعية سياسية .

منه الملاحة أو إذا اعترضته الشلالات في مثل قناة «سولت سان مارى» .

وبما أن مجارى الأنهار والترع تكون عادة متعرجة فقد يصيب جوانبها التلف إذا سارت فيها المراكب بسرعة ودفت بالمياه يمينا وشمالا فضلا عن أن الأهوسة تكون معطلة قليلا لتوالى سير المراكب لما تقتضيه . من الانتظار في رفع الماء وخفضه لذلك ولأسباب أخرى كانت الملاحة بالأنهار والقنوات بطيئة غير مسعفة ولكنها مع ذلك ذات شأن في نقل الأحمال الثقيل كالقمح وغيره من المواد الضخمة نظرا لرخص الحمل على الماء فيكون ذلك أرحم أحيانا من سرعة القطارات الحديدية ولما تجمد «السين» في سنى الحرب دأبوا على قطع الجليد منه ونسفه بالديناميت ليتسنى استخدامه مع أنه في سنى السلم كان ملهى انزلاق .

ونظام القنوات للملاحة في وسط أوروبا وغربها عجيب جدا ومفيد من الوجهة التجارية الفائدة العظمى إذ يشترك جميع الأنهار العظمى بعضها ببعض «الرين والرون والألب والأودر والفيستولا والبطونه والسين والوار» قنوات في غاية العظمة والمنفعة وبين ألمانيا وبلجيكا وهولانده وفرنسا قنوات ملاحية من الدرجة الأولى في الحركة التجارية وعليها تمر المحمولات العديدة الضخمة .

ولبعض الأنهار والقنوات في شمال أمريكا أهمية عظمى في التجارة؛ فالمسيشى ونهراته عماد حركة تجارية في طول البلاد وعرضها وقناة هادسن وإيرى التى تصل نيويورك بالبحيرات العظمى - والبحيرات العظمى - نفسها ، العليا وميشيغان وهورون وإيرى وإنتار يوقطب رضى الحركة التجارية في كندا والولايات المتحدة وعامل من عوامل رقى التجارة الداخلية لتلك الجهة ، ولقد أقيمت الأهوسة تحاشيا لشلال سولت سان مارى وتسمى «سو» بين البحيرة العليا وهورون ومن وقت ما أخذت هذه القناة الطبيعية في الحركة التجارية إلى الآن بلغت محمولاتها من البضائع آلاف الآلاف بالنسبة لمهد بدئها ولم يمض عليها إلا نصف قرن كذلك يوجد بين ميشيغان والمسيشى قناة تجارية عظمى وتوجد أخرى بين بحيرة إيرى وأنتاريو تحاشيا لشلال نياغرا ونهرسان لورانس قابل للملاحة من بعد بحيرة أنتاريو إلى المصب . هذا ، ويوجد في كندا قناة ملاحية أخرى من خليج جورجيا في بحيرة هورون إلى بحيرة أنتاريو ، وستشق أخرى بين خليج جورجيا المذكور ونهر أتاوة لتقصير المسافة وعدم ضرورة مرور تجارة هاتين الجهتين في البحيرات كما يتضح من الخريطة .

هنالك يحمل قمح كندا في المراكب التجارية من فورت وليام وبورت أرتز على البحيرة العليا ويحمل قمح الولايات من موانيه ديلوث وشكاغور إلى باقاب ثم يوزع منها ويحمل القطن من الحديد من بعض النواحي على البحيرة العليا وميشيغان إلى جهة بحيرة إيرى ؛ والحركة التجارية في القمح عظيمة جدا وأكبر محمولات المراكب التجارية لهذه البحيرات تبلغ ١٣٠٠٠ طن أو أكثر - من القمح والحديد وماضخم حجمه ومراكب ظهر الحوت للقمح حمولة الواحدة ١٠٠٠٠ طن .

وأنهار الملاحة العظمى هي التى يتوافر من شروطها أن تصب في المحيطات التجارية العظمى لأن للمالك القابضة على زمام التجارة واقعة على المحيطات خصوصا الأسمى وله ثلث الحركة الخاصة بأنهار العالم التجارية وللهادى سبحها وللهندي ثمنها والباقي للمحيط المتجمد وداخل القارات .

مراكب التجارة

كانت التجارة البحرية تترقى تدريجياً متباطئاً فلم تظهر مراكب التجارة في أشكالها وأحجامها الضخمة إلا من عهد ليس بعيد، فقد كانت أقصى حمولة للمراكب الرومانية في البحر الأبيض ٥٠٠ طن أو أكثر من ذلك بقليل. وفي عهد الاكتشافات وعبر المحيطات بلغت حمولة بعض المراكب المستخدمة ١٠٠٠ طن وعبر كولمب الأطلنطي في مركب حمولتها في ٢٣١ طن لاغير، ولما اكتشف البخار أحدث تغييرات عظيمة جدا في حمولات المراكب فمرت أول مركب بخارية المحيط الأطلنطي سنة ١٨١٩ ثم اشتهر بعد ذلك صنع المراكب من الحديد وفي سنة ١٨٧٥ صنعت من الصلب وتوقت هذه الصناعة على الأولى وازداد عدد المراكب البخارية من هذا الحين حتى تسارت انجلترا حمولة الشراعية والبخارية بين سنة ١٨٦٥ - ١٨٧٠ وأخذ عدد المراكب البخارية من ذلك الحين يعلو عدد الشراعية، ففي خلال سنة ١٨٧٠ - ١٨٧٤ زيد سنويا على الأسطول التجاري الإنجليزي ٢٤٠ مركبا شراعية متوسط حمولة الواحدة ٦٥٠ طن ولكن في خلال سنة ١٩٠٥ - ١٩٠٩ لم يزد سنويا عليه إلا ١٥٠ مركبا فقط بينما ازداد عدد المراكب البخارية سنويا من ٥٠٠ - ٦٠٠ مركب ولا يوجد الآن من المراكب الشراعية إلا ربع أسطول العالم.

ولقد أدخل حديثا في المراكب الشراعية الكبرى آلات بخارية بغرض إخراجها من البناء أو تسييرها في مناطق السكون وازاد عدد المراكب التي من هذا النوع على أنه لا تزال الحاجة إلى المراكب الشراعية ماسة في التجارة في بعض النواحي فهي تحمل الآن غلال كاليفورنيا وتترات أمريكا الجنوبية ويتجر بها على ساحل الباسيفيك لأن هذا الساحل لا توجد على مقربة منه مناجم فحم يمكن للمراكب البخارية أن ترسو عليها ولا يزال جزء عظيم من التجارة بين مصر وسوريا والأناضول والبلقان تحمله المراكب الشراعية وغير هذه الجهات كثير.

وكان للامبراطورية البريطانية قبل الحرب $\frac{1}{4}$ من مراكب العالم البخارية وقسط كبير من هذه النسبة تابع لبريطانيا نفسها لأن بريطانيا جزيرة في الاطلنطي كثيرة اللواني البحرية وهي في حد ذاتها مملكة شهيرة بالصناعة شهيرة فائقة وواقعة بين أسواق أوروبا وأمريكا فهي من كل هذه الوجوه أسعد جهات العالم صلاحية موقعها للتجارة البحرية وبريطانيا وأرلندا كانتا تبتيان ثلثي مراكب العالم وكان للولايات المتحدة أكثر من $\frac{1}{4}$ من أسطول العالم التجاري وكان لألمانيا $\frac{1}{10}$ منه وكلتا المملكتين تترقى في الصناعة ترقيا سريعا وبهما أن تملك أساطيل تجارية جرارة ومن بعدها تأتي النرويج وكان لها تقريبا $\frac{1}{13}$ وهي نسبة عظيمة بمراعاة عدد السكان فهي ليس لها صناعات عظيمة مثل الممالك الأولى وهي جبلية فقيرة ليست غنية بالمزارع الكثيرة ولا بالمعادن الوفيرة ولكن لها نشاطا كثير التمرجات تحميه على مداه جزر عدة خالية من الجليد في فصل الشتاء بالرغم من وقوعها على خطوط عرض مرتفعة وهي غنية بالأسماك والنرويجيون مشهورون بالملاحة من بدء تاريخهم يساعدهم على ذلك فيوردانهم والطرق بين الجزر المتشورة على شاطئهم وعندم كثير من اللواني الطبيعية وهم دائما على أهبة أن يزجوا بأنفسهم في البحر، فلا غرابة إذا كانت مرتبتهم الرابعة في ملاحه العالم ويأتي بعد النرويج في حمل تجارة العالم فرنسا وإيطاليا واليابان والأراضي المنحطة.

وفي نحو سنة ١٨٩٠ كانت للمراكب التي حمولتها أكثر من ٨٠٠٠ طن قليلة ولكن سنة ١٩١٠ كان ملك الشركات المختلفة أكثر من ٨٠ مركبا محمول الواحدة منها أكثر من ١٢٠٠٠ طن وللمركب الكبيرة

ذات الجمال العظيم من البضائع قد تكلف في الصنع أقل من تكاليف مركبين محمولهما مثلها ولكن يراد في الأولى من حيث حجمها الضخمة عمق المواهب المستخدمة واتساع الأهوسة .

خطاب المؤلف ربه شاكر له نعمه

قبيل صلاة الفجر يوم الخميس (١٠) رمضان سنة ١٣٤٩ هجرية ، و ٥ فبراير سنة ١٩٣١ م

رباه في العيون جمالك ، وفي القلوب حبك ، وفي السماء عظمتك ، أربتنا جمالا في النجوم والشموس والأقمار ، وأربتنا جمالا في الوجوه الحسان في أرضنا ، وظهرت عظمتك في الشموس الكبيرة فشمسنا أكبر من أرضنا نحو مليون وثلاث مليون مرة ، ونجمة من نجوم الجوزاء بلغت في العظم مقدار الشمس (٢٥) مليون مرة ، رباه أنت جميل ، وأنت عظيم ، رباه حرنا بين جمالك وعظمتك ، نهايك لعظمتك ونجيك لجمالك ، أنت جميل ، وأنت عظيم ، وصفان عجيبان : وصف الجمال ووصف العظمة . بالجمال أسرت قلوب الحكماء فتاهت في حبك ، وأشرفت نفوسهم إشراقا بضاهي إشراق الشموس . أرسلت ضوء شمسك على الأرض فأعان النبات في تغذيته ، والحيوان في هدايته لسبله ، وأرسلت الحرارة من لدنك فأثارت الرياح فجرت السفن .

يارب ذانك لأتراها لأننا مخلوقون من المادة ، والمادة ماهي إلا حركات في الأثير ظهرت لنا بهذه الأشكال فقلنا مادة وماهي إلا كائناتك ، والكائنات غير المتكلم ، وأخلاق المتكلم والمؤلف تظهر في كلامهما ، والعالم كائناتك ، وهو تأليفك وتصنيفك ، ونحن منعنا من النظر لجمال ذانك ، ولكنك لرحمتك لم تمنعنا من مشاهدة تأليفك وتصنيفك وصنعك ، ومن هذه الصنعة التي فيها كملت أسرار آثار جمالك وبهائلك ، أنوار الشمس المشرقات على الأرض ، وقد صحبتها الحرارة المنبعثة على الأرض المثيرة للرياح الحاملات للسفن : كلما كان الجمال أدوم كانت نتائجه أغزر وأتم ، وكلما كان أقصر مدى وأسرع زوايا كانت نتائجه أقل عددا هذه المشرقات في السماء دام جمالها فكانت نتائجهما هذه المواليد من نبات وحيوان وسفن ما حرات في البحار ، وهذه الأوائس الحسان من نوع الإنسان قصر أمد الجمال فيهن إذ يصبحن عجائز إذا بقين في هذه الحياة ، لذلك كانت نتائجهن محدودة ضئيلة نبات وبنون .

إن نسبة دوام جمال النجوم والشموس المشرقات إلى سرعة انقضاء جمال الغواني الحسان كنسبة ما أنتجت الشمس على الأرض من نبات وحيوان وإنسان إلى من تلهه المرأة من النبات والبنين ، الضوء والحرارة أرسلتهما الشمس إلى الأرض وبينهما ارتباط واتصال ، وبالحرارة جرت السفن في البحار ، فسير السفن ببعض آثار الشمس الدائمة الجمال بالنسبة لجمال الفتيات . فإذا كانت هذه الحرارة والضوء المنبعثان من ذات الجمال البديع التي استمدت جمالها من جمالك وهي الشمس قد كان من آثارها كل حيوان وكل نبات فهكذا نجد من آثار الحرارة الرياح الجارية المزيجات للسفن في المحيطات السهلات للحمل بحسب العادة (٧٠) مرة .

فهذه نم دائمة مادام الإنسان على وجه الأرض . إنه مادام الإنسان في الدنيا اليوم وغدا وأمس يرى نعمنا مترادفة في سير السفن في البحار والأنهار ويكسب راحة فوق ما اعتاده سبعين ضعفا كما تقدم . بهذا يعرف الإنسان نعمة ربه وبالتالي يشكره عليها ، وأول الشكر بعد المعرفة هو الحب ، تجريري السفن

في البحار فتحملنا لطلب المعاش أو العلم أو الحرب ونحن غافلون عن منبع الرحمة والجمال . نحن في الأرض نجد ونسى برا وبحرا ، جارين من آسيا إلى أفريقيا إلى أوروبا إلى الشرق إلى الغرب تحت رعايتك أنت ، نحن في جوف هذه السكرات الهوائية والأرضية والمائية للغموسات في الأثير أشبه بالجنين في بطن أمه وأنت تكلؤنا في أحشاء هذه السكرات والفلك بنا سائرنا بحرا والقطرات جاريات برا والقواصت محترقات بنا لجبا والطيارات طائرات بنا في جو السماء مايمسكن إلا لطفك وحنانك ورحمتك . غرست فينا عقولا وغرائز ، وأطلقتنا في هذه الأرض وأبجتها لنا ، وقلت لنا : إياكم أن نخرجوا من أقطارها ، إياكم أن ترتفعوا إلى كوكب آخر . الكواكب عليكم محرمة ، أتم هنا محبوسون كما يحبس الجنين في بطن أمه ، هو حر له أن يروح ويغدو في بطن أمه كما يشاء ، ولكني حظرت عليه أن يغادره إلا إذا بلغ الكتاب أجله ، فهكذا أنتم من شيب وشبان لا تفارقون هذه الأرض إلا في أجل معلوم ، ثم قلت لنا : أنا لم أعط لأحد في هذا العالم حرية غيركم ، فلكل حيوان غريزته ، ولكل كوكب مداره ، ولكل نبات نظامه : أمالهتم فاني متمتكم بنعمة الحرية التي صحبت عقولكم ، فها أنتم أولاء يا عبادي .

(١) أولا أخذتم البوص سفنا .

(٢) فالكتل الخشبية .

(٣) فالهيكل المخطط بالجلود .

(٤) فالقارب من الخشب .

(٥) ثم ألهمتكم صنع القطار في البر ، فأنتم لكم أعمالكم التي لم تم بها سفن البحار لاسيما إذا صدها الشلال في وسط الأنهار .

وهكذا أخذتم تزيدون سفنكم انساقا: فبعد أن كانت تحمل (٥٠٠) طن في زمن الرومان ازدادت فصارت تحمل (١٥) ألف طن فضوعف الحمول (٣٠) مرة وتزيد ، وذلك بما ألهمتكم أن تصنعوا السفن من الحديد والصلب وتقووها بآلات بخارية ، ومن فضلي عليكم أن سفنكم البخارية على قسمين : قسم منها يجرى في خطوط معلومة يحمل ركابا وبضائع ، وقسم منها جوال في البحار والهيئات لفوائد غزيرة لا يلتزم خطا خاصا ، وقد أعددت أماكن من شواطئ أنهاركم وبحاركم لتسكون «موانئ» ولا تصنع السفن إلا على مقنضى هذه اللوآني :

(١) فأمثال موانئ (لندن) و (ليربول) و (همبرغ) و (أنفرس) و (روتردام) و (فيلادلفيا)

موانئ جاءت عند مصب الأنهار ، فهي بوقوعها على البحر تصدر منها البضاعة إلى الممالك الأجنبية وبوقوعها على النهر تصرف البضائع في الداخل والعكس .

(٢) وأمثال موانئ نيويورك وسان فرانسيسكو موانئ طبيعية ، وهكذا موانئ بلاد النرويج ، فهذه

كلها اتسع داخلها وضاق مدخلها والموانئ الطبيعية جعلتها لكم نموذجا لتتخذوا لكم نظيرها بضاعتكم . فكما أنكم رأيتم خشبا وورقا يوم فوق الماء ففرقتم بعقولكم أن هذا الماء يحمل السفن فصنعتموها هكذا هذه الموانئ الطبيعية التي صنعتها لكم فتحت لكم بابا للموانئ الصناعية فصنعتم بأنفسكم ميناء الاسكندرية وميناء دوفر ، أن الثلج يعوق سفنكم أن تدخل ميناء ريفا على البلطيق للمساء (أوست دفنك) في فصل الشتاء ، وهكذا في الموانئ الواقعة على سان لورانس في كندرا (كويك دمترال) فهاتان تغلقان من نصف ديسمبر إلى إبريل ، فهذه كلها وإن صدكم عنها الثلج شهورا فإنها موانئ مشهورة ونظامها كنظام الليل والنهار . فكما أنكم بالليل نيام وبالنهار تعملون ، هكذا جعلت هذه اللوآني ذات

نوبتين : نوبة للسكون ، ونوبة للعمل لأفتح لكم باب النظر والفكر ، ولقد ألهمتكم أن وصلتم البحر الأبيض بالأحمر بحرقناة السويس فزادت حركة التجارة بين الشرق والغرب ، وفتحت الطريق البحري الغربي إلى الهندى بحرقناة (بناما) ذات القناطر الست اللزدوجة التى تقطعها السفن فى نحو عشرين ساعات وتمرفها (٤٠) مركبا فى (٢٤) ساعة وهذه القناة سهلت تجارة بريطانيا وألمانيا وفرنسا الخ مع بعض الولايات للتحدة وكندا ومع المكسيك وجواتيالا وزيلانده وشبلى وبيرو وهكذا. هذه باعبادى أعمالى ورحمى لكم الواسعة ولكن ليس معنى هذا أن تعيشوا كعيش السمك فى البحر ، أو الطير فى الهواء . أو الهوام فى التراب ، أو الأنعام فوق الأرض ، هذه كلها لاجرية عندها كحريتمكم بدليل أنها لزمتم الحطط التى رسمتها أنا لها ، أما أنتم فإنى منحتكم الحرية وجعلت الأرض والأنهار والبحار مدارسكم فتعيشون إلى أمد ثم تموتون ، وقد ظهرت حريتمكم فى أعمالكم البرية والبحرية المذكورة وبهرت . فكما ظهرت آثار حريتمكم فى الأعمال الحيوية فى الحياة الدنيا فلتنظروا ولنهر فيما هو أبعد مدى وأشرف منزلة من شرف نفوسكم وإسماعها وترقيتها ، إننى خلقت فى أرضكم فلاسفة وأوحيت إلى أنبياء ، وقلت لهما : أفهموا عبادى أن ما يفنى لا قيمة له (كما تقدم فى مقال سقراط قريبا فى آية « الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان » الخ) لا يغرنكم ما تصنعون وما تملكون ، ألم تقرءوا الآية التى بعد هذه الآية وهى « فما أوتيتهم من شئ . فمتاع الحياة الدنيا وزينتها » فهذه السفن الجاريات والمناجر والممالك لا بقاء لها ، كلها زينة لكم وجمال ولكنها فانية كما يفنى جمال فتياتكم وفتياتكم . إذن فليكن حرصكم على الجمال الدائم ، والجمال الدائم . لازم للحياة الدائمة التى منها استمدت الشمس طول بقائها وأضأت أرضكم بأنوارها . إن جمال الإنسان وكل ما أوفى من زينة الحياة الدنيا لا قيمة له بالنسبة لجمال الشمس والأقمار والكواكب ذوات الزينة الدائمة نوعا ما . وهذه الشرقات لانسبة بينها وبين الجمال القدس وهو جمالى ، هذه البحار . وهذه السفن ، وهذه الممالك ، وهذه الأرضون . وهذه الشمس الشرقات كاهن آثار من رحمى للصحوبة بعلمى وحى وقدرى وجمالى . كل ما هو جميل فهو من آثار جمالى سيرول العالم وترونى . وهنالك تنسون هذا الجمال بما يسي عقولكم ، فاستعدوا لذلك المقام .

إن الجمال (ثلاثة أقسام) قسم أدنى وهو زينة الأرض من جمال الفتيان والفتيات وكل نبات وحيوان ومعدن . وقسم أوسط وهو جمال النجوم والشموس ، وجمال أعلى وهو جمال ذاتى . والأول جمال نارى حاد سريع الزوال . والثانى جمال نورى بطىء الزوال . والثالث جمال روحى إلهى لا يعتره الزوال . ويتبعه العشق فهو نارى ونورى وروحى إلهى ، فالأول ما احتص بالوجوه الجميلة وزينة الأرض ، والثانى ما تعلق بجمال العوالم العلوية ويتبعه الفلسفة . والثالث ما تعلق بجمال مبدع الكائنات . والأدنى الخاص بالجمال النارى صاحبه بعد الموت فى جهنم مؤقتا أو مؤبدا . والأوسط فى الجنة والأعلى يرى ربه .

هذا ما خطر لى فى معنى آية « ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام » مع الآية بعدها « فما أوتيتهم من شئ . فمتاع الحياة الدنيا وزينتها » كتب صباح يوم السبت ٧ فبراير سنة ١٩٣١ .

اللطيفة الرابعة

مباهج العلم ومناهج الحكمة

في ملخص سورة الشورى

اللهم إنك أربتنا العجب في مباهج آياتك المصنوعة ، كما أربتنا مناهج الحكمة في آياتك المقروءة ، هما
توأمان ورضيما لسان ، وفرسا رهان لا يفترقان .

بدأت سورة الشورى بأنك :

(١) أوحيت قرآنا عربيا ، وأنت عزيز حكيم .

(٢) وأنت مالك السموات والأرض ، وأنت على عظيم . فأنت عظيم بما خلقت ، على بما أنعمت
وغالب وحكيم فيما أنزلت . وهذه العوالم خاضعات لك مدبرات بعوالمك الروحية العالية وهم الملائكة الأعلى بأمرك
وأنت خلقت هذه العوالم على صراط مستقيم . ونظام محكم بتدبيرك كما قلت في آخر السورة « صراط الله الذي
له ما في السموات وما في الأرض » كما جاء في أول السورة . هذا ما في أول السورة وما في آخرها فرجع
العجز إلى الصدر .

(٣) وشرحت في وسط السورة نتائج السموات ونتائج الأرض .

(٤) فأبنت لنا أنك لم تبسط لنا الرزق بسطا تاما لحكمة بالغة . ذلك أنك حكمت أن تكون حياتنا
كلها مبنية على العمل والحركة المباركة كما ترى الشمس والقمر وجميع النورات متحركات ، فلو أن حركاتنا
سكنت وأعمالنا وقفت بما تبسط لنا من الرزق لكان الوبال والحوال . فلذلك جعلت القيث بعد القنوط .
واليسر بعد العسر . والرفعة بعد الخفض كل ذلك تدريب وتعليم وتربية بالحكمة والعزة والعلو والعظمة
المذكورات في أول السورة .

(٥) وذكرت لنا ما لدينا من الحيوان الذي بثته في الأرض ، وما حبوتنا من التربة ذكرانا وإنا
ومن البحار والرياح والسفن الجارية في البحار العظيمة .

هذا مجمل ما جاء في عالم الخلق في هذه السورة . أما مجمل ما جاء فيها من آيات الوحي فذلك أنك :

(١) أنزلت قرآنا عربيا .

(٢) وأول من يتعلمه ويندر به أهل مكة ومن حولها .

(٣) وهذا الدين ليس بدعا بل هو كالأديان السابقة . فما نزل دين إلا للاجتماع . أما الافتراق فإنه

آت من الأهواء والأغراض والشهوات وحب التملك والاستعباد والترف .

(٤) وهو صلى الله عليه وسلم مأمور أن يدعو إلى هذا الدين ، ويستقيم كما أمر . وأن يعدل بين

الناس ، والعدل على مقدار ما يظهر له من الحجج والبيئات في القضايا . فعليه أن يحكم بالظواهر ، والله
يتولى السرائر .

(٥) إن الله أنزل الكتاب المقروء لتعمل به ، ونحكم بأحكامه . ونصب ميزانا في العوالم

المالوية والسفلية ، وذلك ليزان توزن به هذه العوالم كلها في الدنيا والآخرة ، وبه توزن
أيضا أعمال العباد . فما لم تقم الحجج الظاهرة والبيئات أمام القضاء فهناك يكون فصل القضاء .

فيه يوم القيامة وذلك قوله تعالى : « الله الذي أنزل الكتاب بالحق والبرهان وما يدريك لعل الساعة قريب » .

(٦) والله كما انصف بصفة العدل انصف بصفة اللطف . فليس لطفه بمطعم الظالم في الخروج عن العدل فيجعل كالمصالح ، بل الظالمون مشفقون مما كسبوا ، والآخرون في روضات الجنات . فاللطف إذن لا ينافي العدل . هذه خلاصة مما جاء في هذه السورة من آيات السموات والأرض وما بينهما وآيات الوحي . فلا تجعل الكلام في بسط هذا اللقاع على قسمين .

(القسم الأول) في نظام السموات وضوء الشمس وآثاره في النبات والإنسان . واتصال عوالم السموات بهذا الإنسان ، بحيث تدرك أيها الذي أن هذه الموالم كلها كأنها حيوان واحد أو نبات واحد كما تقدم مفصلا في مواضع من هذا التفسير .

(القسم الثاني) في هذا القرآن المنزل بالحكمة . ولماذا أمر صلى الله عليه وسلم أن يندر أم القرى ومن حولها ولماذا ذكرت أم القرى في هذا المقام ، مع أن أهل مكة كانوا أشد الناس إنكارا للوحي وللقرآن . وما الحكمة التي تظهر في هذا الزمان؟ وهناك نذكر تعداد المسلمين الذين حول أم القرى من الأمم والأجناس ثم نبين الأجر الذي حصر النبي صلى الله عليه وسلم سؤاله فيه ، وأي أجر له ؟ وأي أجر للمصلين بعده؟ أهو أجر يجر لهم مغنا دينويا أم أمرا أدبيا دائما تقر به نفوسهم ويفرحون به عند ربهم في دنياهم وآخرتهم؟ وبيان قوله تعالى « قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا » وموازنة هذه المعاني بقوله تعالى « إلا المودة في القربى » في هذه السورة فلا يبدأ بالقسم الأول وشرحه فأقول :

الكلام على السموات وعجائبها

اللهم إنا نحمدك حمدا جزيلا ، ونشكرك شكرا كثيرا على نعمة العلم وبهجة الحكمة . أرىنا ياربنا جمالا نراه عيوننا ، وحكمة تبصرها نفوسنا في سمواتك ، وذلك له علاقة بأحاساننا وعقولنا، وزنت حركات الأفلاك ، وأنمت بيانها في هذا التفسير في مواضع كثيرة ، فلك الحمد اللهم على نعمة العلم وبهجة الحكمة ، أرسلت الأضواء لأرضنا بالحكمة وقدرتها بالبرهان . فما هو ذا عطارده يدور حول الشمس في ٨٨ يوما لإقليا والزهراء تدور في ٢٢٥ يوما لإقليا ، والأرض في ٣٥٦ يوما ٢٥٦ من الألف من اليوم . والريخ في ٦٨٧ يوما لإقليا . والشترى في ٤٣٣٢ يوما ونصف يوم تقريبا . وزحل في ١٠٧٥٩ يوما وخمس يوم تقريبا : وأورانوس في ٣٠٦٨٧ لإقليا . ونبتون في ٦٠١٢٧ يوما لإقليا .

هذه هي السيارات المعروفة أجادها ومنها أرضنا، أنت يا الله نظمها وفصلت حركاتها، وجعلت بين الأرض والقمر والشمس علاقات أخرى غير الحركات المذكورة وتلك هي حوادث المد والجزر ، فإن البحر

يرتفع وينخفض كل يوم مرتين بل كل ٢٤ ٥٠ عن تسوية متوسطة ، لحينا يرتفع البحر يزحف على الشواطئ ويُدفع بالثاني مياه الأنهر فترتفع حينئذ في مجاريها وهذا هو المد ، ومدة الارتفاع ست ساعات ومتى أخذ البحر نهايته المنظمى من الارتفاع يستمر سبع أو ثمان دقائق ثم يبتدىء في الانخفاض زاحفا عن الشواطئ التي كان علاها شيئا فشيئا وهذا هو الجزر وبعد الجزر يحصل مد جديد وهكذا .

والسافة بين الدين ٢٥ و١٢ ومدة المد تزيد عن مدة الجزر لأن البحر يستعمل زمنا في الصعود أكثر

من الزوال ، والفرق ليس واحدا بالنسبة لجميع المين فمقداره في هافر وبولوني ٢٢٨ وفي مينة بردست

١٧ فقط .

تغير أوقات المد والجزر . التأخير اليومي لحادثة المد والجزر هو ٥٠ دقيقة وهذا المقدار هو مقدار تأخير مرور القمر بمستوى الزوال كل يوم ، وحيث إن تأخير ٥٠ دقيقة كل يوم يحدث تأخيرا قدره ٢٤ ساعة بعد ٢٩ يوما وثالث أعنى بعد شهر قمرى فيجب حينئذ أن تنقلب أوقات المد والجزر كل نصف شهر قمرى من صباح إلى مساء وبالعكس . وبعد شهر قمرى كامل يعود المد والجزر إلى الأوقات الأولى بينها وحينئذ فهناك ارتباط بين الأوقات التي يحصل فيها المد والجزر وبين أوقات مرور القمر بمستوى الزوال .

تغير الارتفاع . كلما كان ارتفاع المياه في المد كبيرا كان انخفاضها كثيرا في الجزر التالي له وبأخذ المتوسط بين جزر ومد متتاليين يتحصل على نتيجة ثابتة تقريبا ولهذا التسوية تنسب الارتفاعات في عمليات الميزانيات ويسمى مدا كليا متوسط . مدن أحدها بلى جزرا والآخر يسبقه ، والمد السكلى في الوقت الواحد متغير على حسب المين بسبب اختلاف شكل الشواطىء وفي المينة الواحدة يتغير على حسب أوجه أشكال القمر وعلى حسب أبعاد الأرض عن القمر والشمس وعلى حسب ميل هذين الكوكبين . ففي وقت الاجتاع والاستقبال يصل المد نهايته العظمى والجزر نهايته الصغرى . وأما في وقت التريبعين فيأخذ المد نهايته الصغرى ، ولعلم أن أعظم مد لا يحصل في نفس لحظة الاجتاع أو الاستقبال بل بعدها بقدر ٣٦ ساعة . فالمد الثالث الذى يلى الاجتاع والاستقبال هو الذى يكون أكبر مد وكذلك المد الثالث الذى يلى التريبع الأول والأخير يكون هو أصغر مد وهذا التأخير ينسب لاحتكاك العناصر السائلة بعضها على بعض وعلى قاع البحر ، وينشأ عن هذا الاحتكاك بطء في حركتها وفي (بردست) يصل المد السكلى للاجتاع والاستقبال في المتوسط ارتفاعا قدره ٦٢٥ متر والمد السكلى للتريبعين فيها هو ٣١٠ متر فقط .

وبعد الأرض عن القمر يحدث تأثيرا على مقدار المد السكلى الذى يزداد باقتراب القمر من الأرض ويتناقص بتباعده عنها وفي مينة (بردست) تغير البعد المذكور يحدث تغيرا مقداره ١٧٧ في ارتفاع المد السكلى وكذلك تغير بعد الشمس عن الأرض يؤثر على مقدار المد السكلى غير أن ذلك التأثير قليل بالنسبة لتأثير القمر . وكذا ارتفاع المد والجزر يتغير على حسب ميل الشمس والقمر . فحينما يكون القمر قريبا من دائرة المعدل في وقت الاعتدالين يكون المد المقابل للاجتاع والاستقبال هو أكبر مد ، وينتج من جميع ما تقدم أن هناك ارتباطا أصليا بين حادثة المد والجزر وحركات القمر والشمس . وسنبين أن المد والجزر هما نتيجة تأثير جاذبية القمر والشمس على الأرض أعنى نتيجة من قاعدة الجذب العام اه .

فهذا إجمال الكلام على علاقة الأرض بالشمس من حيث حركاتها حولها مع السيارات الأخرى ومعها ومع القمر باعتبار المد والجزر ، وهذا معناه أن هذا العالم كله أشبه بالجسم الواحد (انظر المجموعة الشمسية مرسومة في سورة الأنعام وفي سورة سبأ وآثار الأضواء في الأرض) .

إن الأضواء تصل إلى الأرض منتظمة فكان الصيف والحريف والشتاء والربيع فماذا رأينا ؟ رأينا النباتات موزعات على أيام السنة (وبعبارة أخرى) إن هذه النباتات قد تبعت في زرعها وترتيب أوقاته نظام حركات الأرض حول الشمس ، سبحانك اللهم وبحمدك . أنت الحكيم ، أنت العلى ، أنت العظيم ، أنت العزيز . فبالعزة قهرت الأرض فدارت ، وبالحكمة قدرت حركاتها . وأنت لا تلبس المادة التي غرقنا فيها بل نحن فيها

محبوسون . ياربنا ، وأنت مزمه عنها ، فأنت على وأنت عظيم ، فلك العلو على هذا النظام . ولك العظمة . اللهم
إننا رضينا أن نكون مغمورين في هذه المادة تحت عظمتك وعلوك والأرض نحري بنا حول الشمس بنظام
محدود وأوقات لا تتغير ولا تتبدل . وإنا رضينا بهذا لأننا نعلم رحمتك الواسعة التي عمرتنا بها ، فنحن لما
شاهدناها رضينا بكل ما تحكم به فينا في هذه الدنيا وفي الآخرة . فاذن نتوكل عليك . وليس يصح التوكل
ولا يتم إلا بأن نسير على نهجك ونكون صالحين مصاحبين لعبادك حارين على صراطك الذي نصده في حيواتك
وفي أرضك .

ومن هذا الصراط وهذا الميزان أوقات الزراعة . فلكل فصل من فصول السنة بل لكل شهر شمسي
أنواع من الأزرع تنبت فيه (اقرأ هذا المقام مفصلا في أول سورة الزمر) وهالك حصه هنا وبقيت هناك .
(شهر هاتور) فيه يزرع القمح ويطلع البنفسج ^(١) والنشور . وأكثر البقول . ويجمع ما بقى من
الباذنجان وما يجرى مجراه . ويحمل العنب من قوص . وفي ثمانية يتدى حصاد الأرز . وفي خامسه أول
تشرين الثاني من شهور السريان . وفيه يتدى برد المياه . وفي سادسه أول المطر الواسع ، وفي سابعه يتدى
أهل الشام الأزرع . وفي ثامنه يتدى هبوب الرياح الجنوبية . وفي ناسمه يتدى زرع الحشيش ^(٢) وفي
حادى عشره يتدى اختفاء الهوام . وفي ثالث عشره يتدى غليان البحر . وفي رابع عشره تسمى الحيات . وفي
سادس عشره يجمع الزعفران ، وفي ثامن عشره تكثر الوحوش . وفي الثاني والعشرين منه يغلق البحر
الملح وتمتص السفن من السفر فيه لشدة الرياح . وفي الثالث والعشرين منه يتدى سخونة بطن الأرض .
وفي الرابع والعشرين منه أول اسفيدار ماء من شهور الفرس .

(شهر كيهك) فيه تدرك الباقلاء وتزرع الحلبة وأكثر الجيوب ، ويدرك الرجس والبنفسج ، وتلاحق
الحمضات . وفي أوله ابتداء أربينيات مصر . وفي ثالثه يتدى موت النباب . وفي خامسه أول كانون الأول
من شهور السريان . وفي سابعه آخر الليالي البلق وأول الليالي السود . وفي حادى عشره يتدى الشجر في
رمي أوراقه . وفي ثاني عشره تظهر البراغيث . وفي سابع عشره أول فصل الشتاء ، وهو أول أربينيات
الشام . وفي ثامن عشره يتفسس النهار . وفي الحادى والعشرين منه يكثر الطير الغريب بمصر . وفي الثالث
والعشرين منه أول مردوماه ^(٣) من شهور الفرس . وهو نوروزهم وأول سنتهم . وفي الخامس والعشرين منه
يهيج البلغم . وفي السادس والعشرين منه تلقح الإبل . وفي السابع والعشرين منه يكثر شرب الماء في الليل
وفي الثلاثين منه يتدى تقليم الكروم .

يا سبحان الله . هذا هو ميزانك الذي شاهدناه في هذه الدنيا أو هذا هو صراطك المستقيم . رأينا في
الحياة قبل أن نموت . فأنت لم تدبر حركة ولا ذرة إلا وزتها . فأما الحركة ففي علم الفلك . وأما الذرة ففي
علم الكيمياء .

لك الحمد اللهم على نعمة العلم . علمتنا يارب أنك ذو نظام جميل ففهمناه . وعلمنا أنك لم تقف في الوزن
عند العوالم العظيمة كالكواكب السيارة . كلا . بل تراعى هذا الميزان في خلق النبات وأريتنا جذوره

(١) يسكون الفاء ، وفتح بقية الحروف .

(٢) بفتح أوله .

(٣) سبأى قريبا أن يروى الفرس وأول سنتهم أفرودين ماء ونظنه الصواب لأنه الذى ورد في مروج

الذهب وغيره ومع ذلك لم يذكر هذا الشهر في أسماء الشهور الآتية .

مفصلات تفصيلا بديعا ، بحيث كانت ملائمة كل الملائمة لما خلقت له بحيث تجذب الجذور من الأرض بأنايبها الشعرية ما يوائى الثمرات التي خلق ذلك النبات لها والحبوب والحضر وهكذا . فراك كما قدرت حركات السيارات ولم يكن فيها خطأ هكذا قدرت ووزنت تلك الأنايب الشعرية والفتحات التي تعسر مشاهدتها فكانت مناسبات لنتائج النبات من حب وفاكهة وزيت ونشاء وهكذا . وهذه الفتحات لا تجذب من الأرض إلا اللأم لها . ولو أن نباتا اتسمت فتحاته أو ضاقت عما يلائم ما تجذبه لم يخرج لنا ثمر ولا بر ولا خروج بل هناك يختلط الحابل بالنابل ويموت الإنسان والحيوان .

اللهم أنت اللطيف بنا « الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز » فأى لطف أعجب من هذا ؟ عجب يارب دقة الحركات في الشمس ، ودقة فتحات الجذور أمران عجيبان . هذه أعظم رحمة لك . ولكننا لانظن لها ولا تفكر فيها . ذلك لأن شهواتنا الصغيرة حبست عقولنا فلم تنقبه إلى النظر في دقة هذا الصنع لأن شهواتنا استحوذت على عقولنا فمنعنا من التعامل في هذا الجمال .

هذا ، ولم يقف الأمر عند دقة الحركات ونظام أوقات الزرع على مقتضاها ولا عند نظام الفتحات بل الأمر فوق ذلك . فقد رأيناك أبدعت في خلق الورقات بأن جعلت لكل ورقة حجرا داخلية فيها ، ولكل حجرة سقف وحيطان ووضعت في كل حجرة سائلا وهذا السائل فيه مادة ذات لون . وهذه المادة بأحاديها مع ضوء الشمس (الواصل من بعد عظيم يبلغ بسرعة القطار ٣٥٠ سنة . وبسرعة قلة المدفع ١٢ سنة وبسرعة الضوء ٨ دقائق و ١٨ ثانية) تكون سببا في أن النبات يتغذى من الهواء بمادة الكربون (الفحم) وهذه المادة الكربونية تدخل النبات فتكون منه أنواع الخشب ، والتبن ، ونحوهما . أليس من العجب أننا نراك نحسب حركات الأرض التي لو اختلفت لاختل نظام زرعنا .

يا رب ما أجهلنا أهل الأرض ما أضمت عقولنا ياربا . أنت رببتنا بانتظام حركات أرضنا وانتظام الزرع على مقتضى تلك الحركات وبالفتحات للواقات في الجذور وبالحجرات القدرات في الأوراق . تلك الحجرات التي قد تبلغ في البوصة المربعة ١٢ حجرة و ٢٤ و فوق ذلك إلى آلاف وآلاف . هذا في البوصة فما بالك بالورقة الواحدة ، وما بالك بالورق ، وما بالك بالشجرة كلها ، وما بالك بالحقول كله .

بهذه ياربنا عشنا في الدنيا هذه هي الحياة المنظمة ونحن جميعا في الأرض علمنا وجاهلنا لانفكر فيها وهذه الأوراق مغذيات للنبات (انظر هذا المقام في سورة يس وانظر شرحه وصور الورق المذكور) إذن لو أن هذه الورقات لم تكن فيها الفتحات منظمة لم يكن نبات ، ثم لم يكن حيوان ولا إنسان لأن هذه الفتحات التي تمد بالآلاف المؤلفة عليها قوام حياة النبات وحياة الإنسان . أليس هذا هو قوله تعالى في سورة أخرى « يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بقاء ربكم توقنون » أليس هذا الذي نذكره في هذا التفسير هو من التفصيل الذي وعد الله به ، وإذا فصلت الآيات في نفس الخلق ولكنها لم تفصل في عقولنا فمن أين يأتي اليقين لنا ؟ هذا هو اليقين . وهذه هي السعادة أي السعادة التي أحس أنا بها الآن وعسى بها جميع المفرمين بهذا التفسير وما فيه من عجائب الصنع المفصلات المورثات اليقين .

ثم إننا لم نجد الأمر وقف عند هذا الحد ، فإن بين كل ورقة وأخرى حسابا هندسيا ونظاما متقنا . فترى الأشجار والأوراق عليها متقابلات متنى وثلاث ورباع وخماس وهكذا . وهذه الورقات قد رسمت شكلا هندسيا من حيث وضعها (انظر هذه الأشكال في سورة الحجر ، وتعجب مما تفرؤه هناك من ورقتين على الصن فيها ١٨٠ درجة من الدائرة على الصن وثلاث ورقات وخمس ورقات قد رسمنا شكلين حلزوين وهذان

الشكلان يتمان دائرة منتظمة بديعة عجيبة وتكون الدوائر النامة متشابهاً والأوراق الخمس منتظمة قد اقتسمن تلك الدائرة اقتساماً صادقا بحيث ترى بين كل ورقة وأختها ٧٢ درجة من الدائرة البالغة ٣٦٠ درجة من ضرب ٥ في ٧٢ وتجعل كل ورقة من الخمس في دائرة موازية لنظيرتها في الدائرة الأخرى، حل الله وجل العلم وجلت الحكمة ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل إن الدوائر المنتظمة في نبات بينهما وبين الدوائر الأخرى في نبات آخر مناصبات عجيبات حتى إننا بالبحث نجد أن جميع أوراق النبات بينها علاقات حسابية وهندسية كالعلاقات الحسابية والهندسية في نظام النجوم الثوابت والسيارات والأرض .

وهذا النظام كله نتاجه هو ماياً كله الحيوان والإنسان مما ذكرناه قريباً في السورة السابقة . فإنك تجد هناك الجدول اللين لأنواع النشاء، والمادة الأوزوتية والمادة الدهنية . وهذه الأنواع الثلاثة لم تم إلا بنظام الأوراق والجذور والأضواء والأيام التابعات حركات الأرض حول الشمس ، وينتهي الأمر بالجهاز الهضمي الذي شاهدت صورته في سورة فاطر وفي سورة فصلت قبل هذه السورة فهناك تجد الحساب مفصلاً والنظام متصلاً ، وأن القوى والعصارات المختلفة الموضوعات في جهازنا الهضمي موزعات على تلك الأنواع الثلاثة الناجمات من نظام النبات المنتظم الأوراق ، الجارية على سنن الأضواء ، في وصولها إلى الأرض .

أليس هذا معناه أن هذه العوالم كلها أشبه بحجم واحد (وبعبارة أخرى) أليس معنى هذا أننا على هذه الأرض ملزومون أن ندرس الكواكب والأرضين والأضواء وحسابها والنبات وحسابه وشرح أجسامنا وتربحها ثم نفوسنا .

خطابي للمسلمين

بإمعاشر المسلمين : الحق أحق أن يتبع . نحن نعيش في الأرض عالة على الأمم في هذه العرون المتأخرة بإمعاشر المسلمين أكتب كتابي هذا ، وقريباً أفارق هذه الأرض . وأصعد إلى الله وأبرأ من السكان وأنقول يارب قد اجتهدت أن أبلغ المسلمين ما عرفته من صنعك وما فهمته من كتابك وما على إلا أن أبين ، وفوق ذلك أقول : إنكم ستبلغون شأواً عظيماً في سعادة الحياة وسعادة الممات . إنكم ستدرسون كل ما ترونه في السموات والأرض ، وهناك تفهمون لماذا يكرر ذكر العوالم العلوية والسفلية في كثير من آي القرآن . وبهذا تم الكلام على القسم الأول في نظام السموات والأرض .

القسم الثاني

هذا القرآن المنزل ، ولماذا أمر صلى الله عليه وسلم أن يتنذر أم القرى ومن حولها

ولماذا ذكرت أم القرى في هذا المقام الخ

لنجعل هذا القسم في (فصلين : الفصل الأول) في أن القرآن عربي (الفصل الثاني) في ذكر أم القرى

ومن حولها .

الفصل الأول

في أن القرآن عربي

فأقول : قد تقدم الكلام عليه في (سورة فصلت) وهي السورة السابقة . وسيأتي للكلام بقية

في (سورة الزخرف) .

الفصل الثاني

في تبيان تخصيص أم القرى ومن حولها

اعلم أيها القاري أن الله عز وجل قبيل نزول القرآن قد كان نظم أمتين وهما فارس والروم . وهاتان الدولتان قد اقتسما الأقطار المحيطة بجزيرة العرب قبيل النبوة . فكان للروم البلاد الجنوبية ، فدمسكوها نحو (٦٠٠ سنة) وللفرس البلاد الشمالية ، كان لهم عليها بعض السلطان نحو نيف وثلثمائة سنة ، ولم يبق إلا مكة والبلاد المجاورة لها بنجوة من غوذ هاتين الأمتين .

وأنت علم أيها القاري بما كان لهذه الأمة العربية بسبب القرآن من السطوة والنفوذ ، وكيف أزال ملك هاتين الدولتين . ثم كيف بقيت قرونا . ثم كيف تولاهما الحور والضعف حتى أصبحت أم أوروبا على أبواب مكة ، والمسلمون في مكة وحول مكة الآن بعد ١٣٤٩ سنة قد بلغ تعدادهم ما بينته في كتابي المسح [القرآن والعلوم المصرية] وقبل أن أذكر ما كتبت في ذلك الكتاب وما خاطبت المسلمين به أذكرك أيها القاري بما تقدم في أول سورة (العنكبوت) من الرسائل التي أرسلها النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملوك وأمراء العرب والعجم ، وبعد أن تقرأ ذلك أكمل القول بحادثتين تاريخيتين لم يذكرها هناك (الحادثة الأولى) هي التي وردت في (أبلة) أيام النبوة (الحادثة الثانية) هي التي جاء ذكرها في قبائل البجة الذين كانوا يسكنون مصر ، وإنما نذكر هاتين الحادثتين هنا لأننا في مقام إنذار أم القرى ومن حولها بالقرآن العرفي وهذا الإنذار تبعه رقي أم القرى وما حولها حتى تعدي العرب حدود آسيا وأفريقيا واحتلوا ربوع أوروبا ولما بلغوا العلم لتلك الأمم ورفعوا شأن الإنسانية رجعوا ثانيا إلى ما يشبه حالهم الأولى . فإذا ذكرنا الحادثتين فإنما نريد بهما كيف كانوا يعاهدون الأمم ، وكيف يحافظون على النفوس والأرواح ، وهم إنما خلقوا في جزيرة قاحلة لا علم فيها ولا حضارة ولا مدينة وأن هذه السيرة سترجع لهذه الأمم كما ابتدأت .

الحادثة الأولى هي حادثة العقبة

إن الإنسان يصعد إليها بمنحدر من مسافة طويلة من الغرب حتى يصل إلى قمها . فإذا أردت أن تنزل إلى الجهة الشرقية صرت نازلا صاعدا وصاعدا نازلا في أرض حجرية تارة ، وأخرى رملية ناعمة . وأخرى خشنة أو زلطية إلى أن تمر في مضيق لا يسع إلا جملا جملا ، ويسمى قطع لاط ، وطريق هذا القطع حلزوني تقريبا أصلحه ابن طولون . ثم محمد بن علاون ، ثم عباس باشا الأول ، ومع ذلك فإن المسافر فيه لا بد أن ينزل عن دابته ويسير على قدمه حتى يقطع العقبة في ست ساعات نزولا وضعفها صعودا ، ومن دون هذه العقبة قرية العقبة ويسمونها (أبلة) وهي بلدة قديمة جدا ، وكانت عامرة من زمن مديد . وكانت في مدة سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ميناة كبيرة للمراكب التي كانت تفتد إلى الشام من اليمن والهند وفارس وانقطع بها طريق البر من اليمن إلى بطره . ولما مات سليمان رجعت الطريق الأولى إلى ما كانت عليه في نقل التجارة برا . وكان فيها أسواق كبيرة ، بل كانت مركزا للتجارة بين مصر وبلاد العرب وفارس والعراق . ولما أتى النبي صلى الله عليه وسلم إلى غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة أتاه ابن ربيعة صاحبها وصالحه وأعطاه الجزية فكتب له عليه الصلاة والسلام عهدا هذه صرته : بسم الله الرحمن الرحيم . هذا أمانة من الله ومحمد

التي رسوله لتحية ابن رؤبة وأهل أيلة أسافقتهم وسائرهم في البر والبحر، لهم ذمة الله وذمة النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثا فانه لا يحول ماله دون نفسه وأنه طيب لمن أخذه، من الناس وأنه لا يحل أن يمنعوا ما يريدونه ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر» هذا كتاب جهم بن الصلت وشرح حليل بن حسنة بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي سنة ٥٧٦ هـ كان الإفرنج قد استولوا عليها في الحروب الصليبية، فصار إليها من مصر صلاح الدين الأيوبي، وأخذ معه مراكب مفصلة على الجمال، حتى إذا وافي مياهاها أصلح مراكبه وأزلمها في البحر، وحاصر المدينة برا وبحرا، حتى أخفها عنوة وطرده الإفرنج منها، وهي الآن قرية صغيرة في أيدي عرب الحويطات، وفيها قلعة بناها السلطان مراد الرابع فيها بعض الجنود لحراستها، وعدد سكانها لا يزيد عن مائة نفس، وفي هذه القرية نخيل وأشجار، وماؤها حلو، ويزرع في أرضها الخضراوات، وبين العقبة ومعان نحو مائتي كيلومتر شرقا، والطريق فيها صعبة، وتخترق جبال السراة التي يكسوها الجليد طول الشتاء، وبينها وبين بيت المقدس شمالا بحرب نحو (٣٠٠) كيلومتر في صحراء قليلة المياه طريقها وعرة، وبينها وبين السويس نحو (٣٠٠) كيلومتر. وبهذا تم الكلام على الحادثة الأولى.

الحادثة الثانية في قبائل البجة

جاء في كتاب «الرحلة الحجازية» لمؤلفه الأستاذ محمد بك لبيب البنتوني تحت العنوان التالي مانصه:

الطريق القديم والحديث

من مصر إلى الحرمين

كانت مصر ولا تزال طريق المسلمين إلى حج بيت الله الحرام، وزيارة نبيه عليه الصلاة والسلام، في نصف الكرة الأرضية الغربية، باعتبار أن مكة المكرمة هي قلب العالم أو النقطة المركزية التي نبتت منها أنصاف أقطار إلى محيط جميع دائرة الأقطار، فالأندلس التي كان يسكن في غرب أوروبا، والغربي الذي في غرب أفريقيا ومادونه من مسلمي البربر فالشمال وبلاد التكرور والسودان الغربي والشرقي كانوا إذا قصدوا الحج إلى بيت الله الحرام سافروا من بلادهم إلى مصر بحرا أو برا، وكذلك كان يقصدها كثير من أهالي الشام والترك والقوقاز وجزائر البحر الأبيض المتوسط ويجتمع الكل بالقاهرة قبل شهر رمضان، ثم يسرون منها إلى قوص برا أو النيل (٦٤٠ كيلومترا) في نحو عشرين يوما، ثم تسافر قوافلهم منها في صحراء عيذاب مدة ١٥ يوما يقطعون فيها نحو ١٢٠ كيلومترا إلى القصير على البحر الأحمر، وكانت من قديم ميناء مصر الشرقية: أي أنها كانت من مصر بالأمس مكان ميناء السويس الآن، وكانت هذه القرية في أيدي عرب البجة الذين كانوا يتولون نقل الحجاج على إبلهم في صحراء عيذاب.

وقبائل البجة أو البجة يقال إنهم من البربر وكانوا يسكنون في صحراء مصر الشرقية من سواكن إلى قرية يقال لها الحزية في صحراء قوص، وهذه الصحراء عامرة بمادن الزمرد والذهب والفضة والحديد وفيها مغائر وآبار قديمة لاستخراجها. وهي طبعا من عهد قدماء المصريين، وبعضها من عمل النغفور له محمد علي باشا وإلى مصر، وكانت العرب تستخرج منها اللمادن، وخصوصا التبر في القرن الأول والثاني

للهجرة وذلك باتفاق مع ملك البجة الذي كان مقره أسوان ، وكان بنال المسلمين منه ومن قومه أذى كبير فأرسل للأمون إليه عبد الله بن الجهم فكانت له معهم وقائع ، ثم وادعهم وكتب بينه وبين كنون رئيسهم كتابا نذكر لك طرفا منه لتعرف مقدار التسامح الإسلامي مع أهل الذمة ، وكيف أنه كان لا يفرق بينهم وبين المسلمين في المعاملة : « هذا كتاب كتبه عبد الله بن الجهم مولى أمير المؤمنين صاحب جيش الفزاة عامل للأمير أبي إسحاق ابن أمير المؤمنين الرشيد أبقاه الله ، في شهر ربيع الأول سنة ست عشرة ومائتين لسكون بن عبد العزيز عظيم البجة بأسوان . إنك سألتني وطلبت إلى أن أؤمّنك وأهل بلدك من البجة وأعقد لك ولهم أمانا على وعلى جميع المسلمين ، فأجبتك إلى أن عقدت لك وعلى جميع المسلمين أمانا ما استعمت واستقاموا على ما أعطيتني وشرطت لي في كتابي هذا ، وذلك أن يكون سهل بلدك وجبلها من منتهي حد أسوان من أرض مصر إلى حد ما بين دهلك وباضع ملكا للأمون عبد الله بن هارون أمير المؤمنين أعزه الله تعالى ، وأنت وجميع أهل بلدك عبيد لأمير المؤمنين إلا أنك تكون في بلدك ملكا على ما أنت عليه في البجة وعلى أن تؤدي إليه الحراج في كل عام على ما كان عليه سلف البجة ، وذلك مائة من الإبل أو ثلثمائة دينار وازنه داخله في بيت المال ، والخيار في ذلك لأمير المؤمنين ولولائه ، وليس لك أن تخرم شيئا عليك من الحراج ، وعلى أن كل أحد منكم إن ذكر محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كتاب الله أو دينه بما لا ينبؤ أن يذكره به ، أو قتل أحدا من المسلمين حرا أو عبدا فقد برئت منه الذمة ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة أمير المؤمنين أعزه الله ، وحل دمه كما يحل دم أهل الحرب وذرياتهم ، وعلى أن أحدا منكم إن أعان المحاربين على أهل الإسلام بحال أو دل على عورة من عورات المسلمين أو أضر لغربتهم فقد نقص ذمة عهده وحل دمه ، وعلى أن أحدا منكم إن قتل أحدا من المسلمين عمدا أو سهوا أو خطأ حرا أو عبدا أو أحدا من أهل ذمة المسلمين ، أو أصاب لأحد من المسلمين أو أهل ذمتهم ببلد البجة أو ببلاد الإسلام ، أو بلاد النوبة أو في شيء من البلدان برا أو بحرا ، فعليه في قتل المسلم عشر ديات ، وفي قتل العبد المسلم عشرة قيم ، وفي قتل الذمي عشر ديات من دياتهم ، وفي كل مال أصبتموه للمسلمين وأهل الذمة عشرة أضعافه ، وإن دخل أحد من المسلمين بلاد البجة تاجرا أو مقبلا أو مجتازا أو حاجا فهو آمن فيكم كأحدكم حتى يخرج من بلادكم ، ولا تؤووا أحدا من أئقي المسلمين ، فإن أتاكم آت فليكم أن تردوه إلى المسلمين ، وعلى أن تردوا أموال المسلمين إذا صارت في بلادكم بلا مؤنة تلزمهم في ذلك ، وعلى أنكم إن زلتم ريف صعيد مصر لتجارة أو مجتازين لا تظهرون سلاحا ، ولا تدخلون للدائن والقرى بحال ، ولا تمنعوا أحدا من المسلمين الدخول في بلادكم والتجارة فيها برا ولا بحرا ، ولا تخيفوا السبيل ، ولا تقطعوا الطريق على أحد من المسلمين ، ولا أهل الذمة ، ولا تسرقوا مسلم ولا ذمي مالا ، وعلى أن لا تهدموا شيئا من المساجد التي ابتناها المسلمون بصيحة وهجر وسائر بلادكم طولا وعرضا ، فإن فعلتم ذلك فلا عهد لكم ولا ذمة الخ » وباقى الكتاب لا يخرج عن هذا المعنى . وبهذا تم الكلام على الحادثة الثانية .

تعداد المسلمين في بلاد الإسلام

أذكر في هذا اللقاه ما جاء في كتابي [القرآن والعلوم العصرية] من تعداد المسلمين في بلاد الإسلام والخطاب الذي وجهته لهم ، فقد جاء فيه في صحيفة ١٥ وما بعدها تحت العنوان التالي ما نصه :

المسلمون كثير عددهم

أيها المسلمون : ما أكثر عددكم على وجه الأرض

مليوناً

٧٠

إن منكم في بلاد الهند الصينية والصين :

٧٥

وفي الهند وما جاورها :

٥٠

وفي ماليزيا والاقيانوسية :

وفي ولاية الحجاز واليمن بأقسامها المستقلة وغير المستقلة وعسير وعدن والنواحي التسع وعمان

١١

ومسقط والبحرين وحضرموت ونجد والكويت والربع الخالي وعزرة وشمر الخ .

٦٥٥

وفي سوريا وفلسطين والعراق العربي والعراق العجمي :

١٨

وفي مصر والسودان المصري :

١٨

وفي طرابلس وتونس والجزائر ومراكش :

٢٠

وفي الصحراء الكبرى والسودان الفرنسي :

٥

وفي السنغال وما يتصل به والسودان الأوسط وواداي وباكومي وما حوالها :

٥٠٥

وفي جمهورية ليبيريا :

الجميع ٢٧٤

٨

وفي السودان الإنجليزي والنيجر وما حولهما :

وفي مستعمرات الكرون الألمانية والكونغو والكاب وموزنيق ومدغشقر وشرق أفريقية

١٠٠٥

الألماني وزنجبار وشرق أفريقيا الإنجليزي وأوغندة والحبشة وأرتريا وما يتصل بها :

والأتراك في روملى وجهات الأناضول والبلقان والولايات العثمانية التي معظمها من

١٥

غير المسلمين :

وفي ولاية روسيا الأوروبية ، ومنها التتر الذين هم أمم قسم من الأتراك وفي قفقاسية وآسيا

٣٥

الوسطى وفرغانة وسيريا وحيوة وبخارى :

٢٥

والترك في الشمال والشمال الغربي من بلاد الصين :

١٠

وفي بلاد أفغانستان وفي بلاد إيران والعجم :

فيكون جميع المسلمين في أقطار الأرض ٣٧٧٥ مليوناً ، وللتأمل في هذا مجد عشرين مليوناً مكررة

وإذن تقول إن المسلمين ٣٥٠ مليوناً تقريباً فسألتكم بالله أيها المسلمون كيف يظن هذا العدد الكبير والجلم

النضير وكيف يصادرون في حريتهم ويفلون في عقودهم ويسامون سوء المذاب . كل ذلك من الجهل والتفريق

وعدم الاتحاد ، وقد آن أوان أن أشرح طرق الاتحاد عسى أن يكون فيه ذكرى لإخواني المسلمين .

طرق الاتحاد

(كيف يتحد المسلمون)

أيها المسلمون هذا المجموع الكبير العظيم المتمدن بكين في الصين إلى رأس الرجاء الصالح ، ومن طنجة إلى المحيط الهندي. هذا المجموع جسم له رأس وأعضاء ، وقد ذكرنا الحديث الشريف إذ جعل المسلمين كالجسد الواحد إذا اشتكى بعضه تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى هذا بينه ما يحصل الآن في أطراف المعمورة فإن المسلم الإفريقي يتألم لما يصيب أخاه الصينى ويسره ما يسره قال تعالى « إنما المؤمنون إخوة » ولا جرم أن الأخ الأرشد واجب عليه وقاية الأصغر ، والمحافظة عليه وتربيته وترقيته ، فعل العقلاء والعلماء والأمرء والأغنياء من العرب والفرس والترک والهنود والصينيين أن يكونوا جماعة تتخذ لها مركزاً خاصاً ولعلها الآن موجودة .

وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم شبه الأمة كلها بالجسم ، فلننتهج منهجه عليه الصلاة والسلام ، ولنسج على منواله مبينين بالعقل صحة ماتواخيتنا والطريق التي ارتضينا ، فنقول :

إن في الجسم رأساً هو مركز الحواس من السمع والبصر والشم والتذوق واللمس ، ومنه تصدر جميع الأعصاب الحساسة وإليه ترد بما نقلت من أخبار السمع والبصر الخ ، فالرأس هو القائم بأعمال الجسم المنظم لحركاته ، فلو تخلى الرأس عن الجسم لأصبح جثة هامدة لا تنفخ ولا تنسم . هكذا العلماء في هذه الأمة والأغنياء والأمرء والعقلاء المفكرون المستبصرون ، هم المسئولون في الدنيا والآخرة ، وهم وحدهم الذين يقفون بين يدي الله تعالى يسألهم عز وجل عن إهمالهم أمر هذه الأمة ويسأل الله عز وجل المفكر والعالم والأمير والفتى ويقول لهم أتمم رأس هذه الأمة وقوتها فماذا فعلتم ؟ تركتم هذا المجموع بين تحت نير العبودية والتذلة وهذه الطوائف الإسلامية من أقصى الأرض إلى أقصاها جعلتها أمانة عندكم فكيف تشاغلتم عنها حتى أصبحوا أذلاء وأتمم شاركتهموم في ذلهم وقامتهموم ضعفهم وانكسارهم . ألم أنزل عليكم في كتابي « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » فماذا لا أكلف الزارع للسكين ولا الجمال ولا البغال هذا الأمر ، أولئك عيالكم وإخوتكم الصغار وإنما أكلف أرباب العقل ورجال الحكمة وأهل المال أولئك هم المسئولون « وقومهم إنهم مسئولون » ألم أنزل في كتابي على نبيكم « لولا ينهائم الربانيون والأخبار عن قولهم الإنم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون » ومعنى هذا أن الله يوبخ علماء أهل الكتاب من الأخبار والرهبان على عدم نهيمهم الأمة عن قولها الكذب الذي يأتي به الإنسان وعن أكلها السحت أي الحرام ؛ ثم بالغ في ذمهم فقال « لبئس ما كانوا يصنعون » مبتدئاً بلام القسم ، وهذا مبالغة في التوبيخ ، أفلا تعلمون أني قصصت عليكم ذلك لتعتبروا ولتندكروا . أيها المسلمون ألم يقل لكم نبي محمد صلى الله عليه وسلم « لا تنزلوا قدما ابن آدم من عند ربه يوم القيامة حتى يسأل عن خمس عن شبابه فيم أفناه وعن عمره فيم أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وماذا عمل فيما علم » ألم يكن في هذا الحديث دلالة على أن العالم والفتى شريكان في المسؤولية كلاهما مسئول ، العالم مسئول والفتى مسئول ، وفي حديث البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الخمر ورجل آتاه الله علماً فهو يجل به ويحله الناس » .

والمراد بالحسد القبطة وهي غنى مثل ما عند الثير ، فإلى الأغنياء وإلى العلماء والمستبصرين من الأمة أوجه قولي ، فلقد اتضح أنهم هم المسئولون يوم لا ينفق مال ولا بنون ، فأقول :

لتكن منكم جماعة خاصة تكون بمنزلة الرأس ، ولتتخذ لها مكانا ، وليكن لها فروع تمتد إلى أقاصي المعمورة أشبه بالأعصاب في الجسم ، ولتكن أعمال تلك الجمعية مقسمة إلى قسمين : القسم الأول يأمر بنشر الأخلاق والعبادات والعلوم والصناعات في سائر أقطار الإسلام وينشر الكتب والرسائل ويعلن في الجرائد ويوعز إلى أهل البلاد بإذاعة ذلك كله مع المحافظة التامة على العوائد الإسلامية ، وليحيوا إلى الناس أن يعرفوا ما ذرا أمة في الأرض وما أبدع في السماء وما أفاد من صناعة وما بث من حكمة حتى يضارعوا أوروبا ويفوقوها اقتصاديا وماديا .

والقسم الثاني يكون قصارى أمره ومنتهى رأيه أن يدرس أعمال أوروبا مع الأمم الإسلامية في أقطار العالم وينشر ذلك في جميع الأقطار الإسلامية ليعرفوا إخوانهم النابهين من الترك والفرس والعرب والصين والهند تلك الأمم القديمة الشرف العظيمة القدر ، ومتى انتشر ذلك في الأقطار الإسلامية عرف المسلمون إذ ذاك للجاهل جهله وللفاضل فضله ، وإذ ذاك يقرءون « وجزاء سيئة سيئة مثلها » فيقاطعون الدولة المسيئة في التجارة سواء أكانوا في الصين أم في أفريقيا أم في تركيا . ذلك شأن هذه الطائفة ، ولعلكم تقولون من أين عرفت أن هذه الجمعية بها يتحد المسلمون وهل هذا دواء شاف ؟

أقول : عرفت من نفس القرآن ، فانظروا الآية المتقدمة ، الحاضرة على الاجتماع ، وهي : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنتقم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » هذه الآية أمرت المسلمين بالاجتماع وعدم التفرق ، ولكنها لم تبين كيف السبيل إلى ذلك ، ولذلك أردفها بآية أخرى لبيان ذلك فقال « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف » وهذا هو الطريق الأول الذي ينشر العلوم والمعارف والصناعات وبعض على العبادات الدينية ثم قال « وينهون عن المنكر » وهذا هو القسم الثاني ، فاللهي عن المنكر هذا يشمل الذنوب الخاصة بين المسلمين والكفر والمعاصي والظالم الواقعة عليهم في مشارق الأرض ومغاربها ، فأولئك هم الذين يحرمون تلك الظالم ويوصلونها إلى الجمعية الكبرى ، وهي بسبب هذا القسم وجملة تنشر أخبار تلك التكرات في أقطار الأرض حتى يعرف المسلمون من هذه الظالم ويقاطعوا تجارة الأمة الظالمة ، وإذن بحق لهم وعد الله إذ قال « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ولنمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا » هذه الآية ذكرناها مرة أخرى في الكتاب وأعدناها هنا بعد أن بينا طريق الاتحاد بين المسلمين ، تلك الطريق التي هدانا الله لاستخراجها من الكتاب العزيز لا سبيل إلى إسعاد المسلمين غيرها ولا سبيل لراحتهم وعمكينهم في الأرض واستخلافهم فيها وتبديل خوفهم أمنا إلا بهذه السبيل وحدها فليفكر المسلمون ماشاءوا ، فهم والله لا ينجون من شر الفرنجة إلا بهذه السبيل وحدها ، ولتقرأ الآية على وجهها فنقول « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون . ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » . فانظروا بامعاشر المسلمين كيف قال « ولتكن » فاللام لام الأمر للوجوب ، فالمسلمون في أنحاء المعمورة : أي الأغنياء والعلماء منهم آمنون مذنبون إن لم يقوموا بهذا الأمر ، وبعد أن بين القسمين وهم الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر قال « وأولئك هم المفلحون » إشارة إلى ما يتولون في الدنيا من الطمأنينة والسعادة والثناء الحسن عليهم من الأمة الإسلامية ، وفي الآخرة من علو الدرجات ومنتهى السعادات والقصور والحدود والولدان فهذا قوله « وأولئك هم المفلحون » ولما كانت الآية مبينة كيف يكون اتحاد المسلمين ، وسهلت الطريق وأبانت حقيقتها الناصحة أردفها بالإنذار فقال

« ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » وهذا إنذار من الله للمسلمين إذا أغفلوا أمر هذه الجمعية المركزية ذات الفروع إذ قال احذروا أن تكونوا متفرقين كالأمم السابقة التي بينت لها السبيل ومهدت لها الطرق فتفرقوا طرائق « وكل حزب بما لديهم فرحون » لأنهم تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم الآيات البينات الواضحات .

ولقد ابنت لكم يا معشر المسلمين كيف تكونون متحدين وعلتكم طرق الاتحاد وعدم التفرق فإذا خالفتم وغفلم بعد هذا البيان كنتم كأولئك الذين عرفوا الطرق فتركوها فتفرقوا فكان لهم من ذلك عذاب عظيم في الدنيا بالذلة وفي الآخرة بجهنم أما من ساروا على طريق الاتحاد فأولئك هم الفائزون .

﴿ فصل : في أن الكعبة المشرفة أيام الحج دار ندوة ﴾

وعلى هاتين الطائفتين الصليحتين في الإسلام المرسلتين من الجمعية الكبرى التي أشار الله لها في كتابه العزيز أن يجتمعوا كل سنة عند البيت الحرام بمكة شرفها الله فإن للحج أكبر نصيب في هداية المسلمين النازحين إليه من أطراف البلاد ؛ ولقد علم الله قبل أن يخلق الإسلام والمسلمين حاجتهم إلى بيت يحجونه ويكون مثابة لهم : « أي مرجعا وأما فقال » وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا وأخذوا من مقام إبراهيم مصلى » وقال « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم » فانظروا وتمجّبوا كيف ختم الآية بقوله « ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض » وقد زاد على ذلك فقال : « وأن الله بكل شيء عليم » .

فأعلموا كيف جعل أن علمنا بأن الكعبة قيام للناس يورثنا علم أنه يعلم ما في السموات وما في الأرض بل يعلم كل شيء . ذلك لأن الأمر اتضح في هذه الأيام أن المسلمين ينتفعون سياسيا برجوعهم إلى هذا المكان وجعله دار ندوة كل عام يتشاورون فيه ويتباحثون وهم في مأمن في ذلك الوادي السحيق فضلا عن فريضة الحج . إن ذلك أمر لم يكن في علم أحد من الناس بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

ومن ذا الذي يعلم النبي إذ ذلك فيقول إن الكعبة ستكون مرجعا للمسلمين يعرف بعضهم بعضا ويتقنون في الأمور السياسية العامة ويتعارفون ويتحدون ويكون من وراء ذلك سؤددهم وعزهم ومجدهم وخروجهم من تحت نيرذل العبودية ؛ لاجرم أن الذي عرف ذلك هو الله الذي فرض الحج ورسم البيت وعرف مستقبل المسلمين وما يتول إليه أمرهم فهو يعلم ما في السموات وما في الأرض الخ إلا أن لكل شيء سببا فلا يكون الحب بلا زرع ولا الثمر بلا شجر ولا النيل بلا مطر ولا الري بدون سقي ، وهكذا لن يكون اتحاد المسلمين ، إلا بالطرق التي رسمناها والبيئات التي أوضحناها ، والله هو الولى الحميد . وبهذا تم الكلام على القسمين : قسم السموات والأرض ، وقسم إزال القرآن باللغة العربية وإنذار أم القرى ومن حولها . وأختم هذا الكلام بخطاب أوجهه لجميع المسلمين فأقول :

أيها المسلمون : قد شرحت لكم نظام العوالم إجمالا ، ولا جرم أن أولها عالم الهجرة الذي يدور مرة واحدة في (٣٠٠) مليون سنة ، وهناك دوران الكواكب السيارة في أوقاتها للعينة والأرض ثم النبات وأوراقه وثمراته واتصال هذا كله بأجسامنا ثم نفوسنا ، ثم بعد ذلك شرحت اتصال الأمم الإسلامية على الأرض في مكة وما حولها ، وهذه أمة العرب جميعها الاسلام ، وجمعتها اللغة العربية ، وجمعتها تقارب الأوطان ، فهي إذاً تبادل بالاجتماع والاتحاد فهي لا محالة ساقبة على تفريطها ، وبيننا وبين الفرس والترک علاقات الدين والجوار ، فليكن اتحاد بين هذه الأمم وعلاقات متينة وهكذا سيكون ، إذن فليعمم التعليم الآن في بلاد العرب

وبلاد الإسلام ؛ ثم لندرس العوالم كلها ، وتدرس الكرة الأرضية من حيث الجغرافية ، وليدرس التاريخ دراسة تامة ، وليخصص لكل علم طائفة ، ولتفرعوا علوم كل الأمم ، ثم ليكن منكم حكما وعلماء بكل علم وبكل فرع . هناك هناك أيها المسلمون تكونون شهداء على الناس كما أن الرسول شهيد عليكم ، وهناك فقط تنبؤون مركزكم في الأرض ، هناك أنتم تعلمون أمم الشرق وأمم الغرب كيف يكون السلام ، وكيف تكون السعادة المستقبلية ، ولأختم هذا المقال بإيضاح أجر المصاحين وأجره ^{عليه} في التفسير اللفظي ؛ فأقول مستعينا بالله :

لا محصا في هذه الأرض ، عارفا بصانع العالم ، دارسا لنظام هذه الدنيا إلا وله قلب متقد حرارة وصدقا ، وإخلاصا وبهجة ونورا وجبار في هذه الإنسانية المسكينة المضطربة المعذبة .

هذه حال الدارسين العارفين في جميع أمم الأرض ، فإذا كانت هذه حال الدارسين المفكرين فكيف تكون حال الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام . إن للأنبياء سعادة في نفوسهم يحسون بها ، ولقد ضرب لنا الله مثلهم المحسوس بالأم رضع ولدها والأب الشفيق ، فالأب والأم يريان ولدتهما لا يفيان جزاء ولا شكورا ، بل هما يجعلان حياتهما واقفا على تنمية هذا الطفل . فإذا كانت هذه حال العامة في الأمم بالنسبة لأبنائهم فكيف بالأنبياء بالنسبة لأنهم . إن للأنبياء لحبا علويا ربهم ، وهذا الحب يقودهم إلى كل قول وفعل جميلين ، وصدورهم منشرفة لما يصنعون . ثم إن الصالحين من أممهم يقول الله لهم « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا » فهذا الود الذي يلقي في قلوب الناس لهم ودا لله ولهم نتيجة مرتبة على الأعمال الصالحة ، إن الأجر لا يسأله إلا الرجل التكلف ، أما الأنبياء فليسوا متكلفين « قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين . إن هو إلا ذكر للعالمين ؛ ولتعلمن نبأه بعد حين » .

الذي لا تكلف عنده يكون عمله قريبا من السليقة ، فنفس العمل محبوب ومن نتائجه للودة ، والأنبياء لا يسألون أجرا على التبليغ والله برأ رسوله من ذلك ، وغاية ما يحبه الأنبياء ويكرمون به أن يكون أتباعهم مقربين إلى ربهم (وبجارية أخرى) أن الذي يكرمهم هو ارتقاء أممهم في الصلاح والتقوى ، فلو كان هناك أجر لم يزد على ذلك ؛ ومعلوم أن هذا ليس أجرا وإنما هو نجاح رسالتهم ونمام أمرهم ورغبتهم في إسعاد الناس وهذا قوله تعالى « قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا » إذا قرأ عينه صلى الله عليه وسلم أن يرى أتباعه يتقربون إلى الله تعالى ويطلبون الزلفى لديه بالإيمان والطاعة ، فصور ذلك بصورة الأجر من حيث إنه مقصود فعله وهو ليس بأجر وإنما هو حب للإسعاد العام للناس ، وهذا المعنى هو الذي جاء في الآية في هذه السورة على قول من أقوال العلماء غير الجمهور « قل لا أسألكم عليه أجرا إلا للودة في القربي » أي إلا أن تودوا الله ورسوله في التقرب له تعالى بالطاعات والأعمال الصالحة وهذا المعنى لا ينافي المعنى للجمهور . إن المعنى للجمهور داخل في هذا بطريق التسبغ لأن اللودة للأشراف مقربة فه كجميع الأعمال الصالحة ، وهذا المعنى العام هو الذي يطابق آية الفرقان للتقدمة « إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا » .

تحقيق لمقام الود

وتبيان عام لمودة الأنبياء والصلحين

اعلم أنه لا إسعادة في دنيا ولا في أخرى أجل من سعادة الحب والود ، إن الله هو النور الودود . فإذا وجدنا بعض الصكاتب في عصرنا في صحيفة [الضياء] يوم ١٩ يناير سنة ١٩٣٩ م ،

يصف الحب الخاس والود المحدود بأوصاف منطبقة علي ما نشاهده في أحوال الناس من التضحية والإيثار والفرح بكل ما يبتهج به المحبوب فما بالك بالحب العام الذي يسع العوالم كلها ، فانظر كيف ضرب مثلا :

- (١) لسعادة الحب بما يبدو من محبوبه وقد شبه ذلك بلنعكاس نور الشمس على القمر .
- (٢) وبالكاتب الفكاهي الذي يتلمس سعادته من السامعين لكتابه .
- (٣) وبالمرء يجد لحديثه سامعا جديدا .
- (٤) وبالرجل يجد امرأته تحبه .
- (٥) وبالرجل آتى بالشمس لأطفاله الفقراء فسعادته بفرحهم .
- (٦) والعاشق مع من عشق في الفقر وقد أكل المحبوب العنب والحب فرح به ، وهالك نص المقال للذكور :

خواطر في الحياة

انحصار المرء في ذاته وتقييد شعوره فكره بنفسه من دواعي الألم والشقاء ، وأما سعادته وغبطنه فهي في الحرج بعمونة الخيال عن دائرة نفسه وحدودها . والسعادة وإن كان ينبوعها كائنا في نفوسنا إلا أننا لا نترقبها ولا نتذوقها إلا إذا انكسرت علينا من شيء خارج عن أنفسنا كنور الشمس للنعكس عن صفحة القمر ، وهذا العنصر الأجنبي الذي يمزج بالسعادة يكسبها في شعورنا حلاوة وغرابة مثلما تفعل عناصر القمر بنور الشمس . انظر إلى الكاتب الفكاهي مؤلف الكوميديا ، إنه يجزم ملحه وطرائفه في الخلوة ، فهل يتفوق حلاوتها إذ ذاك كلا ، إنما يتذوق لذاتها ، ويحني ثمراتها من بريق السرور في أعين الجماهير الشاهدة تمثيلها ومن هتاف الطرب في أصواتهم للتصاعدة . ألا ترى إلى الحديث للملول من طول الإعادة كيف يخلع ملاته ويكتسى رونقا ورواء إذا صادف سامعا جديدا ؟ وأنت قد تكون مثيرا من الهامد والناقب حامل الجمل من المحاسن والزايا ولكنك لا تشعر بهذه تمام الشعور ولا تقتبط بها حق الاغتباط ولا ترقص طربا لها وجدلا حتى ترى لألاها منعكسا عليك من وجه غادة ألوف ، وتبصرا جمالها يتألق في ألحظها الضاحكة . ففي هذا الظرف ولا في غيره تحس السعادة حقا وتعرف حلاوة مذاقها ، والرجل الفقير يعود إلى داره بقرباس المشمش أو البرتقال ، فإذا دخل على أولاده فأيقظهم فاستوا جالسين على فرشهم الرثة المهلهلة وتناولوا منه الفاكهة يلتمسونها التهاما والعصير يتحلب من أفواههم المهومة الظمئة ، والفرح يتوقد في عيونهم المحرومة المتشوقة عاد لشدة الفرح والجذل كأنه قد ملك حداثق يافا وبساتين دمشق وحماة ، فهل يجدن مثل هذه اللذة في أكلة برتقالة ؟ وأنت إذا كنت مع حبيبة لك في قنار وفياف وقد آذاك العنب والصدى ثم رزقت عنقودا من العنب فأى الحطتين أحب إليك أن تقسمه على السواء بينكما أو تؤزرها به (إلا عتبة واحدة تظني بها نار ظمئك) وتظل ترنو إليها وهي تلتقطه جبة جبة كما تفعل المصفورة بالقرطم ، وفي هذا للنظر الجميل وللشهد البديع ما يشبعك وبرويك ويملا بطنك ويكظ أضلاعك وأي طعام (عمرك الله) أشبع من الجمال وأروى ، وأي شراب أمتع من الحب وأشهى ؟ والحق أنه لا سعادة في الدنيا إلا ما كان مزاجها الحب ، وما الحب إلا استكشافنا أنفسنا في خلواتنا وأصفيائنا ، وسرورنا بهذا الاستكشاف ، والإنسان منفردا عن الجماعة لا يستطيع أن يدرك السعادة كالتي يعيش بعيدا عن المرأة لا يستطيع أن يعرف صورة وجهه : قيمة المرء بما يحسنه وآثاره عنوان ما يمكن فيه من النضل ، وهي السراج الذي به نستطيع أن نبرغور شخصيته ونقيس أعمامها

وأبداها ولا جدال في أن كل امرئ يخرج إلى الدنيا منطويا على قدر معلوم من القوة أو الكفاية لا يزال متناسبا مع مقدار إنتاجه . وكذلك ترى أن كل كلمة أو فصلة تصدر عن امرئ تكون مطبوعة بطابع شخصيته، بل تكون حلقة في سلسلة حياته ، ولقد كذب من حسب الإنسان متناقضا متباينا إنما هو متجانس متناسق متشابه الأقوال متماثل الأفعال . وما صدق من قال عن رجال الأدب إنهم عقلاء أذكيا على الورق . أما في ميدان الحياة فغمتي أغيباء ، يفرقون في شبر من الماء ، هذا ككذب وهتان . ولا يعقل أن ترى الرجل الواحد فيلسوفا على مكتبة وحمارا في الشارع . ولا أن يكون فردا بعينه أعرج في الطرقات ثم أبرع رقاص في الحفلات الساهرة . أجل إنه على قدر قوة المرء وبحسب حدقه ومهارته في استخدام هذه القوة تكون قيمة عمله . كما أنه على قدر قوة الدفع يكون مرمي قذيفة المدفع وعلى قدر قوة البأس وامتداد الأنفاس تكون سرعة العداء والشاء، وإذا رأيت شعرا خاليا من حسن النسق والانسجام فاعلم أن ذلك لاختلال الفسق وقلة الانسجام في روح الشاعر . وكذلك إذا عثرت على السكامة أو الفعلة لرجل مادلتك عليه وسألتك إليه كما يرجع بك شعاع الشمس إلى الشمس .

معظم الناس لا شخصية لهم ، أولئك لا وزن لهم ولا قيمة ، وأهميتهم في كثرة عددهم ، ومن أجلهم يشتغل المعدادون وكتاب الإحصاء ، ومنهم تتألف الجماعات والجمهير والأغليات الساحقات ، وهم الذين يجمعون الأموال ويؤدون العادي المعروف من أعمال هذه الدنيا ولن تكون لهم قيمة إلا تحت إشراف القادة الزعماء فهم كالعجينة يشكها الصانع الحاذق كما يشاء ، ويشيد بهم البناء كما يشيد باللبنة ، وهم في الجملة يكونون الرأي العام وإن كنا نعرف أن الرأي العام في كل عصر وجيل إنما هو زبدة أفكار ستة أو سبعة من الرجال يتوسدون صفاغ قورم في طمأنينة وسلام ؛ والجمهير تحتفظ بأفكار أولئك الوقي كما يحتمظ هواء الجو بحرارة الشمس ونورها بعد الغروب .

ولا مشاحة في أن الشخصية البارزة أو التفرد أو قوة الخلق أو الرجولة الشاذة اللبنة أو ماشئت أن تسمى تلك اللبنة التي اصطالحنا على تليقها (العبقرية) هي أفضل هبات الطبيعة للإنسان وأجزل آلبها وليس مقدم الرجل القوي إلى هذه الدنيا إلا حسن البشارة ببعثة المستقبل ، فهو نبوة خير ، وبشرى فلاح مثله في ذلك كالريح تهب الآن هاهنا ولكن الموجة التي هي من فعاها وأثر هبوبها لن تلبث بعد ركودها أن تفيض وتطفئ على الساحل القصي الواقع على مسافة ألف ميل .

إن الرجل الشاذ اعد نعمة عظيمة في مثل دنيا هذه السخيفة السمجة الاعتيادية ، وكفى أرباب الشذوذ والاعراف وأهل المحجون والمهزل وذوى الحلاعة والتهتك فخارا أنهم يذهبون من وحشة الحياة الاجتماعية وينفون من سأمها وملها بتنوعهم من تماثل هيئتها وصورتها وبتكسيرهم من استواء أدبها الجماد البيت ، وجدير بالإنسان أن يصبح معروفا بين الملا بشيء خلاف اسمه ولقبه .

وهذه الثمرة الشخصية والطابع الذاتي أو (اللاركة) الدانية تكون في عالم التاليف جليلة القيمة ، من حيث إن عظمة المؤلف لا تتوقف على ما يشرك فيه غيره بل على ما ينفرد فيه بنفسه ويستأثر به وحده ، والرجل العظيم هو المتسكّر الذي يصنع الشيء لأول مرة ، لقد كان استكشاف القارة الأمريكية من أصعب الشاق ، لما استكشفت أصبحت الرحلة إليهم من أسهل الأمور ، وتلك اللبنة الخاصة المنفردة التي تمتاز بها القطعة الفنية من شعر أو نثر أو نقش أو غناء هي الأساس الذي يقوم فوقه الحكم النهائي عليها وتسجل كلمة التاريخ ، وعلى أية حال فالعمل الفني الشتمل على هذه اللبنة الخاصة الفردية يكون حائزا لعناصر الخلود .

انظر إلى الطبيعة تنبت الحياة من جميع أعناقها وأرجائها ، وتجيئ الحياة في جميع جزئياتها وذراتها وأكثافها

بإبوة صافية شفافة تتجلى من ورائها الروح الأبدية السرمدية في مليون شكل وهيته ويلوح من دونها السر
 للقدس الإلهي ، الظاهر الخفى في آلاف الآلاف من الصبغ والألوان ، والنغم والألحان ، والصور والأشباح
 والأجراس والنبرات ، والروائح والنفحات وكل شيء في الطبيعة تنبجس منه الحياة وتتفجر حتى الصخر
 الأصم إن هو في كنهه وحقيقته إلهية نجست وروح تجسدت ، كتلة من الروح الكلى وثوب تنسجها الحضرة
 القدسية الإلهية . في تلك اللحظة انعدمت المادة في نظري وتلاشت . والواقع أنه لا مادة في السكون للمعين
 الشاعرية لللائكية ، النافذة الثاقبة الجليلة .

وكأن الريح الجواله على البحر تستل من كل موجة جزءا خفيا فتحمل منه إلى أهل الساحل روح المحيط
 الأثيرية فكذلك النسيم الحطاط على العشب والكلأ ، والشجر والنجم والدوح ، والنهر والجدول والغدير يسرق
 من الزمان ، صيفا كان أم خريفا ، جزئياته وذراته إذ يستلب من الأفنان والأغصان ومن الورق والأكام
 والأزهار ، ومن سائر النبات والأغراس ذرات ضوء الشمس فيجملها إلينا ويمزجها مع الأنفاس
 بنفوسنا . وكذلك يروح تيار الهواء بعد انقماشه في كؤوس النوار والأزهار تحت موسيقى النحل
 والأطيار ، تدب فيه الروح وتجيئس الحياة ، فما هو بالجماد ، ولكنه كائن حي يترنم بذكر الله ويسبح
 بحمد المانع الوهاب .

في هذا الوادي المقدس أمام ذلك للشهد الرائع ، بين أكناف الطبيعة البديعة وقتت أحتسى كأس
 الخلود وقد تفتح صدري واتسح جناحي لأبعد أغوار الحريف وأسحق أعماقه ، حتى وسع قلبي
 ما امتد أمامي من ذاك للنظر العتقان إلى الأفق السديد القمى . إلى أدنى حشرة في الترى ، إلى أممي
 طائر في الجو .

وكذلك بهرنى مشهد الطبيعة الرائع ، وسحرنى وملك على مشاعري فاندفعت على ضفاف النهر تجذبني
 وشائج الأغصان ولقائف ، الأفنان وتجذوني أعجميات الألحان ، على عذبات الأبيك والبان ، وذوات الأطواق
 على منابر الأوراق ، وأحس حيا الحياة تندفق من ضياء الشمس ومن نبات الشمال في كيانى ووجدانى وكأن
 العشب والكلأ المنبسط أمامي بلانهاية . والدوح الباسق المنتشر القوي ومطارب البلابل والقمارى . كأن هذه
 كلها تنصب في روحي ، وتمزج بأجزاء نفسى . وتلك الأزهار التي تلتقت لثبات الصباح على الآلاف المؤلفه من
 وجنائها ، رأيت أشاطرها حياتها وسرورها وفرحها .

وأبصرت الجمال ينبثق من كل ورقة وزهرة ، والحسن ينسكب من كل موجة وقطرة ، وعجائب صنع الله
 تتجلى في كل هباء وذرة . ووجه الأرض صحيفة كتبت عليها سورة الجلال ، ولوحة نقش بها صورة
 العتنة والجل .

وتعلمن « علمت الخير » أن الساعات التي تظل فيها الروح مستغرقة في الجمال لمى وحدها الساعات التي
 نعيشها والجديرة أن تحسب من العمر ، وكل برهة تفضيها بين الجميل والجليل والرائع والبديع إنما هي فرصة
 تختلس من الدهر ، وغنيمة تنتهب من محالب الزمن . هذه الساعات التي تستغرق الروح وتغممها جمالاتها
 الخليفة حقا بأن يقال إنها لم تذهب ضياعا ولم تطع جبارا ، هذه هي الحياة المحضة الصريحة وكل ما عداها خدع
 وأضليل وأكاذيب وأباطيل .

بين أرجاء هذا للشهد الرائع الذي كله روح تجيئس وحياة تنفزز . محال أن يذكر الإنسان الموت ونعم
 بياله فسكره القناء ، وكيف يتأتى له الجمع بين الضدين والقيضين ، صورة الحياة في أكمل معانيها وأنصع
 مجالها وصورة الموت . لقد جعلت أقول لنفسي وأنا أنظر إلى الطبيعة كأنها عروس قد تبرجت لرفاف وتزينت
 وأرنت إلى الوادي المشيب بهز نعمة وربا .

ورياض من مخايل الأرض فيها خيلاء الفتاة في الأبراد

لقد جعلت أقول في نفسي وأنا أتأمل ذلك المنظر الحلى التناق الحفاق ، ولكأن للوت لم يهتد قط إلى هذه البقعة البهجة ولم يدر السبيل إليها . وأكبر ظنى أن عالما الأرض قد كان هكذا قبل هبوط آدم وجواء على أديمه التقي بذنوبهما وخطاياهما وذريتهما الباغية الطاغية المجرمة ائمة بشرورها وآفاتهما ومضائنها ونسكباتها وحاشيتها وبطانتها من الأبالسة والشياطين على رأسهم إبليس ، وزبائنها من العلل والأمراض والأوبئة على رأسها الجلاد الأكبر عزرائيل .

أجل ، لقد كانت هذه البقعة البديعة قبل ظهور الأمم صنوف الحيوان أعنى الإنسان . وتأنق إن الناظر إلى هذا الوادى الأنيق لا يكاد يتصور أن رسول لئيلة قد جاس قط خلاله ، وخاض ظلاله ، ولا أن الأرض الطويلة العريضة تحتوى قبرا واحدا أو تنطوى على رمة ؛ ولا أن السكون بأسره قد تصعدت قط فيه زفرة أو تحيرت عبرة ؛ أو علت أنة ، أو دوت رنة ، أو قام فيه حداد ، ولبس سواد أو شقت جيوب وأبراد .

الحب وحده هو الذى يشقى غلة النفس الصادية ويشبع نعمة الروح الجامعة . الحب وحده هو الدواء وهو السمادة وهو البنية والغاية والمراد ، وليس فى سواه من ملذات الحياة ما يسد مسده أو يقوم مقامه وماذا ترى فى مسرات العيش يضى غناه .

اللهو ، اللهو لا يشبع روح ذى الروح السامية ولا يطرب نفس ذى النفس الشريفة العفة العالبة ولا ترضيه أذهان ذوى الأذهان الناقبة النيرة ، إذن فماذا يقوم مقام الحب ، السواصر والحفلات والأندية . هذا كتاب سرعان ماترؤه وتحفظه حتى تملكه وتسامه : العلم أو الفن . هذا أو ذلك لا يمكنه أن يملأ من عواطفنا إلا جزءا معينا .

القراءة أو الثقافة ، هذه لا ترد لطفة ولا تبرد غليلا ، ولكن هنالك شيئا واحدا هو الكفيل أن يخلج على الحياة ، ذلك النور الذى لم يشاهد قط فى أرض ولا سماء ولم ير قط فوق بر ولا بحر وذلك هو الحب .

الحب أبعد غاية من أن يقاس وأعمق من أن يسبر وأكثر من أن يحصى ويعصر ، وأعمق الحب وأشده ماتفاضى عن معائب المحبوب ومعايره مهما عظمت .

والصدقة قد تحتاج إلى أن تدعم على أساس من الاحترام للتبادل ، ولكن الحب لا يحتاج إلى أى أساس أو سد أو دعامة ، الحب يكتفى بنفسه وحدها ويميش على نفسه دون سواها .

وشرارة الحب تندح من نظرة أو لمسة أو همسة . أما الاحترام فليس فى طاقته أن يوجد الحب ، كما أن قلة الاحترام لا تستطيع أن تمحو الحب . ولا جرم أن العاشق ليظل وهذه اللالين التى تملأ الأرض أموات فى عينه ولم يبق حيا على ظهر الأرض إلا عينان مشرقتان تنظران فى روحه وتحرقانها فتراكها رمادا ، أنفهم ما أقول ؟ . كلا ؟ إذن أنت لانفهم الحب ، أتقول الاحترام أساس للحب ؟

تزعم أبها القارىء أنك لن تحب للراءة إلا إذا كان لها من الصفات ما يستدعى احترامك ؟ كأن الحب قرش فى جيبيك لن تخرجه إلا لمن أعجبتك من الشحاذين وراقتك طباعه ؟ إن كان هذا رأيك فأنت أجهل الناس بالحب وأولى لك إن فتبع موضوعه أن تسكت أو تنسحب .

والواقع أن العاشق لا يحيا إلا بروح معشوقته ، ولا يجد فى العالم إلا شخصية واحدة ، هى وحدها المحبوبة وهى الجميلة وهى الضرورية وهى البغية والفرص والأمنية ، شخصية واحدة من بين اللالين التى تملأ الدنيا وهذه الشخصية مهما هفت وأخطأت ومهما جنت وأجرمت ومهما أسفت وسفلت . ومهما لقيت من تحقير الناس وإسفارهم وسخريتهم وازدرايمهم لتتقين فى عين عاشقها كما هى لا يؤثر فيها ذلك شعرة ولا يتقصها مقال

ذرة ، هذا لا يستطيع أن يغير الحب ، بل كلما زيد الأذى على تلك الشخصية وضوعف البلاء تبين لعاشقها أنها أحوج ماتكون إلى الحب ، ومن ثم ماراه كثيرا من العشاق من مكافأة خيانة حبايبهم بالأمانة وغدرهن بالوفاء ، ما أعجب الحب وما أعجب حاله ؟ ترى مليون وجه ، ونسمع مليون صوت ونلقى مليون أثرى حالات الثغور باللاكيء والعيون بالألاء ، ولكنهن لا يمسسن أرواحنا ، ولا يحركن شعورنا ، ثم تصادف من بينهن واحدة فإذا هي تحمل لنا الحياة أو الممات في يدها ، وتلبس بهما كما يلبس الطفل بلبسه ، بالحب : بماذا تمتاز هذه الواحدة عن تلك اللالين ، بلائى ؟ وماهى أفضل ولا أجمل ولا أنبل ولا أكمل ممن شاهدنا قبلها ، ومع ذلك نجدنا ترى الدنيا من غيرها صحراء مجدبة انتهى . وفي هذا المقال الجليل بعض المعاني السقيمة الساقطة .

ها أناذا أيها التذكى كتبت المقالة جميعها وفيها وصف الحب ، وهذا الحب هو الحب الأدنى الذى لا يعرف الشبان إلا إياه وقيمه ضئيلة ، ولقد ذكرت في هذا التفسير كثيرا أن الحب ثلاثة أقسام : أدنى ، وأوسط ، وأعلى ، فما ذكر هنا هو الأدنى لأنه معروف ، والأوسط عشق العلوم ، والأعلى حب الله تعالى وعشقه ، وهذا لا يتصوره كثير من الناس ؛ وقليل جدا من النوع الإنسانى من يفهم حب الله تعالى الذى يشير له أكثر القرآن ، وترى الحمد فى الفاتحة يشير له إذ الحمد والمدح لا يكونان إلا بعد نعمة عرفها الحامد ، وهذه المعرفة أو لا تحدث فى قلب الحامد جبا للنعم فينطلق لسانه بالثناء وأعماله للخدمة ، والخدمة هنا بالجوارح للأهم الأرضية الذين هم تحت رعاية الم محبوب المدوح ، ولاجرم أن الله عز وجل منبع كل جمال وعلم ورحمة وشجاعة ، فحصر الكاتب الحب فى المرأة راجع إلى الطبقة المعروفة والحكام يرتقون طبقات ويفرحون فرحا لاحدله بمحبوبهم ، ويذكروهم بذلك الم محبوب كل شمس و قمر ونجم ونهر وبحر وشجر وحجر وحبيب متبسم ، وتصبح حياة هذه الطائفة سعادة دائمة ولا يحس بسعادتهم أحد إلا هم أنفسهم ولا قدرة لهم على التعبير عنها .

هذا هو الود الذى ورد به القرآن أنه للمالحين ، فهؤلاء هذه حاملهم وهذا هو نموذج الود المذكور فى قوله تعالى فى آيتنا هنا « قل لا أسألكم عليه اجرا إلا المودة فى القربى » أى إذا كان لى اجر فهل هو إلا أن تودوا الله ورسوله بالتقرب بالطاعات .

فهذا هو التفسير الذى تؤيده آية الفرقان كما تقدم ، هذا هو الذى جاش بخاطرى ووافق تفسير بعض علماء الإسلام ، وفسر بنطوق آية الفرقان . وذلك ليلة الخميس ثالث يوم من رمضان الأغر سنة ١٣٤٩ هـ بعد نصف الليل :

يامعاشر المسلمين : كفى غفلا وجهلا ، لم ينزل هذا الدين إلا لإنعاش الأمم وإيقاظها وإحداث حركة فكرية جدية أما إذا ظن المترفون المنعمون وهم على فرشهم أن الأنبياء يبتغون من النبوة أن يقال فى أبنائهم ما قاله النصارى فى المسيح ، فيقول الباطنية فى كرام آل البيت إنهم آلهة ، كما تقدم [فى سورة الكهف] عند آية « وما كنت متخذ المضلين عضدا » وعند آية إبراهيم فى آخر سورة إبراهيم وهكذا ، فذلك جهالة تؤدى إلى بطلان . إكرام آل البيت مطلوب مرغوب ، ولكن مما لاسبيل إلى قبوله أن يتخذ ذلك ذريعة إلى أن تناط أمور المسلمين بمن لاوسيلة عنده إلا النسب . كلامهم كلا . ديننا براعى الكفامة للأعمال ، إن نبينا صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء فلا يوسد عملا إلا إلى أهله .

أيها المسلمون : أيها الأذكياء . لاسعادة إلا بالحب ، والحب الدائم حب الحى الذى لا يموت ، وهذا دونه خراط القتاد لأكثر نوع الإنسان . ولن يصل إليه إلا الأفلون . انتهى ليلة الخميس الموافق ٣ رمضان سنة ١٣٤٩ هـ .

جمال الحكمة والبهجة

في هذا القال

يا الله أنت أربنا جمال وضك ، وحسن صنعك ، وآسنا بنور وجهك ، وأشرفت علينا بهجات نورك
وأنوار شموسك وأقمارك . رأينا ياربنا علاقات تامة بين أرضك وشمسك ، مدا وجزرا ، وكذلك مع قمرك .
ورأينا الحركات منتظمة . ورأينا أجسامنا وتربيتنا منوطين بالحرارة والضوء السارين في النبات للوصول
لنا الصحة والقوة من عالمك الأعلى . وهانحن أولاء رأينا علاقتنا بالأمم حولنا كعلاقتنا بالشمس والقمر
وكل معدن ونبات وحيوان .

نظام خلق الإنسان

هانحن أولاء ياربنا فهمنا وضك ، وشرح صدورنا فلك ، وقد بهرنا ما رأينا في خالق أجسامنا .
ياربنا هانحن أولاء نرى أجسامنا مصنوعة بشكل يخالف كل حيوان في بر أو بحر أو هواء . إن هذا الجسم
كتاب مفتوح هو ورق منشور ، هو حكمة . هو علم . هو رمز . ومق ملكنا هذا الرمز عشاني الأرض
اسعداء . ربنا رأيناك جعلت الحيوانات مقسمة أقساما : فمنها الفقرية ، ومنها الحلقية ، ومنها الفصلية ، ومنها
لرخوة ، ومنها النباتية .

(١) إن الحيوانات النباتية هي التي تراها تمش في البحار كأنها نبات ، إذن فيها حياة كحياتنا ولكنها
لم تعط قوة كقوتنا وعقولا كمقولنا (انظر صورتها في آخر سورة الحج ، فبعضها ذات شحمة
أشعة منتظمة جميلة ، وهي عند آية الذباب) .

(٢) والحيوانات الرخوة مثل المحار والصدف الذي فيه اللؤلؤ ، وأم الحلول (وقد شرح بعضها في سورة
مريم في أولها شرحا وافيا فانظروه) فهذه مع ما قبلها لما قابلنا صنعك فيها بصنعك في أجسامنا
دهشنا أشد الدهش من إتيان وإحكام فينا وارتقاء مرتفع عن تلك المخلوقات اللاصقات بالأرض
المحبوسات في البحار . ولم تعط يدين بهما تصنع ما تشاء كما صنع نحن من جيل الأعمال .

(٣) ولم تكن الحيوانات الفصلية (مثل النعكوت والعقرب والسرطان . ونحو أم أربة وأرجين
رجلا ، وذوات مائة الأرجل ، وأمها ذوات ألف رجل للتقدم ذكرها في سورة النور)
بمتمتات بقوة الإنسان وعقله ويديه القويتين تفصيلا بديما تصنع أعمالا لا قبل للنعكوت
بها ولا السرطان ، فأولهما أعطى حرفة النسيج وهو يعيش في البر ، والثاني يعيش في البحر
مقيدا قيود خاصة . فأقنى له بقوة الإنسان .

(٤) وهل الحيوانات الحلقية (ومنها دود السباح ، ودود الطلق ، وحيوان البلهارسيا ، والانكلستوما
والدود الكلوي) إلا عاجزات عجز ما قبلها من الفصلية . فكل منها لاصقات بالأرض لا حول
ولا قوة لها إلا غرائزها تمشي ثم تفضي من الوجود .

(٥) وليست جميع الحيوانات الفقرية (التي شاركت الإنسان في قراته ولها هياكل عظيمة وبعضها
دم أحمر كدمه) إلا أقل من الإنسان تفصيلا في أشكالها ، ونظاما في أفعالها .

وهل السمك في البحار قامت شوكانته التي يعوم بها مقام يدي الإنسان في شيء اللهم إلا أنها تعينه على
السباحة وإن شارك السمك الإنسان في الفقرات والميكل العظيم . وهل السلاحف بدرقاتها والورل والثعابين

بسمومها بجانب الإنسان إلا عواطل من القوى الشريفة والأعمال النيفة ، ولعمرك ما يفتي جناح (الدجاج والطاووس والحجل والبط وأبي قردان والنعامه والبلبل والبيقا ، والنسر والحدأة والعقاب) فتبلا ولا قظميرا ، وهل لذلك الجناح إلا أنه يحمل الطير في جو السماء ، وهل للجناح إلا عمل واحد هو حمل الطائر ليصل إلى أعماله ، وفرق عظيم بين الأجنحة وأيدي الإنسان القائمات بأعمال غير محصورات ، وما القيطس المائس في البحار الذي يستخرج منه الإنسان الزيت ، ولا الدلفين الذي ينفع الإنسان بحفظه من الفرق ولا الكشولو الذي يستخرج منه الناس العنبر السجاني ، ولا الحيوانات الهجرتة (الشروحة في سورة النحل بصور بعضها) ولا ذوات الظلف الواحد (كالفرس ، ولا ذوات الأرجل المشقوقه مثل الخنزير وجاموس البحر ، ولا ذوات الحراطوم كالقيل ، ولا الحيوانات الثديية آكلة الحشرات مثل القنفذ والفأر القيطي ، ولا الحيوانات آكلات اللحوم كالأسود والنمور ، ولا القردة) لها ما للإنسان من قوة اليدين والنقل العظيم .

يا ربنا ها نحن أولاء نظرنا فوجدنا اليدين اللتين وهبتهما لنا أعطتنا ما لم يعطه الأسد في عرينه ولا القيطس في مائه ، ولا النسر في جوه ، ولا القيل بقوته ، ولا الفرس بسرعه .

نظرنا هذه المخلوقات فألفيناها مقيدات مقدرات لما غرست فيها من العزيمة ، وأحطتها بالطبيعة ، كلهن مقيدات ناقصات . فمن أقل من هذا الإنسان قوة معنوية وقوة مادية .

رباه : نحن بنظرنا في هذا الوجود العيناك وضعتنا في مركز هام عجيب . فإن نظرنا للشموس والأقمار وعالم النبات والحيوان والبحار والهواء وجدناها كلها كأنها جسم واحد ونحن في داخله ولنا به اتصال عجيب ، بل يكاد كل جسم من أجسامنا يكون أشبه بعضو في الجسم العام في السموات والأرض . وإن نظرنا إلى ما فيه الحياة مثلنا من كل حيوان وجدناك قيديتهن جميعا . فقيدت ذا الظلف وذا الجناح وصاحب نصف الجناح ، وقيدت الزاحف والثاشي وكل ما في هواء أو على الأرض أو في ليج البحار ، فكلهن مقيدات . ولم يفك من المقال إلا هذا الإنسان ، فإن أيدينا وعقولنا تفعل ما لا يقدر عليه الجناح ، ولا يسمو له الحراطوم في الفيل ولا القوة الأسدية ، والأقتراس النمرى .

إذن أنت يا الله فضلنا بعقل ويدين فضلا عن سواهما . إذن أنت يا ربنا جعلت أجسامنا مفصلات تفصيلا كأنها كتاب تقرأه ، وهذا الكتاب مفصل أبدع تفصيل . إذن يارب أنت أنعمت علينا بما وهبنا من الحرية العقلية ، وباليدن اللتين بهما تقدر على الاختراع والإحكام والتدبير وإدارة كل عمل في أرضنا من زراعة وصناعة وتجارة وعلم وإبداع واختراع . كل ذلك ابتكرته عقولنا وصنعته أيدينا . إذن هذا الكتاب الذي قرأناه في أنفسنا وتفصيلها وفي الحيوانات حولنا وفي العوالم العلوية والسفلية يوجب علينا أن نكون خلفاء لك في أرضك ، ولن نحقق هذه الخلافة إلا بالعلم والعمل ، وأنا الآن يارب أكتب هذا القول للمسلمين . تلك الأمة التي برزت في الوجود منذ (١٣) قرنا وغيرت معالم الكرة الأرضية . وبسببها ظهرت أم وأم في الشرق والغرب . فأنا أكتب هذا لهم وللأمم . وأسألك يارب يا رحيم أن يقوم فيهم مجددون يقومون للنوع الإنساني بما قام به أسلافهم كل بحسب زمانه ، وأخطبهم قائلا :

« أيتها الأمم الإسلامية ، ويا أيها الأمم الغربية ، طالع نومكم ، ألم تسمعوا قول ربكم « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » . فأين خيريتكم الآن . ألسنتم لما أنعمت عن وظيفتكم تولى بعضها غيركم من الأمم . أتم خلفاء الله بنص الآية وبما يفهم من تفصيل الجسم الإنساني . أتريدون أن تكونوا في الأمم أشبه بالناكب والديب وبم يكونون أشبه بالإنسان . أتريدون أن تتجاهلوا مالككم من العقول والأيدي فيجعل بعضنا نصح كذي الجناح أو ذي الحافر (حاشا لله أن يكون ذلك) .

وهل يرضى أبناء العرب الذين هم أصل هذه الأمم الإسلامية أن يكونوا في مؤخر الأمم ويشغلوا من
مجدد الرفيع وشرفهم الكبير ، ويذروا عقولهم بلا تفكير وأيديهم بلا عمل ، ويجهلوا ما عرفت
الأمم حولهم من العلوم والصناعات ؟ لا لا . يا أمة الإسلام ها أنا ذا وصلت لكم القول ليعلم المفكرون
مشكم قوله تعالى « وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها » والله كما فصل القرآن
فصل آيات هذا الوجود . ومن هذا التفصيل تفصيل جسم الإنسان ، فهو مفصل تفصيلا عجيبا . فما هو ذا
القرآن وما هو ذا جسم الإنسان يقضيان بحرمان الجاهل الكاسلين الذين يذرون مواهب العقول وابتداع
الأيدي عجائب الصناعات وابتكارها غرائب المنافع في الدنيا والدين ، كتب في ٣ رمضان سنة ١٣٤٩ هـ
و ٧٢ يناير سنة ١٩٣١ .

نظرتي أمس (٣ رمضان أيضا) في بلدة البركة

امرأة تطحن على رحاها

يا سبحان الله : مررت على هذه البلدة كمادتي لأنها في طريقى إلى مزرعتنا بتلك الجهة قرب
القاهرة لما رأيت المرأة تدير رحاها تطحن بها براصنعها لأهل منزلها (وقد كان هذا الموضوع أى
موضوع السموات والأرض ، وانتظام هذا المجموع واتصاله بجسم الإنسان وأمم الأرض مرتبا
في ذهني محضرا في عقلي لا أقدر على التماس منه) حتى كانت هذه الرحى إنعاما للموضوع وشرحا وتطبيقا
على ذلك كله .

الله أكبر : دارت الأرض حول نفسها فكان الليل والنهار ، الأرض دائرة في يد صانعها مجذوبة حول
الشمس فكانت لها نتائج لا عدد لها ولا حصر . وبدورانها كان الصيف والشتاء والحريف والربيع وهناك
مالا حصر له من الخلقات ، فهي رحى كبيرة . إن رحى المرأة التي رأيتها أمس مدورة والأرض كرة .
إن رحى المرأة دائرة بيد المرأة والأرض دائرة بيد الصانع الحكيم . ولكن فرق ما بين الدورتين ، فدورة
الأولى لغذاء بيت واحد . ودورة الثانية لغذاء أمم وأمم .

إيه أيها المسلمون . كلما كانت الأمم في صناعاتها أقرب إلى صنع ربها كانت أسعد بالا وأنعم حالا ، وكلما
ابتعدت عن صنعه كانت أقل وأذل ؛ أفلا ترون الآلات الطاحنة ذوات العجلات المنتظمات الدائرات دوران
هذه الرحى عملتها أيدي أناس مثلكم فقامت مقام آلاف رحى كرحى المرأة التي رأيتها في بلدة البركة .
أفلا ترون الآلات الحاربات والحارنات والجاريات في البر والبحر فقد عملتها أيديكم بإرشاد عقول
كمقولكم فأغنت أمما وأمما .

كلما كانت صناعات الأمم أقرب إلى البساطة كانت الأمم أقرب إلى التفرق فيكون الانحلال ثم الفناء ،
وكانت بالنسبة للأمم ذات الصناعات العظيمة أشبه بالحيوانات الرخوة بالنسبة للإنسان ، وكلما كانت صناعاتها
أقرب إلى صنع الصانع الحكيم مبدع الكون كانت أقرب إلى الاجتماع والآنحاد والكمال في الإنسانية .
والإنسان اليوم سائر إلى هذه الحال شاء الجهال من المسلمين أم أبوا ، وسيكون هذا النوع الانساني أشبه
بأمة واحدة تعمل لغاية واحدة ومنفعة للجميع وتكون سعادة الإنسانية بتلك الأيدي والعقول فوق ما هو
عليه الآن آلاف آلاف مرة ، وتكون نسبة سعادتهم اليوم إلى سعادتهم في المستقبل كنسبة الحيوانات
للفصلية والحلقية كالعلق والمقرب إلى نوع الإنسان ، أو كنسبة هذه الرحى التي تديرها المرأة التي شاهدتها
في بلدة البركة وغيرها إلى آلة بخارية عظيمة تطحن لآلاف من الأسرات في القرى والأمصار . هذا، وإني

أحمدك اللهم على نعمة التوفيق والرفان والحكمة والبيان ، كتب يوم الجمعة ٤ رمضان سنة ١٣٤٩ هـ وإلى
عنا تم الكلام على اللطيفة الرابعة ، والمجد لله رب العالمين .

اللطيفة الخامسة

في قوله تعالى « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا
فيوحى بإذنه ما يشاء إنه على حكيم »

حضر أخى العالم الذى اعتاد مناقشتى فى هذا التفسير . فقال : لقد جاء ذكر الشيخ الداغ ذلك الأسمى فى
آية « سترهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » الخ ولكن للقول هناك بقية . ولقد أذكرنى بها هذه الآية لأن
البشر ليس لهم أن يكلمهم الله إلا بالوحى أو من وراء حجاب أو إرسال رسول الخ فبالت شعرى أمثال هذا
الأسمى من هؤلاء . حتى يأتى لنا معلوم محببة بعضها ونقله وبعضها لا ندركه . فقلت : أبها الأخ . الشيخ الداغ
وأمثال الشيخ الداغ لا تأخذ العلم عنهم وإنما هؤلاء مذكرون لنا بالوحى . فإذا سمعنا من هؤلاء حكما لم
ندركها نحن وبغتنا فوجدناها موافقة للوحى النزل على نبينا صلى الله عليه وسلم قبلناه وإن رأينا ما مخالفه نبذناه . فلما
عقول والنادين . ولكن ليس معنى ذلك أننا ترك هذه البنابيع النابعة من فيض الله كما لا ندع البنابيع
الظاهرة من الأرض بلا عمل منا . إن المسلم فى مستقبل الزمان غير للمسلم الماضى فى القرون للتأخرة . إنه
إنسان غير جامد . إنسان فيه حقيقة الإنسانية ، لا يبدع نعمة تصل إليه ولا حكمة يسمها إلا بحث فيها . فإذا
كان الماء النابع من العيون لا ينبغى للمسلم ترك الاستفادة منه . هكذا لا يلبق به أن يذر حكما تصدر على لسان
إنسان بدون أن ينقدها ويفكر فيها . بل فوق ذلك يعلم أن الله هو نفسه الذى ساقها إليه اختبارا له لينظر
أيشكر بقبولها وبغتها والاستفادة منها أم يكفر بتركها واحتقارها فيقول لا لا أنا لم أفرائس هذا القول
فى الدين . بل أقول فوق ذلك كل قول يسمعه المسلم من أى عالم فى أقطار الأرض فى جميع العلوم الرياضية
والطبيعية والسياسية والتاريخية إنما هو نعمة من الله ساقها إليه فيبذلها إنما هو نعمة للرسالة من الله
إليه . وعليه أقول : إن المسلمين بعد انتشار هذا التفسير (وقد انتشر فعلا) سيكونون نورا للأمم لا يذرون
قوة فى الأرض وما عليها . ولا حكمة صادرة من رجل فتح عليه وهو لم يتعلم كالشيخ لداغ . ولا علما جديفة
عالم صيني أو ياباني أو ألماني أو فرنسي الخ بعقله ونسبه وآلاته الرصدية أو الكهائية أو غيرها إلا سارعوا إليها
ودرسوها ومحسوها . واسطفوا ما هو نافع . وتركوا ما هو ضار .

هذا هو الحق الذى لا يحصى عنه . أليس هذا هو قوله تعالى « فيشرع عباد الدين يستمعون القول فيتبعون
أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب » .

فآية عامة وتخصيصها لا معنى له . والأرض أرض الله والناس عباده . وإذا انتفعنا بعماء الأرض الذى هو
من صنع الله وفيه فإن الانتفاع بما تنتجه العقول أولى لأن العقل أفضل من المواد ، والماء مادة والعلم ينتج
من العقول . إذن ترك ذلك كله أو بعضه جهالة وقلة دين وعقل .

لك الحمد اللهم على نعمك ، ولك الشكر ، ولك الفضل العظيم علينا وعلى الناس أجمعين . أنت الذى
خلقت الإنسان وجعلت جسمه فى هذه الأرض محوطا بالخير والشر وحجته عن المعارف والمعلوم بما ساطت
عليه من شهوة وغضب ، فأخذت الأمم بموج بعضها فى بعض ، ويؤمن بعضهم بعضا ، جعلتهم معذنين

في صورة منعمين، وجهلاء في صورة علماء، وأريهم بصيصا من العلم، وبصيصا من الجمال، وهيات أرواحهم لقبوله بدرجات مختلفات بحيث لا يتفق اثنان من الناس في درجة واحدة، فهم في معارفهم مختلفون باختلافهم في ألوانهم ولقائهم . واختلافهم في خطوط أيديهم التي ظهر سرها فيما تقدم في السورة السابقة ، واختلاف استمدادهم القطري :

(١) فها نحن أولاء نجد القرآن نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقد فهمه الصحابة رضى الله عنهم والتابعون ففسروه في الكرة الأرضية ، وكان لهم فيه فهم غير ما فهمهم ، وآراء غير ما عرفوا ، والدليل على ذلك نتائج أعمالهم في الأمم التي حكموها وللممالك التي أحكموها وللظالم التي منعموها وأنواع العدل التي سلكتها والمبرات التي أظهرتها والسعادات التي نشرتها .

(٢) ثم خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات وبغوا في الأرض الفساد وقطموا الأرحام حلق عليهم قول الله « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم » فلذلك استرد الله منهم ممالكة وأورثها قوما آخرين قرونا وقرونا وهم يتدلون في حضيض الجهالة وللذلة . وكلما نبغ نابغ ذموه وحقروه ، وكلما ظهر عالم ازدروه ، واكتفوا من العلم بقشوره . ومن القرآن بلفظه ، ومن العبادة بظاهرها ، ومن الدين باسمه ، واستحلوا الجمل واستعذبوه واستبشعوا العلم ونبدوه ، لذلك حرقوا كتب الامام الغزالي في بعض بلاد القرب في القرن الخامس ودموا ابن رشد وكفروه أيام دولة الموحدين ، فلم تتم في أمم العرب خصوصا وأمم الإسلام عموما للعلم قائمة بعد ذلك كما ذكرته سابقا في هذا التفسير في مواضع كثيرة وأوضحته أيا بما إيضاح .

ولما تم ذلك قبض الله للخلف قوما آخرين ليسوا علماء كالذين تعهدم ، بل خلقهم على شاكلة تلك الأمم لم يتعلموا علما ولم يحفظوا ديننا ولم يقرءوا القرآن وأنطقهم بعلوم فوق طاقة نوع الإنسان ، وإنما فعل ذلك رحمة بهم ، ذلك لأن رحمة الله عامة ، فإننا نراه لم يذر حشرة ولا طيرا ولا حيوانا ذريا لا تراه العيون إلا أحاطه بالنم وملأه بالحكم ، وأنت أيها الذي تعرف ذلك من المعجائب للتقدمة في هذا التفسير . فإن العلوم التي ملأ الله بها أرضنا وللسلمون كانوا محرومين منها وقد كتبت ثمراتها في هذا التفسير ، تملأ القلب روعة وجبا لله تعالى وإيقانا بأنه لم يذر ذرة إلا ملأها بالحكم ولا حيوانا دقيقا أو عظيما إلا أحاطه برحمته فهو كذلك سبحانه أحاط آباءنا الذين جهلوا القرآن وكرهوا العلوم برحمته ولم يذرم يتخبطون في دجاجير الظلام بلا مرشدين بل بث فيما بينهم هؤلاء الأقوام وهم أرباب القلوب والصالحون ، وكانوا كلما أوغلوا في الجهل زادهم الله من هذه الطائفة ، ومن هؤلاء من ذكرته سابقا في هذا التفسير وهو الشيخ الديباغ الذي ظهر في بلاد مراکش منذ نحو قرنين اثنين ، فإنه كان في القرن الثاني عشر الهجري ، فهل لك أيها الذي أن أحدثك عما جرى بيني وبين بعض علماء مراکش في عصرنا الحاضر في أمر هذا الشيخ ، وذلك أن هذا التفسير أثناء طبعه أخذ أفاضل العلماء في مدينة فاس وغيرها يقرءونه لتلاميذهم ، فأنا حمدت الله عز وجل وزدت إيقانا بما سيكون لهذه الأمة من السعادة والفضل العظيم .

والحديث الذي جرى بيني وبين هذا العالم الفاضل هو ما يأتي : قال [إننا لما اطلعنا على تفسير الجواهر انشرفت صدورنا وازدادت مسرتنا ووالله لقد سرت روح هذا التفسير أثناء طبعه في البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، وأصبح الطلاب والعامة الذين يتعلمون منهم يفكرون في منافع أرضهم ومعادن جبالهم ومصادر أنهارهم ومواردها ، وفي الصناعات والعلوم على اختلاف درجاتها ، وقد انفتحت بصائرهم وانشرفت صدورهم بسبب ما يلقيه العلماء من الحكمة التي أودعها الله في هذه الدنيا ، فأصبحوا يرون حكم الله في الحجر

والشجر والنهر والبحر والجبل مع أن تفسير القرآن كان العلماء يحرمونه قديما على التلاميذ باعتبار أنه فوق طاقة الخلق ، وهذا القول سمعته من كثير من علماء تلك البلاد .

ثم قال : والله لقد أحسنت وأجيدت وشرحت الصدر ، وهذا موافق لأقوال أكابر علماء الإسلام الذين لا يقولون في أقوال أهل الكشف إلا على ما وافق الدين وأنت صرحت بذلك ؛ إذن هذا يشجعني أن أسأل في بعض كلام الشيخ الديبغ وما مقصوده حتى نستفيد منه ، فقلت : سل ما بدا لك ، فقال إن الشيخ عبد العزيز الديبغ ذلك الرجل الأبي قد أتى في تفسير الحروف التي في أول السور بأمر عجيبة جدا تفوق طاقة الإنسان ؛ ولما اطلعنا على تفسير الجواهر وجدنا بصيضا من نور كلامه فيه وبقية معناه فوق تناول العقول في زماننا ، فأريد منك إيضاح هذا المقام حتى أبته بين إخواني العلماء إذا رجعنا إلى تلك الأقطار . فقلت : إذا خفضت بإيضاح السؤال فإني أرجو من الله أن أوفق للإجابة . فقال : إنه يقول في معنى (ص) إنها تشير إلى الفراغ الذي يتلون على ما تقتضيه أفعال كل ذات من الدوات . فقرأه على كافر عذابا وعلى مؤمن إلى جنبه رحمة من الرحمت وعلى كافر آخر واقف إلى جنب هذا المؤمن عذابا ولكن لا من جنس العذاب الذي للكافر الأول بل من جنس آخر ، وعلى مؤمن آخر واقف إلى جنب هذا المؤمن رحمة ولكن لا من جنس الرحمة التي للمؤمن الأول بل من جنس آخر اقتضته أفعاله وهكذا حتى يأتي على جميع من في المحشر ولا نجد فيه حيزا يشبه حيزا أبدا مع أنه فراغ واحد في رأي العين ، وعلى ما تقتضيه طبيعة الدنيا . والفتوح عليه رى هذا عيانا . فبرى زيدا في فراغه على ما كتب له ، وبرى عمرا في فراغه على ما كتب له ، وكأهم الآن واقفون فيه بين يدي الله عز وجل ، فلهذا قلنا : لو علم الناس ما أريد بس وما أشير إليه به ما اجتروا واحد على مخالفة أمر الله عز وجل ، فإنه لو فتع للناس على مكانهم في ذلك الفراغ لا غنيط للطبع ولما الخالف أسي ، ولا يخفى أنه يكون في ذلك الفراغ الكفار والمؤمنون والأنبياء والملائكة والجن والشياطين ، وقد أشار إلى الكفار في صدر السورة بذكر طوائف منهم . وإلى الأنبياء بذكر طوائف منهم ، وإلى المؤمنين بذكرهم خلال ذكر الأنبياء ، وإلى الملائكة بذكر اللأ الأعلى آخر السورة ، وإلى الجن والشياطين بالإشارة إليهم في آخر السورة وذكر أحوالهم في الدنيا وإن لم تكن لهم في المحشر لأنها هي السبب في اختلاف أحوالهم في ذلك الفراغ الذي يحشرون فيه وبقيت أسرار آخر تتعلق بما في السورة لا يحل إفشاؤها . والله تعالى أعلم .

ثم أخذ بعد ذلك يتكلم على معنى « كهيعص » وغيرها فلا أطيل به ، ثم قال : « وقد رأيت نفس هذا الشيخ لما سأله الشيخ أحمد بن المبارك في سبب كون تكبير العيد سبعا في الركعة الأولى وستا في الثانية أجابه مسرعا قائلا : إن التكبير الأولى يشاهد فيها العبد المكبر ولا سيما سيد الوجود صلى الله عليه وسلم المكونات التي في الأرض الأولى والتي في السماء الأولى ويشاهد المكون سبحانه وتعالى ، والتكبير الثانية ويشاهد فيها المكونات التي في الأرض الثانية والتي في السماء الثانية ، ويشاهد المكون سبحانه وتعالى ، والتكبير الثالثة يشاهد فيها المكونات التي في الأرض الثالثة والتي في السماء الثالثة ويشاهد المكون سبحانه لأنها أفعاله تبارك وتعالى ، والتكبير الرابعة يشاهد فيها المكونات التي في الأرض الرابعة والتي في السماء الرابعة ويشاهد فيها المكونات التي في الأرض الخامسة والتي في السماء الخامسة يشاهد فيها المكونات التي في الأرض السادسة والتي في السماء السادسة يشاهد فيها المكونات التي في الأرض السابعة والتي في السماء السابعة ويشاهد فيها المكونات سبحانه لأنها أفعاله تبارك وتعالى .

هذا في الركعة الأولى. وأما الركعة الثانية فإن التكبيرات الأولى منها يشاهد فيها ما خلق في اليوم الأول وهو يوم الأحد ويشاهد السكون سبحانه وتعالى ، والتكبير الثانية يشاهد فيها ما خلق في اليوم الثاني وهو يوم الاثنين ويشاهد السكون سبحانه ، والتكبير الثالثة يشاهد فيها ما خلق في اليوم الثالث وهو يوم الثلاثاء ، ويشاهد السكون سبحانه ، والتكبير الرابعة يشاهد فيها ما خلق في اليوم الرابع وهو يوم الأربعاء ويشاهد السكون سبحانه وتعالى ، والتكبير الخامسة يشاهد فيها ما خلق في اليوم الخامس وهو يوم الخميس ويشاهد السكون سبحانه وتعالى ، والتكبير السادسة يشاهد فيها ما خلق في اليوم السادس وهو يوم الجمعة ويشاهد السكون سبحانه وتعالى . فقلت : وهذه المخلوقات في هذه الأيام الستة هي التي في السموات السبع وفي الأرضين السبع . فقال رضى الله عنه يشاهد عند رؤيته إلى الأيام أصول المخلوقات التي كانت في بدء الخلق ، وأما عند نظره إلى السموات والأرضين فيشاهد المخلوقات الموجودات على ظهرهما . فقلت : فتكبير العيد سبعا وستا شرع في حق كل مكلف وأبى كل مكلف من هذه المشاهدة ؟ فقال رضى الله عنه من فتح الله عليه فلا كلام فيه ومن لم يفتح عليه فينبغي له أن يستعمل هذه المشاهدة ويستحضرها ولو على سبيل الإجمال والله تعالى جواد كريم ، فان استحضر العبد ما ذكر في هذا العيد وفي العيد الذي بعده وهكذا وفرح بربه ودلم على ذلك فإن الله تعالى لا يخفيه ولا يخرج روحه من جسده حتى يربه تعالى هذه المشاهدات تفصيلا لأن الله على كل شيء قدير ، والبعد والاقطاع إنما حصل من ناحية العبد لا من ناحية الرب سبحانه وتعالى « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » .

ثم لما أجابه عن ذلك سأله عن سر التكبير ثلاثا إثر خمس عشرة فريضة من ظهر يوم النحر إلى صبح اليوم الرابع . فقال : التكبير الأولى يستحضر فيها ويشاهد تصوير الذات نطفة ثم علقة ثم مضغة ، والتكبير الثانية يستحضر فيها ويشاهد تمام التصوير وكاله وحسن خلقه ونفخ الروح فيه وصيرورته خلقا آخر فتبارك الله أ- سن الخالقين ، والتكبير الثالثة يستحضر فيها ويشاهد فساد الصورة ورجوعها ترابا حين تمكون في القبر : فإن هذه الأمور الثلاثة من عجائب قدرته تبارك وتعالى ، ومن غرائب ما أبدعه في مصنوعاته سبحانه وتعالى لا إله إلا هو ، وهذا التكبير لا يختص عند الصوفية بما ذكره الفقهاء بل يستعملونه دبر كل صلاة ولكن قبل السلام منها . قال رضى الله عنه : والمفتوح عليه يشاهد هذه الأحوال عيانا وبراهها جهارا ، فيشاهد من باهر قدرته تعالى ما لا يكيف ، وكم من عجائب الله تعالى في مخلوقاته ، فإذا حصل للمفتوح عليهما أوجب تمييزه أو قبضه أو نحو ذلك نظر إليها فيحصل له من التوحيد والاعتبار ومحو ما نزل به ما لا يكيف ، فقير المفتوح عليه يدفعه بالرؤية والعيان (كذا) . قال رضى الله عنه : وعلى وجه الأرض عجائب لو شاهدها أرباب الأدلة والبراهين ما احتاجوا إلى دليل ، من تلك العجائب ما إذا شاهده العبد علم بوحدة الله تعالى من غير دليل وتكفيه مشاهدة ذلك الأمر ، ومنها ما إذا شاهده العبد علم بوجود الجنة ، ولا يحتاج إلى إقامة الدليل على وجودها ، ومنها ما إذا شاهده العبد علم بوجود جهنم ولا يحتاج إلى دليل ، إلى غير ذلك من عجائب مخلوقات الله تعالى والله أعلم . انتهى من [كتاب الإبريز] .

هذا هو الذى أسألك عنه . ثم قال : ولست أقول إنك تجيبني من ذلك القام الواسع فإنه فوق طاقة أهل الأرض ولكني أسألك لتجيبني بما يفتح الله به عليك أنت مما يناسب زماننا الذى خلقنا نحن فيه . فقلت : اعلم أيها الأخ الفاضل أن الله عز وجل خلق أرباب القلوب وجعل بعضهم كالشيخ الدباغ من الطبقة التي لم تتعلم ، والسبب في ذلك رحمته بالعباد ، فإن للسليين لما كرهوا العلوم وجرموا وطردوا أهل العلم فذهبوا إلى أوروبا وهو سبحانه وعد ، ووعدته حق إذ قال « ورحمى وسعت كل شيء » فلم يشأ

أن ينرم بلا علم لأن الإنسان هو الحيوان الناطق . فقال لهم : [يا عبادي أتم كرهتم الفكريين والعقلاء الذين يجتهدون بقولهم ، فأنا أرسلت لكم من ينطقون بالعلم بلا كلفة ولكن عدل ولم أخلقكم في الأرض ليكون علمكم بلا مشقة . إن العلم الذي يعطى للإنسان بلا مشقة لا فضل فيه له ، وكل ما كسبه الإنسان بنصبه وتعبه كان كلاله ، وكل ما أعطى له بلا مشقة ولا نصب كان أشبه بالمال الذي يرثه الولد عن أبيه ، فهو لا يحرف له قيمة ولا وزنا .

فهؤلاء الصالحون بنهم الله فيهم ، فمنهم الصادقون وهم قليل جدا وأكثرهم يعيشون ممتعين بالراحة على نفقة هؤلاء الجهلاء . وقد جعلوا الدين شبكة يصطادون بها حطام الدنيا ، وهم هم الذين يساعدون الفرنجة في إذلال الشعوب ، ومثلهم بعض أمراء الإسلام ، فهاتنا ثلاث طوائف : بعض رجال العلم والتصوف وبعض الأمراء والمستعمرون ، فهؤلاء هم الذين يحبون أن يبقى المسلمون في الذل والجهل ليعيشوا معالي حسابهم ومن كد أيديهم ، وهذه الطوائف الثلاث كالتنكبوت تصطاد الدباب بالشبكات ، فالدباب هم جهال المسلمين والتنكبوت الصائد هم المستعمرون وبعض أمراء الإسلام وأكثر رجال التصوف وأهل العلم الذين يعملون لإرضاء المستعمرين .

فإذا خلق الله أمثال الشيخ عبد العزيز الدبائع وأنطقه بالحكمة التي فوق تناول عقول أهل الأرض فذلك لحكم :

(أولا) أن هذا الشيخ لم يقرأ مثلهم ، وليس فيلسوفا ولا حكما حتى يكفروه فهذا به يأتسون وهذه رحمة بهم .

(ثانيا) هو ينطق بالعلوم المدهشة التي يقف أكبر حكيم أمامها حائرا لعلوها وهذا يجعل أولئك الجهلاء مصدقين بالدين الإسلامي فيكون أرباب القلوب إذ ذاك أشبه بأوتاد وجبال ، فكما أن الأوتاد تحفظ الخيام من أن تزعزعها الرياح ، والجبال تحفظ الأرض من أن تميد ، هكذا أمثال الشيخ الدبائع والشيخ الخواص ومن على شاكلتهم بنهم الله في الأرض كما بثت الجبال الرواسي فثبتوا قلوب آباينا علماء وجهلاء وثبتت العقائد ، وآمن الناس واستأنوا في الدين استئانة حفظته من الضياع حتى سلموه إلينا .

ولادين في الأرض يبقى بلادعاء . وهذه النصرانية لولا جميعات المبشرين (الذين يملكون من المال مئات الملايين ويجمعونه من سائر الأقطار ، وبهم زلزلوا عقائد بعض المسلمين) لم يبق لها وجود ، والدين الإسلامي لاجمليات له والله يريد بقاءه كما وعد ، نطق هؤلاء الدين هم أرباب القلوب فنطقوا بالحكمة التي تجرى على ألسنتهم كما ينطق النومون (بالفتح) تنوعا مغناطيسيا ، وهؤلاء وهؤلاء يشاهدون عوالم لم نشاهدها نحن في أجسامنا هذه ، غاية الأمر أن أرباب القلوب من المسلمين وصلوا لذلك بأنوار بصائرهم والنومون (بالفتح) وصلوا لذلك بطرق صناعية ، والأولون أرقى منهم ، والموالم كلها في يد الله وهو الذي فصل ذلك رحمة بآبائنا لحفظ هذا الدين ثم وصل إلينا فنظرنا فيه وفرحنا بنعمة الله .

حكم أرباب القلوب

(كالشيخ عبد العزيز الدباغ) وتفسير الجواهر

كلاهما من مصداق قوله تعالى « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب » الخ، وقوله أيضا في السورة السابقة « سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد »

فقال الأستاذ : إن في الأمر لعموضا فأرجو إيضاحه حتى أفهمه فقلت له : ماذا قال الشيخ عبد العزيز الدباغ ألم يقل إن كون تكبير الركعة الأولى في العيد سبعا وفي الثانية ستا يرجع إلى مشاهدة عجائب السموات السبع والأرضين السبع في كل تكبيرة سماء وأرض من تلك الأرضين والسموات، قال بلى . قلت ألم يرجع هو رحمه الله تكبيرات الركعة الثانية الست إلى مشاهدة مخلوقات التي خلقت فوق الأرض في كل يوم عالم من العوالم كالذي تقدم في علم طبقات الأرض إجمالا موضعا بالصور الفوتوغرافية في السورة السابقة . قال بلى والله قلت رجعت كلامه في تكبير الركعتين إلى عجائب السموات والأرضين في الركعة الأولى وإلى ما كان عليهما في مبدأ الخلق في الثانية ، ولما كانت الأمم تعرف السبع والست وأن الأولى سموات وأرضون والثانية أيام أزل هو التكبيرات على ذلك بلهام من الله تعالى :

ومعلوم أن عوالم الأثير الذي لا وزن له قد قرر علماء عصرنا أنه عالم أثقل من الذهب والحديد بما لا حد له كما تقدم في أول (سورة الصافات) وإن لم يكن مادة ، وإذا كان الذهب أثقل من مقدار حجمه من الماء نحو ١٩ مرة . فإن اللبم الواحد من هذا الجو أثقل من ألف طن كما تقدم في أول (سورة الصافات) تقلا ماديا فأقرأه هناك مفصلا . فالسموات السبع والأرضون السبع اقتصر عليها لأن الناس لم يسمعوها إلا بها ولكن من زماننا ظهر أن الهجرة فيها عشرة آلاف مليون أرض ، وكم في الكون من ملايين المجرات إذن هذا ما هو إلا قول على مقدار ما يفهم السامعون .

ثم قلت : انظر زادك الله علما ، وشرح صدورنا وصدور العلماء في الإسلام لانهاد هذه الأمة للسكينة الجهادية . أفلمست تراه لما سئل في التكبير ثلاثا إثر خمس عشرة فريضة من ظهر يوم النحر إلى صبح اليوم الرابع ، قسم أطوار خلق الإنسان إلى ثلاثة أقسام : جعل أطوار النطفة والمعلقة واللصقة قسما ثم تمام التصوير والحسن والجمال والكمال وانتشار الروح فيه وحياته قسما ، وهلاكه وفساد صورته ورجوعه رابا قسما وجعل كل قسم لتكبير من التكبيرات الثلاث . قال بلى . قلت : ثم إنه لما أتم ذلك أتى بالمقصود الحقيقي ، وأبان أن ذلك ليس هو كل شيء وإنما هو ضرب أمثال . فقل : « إن الفتوح عليه يشاهد من باهر قدرته تعالى مالا يكيف ، وكم من عجائب قده تعالى في مخلوقاته فإذا حصل للمفتوح عليه ما أوجب تغييره أو قبضه أو نحو ذلك نظر إليها فيحصل له من التوحيد والاعتبار وهو ما زل به مالا يكيف .

ثم قال : وعلى وجه الأرض عجائب لو شاهدها أرباب الأدلة والبراهين ما احتاجوا إلى دليل من تلك العجائب الخ » .

أفلا تعجب معي من هذا اللقال : أليس هذا هو عين ما قلته في هذا التفسير مرارا : « إن الصادات يقصد بها فتح باب العلوم » .

ومن أعجب العجب أن يقول في التكبير « إنه يقصد به التفكير في السموات والأرض وما خلق عليها »

وهذا هو تفسير قول الصلي « ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد » الخ وعين أذكاره في ركوعه وسجوده إذ يذكر السمع والبصر الخ . إذن هذا سر أظهره الله في آياتنا هذه ، بل ألا تعجب من أنك أنت سألت هذا السؤال أيها الذكي . فقال وكيف ذلك ؟ قلت إن هذا المقال كله تفسير لآية « سرهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » فأما الآفاق فهو ما ذكره الشيخ الدباغ من السموات والأرض في تكبيرات العيد ، وأما الأنفس فهو ما ذكره رحمه الله في تكبيرات أيام التشريق في (١٥) فريضة، إذن هذا كله تفسير لآية « سرهم آياتنا » الخ في السورة السابقة .

وإنما أبرزه الله على السنة هؤلاء الذين يخلقون في زمن اضمحلال العلم وشيوع الجهل ليكون ذخيرة للمسلمين يقرءونه وهم معجبون فيؤمنون كما تقدم . ولكنهم لطردهم العلماء وفرحهم بالجهل يكف الصالحون منهم على العبادة ويذرون عقولهم تتخبط في ديجور الظلام .

إذا ما لم تكن إبل فعزى كأن قرون جلنتها العصى

ويكتفون بأنوار الصلاح مع حرمانهم من أنوار العلوم . وغاية الأمر أن أناسا منهم يفتح عليهم وهؤلاء قليل نفهم للأمة ونحن جثنا في الأرض ليكون بيننا رابطة ودية ، ولن تتم تلك الرابطة بيننا إلا بأن نعرف العلوم التي بناها الله في أرضنا بقولنا ، وهذا هو مقصود القرآن ، أما الفتوح فأمر آخر يختص بالإنسان نفسه والسعادة الحقيقية في إسعاد الأمة ولإسعاده لها إلا بتعميم التعليم ، ولن يكون ذلك إلا بالعقل والفهم والجرى على سنة الله في أرضنا . إذن أرباب القلوب :

(١) نفعوا القدماء بالإيمان بسبب مشاهدتهم ، ولكن هؤلاء الأتباع لاعلم عندهم وعقولهم تقف عند حد خاص لأنهم يرون جميع علماء الإسلام جهلاء ، فالفقه والأصول ونحوها كلها لا فائدة منها وهكذا التفسير ، إذ تفسير هذه الطائفة فوق طاقة التفسيرين .

(٢) ونفعوا الذين في زماننا وهم قراء أمثال هذا التفسير : ذلك أن قراءه في أقطار الإسلام سيكونون جميعا على مشرب واحد لأنهم يحبون معرفة العوالم العلوية والسفلية ، ويرون حكم الله في كل ماجل ودق ، ويفرحون فرحا لا حد له ، ويرقون رقيا لا أعرف أنا منتهاه الآن ، فيكون الشافعي والحنفي والحنبلي والزيدى والمالكي والجمهري وكل شيعي على سنن واحد في حب ربهم وحب الأمة الإسلامية وحب العلوم ، ويرون هذا الحلاف البسيط في عدد الركعات أو التكبيرات أو نحو ذلك أمرا سهلا عمليا ويتجلى لهم الجمال في كل هذه الدنيا ويزدرون تلك المداوات في القرون للتأخرة الناشئة من الجهل بنظام الله تعالى في العوالم كلها . فمؤلا سيذيعون ما في هذا التفسير من العلوم بين أمم الإسلام قاطبة . وهناك يقابلهم طوائف من العباد والنسك وتلاميذ صفار مشايخ الطرق ، فيقولون لهم إن هذه العلوم التي في هذا التفسير ما هي إلا بدعة ولم ترد عن المتقدمين فيقولون لهم أرايتم إن أعظم أمرها أمثال الشيخ الدباغ والشيخ الحواص فماذا تصنعون ؟ فهناك يخضعون ويكون ماتقدم من كلام الشيخ الدباغ حجة عليهم ، ومتى سمعوه يقرءون بأنهم جهلاء وأنهم يجب عليهم أن يتعلموا ، وغاية الأمر أن الأغبياء منهم يقولون هذا أمر لا يصح إلا بالفتح ، فيرد عليهم بما تقدم في سورة الحج بما نقلته أنا في هذا التفسير عنه نفسه وهو أن الفتح ليس مقصودا بل الحجاب لأكثر الناس خير منه . فقال الأستاذ: حقيقة أنا قرأت هذا في تلك السورة متقولا عنه .

قلت : إذن ملخص كلام الشيخ الدباغ تفسير لهذه الآية وهو مقدمة جعلها الله مخزونة في الكتب

حتى ظهر تفسير الجواهر وأمثاله في زماننا فوافق شرحه طبقته . ذلك ليأس بهذا الكتاب جميع أفراد الأمة وأكثرتهم أتباع مشايخ الصوفية ، وهؤلاء متى عرفوا أن ذلك أهم مقصود الصوفية فرحوا به وأحبوه وتعبدوا للعلوم بعقولهم . وإذن لا يكون هناك تعطيل لعقول المسلمين كما كان في القرون المتأخرة ، إذن لم يبق إلا أن أذكر معنى (ص) في كلام الشيخ الدباغ .

ثم إن مقاله في معنى (ص) وغيرها فكله على هذا النمط ، فهو للأمة الإسلامية الجاهلة في القرون المتأخرة إيمان وثبات عقيدة وللأمة الإسلامية المستقبلية الشقيقة بصائر ونور إذ يعرفون أن كلامهم هو إجمال للعلوم الأنفس والآفاق ، وأمثال هذا التفسير تفصيل يدركه العقل ، وترى الأمة الإسلامية المستقبلية والحاضرة التي قرأت هذا الكتاب وهو (تفسير الجواهر) أن هذا ليس بدعا بل أرباب القلوب قد ألعوا إلى ما فيه وأتوا برموز وإشارات . فهم في السنين أشبه بحروف أول السور في القرآن . فكما أن حروف أول السور مفاتيح لعلوم تلك السور ، وقد فتح الله في هذا التفسير في معاني هذه الحروف بما أرادته على مقدار طاقة المؤلف وطاقة الأمة الإسلامية . هكذا جاء أولئك الصالحون وكأهم رموز وكلامهم رموز قد حفظها المسلمون ولم يدركوا مقصودهم ، جاء أهل عصرنا وقرءوا أمثال (كتاب الجواهر) فأدركوا التفصيل وهذا معناه أن تصل الأمة سلفها وخلفها ، فالسلف الأول وهم الصحابة والتابعون ومن بعدهم بالشرية والعلوم الإسلامية وخلفهم الجهلاء في القرون المتأخرة بالرموز والإشارات وكلام أرباب القلوب والمسلمون بعدنا بالعلم والحكمة وظهورهم في الأمة المستقبلية وسعادتهم أولا وإسعادهم لأهل الأرض ثانيا . وكل ذلك مع جهم لربهم وخدمتهم للإنسانية العامة .

ولا جرم أن المعاني التي ذكرها الشيخ الدباغ في معنى (ص) لم تخرج عن آيات الله في الأنفس . وإذا رأيتاه في التكبير وراء الصلوات أيام التشريق الثلاثة من أول ظهور يوم النحر يرجعها هو إلى أحوال الأنفس من حيث حياتها الجمعية في الرحم وفي الدنيا وفي حال الموت وجعلها من العجائب والغرائب . فها هو ذا معنى (ص) يقول «إنها تشير إلى الحلاء الخ» .

ومعنى هذا أننا نحن في الأرض اليوم متفقون بحسب الظاهر في الحيوانية والناطقة . وإنا نأكل ونشرب ونلبس . والحقيقة أننا الآن أشبه بقوم في أحلام . فإذا رأيت جماعة في مجلس وهم يتحدثون فظاهرهم واحد ، ولكن الحقيقة أن أحدهم بين جنبيه نار ، والآخر بين جنبيه نار أخرى ، وثالث في قلبه مبرة ، ورابع في قلبه مسرة أخرى وهكذا ، فهم إذن أشبه بالنائمين . فهذا يحلم حلما مفرعا والآخر يحلم به يرى أنه لابس تاج ملك ، أو أن عروسا تزف إليه . فإذا تشابه النائمان أجساما واختلفا نفوسا من حيث المسرة والمساءة . فهكذا هؤلاء الجالسون المتشابهون في مجلس واحد أكثرهم في نصب وتعب وشقاء في الحياة الدنيا والآخرة ، ولا شقاء هناك إلا من الشقاء هنا ، لأن من يملك قنطارا من الذهب في غاية الحزن لأنه لا يملك قنطارين . وهذا ظاهر واضح . إذن هذه الحياة أشبه بنار جهنم ولكن الناس لا يعلمون أنهم في تلك النار الجهنمية ، فهي وإن لم تكن نارا ظاهرة فهي عذاب شديد ونحن لانحس به ولا نظن أنه عذاب . هذا معنى كلامه . ومثل ما قلنا في الشقاوة نقول في السعادة . فالسعيد أقوام تخلت نفوسهم عن الطمع والحسد والغل . وهؤلاء يعيشون بيننا ولكن الناس حولهم لا يعرفون سعادتهم وصفاءهم وهم بين ظهرانينا . إذن هذه الأنفس فيها عذابها الآن ونعيمها الآن . ويغيب العذاب والنعيم هذه الأنفس الإنسانية في الأرض والله هو المتجلى على الجميع . وكان الناس اليوم واقفون أمام ربهم والله سبحانه يعذب ويرحم كل نفس بما أودعه فيها والوقوف يوم القيامة تابع للوقوف في الدنيا .

هذا معنى كلامه وقد جعل جميع ما في السورة راجعا إلى هذا الأصل كما تقدم . فهذه المعاني التي يقولها الشيخ الدباغ راجعة كما قلت لك الآن إلى عجائب الأنفس ، كما إن عجائب تغلب الإنسان في أطواره راجعة إلى عجائب جسم الإنسان .

إذن معنى (ص) الذي ذكره مؤيد لما ذكرناه من أن هؤلاء القوم وإن كانت علومهم ليست من المستوى الذي نسب عليه في أمثال هذا التفسير بل ترجع إلى مقام آخر فإنها ترجع إلى عجائب الأنفس والآفاق . وإذن سؤالك أيها الذكي جمعت فيه ما يتناول الآفاق في السموات والأرض وما يتناول الأجسام الإنسانية وعجائب النفوس الإنسانية .

وبهذا ظهر أن الأمة الإسلامية متحدة المشارب سائرة على نمط واحد أولها وآخرها . فقال ماشاء الله كان . لقد شرحت صدرى وأبنت الحقيقة ونجات . فله الحمد والمنة . وله الشكر على هذه النعمة . ولكن عندي سؤال واحد . فهل لك أن تأذن لي به ؟ قلت سل ما بدا لك . فقال : لقد سمعت في أثناء الإجابة على ما سألتك عنه تقول : إن هؤلاء الصالحين وأرباب القلوب يخلقون في أيام اضمحلال العلم وشيوع الجهل . فكيف يكون ذلك ؟ قلت إن الله عز وجل قال « والله أنبتكم من الأرض نباتا ولا جرم أن الإنسان نبات . قلوب . فرأسه في الهواء والنبات رأسه في الطين ويداه ورجلاه كفرع الشجرة وأغصانها وصدره وظهره كجذع الشجرة ولذلك يسمونه في علم التشريح الجذع ، قل نعم فهمت . هذا واضح . فقلت إن النبات على قسمين : نبات بحري بلا زرع ولا حرث حارث كما ترى في الغابات والأودية والبرك والمستنقعات والأنهار وفوق الجبال . ولقد مر عليك في هذا التفسير أنواع المرجان التي تظهر بهيئة نبات وإن كانت حيوانات كثيرة اجتمعت بصورة نبات . وبالجملة هذه الأرض ينبت فيها نبات نافع بلا زرع له وتخرج منه ثمار بهيئة نائمة . فإذا سكن تلك الأرض الإنسان فإنه يزيل تلك الغابات ويبيد الحشائش ويقتلها فينتفع بالحطب والأعشاب ، ثم يستعمل الأرض لما يزرعه هو على حسب حاجته فلا يحرص للطبيعة بل شرفه هو أن يحميها هو بقله الذي هو أشرف من الطبيعة .

هذا هو المثل الذي أردت ضربه ؛ فلننظر إلى المسلمين فإنهم لما تركوا عقولهم ومواهبهم كانت نفوسهم أشبه بالأرض التي ظهرت فيها أنواع الطحلب والحشائش والشوك والحسك والأشجار المثمرة وغير المثمرة . فأما الطحلب والشوك والحسك فهم أولئك الدجالون من الشيوخ الذين يجتمع الناس حولهم وهم لا يعلمون عند ولادتهم ، وما أكثرهم في بلاد الإسلام ، وعلامتهم أنهم يأخذون المال إما من الحكومات الأجنبيات المستعمرة وإما من أهل البلاد ثمنا لولايتهم وصلاحهم .

وأما الأشجار المثمرة ونحوها فظيورها في المسلمين أمثال الشيخ الدباغ والشيخ الخواص وهؤلاء قليل فإذا ما ازدهرت البلاد الإسلامية بالعلم وعمرت العقول بالحكمة وترعرعت العلوم وارتقت ، فهناك تغلبت هذه الطوائف إذ لا حاجة إليها كما يقل الحسك والشوك والأعشاب الضارة بالزرع والبرك والمستنقعات الضارة بنوع الإنسان إذا انتظمت البلاد وعم الأمن وحفظت الأنهار والقنوات ، هناك يحل زرع الزارعين من الناس محل مزارع الطبيعة ، وترى النحل والزيتون والرمان والعنب والقمح بدل الشوك والحسك والحشائش الضارة . هذا هو المثل الذي ضربه الله في أرضه لهؤلاء الصالحين بقسمهم ، فإنه إذا ارتقى التعليم في بلاد الإسلام يقل هذا الفريق صادقهم وكاذبهم . فقال : لقد تم ما أردت أن أعرفه وانشرح صدرى . فقلت الحمد لله رب العالمين . كتب ليلة الجمعة ٧ نوفمبر سنة ١٩٣٠ م .

جمال العلم وبهجة الحكمة

هاهنا قال صديقي : هل تأذن لي أن أسأل سؤاليين بلدي وللسليين الإجابة عليهما ، فهذا اللقاه وإن طال فإن القول فيه جميل والحكمة بهجة والسعادة ترفرف بأجنحتها على هذه الأمة الإسلامية بإظهار هذه الحكم التي كانت خافية على العقول ولم تسكن إلا رموزاً ، والدين يسر والقرآن شفاء ، والله يقول « ثم إن علينا بيان » ويقول « وبريكم آياته » ويقول « سربهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » وإذا كان تبيان أن القرآن حق لا يكون إلا باليقين . فأذن أن أطلب منك الإجابة على السؤالين الآتين فما طلبت إلا اليقين الذي وعد الله أن ينشره في السليين ، وقد صدق الله وعده في زماننا وجاء اليقين لا سيما في هذا التفسير ، فلمل بعد هذا البيان أحظى بأن تأذن لي بإيراد هذين السؤالين . فقلت جبا وكرامة . فقال :

(١) أولاً إن ما أوردته في تفسير كلام الشيخ الدباغ من حيث إن المعجائب الكونية وأنواع الجمال تعرف الناس أن هناك جنة وأن هناك ناراً يحتاج إلى إيضاح أو في وعلم أوسع ، فلقد ذكرتم أمثال الذباب والقاذورات وأمثال الصقور والرم وأمثال البهائم والزارع من حيث اختلاف الأغذية باختلاف المنتديات . وفي اللقاه طول . والاستنتاج يعوزه العقول المتأخرة . فحسن في حاجة إلى برهان يسهل على كل قراء هذا التفسير .

(٢) ثانياً إن الكلام في المعنويات والرطوبات وما يقابلها من الشهوات يعوزها زيادة إيضاح وبيان آتم من حيث الحكمة بحيث يكون بانضمامه إلى ما تقدم كافياً وإفياً لإشباع هذه النفوس المشرببة للحكمة في بلاد الإسلام .

فقلت نعم أئين هنا عجباً آخر وهو اختلاف النبات ورقاً وزهراً وعمراً . إن في اختلاف النبات ثماراً وروائح وطموماً وجمالاً وصغراً وكبراً لعبراً تفتح لنا باب العقول على مصراعيه . ألم تر أن معلوماتنا وعلومنا وعقولنا وعواطفنا تترى في معاهد ومدارس مخلوقات في داخل أجسامنا . وتلك للدارس والمعاهد الداخلة في نفوسنا تشبه من وجه المصانع والمعامل التي وزعت على قناتنا الهضمية واختلفت باختلاف مناطقها . ففي الدم ترى ستة أنهر جمات لهضم المواد النشوية ، وهناك ترى غدة البنكرياس وغدة الصفراء وعصارات للمعدة والأمعاء وحركات القبض والبسط لأعضاء الهضم ، فهذه في هذه الأغذية المادية التي يتعاطاها الإنسان التي يمكنك أيها الذكي الرجوع إلى دراستها ككرة أخرى في (سورة فاطر) عند قوله تعالى « والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً » الخ وترى أشكالها مرسومة تسر قلبك بالنقل وروحك بالفهم وجليديك بالأنس . فهذه هي التي شهنباها المدارس والمعاهد الموزعات في مناطق عقولنا المرسومات في مخنا فهذه إذا وردت لها علوم إما بواسطة الحواس كالبصر والشم والذوق ؛ وإما بواسطة كلام محمول في الهواء داخل في الصباغ دال على نفس تلك المعاني المقولة بتلك الحواس مباشرة ، فإن تلك المعاهد التي شهنباها بمناطق القناة الهضمية تلقاها ، وكل معهد من معاهد المنع يعمل في تلك المعاني عمله ، فعمل مجمع تلك المعلومات جمعاً كأنه مخزن الرسوم وهو الحس المشترك ، ومعمل لتحليل والتكيب كالمعامل الكيميائية في المدارس وهي القوة المحيطة ، ومعمل لإصدار الأحكام وهي القوة المفكرة ، ومعمل جعل لجزء الحفظ ، وهناك آخر جعل للتذكير وهي « الذاكرة » . وهناك معمل جعل لإبراز آثارها كمن في تلك المعاهد كلها بهيئة ظاهرة ضير

خافية ، فهو بصور ما يحويه تلك المعاهد كلها ويظهر للعالم الخارجي بحيث يستبين للناس أن وراء هذا المعهد معاهد جمعت صوراً لكل ما هو ظاهر للناس في أقطار الأرض ، وهذا المعهد الأخير هو اللسان ، فهو يعبر عن تلك القوى كلها ويبرزها بهيئة حروف ، فهو يعبر عن كل ما في خزانة الخيال والحس المشترك والقوة المفكرة إلى آخره ، فهذه هي المعاهد أو المعامل التي في نفوسنا الموزعات على مناطق أدمغتنا المطابقات للعوامل الخارجية المشابهة كل المشابهة لمعامل المناطق الهضمية المشروحة سابقاً .

إذا صح هذا فنقول : إذن هنا تربية للمعلومات في نفوسنا تربية حقيقية كما ربينا الغذاء في القناة الهضمية فخرجت ثمرة الغذاء بعد الهضم على مقتضى القناة الهضمية من ضعف وقوة وإجادة وإهمال ، وأى فرق بين نتيجة الغذاء من حيث الصحة والمرض ، والقوة والضعف ، والجمال والقبح ، والذكاء والبلادة ، التي تربت جميعها على هيئة الغذاء الذي ربينا وهذبناه بآلاتنا في معاملنا الموزعات على مناطق قناتنا الهضمية وبين علوننا ومعارفنا التي ربيناها في مناطق عضا وترعرعت وشبت وبلغت أشدها وصارت فتية قوية ، كل ذلك بما لنا من معاهد قائمة في مناطق أدمغتنا ، فمنها معهد لجمعها ، ومعهد لتحليلها وتركيبها ، ومعهد لاسطفاء ما هو أجمل ، ومعهد هو خزانة لما ينبغي بقاءه ، ومعهد هو دار لذكرى ما نحن في حاجة إليه ، ومعهد لنشر ما في الخارج ، إن في الدماغ لأماكن لعلوم اللغات ومناطق للعلوم الرياضية وأخرى للطبيعية وهكذا ، ولو أن منطقة من هذه أصابها العطب ، وحل بها الوصب ، وزلت بها الكوارث ، وانسابها الخطوب لتعطت تلك المنافع المترتبة عليها ورسب في الامتحان تلاميذ معاهدها ، فلا ترى ذلك الإنسان يحسن أن يعد الآحاد فضلاً عن العشرات ، فضلاً عن الطرح والقسمة والضرب إذا اضطلت مناطق علوم الرياضة من الدماغ كانتكون الأمة الأمية لا علم لها بالحساب إذ لم يكن فيها علماء به ، وعلى هذا نقس ، فالنتيجة أن المعارف تربي في نفوسنا تربية منتظمة ونتائجها تكون على مقتضى مناطق تربيتها لها في عقولنا كما كانت نتائج الأغذية تابعة لمناطق القناة الهضمية سواء بسواء .

هذا ، ولا جرم أن هذا عين ما يكون في النبات . فزهرة وورقه وأثماره تابعات تلك العامل السكامة في باطنه ، فلنبات معامل في داخله تربي فيها جراثيم الأزهار والأنوار والأوراق والخمار وتكون الخمار الناتجة تابعات لمزاج ذلك النبات في الداخل ، فيكون حلوا ومررا وعفصا وحريفيا ومسهلا وقابضا ومغذيا ومنعشا ورديا وحسا وذرا راحة جميلة ورائحة غير جميلة وساموا وشافيا ومسكنا ومخدرا وهكذا من الصفات والأحوال المختلفة ، إذن عندنا (ثلاثة أنواع) من المناطق (النوع الأول) القناة الهضمية في كل حيوان (النوع الثاني) المناطق التي في النبات ، ولا جرم أن هذين النوعين من واد واحد ، لأن النبات والحيوان في هذا المعنى متشابهان ، لأن في كل منهما مناطق هضم واختلفت ظواهرها وأعدت وجهتها (النوع الثالث) مناطق الفهم في الدماغ التي فيها تربي العلوم ، وهذه تحذو حذو القسمين الأولين في أن النتائج لا تعدو المقدمات ، وهاهنا أن أن نظهر نتيجة هذا كله فنقول :

المعارف والآراء والمواظف التي رزتها الإنسان في هذه الحياة تكون نتائجها تابعات لما أدته مصانع عقله ومعامل ذهنه كما تعمل قنانه الهضمية وكما يكون ثمر النبات . أليس هذا هو البرهان اليقيني على الجثة والنار وما هي الجنة ؟ ، وما هي النار ؟ ألم تقدم أنهما يرجعان لكل محبوب ولكل مكروه مهما كانت هيئته ، ألم تر أن ثمرات النبات تختلف سموما وأغذية . قال صاحبي بلى ، وحلاوة وحموضة . قال بلى وربى . قلت : وأحدهما محبوب والثاني مكروه . قال بلى . قلت فأحدهما يمثل الجنة والثاني يمثل النار . ومعنى هذا أن جهاد النبات في معامله الداخلة أنتج ما هو محبوب لما هو مكروه على حسب اللصانع التي تربت فيها الثمرات ،

هكذا جهاد الإنسان في معاملة الداخلة أتبع ما هو محبوب له ومكروه على حسب تلك للصانع إن خيرا غير وإن شرا فشر ، وإذا كانت علومنا ومعارفنا ما هي إلا نتائج معادنا الداخلة مادنا في هذا الجسم ، وإذا نبذناه والقيناه شاهدنا النتائج عاقلة بأرواحنا ظاهرة في نفوسنا ، نراها رأى العين ؛ فهذا نظير ما إذا درسنا القمح وذريته وغربله فألقيناه حبا لابن معه ولا طين ، ويكون الحب نتيجة لذلك الزرع شرفا وضمة كما أن عواطفنا وعلومنا نتائج مصانعتنا شرفا وضمة وصحة ومرضا .

وإذا كان لكل نبات ثمرات لها مصالح تتبعها ، فمن الجهل والغبوة أن نقول إن هذا الإنسان وعقله وعواطفه التي رباها في نفسه لا نتيجة لها ، ليس من الغفلة أن نعرف أن الإنسان والحيوان والنبات كلها أجسام نامية؛ ثم إننا نعلم علم اليقين أن ثمرات النبات نتائج تختلف باختلاف مزاجه وتنكر ذلك في نوع آخر من أنواع النباتات وهو الإنسان ، وإذا كان حب النبات يبقى متميزا بعد تمام تربته وهلاك زرعه فكيف لا يبقى نظيره في الإنسان بعد فناء جسمه ، فإذا رأينا حبا اختلف غذاء ودواء وسما بعد تحليل مارتب فيه وهلاكه هكذا نحكم بأن هناك علوما ومعارف وعواطف وأخلاقا تبقى بعد فناء الجسم وتفرق عناصره وتبدده في العراء .

أفلا بكفيك هذا أيها التكي في شرح ما قاله الشيخ الداغ بقدر الإمكان ، في أن المعائب في هذه الدنيا تعرفنا الجنة والنار ، فقال والله لا أفدر أن أقول كمنتي في هذا غيب ، ولكني أقول إنها كفتى وحدها في قرله تعالى « ثم إن علينا بيانه » وفي قوله « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » ولو لم يكن بيان سوى ما قلتموه الآن لسكني . ولقد تجلت لفسى الآن معان في هذا المقام ، ذلك أن هذا الذي ذكرتموه هو عينه تفسير الآية « إليه برد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه » فهذه الآية أثناء شرحك للسهب الجزل كانت ترد على خاطري وأراه شرفا لها . فقلت : هذا إلهام ألقاه الله على قلبك وأنا أفرك عليه لأن ذكر خروج الثمرات من الأكمام بعد ذكر علم الساعة أشبه بذكر الدليل بعد للدلول أو الحجة بعد الدعوى . فقال : إذن أرجو الإجابة على السؤال الثاني . فقلت اعلم أن الحكمة عامة في المقام المتقدم والذي سنذكره ، فكما أن نتائج الزروع وجوبها بمخالفات اختلاف أصولها بحيث لا يستوى الشجر الرمذاقته والشجر الحلوط ثمرة كالحنظل والنخل ، ولم تر من العقلاء من نغر من هذا النظام ، بل جميع نوع الإنسان مقر بفضله معترف بكاله فرح يبهجته ، لا فرق بين جاهلهم وعالمهم ، وناهم وخاملهم ، فكل مؤلا ، وهؤلاء يرون أن نتائج الزروع والأشجار كمال من حيث المسافضات فيها المغذى والسهل والمقدر والمنعش والسام المهلك الخ .

فإذا صح ذلك فيما نراه ، فهكذا يسوع فيما لا نراه من نتائج العقول الإنسانية ، فإذا تجردت أرواحنا وآتت نفوسا اختتمت أو صافها اختلاف ثمر الزرع ، فكان منها من هو أحق بأن يكون مع الملائ الأعلی ومن هو أخرى بأن يكون مع الشياطين في جهنم تبعالحواص نفوسهم وأمزجة عواطفهم ، فإنها تأنس بذلك الاختلاف ولا تفرق بينه وبين اختلاف الحنظل والتمر من حيث إنه نظام حسن .

أقول : فإذا صح هذا في نتائج الزروع والعقول به مطمئنة في ثمرات النبات في الدنيا وفي ثمرات النفوس في الآخرة ، هكذا فلنقل في شروات النفوس وأخلاقها الغضبية : إن هذه القوى السكمنة في نفوسنا اللاصقة بها المهيجة للأعمال الحيوانية والبهيمية والسبعية إذا تجردت الروح من الجسم بعد اللوت وجب هناك أن لا تكون معطلة ، وإذا كنا نشاهد النفونات والجرائم التي تجمل وجه بعض الأرض ، وكذلك الرمم اللثاة فيها لم تعط بل كان لها من المخلوقات الحية مقام بأكلها فنغذي بها رحمة :

(١) بالأحياء من الحيوانات لتلا يهلكها الهواء الفاسد .

(٢) ورحمة بالحشرات لأنها تتغذى به .

(٣) وإظهارا للحكمة القائلة : (إنه لامعطل في الوجود) .

فهذه الدعوات وهذه الرمم بعد أن كانت مصدر الوباء أو معطلة لافائدة منها أصبحت رحمة للحشرات التي تأكلها ، فهكذا نحكم على خصال الشر الشهوية الباقية في نفوس الناس بعد الموت ومثلها خصال الشر الغضبية كالغضب والسرققة ونحوهما ، فهذه تعيش بها تلك النفوس التي أشربت جها ، فهي على وزن نظائرها من قاذورات الأرض تعيش بها أرواح ألفتها بعد الموت كما عاشت بنظائرها في الأرض أشباح لازمتها فيحصل هنا :

(١) أنه لامعطل في الوجود .

(٢) وأن الشر يشتق منه الخير .

وما الخير هنا إلا بقاء تلك النفوس بسبب بقاء تلك الشهوات ممثلة في أفكارها ، ولو أزيلت تلك الأفكار الناقصة من تلك الأرواح لم يكن وجود ، ولا وجود لروح إلا بما يقوتها من الآراء والعواطف كما لا تعيش الأجسام إلا بما يقوتها من أغذيتها ، وهذه ليس لديها من الآراء الشريفة ما به تعيش ، وليس لديها إلا تلك الآراء الرديئة التي اعتادتها في الحياة الدنيا . فهذه الآراء تعيش تلك النفوس ولا مقر لها إلا في جهنم فهم معذبون بتلك الحال ، فهنا رحمة عامة «ورحمي وسعت كل شيء» وهانذا أيضا عذاب ، فالعذاب هنا راقته الحكمة والرحمة ، فحياتها في نفسها رحمة .

(١) بدليل أننا إذا قلنا لتلك النفوس في جهنم أرضين بالموت فإنها تقول لا .

(٢) وهي حكمة لأنها أنتجت من شرور النفوس حياة لها كما يعيش الدود في القاذورات والقران في المراحض .

(٣) وذلك من عجائب النظام اللئيد أنه لامعطل في الوجود .

فكما أن الله لم يعطل القاذورات في الأرض ولا الرمم بل اشتق من شرها خيرا ، هكذا لم يعطل الشهوات المغروسات في النفوس بل جعلها غذاء لها بعد الموت لأنها لا تعيش بغيرها كما لا يعيش الدباب بغير القاذورات .

هذه هي الحكمة البديعة ، والآية الطريفة ، والحكمة العالية . اللهم إنا نحمدك حمدا جزيلا ونشكرك شكرا كثيرا . لقد أربتنا ونحن في هذه الدنيا محبوسون ممنوعون من الاطلاع على الحقائق . إن في مزارعنا وحيواننا من العلم ما به نعرف أن هناك نارا وأن هناك جنة ، وأن تلك النيران وتلك الجنان لوازم لما زاولته تلك الأرواح في هذه الحياة من الأعمال مع حكم أخرى شرحناها ، وعجائب كبرى بينهاها . فالحمد لك في الأولى والآخرة ، ولك الشكر والفضل العظيم . كتب بعد صلاة يوم الجمعة ١٤ نوفمبر سنة ١٩٣٠ م . وبلى هاتم الكلام على اللطيفة الخامسة من اللطائف العامة ، والحمد لله رب العالمين .

فذلك: في قوله تعالى «وأمرهم شورى بينهم»

آثار القرآن لا سيما سورة الشورى في أمم الأرض

أولا انظر أيها الذي ما تقدم في (سورة البقرة) عند الكلام على قوله تعالى «لا يكلف الله نفسا إلا وسعها» لترى النظام العام في العلوم الواجبة على أمة الإسلام، وفي (سورة النساء) عند آية «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل» فهذه الآية ونحوها من آيات الشهادة «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء، فلو على أنفسكم» الخ وهكذا فيها ذكر الخلافة الإسلامية والعدل، وكيف كان قائما، وكيف عدل قوم وظلم آخرون، وهكذا في (سورة المائدة) ذكر العلوم الواجبة أيضا، وفي (سورة التوبة) بيان أن قوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل» الخ. كان إيقاظا للمسلمين أن يكونوا سببا في إظهار أحكام الإسلام للأمم ليقوم العدل في بلادهم، وهناك ترى شهادة سيدة أوروبية أسلمت تقول: [إن فولتير وروسو اللذين كانا سبب الثورة الفرنسية لم يتعلما ما كتباه إلا من آراء ابن رشد وعلماء الإسلام وهناك تقرأ مظالم رجال الدين المسيحي في أوروبا واضحة مهينة للشعوب، وفي (سورة النحل) تقرأ نظام الدولة في آية «إن الله يأمر بالعدل والإحسان» وفي (سورة الإسراء) تقرأ في أوائلها كيف حاد بعض ملوك الدولة الإسلامية في الأندلس ونحوها عن جادة الصراط السوي فذلوا، وفي (سورة الكهف) تقرأ عند آية «وما كنت متخذ الضالين عضدا» كيف ظهرت في الإسلام طوائف حرمت انتشار التعليم، وكيف ظهر قوم من الفرس ألمهم ظهور مجد العرب بالإسلام، فكادوا للمسلمين كيدا عظيما، وكيف حرم حسن ابن الصباح على أتباعه حرية الفكر والتعليم، وكيف كان كثير من رجال الصوفية يغمون فعمل ابن الصباح، وأوروبا اليوم تهج مع المسلمين هذا النهج عينه، وتقرأ في (سورة النمل) بمناسبة آية «إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها» الخ مع آية «فلك يبيئونهم خاوية بما ظلموا» فذلك عن ظلم الأمم التأخرة الإسلامية، وكيف كانت ذلك سببا هلاكهم، وتقرأ في (سورة القصص) عند آية «وتريد أن تمن على الذين استضعفوا في الأرض» كيف هلك الظالمون ونصر الضعفاء، وفي (سورة سبأ) عند آية المداورة بين الضعفاء والذين استكبروا قصة (محمد بن تومرت المهدي) وكيف أقام ملكا ولكن لم يدم أكثر من مائة سنة، وبيان منافع الدين ادعوا للهدوية وضررهم، وهناك تبيان القول الفصل في هذا اللقار وإظهار الحقائق للأمم الإسلام بعدنا حتى لا يقعوا فيها وقع أسلافهم، وهكذا في (سورة المؤمن) نماذج علمية وعملية تتخلل السورة، وقبلها في (سورة الزمر) عند آية «قل هل يستوى الذين يعملون والذين لا يعملون» الخ نماذج الترية التي أثبتتها الأستاذ (سكانت) الألماني في كتابه، وبيان أن الأمراء والملوك وحدهم لا يرقون الشعوب، بل يجب على المسكرين أن يجحدوا في ذلك كما حصل في ألمانيا.

فإذا اطلمت على ذلك أو أكثر، فانظر الآن في أمم الأرض نظرة إجمالية فإنك لا تجد الشورى ظهرت في أمم الأرض إلا بعد ظهور الإسلام، فانظر أولا في أمم الأمم الإنجليزية، فهؤلاء كانوا أول من فكر في التخلص من ظلم ملوكهم، وتبعهم فرنسا ثم بقية الأمم، وامتدت الحركة إلى أهل آسيا وأمريكا، وزلزلت الأرض زلزلا، ومادت عروش، وهلكت جيوش وقامت جمهوريات، ووجدت

الحرب العظمى من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩١٨ م وظهر هذا التفسير ليوثق الله المسلمين من سباتهم به وبأمثاله .

فانظر ماذا جرى أولا في انكلترا ، تلك الأمة التي لم تكن في أول أمرها إلا أقواما من الجنس (الساكني) من سكان مقاطعة (برطنية) شمالي غربي فرنسا ، جاءوا إلى الجزيرة المواجهة لهم وسموها (بريطانيا) باسم بلادهم الأصلية ، ومنها انتقلوا إلى (إيرلنده) وبقى هؤلاء القوم أصحاب الشأن في تلك البلاد إلى أن دخلوا في (الأمبراطورية الرومانية) بعد حروب طويلة بها خضعوا خضوعا تاما حتى اضمحلت (الدولة الرومانية) وتركت البلاد لأهلها ، هنالك أغارت عليهم قبائل الأنجليز والسكسون والجلوت ، وهم كانوا في شمالي ألمانيا ، وكان ذلك في أثناء القرنين الخامس والسادس المسيحي أي قبيل ظهور الدين الإسلامي بقليل ، فتغلب الفاعحون على أهل البلاد وسموها (أنجلند) أي أرض الإنجليز ، فصارت هنالك ممالك متنافرة .

وفي سنة ١٠٦٦ م أغار على بلادهم (دوق نور منديه) وهزمهم في موقعة هاستنجس ، وتوج ملكا على انكلترا ، وهنالك امتزج النور منديون بالسكان الأصليين فكان هذا الشعب الأنجليزي الحديث الذي يعتبر من ابتداء الفتح (النور مندي) وظهر إذ ذاك لملوك انكلترا شأن في فرنسا بطريق الصاهرة ، ثم كانت حرب المائة سنة التي تمت سنة ١٤٥٣ وبه خرجت انكلترا من فرنسا ، وفي مدة النور منديين للذكورين ظهر الدستور الأنجليزي الذي سقنا الكلام هنا لأجله ، ولم يكن ذلك إلا بآثار الإسلام كما تقدم ووليم الفائح المتقدم ذكره وإن دخل البلاد فأعاقه خضد من شوكته بعض قوانين للنظام الإقطاعي الذي كان عاما في أوروبا إذ ذاك . ولما حكم (هنري الثاني) في القرن الثالث عشر المسيحي نشأ النظام المعروف بنظام المهنيين وهو أشبه بمبدأ لرق الشورى في البلاد . ولما تولى جون ابنه قاوم الأشراف ورجال الكنيسة للملك المذكور وحاربوه فاحترق حقوقهم ، وهكذا أخذ البرلمان يقوى ويشدد وقتنا بعد وقت ، وأخذ يراقب المالية ويحاسب الملوك . .

وفي عهد أسرة (لنكستر) زاد نفوذ البرلمان إلى أن ضعف الملك وقامت حرب سميت (حرب الوردتين) في (١٤٥٥ - ١٤٨٥) إشارة إلى الوردة الحمراء التي كانت شارة بيت (لنكستر) ، والوردة البيضاء التي كانت شارة بيت (بورك) فمات أكثر الأشراف وانتصرت أسرة لنكستر ، وتوج هنري تيودور (دوق تشمند) ملكا على انكلترا باسم (هنري السابع) وبقيت هذه الأسرة من سنة ١٤٨٥ إلى سنة ١٦٠٣ وفي أثناء هذه المدة ظهرت حركة إحياء العلوم وذلك في زمن (هنري الثامن) في القرن السادس عشر الذي أخذ يقطع الملائق الدينية مع رومة ، وفي هذا القرن ظهر الإصلاح الديني ، هناك أخذ (الدوق سمرست) الذي لقب نفسه (حامي المذكرة) إذ كان رئيسا لمجلس الوصاية على (إدورد السادس) يهدم التماثيل والصور من الكنائس ، وألقى الصلاة اللاتينية ، وأخذوا يصلون بالإنجليزية ، وصودرت الأديرة وأملاكها ، وكل ذلك أتباع لمذهب (لوتر) وهو المذهب البروتستنتي ، ذلك المذهب الإصلاحى الذي امتد إلى أوروبا من آثار دين الإسلام كما تقدم .

وارتقى البرلمان والشورى في أيام اليسانبات ، تلك الملكة التي كسر جيشها جيش الأسبان وقهرهم ، وفي أيامها أيضا ظهر (شكسبير وبقسون) و (فرنسيس بيكون) .

وقامت بعدها أسرة (استيورت) ومنها شارل الأول سنة ١٦٢٥ إلى سنة ١٦٤٩ ونار البرلمان عليه ظهر منهم إلى الشمال ، وأخذ يحاربهم مجنود وهم قابله بالمثل ، ثم أخضعوه وحسوه ، واتهم البرلمان الملك

بالحيانة وحاكمه ، وأعدموه سنة ١٦٤٩ ، وكان اللطاع في البرلمان أقوى رجل فيهم وهو (أولفر كرمول) وأصبحت إنكلترا جمهورية ، وهذه هي الحادثة الأولى في العالم الجديد التي بها عرف الناس أن اللوك لاحق لهم في اضطهاد الشعوب ، وأن الشورى هي الحق والعدل . وهذا صدى صوت هذا الدين الحنيف « وأمرم شورى بينهم » .

اللهم إنك أنت تخفض وترفع . أنت رفعت العرب الأولين بالشورى ، ولما قصروا فيها بشتها إلى أوروبا فانتهمت الحال بقتل (شارل الأول) ملكهم أي ملك الإنجليز . كل ذلك سر (سورة الشورى) . وبقيت البلاد جمهورية من سنة ١٦٤٩ إلى سنة ١٦٦٠ ثم عينوا شارل الثاني سنة ١٦٦٠ إلى سنة ١٦٨٥ فرجعت ملوكية ولكنهم قيدوها إلى الآن .

وجيمس الثاني من سنة ١٦٨٥ إلى سنة ١٦٨٨ ولكن البرلمان كان يكره هذا الملك فضله وولى (ماريه) وزوجها (وليم) وفرجيمس إلى فرنسا وهاهنا لم يسفك دم وساد البرلمان في إنكلترا إلى الآن ، وبعد ذلك أصدر البرلمان (قانون الحقوق) وهذا القانون بنيت عليه الحرية الإنجليزية وذلك سنة ١٦٨٩ وأعلنوا فيه أن حق الملك في العرش مستمد من إرادة الشعب الممثل في البرلمان ، وأن البرلمان له حق نقل التاج حسب المصلحة ، وبهذا قضوا قضاء مبرما على فكرة « الحق المقدس للملك » وبهذا منع الملك من التدخل في السلطة القضائية ، ومن جمع الجيوش وقت السلم ، ومن جمع الضرائب بدون إذن البرلمان ، هذا كله سر هذه السورة (الشورى) .

فرنسا بعد إنكلترا

قلنا إن سبب الثورة الفرنسية إنما هو ما كتبه فلتير وروسو ، وقلنا إن هذا كما قلنا في سورة التوبة إنما كان بسبب ما قرءوه في كتب السليدين لاسيا كتب ابن رشد . وأنضح الفكرة عند الفرنسيين ما سبقهم به الإنجليز من قتل ملكهم (شارل الأول) وطرد ملك آخر وهو جيمس ، كل ذلك على مرأى وسماع من فرنسا جارتهم ، فكانت الثورة الفرنسية أشد وأنكى ، فهي على قاعدة : إن كل مجتمع سياسي له حق الدفاع عن نفسه ، فهو يقاوم كل مجتمع يريد به سوء . وهذا الحق إنما يستمد من نفسه لا من حاكمه « وأمرم شورى بينهم » .

ولقد بدأت حركة الدين فالسياسة في الشعب الفرنسي في النهضة الأوروبية الحديثة التي بها نالوا الحرية الدينية وتبعها الحرية السياسية ، وأشهر الكتاب (فلتير) للمقدم ذكره و (روسو) . أما فلتير فكان من سنة ١٦٩٤ إلى سنة ١٧٧٨ فتهكم بأسلوبه العجيب بنظام عصره السياسي والديني مناديا بإعادة القديم الذي لا يصلح ، وحارب الكنيسة وامتياز الأشراف وسوء تصرف اللوك وفساد القوانين الجنائية ، فجاء (جان جاك روسو) من سنة ١٧١٢ إلى سنة ١٧٧٨ وهو متشبع بروح فلتير ، فألف لهم كتاب [العقد الاجتماعي] الذي أبان فيه طريق الانتخاب وأن تتيب الأمة عنها رجلا منها يتولون شؤونها ، وهذا معناه « وأمرم شورى بينهم » . وأساس نظريته أن الشعب هو صاحب السلطة الحقيقية ، وأن الحكومة منه تستمد قوتها وسلطانها والتشريع يجب أن يكون بيد الشعب ، وآراء (روسو) صارت كأنها إنجيل وكتاب مقدس تسير على مقتضاه زعماء الثورة الفرنسية . وهكذا كتب (روسو) في الترية والموسيقى . وهو يجيل للرجوع للحال الطبيعية .

وجاء بعده الفيلسوف (مونتسكيو) فكتب موضعا الدستور الإنجليزي ومزاياه ففتح أذهان الشعب

الفرنسي وعرف مزايا الحرية التي يتمتع بها الإنجليز ، ثم فصل السلطات الثلاث بعضها من بعض وهي التشريعية والتنفيذية والقضائية . فالأولى بيد البرلمان . والثانية بيد الوزراء . والثالثة بيد القضاة . وهؤلاء مستقلون عن السلطين السابقين . فمرفوا بذلك فساد حكومتهم إذ كانت هذه السلطات الثلاث في يد فرد واحد وهو الملك . وظهرت حركة إصلاح أخرى في الاقتصاد . فقام أمثال (كساي) و (ترجوت) وأمثالها يتقدمون طريقة توزيع الضرائب في فرنسا وإرهاق الشعب بها فكسدت التجارة وبارت الصناعة وماتت روح الاختراع ووقعت المجاعات المحلية . وقد كانت فرنسا ثلاث طبقات : الأشراف . ورجال الدين . والشعب . وكانت الحكومة تحس الطبقتين الأوليين بامتيازات لا نصيب للشعب فيها . فكانوا يعفونهم من ضريبة الحراج ومن الكوس ، وكان كل شريف من الأشراف له حق أخذ جزء من محصول الفلاح وإلزامه بطحن غلته في طاحونة وعصر نبيذه في معصرته بأجر عظيم . وله حق الصيد في حقول الفلاحين وإن لحق الضرر بزراعته ، ووظائف الحكومة خاصة بالأشراف فهم السفراء والقواد والضباط في الجيش ، والكنيسة خمس أرض الدولة ولا تدفع عنها ضرائب ؛ ويجمعون الأعشار من الشعب ، وأكثر ما يجمعونه يدخل جيوب الأُساقفة ورؤساء الأديرة . أما الشعب وهو الطبقة الثالثة فكان (٢٥) مليوناً ، والطبقتان المتأخرتان كانتا (١٧٥) ألفاً .

إن الملك يتصرف كما يشاء وهوى لا قيد له ، فيحبس من يشاء ويطلق سراح من يشاء ويقتل ويحطى ويمنع ، وكان معه برلمان صوري .

ولقد كانت فرنسا عند موت لويس الخامس عشر في سنة ١٧٧٤ على شفا جرف هار من الإفلاس بسبب ما خسرت من المال وللمتعمرات في الحروب التي أدخلهم فيها لويس المذكور ، فلما تقلد الحكم لويس السادس عشر أراد تخليص فرنسا من الضيق المالي ولكن حاشيته لم تساعد على ذلك مخالفين رأي العالم الاقتصادي (ترجوت) الذي أشار بتقليل تلك الحاشية الملكية التي تأخذ كثيراً من مال الدولة . ولما نشر (نكار) العالم الاقتصادي الذي حل محل (ترجوت) تقريراً عن حال المالية المترسكة بسبب القروض التي اقترضتها الحكومة لمساعدة الولايات المتحدة للتحكم بالنحاس من حكم انكارترا ، وبسبب ما يصرفه الملك على نفسه وعلى حاشيته عزل الملك (نكار) وولى (كالون) مكانه فقال للملك : يجب أن يرغم الأشراف ورجال الدين على دفع الضرائب وأن تلغى الجمارك الداخلية ، فلم يقبل ذلك منه رجال الدولة ، فعزله الملك وتولى هو تقرير الضرائب بنفسه ، فلم يوافق البرلمان على تلك الضرائب ، وأكرهوا الملك على عقد الجمعية العمومية سنة ١٧٨٩ فرفض النواب من الطبقتين المتأخرتين أن يجتمعوا معهم ، وقد كان لكل طبقة (٢٠٠) نائب فصاروا جميعاً (٦٠٠) نائباً وأربعائة من الأشراف ، ورجال الدين هم الذين استكبروا أن يجتمعوا مع هؤلاء العامة ، اللهم إلا بعض أفراد تسللوا لوإذا وحضروا مع نواب الشعب في مكان آخر غير قاعة الاجتماع وهو ملعب (التنس) وهناك أعلنوا أنهم هم (الجمعية الوطنية) .

ولما اجتمع جميع النواب لسماع خطبة العرش ، وانصرف بعض الأشراف ورجال الدين شديداً من الملك في طلب انصراف نواب الشعب فقال له (ميرابو) وهو أقوى النواب : « نحن هنا بأمر الأمة ، وإن انفارق مكاننا إلا بأطراف الأسنة » . وهناك أمر الملك أن تكون الجمعية الوطنية مشكلة من الجميع بحيث يجتمعون معاً ، ولكن العامة أوجسوا شراً من الملك بإشاعات تخيلوها ، فاتفقوا على (حصن الباستيل) وهدموا وأطلقوا للسجونيين فيه ، وكان ذلك في (١٤) يولييه . وقد أصبح ذلك عيداً تاريخياً ، وهذا اليوم هو أحسن أعياد فرنسا . وازداد الجوع في فرنسا فدخل الشعب لاسيما النساء في شهر أكتوبر على قصر (فرساس)

يطلبون الحزب من الملك ، ولولا الحرس لدخلوا على الملك والملكة . فانتقل الملك إلى باريس وهكذا الجمعية الوطنية أيضا . وأصلحت الجمعية الوطنية القوانين . ونظمت كل شيء . وأزالت كل ظلم . ولكن العامة بعد ذلك تطرفوا وتغالوا وقعدوا رشدهم . فهرب الملك . فكشفوا أمره عند بلدة (فارن) في يونيه سنة ١٧٩١ قاده العامة إلى باريس ووافق على النظام الجديد الذي أسسته الجمعية الوطنية وأعلنت انحلالها : ولكن في أثناء ذلك هاجر الأشراف خارج فرنسا وانفقوا مع النمسا وبروسيا على محاربة الثورة الفرنسية وإرجاع حقوق الملك إليه . ودعا الأباطور (ليوبولد الثاني) وهو أخو الملكة ملوك أوروبا لإخماد هذه الثورة . وهذا الأباطور وملك بروسيا أصدرامذشورا للدولك فخواه [إنهما مستعدان أن يكسرا ثورة فرنسا مع من ينضم إليهما] .

وقهرت الأمة الملك على أن يعلن الحرب على النمسا ولكن جيوش فرنسا تفهقهرت أمام المغيرين فاتهموا الملك بالخيانة ، وكما قربت بروسيا من فرنسا ازداد غضب الفرنسيين على الملك ، هنالك أعلن القائد البروسي [أن كل من مس شعرة من رأس الملك يقتل] فزاد ظنهم سوء به ، فهجموا عليه ، فهرب إلى الجمعية الوطنية سنة ١٧٩٢ . والحرس قاوموا ولكن الملك أمرهم أن يسلموا ، وهنالك كثرت الذبايح ، ذلك أنهم قد اتهموا كثيرا بالخيانة كما اتهموا الملك وقتلوا نحو (١٥٠٠) نفس ؛ وفي هذه الفترة أصلحوا الجيش قاوم البروسيين وأعلنوا الجمهورية في ٢٠ سبتمبر سنة ١٧٩٢ وألغوا الملكية ؛ وأخطر العامة المؤتمر أن يحاكم الملك بتهمة الخيانة فأكوه وأثبتوها وحكوا عليه بالقتل ، ونفذ الحكم في (٢١) يناير سنة ١٧٩٣ م وهذه الجمهوريتهم تطل إذ تولى المرش نابليون سنة ١٨٠٤ وجعل نفسه إمبراطورا .

خطاب المؤلف لله عز وجل

اللهم إنك أنت الحكيم العليم العدل ، آتسنا عدلك ونظامك في نجومك وشموسك وأقمارك ، نظام بدیع ، لا يغس شعيرة ، حركات منتظمات ، وعجائب واضحات ، أخذت أضواء الشمس السبعة وهي الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق والبنفسجي والبرتقالي والنبلي ، أخذت فكان اللون الأبيض ، وبأعنادها سعدنا في الحياة ، وشاهدنا سبلنا ، وتمذى نباتنا بمواد الكربون الطائر في الهواء (انظره مشروحا مرسوما في سورة يس) وهذه الألوان هي التي ظهرت بها أفانين الألوان في الأزهار والأشجار وبدائع الجمال في عوالمنا الأرضية ، انتظمت النجوم في سيرها وأخذت في أنها لاخلل في حسابها ، فإذا كان ؟ ظهرت بها سعادتنا على الأرض ، أما في البر فمعلوم ، وأما في البحر فإن ربان السفينة العظيمة لن يفتأ ليلا ونهارا وهو فوق متن الماء ، ينظر الكواكب السيارة وبحسب حسابا دقيقا لا يعرفه سواه ، ولو أنه نواني لحظة لضل الطريق ولم يعرف أين هو ، فوق سطح البحر نجوم منظمة وأحوال كاملة ، هذا عملك ؛ وأنت على صراط مستقيم ، لقد خلقتنا في وسط هذا النظام الجميل العجيب ، وأعطينا عقولا وقلت لنا «وأمرهم شورى بينهم» فيارياه هاهو ذا نوع الإنسان آخذ في التقليد لنظامك ، نظامك العجيب البديع ، نظامك الذي لاخلل فيه ، هذه هي النجوم رأيناها في أمّا كهنا دأثرات منتظمات ، لانصادم ، لانهافت ، لاخلل .

أما نظام أمنا وجماعاتنا فهو جاهل غير مبني على التجارب المتعاقبة لأننا لاغريزة لنا نتيها كغريزة النحل وغريزة النمل وغريزة الأرضة ، غرائر صافيات كاملات بهاعاشت تلك الجمهوريات بناية النظام . أما جماعاتنا وجمهورياتنا فإنك جعلتها مبنية على تجاربنا نحن ؛ فهاهو ذا القرآن يأمرنا بالشورى فقام بها أسلافنا ثم تركها آباؤنا وأجدادنا فتولاهوا قوم آخرون وكان رائدتم التجارب ، إنك أردت بذلك أن تكون سعادتنا ورقينا

مبينين على جدنا واجتهادنا ، وأنت تمين المجتهدين في أي أمر كان ديني أو دنيوي ، وهاهي ذه فرنسا وانكلترا لها مجالس شورية (البرلمانات) وهكذا أمريكا وبقية أوروبا ، وقد لحق بهؤلاء أهل الصين والفرس والترك .

اللهم إن عبادك لا يزالون ضعافا فإن فرنسا التي أعلنت الحرية في بلادها وهدمت حصن الباستيل وقتلت لويس السادس عشر وانكلترا التي قتلت (شارل الأول) لأجل ظلمها هاها معا قد انقضا على بلاد الإسلام وزي فرنسا تريد تغيير دين البربر في مراكش وتذل المسلمين في شمال أفريقيا ، وانكلترا تعبت بحقوق مصر وبعض بلاد العرب .

اللهم إن الإنسان لظالم كفار ، قتل الإنسان ما كفره إنه كان ظلوما جهولا ، إن الأمم حلت محل ملوكها المقتولين في ظلمهم ، فهم يعملون مع الأمم في الظلم مافعله معهم ملوكهم ، وقد جهلوا أن هذه الأمم المظلومة ستفعل معهم لظلمهم مافعلوه هم مع ملوكهم عاجلا وآجلا .

اللهم إنك أنت حكيم . إن النوع الإنساني قد جبل على أنه لا يعرف قيمة شيء إلا إذا تعبت في تحصيله فهذه الأمم الشرقية سلطت أنت عليها دول الغرب لإذلالها ليكون ذلك باعثا لهم أن يتخلصوا بقوتهم ثم ويخرجوا من قبضة الظالمين كما تخلصت تلك الأمم من ظلم ملوكهم الذين جعل الله ظلمهم وسيلة لجهاد شعوبهم وارتقاها ونيل حريتها .

خطاب المؤلف لأمم الإسلام وأمرأهم

يا أمة الاسلام : اسمعوا . ها هو ذا كتاب الله يتادى بالشورى . وها هم أسلافكم كانوا قدوة الأمم . وها هو ذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : [من رأى منكم في أعوجاجا فليقومني] وها هو أحد آبائكم يقول له : [والله لو رأينا فيك أعوجاجا لقومناك بعد سيوفنا] .

فهل فعلت انجلترا وفرنسا مع (شارل الأول) ومع (لويس السادس عشر) غير ذلك . عمر بن الخطاب الذي كان يلبس ثوبا مرقعا بضع عشرة رقعة بعضها من ليف . عمر بن الخطاب الذي منع ابنته من أن تضحك إزارها بالروائح العطرية من بيت المال . هذا هو الذي فهم الدين وعرفه . وفهم معنى الشورى فدانت له للشارق والغرب هو والحلفاء الراشدون . وأنتم يا أسدقائي قراء هذا التفسير لا تتوانوا في إرشاد هذه الأمة فوائدها في الاعتقاد في نفسى بأن أي خاطر يخطر لي فلا أكتبه للمسلمين يمر على جسمي وعلى عقلي أذى كبيرا في الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر .

ياكم أن تتوانوا في بث فكرة الإصلاح العام الذي في هذا التفسير وفي غيره الذي يكون علي شاكلته . على كل منكم أن يكون أمة بنفسه لا يشكل على غيره . إن الصلي منا يقول في افتتاح الصلاة « وأنا أول المسلمين » . فلنكن أول مسلمي قريتك في أمثال هذا الإصلاح وإعلانه ؛ أو مصلحي أمتك . إن الإنسانية آخذة في الارتقاء والانحدار على منوال مافعله الله في السموات والأرض ، وذلك لا يتم إلا بالجهاد ، وليس الجهاد خادما بقتل الأعداء ، بل محاربة العدو جهادا أصفر . أما الجهاد الأكبر فهو ما تزونه في أمثال هذا التفسير فإن نشر هذه الآراء يصلح جميع مرافق الحياة ومنها نظام الجيوش الذي لا يتم إلا بإصلاح جميع أحوال المملكة ، وإن مداد العلماء أفضل من دم الشهداء . والدم أعظم النعم في الإسلام ، ليأخذ المسلمون عموما وأبناء العرب خصوصا مكاتهم العلمية ، وليتقودوا هذه الأمم

التخبط الآن في ديمجور الحياة ، ولتكونن وجهة للسليين اليوم أنهم يكونون أقوى من جميع الأمم ، ليقودوم إلى معنى قوله تعالى « حتى تضع الحرب أوزارها » وذلك بالسلام العام ، وهل يم السلام إلا إذا ساوينا الأمم في جميع أعمالها .

وأتم يا أمراء الإسلام اسموا من نصيحة أنا ملازم أن أعلنها . من كان من بيت الملك منكم فليفكر في أميراطور اليابان جد الأميراطور الحالي ، ذلك الذي لما عرف أن أوروبا تحاول إذلال مملكته نزل عن تلك المنظمة التي جعلته هو وأباه لا يرى الشعب لأنهم فوق الناس ، بل هم من نسل الآلهة (في خرافاتهم) فسار في الطرق وقال للناس : « ها أنا ذا الأميراطور ، أنا مثلكم وأعلن التلامي العام فعل الشعب وارتقت بلاده ، وهو وأبناؤه لا يزالون ملوكا بعظمتهم وملكهم ، والشعب هو الذي يتولى إدارة الشؤون ، ولهم كما لملك الإنجليز حقوق لا تضر الشعب والشعب راض بهذه الحقوق » .

هذا هو ما أوصيكم به ، إن جهل الشعوب كان غير ضار بالملك قديما ، أما الآن فإن الأمم بالمرصاد فهي لا تدر أمة ضيفة إلا استبدتها . وهذا هو العدل الإلهي ، فإذا كان قوم يظنون نعم الله التي خلقها لعباده . وهناك قوم يقدرتون على استخراجها . فمن عدل الله في نظامه أن يرسل الآخرين ليسيظروا على هؤلاء الجهال الذين لم يستخرجوا نعمة لمنفعة عباده بصناعة أو زراعة أو تجارة . هذا قولي وأسئفرت الله لي ولكم . كتب قبل فجر وفي ضحى يوم الاثنين ٢١ فبراير سنة ١٩٣١ م .

موازنة بين سيرة عمر وجمهورية سقراط

وتطبيق نظام الأمم العربية والتركية والفرنجية عليها

أيها السلمون : قد ظهر الحق وانقلب عمود الصالح . أيها السلمون : بهذا يفهم النوع الإنساني معنى « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » .

أيها السلمون : عمر وأمثال عمرم الذين فهموا معنى قوله تعالى « إن الله بالناس لرؤوف رحيم » ومعنى « الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم » . عمر رضى الله عنه رحيم بالعبد والحمر والدمى والسلم . قرأت في بعض كتتب الزيدية للطبوعة حديثا عن آل البيت « أنه صلى الله عليه وسلم رأى رجلا وامرأة في السبي منكس الرأس ذليلين ، فسأل عنهما ، فقيل إننا بنا ابنهما لأجل طعام السبي ، فأمر برده إليهما » .

قد تقدم في (سورة النحل) عند آية « إن الله يأمر بالعدل والإحسان الخ » آراء (سقراط) في الحكومة ، وأنه رتبها خمسة أقسام ، وأن كل نام فإنه يذبل ، ونظام الحكومات والأفراد كنظام كل ماله حياة فهو شاب فكهل فتشيخ فهرم وهكذا .

وها أنا إذا أوضعه هنا بعض الإيضاح ، وأعجب والله كل العجب من سياسة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن فرائضه الحكومة خمسة أقسام : أروستراتية ، وتيموكراسية ، واليناركية ، والديموقراطية . واليه استبددنا

ومعلوم أن الأمة كالفرد ثلاث طبقات : طبقة الفلاسفة وأولى العلم ، وطبقة الجنود ، وطبقة بقية الشعب .

وهو يقول : « إن هؤلاء الحكام هم الذين يحكمون القسطنطينيين كأنهم قوة العقل ، بينما يحكمون قوة الغضب للقبالة للجنود في الأمة ونعمهم قوة الشهوة القابلة لبقية الرعية . ثم إن كل قسم من هذه الثلاثة في الأمة

وفي الفرد يجب أن يقوم بعمله ، فالجند تطيع الحكام ، والعامه يطيعون القسامين كما تطيع قوة الضبط
 حقولنا والشهوة تطيع العقل وقوة الضبط ، ولا معنى للعقل إلا هذا . فهذا معنى الحكمة والشجاعة والشفقة
 والعدل . فاذا تولى حكم الأمة الحكماء فهذا معنى (أروستقراطية) وإذا مضى الجيل الأول قوتت همه الجليل
 الثاني عن الفلسفة والعلم واكتفوا بقوة الجند وحكموا الأمة بمجرد القوة التي لاتصحبها الحكمة المستمدة من
 الله تعالى ، فهناك تسمى الحكومة (تيموكراسية) والثانية أقل من الأولى درجة ، ولكن إذا تمادى
 الجند في الحكم رأوا أنفسهم هم والأمراء الذين لاعلم عندهم ولاحكمة مغرمين بالمال إذ يقنصون مال الطائفة
 الثالثة ، وهناك ينزل الأبناء عن منزلة آبائهم ، وتكون الحكومة إذ ذاك (اليقراطية) وهي حكومة التروء .
 فالحكمة في الأولى تنزلت إلى حماسة في الثانية ، وهذه تنزلت إلى مطامع الشهوة وجمع المال ، وهناك تزيد
 غلات فريق الحكام ويصبح الناس طبقتين اثنتين لاغير : أغنياء يملكون أكثر ما في الدولة وهم قليل جدا
 وقراء وهو جميع الشعب فلا مناص من قيام الشعب على طبقة الحكام وإذلالهم والاستحواذ على أموال الدولة
 وهذه تسمى (ديموقراطية) وهي دولة التهتك والحلاعة وعدم الحياء والصيانة فيصبح الأمر في يد العامة
 والجهلاء ولا يحترم الابن أبويه ولا المحكوم الحاكم وهكذا ، ونظير هذا في الفرد الواحد التهتك والحلاعة
 وعدم الحياء والمجاهرة بكل موبقة وعدم الاكترت بالعار والشنار ، والأمة إذا وصلت لهذه الدرجة فلا بد
 من ظهور واحد فيها يستبد بها وبذلها ويقهرها وهذه هي الحكومة الخامسة وهي الاستبدادية ، وخير
 هذه الخمس أولها وشرها آخرها ، والثلاثة التي بينهما مرتبات ترتيبا تنازليا .

هاهنا فلتنظر ، أليس ما قاله أفلاطون في الجمهورية (التي ألقاها الله على قلبه وعلى قلب سقراط أستاذه قبل
 ظهور النبوة المحمدية بمدة تزيد على تسعة قرون) أصبح نموذجنا لنا نفهم به قيمة الحكومات ونمتحنها ونبحث
 فيها بجد .

سبحانك اللهم وبمحمدك ، علمت قلة علومنا ، وعلمت انقطاع سند العلم بيننا ، فأطلمتنا على آراء سقراط
 ففهمنا أنها أشبه بمقدمة لهذا الدين الحنيف .

أقول هذا وأنا موقن به ، إن عقلاء أمم الأرض وحكائهم في عصرنا وبعده كلهم يقدسون سقراط
 وأفلاطون من حيث التفكير ، ومتى عرفوا أن هناك تلاؤما وتوافقا بين الدنية التي اختطها عمر رضى الله
 عنه وبين مآرسة هذا الفيلسوف أيقنوا بمعنى « كنتم خير أمة أخرجت للناس » .

إن الذي يأمر جنده أن لا يأخذوا أرضا ليزرعوها من فلاحى الأمة التي دخلوها ويقول أتم أيها الجند
 عليكم حفظ البلاد ولكم أرزاقكم على بيت المال وكفاكم ماتأخذون منه ، ويقول : أتم إذا ملكتم الأرض
 تنازعتم وفشتم وتذلون عباد الله وبذلون ملككم ، ولما خالف بعض رجاله هذه الأوامر بمصر أرسله عمرو
 ابن العاص إلى عمر فها به هيئة شديدة كما تقدم ، ولما أظهر التوبة عفا عنه .

أقول : إن الذي يفعل هذا في ذلك الزمان الذي كان القرس والروم فيه قد انتهوا في الحكم إلى الدرجة
 الخامسة وهي الاستبدادية وهي أدنى الدرجات ، ثم نراه يحكم الناس بالطريقة التي مدحها (سقراط) في
 الجمهورية وهي أن الجند لا يجوز لهم أن يكون لهم ملك كئلا يميلوا إلى جمع المال وكفاهم رزقهم الذي يفرض
 لهم من الخراج الذي تدفعه الرعية .

أقول : إن الذي يفعل هذا كله وهو لم يقرأ تلك الجمهورية ولا غيرها بل هو في أمة كلهم أميون وليس
 عنده من العلم إلا أعماله صلى الله عليه وسلم والقرآن الذي جاء فيه « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى
 وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وجاء فيه « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » .

أقول: أمثال هذا إنما جعله الله نموذجا للأمم الأرض قاطبة في الشرق والغرب . والإنسانية الثامنة لا بد يوما ما ماضرة إليه ، إن الله عز وجل أبقى جمهورية أفلاطون في الأمم وهي مترجمة لجميع القفات وفيها هذه المراتب ولم يظهر لاطي يد أفلاطون ، ولا طي يد أستاذه سقراط ، ولا طي يد دولة اليونان ولا الرومان حكومة تكون مثلا أعلى للأمم الأرض وإنما ظهرت في (٣٠) سنة وهي مدة الخلافة وبقيت في التواريخ ، وهذا مصداق حديث «الخلافة بعدى ثلاثون» وإذن فهم معنى «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» فهذه هي الرحمة العامة :
 أليس من العجب أن الأمم الإسلامية بعد عصر الخلافة اعترافا ما اعترى الزرع وكل حي من أنه آيل للتفريق والانحلال ، ألم تحصل هذه المراتب الحسنة التي رتبها (سقراط) في الحكومات وقال إنها أمور طبيعية لا يمكن اجتنابها ولا تلافيا ، ورأينا أبناء المظلماء بعد تلك الخلافة وبعد الصحابة (الذين كانوا مجتهدين) قد نزلوا إلى الحكومة (الديموقراطية) ونرى ذلك في أوائل حكم بني أمية وبني العباس وهي حكومة الجند لا حكومة العلماء الذين يسرون بالحلق التام . ألم نر أن بعض أواخر دولة بني أمية قد تنزلوا عن أخلاق آبائهم إلى درجة (الاوليفاركية) كما تنزل ملوك بني العباس بعد للأمون وللمتصم ونحوهما إلى تلك الدرجة وعكفوا على اللغى والشرب واللذات ، هكذا نرى الفرس الذين استعان بهم بنو العباس لكسر شوكة العرب قد تفضلوا في الدولة الإسلامية ، وأخذ الملك يرجع القهقري ، وأذلوا الرعية كما أذلوا للوك وهكذا الأتراك .
 أليس ذلك قريبا من الرتبة الرابعة وهي (الديموقراطية) وهي التي يشور فيها المحكومون على الحاكمين ولا يبق للحكومة هيئة ، ثم ظهر في الأمة مستبدون من القواد فحكموا الأمة بيد من حديد . ويمثل الديمقراطية أيضا (قيام طائفة الانكشارية) في الترك على ملوك بني عثمان ، وكما عمل الجند أعين الخلفاء العباسيين كما فعل أمثالهم من الانكشارية مع ملوك بني عثمان ، ولتعجب مما تقدم قبل هذا من أمر ملوك فرنسا أيام لويس السادس عشر ومن قبل لويس ، وكيف رأيت فيما تقدم هنا أن الأشراف ورجال الدين ما كانوا يذفون الضرائب ، وكانت الرعية أذلة للطائفتين «أليست هذه هي الحكومة الثالثة وهي (الاوليفاركية) وهي حكومة الثروة وجمع المال ، وهي أدنى من الحكومة الارستقراطية ومن الحكومة التيموقراطية أي حكومة الفلاسفة وحكومة الجند . وانظر كيف اضطرت الأمة كلها على بكرة أبيها وقامت قتلت (١٥٠٠) من عبي الملك وقتلوه على مرأى ومسمع من أوروبا كلها وللوك كلهم بالمرصاد» وقد أخذ الروس وأهل بروسيا على قتال فرنسا ، أليست هذه هي الحكومة الديمقراطية التي هي أسفل وأدنى منزلة من الثلاثة قبلها وهي الحكومة التي تتكون بيد الأمة كلها . ثم انظر بعد ذلك ، أليست ترى أن نابليون ذلك الضابط الصغير لما ضرب الثائرين بالمداغ خضعت الأمة إذ أسكها بيد من حديد ، أليست هذه هي الطبقة الخامسة وهي أدنى الحكومة باعتبار عمومها لأنها هي حكومة للمستبد وإن كان نابليون له مزايا لطفت الاستبداد .

اللهم إني أشكرك على نعمة العلم ونعمة الحكمة ، اللهم إن العلم الذي لا تنطبق عليه أحوال الأمم لا يفيد الفائدة التامة المرجوة .

اللهم إني أشكرك إذ كشفت لي حقيقة أمتنا الإسلامية . وعرفني طرق إصلاحها . وكيف غشت الجهالة على أقوام وأقوام من أسلافنا ، فابتدعوا أحاديث ، واختلفوا ، أسانيد ، وجعلوا حكم الأمم منشؤه الأنساب في حد ذاتها . كلا والله . كذب والله .

اللهم إنك شرحت صدرى للعلم وأنا أكتبه لأمتنا الإسلامية ، فأنا أشكرك حمدا كثيرا وأشكرك . أشكرك أن وقتني ، وجعلت لي أصدقاء في جميع أقطار الاسلام ، وهم هم الذين سيطلقون الباطل ويحقون الحق ، أنت لم تهرب أردت ذلك ، هم سيشرحون هذه اللبائل العلية وبينونها للناس ، هم الذين سيدرسون علومهم

الأمة وعلوم الإسلام وعلوم النبوة - التي نحن معاشر المسلمين أكثر الأمم جهلا بحقائقها - وذلك بما انتشر بيننا من اللطائف لأهل الأنساب بحيث يرث الابن أباه في حكم الأمة وإن كان جاهلا غيبيا ، ما كفا على المحر والفقاه فهلك وتهلك أمته معا ، لاسيما في زماننا .

هذا ، وقد يتخذ أمثال هذا الأمير الدول الأوروبية وسيلة لاستعباد الأمم الإسلامية ويذلونها باسمه ، ويعلم للولك والأمراء الإسلاميون أني لست أقول أعطوا الملك لغير آبائكم فإن ذلك ليس في الإمكان ولكني أقول : (يجب أن يتعلم الشعب كله لأن الملك وحده لا يقوم مقام الأمة ، وإذا كان ولي العهد صالحا للملك فهو أحق من غيره ، ولكن لنا على يقين من أن الأعقاب يكونون على منوال الآباء بدليل ما تقدم من حوادث التاريخ ومن نفس طبيعة النوع الإنساني) .

فلينظر علماء الإسلام الذين يقرءون هذا التفسير وملوك وأمراء الإسلام ، فإذا أنسوا من بيت الإمارة والملك علما وكلا وسياسة وحكمة فهم أولى بالحكم ، ولكن لما كان عالمنا الذي نعيش فيه يسير على طريقة تنازلية بحيث يكون كل جيل أضعف مما قبله وهكذا يجب (لأجل الاحتراس) أن يجعل الأمر بيد مجلس الأمة ، وهؤلاء الملوك يتخذون ما يقرره المجلس وللملك مزايا خاصة تقرر بينهم وبينه ، فهناك يحصل القرض المطلوب ، فالأمة كلها تخدم في التحصيل وتحس بالنسبة للمقاة على عاتقها ويخف الحمل عن الملك وأعوانه ، ويبقى الأمير أو الملك موضع الإعزاز والإعظام والإجلال ، وذلك كما في بلاد اليابان وبلاد الانجليز، حتى إذا كان أحد الأبناء منحرفا عن الجادة فإن الأمة والوزراء هم المسئولون وكفى .

وقد ذكرت هذا من قبل وأكرره في كل مناسبة ، هذه طريقة سهلة ، فإذا لم توفق أمة من أمم الإسلام إلى ذلك فلتنجمل الامارة بالانتخاب والشورى كما فعل سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه وكما تفعل الولايات المتعددة ، متى انتظمت إمارات الإسلام وجب على الأمراء أن يجتمعوا ويتشعبوا واحدا منهم يكون خليفة للمسلمين كابي بكر وعمر رضي الله عنهما ، ويكون انتخابه لمدة معينة نحو خمس سنين ، وذلك خيفة أن تتغير أطواره فتحصل الفتنة . هذا ما فتح الله به في معنى « وأمرهم شورى بينهم » .

أما أن نسمع أن أمم الإسلام تتخذ رجلا لأجل نسبه وتقول إنه إله أو الإله حل فيه ويجعل له أعوانا يشيدون باسمه ، أو تتخذ آخر لأجل صلاحه وقد اجتمع حوله تلاميذه فجعلوه فوق جميع الأولياء والصالحين وذكروا له كرامات ، ثم يحكم الناس بهذه الوسيلة فيقولون هو المهدي (اقرأ ما في أول سورة الحج من الكلام على المهدي) أو نحو ذلك فهذه أشبه بأموج في بحر السياسة تموج فيه ثم تضمحل عند الشاطئ ، اقرأ ذلك في أخبار المهدي محمد بن تومرت في سورة سبأ وفي سورة الكهف عند آية « وما كنت متخذ للفضلين عضدا » . اللهم إني كتبت ما فتحت به على اليوم ولك الحمد على نعمة العلم .

إن الرجال الذين اشتهروا بالصلاح وهم حريصون على المال لهم منافع وضرار وضرهم أكثر من نفعهم أما الذين وصفناهم وقررناهم فهم الذين يجب أن يتولوا الملك لأن نفعهم أكثر من ضرهم .



ولأختم هذا القام بحديث دار بين وبين أحد مشايخ الطرق بمصر . ذلك أني كنت أسكن بجبة طولون عند قلعة السكبش ، وكان بيني بالقرب من شيخ طريقة معظم في بلاد الصعيد ، وهذا الشيخ له مريدون وأكثرهم من البرابرة . وكان إذا نزل الصعيد وعلم مريدوه قابله ٥٠٠ خيال احتراماه واتخذوا يوم حفره عبدا لهم ، وهناك يكسو الرجل زوجته وأبناءه وبناته . ويكون الفرح والمناه بمقدم الشيخ والبلاد

التي يعظمه أهلها تفل فيها السرقات . وقد شرح ذلك شرحاينا فقال : أنا إذا قدمت القرية يحضر زيد فيقول لي يا أستاذي أنا أخطأت لانتعصب على فيقول له من كان معك ؟ فيقص القصص إنه هو وفلان وفلان وسرقوا بقرة أو نهبوا حائطا أو قتلوا رجلا . فهناك يقطب الشيخ وجهه وقد حفظ أسماء الشركاء . فنتى حضر أحدهم يأمر الشيخ بعدم دخوله عليه . فهناك يزيد الاعتقاد في الشيخ .

فهذه هي منافع هؤلاء الشيوخ . فأما مضارهم فإن هذا النفع لا قيمة له لأنه لم يكن من نفس الفرد بل إنه خائف من الشيخ ، والشيخ لا ينال هذا إلا بجهل أتباعه . وأمة هذا شأنها تكون عالة على المجتمع الإنساني . وبعض هؤلاء الشيوخ يملكون عجل السامري . وهذا العجل يجب أن يحرق ويذرى في الهواء كما فعل موسى فإن التفوى البنية على الرعب من نفس الشيخ تقوى لبقاء لها وهذا هو الانتكاس وضياح الأمم بل لا بد من الإرشاد والتعليم .

وهذه المسألة الجزئية تفسر لنا الطريق التي سنها حسن بن الصباح في قلعة الموت هي مذكورة في (سورة الكهف) فلا يظهر لأتباعه وقد حرم عليهم دراسة العلوم وحكمهم بمثل هذه الطريقة ثم انقضت تلك الدولة . فهمما كانت نية القائم بالأمر من الإصلاح فهي مخالفة لدين الإسلام وصاراة بالأمم وفساد للمجموع .

وهالك حديثا آخر حدثه لي هذا الشيخ وأنا معه في منزله وأتباعه يذكرون الله والنشد يعني . قال : إن أحد أتباعي بالصعيد (وكان أعمى) أخذ يحد في العبادة والدكر على حسب طريقتي . فأخذ الناس يذكرون له كرامات وسمع هو بذلك فصار يتظاهر بما يدل على ذلك حتى أشاعوا أنه ارتقى فوق مرتبتي أنا ، وأنه نال فوق مانلت . فلما نزلت يبلدتهم وكان الجمع محتسدا وهو بينهم وقفوا جميعا أما هو فإنه بقي جالسا ليحقق قولهم وأنه أعلى من شيخه في الولاية ، فسلمت عليهم جميعا . ولما لم يقم لم أسلم عليه مع أنه لو كان غيره من الناس لضربوه وأهانوه ، ولكنهم احتراموه لأنه أصبح أعلى في مقام الولاية مني ، فأوعزت سرا إلى أحد أتباعي أن يسرق حذاه . فلما أخذنا ننقل من ذلك المكان وقام معي هذا الجمع المهتد لم يجد حذاه . وظهر للناس أنه لا علم له بمن سرق نعله . إذن هو ليس بولي فتركوه فمشى حافيا ، ثم أتى ليذكر مع التذاكرين فأخرجه أتباعي بأمرى . فشكاهم إلى ، فقلت له : إن الولاية لي أنا فكيف تتكبر على بها ، وأخذ يوجهني على فضله ثم عفا عنه . فرح فرذا من الأفراد والتلاميذ المتادين .

وإنما ذكرت هذا لأنه مهود في أكثر ديار الإسلام والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الخميس

٢٤ رمضان سنة ١٣٤٩ هجرية و ١٢ يناير سنة ١٩٣١ م .

بيان العدل والجمال في السموات والأرض

وأن الشورى مفتاح العدل ، وأن العدل والجمال يرجعان لأمر واحد فيكون جمالا في
المسومات أو موسيقى ، وغريزة في الحيوان ، وعدلا عند الإنسان ، ثم ذكر أنباء الشورى
في زمن النبوة والخلافة وبقاء الملك ، ثم بيان تركها وذهاب الملك ، وتبين أن المسلمين
بسبب ماذاقوا من حلاوة الشورى في زمان أبي بكر وعمر قتلوا عثمان غيلة لما ظنوا أنه
يغضل بن أمية ولم يعلم بهم من الظلم عشر معشار ما ألم بالإنجليز حين قتلوا (شارل الأول)
في القرن السابع عشر ، ولا ما ألم بالفرنسيين إذ قتلوا (لويس السادس عشر) في القرن
الثامن عشر ، ولا بالألمان إذ ناروا على أمرائهم في القرن التاسع عشر

بعد ما كتبت ما تقدم من أمر الشورى في بلاد فرنسا وانكلترا (تطبيقا على آية « وأمرم شورى
بينهم ») وبيان أن هذه الثورة السياسية في الأقطار الأوروبية لم تكن لديهم إلا من آثار النهضة الإسلامية
الأولى ، جاشت النفس بخواطر في أمر الشورى في مدة الخلافة الإسلامية وهي (٣٠ سنة) وكيف كانت
إذ ذلك ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي بين الشريعة للناس ، فالصلاة والزكاة والصيام والحج لولا فعله صلى الله
عليه وسلم وقيل أصحابه ما عرفنا شيئا منها ، فأية الشورى آية بحجة والإجمال لا يفتى عن التفصيل والله يقول « ونزلنا
إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » ونحن إذا اكتفينا في تفسير هذه الآية بما تقدم نكون قد خالفنا منهج الحق
وهذا الكتاب اليوم بين يدي المسلمين ، فحق على أن أذكر جملة صالحة توضح أمر الشورى في عصر النبوة
وفي عصر الخلافة حتى يعرف الناس السبب في هذا الملك العظيم الذي امتد شرقا وغربا ولماذا أزال الله ذلك
للك ومزق أبناء الذين قاموا بهذا الأمر تدريجا بعد المصور الأولى ، وأقدم قبل ذلك مقدمة في النظام
العام في السموات والأرض . فأقول :

اعلم أن العدل والجمال يرجعان معا إلى النظام العام ، فكل ما كان منظما فهو مرغوب فيه محبوب ،
وما قد النظام فهو منفور منه ، إن النظام حايف الدوام ، والاختلال بقبحه التفريق والانحلال ، إن من اطاع
على هذا التفسير أو أكثر فإنه يوقن أن نظام الكواكب والشموس والأقمار نظام تام عجيب لا خلل فيه
فكانت نتائجه لاحصر لها ، إن التناسب وحسن النظام إذا فارق الأجسام الحيوانية والنباتية لم تكن لها
حياة ، وإذا لم يكن تناسب بين الحديد العينين والمخربن والفم في الوجه فقد الجمال ، فالجمال يتبع التناسب
والقبح يلزم عدم التناسب ، وهكذا كل عضو من أعضاء الإنسان والحيوان ، وكل غصن أو ورقة من نبات
لها نسب خاصة ، وبغير تلك النسب لا تكون حياة للنبات ولا للحيوان .

تقدم في هذا التفسير في غير ما موضع أن شبر الإنسان مقياس لأعضائه ، فهو ثمانية أشبار بشبره ربمها
من الركبتين إلى القدمين ، وربمها من الركبتين إلى الخفوين ، وربمها من حقوية إلى رأس فؤاده ، وربمها
من رأس فؤاده إلى مفرق رأسه ، وإذا مد يديه يمنة ويسرة كان امتدادهما (٨) أشبار أيضا ، وإذا مديديه
إلى فوق رأسه فإنه يجد أن المسافة من السرة إلى أطراف أصابعه (٥) أشبار كالمسافة التي بين السرة
والقدمين ، أنا لا أطيل في هذا لأنه تقدم ولكنه تذكري بحمال الوضع في العالم المشاهد والسكال فيه ، وهذا
في المشاهد المحسوس بحاسة البصر ، ومثله المحسوس بحاسة السمع كما تقدم كثيرا في غير ما موضع فإن الموسيقى
القديمة البنية على نسب (البم والثني والثالث والر) والموسيقى الحديثة اللبنية على قاعدة التوالية الهندسية
(١٦ - ٣٢ - ٦٤) وهكذا لم تخرج عما تحبه النفوس من النظام والجمال .

الله أكبر . اللهم إنك أنت الجليل الحكيم العظيم . أنت الذي أحكمت ملكك ، ونظمت خالقك . عجبنا
 يارب من إبداعك . أنت واحد ونظامك واحد ، ولكن اختلفت مظاهره . أنت سريع الحساب فإن كان
 ذلك الحساب في المشاهدات بحاسة البصر كبهجة الأشجار وجمال الأهار والزروع ، وجمال الوجوه مميّنه
 جمالا (وإن هو إلا تناسب بين الألوان والأغصان والأوراق والأعضاء بحساب لا خطأ فيه البتة كحساب
 سير الكواكب ، انظر حقه في سورة الحجر عند آية « وأنبأنا فيها من كل شيء موزون » فهناك تعرف
 أيها الذي لم فرح الناس بالأشجار وعدوها جميلة ، وهناك تشاهد رسم الأوراق والمهندسة في الدوائر التي
 تكونت على الأغصان وأكثر أهل العلم عنها ظالمون) وإن كان في السموات مميّنه موسيقى واستنقت
 النفس به ، وإن كان ذلك الاتقان في جماعة الحيوان كما تقدم في جمهورية النحل وجمهورية النمل وجمهورية
 الأرضة (المذكورات للصورات في سورة النحل والنمل وسبأ) مميّنه غريزة ، وإن كان ذلك الاتقان في
 سياسة الإنسان العامة وحفظ الجماعة مميّنه عدلا .

عجبا ياربنا ، أين قلبنا الطرف وأدرنا وجوهنا يمينا ويسارا وفوق وتحت لا نجد إلا نظاما واحدا ،
 وهذا النظام له مظاهر مختلفات ، فهو جمال وتعمات وغريزة وعدل ، وأقرب المثلقات إلينا هذه
 الحيوانات التي نظمت بحالها نظاما أدهشنا ، عجز الإنسان والله عجزا ظاهرا أن يجاري النمل في جمهوريته
 أو يساوي النحل في مملكته ، أو يحاري الأرضة المبياء التي تحكّم ميثاق الألف من تلك الحشرات التي هي عميما مثلها
 فهذه ياربنا حكومات منظمات على منوال ما نظمت أنت من جمال وجوهنا وبدائع أشجارها وأزهارها والأثمار
 نعم الإنسان لم يقدر أن يحاري هذه الحشرات ولا غيرها ، فإن عدل يوما ظلم سنين ، وإن علم شيئا
 جهل أشياء ، أنت أعطيت الحرة ، ووجهته معها عقلا ، وقلت له : دونك التجربة ، ولم تدره ونفسه ،
 بل أرسلت له أنبياء فلهوه ، وحلفت قوما حكاما ففهموه ، ومع ذلك لا تزال الشقوة تحيط به ، والتل يشاه
 وآخر من أرسلته من الأنبياء نبيا صلى الله عليه وسلم وجاء في وحيك « وأمرم شوري بينهم » . فما نحن
 أولاء نبحت في سيرته صلى الله عليه وسلم وسيرة الخلفاء الخاصة بالشورى ، فنجد أنه روى أن المشركين نزلوا
 بأحد يوم الأرساء ثاني عشر شوال سنة ثلاث من الهجرة ، فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة والسلام أصحابه
 ودعا عبد الله بن أبي ابن سلول ولم يدعه من قبل ، فاستشاره فقال عبد الله بن أبي ابن سلول : « كثر
 الأضرار يا رسول الله ، أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم فوالله ما خرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا ولا دخلها
 علينا إلا أصابنا منه فكيف وأنت قينا ؟ فدعهم يا رسول الله فإن أقاموا أقاموا بشر مجلس وإن دخلوا قاتلهم
 الرجال في وجوههم ورمائم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم . وإن رجعوا رجعوا خائبين » وكان
 صلى الله عليه وسلم أميل إلى هذا الرأي وقال جص أصحابه « أخرج بنا إلى هذه الأكيلب ثلاثا يروا أنا
 جينا عنهم وضعنا وخفناهم » . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إني قد رأيت في منامي
 بقرا فأولتها خيرا ، ورأيت في ذباب سبي فلما فأولتها هزيمة ، ورأيت أني أدخلت يدي في درع
 حصينة فأولتها المدينة . فلن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوم » فقال رجال قاتلهم بدر وأكرمهم الله
 بالشهادة يوم أحد : « أخرج بنا إلى أعدائنا » وبالغوا حتى دخل فلبس لامته . فلما رأوا ذلك ندموا على
 مبالغتهم . وقالوا : اصنع يا رسول الله ما رأيت ، فقال : « لا ينبغي لشي أن يلبس لامته فيضها حتى يقائل » اه
 (اقرأ بقية الكلام على هذا اللقاع في [سورة آل عمران] في المجلد الثاني من هذا التفسير) . إذن
 ها نحن أولاء رأينا صلى الله عليه وسلم كان يميل إلى أن يبقى في المدينة لأنها تأويل الدرع الحصينة التي رآها في المنام
 ولكن لما أشاروا عليه لبس لامته ولم يرجع عما أشاروا به وإن كانوا ندموا على مبالغتهم في طلب الخروج

للقاء . وهكذا نجد عمر رضى الله عنه هو من خلفائه يجد في العدل والفضة . ولا يرم أمر الإيعاشورة أصحابه حتى ما يختص بأمر نفسه ، وما يقوم بأمر معاشه .

(أولاً) - ذلك أنه جمع الناس بالمدينة حين انتهى إليه فتح القادسية ودمشق ، فقال إني كنت امرأ تاجراً وقد شغلتموني بأمركم هذا فإذا ترون أنه يحل لي من هذا المال فأكثر القوم وطى رضى الله عنه ساكت ، فقال : يا على ما تقول؟ قال ما يصلحك ويصلح عيالكم بالمعروف ليس لك من هذا الأمر غيره ، فقال القول ما قال على بن أبي طالب .

وأخرجنا عن أسلم قال : قام رجل إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : ما يحل لك من هذا المال ؟ فقال ما أسلحني وأصلح عيالي بالمعروف وحلة للشتاء وحلة للصيف وراحة عمر للحج والعمرة وعبادة لخواججه وجهاده . وروى الطبرى أن هذا المطاء الذى رضى عمر لنفسه وفرضه له المسلمون لم يكنه واشتدت به الحاجة فاجتمع نفر من المهاجرين منهم عثمان وعلى وطلحة والزبير وتشاوروا في زيادة يزيدونها لعمر في رزقه من بيت المال فهابوا مقابلته بذلك فأتوا بيته حفصة وأمروها أن تحجره بالحجرتى رأيه فيه ولا تذكره أسماء ففعلت آخرته بذلك عرفت الغضب في وجهه وقال لها : من هؤلاء؟ قالت لاسييل إلى علمهم حتى أعلم رأيك فقال لوعلت من هم لسؤت وجوههم أنت بينى وبينهم أنشدك بالله ما أفضل ما اتقى رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتك من اللبس (وكانت زوجته) قالت ثوبين ممشقين كان يلبسهما للوفد ويخطب فيهما للجمع قال فأبى الطعام ناله عندك لرفع ؟ قالت خبزنا خبزة شمير فضينا عليها وهي حارة أسفل عكة^(١) فجعلناها شاة^(٢) ديمة فأكل منها وتطم استطابة لها ، قال فأبى مبسط كان يبسطه عندك كان أوطأ^(٣) قالت كساء لنا عجين كنا نرهبه في الصيف فتجده تحتنا فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه قال يا حفصة فأبى فبلغهم عنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدر فوضع الفضول مواضعها وتبلغ بالترجية ؛ وإني قدرت فوالله لأضمن الفضول مواضعها ولأبذلن بالترجية^(٤) وإنما مثلي ومثل صاحبي كثلثة سلكوا طريقاً فبقي الأول وقد تزود زادا فبلغ ثم اتبعه الآخر فسلك طريقه فأفضى إليه ثم اتبعه الثالث فان لزم طريقهما ورضى بزادها لحق بهما وكان معهما وإن سلك غير طريقهما لم يجامهما .

هكذا كان شأن عمر رضى الله عنه في العفة والقناعة والرضا بالكفاف مما يسد الجوع ويستر العرى . وروى في المناقب عن الحسن قال : خطب عمر الناس وهو خليفة وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة وفي المناقب أيضاً عن أبي عثمان النهدي قال : رأيت عمر بن الخطاب يطوف بالبيت وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة إحداهن بأدم (جلد) أحمر . وفيها عن قتادة أن عمر بن الخطاب أبطأ على الناس يوم الجمعة ثم خرج فاعتذر إليهم في احتباسه وقال : إنما حبسنى غسل ثوبي هذا ولم يكن لي ثوب غيره .

وفيها عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص قال : قالت حفصة بنت عمر بن الخطاب لعمر بن الخطاب لمير المؤمنين لولبت ثوباً هو ألبن من ثوبك هذا وأكلت طعاماً هو ألبن وأطيب من طعامك فقد وسع الله من الرزق وأكرم من الخير ، فقال إني سأخاطبك إلى نفسك ، أما تذكرين ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى من البيض ، فما زال يذكرها حتى أبكها .

(ثانياً) - جاء في (كنز العمال) عن النعمان بن بشير أن عمر بن الخطاب قال في مجلس وحواله المهاجرون والأنصار : أرايتم لو ترخصت في بعض الأمور ما كنتم فاعلين فسكتوا فقال ذلك مرتين أو ثلاثاً ، فقال بشير

(١) قرية السمن الصغيرة .

(٢) طرية .

(٣) ألبين .

(٤) قال في القاموس : تبلغ بكذا ا كنى به . والترجية والرجاء بمعنى واحد : وهو ضد اليأس .

ابن سعد لو ضلت ذلك قومناك تقويم الصدح (وهو السهم المورج قبل أن راش وينصل) فقال عمر : أتم إذن أتم إذن (استحسننا لقولهم) وفي المنافع عن عبد الجبار بن عبد الواحد التنوخي قال : قال عمر رضي الله عنه وهو على المنبر : أنشدكم الله لا بحر رجل من عبيا إلا طابه فقال رجل من أمير المؤمنين تديل بين البردين ونممع بين الأديين ولا يسع ذلك الناس قال لما أدال بين ردين ولا جمع بين أديين حتى لقي الله . وقوله تديل بين البردين أي بلبس ثيابا وبغاية ويلبس غيره . وذكر بعض المؤرخين أنه خطب يوما فقال : أيها الناس من رأى منكم في اعوجاجا فليقومه ، قام رجل فقال : والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه سيوفنا ، فقال عمر : الحمد لله الذي أوجد في المسلمين من يقوم اعوجاج عمر بسيفه .

(ثالثا) - قال الأحنف بن قيس : كنت مع عمر بن الخطاب فلقبه رجل فقال بأمر المؤمنين انطاق منى فأعدنى على فلان فإنه قد ظلمني فرفع عمر الدرة فحلق بها رأسه فقال : تدعون أمير المؤمنين وهو ممرض لكم حتى إذا هطل في أمر من أمور المسلمين أتبنموه أعدنى أعدنى . قال فانصرف الرجل وهو يتنهد قال « أي عمر » على الرجل « أي ردوه على » فألقى إليه الحنفية . وقال امثل « أي اتصم بمثل العربة » قال لا والله ولكن أدهها لله ولك ، قال ليس هكذا أما أن تدعها إرادة ما عنده أو تدعها لي فأعلم ذلك ، قال أدهها لله قال « أي الأحنف » فانصرف ثم جاء بمشي حتى دخل منزله ونعمن معه فصرى ركبتين وجلس فقال « يخاطب نفسه » يا ابن الخطاب كنت وضيعا فركك الله وكنت ضالا فهداك الله وكنت ذليلا فأعرك الله ثم حملك على رقاب الناس فطامك رجل يستمدبك فصرته ما تقول لربك غدا إذا أتيت ؟ قال لجعل بعاتب عسه في ذلك معاتبه حتى ظننا أنه خير أهل الأرض .

(رابعا) - من إنصافه للرجية ، ماروى أنه أتى رجل من أهل مصر إلى عمر بن الخطاب فقال بأمر المؤمنين عائذ بك من الظلم ، قال عدت معاذا . قال سأقت ابن عمرو بن العاص فسبقتك فجعل يضربني بالسوط ويقول : أنا ابن الأكرمين . فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم عليه وخدمه فإنه عليه قدم ، فقال عمر ابن المصري خذ السوط فأضرب عطل يضربه بالسوط ويقول عمر اضرب ابن الأكرمين ثم قال للمصري ضمه على سلعة عمرو : قال بأمر المؤمنين إنما ابنه الذي يضربني وقد اهتضيت منه فقال عمر لعمرو : مذكم تبصتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ، قال بأمر المؤمنين لم أعلم ولم يأتي (جنى) المصري .

(خامسا) - ومن معاملة أهله اللطمة وهفتة عليهم ما جاء في نفس هذا الكتاب وهذا نصه : « ومن جميل سياسته اهتمامه بأهل اللمة الذين دخلوا في عهد المسلمين وسلطانهم من الشعوب غير المسلمين ووصاياهم للمسال بالحرص على راحتهم ونمحب ظلمهم وأذامهم وبلغ اهتمامهم بهم أن كان إذا غابت عنه أخبارهم أو بلغه أقل شئ عنهم يستدعى ذوى أمانة من المسلمين الذين أقاموا في بلادهم ويسألهم عن أحوالهم ويستقصى سيرة الصالح منهم ومن ذلك ما رواه الطبري في تاريخه أن عمر رضي الله عنه كتب إلى أمير البصرة أن يبعث جماعة من ذوى الرأي والبصيرة فأرسل إليه وفدا فيهم الأحنف بن قيس فسألهم عن أهل اللمة وهل يشكون ظلما أو حيفا فأجابوه بالسلب ولم يطمئن لقولهم حتى استوثق من الأحنف وكان يثق بصدقه ثم صرفهم .

ومن أجل ما يؤثر عنه من الرفق بأهل اللمة ما جاء في (كثرة المال) أن عمر مريشيع من أهل اللمة يسأل على أبواب المساجد فقال : ما أنصفنا لكنا أخذنا منك الجزية في شيتك ثم ضيقتك في كبرك ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه .

(سادسا) ومن حسن سياسته تهممه إلى قواده بأن لا يمسكوا الجندي التزو أكثر من أربعة أشهر وسبه أنه كان يطوف ليلة بالمدينة على حادثه فسمع امرأة من وراءها تقول :

تطاول هذا الليل واسود جانبه وأرقى أن لا خليل الأعبه
فلولا حذار الله لأشبه مثله لرحم من هذا السر رجوانه

فكتب عمر إلى عماله أن لا يبيح أحد بالفزو ونم الرأي .

ومن سياسته توقيفه الحدود عند الضرورة الداعية لذلك ، فقد أخرج ابن أبي شيبة في الصنف عن حكيم
ابن عمير قال : كتب عمر بن الخطاب : ألا يجعلون أمير جيش ولا سرية أحدا الحد حتى يطلع الدرب لئلا يحمله
حمية الشيطان أن يلحق بالكفار .

ومن سياسته أنه كان يحبس عن العمل كثيرا من كبار الصحابة فمنهم من كان لا يستعمله خوفا على دينه
من أن يذنبه بالولاية ، فقد أخرج ابن سعد عن عمران بن عبد الله قال : قال أبي بن كعب لعمر بن الخطاب
مالك لا تستعملني ؟ قال أكره أن تدين دينك .

ومنهم من لا يستعمله خشية أن يحمله على رقاب الناس أو خشية أن يحدثه نفسه بالإمارة إذا بعد عن
مراقبته وهؤلاء هم بنوهائهم لما كان يتفرسه فيهم من التطلع إلى الإمارة ففي (مروج الذهب) للسعودي عن
عبد الله بن عباس أن عمر أرسل إليه فقال يا ابن عباس : إن عامل حمص هلك وكان من أهل الحير وأهل الحير
قليل وقد رجوت أن تكون منهم وفي نفسي منك شيء لم أره منك وأعياني ذلك لما رأيك في العمل ؟ قال لن
أعمل حتى تخبرني بالذي في نفسك ، قال وما تريد إلى ذلك . قال أريده فإن كان شيء أخافه على نفسي خشيت
منه عليها الذي خشيت وإن كنت بريئا من مثله علمت أني لست من أهله قبلت عملك هناك فإني فلما رأيت
أو ظننت شيئا إلا عابته ، قال يا ابن عباس إني خشيت أن يأتي على الذي هو آت وأنت في عملك فتقول لهم
إلينا ولا هم إليكم دون غيركم . إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل الناس وترككم . قال (أي
ابن عباس) والله قد رأيت من ذلك فلم تراه فعل ذلك ؟ قال (أي عمر) والله ما أدري أضن بك عن السمل فأهل
ذلك أتم أم خشى أن تبايخوا بمنزلكم منه فيقع العقاب ولا بد من عتاب قد قرعتك لما رأيك ؟ قال : (أي ابن
عباس) أراي لا أعمل لك ، قال ولم ؟ قال إن عملت لك وفي نفسك ما فيها لم أبرح قدي في عينك قال : فأشر
على ، قال إني أرى أن تستعمل صحيحا منك صحيحا لك .

(ساجنا) جاء في (كنز المال) عن عاصم بن أبي النجود أن عمر بن الخطاب كان إذا بث عماله شرط
عليهم أن لا يركبوا بردونا ولا تأكلوا نفايا ولا تلبسوا رقيقا ولا تنلقوا أبوابكم دون حوائج الناس إن فلتتم شيئا
من ذلك فقد حلت بك العقوبة . ثم يشيعهم ، فإذا أراد أن يرجع قال إني لم أستطع على دماء السدين ولا على
أعشارهم ولا على آبشارهم ^(١) ولا على أعراضهم ولا على أموالهم ولكني بشتكم لتقيموا بهم الصلاة وتقسوا
فيهم فيأثمون وتحكموا بينهم بالعدل ، فان أشكل عليكم شيء فارضوه إلى الألفلا تضر بوالعرب فتذلوها ولا تجمروها ^(٢)
فتفتوها ولا امتنوا عليها فتجرموها ، جودوا القرآن (وفي رواية) وأقلوا من الرواية .

وكان إذا بلغه عن أحد من عماله أمر يخل بالمرودة عزله في الحال ، ففي (الناقب) لأبي الفرج بن الجوزي
عن ابن سعد قال : كان عمر بن الخطاب استعمل النيمان بن فضلة على ميسان وكان يقول الشر فقال :
ألا هل آي الحسناء أن حليلها بميسان يسقى في زجاج وحتم

(١) كناية عن أجسامهم وأموالهم .

(٢) قال في القاموس جمرة تجميرا جمعه والقوم على الأرض تجمروا إلى أن قال والجميس حيسهم في أرض

الندو ولعله هو الراد :

في أبيات يقول في ختامها :

لمل أمير المؤمنين بسوءه تادعنا بالجوسق التهدم

فلما بلغ عمر قوله قال : نعم والله إنه ليسوءني ، من لقيه فليخبره أني قد عزلته ، فقدم عليه رجل من قومه فأخبره بمزله فقدم على عمر فقال والله ما أحب شيئا مما قلت ولكن كنت امرأ شاعرا وجدت فضلا من قوله فقلت فيه الشعر فقال عمر والله لا تصل لي على عمل ما بقيت . وفي رواية عن عثمان الخزازي عن أبيه قال : لما بلغ عمر بن الخطاب هذا الشعر كتب إلى النعمان بن نضلة « بسم الله الرحمن الرحيم . حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب . وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه الصير » أما بعد فقد بلغني قولك :

لمل أمير المؤمنين بسوءه تادعنا بالجوسق التهدم

وإيم الله إنه ليسوءني وعزله .

ومن عيب سياسته مع العمال أنه كان يحصى أموالهم قبل العمل وما زاد بعده يصادرم على كله أو بعضه . ومن هذا ما رواه الطبري أن عمر استعمل عتبة بن أبي سفيان على كنانة فقدم للمدينة بمال ، فقال له ما هذا يا عتبة ؟ قال مال خرجت به معي وأجرت فيه ، قال وما لك تخرج للمال منك في هذا الوجه ؟ فصره في بيت المال .

وروي أن خالدا لما أدرب هو وعياض إلى بلاد الروم اتجعه من العراق رجال منهم الأشعث ابن قيس فوصله بشرة آلاف درهم فبلغ ذلك عمر فكتب إلى أبي عبيدة أن يحصى مال خالد ويصادره على النصف فدعاه وتلا عليه أمر أمير المؤمنين وصاهر على نصف ماله حتى الحقين أخذ منهما واحدا وترك له الآخر .

(ثامنا) - شاطر عمر سعد بن أبي وقاص على ماله ، وشاطر أبا هريرة ولما أبي أن يشاطره ضربه ، وصادر غيرم أيضا ورد أموالهم لبيت المال .

(تاسعا) - وأخرج عن جيب بن أبي وال قال : قال عمر بن الخطاب : لو استقبلت من أمري ما استدرت لأخذت فضول أموال الأغنياء تقسمها على فقراء المهاجرين .

(عاشرا) - ومن أخباره في التأديب التي تدل على عظيم رحمته وحنانه وشدة عقوبته لغلظ القلوب ما جاء في (كنز العمال) عن أبي عثمان النهدي قال : استعمل عمر بن الخطاب رجلا من بني أسد على عمل فجاء يأخذ عهده فأبى عمر يرضى ولده فقبه . فقال الأسدى : أتقبل هذا يا أمير المؤمنين والله ما قبلت ولدا قط ، قال عمر فأنت والله بالثلث أقل رحمة ، هل عهدها لا تصل لي عملا أبدا .

(حادي عشر) - تظلم رجل من جنس عمال عمر وادعى أنه ضربه وتمدى عليه فقال : اللهم إني لأأجل لهم أعشارهم ولا أبشارهم (أموالهم وأجسامهم) كل من ظلم أميره فلا أمير عليه دوني ثم أقامه منه (أي أخذ له القود) .

وقال للغيرة بن شعبة وذكر عمر فقال : كان والله له ضار بمنعه أن يجمع وعقل بمنعه أن يندفع . في كنز العمال عن طاوس أن عمر قال : أرايتم ان استعملت عليكم خير من أعلم ثم أمرته بالمدل أفضيت ما على ؟ قالوا ، نعم قال لا حتى أنظر في عمله أهل بما أمرته أم لا ؟ وفيه عن عمر قال « الرعية مؤدية إلى الإمام ما أدى الإمام إلى الله فإذا رفع الإمام رفعوا » (أخرجه ابن سعد) .

(ثاني عشر) - (حكاية عمر مع جيلة بن الأيهم ملك غسان) فإنه لما أسلم ووقد على عمر ابن الخطاب بأبيه الملك وحشمه تلقاه عمر بالترحيب وبينما هو يطوف يوما وطىء على إزاره أعرابي من بني فزارة فضربه على وجهه فشكاه الأعرابي إلى أمير المؤمنين فاستدعى عمر جيلة وقال له إما أن ترضيه وإما أن يضربك كما ضربته فكبر ذلك على جيلة وقال ألا تفرقون بين الملك والسوقة ؟ قال لا ، قد جمع بينكما الإسلام ، فاستمهله إلى القدم أخذ قومه وفر بهم ليلا ولحق بالامبراطور هرقل بالقسطنطينية فأرسل عمر من يسترضيه فأبى الرجوع .

(ثالث عشر) - ما ذكره الطبري في تاريخه عند الخبر عن إرسال الجيوش إلى نهاوند في أخبار سنة ٢١ قال ونزل بسعد (أى ابن أبى وقاص) أقوام وألبوا عليه ، فيما بين ترأس القوم واجتماعهم إلى نهاوند ولم يشغلهم مادم السليمن من ذلك وكان بمن نهض الجراح بن سنان الأسدي في نفر فقال عمر إن الدليل على ما عندكم من الشر نهوضكم في هذا الأمر وقد استعد لكم من استعداد ، وإيم الله لا يمتنع ذلك من النظر فيما لميكم وإن نزلوا (بني الفرس) بكم ، نبث عمر محمد بن مسلمة والناس في الاستعداد للأعاجم والأعاجم في الاجتماع وكان محمد بن مسلمة هو صاحب المال الذين يقتس آثار من شكى زمان عمر^(١) قدم محمد على سعد ليطوف به على أهل الكوفة والبعت تضرب على أهل الأمصار إلى نهاوند فطوف به على مساجد أهل الكوفة لا تعرض للشيء عنه في السر وليست للشيء في السر من شأنهم إذ ذلك . وكان لا يقف على مسجد فيسألهم عن سعد إلا قالوا لا نعلم إلا خيرا ولا نشتهي به بدلا ولا نقول فيه ولا ندين عليه إلا من ماله الجراح بن سنان وأصحابه فإنهم كانوا يسكتون ولا يقولون سوءا إلى أن قال الطبري وخرج محمد به (أى بسعد) وهم إلى عمر حتى قدموا عليه فأخبره الخبر فسأله عمر عن أوجه الشكوى فأنكرها ولم يسعهم إثباتها فردهم عمر رضى إذا أبقى سعدا على الكوفة أن يكون بينهم وبينه أمرضه احتياطا وسأله من خطبتك على الكوفة ؟ فقال له عبد الله بن عبد الله بن عتيان فأقره .

ومنه تعلم كيف كان رضى الله عنه مراقبا لماله كثير التحقيق عن أخبارهم لا يتجمل في أمرهم إذا جادته شكاية على أحدهم بل يتثبت الخبر بنفسه ويحققه بمواجهته فلئن ثبت عليه شيء مما يدعيه الشاكي عزله .

(رابع عشر) - كان رضى الله عنه لا يحب أن يفرق بين عماله في المعاملة بين الحر والبيد ولا بين القوى والضعيف . أخرج ابن جرير الطبري عن الأسود بن يزيد قال : كان الوفد إذا قدموا على عمر رضى الله عنه سأله عن أميرهم فيقولون خيرا فيقول هل يعود مرضاكم فيقولون نعم فيقول هل يعود البيد فيقولون نعم فيقول كيف صيحه بالضعيف وهل تجلس على بابهم فلئن قالوا لا عزه .

(خامس عشر) - لما وفد عليه الأحنف بن قيس وسأله عن حال الدمة في ولاية البصرة وصرفه كتب معه كتابا إلى عتبة بن غزوان أمير البصرة يوصيه به بأهل الدمة ، هذه مهوره (عن تاريخ الطبري) .

أعزب الله . عن الظلم واتقوا واحذروا أن بدال عليكم لتدرككم منكم أو منى ، فإنكم إنما أدركم بالله ما أدركم على عهد ما أهدكم عليه وقد تعلقم إليكم فيما أخذ عليكم فأوفوا بعهد الله وقوموا على أمره يكن لكم عوننا وناصرا .

(١) وظيفة محمد بن مسلمة هذه تشبه وظيفة للفنشين لهذا العهد .

وبلغه مرة : أن حرقوا عامله على الأهواز نزل جبل الأهواز والناس يهتفون إليه والجبل كشود
يشق على من رماه فكتب إليه ماسورته تقلا عن تاريخ الطبري في حوادث سنة ١٧

أما بعد : بلغني أنك نزلت منزلا كشودا لا تؤذي فيه إلا على مشقة فأسهل ولا تشق على مسلم ولا على مهاد
وقم في أمرك على رجل تدرك الآخرة وتصف لك الدنيا ولا تدركك فترة ولا عجة فتكدر دينك
وتذهب آخرتك .

(سادس عشر) - وأخرج عن أبي فراس قال : خطب عمر بن الخطاب فقال : يا أيها الناس إني والله
ما أرسل عمالا إليكم ليضربوا أبقاركم ولا يأخذوا أموالكم ولكن أرسلهم إليكم ليطوكم دينكم وستكم
(وفي رواية : ويقضوا بينكم بالحق ويحكموا بينكم بالعدل) فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرضه إلى فوائدي نفس
عمر بيده لأقصته منه (١) فوثب عمرو بن العاص فقال يا أمير المؤمنين أرايت إن كان رجل من أمراء المسلمين
على رعيته فأدب بعض رعيته إنك لتقصه منه . قال إني والله نفس عمر بيده إذن لأقصته منه وكيف لا أقصه
منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه . ألا لا تضربوا للمسلمين فتذلوهم ولا تجمروهم
فتفتوهم ولا تمنوهم فتكفروهم ولا تنزلوهم الفياض فتضيعوهم .

وعن أبي ربيعة قال : كتب عمر بن الخطاب إلى المال ، اجعلوا الناس عندكم في الحق سواء قريهم
كبيدهم وبيدهم كقريهم ، إياكم والرشا والحكم بالمهوى وأن تأخذوا الناس عند التضب قوموا بالحق
ولو ساعة من نهار .

وروى الطبري أن عمر كان يقول في عماله : اللهم إني لم أبعثهم ليضربوا أبقارهم ، من ظلمه أميره فلا إمرة
عليه دوني . ومع كل هذا التشديد على المال فإنه رضى الله عنه كان دائما قلقا على الرعية خائفا من أن يجار
عظيم بأمر لا يصله خيره لهذا عزم قبيل قتله أن يسافر ويطوف على المال جميعهم ليبحث عن أمور الرعية
ويقتضى حاجاتهم . فقد أخرج الطبري عن الحسن قال : قال عمر بن الخطاب : لئن عشت إن شاء الله
لأسيرن في الرعية حولا فإني أعلم أن للناس حوائج تقطع دوني أما عمالهم فلا يرفعونها إلى وأما هم فلا يصلون
إلي فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين
ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها
شهرين ، والله نعم الحول .

(سابع عشر) - كان من عماله سلمان الفارسي وكان عامله على الدائن وكان على جانب من الزهد
والتقى والصلاح عظيم فكان يلبس الصوف ويركب الخمار يردعته بغير إكاف ويأكل خبز الشعير فلما احتضر
بالدائن قال له سعد بن أبي وقاص يا أبا عبد الله أذكرك الله (٢) عند هملك إذا هممت وعند لسانك إذا حكمت
وعند يدك إذا قسمت ، فجعل سلمان يبكي فقال له يا أبا عبد الله ما يبكيك ؟ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقول « إن في الآخرة عقبة لا يقطعها إلا الخفقون » وأرى هذه الأسودة (جمع سواد وهو المال الكثير)
حولى مطروا فلم يجدوا في البيت إلا إداوة وركوة ومطهرة .

وكان عامله على الشام أبا عبيدة بن الجراح وكان يظهر للناس وعليه الصوف الجاني فعدل على ذلك وقيل

(١) يعني يمكن خصمه من الاقتصاص منه ، أو يقتص له منه .

(٢) لعل الصواب : قد كنت تذكر الله .

له إنك بالشام وأمير المؤمنين وحوالنا الأعداء فخير من زيك وأصلح من شارتك فقال ما كنت بالذي أترك ما كنت عليه في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان عامه على حمص سعيد بن عامر بن حذيم فشكاه أهل حمص إليه وسألوه عزله ، فقال عمر اللهم لا تقل فراستي فيهم ، ماذا تشكون منه ؟ قالوا لا يخرج إلينا حتى يرتفع النهار ولا يجيب أحدا بليل وله يوم في الشهر لا يخرج إلينا ، فقال عمر على به فلما جمع بينه وبينهم ، فقال ما تنقمون منه . قالوا لا يخرج إلينا حتى يرتفع النهار فقال ما تقول يا سعيد ؟ قال يا أمير المؤمنين إنه ليس لأهلي خادم فأعجن عجيني ثم أجلس حتى يحتمر ثم أخبر خبري ثم أتوضأ وأخرج إليهم ، قال وماذا تنقمون منه ؟ قالوا لا يجيب بليل ، قال قد كنت أكره أن أذكر هذا إنى جمعت الليل كله لربى وجمعت النهار لهم ، قال وماذا تنقمون منه ؟ قالوا له يوم في الشهر لا يخرج إلينا . قال نعم ليس لي خادم فأغسل ثوبي ثم أجففته فأفسى ، فقال عمر الحمد لله الذي لم يقل فراستي فيكم يا أهل حمص فاستوصوا بواليكم خيرا . ثم إن عمر بيث إليه بألف دينار وقال استعن بها ، فقالت له امرأته قد أعطانا الله عن خدمتك ، فقال لها ألا ندفعها إلى من يأتينا وأحوج ما كنا إليه قالت بلى فصرها صررا ثم دفعها إلى من يشق به وقال انطلق بهذه إلى فلان وهذه إلى يقيم بنى فلان ومسكين آل فلان حتى يقي منها شيء يسير فدفعه إلى امرأته وقال أنفق هذه ثم عاد إلى خدمته ، فقالت له امرأته ألا تبث بذلك للال فتشترى لنا منه خادما ، فقال سيأتيك أحوج ما تكونين إليه . انتهى من كتاب [أشهر مشاهير الإسلام] .

ها نحن أولاء اللهم شاهدنا جميل صنعك وبديع إقناتك في عوالمك للشاهدة والمسموعة والتي أوجبت بها للحيوانات وما علمت به الإنسان وها نحن أولاء ، قرأ آثار (سورة الشورى) في آخر الأديان المنزلات إلى الأرض . كل جمال في كوكب أوزهر أو وجوه حسان في نوع الإنسان . وكل نظام في جماعة الحيوان أو عدل على يد نبى أو خليفة أو صالح داخل تحت آية « وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم » صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض »

أما صراطك الذي في السموات والأرض ، فهذا التفسير قد ألم بصور كثيرة منه . وأما الصراط المستقيم الذي يدعو إليه رسولك ، فبعضه ما جاء في هيئة الشورى المقدمة أيام النبوة والخلافة .

اللهم إن هذه الأعمال الشريفة ، والممانى النبوية ، لم يبق عند كثير من أمم الإسلام إلا أخبارها ، اللهم إني بينت باعانتك وأنت الحكيم العليم ، فأشرح صدور المسلمين لدرس تلك الأعمال الشريفة ليرجعوا بمجدهم ويقوموا بنظام أممهم ويساعدوا الأمم على النظام العام .

ها هم أولاء المسلمون بعد ٣٠ سنة وهي التي كانت فيها الخلافة أخذوا يرجعون القهقري تدريجا فما كاد عثمان رضی الله عنه يقتل حتى قرعت القارعة واشتد الحسام والنزاع على الخلافة ، نعم كان ذلك باجتهاد من أصحاب نبيك صلى الله عليه وسلم فأما بعد ذلك فإن الأمر كله راجع للملك وحده ، وأخذ بنو أمية وبنو عباس يتنافسون على الخلافة ، وأدخل الآخرون القرس معهم لإذلال العرب فنهبته رجحهم على عمر الأيام ، ولا زالت الأمة تتقهقر بالتدريج حتى يومنا هذا .

لا ملاذ ولا ملجأ للمسلمين إلا أن يرجعوا لنفس النبوة ونفس الخلافة فيدرسوها درساً تاماً مفصلاً . ها نحن أولاء ، لم نجد في أممنا الإسلامية حوالنا ولا في أمم أوروبا حكومات تشاكل حكومات الخلفاء الراشدين .

تبين من كلام عمر مع ابن عباس أنه يضمن بالمسلمين أن يكونوا تحت إمرة من يتولى الخلافة بحق النسب خفية أن ترك الشورى ومحل النسب محلها وذلك الذي خاف منه عمر رضی الله عنه قد حصل عند الأمويين

وعند المبشرين ، فالنهب صار أصلا للخلافة ، وعمر يقول : كلا . إنما يكون بالشورى ، شاطر عمر حتى الصالح في أموالهم وكره من آخر كما تقدم ما أعطي من لئال للناس ودم ذلك سواء أكان من ماله هو أم من مال الأمة ، وعده على الأول إسرافا ، وعلى الثاني خيانة ، فيها هو ذا تاريخ ملوك الإسلام قديما وحديثا إتهم جميعا إلا قليلا منهم مسرفون في مال الأمة إسرافا فاحشا ، وكان الشراء لا يمشون إلا من عطاء الأمراء وللوك وكل هذا مال الأمة ولا نكيز عليهم ولا رقيب .

قتل للسلمون عثمان رضی الله عنه بما ظنوا من ميله لقومه بن أمية ، وبما اتهم به مروان بن الحكم من تزوير كتاب فيه إراقة دم لسلم ، وهذه لا تبلغ معشار عشر ما ابتليت به أمم الفرنسيين والإنجليز والألمان فصوا ملوكهم ، فلقد علمت كيف ظلم الإنجليز ملوكهم ظلما فاحشا ، وكيف ظلم رجال الكنيسة والأشراف الأمة الفرنسية ، فكان لا يدفع الضرائب إلا الطبقة الثالثة وهي أيضا لاحق لها في أن تمنع الطائفتين الغالبتين عن إفساد الزرع بصيد الأشراف فيه كما تقدم .

أيها السلمون : ها هو ذا كتاب الله ، وها هي ذه سنة رسوله والخلفاء من بعده ، فوالله لاجبة لكم بعد هذا ، قامت حجة الله على أمراء المسلمين وعلى العلماء وعلى العامة ، أما العلماء فببشر الفكرة بحيث تصبح كالعقيدة الجوهريّة في الإسلام ، فوالله إن خطاب للسل لربه في الصلاة إذ يقول «اهدنا الصراط المستقيم صراط الدين أنعمت عليهم» يتضمن ما تقدم عن الخلفاء ، إذن هذا الصراط وهو العدل والشورى هو «صراط الله الذي له مافي السموات ومافي الأرض» المذكورين في أول هذه السورة «حمّ عسق» إلى قوله «له مافي السموات ومافي الأرض» الخ . عدل الخلفاء الراشدون لإشراق نور النبوة عليهم ، ولكن ذلك النور أخذ إشراقه يتضائل على من بعدهم ، وخير لعلماء الإسلام وملوك الإسلام أن يدرسوا مع السيرة النبوية وإخلافة نظام العالم أيضا . (كالتى نشرناه في هذا التفسير ، فذلك مفتاح لمعرفة نور النبوة في مستقبل الزمان) .

وأما للوك فعليهم الاجتهاد في اتباع سيرة الخلفاء ، وأما العامة فعليهم الاتقياء للواله النافع ونبذ الظالم وذلك لا يكون إلا بتعميم التعليم ، وأنتم يا أمم الأرض المحيطين بالإسلام ، ها هو ذا نظام الإسلام والأرض الذي أبدعه الله وهو الذي ألهم الحشرات (وكل حيوان يعيش بهيئة جمهورية) كيف تنظم الجماعات وتعطي كل ذى حق حقه ، فأنتم محاسبون جميعا على ماترون من هذا النظام ، أنتم جميعا بعد الموت سترون النقص في فوسمكم وهذا النقص نفسه عذاب لكم ولا بد لكم من قطع عقبات في عوالم أخرى حتى تصلوا إلى تمام النظام ، وذلك بأمرين : عل تام بهذه الكائنات ، وإخلاص تام للجماعات بحيث تصبح نفس الإنسان في المساعدة لأخواتها بعد التروى والتفكر أشبه بما طبيعت عليه النحل في جماعتها والنحل في قرينها وهناك يكون الوصول إلى الله والنظر إلى وجهه الكريم وتكون السعادة التامة ، أما قبل ذلك فلا ، هذا ما عن لي اليوم كتبته في تاريخه ، والحمد لله رب العالمين . الأربعاء ١١ فبراير سنة ١٩٣١ م - ٢٣ رمضان سنة ١٣٤٩ هـ :

عدل عمر وإنصافه

جاء في (كنز العمال) في كتاب (أشهر مشاهير الإسلام) ما نصه :

كان بين عمر وبين أبي بن كعب خصومة ، فقال عمر : اجعل بيني وبينك رجلا ، فجلا زيد بن ثابت فأتيه ، فقال عمر : أمتيناك لتحكيم بيننا وفي بيته يؤتى الحكم ، فلما دخلا عليه وسع له زيد عن صدر فراشه فقال هاهنا يا أمير المؤمنين ، فقال له عمر : هذا أول جور جرت في حكمك ، ولكن اجلس مع خصمي ، اجلس بين يديه ، فادعى أبي وانكر عمر ، فقال زيد لأبي : أعف لأمر المؤمنين من البين وما كنت لأسألهما لأحد غيره . خلف عمر ثم أقسم لا يدرك زيد القضاء حتى يكون عمر ورجل من عرض الناس عنده سواء . وفيه عن عبد الله بن حكيم قال : قال عمر بن الخطاب : (إنه لا حلم أحب إلى الله تعالى من حلم إمام ورعته ، ولا جهل أبغض إلى الله تعالى من جهل إمام وخرقه) .

جمال الحكمة والعلم

في آية « وأمرهم شورى بينهم » وآية « قل لأسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى »

اللهم إنك أنت الحكيم العليم ، أنت الرب الشهيد . يا الله ، ما أجل صنعك في السموات والأرض ، وما أبدع نظامك في العقول الإنسانية ، حارت الأمم الإسلامية ياربنا في دين الإسلام . هذا الدين الذي أنزله منذ ١٣ قرنا ونصفا . المسلمون يرون في هذه السورة أنك تحب إليهم الشورى . ثم هم يجدون الأمم الإسلامية أكثر حكوماتها جاهلة غافلة . فيقرءون سيرة عمر فيقولون إلى أي حد وصل العمل بهذا الدين أيام سنى الخلافة فيفكرون في السير على منواله . و يرون في هذه السورة « قل لأسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى » و يرون المفسرين مختلفين في تفسيرها كما قدمناه ، ويجدون آية أخرى تؤيد أن القربى هي التقرب لله كما قدمناه إذ يقول . « قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا » والقرآن يفسر بضمه بضا ، ولكنهم يجدون تفسير الجمهور وهو أن المراد بالقربى قرابة النبي صلى الله عليه وسلم هو المشهور بين الناس ثم يرون لآل البيت مقابر جعلت محل الإعظام والإجلال . وإخذ الناس يقدمون لها في بعض أقطار الإسلام النذور ، يريدون بذلك قضاء الحوائج ، وفوق ذلك يرون كثيرا من العلماء في الإسلام يتقرون ذلك ، فهم في شدة الحيرة من ذلك . فهذه الحيرة أفضت مضاجعهم ، وفرقت وحدتهم ولكن رحمتك التي وسعت كل شيء تداركت الأمة بمثل ما جاء هنا في محاوراة ابن عباس مع عمر في سبب عدم إسناد العمل إلى آل البيت ، وقول الثاني للأول كما تقدم : « إني خشيت أن يأتي على القبي هو آت وأنت في عمك فتقول لهم إلى ولا هم إليكم دون غيركم ، إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل الناس وترككم » ثم أشار عمر إلى أن سبب ذلك خشية أن يبايع الناس آل البيت بمنزلتهم فيقع العقاب ، ولا بد من عتاب . ثم قال : فقد قرعت لك لما رأيتك ؟ إلى آخر ما تقدم .

اللهم إنك أنت الحكيم العدل ، وأنت الرحيم : ظهر السر الذي كان محبوبا ، ظهر في ثيابا الكتب للترويح . أنت أمرت بالشورى ولكن الناس يتأثرون بنوى البيوتات والمجد والشرف ولا براعون العلم

والقوة ، وكثيرا ما ولوا طفلا سفيرا لمزة والله الزاحل إلى ربه . فإذا صح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك ولاية بعض بني هاشم خيفة أن يبايعوا الناس بمنزلتهم . وإذا صح أن عمر فعل ذلك أيضا وقد ظهر صدق فراسته إذ تقلد ابن عباس ولاية لعلى رضى الله عنه ، وأخذ ما في بيت المال لنفسه فأحزن أمير المؤمنين عليا بذلك فضلا عما يلقاه من معاداة معاوية بالشام . أقول : إذا صح هذا فقد ظهر الحق واستبان السبيل .

الهم لاحبة للمسلمين في مخالفة الحقائق « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . فها هنا أمران : (أولا) الإمارة لا يجوز أن تكون إلا بالكفاءة وهذه يعرفها أهل الحل والمقد . والعبارة بالأغلبية . (ثانيا) : إكرام آل البيت رضى الله عنهم ، إن هذا الإكرام لا يختلف فيه اثنان من المسلمين ، ولكن هذا الإكرام ليس مصاه (أولا) أن نولي أحدا ولاية وفي الأمة من هو أجدر منه ونضيق المسلمين ونطمع فيهم الكفار بهذا السبب ، ولعمري لأن تحفظ بلاد الإسلام من عدوان الأعداء وآل البيت محترمون قبيها خير من أن يأخذها المدو فيم القل آل البيت وغيرهم (ثانيا) أن تنذر لهم النذور فتقول : إن شئى مريضى أو جاء غائبي فإنى أضع فى صندوق السيدة زينب رضى الله عنها أو فى صندوق سيدنا الحسين رضى الله عنه كذا كذا من التعود فإن هذا من أوضاع الجاهلين من أم الإسلام

الهم إن قراء هذا التفسير الترمين به لا يجوزم إيضاح هذا التمام ، ولكن سأهل لهم ماجاء من أقوال الشيخ الطباغ لأنه من كبار الأولياء والصالحين بقوله محتجون على كل من ادعى الولاية من المسلمين ، أولئك الذين يقولون : [إن الشريعة شىء ، والحقيقة شىء آخر] فهذه خديجة كاذبة خاطئة ، فانظر ما قاله وهذا نصه :

قال ابن المبارك : [وسألك رضى الله عنه ؟ لم كان الناس يستنبئون بذكر الصالحين دون الله عز وجل ؟ ترى الواحد إذا جهد فى يمينه يقول : وحق سيدى فلان كسيدى عبد القادر الجيلانى أو سيدى جزى أو سيدى أبى العباس السبتي وغيرهم فعنا الله بهم . وإذا أراد أن يحلف أحدا ويؤكد عليه فى يمينه يقول : احلف لى بسيدى فلان ، وإذا أصابه ضر وأراد أن يسأل كالمسألة الذين يتكفون الناس صرح باسم سيدى فلان وم فى ذلك كله منقطعون عن الله عز وجل ، وإذا قيل لهم توسلوا بالله أو احلقوا به أو نحو ذلك لا يقع ذلك الكلام منهم موقعا ، فما السبب فى ذلك ؟ فقال رضى الله عنه : أهل الديوان من أولياء الله ضلوا ذلك عمدا لقوة الظلام فى الدوات وكثرة للتقطيع عن الله عز وجل فصارت ذواتهم خبيثة ، وأولياء الله تعالى يحبون الذين يذكرون سيدم وخالفهم سبحانه أن تكون ذاته طاهرة لأنه تعالى يجب من دعاه إذا اطع إليه باطنا وقت الهداء ، وإجابته تكون بأحد أمرين : إما أن يعطيه ما سأل ، وإما أن يبين له سر القدر فى اللع إذا منه وهذا لا يكون إلا للأولياء ولا يكون للبعدهاء المحبوبين ، فلو توجهت الدات الظلمانية إليه تعالى بجميع عروقها وبكل جواهرها وسأله أمرا ومنمها ولم يطلعها على سر القدر فى اللع لربما وقع لها وسواس فى وجود الحق سبحانه فتقع فىها هوأدهى وأمر من عدم قضاء حاجتها ، فكان من الصلحة ما ضله أهل الديوان من ربط عقول الناس بعباد الله الصالحين لأنه إذا وقع لهم وسواس فى كونهم أولياء فلن ذلك لا يضرهم . قال رضى الله عنه : وبما يدلك على كثرة للتقطيع وزيادة الظلام فى ذواتهم أنك ترى الواحد يخرج من داره بشرين موزونة مثلا وينذهب بها إلى ضربى ولى من أولياء الله تعالى فيطرعها عنده ليقضى له حاجته ، وكم من قدير محتاج ليقاه فى الطريق ويطلب منه متاع الله فى سبيل الله لوجه الله فلا يعطيه مرها واحدا حتى يبلغ للوئى فيطرعها عند رأسه ، وهذا من أقيع ما يكون ، وسببه أن الصدقة لم يخرج

له عز وجل وعظمته وكبريائه ووجهه الكريم ووجوده العظيم، إذ لو خرجت لذلك لدمها صاحبها لكل
 محتاج لقبه، لكن لما كان الحامل عليها والتماعى إلى إخراجها هو قصد النفع لنفسه واستكمال أغراضه
 وحظوظه خص بها موقفا دون موضع لظنه أن النفع يتبع ذلك للوضع وجودا وعندما قال رضى الله عنه :
 وقد رأيت في هذا اليوم ما أهدى للصالحين من باب تلمسان إلى الساقية الحمراء فإذا هو من الدنانير ثمانون
 ديناراً ومن الفهم ثلاثمائة وستون شاة، ومن البقر اثنان وسبعون ثوراً، أخرج هذا كله في يوم واحد للصالحين
 وما أخرج لله تعالى في ذلك اليوم عشرة دراهم. قال رضى الله عنه : وهذا سبب من الأسباب الموجبة للانقطاع
 عن الله عز وجل الطارئة على هذه الأمة من غير شعور لأكثرهم بها وهي منحصرة في ثمانية وستة وستين
 سبباً كلها موجبة لانقطاع البدن عن ربه عز وجل. قلت : وهل حصركم الآن منها شيء ؟ فقال رضى الله عنه
 اكتب . (الأول) : الهدية للصالحين على الوجه السابق دون وجه الله عز وجل . (الثاني) : التوسل إلى
 الصالحين بالله عز وجل ليقضوا الحاجة، فيقول الزائر : « قدمت لك رجاء الله يا سيدي فلان إلا ملاقتي لى
 حاجتي » وإنما كان سبباً للانقطاع لأن الزائر قلب الواجب وعكس القضية ، فإنه كان من حقه أن يتوسل
 لله عز وجل بأوليائه لا أن يعكس . (الثالث) : زيارة الصالحين وعلى الزائر دين فرض كمدد صلوات وجب
 قضاءها عليه ترك قضاءها الذى هو حق الله وفيه نور الله وسره تعالى الذى يرحمه به وذهب إلى زيارة
 صالح ، ولا يخفى ما فيه من الانقطاع والظلام . (الرابع) الخوف من الظالم على العمر والرزق وغيرها
 فيقول في نفسه : « لا أعصى هذا الظالم لأنى إن عصيته قتلتى أو منع رزقى » أو غير ذلك مما يوجب الخوف
 منه ولو تحقق بوجود الحق تعالى معه وتصرفه فيه وفى ذلك الظالم لعم أنه هو الفاعل وحده ، لا يشاركه
 ذلك الظالم ولا غيره فى فعل من الأفعال ، وحينئذ فلا يخاف إلا منه تعالى ، بقدر ما يقوى هذا النظر
 فى البدن يقوى قربه من ربه تعالى ، بقدر ما يقل أو ينعدم يحكون بده من الله عز وجل وانقطاعه
 (الخامس) الطمع فى الظالم فيتقرب إليه لينال منه رزقا ، ولو تحقق بأن الله سبحانه هو الرزاق لم يصدر
 منه ذلك (السادس) النصرة للكافرين فيلهمهم مصالحهم فى دنياهم بأن يرى لهم طريقا ونحوه فإنه من
 أسباب الانقطاع عن الله عز وجل . قلت : وما رأيت من نصح ظالما إلا وكانت عاقبة أمره خسرا . ونذكر
 هاهنا قصة سفيان الثوري رضى الله عنه مع الذى أراد أن يوقظ حرسا للصلاة ، فقال له سفيان : لا توقظ
 دعه هذه الساعة نترحم منه ومن شره فيها . (السابع) : عدم النصيحة للمسلمين ، فبى ما يضرهم
 ولا يأمرهم بالتحريم منه ، ويرى ما ينفعهم ولا يأمرهم بالتأهب له (الثامن) استعلاء التبع والشقة فى
 طلب الدنيا على عبادة الله عز وجل ، فمن أحسن بذلك من نفسه فليعلم أنه مرتكب سببا من أسباب
 الانقطاع . (التاسع) : طلب الدنيا بما هو أهون منها وأذل وأحقر ، وقد سلك السلف الصالح
 رضى الله عنهم يطلبونها بما هو أعلى منها وأعز كالجهاد والتجارة والزراعة وغير ذلك من أسباب
 الحلال . وأما من طلب الدنيا بالزور والكذب والفسور والأيمان الحامئة فقد طلبها بما هو أسوأ
 منها أى من الدنيا ، فمن أحسن بذلك من نفسه فليتب إلى الله عز وجل . قلت الدنيا لا تدرك إلا بما
 هو أعز منها . (العاشر) : أن تكون أعمال البدن وطاعاته بقصد أن يرحمه الله بها ويقصد نفع نفسه
 وتحصيل أغراضه وحظوظه لا يقصد وجه الله الكريم ووجوده العظيم ، وهذا سبب قد عم أكثر الناس إلا
 من رحمه الله عز وجل جعلنا الله منهم بمنه وفضله : قال رضى الله عنه : ولو لم يخلق الله جنة ولا ناراً لتبين من
 يجده ممن لا يجده ولكانت عبادة الذى يعبده خالصة لوجهه الكريم ، وحينئذ تحصل للرفقة به تعالى على
 وجهها الكامل لمن عبده ، ولكن الناس لما سمعوا بذكر الجنة والنار تفرقت أغراضهم نحوها فضلوا عن

السبيل (الحادى عشر) للماصى في حرمت الله تعالى كالساجد ونحوها فإن العبد لو تحقق بإضافة البيت إلى ربه وقال في قلبه (هذا بيت الله) لم تصدر منه فيها معصية (الثانى عشر) اللواط وستأى مفسدته وأنه لا مزيد عليها (الثالث عشر) ضرب الرجل امرأته من غير ذنب فلذلك الضرب سبب في الانقطاع لما لها عليه من الحقوق (الرابع عشر) اللثة على العيال والأهل بالنفقة فيقول: (أنفقت عليهم كذا وكذا) بقصد اللثة (الخامس عشر) الحسد، وسياى إن شاء الله تعالى ما فيه من الفاسد وأن غالب الماصى منه. (السادس عشر) الإقدام على المصيبة مع معرفتها، وسياى إن شاء الله يان ذلك عند الكلام على أشد الناس عذابا يوم القيامة (السابع عشر) جمع الدنيا من الحرام. قلت: ولا يتكرر مع الوجه التاسع كما لا يخفى (الثامن عشر) عقوق الوالدين: فسمعتة رضى الله عنه يحكى عن شيخه سيدى عمر بن محمد الموارى، وذكر أنه كان جالسا معه عند السدرة المحررة التى على خارج ووضة سيدى على بن حرزيم فجاءه ولده يودعه وأراد الذهاب إلى الحج فأبى عليه أبوه سيدى عمر. قال: وكان عاقا لأبيه، فذهب وأبوه غير راض عنه، فقال لى سيدى عمر: نتيجة عقوق الوالدين أربعة أمور: أحدها أن الدنيا تذهب عنه وتبغضه كما يبغض المؤمن جهنم. ثانيها أنه إذا جلس في موضع من اللواضع وجعل يتكلم مع الحاضرين في شيء من الأشياء صرف الله قلوبهم عن الاستماع لكلامه، ويترع الله تعالى البركة والنور من كلامه وجسير بمفوتها بينهم. ثالثها أن أولياء الله تعالى من أهل الديوان والتصرف لا ينظرون إليه نظر رحمة ولا يرقون له أبدا. رابعها أن نور إيمانه لا يزال ينقص شيئا فشيئا، فمن أراد الله به الشقاوة والعباد بالله لم يزل كذلك إلى أن ينهب نور إيمانه ويضمحل بالكلية فيموت كافرا، نسال الله السلامة، ومن لم يرد بذلك مات ناقص الإيمان أمادنا الله من ذلك. قال: ونتيجة رضام أربعة أمور هي أمداد لهذه الأمور: تحبه الدنيا كما يحب المؤمن الجنة، ويحلو كلامه بين الناس، ويحمن عليه أولياء الله تعالى، ولا يزال إيمانه يزيد شيئا فشيئا والله اللوفق. فانظر يا أخى هذه للفاسد الأربعة التى فى عقوق الوالدين، والخامس الأربعة التى فى بر الوالدين.

(التاسع عشر) مخالطة المحجوبين كذوى الرياسات فإن في ذات اليد المؤمن خيطا من نور يخرج من ثقبه من ذاته يتصل ذلك النور بطية الحق سبحانه يزيد بمخالطة أوليائه تعالى ويقل بدمها ويخاف عليه من الانقطاع أصلا، وانسداد الثقب بمخالطة أرباب الرياسات، فإنهم برياستهم وأموالهم وجاههم يستولون على ذاته فتكون تحت أسرهم وفي حكم قبضتهم، فلا يزال يضيء إليهم بقلبه وقلبه، ويبقى على ذلك اللدة الطويلة ولا يقع الحق سبحانه في فكره ولا في خاطره، فلا يزال كذلك مسترسلا في أغراضه وانقطاعه حتى تنسد الثقب أصلا والعباد بالله، وهذه آفة حاصلة من ذوى الرياسات. نسال الله السلامة (المشرون) التفريق بين الخلقاء الأربعة: أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم أجمعين.

هذا ما قاله الشيخ الدباغ رحمه الله تعالى، ومن عجب ما ذكره الشيخ الشعرانى في كتابه للسسمى (در الفواص) في هذا للوضوع، فقد سأل شيخه الخواص، فقال مانصه: وسألته رضى الله عنه: هل أقرأ أو أصوم وأجل ثواب ذلك لأدم عليه الصلاة والسلام ليكون ذلك وصلة بينى وبينه في المعرفة في الآخرة بسبب أعلته به؟ فقال: لا تجمل بينك وبين الله واسطة أبدا من نبي أو غيره. قلت له: كيف؟ فقال لأن الرسول إنما هو واسطة بين العبد وبين الرب في الدعوى إلى الله لا إلى نفسه، فاذا وقع الإيمان الذى هو مراد الله تعالى من عباده ارتفعت واسطة الرسول عن القلب إذ ذاك وصار الحق تعالى أقرب إلى العبد من نفسه ومن رسوله ولم يبق للرسول إلا الحكم الإناضة على الصد من جانب التشريع والاتباع كما في حال للتاجاة في السجود سواء؛ فنفس الرسول يثار من أمته أن يقفوا معه هون

الله تعالى فإنه يعلم أن مقصود التشريع حصل بالتبليغ كما حصل له الأجر على ذلك كما أشار إليه قوله صلى الله عليه وسلم «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها» الحديث . انظر يا أخى إلى غيرة الحق تعالى على عبادته لقوله لمحمد صلى الله عليه وسلم «وإذا سألك عبادى عنى فإنى قارب أجيب دعوة الداع إذا دعان» فأعلننا تعالى بأنه أقرب إلينا من أنفسنا ومن رسولنا الذى جعله الله تعالى واسطة لنا فى كل خير مع أنه تعالى بالغ فى مدحه صلى الله عليه وسلم حتى كاد أن يصرح بأنه هو لكثرة ما وصفه بالكمال فى نحو قوله تعالى «من يطع الرسول فقد أطاع الله» وقوله «إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله» ومع ذلك قال له «ليس لك من الأمر شئ» أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون» فأخرجه عن حال الخلق وقناه عنهم وأثبتته معه فى البراءة عن التولية وعن مشاركة أحد منهم له فى كاله أو رتبته صلى الله عليه وسلم فانهم والله أعلم . انتهى كلامه .

درة يديمة

حضر صاحبى الذى اعتاد أن يحادثنى فى هذا التفسير . قال : هل تسمح لى أن أقدم هذه القالات . قلت جبا وكرامة . قال : أين التريا وأبن الترى ؟ ذكرت سيرة عمر رضى الله عنه لمناسبة آية الشورى وأثبتها بأقوال الشيخ البليغ ، فأين للناسية بينهما ؟ قلت بإصاح الأمر سهل ، إن فى السورة آيتين وهما آية الشورى وآية اللودة فى القربى وبينهما صلة ما . الا ترى أن للسليين أبوا أن يسيروا بالشورى بمدسى الخلافة وهى ٣٠ سنة كما تقدم ، ولقد ظن الناس أن الانتساب لعظيم أو لملك كاف ، وهذا فى الحقيقة انحرف من الجماعة فى الخلافة ، فأية اللودة فى القربى باعتبار التفسير للشهور جعلت سببا فى إبطال الشورى فى زمان ما من أزمان التاريخ الإسلامى ، ولقد تعالى الناس فى التمدلى والتنزل والتفاضى عن الحقائق الإسلامية حتى ظفروا النذور لمن مات من الأولياء شرفاء أو ضير شرفاء ، فذلك ذكرنا أقوال الشيخ البليغ ليظهر للمسلمين الحقائق التى يقول بها علماء الإسلام وظهرت على لسان صالح من صلحاء الإسلام .

ولو أنهم أدركوا الحقائق لرجعوا إلى ربهم فى صغيرات الأمور وكبيراتها والله يقضى بالحق . إن الذى أضل كثيرا من المسلمين هو الجهل الفاضح ، ولملك تذكر ما قدمته من حديث عمر مع ابن عباس : قال : لا كره ولكن أريد ما هو أوضح . قلت اسمع ماجاء فى كتاب (أشهر مشاهير الإسلام) وهذا نصه :
ومن عجيب فراسته التى كان كأنه ينظر منها بين الضيب ما ذكره ابن عبد ربه فى المقد . قال : قال أمير بكر بن أبى شيبة : كان عبد الله بن عباس من أحب الناس إلى عمر بن الخطاب ، وكان يقدمه على الأكابر من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ولم يستمه قط ، فقال له يوما كدت أستمعك ولكن أخشى أن تستعمل التلى . على التأويل ، فلما صار الأمر إلى على استمه على البصرة فاستحل التلى . على تأويل قوله الله تعالى «واعلموا أن ما غنمتم من شئ» فإن شئ حسنة وللرسول وقضى القربى» واستمه من قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يفرس فيه ذلك عمر من قبل . هكذا كان مبلغ فراسة عمر رضى الله عنه خصوصا فى بنى هاشم وقد كان يفرس فيهم القيام يوما لطلب الخلافة وإثارة غبار الفتن والاستحواذ على ذلك للنصب الذى كانوا يرون أنفسهم أحق الناس به على خلاف ما كان يراه جلة المهاجرين الذين يحملون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم من أن يحملوا له عملاكى لا يحدثوا أنفسهم بشئ من الإمارة لأنها غير النبوة ، ومن ذلك ما ذكره فى المقد أن النبى رضى الله عنه عم النبى صلى الله عليه وسلم طلب منه ولاية فقال له : «يا عم نفس تحبها خير من ولاية لأصحابها»

وكان عمر لتفرسه قيمه التطلع إلى الإمارة لا يستعمل أحدا منهم كما لم يستعمل رسول الله ﷺ وسلم وعلمه
بقلته هذا فيهم ، وقد جاهر به لبيد الله بن عباس مرارا ، ومنه ما تقدم ذكره في باب سياسته إذ قال هـ :
« يا ابن عباس إني خشيت أن يأتي علي الذي هو آت وأنت في عمالك فتقول هم إلينا ولا هم إليكم حين
غيركم » .

ولقد تحققت فراسته في بن هاشم بعد إذ قضا عصورا طويلة في مكافاة للوك ومزاحمة الخلفاء على
الخلافة وأسوا عدة دول أضخمها العباسية في بغداد والقاطمية في أفريقيا وأهرقوا سيولا من دماء أشياعهم
وأشياع غيرهم في سيل نيل هذه البنية ، وتأتي عن هذه المزاحمة من التشويش في أمور الدول الإسلامية
والاضطراب في السدين ما الله به عليم . على أنهم لو انصطوا بسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ صرف
أسلافهم عن الإمارة وصرفها عنهم لما أقدموا على شيء من ذلك بل لكانوا إذا استمر في قوسهم شيء من
التطلع إلى الخلافة سلكوا إليها سبيلا غير ذلك السيل وجعلوا الأمة بأجمعها طامحة الأنظار إليهم ساعية بنفسها
لإسناد منصب الخلافة لأهل الجدارة منهم وحسبهم موعظة وذكرى أن على بن أبي طالب رضى الله عنه على
صلاحه وتقواه وسابقته في الإسلام وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهرته بالعدل والورع والزهد
(ومن كمل بعده) لم يوفق إلى جمع كلمة الأمة على الرضا بخلافه لا تصور فيه معاذ الله وإنما هو لما وفر
في قوس الأمة يومئذ من أن الهاشميين بسبب قرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينفكون عن
الإدلال على الناس وحب الاستلاء على الكافة والناس يومئذ في إبان نشأة الإسلام وعز الحرية وحظيرة
للساواة والإخاء التي حشرم إليها الإسلام بقوة تعالى « إنما المؤمنون إخوة » ويقول النبي صلى الله عليه
وسلم : « لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » فتبوءهم أن يسلمهم بنو هاشم شيئا من هذه النعمة
بالاستلاء عليهم ، كانوا غير مبالين لاستخلاف أحد منهم ، بذلك على صدق هذا القول ما ذكره في النقد عن
عبد الله بن عباس . قال : « ماشيت عمر بن الخطاب يوما فقال لي : يا ابن عباس ما يمنع قومك منكم
وأتم أهل البيت خاصة ؟ قلت لأدري ، قال : لكنني أدري أنكم فضلتهم بالنبوة ، قالوا : إن فضلوا
بالخلافة مع النبوة لم يبقوا لنا شيئا وإن أفضل النصيين بأيديكم بل ما إخالها إلا مجتمعة لكم وإن نزلت
على رغم أنف قريش (يريد الخلافة) اتعنى ما أردته من كتاب (أشهر مشاهير الإسلام) والحمد لله
رب العالمين .

فقال صاحب : لقد وضع اللقاه وضوحا تاما ، فالحمد لله ، فإذا تقول في الأمم الإسلامية الحاضرة هل
ظهرت في بعضها بوادر الشوري . قلت : إن هذا هو الزمان الذي سيظهر فيه نور النبوة وتظهر سيرة النبي
صلى الله عليه وسلم وسيرة عمر وغيرهما ، وهناك تبدل الأرض غير الأرض ، والصلون مقبلون على هذه الحال
طوعا أو كرها ، والذي منعم من ذلك هو الجهل ، أما اليوم فإن الله قد أذن بانتشار العلم في الإسلام ،
وستكون الحكومات كلها شورية ، فهل لك أن تسمع ما جاء في جريدة الأهرام يوم الاثنين ٥ نوفمبر
سنة ١٩٣٠ وهذا نصه :

الحياة النيابية في أفغانستان

جلالة الملك نادر شاه يمنح البلاد مجلسا نيابيا
حفلة الافتتاح وخطاب العرش

نشرنا في الأهرام القراء منذ أسبوع كلمة عن جلالة الملك نادر شاه ملك أفغانستان الخالي بمناسبة تنويعه واليوم جاءنا البريد الأفغاني طامحا بوصف حفلة افتتاح المجلس النيابي الجديد الذي أنعم به جلالة الملك نادر شاه على بلاده التي تمسق الحزبية وتتفانى في الذود عن حياضها من قديم الزمان رغبة في أن تسود العدالة والرفاهية في تلك البلاد .

وقد ألقى جلالاته خطابا ضافيا بحث فيه عن حالة المسلمين وقارن بين تاريخهم الماضي وتاريخهم الحاضر بشيء من الإيجاز وخرج من بحثه بنتيجة هامة هي منح بلاده الحياة النيابية الصحيحة لتمكين في صراحة وإيمان من إدارة شئونها بنفسها . وقد قامت الأمة الأفغانية المحيدة على بكرة أبيها تهليل وتكبير لهذا الحادث السعيد . وإننا لا نرى مندوحة من أن ننشر للقراء الكرام وصف حفلة الافتتاح كما شرحت الجرائد الأفغانية وترجمة خطاب العرش الكريم . قالت جريدة (إصلاح) التي تصدر في كابل « كان يوم ١٦ ربيع الثاني سنة ١٣٤٩ يوما مشهودا في كابل تطاولت إليه أعناق الأفغانيين وتطلعت إليه ألسنة الشاهدين منهم والغائبين لأنه فاعمة عهد جديد وغرة عصر سعيد، وهل هناك أعظم من نعمتي الحزبية والثورى اللبية لجدير بهذا اليوم أن يحتفل به الأفغانيون احتفالا جديرا بهم وهم الأبطال الأماجد .

ففي هذا اليوم غصت ردهة قصر جهل ستون (الأربعين عمودا) بمجموع وكلاء الأمة وعظماؤها والكثيرين من العلماء والوظفين العسكريين منهم واللكيين وذلك لمشاهدة الاحتفال بافتتاح المجلس النيابي الأفغاني الذي يعد أكبر حادثة تاريخية في أفغانستان في العصر الحاضر لأن أفغانستان التي نشأت من القديم على حب الحزبية كانت محرومة من نعمة الثورى بطريقة رجمية تخضع لها الحكومة المركزية وتكون رهن إشارتها ، وقد بدأ كان القول الفصل فيها هو للحاكم الأعلى لارقيب عليه ولا حسيب ، وكثيرا ما نتج عن ذلك مضار لا تحصى وأخطار كيدت الأمة ضحايا كثيرة وخسائر جسيمة ، وفي الوقت نفسه يجدر بالحاكم العظيم خصوصا في بلد كالأفغانستان أن يهول على عضد شعبه ورضاه بدلا من أن يستقل برأيه الشخصى ويتبع هواه ويسخر من مواطنيه ولو تصفحتنا تاريخ أفغانستان لوجدنا أن الحكام الذين ساروا وفق رغبة الأمة كانوا في مركز أعظم ضمانة وأكثر حرية وأكبر كرامة وأبعد نفوذا وبالعكس فإن الذين فسقوا عن أمر الأمة واستهانوا بكرامتها طردوا ولم يجدوا لهم عوناً ولا نصيراً .

وهاهو جلالة الملك نادر شاه الذى نفع في بلاده تلك الروح العالية التي نقلتها من السكارنة التي كادت تؤدي بها إلى الهلاك وتعمل في سبيل ذلك كل ما يتحمله المخلصون مستعينا في ذلك بما وهبه الله من قوة الذهن وسعة العقل وحسن البصيرة، يفتتح عهده السعيد باعطاء البلاد حريتها التامة وحقوقها الكاملة فأنشأ المجلس النيابي (لويه جرگه) رغبة في جمع كلمة الأمة وتوحيد الوجهة الوطنية توحيدا صادقا لخدمة الصالح العام كما يتضح من خطاب العرش وهذا ترجمته :

(أعزائى المحترمين : أحمد الله الذى أتاح لنا هذا الاجتماع الأخوى بعد أن قاسينا مآسينا في سبيل تبييد تلك الشدائد والمخاوف التي كانت تحيط بنا وبالبلاد من كل جانب ، فاجتمعكم أيها النواب في هذا المجلس للقدس

وأتم على أم ماتكونون أمجاداً وأخوة إسلامية عملاً بقول الله تعالى «إنما المؤمنون إخوة» إنما هو لقصده شريف وهو ترقية أفغانستان والعمل على إسماعها ورفاهيتها وتقوية أركانها وقفا للأمر الإلهي القائل (وشاورهم في الأمر) «وأمرهم شورى بينهم» لهذا اجتمعتم في مكان واحد وقفا لرغباتنا الصادقة، وإن أشكر الله تعالى على ذلك شكراً عظيماً وأحسب من صميم قلبي وأتمنى أن تكونوا أتم وكافة أفراد الأمة بخير وعافية، وبعد فإنكم تعلمون أن النجاة والسعادة في الحياة هما في الانضاق، كما أن الخراب والعبودية في النفاق، وقد شاهدنا ذلك بيوتنا في مدة لا تتجاوز السنة فتأكدنا أن النفاق عذاب إلهي كما أن الانضاق رحمة سماوية وتفصيل هاتين الحقيقتين واضح في التاريخ في كل زمان ومكان وأثرهما يعرفه كل إنسان.

وإنكم تفهمون لماذا وكيف انتشر الإسلام وعم الآفاق ونشر ألوية الأمن والسعادة البشرية والترقيات المصرية خفاقة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين رضوا الله عنهم ومن سلك مسلكهم؟ لم يكن ذلك بقوة السيف وحده وإنما بالأصول الصحيحة والقواعد السليمة التي جذبت الجماعات المختلفة والأقوام للنبينا إلى حظيرة الدين الحنيف الذي انتشر بقوة البرق الحاطف أينما حل وسار، ومن أكبر دواعي نجاحه انضمام القوارق الجنسية والاجتماعية بينهم، فالمسلمون إخوة مهما اختلف لونهم وتمددت أجناسهم وتباينت أوضاعهم فلا فضل لأحد على الآخر إلا بالتقوى فهل تراهم تمسكوا بأهداب المساواة وحافظوا على الشورى في أمورهم وأعمالهم، إن رقى المسلمين في الماضي لم يكن له من سبب إلا بحفاظتهم على هذه الصفات الكريمة والمزايا الحميدة فلما عرفوا عنها وهي في الحقيقة أساس الرقي والتقدم سقطوا إلى الخضم، لقد عرفت الدول التمدنية بعد طول التجارب أن الأصول الإسلامية كالحرية والمساواة والشورى أفضل الأصول وأرقاها ولذا اتخذتها أساساً لحكوماتها بعد أن أراقت في سبيلها الدماء الغزيرة ولم يكن قبل الإسلام حرية بمعنى الكلمة حتى يمكن أن يشير إليها.

ومن أحسن أنواع المساواة في الإسلام مسألة ترتيب الصفوف في الصلاة؛ فالخادم يقف بجانب الملك في حضرة الإله يؤدي الفرض بلا كلفة ولا حرج. ونفس صلاة الجماعة أعظم مثل في المساواة الإسلامية، ولكن لسوء الحظ فإن الحكومات الإسلامية مالت إلى الاستبداد وعكفت على الإفساد والتفرقة فتأخرت وانحطت حتى أصبح يضرب بها المثل في الذلة والمسكنة.

ما سبب هذا التدهور وذلك الترقى؟ ياترى الدنيا عالم أسباب؛ فإذا كانت الأسس التي تبني عليها الأعمال والاصلاحات مبنية على التجارب الصحيحة والقواعد الثابتة كانت النتيجة في أي زمان ومكان لا شك معيدة منتجة.

وإذا كانت الأسس غير صالحة والتجارب غير ناضجة جاءت العاقبة وبالاً بلا مراء. هذا هو القانون الأساسي الذي لا يقبل ولا يتحول إلى قيام الساعة «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» ففي الزمن الأول كان المسلمون أهل استقامة وعلم بالسياسة وحزم وشجاعة عملاً بقانونهم الإلهي القويم فوصلوا بذلك إلى ما وصلوا إليه من الرفاهية والسؤدد، فلما ابتليت الأمة الإسلامية بالملوك الأنانيين والعلماء الفسدين وساءت سيرها الحاكمين مع انقضاء قانونهم المبين وصلت إلى ما هي فيه الآن من العجز والانحطاط.

ومن دواعي الأسف أنه كلما ظهر في هذا العصر رجل جبر حازم غيور على دينه وبلاده سواء أكان من الحكام أو العلماء قام في وجهه المعارضون فلا يهدأ لهم بال إلا إذا نكسوا رأسه فيخلو الجو لدوى الأغراض والمصالح الشخصية وهذا ما يئيبنا به المسلمون والتاريخ شاهد عدل على ذلك.

ولما كان لابد من قوة تعظم وتؤيد المعاملات والأحكام أمضى حكومة عادلة تسير على منهاج الشرع الإلهي

يكون فيها الحاكم هو للشول الأول في تنفيذ القوانين التي تشرعها الجماعة التشريعية ويكون مسلكه قدوة
لقرعية إذ (الناس على دين ملوكهم) كان من الواجب أن زمام أمر كل أمة دائما أبدا بيد شخص عاقل صادق
يسهر على مصالح الأمة ويعمل على نحو الفوضى والحرب وجلب السعادة والرفاهية .

هذه هي نظريتي التي توصلت إليها أعرضها عليكم أيها الأعضاء .

وفيما يختص بوطننا العزيز ، فإنني لأسف بأن الانقلاب الذي وقع أخيرا لم يكن وحده هو سبب خراب
أفغانستان بل أيضا عدم وجود أساس حكومي ثابت كان أكبر عامل في ضعف وتأخر البلاد .

فإذا لم نتخذ بالرغم من كل شيء الاحتياطات اللازمة والوقايات الضرورية إزاء أمثال هذه الصدمات
للحجبة والتكبات للدلمة فإننا نعتبر مقصرين في خدمة الوطن الخدمة الحققة اللائقة به إن لم نعتبر خائنين له ،

وإنني كما تعلمون حقا أحب بلادي من صميم قوايدي ولست أرغب في شيء أكثر من أن أعتبر خادما من
خدام الدين والوطن ، ولهذا وبالرغم من المشاكل المالية التي وقعت عقب الانقلاب الأخير أرغب في أن تكون
حكومة أفغانستان على أساس صحيح وأمن رغبة في تقدم البلاد وإنهاضها إلى مدارج الفلاح ، وكل من يساهم
في هذا المقصد النبيل لا شك يفوز برضا الوطن المقدس وإحراز السعادة الأبدية الخالدة .

ولهذا للتصدعني الذي اعتبره مفتاح السعادة طلبتكم أيها الوكلاء لأعرض عليكم رغباتي الخالصة وهي أنا
منحنا رعبتنا الحرية الكاملة التي لم يحصل عليها أكثر الأمم رغم إراقة الدماء وأمرنا بالمجلس النيابي رغبة
في أن تسود العدالة والرفاهية في هذه البلاد ، ولتعملوا أنكم إذا أحسنت استعمال حكم المهول لكم أمكنكم
الحصول على فوائد حجة لخير وطنكم وحكومة بلادكم .

وإنني لأرجو أن تقوم في أفغانستان الشورى اللبية التي هي دواء المرض ومفتاح السعادة على خير الأسس
ونحوز كافة الصفات والناصر التي هي في الإسلام .

وإنني أحمد الله الذي وفقني إلى تحقيق ما وعدت به وها هو المجلس النيابي يعتقد لهذا المقصد السامي وبذلك
أشكر الله شكرا كثيرا على ما هداني إلى إحياء سنة كانت متروكة إلى هذا اليوم .

وسيتباحث معكم في هذا الباب الصدر الأعظم ومجلس الوزراء في جو ودي للوصول إلى طريقة الانتخاب
وعدد الوكلاء وفقكم الله وسدد خطاكم حتى يكون عملكم هذا موضع إعجاب ورضا العالم أجمع آمين «
وإننا لنبتهل إلى الله بالدعاء بأن يجعل هذا العمل محمود النتيجة مبارك الأثر على البلاد وأن يبقى به عليها
ظلال الأمن والرفاهية وأن يحفظ للبلاد ذات جلالته الكريمة وهو من شهد له التاريخ بعمله اللوفق في إيقاد
البلاد من الفوضى ومن عرفت له البلاد مآثره الكريمة في نشر ألوية الحرية موبدة بتوفيق الله . انتهى ماجاء
في الجريدة المذكورة .

فما آمنت هذا القال قال صاحبي : لقد شرحت صدرى فأحمد الله عز وجل ولكن ماذا تقول في بقية
بلاد الإسلام . فقلت : هي إلى هذا سائرة ، فأهل مصر بلادي وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش ،
وكذا أهل الشام والعراق وغيرهم ، كل هؤلاء ستكون حكوماتهم شوربة صادقة ، وستزول الأمم الأوروبية
من بلادهم فلا تبقى انكلترا في بلادنا مصر وفلسطين والعراق ، ولا إيطاليا في طرابلس ، ولا فرنسا في الجزائر
ومراكش وتونس والشام ، ولا إسبانيا في مراكش ، بل هذه الدول سترحل من تلك البلاد لأن الذي
أدخلها فيها هو جهل المسلمين وغفلتهم ، والقوم اليوم استيقظوا ، وستكون الحكومات محلبة صادقة جيدة
عن الترف والزوات والشهوات القاتلة .

إن الذي أضر المسلمين بعد الصدر الأول ظنهم أن الحاكم هو الذي يفعل ما يشتهي ويتمتع وبأكل كما

تأكل الأنعام في هذه الحياة ، وهذا مرض وجعل ، فليعلم المسلمون تملأ أرقى ، ويلطوا أن ذلك كله مرض وجعل فاضح وخزى عظيم ، الملك والأمير والحاكم والقاضي يجب أن يكونوا أزهد الناس في مال أهون وأرضهم نفسا وأعضهم ، والله هو الولي الحميد ، انتهى تفسير سورة الشورى .

تفسير سورة الزخرف

(هي مكية)

إلا قوله تعالى « فاستخف قومه فأطاعوه . إنهم كانوا قوما فاسقين » فمدنية

آياتها ٨٩ - نزلت بعد الشورى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ • وَالكِتَابِ الْمُبِينِ • إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ • وَإِنَّهُ فِي أُمِّ
الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ • أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا
مُسْرِفِينَ • وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ • وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ • فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ • وَاتَّقِنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ • الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ
لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ • وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً
مَيِّتًا كَذَلِكَ نُمْحَرِّجُونَ • وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ
مَا تَرْكَبُونَ • لِنَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُونَ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا
سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرْنَا لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ • وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْتَبِئُونَ • وَجَعَلُوا لَهُ
مِنْ عِبَادِهِ جُزْأً إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ • أَمْ يَتَّخِذُ مِمَّا يَخْلُقُ بِنَاتٍ وَأَصْفًا كُمْ بِالْبَنِينِ •
وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَهِيمٌ • أَوْ مَنْ يَدْعُو
فِي الْخَلْقِ وَهُوَ فِي الْخِلَاصِ غَيْرُ مُبِينٍ • وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَّا نَا

أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَكَّابٌ شَهِدَتْهُمْ وَيُسْأَلُونَ • وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاَهُمْ مَا لَهُمْ
 بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ • أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَسْكُونَ •
 بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ • وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ
 قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ
 مُقْتَدُونَ • قَالَ أُولُو جِنَّتِكُمْ بِأَهْدَىٰ مما وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ
 كَافِرُونَ • فَاتَّقِمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ • وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ
 لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مما تَعْبُدُونَ • إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي • وَجَعَلَهَا كَلِمَةً
 بَاطِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ • بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ
 مُبِينٌ • وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ • وَقَالُوا لَوْ لَمْ نَزَلْ هَذَا الْقُرْآنُ
 عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ • أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ
 فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحْمَتُ
 رَبِّكَ خَيْرٌ مما يَحْمَمُونَ • وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ
 لِيُؤْتِيَهُمْ سُقُوطًا مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيَّهَا يَظْهَرُونَ • وَلِيُؤْتِيَهُمْ أَبُوَابَاوَسُرًّا عَلَيْهِا يَتَّكِنُونَ •
 وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ • وَمَنْ يَشْ
 عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ تُقْبِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ • وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ
 وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ • حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا آيَاتُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ
 الْقَرِينُ • وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْمَذَابِ مُشْتَرِكُونَ • أَفَأَنْتَ
 تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ • فَإِنَّمَا نَذَرْنَا بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ
 مُنْتَقِمُونَ • أَوْ نُرِيكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ • فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي
 أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ • وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ •

وَاسْتَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أُجْمَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ • وَقَدْ
 أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلِكِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ • فَلَمَّا جَاءَهُمْ
 بآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ • وَمَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةِ الْإِمَامِ أَكْبَرُ مِنْ أَصْحَابِهَا وَأَخَذْنَا هُمْ
 بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ • وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِأَعْيُدِكَ إِنَّا
 لَمُهْتَدُونَ • فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ • وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ
 قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ • أَمْ أَنَا
 خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَسْكَدُ يَدَيْهِ • فَلَوْلَا أَلَّتْ عَلَيْهِ أَسْوَرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ
 مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ • فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ • فَلَمَّا
 آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ • فَجَعَلْنَا هُمْ سَلْفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ • وَلَمَّا
 ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُونَ • وَقَالُوا يَا لَيْتَنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ
 إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ • إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي
 إِسْرَائِيلَ • وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ • وَإِنَّهُ لَكَلِمٌ لِسَاعَةٍ
 فَلَا تَحْمُرْنَ بِهَا وَأَتَّبِعُونَ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ • وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ
 مُبِينٌ • وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي
 تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ • إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ
 مُسْتَقِيمٌ • فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْيَوْمِ • هَلْ
 يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ • الْأَخْلَافُ يَوْمَئِذٍ بِبَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ
 عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ • يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ • الَّذِينَ آمَنُوا
 بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ • ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ • يُطَافُ عَلَيْهِمْ
 بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَبِهُ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ •
 وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ • لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا

تَأْكُلُونَ • إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ • لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ •
 وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ • وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ
 إِنَّكُمْ مَا كِثُورٌ • لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ • أَمْ
 أُرْمُوا أَمْرًا فَإِنَّا بُرْمُونَ • أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ نَلِي وَرُسُلَنَا
 لَدَيْهِمْ يَكْتُوبُونَ • قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْمَأْبُودِينَ • سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ • فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يَأْتِيَ الْيَوْمَهُمُ الَّذِي
 يُوعَدُونَ • وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ • وَتَبَارَكَ
 الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ • وَلَا
 يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ • وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ
 مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ • وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ •
 فَاصْفَعْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَنْتَهُونَ •

(تفسير البسملة)

لك الحمد اللهم على نعمة العلم والحكمة وعلى ما أوليتنا من الجليل ، وشرحت صدورنا لتبيان بعض
 أسرار كتابك الكريم . هذا ، ولما كتبت هذه الكلمات حضر صديق الذي اعتاد مناقشتي في هذا التفسير
 فقال ما الذي تريد أن تكتب في البسملة بعد ما تقدم في بضع عشرة سورة ، وكيف تמיד القول
 فيها ؟ وهذا إلى التكرار أقرب ، والتكرار في التأليف خير محمود ، قلت : أيها الصديق لقد
 تعجبت على وما كان لك أن تحمك حكما قاطعا من طريق الظن . قال : ليس بالظن . إن البسملة معروفة
 للناس يظنها الخاص والعام ، فإعادة القول فيها جار على لئلا « توضيح الواضحات من المشكلات » .
 قلت تسمع لي أن أبدأ رأبي ، قال وهل تجاسرت على الإسراع في الاعتراض إلا لأسمع مقالك ،
 وأفهم بيانك ، إضاحا للأمر ، وتبيننا للحق قلت : إن هذا النوع الإنساني ما أوقفه في الأتم وأضاع
 منه معظم سعاده فأصبحوا في الأرض متقاطعين متدابرين إلا افتقارهم بقولهم وظنهم أنهم يدون كل شيء ،
 فهم يرون الجمال في الوجوه الإنسانية والصور الحيوانية والنباتية والكواكب للشرق ، ولكن أكثرهم
 عن الجمال مسحورون وفي ذنوبهم وهمومهم الوهمية محبوسون مضورون ، وما يدرك حقائق الجمال
 إلا أولوا الأبواب .

ومثل الجمال في شيوحه وعدم تقه المسأكل وللشارب ، فالتاس جميعا يأكلون ويحربون ويميشون

ويعتدون ولا هم يذكرون حقائق ما يأكلون ، فهم عن معرفة حقائق المأكل مسحورون كما أنهم عن بهائم
الجمال والفرح بها مبهدون .

وعلى هذا القياس تسمع السليق من نوع الإنسان يقرءون الفاتحة في الصلاة ويسبحون ويمجدون
ويظنون أنهم يفهمون حقائق الرحمة التي يقرءونها في البسمة ، وهذا الظن استوى فيه علماءهم وجهلاؤهم
وشيوخهم وصبيانهم ، وهم جميعا إلا قليلا منهم مغرورون لأنهم لا يعلمون .

إن الإنسان اعتاد أن يظن أن ما ألقه عنده معروف ، ألا لافرق بين الشمس والقمر والنجوم التي
اعتادنا رؤيتها وألقنا منظرها وبين البسمة والمأكل والمشرب والجمال العام ، فهذه جميعا يظن الجاهل
بسبب ألفتها أنه بها عليم وما هو بليغ . لا يحقل الجمال من نوع الإنسان إلا القليل وهم الحكماء . وما أندرم
في هذا الإنسان ، وقدمر الكلام في هذه وحدها في (سورة السجدة) عند آية « الذي أحسن كل
شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين » الخ فارجع إليها إن شئت ، وبقى الكلام في الطعام والشراب
والبسمة . قال صديقي : أما البسمة فنعم ولماذا تذكر عجائب الطعام والشراب ، قلت أيضا لسؤالك ،
أم نسويين هذه الثلاثة في أن أكثر الناس يجهلون بها وما هم بالملين ، قال بلى . قلت : ألم أقل إن أمر الجمال
تقدم في (سورة السجدة) . قال بلى ، قلت إذن تشرح القسمين الباقيين ، فأما أحدهما فن باب التنظير ،
وأما ثانيهما وهي البسمة فهي للقصود ، وهذا الأسلوب الذي سلكته في هذا التفسير وإن كان فيه إطناب
سيكون من بواعث إنهاض الأمم ، وبث العزائم ، وشرح الصدور ، وإبراز همم كانت خامدة ، وعقول كانت
نائمة . قل لي رعاك الله : أيهما أقرب إلى إيقاظ المهمل ، وبث تلك النفوس الشريفة التي أودع الله فيها قوى
يعوزها الإيقاظ والتنبيه ؟ أعراب البسمة الذي كان كثير من المؤلفين يكررونه في أول كل كتاب وتطبيقها
على العلوم الاثني عشر للشهورة عند المتأخرين من أم الإسلام وموت النفوس في قشور الملوم فيكون الجهل
التم وللوت الزؤام ، أم الفوص على الدرر والجواهر في بحار الملوم واستخراج خلاصاتها في أول كل سورة
بمناسبة ما في نفس السورة كالذي نفعه الآن ، إن تفسير البسمة في هذه السورة لا تكرر فيه ألبتة ، هي فوائد
مستخرجات من نفس القرآن ، بل من نفس السورة التي فيها البسمة ، وسترى في هذه السورة عجائب إن الرحمة مكررة
في سورة (الزخرف) هنا ثمان مرات اثنتان على هيئة الصدر «أهم يسمون رحمة ربك» الخ «ورحمة ربك» الخ
و (٦) بهيئة الصفة المشبهة :

(١) « وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا » الخ .

(٢) « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا » .

(٣) « وقالوا لو شاء الرحمن » الخ .

(٤) « ومن يعش عن ذكر الرحمن » الخ .

(٥) « أ جعلنا من دون الرحمن آلهة » الخ .

(٦) « قل إن كان للرحمن ولد » الخ .

فالرحمة وما اشتق منها كررت في السورة وذكرت في البسمة ، والحاء والميم في أول السورة حرفان من
الرحمة ، وهذه الآيات التي بها الرحمة فيها أسرار لا بد من إظهارها ، وسترى هنا من عجائب العلم وبدائع الحكمة
عما فتح الله به في ليلة الجمعة القاتنة وفي ليلة السبت بعدها قبل الفجر أي في ليلتي (١٤) و (١٥) نوفمبر سنة
١٩٣٠ م ما تقر به أعين أرباب البصائر ويرز علم محزون تفتح به أفضال كانت موصدة قبل ألفي سنة على كنوز
خباها سقراط وأفلاطون في كتاب الجمهورية عند الكلام على المثل الأفلاطونية وما اعترض بها عليها أرسطاطاليس

بدهما ، وما قاله الفلاسفة بعد تلك القرون وأغلق الأمر عليهم ؛ فأرجو أن أوفق في هذا المقام لتحقيق هذا المقام وذلك بطريق العقل تفسيرا لهذه الآيات وتطبيقا عليها . قال : إن هذا القول الذي سمعته منك الآن غريب . وكيف يدخل ما يقوله سقراط ومن بعده في هذا المقام . وكيف ترجو أن تحل مشكلة عسر فهمها على فلاسفة اليونان والرومان والأمم بعدهم ققلت : أنا قلت لك أرجو وستكون معي وقت الباحة في هذا الموضوع والله يقول « وأمرهم شورى بينهم » ، أنا إذ ذاك سأعرض في المناقشة آيات السورة التي فيها الرحمة وسنحاول بطريق مبادلة الفهم والمناقشة معنى « ومن يشئ عن ذكر الرحمن تقيض له شيطانا » الخ ، وقوله تعالى في سورة أخرى « ألا يذكر الله تطمين القلوب » وندرس هذا الموضوع ، وننظر هذا المقام في قول سقراط سيد فلاسفة أوروبا الحاليين والسابقين بإقرارهم وماذا قال في هذا المعنى قبل نزول القرآن ثم نذكر الشبهات التي وردت عليه وهكذا ، ثم نبين ما عن لنا في ذلك فإن زالت الشبهة فقد نصرنا الله وفتح علينا وإن لم تزل فقد نلنا نعمة الاجتهاد وثنا بالواجب علينا . فقال والله لقد أمتعتني وشفيت صدري ، فأنا الآن أوافقك على البحث في هذا الموضوع ، ولقد اشرح صدري فيه لاسيما أن هذه الآيات لا تخطر في بال علماء الإسلام فضلا عن الجهال . إن الأمم السالفة خطر لهم الكلام في معانيها قبل نزولها ، فالكلام في ذلك يكون من أصعب الأعاجيب . ققلت الآن اتفقا على أننا سنبحث في البسمة من هذه الوجهة . قال نعم . قلت إذ ذاك نبحث في المسألة التي كنا أخذنا نشرح فيها قبل البسمة بعد الكلام على عموم الجمال وهي مسألة الآكل والشارب من حيث إن الناس لما كانوا متعاديا لم يتفطنوا لها كما لم يتفطن أكثر المسلمين منهم للبسمة من أجل شيوع ذكرها في كل أمر ذي بال . قال : أنا موافق على ذلك . ققلت :

الماكل والشارب

قدمت لك أيها الصديق في هذا المقام أن أكثر الناس يتوهمون أنهم يعرفون ما يأكلون وما يشربون وهم في ذلك مغرورون ، فإذا سألت صييا أو رجلا جاهلا وقلت هل تعرف الماء ؟ استهزأ بهذا السؤال وظن السائل غيبا . هذا معنى ماقلته . قال نعم . ققلت : ألست تظن أن هذا الوهم خطأ ، وكيف لا يكون خطأ ونحن نعلم أن هذا الماء الذي نشربه وهو من السوائل مركب من عنصرين كل منهما يشبه الهواء (وبعبارة أخرى) إن هذا الماء الذي في النهر والبحر إذا وضعناه في زجاجة وسلطنا عليه الكهرباء وجدناه أنحل حالا ولم يبق أماننا ماء وإنما نرى عندنا جسمين يشبهان الهواء وكل منهما له صفة تخالف الآخر ، فأحدهما إذا أدخلنا فيه قطعة خشب طرفها فيه آثار النار فإنها تشتعل حالا ، والآخر جسم خفيف جدا يصلح لارتفاع الطيارات في الجو ، وأولهما الأكسوجين ، والثاني الأدروجين ، والأكسوجين ٨ على ٩ من الماء . إذن معظم الماء أكسوجين والأكسوجين يكون غازا كالهواء ويكون مع الأدروجين ماء وهو داخل في الدبش الذي نبنى به مساكننا وفي الحجارة ، فلواتنا وزنا الحجارة بعد تحليلها لوجدنا أن في كل مائة أقة منها (٤٨) أقة من الأكسوجين كما أننا إذا وزنا الماء بعد تحليله وجدنا في كل تسع أقات منه ثمانية أوقات ، فهو مكون لأكثر الماء ولما يقرب من نصف الحجارة ، وهو داخل في الهواء مع الأوزوت ، وهذا الأوزوت لا يخلو منه جسم إنسان ولا حيوان بل هو ثلاثة أرباع وزن جسم الحيوان [اقرأ كتاب تنوير الأذهان في تغذية الأجسام] لأستاذنا على باشا مبارك ، إذن الماء الذي نشربه (ويظن الصبيان والجهال منا أنهم يعرفونه كما يظن المسلم أنه يعرف معنى البسمة) يموزه درس وتفصيل . إذن المعرفة يموزها التفصيل والإيضاح ، أما الإجمال فالوقوف عنده ضرور .

أوليس من العجب أن نرى أكثر من ٨ على ٤ من الماء عادة تسكون في نحو نصف الأحجار وثلاثة أرباع الحيوان ، وتزاهي في الماء شربا ، وفي الأحجار بيوتا صلابا ، وفلاغا حصىنة ، وفي الحيوان عظاما ولحما ودما .
تشرب الماء وتصل به البلاط وهو في الوقت نفسه نصف نفس البلاط المنسول ، إذن هو غاسل وهو مغسول وهو شارب وهو مشروب ، فإذا كان ثلاثة أرباع الإنسان أ كسوجينا فالأ كسوجين المتجدد شرب الأ كسوجين السائل ، ومعلوم أن الهواء فيه أ كسوجين ، فإذن الإنسان أيضا يأخذ بالتنفس الأ كسوجين الذي في الهواء .
اجلس في أي مكان شئت ، فالبلاط تحت الجالس نصفه أ كسوجين ، والهواء فيه أ كسوجين ، ونفس الإنسان فيه أ كسوجين ، والماء أكثره أ كسوجين ، إذن هذه مسائل أعجب وأبدع من سحر السحرة ، هذا الإنسان يمتطي الغارب ويركب القارب والسفين في اليم والقطار في الأرض ويسير إلى القطبين ويرصد النجوم ليعرف العجائب .

يا أيها الإنسان : أنت عجب ، وشرايك عجب ، وجسمك عجب ، وتنفسك عجب ، ومجلسك عجب ، أنت مغمور في بحر لجي من النور .

سبحان الله الجليل البديع ؛ عجب وألف عجب ! أ كسوجين بصير حجرا وعظما ودماء وهواء ، فهو جامد وغاز وسائل ، وهو هو نفسه يطهر نفسه ، فهو من حيث إنه ماء يطهر نفسه من حيث إنه إنسان أو بلاط أو غيرها ، كما أنه هو يدخل في الرئة فتتلقفه هي من الهواء فيطهر الدم في أجسامنا ، جل الله وجل العلم وجات الحكمة وجلت نعمة العلم .

ما الناس سوى قوم عرفوا وسوام همج همج

فلا كنتف أيها الصديق من الكلام على الشراب بما ذكرناه في الأ كسوجين ، ولنذكر مقالا وجيزا في المآكل . وإني ليسرني إذا كنت على ذكر مما تقدم في هذا التفسير ، فأجابني قائلا : نعم لقد جاء في سورة فاطر عند آية « والله خلقكم من تراب » ما ملخصه أن في الفم ستة مجار تفرز موادا تهمضم للواد النشوية ، فإذا وصل ما بقي منها وهي الذي لم تؤثر فيه تلك القنوات الست إلى المعدة تلقاه العصير اللدعي فأذابه ، وجملة ما يتعاطاه الإنسان إما مواد عضوية ولكنها ليس فيها مواد زلالية وذلك كالنشاء والسكر وكالزيت والنشم والسمن فهذه يدخلها الفم ولا يدخلها الزلال كزلال البيض ، وإما مواد عضوية وفيها المادة الزلالية كزلال البيض والواد المستخرجة من العظام للقلية ومادة الجبن ومادة أخرى من نوع ذلك في اللحم ، وفي بذور البقول كالقول والعدس والبسلة وفي الحبوب كالقمح والذرة ، وبهذا عرفنا الواد العضوية بسميها .

وهناك مواد غير عضوية مثل كربونات الجير ، وذلك في العظام والأسنان ، وفوسفات الجير في العظام أيضا وهي نصف وزنها تقريبا ، وهذان يدخلان في الأغذية النباتية والحيوانية وملح الطعام وأملاح أخرى ، هذا هو ما يتعاطاه الإنسان . فقلت : إذن طعامنا مفرق على البر والبحر وما فيهما ، فهذا اللحم مستخرج من البحار ومن الجبال ، والواد الدهنية تستخرج من الحيوان ومن الأشجار كالزيتون ، والواد النشوية مستخرجات من النبات كقصب السكر والحبوب أمثال القمح ونحوه ، والواد الزلالية تستخرج من الحيوان ومن الحبوب أيضا ، ولعلك تذكر الواد القحمية الطائفة في الهواء التي هي المخزن العظيم الذي إليه ترجع الواد القحمية الخارجات من أجسامنا مع الزفير القاهيات إلى النبات لتغذيته الرجاعات إلينا نانيا بطريق تعاطيه من أوراق النبات ونمازه ، فهناك تبادل بين الحيوان والنبات في ذلك ، فبينما النبات يتنفس مادة الأ كسوجين في الهواء ويرسله إلى المخزن العظيم في الهواء إذ الحيوان يقبل ذلك الأ كسوجين ويعطى

الجو بدله مادة خمية تصل إلى ذلك الميزن الطائر في الجو وهو يوصله إلى النبات . قال أئذ ذكره فهو مذكور في (سورة يس) كما أن القناة المضمية وجميع رسومها وما يوضحها مذكورة في (سورة فاطر) وهناك أن الفحم الصافي في الجو نحو ١٣٨ ألف مليون ونصف مليون طن ، والطن معلوم أنه نحو ٢٢ قنطارا والقنطار ٣٦ أفة . قلت نعم إذن نحن بنى آدم في الأرض أكثرنا في غرور عظيم إذ نظن أننا نفهم الطعام والشراب ، فما نحن أولاء ذهبنا كل مذهب في طعامنا وشرابنا ، لقد فرق على الكرة الأرضية وطار في الجو وغاص في البحر ، وأدهشنا أن نرى أسناننا قد ركبت من الجير الداخلى في بناء منازلنا وهو الذى التقطه النبات من الأرض فأكلناه ومن (الفسفور) تلك للناوة البيضاء ذات الرائحة المشبهة رائحة الثوم ، وهي تباع في مربعات من البلور مملوءة بالماء للوقاية من إيلاء تلك المادة لأنها تلتبب سريرا بمجرد ملامسة الهواء ، فإذا لامست الأصابع ألهمت حالا وجسر إطلاؤها وتحدث جروحا خطيرة ، وهذه المادة إذا كتب بها على حائط في محل مظلم لا نور فيه ظهرت الكتابة كأنها نار تفرغ منها الأطفال والشيوخ والنساء ، فمجب أن يكون الجير في منازلنا وتلك للباة النارية التي تراها في أعواد الكبريت التي توقد بها النار داخلين في أسناننا بأنواعها الثلاثة لتمزيق أغذيتنا وقطعها وطحنها « إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم » .

فهذه الأسنان تهرس الطعام ، والعيون الست الناجبات في الفم تتخلله لتضمه ، ثم يرفصل إلى الائتاعشر هل تذكره أيها الصديق . قال أئذ ذكره مرسوما في (سورة فاطر) . ففناك تقابله عصارتان إحداها آتية من الصفراء والأخرى من البنسكرباس للرسومين هناك ، وهاتان العصارتان يتقابلان فيخيران تلك المادة نصيرا عجيبا ليحصل لها اقتراب من أن تكون من جملة الدم .

ولترجع إلى الفحم الذى يخرج من الزفير . قال أنا أئذ ذكره جيدا من هذا القال ومن سابق التفسير قلت : أزيدك فيه علما إنه في السكر وفي الورق وريش الطيور وفي العظم واللحم والجلد والشمع والدهن والزيت فإن الفحم يظهر في آثار ما يوقد منها وهو تلك المادة السوداء الظاهرة للعيان وكل شيء لا يخلو من السم وهو في الحجر الذى في الباني وفي الرخام والمرمر ، إذن هو في كل ما نضعه على المائدة إلا الملح فهو لا لحم فيه ، ولقد قالوا « إن الفحم أمير والأكسوجين للتقدم شرحه سلطان » ولا جرم أن الهواء مركب من الأكسوجين والأوزون ، وهذا الأوزون هو نفسه الواد الزلاية للتقدم شرحها الداخلة في الجيوب واللحم والبيض وقد تقدم شرح ذلك فأجسامنا مركبات من أكسوجين في الهواء وفي الماء ومن لحم فيه وفي غيره ومن مادة الزلال السابعة فيه ومن شحم الحيوان ولحمه والزيت ونشاء الجيوب وغير ذلك ، وهذه كلها يحملها الدم وهو يجرى في الشرايين ، والشرايين تصل بدقتها للتناحية في كل جزء من أجزاء الجسم وتمطيه ما يستحقه من تلك الواد بعدل وإنصاف ، فإذا وصل الدم إلى الأسنان مثلا أخذت حقها وهو اللواد الجيرية والفسفور كما تقدم ، وإذا وصل إلى العين أخذت اللواد التي تليق لها بحيث تصلح للإبصار وهكذا الأذن والجلد والأعصاب ، إذن هذه حكومة عجيبة مذهشة . وإنى ليحزننى أن أرى أكثر هذا النوع الإنسانى يعيش جاهلا بهذه الكرة الأرضية ، ويعيش جاهلا بنفسه وهو مغرور جهول « قتل الإنسان ما أكفره » .

فيا ليت شعرى متى يرتقى هذا الإنسان وينظم أممه على مقتضى نظام جسمه البديع الجميل للتعن ، يجرى الدم في الشرايين فتلقاه الأعضاء فيأخذ كل عضو حقه ولا يتعداه ، ويترك ما ليس له بحق ، كأن هذه الأعضاء قرأت « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء قه ولو

على أنفسكم أو الوالدين والأقربين « أو كأنها قرأت جمهورية أفلاطون ، أو كأنها قرأت « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » .

الله أكبر . أجسامنا بديعة التركيب ، حسنة الوضع ، ونحن نعيش فيها ، ونحن بها جاهلون ، تتماهى الطعام ومثلنا معه كمثل من قال الله تعالى فيهم « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا » . وإذا جهلنا الطعام والشراب فإننا أعرق في الجهل بمعنى البسطة التي كلامنا فيها ، متى أخذ كل عضو حظه من مواد الغذاء الدالية في الدم بما وكبر على مقتضى قوانين مجهولة لتويع الإنسان في الأرض ، ثم يكون هناك عالم آخر وهو عالم لأعصاب للتصلات بالنخاع الشوكي للرسومات للصورات في (سورة طاهر) والنخاع الشوكي يوصل الأخبار إلى اللع وهناك عالم التنقل والتفكير . إذن طماننا في القناة الهضمية كيموس وكيلوس ، وفي الدورة الدموية دم ؛ وفي أعضائنا المختلفة أعصاب وعظام وعضل ودهن الخ . وآثاره في أعضائنا ونخاعنا الشوكي ونخاع علوم ومعارف وفكر وذكر وحكمة ، فكيف تقول إننا بما نأكل طارفون أو لما نشرب دارسون ، وهذا من أسرار قوله تعالى « ولق أنفكم أفلا تبصرون » وهذا الجهل كما تقدم يضارعه جهلنا معنى « بسم الله الرحمن الرحيم » . إذن فلفظ الكلام على معنى الرحمة الذي هو المقصود في هذا المقام فنقول :

الرحمة

لقد قدمت لك أيها الذكي في أول هذا المقام أن الرحمة في هذه السورة قد ذكرت ٨ مرات فوق ما جاء في البسطة (٢) فالجميع (١٠) والحاء واليم تشيران إلى الرحمة أيضا فلا بد لنا إذن من فهم الآيات لذلك كور فيها الرحمة مثل « وإذا بهر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا » الخ ، ومثل « ومن يمش عن ذكر الرحمن » الخ ومثل آية « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة » الخ ، ولكن لا بد لنا قبل فهم معاني هذه الآيات من تحقيق معنى الرحمة فوق ما تقدم .

فقل لي أيها الذكي : أيهما أحق باسم الرحمة ، أهله التمه للتبيرة للتبيلة التي لا تبات لها ، أم التمه الثابتة ؟ قال بل الثابتة . قلت حسن . قلت : ثم إن التمه للتبيرة أيها أحق باسم الرحمة أعلاها أم أدناها ، قال : كل ما كان أعلى كانت الرحمة فيه أوفر ، وكل ما كان أدنى كانت الرحمة فيه أقل . قلت إذن وجب الآن أن نشرح أنواع التمه ونبتدى من أدناها إلى أعلاها حتى نفهم الرحمة ونبين أنواع الرحمت للذكورة في هذه السورة إذ ذاك . فقال : بالسبب ؛ وهل التمه لها نهاية حتى تبين عددها ودرجاتها ، إنها يجوزها علوم الأمم وأعمار جميع الملائكة في الأرض . قلت : إننا لا نعرف من جميع التمه إلا ما أدركته حواسنا وعقولنا ، إذن فلندرس درجاتها باعتبار إدراكنا لها ، وحواسنا معروفة بصورة عندنا والتمه مقسمة عليها ، فالبحث في التمه سيكون في تفصيل ما يدركها لافي تفصيل المحسوسات والمعلومات . قال : أما هذا فهو حسن فأريد أن تذكر لي أدنى درجات التمه . قلت : هي كل ما كانت تستلذه حاسة اللمس كنعومة الحرير فإن لابس الحرير والنائم على الفراش الوثير يحس كل منهما بلذات اللمس ، وهذه اللذات سبباً للنمو الحاصلة في اللباس والفراش قال ولماذا كان هذا أدنى الرحمت ؟ قلت لأن حاسة اللمس عامة في كل حيوان حتى الدودة في الماء وفي الطين لها حاسة اللمس ، وهذه الحاسة لا تعرف إلا ما يلاصقها فهي كالأعشى لا يدرك إلا باللمس . قال ثم ماذا ؟ قلت : اللغة التي هي من هذه المحسوسات بحاسة الذوق كالأطعمة والأشربة ، فإذا رأينا أقواما يضربون بالطعام ولذته ، والشراب وسورته ، عرفنا أن هؤلاء في درجة اللذة الثانية . فقال ولم جعلتها ثانية ؟ قلت لأن للذوق

من الطبقات أشرف من بقية الموجودات؛ خاصة اللسنة ولكن الطعم خاص بمواد مخصوصة ، فنحن
 عن بكل ما يحس جلدها ، ولكن حاسة الذوق اصطفت خلاصات للمادة كالتوا كه والحبوب وليس لها علم
 بالحبر واللدن والطين والتراب وهكذا . قال : ما الذي فوق هذه ؟ قلت حاسة الشم ، ذلك لأنها لا تتقيد
 بشم ملامستها بل تشم للمادة عن بعد . وليست مضطرة إلى ملامستها وملاقاتها وإنما تلاقى ذرات لطيفات
 لاتراها العين يرسلها للشموم كالورود واللك تسير في الهواء وتصل إلى الخيشوم فتؤثر في الأعصاب فالشرف
 هنا من حيث إن الحاسة لم تلاقى نفس المادة ، بل لاصقت ذراتها العليقات والواسطة في
 ذلك الهواء .

وأرفع من هذه حاسة السمع لأنها ليست في حاجة إلى ملاقة للسمع بل الهواء هو الواسطة بينها وبين
 الجسم الذي خرج منه الصوت وليست الأصوات كالشمومات التي هي عبارة عن ذرات مادية . كلا . وإنما
 هذه حركات في الهواء ، ولا جرم أن الحركات اللطيفة من الثورات في حاسة اللسنة .

وفوق ذلك يكون البصر وهو أرقى ، فهو كما لم يكن في حاجة إلى ملامسة الجسم للفظور ، ولا إلى ذرات
 منه هكذا لم يكن في حاجة إلى حركات في الهواء كالسمع بل يحتاج إلى صور تسير في النور والنور حركات
 في الأثير وهذا عالم أعلى مما سبقه ، فهل فهمت في هذا الترتيب حكمة أيها التلميذ ؟ قال نعم . قلت إذا تفضلت
 بذلك أكون شاكرًا لك . قال : قد ظهر لي هنا قاعدتان : القاعدة الأولى أن الحاسة التي هي أشرف يكون
 تركيبها أتم ، القاعدة الثانية أنه كلما كانت النعمة أتم كانت أبعد عن المادة وأقرب إلى التجرد منها . قلت
 ما برهان ذلك ؟ قال : أما كون الحاسة تسكون أتم كلما كانت أعلى فإن ما تقدم في ﴿ سورة آل عمران ﴾
 يحدثنا عن ذلك فإن تركيب الأذن هناك أتم من تركيب مادونها من الحواس ، فهناك في تركيبها ١٤ عجيبة
 من عجائب الإتيان ، وذلك مذكور في أول السورة عند قوله تعالى « هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء »
 فهناك الأذن الظاهرة والأذن للتوسطة والأذن الداخلة ، وهناك عجائب لا عدد لها مثل السائل الذي في داخل
 الأذن وفيه خيوط دقيقة شعرية وهكذا ثلاثة آلاف جسم صغير ظنوها آلات البرق (التلغراف) بحيث يتلقى
 كل واحد منها نوعا من الأصوات يناسبه ويرسل ذلك إلى اللع ، وبالجملة ففي الأذن « الصيوان والصباخ
 والطبقة والسطح الثلاث والسهلير والقنوات الحلالية والقوقبية والسائل المتقدم ذكره والرمل الحافظ للصوت
 وعصى كورتي والشعرات القوقبية والأعصاب السمعية ، فهذه هي الأربعة عشر جهازا في الأذن وتفصيلها
 هناك ، وهذا الإتيان لم يكن في صنع اللسان ولا الجلد ولا الخيشوم

وإذا رقينا إلى تركيب العين وجدنا وصفها هناك أتم من تركيب الأذن ، كيف لا وقد عدت الحكيم
 هناك فوجدت ٢٦ حكمة ، فهناك :

- (١) القرنية .
- (٢) والسنية .
- (٣) والشكوبية .
- (٤) والشبكية .
- (٥) وللشمية .
- (٦) والسلبة .
- (٧) وللتنصية .
- (٨) والجسم الزجاجي في وسط الشبكية .

(٩) والرطوبة الجليدية وتسمى المنسية .

(١٠) والرطوبة البيضاء .

فالسبع الأول طبقات والثلاث الأخيرة رطوبات ، وهناك تفصيل لأصل ذكره ، والمقصود هنا أن الحامئة التي هي أشرف يكون تركيبها أتم ، وأما كون النملة أتم كلما كانت أهدمن المادة فبرهانه واضح ذلك أننا نرى نوع الإنسان يشارك النوم على السمك والحرير والفراش الأثير (ومعلوم أن هذه لغة الملاسة) ويركب القطار، لرؤية الأقطار، وجوب البحار، ونجشم الأخطار، وبركب منق الهواء، ويخترق بخواصه ليج البحار ليشارك أنواع السمك والنبات، وصنوف مخلوقات التي في قاع البحار، ونرى الجهلاء والطغاة ينادون حدائقهم وفيها الروائح الطيبة وأنواع التواكه ويتوجهون إلى دور الصور لتحركة مع أنهم في تلك الحديقة قادرين أن يضربوا العود ويتمتعوا بأصناف الطرب وصنوف اللذات المختلفة. فدل ذلك على أن للبصرات عند الإنسان أرقى من جميع الحسوسات. لذلك كان البصر أدق وهكذا. ولم تر حاسة غير البصر لها قدرة على مشاهدة الشمس، فأما البصر فهو الذي اختص بها. قلت والله لقد نطقت بجهم وأجبت. ثم قلت أيها الصديق إننا نريد أن نتوغل في البحث، فقال جبا وكرامة، قلت: إذا كانت الشمس أعظم ما يشاهد بحواسنا، وأشرف حواسنا هي العين وتركيبها أتم، والواسطة بينهما هو النور فهذا آخر لغة يعرفها الحيوان والإنسان نوع منه، وأريد أن أسألك أيها الصديق: ما أقسى سعادة عند الإنسان من هذه الحسوسات. فقال: السر والذات. قلت اللذات أقسى ما يسمى إليه الناس. قال نعم، قلت تذكر قليلا في ما شققت مشوقه وفرح بماله فقده، ومفرم بحميل قدبل الجمال.

ملك نسيت أيها الصديق ما قررناه أولا في أول هذا المقام وهو أن الثابت أتم نعمة وللخير نسمة أقل فالسعادة به تكون أقسى، قال حقا كان ذلك ولكن السر والجزئية بالمولم المتخيرة لا ينكرها. فقال: قلت: ولكننا الآن في مقام الفلسفة والحكمة وفي تفسير القرآن، ونريد أن نصل للحكمة في ذكر الرحمة في قوله تعالى (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجلنا من ي كفر بالرحمن لبيونهم مققا من لغة الخ) فهذه نعم متخيرة والقرآن والحكمة يطلبان التمس الثابتة ولا نبات للمادة، فقال إذن كأنك تريد أن أسعد ما يناله المرء في الحياة الدنيا هي البصائر، قلت: حسن ولكن هذا المقام يحوزه إضلع وإفصاح، قال يسرنى أن أسعد منك قلت: إن هاهنا عينا وضوءا وشمسا، فالعين أرقى حاسة والشمس أرقى محسوس والضوء أجمل واسطة، قال هذا صار مبرهنا عليه. قلت ولما رأى حكماء الأمم قبل الإسلام أن هذه المرتبة يشاركنا فيها البهائم فكروا فقالوا: إن الشمس بالنسبة لعوالم المولدات الثلاث على الأرض أشبه بنار متقدة والناس في الأرض أشبه بقوم في مقارة ظهورهم نحو الشمس ووجوههم متجهة إلى الضوء الذي على جدار المقارة أمهم، وهذه اللوالب الثلاثة أشبه بالصور المرسومة على حائط المقارة بواسطة ضوء النار، وهذا اللوالب تقدم غير مرسومة ولكن ذكرناه هنا لتوضيح به المقام. إذن وراء هذه الشمس الله الذي برأها، وهذه اللوالب الثلاثة عوالم سلها أفلاطون عالم اللوالب وهو عالم ثابت، وعالم اللوالب عالم متغير كما أن الله ثابت دائم والشمس متخيرة، فالله بالنسبة لقولنا كالشمس بالنسبة لبيوتنا. وكما أن للشمس ضوءا يصل إلى العين هكذا عالم اللوالب ينير على جدرانها، فإذا لم تضئ الشمس فإن عيوننا لا ترى للبصر وإن كان أمامها هكذا عالم اللوالب الثابت يرسل أبعثه إلى عقولنا ولولاها لم نقبل ولم نعلم، وإلى هذا المقام انتهت عقول الحكماء في الأمم قبل الإسلام.

ولما ترجمت الكتب إلى الأمم الإسلامية حصل عندم القول بالانهاد والحلول. هل تذكر في أي مقام أوضحنا هذا أيها الصديق؟ فقال: قد تقدم في (سورة قاطر) خلاص الإمام التزلي إذ كرت عقله

في تفسير البسمة البراهين التي ذكرها موضحة وبان بها وظاهر أن ما يقوله متأخر والصوفية من الاتحاد والحلول
 طار عن البرهان العقل بل هذا أشبه بكلام الصبيان . قلت : ولكن أريد هنا أن أبينه بطريق أوضح مما نقلته
 فيها تقدم لأن الأدلة هناك مطولة وفيها بعض الصعوبة . فقال : أحب أن أسمع ذلك . قلت أي حاسة في
 الجسم أشرف . فقال : طبعا العين . قلت ، هل يمكن أن يقول أحد إن العين هي الشمس . فقال وهل تخطر
 بقل عاقل . قلت : اسمع يا صاح رعاك الله . إن العين في الحقيقة مضيئة لأجسامنا والشمس تضيء العالم .
 إذن العين جسم صغرى . ألم تر أن تركيبها كما قلنا سابقا آتم ، ولماذا هذا ؛ لأجل أن تكون أقرب كالأ
 من الشمس ، ولولم تكن على هذا النمط لم تر النور ، فالعين مخلوق بديع عجيب والشمس كذلك والعين في
 أجسامنا أقرب شيء إلى الشمس فذلك تقبلت منها النور ؛ ثم إن العين والجسم والأجسام كلها في الأرض
 مخلوقات لم تكن لولا الشمس ، فبالشمس نار السحاب من البحار وهبت الرياح بالحرارة ، فإذا لم تكن
 شمس لم تكن رياح ولا سحاب فلا إنسان ولا حيوان ، وبالتالي لا عيون ولا أجسام . قال نعم هو ذلك .
 قلت : إذن الشمس سبب في العين ، والعين أقرب عضو في أجسامنا إلى السكالك والكامل هي الشمس .
 قال حسن ذلك . قلت : إذن يتوجه السؤال : هل العين هي الشمس ؟ قال . كلا ، لأن إحداها سبب
 والأخرى ، مسبب غاية الأمر أن العين أقرب إلى الشمس لأنها أخذت وتركيبها ساعدها على ذلك . قلت :
 حسن جدا . ثم قلت هكذا تقول لجميع علماء الصوفية السابقين واللاحقين ونعلن الحقيقة واضحة للعلم قاطبة
 فنقول : « أيها الناس إن ما مضمونه من أقاويل الصوفية من وحدة الوجود وما جاء في كتاب الأستاذ
 الكبير يحيى الدين في (الفتوحات الكفية) كل ذلك عبارات موهمة يجب الإقلاع عنها حالا لأنه ثبت بالبرهان
 اليقيني اليوم أن النفوس الإنسانية كالعيون والله « وفيه اللئ الأمل » كالشمس والموالم الروحية كالضوء ،
 وهلم للمثال كمواالم اللوايد الثلاثة ، ولن تبصر العين ما لم يكن النور ، وكما أننا لا نقول إن العين هي الشمس
 وإن كانت أقرب إليها وهي تتلقى عنها الصور والأشكال بواسطة ضوئها ، هكذا لا يقول أن يكون الأنبياء
 أو الحكماء أو الأولياء مهما علت درجاتهم وبلغوا أقصاها أن يكونوا هم نفس الله تعالى مع أنهم بالنسبة للناس
 كالعين والناس من ورأهم كالحواس الأخرى أدنى منزلة وهم يستضيئون بالنور الإلهي فيلهمم لللائكة
 ويوحون إليهم للمعلومات الثابتات في العالم الروحي ، فقال : ما أجمل هذا البرهان ، إنه تقرب سهل المثال
 يتفه كل متوسط الفكاك ، قلت : فإذا عرفنا هذا وقد امتحنا آراء أسلافنا وقد وضحت الحقيقة فلتجاوز
 ذلك إلى ما وراءه وهي آراء سقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس ، فندكر أولا ما قالوه ، وما آثار كلامهم في الأمم التي
 بسدم ، ثم تبعه بما تراه مما فتح الله به لينة الجملة كما قدمته قريبا . فقال ما أشوقني إلى ذلك . قلت : إن أفلاطون
 بعد أن ذكر مثال الشمس للتقدم . قال : « على الإنسان أن يترقى من الأخص إلى الأعم ، ثم يترقى من المحسوسات
 إلى العقولات حتى يرجعها كلها إلى ذات الله وهو السكالك للطلق والخير المحض ، وجميع اللعاني هي صفاته وهي حكته »
 وهناك أعلن للملأ أن هناك عالم المثال وهو ثابت وعلمنا هو المنير ، وقد عارض هذا المذهب أرسطاطاليس
 تلميذ أفلاطون . فقال : « أنا أسلم أن الكليات هي أصل العلم ، ولكن لا أسلم أنها مفارقة للمادة ، وهل
 هناك كليات إلا في أذهانتنا ، فالله عزن الكليات ، أما أن هناك عالما نسميه عالم المثال وهو أصل للمتناهية
 لا أسلم به ، وكيف أسلم به وهو إذا كان ثابتا لا يتحرك فكيف صدر عنه هذا العالم المتحرك ، ثم إنه إذا كان
 مفارقة فكيف يؤثر فيها فارقته ، وكيف يكون جوهرها مفارقة له وإن كان متصلا بالعالم فقد دخله التغير بتغير
 ما حصل به ، وكيف ينطبق الجوهر الواحد على الأفراد المختلفة مع أنه لا يقبل الانقسام » وأطال في ذلك
 ثم قال : « إن العالم مكون من مادة وصورة (وكيفية معينة من الوجود) والمادة لا تحقق لها إلا بهنه

الميتات وهي في نفسها إمكان محض أى قوة واستعداد لقبول الصورة ، والصورة كل ما به يتعين وجود المادة من شكل ووضع وبعد وكيفية كاللون والطعم والرائحة والثقل والخفة ، وهذان لا يكونان متميزين إلا بالقل أما في الخارج فلا، وما الحركات إلا شوق المادة إلى الاستكمال، فهي أبدأ مجردة للكمال وذلك بالحركات في المقادير (الكم) كالتمو والزيادة والنقصان والقبول وبالحركات في الكيف كالاستحالة من صفة إلى أخرى وبالحركات في الأمن وهي التقله من مكان إلى مكان.

وقول أرسطاطاليس المذكور فيه لبس ، قد رد عليه حكاء اليونان بعده فقالوا : (أولا) إن المادة عندك أمر سلبى وعدم محض ، وإذا كانت عدما فكيف تشاق إلى الاستكمال بالحركات ، وإذا لم تقل ذلك بل قلنا إنها (إمكان محض) فهل يعقل أن للإمكان وجودا . إن وجود المادة يناقض ما يقوله هو أنها مسلوبة الوجود ، وإذا سلمنا بوجودها بعد هذا كله فقد أصبح للوجود أصلان معا وهو مناقض لأصل مذهبه . ثم هو يقول : « إن الطبيعة ماهى إلا المادة والصورة والحركة والمجتمع من هذا كله يسمى طبيعة ، ولم يبين هذه الطبيعة ، ما هى ؟ هل هى ذات موجودة ، أم هى معنى موجود باعتبار العقل » .

فلامات أرسطاطاليس ترك تلاميذه هذه الباحث وأخذوا يفكرون في علم الطبيعة والأخلاق وجدوا في هذه العلوم ، وهنالك نبيغ (أيقورس) اللود سنة ٣٤١ ق . م . المتوفى سنة ٢٧٠ ق . م . ورجع إلى مذهب (ديموقراطيس) القائل بالجزء الذى لا يتجزأ وهو يقول : « أجل للتعود من الحياة إدراك الحقائق وذلك بالفلسفة واللذة الناجمة عنها أم مقاصد هسته الحياة » ثم نبض فرقة الروايتين ويسمون أصحاب الأسطوانة وأصحاب الظلال (وهو اسم المثل اجتماعهم بأثينا) وهم شيعة (زينون) المتوفى سنة ٢٦٤ ق . م . وهؤلاء يقولون : « إن العالم جوهر واحد ، فهو من جهة قوة عاقلة ، ومن جهة أخرى مادة » ومن صحابه (كربزيون) المتوفى سنة ٢٠٩ ق . م . وعلم الطبييات هو علم الإلهيات عند هذه الطائفة .

ملخص هذا المقام

هنالك قال صاحبي : لقد طال القال فأرجو تلخيصه ثم حكيفية ارتباطه بالرحمة أولا ، ثم كيف تفسر الآيات التى فيها الرحمة فى سورة الزخرف بهذه العلوم المذكورة هنا . قلت : ألا تذكر أن أصل المقام :

- (١) إنك قلت إن البسمة معروفة وتفسيرها هنا تكرر .
- (٢) فأجبتك بأن الجمال المذكور الموضع فى سورة السجدة أكثر الناس يزعمون أنهم يعرفونه وما هم بمارفين ولا يعقله إلا الحكماء .
- (٣) وأن الطعام والشراب يظن الصبيان والعامه أنهما معلومان وهم جميعا لا يدركون بالتفصيل عجائب توزيع المواد النشوية والمواد الزلالية والمواد المعدنية والماء كالأرز والبطاطس وكاللحم والبيض وكاللح وكاء الأنهار .

فهذه موزعات على مناطق الأرض فى أنواع النبات والحيوان والبحار ، وهكذا تقسمها أجزاء القناة الهضمية فتضمها وتخالط الدم فيأخذ كل عضو حظه من الحياة وهكذا .

ثم يكون الفكر والعقل ، فهذا إجمال الكلام على الطعام والشراب ، وبقى الكلام على الرحمة المذكورة فى البسمة التى كررت (٨) مرات فى سورة الزخرف ، فلما أخذنا تفصلها وجدنا أمرا عجبا ! وجدنا أن

حواسنا كما كانت أقرب إلى محسوسها كان ذلك المحسوس أحس . وكانت نفس الحاسة أقل درجة وكنا نحن بذلك المحسوس أقل اهتماما : ذلك أن المحسوس الناعم كالحرير لا نعرفه إلا إذا لاصق أجسامنا وذلك يعطينا لذة ضئيلة إذا قسناها بلذة المشعوم والمشموم . يبعد عن حاسة الشم ويرسل من لذته ذرات لطيفة فهو ألطف من المطوم كالحلو الذي يلامس حاسة الذوق التي هي أرقى من حاسة اللمس . فإذا ارتفعنا إلى السمع وجدنا الحاسة أتم تركيبا والمحسوس ألطف يكاد يفارق المادة ولا يحتاج في تعرفه إلى الملاصقة . أما البصيرات فلإنها أبدع وأعجب ورسولها الأمين أشرف من الهواء وهو الضوء والضوء في عالم الأثير مجل الله ، جل الله الذي أعطى الإنسان درسا لن ينسى : فهاهو ذا يقول له . « أيها الإنسان : ألست تعقل ؟ ألم يكن أشرف حاسة عندك هي البصر ؟ أليس البصر بها يبعد عنها ولا يلاق حاستك إلا النور . إذن هذه الحياة الجسمية نفسها كشفت لك القطاء عن السعادة . تقول لك بلسان طلق : أيها الإنسان : أما نخجل وكيف تجهل نفسك تتلصق السعادة في جوانب المادة وأنا صمت لك الحطمة : إن المادة ماهي إلا مبدأ كالتدي رأيت في عالم الملموسات ولكن لا بد من ارتقائك في المعاني كارتقاء العين في محسوسها عن حاسة اللمس في ملموساتها . ألا إن الفرق ما بين الحشن والناعم من حيث ملاصقة الجسم وبين الشمس والعين من حيث شدة البعد التي تصل إلى مسافة (٣٥٠) سنة يجرى القطار السريع ليلا ونهارا . يجرى فيها النور بين عينك والشمس وكأن الله يخاطب المسلمين في الأرض قائلا : « المادة مبدؤكم فلا بد من دراستها وإتقانها كما درست حاسة لسمكم ما حولكم وإياكم أن تفقوا عندها لئلا تذلوها بل ارتقوا في دراستها طبقا عن طبق لنحكموها وأتم فيها كما ارتقت حواسكم طبقا عن طبق فحكمت الأذن على الأشياء البعيدة فأخذت علمها بطريق الحركات في الأصوات . وكما حكمت عيونكم على الكواكب البعيدة فالتصت صورها من الجو وهي جارية في الضوء الساري في ألطف موجود وهو الأثير ثم كأنه عز وجل يقول : (أيها المسلمون : ها هم أولاء الأمم قبلكم وإن لم أرسل لهم رسولا فكفروا في هذه العوالم وارتقوا في الأسباب وقالوا « إذا كانت السعادة تتبع الارتقاء عن المادة وكل من ارتقى عنها خضت له وكل من خضع لها أذلت . فهم أولاء من قبلكم بحثوا بأرائهم وعقولهم وقالوا إن هناك صورا معنوية هي أصل لهذه اللوالب على الأرض وربكم مشرق نوره على تلك العوالم الثالثة التي على مثالها خلقت عوالمكم ، وهناك نجلى الله على عقولكم بالإلهام كما تنجلي الشمس على عوالمكم بالضوء . وكما أن الضوء يأتي لأعينكم بصور المخلوقات الأرضية ، هكذا آجلى أنا على عالم المثال فيشرق على عقولكم بسبب إمدادي لكم .

هذا ، ثم جاء آخرون بعد هؤلاء فأنكروا عالم المثال وقالوا : (إن الكليات العلمية لهذه المحسوسات كالإنسان والحيوان لن تكون إلا في الذهن) إذن ليس هناك عالم مثال وهناك يقول أرسطاطاليس : (إن العلم إنما يتلقى بحقق والمحقق هي المادة وصورتها المعينة المعروفة) وجاء بعده الأبيقوريون والرواقيون وهم أصحاب الظلال . فقالوا : « إن كلامه في المادة غير منتظم » وأدركوا أن هذه الأقوال غير مجدية ، فتركوا هذه الارتباكات ورجعوا إلى دراسة علم الطبيعة وعلم الأخلاق .

هذا أيها الصديق ملخص ما تقدم ، وأنا أحمد الله حمدا كبيرا على التبيان وتعليم البيان ، ولم يبق إلا أن أحس المقام كله في كلمتين اثنتين : وهما أن دراسة هذه المخلوقات التي هي آثار الرحمات عرضنا أمرين : أحدهما محقق . والثاني يعوزه التفكير . أما المحقق فهو أن سعادة أهل هذه الأرض لا تكون بالانتمس

للإدانة بل في التجافي عنها والترقي في إخضاعها لا تركها ، فيكون الناس في هذه الأرض بالنسبة للعادة كالسجين بالنسبة للشمس .

فهذه قضية محققة أظهرتها دراسة رحمة الله المذكورة في البسملة في حواسنا وفي المخلوقات حولنا فكما كان الناس مضطربين فيها ذلوا ، وكما ارتفعوا فأخضعوها إخضاعاً معنوياً سمعوا ، والدليل على ذلك أن استعمال الكهرباء التي هي ألطف من الأجسام الأرضية أسعد الناس سعادة ما ، وذلك أقرب إلى استعمال المين للشعاع الواصل من الشمس فإن بين الكهرباء والنور مشاكلة ، ففرق ما بين استعمال غارب البخل والحمار والقرس التي هي أجسام كثيفة وبين استعمال الكهرباء التي هي عوالم لطيفة شريفة فالنخرات على مقتضى القدمات كثافة ولطافة ، وهذه بيتها دروس يعطيها لنا ترتيب أجسامنا : هذه هي الكلمة الأولى المحققة . أما الكلمة الثانية التي يعوزها التفكير فهو ما يقوله أرسطاطاليس وأيقوروزينون مما تقدم فهذا راجع لأصل العالم ومنشئ .

وسترى إن شاء الله في (سورة محمد) صلى الله عليه وسلم تحقيق المقام في رسالة سميتها (مرآة الفلسفة) التي وعدت بذكرها سابقاً مراراً في هذا التفسير ، ولكني أقول قولاً إجمالياً الآن تذكراً لك أيها الصديق وللأذكياء من قراء هذا الكتاب .

اعلم أننا نحن على هذه الأرض إن نصل إلى غاية العلم ، وغاية الأمر أننا نلتس الممكن منه ، فهاهوذا البرهان اليقيني الذي عرفناه من دراسة جسمنا أثبت لنا أن سعادتنا في اللطائف لا الكثائف ، وأن هذا الإنسان عليه أن يجد في المعنويات في هذه الحياة حتى يتمرن عليها ويرتقي فيها كما ارتقت عينه عن لسانه ، فهذه ترى الشمس في الأفطار البعيدة ، وهذا يلامس النيرة فتكون قيده وسجنه ، فإذا تلمسنا علم ما وراء ذلك ونظرنا نظر سقراط الذي اعترض على العالم المثالي الذي قرره فلما نقول إذا كان علماء الطبيعة لما عجزوا عن إثبات مادة تحمل الضوء الساري في الجومن الكواكب وتحمل قوة الجاذبية التي بين الكواكب وبين الشمس والأرض والقمر .

أقول لما عجزوا عن ذلك قالوا تفرض أن هنا عالماً خفياً نسميه (أثيراً) ولقد تقدم شرح عالم الأثير في أول سورة (الصافات) وتحقيق الكلام فيه ، فهذا الفرض قد اضطروا إليه اضطراباً ، ليجتنبهم به حل النظريات الطبيعية وفهم القوانين ، فإذا جاز هذا في علم الطبيعة التي هي أقرب إلى عقولنا ، أفلا يجوز نظيره في علم ما وراء الطبيعة وتقول : إذا كان الضوء لا يصل إلى عيوننا إلا بعالم سمينا أثيراً ونحن لم نتحققه ، أفليس من حقنا أن نقول إن العلم لا يكون له ثبات إلا بأحور ثابتة ، والأمور الثابتة هنا نسميها عالم اللثال وهو نماذج لما نراها هذا وعلى مقتضى عالم اللثال الذي صورت فيه جميع القضايا الكلية التي نحس بها في أذهاننا خلقت العوالم للشاهدة فأما كل ما ورد من كلام علماء اليونان على عالم اللثال فإنه يرد نظيره على عالم الأثير فإذا كان معدوماً فكيف يحمل المدوم الموجود ؟ فالقول هناك كالقول هنا .

امتحان آراء علماء الإسلام

وآراء علماء اليونان

إذن نحن الآن امتحنا آراء علماء الصوفية من حيث وحدة الوجود فظهر لنا أن دراسة أجسامنا تحمل للشكلة كما تقدم في العين والشمس ، وامتحنا آراء فلاسفة اليونان فرأينا أن عالم الأثير المقبول عند علماء الطبيعة يرد عليه ما ورد على عالم اللثال ومع ذلك اضطرب له العلماء في زماننا اضطراباً وفتحوا باباته لحل النظريات

لتسهيل حل النظريات العامة. وهذا الذي قلته الآن برهان إقناعي، ولكن البرهان اليقيني ستراه في سورة محمد صلى الله عليه وسلم كما أنبأتك.

تفسير الآيات

لاجرم أنك بعد هذا أيها الصديق تفهم حق الفهم قوله تعالى « وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً » إلى آخره إذ يرى الإنسان أنه محصور الفكر في أن الولد ذكر أو أنثى وهذا انقماش في المادة، والانقماش فيها عذاب أليم في الحياة الدنيا والله منزّه عن المادة فكيف يجعله متصفاً بما كان عذاباً له ؟ وهناك يظهر سر « فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا » ودراسة علم الخواص للتقدم يظهر لنا أن الخضوع للمادة صغار، وهكذا قوله « وجعلوا الللائكة الذين هم عباد الرحمن إنانا » فالذكورة والأنوثة صفات أهل المادة الذين هم أقرب إلى العذاب في الحياة برهان دراسة الخواص للتقدم والللائكة مبرهون من المادة وهم محتصون بالعلم . وقوله « وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم » فهؤلاء جهلاء ولكن الله لسعة رحمته لهم لم يهلكهم ، فهو وسعهم كما وسع الهائم في الأرض وكما عاش الإنسان بين عين تنظر الشمس ولمس يمس الحجر ، فأنه رحم الأذى والأذى كل في مركزه الخاص به . وأما قوله « ومن يش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين » فهو المقصود من هذا البحث كله . ذلك أن السعادة كإفدينا ترجع إلى إدراك ما هو ثابت ولا ثبات للمادة . والثابت الحق هو الله عز وجل . وكل مال وولد وسلطان وجمال وأرض وسما لا ثبات لها . فالفرح بالتغير غرور . ولا فرح ولا سرور إلا بما هو ثابت . ويظهر هذا في قوله تعالى « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجمعنا لمن يكفر بالرحمن » الخ ، فالقصور المزخرفات والذهب والفضة والسرور اجتمعت كلها إلى المادة الغليظة وقدرهنا برهاناً يقينياً أن السعادة في الابتعاد عنها والرحمة الحقيقية في إدراك ما هو ثابت ولا ثابت إلا لصانع العالم . فهل لك أن أسمك ما قاله نفس أفلاطون عن (سقراط) لتعجب من أن القرآن قد جاء تفسيره على السنة الفلاسفة ، بل على لسان أكبر فيلسوف غزله فلاسفة أوروبا الحاليين باعتبارهم سجداً فانظر ماذا يقول ؟ يقول معنى نفس هذه الآيات ؛ فهو يقول في الكتاب السادس مخاطباً (اديمينس) .

« أولست من رأيي أيضاً أن سبب استياء الجمهور من الفلسفة راجع إلى تصرف الذين كالسكاري يقتحمون ما لا ينبغي ويسىء بعضهم بعضاً ، ويسرون بث الفتن والاعتياب ، وبالاجمال الأشخاص الذين لا تتفق تصرفاتهم مع الفلسفة ، ثم قال : وحقا يا اديمينس أن من وجه أفسكاره نحو الأشياء الموجودة حقيقة ليس له متسع من الوقت للاستيقابك بمصالح الآخرين ومنازعتهم فتتسرب إليه عدى أذاهم بل على الضد من ذلك يقف أوقاته على التفكير بأشياء صحيحة ثابتة وإذ يرى أنها لا تضر إحداها الأخرى ولا تفي خاضعة للنظام وهي على أتم وفاق مع العقل يجتهد في درسها والتشبه بها . أو تظن أن الإنسان يستطيع ألا يتمثل بما يلزمه ويعتزمه . فأجاب : غير ممكن . فقال سقراط : فالفيلسوف الذي يلزم ما هو إلى مرتن بصير إليها مرتنا مع أنه هنا كما في كل موقف آخر مجال واسع للتزييف » .

وقال في صحيفة ١٨٨ مانصه : « إن بحثنا أراناً أن في كل منا آلة تساعد في تحليل العلم كما أنه لا يمكن تحويل العين من النور إلى الظلام بدون أن يتحول الجسم كله . هكذا أمر هذه القوة مع النفس فيلزم

تحول النفس كلها عن العالم القاني ليحكها التمكن في علم الحقيقة وفي أبهى قسم منه وهو ما ندعوه صورة الخبير انتهى .

يقول طنطاوي : أفليس مما يدهش المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها أن آيات هذه السورة التي ذكرت فيها الرحمة كالتى تصف الكافرين بأنهم لو كانت لهم تصور مزخرفة وسرر الخ لم يكن ذلك نافعا لهم وكالتى تبين أن من أعرض عن ذكر الله تسلمه الشيطان وأضله وهكذا .

أقول إن هذه الآيات قد جاء تفسيرها قبل أزمان النبوة بنحو ثمان قرون على السنة القلاسة . إذن هذا القرآن كما وصفه الله آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم . إذن المفكرون في جلال الله للتطون الحكمة هم أرقى الناس وهم أولى بإدارة الأمم لأنهم يزهدون في المال وفي أعراض الدنيا وليسوا كبعض الزهاد يعزلون الناس ويكونون عالة عليهم . وبهذا يعرف المسلمون أن الزهد في الدنيا ليس معناه تركها ، بل أن يكون الإنسان عالما بالجمال الأقدس موقنا أن السعادة في المعرفة والعلم أى العلم بالله والملا الأسمى وهذا لن يمكن بمجرد قراءة القرآن ولا تفسيره ، ولكن بدراسة علوم هذه الدنيا وينتقل من الخلق إلى الخالق ثم يكون خليفة له على عباده ، ولم أجد من سار على منواله سوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن جري على طريقه فهو الذى ينطبق عليه الآيات المذكورة من احتقار المادة والقيام بخدمة الأمة وتنظيم الدولة . ذلك هو الحق الصراح ، فأجل أنواع الرحمة في الحقيقة يرجع إلى إدراك جمال الله عز وجل وصفاته وفهم الوجود بما لذلك . ثم أن يكون الإنسان زاهدا في المادة متخلقا بالأخلاق الجميلة ، خليفة على عباده . منظما لأهمهم نافعا لهم ، فهو في العالم ولكنه غير مغرم به بل بالعلم وبالله وهو مساعد للمجموع منظم للحكومات وللأمم بقدر طاقته ، هذا هو الحق الصراح والحمد لله رب العالمين . انتهى صباح يوم الثلاثاء ١٨ نوفمبر سنة ١٩٣٠ .

مقاصد السورة

- (١) تأييد النبوة إلى قوله «ومضى مثل الأولين» .
- (٢) وإنبات الألوهية بالأدلة الطبيعية إلى «وإنا إلى ربنا منتقلون» .
- (٣) بعض سيئات كفر القوم إلى قوله «فهم به مستمسكون» .
- (٤) سبب كفرهم إلى قوله «وإنا على آثارهم مقتدون» .
- (٥) شدة جهلهم وجمود عقولهم إلى قوله «بما أرسلتم به كافرون» .
- (٦) الانتقام منهم إلى «عاقبة الكذابين» .
- (٧) تسلية النبي صلى الله عليه وسلم بذكر قصة إبراهيم إلى قوله «وإنا به كافرون» .
- (٨) ليست للظواهر المادية من أسباب الدرجات العلية والدينية إلى قوله «عند ربك للفتين» .
- (٩) من ترك عقله فلم يشغله بالحكمة تولاه الشيطان .
أعطيت ملكا فلم أحسن سياسته كذاك من لا يسوس الملك بخلفه
إلى قوله «مهتدون» .
- (١٠) من تصادقا على النصية تماديا عند القضاء إلى قوله «إنكم في العذاب مشتركون» .

- (١١) إنما تنفع الذكرى من استمدد لفهم إلى قوله «ومن كان في ضلال مبين» .
 (١٢) عدة الله نبيه بالنصر وعلو أمره وإنه مسئول عن الدين والقرآن هو وقومه إلى قوله « وسوف تسألون » .
 (١٣) قصص موسى لتأييد أن للظاهر النادية ليست سببا للمعارف العقلية إلى قوله « وبتلا للآخرين »
 (١٤) شؤم الحرص على الجدال وعدم جدواه في إبطال الحقائق إلى قوله « إنه لكم عدو مبين » .
 (١٥) ذكر عيسى عليه السلام واختلاف أتباعه ووعيدهم إلى قوله « وهم لا يشعرون » .
 (١٦) معاداة قرناء السوء يوم القيامة وعذابهم وسعادة الصالحين إلى قوله « فأنا أول العابدين » .
 (١٧) تنزيه الله تعالى ووصفه بسمة الملك والقدرة والحكمة وشهادة القطرة بذلك ، وبالاختصار وصفه بصفات الجلال والإكرام وهو المقصود إلى قوله « لا يؤمنون » .
 (١٨) سعة الصدر والصفح والسلمة خير الأخلاق اه .

مجمل تفسير الألفاظ

في المقاصد الأزمنة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(حم) تقدم الكلام عليها في السورة السابقة (والكتاب المبين) القرآن ، أقسم به من حيث نظمه وإعجازه ، إن الله صوره كذلك ، فالقسم كالأستشهاد على القسم به (لعلكم تعقلون) لكي تفهموا معانيه (وإنه) عطف على « إنا » (في أم الكتاب) في اللوح المحفوظ (لدينا) عندنا (لعل) رفيع الشأن في الكتب لكونه معجزا (حكيم) ذو حكمة بالغة . أو محكم لا يفسخه غيره (أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين ؟) أفندود الله ذكر ونعده عنكم صالحين فلا تأمرم ولا تنهاكم من أجل أنكم أسرفتم في كفركم وتركتم الإيمان (وكم أرسلنا من نبي في الأولين) إلى قوله (يستهزئون) أى كاستهزاء قومك بك (ولئن سألتهم) أى الشركيين (من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم) أى أنهم أفروا بأن الله خلقهما ، وأنه ذو عزة وعلم ، ومع ذلك جمعوا بين التقيضين إذ عبدوا غيره وأنكروا قدرته على البعث (الذى جعل لكم الأرض مهادا) قارة يمكن الانتفاع بها . والهدى موضع راحة الصبي ، والحلق كلهم يتربون على الأرض وهو موضع راحتهم فلذلك جعلت مهادا لعدد العباد (وجعل لكم فيها سبلا) طرقا (لعلكم تهتدون) إلى مقاصدكم في أسفاركم ، فلم تكن تلك المهاد رمية من غير رام (والذى أنزل من السماء ماء بقدر) بقدر حاجتكم إليه ، فلم يكن كثيرا حتى يهلككم (فأنزلنا به) بالمطر (بلدة مينا كذلك) كما أحينا بلدة مينا (فخرجون) من قبوركم أحياء (والذى خلق الأزواج كلها) أى الأصناف والأنواع أو الذكور والإناث أما هو فهو فرد لا ثاني له . (وجعل لكم من الفلك والأنعام ماركبون) فى البحر والبر (لتستروا على ظهوره) على ظهور الفلك والأنعام (ثم تذكروا نعمته ربكم إذا استوتبتم عليه) أى بتسخير ما ركبتموه فى البحر والبر (وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا) ذله (وما كنا له مقرنين) مطيقين أو حافظين (وإنا إلى ربنا لمنتقلون)

لمصرفون في العباد (وجعلوا له من عباده جزءا) أي بعد الاعتراف بأن الله هو الذي أنصف بالخلق والفرقة
والعلم الخ جعلوا له من عباده ولدا وهم لللائكة، والولد جزء الوالد وبضه لأنه بضه من الوالد (إن الإنسان
لكفور مبین) ظاهر الكفران ومنه نسبة الولد إليه تعالى (أم اتخذ مما يخلق بنات) هذا استفهام إنكار
وتوبيخ وتعجب ، يقول : اتخذ ربكم لنفسه البنات (وأصفاكم) أي أخلصكم (بالبنين) فاختار لنفسه للفرقة
الدينا ولستم الفرقة العليا (وإذا بشر أحدم بما ضرب للرحمن مثلا) أي بالجنس الذي جعله له مثلا إذ الولد
لا بد أن يماثل الوالد (ظل وجهه مسودا) صار وجهه أسود في الغاية لما يجتره من الكفاية (وهو كظيم)
مملوء قلبه من الكبر (أو من ينشأ في الحلية) أو جعلوا له من يتربى في الزينة عني البنات (وهو في الحسام)
في المجادلة (غير مبین) مقرر لما يدعيه من نقصان العقل وضعف الرأي (وجعلوا لللائكة الذين عباد الرحمن
إنانا) أي حكموا بهذا وأثبتوهم إنانا ، وقد جمعوا بهذه القرية بين الضدين : العبادة والولادة (أشهدوا خلقهم)
أي أحضروا خلق الله أيام شاهدوهم إنانا (ستكتب شهدتهم) التي شهدوا بها على اللائكة (ويسألون)
عنها يوم القيامة (وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم) أي لو شاء عدم عبادة اللائكة ما عبدناهم (ما لهم بذلك
من علم إن هم إلا يخرصون) أي وقال بنومليخ بوجه غير ما تقدم : لو نهانا الرحمن وصرنا ما عبدناهم
استهزاء ولكن أمرنا بعبادتهم ولم ينهنا عنها ، ما لهم بما يقولون من حجة ، ما لهم إلا يكذبون على الله (أم
آتيناهم كتابا من قبله) من قبل القرآن (فهم به يستمسكون) بذلك الكتاب .

ذكر سبب كفرهم

ولما بطلت جميع الحجج رجعوا إلى التقليد (بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة) أي دين ، وهي من
الأم وهو القصد ، فالأمة الطريقة التي تؤم أي تقصد (وإنا على آثارهم مهتدون) أي إنهم مهتدون باتباع آباءهم
وتقليد من غير حجة ، وهذه في الحقيقة حجة الناقلين من الأمم الحاضرة والقاتلة . ومن ذلك قوله
تعالى (وهكذا ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على
آثارهم مقتدون) وهذا نسبية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ودلالة على أن التقليد في ذلك ضلال قديم والأم
في ذلك متشابهة والعلة في ذلك التعم والسكيل والبطالة . ولذلك أكثر الله في نوع الإنسان من الحروب
والأمراض والعداوات ليستخرجهم على العمل وتتنشط العقول ويفكروا حتى يقل الترف الجالب للتقليد والنوم
في ظل الجهالة العمياء .

شدة جهلهم وجود عقولهم

قال تعالى (قل) أتنبون آباءكم (أو لو جنتم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم) أي بدين أهدى من دين
آبائكم : وقرأ ابن عامر وحض « قال » أي النذير ، قل حكاية أمر ماض أوحى إلى النذير وحينئذ يقال
لماذا أجاب أهل القرية ؟ فأجاب (قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون) وإن كان أهدى : وذلك ليقتطوا نذيرهم
من أنهم يفكرون .

من المقصد السادس إلى المقصد التاسع إلى قوله (مهتدون)

قال تعالى (فاتقنا منهم) بالاستئصال (فانظر كيف كان عاقبة المكذبين) ولا تكثرت بتكذيبهم (وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء) أي براء (بما تعبدون ؛ إلا الذي فطرن) أي إنني أنبراً بما تعبدون إلا من الله الذي خلقني (فانه سيدين) أي يرشدني إلى دينه (وجعلها) أي وجعل إبراهيم كلمة التوحيد التي تسلم بها وهي لا إله إلا الله (كلمة باقية في عقبه) في ذريته فيكون فيهم أبداً من يوحد الله ويدعو إلى توحيدهم (لعلهم يرجون) أي يرجع من أشرك منهم بدعاء من وحده (بل تمت هؤلاء وآباءهم) يعني أهل مكة وهم من عقب إبراهيم ، فددت أعمارهم ، وأكثرت نعمهم ، فشغلهم النعم والترف والشهوات وأطاعوا الشيطان ونسوا كلمة التوحيد ، وجريت على عادتي أن أجعل في بني إبراهيم من يوحد الله ويدعو من كفر منهم لعله يرجع ، فاخترت محمداً ليدعو هؤلاء فقالوا هذا سحر الخ ، وهذا قوله تعالى (حتى جاءهم الحق) أي القرآن (ورسول مبين) الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وقوله «مبين» أي واضح الرسالة بما معه من الآيات (ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون . وقالوا) فيه متحكمين بالباطل (لولا نزل هذا القرآن) البشارة تفيد الاستهانة (على رجل من القرينتين عظيم) أي رجل عظيم من إحدى القرينتين كقوله يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان، وإنما يخرجان من الملح وحده على قول بعض القدماء، ولكن ظهر في العلم الحديث أن اللؤلؤ يخرج من الماء العذب كما ستراه في (سورة الرحمن) وهذا من معجزات القرآن ؛ والقرينتان مكة والطائف ، والرجلان الوليد بن المغيرة عظيم مكة ، وعروة بن مسعود الثقفني عظيم الطائف، وكان كل منهما ذاملاً وإذا جاء مع أن العظيم في العقل والعلم والدين غير العظيم في اصطلاحهم (أهم يقدمون رحمة ربك؟) أي النبوة، والاستغناء للانكار والتجهيل والتعجب كأنه يقول : أيها القوم عجباً لكم ، كيف جهلتم قدر أنفسكم ، أو بلغ من شأنكم أن تصطفوا من تشاءون للنبوة التي لا يصلح لها إلا من له رتبة عظيمة روحانية تستدعي عظم النفس ، فتكون ذات فضائل قدسية . وكالات خلقية ، وتكون مستينة بالتحارف الدنيوية التي أتسمت فيها ، فلتسم أهلاً لأن تخاض عليكم فضلاً عن أن تهبوا لمن تشاءون . (نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا) يقول تعالى : نحن قاوننا بينهم في الرزق ، فمنهم الغني ، ومنهم الفقير ، ومنهم السيد ومنهم العبد ، ومنهم للولك ، ومنهم السوق ، ومنهم الأقوياء ، ومنهم الضعفاء ، ومنهم ذوو الجمال ، ومنهم ذوو السمامة ، ولم يقدر أحد من عبادنا أن يغير ما حكمنا به في أحوال دنياهم مع قلتها وذلها ، فكيف يقدرون على الاعتراض على حكمنا فيها هو أرفع درجة ، وأعظم منصباً ، وأشرف غاية ، وهو النبوة ، فنحن رفقنا بعضهم على بعض بمشيئتنا رخصنا من نشاء للنبوة كما أردنا ، فكالم يغيروا ما هو أدنى هكذا هم أعجز عن التغيير فيها هو أعلى . ثم أتت وصف حال تفاوتهم في الدنيا فقال (ورفقنا بعضهم فوق بعض درجات) أي أوقفنا بينهم التفاوت في الرزق (ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً) ليصرف بعضهم بعضاً في حوائجهم ويستخدمهم في منتهى ، ويسخروهم في أشغالهم ، حتى يعيش بعضهم مع بعض ، وينفع بعضهم بعضاً ، فهذا بحاله وهذا بأعماله ، لأننا حكمنا أن هذه النفوس تبيض في الأرض لتساون ونحن قادرين أن نطمعهم وهم قاعدون كما أطمعنا النبات والدود ، ولكن هي الحكمة أن الأعمال التكليفية التي يتعاطاها الناس سواء أكانت طبيعة أم شرعية تصير قبا بد للولت مهيئة للنفوس فيسهل عليها التعارف والتعاون في عالم الأرواح ، وعلى قدر تهديتها ومحبها لبعضها يكون ارتقاؤها ، وكيف تتعارف في الدنيا إلا بالقاء والاختلاط فأحوجناهم إلى القوت

وأعيننا وأقربنا ، وجعلنا ذكرا وأنثى . كل ذلك ليتعارفوا ويتعاونوا . وأزلنا العبادات وفرضاها ليتحدوا في الصلوات ، ويتعاونوا في الصدقات . وأزلنا القرآن والعلم لتجمعهم جامعة الحكمة والأخلاق وهي أقوى الجامعات وأمتن الروابط وهذا قوله تعالى (ورحمة ربك) بالبوقة وما يتبعها (خير مما يجمعون) أي مما يجمع الكفار من الأموال ، فالدنيا على شفا جرف هار . إن المادة والمظاهر القانية لا قيمة لها في حضرتنا ، فنحن أغدقنا النعم على الدواب والأنعام وكثير من جهلة بني الإنسان . ولولا أن تتطلع أعين المؤمنين إلى زهرة الدنيا وزينتها إذا غمرنا الكافرين بها وأوسعناها عليهم سعة مطلقة وأن تهلع قلوبهم وتتخلع حينما يرون الكافرين في أتم حال وهم في شظف العيش لجعلنا كل كافر في أرغد عيش وأنهم حال ولكننا لم نعمل ذلك رحمة بالمؤمنين وهذا قوله تعالى (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة) أي ولولا أن يصيروا كلهم كما را فيجتمعون على الكفر ويرغبون فيه إذا رأوا سعة الرزق عند الكفار (لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج) ومصاعد إلى المعارج جمع معرج (عليها يظهرون) يعلون السطوح لمقارة الدنيا وقوله « لبيوتهم » بدل اشتغال (وليوتهم أبوابا وسررا عليها يشكثون) أي أبوابا وسررا من فضة . يقول لجعلنا للكفار سقفا من فضة ومصاعد وأبوابا وسررا من فضة (و) جعلنا لهم (زخرفا) أي زينة من كل شيء . ويقال : الذهب أيضا فيكون عطفًا على محل من فضة : أي سقفا من فضة وذهب أي بعضها من فضة وبعضها من ذهب ، وإذا كانت المعارج والأبواب والسرر كالسقف كما تقدم يكون بعضها من فضة وبعضها من ذهب على هذا التقدير أيضا (وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا) أي ما كل ذلك إلا متاعها القصير الفاني وليس مما تقدر به قيم النفوس الإنسانية فكيف يقولون لولا أنزل هذا القرآن على رجل الخ والمعظمة المادية لعلقة لها بالمناسب النبوية (والآخرة عند ربك للمتقين) الكفر والمعاصي . ولا جرم أن هذه النعم والسرر والأبواب المتنوعة من الذهب والفضة لو أعطيت للمؤمنين حتى يصبح الناس كلهم مؤمنين لأختل بالمقصود من الإيمان لأن الترف والتعيم يحجبان أكثر العقول عن عالم الروحانية والرقى العقلى . وقل من يتخلص من شرك هذه الآفات . فالشهوات والزينة والزخارف للعقول أشبه بالقاذورات بالنسبة للأجسام . وكما أن الأجسام القذرة يحوم حولها الذباب فيلقى فيها بيوضه لتفرخ في القروح والميون ويخرج ذباب يعيش من تلك القاذورات فتكون آلام وآلام هكذا تلك النفوس الضعيفة تتعشش فيها النفوس الممائلة لها من عالم الشياطين وتلقى إليها بذور الفساد فتزرع في تلك العقول وتمسدها النفوس خزيا وعارا في الدنيا والآخرة ، ولتلك أعقبه بقوله (ومن يعيش عن ذكر الرحمن) يتعام ويعرض عنه بأنهما كه في المحسوسات واشتغاله باللذات (نقيض له شيطانا فهو له قرين) أي نسب ونضم له شيطانا ونسلطه عليه ، وذلك على مقتضى سنا الكونية كما سلطنا الذباب على الأجسام القذرة وخلقنا الحيات والعقارب والحشرات في المجال العفنة لتلطيها للهواء ورحمة بالناس والحيوان هكذا النفوس . فإذا قتلت الحيات أحدا أو أصاب الحيوان الثدى الذى لا يرى للسمى بالمكروبات أحدا ، أو عم الوباء من ذلك ، فمن مات فقد كان هكذا استعدادا ، ومن عاش فإنه يكون أقدر على الحياة لقوة تحمله فلم يؤثر فيه الوباء ، هكذا هذه النفوس الموسوسة للضعفاء توقعهم في الذنوب لاستعدادهم فينالون جزاءهم من عقاب الحكومات ، أو احتقار الناس ، أو الأمراض في الدنيا فيكون ذلك عبرة لهم وزجرا لغيرهم ، وتكون نتيجة ذلك الرحمة ، ويشير لتلك قوله تعالى « يا أبتى إنى أخاف أن يسبك عذاب من الرحمن » . فالعذاب بالأمراض الفتاكة والموت والشياطين المضلة . كل ذلك إيقاظ من الله للإنسان ، وإيّاك أن تدخل في هذا عذاب الكافر فوائه إن فيه سرا يحرم إفتاؤه تحريما قاطعا ، فإذا عرفته فلا تقله بل ليدفن معك لأن الأمم اليوم لا تستعد لفهمه . واعلم أن هذا القام هو نتيجة العلوم كلها

دينا وحكمة وتصوفا، فمن عرف الحقيقة في هذا اللقمة فقد وصل لله ونال غاية الحكمة، فإذا عرفت فالزم.
قال تعالى (وإيهم) أى الشياطين (لصدونهم) ليجنمون العاشقين (عن السبيل) عن سبيل الهدى
(ومحبسون) أى العاشون (أنهم مهتدون) لأنهم تلقوا من الشياطين ما يلائم أمرجنهم ويوافق أخلاقهم
والقوة فلم ينكروه اهـ .

الكلام على المقاصد من العاشر إلى الثالث عشر

إلى قوله : « ومثلا للآخرين »

بحسب كفار بنى آدم أنهم على هدى وقد أغواهم الشيطان (حق إذا جاءنا) الكافر منهم (قال)
لقربته الشيطان (يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين) أى بعد المشرق والمغرب ، فيه تغليب أحدهما ثم
التثنية (فبئس القرين) أنت (ولن ينفعك اليوم إذ ظلمت) أشركتم (أنكم فى العذاب مشتركون)
أى لا ينفعكم الاشتراك فى العذاب ولا يخفف عنكم شيئا ، إن الكافر يمتنع هنا شدة البعد بينهما ، وجاء
فى آية أخرى « ربنا أرنا الذين أضلنا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا » الخ . فأجيبوا بأن الاشتراك
فى العذاب لا يخفف عنكم شيئا (أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى) قومك كالصم البكم فلا يقبلون
الهداية ، فمن عجب أنك تقدر على هدايتهم ، وعطف على العمى قوله (ومن كان فى ضلال مبين) فى ضلال
لا يخفى ، فهو لا يقبلون الهداية (فلما نذبهن بك) بأن نمتك قبل أن نذهبهم (فإننا منهم منتقمون)
بالقتل بعدك (أو ترينك) فى حياتك (الذى وعدناهم) من العذاب (فإننا عليهم مقتدرون) قادرون
على ذلك متى شئنا عذبناهم وقد اتقم منهم يوم بدر ، وهذا فيه تسلية له عليه السلام لأنه وعده الانتقام منهم
على كل حال (فاستمسك بالذى أوحى إليك) من الآيات والشرائع (إنك على صراط مستقيم) لا عوج
فيه (وإنه) أى القرآن (لقد كر) لشرف عظيم (لك ولقومك وسوف تسألون) عن حقه وأداء شكره
ومنى هذا أن القرآن نزل بلغة العرب ودين الإسلام وعد الله بنشره فى الأرض وأبناء العرب هم المارفون
باللغة ، فلى هذا هم الملتزمون بالقيام بنشر اللغة العربية ودراسة هذا الدين للأمم الأخرى ، فالأمة العربية
مقصرات فيها ألزمها الله به أذلها الله فى الدنيا ، وأدخل للقصرين منها النار يوم القيامة ، ولذلك لما
قصرت فى واجبها انطمست معالمها ودخلت فى حوزة الأمم الأوروبية ، وعسى أن يقرأ هذا أبناء العرب
من إخواننا ويفهموا مركزهم فى الأرض أنهم هم الملمون للأمم ؛ فليشروا هذا القرآن وليتملوا هم
لغات الأمم وليكتبوا المصاحف بالعربية ويكسبون على الهامش تفاسير بلغات مختلفة كالإنجليزية والروسية
والألمانية وهكذا حتى تعرف الأمم هذا الدين . هذه الآية توجب على أبناء مصر والشام واليمن والحجاز والعراق
أن يكونوا ناشري هذا الدين ، ولكن هم اليوم فى الجهالة تأنهون ، وسيقوم مجدهم كرة أخرى وترجع أيام
عزهم ، وإذا ورد فى حديث البخارى ومسلم أن الخلافة فى قريش ؛ وفى البخارى أيضا حديث « إن هذا
الأمر فى قريش لا يعاديه أحد إلا أكبه الله تعالى على وجهه ما أقاموا الدين » وأيضا يقول بعض المفسرين
القوم هم العرب والقرآن لهم شرف .

إذا عرفت هذا فامل قوله صلى الله عليه وسلم « ما أقاموا الدين » فكأن الخلافة جعلت لهم ليحافظوا على الدين
فكأن المحافظة على الدين هى المقصودة من خلافتهم ، فالمحافظة أصل والخلافة فرع ، وهذا يشير لعنى الآية
(وأسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا) أى وأسأل أممهم وعلما دينهم (أجمعنا من دون الرحمن آلهة
يسبدون) هل حكمنا بعبادة الأوثان ، والمراد تقرير أن جميع الأنبياء على التوحيد فليس يدع ما جاء به

محمد صلى الله عليه وسلم حتى يعارض (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون ومكة فقال إن رسول رب العالمين) أني بهذا القمص ذا كرا فيه ما يناسب المقام من تفاخر فرعون بظنمة ملكه ، ومن اتهامه لموسى عليه السلام بالسحر كما فعل القوم مما هو مذكور في هذه السورة ، إذ تمنوا أن تكون النبوة لرجل من القرينين عظيم وجعلوا النبوة سحرا (فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون) يسخرون (وما نريهم من آية إلا هم أكبر من أخيها) من قرينتها (وأخذناهم بالمداب) كنعص الثمرات وإرسال الطوفان الخ (لعلهم يرجعون) عن الكفر (وقالوا يا أيها الساحر صموه ساحرا أي طالما ما هرا تاهرا إنكارا للنبوة (ادع لنا ربك) فيكشف عنا العذاب (بما عهد عندك) أي بما أخبرتنا عن عهده إليك ، أنا إن آمننا كشف عنا العذاب فأسأله أن يكشفه عنا (إننا لمهتدون) لمؤمنون ، فدعاه به فكشف عنهم فلم يؤمنوا (فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينسكتون) ينقضون عهدهم (ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي) أنهار النيل تجري من تحت قصرى وبين يدي في جناتى . (أم أنا) بل أنا (خير من هذا الذى هو مهين) ضعيف حقير فكيف تكون له رئاسة مع للهانة (ولا يكاد يبين) الكلام لما به من الرقة فكيف يصلح للرئاسة (فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب) جمع أسوار ، وقرى أسورة جمع أسورة ، وقرى أساور جمع أسوار ، أى هلا ألقى مقاليد الملك إليه . ذلك أنهم كانوا إذا أرادوا تسويد رجل سوروه بسوار وطوقوه بطوق من ذهب (أو جاء معه اللاتكة مقترنين) مقرونين به بينونه أو صدقونه (فاستخف قومه) أى فاستخف أحلامهم بما يديه من عظمة الملك والرئاسة وجعلها مناط العلم . ولو كان هناك نبوة لكان هو أولى بها كما قال أهل مكة في رجل من القرينين (فأطاعوه) فبأمرهم به (إنهم كانوا قوما فاسقين) إذ أطاعوا الفاسق . هكذا أتم يا أهل مكة إذا اتبعت من يجعل النبوة موقوفة على العظمة والجاه وتصبحون كقوم فرعون إذا تنعمنا منهم لما أغضبونا (فلما آسفونا) أغضبونا بالناد (انتقمنا منهم) فأغرقتهم أجمعين (في اليم) جعلناهم سلفا (قدوة لمن بعدهم من الكفار يقتدون بهم في استحقاق مثل عقابهم) ومثلا للآخرين (حديثا عجيب الشأن سائر سير المثل يضرب بهم الأمثال فيقول الناس مثلكم مثل قوم فرعون .



ذكر المقاصد من ١٤ إلى ١٨ وهي الأخيرة

وهي شؤون المرض على الجدال وعدم جدواه في إبطال الحقائق . وذكّر عيسى عليه السلام واختلاف أتباعه ، وذكّر معاداة قرناء السوء يوم القيامة وعذابهم وسعادة الصالحين . وذكّر تنزيه الله تعالى . ووصفه بسعة الملك والتقدرة والحكمة وشهادة الفطرة بذلك . وبالاختصار وصفه تعالى بصفات الجلال والإكرام . وذكّر سعة الصدر والصفح والسائلة وأنها خير الأخلاق

اعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قرأ على قريش « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم » غضبوا فقال ابن الزبيرى : يا محمد أخاصنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم . فقال ألسنت تزعم أن عيسى ابن مريم نبي وثقى عليه وعلى أمه خيرا . وقد علمت أن النصرارى يصدونهم وعزير يبعد والللائكة يعبدون فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم فخرجوا وضحكوا وسكت النبي صلى الله عليه وسلم فأزل الله تعالى « إن الذين سبقتم من الحسنى أولئك عنها يصدون » ونزلت هذه الآية (ولما ضرب ابن مريم مثلا) أى ولما ضرب ابن الزبيرى عيسى ابن مريم مثلا لآلهتهم وجادل رسول الله صلى الله عليه وسلم عبادة النصرارى إياه (إذا قومك) قريش (منه) من هذا المثل (يصدون) رتفع لهم حجة وضجيج فرحا وضحكا بما سمعوا منه من إسكات النبي صلى الله عليه وسلم بحججه (وقالوا آلهتنا خير أم هو) آلهتنا خير عندك أم عيسى ؟ فإن كان في النار فلتكن آلهتنا معه ومع عزير والللائكة (ماصر بوه لك إلا جدلا) أى ماذا كروا لك عيسى ابن مريم إلا للجدل والحصومة (بل هم قوم خصمون) جدلون بالباطل . ولما ذكر عيسى وأنه معبود عند النصرارى أخذ يبين حاله فقال (إن هو) أى إن عيسى (إلا عبد أنعمنا عليه) بالنبوة (وجعلناه مثلا) وصيرناه عبرة عجيبة كالمثل السائر (لبنى إسرائيل) فليس معبودا كما يزعم قوم من النصرارى ؛ وإنما العبرة فيه أنه ولد من غير أب فيفتح للناس باب التفكير والتذكر والفهم والعلم وليست مخالفة المادة فى شئ موجبة لعبادته بل هى مذكرة بعبادة الخالق الحكيم (ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخفون) على أننا لو نشاء لجعلنا ذريبتكم ملائكة يخفونكم فى الأرض كما يخفكم أولادكم كما خافنا عيسى من أنقى بلا ذكر وجعلناه رجلا : أى لو نشاء لجعلنا فى الأرض عجا كأم عيسى بحيث يلد الرجل ملكا فيخلفه ، فباب العجائب والنظم المدهشة لاحد له عندنا ، فكم من نوايس خافية عليكم بيدنا نصريفها (وإنه) أى القرآن (لم يسلط) لأن فيه إعلاما بها ودلالة عنها (فلا تخرن بها) فلا تشكن فيها (واتبعون) هذا قول الرسول صلى الله عليه وسلم أمر أن بقوله (هذا) الذى أمدوكم إليه (صراط مستقيم) لا يضل سالكه (ولا يصدنكم الشيطان) عن الثابتة (إنه لكم عدو مبين) ثابت عداوته لأنه وسوس لأبيكم ولكم (ولما جاء عيسى بالبينات) بالمعجزات الواضحات (قال قد حثكم بالحكمة) بالإنجيل والتشريعة لتسبين السبيل لكم (ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه) من أمور الدين وحدها (فاتقوا الله وأطيعون) فبا أبلغه عنه (إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه) وهذا ملخص جميع البينات اعتقاد الوحداية والتعبد بالشرائع أى العلم والعمل . انظره فى سورة (آل عمران) فهنا ملخص الديانات فى الأرض مصداق لهذه الآية (هذا صراط مستقيم) هو من كلام عيسى عليه السلام ، فالصراط المستقيم علم بحقائق وعمل بشرائع (فاختلف الأحزاب) الفرق التحزبية

(من بينهم) من بين النصارى (فويل للذين ظلموا) من التحزين (من عذاب يوم أليم) يوم القيامة
(هل ينظرون إلا الساعة) والذين هل ينظرون إلا الساعة (أن تأتيهم بغتة) فجأة والتصوداً أي تأتيمهم لا محالة
(وهم لا يشعرون) أي غافلون عنها لا اشتغالهم بأمر الدنيا وإنكارهم لها (الأخلاء) الأحياء (يومئذ بينهم
ليعض عدو) فالخلة التي بينها الباطل بطل متى ظهرت حقيقتها ، وهؤلاء يظهر باطلهم يوم القيامة (إلا
التقين) لأن الورثة أسست على حقيقة لا تخفى ، وإن ينادى الله للؤمنين للتحسين في جلاله فيقول (بإعباد
لا خوف عليكم اليوم) مما تلاقونه بعد الموت كما يخاف غيركم (ولا أنتم تحزنون) على ما خلفتم لا اعتقادكم أنى
وكيل حكيم أنصرف في ملكي بالحكمة والعدل ، ولكن الحزن لغيركم ، ثم وصف العباد بقوله (الذين آمنوا
بآياتنا وكانوا مسلمين) أي مخلصين (ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون) تسرون وتعمون (يطغى
عليهم صحاف من ذهب) جمع صحفة وهي القصة الواسعة (وأكواب) جمع كوب وهو كوز لا عروة له
(وفيها) في الجنة (ما تشبه الأفس وتلد الأعين وأنتم فيها خالدون) بخلاف النسيم الذي هو زائل وهو نسيم الدنيا
(وتلك الجنة التي أوردتموها بما كنتم تعملون) شبهت الجنة في جنتها على أهلها بالبراث الباقي على الورثة ،
وتلك إشارة إلى الجنة المذكورة والجنة خبر ، وقوله (لكم فيها ما كنهتم كنهياً منها ما لا يحصى بالعين) إلى
أنهم يأكلون بعض الثمار والباقي مزين لشجره . وفي الحديث لا ينزع أحد في الجنة من ثمرها إلا نبت مكانها
مثلهاء (إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون) خبر بدخبر (لا يفتخرونهم) لا يخفف ولا ينقص (وم فيه) في العذاب
(مبلسون) أيسون من الفرج متعبرون (وما ظنناهم) بالعذاب لأننا نضع كل مخلوق في مرتبته (ولكن
كانوا هم الظالمين) هم ضمير فصل . يقول : إن العذاب راجع إلى الاستعداد القطري لنقص في قابليتهم ولم
يخرج ذلك عن ترتيب الدرجات على مقتضى الاستعداد ، وهذا ليس من الظلم في شيء . فالفاعل بطلى
والقابل ليس بأهل لما يفاض عليه (ونادوا) لما يشعروا من فتور العذاب (بإملاك) وهو خازن النار . قيل
لابن عباس : إن ابن مسعود قرأ بإملاك . فقال : ما أشغل أهل النار عن الترخيم (ليقض علينا ربك) ليتنا
يقال قضى عليه : أماته أي سل ربك أن يقضى علينا (قال إنكم ما تكونون) لا يكونون في العذاب لا تنظرون
منه يموت ولا توتور (لقد جئناكم بالحق) أي لقد جئناكم معاشرة لللائكة بالحق حيناً أوحى الله إلى الأنبياء
بواسطتنا (ولكن أكثركم للحق كارهون) لا تصبقونه وتفرون منه ، لأن الحق يوجب التنب والباطل يوجب
الكسل (أم أبرموا أمرا) أي بل أحكم مشركهم أمرا من كيدهم ومكرهم محمد صلى الله عليه وسلم
(فلما برموا) كيدنا كما أبرموا كيدهم ، وكانوا يتنادون ويتناجون في أمر رسول الله صلى الله عليه
وسلم في دار الندوة (أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم) حديث أنسهم (ونحوهم) ما يتحدثون فيها بينهم ويخفونه
عن غيرهم (ولئن) نسمعهم (ورسلنا) والحفظة مع ذلك (لديهم) ملازمة لهم (بكتيون) ذلك (قل إن كان للرحمن
ولد فأن أول العابدين) منكم : أي لو صح وثبت يرهان صميم تورودونه وحجة واضحة تدلون بها أن الرحمن
ولدا لكنت أسبقكم إلى طاعته كما تعظمون . أنتم أبناء ملوككم فلئن أول العابدين وهذا وارد على سبيل
البالغة في نفي الولد ، يقول : وإذا كنت أنا لم أعترف بولد بدليل أنني لم أعبد مع أنى أقرب الناس إلى الله
فالولد متنى حتى : أي فاتقاء الولد مرتب على اتقاء عبادته ضرورة اتقاء للاروم بانتفاء . لازمه ثم نزه نفسه .
فقال (سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون) أي عما يقولون من كونه ذا ولد . ألا ترى
أن الكواكب والشموس والأحجار والمعادن كلها لا تدل للثل كما يد الإنسان والحيوان . وذلك لأن هذه
العناصر للركبة منها تلك المواد موضوعة للتحليل والتركيب فهي جعلت أصولاً للأحياء تبرات عما يتصف
به الحيوان من توليد للثل ، فالجبر لا يد حجراً . والأرض لا تد أرضاً مثلها ، وكذا السماء والهواء واللاء
فإذا كانت هذه التي جعلت أصول الأشياء تبرات عن الولد فكيف يد مبدعها ! (فلهم يخوضوا) في باطلهم

(والمعبود) في دنياهم (حتى يلافوا يومهم الذي بوعدون) وهو القيامة (وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله) أي وهو الذي هو في السماء معبود وفي الأرض معبود لا إله إلا هو وإنما قلنا هو في السماء لأجل صناعة الإعراب . وقلنا معبود بدل إله ليكون مشتقاً يتلقى الظرف به (وهو الحكيم) في إبداعه وصنعه في السموات (العلم) بجميع النتائج وللقدمات ، والأسباب والسيئات ، بحيث غللت الحكمة التي قرنت بالعلم كل رطب وياابس ، وجليل وحقير ، وهذا هو الذي يبرهن أنه المستحق للعبادة في السموات وفي الأرض لأن من يشاهد إتهان الحكمة فيما يحد نظاماً واحداً وحكمة متسقة . هذا معنى الآية . ولما كان الناظر في علم الطبيعة والفلك وقد درس علوم الرياضات ونظر في هذا النظام يدهش لما يحد من العجائب والإتقان والصنع البديع ، ويحار له من تلك الحكم التي لا نهاية لها في أصفره كما يراه في جلائل المخلوقات أردفه بقوله (وتبارك الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما) والتعير بتبارك لا يقوم مقامه تعبير في اللغة حتى يؤدي ما يشور في نفوس الحكماء والعلماء من مدهشات هذه الدنيا وغرائبها بحيث يرى العاقل في أدق الأشياء بدائع تعجب العقول ، مثلاً ترى للبحر الذي تأكله م ركب ؟ ركب من عنصرين أحدهما عبارة عن مادة إذا وضعت في الماء التهب الماء فصار ناراً ، والعنصر الآخر سم مهلك قاتل ، فيا عجباً ! عنصران : أحدهما نار والآخر سم ، لانعش في الدنيا إلا بتماطي للركب منهما صباحاً ومساءً ، ولو نظر الحكيم المدارس علم الحيوان في قطعة صغيرة من جناح الناموسة لا اطلع على تفاصيل ودقائق وأوردة وشرايين ولرأى في إطارها ما يشبه الريش محيطاً به ، وهكذا قد كشف العلماء بما نظروا بالمناظير المعظمة غرائب ينطق عندها العاقل قائلًا « وتبارك الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما » .

حيوان ذري يدير دولاباً

قد اطلعت بواسطة المنظار المعظم عند الأستاذ شوقي بك بكبير المدرس بمدرسة الزراعة بمحلوان على بركة ماء يبلغ عمقها في النظر عشرة أمتار وفيها حيوانات كثيرة أصف واحداً منها بأنه يحمل عجلة وهو يديرها في لحيج الماء النزير لتوصيل رزقه ، ولعلك تقول : وما هذه البركة ؟ أقول لك إنه قد بل الزجاجة برطوبة من بركة هناك عنده ، فهذه الرطوبة لما وضعت تحت المنظار ظهرت هكذا وفيها تلك الحيوانات والنباتات والآلة الدائرة لتوصيل الرزق مع أن هذا الحيوان ودولابه الدائر لو اجتمع هو وآلاف مثله لم تره أعيننا فضلاً عن عجلته أو دولابه . ههنا المعاني وأمثالها هي التي يحملها قوله تعالى « وتبارك الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما » فهذا مما بينهما . واعلم أن العقول الإنسانية تبقى راكدة حتى تحركها أمثال تلك العلوم . وإتهاض القلوب على قسمين : قسم بما قلناه من أمثال تلك العلوم إذا قرئ على الوجه الذي قررناه . وقسم بظهور أصحاب العقول الكبيرة الذين يحملون الشعوب على انتهاج خطة الكمال ، وقد آن أو ان ظهور الأمرين مما في أمة الإسلام ، فيظهر أهل العقول الكبيرة ومعهم تلك الحكم العالية ، وهذا هو الذي يديم الأمم وبقائها . ولما كانت هذه العجائب لا يطلعها إلا الله وحده ، والناس لا يعلمون إلا قليلاً مع أنها بين أيديهم كانت الساعة أولى أن يحملوها فأعقبه بما يدل على ذلك فقال (وعنده علم الساعة) التي تقوم القيامة فيها (وإليه ترجعون) للجزاء . ولما كان ذلك اليوم يكون فيه الحساب والشفاعة قال (ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة) من معبوداتهم كالأصنام والملائكة والمسيح (إلا من شهد بالحق) بكلمة التوحيد (وهم يعلمون) أن الله ربهم حقاً ويستفدون ذلك ، فهؤلاء هم الذين يملكون الشفاعة كالملائكة والمسيح لأن الشفاعة على مقداره وصول الآثار العلية والهدية وكل من وصله علم المسيح قبل النسخ وهكذا المؤمنون من جميع الأمم الذين

لم تفسخ دياناتهم بشفع لهم أنبياءهم وعفاؤهم وشهادتهم كما في الحديث والملائكة من باب أولى لأنهم الواسطة (ولئن سألتهم) أي المشركين (من خلقهم ليقولن الله لا الأسماء) فأي يؤفكون) فكيف أو من أين يصرفون عن التوحيد وهذا إقرارهم ، ثم عطف لفظ قيله من (وقيله بأرب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون) على الساعة أي وعند الله علم الساعة وعلم قول . ول محمد صلى الله عليه وسلم يارب الخ وقرئ مجروراً منصوباً وهو في الثاني عطف على محل الساعة لأن إضافة العلم للساعة من إضافة المصدر لمفعوله فتحلها نصب ، فلما شكنا صلى الله عليه وسلم إلى ربه عدم إيمانهم أجابه الله قائلاً (فاصفح عنهم) فأعرض عن دعوتهم وأنت آيس من إيمانهم (وقل لهم (سلام) أي متاركة فلا تدع عليهم بالمذاب ولا تدعهم للدين (فسوف يطون) طابفة كفرهم وتنصر عليهم . انتهى التفسير اللفظي .

في هذه السورة سبع لطائف

- (١) في قوله تعالى «إنا جئناك قرآنا عربياً» مع قوله « وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون » وقوله « وإنه في أم الكتاب لدينا » الخ .
- (٢) وفي قوله تعالى «ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العظيم» إلى قوله « وإنا إلى ربنا لمنقلبون » مع قوله « سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون » إلى قوله « فأني يؤفكون » .
- (٣) وفي قوله « بل قالوا إننا وجدنا آباءنا على أمة » الخ .
- (٤) وفي قوله « قالوا هذا سحر وإنا به كافرون » مع قوله « وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك » الخ . وفي قوله « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » مع قوله « فلو لا ألقى عليه أسورة من ذهب » وقوله « أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون » .
- (٥) وفي قوله « حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد الشرقين » مع قوله « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا اللاتقين » .
- (٦) وفي قوله « وإنه لعم للساعة فلا تترن بها » .
- (٧) وفي قوله « فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا » .

اللطيفة الأولى والثانية

قد علمت فيما مضى من السور أن «حم» تشير في هذه السور إلى الحمد ، وأن الحمد هو مناط العلوم كلها والحكمة ، فأول هذه الأمة الإسلامية حمد ، وآخرها حمد ، وفي مملاتها حمد ، وفي أكلها حمد وفي لبسها حمد . وفي سفرها حمد . وفي جنتها حمد ، يقولون : « الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن » وأيضاً على لسان للملائكة حمد لأنهم يسبحون بحمد ربهم والحمد يكون على النعم : والنعم لا يحمد عليها إلا إذا عرفت .

فرجع الأمر إلى العلوم وعجائب الصنع والحكمة في السموات والأرض . أما علوم اللغة من النحو والصرف
واللغابي وأمثالها ثا هي إلا آلات ؟ وأما علوم الفقه ومقدماتها كالأصول وما يلحقها من علوم الجدل فإنها
هي للقضاء وحفظ نظام الدولة الظاهري . أما امتلاء العقول بالحكمة وإظهار رجال عظماء في أمة الإسلام
وحفظ البلاد من تألب الأمم عليها ورفدها بالخيرات والثمرات والنعم ، فذلك لن يكون إلا بعلم السموات والأرض
وعلم الكيمياء والنبات والحيوان والتشريح وطبقات الأرض والهواء والبحار ، ألا تراه ابتداء السورة قائلا
« حم » مشيرا للحمد ، ثم أعقبه بذكر القرآن العربي لأنه الدليل على ما يجب على الناس ، ثم أبان منزله
في علوه عنده تعالى وحكمته فهي أعلى للرزق وهو موسوم بالحكمة . ومن الحكمة ما ذكره في الطيفة
الثانية من شهادة القطر بأن الله خالق السموات والأرض صاحب العزة والعلم الذي مهد الأرض وجعل فيها
السبل وأزل للناس من السماء فأخرج به النبات والأنعام وجعل السفن ، وأيضا ذكر أنه مبدؤ في السموات
والأرض ورب السموات والأرض ورب العرش ، كل ذلك مناط الحمد الرموز له بلفظ « حم » فالحمد لله
رب العالمين .

والترية هنا أضيفت إلى السموات والأرض وأضيفت إلى العرش ، فيرجع مدار إسماء أمة الإسلام إلى
معرفة العلوم كلها وتربية الله لها ، وهذا هو الذي بيناه في (سورة القاسم) فارجع إليه فإنها أشارت لمجامع
العلوم ، وكان سور آل حم جاءت مفصلات للحمد المذكور في القاسم ، وقد جعلت آل حم رياض القرآن
ومعلوم عند أكابر الحكماء من أمتنا الإسلامية أن رياض الجنة العلوم ، فالقاسم بها تفتح أبواب الجنات وهي
المعلوم عند الحكماء في الإسلام وتفتح أبواب الجنات الحسية عند العامة ، فليس يعقل جنات العلوم إلا الذين
أهدكوها في هذه الدنيا ، فهؤلاء يتمنون جنات العلوم ولا تهمهم الجنات الموسومة ، والعامة وصغار العلماء
لا يتفكرون إلا إلى الجنة الموسومة ، ففي هذه السورة أشير إلى مجامع الحمد بالآيات التي ذكر فيها السموات
والأرض وأضيف الرب إلى العرش تارة وإليها تارة أخرى ، وكذلك شهدت القطر بأن الله خالق ذلك كله
وهذا القول منزل للأمة الإسلامية كلها عزيزها وعجبها ، أما الذي يدهش العقول ويحير الألباب أن أبناء
العرب اليوم مشغولون أمام الله وهم نائمون .

يا أبناء العرب : يا من أتم اليوم في شمال أفريقيا في تونس والجزائر ومراكش ومصر والشام وال عراق
واليمن والحجاز وغيرها ، أأنتم نيام ، الأنتظرون ، الأتذكرون ، اسمعوا كلام ربكم ، يقول : « إنا أنزلناه
قرآنا عربيا لعلكم تتقون » ووصف هذا القرآن بأنه على اللزقة ، حكيم النظم واللحن ، ثم في نفس هذه
السورة قال : « وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون » وهذا أمر عظيم ، فأبناء العرب اليوم مشغولون
عن هذا القرآن وحقه ونشره بين الأمم ، إنكم يا أبناء العرب لا تصدرون أن تنشروا هذا القرآن إلا إذا كنتم
أتم للعلوم دارسين ، وللحكمة عاقلين ، حتى إذا نشرتموها نشرتم ما يشير إليه من العلوم ، وليس معنى هذا
أنكم تدرسون كل علم وكل فن . كلا . بل أقول إن من اطلع على ما كتبت في هذا التفسير وقرأ بضه بنظام
في جميع القرآن فقد أدرك كيف يدعو إلى القرآن ، إن الله يا أبناء العرب سائلكم فشمروا عن ساعد الجهد ،
يا أبناء العرب نتم عن هذا القرآن بما كان لكم من الصولة والدولة وقام بنصره فريق من أمة العجم جزاء
الله خيرا ، ولكن أتم أصل اللغة ، فإذا نشرتم القرآن وكنتم عالمين بالحكمة انقادت لكم الأمم امتيادا أدبيا
والأمم اليوم لا تعرف إلا الحجة ، فلتكن لكم جميعات منظمة تدرسي نظام هذه الدنيا ومقاصد القرآن مع
الإمام يحض القنات .

يا أبناء العرب : إن أهل أوروبا يريدون منكم نشر دينكم . يا أبناء العرب ، أقول لكم ذلك عن علم

فإن سميت (اللورد هدلي) الإنجليزي لما حضر إلى الجامع الأزهر وهو يخطب يقول : (إن ثلاثة أرباع الأمة الإنجليزية اليوم يريدون أن يسلموا ، ومامتهم إلا أنهم لا يجدون قوة عليية مع هذا اللورد ومن معه تقوم بنشر حقائق دين الإسلام ويكونون قوة محتج بها من أراد اعتناق الدين أمام آباءه وإخوته وأصحابه) فأبنا ولي الأوروبي وجهه لا يجد عربيا واحدا ينصر هذا الدين ويقيم الحجة ويعلم الدين هناك .

يا أبناء العرب : هذا زمان مجدكم « يا أبناء العرب : إن ربكم يقول « وسوف تسألون » . أما نبينا صلى الله عليه وسلم الآن فليس بمسئول لأنه بلغ ونحن الآن للمسئولون ، نسأل بين يدي الله تعالى ، إن الأمم ستمت تلك الديانات الباردة والتي فترت ، ودينكم هو الذي يليق بالعصر الحاضر :

فإذا عرضتم عن نشره فاعلموا أن الله لكم بالمرصاد ، فالنار تحت الأجل في باطن الأرض ، والنار قد ظهرت في الأعمال الحربية في أوروبا ، وأصبحت الأمم القاصرة في العلوم الواجبات تحت رحمة أصحاب النار الذين يرسلونها من طياراتهم ، فهوا من رقدتكم واقروا العلوم كما أوضحتها في هذا التفسير . ثم لتكونوا شهداء على الناس ، ولتكونوا حزب الله ، لتكونوا ناصرى العلم الحكمة ، لتقوموا بتمدين النوع الإنسانى بعد أن ارتقوا ، ليس في الأرض اليوم شعب يقدر أن يكون بهذا غير العرب ، العرب قاموا بدورهم أيام القرون الأولى ولكن دورهم الحالى أم وأعظم ، دورهم الحالى قراءة العلوم كلها ونشر القرآن بحكمته هو الذى يفهم الأمم أن العلوم المنتشرة في الدنيا يطلبها القرآن .

قولوا يا أبناء العرب للأمم : هذا القرآن نزل بلغتنا ونحن نحفظه وتركنا العلوم وربنا الذى هو ربكم ورب كل شىء ألمحكم أن تستخرجوا العلوم من كتوزها في الأرض وفي السموات ، فإذا هو أنزل إلينا لفظه وألمحكم ما يتضمنه من المعاني ، إن ربنا عدل حق لا نقول نحن سادات العالم بالعلم والدين ، وحق لا نقولوا أتم نحن سادات العالم بالأمرين ، فأعطانا دينا حقا ، وأعطاكم سره ، فنحننا لفظه وعندكم معناه ، ونحن اليوم نقرؤه عليكم ونبين مواضع علومكم منه وهي تتخلل كل سورة وكل آية ، بل الحروف الهجائية في أوائله تشير إلى مجامع علومكم ، فلنا نتخبر عليكم ولستم تتخبرون علينا ، فإذا قلنا هو دينا نزل بلساننا نقولون أتم ولكن الله أظهر أسرارها على أيدينا وقوله تعالى « وقال الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » يشير إلى الآيات التي ظهرت على أيدينا . وقوله « سريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » كذلك ، فإذا أتم حملتم لفظه وبعض معانيه ، ونحن قرأنا ما هو مقصوده ومعناه ، والله هو الذى أحوج أهل الشرق لأهل الغرب كما أحوج أهل الغرب لأهل الشرق ، فهؤلاء بدينهم وهؤلاء بعلمهم ، وهذا مما يشير له الحديث « ليلغ الشاهد منكم الغائب قرب مبلغ أوعى من سامع » فنحن اللبغون وأتم اللبغون : والله أراد أن تتعارف وبمثل هذا يتم التعارف ، فنحن معاشر الأوربا وبين أخذ آباؤنا العلم عن آباؤكم وآباؤكم أخذوا العلم عن أمم أخرى ونحن دخلنا العلوم من أبوابها وأظهرناها فقر آموها ، فلنا الفضل في حفظها وارتقائها ولكم الفضل في حفظها سابقا وفي حفظ الدين الإسلامى سابقا ولاحقا . هذا هو الزمان الذى يقال فيه هذه الماورات ، والله هو الولي الحميد .

واعلم أن هذا الأسلوب من الدعوة هو الذى سينشر في مستقبل الزمان وهو بعض الذى يقصد من قوله تعالى « ليظهره على الدين كله » وهذا ظهور حجة وبيان ، وقد ظهر كثير من ذلك أيام الحروب الصليبية ، فإن أهل أوربا كانوا كالوحوش جهلة ذلك التاريخ ، ثم أخذوا في الرقي شيئا فشيئا ، ولما جاءت الحروب الصليبية خلعوا لباس الجهالة ولبسوا لباس الحكمة ، وأذكرك من ذلك :

(١) إن البابا كان معتبرا عندهم كالقبط عند المسلمين ، وكان له الملك السياسي في الأرض التي تحت سلطته ، وقدمت له أهل إيطاليا سنة ٧٢٦ ميلادية الموافقة سنة ١٠٨ هجرية البابا عليهم لخطوه رئيس النصرانية ، ثم توسع أمباعه في ذلك قرنا بعد قرن حتى صاروا يولون من يشاءون ويحزبون من يشاءون من ملوك أوروبا .

(٢) وكان لكل ملك تاج ولم ثلاثة تيجان .

(٣) وكانوا إذا ركبوا عسك لهم الركاب ملوكهم .

(٤) وإذا أمروا بمعاربة أمة لا يخالفهم أحد .

(٥) ومحرقون من خالفهم بالنار وهو حي .

(٦) وكان البابا مرة أزم امبراطور ألمانيا أن يقف حافيا ثلاثة أيام في فصل الشتاء أمام باب قصره

ليطلب منه التفران

(٧) ورفض البابا مرة برجله تاج ملك جرميا حيث كان جاثيا أمامه يطلب التفران .

وبهذه الأفعال أخذت سطوة البابا تنحط شيئا فشيئا الى سنة ١٢٨٨ هجرية فدخل الإيطاليون عاصمة مملكة البابا وأخذوها منه وأبقوه رئيسا على الكاثوليك ومقره في الكنيسة الرومية . وإلى هنا تم السلام على اللطيفة الأولى والثانية ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى : « بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون »

هذه الآية وأمثالها كثير في القرآن قد تقدم القول عليها في غير ما موضع . فإن النوع الإنساني لكونه في هذه الأرض التي تعتبر أنها في الطبقة المتأخرة من العوالم ليس كاملا كل الكمال فهو في عالم متأخر يعاشر الحيوان الذي لا رأى له بل يسير بما فطره الله عليه ، فأدنى الإنسان قريب من الحيوان ؛ قل فيه المفكرون الذين يجتازون تلك الأسوار المنيعه ، والحصون الشاهقة ، والأشواك الشائكة ، والطرق الوعرة ، والبحار الواسعة ، والجبال الشاهقة الفاصلة بينه وبين التفكير . إن الناس خلقوا بين أوهام وآراء تقف أمامهم سدا وحائلا أشد مما ذكرناه ، فإذا ما أنار الله بصائر الناس هدموا تلك الحصون ، وأزالت تلك الجبال ، وكسروا تلك الحوائل ، وعبروا الأنهار ، ووصلوا الى الحقائق سالمين ؛ وكثير منهم يهلكون ، أثناء الطريق لعدم قدرتهم على تلك المشاق العظيمة .

هذا كله من التقليد الذي ملك مشاعر هذا الإنسان الذي يعيش بالتقليد ويموت على التقليد بل جميع الديانات تقليد . فالمسلم والوثني والنصراني كلهم مقلدون ، متبعون لا مبتدعون ، والله أظهر قهره للإنسان بهذه الأحوال ليفكر للمفكرون ، ويعتبر للعتبرون ، ويخرج في كل أمة مجتهدون عاقلون ، وقوله تعالى في هذا اللقاع « قال أولو جنتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم » فتح باب للنظر والعلم ، إن الأمة الإسلامية في العصر الأخيرة غفلت عن هذا النور ، فهم أمروا بهذه الآية أن يتبعوا ما هو أهدى وما هو أحسن كما في آية أخرى « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » فعن مأمورون باتباع الأحسن واتباع الأهدى في كل زمان ، هذه فتح باب للنظر في كل صناعة وكل علم ، فلندرس طرق البحار والهواء والحرب والسلام والسياسة وتتبع ما هو أسلم لنا . هذا هو الدين وهذا هو القرآن . وما سواه ضلال . تم السلام على اللطيفة الثالثة .

اللطيفة الرابعة

في قوله تعالى « قالوا هذا سحر وإنا به كافرون » مع قوله « وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك » وقوله « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » مع قوله « فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب النع »

للناظر في هذه السورة يرى أمر القصص واضحا، فإن نبأ موسى عليه السلام فيه مسائل كثيرة نذكر هنا ما يناسب المقام. إنه تعالى ذكر قول مشركي مكة هذا سحر، وأتى من قصص موسى عليه السلام بما يناسبه فقال « وقالوا يا أيها الساحر ». وأيضا هزم الله فرعون ونصر موسى، فهكذا محمد ﷺ يكون مثله وقد تم ذلك فإنهم قالوا ساحر كما قال قوم فرعون لموسى، ثم نصر النبي ﷺ كما نصر موسى. وأيضا قال مشركو مكة: إن الأولى بالنبوة الرجل العظيم في المال والجاه، فهكذا قال فرعون « أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي » وقال أيضا « فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب » النع أي إن النبوة إنما تكون لمن أعطى الملك وعزة الحياة الدنيا، وكانت نتيجة ذلك أن نصر موسى هكذا يا محمد سيكون شأنك وقد تم ذلك، واعلم أن هذا المقام يفتح لك باب التفكير في قصص القرآن. وبدلنا أن هذا القصص غير مقصود لذاته فيؤتى منه بالشواهد التي تكون تسلية للنبي وللمؤمنين وحكمة، وهذا يدلنا أن التواريخ ليست مقصودة لذاتها بل يراد بها الحكمة والعلم واتجاه الحطة للثلى. فلنرجع إلى قصص القرآن ولنفكر في المقصود منه لافي أصل القصة وحقائقها فإن ذلك ليس مقامه بل مقامه الاعتبار والحكمة والنتائج وهذا من غرائب الحكمة والعلم.

فالحكمة في ذلك أن لا يدرس التاريخ إلا للنتائج ولا يترك سهوا، بلا تنظيم دروسه، وتتخذ نتائجه مثارا تهتدى به الأمم الإسلامية، فليقرأ المسلمون تاريخهم، وليأتوا بمقاصده الحكمة، والله حكيم عليم. انتهت اللطيفة الرابعة.

اللطيفة الخامسة

في قوله تعالى « حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد للشرقين فيش القرين » وقوله « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين »

في هذه الآيات أصول الهبات والعداوات، إن الهبة لا تكون إلا بأسباب، ولا هبة بلا سبب فمن قاله « إنا أحب فلانا لله » ظانا أنه لا سبب له فهو جاهل، بل الحب حبان: حب في الله وحب في غير الله. فأما الحب الذي هو لله فهو النبي على العلم والطاعات والحكمة، ولذلك ترى الذين استووا في أخلاق واحدة وعلوم متحدة وعقائد صادقة تكون بينهم للودة والهبة على مقدار تكامل هذه الصفات فيهم، وكلما تباعدت الصفات تباينت الهبة حتى إذا ما تنافرت أغلبها حصل التنافر العظيم، فمن كانت موداتهم ترجع إلى الطاعات تحبهم في الله، ومن كانت موداتهم على الشرور كالقتلة والفسقة فهي لغير الله، ومستحيل أن تكون هبة بلا سبب. فإذا قال أمرؤ أنا أحبك لله وظن أنه لا سبب له فهو محطى، وعلى ذلك إذا أحب الإنسان أبا

وأستاذة وتلميذه والصانع الذي صنع له حذائه فكل هذا الحب في الله لأن الأسباب التي أوجبت الحب لا موصية فيها لأنها إما مباحة ، وإما واجبة ، أو مندوبة .

نتائج تلك المحبات

وتكون نتائج تلك المحبات بقاء ما كان أصله الطاعة وانحلال ما كان أصله المعصية ، وبيانه أنك ترى القتل والفسقة والذين يشربون الخمر وأمثالهم يجتمعون ويتحابون ، فإذا وقفوا أمام القضاء أقر كل منهم على صاحبه بقتل أو سرقة ، فذهبت تلك اللودات ، وضاعت تلك الصداقات ، فهذا الذي نراه في الدنيا هو بينه ما يرى يوم القيامة وبمسد اللوت ؛ فإن من أضل جاهلا يعرف بمسد اللوت أن ضلاله من إضلال قرينة فيسكره يوم لا ينفع ذلك ولا الندم على ما حصل . فأما للتقون الذين كانوا على الصلاح وعلم الحقائق فإنهم بمسد اللوت لم يروا ما يناقض أسباب مودتهم ومحبتهم ، فزيد لألفة الجامعة كما تهدمت الألفة الفاسدة . هذا معنى قوله تعالى « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » انتهت اللطيفة الخامسة .

اللطيفة السادسة

في قوله تعالى : « وإنه لامل للساعة »

تقدم أنك قرأت أن الضمير يرجع للقرآن لأنه مشتمل على بيانها فهو مبين لأمر الساعة ، وهذا الرأي على غير ما قال به جمهور المفسرين فإنهم قالوا إن الضمير يرجع لعيسى عليه السلام ، وفي هذا الاحتمال وجهان : الأول أن عيسى عليه السلام ينزل في آخر الزمان ونزوله يعلم به قرب الساعة ، وقرئ : علم كقمر أي علامة على قرب الساعة . الثاني : أن إحياء الموتى بإذن الله دليل على أن الله قادر أن يحيى الموتى يوم القيامة . فها هنا يكون الوجه الأول والوجه الأخير لادليل فهما على نزول عيسى آخر الزمان . والوجه الثاني هو الذي يدل . ولذلك ترى التفتازاني وبعض العلماء لم يجعلوا في الآية دليلا على نزول عيسى عليه السلام .

إذا عرفت ما ذكره العلماء في القرآن فهل لك أن تسمع الأحاديث الواردة في الصحيحين في أمر عيسى عليه السلام .

(١) في الصحيحين عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عادلا ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد » .

وفي رواية أبي داود : قال : « ليس بيني وبين عيسى نبي وإنه نازل فيكم الخ » . وفي حديث الشيخين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كيف أنتم إذا نزل ابن مريم وإمامكم منكم » .

وهناك روايات أخرى ليست في الصحيحين مثل إنه يقتل المدجال ، وإنه يأتي بيت المقدس . والناس في صلاة العصر فيتأخر الامام فيقدمه عيسى ويصل خلفه على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ويحرب البيع والكنايس ويقتل النصارى إلا من آمن .

هذا ما جاء في الروايات وقد علمت ما صح منها فأما ما عداها فلم يستعن الشيخين ، ومحصل الكلام في أمر

عيسى عليه السلام أن القرآن لم ينص عليه فإن في الدليل احتمالا ، وأنى في الصحيحين ما سمعته وما زاد
فليس فيما .

الكلام على المهدي

واعلم أن الكلام على المسيح يستدعي الكلام على المهدي ، وخير من كتب في أمره هو العلامة ابن
خلدون ، لقد عقد فصلا لهذا الموضوع . هكذا « فصل في أمر الفاطمي وما يذهب إليه الناس في شأنه وكشف
القطاء عن ذلك » وقد ذكر في هذا الفصل الأحاديث الواردة في المهدي وزووله في آخر الزمان وآراء للتصوفة
وكبار الشيوخ ومحض الموضوع مجيما .

الأحاديث المروية

ذكر الأحاديث التي رواها الترمذي وأبو داود والبزار وابن ماجه والحاكم والطبراني وأبو يعلى اللوصلي ،
وذكر أنهم أسندوا تلك الأحاديث إلى الصحابة رضي الله عنهم مثل علي ، وابن عباس وابن عمر ، وطلحة
وابن مسعود وأبي هريرة وأنس وأبي سعيد الخدري ، وأم حبيبة ، وأم سلمة ، وقررة بن إياس ، وعلى الهلالي
وعبد الله بن الحرث . وقال إن تلك الأسانيد عارضها قوم بالإسكار ، والمرووف عند أهل الحديث أن
الجرح مقدم على التعديل ، ومن جملة الأحاديث ماراوه أبو بكر الإسكافي : « من كذب بالمهدي فقد
كفر ، ومن كذب بالدجال فقد كفر » ، وقال في طلوع الشمس من مغربها مثل ذلك . ويقولون
إن أبا بكر الإسكافي عندهم وضاع للأحاديث . وهناك ذكر الأحاديث الكثيرة مثل أن المهدي يكون
اسمه على اسم النبي صلى الله عليه وسلم واسم أبيه على اسم أبيه صلى الله عليه وسلم وقد أطال في ذلك واستوفى
المقام ، وكنت أود الإطالة بذكره ولكن المقام لا يحتمل ذلك في مثل هذا التفسير . ثم قال : فهذه جملة
الأحاديث التي خرجها الأئمة في شأن المهدي وخروجه آخر الزمان ، وهي كما رأيت لم يخلص منها من
التقد إلا القليل ، وأقل منه ، وقد تقدم الكلام في هذا الموضوع مطولا في أول سورة الحج فارجع
إليه إن شئت .

آراء الصوفية وكلامهم في أمر المهدي

ذكر السلامة ابن خلدون في هذه المقام أن السلف الصالح من الصوفية ما كانوا يتعرضون لثقل هذه
الأمر ، فلا يذكرون المهدي ولا خروجه وكانوا يحرصون على المجاهدة وتناجها ، وكان الإمامية والرافضة من
الشيعة يرجع كلامهم إلى التبري من الشيخين أولا ثم حدث فيهم القول بالإمام المعصوم وأتوا كثيرا في
ذلك ، وجاء الإسماعيلية منهم فادعوا ألوهية الإمام بنوع من الحلول ، وآخرون يدعون رجعة من مات من
الأئمة على طريق التناسخ ، وآخرون ينتظرون مجيء من يقطع بموته منهم ، وآخرون منتظرون عود الأمر
في أهل البيت مستدلين بتلك الأحاديث المطون في أسانيدهم ثم ظهر عند التأخرين منهم الكلام في الكشف
ومعرفة ما وراء الحس والقول بالحلول والوحدة فثار كوا الإمامية والرافضة القائلين بألوهية الأئمة وحلول
الإله فيهم ، وهكذا القول بالقطب والأبدال وهو يحاكي مذهب الرافضة في الإمام والقباء ، وأشربوا أقوال
الشيعة وظهر في كتب الإسماعيلية من الرافضة وكتب للتأخرين من التصوفة مثل ذلك في الفاطمي للتتظر .
كل ذلك مبنى على أصول واهية ، ومن هؤلاء ابن سبعين .

وقال ابن عربي فيها نقل ابن أبي اطيلى عنه : (وهذا الإمام المنتظر من أهل البيت من ولد فاطمة .. وظهوره يكون بعد مضي سبائة وثلاث وثمانين سنة ، ولما اضرم هذا العصر ولم يظهر أخذوا يؤولون ولم يتم شيء . قال : وزعموا أن خروج الدجال يكون سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة من اليوم المهدى الذي ابتدأه وفاته صلى الله عليه وسلم ونهايته ألف سنة .

وذكر الكندي أن هذا الولي يحدد الإسلام ، ويظهر العدل ، ويفتح الأندلس ، ويصل إلى رومية فيفتحها : ويسير إلى الشرق فيفتحها ، ويفتح القسطنطينية ، ويصير له ملك الأرض ، فيقوى السلون . ويعلو الإسلام ، ويحدد ذلك سنة سبعمائة وثلاث وأربعين ، ثم يقب ذلك سبع سنين للدجال . ثم ينزل عيسى في وقت صلاة العصر ، فيصلح الدنيا ، وتعيش الشاة مع الذئب . وأطال في ذلك رحمه الله وأطال قبره وأنتم عليه بالنظر إلى وجهه الكريم .

إني حيناً أقرأ أمثال هذا في كتب أسلافنا يأخذني الأسف على هذه الأمة السكينة التي كثر فيها الخلط والخبث والتحريف ، حتى إن أكبر العلماء يضل في مثل هذه الأمور ، ومن العجيب أنه ينقل عن متصوفة عصره ما نسجه من متصوفة عصرنا ، وكل له خبط وخالط وأمان وأضاليل . وقال إنه سمع في عصره عن للسمى أبا يعقوب البادسي كبير الأولياء بالمغرب في أول المائة الثامنة أن ظهور المهدي قريب . فالأولون والآخرون يقولون وينتظرون وتذهب الأعمار ولا يحصلون على طائل .

رأى العلامة ابن خلدون

يقول : ان الملك لا يقوم إلا بشوكة وعصية . يقول : وعصية الفاطميين في زمانه قد تلاشت وهكذا قريش أجمع . وظهرت أم غلبت عصيتها عصية قريش ، ثم قال : إن بالحجاز في مكة وبنبع بالمدينة بنى حسن وبنى حسين وبنى جعفر . قال : فإذا صبح ظهور مهدي فليكن منهم . وملخص كلامه أنه لا يظهر إلا في عصية . وأما مجرد النسبة إلى آل البيت فلا يكفي .

وقد ذكر جماعة ممن قاموا بدعوة للهدوية ولا عصية لهم قتلوا (مثال ذلك) أنه قام رجل ينتحل التصوف وادعى للهدوية برباط مائة لأول المائة الثامنة فاتمه خلق كثير من السوس ، ففسد عليه رؤساء للصامدة من قتله بيانا وأخل أمره ، وكذلك ظهر قبله بسنين قليلة رجل يسمى العباس وادعى أنه الفاطمي وابنه قوم ، ودخل مدينة فاس عنوة وأحرق أسواقها ، ودخل غيرها قتل في الزمة غيلة وأخل أمره .

فكرة طامة في مسألة عيسى عليه السلام والمهدي

قد رأيت أن للمهدي أحدثه مطعون فيها وليس له في القرآن ذكر . وقد ظهر بعد أيام العلامة ابن خلدون الشيخ السنوسي ، ويقول أتباعه إنه المهدي المنتظر : وهكذا ظهر في السودان للمهدي السوداني وهو الذي تركته دولة انكيترا حتى استحل أمر التمايش بعده . واتضت عليه بساكر بلادنا وعساكرها وهي تحمك بلادنا المصرية . فأزالت تلك واتى أمر للمهدي أحمد . وقد ظهر في الإسلام بعد ابن خلدون أيضا من قال إنه هو عيسى وهو بهاء الله في بلاد القرم وأتباعه يسمون البهائية ولم ينتشر في أوروبا وأمريكا .

وظهر في زماننا رجل في الهند جعل نفسه عيسى المنتظر . وقال إنه نسج الجهاد وأقر لانكيترا بأن تحمك المسلمين وهو ذلك مستبشر فرح وهو اللقب بالصلوات .

فيا ليت شعري ماذا يقصد الإسلام من هذه الصائب التي حلت به . خرج المهديون وقد كثروا منهم من قتل ومنهم من بقي ملكة سنين ومئات السنين ثم ذهبت دولهم وخرج الذين يقولون إنهم هم نفس عيسى للزعود به في القرآن احتمالا وفي الحديث صريحا والأمة في ذلك لا تعرف كيف يكون المخرج . وإذا كان في الإسلام الآن «عيسى» ولكل عيسى منهم أتباع فرجما جاء بدم غيرهم وهكذا . إن هذا تفريق لدين الإسلام وإضاف له ، فالعامة يخرفون بالمهدي قديما وحديثا ، ويرون من يقول أنا عيسى فيحار أمر الناس في ذلك «وإن هدى من يشاء إلى صراط مستقيم» .

رأى المؤلف

اعلم أن الأمة الإسلامية لا يخرج لها من الجهالة العمياء والذلة إلا بدراسة العلوم والوقوف على الحقائق ليسكن فيها اختصاصيون في العلوم الطبيعية والرياضية والتاريخ والحديث والتصوف وهكذا حتى يقف الحواس على حقائق هذه الدنيا . وإذن يسهل عليهم معرفة الحقائق ، أما رأى في المهدي فواضح . فقد قام بالأمر العلامة ابن خلدون وأظهر الحقيقة ناصحة ، وأما الكلام في عيسى عليه السلام فاعلم أنه أقوى من المهدي لأنه جاء في المسيحية . وجاء أنه جعل الدنيا دار سلام ويكون على دين الإسلام الخ . وملخص ذلك أن هذه الأرض التي نسكنها تتبدل حالها وتكون حالها أجمل مما نحن فيه . وإذا نظرنا نظرة صادقة لهذا الموضوع أيقنا أن ذلك لا يتم في يوم أو سنة أو قرن لأن انقلاب الإنسانية من هذه الحال إلى تلك الحال يحتاج لقرون فإذا عاش عليه السلام في الأرض سبع سنين أو أكثر أو أقل كما في الروايات الواردة فهذه المدة لا تقبل الأمم لأن هذه ليست سنة الله وهو عليه السلام نزل إلى الأرض قديما فرجع الناس لحالم بل أرادوا صلبه فشيء لهم . وجاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى الأرض وأمر الدنيا بدمه معلوم . فإذا نزل المسيح مرة أخرى لا يكون إلا بعد انتقال الأمم من هذه الحال تدريجا إلى حال تصيح الأرض فيها أشبه بالفردوس ، ولعل القول إذ ذاك يكون لما شبه علم بزوله عليه السلام : فإذا نزل تقبلته بالقبول هذا ما يمكن أن يقال والله أعلم .

فائدة هذا الموضوع كله

ها أنت ذا قرأت الأحاديث الواردة في المسيح عليه السلام وقد دخل في جملة الأمور الاعتقادية في الأمة وإن لم يكن صريحا نصه في القرآن ، ولكن أحاديث الشيخين لهما منزلة القبول في الأمة . وإذن يزيد أن تصرف فائدة هذا الاعتقاد فتقول :

لقد علمت مما أسلفنا في هذا التصير أن الأمة الإسلامية عليها أن تقوم بما عليها للإنسانية فهم خير أمة أخرجت للناس ، وهم شهداء الله على الناس كما أن الرسول شهيد علينا ، وهذا الدين وعد الله بظهوره على جميع الأديان ، فهذه وأمثالها ترجع إليها لأنها ظاهرة واضحة ، وإذا ضمنا إليها أن النبي صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين ونحن معاشر أمة الإسلام اليوم في الأرض قائمون بشرعته فنحن إذن يجب أن نكون رحمة للعالمين وعلى هذا يكون للسلمون يوما ما يقودون الإنسانية إلى السلام العام والإنسانية الخالصة ، وتكون الأمم بسبب نشر المعارف والعلوم قد اقتربت من السلام العام ، وتكون أمة الإسلام قد أصبحت صاحبة الفضل الأكبر في ذلك ، إذن تسرى الروح العيسوية في العالم بسبب الإسلام وظهور حقايقه للعواد بها بمثل قوله تعالى «سأريك آياتي فلا تستعجلون» ومثل «سأريك آياته فتعرفونها» ومتى سرت الروح العيسوية في

الأرض بسبب دين الإسلام فهناك حين يظهر للمسيح يجد الأمة مستعدة للإسلام العام ، وسواء أنزل هو بنفسه أم كانت النفوس قد أشربت السلام فيكون ذلك رمزا ، فمثل هذا لا ترضى له ، فهو خاص بيلم الله تعالى والذي في قدرتنا أن نقوله : على المسلمين اليوم أن يأخذوا دورهم في الرقي ، وأن يكونوا دعاة الإنسانية والسلام والوودة وأن ينشروا العلوم ، ويكون الإسلام مزوجا بما كشفه الناس في العصر الحاضر ، وتكون دعوته قائمة بنفس العلوم كما سطرناه في هذا التفسير ، أما أن يقوم في كل قرية رجل ويحمل له أتباعا ويقول أنا للمسيح ، فهذا مالا يطبقه الإسلام ، وإذا كان هؤلاء الذين ظهروا كل واحد منهم هو للمسيح فأين السلام في الأرض ، وما هذا التعدد ؟ مع أن عيسى واحد لا اثنان . وكيف نرجع أحدهما على الآخر ، وأين السلام في الأرض .

فأقول العدل أن الأمة الإسلامية الناجية للذاهب المختلفة يجب على رؤسائها أن يوجهوا همهم إلى تيسير التعليم وإكثار المدارس ونشر فكرة العلوم بمروحة بالدين كما أوضحناه . ومقى تنورت الأذهان ووضحت الطرق طاحت تلك الدعاوى من النفوس أي إننا لا نشغل أنفسنا بتكذيب أحد من مشايخ الطرق ولا العيسويين ولا المهديين ، ولكن نقول : ليقرأ أتباع هؤلاء الشيوخ العلوم فيعلمون الحقائق : وربما كان أساندهم هم الذين يمنعونهم العلم خيفة اطلاعهم على الحقائق فيستصغرون شأنهم ، فأنا أوصي قراء هذا التفسير أن يذبحوا بين الأمة العلم والحكمة . وبذلك وحده يظهر المسلمون ويكونون خير أمة أخرجت للناس ويستمدون للروح العيسوية حتى إذا جاء أوانه فهموه فزول فيهم . وأما مادام المسلمون على هذا المتوال فكيف ينزل المسيح في قوم جاهلين ربهم ونظامه وجماله وحكته .

ولتصح أيها القدي الأمة أن تطلع عن انتظار من يأتي إليهم من المهديين . فوائده لاسعادة لأمة لإيجدها واجتهادها . إن نفس الأنبياء لم يرسلاوا إلا في أوساط تناسبهم . فليرق الشعب نفسه بالعلم والعمل والحب العام ويتنظر بعد ذلك نعم الله عليه . فليس يقبل المسيح طبائهم بل يأتي إليهم وهم مستعدون للسلام العام : ثم الكلام على اللطيفة السادسة والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة السابعة

في قوله تعالى : «فاختلف الأحزاب من بينهم»

اعلم أن النصراني بعد رفع المسيح عليه السلام كانوا مقرين بالوحدانية ولم يسي بالرسالة ، ثم بعد رفضه دخلت شبه فاقسموا ثلاث طوائف : ملكانية . ونسطورية . ويعقوية . فالملكانية مصرحة بالتثليث فهم يقولون : (الآلهة ثلاثة : المسيح . وأمه . والله) ويقولون : (إن المسيح ناسوت كلى قديم : ومرم ولدت ولدا أزليا . والله هو الأب . وعيسى هو الابن) اطلاقا حقيقيا عندهم . وأما النسطورية فهم يقولون (إن الكلمة أشرفت على جسد عيسى كإشراق الشمس على كوة أو بلور) . وأما يعقوية فيقولون : (انقلبت الكلمة لحما ودما فصار الإله هو نفس المسيح) وإلى الملكانية الإشارة بقوله تعالى (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة) وإلى يعقوية الإشارة بقوله تعالى (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم) ثم إن الملكانية هم المسمون الآن (كاتوليكية) . فأما يعقوية والنسطورية فهؤلاء ليسوا في أوروبا ، وربما يكونون في الشام ومصر والراق والحبشة : وإنما الذي حدث في أوروبا هو مذهب

البروتستانت والكاثوليكية . والبروتستانت يقرون بالبعث . والبعث إما بالأرواح والأجساد ، وإما بالأرواح فقط ، خلاف بينهم . ثم إن لفظ كاثوليكية كلمة مدح لأنها كأهل السنة عندنا . ورئيس المذهب الكاثوليكي هو البابا برومة في دولة إيطاليا . فله اليوم الرئاسة الباطنية كالقطب عند المسلمين وكشايخ الطرق ، وتقدم قريبا ظلم البابا لأهل أوروبا وملوكها فأخطوا وذهبت رئاستهم . ثم إن الكاثوليكية بقوا على مذهبهم إلى القرن التاسع الهجري . فظهر منكرون للبابا برومة فصاروا يسمون المنكرين (بروتستانت) وهي كلمة أشبه بكلمة الخوارج أو المعتزلة عند المسلمين .

وملخص ذلك أن الخلاف بين الكاثوليك والبروتستانت هو البابا ، فمن اعترف بابا رومة فهو كاثوليكي ومن لم يعترف به سموه بروتستانت فيألف ويقول أنا كاثوليكي وإن كان لا يعترف برئاسة البابا ، والبابا من جملة الأساقفة ، ورئاسة الأساقفة ليست خاصة به ، بل هي له ولأسقف الإسكندرية وأسقف القسطنطينية ، فأما الكاثوليك فلا يعترفون إلا بابا رومة ، وبعض البروتستانت أيضا لا يعترفون بالتثليث ، لأنهم نظروا في كتب الإسلام فاعترفوا بالوحدانية ، ويجعلون عيسى عبد الله ورسوله ، وهم مع الكاثوليك فيما بقي من العقائد .

وهناك فريق من البروتستانت باق على التثليث ، ويكون الفرق بينهم وبين الكاثوليك عدم الاعتراف بالبابا وحده ، ثم إن الصوم يقول البروتستانت إنه سنة ، ويقول الكاثوليك إنه فرض وهو مدة (٤٠) يوما يتكون الطعام والشراب من طلوع الشمس إلى غروبها .

وأما البروتستانت وبعض الكاثوليك الذين ضمت عقيدتهم ، فهم يجوزون تناول الطعام والشراب . لكن يمتنعون اللحم كله وما تولد منه كاللبن والسمن إلا الحوت لأنهم يأكلونه في حال الصيام وبأكلون الحبوب والحلوى ، وعندهم فرقة يسمونها اللاتينية ، وفرقة يسمونها أهل الديانة الروسية (أورثوذكس) وذلك لأنهم لا يعترفون بالبابا رئيساً ، وهم موافقون للكاثوليك في كل شيء . وهؤلاء جميعا يفتخرون بأنهم كاثوليك فيكذبهم أخصامهم قائلين لهم: أنتم فرقة لاتينية أو أورثوذكس .

واعلم أن الفرنسيين دخلوا دين النصارى سنة ٤٩٦ ميلادية وهم كاثوليك وبروتستانت ، ومنهم من لا يعترف إلا في باطنه ، وكان ابتداء ملكهم سنة ٤٢٠ ميلادية وأصل ملكهم قبل الميلاد بنحو خمسمائة سنة ولم يتم الاستقلال فيما بين التاريخين ، فحكهم اليونان فالرومان فاستقلوا ، وكانوا يبدون الأصنام التي هي صور الكواكب كالمثود .

ودولة الإنجليز التي ابتداء ملكها قبل الميلاد بنحو خمس وخمسين سنة لم يستقلوا إلا سنة ٢٤٣ هجرية وهي سنة ٨٢٧ ميلادية ، ودخلوا النصرانية سنة ٥٩٦ مسيحية ، وذلك قبل الهجرة بست وعشرين سنة وفيهم الكاثوليك والبروتستانت والدهرية وحصل بينهم وبين الفرنسيين حرب من سنة ١٣٣٧ م الموافق سنة ٧٣٨ هجرية إلى سنة ١٤٥٣ م الموافق سنة ٨٥٧ هجرية ويسمى حرب المائة سنة .

(دولة النمسا أوستوريا) أكثرهم من التار ، ابتداء الملك سنة ٣٣ ميلادية ، والاستقلال سنة ٩٨٢ ميلادية الموافق سنة ٢٤٨ هجرية ، ودخلهم النصرانية كالدين تقدموم .

(الدولة الألمانية) ابتداء الملك سنة ٥٤ ميلادية ، والاستقلال سنة ١٣١٥ ميلادية الموافق سنة

٨١٨ هجرية .

(دولة السكوف) استقلالهم التام سنة ١٦٢ ميلادية الموافق سنة ٣٤٨ هجرية ، وكانوا يجمعون الأوثان ودخلوا النصرانية سنة ثلثمائة وخمس وسبعين هجرية ، فهم الأمة الوحيدة التي تأخرت في دخول

انتصرايه إلى ذلك الزمن، وأما بقية دول أوروبا فإن دخولها في النصرانية في أواخر القرن الخامس الميلادي
فكفون النصرانية في أوروبا الآن نحو ألف وأربعمائة سنة، ومفاهيم الكاثوليك والبروتستانت واللاتين
والأرثوذكس. ثم الكاثوليك هي عين اللكانية، وأما النسطورية والقوية فقد حذفنا من الغرب
وربما كانت في الشرق، والله أعلم. وقد تقدم ملخص هذا في (سورة آل عمران) وإلى هنا تم الكلام على
اللطيفة السابعة من اللطائف الخاصة، والحمد لله رب العالمين.

اللطائف العامة للسورة كلها^(١)

اللطيفة الأولى

في قوله تعالى « إنا جعلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون » مع قوله « وإنه لقد ذكر لك
ولقومك وسوف تسألون »

لأجل الكلام على الآيتين في مقامين : المقام الأول في غريب اللغة العربية في القرآن . المقام الثاني في
نفس الأمة العربية ، وهالك يانها .

الكلام على المقام الأول في غريب اللغة العربية في القرآن

تقدم في أول سورة « حم فصلت » الكلام على الألفاظ التي دخلت في القرآن من القبائل المختلفة ومن
اللغات التي ليست عربية كالفارسية والمندبية الخ . وأريد هنا أن أذكر نبذة يسيرة في الكلام على معرفة غريبه
قد جاء في كتاب « الإتيان في علوم القرآن » تحت العنوان التالي مانصه :

النوع السادس والثلاثون في معرفة غريبه

أفرده بالتصنيف خلائق لا يحصون منهم أبو عبيدة وأبو عمر الزاهد وابن دريد ، ومن أشهرها كتاب
المريزي قد أقام في تأليفه خمس عشرة سنة يحمره هو وشيخه أبو بكر بن الأنباري ومن أحسنها المفردات
لبراعب ، ولأبي حيان في ذلك تأليف مختصر في كرامين . قال ابن الصلاح وحيث رأيت في كتب التفسير
قال أهل اللغات فالمراد به مصنفو الكتب في معنى القرآن كالزجاج والقراء والأخفش وابن الأنباري انتهى .
ويبنى الاعتناء به ، قد أخرج البيهقي من حديث أبي هريرة مرفوعاً « أعربوا القرآن والتمسوا غرابه »
وأخرج مثله عن عمرو بن مسعود موقوفاً ، وأخرج من حديث ابن عمر مرفوعاً : « من قرأ
القرآن فأعربه كان له بكل حرف عشرون حسنة ، ومن قرأه بغير إعراب كان له بكل حرف عشر حسنة »
للمراد بإعرابه معرفة معاني ألفاظه ، وليس المراد به الإعراب المصطلح عليه عند النحاة وهو ما يقابل اللحن
لأن القراءة مع قفده ليست قراءة ولا ثواب فيها ، وعلى الخائف في ذلك التثبت والرجوع إلى كتب أهل
العلم وعدم الخوض بالظن ، فهذه الصحابة وهم العرب العرباء وأصحاب اللغة الفصحى ومن نزل القرآن

(١) هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف ولم يفتح الله بها إلا عند طبع هذه السورة ، المؤلف :

عليهم ويطهروا في الغلط لم يعرفوا معناها فلم يقولوا فيها شيئا ، فأخرج أبو عبيد بن الفضائل عن
 إبراهيم التيمي أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله « وفا كفة وأبا » فقال أي سماء تنطلق ، أو أي أرض
 تنطلق إن أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم ؟ أخرج عن أنس أن عمر بن الخطاب قرأ على للنبر « وفا كفة
 وأبا » فقال : هذه الفا كفة قد عرفناها فما الأب ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال : إن هذا هو الكلف يا عمر ،
 وأخرج من طريق مجاهد عن ابن عباس . قال : كنت لا أدري ما لاطر السموات حتى أتاني أعرابيان يختمان
 في بئر فقال أحدهما أنا فطرتها يقول أنا ابتدأتها ، وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير أنه سئل عن قوله
 « وحنانا من لدنا » فقال سألت عنها ابن عباس فلم يجب فيها شيئا ، وأخرج من طريق عكرمة عن ابن
 عباس . قال : لا والله لا أدري ما حنانا . وأخرج الفريابي : حدثنا إسرائيل حدثنا سماك بن حرب عن عكرمة
 عن ابن عباس . قال : كل القرآن أعلمه إلا أربعا : غسلين ، وحنانا ، وأواه ، والرقيم . وأخرج ابن
 أبي حاتم عن قتادة . قال قال ابن عباس : ما كنت أدري ما قوله « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق »
 حتى سمعت قول بنت ذى بزن (تعال أفأحكك) تقول أخاصمك . وأخرج من طريق مجاهد عن ابن عباس
 قال : ما أدري ما الغسلين ولكن أظنه الزقوم .

فصل : معرفة هذا الفن للمفسر ضرورة كما سيأتي في شروط المفسر

قال في البرهان : ويحتاج الكاشف عن ذلك إلى معرفة علم اللغة أسماء وأفعالا وحروفا ، فالحروف
 لقلتها تكلم النخلة على معانيها ، فيؤخذ ذلك من كتبهم ، وأما الأفعال والأفعال فتؤخذ من كتب علم
 اللغة ، وأكبرها كتاب ابن السيد ، ومنها التهذيب للأزهري ، والمهكم لابن سيده ، والجامع للقرظي ،
 والصاحح للجوهري ، والبارع للفارابي ، وجمع البحرين للصاغاني . ومن الموضوعات في الأفعال كتاب
 ابن القوطية ، وابن الطريف والسرقسطي ، ومن أجمعها كتاب ابن القطائع . قلت : وأولى ما يرجع
 إليه في ذلك ما ثبت عن ابن عباس وأصحابه الآخذين عنه ، فإنه ورد عنهم ما يستوعب تفسير غريب
 القرآن بالأسانيد الثابتة الصحيحة ، وما أنا أسوق هنا ما ورد من ذلك عن ابن عباس من طريق ابن أبي
 طلحة خاصة فإنها من أصح الطرق عنه وعليها اعتمد البخاري في صحيحه مرتين على السور . قال ابن أبي حاتم
 حدثنا أبي (ح) وقال ابن جرير حدثنا الثقفى قال حدثنا أبو صالح عبد الله بن صالح حدثني معاوية بن صالح
 عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى (يؤمنون) قال يصدون (يعمهون) يتأدون
 (يمهطون) من القدر والأذى (الحاشمين) للصدقين بما أنزل الله (وفي ذلكم بلاء) نعمة (وقومها)
 الحطية (إلا أمانى) أحاديث (قلوبنا غلف) في غطاء (ما ننسخ) نبدل (أو ننسها) تركها فلا تبدلها
 (مثابة) يتوبون إليه ويرجعون (حنيفا) حاجا (شطره) نحوه (فلا جناح) فلا حرج (خطوات الشيطان)
 عمله (أهل به لغير الله) ذبح للطواغيت (ابن السبيل) الضيف الذي ينزل بالمسلمين (إن ترك خيرا)
 مالا (جنا) إنما (حدود الله) طاعة الله (لا تكون فتنة) شرك (فرض) أحرم (قل الفجر) مالا
 يتبين في أموالكم (لأعتكم) لأخرجكم وضيق عليكم (ما لم تمسوهن أو تفرضوا) المس الجماع والقرصة
 الصداق (فيه مكينة) رحمة (سنة) ناس (ولا يتوده) يتقل عليه (صفوان) حجر صلد ليس عليه شيء
 (متوفيك) يميتك (ريون) جموع (حوبا كبيرا) إنما عظيما (نحلة) مهرا (وابتلوا) اختبروا (أنتم)
 حرقم (رثدا) صلاحا (كلاله) من لم يترك والدها ولا ولدها (ولا تضلوهن) تفهروهن (ولحصنات)
 كل ذات زوج (طوليا) سعة (حصنات غير مساطات) عفاف غير زوان في السر والعلانية (ولا يتخذن
 أخدان) أخلاء (فإذا أحسن) تزوجن (العنت) الزنا (موالى) عصبه (قوامون) أمراء (قاتاتهن)

دعليجات (والجار ذي القربى) - الذي بينك وبينه قرابة (والجار الجنب) - الذي ليس بينك وبينه قرابة
 (والصاحب بالجنب) الرفيق (قتيلا) الذي في الشق الذي في بطن النواة (الجبث) الشرك (تقيرا)
 النقطه التي في ظهر النواة (وأولى الأمر) أهل الفقه والدين (ثبات) عصبا (سرايا) متفرقين (مقيتا)
 حفيظا (أركسهم) أوقفهم (حصرت) ضاقت (أولى الضرر) العذر مراغما التحول من الأرض إلى
 الأرض وسعة الرزق (موقوتا) مفروضا (تألمون) توجعون (خالق الله) دين الله (نشوزا) بغضا
 (كالمسقة) لاهى أيم ولا هي ذات زوج (وإن تلوا) ألتسكم بالهاده (أو تعرضوا) عنها وهو لهم « على
 على مريم بهتانا » رموها بالزنا (أوفوا بالعقود) ما أحل الله وما حرم وما فرض وما حد في القرآن كله
 (يجرمسكم) يمحلسكم (شنان) عداوة (البر) ما أمرت به (والتقوى) ما نهيت عنه (المنخقة) التي
 تخنق فتموت (والموقوذة) التي تضرب بالحشب فتموت (والتردية) التي تردى من الجبل (والنطيحة)
 الشاة التي تنطحها الشاة (وما أكل السبع) ما أخذ (إلا ما ذكيت) ذبحتم وبه روح (الأزلام) القديح
 (غير متجانف) متعدد (الإنم) الجوارح) الكلاب والبهود والصفور وأشباهاها (مكلبين) ضواري (وطعام الذين
 أوتوا الكتاب) ذبايحهم (فأفرق) افصل (ومن يرد الله فنته) ضلالتة (ومهيما) أمينا ، القرآن أمين
 على كل كتاب قبله (شرعة ومنهاجا) سيلا وسنة (أذلة على المؤمنين) رحماء (مغولة) يحنون بحيل
 أمسك ما عنده تعالى الله عن ذلك (بجيرة) هي النانة إذا أنتجت خمسة أبطن نظروا إلى الخامس فإن كان
 ذكرا ذبحوه فأكله الرجال دون النساء ، وإن كان أنثى جدعوا أذنها (وأما السائبة) فكانوا يسيون
 أنعامهم لأهلهم لا يركبون لها ظهرا ، ولا يحلبون لها لبنا ، ولا يجزون لها وبرا ، ولا يعملون عليها شيئا .
 (وأما الوصيلة) فالشاة إذا أنتجت سبعة أبطن نظروا للسابع فإن كان ذكرا أو أنثى وهو ميت اشترك فيه
 الرجال والنساء ، وإن كان أنثى وذكرا في بطن استحيوها وقالوا وصلته أخته فخرمته علينا . وأما الحلام
 فالفحل من الإبل إذا ولد لولده قلوبا حتى هذا ظهره فلا يعملون عليه شيئا ، ولا يجزون له وبرا ولا يمتونه
 من حمى رعى ولا من حوض يشرب منه وإن كان الحوض لغير صاحبه (مدرارا) بعضها يتبع بعضها
 (ويأون عنه) يبقاعدون (فما نسوا) تركوا (مبلسون) آيسون (يصدفون) يعدلون (يدعون)
 يبدون (جرحتم) كسبتم من الإنم (يفرطون) يضعون (شيعا) أهواء مختلفة (لسكل نيا مسقر)
 حقيقة (تبسل) تفضح (باسطوا أيديهم) البسط الضرب (فالق الإصباح) ضوء الشمس بالنهار وضوء
 القمر بالليل (حسانا) عدد الأيام والشهور والسنين (قنوان دانية) قصر النخل اللاصقة عروقها بالأرض
 (وخرقوا) نخرصوا (قبلا) معاينة (ميتا فأحييناه) ضالا فهديناه (مكاتبكم) ناحيتكم (حجر) حرام
 (حمولة) الإبل والحيل والبعال والحجر وكل شيء يحمل عليه (وفرشا) الغنم (مسفوحا) مهراقا (ماحملت
 ظهورها) ماعلق بها من الشحم (الحوايا) المبعر (إملاق) الفقر (دراسهم) نلاوتهم (صدف) أعرض
 (مذؤما) ملوما (ريشا) مالا (حثيثا) سريعا (رجس) سخط (صراط) الطريق (افتح) افض (آسى)
 أحزن (عفوا) كثروا (ويدرك وألهتك) يترك عبادتك (الطوفان) المطر (متبر) خسران (أسفا)
 هو الحزين (إن هي إلا فنتك) إن هو إلا عذابك (عزروه) حموه ووقروه (ذرانأ) خلقنا (فانجست)
 انجرت (تقنا الجبل) رفعناه (كأنك حفي عنها) لطيف بها (الطائف) اللمة (لولا اجتبيتها) لولا
 تاقمتها (بنان) الأطراف (جاكم الفتح) المدد (فرقانا) الخرج (ليثبتوك) ليوثقوك (يوم الفرقان) يوم
 بدر فرق الله فيه بين الحق والباطل (فشردهم من خلفهم) نكل بهم من بعدهم (من ولايتهم) ميراثهم
 (بضاهون) يشبهون (كافة) جميعا (اواطوا) يشبهوا (إحدى الحسينين) فتح أو شهادة (مفارات)

التيران في الجليل (مدخلا) السرب (أذن) يسمع من كل أحد (واعلظ عليهم) أذهب الرفق عنهم (وصلوات الرسول) استغفاره (سكن لهم) رحمة (ريية) الشك (إلا أن تقطع قلوبهم) يعني الموت (الأواه) للؤمن التواب (طائفة) عصابة (قدم صدق) لهم السعادة في الذكر الأول (ولا أدراككم) أعلمكم (ترهقهم) تشنم (عاصم) مانع (تفيضون) تملون (يعزب) يغيب (يثنون) يكونون (يستغشون ثيابهم) يخطون رؤوسهم (لا جرم) على (أخبتوا) خافوا (فار التور) نبع (أقلعي) أسكني (كان لم يغنوا) يعيشوا (حنيد) نضيج (سوء هم) سوء ظنا بقومه (وفاق ذرعا) بأضيافه (عصيب) شديد (هرعون) يسرعون (يقطع) سواد (مسومة) عملة (أليم) موحج (زفير) صوت شديد (وشهيق) صوت ضعيف (غير مجدوذ) غير منقطع (ولا تركوا) تذهبوا (شغفها) غلبها (متكا) مجلسا (أكبرته) أعظمته (فاستصم) استمع (بعد أمة) حين (تحصنون) تحزنون (بصرون) الأعناب والدهن (حصص) تبين (زعم) كفييل (ضلالك القديم) خطك (صنوان) مجتمع (هاد) داع (مقببات) اللائكة (محفظونه من أمر الله) ياذنه (بقدرها) على قدر طاقتها (سوء الدار) العاقبة (طوبى) فرح وقررة عين (يأس) يعلم (مهمطين) ناظرين (في الأسفاد) في وثاق (قطران) النحاس للذباب (بود) يتمنى (مسلين) موحدين (شيخ) أم (موزون) معلوم (حما مسنون) طين رطب (أغويتني) أضللتني .

هذا وإذا أردت بقية هذا الموضوع فراجعه في كتاب الإنفان المذكور تجد جميع القريب فيه إلى آخره وهو نحو ٧ صفحات فأقرأها هاك إن شئت .

ويقع ذلك ماورد عن ابن عباس أيضا إذا كنته الناس يسألونه عن تفسير القرآن ، فقال نافع ابن الأزرق لنجدة بن عويمر قم بنا إلى هذا الذي يجترى على تفسير القرآن بما لا علم له به ، فقاما إليه ، فقالا إننا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فنفسرها لنا وتأتينا بمصادقته من كلام العرب فإن الله تعالى إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين ؟ فقال ابن عباس : سلاني عما بدا لك ، فقال نافع : أخبرني عن قول الله تعالى : «عن اليمين وعن الشمال عزين» . قال المزون حلق الرفاق قال وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول :

فجاءوا بهرعون إليه حتى يكونوا حول منبره عزينا

قال أخبرني عن قوله تعالى (وابتغوا إليه الوسيلة) قال الوسيلة الحاجة . قال وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم أما سمعت عنترة وهو يقول :

إن الرجال لهم إليك وسيلة إن يأخذوك تكحلي وتخضي

وهكذا استمر يسأله وهو يجيب على هذا النمط ، ونحن الآن نجترى هنا بعض الكلمات وشواهدها اختصارا واستبصارا :

الكلمة	الشاهد
(١) (منهاجا) طريقا	(١) لقدنطق للأمون بالصدق والهدى وبين للإسلام دينا ومنهاجا
(٢) (ينمه) نضجه	(٢) إذا ما مشت وسط النساء تأودت كما اهتز غصن ناعم التبت يانع
(٣) (ريشا) مالا	(٣) فرشني بخير طال ماقد برينتي وخير للوالى من بريش ولا يبرى

الكلمة	الشاهد
(٤) (كبد) اعتدال	(٤) باعين صلا بكيت أريد إذ قنا وقام المحصوم في كبد
(٥) (السا) الضوء	(٥) يدعو إلى الحق لا يبغي به بدلا يجلو بضوء سناه داجي الظلم
(٦) (حنانا من لدنا) رحمة	(٦) أبا مندر أفنيت فاستبق بعضنا حنانيك بعض الشراهن من بعض
(٧) (أفلم يأس الذين آمنوا)	(٧) لقد يش الأقوام أنى أنا ابنه وإن كنت عن أرض المشيرة نائيا
(٨) (فأجاءها الهاض) ألقاها	(٨) إذا شدنا شدة صادقة فاجأناكم إلى سفح الجبل
(٩) (لانيا في ذكرى) لا تضغفا عن أمرى	(٩) إلى وجدك ماونيت ولم أزل أبى الفكك له بكل سيل
(١٠) (القانع والقر) قانع الذى يقنع بما أعطي، والقر الذى يترض الأبواب	(١٠) على مكترهم حق من يترهم وعند القلقين الساحة وللبلد

ولأكتف بهذا في النظم، ومن أراد استيفاءه فليقرأه في كتاب الإقتان . والشواهد تبلغ نحو (١٥٠) شاهدا فلا نطيل بذكرها ، وإلى هنا تم الكلام على المقام الأول .

المقام الثاني

في الكلام على نفس الأمة العربية

أعلم أيها الذكي أن الأمة العربية بقدر ما ذاقت من المز والأتعاد والسعادة وما نالت من الارتقاء أصابها القتل والانحلال والشقاء والأحقاد ، أمة بلغت بلغها المشرقين والمغربين ، ثم رجعت بعد ذلك مخفي حتى رفضها العلم وخفضها الجهل ، أمة عريقة في المجد ، رفيعة القدر ، قوية الشكيمة ، هي وحدها التي اختارها الله لارتقاء النوع البشرى ، لذلك خلقها وتمت كلمة ربك ، خلقها في البادية ، وأنضج عقولها ، وهذب نفوسها تهذيبا نسبيا ، ومرنها على شظف العيش ، والبأس وعزة النفس والقناعة ، أعطاهما مثالب مع هذه الفسائل فصار كل أهل بيت و قبيلة يرون أنهم سادات الأمم وعظماء أهل الأرض ، فأورثهم ذلك التخالف والتطاحن والأضغان والأحقاد، وما ذلك كله إلا من ازدياد سمو النفس والشهامة وحب العزة وازدياد تلك القوة عن المقدار الوسط والتهيج القديم ، فأصبح ما كان ممدوحا تلحقه المذمة ، وبينما هي على هذه الحال إذا جاءهم الرسول صلى الله عليه وسلم وزل القرآن فجتمعهم بعد الفرقة ولم تشملهم فتالوا ملكا لم يحلم به الأكاسرة ولا القياصرة ، وتضامت تلك القوى المتفرقة المنتشرة في الصحارى والقفار فصار قوة واحدة فهزت أمم الأرض هرا . وما ذلك إلا لما فهموا (إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) « وإنه في أم الكتاب لدينا لعل حكيم » . ثم استبدلوا الكسل بالعمل ، والترف والتنعم بشظف العيش ، والقناعة وفتح البلاد لزومات

النفوس والشهوات، والطمع والمجتع وجمع المال الوفير المورث للاستكانة والصغار والدل بالجهد لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه مع حفظ الدولة وإسعاد الإنسانية كلها بلا تفرقة بين الأمم والشعوب بالمحافظة عليها مع تأدية تلك الأمم ما يجب عليها لهم. فحق عليهم ماورد في الصحيح. « إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زينة الدنيا » المع وهذا الحديث نصه في أول (سورة الأنفال) وهو من صحيح الأحاديث.

ثم إن هذه الأمة بعد أن أدت وظيفتها في الأرض ونشرت الدين وتفرقت في أقطارها سمحت ربهها وأصبح الأبناء على تبيض الآباء ونسوا مجدهم القديم وعزهم الشامخ وفضلهم العظيم، فأبناء العرب اليوم في شمال أفريقيا مراكنس والجزائر وتونس وطرابلس ومصر والسودان واليمن ومجد والحجاز والسير والمراق والموصل ودير الزور. فكل هؤلاء بلادهم متلاصقة ودينهم واحد وعقولهم متقاربة ولقنهم واحدة. فيا سبحان الله، أنا لم أر أمة بلغت ما بلغت هذه الأمة في مجدها أيام رفعتها، ولم أر أمة سقطت سقوطها أيام ذلها كأن الفم بالفرم، وبرد الشتاء على مقدار حرارة الصيف، وطول الليل في الشتاء بمقدار قصره في الصيف. ها أنا ذا من أبناء العرب ولدت بالبلاد المصرية في قرية من قرى الشرقية، حفظت القرآن صغيرا ودخلت الأزهر بالغا، ثم اعترتني فكرة هيجت بلبالي زمن الشباب، فأخذت أستقيث وبمن أستقيث؟ لا استغائة إلا بمن خلقني، فكنت أدعوه وهو سميع الدعاء، ولكم سأله أن يوقني على حقائق هذه الدنيا ونظام الكون وبؤس السليين وذلمهم وعز غيرهم، ولماذا أرى الجهالة والنقص فاشين حتى في التعاليم الدينية. وأنت أيها الذي تعرف بما ذكرته كثيرا في التفسير أن اتصالي بمدرسة دار العلوم، ونظري في كتب الأمم الهيطة بنابه، وقفت على كثير من أحوال هذا العالم، وهذه الأمم. وبما اتفق لي حادثة لا بد من ذكرها ذلك أنها أشبه بتعريف لفتح به تفتح أبواب الحيرات لسائر الأمم العربية.

محاورة بيني وبين المرحوم لطيف باشا سليم

في أمر ارتقاء العرب في المستقبل القريب

قد كنت في أطوار حياتي إلى السكون والجمول والأزواء أقرب لما قرأت ما يأتي:

لقاء الناس ليس يفيد شيئا سوى الهديان من قبل وقال

فأقلل من لقاء الناس إلا لأخذ العلم أو إصلاح حال

ولكم كنت أقول في نفسي: « لو أنني عرفت الحقائق وكنت مجهولا في الناس لا يفكر في أحد لكان ذلك أقصى أمل » ولكن حب البحث والعلم كانا حيا في علاقتي بجميع أمم الإسلام، ومنهم الطبقة الراقية في مصر، ولما أخذت أؤلف الكتب عرضتها على أمم العلم وذوى العقول الراجعة لأستوثق بما أهدر برأيهم، وكان منهم المرحوم الشيخ محمد عسكر والرحوم لطيف باشا سليم، فأما الأول فإني قابلته في منزل المرحوم إبراهيم بك أباطة بحوار قريبنا ولم يسكن رأني ولا رأيته من قبل ولكن عرف كل منا الآخر وأنا شاب وهو قد بلغ نحو مائة سنة، وله قدم صدق في الحادثة المرابية. وأخذ يسألني عن تاريخ حياتي العلمية التي عرف مجملها من قبل أن ألقاه فأجبتته هنالك قائل لي: أنت أحسن منا: نحن أيام عرابي باشا لم نكن نورتنا على

أساس ، أما أتم فبناؤكم على أساس ، لأنكم تريدون أن تجعلوا العلوم التي بها ارتقت أمم الأرض متصلة بالدين وأتم ناجحون ، وأن ماصتكم منكم من حيث إن بعض رجاله المعارف يضطهد ذلك : فهنا زادني يقينا لأن الرجل لا يكون عظيم الشأن حتى يحقد عليه نظراؤه ، وسيكون نشر آرائك على أيدي تلاميذك ، والمستقبل لهذه الأمة عظيم ، وأما المرحوم لطيف باشا فهناك مادار بيني وبينه وهو الذي سقت السلام لأجله ، لم تكن لي سابقة معرفة بالمرحوم لطيف باشا سليم . وهو كان من أكابر الأمة ومن أكابر الوطنيين ، والذي عرفني به أني نشرت بعض كتبي وأردت أن أعرف آراء أكابر العلماء في مصر ، فأعطيتني كتابي (نظام العالم والأمم) فأثنى عليه ، وصارت لي به صلة وثيقة ، وهذه صورة المحادثة التي سقت الكلام هنا لأجلها :

قال رحمه الله : إن جلد الحمار الميت أرفع شأننا من الأمة المصرية (أقول : وذلك من شدة غيرته على البلاد) . قلت : ما بهانك يا باشا : فقال : إن جلد الحمار يمكن العلماء بالصناعة والكيمياء بلونونه بالحجرة أو بالصفرة النخ وهذه الأمة حل بساحتها الآشوريون والفرس والرومان والفرنسيون والإنجليز ومع ذلك لا تزال ناعمة خادمة جامدة ، إذن جلد الحمار أمكن تلويته والأمة المصرية لم تلون . هذه الأمة جامدة . قلت : إن لي ردا على ما ذكرتموه . فقال : لماذا تقول ؟ قلت : إن الأمة المصرية أمة عربية لأن الأصل القبطي فيها قليل ، وهانحن أولاد نجد عادتنا وأخلاقنا وآدابنا كلها عربية ، والأمة العربية بعد ما بلغت الصين شرقا وجنوب فرنسا غربا وأزالت ملك فارس والروم أصابها داء الترف ، وأرداها الكسل ، وأنها الطمع ، وجند لها الجهل ، وأصباها التخاذل والتنابد والكبرياء والادخار والامتثال على الأمم المحكومة بهم فسلط الله عليهم من كانوا لهم مسخرين ومستبدين من الفرس والترك والملك البرية والبحرية ، وأذام الآسيان في الجزيرة ، وحل الترك بساحة مصر فأزالوا نخوتها ومظاهر سماها وكلمها ، وأفضلوا مدارسها وتركوها قاعا صفتا ، ومحوها منها الصناعات والعلوم ، وبقيت البلاد ترتم في معاهد الجهل ، ومراتب الفل ، حتى إذا قيس الله لها الغفور له محمد على باشا فقد أخذ يملها ، ولكن تعليمه لم يكن مصحوبا بحرية ، فبقيت الأمة مقيدة وعمومها جاهل بمقوقة ، حتى إذا جاء المرحوم مصطفى كامل باشا في هذه السنين ونشر في جريدة اللواء مقالات وقرأها الشبان وأنا ملاحظ ذلك انفتحت بصائرهم وعرفوا الحرية في هذه السنوات القلائل . ولقد كنت قبل ظهور جريدة اللواء أشاهد من تلاميذ المدارس احتقارا لكل ما هو وطني حتى إذا ظهرت جريدة اللواء أحبوا الوطن واستبدلوا حبه بحب الأستة الإنجليزية ، وكان مدرس اللغة العربية كأنه أمر ثانوي عندهم ، فانقلب الحال وعدوه لهم أباء ، كل ذلك بتأثير جريدة اللواء التي طلعت بهيئة عرفت الشبان سامعي المحافظة على الوطن وعلى الحرية . إن أهل مصر أكثرهم من أصل عربي ، والذي أخرم وأضنهم هو الجهل الذي غمرهم به الترك مدة مئات السنين ، وما مثاهم في مصر إلا ككل آبائهم قبل النبوة فإنهم كانوا قوما جاهلين ، لما كاد صلى الله عليه وسلم يدعوهم إلى الدين ومضت ٢٣ سنة حتى كانوا أهل ملك عظيم ودين كبير هكذا (وإن كان الفرق كبيرا) آبلأهم وهم أهل مصر ومن حولهم من أهل الشام وفلسطين والفرج والمراق والموصل فسكني هذه الأمم أن يظهر فيهم نابتة كظهور مصطفى باشا كامل حتى يبدوا حقوقهم وينفضوا عن رؤسهم غبار الفل وينفضوا بيلادهم ، ودليل على ذلك حال التلايد بمدارسنا وافتقارها في زمن قليل جدا ، فهذا دلي على أن هذا النسل من ذاك الأسد . فقال رحمه الله : أنا قلت لك لا مانع أن يحصل أمر غير عادي . قلت : لكن أنا لا أقول ذلك ، بل أقول هو أمر عادي ، فإن السألة علم وجهل فالعرب متى عرفوا نهضوا ورجع لهم مجدهم . انتهى الحديث .

مصداق هذا الحديث

حديثي مع نجله فؤاد باشا سليم

وبعد سنين قليلة توفي الراحوم لطيف باشا فذهبت إلى منزله بالعباسية لأعزي نجله فؤاد باشا سليم ، فلما رأني بكى لعله بمودة أبيه لي ، وحكى لي ما يأتي . قال :

« إن مصطفى باشا كامل لما أسس الحزب الوطني وأصبح هو رئيسه وأنا ناموسة (سكرتيره) ، كانت والدي إذ ذاك في مرض موته ، فدخلت عليه ، وسألني ماذا فعلتم ؟ قلت : ها نحن أولاء أسسنا الحزب الوطني فقال : يا فؤاد اجتمع للصريون ؟ قلت نعم يا والدي وأنا سكرتير الحزب الوطني . فقال : لو قلنا غيرك لم أصدقك ، أنا أموت وأنا مستريح الضمير إذ رأيت المصريين اجتمعوا في حياتي » اهـ .

قلت له الحمد لله إذ صح ما استنتجته قبلا في حديثي معه وظهر له صدق فراسق في أمة العرب والأمة المصرية . أكتب هذا الآن وفي بلادنا الأحزاب الآتية : الوفد . الحزب الوطني . حزب الاتحاد . حزب الشعب . حزب الأحرار الدستوريين . إذن أصبح ما كان فزاسة أولا يقينا الآن ، وعليه أقول حقا وصدقا إن الأمة العربية على بكرة أبيها لا ينقصها إلا العليم ! والذي قلنا هو الجهل ، فهي أمة متروكة مهجلة وقد أقبلت أيام سعادتها وهامى ذه أخذت تقوم من رقبتها . وهنا أذكرك بعض ما كان لها من الهدى في العلوم الطيبة في الشرق والغرب والآثار العمرانية ، وأخص بالذكر بلاد الأندلس ، وأقني بذكر ما حققها من القل والمهوان في القرون الأولى بسبب تفرق وحدتها ، ثم أتبعه بنتائج ذلك اليوم في البلاد الإسلامية ، وأخص بالذكر تونس ومراكش ، ثم أقفي بما ساقه الله من الدلائل على مستقبل باهر للأمة العربية والأمم الإسلامية ، وذلك بذكر مسألة الوطن القومي لليهود في فلسطين ، وكيف كانت هذه أول أساس أخذ السلمون بينون عليه أعنادهم ، فالعرب جميعا اتخذوا مع أهل فلسطين في ذلك ، ثم إن دفن المجاهد الكبير للمولى محمد علي الهندي في فلسطين وتوطيد الودة بين العرب والمهتود المسلمين أمر لم يسبق له في التاريخ نظير ، ثم أبين أن هذه الحوادث ترجع لآيتين إحداهما آية « خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس » في سورة حم غافر ، والثانية هنا وهي « وإنه لذكر لك ولقومك » وإيضاح السبب الدجال هنا والعلم العيسوي ، فهذه سأوضحها في سبعة فصول : (الفصل الأول) في أثر الطب العربي في تطور الطب الفرنسي (الفصل الثاني) فيما قاله الأمير شكيب أرسلان في رحلته إلى بلاد الأندلس للدلالة على عظمة آثار العرب (الفصل الثالث) فيما جاء له أيضا في كوكب الشرق من تخالف الأمم العربية قديما وتضافر الأمم عليهم فذهبت دولهم (الفصل الرابع) في نتائج ذلك التفرق القديم الذي حل بالمسلمين اليوم في تونس ومراكش (الفصل الخامس) في حادث الوطن القومي لليهود ، وكيف كان سببا لوضع أساس للاجتماع بعد التفرق (الفصل السادس) في حادث لم يسبق له نظير من اتحاد العرب والمهند بعد ذلك ومن دفن المجاهد الكبير (محمد علي) بالقدس وتصريحات أخيه للمولى شوكت (الفصل السابع) في أن هذه الحوادث ترجع لآيتين من كتاب الله تعالى الأولى « خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس » وقد تقدم بيانها في سورة حم غافر ، وفيها شرح أمر الدجاج ، والثانية هنا وهي « وإنه لذكر لك ولقومك » .

الفصل الأول

فيما ذكرت به أمة الإسلام عموماً والشرق خصوصاً في علم الطب

وذلك في مقالين : المقال الأول وهو ما جاء في مجلة « الجامعة الإسلامية » المقال الثاني وهو ما جاء في جريدة الأهرام : تحت عنوان « أثر الطب العربي في تطور الطب الفرنسي » وذلك كله لإيضاح لقوله تعالى هنا « وإنه لذكر لك ولقومك » وهناك نسهما

البحث عن تاريخ العلوم

أو

تأثير المدنية العربية الإسلامية في نهضة الغرب

في أوروبا اليوم حركة عظيمة للبحث عن منشأ العلوم الحاضرة وعن كيفية تطورها وقد كان من أكبر العوامل على هذه الفكرة أحد العلماء الطبيعيين الفرنسيين الكيماوي (مارسلين برنابو) ولهذا العلامة فضل كبير في جلب أفكار الأوربيين إلى مسألة هامة وهي تاريخ العلوم، لقد أدرك (برنابو) أنه لا بد من دراسة تطور الفكر البشري فقال لا بد أن ندرس كيفية تطور العلوم في الأزمان المختلفة، فألف لذلك كتاباً سماه تاريخ العلوم ومنذ ذلك الحين عمت في أوروبا فكرة جديدة وهي أنه لا يجوز أن ننظر إلى ما فكر فيه السابقون كأنه أساطير الأولين لأن الرقي لا يكون إلا بالتدريج أي كل عصر من العصور مدين للصر الذي قبله، ولا يمكننا أن نتصور أمة نشأت فجأة كما نرى ذلك في كثير من كلامهم، ورى الأوروبيين يهتمون الاهتمام العظيم في هذا الشأن، وينفقون له كثيراً من القوى المادية والمعنوية، ففي كل قطر من الأقطار عدة معاهد لهذا الشأن بعضها للبحث عن تاريخ الطب، وبعضها للبحث عن تاريخ العلوم الطبيعية. أما تاريخ الفلسفة فقد اشتغل فيه كالا لا يحصى أناس كثيرون منذ أجيال عديدة، ولا يمكننا أن نتصور شخصاً درس الفلسفة إلا واهتم بتاريخها قبل كل شيء، ففي ألمانيا اليوم عدة أساتذة وقفوا كل حياتهم لهذا الغرض، وقد عثروا في طريقهم على نقط هامة، وليس غرضهم هنا معرفة المنشأ ولما فضل في نشر العلوم غلب، بل يودون أن يصلوا إلى أي جهة تنبع معارفنا (أي معرفة للماضي والحاضر للتفكير في المستقبل) كما اتضح لبعضهم أن العلوم المادية رقي عظيم وللتنوير بالخطوط مستمر فتأبروا على إحيائها، وبذلك قطعوا خطوات واسعة، ونهت الحكومات الأوروبية لهذا الشأن اهتماماً كثيراً فساعدت علماءها على نشر ما كشفوه من الأمور وعلى عقد مؤتمرات يحضرها العلماء من أقطار مختلفة ليتبادلوا الآراء ويعرفوا صوابهم وخطأهم بالبحث مجتمعين، وقد عقد في منتصف شهر أيار للماضي من السنة الحالية مؤتمر بين المللي (كندا) في باريس حضره علماء من أصقاع مختلفة، هل تعلم ماذا كان أهم شيء تناوله للمؤتمر؟ وجوب تعلم تاريخ الأمة العربية، وإن أكبر عثرة واقفة أمام طريقهم هي معرفتهم تاريخ الأمة العربية حق المعرفة، ومادامت الحالة على هذه لا يمكنكم أن يداوموا البحث بصورة جدية. ولقد سمعت هذا من أستاذين كبيرين: الأستاذ سيريست التخصص بالطب عند العرب في ليزنغ، والأستاذ روسكار رئيس معهد البحث عن تاريخ العلوم الطبيعية في برلين. وهناك كتب خطية عديدة ولا أظنها إلا يمت بثمان بئس هي اليوم في مكتبات أمهات مدن أوروبا محفوظة في أعز موقع لا يسمح لنا

برؤيتها إلا بكل صعوبة ، تمتخر كل أمة من الأمم بأنها بين خزائن كتبها . ولا يمكننا أن نالها ولو أنفقنا في سبيل ذلك ما أنفقنا من الأموال الطائلة ، هكذا كانت تلك الكتب القيمة ذليقة بيننا ، عزيزة عند من يعرف قيمتها ، ولقد أحرز اثنان من بني وطننا وهما السيدان : كامل عياد ومحمد أبو غنيمية ، لقب دكتوراه في جامعة برلين ، الأول في الفلسفة ، والثاني في الطب ، لاشتغال الأول في ابن خلدون والثاني بالطبيب العربي الجراح أبي القاسم الزهراوي . فأهمية ابن خلدون كما قال عنه كبار الغرب إنه أول من وضع التاريخ ضمن علم ، وجاء بتقد التاريخ ، وتبصع الحوادث التاريخية ليحصل الإنسان على نتائج لا بد منها لمعرفة الشعوب ومزاياها وتطورها وحسناتها وسيئاتها ، أما أبو القاسم فقد ذكر عنه الدكتور أبو غنيمية بأنه سلك طريقا في التداوي بالسكي يشبه تمام الشبه الجراح الشهير الأستاذ للسشار (بير) وقد ذكر قاموس الهبط الألماني عن أبي القاسم هذه الكلمات :

« ولد أبو القاسم في الزهراء من مدينة قرطبة وتوفي سنة ١١٠٦ - ١١٠٧ ج وقد كان شهيرا في الجراحة ، وأهميته لا تزال حتى هذا اليوم في التاريخ ، وله كتاب في الطب الذي أُلِّفه وترجم إلى اللاتينية للمرة الأولى من غريم سنة ١٥٣٢ م » .

أما القسم التشريحي وهو خير ما ورث من الطب العربي ، فقد ترجمه إلى اللاتيني في أكسفورد سنة ١٧٧٨ العالم الإنكليزي شانينغ . فنجد أهمية البحث عن تاريخ العلوم هنا وكيف كانت تدرس العلوم من منابع عربية ، وقال السيد الدكتور محمد شرف في المقدمة من معجمه الإنكليزي العربي مانسه : « بقيت جامعات أوروبا أكثر من خمسة قرون تعتمد في مادتها العلمية على الكتب العربية ، وفي نهاية القرن الخامس عشر كانت الكتب العربية المستعملة في جامعة توبنجين أضعاف الكتب اليونانية ، وكانت مؤلفات الرازي وابن سينا أساس التعليم الطبي في (جامعة لوقان) في القرن السابع عشر ، واستمرت مؤلفات ابن سينا تدرس في جامعة الطب الكبرى في (مونبيليه) حتى القرن الثامن عشر » .

ولقد ألقى الأستاذ المتخصص في تاريخ الطب (سيجريست) محاضرة في الحفلة التي أقيمت على مضى ألف سنة على الطب العربي في المعهد الطبي الألماني التابع لجامعة برلين هذه خلاصتها : « نحن مدينون للعرب بمجزيل الشكوك لهذه المدينة الزاهرة التي نتعم بها . أهمية للدينة العربية كبيرة لأننا إذا وصلنا إلى آخر حلقة من حلقاتها نجدتها متصلة بنا . فإذا أخذنا مثلا اكتشاف ميزان الحرارة من قبل (غاليليه) نجد كتب طب ابن سينا الأساس الذي نثني عليه في ذلك العهد ، عندنا اليوم كثير من التعابير اليونانية لا يمكننا فهمها إلا إذا ترجمناها للعربي ، تاريخ الأمة العربية قبل الإسلام لا يهمننا كثيرا حيث لا صلة له بنا ، ولكن الذي يهمننا منذ نشأة محمد صلى الله عليه وسلم ذلك الرجل الذي عرف توحيد القبائل وغرس القضية في قلوب الناس . وما مضى على ظهور هذا الرجل قرن واحد إلا رأينا مدينة زاهرة وحكومة عظيمة عادية ، فنجد أولاد الصحراء القاحلة يفتحون العالم وينشرون العلوم والفنون في أرجائه المختلفة » .

وقد ازدهرت العلوم في عهد العباسيين وترجموا كثيرا من آثار اليونان وقد كانوا مترجمين فأصبحوا بحانة وأنا نعجب حتى يومنا هذا كل العجب بتلك القابلية العظيمة التي كانت عندهم ، فنجد شخصا واحدا يجتمع فيه ميول عديدة مثل الفخر الرازي الذي ألف ألف مجلد ، وكان رئيس مستشفى وفيلسوف وموسيقيًا ومن عبي الفنون الجميلة ، ولا زال العجب يأخذ منا من ابن سينا الذي أراد أن يستخرج قانون الطب على حسب المنطق فنجد سياسة دينيا حقوقيا طبييا منطقيا ، ومن يذهب اليوم إلى قرطبة يرى غابة من المرمر الجليل ، ويرى الآثار التي تنفي عن وجود (٥٠) مستشفى ، ويرى المكتبة التي تحتوي على (٤٠٠) ألف مجلد .

ويرى الجامع القديم هناك يدرك ولا شك أهمية تلك المدينة ، ثم إذا مر بعد ذلك على قصر الزهراء يكون في القصر الذي ولد فيه الطبيب العربي الجراح (أبو القاسم) .

ولقد كان لظهور هذا العالم أهمية عظيمة في الجراحة حيث كانت العرب قبله تخاف من موسى . وأهميته على قسمين : نظرية وعملية . أما الأولى ففي نشر أفكار الناس من وجهة الجراحة والنظر للمريض بين الشفقة . أما العملية فهي ترقى أسباب الطب الجراحي إلى أن صار بالصورة التي نراها اليوم .

الآن لقد انعكس الأمر (مخاطبا طلبية العرب) فنحن يجب أن نؤدى ماعلينا نحوكم من الواجب . وهذه العلوم التي تزورها اليوم عندنا قد ورثناها عن أجدادكم ، عندكم واجب كبير ولكم مجد عريق وسلف صالح ، يجب عليكم أن تفهموا تاريخكم ومدنيتكم ، وكم من الكنوز العريقة الثمينة أصبحت اليوم مدفونة للاهمال ، ومؤتمر العلوم في باريس أفهمنا جهلنا بتاريخ العرب ، وقد ساعدونا على درس تاريخكم وحضارتكم وعليكم واجب ثان ياطلب العرب ، الشرق اليوم يتحين للنهضة وأنتم ستقتلون المدينة وتعلمون الناس كما فعل ذلك حنين بن إسحاق وستكونون بآدى ذى بدء مترجمين فتصبحون مهانة . ولا يبعد أن يكون بيننا رجل يحتفل فيه أيضا بعد ألف سنة كما تحتفل اليوم في هذا المكان بأبي القاسم . ولقد قال للمستشار الأستاذ (هيس) مدير جامعة برلين هذه الكلمات : (نحن نهم بتاريخ الطب العربي لأمر ثلاثة :

(أولا) الجهد والاجتهاد الذي لا يعرف الللل الذي كان عندهم .

(ثانيا) حب الاطلاع وأداء الواجب المجرى عن أى شخصية .

(ثالثا) تمسهم للمعرفة وشرف الصنعة عندهم .

فذلك لاجب أن نرى ممن اجتمعت فيهم هذه الصفات أن يكونوا من أحسن البعثة :

لينا قدرنا هذه الحقيقة كما يقدرها الأوروبي الذي لا يريد من ذلك إلا أن يزيد مداركه ومعارفه ليتقدم إلى الأمام ، وقد بحثوا أيضا في العلوم الطبيعية التي كانت عند العرب مباحث كافية ، ونشروا كذلك كتباً عديدة كمصنفات في الكيمياء لجابر بن حيان ، نشرة هو لمبارد الانكليزي وطبيع في باريس ، ولقد أطلعت على هذا الكتاب فوجدت نظريات جمة في العلوم الطبيعية الموجودة في ذلك الزمن وبين الآراء الطبيعية اليوم . وأكبر فضل وجدته في جابر هو تقديره للعمل والتجربة إذ يقول : (وملاك كمال هذه الصنعة العمل والتجربة فمن لم يعمل ولم يجرب لم يظفر بشيء أبدا .

ثم قوله أيضا : كل شيء طبيعي فاعتمد عليه . ويوجد أيضا كثير من التعميدات التي وضعا قصدا لكي لا يوحى بسر الصنعة .

ونشر أيضا في فن المستعدنات تأليف (التيفاش) طبع في روما . وكتاب الأحجار لأرسطاطاليس ترجمة (لوقا بن اسرافيون جمعة) وترجمه إلى الألمانية الأستاذ (روسكا) . وقد قال في مقدمة الكتاب الكلمات الآتية : (ليست الأسفار اليدوية ولا الأدب الذي جاء بيد الإسلام هو الذي رفع اسم العرب في الغرب فقط إذا أردنا أن نعرف تأثير المدينة الإسلامية في المسيحية الغربية فلتفكر في الرياضيات والفلك والكيمياء والطب كيف كان علماء الاسلام يشتغلون بها بعد أن فقدت علوم اليونان إلى يومنا هذا فيها نرى الأسماء الفنية ، المشتقة من اللبني وكيف كانت العلوم زاهرة تحت راية الإسلام وكيف تعلق الغرب للمسيحي بالشرق الإسلامي ، هكذا يشتغل الأوروبيون في البحث والتنقيب عن تاريخنا ومدنيتنا وينشرون بذلك كتباً قيمة يقيمون حفلات عظيمة لكل عالم خديم البشرية خدمة صادقة ، ونحن ننظر إليهم كأساطير الأولين ، أيطربنا هذا إهمالنا ، أيطربنا تفرقنا شيئا وأحزابا بين قديم وحديث ، ونحن اليوم بأشد الحاجة أن نمد يد الإخاء إلى بعضنا لبعض والاجتهاد ؟

وقد قال لي أخيه الإخوان أثناء احتفال ألف سنة على الطب العربي ، وفي نفس الوقت تقيم

مأعما على خروج اللدنية من أيدينا ، ولا يتفمنا الحزن والبأس بل السعى والجد ، النوم كان طويلا
فشكل شيء أماننا صعب جدا ، وكلما تقاعسنا عن العمل ازدادت الصعوبة ، هكذا كان أجدادنا في
في غابر الأزمان واليوم فقدنا كل شيء من أثر الأجداد ، ولم يبق لنا غير ذكريات الماضي نسम्मها من
العلماء الغربيين .

إن كنا حقا نحب ذلك السلف السالم رحمهم الله فلنسترجع هم الخلف لتعيد لنا ذلك الشرف فإننا بهم
مقتدون ، وإننا على آثارهم لمهتدون .

محمد يحيى الهاشمي

برلين

ومما يناسب ذلك أيضا ما جاء في جريدة الأهرام يوم ١٥ مايو سنة ١٩٣٠ تحت العنوان التالي
وهذا نصه :

أثر الطب العربي

ألقى الدكتور البارح يوسف أفندي حربز الحائز لشهادة الامتياز من كلية باريس محاضرة في نادي
مدرسة الطب عن أثر الطب العربي في تطور علم الطب في فرنسا ، ولأهمية هذا الموضوع رأينا نشر خلاصة
تلك المحاضرة القيمة . قال المحاضر :

« من المتعارف أن الإغريق كانوا منذ ألقى عام حملة الطب القديم ، أكان ذلك بعض ما خلقه الإسكندر
الأكبر عقيب غارته المشهورة على الشرق ، أم أت هالك بقايا معلومات طبية يونانية الينبوع ، قد
يكون الصواب بين هذين . على أن العرب لم يتصل بهم فن الشفاء إلا بعد قيام الدولة الأموية ، ولئن
كان العهد الجاهلي فيه بعض من مارس الطبابة إلا أن خالد بن يزيد بن معاوية كان أول من نقل العلوم
الطبية والنجوم والسكيميا إلى العربية ، وكذلك فعل جابر بن حيان . على أن الحركة العلمية التي
بدى بها في صدر الدولة الأموية لم يتح لها أن تبلغ شأوا بعيدا إلا في صدر الدولة العباسية ،
وعلى الأخص في عهد المأمون سابع الخلفاء العباسيين الذي حمل رأسه أرفع عمامة في الشرق
والإسلام . ولما انتهت هذه البذور الجديدة إلى ذلك المستنبت العربي العجيب ظهرت قرائح طبية من
الطراز الأول في القرن العاشر للميلاد أعد منها الرازي أبا بكر محمد بن زكريا في آسيا وابن الجزار
في أفريقيا بالقيروان وأبا القاسم عباس بن خلف الزهراوي في الأندلس . أما الرازي فقد ترجمت مؤلفاته
إلى اللاتينية في الجيل الثاني عشر للميلاد وكانت عمدة التدريس في أوروبا جميعها وعلى الخصوص في مدرسة
مونبليه وباريس بفرنسا كما تشير إليه بكل تفصيل أطروحتي في جامعة باريس اللوسومة « حظ الطب العربي
في تطور الطب الإفرنسي » .

وللرازي مؤلفات عديدة أوصلها كتاب « عيون الأنباء » إلى اللغة ، ومما يدهش فيها تمدد مواضعها
ومحوتها ، فقد كتب الرجل في الفلك ، وقال بدورة الأرض ، وكتب في الطب والتفسير والكيميا
والإلهيات إلى آخر ما هنالك من شتى المذاهب والأبحاث . وبمناسبة عيد الألفية ألتأت عنه محاضرة في المجمع
العلمي في دمشق الشام في شهر أكتوبر للتصرم ، وله بيتان مشهوران من الشعر لا بأس من إيرادهما قائلما
حين حضرته الوفاة بعد أن عمر مئة من الأعوام وتزيد :

لمعري لا أدري وقد أذن البلى بما جل ترحال إلى أين ترحالى
وأين مقر الروح بعد خروجه من الهيكل للنحل والجسد البالى

ومنه يستدل على شدة العلم . وأما ابن الجزار فهو تلميذ سليمان الإسرائيلي ومن أكبر مؤلفي العرب في الجيل الماشر للميلاد . وضع في القيروان كتابه الموسوم بزاد المسافر ونقله إلى اللاتينية في الجيل الحادى عشر (لاون) الإغريق كبير الثقة من العربية إلى اللاتينية في الجيل الحادى عشر كما كان جيرار الكرماني كبيرم في الجيل الذى يليه ، وفي ابن الجزار وكتابه [زاد المسافر] يقول كشاحم :

أبا خالد أقيت حيا وميتا مكارم ذاعت في البلاد عظاما
رأيت على زاد المسافر عندنا من الناظرين العارفين زحاما
سأذكر أفضالا لأحمد لم تزل مواضعها عند الكرام كراما

وأما أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى ، فقد كان بلا شك جراح عصره وأستاذ القرون الوسطى في ذلك الفن ، ولقد نشرت له مجلة [للعهد العلمى] بدمشق الشام منذ عامين رسوم أدوات جراحية وجدت في إحدى منسوخات كتبه وكلها تشير إشارة لا تقبل الاعتراض إلى معارفه التشريحية وطول باعه في هذه الصناعة .

الجيل الحادى عشر

كان من أكبر كواكبه الشيخ الرئيس ابن سينا ، وقد كان اهتمام أوروبا به بالفنا حد الإعجاز فقد نقلت إلى اللاتينية وشرحت كتبه وذيلت ما يقارب الأربعين من المرات . على أن أكبر مؤلفاته الطبية وهو القانون موجود اليوم بالعربية في قاعة للطبوعات في المكتبة الأهلية بباريس وهو طبع روما ، ويرجع تاريخ طبعه إلى الجيل السادس عشر أى في أوائل عهد الطباعة كما هو معلوم ، ولابن سينا في قاعة للطبوعات بباريس كثير من كتبه أذكر منها كتابا بقراط في الطب العام ، وقد كتب على الصفحة الأولى منه : (هذا الكتاب ملك أبى الحسين على بن سينا التتطب) .

وعلى الجدار الأمامى للبهو الكبير في كلية الطب بباريس رسم أطباء الإنسانية من عهد أبى الطب بقراط إلى يومنا ومن جملتهم الرازى وابن سينا والزهراوى .

الجيل الثانى عشر

واتخذ مصباح العلم من الشرق إلى الغرب وكان بنو زهر على رأس الحركة الطبية لذلك العهد وحفيدم أبو العلاء وهو أشدهم صداقة متينة وصلة بابن رشد فيلسوف الأندلس وطبيها ، وبينما كان ابن زهر يظهر عدم اكرام بمؤلفات الرئيس ابن سينا كان ابن رشد يشرح أرجوزة الرئيس ، وكتب هؤلاء المؤلفين الكبار نقلت إلى اللاتينية في القرن الثالث عشر والرابع عشر وكانت موضوع التدريس في أوروبا باجمعها مئات من الأعوام أما ابن رشد فقد ظل للذهبه الفلسفى أثر جديد ، وآخر من اهتم به الفيلسوف الكاتب (أرست رينان) فقيد فرنسا ، ولما كان الرازى أول من وصف الجدري وكتب في أمراض الأطفال وفي واجبات الطبيب ، كان ابن زهر أول من تكلم عن الشمور في العظام ، ووصف عالم الجرب ودعاه بالصواب ، وأسهب في وصف الكسر والوشاء ، وكذلك كان الزهراوى أول من أشار بالسكى واستعمل حجر جهنم إلى آخر ما هناك من ضروب العلاج .

وأختم كلمتي هذه بأن أرى من طلاب للعباس الطيبة في الشرق أمثال الأعلام من سبق ذكرهم فعيد
لشرق روثقه الثابر ونشير مع أبناء العمور في سبيل رهاية الإنسانية، وما على المهتد أمر عسير . وإلى هنا
تم الكلام على التصل الأول والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثاني

في بعض أسرار قوله تعالى « وسوف تسألون » وأن هذه الأمة عوقبت في الحياة الدنيا
فضلا عما تنافى به في الآخرة وذلك في ثلاث مقالات ، وهما كذا

المقالة الأولى

جاء في جريدة « المؤيد » بتاريخ يوم الأربعاء ٣ ربيع الثاني سنة ١٣٤٩ هجرية تحت عنوان
« الرحلة إلى الأندلس » وفي مدريد وطليلة للأمر شيكيب أرسلان ما نصه :

وصلت أسس إلى مدريد آتيا من سرقسطة التي كان العرب يسمونها بالقرى الأمل كما يسمون طليطانة
بالقرى الأدنى ، وقد استفرقت معنا الطريق من سرقسطة إلى مدريد نحو من ست ساعات بالسكة بالسير السريع
مررنا فيها على قرى ومدن معروفة من زمان للعرب مثل قلعة أيوب والحمة وغيرها ، والحمة حمام سخن كما
يضم من اسمها ، وجميع هذه القرى والمدن الصغار التي شاهدناها في أثناء اجتيازنا إلى مدريد مبنية على
أنهر وجداول ومحاطة بالجنان والبساتين وهيبتها شامية في تربتها وأشجارها وزروعها حتى في جبالها ووعدها
فلا عجب أن رغب أهل الشام أكثر من كل العرب في سكنى الأندلس ، فإنهم ما انتقلوا من شام إلا إلى شام
ومن لم يشاهد أسبانيا لم يعلم سبب الجاذبية التي بينها وبين سورية ولكن متى شاهد هذه الديار فهم السبب
فالأندلس في الحقيقة قطعة شرقية في الغرب ، أو قطعة غربية من الشرق ، ولقد ذكرت لقراء رسائلي أنني
سأخرج إن شاء الله كتابا مستقلا عن رحلتي إلى الأندلس ، فلا ينتظر القراء مني هنا إلا إشارات بسيطة
ولحات دالة ، وقد كان يفتق فؤادي طول هذه الطريق من مشاهدة الأذن التي كنا نراها في كل قرية
من القرى التي كانت السكة تشقها أو تمر حذاءها ، فهي باقية على حالها بطرزها للعماري العربي وشراريها
وطاقتها وتمازجها وكلها حرجة الشكل على نمط مآذن الغرب وما تميز فيها إلا وضع الأجراس في أعلاها
وتحويل المساجد إلى كنائس في أديانها ، وجميع البشر يريدون لله ، وكثيرا ما كنا نرى منارتين أو أكثر
حول مسجد واحد مما يدل على أن للمساجد كانت لعهد العرب أوسع مما هي الآن وهي كنائس وأن القرى
التي هي اليوم قرى متوسطة الحال كانت في دور الإسلام قصبات كبارا وأن القصاب التي لا ترضع اليوم إلى درجات
مدن كانت مدائن حافلة فإن المساجد التي تبني من فوقها منارتان وثلاث وأربع لا تكون إلا في المدن الأخرى
الممران ، وقد صادف وجودي في القطر بعض نباء من الفرنسيين لحظوا ما أيضا ملحظته أنا .

أما مدريد فهي عاصمة من أجمل المواسم القرية لا يتقصها شيء عن عواصم الممالك الأخرى من
سعة شوارع ، ونظافة أزقة ، وضخامة شأن ، وغمامة بديان ، وعظمة مساحات ، وتراخي مساحات ، واعتدال
أدوار جنائن ، ونضارة أزهار وحدائق ، وانتظام شامل كل معاني المدينة مع مزجة فيها هي ارتفاع المنطق
وإشراف يشرمه التريب بانسراح الصدر .

ليس لمديريد ما ينقصها إلا خدانة تاريخها إن كان هذا بعد نقصا ، فإنها ليست كبرشلونة التي يرجع تاريخها إلى دور الفينيقيين الذين لم يحبوها إلا لشبه سواحل هذه البلاد بسواحل سورية ، ولا كسر قسطه التي كانت كرسيا لمملكة أراغون بعد أن أخذها الاسبانيون من بني هود الجذاميين ، وقد كان لها دور مجيد في زمن الرومان واشتق اسمها سرقسطة من (سيزرا وغسطة) أي القيصر أو غسطة الذي كان له مزيد العناية بها . ولم تكن مديريد كطليطلة عاصمة القوط يوم دخل العرب الأندلس ، ولا كقرطبة كرسى الخلافة الأموية لمهد أكتبال عظمتها في الغرب واشتغالها على الممالك من جنوبي فرنسا إلى السودان . ومن البحر المحيط إلى طرابلس الغرب . كلا . لمديريد كانت في أيام العرب قرية غير ذات شأن بنى العرب فيها حصنا في وجه بوار قشتالة اسمه مجريط وذلك في القرن العاشر .

ثم لما أخذ الاسبانيول يسترجعون البلاد مستفيدين من قتال العرب بعضهم لبعض (هذا للرض العربي الذي كان ولا يرح رأس كل بلاء هذه الأمة) استرجع الأذقونش السادس ملك قشتالة حصن مجريط بعد نحو ١٥٠ سنة من بناء العرب إياه ، والقصر الملوكي الحالي مبني في محل جامع كان مسجدا لقرية مجريط التي تحول اسمها إلى مديريد لقرب مخرج الجبل من الدال وقرب مخرج الدال من التاء أو الطاء ، ولكن الذي جعل مديريد مديريد هو فيليب الثاني ابن شرلكان ، وإنما اختارها برغم قبحها باديتها وجذب صاحبها الأجل توسطها من بلاد اسبانيا ، فسرقسطة ضاربة إلى الشمال الشرقي وبرشلونة مرسى واقع في طرف قرطبة مائلة إلى الجنوب وإشبيلية ممنة في المغرب وهم جرا ، فهذا عمرت مديريد وهي أحدث أسبانية تاريخا وارتفعت وانخفض ما كان مرتفعا قبلها وأثمة يرث الأرض ومن عليها .

ثالث يوم وصولي إلى مجريط أو مديريد قصدت إلى طليطلة التي لا تبعد عنها بسكة الحديد أكثر من ساعة ونصف فزرت تلك المدينة الشهيرة عاصمة الأندلس يوم فتحها العرب ، وشاهدت كل ما يشاهده السائح فيها وبقيت بطليطلة نحو ثمان ساعات أبحث على أنار العرب وأحرق في هذا القصر وهذا الجسر وتلك المارة وهاتيك المأذنة وأقبل ذا الجدار وأمسح بذلك الركن حتى شفيت غلبي من طليطلة ، فقد كان في نفسى منها ما كان في نفس القراء حتى كنت منذ عهد الحدائنة أحفظ قول القائل :

زادت طليطلة على ما حدثوا بلدة عليه نضرت ونعيم

الله زينه فوشح خصره نهر المجررة والقصون نجوم

فرايتها كما قيل بلدة عالية مشرفة على نهر كبير هو نهر (تاجه) الذي ينتهي إلى البحر المحيط عند أشبونة (ليزبون) وقد انخفض النهر المذكور عن طليطلة وأحاط بها من الجهات الثلاث فهي لا تسارى البر إلا من جهتها الشمالية ، وعلى النهر بساتين وأشجار ، وفي ضفافه غياض وجنان ، ومنظر هذا النهر وما يليه من بساتين طليطلة من أبداع الناظر التي سرحت فيها طرف طرفي على رأى الكتاب ، وكذلك حصانها ظاهرة للعيان وقد قلت لما دخلتها : إنه لا يمكن أن تؤخذ إلا بجموع أو بخيانة ، ولا سيما في الأعصر التي أخذت فيها ، وكنت أعلم من تاريخ الأندلس أن بنى ذى النون أساءوا التصرف فيها حتى آل الأمر إلى استرداد الاسبانيون إياها قبل جميع حواضر الأندلس حاشا برشلونة ، فلما رجعت إلى مديريد راجعت التواريخ بالتدقيق ، فأيدت المراجعة حدى (وقررت ما جال في نفسى) وتحرير الخبر أن القادر بن ذى النون كان ضيف التدير فائل الرأى قطع فيه جيرانه من أمراء المسلمين وطفقوا يمسكون عليه ويتجاوزون ، فذهب إلى القونس السادس ملك قسطنطينية أو على حسب قول العرب الأذقونش طاغية فحالة وطلب حمايته ، وجاء الأذقونش بجيش ومعه القادر بن ذى النون ليفتح له بلده التي كانت هي أيضا تمردت عليه ووعد الأذقونش بأنه يفتح أو يقره فيها ، فلما دخلها بسبب تفرق كلمة أهلها قلب له ظهر المهن وأقطعه بلادا أخرى ، واستولى الأذقونش على طليطلة وأعادها لحاضرة لللك كما كانت يوم دخل العرب الأندلس .

وكم في العالم الإسلامي من أمثال المعادين في النون قديما وجدينا يتخضعون بأقا ويل الأعداء ويستسلمون إليهم ويتقون بهودم حتى إذا ما تمكن هؤلاء بواسطتهم من مرادهم قلبوا لهم ظهر المجن وأرسلوهم يقرعون سن الدم على تقصيرهم ولكن حين لا ينفق قرع السن على حسن الظن ، فكان استرداد الإسبانيول لطبيطة مبدأ مصيبة الأندلس لأنه بأخذها أخذ الأذفتش إقبلا طويلا عرجضا فيه ثمانون منبرا ، ودخل في وسط بلاد الإسلام منها ، فغال بين قرطبة وغرناطة من الغرب ، وسرقسطة ولاردة وقلعة أيوب من الشرق حتى قال الشاعر :

الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولا من الوسط

وبلى هنا تحت القالة الأولى .

المقالة الثانية

ثم إنه لما استوثق لصاحب قشتالة أمر طبيطة وتمكن بها طمع في قرطبة وما زال حتى أخذها ، ثم في أشبيلية وما زال حتى أخذها ، وانهار بعد ذلك ملك الإسلام بالأندلس : ولولا نجدة الرابطين ثم للوحدين من أفريقية لسقطت الأندلس قبل أن سقطت بنحو (٣٥٠ سنة) فأبناء تاشفين ثم من بعدهم أبناء عبد المؤمن ثم الذين شاء الله أن ينسأوا أجل الإسلام في أسبانيا تلك اللمة ، وأما السبب في ملك ابن ذي النون لطبيطة وجاية الأذفتش إليها فهو انصداع الخلافة في قرطبة وتشظى عصاها بتوالي العنن . حتى إنه لما رأى أمراء الأطراف أن أمر الخلافة لم يعد جميعا استقل كل أمير منهم بما بيده ، فابن ذي النون بطبيطة وابن هود بسرقسطة ، وابن عباد بأشبيلية ، وابن صامح بالمرية ، وابن الأفضس بيطيبوس وهم جرا . وهؤلاء هم الذين يقال لهم ملوك الطوائف ، لم يكن لهم شغل إلا مقاتلة بعضهم بعضا بينا السو بلتهم منهم جميعا كل يوم قطرا وهم مع ذلك عن غيهم لا يتقنون .

ولذلك ولشدة ماغنى مسلو الأندلس من ملوك الطوائف عندما نصرهم يوسف بن تاشفين رحمه الله في وقعة الزلاقة وأراد القبول إلى أفريقية فزع إليه القمء وقالوا : إنك بمجرد ما ترجع يرجع هؤلاء إلى الظلم والفساد ومقاتلة بعضهم بعضا واستجداد الطاغية على المسلمين فرجو منك أن ترجعنا منهم وتقوم بما أخذه الله عليك وهكذا أقتصره بأن يبسط يده على الأندلس كلها ويقضى على ملوك الطوائف ، وجاءت الفتاوى بمثل ذلك إلى ابن تاشفين من الشرق حتى قيل إن الإمام الغزالي أفتاه بالاستيلاء على الأندلس إزالة لمررة ملوك الطوائف ، وليس لي أدنى اعتراض على ما فعل ولو كان ابن عباد صاحب أشبيلية لثجا وكنا نحن ننتهي إلى أرومة واحدة وكان ابن هود الجذامي جدا لصديق خالد بك القرقي من عيون أعيان طرابلس الغرب ، وهذا عدا أن لثجا وجذاما كاتنا قبيلة واحدة تقريبا .

وقصارى ما أعترض أنا فيه على يوسف بن تاشفين في حيه المتمد إلى أغمات التقصير منه في امر محيثة فقد كان يمكنه أن يرفه عيشه ، أو يسد خلته ولو كان متفيا

ولم تتجم دويلات الطوائف هذه إلا بسبب سقوط الخلافة في قرطبة ، ولما كان جبل الخلافة مستحصفا كانت الوحدة تامة ، وكان الإسلام مهيبا ، وكان المسلمون في أسبانيا نحو ١٥ مليوناً ، وكانت قرطبة وحدها ذات مليون ومائتي ألف نسمة ، وكان وكان .

فما انتكحت جبل الخلافة ، وانصدعت الوحدة ساءت الحال ، وتفرق الناس وزالت الهيبة ، وذلك العرب ، وبعد أن كان الناس لهم خولا صاروا هم خولا للناس .

هذه هي الخلافة التي يقول بعض الناس اليوم إنها لم تعد الإسلام بشيء ، بل يقولون إنها كانت وبلا على المسلمين ، وما كان وبلا على المسلمين إلا ابتلاؤهم بالشقاق والتقاطع ، ولا سيما العرب الذين هم كما قال النعمان ابن النذر لكسرى : « تراهم كلهم ملوكا » .
وكل أمة يريد جميع أفرادها أن يكونوا ملوكا ينتهي أمرها بأن يملك أمرها الأجانب ولا يبقى لها ملوك .
وأعود إلى طليطلة فأقول : عند ما كنت أقرأ :

طليطلة أدال الله منها سواها إن ذا نبأ كبير

فليس نظيرها إيوان كسرى ولا منها الخورنق والسدير

كنت ادول : ماذا عساها أن تكون هذه التي لا يحاكيها إيوان كسرى ولا يرتفع إلى مستواها الخورنق والسدير ؟ فلما رأيتها وجدت من حصانة موقعها ، ومنعة أسوارها القديمة البنية طبعا على طبق ما أكد لي قول هذا الشاعر وعلمت أن سقوط طليطلة هو بالفضل نبأ كبير ، لأن العرب لما أخذوا طليطلة ملكوا جميع ديار الأندلس ، ولأن صاحب قشتالة لما دخل طليطلة بدأ الإنهيار في جدار العرب ، ثم لما تذكرت قوله :
جوامعها كنائس أي قلب على هذا يقر ولا يطير

لحظة أن ناظم هذه القصيدة إنما نظمها ثانی سنة فتح الأذفونش لها لأنه بحسب شروط تسليم طليطلة له كان تقرر بقاء المسجد الجامع للمسلمين ووعده الأذفونش بمراعاة حقوقهم وأحسن معاملتهم في البداية ووزع مائة ألف دينار على ضعفانهم حتى يعملوا ويحزنوا ، وهذا كله حتى يغير أعصابهم ويغيري غيوم بالاستسلام ، وقد أفلح في سياسته هذه ، وخدع منهم خلقا كثيرا ، ولكنه بعد ذلك نقض كل عهد عاهد به وأعاد للمسجد الجامع وغيره كنائس وشاهدت تلك الكنيسة العظيمة وهي مبنية بمكان المسجد ولم يبق من المسجد الأصلي إلا قسم قليل .

والبيوت في طليطلة لم يبق منها إلا قليل من القديم ، ولكن صفة البلدة في ضيق شوارعها ودخول بعضها في بعض لا تزال كما كانت كأنما العرب لم يخرجوا منها إلا من خمسين سنة ، وقد بقيت اللغة العربية لغة أهل طليطلة حتى بعد رجوعها للإسبانيول نحو خمسمائة سنة يتكلم ، ويكتب بها المسلمون والسيحيون معا ، ثم خلت طليطلة من المسلمين ، فبقى للسيحيون وحدهم ، وكذلك بقي اليهود ، ولبثت لغتهم هي العربية ، وبقى طرز بنائهم ، وأسلوب معيشتهم غربيين ، واستمر ذلك إلى سنة ١٥٨٠ مع أن ارجاع الإسبانيول إليها كان سنة ١٠٨٥ .

وكان لنصارى طليطلة طقوس دينية خاصة بهم يقال إنهم أخذوها عن القوط القدماء ، وليست بالتمام مطابقة للطقس اللاتيني ، ولما كانت طليطلة تحت حكم خلفاء بني أمية أي تمعا لقرطبة كان للنصارى المستعربين فيها أساقفة كالنصارى قرطبة ، وقد كان لبطران طليطلة في زمان الخليفة عبد الرحمن الناصر أسقف يقال له عبدالله بن قاسم ، وقد أطلعني الأستاذ آسين بالأسبوس أعظم مستشرق الإسبانيول على أربعة مجلدات مطبوعة حديثا تتضمن الوثائق والصكوك العربية الباقية كانت في خزانة الكنيسة بطليطلة يستدل منها على أن اللغة العربية كانت هي اللغة السائدة في تلك البلدة وماجاورها إلى نحو سنة ١٦٠٠ .

ولقد نسخت بعض أموزجات من هذه الوثائق وهذا كاف من خبر طليطلة ، بل هذا زائد على لقدرة اللازم لأن جميع هذه الباحث يجب ادخارها (للحلة السندسية ؛ في الرحلة الأندلسية) وما جاء منها هنا هو محض اعتداء على (الحلة) وابتسار من ثمرات الرحلة ، فمن شاء فليراجع الأخبار في آئها .
انتهت المقالة الثانية .

المقالة الثالثة

الجامعة الإسلامية لم تكن يوما من الأيام بالمعنى الذي شاعت أوروبا تسميتها به لافى العصور الأخيرة ولا فى العصور الأولى من الإسلام ، طبعاً أن القرآن يوصى للمؤمن أن يكون دائماً إلى جانب أخيه ، وأن لا يفرق قضيته عن قضيته ، غير أنه يأمره أيضاً بأن لا يؤيد إلا قضية عادلة . وأن يقيم العدل الصحيح تجاه كل الناس دون ما تفرق فلا يمكن والحالة هذه أن يكون فى الإسلام مسألة مناصرة مؤمن لغير مؤمن مجرد كونه مسلماً ، جاء فى القرآن الكريم « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا أعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » .

إن القرآن وسنة الرسول مليتان بالمواعظ الحائنة على إقامة العدل دون ما تفرق ، الحق والحقيقة هما الله ولقد قال النبي صلى الله عليه وسلم مرة « انصر أخاك ظالماً أو مظلوما » فسل : كيف يعين أخاه ظالماً فأجاب عليه الصلاة والسلام : إذا كتمت أخاك عن الظلم قد نصرته . ولكن إذا كان المؤمن مظلوماً أينما كان وكيفما كان فإن القرآن يجعل معونته فرضاً مقدساً إلا أنه ينهى ذكر أن امكان هذه المساعدة بين المسلمين يجب أن يكون ثابتاً ، ويجب أن تكون درجة هذه المساعدة موضع الدرس ، فلا يمكن مطلقاً أن يطلب من المؤمن مالا يستطيع ، فالأقربون أولى بالمعروف والقرآن صريح فى هذه النقطة ، وإليك الشروط التعاونية التى أمر بها الدين الإسلامى .

فالمسلمون تعاونوا بعضهم مع بعض غالباً أديباً وعقلياً وسياسياً واقتصادياً ومادياً ، والإسلام يقدم الأمثلة الناصحة على هذا التضامن ، بيد أنه لم يتخذ فى زمن من الأزمان شكلاً تاماً عالمياً ، فالخلافة الموحدة فى الإسلام لم تدم إلا مدة حكم الخلفاء الأربعة الأول ، حتى أن خلافة على كانت منشأ انشقاق هائل وحرب دامية بين المؤمنين ، حرب أولت الاقسام بين السنة والشيعة فنذ عهد الأمويين فى الشام ووحدة الخلافة تعرضت لصدمة عظيمة من قبل ثورة ابن الزبير الذى انزع منهم الحجاز مدة خمس عشرة سنة . لكن فى الاجمال ظلت الامبراطورية الإسلامية موحدة . وهذه الحال استمرت زهاء قرن حتى سقوط الأمويين وقيام العباسيين الذين نقلوا قاعدة الخلافة من دمشق إلى بغداد . وفى ذلك الحين استطاع أحد الهاربيين من بنى أمية أن ينجو من سيف العباسيين ففقد أسبانيا التى كان الاستيلاء عليها حديث العهد . لكن بقيم فيها دولة مستقلة عن خصومه . ثم إن عبد الرحمن الأول وهو المسمى بصقر قريش لم يجرؤ وهو مستقل على اتخاذ لقب الخلافة لنفسه ، وظلت الأديعية العامة فى الأندلس تدعى أمامه باسم خلفاء بغداد ، وإنما عبد الرحمن الثالث الفاتح الشهير الذى أخضع كل اسبانيا وجنوب فرنسا وكل شمالى أفريقيا والذى كان أبرز حاكم فى زمانه (القرن الثالث للهجرة) هو الذى تجرأ على أن يتخذ لقب خليفة بالرغم من وجود الخلفاء العباسيين فى بغداد . وعندئذ قامت عدة دول إسلامية مستقلة بعضها عن بعض ، فالعباسيون فى بغداد والأمويون فى قرطبة ، وفى حين من الدهر كان الأدرسيون فى المغرب ، ثم قامت أسرة ملكية أخرى تحدث اتصافاً جديداً وهى أسرة الفاطميين خلفاء القاهرة (القرن الخامس للهجرة استطال حكمها حتى القرن الحادى عشر) ومن ذلك الحين فقدت الوحدة الإسلامية كقوة سياسية : ولم يعد التضامن إلى تلك الممالك المتحدة . وكان معترفاً للعباسيين بشئ من التفوق الأدبى ليس غير . وكان يبدو أحياناً مظهر التضامن الأدبى حتى والهادى فى البلاد الإسلامية لكنه لم يتجاوز حدود التضامن الذى كان يمارسها فى البلاد المسيحية .

وقد قدمت الدول المسيحية في القرون الوسطى تجاه الإسلام مثالا للوحدة التي كانت مفقودة عند الدول الإسلامية ، وذلك بضايف الفرنسيين والألمان والفلنك والإنكليز واليطاليان المع ، كتلة واحدة لحرب المسلمين في الشرق ، قداموا باحدى عشر حملة صليبية ، ومن جهة ثانية رأينا أن المسلمين لما أرادوا صد تلك الحملات لم يتحدوا إلا فيما بين الصريين والسوريين وسكان ما بين النهرين ، وهؤلاء جميعا ليسوا إلا جزءا من المسلمين وعبثا نادى صلاح الدين ودعا مسلمي الغرب لتوازره حكوماتهم بأساطيلها القوية ، ولو أنهم لبوا دعوته لاستطاعوا أن يحولوا دون نزول الحملات الصليبية .

ولئن كان بين مسلمي أفريقيا ومسلمي الأندلس تضامن تجلى بتقدم الجيوش فقد كان إزاء ذلك أكثرية منهم بجانب الشعوب المسيحية ، ولكن بين الشرق الإسلامي والغرب الإسلامي لم يسطر التاريخ أعمالا عسكرية تبودلت بشكل عام . وقد وقع فقط أن أهل تونس والجزائر وطرابلس الذين كانوا أقلية تجاه الدول المسيحية دعوا لنجدتهم الدول العثمانية ، وقد سارع السلطان سليمان القانوني لوضع هذه البلاد تحت سيطرته إمارغبة في الفتح ؛ وإما في التضامن الإسلامي ، وإما لإقامة التوازن بين قوته وقوة شارلكان .

وقد مر حين من الدهر لم يكن في البحر للتوسط سوى أسطولين : أحدهما إسلامي تحت قيادة خير الدين بربروس . والآخر مسيحي . انتهت للقالة الثالثة .

الفصل الثالث

في أن القرآن ذكر للمسلمين عموما وللعرب خصوصا
في النهضة الحالية

ولأقدم مقدمة فأقول : اعلم أيها القارئ أنني كما ذكرت سابقا مولود بقربة من قرى مديرية الشرقية تسمى (كفر عوض الله حجازي) وقد كان ذلك أيام الظلم والاعتساف ، والجور والقسوة ، فكان الحكام أظلم خلق الله ، وكانت الرعية جارية على سنن الرعاة ، فالأقوى كان يظلم الأضعف ، وكنت أرى أن الأقوياء والأغنياء يتحكمون في الضعفاء ، فيرسلونهم إلى أعمال الحفر في الجسور والترع التي لا أجر عليها من الحكومة بل هي مجرد ظلم واسترقاق وإرهاق ، ولكن كانت الحكومة المصرية تنتقل من حسن إلى أحسن سنة فسنة حتى استتب الأمن في البلاد وعرف كل ذي حق حقه : وفي أثناء تلك اللمة دخلت الأزهر فدرسة دار العلوم فصررت مدرسا . وهناك أخذت أولئك الكتب لنشرها بين المسلمين قياما بما عاهدت الله عليه أنني إذا عرفت الحقائق العلمية جعلت حياتي وقفا على تعليم ورقي المسلمين كي لا يستسلموا للشك الذي آذاني وأفلق بالي ، وأخذت أعرض الكتب على ذوي الرأي في البلاد حتى إذ وجد أحدهم عينا دلتني عليه وكان حديثي التقدم مع المرحوم لطيف باشا سليم وتوالت الجمعيات في مصر كحزب الوفد المصري وحزب الأحرار الدستوريين وغيرهم وهذا كله مصداق لما رأته من قبل ، وقد ظهرت في هذه الأيام جمعية انشبان المسلمين ولما فروع في الجزائر وتونس والشام والعراق وأمريكا ، وهكذا جمعيات أخرى كجمعية الموااة والجمعية الجغرافية وغيرها ، وكل في الأقطار العربية من جمعيات أدت أعمالا عظيمة وأكثرها ظهرت بعد الحرب الكبرى ، وجميع البلاد الناطقة بالضاد اليوم تطلب الاستقلال . فانظر ماجاء في جريدة الأهرام بتاريخ ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٢٩ وهذا نصه :

الاتداب في البلدان العربية

بقلم الكاتب غوردون كاتنج

المقال الأول

كان من أهم اسباب سقوط الأمبراطوريات القديمة اسراف القوة الرئيسية تدريجاً بالنوسع المطرد في
الممتلكات ، ونرى في عصرنا هذا أن الامبراطورية البريطانية والأمبراطورية الفرنسية في خطر
الانحلال لهذا السبب نفسه ، إن مستشاري الأمبراطوريتين ويلوح انهم من طراز قديم (سابق لتاريخ
البشر) بمن لهم خبرة بفتون الحرب يصرحون أن الضرورة تفضي بصيانة الممتلكات الموجودة بضم
ممتلكات أخرى .

معلوم أن زيت البترول باب من أهم مطالب العالم في هذه الأيام فأصبحت موارده من الضرورات
الأولية لكيان الدول العالمية ؛ فالبترول اذن كان من العوامل التي اجتذبت انكلترا إلى العراق وفلسطين
وإيران التي اضطرت بحكم أحوال خصوصه إلى الانسحاب منها ، ومع كانت انكلترا موطدة في العراق وفلسطين
فقرنا لا يمكنها أن تتخلى عن بقعة مجاورة ترتكز إليها وتتخذها قاعدة لحماية مصالحها ، وهذا ما بحث على
عقد اتفاق (سيكس - بيكو) وتنفيذ هذا الاتفاق كان مضراً بالاتفاق الذي عقد بين الملك حسين والحكومة
البريطانية مع أنه كان في تاريخ سابق لاتفاق (سيكس - بيكو) وبما يدل على أن انكلترا قد سلمت بأنها
حسنت في عهدنا مع الملك حسين أنها أوجدت عرش العراق للملك فيصل بعد ما طردته السلطات الفرنسية
من سورية ، وقد أثر ذلك تأثيراً سيئاً في سمعة انكلترا وهيتها في الشرق الأدنى والشرق الأوسط لأن
العناصر العربية أدركت أنها سمحت لشار أقوى وأقدر ، فقد كانت مقتضيات مواصلة الحرب أهم من كل شيء
وفوق كل شيء ، حتى أن الشرف البريطاني ترك جانبا وعد من سقط للتناح ، وكانت هذه الاتفاقات الحربية
المختلفة هي الاسباب الأكبر التي جعلت معاهدة فرساي وغيرها من المعاهدات شؤماً وهولاً وأسباب القلق
الحالي وعدم الارتياح بين ملايين من الناس . والغاية من مقالتي هذه أن أقترح علاجاً لمسألة بلدان الاتداب
في الشرق الأدنى والشرق الأوسط التي عانت هول تلك المعاهدات وفي أي علاج يتناول مصالح عدة أم لا يمكن
لأية أمة منها أن تكون راضية كل الرضا ، ولا بد من مراعاة مبدأ الأخذ والعطاء من كل جانب

ولبحث في هذه المسألة لأرى من الضرورة الدخول في تفاصيل إدارة شؤون بلدان الاتداب خلال الثمان
سنوات الأخيرة لأن هذه الوجهة من المسألة كانت موضوع البحث في عدة جرائد ومؤلفات ، فالسلطات
التبعية والأخطاء المهزلة التي ارتكبتها فرنسا وانكلترا قد اعترف بها ، وليست المصاعب التي جابهتها كلاهما
بما يستحق العطف لأنها من المصاعب التي أوجدتها انكلترا وفرنسا ، وقد أصححت انكلترا جانباً عظيماً من
اخطائها ولا سيما علاقاتها مع العراق ، وأخذت فرنسا بإرشاد السيويو سو تحاول إصلاح عواقب إدارتها
الوضيعة في سورية ، إن النقلة الرئيسية التي ارتكبتها كل من انكلترا وفرنسا هي عدم العمل بمقتضى البند
الثامن والعشرين من عهد جمعية الأمم ؛ وقد قالت للس (هويت) في كتابها عن الاتدابات ما يلي :

أما إذا كانت هذه الرغائب قد نفذت فأمر مهم غامض ، وأما إذا كان هناك لا أولئك الناس رضاء .
جلية فأمر أغمض وأكثر إيهاماً . وبالْحَقِيقَةِ وواقع الأمر أن أهل بلدان الاتداب لم يستشاروا والأسلوب
الذي اتبع في هذه البلدان في تقسيمها إلى دويلات أوجد على سطح الكرة الأرضية بلقان أخرى وهو أسلوب

تقيم من الوجهة الاقتصادية نظرا للترميزات الجمركية بين تلك الدولات وعرقلتها لحركة التجارة . وبلدان الانتداب المعرفة بحرف (١) هي كايلى :

(١) - (العراق) وضع انتدابه في شهر ابريل سنة ١٩٢٠ وواقعت عليه جمعية الأمم في شهر سبتمبر سنة ١٩٢٤ ويبلغ عدد سكانه ثلاثة ملايين

(٢) - (سورية) وضع انتدابها في شهر ابريل سنة ١٩٢٠ وواقعت عليه جمعية الأمم في يوليو سنة ١٩٢٢ ويبلغ عدد سكانها ٢٢٥٠٠٠٠ من المسلمين و ٤٠٠٠٠ من النوروز و ٤٠٠٠٠٠ من المسيحيين منهم ١٥٠٠٠٠ ملونى

(٣) - (فلسطين) وضع انتدابها في شهر ابريل سنة ١٩٢٠ وواقعت عليه جمعية الأمم في شهر يوليو سنة ١٩٢٢ ويبلغ عدد سكانها ٧٥٠٠٠٠ نفس ٨٧ في المئة منهم عرب

(٤) شرق (الأردن) ويبلغ عدد سكانه ٢٠٠٠٠٠ نفس

وفي شبه جزيرة العرب بلدان تحت الحماية البريطانية وهي : عدن ، وعمان ، والكويت ، وبلدان مستقلة وهي : نجد والحجاز والسير واليمن وحضرموت ، ومجموع عدد سكان هذه البلدان كلها يتراوح بين خميد عشر مليوناً وعشرين مليوناً نسمة : أما إذا كان إصطلاح الانتداب قد وضع على قاعدة المثل الأعلى أو ابتكر كمرادف للضم والتملك فليس من موضوع البحث في مقالتي هذه ، ولكن الأرجح أن جانباً عظيماً من عدد السكان اللين آنفاً متحد في مطالبه ورجته في التخلص من الوصاية الأجنبية وإن كان مختلف الأحزاب غير متفقة على شكل الحكومة التي يجب أن تحمل محل حكومة الانتداب أو دولة الحماية

فهل مقنضيات الأبراطورية البريطانية تتطلب أن تكون إنجلترا في فلسطين والعراق وشرق الأردن وهل من الضروري أن تكون فرنسا في سورية ؟ إن جواب البلدين هو (نعم) فإذا كانت إحدى الدولتين في سورية لا بد أن تكون الأخرى في فلسطين والمكس بالمكس ، وتقول انكلترا : نعم لأدافع عن قناة السويس ضد مهاجميها من الشرق ، ولأدافع عن مصالح بريطانيا في بترول اللوصل والحفيرة . وتقول فرنسا : نعم لأدافع عن خط أنابيب البترول وسكة الحديد للزمع مدها إلى اللوصل وبنداد ومن كل منهما إلى خيفا ، وهذه الفكرة الثانية لتقوية التجارة ومصالح الصناعات ، ويترتب عليها الحماية العسكرية ، وهكذا تظل الدول الأوروبية الإدارية تثير كتلة متجمعة من الرأي المدائى في تلك البلاد الذي قد يصيح بقوة الاتحاد قوة خطيرة ، فالأفضل والحالة هذه الاعتماد على عقل سكان البلاد وعلى عهد صداقة يقوم على قاعدة التعاون التجاري والكسب المتبادل .

والسبب الأول يمكن دراه باتفاق متبادل يقدر بين انكلترا وفرنسا للانسحاب في وقت واحد من سورية وفلسطين وشرق الأردن ، ولكن فرنسا تقول : « محال على أن لا أحمى الأقلية المسيحية » ولكننا نرى اليوم أن هذه الأقلية المسيحية هي أيضاً تطلب جلاء فرنسا عن البلاد ، وتقول انكلترا : « إن ذلك مستحيل لا يمكننا أن ننسحب ونمنع الاسرائيليين تحت رحمة العرب » ومع هذا فإن اليهود والعرب كانوا في عهد تركيا عائلتين معا في وفاق تام ، إن تصريح بلقور هو سبب الاضطراب الحالى بين العرب واليهود ، إن تأسيس هذا الوطن القومى لليهود لم يلق تضيداً حقيقياً من زعماء اليهود ، قد أهدوا الفكرة عن غير طيبة خاطر مالياً وأديباً ولم يوافقوا قط على فكرة مفادرة محل إقامتهم للاقامة بذلك الوطن القومى ، وقد كان معظم المهاجرين من اليهود القاطنين في شرق أوروبا الذين ذاقوا اللد والمهوان ، وعانوا اللس الكير من الاضطهاد والنيل . وقد برهنت الأيام على أن الصهيونية صناعة خائبة عقيمة وجنابة سياسية . فالصهيونيون المقيمون

الآن فلسطين قد وجدوا هناك معاصي انكسرتا وجهودها ولا بد من الاعتراف بهم وحمائهم ومساعدتهم
 ثم يجب الوصول إلى اتفاق متبادل بين فرنسا وانكسرتا تحققان فيه على سحب كل شيء فيه شبهة العسكرية
 من سورية وفلسطين وشرق الأردن وأن يقدموا للبلاد خبراء لتنمية فن الادارة الحكومية والفنون والصناعات
 عندنا يطلب منهم العرب ذلك بأنفسهم . والحامية البريطانية التي تسحب من مصر وفلسطين يمكن أن تمسك
 لمدة ١٥ سنة في جواربورت فزاد جهد استئذان الحكومة المصرية فتكون منها قوة مركزية متأهبة في أية
 لحظة للدفاع عن مصالح بريطانيا العظمى في شرقي البحر الأبيض المتوسط وللتعاون مع الحكومة المصرية على حماية
 القناة ودرء الاعتداء على حرية الشعب المصري . ولتكن قضا يقضى نقل هذا الاقتراح إلى حيز التنفيذ يجب
 على العرب أن يرضوا أيديهم للعمل ويقدموا برهانا حاسما على استطاعتهم إيجاد مشروع ابتكاري يقضى به
 ملائمة حدوث التوضي عندما تنسحب القوات البريطانية والفرنساوية من البلاد . فلي نواب العرب أن يقدموا
 مشروعا يبينون به ما يلي :

- (١) أنهم أهل لإدارة شؤون بلادهم بأنفسهم وأن الانتداب صار غير لازم .
- (٢) إن جميع المشروعات التجارية مثل سكك حديد بغداد وحيفا ومناجع البترول في الموصل والحمره
 تقدم لها التسهيلات اللازمة لترقيتها وإتمامها ، وأن يسمح للشروعات الأوروبية بالاشتراك مع
 المشروعات العربية أن ترقى مؤهلات البلاد التجارية والصناعية تحت شروط عادلة مرضية للجميع ؛
- (٣) أن تستطيع الحكومات العربية تقديم الضمان الوافي لتأمين معاملة الأقليات المسيحية في سورية
 والأقلية اليهودية في فلسطين وتنفيذه ، وأن تمنح الوطن القومي اليهودي قسما معينا من الحكم
 الذاتي ، وهذا الوطن القومي يجب أن يكون مثالا مضمرا لمركز رومى تنمى فقط .
- (٤) أن يستطيع زعماء نواب العرب أن يقدموا برهانا حاسما على موافقتهم على إنشاء إيجاد
 دول عربية تحت سيطرة ابن السعود إذ كان ذلك ممكنا . وبهذا تم الكلام على
 المقال الأول .

المقال الثاني

يعتقد معظم الناس أن العرب يجزون عن إظهار مقدراتهم بتقديم خطة إنشائية ، أما أنا فأعتقد أنهم
 قادرون ليس بناء على تاريخ عنصرهم للماضي فقط بل لما يحرزه أبناء العرب للهجرة من التجار الباهر
 في المراكز الصناعية والتجارية المصرية في بونس أيرس ونيويورك وغيرها من أنحاء العالم المتمدين ، وليس
 من الضروري الرجوع بالقارىء إلى الحكومات العربية السديدة بالخطوات في اليهود القابرة ، وحسب أن
 أقول إنه في القرن الثامن بعد الميلاد في عهد الخلفاء الراشدين بغداد كان في وسع التاجر للتجول أن يسافر
 من البصرة إلى دمشق متفلا بالسلع خير أن يتدى عليه أحد . وفي عام ١٠٠٠ ميلادية ، كان للسافر يتقطع
 الثقة بين للهدية والقاهرة بلا خوف ولا وجل من قطاع الطرق ، فلذا كان العرب قد استطاعوا في تلك
 الأيام تأمين الطرق بهذه الكيفية ، فمن الأكيد المحقق أنهم قادرون على ذلك في هذه الأيام ، ولا بد لنا
 من التسليم أنهم يحرزون هذه القدرة بالارث ، ولكن على يحرزون الإرادة والعزيمة على إظهار هذه
 القدرة ؟ إن على العرب أن يبرهنوا على ذلك الآن ، ولا يكفي أنهم شديد والرغبة في طرد الظلم من بلادهم ،
 فهذا لا يصبو سياسة المنعم ، ولكن يجب عليهم أن يظهرُوا مقدراتهم على التسير والإنشاد . أظننا يصلح

بالمخاوف التي قد تطرق إلى قلوب الانكليز بأن الأقليات المسيحية واليهودية لا تطبق الأغلبية الإسلامية فلا بد من قول شيء في ذلك .

إن الأقليات المسيحية واليهودية كانت تعامل على السواء خير معاملة في البلدان الإسلامية إلى أن تأتي قوة أوروبية وتستخدم تلك الأقليات لقب الحيلة كما حدث في مسألة الأرمن والآراك ، ثم إنه في الأنحاء البعيدة للنزعة عن العالم الإسلامي قد لا يغفلوا الأمر من تصب ضد المذاهب الأخرى ، ولكن هذا كان كذلك بين مختلف الطوائف المسيحية . على أن زعماء العرب في هذا العصر وفي العصور السابقة كانوا دائماً يملكون على تلافى هذا التنافر وإصلاح ذات البين ، فإذا كان التصب الديني قد أخذ مجراه في زمن من الأزمنة فقد كان المسلمون من غير مذهب الحاكم يتألم من الاضطهاد ما يتألم المسيحيين ، ومن الواجب أن تتخلصوا من حرج كمثل الأعلى للزعيم المسلم ، وكلمة الإمام على رضي الله عنه : « إن دم القدي كدم المسلم » هي أيضاً خير مثال .

واليوم ترى الموازنة في لبنان وللسيحيين العرب في فلسطين ومصر والشام وفلسطين والعراق قد أخذوا يبرهنون عن التوافق في المذاهب والمقائد ويحتجون إلى التل الأعلى وللذهب المسمي وهو أتا جميعاً إخوان في الإنسانية ، وأول خطوة في هذا السبيل هي السعي إلى توحيد بلاد العرب ، وقد أخذ أبناء العرب المثقفون المتورون في هذه الأيام يتطلعون إلى هذه الغاية ويبشرون الدعوة إليها في عدة أنحاء ، وزعماء العرب أدركوا معنى المنهج الذي يجب أن يتجهوا للحصول على الوحدة العربية وللتنخلص من وصاية الأجنبي والتقدم الحثيث في التعاون مع خير الطبقات الأوروبية ، وإني أقترح ما يلي على سبيل التجربة :

- (أولاً) المبادرة إلى عقد مؤتمر في القاهرة يدعى إليه مندوبون من جميع البلدان العربية .
- (ثانياً) ينتخب هذا المؤتمر مجلساً دائماً يكون مقره في القاهرة أو جدة أو الشام « ولما كانت القاهرة مركزاً حسناً تتوفر فيها أسباب المواصلات مع جميع بقاع الأرض العربية قد تكون لائحة لأن تصبح بمثابة جنيف للعرب » .
- (ثالثاً) على هذا المجلس الدائم أن يظل على اتصال وثيق بالبلدان العربية وأن يعمل على عقد مؤتمر كل سنة أو سنتين .
- (رابعاً) على هذا المؤتمر السنوي أن يتخذ الإجراءات اللازمة لإيجاد اتحاد عربي وأن ينتخب زعماءه ويتفق على زعيمه الأكبر .
- (خامساً) تكون مهمته توحيد الأمة العربية بيت دعوة مبنية على النظنة والحصافة .
- (سادساً) يجب وضع خطة للتنظيم يمكن كل دولة في خلال الخمس عشرة سنة المقبلة من الحصول على سيل مطرد من الشبان المتدربين على فن الإدارة الحكومية والعلوم والفنون والشئون الصحية وما إلى ذلك .

فإذا استطاع العرب أن يصلوا إلى هذا التوحيد فيحتمل أن تتمكن انكلترا من رفع حمايتها عن جميع البلدان العربية عدا عدن ، وأن تقود مهادنة وصداقة ومخالفة بين سلطات الأنحاء العربي والأمبراطورية البريطانية ، وإني أعتقد أن حلاً كهذا يكون ضامناً أفضل لسلامة المواصلات الأمبراطورية وتوطيد أركان القوة في هذه البلدان من الشرق الأوسط وتوجيهها لتخلص الأمبراطورية البريطانية من إغراق عدة ملايين من الجنحيات كل عام .

ويطلب على ظني أن العرب يجب أن لا يتصوروا وهم لا يتصورون أنه يتسنى لهم الوصول إلى هذه القبة
بغير مساعدة من الغرب ، ويجب أن لا يعزب عن بال انكترا وفرنسا أن أمة تحت التدريب والتطعيم لا يمكن
أن تخرج المسئولية اللازمة إلا بالممارسة والاختبار ، وبهما دون سواهما تتم هذه الأمة اجتناب الأخطار
والوصول إلى مستوى مرض من الحكم الذاتي ، وزعامة الدعوة إلى الوحدة العربية يجب أن تخرج من
دمشق ، وربما قبل مضي وقت طويل يعود العالم العربي إلى ازدهاره ونباهته ، ويدهش العالم بشافته وعلمه
كما كان في سالف الأعقاب .

وما هو تأثير هذا كله في انكترا فيما يتعلق بالأمبراطورية البريطانية ؟ الجواب عن ذلك من الوجهة
السياسية أنه يوجد القوة العسكرية في مركز واحد ويقتل من ثيمة التورط ويؤدي إلى اقتصاد المال ، ومن
الوجهة الإيجابية الابتكارية يضم جميع العنصر العربي إلى دائرة الصداقة الحالصة ، ويوجد زبائن أقوى
أغنياء بالتقدم في المعيشة العصرية وبالتعاون التجاري الوثيق مع الغرب ، وحيث كان زبون واحد في الماضي
يقوم اثنا عشر زبونا جديدا محله

إن مشروعا كهذا يتطلب وقتا للنضوج ، ولكن الوقت لا يجدي ولا يضي فتيلا إذا كان زعماء العرب
في هذا العصر لا يعدون التربة ويمهدونها بسداد العقل والقفنة وينثرون فيها بذور الاتحاد والوثام والإنعاش
هذا المشروع وإبلاغه طور الازدهار والإيناع يجب أيضا أن تنقي أرضه من الأعشاب البرية ، وأن يروي
ويسقي ليس بمساعي زعماء العرب الشجعان فحسب ، بل بمساعي الأوربيين أيضا ولا سيما الرجال الإنكليز
ذوي البصيرة النيرة والنية الحسنة .

ولكي ينتج هذا المشروع خير النتائج من الضروري الحصول على تضيد انكترا ومعاونتها ، فلحرب
أن يقتبسوا العلوم عن الألمان والنضون عن الفرنسيين ، ولكن العلوم السياسية وفن معاملة المذاهب
المختلفة ، وتحمل الفوارق الدينية ، وواجبات الشرف والزاهة يجب أن يتطوفا من انكترا ومن الرجال
الإنكليز ، وقد يطول العمر على ثقافة انكترا وتبقى مكرمة محترمة مرغوبا فيها خلال أجيال كثيرة مقبلة
ويكون مثلها مثل ثقافة الرومان والعرب في هذا العصر .

وأختم مقالتي هذا بكلمات أوناموتو : « إني أقصد الحث وإذكاء وطيس الحماسة والاقتراع لا الإرشاد
والتعليم » وإلى هنا تم الكلام على المقالين للسكاتب التزيه غوردون كاتنج :

الفصل الرابع

في تأكيد الفصل الثالث وذلك بمقالين

المقال الأول

التنافس الدولي ونصيب العرب منه

جاء في إحدى جرائدنا المصرية في يوم الأربعاء ١٤ جمادى الثانية سنة ١٣٤٩ هجرية ما يأتي :
إن القاعدة التي بنيت عليها مدينة القرن العشرين « الحق للقوة » وعلى هذا الأساس أصبح التنافس
عظما بين الدول العظمى في بناء الأساطيل ، وتدريب الجيوش ، والتضخ في ابتكار الآلات المهندسية القاتلة

حياسة السيادة والتفرد بالتفوذ في هذا العالم مما أدى إلى نشوب الحرب العظمى التي كان من نتائجها انهيار
الإمبراطورية الألمانية وسقوط أكبر دولة جبرية على وجه الأرض .

إذا كانت الضمان موجودة في الأفق عند انتصار أحدهم على الآخر ومنه من نيل ما يبتغيه والاستمرار
به دون رفقة ، فأحرى بها أن تكون عند الدول الكبيرة وهكذا فإن ألمانيا التي كانت تطمح لفتح العالم
أصبحت اليوم لا حول لها ولا طول ، لا ترى بين الرضا ما يتمتع به دول الحلفاء من ثمرات الانتصار وتفردم
بالاستيلاء على بلاد العرب ، وإذا كانت عاجزة عن إثارة حرب ثانية تقضي بها على ما يتمتع به غرماؤها ، فلا
تهدم غيرها من الوسائل خصوصا وهي تلك الدولة التي دفعت سفينة العالم في اليم وجعلتها نائمة بين أمواجه
للنلاطمة مدة أربع سنوات حتى رست على الشاطئ ، وهي عظيمة .

إن الشعب العربي يقطن أقطارا شاسعة ، وأغلبها واقع على شاطئ البحر الأبيض المتوسط من خليج
الإسكندرونة إلى مضيق جبل طارق ، وهذا الشعب خاضع جميعه لتفوذ وسيطرة ثلاث دول كبيرة (الحلفاء)
الأولى بريطانيا العظمى ولها الشطر الأهم كصومال السودان وجزء من سوريا الجنوبية والفرانج وأغلب شواحل
الجزيرة العربية ، والثانية فرنسا وفي يدها سوريا وإقليم المغرب أو إفريقيا الشمالية كتونس والجزائر ومراكش
والثالثة إيطاليا وهي مستولية على طرابلس الغرب .

فمن هذا ترى أن بلاد العرب محصورة في يد هذه الدول الثلاث التي لم تزل تسمى وتجهد لتفكيك عرى
هذا الشعب وبث روح التنافس فيه بمختلف الوسائل ، فهذا مصرى وذلك سورى ، وهؤلاء عراقيون ، وأولئك
مغاربة ، وبث عموم فكرة اللغات العامية والسعى للتشويق إلى الدول عن اللغة المنصحي التي هي الرباط
الوحيد الذي يربط سبعين مليونا من العرب .

ولما كان لهذه الدول من بنافسها في السيادة ولا يروق له أن تتحكم في هذه الشعوب جعل بنافسها العدا
بمختلف الوسائل التي تقضي على تفوذها وسلطتها من حيث لا تشعر .

إن التنافس بين انكلترا وروسيا هو سبب بقاء الأستانة بيد الترك أو بقاء الدولة العثمانية إلى زمن الحرب
العظمى وكذلك بقاء الدولة الإيرانية : وهاتين الآن للمرة الثانية ترى التنافس بين ألمانيا ودول الحلفاء
سبب كون مينا لإيجاد شيء من لاشيء وخلق كيان من العدم .

إن الشعب العربي الذي قرر للفكرين بأنه صائر إلى الانقراض بدأ يتحرك ويحس بوجوده في هذا
العالم بعد تلك النية الطويلة ، وما هذا إلا بفضل ذلك الطبيب النطاسي الحاذق الذي أخذ على عاتقه إحياء
هذا المريض ليحرم أعداءه من ترائه .

إن الاجتماع العربي الكبير في (برلين) تحت إشراف لجنة الدفاع عن المغرب العربي وحضور مندوبين
من جميع الأقطار العربية للاحتجاج على مرور مائة عام على احتلال فرنسا للجزائر أول قطر عربي احتله
الأجنبي وإلقاء الخطب النارية التي ترمى جميعها إلى وحدة العرب الكبرى ما هو إلا أثر من آثار التنافس
الدولي بين ألمانيا والحلفاء .

وهكذا سوف ترى أن هذه التنافسة الخطيرة ستفضي إلى خلق دولة (الاتحاد العربي العام) ومن يحش
ره ، أو كما قال شاعر العرب القديم :

بيديك الأيام ما كنت جاهلا وبأنيك بالأخبار من لم تزود

وبأنيك بالأخبار من لم تبيح له بيتا ولم تضرب له وقت موعد

(البصرة - العراق)

أبو الوليد

المقال الثاني

جاء في جريدة الأهرام يوم الجمعة ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٢٩ م ما يأتي :

في المجمع النسائي العربي

قرر المجمع النسائي العربي في بيروت وكذلك فروعه في البلدان العربية في الجلسة القانونية المنعقدة في أول نوفمبر سنة ١٩٢٩ م بعد الوقوف على آراء الأكثرية الساحقة من مفكرات وجمعيات الأقطار كافة المسائل التالية :

(أولاً) للبادرة إلى عقد المؤتمر الشرقي العربي الأول في مدينة دمشق قلب العرب النابض في أواخر الربيع القادم لتعود المرأة العربية إلى ازدهارها ومناعتها ، ويدهش بثقافتها وعلمها كما كان في سالف الأحقاب ، وتنضم جميع العناصر النسائية إلى دائرة الصداقة الحالصة .

(ثانياً) ينتخب لهذا المؤتمر مجلس أعلى من مفكرات هذه الأقطار ويكون له مركزان رئيسيان في دمشق والقاهرة .

(ثالثاً) على هذا المجلس الدائم أن يظل على اتصال وثيق بالبلدان العربية وأن يعمل على عقد مؤتمر في كل سنة مناوبة في أقطار الشرق العربي .

(رابعاً) على هذا المؤتمر السنوي أن يتخذ الإجراءات اللازمة لإيجاد اتحاد نسائي شرقي عربي تكون مهمته توحيد الأمة العربية بيث دعوة مبنية على الفطنة والحصافة .

(خامساً) أن يكون هذا البيان كإعلان رسمي لجمعيات وأفراد المفكرات في الأقطار الآتي ذكرها وهي : مصر ، تونس ، طرابلس ، الجزائر ، برقة ، مراکش ، السودان ، جنوبي أفريقيا ، فلسطين ، شرق الأردن ، العراق ، الحجاز ، اليمن ، نجد ، حوران ، بلاد العلويين ، سوريا ، لبنان . وبصورة خصوصية يطلب المجمع آراء أخواتنا في المهجر ليشتركن معناروجياً .

(سادساً) أن المسائل الخمس الرئيسية التي ذكرت في برنامج المؤتمر وأضيفت إليها مسألة رعاية الطفل باقتراح النابذة (هـ) سيتفرع منها مواد شتى .

(سابعاً) أن هذا المؤتمر العام لا يزال المؤتمرات المحلية بل يحترمها ويؤيد مقرراتها. انتهى المقال الثاني

الفصل الخامس

في أن الوطن اليهودي في فلسطين مما قرر ارتخاع ذكر الأمم العربية

جاء في إحدى المجلات العلمية وهي « السياسة الأسبوعية » في يوم السبت ٩ أغسطس سنة ١٩٣٠ تحت

العنوان الآتي ما نصه :

حديث للأستاذ محمد علي باشا

عن رحلته في فلسطين ودفاعه عن البراق ورأيه في الرابطة العربية

عاد الأستاذ الكبير محمد علي باشا من الديار الفلسطينية بعد أن قضى في بيت المقدس زهاء عشرين يوماً أبل فيها أحسن البلاء في الدفاع عن حقوق المسلمين والعرب في البراق الشريف أمام لجنة التحقيق الدولية وكان لدفاعه المجد أثر خالد في الأوساط السياسية العربية وضجة عنيفة في الدوائر الصهيونية ، وقد رأى أحرار الجالية السورية بمصر أن يخفوا زيارته ويهتفوا بسلامة الأوبة ويشكروهم على ما عملته من الشاق ، وما قام به من جلائل الأعمال في تأييد حقوق العرب وتشجيع مزاعم الصهيونية ، فتألف وفد من هيئة إدارة جمعية الدفاع عن فلسطين وأعضاء حزب الشعب السوري برئاسة الأستاذ الزعيم الدكتور شهنشدر وزاروا الأستاذ محمد علي باشا في منزله للاقيام بواجب التهئة والشكر ، وقد رأى كاتب هذه السطور أن يتنم هذه الساحة فطرح على الباشا أسئلة عدة حول البراق والمسألة الفلسطينية والرابطة العربية ففضل معاليه وأجاب عليها بما يلي :

(س) لقد رفضتم رأس مصر والشرق طاليا بما ناضتم به عن حقوق العرب وتفنيده المزاعم اليهودية الصهيونية في قضية البراق الشريف (جدار البكي) فهل لكم أن تنفضوا بتلخيص الأسس التي بنيت عليها دفاعكم المجد ؟

(ج) حينما اتصل بي نبأ إعمار اللجنة الدولية إلى فلسطين للتحقيق في قضية البراق والنظر في شكاوى الفريقين المتنازعين والحجج التي يتذرع كل منهما بها ، تحركت في نفسي عاطفة القيرة على هذا المكان المقدس الذي تتجه نحوه أنظار ثلاثمائة مليون مسلم ونيف في جميع أقطار العالم ، ورأيت أن الواجب الديني والقومي يقضي على بأن أقبل دعوة إخواني الفلسطينيين ، وأقوم بقسطي في الدفاع عن ذلك الجدار الشريف ، فبرغم الأزمة الوزارية التي قامت في مصر ، وبرغم ما كنت أشعر به من الانحراف في صحق لبيت نداء الواجب ووليت وجهي شطر بيت المقدس ، وبعد أن تعرفت هناك إلى أحرار البلاد ودرست الموضوع من جميع أطرافه رأيت بالاتفاق مع سعادة الأستاذ أحمد زكي باشا ، وهيئة الدفاع أن تقسم أعمالنا إلى ثلاثة أقسام :

(١) القسم التاريخي : ويتولى القيام به الأستاذ أحمد زكي باشا .

(٢) قسم التحقيق ومناقشة الشهود : ويتولاه الأستاذ عون بك عبد الهادي .

(٣) القسم القانوني والسياسي : وقد عهد إلى بالقيام به .

وسار التحقيق سيره المألوم ، وأدلى كل من الفريقين بحججه وبراهينه ، وبسط الأستاذ أحمد زكي باشا موضع النزاع من الوجهة التاريخية الثابتة والوثائق القطعية التي لا ترد مؤيدا بها حقوق المسلمين ، ومن ثم جاء دوري فرأيت أن أستهل دفاعي بإبداء الاحتياطين الآتين :

(الأول) إن الأمة الفلسطينية أعلنت رسميا وفي كل الظروف عدم اعترافها بالانتداب البريطاني وهي لذلك لا تريد أن تنقيد بأي نظام مستمد من هذا الانتداب ولا الإقرار بأية نتيجة ترجع إلى ما يسمى بوطن قومي لليهود ، فدفاعي في هذا النزاع لا يغير شيئا مما احتفظت به فلسطين لنفسها لأنها هي وحدها صاحبة الحق في تقريره .

(الثاني) يقرر المسلمون أن النزاع على ملكية أما كن العبادة أو على حقوق مدعى بها على هذه الأماكن يجب أن ترفع إلى الهيئة المختصة دون غيرها بالتفصل في أمر الوقف والأما كن المقدسة الإسلامية وما عداها فهو غير مختص أصلاً لعدم وجود حق له في ولاية الحكم على هذه الأماكن .

ثم دخلت بعد ذلك في الموضوع من الوجهة السياسية وكشفت القناع عن حقيقة هذا النزاع وأسبابه الصحيحة ، وبسطت ما لقيه اليهود من العنت والإرهاق في أكثر بقاع الأرض وأنهم لم يجدوا ملاذاً يفرعون إليه إلا البلاد الإسلامية والعربية لما كانت يظهر أهلها من التسامح والرعاية نحوهم وأمطت اللثام عن اللطامع الصهيونية في السعي للاستيلاء على المسجد الأقصى وعلى قبة الصخرة وجعل مكانهما هيكلًا لليهود ، وسردت طائفة كبيرة من الأدلة تؤكد نياتهم وهي مستمدة من كتبهم وتصريحات مفكرهم وزعمائهم ، ثم ألمت إلى الخطر المقبل فيما إذا أصر اليهود على التمسك بمزاعمهم فتكون النتيجة أن هذه الصهيونية ستحمل العرب والمسلمين كافة على أن يعتقدوا الانتحار (مطاردة اليهود) ولو تحت ستار (الانيسونينغ) مطاردة الصهيونية فيتلطخ تاريخ الإنسانية مرة أخرى بمثل تلك المآسي التي وقعت في أوروبا من قبل ، ولكن بطريقة أشد وأتسى ، ثم تسكمت عن الجدار والرصيف في نظر المسلمين وأسباب تقديسهم إياها وماورد بشأنها من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية . ثم قارنت بين ذلك وبين أسباب قدسية الجدار عند اليهود . وخصمت دفاعي بالبحث من الوجهة الشرعية ، وتطرق إلى ذكر الوقائع والتطبيق القانوني .

(س) هل تعتقدون أن لجنة التحقيق تراعى في وضع قرارها تلك الاعتبارات الخطيرة التي وردت في دفاعكم ؟

(ج) لا تستطيع الجزم الآن في كيفية القرار الذي تصدره لجنة التحقيق الدولية في هذا الموضوع ، ومهما كان شأن هذا القرار فنحن غير مقدين به بوجه من الوجوه كما مهدت في دفاعي أمام اللجنة لأن هذا الجدار لا يخص فلسطين وحدها بل هو ملك لثلاثمائة مليون مسلم منتشرين في أنحاء المعمورة ، ولا بد من القول أننا نشأ أن نكتفي بإبراز وثقتنا وأدلتنا أمام اللجنة ، بل قدمنا لها البراهين العملية المحسوسة التي لا تدفع والتي تنذر بشرويل فيما إذا فكر أحد بالاعتداء على الأماكن الإسلامية المقدسة ، وذلك بأن دعونا أعضاء اللجنة إلى زيارة بعض الكنائس المسيحية مثل كنيسة القيامة وبيت لحم وغيرها ، وشاهدوا بأعينهم نتيجة الخلاف بين الطوائف المسيحية نفسها التي سالت من أجل الدماء ، فكيف يكون بالإمكان والحالة هذه التوفيق بين عنصرين متافرين قد تأصلت بينهما الحسومة الدينية والسياسية وحملهما على الاجتماع للعبادة حول جدار واحد .

إن وضعية الستانيسكو القائمة بين الطوائف المسيحية كانت من أقوى الحجج التي تدعم نظرية المسلمين وتدعو أعضاء اللجنة إلى التفكير العميق في هذا الموضوع الديني السياسي الخطير قبل أن يرموا قراراً بصدده وقد علمت أن أحد أعضاء اللجنة صرح لأحد رجال العرب قبل سفره : « إن القضية خطيرة جداً أكثر مما كنا تصور » .

(س) ما هو الأثر الذي تركته في نفس معاليكم زيارتكم إلى القطر الفلسطيني ؟

(ج) لقد لفت نظري أثناء وجودي في فلسطين تعنتان : الأولى ملأت نفسي غبطة وجورا ، والأخرى ملأها كآبة وأسى . لقد أبهجتني منظر تلك الوحدة الجلية التي تضم رجال النصر الكريم مسلمين ومسيحيين وتلك الوجوه للتلافة بماطمة الإخلاص والنفوس الممتلئة بروح المحبة والنشاط وانصراف القوم جميعهم إلى

الدفاع عن حقوقهم المقدسة والوقوف كتلة واحدة في وجه العدو الناصب والصهيوني الدخيل . والذي أحزنى أن أرى تلك التربة الطيبة والأرض المحببة التي تمد من أحصب بقاع العالم قد أخذت تنساب من أيدي العرب شيئا فشيئا وتنتقل إلى يد الصهيونيين الذين تشد أزرهم الأموال الأجنبية الطائلة وتردم للمساعدات الكبرى من سائر أغنياء اليهود في العالم . أما العرب فمع خصب أراضيهم وجودة تربتهم لا يستطيعون أن يستثمروا تلك الكنوز الدفينة بسبب فقرهم وسوء أحوالهم الاقتصادية وشدة احتياجهم إلى اللواد الأساسية للاستفادة من أراضيهم كما يجب .

وفي اعتقادي أن السبيل الوحيد لاتخاذ فلسطين من برائن الصهيونية وتقوية عزائم العرب في هذا القطر الشقيق وإنهاض هذه البلاد من الوجهة الاقتصادية والاجتماعية هو أن يتضافر أغنياء الشرق عموما ، ومصر خصوصا على استملاك الأرض في تلك الأصقاع ، وقد علمت بعد البحث الوافي والاستقراء الدقيق أن ثمن دونه الأرض في فلسطين ، وهو يعادل ربع فدان مصرى يتراوح بين جنينين وعشرة جنينيات ، ويمطى موردا في العام تبلغ نسبته بسهولة إلى ٢٠ في المئة ، وهذه عملية ناجحة ، وصفقة رابحة كارتون .

وأنا سأواصل جهودي في هذا الموضوع ، وأدعو من أتوسم فيهم الخير من متمولى مصر إلى الاشتراك في هذا العمل الاقتصادى المضمون وتضيد هذه الفكرة الرشيدة .

(س) ماهى أقوى الوسائل التي تقترحونها معاليكم لتعزيز الروابط بين الأقطار العربية الشقيقة ؟
(ج) إن التعاون على تحقيق للشروع الآنف الذكر وإخراجه إلى حيز الوجود مما يقوى الأواصر بين هذه الأقطار الشقيقة ، لا جرم أن المشاريع الاقتصادية والممرانية يجب أن تتقدم على كل مشروع سواها لأنها دعامة الاستقلال وأساسه .

وهناك مسألة أخرى يجب أن يكون لها الاعتبار الأول في هذا القطار ، وهو أن نسمى سبعا شيئا لانتراع الفكرة الفرعونية من مصر لأنها فكرة عقيمة لا يمكن تحقيقها ، ومن الصلحة الأدبية والمادية لمصر (كما نوه الدكتور رشهيندر في إحدى خطبه) أن نهجر عبادة الأوجار اليتة وتستطف القلوب الحية في الشرق العربي التي جعلت قبلها مصر لتتال الزنامة الحقة التي هي جذيرة بها ، وما دامت شروط الزعامة متوافرة فيها بالنظر لما لها من الموقع الطبيعي والمكانة التاريخية والمقام الاجتماعى والاقتصادى والسياسى فجدربها أن تسير في طلبعة الأمم العربية وتحمل لواء ثقافتها وتسمى إلى توثيق الروابط مع هذه الأمم الشقيقة .

ولا أكنم عنكم أننا الآن منحدرون في انحدار خطر مجهول المواقب بسبب اختلاف اللهجات بين الأمم الناطقة بالضاد ، وأخشى كثيرا إذا استمرت هذه الحالة أن يؤدي ذلك في النتيجة إلى إجماد لغات جديدة كما وقع في اللغات اللاتينية ، وهذا من أفسى مطامع المستعمرين الذين يعملون جهدهم لإفساد لغتنا ، وتقطيع أوصالها والامتعاضة عنها بلغات دخيلة كما هو الحال في بلاد الجزائر حيث تشجع هناك اللغة البربرية وتعلم تلميها مدرسيا لإحلالها محل لغة العربية .

وعبنا نحاول الأمم العربية أن تتبوأ مكانها بين الأمم المتمدنية وتعال ما تصبو إليه من حياة استقلالية هنيئة مالم تعمل باديء ذي بدى على تكوين ثقافة خاصة لها وتحفظ بهذه الثقافة كبريات تاريخى خالد وأنامازلت أطلق أكبر الآمال على الأزهر الشريف ، فهو باعتباره أكبر معهد دينى عربى في العالم الإسلامى قوة لا يستهان بها ، فلذا أمكن إصلاحه وتنظيم شئونه عاد بالقواعد الجلية على مصر والبلاد العربية جمعا .

وأرى أن يتكاتف العرب جميعا لوضع مسج عام باللغة العربية على شاكله القواميس الإنكليزية والترنسية الكبرى لتوحيد المصطلحات العملية والفنية وغيرها .

(س) مارأيكم في عقد مؤتمر عربي للبحث في هذه الشؤون ؟

(ج) أنا لا أعتقد نجاح فكرة المؤتمر في الوقت الحاضر ، وإنما أستصوب تأليف لجنة عامة من كبار مفكرى مصر والشرق تأخذ على عاتقها النظر في إتهامى البلاد العربية وترقية شئونها الاجتماعية والاقتصادى واتخاذ الوسائل المؤدية إلى إجماد روابط مالية وأدبية بين هذه الأنظار وتوطيد دعائم الألفة والاتصال بينها وإزالة جميع ما يقام بين هذه الأنظار من الحوائل والقوارى التى يمكن التغلب عليها .
فإذا وقفنا إلى تأليف مثل هذه اللجنة وسعينا لأن تكون متجردة من جميع النزعات الحزبية والصبغيات السياسية ونالت عطف أرباب التراء فى الشرق وتأييدهم المالى أمكننا حينئذ أن نخطو خطوات واسعة نحو الهدف الأسمى .

إن الأمم التى تظلم وتسلب حريتها لا بد أن تستعيد هذه الحرية إن كانت جديرة بها ، فنحن كأمة عربية كبيرة يجب أن نسمى لاستبكمال الخصائص والمزايا التى تؤهلنا لنيل الحرية والسعادة والاستقلال انتهى ما أردته من المجلة المذكورة .

وهذا الحديث يدل دلالة واضحة كيف اجتمعت أمم العرب بل أمم الإسلام لهذه القضية ، وهذا كاف لما قصدناه فى الفصل الخامس .

الفصل السادس

فى ذكر أمر عظيم إسلامى فى أيامنا هذه

وهو دفن قعيد الإسلام محمد على فلسطين وهذا حادث يبر نظيره فى التاريخ

٢٠٠ ألف بشيخون الجنائزة و ١٠٠ ألف يشهدون الصلاة

حفلة التأيين فى المسجد الأقصى

جاء فى جريدة الأهرام يوم السبت ٢٤ يناير سنة ١٩٣١ م ما نصه .

خرجت البلاد الفلسطينية الواقعة على خط السكة الحديدية من القنطرة إلى القدس لتحية وفات الفقيد الكبير مولانا محمد على وتعزية شقيقه مولانا شوكت على ونجمله مولاي زايد على وحرم الفقيد الكرم فكانت كل بلدة تقابل القطار بالتهليل والتكبير قبيل انبثاق الفجر بساعات برغم شدة البرد وكان مولانا شوكت على يشكر لهم تكبدهم هذه المشاق ويحي عواطفهم النبيلة ، وفى منتصف الساعة السابعة صباحا ، وصل القطار إلى البلد التى كانت محطتها خاصة بالمجاهير من سائر الأنحاء ، واصطف طلبة وطالبات المدارس ورجال الجمعيات بأعلامهم وشاراتهم وكلهم مكبرون مهللون وكذلك فى الزمعة وفى سائر المحطات حتى وصل القطار إلى القدس التى احتشد فى محطتها ألوف من المشيخة بينهم قناصل الدول الأوربية ورؤساء الدين المسيحى ، وبالرغم من شدة الزحام ابتداء الموكب مسيره فى الساعة العاشرة صباحا ووصل إلى المسجد الأقصى فى منتصف الساعة الأولى بعد الظهر حيث أدى هؤلاء جميعا فريضة الجمعة فى حرم المسجد الأقصى الذى غص بالمصلين وبرغم اتساع جوانبه الفسيحة ضاق بهم ولم يسكن الكثيرون من أداء الفريضة داخل الساحة الصغرى فأدوها فى الشوارع المجاورة للحرم ، وبعد انتهاء الصلاة وقفت الألوف لشهود حفلة التأيين التى لم يمكن

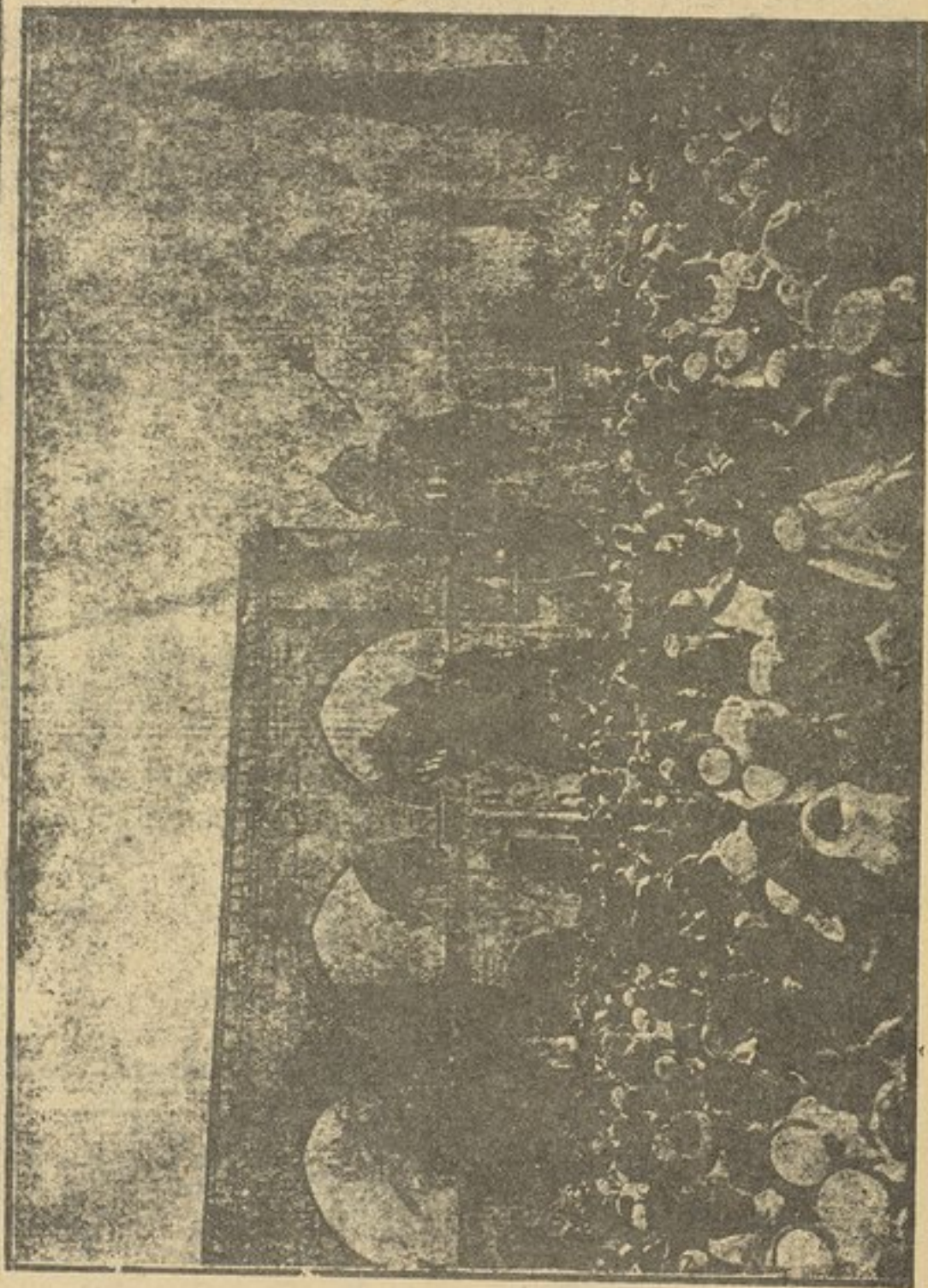
إسلامها في الحرم وضاعت بها ساحته الرحبة، وصعد رجال الوفود الإسلامية والمؤمنون على المنبر الآري المصنوع في عهد المرحوم السلطان قايتباي سلطان مصر مدة حكمة في فلسطين وسوريا وابتدأ ساحة السيد محمد أمين الحسيني مفتي القدس بانتساح حفلة التأبين بكلمة قيمة أسالت العبرات أحرب فيها عن مبلغ الحسارة التي أصابت الشرق وعلى الخصوص الهند وفلسطين ، هذه النكبة السابعة التي انتزعت بطلا نادرا من أبطال الإسلام ، وقام بعنه الأستاذ الكبير السيد عبد العزيز الثعالبي نائبا عن شمال أفريقيا ، وعلى الخصوص عن وطنه تونس ، وهو أقدم المحاضرين عهدا بصداقة الفقيه ، وأخذ يتدفق في بلاغته تدفق السيل ، وأخيرا بكف فأكبر ، وواصل رثاءه فكان ينقل الجمهور من الحسرة المطلقة وآر النكبة السابعة إلى الأمل والرجاء بأن تكون هذه الفاجعة مبدأ عهد جديد للسلمين يقتدون فيه بالراحل الكريم في حياته الحافلة بالجهود والتضحيات العظيمة .

وقام خطباء مصريون وغيرهم ، ثم ابتدأت حفلة الدفن ، فسارت الألوف تلو الألوف إلى القبر الذي أعد للفقيه في خلف آل الخطيب الكرام بالمسجد الأقصى ، وجيء بالنعش وقد غطي بغطاء من القطن للنسوج في الهند أعده هنود بور سعيد وقوته غطاء من الحرير الأخضر للوشى بالتصب ، وقد نقشت عليه بعض آيات الكتاب الكريم صنع سيدات القدس الشريف ، وفوقهما قطعة أثرية من الكسوة الشريفة النبوية أهداها سمو الأمير محمد علي لتوضع فوق نعش الفقيه (انظر شكل ٨ وشكل ٩ في صفحة ٢١٥ ، ٢١٦) .

وقد صلى عليه داخل حجرة الدفن فضيلة شيخ المنود في القدس ومولانا شوكت علي ونجله زاهد علي وحرم الفقيه الكريم وفضيلة الأستاذ النضازاني ، ثم ووري التراب بين بكاء الباكين ودعاء الداعين .

وبالجمل قد شهدت فلسطين شهيداً في جنازته لم يشهده من قبل المعاصرون كثرة وإجلالا وعناية . وكان مولانا شوكت علي يجيب على تمزيات الوفود الإسلامية العديدة ببارات بلغة بالإنجليزية تترجم إلى العربية ، وقد قال أخيراً لأهل فلسطين : ولقد استودعناكم أعين ما نملك ، وذلك دليل قيم على جنابكم وإخلاصنا في قضيتكم ، واهتمامنا بأمركم ، نحن معاشر المنود للسلمين للدينين للعرب كافة بإسلامهم ومدنيتهم ، وكانت كلماته تقابل بما هي أهل له من الأثر الصالح في النفوس :





(شكل ٨ - مولانا شوکت علی واقفا علی المنبر وحوله عظماء الإسلام)



(شكل ٩ نقش الزعيم الكبير مولانا محمد علي محمود على الأكتاف . وخارجا للدفن بعد الصلاة عليه في المسجد الأقصى الذي ضاق على سعة بشرات الأتوف من الصليين فاضطروا إلى الصلاة في الشوارع المجاورة له)

بعد يوم محمد علي في فلسطين

قال مراسل الأهرام في يوم الأربعاء ٢٨ يناير سنة ١٩٣١ ما يأتي : « انقضى يوم مولانا محمد علي ولكن أحاديث الناس عن هذا اليوم لاتنقضي قبل وقت طويل ، فلم يزل الألسنة تلهج بعظمة هذا اليوم وما لاقاه جثمان الفقيد من الإجلال في الاستقبال والدفن . وقد هالني ما رأيت من كثرة الناس المتوافدين لزيارة الضريح وقراءة الفاتحة والترحم على الضيف الثاوي في هذا المكان ، ورأيت كثيراً من النساء البدويات فضلا عن السيدات والمعاقيل من أهل المدن يزرن محمد علي رافداً في ضريحه ، وبينما أنا خارج من هذا الجامع فإذا جماعة قادمون صوب الباب ، فيادرنى أحدهم سائلاً : هل هذا قبر مولانا محمد علي ؟ ثم دخلوا بكل لهفة ، وكذلك تردد الوفود الفلسطينية على مولانا شوكت لتقدم عزاءه له ، فيجب بأنه إن ينسى هذه الحفاوة الكبرى ، وأن ما شاهده من مشاطرة أهل هذه البلاد له في هذا الخطب العظيم يدل على أن الشعور بالوحدة الشرقية أشد مما كان يتصور ، وقد قال لأحد الوفود : « إن هذا اليوم يوم دفن أخى محمد علي في بيت القدس هو بالحقيقة فاتحة عهد جديد بين فلسطين والهند .

ويتردد على مولانا شوكت على مكاتب الصحف الأجنبية وبطلبون مقابلته ، ولكن الوقت إلى الآن لم يقسع له هذا ، وقد علمت أن المستر مارتين مكاتب الديبلي تلعرف قابل مولانا شوكت وأخذ منه حديثاً أعرب فيه مولانا شوكت عن الوقع الذي حصل في نفسه من ليلة ٢٣ يناير الحالى إلى ساعة للقبالة .

وقد علمت أن مولانا شوكت على قد أبقى إلى جمعية الخلافة في بمباى برقية مسهبة ضمنها صفوة الأخبار التي تصف نقل الفقيد من بور سعيد إلى القدس الشريف ودفنه بجوار المسجد الأقصى . وقد جاء في هذه البرقية العبارات التالية : وضع المش تجماء الصخرة إلى جهة الجنوب ، وفي الساعة الثانية حتى الرابعة بعد الظهر كان عظماء المؤمنين يقارون في تأيين محمد علي ، وبعد أن فرغوا وقفت وطلبت منهم باسم الاسلام وبحرمة الفقيد أن يقطعوا العهد على نفوسهم أن يكونوا من هذا اليوم عاملين لتسكيل العمل الذي بدأ فيه محمد علي وثابر عليه بكل توفيق من تجديده الحياة الإسلامية الشرقية .

وقال في هذه البرقية أيضاً ما نصه : إن جثمان أخى محمد علي كناية عن منحة مقرونة بروح التواضع تمنح إلى معشر العرب الذين لم يزل العالم مدينا لهم بأعمالهم التي قاموا بها فيما مضى من نشر العرفان والعلوم والدين والحضارة في جميع العالم .

ومن أقوال الأستاذ شوكت على أيضاً ما يأتي : « إن موت أخى في ميدان التضحية للحظة الأخيرة وقد كان مستغلاً بخدمة الوطن والاسلام اثر تأثيراً عظيماً في الإنكليز ، واللوت على مثل هذه الحالة المقرونة بالجهاد يؤثر أكثر من الجهاد في حالة الحياة ، ثم قال : إن موت شقيقى سيؤدى إلى حل مشاكل الهند ويوصل إلى تحقيق رغبات البلاد . وسئل هل ستطرح قرارات مؤتمر لندن على هيئة عامة في الهند؟ نعم سيصدق مؤتمر من مسلمي الهند بعد وصولي لسمعوا من اللندويين المسلمين في مؤتمر لندن كل ما حدث هناك لتقرر ما يرونه ملائماً للوقوف على رأيهم فيما يشيرون به ، ثم يعقد بعد ذلك مؤتمر عام من المسلمين والهندوس . هل أتم متفائلون ؟ نعم إنى متفائل ، وما يدل على ذلك أن المسلمين بحمد الله يد واحدة وقوة متحدة » .

ثم قال : « إنى مسرور لأن مؤتمر لندن أعطاني فرصة للتحقق من أن الإنكليز يعجبون رغبة أكيدة في انتهاج سياسة مبنية على حسن النظام وإصلاح ذات البين بينهم وبين الهند ومصر ، وإعطاء الشرقيين القسط الواجب من الاحترام » اهـ .

لما رسمت هذه الصور واطلع عليها صديق العالم . قال : إن لي اعتراضاً على رسم هذه الصور في التفسير إن عادتك جرت في هذا التفسير أن لا ترسم إلا ما يفيد فائدة طبيعية من صنع الخالق عز وجل . أما هنا فأراك خالفت عادتك . قلت : نعم ، ألا ترى رعاك الله أن هذه حادثة يعز نظيرها في التاريخ ، ألم ترى كيف أقدم الأستاذ شوكت على دفن أخيه في البلاد العربية المقدسة ، وهذا حادث لم أجد له نظيراً من قبل ، بل إنى لم أر رابطة بين المسلمين توطدت مثل هذه ، إن تاريخ المسيحيين شاهد أنهم كانوا أقوى أعاداً من المسلمين كما تقدم ، ولكن اليوم جاء دفن المولى محمد على ببلاد العرب دليلاً على ارتباط مسلمي الهند وهم ٧٠ مليوناً بمسلي الأمم العربية . فإذا قالت انكثرتا هذا وطن يهودى قال الهنود نحن مع إخواننا وقد دفنا أحد عظمانا فيه ، وهل في زماننا معجزة قرآنية أعظم من هذه ، وهل أنا رسمت النش في التفسير إلا لأنه أبرز لنا معجزة نبوية ، ألا ترى إلى ما قاله الأستاذ المولى شوكت على : « إن جنان أخى محمد على كناية عن منحة مقرونة بروح التواضع تمنح إلى مشر العرب الذين لم يزل العالم مدينياً لهم بأعمالهم التي قاموا بها فيما مضى من نشر العلم والمعرفة والدين والحضارة في جميع العالم » اه

إن هذا القول لم يصدر من أمة من أمم الترك أو الفرس فأنترك هدموا ممالك العرب هدموا وأذلومهم وقدماء الفرس من قبلهم فتكوا فتكاً سياسياً بالأمم العربية وهم مسلمون ، ولكن أهل الهند بهذا العمل الجيد قد أفهمونا معنى قوله تعالى هنا « وإنه لذكر لك ولقومك » .

أصبحت الهند وأبناء العرب اليوم صفاً واحداً في مقابلة من يتحدى على بيت المقدس أو بلاد فلسطين ، فهذا مصداق لهذه الآية ونور من أنوار النبوة المحمدية والحمد لله رب العالمين . انتهى الفصل السادس .

الفصل السابع

في أعاد المسلمين اليوم على فرنسا إذ أشيع أنها تنصر البربر ، وتشجع النصرانية في تونس ، وذلك في مقالين : المقال الأول وهو ماجاء في إحدى جرائدنا المصرية يوم ٢٨ أغسطس سنة ١٩٣٠ بعنوان « نداء إلى ملوك الإسلام وشعوبه جميعها » . المقال الثانى وهو ماجاء في جريدة « كوكب الشرق » تحت عنوان « ظاهرة عجيبة » وهاك نصهما :

نداء إلى ملوك الإسلام وشعوبه جميعاً

وإلى علماء الحرمين الشريفين ، ورجال المعاهد الإسلامية من أعلام الأزهر وملحقاته في المملكة الإسلامية ، وجامع الزيتونة في تونس ، وجامع القرويين في فاس ، ومعهد ديوبند في الهند ، ومعهد النجف في العراق ، وإلى الجمعيات الإسلامية في أنحاء الأرض ، ولا سيما جمعيات الهند : جمعية الخلافة في بومباي ، وجمعية العلماء في دلهي ، وجمعية أهل الحديث في دلهي ، وجمعيات أندونيسيا : اتحاد إسلام في سومطرة ، وشركة إسلام في جاوه ، والجمعية المحمدية في جكجا كرتا ، وإلى المسجد الإسلامى الأعلى في القدس ، والمسجد الإسلامى الأعلى في بيروت ، وإلى جمعية ترقى الإسلام في الصين ، وإلى الصحف الشرقية على اختلاف لغاتها ولهجتها

إن أمة البربر التي اهتدت بالإسلام منذ العصر الأول والتي طالما اعتمد عليها الإسلام في فتوحه وانتشاره وطالما استند إليها مستجداً أو مدافعا في خطوبه العلمى ، هذه الأمة التي سارت مع طارق إلى أسبانيا ثم

مع عبد الرحمن الفائق ومع أسدين الفرات إلى سقلية ، هذه الأمة التي كانت منها دولتا المرابطين والموحدين فكانت لها في تاريخ الإسلام أيام غراء مجيدة ، هذه الأمة التي ظهر منها العلماء الأعلام ، والقادة العظام ، والتي لرجلها في المكتبة الإسلامية للؤلؤات الحاملة إلى يوم الدين ، هذه الأمة التي تبلغ في القرب الأقصى وحده أكثر من مائة ملايين نسمة تجريد دولة فرنسا الآن إخراجها برمتها من حظيرة الإسلام بنظام غريب تقوم به سلطة عسكرية قاهرة ممتحنة به حرية الوجدان ، ومعتدية على قدسية الإيمان ، بما لم يجهده نظير في التاريخ .

لقد وردت على مصر كتب من الثقات في القرب الأقصى تذكر أن فرنسا قديما استصدرت ظهيرا سلطانيا تاريخه ١٧ ذى الحجة سنة ١٣٤٨ ١٦٥٠ م وبشرته الجريدة الرسمية في القرب بعدها رقم ٩١٩ تنازل فيه سلطان القرب لها عن الإشراف على الأمور الدينية لأمة البربر ، وأن فرنسا قد بدأت بالفعل في تنفيذ ذلك الظهير ، فقامت السلطة العسكرية في القرب الأقصى تحول بين ثلاثة أرباع السكان وبين القرآن الذي كانت به حياتهم مدة ثلاثة عشر قرنا ، فأبطلوا المدارس القرآنية ووضعوا قلوب أطفال هذه اللابن وعقولهم في أيدي أكثر من ألف مبشر كاتوليكي بين رهبان وراهبات يدبرون مدارس تبشيرية للبنين والبنات ، وأقفلوا جميع المحاكم الشرعية التي كانت في تلك الديار ، وأجبروا هذه اللابن من المسلمين على أن يتحاكموا في أنسكهم وموارثهم وسائر أحوالهم الشخصية إلى قانون جديد سنوه لهم وأخذوه من عادات البربر التي كانت لهم في جاهلهم وهي عادات لا تتفق مع الحضارة ولا تلائم مستوى الإنسانية ، وحسبنا مثلا على انحطاطها وقبحها أنها تعتبر الزوجة متاعا جار وبيع ، وتورث ولا ترث ، وأنها تجوز للرجل أن يتزوج ما شاء كيف شاء ولو أخته فمن عداها في وقت واحد ، وإن قانونا كهذا القانون يسن للمسلمين مخالفا للإسلام ، يعد من رضى به مرتدا عن الإسلام بإجماع علماء المسلمين .

إن فرنسا التي تبث الدعاية في أم الأرض بأنها أمة الحرية قد أجبرت رجال حكومة القرب المسلمين على أن يتركوا دينهم بتنازلهم عما للسلطان من الحق في إقامة أحكام الشرع الإسلامي بين رعاياه من قبائل البربر وجماهيرهم والاعتراف لحكومة الحماية الفرنسية بأنها صارت صاحبة التصرف في دينهم وأمورهم التشريعية والتهديبية وهو ملائمة تلك الحكومة الحق في التنازل عنه ، ومنذ استصدر الفرنسيون ظهيرا (مرسوما) من سلطان القرب بهذا التنازل اعتبروا جميع المدارس القرآنية مغلقة ، وجميع المبادئ الإسلامية معطلة ، ووكلوا أمر تعليم أطفال المسلمين إلى الرهبان توطئة لتفسير هذه الأمة عقيدة وعبادة وعملا ، وحالوا بين جميع مناطق البربر وبين علماء المسلمين ورؤسائهم فلا يتصل بها أحد منهم .

أيها المسلمون : قد أجمع علماءكم من جميع المذاهب على أن من رضى بارتداد مسلم عن دينه يكون مرتدا برضاه عن ذلك ، فيجب على جماعات المسلمين وطوائفهم وجميعياتهم وأفرادهم أن يرفضوا أصواتهم بالاحتجاج على هذا العمل المنكر القطيع بكل مافي وسعهم كل بحسب ما يليق به ، فإذا لم ينفع الاحتجاج ففكر المسلمون في الوسائل المجدية ، وإن في وسعكم أيها المسلمون أن تجبروا دولة فرنسا على احترام إسلام هذا الشعب الكبير وتركه يتمتع بحريته الدينية والوجدانية ، لأن حرية الدين والوجدان حق من حقوق الإنسان يجب على الإنسانية حمايته من عبث العابثين واعتداء المعتدين .

لقد سلكت دولة فرنسا مع إخواننا مسلمي القرب سبيلا غير سبيل الرفق والنصح ، فجردتهم من وسائل الهوض وحالت بينهم وبين التعليم الصحيح ، وأنفقت أموال أوقافهم الإسلامية في ضد ما وقت له واختصمهم بهر التمييز في كل ما اتصل به مصالح الوطنيين والأجانب ، وأن في المسلمين من كان يعرف هذا ويتضاض

عنه إلى حين رجاء أن يجعل الله لأهل المغرب فرجا من عنده ، ولكن امتداد يد السلطة القاهرة في المغرب إلى دين الإسلام واعتداؤها على حرية العقيدة والعبادة قد أوصل هذا المدوان إلى الحد الذي ليس بحد خلق على كل مسلم أن يبادر إلى إنكار هذا المنكر بكل وسيلة يستطيعها .

يجب أن تعلم فرنسا أن الإسلام لم يمت ، وأن المسلمين قد استيقظوا وصار بعضهم يشرع بما يصيب البعض الآخر من اضطهاد في دينه ودنياه ، وأن بناء مسجد في باريس تؤخذ باسمه ملايين الفرنكات من أولاد الحرمين الشريفين وملايين أخرى من الإطاعات الجبرية من جميع مسلمي أفريقيا مع إطاعات أخرى من سائر العالم الإسلامي لا يمكن لفرنسا أن تجعله حجة على حرية الإسلام ومودة المسلمين في مملكتها (التي تسميها أحيانا إسلامية) مع هذا الجرم الفظيع الذي شرعت فيه أخيرا وظنت أنها تتزع به بضعة ملايين من حظيرة الإسلام بنظام تنفذه قوة عسكرية قاهرة .

إن فرنسا إذا لم ترجع عن هذه الجريمة فإن العالم الإسلامي يعتبر ذلك مجاهرة منها بحدوثه ، وسيعان ذلك على منابر المساجد ، وعلى صفحات المجلات والجرائد ، وفي حلقات الدروس الدينية وفي نظم الجمعيات الإسلامية . لقد حان حين امتحان أحرار أوروبا فيما يدعون من الانتصار لحرية العقيدة والوجدان ، حتى لقد رضوا بكثير من المنكرات التي يترفون أنها منكرات ، وذلك حرصا منهم على بقاء الحرية طليقة من قيودها ، وإن أقدس الحريات حرية الوجدان والاعتقاد ، وأسوأ ما أصيب به هذه الحرية في هذا العصر محاولة فرنسا أن تحول للمغرب الأقصى عن إسلامه إلى النصرانية أو ما شئت أن نحوله إليه .

لقد سمنا صوت أوروبا حكوماتها وشعوبها يرتفع عاليا باستنكار ما فعلته روسيا البولشفية من إقالمها بعض العابد مع أن يد البولشفيك الحديدية إنما امتدت إلى الحجارة والطوب ولم تمتد إلى النفوس والقلوب فالعالم الإسلامي ينتظر من أوروبا التي احتجت إلى عمل السوفيت في الكنائس أن تقول لفرنسا كلتها الصريحة في عدوانها على دين الإسلام في المغرب الأقصى ومنها سبعة ملايين من البشر منما رسميا مؤيدا بالسياسة والجيش من أن يسكنوا إلى دينهم وأن يتصلوا بإخوانهم المسلمين اتصالا روحيا يطمثون إليه ويرتاحون له .

فيا أيها المسلمون: إن دينكم مهدد بازوال من الأرض ، فإن فرنسا إذا أمكثت تنفيذ مشروعها هذا في المغرب فستحذو حذوها جميع دول أوروبا في الشرق ، وقد حكم عليكم في هذه الحال بذلك أضكم وأموالكم في سبيل الدفاع عن دينكم ، فما الذي يمنعكم عن الدفاع عنه والله تعالى يقول: « فلا تخافونم وخافون إن كنتم مؤمنين » ويقول: « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » ويقول: « يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » ويقول: « وكان حقا علينا نصر للمؤمنين » وبلى ذلك الإيضاحات .

ظاهرة عضية

من ظواهر التبشير الديني في تونس

حديث اليوم . الشعور العام نحو المؤتمر الإنفلسي . الإضراب عن العمل . مظاهرة الطلبة . عرائض من الشعب للباي والأعضاء المسلمين . نشاط البوليس واهتمام الحكومة اعتقال ٢٥ طالبا

جاء من مراسل كوكب الشرق في تونس يوم ٢٩ مايو سنة ١٩٣٠ ما يأتي :

لعل القراء يظنون أن المؤتمر الإنفلسي الذي يقف كل عامين لحج الرهبان والكاثوليك عامة ولأمور أخرى قد قرر اجتماعه في هذه الدورة بتونس ، وهذه أول بلاد إسلامية يتقد فيها مؤتمر مسيحي ، وقد حاولت الحكومة التي أشرفت عليه إخفاء حقيقة صبغته والتجويه على الناس بأنه حج مسيحي لا يدخل فيه لجرح المواطنين ومس المتعدات ، غير أن أسقف قرطاجنة (منسفيورلوميتر) أهرج عن الصبغة الحقيقية للمؤتمر وقال في إحدى خطبه : « إن هذا للمؤتمر هو عبارة عن حملة صليبية جديدة نحو تحقيق فكرة سان لوي (لويس التاسع) والكردينال فيجيري » .

وقد زادت الحكومة الفرنسية أن قررت أخذ مليونين من الليرة التونسية (رغم أنف المجلس الكبير) وخمسة ملايين من إدارة الأختال العامة التونسية ونصف مليون من البلدية التونسية وعشرات ألوف من إدارة أوقاف المسلمين ، كل ذلك لتصرفها على المؤتمر الذي هو حملة صليبية ، وقد قدر وأنضب الشعب واستياءه من هذا العمل المهرج ، ولكي يتخلصوا من ذلك انضب وتمكون الضربة متمكنة ، ولكي ينفذوا شيئاً من برنامج سياستهم التي اتخذوها بهذه البلاد وهي إيجاد الشقاق بين الأمة والعرش أي بين الشعب وملكه فقررنا أن يكون للمؤتمر تحت رئاسة الباي أحمد الثاني ، وبضوية شيخ الإسلام ، والباين مفتي ، والوزراء المسلمين وشيخ المدينة التي قدم لهم خدمات حمة في الموضوع ، وشقيق رئيس الحجرة التجارية الأهلية ، وعضو المجلس الكبير ، ومحمد يس رمضان عضو المجلس الكبير وغيرهم من الثقات .

واستاءت الأمة وقررت الإضراب عن العمل احتجاجاً على وجود المؤتمر بصيغته هذه وعلى الملايين المقدمة لقوم يريدون أن يقوموا بحملة ضد الدين الإسلامي الذي هو دين الأمة المزيز عليها ، وأصبح يوم السبت ٣ مايو يوم إضراب ، فاستعملت الحكومة القوة لقمه ، وأخذ البوليس كل طرق الشدة والصرامة في ذلك . وقام جميع طلبة المساهد بإضراب تام عن التعليم ، وفي الند تطاهروا واشتمغظت الحكومة وتدخّل البوليس فانها على المتظاهرين بالضرب حتى وقعت جروح للبعض وشاهدت البوليس يضرب الناس بالسككيات من غير رحمة ولا شفقة إلا أن الطلبة أعادوا المظاهرة في القند (يوم الاثنين) وجابوا شوارع باب البحر والبوليس يتقل ويفرق ولم يرحم ، وظل الطلبة متظاهرين من الساعة الثالثة ونصف إلى الساعة السادسة ينادون بحياة الاسلام وسقوط المؤتمر الإنفلسي ، وقدمت عرائض ممضاة من كافة الأمة إلى الباي والثقات المسلمين الذين قبلوا عضوية المؤتمر تطلب منهم الانسحاب من المؤتمر واعتقل البوليس خمسة من الوطنيين و٢٥ من الطلبة . والحكومة هائتة متخوفة من العواقب الوخيمة التي يخشى إليها هذا العمل الجارح الذي أرادت أن تقوم به في القرن العشرين . هذا ، وإن الحزب الاشتراكي معاضد للأمة التونسية في احتجاجها .

وقد سمي لدى المراجع العليا لإطلاق سراح المتقلين كما سمي الطلبة في ذلك مع زعماء الحزب الدستوري ،
وقد أطلق سراح الكثير منهم بفضل مساعي الحزب الدستوري ورجاله ، والخواطر لا تزال مضطربة ولا يزال
مرأى الألف رهاب يثير الحساس والتضيق . وإلى هنا تم الكلام على الفصل السابع من الطبقة الأولى ،
والحمد لله رب العالمين .

الطبقة الثانية

في قوله تعالى : «والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشربنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون .
والذي خلق الأزواج كلها » مع آيات أخرى في سور كثيرة كقوله تعالى : « ألم تر أن الله
أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ، إلى آخر ما في سورة الزمر من شرح الصدر
للإسلام إذ يقول تعالى : « أئن شرح الله صدره للإسلام » الخ

جاء في هذه الآيات إنزال الماء ، وإخراج الزرع ، ثم شرح الصدر للإسلام ، وأن القرآن أحسن الحديث
في (سورة الزمر) وهنا مجال لهم زرع مختلف الألوان نابت بسبب الماء ، وانسراح صدر للإسلام ،
وكون القرآن أحسن الحديث ، فلمعنى أى مناسبة بين الزرع ولقاء الذي يشره وبين انسراح الصدر
للإسلام ، ثم كون القرآن أحسن الحديث ، ولما كتبت هذا حضر العالم صديق الذي اعتاد الحديث معي في
مثل هذا المقام ، قال بعد أن قرأ ما ذكرته الآن : حقيقة إن المناسبة تكاد تكون بيده الشقة بين الأول
والثاني ، أما بين الثاني والثالث فالمناسبة ظاهرة لأن الثالث سبب في الثاني فهو من ذكر السبب بعد السبب
لأن من قرأ أحسن الحديث يشرح صدره لما فيه من المعاني . أما المناسبة بين الأول والثاني فهي التي
تحتاج إلى بيان . قلت : لقد جاء الكلام على النبات في مواضع كثيرة من هذا الكتاب ، ولقد ظهرت
عجائب في (سورة النحل) في آية « فأنبتنا به حدائق ذات بهجة » وفي غيرها ، مثل إن الجذور وتدية
وليفية ودونية ، وهناك مباحث أخرى ، هكنا في (سورة السجدة) عجائب من النبات في صوره الظاهرة
وعجائب تركيبه من الداخل ، وبيان أن النخل له في تركيبه صورة أخرى تخالف جميع الأشجار وإذا رأينا
الله عز وجل يكرر ذلك الشيء الواحد في مواضع كثيرة في القرآن فهذا معناه أن تذكر الحكمة مفرقة
لاجته (وبعبارة أخرى) يستحسن أن تفرق عجائب النبات على الآيات فإن قراءة علم النبات بصفة
علم لا يشر في النفس بهجة كالمى يشرها ما يصنع في أمثال هذا التفسير بحيث يصطفى من أصناف النبات ما يثير
في النفس بهجة وترسم أشكاله وشرح شرحا يشرح الصدر ويهيج النفس ، فالقرآن ليس كتابا علميا بالمعنى
اللتعارف . فالعكس العملية قصد منها نفس العلوم ، والمعلوم شيء والوعظ والاستدلال والتأثير في النفوس
شيء آخر . وقرآننا يفرق بين الحب في مخزن وبين إعداد الطعام للجائع . فالمعلوم في حد ذاتها كالمخازن
واقطفان شيء منها في مواضع متفرقة من القرآن شيء آخر . فليس المقصود من آيات القرآن أن تدرس
العلوم المتعلقة بها دفعة واحدة في تفسيرها بل تقتطف اقتطافا . ولعمري إن الناس يعرفون الفرق بين روضة
ذات أزهار وبين باقة من الأزهار تهدي للزائر . إن الروضة لا تهدي ولكن الباقة تهدي وتأمى
بالفرض للقصود من الأكرام : هكذا يجب أن يهدى لقارى الآيات المختلفة زهرات العلوم . ويجب أن
تنوع تلك الأزهار على مختلف الآيات كما تنوع المنيف لضيفه أنواع المأكول والمشروب والمشموم في اختلاف

الحالات . إن النفس لتسأم من التهادى في طعام واحد ، ومن التهادى في حديث واحد ، لذلك نجد القرآن نوع الحديث ، وجعل النبات الذى يحض عليه مفرقا على السور تملبا للفسرين أن يفرقوا عجائب النبات على مختلف الآيات وبصوروا محاسن أشكاله ليشرح الصدر للإسلام بما يرى من الجمال البديع ، وذلك بما يؤثر في نفسه من مختلف الأشكال في الأحوال المختلفة ، وهنا استبان أمران: انشراح الصدر للإسلام بماهج الصور ، وكيف كان القرآن أحسن الحديث ، لأنه حديث ذو شجون لا يسأم الإنسان منه للتفتن في ترتيب الآيات .

فهاك ما يسبح من علم النبات ومن صورهِ البديعة الحسنة ، إذا قلنا في (سورة النحل) إن الجذور ثلاثة أقسام ، ورأيت رسمها وشرحتها هناك فلنذكر هنا الجذور التي لا تنشأ من الجذر الأصلي بل من الساق وتسمى الجذور العرضية (انظر شكل ١٠) ومثلها الجذور التي تشاهد على الساق الزاحفة للشليك ، والجذور العرضية شائعة على الأكثر في ذوات القلفة الواحدة كالنخلة والقمح فإن الجذر الأصلي لهذه النباتات يموت بعد الإنبات بقليل ، وتنشأ بدلا منه جذور عرضية على قاعدة الساق ، وتكون الجذور



(شكل ١٠ الجذور العرضية)

العرضية في بعض النباتات بمجرد ملامسة الساق للماء أو التربة الرطبة ، ويستفاد من هذه الخاصية عمليا في تطبيقات عديدة كترقيد النباتات وتخصيب القمح الخ ، ففي الترقيد يحنى فرع من ساق النبات (شكل ١١) ويدفن في الأرض فلانبت الجذور العرضية أن تتكون على هذا الفرع فيصبح نباتا جديدا يمكن فصله من النبات الأصلي ، وتلك وسيلة لتكثير النبات كما سترى فيما بعد ، وتخصيب القمح يكون بإمرار عجلة أسطوانية على القمح وهو حديث قميل السوق على الأرض وتنت عليها جذور عرضية تزيد في نضدية النبات فيرتب على ذلك وفرة القلفة .



(شكل ١١)

ترقيد الكرمة

قلنا قرأ صاحبى هذا القول واطاع على هذين الشكلين . قال : إن الجذور العرضية للشليك (شكل ١٠ للتقدم) وترقيد الكرمة (شكل ١١ للتقدم) لم يخرج عن كونها أمرين اعتياديين ، فكل من الجذور الوتدية في القطن مثلا ، والجذور اللبية في نحو القمح ، والجذور الدرنية في نحو الجزر . والجذور العرضية في نحو الشليك ، والجذور الترقيدية في نحو النخلة ، كل هذه لم تخرج عن كونها مدفونة في الأرض وقد وافقتنا الرطوبة واللوات الأرضية ، غاية الأمر أن الساق امتدت منها الجذور في الشكلين السابقين على خلاف المعتاد في الجذور الأصلية ولكن الدفن في التربة هو السبب في ذلك ، فليس أمرا غريبا . قلت : حياك الله ، إن الأرض والدفن فيها ليسا شرطا في امتداد الجذور . فقال : « هاتوا برهانكم إن كنتم صديقين » . قلت :



(شكل ١٢ - الجذور الهوائية)

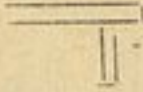
الجذور الهوائية

قد تنشأ الجذور على سوق بعض الأشجار كالفيكوس البنغالي (انظر شكل ١٢) فتتو مدلات في الهواء حتى تصل إلى الأرض فتغرس فيها وتعرف هذه الجذور بالجذور الهوائية وتكون مغطاة بنسيج ضارب إلى السمرة يحميها من أن تجف في الهواء ، ومن أهم وظائفها أنها تكون بمثابة دعامة للفسوف الأخرية .

قال : هذا حسن ولكن لا يزال في النفس شيء ، إذا أعجمت الجذور من الأعلى إلى الأسفل في الهواء واستغنت عن الطين وارتقت في أشجار كالليكوس البنغالي عن أمثال القطن والجزر والقمح ، فهي جميعها تنج من أعلى إلى أسفل ، وهذا أمر طبيعي عام ، والتجربة الآتية شاهدة بذلك .

أجاء الجذور

يتجه الجذر الأصلي على العموم أجاءها رأسياً من أعلى إلى أسفل لإظهار ذلك تأخذ بادرة في طور النمو وتضع الجذر وضاً أفقياً (شكل ١٣)
تقرى طرفه بنحى رأسياً إلى أسفل ، وإذا ثبتنا بادرة على قطعة من القلين بحيث يكون الجذر إلى أعلى والساق إلى أسفل (شكل ١٤) نشاهد في اليوم التالي أن الجذر ينثني إلى أسفل والساق إلى أعلى .



(شكل ١٣)
جذر في وضع أفقى

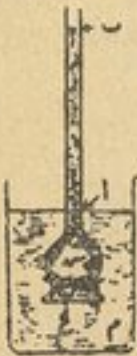
قال صاحبي : هذا حسن فقد عرفنا أننا إذا وضعنا الجذر وضاً أفقياً كما في (شكل ١٤) أو وضاً منكوساً منكوساً كما في (شكل ١٤) فإن الجذر يتجه إلى أسفل دائماً ، ولكن ربما يحظر لبعض الناس أن هذا الجذر إنما يتجه إلى أسفل دائماً فراراً من النور أو طلباً للرطوبة الأرض . قلت :

« إذا بذرنا بذوراً في أصيص ثم ينكس الأصيص (انظر شكل ١٥) بعد أن توضع على حافته شبكة سلكية تمنع سقوط التربة منه فيرى أن الجذر ينمو رأسياً من أعلى إلى أسفل وهو في هذه الحالة لا يجتنب الضوء ولا يتجه نحو البيئة الرطبة .
قال صاحبي : لقد استبان هذا للوضوح وظهر ظهوراً واضحاً ولكن بماذا يسمى الملاء هذا الليل ، فقات يسمونه (الانحناء الأرضي) وقالوا إن هذه ليست من الجاذبية العامة ، وما هذه التسمية إلا مجرد الاصطلاح . فقال صاحبي : هذا حسن وبه نعرف قول الله تعالى « والذى قدر فهدى » وقوله « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » .



(شكل ١٥)
تجربة الأصيص المنكس

قال صاحبي : عرفنا أن النبات يتجه دائماً جذره إلى الأرض وإن هذا أمر جديد لم يكن في طبائع الأشياء ، ولكنى أرى أن امتصاص الجذور للمواد التي حولها يشبه كل المشابهة امتصاص اللثانة (في التجربة الآتية) للماء النقي حولها ، وذلك أننا نأخذ بأنبوبة مسدودة في أحد طرفيها بقطعة من لثانة ونصب فيها محلولاً سكرياً باسميكا ثم نغمر الأنبوبة رأسية في إناء يحتوي على ماء نقي (شكل ١٦) بحيث يكون المحلول السكري على سمت الماء الخارجي وندعها كذلك زمناً ما فلاحظ أن سمت المحلول السكري قد ارتفع في الأنبوبة من (أ) إلى (ب) كما نلاحظ أن ماء الإناء الخارجي ينحوى على قليل من السكر . ويدل ذلك على أن مقداراً من الماء النقي قد نفذ من اللثانة إلى داخل الأنبوبة ، وأن بعضاً من المحلول السكري قد نفذ إلى الإناء الخارجي غير أن تسرب الماء إلى داخل الأنبوبة كان أسرع من تسرب المحلول إلى الخارج فانتشار السوائل والمحاليل خلال الأغشية على هذه السورة يعرف بالأسموز أو الانتشار العشائى ، والضغط الذى حدث في الأنبوبة فرفع سمت المحلول يعرف بالضغط



(شكل ١٦) الانتشار
العشائى (م ماء نقي :
ع غشاء . ش شراب)

الانتشاري ، إذن ينفذ الماء والمواد الذائبة فيه من جدران الشعيرات الجذرية بالانتشار العشائي ثم يندفع إلى أعلى بالضغط الانتشاري .

إذن الجذور في النبات كهذه الثلاثة سواء بسواء ، فهي تمتص من الخارج إلى الداخل وترسل من الداخل إلى الخارج . إذن هذا أمر طبيعي معروف ، فإذا وضنا قطعة من السكر في ماء رأيناها امتصت الماء ، فعلا فيها أمام أعيننا ورأينا الماء حولها قد وصله شيء من حلالة السكر ، ولكن الماء الداخل في قطعة السكر أكثر مما فقدته السكر في أول الأمر ، ثم تنعكس الحال بعد ذلك . فقلت : إن الجذور ليست كذلك إنما تأخذ ولا تعطى .



(شكل ١٧)



(شكل ١٨)

امتصاص المواد الصلبة

ويقوم الجذر عدا وظيفة الامتصاص بوظائف أخرى ، فهو يثبت النبات في الأرض ، وكلما كان الجذر أكثر تعمقا ونعرا كان النبات أكثر ثباتا وأشد مقاومة لعقل الرياح والمنطقة الخاصة بالثبيت هي الأقرب إلى الساق وهي خالية من الشعيرات وبشرتها غير ماصة . والجذر يتبادل الغازات مع الأرض لأنه يتنفس ككل الأجزاء الحية من النبات ، وربما مات النبات إذا لم يجد الجذر مددا كافيا من الأكسجين ، لهذا كان من الضروري تسهيل دخول الهواء إلى الجذر ويتوصل إلى ذلك بحرث الأرض وعزقها ، ويستخدم الجذر لادخار المواد الغذائية التي يستهلكها النبات عند الزهير كما يشاهد في جذور البنجر واللفت العج .

قال صاحبي : هذا عجب ! فان إفرار الشعيرات التي في الجذر للسوائل وإذابتها المواد الصلبة من أعجب العجب ، وهي في هذا أشبهت الإنسان والحيوان ، إذ لنا جميعاً غدد لعابية في أفواهنا ، ولنا سوائل أخرى مثل (البنكرياس) في المعدة ، وكل هذه لهضم الطعام ، ولنا غدد تفرز لبن المرأة لولدها ، ولنا المرة الصفراء التي بجانب الكبد تفرز تلك المادة فتكون سببا في منافع صحية ، وهكذا هنا الكليتان لينتج الماء إليهما فينزل في الحالبين ، فإذن النبات عنده وظائف كالوظائف عند الحيوان ، ويفرازه سوائل خاصة يحدث تخشا في الحسوات ؛ وعلى ذلك تهدم الجذور المباني العظيمة بنفس الإفراز لا بالضبط الذي يفعله الثلج إنما حمد

في باطن الكهوف فإن الماء إذا جرد في باطن الجبال كسرها لأن الثلج أكبر حجما من الماء الذي صار ثلجا فيكسر ذلك الثلج ما فوقه من الأحجار فتظهر العيون ، فظهور العيون في الجبال إنما يكون بضغط الثلج على الأحجار أما ذوبان الحجارة والحصى وحببات الرمل ودخولها في جسم النبات فلن يكون بالضغط والتكسير وإنما يكون بأعمال كيميائية وهي التحليل والتركيب فتحلل الجذور تلك العناصر الصلبة في الحال وتدخلها أجسامها وهناك تركيب كيميائي جديدا ، وهذا هو الرقي الذي وضعه الله في أرضنا وجعله درسا لنا ، فهو يقول : الضغط الجسمي شأن الجداد ، فتعليم الناس العلم بالضغط والأذى ، وإرغامهم على العمل لمصلحة الدين استعملوا بلادهم إنما هو شأن الأمم الذين لم يخرجوا عن أعمال الجداد ، فلاحية لهم إلا الحياة الجامدة وهل الرجل الذي يسخر غيره لمنفعته هو إلا كالثلج ضغط على الحجر فكسره ، فأما الأمم التي هي أرقق فإنها تعلم الشعب تعلما نافعا وتتفقه من حال الصلابة والهمجية إلى حال العلم والحكمة ، فترجع سهلة القبول للرقق وتكون الأمم إذ ذاك أشبه بتلك المواد المفتتة من الحصى وقد حصلت في جسم النبات فصارت زهرا باهرا ، وورقا ناصرا ، وتمرا نافعا لسائر الناس ، هذا هو صراط الله المستقيم أن يعلم الناس قاطبة فيكونون أشبه بأمة واحدة لا أن يساموا الحسف كما يفعل الثلج في الجبال فيكسرها ، الماء في حاله المعتادة كالأمم في حال هدوئها . ولسكنه إذا برد وصار ثلجا في الجبل صار كالأمم الوحشية إذا اجتمعت لغزو أمة أخرى فتؤثر فيها بالقوة وأما جذور الأشجار فلا تؤثر بقوة الجسم بل بقوة العلم وهو علم الكيمياء ولنا نقول أن الجذور علماء بالكيمياء بل نقول أن السلطة العليا المحيطة بهذه العوالم علمت هذه الجذور وهدتها أن تحت الحصوات حولها كما هدت لعاب الحيوان أن يهضم الطعام ، ولقد اجتمع هذان اللتان أي مثل الثلج ، ومثل الجذور في مضغ الأسنان والحيوان لطعامهما ، فنحن نمضغ بقوة الأسنان ، ولكن هذا المضغ وحده لا يسهل الحيوان لأنه وإن قمت اللقمة فليس معنى هذا أن اللقمة بهذا التفتيت أصبحت صالحة للغذاء . كلا . بل هناك تتلقى اللقمة الغدد العيانية في الفم والبنكرياس في المعدة ، وهناك يهضم الطعام ويمثل بالجسم الإنساني ويصبح هو جسم الإنسان ، فحال المضغ هي حال هذا الإنسان في وحشيته الحاضرة والماضية ، وحال اللعاب ، وهضمه حال الأمم التي تأتي بعدنا التي تضع كل أمرى فيما استعد له من العمل ، وكل أمة فما استعدت له من النفعة العامة لجميع الناس ، وهذا هو الذي ألفت له كتاب (أبن الإنسان) .

فقال صاحبي : هذا الموضوع كله قد بينته أنت على الجذور وعملها ، وأنا أريد أن نختمه بالكلام على أجزاء بعض الشجرات الظاهرة . فقلت : لقد تقدم الكلام على ذلك في مواطن كثيرة ، منها ما تقدم في (سورة الحجر) عند آية « وأنبثنا فيها من كل شيء موزون » فإنك ترى هناك الدوائر البديعة المنتظمة بها أوراق النبات بنظام هندسي بديع فأقرأه هناك ، وعند آية « وأرسلنا الرياح لواقح » في نفس السورة فإنك ترى هناك عجائب الأزهار ونومها ويقظتها وإلقاحها ، وترى في (سورة الشعراء) نظيره وفي (سورة النمل) ترى الكلام على الأوراق ونظامها من جهة أخرى غير ما جاء في (سورة الحجر) . فقال ولكني أريد أن أشاهد نفس الزهرة عند نوصها وعند يقظتها وما أشبه ذلك أيضا لما تقدم في (سورة الحجر) فقلت : جاء في كتاب (مبادئ التاريخ الطبيعي) ما نصه :

« ويؤثر الضوء في اتجاه الأوراق ، فإذا وضعنا نباتا في غرفة أمام نافذة رأينا الأوراق تدبر وجهها العلوي نحو النافذة حتى تلقى أكبر قدر ممكن من الضوء ، والأوراق بوجه عام تجعل نصلها عموديا على اتجاه الضوء »

حركات الأوراق

رأينا فيما تقدم أن أوراق البراعم تغير وضعها عند تفتحها وأن المهاليق تلتف حول الأشياء التي تصادفها وهذا التغير في الوضع أو في الاتجاه الذي يشاهد في الأوراق الآخذة في النمو يعتبر نوعاً من الحركة، على أن الأوراق التامة النمو قد تتحرك بصورة واضحة عند بعض النباتات، وقد تكون هذه الحركة مسببة عن الضوء أو عن اللمسة وقد تكون ذاتية ناشئة عن أسباب داخلية، ونحن نسردها هنا بعض أمثلة من هذه الحركات.

نعاس الأوراق



(ب) نعاس (أ) بقلة

شكل ١٩ - أوراق الترمس

وربما الورقة المركبة من الترمس تكون أقبية أثناء النهار ولكنها متى أقبل الليل تنسدل شيئاً فشيئاً حتى تضم أوجهها السفلى بعضها إلى بعض (انظر شكل ١٩) ثم تعود في الصباح سيرتها الأولى، وتسمى الحركات التي من هذا القبيل بالحركات النعاسية وهي شائعة في كثير من النباتات كالبرسيم والجسيم الخ إنما يغلب أن تتجه

الأوراق في نعاسها إلى أعلى ضامة أوجهها العليا بعضها إلى بعض، وفي قاعدة الورقة المتحركة نجد انتفاخاً يعرف بالانتفاخ المهرك (انظر شكل ٢٠) وهو متى امتلأ بالماء تضخم ودفع الورقة إلى أعلى أو إلى أسفل وفقاً لشكله الذي يختلف باختلاف النباتات، وبالضد إذا تسرب منه



شكل ٢٠ - الانتفاخ المهرك

رسم وهمي

بعض الماء إلى الساق رأبناه يهبط وبصير خرقاً فتأخذ الأوراق وضعها الأفقي من جديد، وترجع كثرة الماء وقتله في الانتفاخ المهرك إلى أن مقدار الماء الذي ينتجه النبات يتغير تبعاً لشدة الضوء، وكأما العرض من الحركات النعاسية إنقاص السطح الورقي المعرض لبرودة الليل.

الحركات الليلية عن اللمسة

أوراق بعض النباتات كالمستحية والنباتات الآكلة الحشرات تتحرك بمجرد اللمس فتغير وضعها ثم تعود إليه بعد زمن ما، هذه النباتات هنا قابلة للتهدج بصورة تشبه من بعض الوجوه قابلية التهيج عند الحيوانات لاسيما أننا نستطيع في كلتا الحالتين إبطال هذه القابلية للتهدج وقتياً بتأثير بعض اللواد المرقة كالأنثروبوم والكلوزوفوم والنباتات المستحية تقدمت مشروحة بصورة في سورة الرعد عند آية «يسقي ماء واحد».

الحركات الذاتية



(شكل ٢١)

وهناك نباتات تتحرك أوراقها لغير سبب ظاهر ويطلق على مثل هذه الحركات اسم الحركات الذاتية . وأحسن مثال لهذه النباتات نبات ينبت في الهند اسمه هديزاروم جيرانس (شكل ٢١) تتكون ورقة من وريقة كبيرة ، وعند قاعدتها وريقتان صغيرتان (ب) و (ب) تقع وضع النبات في بيئة لا تقل درجة حرارتها عن ٢٢° مئوية ترى الوريقتين الصغيرتين تتحركان ببطء فتدور كل منهما حول قاعدتها بحيث تتم الدورة الكاملة في زمن يتراوح بين دقيقتين وخمس دقائق ، وغالبا لا تكون هذه الحركات الدورية منتظمة بل تتركب من عدة رجات متتامة ، وهنا أيضا يرى في قاعدة الوريقة المتحركة انتفاخ هو الذي يدفعها إلى الحركة بما يظهر على جوانبه من الانتفاخ والهبوط المتبادلين ، على أن السبب الباعث لهذه الحركات لا يزال غير مدرك حتى الآن ؟

سقوط الأوراق

في غاب الأشجار والشجيرات التي تنمو في المناطق الباردة والممتدة تكون الأوراق محدودة الأمد فإنها تتولد في الربيع وتنمو مدة الصيف ، وتسكن متى حل الحريف زواها تفقد خضرتها وتأخذ صبغة صفراء أو صاربة إلى الحمرة ، ثم تفصل قاعدتها عن الغصن الذي كان يحملها وتسقط على الأرض تاركة مكانها أثرا ظاهرا يعرف بنديبة الورقة ، ويشاهد فوق سطح النديبة طبقة واقية من القلبي ، وهذه الطبقة تنشأ قبل سقوط الورقة بعدة ما تمنع وصول المصارة إلى الورقة كما أنها تساعد على انفصالها من الغصن ، ويتكون في إبط الورقة قبل سقوطها برعم إبطي يظل ساكنا مدة الشتاء ، ثم ينمو في الربيع التالي ويكون غصنا جديدا ذا أوراق ، وتعرف مثل هذه الأوراق بالأوراق المتجددة ، ومثلها أوراق المشمش والتفاح والكرمة ، على أن بعض الأشجار والشجيرات تكون مكسوة بأوراق خضراء في جميع أوقات السنة ، وتسمى هذه النباتات بدائمة الخضرة ، ومثلها الصنوبر واليوكالبتس (المعروف عند العامة بالكافور) والفيكوس الخ ، ففي هذه النباتات تبقى الأوراق على الأشجار أكثر من فصل ولا تسقط أوراقها في وقت واحد .

فلما سمع سراجي ذلك . قال : هذا حسن جدا ، فهل ترى هنا فكرة حكية ؟ قلت : لقد عجبت هنا من (أمرين : أولهما) أن الورقة قبل سقوطها يحدث فوق سطح النديبة طبقة واقية تمنع وصول المصارة إليها (ثانيهما) إنه يتكون في إبط الورقة قبل السقوط برعم إبطي يظل ساكنا مدة الشتاء ثم ينمو في الربيع وهذا عجبان ، فكأن هذه الطبقة أشبه بالسدود في البحر تمنع جري الماء لتعرض خاص أو كما يصنع في سقية الأرض إذ يحول الماء من الحوض الذي يجري فيه الماء إلى حوض آخر وذلك بسده بالطين الذي يعرفه بالفأس ، إذا فعل الله في أبداننا ما فعله في حقولنا سواء بسواء ، ويدون دراسة هذه العلوم لا يخطر لنا أن ذبول الأوراق تقدمه سد المصارة عنه كما أن الإنسان يموت ولا يعرف الناس عن الموت إلا أنه أمر طبيعي ومجهولون السبب ، لم يكن ليخطر لأحد من الناس قبل انتشار هذه العلوم أن الحمى والجدرى والإسهال والحمى التيفوذية ، والحمى التيفوسية وأمثالها والكوليرا كلها لم تكن إلا حيوانات ميكروسكوبية أحدثتها وأتجت تلك الأمراض (انظره في سورة الروم) كما أن سقوط الأوراق لم يكن ليخطر للناس قبل ظهور هذه العلوم ، إن هناك سدا بوجب انحسار المصارة عنها ، إذن كل ما في أجسامنا وما في هذه الموالم لا يكون

إلا بأعمال ذبرتها قوس عالية منتظمة مستمدة نظامها من مبدع العالم كما ترى الضوء المنتشر في الأرض مستمدا من قرص الشمس ، فهاتها قوى عاقلة تحيط بنا كاملة العقل مهندسة حكيمة لها أفعال ذات نظام تحيط بنا إحاطة الشمس بأجسامنا ، فهاتها نور شمسي وكوكبي وهاتها ضوء عقلي يتدخل في كل شيء .
 هذا هو الأمر الأول ، أما الأمر الثاني فهو أن البرعم الإبطي الذي ينمو في الربيع أشبه بالأجنة في بطون أمهاتها ليحلوا محل الآباء إذا ماتوا ، فبينما الهرم محل بالآباء ترى الأجنة والأطفال ينمون ويكبرون ، هكذا البرعم الإبطي ينمو أثناء منع العصارة عن تغذية الورقة ليحل محلها القناء ، وهذا هو قوله تعالى « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » فهذه العصارة حولت من الورقة إلى البرعم الصغير كما تزايدت الحياة في الأطفال وتتناقص في الكبار ، والله هو الولي الحميد وهو حسبنا ونعم الوكيل . كتب في يوم الأربعاء ١٥ يناير سنة ١٩٣٠ م

بهجة العلم في اللطيفة الثانية

في قوله تعالى : « والذي نزل من السماء ماء بقدر »

يقول الله في (سورة الواقعة) « أفرايتم ما تحرثون أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون . لو نشاء لجعلنا حطاما فظلمتم تفكهنون » فإله هو الذي أنزل الماء من السماء ، وهو الذي سلكه ينابيع في الأرض ، وهو نفسه الزارع ، وهذه الآيات يفهما الجاهل والعالم لأنها واضحة ، ولكن التحقق منها وإدراك حقائقها لن يكون ولن يتسنى إلا لقليل من نوع الإنسان . إن الناس مضمورون في النعم وهذه النعم تسمى وتسمى لكثرتها عن إدراك الحقائق ، فالتم لو فرتها من شمس تضيء وهواء يحيط ، وجوب زرع ، ونبات يظهر ، ولا عمل للإنسان فيها ، كل هذه أنامت هذا النوع الإنساني قديما وحديثا ، فهل لك أن أحدثك حديثا جميلا يكشف بعض النقاب عن هذا الجمال حتى يكون بابا تلج منه لإدراك الحقائق وإن كانت تلك الحقائق يموزها صرف الحياة في فهمها والبحث عنها ، ولن يحب الإنسان صانع هذا العالم حبا مفرطا لذاته غير ملاحظ خوفا من النار ولا طمعا في الجنة ، ولا عقابا ولا ثوابا إلا إذا درس هذه الدنيا وجمالها درسافكيرا بعد الاطلاع على علوم الحيوان والنبات والكواكب الخ وهذا الدارس هو السعيد حقا في هذه الدنيا وجد الموت لأنه لا يرى من الله إلا الرحمة العامة ولا يكدر صفوه ما يرى من حوادث الدول والحروب ولا اللوث ولا الحياة فإن هذا الدارس الفسخر وقتت نفسه على سر هذا كله وقتت بالحقائق فانشرح لها وتبجلي لها الله في الدنيا - حمنه الحقيقية وهذا هو الذي لا يحزنه الفزع الأكبر لأنه عارف والعارف موقن بالرحمة ، والذي يخاف من الفزع الأكبر هم أكثر هذا النوع الإنساني لأنهم يبشون في جلودهم ولا يفهمون نظام الرحمة في الوجود وينقلبون في أنواع اللذات والآلام ولا يفهمون ما وراءها ، فهؤلاء قد جعل من بين أيديهم سد الشهوات ومن خلفهم سد الآلام فأغشى على عقولهم فهم لا يبصرون الحقائق ، فأما أنت أيها الذكي فهناك نبذة من ذلك الجمال تمتع بها ما أغلق على أكثر نوع الإنسان وإن كانوا علماء في جميع هذه العلوم ، فانظر إلى الشمس إنها ترسل الألوان السبعة : روفة وهو الأحمر والبرتقالي والأصفر والأخضر والأزرق والنيلي والبنفسجي وهذه تتحد . تصير لونا واحدا هو الذي يغطي الأرض ونباتها وأنهارها وبحارها وأجسامها وحجرها ومدنها ونباتها وشجرها ، وهذا الضوء هو الذي به ينمو النبات ، ذلك أنه يساعد للمادة اللوثة المحزونة في الأوراق على اجتذاب اللواد الضمنية من الهواء وهو الذي يقيم هيكل النبات ، وهذا النبات هو الذي توقف بناء هيكله على الشمس ، ترى فيه أمرا عجبا

تراه مقسما على بقاع الأرض وعلى الأزمنة وعلى حواس الأحياء وعلى ما ينفعهم من غذاء وفاكحة ودواء . فهاتنا أربعة فصول في تخصيص النبات على بقاع الأرض والأزمنة والحواس ومنافع الحيوان : وهالك ياتها :

الفصل الأول

في أن أنواع النبات تكون في جميع الأماكن

إن منها ما ينبت في البراري والقفار ، ومنها ما ينبت على رؤس الجبال . ومنها ما ينبت على شطوط الأنهار وسواحل البحار ، ومنها ما ينبت في الآجام والقباض ، ومنها ما يزرعه الناس ويفرسونه في القرى والسوادات والبساتين ، ومنها ما يكون على وجه الأرض ، ومنها ما ينبت تحت الماء ومن ذلك قصب السكر والأرز والنبالوفر ، وأنواع العكروش ، ومنها ما ينبت على وجه الماء كالطحلب ، وما ينسج على الشجر والنبات (كالشونق) والبلاب ومنها ما ينبت على وجه الصخور كخضراء الدمى ، ومنها ما لا ينبت إلا في البلاد الحارة كالنخل . وما لا ينبت إلا في البلاد الباردة . وما لا ينبت إلا في التربة الطيبة . وما لا ينبت إلا في الرمال وبين الحصى والحجارة والصخور والأرضين اليابسة . ومنها ما لا ينبت إلا في الأرضين السبخة الشورجة .

واعلم أن أرضكم هذه لما آمت في حضانة الشمس المدة الكافية لسن بلوغها قالت لها بلسان الحال أي بنيتي ما هو ذا جاء زمن بلوغك فانهض من مرقدك في معبدك الذي تترين فيه وها أنا ذا أرسلك إلى مدارك الذي تدورين فيه حولي كما أرسلت من قبلك أخواتك الكبريات مثل بناتي (أورانونس ونبتون ولشترى والريخ وأمثالهن) فها هو ذا جاء الوقت الذي أرسلت لتسكوني في مدار خاص وهو منزل بلك الذي تطيبه وهو الضوء الذي يسر من إليك حين تبدئين في الدوران ، وباجتماعه معك تلدين ذرية صالحة إن شاء الله وهي أنواع النبات والحيوان ، ولكن يا بنيتي واسوءناه ، إن أبناءك من ذرية أحد أولادك للسمي آدم سيكونون خارجين عن سنن القوانين حين يطردون من الجنة التي كان أبوم فيها ، فأنا يا بنيتي أنصحك أن تأخذي معك كل ما يجب لحفظ صحتهم إذا ضعفت لتطول حياتهم أمداما ؛ فخذني في هيكلك من العناصر ما ينفعهم ، فها هو ذا المغنسيوم والكبريت والفوسفور والحديد والكلور وأمثالها فإنها ستدخل في مواد نباتية فيكون الأول نافعا في العضلات ، والثاني في الدم ؛ والثالث في المخ ، الرابع في احمرار الدم ، والخامس في هضم طعامهم ، فهذا يا بنيتي هو وأمثاله من الجهاز الذي تأخذه بنات معهن لأزواجهن حتى يلدن الذرية الصالحة النافعة . واعلمي يا بنيتي أن الله قد أعد لأبنائك من ذرية آدم كل ما يحتاجون إليه قبل إخراجك من جسمي لأنه علم أنهم قوم لا يحافظون على صحتهم فأمرني أن أبلغك أمره إذ يقول : إنه سينبت عليك مثلا الجزر ليكون نافعا للجلد كما تقدم ، وأمثال الحنس ليكون نافعا للأعصاب ، وأمثال البرتقال ليكون نافعا للشجاعة ، والبقدونس ليكون نافعا للكليتين ، والطماطم لتكون نافعة للكبد .

وهذه الذرية ستخلق بعد مئات اللالين من السنين . فقالت الأرض : يا أماء . وكيف هذا ؟ فقالت لأن الله يعلم كل شئ قبل خلق السموات والأرض فهناك مناسبة عجيبة بين العناصر والنباتات وبين أعضاء الإنسان عضوا عضوا « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

الفصل الثاني

في تقسيم النبات على الفصول

زمان حصد	مبدأ زرعه	النبات
	في زمن الربيع	أكثر النبات
الربيع	في زمن الخريف	الحنطة والشعير والباقلا والعدس وغيرها
الربيع	في الشتاء	القثاء . الحيار . الباذنجان
الشتاء	الخريف	الجزر . الشلغم . الكرنب . القنبيط
الخريف	الصيف	السمسم . القدره . الأرز
الخريف	الربيع	القطن . القنب

الفصل الثالث

في تقسيم النبات على حواس الحيوان ومنه الإنسان

الحاسة	النبات
حاسة البصر	مناظر الأشجار والأزهار جميعها
حاسة الشم	الأزهار وذوات الرائحة الطيبة كالورد
حاسة الأذن	حفيف الأشجار وغور الأعشاب وهكذا
حاسة الذوق	الحلو كالتمر والتفاح والعنب وأمثال ذلك
حاسة اللمس	نعومة الزهر والقطن مثلا

الفصل الرابع

في تقسيم النبات على منافع الانسان

فمن النبات ما هو للغذاء كالحبوب والقواكه ، ومنها ما هو للدواء ، وهذا يقسم على الأعضاء أو عام ، فأما ما هو عام فمثاله الكافور والصفصاف ، أما الكافور فهو نافع في الأمراض العصبية كالصرع واختناق الرحم المسمي (هيستريا) وذلك بأن تهجم على المريض نوبات عصبية فيفقد الشعور تماما فلا يحس ولو كوى بالنار ويقع ولو كان أمامه برء ويعض على لسانه ، ويقول له العامة (معفرت) وهذا يستعمل له التفرغ وترك السكر ، ورش له مسحوق الكافور على فرشه فهو مضاد للتشنج وإن كان قد اعتاد الاستمناء باليد بمنه

فلك المسحوق على الفرش ، وأما الصفصاف فهو للحصى ، وذلك أن المصاب بالحصى يطالغ بمغلي أوراق الصفصاف بأن يوضع (أوقيتان في رطل ماء) ويغليان ويشربهما مع وجوب ترك المحل الذي أصيب فيه بالحصى حتى يغير الهواء ، ويقتصر على الحمية ولا يأكل إلا قليل المرق والبن ولا يشرب إلا ماء الشعير ليطفي الماء الظمأ ويكون مقام ورق الصفصاف مغلي البلوط وورق الجوز أو الزيتون . فهذان مثلان هو عام لداواة الجسم كله ، أما ما يختص ببعض الأعضاء دون بعض فناله :

- (١) إن الجلد ينفعه أكل الجزر .
- (٢) والأعصاب ينفعها أكل الحس والسبانخ .
- (٣) ولترك الحروف وظهور الشجاعة ينفع أكل البرتقال والليمون .
- (٤) ولأجل شفاء الكليتين ينفع أكل البقدونس وكشك الماز والقجل .
- (٥) ولأجل شفاء الكبد ينفع أكل الطماطم والهنديا (جضيض) والبصل .
- (٦) ولشفاء النزلة المعديّة المعوية المزمنة وهي (القرقة) يأكل المريض السريس الأخضر ، وهو (الشكوريا البرية) مع الغذاء مدة أسبوع ، وهكذا حب الرشاد لأنه يحتوي على أصول مقوية جدا للهضم ومصالحة لتليك المعدة .
- (٧) وشفاء الرأس من ضرر (بطحة الشمس) وهي المساة ضربة الشمس يصب على الرأس ماء بارد مضاف إليه قليل من الخل ، ويترك الرأس عاريا .
- (٨) وشفاء (داء الخناق) المسمى (دفتيريا) يؤتى للمريض بخرقة نظيفة تلف على قطعة خشب رقيقة ثم تغمس في عصير الليمون المصفى ويمس بها حلق الطفل ، ويكرر ذلك كل ساعة مرة .
- (٩) ولإسهال الطفل الذي يسميه الفلاحون بمصر (التابخة) يجب أولا منع سببه وهو أكل الطعام والتمسار قبل استعداد الطفل للأكل بل يجب أن يطعم لبن البقر إذا لم يكن لأمه لبن ويضاف إليه مقدار درهم من مسحوق الطباشير الناعم النقي كل يوم أو مثله من مسحوق القمح النباتي (قحم الخشب النظيف) وقد يضاف إليه (بي كربونات الصودا) :
- (١٠) وبالعلاج وجع الشفة وهو (أمراض التخاع والمنص المعوي والمنص السكوي) باستعمال مغلي بزر الحلة يؤخذ قدر أوقية ويغلى في رطل ماء ويصفي ويشرب منه قدر فنجال كل صباح ، فليواظب على ذلك فإنه لا يشكو مرة أخرى من وجع الشفة ، وليلاحظ ققاء ماء الشرب ، فالأحسن أن يغلى في إناء ويؤخذ الصافي منه ويرد في أوان ويستعمل ، أما الترويق بنوى المشمش أو بالقول فشيئا ضار كبير ، فالأول قتال والثاني يفتن ويأتي بجرائيم مضرة ، والأحسن وضع نصف أوقية من القمح النباتي النظيف المصقول مرارا في الزير ، ومتى فرغ الزير يؤخذ القمح ويشل تانيا ويفعل به ما فعل أولا ، فهذا ربما يفيد في إزالة وسخ الماء ، وينفع في هذا المرض أيضا أكل الكبر وهو معروف في حقول البرسيم في مصر ، وينفع أيضا فنجان من مغلي بزر الحرمل عند تناول الإفطار مدة أسبوع .

تلك عشرة كاملة بعد الثلاثين الأولين اليمين . قلت : هذا كله من كتابين : أحدهما كتاب « طب الركة » تأليف الدكتور عبد الرحمن إسماعيل للتخرج من القصر العيني بمصر ، والثاني كتاب في الطب تأليف (السيزوبليم ويلسكوكس)

وقد بذلت جهدي في أن أجعل هذه الأمثلة مستوفاة بحيث يمكن الانتفاع بها في العالجة ولم أقص من العالجة المذكورة فيها شيئا مما ذكر في الصدر الذي نقلت منه .

هنالك اطلع على هذا أحد العلماء فقال لي : هذه الفصول الأربعة طال الكلام فيها ، وهل هذا كتاب طب ؟ أم هو كتاب زراعة ؟ إن هذا تفسير للقرآن . وإنما ذكرتك بهذا لتلايته يسهل عليك جمال العلم فنسج أصل الموضوع ، فيرى القارى أنك تجاوزت الحد المقرر للتمثيل في التفسير : قلت : كلا . ما غفلت وإنما هذه الفصول جعلتها قواعد أربعة أبني عليها قصور الحكمة وقلاع العلم إن القمح والقطن وأنواع الحضر والريحان والفاكهة يزرعها الناس وعمر عليهم الفصول والسنون وبأكلون ويتفكرون ويمرضون ويتداوون ثم يموتون وأكثرهم لا يذكرون . فها هنا ذكرنا هذه الأمور ، وسأبين هنا كيف تمثل الروايات حول الناس صباحا ومساء وهم لا يشعرون ولا يذكرون ، غاية الأمر أن يقال فلان غنى ، وفلان فقير ، وفلان جاهل ، وفلان عالم ، أما هذه الفصول التي تمثل في مشاهد الطبيعة فهم عنها معرضون ، وقل من يخلق في هذه الأرض ثم هو يفكر في أن الشمس خرجت منها أمواج الأشعة فسافرت حتى وصلت إلى البحار ، فأثارتها وأثارت الهواء فكانت سحب ثطر فرزق وتمر ودواء الخ .

إن أكثر الناس لا يعلمون « قتل الإنسان ما أكرهه » « إنه كان ظلوما جهولا » ضوء وهواء وجب يدفن في الأرض وماء ينزل عليه ومواد خضراء بعضها فوق بعض ذات أوراق على ساق فأزهار فاتنة ، ثم إن كل ثمرة أوجب له عضو من أعضاء جسم الإنسان يداويه . فأى مناسبة بين الشمس التي بدت عنا مسافة (١٢) ستة بسفر قلة الدفع وبين بذور تملق في الأرض وماء يخالطها ثم ينتج دواء أو غذاء لمخلوق بيدها لئلا تناسب بينهما البتة ، أى مناسبة بين بذور ومياه وأضواء وبين رجل في الحقل حتى إن هذه الحبوب والأوراق المختلفة تصمم منافها على أعضائه من قلب وكبد ومعدة وأمعاء إلى آخر ما تقدم . بخار فسكر العاقل فيقول : نور يسوق غازا وسائلا وهذان مجريان في الجوى بلا نظام ، ثم هما يؤثران في غيرها وهكذا حتى ينتهى الامر إلى منقمة عامة لكل حي .

فقال صاحبي : لقد ذكرت أن هذه أشبه بالروايات والناس لا يعلقونها . قلت نعم أن أصول الروايات على قسمين : فصول يعقلها الحكماء ، وفصول يعقلها الجهلاء ، والقلاء والجهلاء كل منهما فرح بمالديه ، فهذا بالحيال مغرور وهذا بالحقائق في حبور فيا بعد ما بينهما . إن بينهما بعد للشرقين وللغربين فقال : حدثني عن الحيال الذي للعوام وللحقائق التي للخواص على شريطة أن يتحدوا في معنى واحد حتى أدرك الفرق بينهما ؟ قلت : أذكر لك أولا قصة خيالية من قصص (ألف ليلة وليلة) فقد قدمت ذكرها في (سورة الكهف) وهي قصة مدينة النحاس ، ذكرت هنا من أنواع الزينة التي أبدعها الله في عقول العلماء فأبهجت القلوب ذلك أن الكتاب تصور أن موسى بن نصير المعروف بأنه مع طارق بن زياد اللذين فتحا الأندلس كان معه رجل اسمه عبد الصمد قد كشف عمودا من النحاس فتحاه فخرج جنى كان معنبا من أيام سليمان عليه السلام ، وحكي لهما تاريخ حبه . ثم ذهبا إلى مدينة النحاس وهي كبيرة جدا طاف الرجال حولها على خيولهم يومين حتى رجعوا للمكان الذي خرجوا منه ، وأدهشهم سورها الذي لا يمكن اقتحامه لمنظمة ارتفاعه ، ثم عروا على مفاتيحها فوجدوا جواهر من ذهب وفضة وألماس وأقوت مما لا يحصى إلا الله والناس صرعى كل في مكان في السوق والقصور والنازل ، ومن أعجب العجب أنهم رأوا قنطرة جميلة وعيناها تنظران فلما فلم ترد فرفوا أنها ميتة ولكن عيناها تتحرك بالحكمة تقرب واحدها ليأخذ ماعليها من الحلى والحلل التي لا نظير لها في الدنيا ، فاقض عليه سياتان واقفان حولها بتصور الحكمة فضرباه بالسيف فقتلاه فتركوها ، ثم وجدوا لوحا مكتوبا فيه قصة هذه المدينة والمجاعة التي حلت بها ، فأقرأ للخص بنامه في (سورة الكهف) أو فارجع إلى نفس ألف ليلة وليلة .

فهذه الحرافة تلذ السامعين من الصغار والنساء والعامية الجهلاء ، لأن فيها مفاجآت عجيبة وأمورا

غريبة والخيال يصبو إلى هذه الغرائب، فإنه إذا سمع أن هناك مدينة عظيمة جدا دهش لأنه لا نظير لها ، وإذا سمع أنها مملوءة جواهر وأن فتاة جميلة تحرك عيناها دهش جدا ، وإذا سمع أن رجلا قتل بسيف من تمائيل واقفة زاد دهشه ، فهذه الرواية جعلت لتعليم الناس الزهد في الدنيا ولا سبيل لتلك إلا بهذه الحرافات فهي حسنة جدا لصغار الأحلام . وههكذا نجد رواية أخرى جاء فيها أن ابن ملك من ملوك مصر رأى في خزانة أبيه خلعة بهجة فيها صورة فتاة جميلة وهو في سن الرابعة عشرة فهمم بها وأعطاه أبوه بعد اللثام والتي ما طلبه من رجال الجند والتسائر والمدة وسافر إلى أقصى الشرق ومات جميع رجاله غرقا تارة وقتلا أخرى بعد أن وقع في الأسر مرارا ، ورماء القدر في بلاد الفرس بعد رجوعه من الشرق الأقصى ففر على ابنة ملك الجن في حديقة وهي نفس الصورة التي كان يطلبها فزوجها ورجع بها إلى أبيه وكان يومه مشهودا .

فهذه القصة تقرؤها في نفس كتاب « ألف ليلة وليلة » وربما مرت الإشارة إليها في غضون هذا التفسير . ولعمري ما هذه القصة وأمثالها إلا رموز لمعرفة الحقائق التي نحن بصددها ، فإننا نعيش في الأرض ولا ننفق من هذا الوجود شيئا ، ولن ننال تلك الحقيقة الناصعة التي هي السعادة الحقة إلا بأن نجعل أجسامنا وأموالنا قربانا لأجلها ونلقى بمهجنا في سبيل العلم والحكمة أو في ساحات الحرب ، فنكون أدينا ما وجب علينا . فهذه للمالك التي وقع فيها ابن ملك مصر وما صادفه من ذلك وجوع وعري وفقد الرجال والمال ثم الأسر والضرب والفرق ثم النجاة . كل هذا ضرب مثلا لطلاب المجد والملا، فهم لا ينالونه إلا باستقامتهم عن هذه الحياة والوقوع في المهالك والمهاوي والشاق العظيمة فيكون الفوز .

ولقد أردت أن أؤلف رواية خيالية تسبقين بها سبيل هذه الفصول الأربعة في ضوء الشمس والهواء واللاه والنبات وتقسيمه على الفصول الأربعة وعلى أعضاء الإنسان مع تباين ما بينها فأعيتني القريحة بعد الكد والنصب حتى إذا كنت يوم أمس بعد الظهر وهو يوم الأحد ١٠ رمضان سنة ١٣٤٩ هجرية وأنا سائر في منيل الروضة وهناك جلست تحت شجرة فأخذتني وأنا جالس سنة من النوم غيل لي كأن أمامي رجلين يتجادلان . فقال أحدهما : هل أحدثك حديثا عجيبا في غرائب هذه الدنيا . فقال أحب ذلك . فقال كنت الليلة نائما فأنتاني خمسة رجال فأيقظوني فرأيت جسمي مطروحا على الأرض كأنه ميت فقات أنا ميت قالوا أنت حي وهذه روحك ولها اتصال بهذا الجسم وسترجع إليه ؛ وسارا بي حتى ارتفعنا إلى السماء ووصلنا إلى الشمس :

(١) فرأيت حمامتين : إحداهما ذات طوق أحمر ، والأخرى ذات طوق أبيض . فقلت ماهاتان برحمتك الله ؟ فقالوا : اصبر قليلا .

(٢) ثم نظرت فوجدت هاتين الحمامتين أسرعتا في الجري حتى وصلنا إلى الهواء المحيط بالأرض ثم أخذتا ترفرفان كثيرا حتى رأيت عربات لا عدد لها تجرى في الجو ولكن لا عجلات لها . فقلت : ما هذا ؟ فقالوا اصبر قليلا .

(٣) ثم عمدت الحمامتان إلى البحر فأخذتا تضربانه بأجنحتهما فخرجت قرب لطيفة الصنع مملوءة ماء وصارت تطير في الجو هنا وهناك بغير نظام ، إذن هناك عربات وقرب ماء كلها طائرات شرقا وغربا وشمالا وجنوبا لا نظام لها ولا ثبات .

(٤) وبينما أنا متعجب من هذه الحركة المختلطة إذ رأيت هذه القرب قد حملت على تلك العربات

وأحدث هذه مع هذه حتى صارت كأنها سفن تقترب من بعضها ، فعببت كل العجب ؟ قلت ما هذا برحمتك الله ؟ أدركوني وأسعدوني حتى أفهم ، فقالوا : اصبر .

(٥) وبينما أنا كذلك إذ رأيت هاتين الحمامتين عمداً إلى تماثيل مصنوعة من الطين مجوفة فأخذتا ترفرفان عليها ، فرأيت تلك الصور أخذت تتقلب من حالها الأولى إلى حال أم وأرقى وأخذ الطين يصفو شيئاً فشيئاً حتى صار لها وعظماً وفيه عيون وأسماع وأبصار : ثم أخذت التماثيل تتحرك وتمشي وتتكلم ، فأخذتني العجب كل مأخذ ، وهذه الصور مختلفة الأشكال والألوان والأعمال من كبير وصغير .

(٦) ثم رأيت صورة طينية أكبر من جبال مهلها بهيئة إنسان ، وهذه الصورة أخذت الحمامتان ترفرفان عليها ، وانضم إليها ألوف مرفرفات حتى تحركت ونطقت ، وهناك أخذتني الرعب كل مأخذ وقلت إن هذا الذي أمامي هو ما يقال له القول ولو أنه خطأ خطوتين نحوى لفتاى . فقالوا لا تخف اصبر قليلاً .

(٧) ثم صارت الحمامتان إلى أرض قفر ، فأخذتا ترفرفان عليها وقد رأيت هناك عملاً كثيراً تضع ما يشبه الحصى أو الرمل والحمامتان تضربان دائماً على وجه الأرض فوق تلك الرمال ، فما أسرع أن رأيت تلك الحصى والرمل قد ارتفعت فوقها أعمدة شيدت عليها قصور خضر وفيها محازن عجبية .

(٨) وتلك المحازن فيها ما يشبه تلك الحصى والرمل التي جلبها النمل . قلت ما هذا برحمتك الله : قد والله رأيت عجبا لم أسمع ولم أر مثله ؟ فقالوا اصبر .

(٩) ثم سمعت من ذلك الإنسان الكبير الجثة أصواتاً من جميع جسمه ، وتلك الأصوات مختلفات من معدته ، ومن أمعائه ، ومن كبده ، ومن قلبه ، ومن رأسه ، ومن جنبه ، ومن نخاعه ، ومن رتته ، ومن طحاله ، ومن كليتيه .

(١٠) فبند ذلك رأيت جماعات من النمل قد أسرعت شيئاً إلى تلك المحازن فصارت تأخذ منها وتلقي على مواضع تلك الأصوات فلا تكاد الجملة تضع بزراً من تلك البزور على الجنب أو الرأس أو المعدة حتى يسكن الصوت حالاً ، وتارة يتأخر قليلاً ، فمناك اعترانى أشد الدهش ، قلت ما هذا برحمتك الله ، فإني لاصبر لي على هذه العجائب ؟ فقالوا لي : أما الآن ففهم قد تم لك العلم .

قال : قلت وأى علم ؟ أنا لا أعلم شيئاً . فقولوا لي برحمتك الله ما هما هاتان الحمامتان . فقال أحدهم وهو الرئيس : الآن أحدثك ، إن الناس في الأرض نيام ، وهذا الذي رأيته هو الذي يروونه بأعينهم ولكنهم لا يفقهون وعلاؤهم وجهلاؤهم على حد سواء . قال قلت ولم لا يفقهون ؟ قال لأن هذه روايات خلقوا فيها وهم أنفسهم من المثليين والمثلي في مرسع التمثيل غير النظارة ، فأنت الآن من الشاهدين وأهل الأرض هم للشهود . فلما كنت في جسمك كنت مشهوداً ولكنك الآن شاهد والشاهد غير الشهود . فما أهل الأرض إلا صور متحركات يشهدهم فيها للقربون . فأما أنت الآن فلست منهم بل صرت روحاً فصرت أشبه بالشاهدين . قال قلت ولم لا أكون من الشاهدين ؟ قال يابني إن الشاهدين ليسوا هم الذين تضرب لهم الأمثال تخيب مثل هذه الأمثال التي سأبينها لك بل هم الذين يدركون نفس الحقائق ، وفرق بين الثريا والترى ، ومدركو الحقائق هم للقربون الذين يقول الله فيهم « الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا » والوادة الحقيقية لا تكون إلا بمعرفة الحقائق فلا لا تخيلاً ، فما أنا ذا أقص عليك ما رأيته

التي تلبسه لأهل الأرض . قلت : فما هاتان الحامتان إذن ؟ قال : أما ذات الطوق الأحمر فهي الحرارة
وأما ذات الطوق الأبيض فهو الضوء ، وأما العريبت فهي الريح ، وأما القرب للملوءة ماء فهي البخار الخارج
من البحر يثقلط الحرارة عليه فيكون ياجتاعهما سحاب ، وأما ضرب الحامتين بأجنحتها على الأرض
وعلى ما يشبه الحصى والرمل فذلك أن الحرارة والضوء لا بد منهما في ظهور النبات من الأرض ، وأما تلك
الصور الطينية فهي جميع الحيوانات فهي من الطين مصورات ولولا الحرارة والضوء ما كانت لها حياة ،
وأما الصور للصورات فوق الأعمدة وفيها الخازن فهي النباتات ، وأما ذلك الإنسان العظيم الجنة كجبال همالايا
فهو الأمم الأرضية صورت لك بهيئة إنسان كبير الجنة ، وأما الأصوات الخارجة من أعضاء جسمه فهي
الأمراض الموزعة على الأعضاء الجسمية في أفرادها ، وأما طوائف النمل الحاملات لتلك الحبوب من الخازن
في تلك الصور فهم الأطباء يضمنونها على مواضع الداء لتشفي . قال ثم قال هذا الطيف لي : فهذا هو تمثيل
أحوال محيطكم ، فإذا رجعت روحك إلى جسمك فقل لهم : يا أهل الأرض . إن حولكم عجائب وعجائب
ولكنكم لا تفقهونها لأنكم أنتم صورتمثلون ولستم من المتفكرين ، ولقد أقسم الله بالشاهد والشهود وقدم الشاهد
لأن الشاهد حقله ويكون من التقريين وهو الذي عقل عن الله وأدرك رحمته فلا يهوله الفزع الأكبر لأنه
اطلع على الأسرار وعرف الحقائق فلم ير من الله إلا الرحمة فإن أمانته أو أحياءه أو أقره أو أغناه فهو في السعادة
الأبدية سعيد في الدنيا بالمع ، وسعيد في الآخرة بالمع ، فأما أمثال هذه الخيالات فهي لفتح باب العشق والحب
ومنى كان الحب وصل المبد لحالقه : والصيد على قسعين : عبيد عبدوا بالرغبة ، وعبيد عبدوا بالرهبة ، فأهل
الخيال عبيد الرهبة ، وأهل الحقائق والحب والعشق عبيد بالحب ، وإلى الأول الإشارة بقوله تعالى « إن كل
من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا » وإلى الثاني الإشارة بقوله « سبحان الذي أسرى ببيده
ليلا الخ » تلك الناس تارة يكون بالرهبة ، وتارة يكون بالحب والعشق ، وأفضلهما الثاني . قال : ثم قال لي
الطائف وهو رئيس الجماعة الذي معه :

• وما كل مصقول الحديد يماني •

قال ثم قلت لرئيس الجماعة للذكور : حياك الله عرف أن الصور الحضر تمثل المزارع وأن الخازن فيها تمثل
الحبوب فضلني رعاك الله بما علمك الله بعض الحقائق بعد الخيال عسى أستيقظ فأخبر أهل الأرض فيصلوا إلى الحقائق
قال أما الآن قسم لأنك اشتقت إلى العلم ولا علم إلا بعد الشوق ، والشوق أعظم أبواب السعادة ، فقد رأيت
النبات في الأرض ؟ قال نعم . قال وهو مقسم على الأزمنة والأمكنة والأعضاء والحواس . قال قلت نعم وهذا
أمر عجب ! لا أعرف سره . فقال : قد علم الله أنه سيخلق الإنسان وأن أنسب الأوقات للزرع فعمل الريح
التي فيه تظهر أكثر النباتات . قال قلت نعم . قال : لو أنه تعالى لم يجعل الزرع إلا في ذلك الوقت لتمطل
الإنسان في بقية السنة ، فدبر الأمر وجعل لبقية الفصول أنواعا من الزرع ليعمل الناس لأنهم إذا لم يعملوا
كان ذلك تعطيل لهم ومرضا لأجسامهم ، ولو أن التبت اختص بمكان دون مكان لاجتماع الناس في مكان واحد
م والحيوان فهل سلكوا فذلك وزعه على أمكنة كثيرة . قال قلت هذا عجب ! والله إن أهل الأرض لا يفتكر
أكثرهم في ذلك . قال : لهذا أعلمك . ثم قال : وهل الحرارة والضوء والهواء والماء كانوا علماء بكل شيء
حق عرفوا أن بذور ارممة في الأرض فاجتمعوا عليها ثم حصل النمو فوزعت محصولاتها على الأعين
والأذان والجلود والبطون والأكباد والقلوب الخ بحيث أصبحت تلك الأمور للثمرة التي يرى ظاهرها لانظام
لها وكأنها جاريات بنير حسب قد صارت مقصودة قصدا حقيقيا بحيث توزع نحراتها على حاجات الحيوان
والإنسان عضوا عضوا وحاسة حاسة أي أن النباتات البالغات عندكم الآن (٢٥٠) ألف نوع كلها موزعات على

أعضائكم وحواسكم مع أن من يرمى الضوء والحرارة والهواء وللااء والأرض وهي تتفاعل لا يخطر له أن
 النتائج تكون منظمة هذا التنظيم للدهش ، وأي نسبة بين الشمس التي تجري وبينها وبينكم آحاد وآحاد
 وهي تعمل ضوءا لكم وبين الأعين والمدات والجلود ، ثم أن أرضكم كما تعرفون أتم في العلوم كانت قطعة
 من الشمس ، وهذه القطعة فيها الجير والفسفيوم والكبريت والفسفور والحديد والكلورين ، فهذه المواد
 بما يدخل في النبات عندكم ، وكل هذا مرسل من الشمس في أجزاء الأرض ، فلم تنف الشمس عند هذا
 الحد ، فأمرها الله بإرسال ضوء وحرارة ينبتان منها لئسما ما قصد الله سبحانه كما خلق الله عقولكم بأبني
 آدم فهي كهذه العناصر ساكنة لا عمل لها ، ولكنه يرسل لكم أنبياء ، ويلهم من بينكم حكما فيحكون
 أجسامكم وعقولكم كما أنكم ترون الضوء والحرارة ينبتان من الشمس فيساعدان :

(١) الجير المذكور المفيد للمظم الشافي للجروح على أن يدخل في نبات الكرنب وفي اللبن والجينة التي
 لم يؤخذ زبدها وفي السبانخ والبصل والشمس والتين والبرقوق والطماطم والكرفس والباميا
 والرودة

(٢) ويساعدان أيضا للفسفيوم التي يكون قوة في العضلات ويمنع التئق فيدخل بسببها في السبانخ
 والحس والخيار والطماطم والبرتقال والشمر والذرة والقمح والليمون والتين والباميا .

(٣) ويساعدان أيضا الكبريت التي هو لتنظيف للدم للناخ للروماتيزم على أن يدخل في السبانخ
 والقنبيط واللفت والفجل الأحمر والطماطم والقرلة وكشك للآز والجزر والكرنب والبصل والباميا

(٤) ويساعد الحرارة والضوء أيضا الفسفور الذي هو مفيد للسخ على أن يدخل في الفجل والقنبيط
 والخيار والجوز والبسة والندس والقمح وفي الحس والسبانخ ، وهكذا في صفار البيض وكشك للآز

(٥) ويساعدان أيضا الحديد وهو الذي يطي الدم لونه الأحمر على أن يدخل في تركيب الكرنب الأحمر
 والسبانخ والبصل والزيت و صفار البيض التي والباق والبرقوق والبنجر وكشك للآز والطماطم

(٦) وهما أيضا يساعدان الكلورين وهو يساعد الهضم لتنظيف للمعدة على أن يدخل هيكلا الكرنب
 وملح البحر والجزر والسبانخ واللبن وسلك البحر للملح والفجل والجينة وجوز الهند والبنجر

ثم قال : هذه المواد الست مما يدخل في تركيب النباتات قد أرسلها الله مع الأرض يوم أن انقضت من
 الشمس ، ثم أرسل لها الضوء والحرارة فزلت عليها فكانت سببا في دخولها في هذه النباتات المخرقات على
 أعضاء بني آدم وعلى حواسهم بحيث لا يكون هناك داء إلا وله دواء ، ولا حاسة إلا ولها ما يطلبه ، ولا حاجة
 من حوائجكم إلا كانت حاصلة موجودة قد أثبتت بذورها وأصولها من عوالم فوق تحسكم وفي الليلة
 رزقكم وما توعدون .

ثم قال : فهذا هو ما سألت عنه ، فهل فهمت ؟ قال فهمت . يقول مؤلف هذا الكتاب : كل هذا وأنا
 مصغ إلى القائل وعندى أشد الدهش والبهجة ، وأقول في نفسي . يلرب كيف أكون في حيرة وقد عجزت
 فضلا عن تمثيل ما يحيط بنا من العجائب بحيث يكون أشبه بالروايات ، وكيف بثت ؟ والله يأنس حقيقيا من
 أن أمور ذلك جورا خيالية ، ثم كيف أصبح ذلك في المحاورة بين هذين الرجلين ؟ فهل هذه الأرواح هي
 إخوان روعي أم أي شيء هذا ؟ ثم أردت أن أسأل هذا للتكلم ، لأسأله من أنت ؟ فاستيقظت وقد عجزت
 كل العجز وحمدت الله على أنه علمني ما لم أكن أعلم ، وأني الآن يكاد قلبي يطير من بين جنبي إذ عرفت
 ما عجزت عنه والحمد لله رب العالمين . كتب ضحى يوم الاثنين ١١ رمضان سنة ١٣٤٨ هجرية .

اللطيفة الثالثة

كشفت النقاب عن بعض أسرار قوله تعالى «ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا
فهو له قرين»

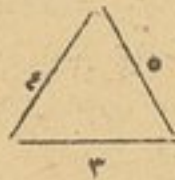
حضر صديقي العالم الذي اعتاد أن يعادني في هذا التفسير . فقال : لقد أوامأت إلى تفسير آية «ومن
يعش عن ذكر الرحمن الخ» عند الكلام على البسمة ، ولكن النفوس اليوم يعوزها الوقوف على الحقائق ،
وكما أن علم الطبيعة لا يورث اليقين إذا اشتقناه اشتقاقا هكذا علم القرآن ، فإذا لم نصل إلى النهايات فلنسا
عداء ، ولنسا سعدا ، فهل هذه الحياة الدنيا شقاء والسعادة محصورة في ذكر الله تعالى ؟ نحن نريد التحقيق
في هذا اللغز بالمثل . قلت : أيها الحبيب : إذا أردت الوقوف على حقيقة هذا الموضوع فلا مندوحة لك
من الصبر على البحث ممي والتنقيب . فقال سأصبر . قلت . جاء في كتابي « بهجة العلوم » في الفلسفة
العربية وموازينها بالعلوم المصرية التي ألفتها وهو الآن تحت الطبع ما يأتي من علم الحساب :

(أولاً) إن كل عدد قدم بنسبتين ثم زيد عليه أحد القسمين يكون المجموع من ضرب جميع ذلك في
نفسه مساويا لضرب ذلك العدد قبل الزيادة في تلك الزيادة أربع مرات والقسم الآخر في نفسه ومثله أن
تربيع (٣ + ٣ + ٧) فهذا يساوي ١٠ × ٣ × ٤ زائد ٧ .

(ثانياً) كل عدد قسم بنسبتين ثم زيد عليه زيادة ما يكون الحاصل من ضرب ذلك العدد مع الزيادة
في نفسه وضرب الزيادة في نفسها مجتمعا مثلي ما يكون من ضرب نصف العدد مع الزيادة في نفسه وضرب
نصف العدد في نفسه ، مثال ذلك (١٠) قسمت نصفين ثم زيد عليها اثنان فأقول إن ضرب الإثنى عشر في
نفسه والاثني عشر في نفسها مجتمعا مثلا ما يكون من ضرب ٧ في نفسها و ٥ في نفسها مجتمعا .

(ثالثاً) كل عددين مجذورين على الولاء إذا ضرب جذر أحدهما في جذر الآخر وزيد عليه ربع
تكون الجملة عددا مجذورا ، فإذا ضربنا جذر ٤ في جذر ٩ وزدنا ربعا الجذر المجموع ٢٥ فهذه ثلاثة
مسائل من علم خواص الأعداد ، وهالك ثلاثة أخرى في الهندسة وهي :

- (١) زوايا المثلث الثلاث تساوي قائمتين .
(٢) مربع وتر الزاوية القائمة في المثلث يساوي مجموع مربعي الضلعين الآخرين ، فإذا كان أحد
الضلعين ٣ والثاني ٤ فإن الضلع المقابل للزاوية القائمة يكون ٥ ومربع ٣ = ٩ ومربع ٤ يساوي ١٦
ومجموعهما ٢٥ ومربع ٥ يساوي ٢٥ وهو المطلوب وهذه صورته :



- (٣) الزاويتان الحادتان من وقوع خط مستقيم على آخر مستقيم على جانب واحد منه هما قائمتان
أو تعادلان قائمتين . فهل فهمت أيها الصديق هذه المسائل ؟ قال إنها في غاية الوضوح ، إن مسألة الزوايا

الثلاث في الثالث تقدمها ٣٢ شكلا حتى أمكن البرهنة عليها ، ومساءة مربع الوتر تقدمها ٤٦ شكلا كذلك ، ومساءة الزاويتين تقدمها للبرهنة عليها ١٢ نظرية في الهندسة . قلت : حسن جدا . إذن هذه للسائل ليست من البديهيات بل هي نظريات ، ولا جرم أن النظريات ترجع إلى البديهيات في آخر الأمر كقولهم « الكتل أعظم من الجزء » وهذه النظريات والأشكال التي تقدمت للسائل للتقدمة قد جعلت لتوصل هذه المسائل إلى البديهيات ، قال نعم : قلت فلنسر في بحثنا على هذا النور المسمى لئلا لما قصدت فقول : لتتخذ هذه المسائل الهندسية والحسابية الست مقدمات كما جعل الناس القضايا البديهية مقدمات وبنوا عليها علومهم الجزئية كالحساب والهندسة والفلك والجبر وغيرها ، فلنبن نحن علما الذي هو سيد العلوم وهو العلم الأعلى وهو أصل العلوم على تلك العلوم الجزئية (وبعبارة أخرى) إن علماء الرياضيات والطبيعيين يتخذون المحسوسات والبديهيات أساسا وبنوا عليها علومهم الجزئية التي بها نظمت أمور الحياة في الأرض فلتتخذ نحن نفس علومهم التي برهنوا عليها ونجعلها أساسا للعلم الأعلى وهو العلم الذي به السعادة والحكمة والجمال للطلق ، ذلك لأن الناس مع شيوخ علومهم وكثرتها تزام دائما في قلق ، وآراؤهم في حيرة واضطراب والناس في حرب وضرب واختلاق واختلاف ، لافرق بين عالمهم وجاهلهم وأرباب العلوم ورجال الصناعات سواء في ذلك .

وكل يدعي وصلا ليلي وليلى لا تفر لهم بذاكا

فتحن هنا نريد أن نتوصل إلى العلم الذي يربح جميع الطوائف وهو في اليقين كاليقين الذي يعرفونه في العلوم الرياضية ، ومتى عرف الإنسان اليقين سعد السعادة التي لا نهاية لها . فقال صاحبي : إنك لتحدث عن أمر عظيم ذي بال وهو شريف ، وأود أن يمنحك الله قوة الفكر حتى تعرفنا هذا العلم البديع الذي لو تحقق لأعطى النوع الإنساني الطمئنان والاطمئنان هو التميم الأكبر في هذه الدنيا . قلت أيها الصديق ستسمع ما يسرك ويكون عندك اليقين ، لننظر في المسائل الحسابية الثلاث وأخوانها الهندسية التي قدمناها هل هي خاصة بالأعداد التي كتبناها وأشكال هندسية خاصة ؟ أم كل قاعدة منها تشمل أعدادا وأشكالا كثيرة . قال بل كل منها تشمل مسائل لا حصر لها هندسة وحسابا ، فأدرقام التي ذكرتها والزوايا والثلثان رسمتهما ما هما إلا مثالان لا غير ، فهناك من الزوايا ومن الأرقام مالا يعدو كله مطبق على هذه القواعد ، قلت : أصبت الرمي ، أتري هذه القواعد الكلية مشاهدة بأبصارنا . قال : كلا ، بل نحن نقلها بصائرنا والشاهد بالأبصار :

(أولا) المدودات الخارجية والمواد التي دخلتها الهندسة في العالم للشاهد كاللنازل والقلاع .

(ثانيا) الألفاظ الدالة على تلك المدودات والمواد الخارجية .

(ثالثا) أرقام الأعداد وأشكال الهندسية للرسومات في الدفاتر والكتب ، فالألفاظ والأرقام تدل على

ما في الخارج ، وما في الخارج صورة لما في الذهن ، أما الذي في أذهاننا فهي القواعد الكلية التي لها صور كثيرة في الخارج . قلت الله أكبر ، وصلنا إلى المقصود وأشرنا على عالم الجمال والكمال والدوام ، قل لي أيها الحبيب ماذا تقول في هذه القواعد الكلية التي في ذهنك أنت في الحساب والهندسة والمنطق والفلك والطبيعة والكيمياء هل اعترها يوما ما يتغير أو تبدل من يوم أن عرفتها ، قال كلا هي دائمة في عقل وهي أشبه بالمخازن ومنها أتصرف في أعمال اليوم . قلت حسن ، أيهما أكثر دواما ، خزائن الذهب والفضة ومخازن الحب ونحوها أم هذه ؟ قال بل هذه هي الدائمة . قلت : ولكن الناس لفتة أكثرهم لا يفرحون بهذه المخازن التي في أنفسهم وإنما يفرحون بالأمور الجزئية الوقتية ، فقال مني إلى ما هو أرق من هذا قل لي

أيها الحبيب : ما أتى أدرك هذه الكليات العلمية . قال نفس ، قلت : فهل لهذا نظير في العالم المحسوس قال نعم ، العين والصورة الواصلة إليها ضوء الشمس من شجرة الورد مثلا ، فالعين نظير نفس وقواعد الحساب والهندسة كصورة شجرة الورد الواصلة إلى عيني من ضوء الشمس . قلت حسن جدا ، فلترق في البحث إلى درجة أخرى . فقال : إنى إلى ذلك وامق . فقلت ما أتى كان السبب الظاهر بإذن الخالق في نمو الشجرة . قال الشمس . وما أتى كان السبب أيضا في أنك رأيتها ، قال الشمس أيضا . فقلت : إذن الشمس سبب لظهور شجرة الورد وسبب لرؤيتك إيها . قال نعم . قلت حياك الله ويحك : فبين لي ذلك . فقال الشمس تضيء ولها حرارة . والحرارة سبب البخار . وجرى الهواء والبخار يحمل السحاب فالبخار والهواء مما سببها الظاهري الشمس ، والسحاب يتكون مطرا ، والمطر (بإذن الله) كان النبات ، وأيضا تقدم في (سورة يس) أن الورق للرسوم هناك في داخله مواد ملونة عامة في سواحل هناك ، وهذه المواد الملونة تساعد على ضوء الشمس على تناول المواد الفعمية من الهواء فينبو النبات ، ومن النبات شجرة الورد المذكورة ، ثم ضوء الشمس كما أنه ساعد على التغذية هو نفسه الذي يرسم صورة شجرة الورد ويوصلها إلى حديقتي فأناراها .

قلت : أحمد الله أنك تذكر العلوم إجمالا وتفصيلا ، ولم تنس شيئا مما ذكرناه في هذا التفسير .
ثم قلت إذن عندنا :

- (١) نفس .
- (٢) وشجرة الورد .
- (٣) وصورتها المرسومة بالضوء .
- (٤) وعين الإنسان .
- (٥) والقواعد العلمية .
- (٦) ونفوسنا .

نفوسنا كالعين والقواعد العلمية كصورة شجرة الورد التي وصلها الضوء إلى العين فبما تقدم فلم يبق إلا مثال الشمس ومثال نفس شجرة الورد ، فما نحن أولا لدينا ست مقدمات واضحة : أربعة محسوسة واثنان معقولتان ، فلم يبق إلا الاثنان الباقيتان ، فلنبحث عنهما كما يبحث علماء الجبر إذ يتوصلون بالمعلوم للمجهول فنقول : أيها الحبيب ، هل تظن أن ضوء الشمس يوصل لأعيننا صورة شجرة الورد وهي ليست موجودة قال . كلا . فالضوء لا يوصل إلا صورة ما هو موجود فعلا . قلت حسن . أفلم ترى أن الصورة الكلية التي في أذهانتنا في سائر العلوم لها أصل وهي صورته ، قال ، إن كليات العلوم أصلها هو الذي نشاهده في الخارج من المدرجات ومن الباني في الهندسة وهكذا . قلت : هذه جزئيات وتلك كليات وما أبعد الفرق بينهما ، فسورة الكلى في عقولنا منقولة عن معنى كلى ، كما أن صورة شجرة الورد الواصلة لبيوتنا منقولة عن مادة جزئية ، وليس من المقول أن الكلى يكون عن جزئي ، وما الجزئي إلا مثال له ، فانظر لمثال شجرة الورد والشمس ، وقل لي ، أأنت ترى أن القواعد التي نحس بها في عقولنا صور لأمر كلية معنوية ثابتة في أنفسنا وصانع العالم هو الموجود لها وهو الذي أظهر صورها لعقولنا بلا واسطة كما أن شجرة الورد المذكورة صنعها بواسطة الشمس وأظهرها لبيوتنا بوساطتها ، أو لست ترى أيها الحبيب أن مثال الشمس جميل به أمكننا أن نعرف هذه للسألة المنظمة فنقول :

إن الله الذي هو ثابت لا يتغير قد خلق أمورا كلية معنوية وهي أمور روحانية ثابتة لا تتغير وهو نفسه

أهداها لعقولنا ففرقها وعشنا بها وضرب لها مثلا بالشمس وبالخلوقات الأرضية ، فكأن الشمس سبب في حياة النبات والشجر كانت هي أيضا سببا في رؤيتنا لها والله تعالى سبب في خلق العاني الدائمة بدوامه ، الجلية للستمة من جماله ، وحين تشاهد أعيننا صور العوالم للشاهدة يكون ذلك سببا في استيقاظ عقولنا واستعدادها إلى انكشاف تلك القضايا السكية التي يفرضها الله على عقولنا ، وبهذا تحل مشاكل لا حد لها في عالنا الأرضي وتظهر حقائق كانت مخبوءة .

فها نحن أولاء قد وصلنا إلى القصور ، واستنتجنا نتائج باهرة ، وقدنا ما لم نشاهده على ما شاهدناه وأدركنا أن العاني السكية التي نعس بها في عقولنا والتي عليها مدار حياتنا هي أصل لكل ما نشاهد في هذه الأرض وهي صنع الله نفسه بلا واسطة وهي دائمة ، وإذا ثبت هذا في علومنا التي نرجع إليها في جميع أحوالنا فليثبت نظيره في كل أمر عام .

فاذا رأينا الوجوه الجلية ، وإذا سمعنا بالعدل والسكال وما أشبه ذلك فلنفضل أن كل جمال وكل عدل مشاهد لنا فهو في هذا العالم ناقص كما قلنا ، إن المعلومات التي تراها جزئية والسكالي هو العالم المعقول ، فالجمال العنوي والعدل العنوي والسكالي ؛ كل ذلك له مثل (بالضم) عليا في عوالم خارجة عن المادة كما أن للعالم مثلا (بالضم) عليا .

وبالجملة فلا علم ولا جمال ولا كمال ولا سعادة إلا فيها هو ثابت ، فأما ما لا ثابت له فإنما هو مذكور بجماله كمال . أيها الحبيب : إن ما قلته الآن كله قد أذكرتني به آية في (سورة النبأ) وأنا أصلى وقت السحر ليلة الخميس (١٩) نوفمبر سنة ١٩٣٠ وهي قوله تعالى « وبنينا فوقكم سبعا شدادا . وجعلنا سراجا وهاجا . وأزلنا من المصبرات ماء فجا . لنخرج به حيا ونباتا . وجنات ألفافا » فإن حينما كنت أقرأها ذكرت بالسراج الوهاج وبالسحب والمطر والنبات المذكورات في الآية مسألنا بمخادفها ، فالبات أذكرتني بالمعلومات الجزئية التي تشبه المسائل الست المتقدمة في الحساب والهندسة . والشمس ذكرتني بصانع تلك الصور الجلية المعنوية وهو الله تعالى ، والصور المعنوية الروحية توصلنا لها المعلومات الجزئية المشار لها وهي مصنوعة لله الذي يرمز له بالشمس ، وهناك تبدي لي معان كثيرة ، فالجمال والعلم وكل معنى شريف إنما يكون في العالم العقلي ، وما الحس إلا أثر من آثاره .

أليست هذه مسألنا التي نبرهن عليها الآن ، وما مثل الحرارة للرحلة من الشمس إلى ماء البحر التي بها يكون البخار فالسحاب فالمطر إلا كما يفعل العقل الإنساني الذي يعرف الحقائق المخبوءة في العالم العقلي فتزل إلى العوالم الأرضية فيدرسها كما تنزل الحرارة من الشمس فاستخرجت الماء الصافي فصار مطرا وهكذا هذه العقول تستخرج بحرارة ذكائها المعارف وتنتشرها بين أهل الأرض ، وهذه النظرية الآن بها تعرف أكثر آيات القرآن وأسرارها مثل « أقنارونه على ما يرى . ولقد رآه نزلة أخرى » إلى قوله « لقد رأى من آيات ربه الكبرى . أفرايتم اللات والعزى » ، فأيات الله الكبرى هي التي رآها في عوالم غير عالنا هذا ، وذكر اللات والعزى ضرب مثل للعوالم المادية ، فإن الناس إذا اكتفوا بالعالم اللادي صاروا أشبه من بعض الوجوه بالدين يكتفون بالأصنام في العبادة ، ومثل قوله تعالى هنا « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين » . فذكر الرحمن إنما يكون بالعلوم الثابتة للمعنوية ، فأما عكوف الناس على الأمور المادية فذلك هو البقاء في مربط الهائم وشهواتها ، وهناك نكون الشياطين إذ لا شيطان ولا وسوسة إلا حيث تكون العوالم اللادية والوقوف عندها ، وهكذا البيوت ذات المقف للزخرفة والسرر كلها عالم مادي ، ولكن الرحمة الحقيقية في العوالم الحسكية العقلية وهكذا قوله تعالى

« قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » ، فضل الله ورحمته هنا هي العلوم والعارف ومنها الدين والوحي والنبى يجمعونه هو المال . هذا هو القرآن ، واعجب كيف تكون هذه المعاني هي التي يحوم حولها سقراط ، ولقد أوضحت لك أيها الذكي الدلائل التي أجملها هو وفصلتها لك تفصيلا تاما ، ثم لتعجب ولتعجب ألف مرة من دين الإسلام كيف تكون الآيات التي تعد بالمثلثات في هذه المعاني قد ذكرت في جمهورية أفلاطون ، ألا فلا تسمك بعضها في الدوائر وفي الجمال والمدالة وهكذا ، إذ ذكر في الكتاب السادس منها أن الفلاسفة وحدهم هم الذين يقدرون أن يحكموا الأمم وأما الجهلاء فلا ، ومن هم الجهلاء إذن؟ هم التائبون في تمدد للسور أي هم الذين لا يفكرون بقولهم . وكل مقصودهم هذه الخلوقات المشاهدة لا المفترقة كما قسمنا .

« ولشرع الآن في إيراد ما جاء في جمهورية أفلاطون » من صحيفة ١٥٦ إلى ١٥٨ وهناك نصها بالحرف الواحد .

قال سقراط : لما كان الفلاسفة هم القادرون على إدراك الأبدى غير للتغير ، ولما كان العاجزون عن إدراكه تائبين في بيداء التغير وتمدد الصور ليسوا فلاسفة ، فأى الفريقين يجب أن يحكم ؟

غلوكون : بماذا أجب إذا زمت أن أنصف القضية ؟

(س) سل نفسك ؟ أى الفريقين قادر على رعاية قوانين الدول وعاداتها . وليكن هؤلاء الحاكمين (غ) أنت مصيب .

(س) أفيمكن أن نسأل : هل الأعمى أو البصير أهل للحكم . ولحفظ كل شيء ؟

(غ) لا عمل لهذا التسأل .

(س) أفنتظن أن هنالك أقل فرق بين حال العميان . وحال الذين تجردوا كل التجرد من معرفة الأشياء على ما هي في ذاتها . وليس لهم في نفوسهم مثل واضح وليسوا بقادرين أن يتفهموا في الحقيقة الكاملة تفرس الصور فيتخذونها نموذجاً دائماً يتأملونه ويدرسونه بأنهم عناية فلما يتقدمون للعمل في النظم الأرضية فيما هو جميل وصالح وعادل ، واضمين هذه الأشياء في محلها اللازم ، ساعرين على حفظها حيث وجدت

(غ) كلاليس بينهم كبير فرق .

(س) أفهؤلاء نعين حكما ونؤثرهم على العارفين كل شيء معرفة حقيقية وليسوا أقل من إخوانهم اختياراً ، ولا هم دونهم في دوائر الفضل الأخرى .

(غ) من الجون تولية غيرهم . إذ أنهم لا يتقصون جدارة ، ولأن النقطة التي يتفوقون فيها هي أم كل شيء .

(س) أفندم الآن إيمان كيفية امتلاكهم نوعي الجدارة ؟

(غ) من كل بد .

(س) إذا كان الأمر كذلك وجب أول كل شيء . أن ننظر نظراً ثاقباً في سجيبتهم الخاصة كما قلنا في منهل بحثنا . وأظن أنا إذا اتفقنا فيها اتفاقاً كافياً اتفقنا أيضاً في إمكان اقتران الجدارتين في الأشخاص أنفسهم وأن أرباب هذه الصفات دون غيرها هم الذين يحكمون الدول ؟

(غ) وكيف ذلك ؟

(س) دعنا نسأل أن أرباب القطرة التلصيفية هائمون بكل أنواع العارف لتجلى لهم حقيقة هذا لوجود الخالق الذي لا يغيره الزمن ، ولا تسطو عليه عوادي الزمن .

(غ) فلنسلم

(س) ولنفرض أيضا أنهم شفقون بحقيقة الوجود الخالد لا يرثون منه بديلا . ولا أن نحذف فرع من فروع ، كبيرا كان ذلك الفرع أو صغيرا ، معتبرا أو مستصنرا ، كما أننا ذلك سابقا في كلامنا في أرباب اللطامع والحب ؟

(غ) أنت مصيب .

(س) وآآن تقدم لنرى هل في الإمكان أن نجد صفة تالكة في خالق الدين تنطبق أوصافنا عليهم ؟

(غ) وآية صفة تمنى ؟

(س) أعنى صفة الصدق أى العزم على تجنب الكذب فى كل صوره ما أمكن ، ومقتة مقنا كليا . ومحبة الصدق محبة حقيقية .

(غ) نعم والأرجح أننا سنجد فيهم هذه الصفة .

(س) ليس الأرجح فقط بصدقى ، بل إنها ضرورة لامندوحة عنها . فإن من كان فيه شغف فطرى بشئ . سر بكل ما اقترن بذلك الشئ اقترانا وثيقا .

(غ) يقينا .

(س) أفوجد حليفا ألقى بالحكمة من الصدق ؟

(غ) مؤكدا لا .

(س) أفستطيع فطرة واحدة أن تحب الحكمة وفى الوقت نفسه تحب الكذب ؟

(غ) لا يمكن ذلك قطعا .

(س) فالنتيجة هى أن عاشق المعرفة الحقيقية يصبو إلى الصدق منذ الطفولية صبوا شديدا .

(غ) نعم يصبو .

(س) ولا رتاب فى أن من تنصب رغباته على شئ . انصبابا شديدا يضعف ميلها إلى سواه كالماء الذى يتحول عن مجراه .

(غ) نعم لاشك فى ذلك .

(س) ثمى تحول التيار نحو العلم بكل فروع حامت رغبات الرء حول اللذات العقلية هاجرة اللذات التى محورها الجسد . هذا إذا كانت محبة الحكمة حقيقية لامصطنعة .

(غ) لا يمكن أن يكون غير ذلك .

(س) ثم إن إنسانا كهذا يكون عقيفا لا يسوده الطمع لأنه أبعد أهل الدنيا عن اعتبار الأشياء التى تحمل الرء على الاستماتة فى حب المال مهما يكلفه الأمر .

(غ) يقينا .

(س) وهناك نقطة أخرى ينبغى لك اعتبارها فى تمييز السجية الفلسفية عما سواها .

(غ) وماهى ؟

(س) إنها نخذ التفاضل عن آية وصمة سافلة ، لأن الصغارة أعظم ضد للنفس المتصفة بالميل التام لامتلاك الحقيقة الإلهية والبشرية فى حالى وحدتها وتميمها فى كل أين وآن .

(غ) غاية فى التأكيد .

(س) أفنتظن أن النفس الملوثة بالأفكار السامية المعتازة بالتفكر يمكنها أن تعلق شأنا كبيرا على الحياة الحاضرة .

- (غ) كلا ذلك غير ممكن .
 (س) فإنسان كهذا لا يحسب الموت حادثا مروعا .
 (غ) مؤكدا أنه لا يحسبه كذلك .
 (س) فلاحظ للفطرة الجبابة في الفلسفة الصحيحة .
 (غ) لا أراها تتمكن منها .
 (س) أفيتمكن عقلا من زناحرا من الطمع والسفالة والعجرفة والجبابة أن يكون صعب المراس أو متعديا؟
 (غ) غير ممكن .
 (س) فحين ترأب ظاهرات الخلق الفلسفي والخلق غير الفلسفي يجب أن تلاحظ أيضا منذ الصغر هل ذلك العقل لطيف عادل أو شرس ووحشي؟
 (غ) تماما هكذا .
 (س) وهناك نقطة أخرى لا إخالك تغفلها .
 (غ) وما هي؟
 (س) أسرعة يتعلم ذلك العقل أم يبطء؟ لأنك لا تستطيع أن تتوقع أن يجب أحد عملا ما محبة كاملة وهو يتعاطاه بصوبة وانزعاج فيكون تبعه كثيرا، ونجاحه قليلا .
 (س) كلا ، ذلك مستحيل .
 (س) وإذا كان حليف النسيان فلم يذكر شيئا مما حصله ، أفلا تفرغ جيبته من المعرفة؟
 (غ) تفرغ .
 (س) أفلا تظن أن جهوده العقيمة تنتهي به إلى كرهه نفسه ووظيفته
 (غ) دون شك .
 (س) فلا تدرجن حليف النسيان في عداد النفوس الفلسفية بل نطلب ذوى الذكاء الحافظة . انتهى ما أردته من جمهورية أفلاطون » والحمد لله رب العالمين .
 ولقد شرح قبل ذلك في الكتاب الخامس أن الرجل ذا الفطرة السليمة يعلم أن من شغف بالحلب في شرح الشباب يكون شديد الشغف بمحبوبه ، فيمدح في الفتي قصر الأنف لأنه جذاب ، والأنف الأنثى أيضا أمره عجب ومظهره بديع ، والأنف المتوسط يجعل الوجه أكثر اتساقا وجمالا ، ومدح الأحمر اللون بأنه ذو رجولة ، وشعر الألوان بأنهم أعلى الناس ، والعشاق يمدحون (الأصفر الزيتوني) .
 وذلك لأنه انتحل عذرا لما رأى صفرة في وجنة الحبيب ، وبالاختصار يخلق الماشق جميع أنواع الأعذار لمدح جميع صفات محبوبه ، وهكذا المولعون بالحمر فإنهم يخلقون جميع الأعذار لرشف أنواع الحمر كلها ، وهكذا عشاق المجد فيهم إذا لم ينالوا إكرام عظماء الرجال اكتفوا بمدح الأقلين ممن لا وزن لهم ، وهذا مجد على أية صورة ، هكذا فننقل : بحب الفلسفة يجب أن يكون عاشقا لها جميعها عشقا كليلا لا جزئيا مولدا بجميع العلوم . أما المغرمون بجماع القصص والحكايات وال نوادر ، والذين يدخلون كل جوقة لسباع الطربه وكانهم أجروا آذانهم للسباع ، فهؤلاء نسميهم فلاسفة زائفين ، والحقيقيون هم الذين ينظرون فيما هو ثابت لا ما هو متغير ، والثابت هي المبادئ الكلية المتقدمة التي ترجع لها جميع العلوم .
 وهنا أخذ يبين أن هناك جمالا وقبعا ، وعدا للتعديا ، فكل منها واحد في نفسه عقلا ولكنه متعدد المظاهر . ثم قال إن الذين أغرموا بالعلوم كلها ، وأدرسوا الحقائق ، وتملقت قلوبهم بالصور المنوية التي

سبقته فهؤلاء قسم وهم الفلاسفة الحقيقيون ، أما عشاق النظر الظاهر والصناعة والفنون ورجال العمل فهؤلاء لا نسبهم فلاسفة ، فعشاق الأصوات الجميلة والأشكال والألوان والصور وكل ما أنتهه الفن ليسوا فلاسفة ، لأنهم لم يعرفوا الجمال المطلق الذى أوصحناء ، وحياة هؤلاء حلم ومنام ، فليسوا أحياء لأنهم خلطوا الحقائق بالصور ، وإذا أردنا أن نتلطف مع هؤلاء جميعا قلنا لهم : « أيها الأحباب إن عقولكم عقول متوسطة ، ذلك لأنها أدركت ما هو متردد بين الوجود والعدم وهى هذه الصور والأشكال لأن وجودها ليس دائما ، فهؤلاء لا ينسخهم حقهم ، ولا تقول لهم إنكم جهال كالذين يقولون إن المعلوم موجود كلا ، فالذين يحكمون بوجود المعلوم جهال ، والذين يقولون الوجود الدائم هم الفلاسفة ، أما أتم فلا أتم فلاسفة ولا أتم جهال ، بل أتم ذوو عقول متوسطة بين الجهل والعلم ، لأنكم خلطتم في حكمكم وفرحتم بالأشياء الأرضية من مال ومتاع وجمال وثروة ومنصب ، فلننا نعلم على عقولكم بالجهل المطبق ولكنكم أشبه بالأطفال تفرحون بالألعاب » .

فلما سمع صاحبى ذلك . قال : الله أكبر ، إنى قرأت ذلك في نفس الجمهورية . ولكن القول هناك مطول ، وهنا ظهرت المعانى ظهورا واضحا ولم يخرج هذا عنها .

الله أكبر : إن هذه المعانى تنطبق على آتى القرآن التى ترهد فى الدنيا وتحبب فى الآخرة ، ولكن وصفك لها على هذا النهج يجعل المسلمين بعد اليوم مغرمين بالمعلوم مع شدة حرصهم على نفع الناس فيكون العالم فعلا زاهدا فى الدنيا لأنه عرف حقيقتها وهو نفسه ينبوع بفيض الخير على أمته فترتقى بما تسمع من علمه ويكون أشبه بالشمس والناس أشبه بالخلوقات على الأرض فهو كلى أنتج الجزئيات ، فأما أكثر كتب الصوفية ومن على شاكلتهم فى القرون للتأخرة فإنهم تصدوا إلى احتقار الدنيا ولحكمهم فى الوقت نفسه لم يشقوا الناس فى إدراك العلوم وتنظيم المدن . كلا . فأعطت الأمم الإسلامية ، وأن هذا الشرح الذى أبنته الآن من أعظم النعم ، ولطالما أشكل على ما كنت تقول لى سابقا من أن القرآن يعوزه فى تفسيره علم جميع الحكماء ، فيها أنا ذا الآن أرى أكبر العقول فى العالم الإنسانى بعد الأنبياء (وهو عقل سقراط وأفلاطون اللذين قال فيهما الفيلسوف سبنسر الإنجليزى وستلانه التليانى : « إن عقول فلاسفة أوروبا بالنسبة لهؤلاء كالبقرة بالنسبة للفيل » هو الذى يقوم بشرح هذه الآيات وإيضاح بعض حقائقها) وأن القصور والمعارج المزخرفة والسرور البديعة وحطام الدنيا ، كل هذا لاحظ للإنسان فيه كامل ، والشياطين تلازم المادة ، ورحمة الرحمن تلازم العلوم والمعارف والمعانى التى لا تتغير بتغير الزمن والنفوس تملقها بإشراق النور الإلهى عليها . ولقد زاد تعجبي ودهشى إذ أرى سقراط يقول : « إن المعانى العقلية التى هى صور وأساس لكل ما على الأرض وغيرها من عالم المادة صنعها الله بنفسه ، والشمس جعلت رمزا لله فصنع الله للمثل العقلية بلا واسطة مثله لنا وقربه لعقولنا كون الشمس سببا ظاهريا لوجود الحوادث التى تقابل تلك الثل ، وهذا وإن كان جملا فإنى مرتقب ما ستقولونه فى (سورة محمد) صلى الله عليه وسلم ولكن إذا أشرت إليه هنا فإنى أكون شاكرا أجل شكر قلت : إن حاسة اللمس تنصل بحسوساتها وحاسة الشم كذلك ، وهكذا حاسة الذوق والسمع والبصر ، فكل واحد منها متصل بالعالم الذى يحس به ، فلا ريب أن يكون للعقل اتصال بعالم عقلى أوسع بما لا حصر له من العالم للشاهد ، وهذا البرهان الذى سأوضحه إن شاء الله هناك أقرب إلى اليقين من برهان سقراط . فقال حسن والله لقد أشرحت صدرى . قلت : الحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الخميس ٢٠ نولمبر سنة ١٩٣٠ . وبهذا تم الكلام على اللطيفة الثالثة .

اللطيفة الرابعة

(في قوله تعالى : «ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون ، إلى قوله : منها تأكلون مع قوله تعالى : وهو الذي في السماء إله إلى قوله : وعنده علم الساعة وإليه ترجعون» مع ملاحظة نظائر هذه الآيات كقوله تعالى في سورة الزمر : لكن الذين اتقوا ربهم إلى قوله تعالى يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه الخ)

ما أجمل العلم ، وأبهج الحكمة ، وحى نزل ، ودنيا منتظمة ، تسمو بهما المقول ، وترقى بهما النفوس الدنيا عروس زينت للناظرين ، وجنة بهجة للمفكرين ، نحن نبشئ في جو من النور ، والكتاب السطور والشمس المنشور ، فسبحان الله سدى النعم ، مظهر الحكم ، باري النسم ، أليس من عجب أن نسمع في القرآن وصف الجنة أنها غرف من فوقها غرف مبنية ، ثم نسمع عنها الكلام على الماء النازل من السماء الذي جرى في باطن الأرض فخرج ينابيع فوقها فكان النبات المختلف الألوان ، ثم أليس من أعجب العجب أن نرى في (سورة الناشية) ما يشابه هذا إذ وصفت الجنة بأن فيها عينا جارية ، وسررا ، وأكوابا ، وعمارق ، وزرابي . ثم يعقب ذلك ذكر الإبل كيف خلقت ، والسماء كيف رفعت ، والجبال كيف نصبت ، فهذا أتميع ذكر الجنة بالماء والنبات ، وهناك أتبع بالحيوان والسماء والجبال . فما هذا العجب أجنة تذكر في القرآن ويذكر عنها هذه العوالم فيقال هناك : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت الخ » ويقال في آية الزمر : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء » على سبيل الاستفهام التقريري وهو أبلغ بما لاحد له من جعل الكلام خبرا أليس هذا من الأسرار للكونية والجواهر الحسنة النظام ، نعم هنا سر وأى سر ، فاعلم أن الإنسان يصبو للجمال والحب ، فالنوع الإنساني كله يطلب الجمال والجمال مطلوب للحب ، والحب هو المقصد الأسمى لهذا الإنسان ، والأمانة التي قل فيها الحب يقل فيها الناموس للفكر ، والحب لا يكون إلا للجمال ، والجميل ما يناسبنا ويوافقنا ، والقييح ما ينافرنا ، وكل ما يؤلمنا نافر لنا ، وللوافق لنا هو الذي جعلت صورته الظاهرة في نظرنا أو صورته الباطنة يعلم أو بشجاعة أو إحسان ، وبالاختصار كل جمال يرجع لأمرين : العلم والقدرة ، فالعلم محبوب ، والشجاع محبوب ، والمحسن محبوب ، والإحسان والشجاعة رجمان للقدرة ، والجمال الظاهري فيه نوع من القدرة ، فأما العلم فهو معروف ، ولا جرم أن من يسمون شجاعة عترة العيسى أو علم الشافعي وأفلاطون وأبي حنيفة ويرون ذوى الجمال يكون حبه على مقدار الأثار الواصلة لقلوبهم من أولئك المحبوبين ونرى الرجل في حياته بين امرأتين : إحداهما رضه ، والأخرى يسكن إليها ، فالأولى أحبها من طريق الإحسان ، والثانية أحبها من طريق الشهوة والجمال ، لما أبدع القدرة ، وما أجمل الحكمة ، يبشئ الناس ويموتون وهم موزعون القلوب بين عوامل لا يدرسونها ، وفي سبيل لا يفهمونها ، وهم محمولون على أجنحة لم يروها ، يدارون بقوانين يحملونها ، ويعلمون بسنن لم ينسوها .

ولا جرم أن الإحسان للذكور والجمال من نوع القوة والقدرة ، ثم إن الإنسان فيما بين الرأتين يلهو الأستاذون ، ويؤدبه للؤدبون ، وذلك من طريق العلم ويكون حبه للاستاذ على مقدار ما عرف من حكمته وما أدرك من فطنته ، وما استفاد من خبرته ، إذن الحب موزع على إحسان الأم وجمال المرأة وعلم الأستاذ فهنا اجتمع عند أكثر الناس أصول الأسباب التي بها الجمال ، ولا جرم أن هذا تمرين على إدراك الجمال الأسمى . واعلم أن الإنسان مع هذا كله محبوس في هذه الأرض ، محكوم عليه بالسجن فيها ، ممدد عن

بمطلع السموات ونجوم الأرضين ، بل لاقدرة له على معرفة نفس هذه الأرض التي يسكنها. إذ يجمل بواطن جبالها ومخارها وأنهارها وجوها بل يجمل خواص جسمه ومعجائب روحه، ومع ذلك له نفس توافقه إلى إدراك ذلك ، فهي تطوف به أعلى العلا، وتسمو به فوق العرش وتحت الفرش، نفس وثابة خطواتها تفتب القلوات وتقطع السموات مع أنها محبوسة الجسم مكبلة الروح .

زرى الرجل إذا أدخل السجن حن إلى وطنه وأهله، وكان ألمه على مقدار ما عرف من الأهل والأصحاب وما كسب من المال الذي حرمه ، وللك الذي صرف هو عنه ، هكذا زرى نفوسنا تود لو تطير إلى أقاليم السموات أو تخترق نجوم الأرضين ، إذن هي كالمحبوس في سجنه . إذن هي كانت تتمتع بما بتلك العوالم وحجزت عنها، وإلا فلماذا هذا الحنين والفرام ، وما هذا التفات على العوالم ، وما بالنأ تراها مذجات إلى هذه الأرض تقرأ علم الفلك ، وتخترع المجاهر (الناظر المعظمة) وتدرس أقدار النجوم ، وتدها وتغسبها ، وتعد أبنائها وأندارها وتفرح بذلك مع أنها لا طعام فيها ولا شراب ولا ملك ولا مال، ونسمع أن نجمة من نجوم الجبار وهي الجوزاء قدر الشمس ٢٥ مليون مرة كما تقدم في هذا التفسير ، ففرح بذلك فرحا شديدا ، ثم تقرأ في الكشف الحديث أن المجرة التي تشتمل على آلاف اللآيين من الكواكب وشمسنا كوكب واحد منها تدور حول نفسها مرة واحدة (كما تدور أرضنا في اليوم والليلة) في مدة (٣٠٠) مليون سنة فتدهش فلوبنا وتفرح ويكون ذلك لنا سعادة وذكرى ومسرة وقد اشتركت جميع أمم الأرض في هذه العلوم وكل أمة تسابق أخرى في هذا الكشف ، ولا ريب أن ذلك كله حصل لما نظر العلماء كواكب السماء بمنظار قطره مائة بوصة ، وهام الآن في أمريكا يصنعون (تلسكوبا) قطره مائتا بوصة ، وهذا سيأتي بعالم يحلم به أهل الأرض من العلم قريبا .

ذلك هو طبع الإنسان ، فالعلماء يتسابقون إلى ازدياد العلم غراما وجبا أكثر من تسابق رجال الحرب في إعداد للمدات الحربية وتدمير المدن ، وهاتان الطائفتان مشتركتان في خلاص الناس من الجهل ، فالعلم بطله وصانع القنابل بالقتل يخرج الإنسان من هذا الجسم فيرجع إلى عالمه الروحي فيدرس على مقدار طاقته إياك أيها الذي أن تكسر على هذه الجملة ، فنحن الآن في مقام الجمال والحب والمعجائب الإلهية ، فهذا القتل بالحرب وإن كان مذموما ومخربا للأمم ذكرناه من حيث إننا ندرس نفس الوجود ، وصانع العالم حكيم يداوى الداء بالداء ، فالناس أشبه بمن أصابه القولنج فأصيب بالحمى فكانت سببا في شفاء القولنج ، فهذا خراب للأمم ، ولكن نفس الأشخاص خرجوا من عالم الأجسام إلى عالم الأرواح ، نعم أكثرهم يخرجون ناقصين ولكن النظام نجمله « والله بكل شيء محيط » .

إذا عرفت هذا أدركت تفسير هذه الآيات وأمثالها . علم الله تعالى حبس الناس في الأرض وتشوقهم إلى الحرية التامة مانطلاق أرواحهم إلى باحاتها فأبرز لهم علمين : علما مسموعا ، وعلما معقولا . أما العلم المسموع فهو ما يذكر في نحو الآيات من الغرف التي من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار ومن السرر للرفوعة ، والأكواب الموضوعة ، والمارق للصفوفة ، وازرارى للبثومة . ومثل البناء بلبنات الفضة ولبنات الذهب في الجنة ، وملاط ذلك البناء مسك ، والحصاء لؤلؤ وياقوت ، والتراب زعفران ، وأهم لايموتون ومثل أن الحيمة من لؤلؤه مجوفة ، ومثل أن الجنة فيها مائة درجة ، والدرجة الواحدة تسع العالمين جميعا ، ومثل أن الشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها ، ومثل إن المرأة من أهل الجنة لو ظهرت إلى أهل الأرض لأضات الدنيا ولأثارتها ريحا ، وسمارها خير من الدنيا وما فيها . ومثل أن هناك سوقا للصور يدخل فيه المؤمن فيرجع بالصورة التي يحبها ، فهذه المعجائب المسموعة في الكتاب تارة والسنة أخرى ترجع إلى

الجمال وإلى القبرة ، فالشجرة التي يسير في ظلها الراكب مائة عام ترجع للعظمة والعظمة هبوية ، فهي ترجع القدرة كما رجعت شجاعة الشجاع إليها ، والنقى محبوب لأنه يملك مالا ، وللك قدرة ، هكذا هذه الشجرة المطيعة ، والخوراء الجيلة ، والقصور البديعة ، فيها الجمال ، وفيها القدرة والعظمة مع الإحسان ، فهأنا اجتمع الجمال والعظمة والإحسان ، وكل هذا محبوب ، فالمؤمن إما شهواني فيكون حبه لنفس الجنة ، وإما حكيم فينتقل هذا الحب لخالق الجمال ويحب الله نفسه ، وإليه الإشارة بحديث الترمذي عن ابن عمر « وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشيا » وأيضاً حديث الترمذي ومسلم : « فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى » هـ .

ثما وصلت إلى هذا اللقاه واطلع عليه صاحبي الذي اعتاد أن يسألني في هذا التفسير ، فقال حسن ماقلت وبدع ماوصفت ، ولكن سائلك سؤالين : الأول أن هذه الأوصاف التي أسندتها للأحاديث فوق طور العقول لها هذه الشجرة التي لا يقطعها الراكب في مائة سنة . إن العقل لا يقبلها قبولاً حسناً . والثاني أنت ذكرت أوصاف الجنة من الأحاديث فأحب أن أسممها لأعرف روايتها حتى تطمئن النفوس للرواية ، ومن أي الكتب ولا جرم أن هذا اللقاه كله في الكلام على ماهو مسموع ، ومتى تم الكلام عليه نريد أن تشرح للعقول شرحاً وافياً كما تشرح للمسموع لأن هذا اللقاه جميل ، فإذا كان مستوفياً شرحه شرح الصدور . فقلت أما كون الشجرة المذكورة وأمثالها لا يقبلها العقل فهذا ممنوع لأن الإمكان لا يحصر له . فقال نعم هو لا يحصر له ولكن الإمكان شيء وتصور الممكن وقبوله أمر آخر . فقلت : ألسنت تذكر الكوكب الذي ذكرت لك أنه قدر الشمس (٢٥) مليون مرة . فقال : بماذا يفيدني هذا . فقلت : هو شمس ، قال نعم . فقلت : إذا قسناها على شمسنا كان لها سيارات . قال نعم . قلت : وأرضنا حول شمسنا ليست أكبر كوكب . قال نعم . قلت : وشجرها نمرقه . ولا جرم أن السيار يكبر بنسبة شمس ، فلو أن أرضنا كبرت بالنسبة لكبر الشمس (٢٥) مليون مرة لسكانت أشجارها أكبر من حالها الآن (٢٥) مليون مرة ، وأكبر شجرة في أرضنا إذا كبرت (٢٥) مليون مرة احتجنا في قطعها إلى عشرات السنين ، فإذا تذكرنا كوكبا آخر حول الشمس كالشترى زادت شجراته أضغافاً مضاعفة ، ألا ترى أن الشترى الذي هو أكبر السيارات حول الشمس حججه قدر حجم الأولى (١٣٠٠) مرة ، فإذا جعلنا أكبر شجرة فيه أكبر من أكبر شجرة في أرضنا (١٣٠٠) مرة ، وجرى الفارس تحت أكبر شجرة أرضية في زمان ما ، وكبرت شجرة الشترى (١٣٠٠) مرة ثم ضربنا هذه في ٢٥ مليوناً فيكون سير الفارس تحتها في سنين كثيرة .

وإذا وجدنا اليوم كوكبا أكبر من الشمس (٢٥) مليون مرة ، فنحن قريباً سنسمع عن كواكب أعظم وعليه تصبغ الشجرة المذكورة في الحديث من أصفر الأشجار ، بل إذا تذكرنا أن ذلك الكوكب الذي هو أكبر من الشمس (٢٥) مليون مرة فيه مواضع مسكونة ، كما أن أرضنا فيها مواضع مسكونة لا كلها كانت الشجرة التي فيها لا يقطعها الفارس في ألف سنة لافي مائة فقط ، إذن العلم الحديث اليوم فتح باباً لتصور عقولنا عظمة الله وعظمة الملك ، وإذا كانت العوالم المحسوسة التي ليست بحجة هذه عظمتها وقد وجدنا فيها هذه العظمة فما بالك بعوالم الجنة .

هذا ما أقول لك أيها الدكي جواباً على سؤالك الأول وهو أنك تستبعد ما جاء في وصف الجنات ، أما السؤال الثاني وهو أنك تريد أن تسمع نفس الأحاديث بأسانيدها ، فهالك ما جاء في كتاب (تيسير الوصول للجامع الأصول) من المجلد الثالث في صحيفة ٢٣٥ وما بعدها وهذا نصه :

ذكر الجنة والنار

فيه فصلان

الفصل الأول: في صفتهما

(ذكر صفة الجنة)

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر». قال أبو هريرة أقرءوا إن شئتم: «فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين». أخرجه الشيخان والترمذي، وزاد البخاري في أخرى عن سهل بن سعد وذكر مثله، ثم قال، وقال محمد بن كعب: «إنهم أخفوا الله صملا فأخفى لهم ثوابا فلو قدموا عليه أقر تلك الأغنياء، وعنه رضي الله عنه، قال: قلت يا رسول الله: من خلق الخلق؟ قال: من الماء. قلت الجنة ما ينزلها؟ قال: لينة فضة ولينة ذهب وملاطها السك الأذفر وحسبؤها اللؤلؤ والياقوت وترابها الزعفران من يدخلها ينعم ولا يبأس، ويغلد ولا يموت، ولا تبلى ثيابهم، ولا يفتن شبابهم. ثم قال: «ثلاثة لا ترد دعوتهم للإمام العادل والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام، وتفتح لها أبواب السماء، ويقول الله تعالى وعزى لأنصرنك ولو بعد حين». أخرجه الترمذي (البلاط) الطين الذي يجعل فوق ساق البناء يعلط به الحائط أي يصلح، وبش يبأس: إذا افتقر واشتدت حاجته.

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «جنتان من فضة آتيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن». أخرجه الشيخان والترمذي، وفي رواية لهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة، وفي رواية عرضها ستون ميلا، في كل زاوية منها أهل لا يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمن». وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين مائة عام». (أخرجه الترمذي) وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجنة مائة درجة ما بين كل درجة ودرجة كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة ومنها تفجر أهار الجنة الأربعة، ومن فوقها عرش الرحمن، فلذا سألت الله فاسألوه الفردوس» (أخرجه الترمذي) وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن في الجنة مائة درجة لو أن العالمين اجتمعوا في إحداهن لوسعهم» أخرجه الترمذي.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، أقرءوا إن شئتم وظل مدوده» أخرجه الترمذي. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما في الجنة شجرة إلا وساقها من ذهب» (أخرجه الترمذي)، وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لقاب قوس في الجنة خير مما طلعت عليه الشمس أو تغرب» أخرجه الشيخان. وزاد الترمذي عن أنس في أخرى: «ولقاب قوس أحدكم أو وضع قدمه في الجنة خير من الدنيا وما فيها» ولو أن امرأة من أهل الجنة اطلعت إلى أهل الأرض لأضابت الدنيا وما فيها وملأت ما بينهما ريحا ولنصفها حتى الحمار خير من الدنيا وما فيها» (قاب القوس: وقده) قد رم.

وعن سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو أن ما يقل ظدرهم في الجنة بدا لترخفت له خوافي السموات والأرض، ولو أن رجلا من أهل الجنة اطاع فدا - واره لطمس ضوء الشمس كما تطمس الشمس من الجرم (أخرجه الترمذى) قوله (الزخرفة) الزينة والزخرف (الذهب) ووافق السماء جوانبها الأربعة وهي جهات الرياح الأربع .

وعن أس رضى الله عنه . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رفعت إلى سدرة المنتهى فإذا أربعة أشهر نهران ظاهران ونهران باطنان . فما الظاهران فأنيل والفرات . وأما الباطنان فهريان في الجنة أخرجه البخارى .

وعن يزيد رضى الله عنه قال : سألت رجلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : هل في الجنة خيل ؟ قال إن الله أدخلك الجنة ثلاثا . أن تعمل فيها على فرس من ياقوتة حمراء . تطير بك في الجنة حيث شئت إلا كان . فقال آخر : هل في الجنة ن إبل ؟ قال إن يدخلك في الجنة بكر لك فيها ما اشتهت نفسك ولقدت عينك (أخرجه الترمذى) .

وعن علي رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن في الجنة لجنتمعا للحدود العين يخين بأصوات لم يسمع الخلاق بمثلهما ، يملن : نحن الخائبات فلانبيد ، وعن الساعيات فلا نبأس ، وعن الراضيات فلا تسخط ، طوى لمن كن لنا وكنا له (أخرجه الترمذى) .

قوله (المور) جمع حوراء وهي الشديدة يابس العين الشديدة سوادها (والبيضاء) واحدة الدين وهي الواسعة العين ، وقوله لانبيد : أى لا تهلك ولا تنلف .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن في الجنة لسوقا يأتونها كل جمعة فتهب ريح الشمال فتحثوا في ثيابهم ووجوههم فيزدادوا (١) حسنا وجمالا ، فيرجعون إلى أهلهم وقد ازدادوا حسنا وجمالا فيقول أهلهم : والله لقد ارددتم حسنا بعدنا وجمالا ، فيقولون : وأنتم والله لقد ارددتم بعدنا حسنا وجمالا (أخرجه مسلم) .

وعن علي رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن في الجنة لسوقا ما فيها شراء ولا بيع إلا الصور من الرجال والنساء ، فإذا انتهى الرجل صورة دخل فيها (أخرجه الترمذى) انتهى الفصل الأول

الفصل الثاني

(في ذكر أهل الجنة)

عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف كما يتراءون الكواكب في السماء (أخرجه الشيخان) .

وعن أبي سعيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف كما يتراءون الكواكب الدرر في الأفق من الشرق إلى المغرب لفاضل ما بينهم ، قالوا يا رسول الله : تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ، قال : بلى والله في يده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين (أخرجه الشيخان) . وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضافة . لا يقولون

(١) هكذا في النسخ والله فيزدادون .

ولا يتفطون ولا يفلون ولا يمتخطون أمثالهم فذهب ورشحهم السك، ومما مرهم أدلوه (١) والألجوج (٢)
عود الطيب، وأرواجهم الحور العين على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء،
(أخرجه الشيخان والترمذي) قوله الألوة، والألجوج من أسماء الود الذي يتخبر به، ومن أسماء
السكا (٣).

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أهل الجنة يأكلون فيها رهريون
ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتفوطون ولا يمتخطون، قيل لما بال الطعام. قال جشاء ورشح كرشح السك
يلهمون التسبيح والتغريد كما تلهمون النفس» (أخرجه مسلم وأبو داود)

وعن الحصري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من مات من أهل الجنة من
صغير أو كبير يدخلون الجنة بين ثلاثين لا يزيدون عليها أبداً. وكذلك أهل النار» (أخرجه الترمذي).
وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أهل الجنة جرد كحل لا يفتي شباههم
ولا تبلى ثيابهم» أخرجه الترمذي.

وزاد في رواية: «عليهم التيجان، وإن لؤلؤة منها لتضيء ما بين الشرق والغرب». قوله الجرد جمع
أجرد وهو الذي لا شعر عليه، والسكجيل هو الذي ترمى أبقائه كأنها مكحول من غير كحل.
وعن أبي رزين رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يكون لأهل الجنة ولد»
(أخرجه الترمذي).

وزاد في رواية عن الحصري: «إن انتهى الولد كان حمله ووطئه وسنه في ساعة واحدة» قال بعضهم
ولكن لا ينهي.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عطى المؤمن في الجنة قوة كذا
وكذا من الجماع. قيل يا رسول الله أو يطبق ذلك. قال عطى قوة مائة» (أخرجه الترمذي).

وعن الحصري رضي الله عنه. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تكون الأرض يوم القيامة خربة
واحدة يتكلمها الجبار بيده كما يتكفي أحدكم خزته في السفر زلاً لأهل الجنة. تأتي رجل من اليهود قتال
بارك الرحمن عليك يا أبا القاسم، ألا أخبرك بزل أهل الجنة يوم القيامة، قال بلى. قال تتكون الأرض خربة
واحدة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. فظفر النبي صلى الله عليه وسلم إلبنا ثم ضحك حتى بدت نواجذه
ثم قال ألا أخبرك بإداسهم. قال بلى قال بالأم ونون. قال وما هذا قال نور نون بأكل من زلفته كدهما يبعون
ألعاء» (أخرجه الشيخان) قوله يتكلمها أي قلبها ويميلها، والجبار من أسماء الله تعالى، والرل ما جد للصيف
من طعام وشراب، والواجذ الأنياب، والام الثور كما فسره في متن الحديث، ولعل للفظه عبرانية،
والنون الموت وهو عربى.

وعن الحصري رضي الله عنه. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أدى أهل الجنة منزلة الذي
له ثمانون ألف خادم، واثنيان وسبعون زوجة، وتنصب له قبة من لؤلؤ وزرجد وياقوت كما بين الحماية
إلى صماء» (أخرجه الترمذي). وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
«إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جناته وزواجه وخدمه ونبيه وسروره مسرة ألف عام، وأكرمهم
على الله من ينظر إلى وجهه عبادة وعشية. ثم قرأ صلى الله عليه وسلم: وجوه يومئذ ناظرة إلى ربها ناظرة»
(أخرجه الترمذي).

وعن الثيرة بن شعبة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سأل موسى عليه السلام ربه تعالى : ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال هو رجل يجيء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة ، فيقال له : ادخل الجنة فيقول : أي رب وكيف ؟ وقد نزل الناس منازلهم ، وأخذوا أخذاتهم ، فيقال : أما ترضى أن يكون لك مثل ملك^(١) ملك^(٢) من ملوك الدنيا ، فيقول : ربي رضيت ، فيقول لك ذلك ومثله ومثله ومثله ، فيقول في الخامسة : رضيت رب ، فيقول له : هذا لك وعشرة أمثاله ، ولك ما اشتيت نفسك ، ولدت عينك ، فيقول : رب رضيت ، فقال : فأعلام منزلة ، قال أولئك الذين أردت ، غرست كرامتهم يدي وحننت عليهما فلم تر عين ، ولم تسمع أذن ، ولم يحط على قلب بشر » (أخرجه مسلم والترمذي) .
وقوله أخذوا أخذاتهم أي نزلوا منازلهم المختصة بهم .

وعن الحنري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله عز وجل لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون ليك ربنا وسعديك ، والحير في يدك ، فيقول : هل رزيتم ، فيقولون : وما لنا لا نرضى بربنا ، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك ، فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا » (أخرجه الشيخان والترمذي) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عرض على أول ثلاثة يدخلون الجنة شهيد ، وعفيف متعفف ، وعبد أحسن عبادة الله ونصح لمواليه » (أخرجه الترمذي) .

وعن حارثة بن وهب رضي الله عنه . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بأهل الجنة ، قالوا بلى يا رسول الله ، قال : كل ضئيف متضعف لو أقسم على الله لأبره ، ألا أخبركم بأهل النار كل عتل جواض مستكبر » (أخرجه الشيخان) .

ولأبي داود من رواية حارثة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة الجواض ولا الجمظري » . قال والجواض القايظ النط . قال الجواض النوع ، وقيل السمين المختال في مشيته ، وقيل القصير البطين ، والجمظري النط القايظ والله أعلم .

رؤية الله تعالى

عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه . قال : « نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القمر ليلة البدر ، فقال إنكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته ، فان استطعتم أن لا تنظروا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ، ثم قرأ : وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب » أخرجه الحجة إلا النسائي .

وعن صهيب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى تريدون شيئا أزيدكم ؟ فيقولون : ألم نبيض وجوهنا ، ألم ندخلنا الجنة ، ألم تتجنا من النار . قال فيكشف

(١) بضم فسكون . (٢) بفتح فسكون .

الحبيب لما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى ، ثم تلا هذه الآية : « الذين أحسنوا
الحسن وزيادة » أخرجه مسلم والترمذي .

وعن أبي ذر رضى الله عنه قال : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك تعالى قال نور
إله أراه » (أخرجه مسلم والترمذي) .

وعن مسروق قال « قلت لعائشة رضى الله عنها : يا أمته هل رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه ؟ قالت :
لقد رقب شمري مما قلت . أين أنت من ثلاث من جدم تكن بقدر كذب : من حدثك أن محمدا رأى ربه
فقد كذب ، ثم قرأت « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار » ومن حدثك أنه يعلم ما فى غد فقد
كذب ، ثم قرأت « وما تدري نفس ماذا تكسب غدا » ، ومن حدثك أنه كنتم شيئا من الوحي فقد
كذب ثم قرأت « يا أيها الرسول بلغ ما أزل إليك من ربك » الآية ولكنه رأى جبريل فى صورته
مرتين » (أخرجه الشيخان والترمذي) انتهى الفصل الثانى ، وبهذا تم الكلام على العلم للسموع من
الكتاب والسنة .

الكلام على العلم المقول

لقد عرفت أيها الذكى العلوم للسموعة فى هذا المقام من الكتاب والسنة ، وأدركت أن العلوم التى
ملأت الدنيا كلها إلا بلاد الإسلام قريت لنا تصور النبوة المحمدية وأصبحنا نشاهد نجوما أقدارها قريت
لعقولنا تلك الصور الجلية فى الجنة ، فهناك أحدثك حديثا عجبا فى القرآن نفسه وفى الدنيا : تقدم فى هذا
للقال أنى ذكرت لك أن آيات النبات واللحاء فى هذه الصورة ذكرت عقب ذكر الجنة ، وآيات الإبل والسما
والجبال فى سورة الناشية ذكرت بعد ذكر الجنة ، فما الحكمة فى ذلك يا ترى ؟ الحكمة فى ذلك أوضحتها
العلوم التى فى هذا التفسير ، اللهم إني أحمدك حمدا كثيرا ، أحمدك على نعم العلم ونعم الحكمة ، وهل كان يدور
بجهدى أيام شبان وأنا جاهل جد جاهل ، أتلس العلم فى النهر وفى الخقل وفى النجم ، إنا سنصل الآن إلى
أبداع الجمال فى هذا التفسير ، وإنا ندرك جنة تتمتع بها عقولنا ونحن أحياء فى الدنيا قبل أن نموت ونرى
الجنة للوصوفة فى الأحاديث الشريفة ، بل هل كان يخطر لى أن السعادة الحقيقية فى جنات العلوم
والعارف الذى ندركها فى هذه الحياة ، وأنه لولا نكبات الحياة ومصائبها لكان جننا الآن آخذنا بقوافنا
وعقولنا وللفنا أن حب الولد لأمه ، وحب الشاب لمن أغرم بجمالها فزوجها ليس شيئا مذكورا بالنسبة
للحب الذى يترتب على الجمال المسمى والحب العظيم هو الذى يذهب الحزن والغم ويحمل النفس فى السعادة التى
لا سعادة فوقها ، وليكن هذا الحب الآن محبوبه عند العلماء ومحسون به فى أوقات قليلة ثم تغلب عليهم أحوال
هذه الأرض وعوارضها رحمة بهم ليزدادوا علما .

أقول : فهل كان يخطر لى زمن الشباب أن عقولنا فيها حساب الجندز والتربيع ، وأن نفس الجندز
والتربيع الجليلين عند عقولنا نراهما فى نفس اللادة كما نراه فى (سورة الرعد) عند آية « وكل شيء
عنده بمقدار » وفى مواضع أخرى هناك إذ تبين أن الضوء الجاذبية جرى حسابها على الجفر والتربيع ،
وترى الجبر إذا قذفناه فى البئر جرى بسرعة على تلك القاعدة فلا خطأ فيها ، وهذا أمر عجيب أن تكون
هذه الأحوال الطبيعية على هذا القانون العجيب ، أو كان عقل يتصور أن النمل حجرات منتظمة كحجرات
فى أعظم قلعة ، وأن لكل حجرة سكانا ، فمنهم الجندز ، ومنهم الأنتار وهكذا (انظر ذلك كله فى سورة طه
وسورة النمل مرسوما)

لم كان يميل لي وأنا في الشباب أن يكون بعض الطيور خياطا، ومنها حائك ، وبعض أسود يزل ،
وبعض الزناير يصنع الورق ، وأن الملد يعرف أحوال الطقس ، وأن الحبل مهندس ، وأن اللقاق يحكم
بالمشاورة ، وأن السكب يعرف تماطى للسيلات في الطب ، وأن الخنزير يحرف الأرض ، وأن الملق في بطن
الأرض يبلغ في القدان الواحد آلافا وهو ينفع لتبديد ما وطهرتها قبل أن يخرجها الإنسان ، وأن السرطان
دوما ، أقول . هل كانت هذه العجائب تدور بخلدى وأنا أطوف على شواطئ الأنهار وفي الحقول أجلس
الحفاني . أم كان يحتاج بذكرى أن فار الجسل بيني بناء متقنا ، وعمر أنية ليجرى للباء فيها حتى قلبه
الإنسان ، إن أكثر ما ذكرته هنا ملخص مما تقدم في (سورة طه) وأزيد مسألة حفر الحادق أيضا مما
عاجاه في إحدى المجلات العلمية ، قد جاء فيها تحت عنوان الآل مانسه :

عجائب المخلوقات

الحيوانات التي تحفر الحادق

إن حفر الحادق خاصة يشترك فيها كثير من الحيوانات على اختلاف درجاتها من أحمط الأنواع إلى أرقاها
فبين ذوات الثدي منها عدة أمثلة على ذلك ، وأشهر الأنواع من هذا القبيل (الخلد) وهذه صورته (انظر
شكل ٢١) .



(شكل ٢١ - خلد في حفرته وعلى يمين الصورة هيكل يده التي يحفر بها خنادقه)

وقد منح الله هذا الحيوان يدين مساحتين بأظافر قوية تمكنه من حفر الأرض بسرعة عظيمة جدا ،
حتى أنك لو أخرجت خلدا من حفرته ووضعت على سطح الأرض وجدت أنه بعد هنيهة وجيزة جدا قد احفر
حفرة واخفى عن بصرك ، ولا يكتفي هذا الحيوان بحفر ثقب بسيط تحت الأرض بل هو يتفنن في عمله هذا
ويشعب من ثقبه الأصلي أنفاقا في غاية البساطة ، ثم إن الخلد يحفر أخرى عديدة على شكل غريب تمد بجانبها
صغوف الحادق والأشفاق التي يحفرها الجنود في ساحات في غاية البساطة ثم فضلا عن هذه الأشفاق غرفة
مستديرة يحملها مركز ثلاث المانى ، ويبلغ قطر هذين ثمانى وعشرة سنتيمترات ، ويحفر حول هذه الغرفة المستديرة
ثقبين بشكل دائرتين الواحدة على مستوى الغرفة والثانية قرقة ، والغرفة متصلة بهذين الثقبين بواسطة عدة
مخارق يمر لفضه مقلدا من أى جهة يماحه الحفر ، وفي داخل الغرفة شبه سرير من الأوراق ولقش
لينام عليه الخلد ، والتلب أيضا ينسج جزءا من حياة داخل الأرض لاسيا في النهار ، وهو في الغالب يستولى
على حفرة حيوان آخر بدلا من أن يحفر حفرة خاصه ، وحفرته عبارة عن ردهات عميقة تنتهى جميعها في
غرفة كبيرة لا يقل عمقها عن ثلاثة أمتار ، وهذه الردهات ، متصلة بعضها مع بعض بعمار عديدة .

وتعد ذوات النسي مهارة في حفر الحادق وأكثرها توسعا هي حيوان بين ابن عرس وأندب فأخ اللون
في الأعلى ولقائه في الأسفل يسمى عناق الأرض اللثة وهو من الحيوانات الليلية وحرف الشتاء نوحا .

له برائن قوية يحفر بها الأرض بسرعة غريبة ، وكيفية ذلك أنه يبش الأرض يديه القويين ، فاذا تراءى
التراب استعمل يديه الخفيفتين لدفعه إلى الوراء ، ثم يرجع إلى خنف بين آن وآخر . ويجر بحجمه التراب
التراكم إلى خارج الحفرة . ولفق هذا الحيوان أبواب عديدة يبعد الواحد عن الآخر نحو ٣٠ قدما وكل
نفق من أنفاقه يبلغ طوله بين السبعة والعشرة أمتار وتنتهي في غرفة كبيرة على عمق متر أو مترين تحت الأرض
يجعلها مقرا للمادى .

هذه بعض الأمثلة من الحيوانات الثديية التي تحفر الأرض ، وهناك أمثلة أخرى كثيرة ضيق عن
ذكرها القام ، والأغرب من ذلك أن بعض الطيور (والطيور عشيقة الهواء انطق عادة) تحفر مثل هذه
الأفاق والحفر ، فمن أنواع الطيور الحطاف نوع يحفر أفقا على شاطئ البحر : يبلغ طولها مترا ونصف متر
ويضع عشه في داخلها ، ولاشك أن مثل هذا الأمر من القرابة بمكان ، لاسيما إذا أمنا النظر في تركيب
هذا الطير وعماة جسمه ، وهالك طائر آخر يسميه الأسيان (البناء الصغير) يضع وكره في حفرة عميقة طولها
متران أو أكثر ، ومثله طير أزرق صغير يسمى عند الفرنسيين (الحطاف السباد) يصطادونه من البحيرات
حيث يعيش في وكره . ننذنان .

أما في عالم الحشرات فإن مهارة بعض العناكب في حفر الأفاق غريبة جدا يقف عندها المرء وقد أخذت
منه الدهشة كل مأخذ . وهي على أنواع تحفر أفقا ودعالمز مختلفة ، ومن أغرب أنواع العناكب نوع يبنى
وكره غريباً في هندسته وهو عبارة عن حفرة عميقة مبنيّة بنسيج حريري خشية أن تهبط جدرانها ، وفوقها
باب يقي من الظر ومن الضيوف الطفلاء ، وهذا النوع يتخب عادة لحفرته مكانا محوطا بالحشائش حتى لا يظهر
بيته للعادى والرائح ، أما الباب فإنه جميل الهندسة كامل الصورة يشبه الأبواب التي تغفل وحدها بزنبك
مارونة مفاصله ، ولهذا العناكب مقدرة كبيرة للدفاع عن أوكراها ، فاذا سمى أحد في فتح الباب تشبثت به
المسكيات من الداخل حتى إنه يلزم قوة كبيرة لفتحه .

وهناك حشرات أخرى كثيرة ، منها نوع من الجنادب نشرنا صورته هنا وهو يقطع جذور الشجر
والنبات ويتغذى منها (انظر شكل ٢٢) ولا ينبغي أن يبرح من ذهننا مهارة النمل في هذا الفن فإنها أشهر من
أن تحتاج إلى الذكر .



(شكل ٢٢ - نوع من الجنادب في حفرته يقطع جذور الأشجار)

قوة الحشرات

إذا درسنا قوة الحيوانات بالنسبة إلى حجم جسمها وجدنا أن الإنسان من أضعفها وأضعفها ، فإن الحمار أو البطيئوس مثلا يحمل ثقل ٣٧ رطلا ، ومن السرطان أنواع يحمل الواحد منها ٤٩٢ مرة وزنه وعلى هذا المعدل كان يجب أن يحمل الإنسان العتدك الجسم ٧٣٨٠ رطل .

وفي مقدمة الدين درسوا مقدرة الحشرات على حمل الأثقال (فليكس فلانوي) العالم البلجيكي ، وبما قاله إن حمل التباية لمود كبريت صغير بأرجلها يعادل رفع الإنسان برجله لعمود خشب طوله ١٤ قدما ومساحته عند قطعه عموديا قدما ٦٠ بوحات مربعة .

ومن البق نوع يجر ست عيدان كبريت وهي تعادل للرجل (٣٣٠) عمودا من الخشب بحجمه ، وطريقة العالم للقدم في درس قوة الحشرات أنه يربطها إلى ميزان دقيق ثم يجرها خالفا متى تتحرك عقرب متصلة بالميزان فتدل على قوة تلك الحشرة . انتهى ما أردته من مجلة الهلال والحمد لله رب العالمين .

هذه بعض العجائب التي عرفها عقل الإنسان وعلى بها هذا التفسير . وهناك عجائب وعجائب في سورة المؤمنين عند آية « وما كنا عن الخلق غافلين » من تلك الحشرات والحيوانات التي كان حفظها بسبب مشاكلها لما حولها . وهي مرسومة هناك مصورة . وكذلك ترى في سورة الفرقان كيف كان للمكسوت جهاز لتزله ظاهر واضح . وكيف كان لبعض الحشرات جهاز أشبه بجهاز الطبيب الذي يضع الحقنة في جسم المريض ، وهذا الجهاز بملامحها بيئية عجيبة . وكيف كان للحشرات آلات للحرب وآلات لجلب للنفعة تراها موضحة هناك مرسومة ، وهكذا في (سورة النمل) من عجائبه ومزارعه للنظفة للنفقة . وكذلك دابة الأرض للصورة المرسومة في (سورة سبأ) وهكذا ترى في أول الروم عجائب الحشرات وألوانها التي خلقت لحفظها وحفظ مآثلها اقتصادا في الحلقة وإبداعا في النظام ، وهكذا ترى في سورة السجدة بعد سورة لقمان كيف كان نظام النحل من داخله غير نظام الأشجار وحكمة ذلك . ثم ترى في (سورة يس) عند آية « سبحان الذي خلق الأزواج كلها » تلك الأوراق المرسومة التي كوتت من حجرات منظمت ذوات سوائل فيها للمادة الخضراء . وكيف كان ذلك سببا في أن الأوراق تجتذب للمادة الكربونية المغذية لها من الهواء . وكيف كانت الورقة قد تتسع لآلاف وآلاف في آلاف من هذه الحجرات الدقيقة الصنع . هذا من عجائب النبات وغيره من عجائب الحيوان يفهمنا لماذا يذكر الله في (سورة الناشية) الإبل ونحوها بعد ذكر الجنة . ولماذا يذكر الماء والنبات في هذه السورة بعد ذكرها أيضا لفتح لنا باب التفكير في العجائب لنفرح بصانمها في هذه الحياة و ترى حقائق الجمال . وبهذا ندرك لماذا يقول الإمام الغزالي فيها قلناه في (سورة فاطر) : إن السعادة في معرفة العجائب وهؤلاء هم الذين يرون ربهم أكثر من غيرهم ، ونتمهم قول (إخوان الصفاء) فيما قدمناه في أول سورة الصافات . « إن معرفة العجائب جزاء الحسين » اه

فلما كتبت ذلك قال صاحبي : هذا جميل جد جميل . واكنى أريد أن تشرح لي جملة لم أفهمها ؟ قلت وماهي ؟ فقال : لقد ذكرت الجنود والتربيع للتقدم في (سورة الزعد) وأنا الآن أريد مثالا واحدا تراه فطرنا بجم الحساب و ترى له نظيرا في علم النبات مثلا حتى يكون ذلك نبراسا نعرف به ملامحة فطرنا لهذه الموالم من حيث الحساب وان تقدم من هذا كثير ولكنها ذكرى والتدكري تنفع للؤمنين .

قلت : انظر هذا العدد ٣٧ فهذا العدد إذا قسمنا عليه عدد ١١١ كان الخارج ٣ وإذا قسمنا عليه

٢٢٢ كان الخارج ٦ أو قسمنا عليه ٣٣٣ يكون الخارج ٩ أو قسمنا عليه ٤٤٤ كان الباقي ١٢ أو قسمنا عليه ٥٥٥ كان الخارج ١٥ أو قسمنا عليه ٦٦٦ كان الخارج ١٨ أو قسمنا عليه ٧٧٧ كان الخارج ٢١ .

فقال صاحبي : هذا عجب حقا ! لأن ضرب ٢١ في ٣٧ يساوي ٧٧٧ وهكذا البواقي . عجب إذن الخارج يكون مساويا لجمع القسوم فهو ٣ في الأولى و ٦ في الثانية و ٩ في الثالثة وهكذا . فقلت له : لقد فهمت ، فهذه الأعداد من واحد إلى ٩ إذا قسمت على ٣٧ كانت بهذه الثابتة . فهذه المسألة في عقولنا عجيبة يدهش العقل لها وتطرب النفس ، فإذا رأينا أن العناصر مرتبة ترتيبا أبديع وأجمل من هذا فانظره في سورة العنكبوت ولها حساب مبني على التوالي الهندسية والنسبة العددية بحيث يكون العنصر مع ما فوقه وما تحته جاريا على النسبة الهندسية ٢ - ٤ - ٨ - ١٦ ويكون مع ما قبله وما بعده جاريا على التوالي العددية ٢ - ٤ - ٦ وهكذا إذا رأينا ما تركب من العناصر له أمثال هذا ونظائره فإننا ندخل إذ ذاك في جنة العرفان التي لا حد لها ولعلك تتذكر ما تقدم في (سورة الحجر) عند قوله تعالى « وأنبتنا فيها من كل شيء موزون » وتتذكر صور أنواع من النبات ونسبة عدد الدوائر الحلزونية إلى عدد أوراق تلك الدوائر وملاحظة التناسبات المدهشة بين النبات الواحد وما قبله وما بعده في صفه الأفقي وفي صفه الرأسي ، وأن الأوراق في جميع الأشجار بينها سب مدهشة يحار العقل فيها « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

ها أنت ذا أيها التكي قرأت الجمال المسجوع ، وأدركت للمقول . ووارنت بينهما : أفلا يكون ذلك حسنا ليصيرتك تلجأ إليه . وملجأ يحفظك ، وملادا وسعادة : أولا تتذكر معي ما قلته في أول هذا المقال من أن الرجل بين امرأتين إحداهما ترضعه . والأخرى يسكن إليها . ولا جرم أن الأم والزوجة كلاهما مخلوقتان مسخرتان لحياة تنقضي سريعا ، فالرحمة في الأولى ، والشهوة في الثانية وضعتا فهما لغاية نائمة وهي المحافظة على حياة المولود وعلى نظام الأسرة . ورباط الزوجية . وحسن المعاشرة . فيها إذن محدودتان ، والغدود لا يصلح للدوام وإنما يصلح للدوام ما كان من العناية الدائمة رأسا ، وهل ذلك غير العلم بالمعجب . إذن ظهر لنا السر في آية « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » غير بأننا نسكن إليها ، وقال في سورة أخرى « ألا يدرك الله مطمئن القلوب » فالإنسان قد يسكن في منزله وهو غير آمن ولا مطمئن ونهاية السعادة السلامة من الخوف ، ولذلك سمع الله تعالى يقول « يحيتهم يوم بلقونه سلام » وجاء في القرآن أيضا « الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن » إذن التعبير بالسكون إلى الزوجة غير التعبير بالاطمئنان بذكر الله . فالإنسان يكدر ويجد في حقله أو عمارته أو صناعته أو سياسته ويحتمل ما يحتمل من التعب والتعب والألم . فلا بد له من وقت فيه يتخلى عن هذه الأعمال والمهموم لتستجم قواه . وهل هذا إلا الاتئناس بالزوجة والراحة معها . والسكن هذه الراحة غير نائمة « إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم » .

وأبضا الإنسان وإن سكن إلى زوجته من هموم الأعمال النهارية . فليس ذلك السكون تاما من كل وجه فهل في قدرها أن تحل له مشكلات هذا الوجود والمسائل الشككية : كأن تحمته نفسه بأن الحياة شاقة ، وأن الدنيا كلها هموم وأحزان . فلم خلق هذا العالم ؟ ولم كثر الظلم فيه ؟ ولم كثر المرض والحرب ؟ ولم تر الحيوانات يأكل بعضها بعضا ؟ ولم يبدنا الله وهو قادر على كل شيء . بل أعمالنا كلها هو الذي قدرها ؟ فهذه الشكوك والأوهام لا طاقة للمرأة بحلها . فهذا هو بعض السر في التعبير بالسكون إلى الزوجة دون الاطمئنان وفي التعبير بالاطمئنان بذكر الله وعدم الاقتصار على السكون « وبعبارة أخرى » إن قراءة العلوم والعجائب مثل التي في هذا التفسير تورث الاطمئنان وسكون النفس لا مجرد سكونها إلى الزوجة بل تسكن إلى الحقائق ونطمئن

لما سمع صاحبي هذا . قال الحمد لله رب العالمين ، أما الآن عرفت سر ذكر البيات والحيوان بعد ذكر الجنة ، وعرفت الجنة الحسية الجميلة ، والجنة العرفانية البديعة ، وأن هذه مقدمة للقاء الله ، وأن هذه الطائفة أعلى العالمين ، وهم المقربون ، فقلت الحمد لله رب العالمين ، انتهى صباح يوم الاثنين أول سبتمبر سنة ١٩٣٠ م .

الأمم الإسلامية وأسماء هذه السور من غافر إلى الحجرات

وحوادث الأيام

بسم الله الرحمن الرحيم

أكتب هذا قبيل الفجر ليلة عيد الأضحى في عام ١٣٤٩ هجرية . وأحمد الله عز وجل أن أراني بفضلِهِ بعض الأسباب وبعض النتائج لما أصاب أمم الإسلام من المحن والرزايا ، وما أحاط بهم من الضر ، وما حل بساحتهم من تعذيب أمم الفرنجة لهم وظلمهم وعسفهم ، ومسكهم بأجسامهم وأعراضهم ، واعتصامهم ديارهم وأموالهم وأرضائهم بطنوهم .

أكتب هذا وقد أصلى الظليان إخواننا الطرابلسيين منذ أيام نارا حامية ، وفكوا بهم فتكا ذريعا وهم آتون في ديارهم ، وهتكوا أعراض (٧٠) أسرة وشتموا شملهم وأخذوا (١٥) من قوادهم في طياراتهم فألقوهم من أعلى الجو ليقبلوا بذلك ويفرحوا بما يرون من تهشيم وتكسير وموت عاجل ، وأجلوا ثمانين ألفا من الجبل الأخضر وأزلوهم في أرض قفراء لا أنيس بها ولا جليس ، وأخذوا منهم أناسا وضعوهم في سلاسل من حديد ورمواهم في البحر فالنظهم جنود الصربيين ودفنوهم ، وأذلوا آخرين فهاموا على وجوههم في الصحراء ، كل ذلك ذكر في الجرائد أمس وتلى في جلسة علنية كنت حاضرها وأرسل به احتجاج لجميع الناس قاطبة .

دعاني ذلك أن أفكر الليلة في أمر الأمة المحمدية الحاضرة ، وما ساقته الأقدار إليها ، وكيف نشطت المسيحية كرهة أخرى لقتيل المسلمين وذبحهم وإهلاكهم وإشهارهم حر واصلية أخرى ، ولقد شرح الله صدرى الليلة وهديني ووقفني أن أكتب ما جاش بمخاطري ليكون مما ينظر فيه حكام الإسلام بفكر نائب عسى أن يهتدوا لإسعاد هذه الأمم الإسلامية في أيام حياتي وبعد موتي ، وبالله التوفيق .

كان العرب قبل الإسلام أمما متفرقة جاهلة خاطئة فأسلمت :

(١) (قفرت) لها ذنوبها السابقة واستأنفوا حياة جديدة .

(٢) (فصلت) لهم آيات القرآن تفصيلا وعرفوا الحق في فصار أمرهم .

(٣) (شورى) بينهم ، ثم انقلبت الشورى إلى استبداد والخلافة إلى ملك عضوض ومالوا إلى .

(٤) (زخرف) الحياة الدنيا . فهام أولاء أندزهم الله البطشة الكبرى وأخذ يذمهم منهم وأرسل لهم

(٥) (الدخان) في الجو لما جاءت الحرب الكبرى ، فإن أوروبا كلها اصطدمت فيها بالقتال ، وازدادت

العداوة والبغضاء ، ولكن كانت النتيجة تقسيم بلاد الإسلام فأصبحت أمة :

(٦) (جاثية) لأمم الغرب . ولما كان من عادة الله عز وجل أن يعمل بعد الضعة رقعة ، وبعد الذل

عزا ، وبعد العناء راحة ، وبعد العسر يسرا ، أخذت أمم الشرق جميعها تستمد للوثبة ، وتجد لإصلاح

الوحدة ، فهام أولاء الأمراء الإسلاميون في العراق وشرق الأردن ونجد والحجاز واليمن قد اصمحت

بينهم العداوات القديمة وأحدوا يسترجعون لهم مجداً جديداً، ووسون هيكلاً لوحدة الإسلامية المبرية،
ومثلهم أهل الهند والأفغان ومن نحوهم، فلا بد من جهاد هذه الأمم كلها لاسترجاع مجدها ووحدةها
فقد ظهر فيهم منذرون وهداة، ذاكرون «أخا عاد إذ أنذر قومه».

(٧) (بالأحقاف) «وقد خات النذر من بين يديه ومن خلفه» ولا بد من النصر والقبلة في هذا.

(٨) (القتال) الأدبي والحربي. ثم:

(٩) (الفتح) والنصر، ثم يكون أمم الإسلام، بل أمم الشرق بعد ذلك أما متضامة إجابة لقول ربه

في سورة الحجرات «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا».

الخلافة الإسلامية

وسينظر أمراء الإسلام في هذه الحملات الصليبية التي تشنها أوروبا علينا، ويفكرون في أمر الخلافة
الإسلامية فيجدونها في الصور السالفة كانت على غير أساس، فلذلك خر على السليمن سقنهما من فوقهم
وأناهم العذاب من حيث لا يشعرون. فبالت شعري أي خلافة كانت هذه الخلافة، خلافة لفظية لا معنوية
فأي خلافة صادقة بعد الخلفاء الراشدين؟ إن هي بعدهم إلا ملك عضوض، أخلافة الأمويين، أم خلافة
العباسيين بدمشق وبغداد، أم خلافة الفاطميين بمصر، أم خلافة الأمويين بالأندلس؟ وكيف تعدد
الخلافة، كيف يقوم مهدي وراء مهدي، وكيف يرث الابن أباه فيها: إن يرث الخلافة يرث خاطيها
فكرة جاهلية، لقد فرق للسليمن أحاديث موضوعة تفرقوا بها شيعا وذاق بعض بأس بعض، واقفوا تلك
الموضوعات بالتقليد، ونسى كثير منهم كتاب الله ورله ظهورهم كأنهم لا يعلمون.

لجنة الخلافة في الهند

ومن أمارات اقتراب أيام السعادة أن مسلمي الهند شكلوا جماعة خاصة بالخلافة لارجاع مجدها، إن
السليمن لا بد لهم من الخلافة ليرجعوا لعصر النبوة، لتسكن على نهج أصحابه صلى الله عليه وسلم لتترك غمرة
الجاهلية، وهل يكون الخليفة إلا بالانتخاب، ليجمع أمراء الإسلام في زماننا أو بعده، ولينتخبوا من بينهم
أميراً هو الخليفة، ولا يجوز أن تمتد خلافته مدة حياته ثم بعد موته ينتخبون سواه، بل أقول أكثر من
ذلك لتسكن خلافته إلى مدة معينة، وبعد تمامها يعاد الانتخاب، ولا مانع من إعادة انتخابه مرة أو أكثر،
فأما أن تبقى الخلافة في أمة واحدة من أمم الإسلام، أو أسرة واحدة، فهذا هو أسّ الشقاق والزراع
والخلاف والعداوة والحقد. ويجب على كل من اطلع على هذا من أهل العلم في بلاد الإسلام أن ينشره بين
أمراء المسلمين ويبعثه إلى لجنة الخلافة في الهند متى كان قادراً على ذلك. وههنا يظهر معنى قوله تعالى «إن
أكرمكم عند الله أتقاكم» ويظهر معنى «كنتم خير أمة أخرجت للناس» ويظهر معنى «إن الله استلمنا
عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم» ويظهر معنى «وأمرهم
شورى بينهم» ويظهر معنى «وشاورهم في الأمر». ويظهر معنى هذه الحكمة الإسلامية القديمة حكاية
عن الله «اليوم أصع نسبكم وأرفع نسبي» وتظهر نتائج «واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف
بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً» وتنتج «ولا تنازعوا في فئسوا وتذهب ريعكم» وتظهر آثار قوله تعالى
«ولا تمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن وأسألوا

الله من فضله « وآثار » يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين « وإذا كان السلم محرما عليه أن يشهد زورا لأجل منفعة أبيه أو أخيه ، فأولى ثم أولى أنه يحرم عليه أن يرشح لأجل الخلافة رجلا مسلما وهناك غيره أحق منه بالخلافة ، هذا هو الحق الصراح .

أيها الأمم الإسلامية : عار عليكم أن تشهدوا تلك المصارع والمهازبي والمصائب والقضائح والجهالات التراكمة بين العرب والمعجم في مدة ١٣ قرنا ، ثم لا تتوبون ولا أنتم تنذكرون .

لم تعدوا أيها المسلمون أن الفرنجة أيام الحروب الصليبية أعمدوا وأنتم متفرقون ، لماذا ذلك . لأنهم لهم (بابا) يجمعهم على الباطل ، فأما أنتم فقد كنتم متفرقين ، فبعد المؤمن بالبلاد الغربية كان يرى أنه خليفة (المهدي محمد بن تومرت) وهذا المهدي يجب اتباعه على جميع المسلمين ، فلما لم يعترف صلاح الدين الأيوبي في خطابه لعبد المؤمن بأنه أمير المؤمنين رفض مساعدته وحارب صلاح الدين بمصر هو ومن معه من المسلمين الفرنجة ، وأيضا أليس من العار الذي يغزى ويغجل أن ترى القاطمين ببلاد الغرب وبمصرم كانوا أول من مزق الأمم الإسلامية شرا ممزق ، وكان ذلك فتح باب لدخول الفرنجة في بلاد الإسلام وهم لا يشعرون .

هذه المشاهد يجب أن يعرفها أمراء الإسلام . إن الله عز وجل جعل هذه دروسا لكم لتتدوا بها ، ودعوا النبرات القديمة التي مزقت الجموع ، وشقت الشمل ، وأبانت الصدع ، وأعظمت الخطب ، وأذلت أمم الإسلام « أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصنامهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون » .

يجب على جميع المسلمين أن يتبروا بتاريخ الأمم الإسلامية ، دعوا أيها المسلمون تلك التراخي والجهالة والبلاهة ، بأى كتاب ، أم بآية سنة أيها المسلمون تكون الخلافة متجرا ؟ بأى حق تكون الخلافة التي تخلف النبوة متاعا دنيويا ، الخليفة لا يجوز أن يقوم بها إلا من أحيا أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وعثمان وعلي ، إن لم يكن على منهاج هؤلاء فلتنفدوه ، أنتكون الخلافة في حجاب كحجاب المناري كما حصل لبعض العثمانيين والعباسيين ، لا لا ، أيها المسلمون : كفى كفى ، الخلافة زهد في الدنيا وحفظها وغرام بالأمم الإسلامية ، وحب لله ، وجمع للكلمة « ألم بأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون . اعلوا أن الله يحيى الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون » .

أليس مما عجّل له جبين الدهر ، وغزى به الإنسانية كلها ، وتكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخرّ له الجبال هدا أن يتبوا البابا في مكاتة روما ، ويزداد هيئته ، ويعظم نفوذه ، ويقوى جاهه ويشد خطره ، وتقوم إيطاليا فتسى الدراري والنساء ، وتهتك الأعراض ، وتذل السنوسيين . كل ذلك يطله البابا ويحت سمه وبصره ، والمسلمون على بكرة أبيهم لاخليفة لهم ولا زعيم . بل هم أشنت في الأرض فو الله لم أجد أمة كهذه الأمة . كل ذلك لشرفنا وجشعنا وحبنا للمال حبا جما .

يقول كل جماعة من المسلمين : ليكن الخليفة فينا ، ولماذا هذا ؟ ليكون المال والسطوة لهم ويضمنون لهم سوامم كاقبل الأمويون والعباسيون والعثمانيون . الأدهى والأمر أن الأقباط في ديارنا لهم (بطريرك) والمسلمون خلوا من رئيس لهم يضارعه على الأقل : وما ذلك إلا لأن القوم يعملون رئيسهم سواء أكان بابا أو بطريرك متخبا من بينهم . أما المسلمون فإنهم أبوا الشورى ، فلما أبوها أصبحت الخلافة تبع السيف فتوأمية غلبوا فكانت فيهم . وبنو العباس غلبوا فكانت فيهم ، والعثمانيون غلبوا فكانت فيهم .

فهم . لا لا . كلا . أيها المسلمون : الخليفة يذهب ، والأمراء والمسلمون يكوّنون حوله ، والواصلات اليوم متوفرة ، إن لم يجتمع المسلمون على خليفة ازداد ذلهم وخر عليهم السقف من فوقهم وأناهم العذاب من حيث لا يشعرون .

أيها المسلمون : يكوّن ثلاثمائة مليون أو أربعمائة أقل من أمة القبط بين ظهرائنا التي لا تبلغ مليوناً واحداً ورئيسها الذي له السيادة على بلاد الحبشة ، أيحسّن هذا بكم أيها المسلمون ؟
أيها المسلمون : أيلبى بكم أن تكونوا أدل أمة في الأرض بتفرق كلنكم وفيكم الججاجيح الشجعان ، والصهاصيم والأقران ، والعلماء الأعلام ، والمسكوك ، والبغاة ، والخطباء الفصحاء .
هاتوا لي أيها المسلمون أمة من الأمم محرومة من رئيس ديني ، لقد أدبنا الله فأحسن تأديبنا وفعل فينا كما قال طرفة بن العبد :

أَمَرَكَ إِنْ لَمُوتَ مَا أَخْطَأَ الْفَتَى لَسَكَ الطَّوْلِ الْمُرْخَى وَثِنْيَاهُ بِالْيَدِ
مَتَى مَا يَشَأُ يَوْمًا يَقْدُهُ كَلِيفُهُ وَتَنْ يَكُ فِي أَسْرِ الْمِيَةِ يَنْقَدِ

يقول : إن الإنسان أشبه بدابة ربطها الموت في جبل وتركها ترعى كما نشاء حتى إذا أراد انتراع روحها قادها حالاً لذلك ، فهكذا هنا العناية الإلهية شاءت أن يكون لأمة الإسلام ١٣ قرناً يتخطون فيها في أمر الخلافة ، وتبقى تبع السيف ، وليس للعقل ولا الرأي ولا للشورى نصيب ، وقال في القرآن ما يفيد أنه عز وجل مامنه أن يرسل بخوارق العادات إلا أن الأولين كذبوا بها ، لم يقول الله ذلك ؟ يقول الله أنا وأنا أعلام القيوب . عاملت الأمم معاملة المختبرين الذين يقيسون الأمور بنظائرهما ، وأنا لا تخفى على خافية ، فلما طفت الأمم الماضية ولم تؤمن لما رأت خوارق العادات أرسلت محمداً ﷺ وجمعت أهم معجزاته القرآن ، فإذا كان الله سبحانه وتعالى يخاطبنا بكلامه على قدر عقولنا ، وهو العليم بكل شيء ، ويقول لنا : أنا لما وجدت أن الأمم السابقة لم تبال بخوارق العادات جعلت النبوة اليوم راجعة للتفكير لا لخوارق العادات ؛ أفليس هذا معناه أننا ننظر في الأمور ونزنها ، فإذا وجدنا أسلافنا اتخذ أغلبهم الخلافة بالسيف فكان ذلك باعثاً على الشقاق والافتراق ، أفليس يجدر بنا أن نقول الآن : إنك ياربنا أدبتنا وفعلت معنا ما يفعله الموت مع الناس فنحن طفينا في أمر الخلافة فأنت عاقبتنا ، وسلبت منا الملك ، وحكمت بتفريقنا جزاء تركنا الشورى ، وأرقتنا أن أصفر أم الأرض لها رئيس ديني ، ونحن (وإن كنا خير أمة أخرجت للناس) لم نهم بالحق في الخلافة ولم نعطيها إلا للقاهرين ، فهنا نحن بالله رجعنا عن جهلنا السابق . وامثلنا أمرك ، فليكن الخليفة هو من يصطفيه الرؤساء والأمراء في الإسلام ، هذا هو الذي يجب الآن .

اللهم إني أكتب للمسلمين ما شرحت له صدري ، اللهم إني قد حذرت وأعلنت ، وعلى كل من قرأ هذا من ذوى الرأي في أمم الإسلام أن ينشره ويفكر فيه المسلمون ، وما ذكرني به إلا مناسبات هذه السور لأنى عجبت كيف تكون سورة الزخرف بعد سورة الشورى وتكون بعدها الدخان . وما المناسبة بين هذه السور من حيث ترتيبها . وإني أحمدك اللهم على التوفيق والتعلم وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وهو رب العرش العظيم . وإلى هنا تم الكلام على سورة الزخرف ، والحمد لله رب العالمين .

تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الثمرون من كتاب «الجواهر» في تفسير القرآن الكريم
وبالله : الجزء الحادى والشمرون ، وأوله : تفسير سورة الدخان

فهرس
الجزء العشرين
من كتاب « الجواهر »
في تفسير القرآن الكريم

صحيفة

- ٢ تفسير سورة الشورى. السورة كلها مكتوبة بالحرف الكبير مشكلة .
- ٥ بيان أن هذه السورة قبان : الأول من أدل السورة إلى قوله « لهم عذاب شديد » وفي هذا القسم سنة مباحث .
- ٦ القسم الثاني فهو من قوله تعالى « ولو بسط الله الرزق » إلى آخر السورة . وفيه أن تسخير العباد في جلب الرزق لم يكن عبثا بل لتدريبهم على العمل .
- ٧ التفسير اللفظي لهذه السورة، وبيان أن « حم عسق » ترجع إلى كل من الحمد والحكمة والتسبيح الخ. ويتبع ذلك تفسير الآيات من قوله « كذلك يوحي إليك » إلى آخر السورة .
- ١٣ بيان في هذه السورة سبع لطائف :
- اللطيفة الأولى في قوله تعالى « تسكاد السموات يتفطرن من فوقهن » والسادسة في قوله تعالى « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب » الخ .
- ١٦ اللطيفة الثانية والرابعة في الكلام على التماسل واختلاف الذكور والإناث في الحيوان ولطف الله في تمدننه .
- فصل في حكمة خلق الحشرات .
- ١٨ اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : « الله الذي أنزل الكتاب بالحق والوزان » .
- ١٩ الاستدلال على اليوم الآخر وعلى وجود الله بأدلة عقلية قريبة غريبة .
- ٢١ اللطيفة الخامسة في قوله تعالى « وأمرهم شورى بينهم » ..
- ٢٣ اللطيفة السابعة في قوله تعالى « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » والكلام على أهل الهند الذين يرون أن الإنسان بعد الموت يكون في حال تشبه حال في الدنيا .
- ٢٩ اللطائف العامة للسورة كلها .
- اللطيفة الأولى : بهجة العلم في الحكم المودعة به في « بسم الله الرحمن الرحيم : حم عسق » وبدائع أسرار التنزيل . وفي هذه اللطيفة ستة فصول :
- ٣٠ الفصل الأول والثاني في صفة الموسيقى عند القدماء، وصفها عند علماء العصر الحاضر .

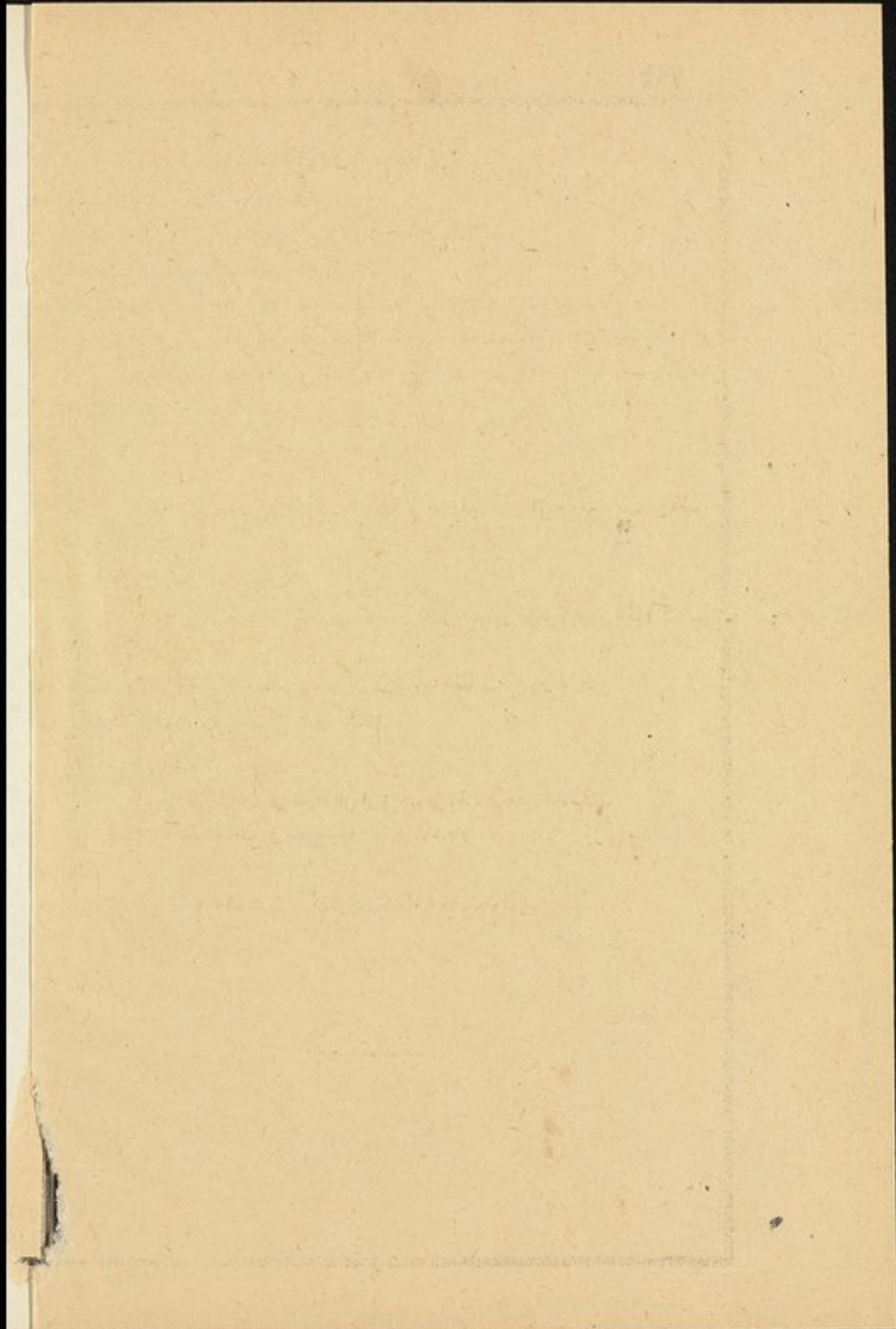
- ٣١ الفصل الثالث في النظام العام في العالم .
- ٣٢ الفصل الرابع والخامس والسادس : في الكلام على نتائج هذا كله .
- ٣٤ منافع الموسيقى العلية وضرر الموسيقى العمالية .
- ٣٨ الجوهرة الأولى في آية « الله الذي نزل الكتاب بالحق واليزان وما يدريك لعل الساعة قريب » :
- ٥٢ الجوهرة الثانية في ذكر ما خطر بقلب المؤلف ليلة ٥ رمضان سنة ١٣٤٩ هجرية .
- ٥٨ اللطيفة الثانية في قوله تعالى « وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد » وذكر الأشجار التي يرجع تاريخها إلى ما قبل ١٥ مليون سنة .
- ٥٩ اللطيفة الثالثة في قوله تعالى ، « ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام » الخ الآيات ، وبيان أن هذه العاني لا يقلها إلا رجل درس .
- ٦٠ تأثير الحرارة في الضغط الجوي (شكل ١) .
- ٦١ (شكل ٢ نظرية هبوب الرياح) .
- نسيم البر ونسيم البحر .
- الرياح الموسمية .
- ٦٢ التيارات البحرية . وتأثير دورة الأرض على محورها (شكل ٣) وانعطاف مركبة الترام في طريق منحني .
- ٦٣ (شكل ٤) دورة الأرض على محورها
- مناطق الضغط العظيم خلف الدارين .
- (شكل ٥ دوران الماء في الوعاء) .
- ٦٤ (شكل ٦) الرياح التجارية والرياح العكسة ومناطق هبوبها واتجاهها :
- تلخيص ما تقدم وخطاب الله للرياح التجارية .
- ٦٥ (شكل ٧) دورة التيارات البحرية في الدنيا .
- ٦٧ جوهرة في قوله تعالى « إن يشأ يسكن الريح فيظلمن رواكد على ظهره » الآية .
- ٦٨ الكلام على الماء والسما .
- الكلام على السماء .
- ٧٠ عالم الماء .
- ٧٤ إيضاح بعض أسرار قوله تعالى : « ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام إلى قوله » إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » الآية مع آية : « فما أوليتهم من نبي . فنعاه الحياة الدنيا » الآية وفي هذا المقام بيان عجائب البحر .
- ٧٥ الإنسان ومغذبة البحار والمحيطات .
- ٧٨ مراكب النجارة
- ٨٢ اللطيفة الرابعة مباح العلم ومناهج الحكمة في ملخص سورة الشورى .
- ٨٣ الكلام على السموات وعجائبها .

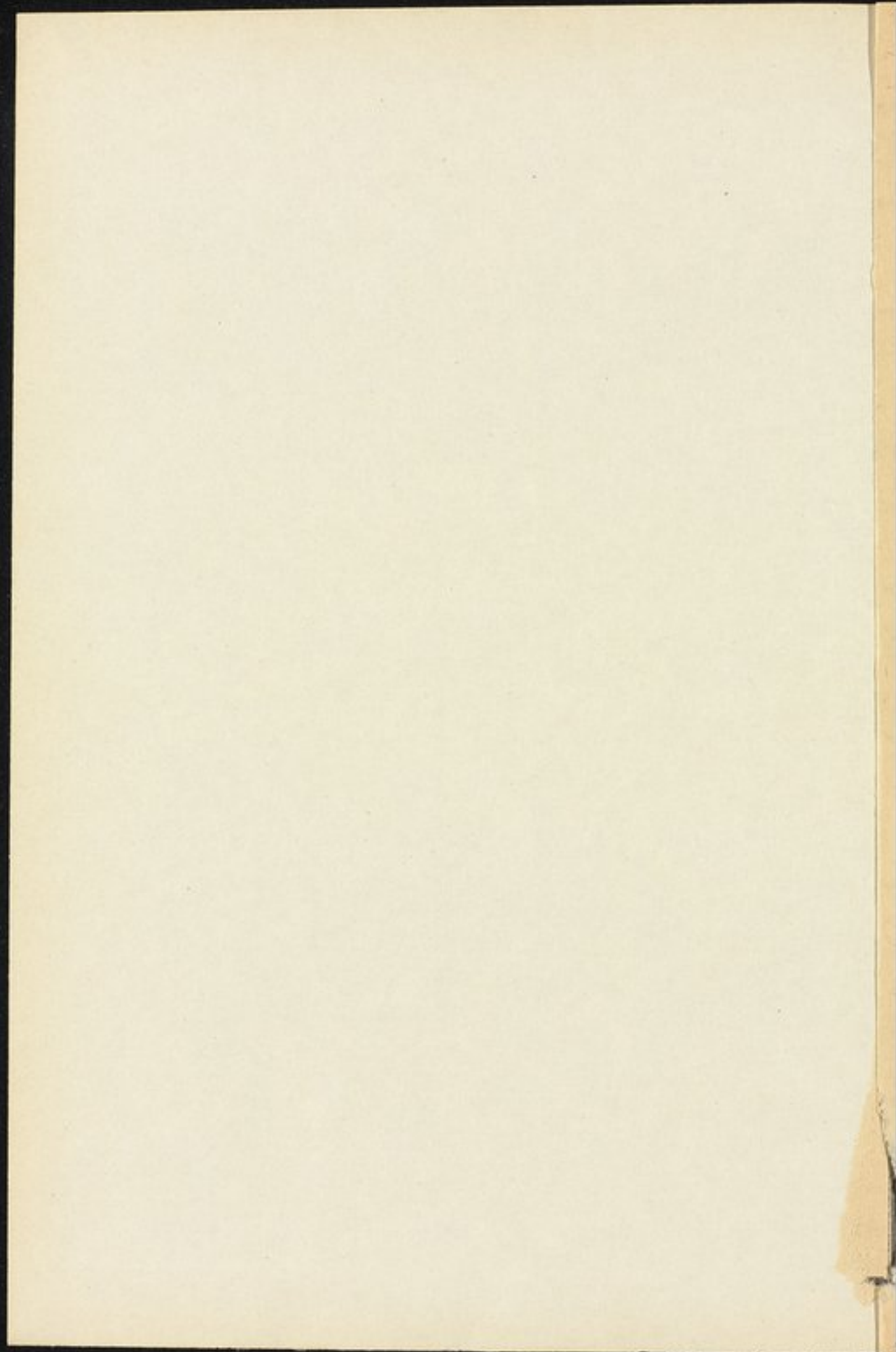
- ٨٧ خطاب المؤلف للمسلمين. ويبان أن نظام القرآن فيه فصلان :
الفصل الأول في أن القرآن عربي ، وقد تقدم في سورة فصلت .
- ٨٨ الفصل الثاني في ذكر أم القرى ومن حولها .
- ٩٠ ذكر تعداد المسلمين في بلاد الاسلام .
- ٩٢ كيف يتحد المسلمون ، ويبان أنهم كالجسد الواحد فيجب أن يكونوا جماعة تكون أشبه بالرأس
ولتكن لهم فروع يمتدون إلى بقاع الأرض .
- ٩٤ فصل في أن الكعبة للشفرة أيام الحج دار ندوة .
- ١٠٤ اللطيفة الخامسة في قوله تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب » الآية .
- ١٠٩ حرم أرباب القلوب (كالشيخ عبد العزيز الدباغ) وتفسير الجواهر كلاهما من مصداق قوله تعالى
« وما كان لبشر » الآية مع قوله أيضا « سرهم آياتنا » الآية .
- ١١٣ جمال العلم وبهجة الحكمة وهما هنا سؤالان .
- ١١٧ فذلك في قوله تعالى « وأمرهم شورى بينهم » وأثار القرآن لاسمها سورة الشورى في أمم الأرض .
- ١٢١ خطاب المؤلف لله عز وجل يشكو ضعف هذا الانسان .
- ١٢٢ خطابه لأمم الاسلام .
- ١٣٢ موازنة بين سيرة عمر وجمهورية أفلاطون وتطبيق نظام الأمم العربية والشرقية والفرنجية عليها .
وتقسيم الحكومة إلى خمسة أقسام : أورستقراطية ، وديموقراطية ، واليعاركية ، وديموقراطية
واستبدادية .
- ١٢٨ بيان العدل العام في السموات والأرض وأن العدل والعدل رجعان لشيء واحد . ومقياس جسم الانسان
والوسيقى يتبنان ذلك الخ .
- ١٣٠ بيان ما كان عليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من العدل في الرعية والإنصاف مع شدة خوفه من الله
عز وجل .
- ١٣٨ قصة من عدل عمر وإنصافه من نفسه .
- جمال الحكمة العلم في آية الشورى وآية « قل لا أسألكم عليه أجرا إلا اللودة في القرين » الآية .
- ١٤٢ فراسة عمر رضي الله عنه في ابن عباس رضي الله عنهما .
- ١٤٤ الكلام على الحياة النبوية في أفغانستان .
- ١٤٧ تفسير سورة الزخرف . والسورة مكتوبة مشككة كلها .
- ١٥٠ تفسير البسلة :
- ١٥٢ الكلام على المآكل والشارب من جهة تحليلها وانحلال الماء إلى شيء كالهواء بعد تسليط الكهرباء
عليه وهو في زجاجة إلى غير ذلك .
- ١٥٥ الكلام على الرحمة .

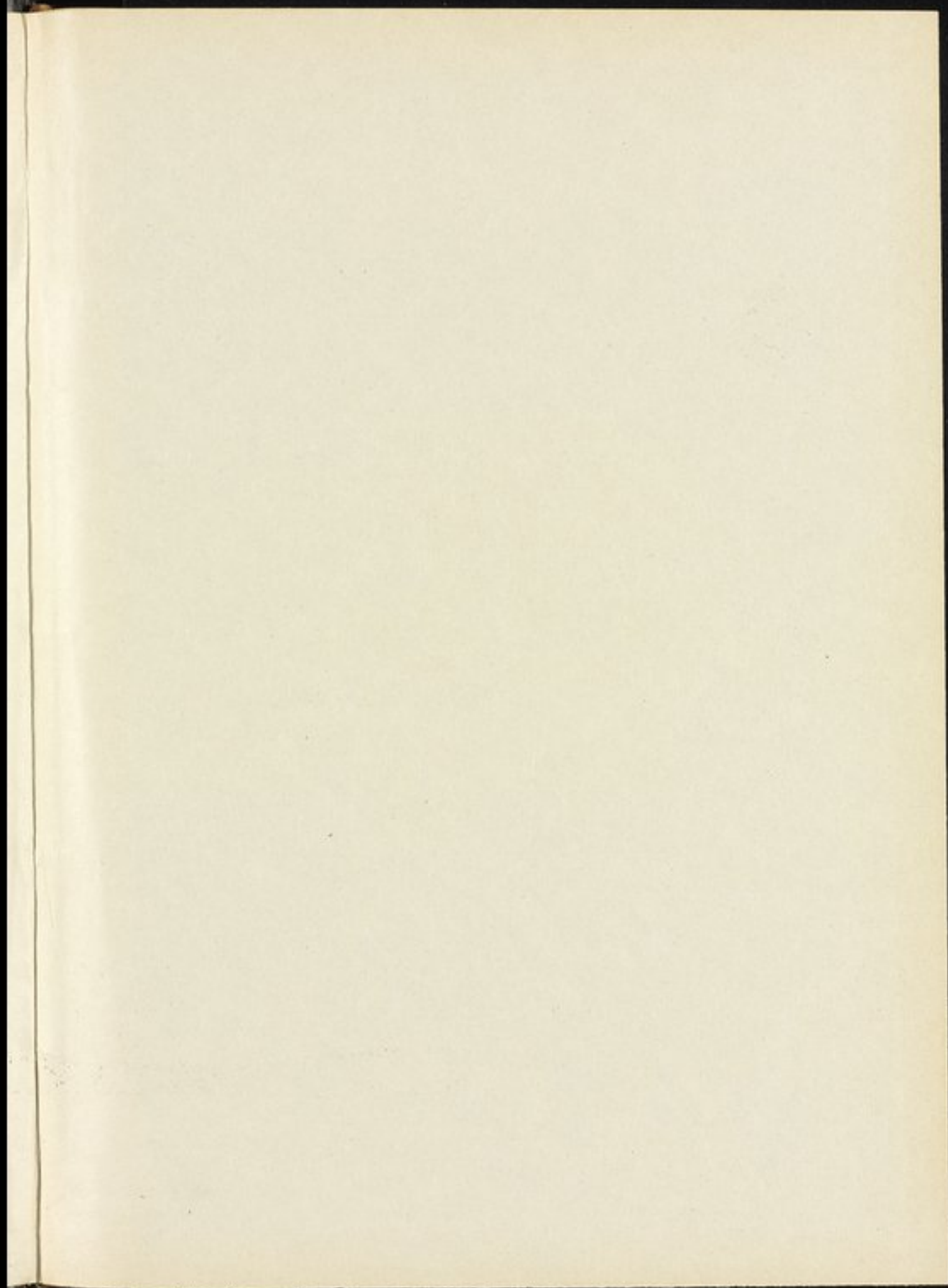
- ١٥٩ ملخص هذا القام .
- ١٦١ امتحان آراء علماء الاسلام وآراء علماء اليونان .
- ١٦٣ مقاصد السررة .
- ١٦٤ التفسير اللفظي من أول السورة إلى قوله «ويعسبون أنهم مهتدون» .
- ١٦٥ ذكر سبب كفرهم ، وشدة جهاهم وجود عقولهم .
- ١٦٨ الكلام على المقاصد من العاشر إلى الثالث عشر من قوله «إذا جاءنا» إلى قوله «ومثلا للآخرين»
- ١٧٠ ذكر المقاصد من ١٤ إلى ١٨ وهي الأخيرة من قوله تعالى «ولما ضرب ابن مريم مثلا» إلى آخر السورة .
- ١٧٢ حيوان ذرى يدبر دولا با .
- ١٧٣ بيان أن في هذه السورة سبع لطائف :
- اللطيفة الأولى والثانية ، مانشير إليه (حم) من الحمد يرجع في نهايته إلى العلوم الطبيعية والفلكية وكل ما هو دليل على جمال الصنع الإلهي .
- ١٧٦ اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : «إنا وجدنا آباءنا على أمة» وبيان أن هذا النوع الانساني ابتلى بالتقليد والاتباع بلا عقل ، وهذه الآية نازم كل من له ذكاء في الاسلام أن يفكر في الدين وارتقاء الأمم الإسلامية .
- ١٧٧ اللطيفة الرابعة في قوله تعالى «قالوا هذا سحر» إلى قوله «فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب» الخ . اللطيفة الخامسة في قوله تعالى «حتى إذا جاءنا» إلى قوله «إلا للتئين» وبيان مامعنى الحب في الله .
- ١٧٨ اللطيفة السادسة في قوله تعالى «وإنه لعلم للساعة» وبيان أن هذه الآية لا تدل على نزول المسيح إلا على وجه من ثلاثة وجوه فدلتها غير قطعية ، وبيان الأحاديث الروية في المهدي المطعون فيها والمسيح وآراء الصوفية في ذلك وفي غيره .
- ١٨٠ فكرة عامة في مسألة عيسى عليه السلام والمهدي .
- ١٨١ رأى المؤلف .
- فائدة هذا الموضوع كله .
- ١٨٢ اللطيفة السابعة في قوله تعالى : «فاختلف الأحزاب من بينهم» وبيان أن النصراني منهم ملكانية يعتقدون بالتثليث ، ونسطورية يقولون باسراق الكلمة على جسد عيسى الخ . ويعقوية يقولون : انقلبت الكلمة لحما ودما الخ .
- ١٨٤ اللطائف العامة للسورة كلها ، اللطيفة الأولى في قوله تعالى : «إنا جعلناه قرآنا عربيا» مع آية «وإنه لذكر لك ولقومك» وهاهنا مقامان : الأول في غريب القرآن .
- ١٨٥ فصل معرفة هذا الفن للفسر ضرورة كما سيأتي في شروط الفسر .
- ١٨٨ القام الأول : في الكلام على نفس الأمة العربية التي اختارها الله بما فيها من الزايات وصفات الشهامة لنشر دينه ، وكيف اضمحلت بعد ذلك ، وأصبحت متفرقة .

- ١٨٩ محاوره بين المؤلف وبين المرحوم لطيف باشا سليم .
- ١٩١ مصداق هذا الحديث ، وفيه سبعة فصول .
- ١٩٢ الفصل الأول فيما ذكرت به أمة الاسلام عمرها والعرب خصوصا في علم الطب ، البحث عن تاريخ العلوم أو تأثير المدنية العربية الإسلامية في نهضة العرب .
- ١٩٥ أثر الطب العربي ، وأنه إنما ظهر واتسع من عهد الدولة العباسية لاسيما في عهد المأمون الخ .
- ١٩٧ الفصل الثاني في أسرار قوله تعالى : « وسوف نسألون » وأن هذه الأمة قد عوقبت بما أهملت .
- المقالة الأولى من الفصل الثاني .
- ١٩٩ المقالة الثانية في أن الأذفونش المذكور أخذ قرطبة وأشبيلية له .
- ٢٠١ المقالة الثالثة في بيان أن الجامعة الإسلامية ليست بالمعنى الذى يظنه الأورويون ولم يكن هناك النشام حقيقى إلا أيام العلماء ثم جاء الانشقاق .
- ٢٠٢ الفصل الثالث في أن القرآن ذكر للمسلمين عموما وللعرب خصوصا في النهضة الحالية .
- ٢٠٣ الانتداب في البلدان العربية بقلم السكبتن غوردن كاتنج .
- المقال الأول .
- ٢٠٥ المقال الثاني
- ٢٠٧ الفصل الرابع في تأكيد الفصل الثالث وذلك بمقالين : المقال الأول التنافس الدولى ونصيب العرب منه .
- ٢٠٩ المقال الثاني في المجمع النسائى العربى .
- الفصل الخامس في الكلام على الوطن اليهودى بفلسطين ودفاع محمد على باشا المصرى أمام اللجنة الدولية وبيان أن الأمة الفلسطينية لم تعترف بالوطن اليهودى .
- ٢١٣ الفصل السادس في ذكر أمر عظيم إسلامى في أيامنا هذه .
- ٢١٨ الفصل السابع في اتحاد المسلمين اليوم على فرنسا .
- ٢٢٢ لطيفة في الكلام على آية «والذى نزل من السماء ماء بقدر» وبيان أن العلوم كالتحازن وأن التفسير وظيفته أن يأخذ من تلك التحازن ما يغذى الناس على مقتضى الآيات ، وأن تكرار الآيات في سور مختلفات في موضوع واحد يقصد به أن تنوع العلوم بتنوع تلك الآيات .
- ٢٢٣ الكلام على الجذور التى لم تنشأ من الجذر الأسمى بل من الساق وهى الجذور العرضية (شكل ١٠) للشليك وكالذرة والقمح لأنها عارضة ، ولذلك يستعمل ترقيد النبات لأجل أن يكثر المحصول (شكل ١١) وقد تكون الجذور هوائية (شكل ١٢) فى البيكوس البنغالى .
- ٢٢٤ بيان أن اتجاه الجذر دائما يكون إلى أسفل تجر به (شكل ١٣) جذر فى وضع أفقى ، (وشكل ١٤) بادرة معكوسة ، وتجربة الأصبىس للنكس (شكل ١٥) وهائنا بيان (شكل ١٦) للانتشار انقشائى .
- ٢٢٥ شكل ١٧ و ١٨ و ١٩ و ٢٠ و ٢١ لإنبات ارتفاع العصارة فى النبات إلى أعلى .
- ٢٢٩ بهجة العلم فى اللطيفة الثانية فى آية «والذى نزل من السماء ماء بقدر» وأنه أربعة فصول .

- ٢٣٠ الفصل الأول في أن أنواع النبات تكون في جميع الأماكن .
- ٢٣١ الفصل الثاني في تقسيم النبات على القصول .
- الفصل الثالث في تقسيم النبات على حواس الحيوان ومنه الإنسان
- الفصل الرابع في تقسيم النبات على منافع الإنسان .
- ٢٣٨ اللطيفة الثالثة في قوله تعالى «ومن يش عن ذكر الرحمن فيض له شيطاناً فهو له قرين» .
- ٢٤٦ الاطيفة الرابعة في آية «ادخلوا الجنة» الخ مع آيات أخرى . ويان الحكمة في اتباع وصف الجنة بأن فيها غرفا بالكلام على إزال الماء من السماء والنبات . وفي ذكر الإبل وخلقها والسماء ورفضها بعد السرر والأكواب والتمارق .
- ٢٤٩ ذكر الجنة والنار . وفيه فصلان :
- الفصل الأول في صفتهما .
- ذكر صفة الجنة ، وملخص من الأحاديث الواردة في صفة الجنة مثل البنات من الفضة والذهب والياقوت واللؤلؤ الخ .
- ٢٥٠ الفصل الثاني في ذكر أهل الجنة .
- ٢٥٢ رؤية الله تعالى ، ويان أن أهل الجنة يرونه كما يرون القمر ، وأهل الجنة لا يحبون شيئاً أكثر من أن يروا ربهم .
- ٢٥٣ الكلام على العلم المعقول بعد المسموع ، ويان أن السعادة الحقة في العلوم والمعارف .
- ٢٥٤ عجائب المخلوقات : الحيوانات التي تحفر الخنادق .
- لجنة الخلافة في الهند .
- ٢٥٤ (شكل ٢١) وهي صورة الخلد في حفرة التي ارتقى فيها على الجند في حفر خنادقها .
- ٢٥٥ (شكل ٢٢) نوع من الجنادب في حفرة يقطع جذور الأشجار .
- ٢٥٦ قوة الحشرات .
- ٢٥٨ الأمم الإسلامية وأسماء هذه السور من غافر إلى الحجرات وحوادث الأيام .
- ٢٥٩ الخلافة الإسلامية .









ProQuest University Library



32101 079196273